من تفسير وتأملات
الآباء الأولين

يشوع بن سيراخ

طبعة تجريبية
٢٠١٧

القمص تادرس يعقوب ملطي
الشماس بيشوي بشرى فايز

قداسة البابا المعظم

الأنبا تواضروس الثانى

(١١٨)

من تفسير وتأملات

الآباء الأولين

يشوع بن سيراخ

طبعة تجريبية

٢٠١٧

القمص تادرس يعقوب ملطي

الشماس بيشوي بشرى فايز

باسم الآب والابن والروح القدس

الله الواحد، آمين

اسم الكتاب: يشوع بن سيراخ.

المؤلف: القمص تادرس يعقوب ملطي والشماس بيشوي بشرى فايز.

الطبعة: الأولى ٢٠١٧.

الناشر: كنيسة الشهيد مار جرجس – سبورتنج.

كنيسة الملكة القديسة مريم والأمير تادرس بساوث برانزويك.

المطبعة: امريكان باك للطباعة

Cairo - Egypt +2001271222700

US Branch + 1 732 675 5557

رقم الايداع : ٩٤٥٧ / ٢٠١٧

ملاحظات هامة

بعض الاختصارات المتكررة

FOTC: *The Fathers of the Church*, The Catholic University of America Press Washington D.C.

OSB: *The Orthodox Study Bible*. By St. Athanasius Academy of Orthodox Theology: Thomas Nelson, 2008.

فردوس الآباء: فردوس الآباء (بستان الرهبان الموسّع) إعداد رهبان ببرية شيهيت، ٣ أجزاء، ٢٠٠٥-٢٠٠٦.

أنبا مكاريوس: تفسير سفر يشوع بن سيراخ، لأنبا مكاريوس، الأسقف العام

ملاحظات هامة

١. **العقل والقلب:** في الكتابات الدينية الحديثة كثيرًا ما نستخدم كلمة "العقل" لنعني به مصدر الأفكار عند الإنسان. وكلمة "القلب" لنعني به مصدر المشاعر والعواطف والحب والانفعالات الداخلية. أما في سفر يشوع بن سيراخ كما في كثير من الكتابات اليهودية واليونانية القديمة وبعض كتابات الآباء الأولين في الكنيسة، فتُنسَب أحيانًا الأفكار للقلب كما تُنسَب المشاعر والعواطف إلى الذهن أو العقل. لذلك كثيرا ما تُرجمت كلمة قلب في هذا السفر بالعقل.

بلا شك لا يُقصَد بالعقل المخ المادي الملموس، ولا بالقلب العضو الجسدي.

٢. اهتم السفر بإبراز أهمية الإيمان، وحفظ الوصية الإلهية، وطلب الحكمة الإلهية، ومعالجة الأمور السائدة في ذلك الزمان. لكن يجد الإنسان المسيحي في السفر الإعداد **للتعرُّف العميق على الفكر الإنجيلي** والتلاقي مع مُخَلِّص العالم.

٣. جاءت بعض الوصايا في السفر **تحمل المعنى الرمزي**، مثل الحذر من الأعداء؛ حيث يرى المؤمن العدو الحقيقي إبليس وملائكته وأعماله الشريرة. والحديث عن الصديق الفريد كدواء للحياة رمزًا للسيد المسيح الذي يُقَدِّم لنا نفسه مُخَلِّصًا وعريس نفوسنا وأخًا بكرًا وصديقًا مُرافِقًا لنا في طريق حياتنا.

هذا ولا نتجاهل أن الكتاب المقدس هو السلم الذي يرفع المؤمن متجهًا نحو السماء بالنعمة الإلهية، فيصعد درجة أو درجتين كما في وصايا العهد القديم، حتى إذ جاء كلمة الله المتجسد السماوي، وهبنا بإنجيله أن ينطلق بالمؤمن ليختبر عذوبة الوصايا الإلهية الكاملة، والتي ينتقدها

البعض من غير المؤمنين، بكونها وصايا تناسب الملائكة لا البشر. فلا نعجب أن سفر ابن سيراخ يُقَدِّم حركة الصعود تدريجيًا.

٤. عالج السفر بعض العادات التي كانت سائدة في ذلك العصر، وللأسف لا زالت تبرز في بعض المجتمعات وأحيانًا في المجتمعات الكنسية، مثل **المبالغة في الحفلات والولائم** التي تشغلنا عن الوليمة السماوية والمجد الأبدي. كما تدفع البعض إلى الاقتراض بدون حكمة ولا تمييز، كي يجاري الشخص هذا الموكب دون أن يتخلَّف عنه.

٥. اندفاع البعض في الاقتراض كاستغلال لسخاء المُقرض، دون أن يكون في حاجة إلى القرض. وأيضًا تهاون المُقرض فيُقَدِّم القرض دون دراسة صادقة للموقف، مما يُسَبِّب له فقدان ما قدمه قرضًا للغير.

٦. الاندفاع في قبول المؤمن أن يكون كفيلاً، فيضمن أناسًا مستهترين غير حكماء، ويلتزم هو بسداد القرض أو سداد جزء منه بالرغم من تصرفات المقترض غير الحكيمة.

٧. التسرُّع في اختيار الصديق أو المشير، وكشف الإنسان أسراره له؛ فإذا بالصديق أو المشير يعمل لحساب نفسه، وقد تتحوَّل الصداقة إلى عداوة.

٨. كان ما يشغل الإمبراطورية اليونانية (الهيلينية) أن تُحَقِّق حلم إسكندر الأكبر، أن يستخدم العالم كله اللغة اليونانية، ويتقبَّل الثقافة الهيلينية بما فيها العبادة بفكر هيليني.

٩. لم يكن للفتاة حرية اختيار عريسها، إنما تلتزم بالطاعة لقرار الوالدين. هذا مع نظرة المجتمع الخاطئة نحو الفتاة التي لا تتزوج حتى تتخطَّى سن الزواج. وأيضًا نظرة المجتمع أن الرجل لا يعيبه شكله، بينما للجمال دوره الرئيسي في حياة السيدة أو الفتاة.

هذه أمثلة سنتعرَّض لها بمشيئة الله في دراستنا للسفر مع أمثلة أخرى نذكرها في حينها.

سلوكنا في صُحْبة حكمة الله

يبدو سفر يشوع بن سيراخ للبعض أنه مُجَرَّد دستورٍ يقود سلوكنا العملي في مجابهة رحلة حياتنا على الأرض. هذه النظرة صادقة لكنها ناقصة، **فالسفر يجذبنا إلى العمق، لنُدرِك أننا في أفكارنا وعواطفنا وكلماتنا وسلوكنا في صحبة الله الكلمة أو الحكمة يقودنا بروحه القدوس.** حقًا يليق بالمؤمن أن يعتزَّ بما وهبه الله من العقل بقدراته العظيمة، مع مراعاة الآتي:

١. أَعدّ الربّ للكائنات العاقلة السماوية والأرضية "الحكمة" التي تعمل فيها مع ممارسة حرية إرادتها.

٢. تهب الحكمة السماوية الإنسان الساقط روح الرجاء في عمل الله الخلاصي، حتى يسترد اللؤلؤة المفقودة التي هي صورة الله ومثاله (تك ٢: ٢٦). بروح التواضع يشعر المؤمن أن الله هو العامل فيه ليهبه ما يبدو مستحيلاً: أن يصير أيقونة الله الحية!

٣. ركَّز السفر على أمرين وهما: كيف نبدأ الرحلة وما هي نهايتها. بدء الرحلة هو مخافة الربّ، حيث يشعر المؤمن أنه أشبه بطفلٍ يحمله ربُّ المجد على منكبيه بروح الحب، ويتجاوب معه المؤمن بالمخافة المقدسة التي تملأ القلب بالرجاء والفرح وهو مُنطلِق معه نحو الأبدية، برجاءٍ حيّ وحبٍ صادقٍ. يدرك المؤمن أن السمائيين يترقَّبون مجيئه بدهشةٍ وعجبٍ، إذ أقام المُخَلِّص من الإنسان الترابي من يشترك معهم في الخورُس السماوي.

٤. مع عدم تجاهل القدرات الطبيعية كالعقل والعواطف المقدسة، غير أن دستوره وسلاحه بل وزينته هي الوصية الإلهية التي لن يستطيع حفظها بدون نعمة الله. الوصية ليست قيدًا تُفقِده حريته، بل هي حليّ يُزَيِّن الكنيسة العروس أبديًا، ويحفظها المؤمن ليس عن خوفٍ، بل كابنٍ يود أن يحمل صورة أبيه السماوي.

٥. غاية الرحلة البلوغ إلى العُرْسِ السماوي، حيث ننعم بالاتحاد مع حكمة الله ونحمل شركة الطبيعة الإلهية (١ بط ٢: ٢١)، أي الحب لله ولكل البشرية.

٦. **نعمة الله:** حقًا يرى ابن سيراخ أنه ليس من رجاء للبشر بدون نعمة الله، ومع هذا في موقفه العملي عند معالجته بعض الأمور البشرية، لا يتجاهل المؤمن الإرادة الحرة والذكاء والمهارة والوزنات التي وهبها الله له، ويطالبه بإضرامها تحت قيادة الروح القدس. فقد قام سيراخ برحلاتٍ كثيرة وشعر بنوعٍ من التقدير الشخصي لمن يسافر ليتعلَّم من خبرة الكثيرين (٣٤: ٩-١١). وعلى وجه الخصوص يُقدِّر المهارات العلمية في شئون الطب والأدوية (٣٨: ١-١٥).

مقدمة في يشوع بن سيراخ

حثّ على الحياة الحكيمة التقوية

سفر يشوع بن سيراخ

يرتبط سفر يشوع بن سيراخ بالأسفار الحكمية، لكنّه جاء متأخرًا عنها، فاتَّخَذ طابعًا خاصًا. يُدعَى في المخطوطات اليونانية **حكمة سيراخ أو حكمة يشوع بن سيراخ**، نسبةً إلى واضعه، وتمييزًا له عن حكمة سليمان. كما يُدعَى في الترجمة اللاتينية **الكتاب الكنسي** *Ecclesiasticus*، لأنه كان يُستخدَم في تعليم الموعوظين الذين يتهيَّأون للعماد والدخول إلى الكنيسة[1]، أو تعليم حديثي العماد. أُطلِق هذا الاسم على هذا السفر منذ زمن القديس كبريانوس. ويُفَسِّر روفينوس *Rufinus* معنى الاسم بأنه "السلطة الكنسية"، حيث كان يُستخدَم ككتاب تهذيب بالنسبة للمُقبِلين على الإيمان.

يرى البعض أنه دُعِي هكذا لأن كثيرين يتطلَّعون إلى بعض عبارته تكشف عن شخصية السيد المسيح وتعاليمه، ويُهَيِّئ الأمم كما اليهود للتعرُّف عليه وإدراك وصاياه. نذكر على سبيل المثال يتحدَّث سيراخ بإسهاب عن الصديق المُخْلِص دواء الحياة (سي ٦: ١٦)، والحاجة إلى المشير الواحد بين ألف (سي ٦: ٦). هذا الصديق الذي تعطَّش إليه دارسو السفر قد تحقَّق بتجسد الكلمة الذي يدعو المؤمنين أَحِبَّاءه. كما أسهب في الحديث عن الصداقة التي بالحب تفتح أبواب السماء، ويجب حفظها في خزينتنا (سي ٢٩: ١١-١٢). ما هي خزانة المؤمن التي يُقَدِّمها السيد المسيح له سوى السماء (مت ٦: ١٩-٢١). فالسفر يلهب القلب بالالتصاق بالمُخْلِص، والتعرُّف على رسالته وأسراره، والتمتُّع ببهجة وصاياه.

دعاه الآباء مثل **يوسابيوس** وغيره "**الحكمة كلية الفضيلة**"، ودعاه **إكليمنضس السكندري** "**المُعَلِّم**". يقول **العلامة أوريجينوس:** [الكتاب الذي بين أيدينا يُحسَب عادة بين أسفار سليمان ويُدعَى كتاب الكنيسة *Ecclesiasticus*، أما بين اليونانيين فيُدعَى حكمة يسوع بن سيراخ[2].]

عنوانه السرياني في البشيطة[3] هو سفر "يشوع بن سمعان أسيرا"، وذلك كما ورد في نسخة لندن المتعددة اللغات، ودُعِي أيضًا "سفر الحكمة لبار أسيرا (كلمة "بار" في السريانية تُقابِل كلمة "ابن" في العبرية). ولا شك أن "أسيرا" مشتقة من اسم "سيراخ".

---

[1] الخوري بولس الفغالي: دراسات بيبلية ١، قراءة مسيحية للعهد القديم، ١٩٩١، يشوع بن سيراخ.

[2] *Homilies on Numbers 18:3:2.*

[3] الترجمة السريانية للكتاب المقدس.

يستخدم البعض ابن سيرا *Ben Sira* لواضع السفر، وسيراخ للسفر نفسه[1].

السبب في وجود الكثير من النسخ العبرية بدون عنوان، افتقارها إلى القطعة الختامية، ومع ذلك أشار البعض إلى نسخة عبرية قديمة تحمل عنوان "أمثال ابن سيراخ"، إلا أن الاحتمال الأكثر هو أن النسخة الأصلية كانت تحمل اسم "حكمة ابن سيراخ" كما جاء في التلمود أو "تعليم ابن سيرا".

قانونية السفر[2]

تَعْتَبِر الكنائس الرسولية (الكاثوليك والأرثوذكس) السفر جزءًا من العهد القديم، أما اليهود والبروتستانت فيحسبونه من الأسفار المنحولة، وإن كان له تقديره الخاص ككتابٍ كنسيٍ عند بعضهم.

جاء السفر في التقليد الكاثوليكي بين سفر حكمة سليمان وإشعياء، وعند الأرثوذكس ما بين الحكمة وهوشع. أما البروتستانت فمع عدم اعترافهم به كسفر قانوني، إلا إنه يُطبَع أحيانًا في الدراسات الخاصة بالكتاب المقدس، كما في طبعة[3] *New Revised Standard Version*.

بالنسبة لليهود، تأثَّروا بعوامل كثيرة لها اعتبارها من جهة نظرتهم للسفر.

١. كان اليهود المُتحدِّثين باليونانية في فلسطين وأرض الشتات قبل المسيحية يحسبونه كأحد كتاباتهم المقدسة، إذ كان من ضمن الأسفار الواردة في الترجمة السبعينية كعملٍ يهوديٍ.

٢. في القرن الأول ق.م. كانت جماعة الماسادا *Masada* اليهودية لديها نسخة من الكتاب بالعبرية كُتِبَت بطريقة شعرية *stoichiometrically*. ينقسم السطر إلى قسمين، العمود الأول يظهر على الجانب الأيمن والثاني على الجانب الأيسر. بعض اليهود يبدو أنهم قبلوه كسفرٍ مُقَدَّسٍ مُوحَى به منذ القرن الأول ق.م؛ وُجِد في فلسطين بالعبرية واليونانية.

سفر يشوع بن سيراخ هو أكثر أسفار ما بعد السبي التي اقتبس منها الربيون اليهود في أقوالهم وتعاليمهم، بل وتوجد اقتباسات كثيرة من السفر في الليتورجية اليهودية، لاسيما في صلوات يوم الغفران أو اليوم الكبير (يوم كيبور) حيث تكاد تتطابق صلوات ذلك اليوم مع ما ورد في (سيراخ ٢٦: ١-١٧)، وفي صلوات البركات الاثني عشر.

بالنسبة للمسيحيين: يُمَيِّز القديس چيروم بين "الأسفار القانونية" والأسفار الكنسية، وذلك بعد أن تأثَّر ببعض المُعَلِّمين اليهود في الأرض المقدسة. أما **القديس أغسطينوس** في النصف الأول من

---

[1] *The Collegeville Bible Commentary, Liturgical Press, Minnesota, May 1989, p. 722.*

[2] *The Anchor Bible Dictionary, Vol. 6, p. 933 ff.*

[3] *Fortress Commentary on the Bible: Sirach, Stacy Davis.*

القرن الخامس فلم يَقْبَل هذا التمييز، وأَصرَّ على التقليد القديم الذي يحسب كل الأسفار الواردة في الترجمة السبعينية قانونية.

رجع آباء الكنيسة إلى هذا السفر واقتطفوا منه أكثر من أي سفرٍ آخر. أدركوا أن السفر وقد كُتِب حوالي قرنين قبل المسيح يُقَدِّم للأمم خطوة جادة في قبول الإنجيل. فالأمم الذين التصقوا بمجامع اليهود يطلبون الحكمة الإلهية في منطقة البحر المتوسط، انتفعوا كثيرًا من السفر ودفع الكثيرين منهم لقبول الفكر المسيحي الإنجيلي.

في عام ١٥٣٤م كسر مارتن لوثر التقليد الكنسي، وهو أول من استبعد الأسفار القانونية الثانية *Deuterocanonical* (اصطلاح كاثوليكي). غير أن العديد من العلماء البروتستانت ينظرون إليه بعين التقدير والاعتبار، وقد تضمن كتاب صلوات الكنيسة الإنجليكانية أجزاء منه[1].

فُقِد النص الأصلي لأجيالٍ عديدةٍ، ثم اُكتُشف في نهاية القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين.

من جهة نظرية القانون السكندري الذي يَقْبَل الأسفار الواردة في الترجمة السبعينية، نجح *A. C. Sundberg* (١٩٦٤، ١٩٦٦، ١٩٧٥) في إظهار أنه في أيام السيد المسيح لم تكن توجد مشكلة بين القانون العبري المختصر والترجمة السبعينية المُطوَّلة، فقد كان كثير من اليهود المُتحدِّثين باليونانية يستخدمون الترجمة السبعينية.

أما بعد انتشار المسيحية واستخدام الكنيسة الترجمة السبعينية في الكرازة خاصة بين اليهود المتكلمين باليونانية، رفض اليهود هذه الترجمة.

أَيَّدت كثير من المجامع شرعية السفر كما قبله كثير من آباء الكنيسة واقتبسوا منه في كتاباتهم مثل القديسين: يوستينوس الشهيد وإكليمنضس السكندري وأثناسيوس الرسولي وباسيليوس الكبير وغريغوريوس النيصي وغريغوريوس النزينزى ومار أفرام السريانى وكيرلس الأورشليمى وكبريانوس الشهيد وأبيفانيوس وأغسطينوس والعلامة أوريجينوس والعلامة ترتليان وغيرهم.

فيما يلي قائمة بالمجامع التي أَقَرَّت قانونية سفر يشوع بن سيراخ مع بقية الأسفار الأخرى:

مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م.

مجمع هيبو سنة ٣٩٣ م.

مجمع قرطاجنة الأول سنة ٣٩٧ م.

مجمع قرطاجنة الثاني سنة ٤١٩ م.

ومن مجامع الكنيسة الكاثوليكية:

---

[1] دائرة المعارف الكتابية، ج ٣، حكمة يشوع بن سيراخ.

مجمع فلورنسا سنة ١١٢٤ م.

مجمع ترنت سنة ١٥٤٦ م (واعتبر الفولجاتا الترجمة المعتمدة لدى الروم الكاثوليك).

مجمع القسطنطينية سنة ١٦٤٢ م (مجمع الروم).

مجمع الفاتيكان الأول سنة ١٨٧٠ م.

حول الترجمة السبعينية[1]

تمَّت الترجمة بناء على الملك بطليموس فيلادلفيوس الذي كان يحرص على وجود نسخة من كل كتب العالم في مكتبة الإسكندرية؛ فجمع ٧٢ شيخًا من اليهود، اثنين عن كل سبط لترجمة الكتاب المقدس (العهد القديم) إلى اللغة اليونانية. هذا وقد شعر اليهود في ذلك الوقت بحاجتهم للترجمة، إذ وُجِد عدد ضخم من اليهود في الشتات لم يستطيعوا أن يفهموا الكتاب المقدس بالعبرية.

في فترة ما قبل المسيحية لم يكن يوجد أي دليل على وجود مشكلة في اليهودية بخصوص قائمة الأسفار المقدسة التي باللغة الأرامية في فلسطين والقائمة الخاصة بالترجمة اليونانية (السبعينية). لم يشغل اليهود الأسفار التي وردت في الترجمة السبعينية اليونانية كلغةٍ رئيسية، فكان المسيحيون سواء من أصل يهودي أو أممي يستخدمون هذه الترجمة في العبادة سواء على المستوى الفردي أو الكنسي، كما في الكرازة للأمم واليهود الذين في أرض الشتات.

وفي عام ٧٠م حيث قام تيطس بتدمير الهيكل، ومُنِع اليهود من الدخول إلى أورشليم مع سرعة انتشار المسيحية ونشر الأسفار المقدسة باليونانية، شعر اليهود بضرورة تقنين الأسفار المقدسة في القرن الأول الميلادي، حيث كان العهد الجديد قد كُتِب.

السبب الرئيسي لعدم وروده في التقنين اليهودي هو تطلع اليهود إلى أن الإعلان النبوي قد انتهى بموت عزرا ونحميا كما ورد في يوسيفوس.

سمات السفر

١. يُعتبَر هذا السفر قطعة رائعة عن الحكمة، عالجت مواضيع غاية في الأهمية منها الإيمان بالله الخالق والرعاية الإلهية ومحبة الحكمة والسلوك الإيماني العملي وأهمية التسليم وسلوك المؤمن حتى في أكله وشربه وعمله وتجارته ودراسته وتعليمه، وفي فقره أو غناه، في صحته أو مرضه.

أراد يشوع أن يكشف عن الحكمة الحقيقية من خلال التقليد اليهودي والشريعة، حتى لا يلجأ اليهود إلى المصادر الهيلينية. وقد ضمَّ مقالات صغيرة كثيرة مثل الحكمة ومخافة الرب والشريعة والصداقة

---

[1] *J. Liesen & L.W. Manhardt: Wisdom, O Steubeniville: Emmaus Road Publishing.*

والسعادة الحقيقية وتكريم الوالدين والأطباء واستخدام الأدوية والصبر والطاعة والعطاء والكبرياء والتمرُّد.

٢. يبرز السفر فكرة الحكمة الحقيقية كهدفٍ رئيسيٍ للإنسان. لم يُحَوِّل الكاتب نظره عن هذا الهدف، كما يتحدَّث عن التدبير الحكيم في كل جوانب حياة الإنسان التقيّ، أو كما يدعوه خائف الرب.

لقد عرَّفت فتوحات الإسكندر العالم على الحضارة الهيلينية، فجذبت الكثير من اليهود. قام المنهج الهيليني على إلغاء الحواجز بين الأجناس والأديان والثقافات، وتمجيد قوى الطبيعة وعبادة الأصنام، مما يُهَدِّد الديانة اليهودية. كان سيراخ مُتَّسِع الفكر لا يرفض التجديد وبعض المفاهيم الرواقية الفلسفية، لكنه كان يعرف أن هذا التيار الفكري والأخلاقي الجديد قد يُعارِض بعض ما في اليهودية من أمور جوهرية؛ "ويل للقلوب الجبانة وللأيدي المتراخية؛ وللخاطئ الذي يمشي في طريقين. ويل للقلب الخائر، لأنه لا يؤمن، لذلك لا حماية له" (٢: ١٢-١٣).

قامت مجابهة بين الحضارة اليهودية والحضارة الهيلينية. لذلك كتب ابن سيراخ يدافع عن الثقافة اليهودية الدينية والحضارية، وعن نظرة اللاهوت اليهودي إلى الله والإنسان والعالم، وعن اختيار الله لإسرائيل، ليقنع أبناء أُمتِه بأن إسرائيل لديه الشريعة التي أُعطيَت له من الله، **الحكمة الحقيقية**، وبالتالي لا يحتاج إلى الاعتماد على الحضارة الهيلينية وثقافتها لما فيها من اِلتباس.

يقول *Stacy Davis*: [بخصوص الزمن الذي فيه كتب ابن سيراخ، في الربع الأول من القرن الثاني ق.م، كان اليونانيون يسيطرون على فلسطين لمدة ١٥٠ عامًا، أولاً بواسطة البطالمة وبعد ذلك بواسطة السلوقيين *Seleucids*. اتبع البطالمة سياسة الفارسيين في الحكم، حيث كانوا يحرصون على العلاقة الطيبة مُقابِل أخذ جزية. وكانت المجتمعات اليهودية تدفع الجزية، لذا عاشوا في سلامٍ. ومع ذلك ساعد اليهود السلوقيين أن يسيطروا في أيام أنطيوخس الثالث (١٨٧-٢٢٣ ق.م). كافأهم على ذلك بإعفائهم من الضريبة لمدة ثلاث سنوات. وأعفى العاملين في الهيكل من الضريبة على الدوام. لم تُمَسّ الحرية الدينية لليهود في ظل حكم البطالمة، وإن كانت قد انتهت بعد أن أنهى ابن سيراخ عمله هذا بمدة صغيرة (ربما يقصد عصر أنطيوخس أبيفانس المُقاوِم لعبادة الله). كان موضوع الساعة حينذاك هو مناقشة الثقافة الهيلينية أو تبنِّي الأفكار والعادات اليونانية[1].]

٣. السفر في غالبيته مكتوب بأسلوبٍ شعريٍ، حتى الأجزاء المكتوبة نثرًا يظهر فيها التوازي المميز للشعر العبري.

---

[1] *Fortress Commentary on the Bible: Sirach, Stacy Davis, 2014.*

٤. القسم الخاص بمشاهير الرجال في إسرائيل يُشبِه ما ورد في الرسالة إلى العبرانيين الأصحاح الحادي عشر، يُرَكِّز على شخصيات تقية وأنبياء أكثر من الحديث عن ملوك إسرائيل.

٥. يمتاز السفر بتجانُس في الأسلوب والتعليم، مما يجعل غالبية العلماء يتَّفِقون على نسبه كله إلى ابن سيراخ (فيما عدا المقدمة التي من وضع المُترجِم). ولا يعني ذلك أنه هو الذي وضع كل سطر فيه.

٦. كثيرًا ما تكلَّم عن الله وعن حالة الإنسان، كما عن واجبات وحقوق الحياة، وقليلاً ما تحدَّث عن الملائكة وعن إبليس، ويقول ألفريد هيدرشيم، إن كتاب ابن سيراخ يُمَثِّل اليهود الأرثوذكس ولكن باعتدال، أي جمع بين الفكر الفريسي والصدوقي قبل أن يتبلور كل منهما.

٧. بجانب التركيز على العمل الإيماني والأفكار اللاهوتية، يحتوي السفر على تعاليم أخلاقية ونصائح عملية مُقدَّمة على هيئة مقالات أو أحاديث مختصرة أو أمثال، مع تسابيح وصلوات ومزامير وإشارات إلى الحكمة في حياة شخصيات تاريخية وأفكار فلسفية واستنتاجات خاصة بالحياة والعادات في عصره. لذلك انتشر هذا الكتاب بين اليهود والمسيحيين، وكان له تأثيره على الأدب الخاص بالأمثال في الغرب[1].

٨. يتَّسِم هذا السفر بالوضوح مع البساطة، نادرًا ما نجد فيه عبارات غامضة أو مُرْبِكة. يمكن للصبي الصغير كما الشاب أن ينتفع به.

بين سفر ابن سيراخ وسفر الأمثال[2]

يرى كثير من الدارسين أن ابن سيراخ أخذ منهج سفر الأمثال لسليمان الحكيم، إذ انشغل كلاهما بالحكمة، غير أن ابن سيراخ له سماته الخاصة:

١. ركَّز ابن سيراخ على الجوانب الطقسية والقومية والقانونية لليهود، والتي يكاد لا يكون لها أثر في سفر الأمثال. يُمَيِّز هذا السفر عن سفري الأمثال والجامعة، اهتمامه بالتوراة والعبادة والعمل الكهنوتي والوصايا مثل الصدقة.

٢. استخدم سيراخ أساليب أدبية متنوعة على مستوى واسع. فبجانب الأمثال شمل السفر تسابيح وصلوات وتأملاً تاريخيًا ممتدًا منذ أخنوخ حتى عصره. وكثيرًا ما رجع إلى التوراة والأنبياء. فهو مُعَلِّم كتابي، التزم بتقديم منهج كتابي للشباب. يمكن القول إن منهجه في الحكمة يشمل الفكر اللاهوتي والأخلاقي والأدبي والتاريخي.

---

[1] *The Anchor Bible Dictionary, Vol. 6. P. 931.*

[2] *cf. P. H. Readron, Wise Lives, Orthodox Christian Reflections on Wisdom of Sirach, 2009.*

٣. اهتم بإبراز عمل الله عبر الأجيال، خاصة في حياة الأمناء في علاقتهم به، واهتمامهم بالالتزام بالعهد بين الله وبينهم، كما حرص أن يتحدَّث عن رئيس الكهنة في عصره أي سمعان بن أونيا (٢١٩-١٩٦ ق.م)، فإن الله لا زال وسيبقى يعمل في طالبي الحكمة بروح التقوى عبر كل الأجيال.

٤. عَرْضُه للواقع التاريخي خلال حديثه عن أبطال الإيمان احتلَّ اهتمامًا كبيرًا عن سفر الأمثال. خلال هذا الواقع التاريخي فحص إعلان حكمة الله في حياة أناس الله أكثر من عرض تاريخي لهم. ففي الحقيقة وهو يمدح رجال الإيمان، ما كان يشغل فكره هو مجد الله العامل في شعبه.

٥. حديث سفر الأمثال عن الحكمة عام، أما سيراخ فقدَّم تاريخ إسرائيل مُرَكِّزًا على الحكمة.

٦. يمكن بسهولة إدراك انشغال سيراخ بالجانب الجدلي، إذ واجه الثقافة الهيلينية في تهديدها للثقافة اليهودية الدينية في ذلك الحين، في غير انفعال.

٧. يمتاز ما يُقَدِّمه ابن سيراخ بأنه يُمَثِّل حكمة شخصية مُعاشَة، خلال واقعٍ عمليٍ. يمكننا خلال السفر أن نكتشف شخصية ابن سيراخ ومفاهيمه، أما سفر الأمثال فلا يُحَدِّثنا عن سليمان كشخصٍ. ما سجَّله ابن سيراخ عن أبطال الإيمان في إسرائيل ليس ثمرة دراسة مُجَرَّدة لحياتهم وتصرفاتهم وأفكارهم، إنما خلالها نكتشف ما في حياة سيراخ نفسه. إذ كان يطلب في حياته الشخصية أن يتمتَّع بما اختبره هؤلاء الأبطال. جاء السفر ككلٍ يكشف عن حياة سيراخ وخبراته العملية.

٨. في نصائحه حتى بالنسبة للسلوك الظاهري للإنسان الحكيم، يُقَدِّم لمسات روحية تمسّ الإنسان الداخلي والفكر الخفي.

٩. الحكمة عند ابن سيراخ ليست هبة جامدة، وإنما هي عمل مستمر ونمو ونضوج حتى النَفَس الأخير من حياة المؤمن.

هل كان الكاتب كاهنًا؟

توجد افتراضات كثيرة عن هوية الكاتب، منها[١]:

(أ) كان **رجلا كنسيًا**: يربط الروحانية بالعبادة الليتورجية، تحدَّث عن الكهنوت والذبائح (٧: ٢٩-٣١)، وله قصيدة طويلة في مدح هرون وكهنوته العظيم (٤٥: ٧-٢٦). هذا لا يعني أنه كان كاهنًا.

(ب) يعتقد سينسيلّوس *Syncellus* أنه كان **رئيس كهنة** بسبب لَبْسٍ في فهم جزء من تاريخ يوسابيوس، إلا أن التعليم الذي ورد في السفر أو أسلوبه يجعلان هذا الافتراض أبعد احتمالاً من الافتراض السابق.

---

[١] راجع دائرة المعارف الكتابية، ج ٣، حكمة يشوع بن سيراخ.

(ج) كان **طبيبًا**، استنتاجًا مما كتبه في مدح الطبيب ووصف العلاج (٣٨: ١-١٥؛ ١٠: ١٢-١٠)، لكن هذا يُعتبَر أساسًا واهيًا لهذا الافتراض. كما ظن البعض أنه قد حصل على وظيفة مع بعض الحكام الغرباء، ربما بسبب أرستقراطيته الواضحة في الأسلوب، فمن المُحتمَل أن يكون قد عمل كمستشارٍ لدى أحد الحُكَّام الإغريق في مصر "يخدم بين أيدي العظماء، ويظهر أمام الحكَّام. يجول في أرض الأمم الغريبة، ويختبر الخير والشرّ بين الناس" (٣٩: ٤). كان يشعر بالمسئولية الواقعة عليه، فيعمل بغيرةٍ لا لحساب نفسه وحده بل لحساب من يقودهم، إذ يقول: "لاحظوا جيدًا أن تعبي لم يكن لي وحدي، بل لجميع الذين يلتمسون التعليم" (٣٣: ١٨).

(د) كان من وجهاء أورشليم، كاتبًا مطبوعًا منذ حداثته على حُبّ الشريعة، اهتم بأن يفيد الآخرين (٢٤: ٣٤؛ ٣٣: ١٨) لاسيما الشباب. عاش في الفترة الأخيرة من العصر الفضي للأدب العبري القديم، ويحتمل أنه كان من أفضل الشعراء في أورشليم في القرن الثاني قبل الميلاد، ويمكن اعتباره **شاعر الشباب**.

(هـ) يعتقد البعض أنه كان يصف حياته وهو يتحدَّث عن **عمل الكاتب اليهودي** (٣٩: ٣-١): [الذي يصرف نفسه إلى دراسة شريعة العليّ، إذ يلتمس حكمة جميع الأقدمين، ويهتم بنبواتهم. إنه يحفظ أحاديث الناس المشهورين، ويتغلغل في روائع الأمثال. يبحث في خفايا معاني الأمثال *proverbs*، وينشغل بألغاز الأمثال *parables*.]

تاريخ كتابة السفر ومكان الكتابة

يرى أغلب الدارسين أنه كُتِب ما بين ١٩٠، ١٨٠ ق.م. يقول حفيده المترجم اليوناني في المقدمة، إنه بدأ عمله بعد السنة الثامنة والثلاثين للملك أوَرَجاتيس *Euergetes* الذي هو بطليموس السابع (١٧٠-١١٦ ق.م). إذن ترجم كتابه بعد سنة ١٣٢ ق.م. فإذا افترضنا أن الجد يكبر حفيده بخمسين سنة، يكون الكتاب دُوِّن حوالي سنة ١٨٠ ق.م. يقول[1] *Stacy Davis* [على خلاف أغلب أسفار الكتاب المقدس، تاريخ سيراخ يمكن أن يُقرر خلال شهادة داخلية. فإن مديح رئيس الكهنة سمعان (٢١٩-١٦٤ ق.م) في الأصحاح الخمسين من سيراخ، مع الصمت بخصوص ثورة المكابيين (١٧٥-١٦٤ ق.م) يدل على أن ابن سيراخ أكمل عمله في حوالي سنة ١٨٠ ق.م.]

أيضًا رئيس الكهنة سمعان المذكور في (سي ٥٠: ١-٢١) مات حوالي ١٩٥ ق.م. وقد كتب ابن سيراخ عنه أنه مات حديثًا. السفر أيضًا لا يُقَدِّم انعكاسًا للمتاعب الثورية التي حدثت عام ١٦٨ ق.م،

---

[1] *Fortress Commentary on the Bible: Sirach, Stacy Davis, 2014.*

مما يدل على أنه كُتِب قبل هذا التاريخ[1].

بالرجوع إلى السفر نفسه (٣٥: ١٨،١٩؛ ٥٠: ١) مع المقدمة التي وضعها المترجم، يتضح لنا بالاستناد أيضًا إلى التاريخ والتقليد والتلمود أن سيراخ الكاتب عاش وكتب سفره في القرن الثالث قبل الميلاد، وأما حفيده فعاش في القرن الثاني.

من الصعب تحديد المكان الذي كُتِب فيه السفر، يُظَنُّ أنه كُتِب في أورشليم، إذ كانت مركز الثقافة الرئيسي والتعليم والحياة الدينية لليهود. ويعتقد بعض الدارسين أنه كُتِب في الإسكندرية حيث الثقافة اليهودية والتعليم والاهتمام بالدين[2]. قام بترجمته من العبرية إلى اليونانية، حيث لم تكن اللغة العبرية شائعة بين المجتمع اليهودي في الإسكندرية في ذلك الحين. لأن اليهودي اعتاد أن يستخدم أبناؤه لغة البلد التي ينشأون فيها مع الاحتفاظ بلغتهم الأصلية كلغة العبادة.

غاية كتابته

عاش ابن سيراخ في عالم ساده الفكر والثقافة الهيلينية. إذ لم يكن اليهود وَهُم في وطنهم أحرارًا سياسيًا، إنما كان يسيطر على مجتمعهم الأفكار الهيلينية سواء كانوا تحت سيطرة مصر أو سوريا. كانت أرض الموعد تُعانِي من الصراعات سواء في عصر البطالمة أو السلوقيين. كان البطالمة غالبًا ما يتبنُّون النظام الفارسي في الإدارة، حيث كان رئيس الكهنة اليهودي ليس قائدًا روحيًا فحسب، بل ويشبه أميرًا يجمع الجزية لحساب مصر. خضع النصيب الأكبر من اليهود ودفعوا الجزية للعرش المصري فعاشوا في سلامٍ نسبي، وانتفعوا بخبرة المصريين في الزراعة والتجارة. أما بعد خضوعهم للسلوقيين، فقد رحَّب رئيس الكهنة سمعان الثاني بالسوريين، فساعدوه على إصلاح الهيكل.

عاصر ابن سيراخ الصراع المُرّ بين البطالمة *Ptolemy* والسلوقيين *Seleucid*. كل من الفريقين يودّ السيطرة على إسرائيل. ولم يكن الفلاح البسيط أو العامل يشغله هذا الصراع مع أحد الفريقين كما يظهر في كتابات يوسيفوس المؤرخ اليهودي وهو يستعرض تاريخ أسرة (طوبيا) *Tobiads* التي صار لها نفوذ قوي مع غنى، تحالفت مع القادة من الأمم، فما يشغلهم كسب ثقتهم وتقديرهم لهم على حساب حفظ التوراة[3].

كانت الحركة الهيلينية في إسرائيل بطيئة في القرن الثالث ق.م.، لكنها تزايدت بسرعة في بداية القرن الثاني ق.م. لتبنِّي الثقافة الهيلينية. كان أسلاف ابن سيراخ مشغولين بالتقاليد الخاصة بالحكمة،

---

[1] *The Collegeville Bible Commentary, Liturgical Press, Minnesota, May 1989.*

[2] *Cf. The Collegeville Bible Commentary, Liturgical Press, Minnesota, May 1989.*

[3] *Josephus, Jewish Antiquities 12. 154-236.*

يُعَلِّمون أبناءهم كيف يسلكون في العالم من أجل الكرامة والسلوك في السياسة والأعمال الحرة، وبهذا يجدون سعادتهم. وكان دور ابن سيراخ هو إقناع تلاميذه أن هذه الأهداف لن تتحقَّق إلاَّ بحفظ العهد مع إله إسرائيل.

لم يُعالِج هذا الأمر بضيق أفقٍ، إنما أَوْضَح أن تحقيق أهدافهم يحتاج إلى التعرُّف الحقيقي على الأسفار المقدسة وحفظ الوصية الإلهية بروح التقوى ومخافة الربّ.

ما أحزن سيراخ تأثُّر إيمان بعض اليهود بالفكر الهيليني. غير أنه **لم يهدف إلى مهاجمة الثقافة الهيلينية، لأنه هو نفسه درسها واستخدمها**، فيما لا تتعارض مع الإيمان وتقليد اليهود. إنما أراد أن يؤكد لليهود كما للأمم أن الحكمة الحقيقية هي من عند الله[1].

أدرك ابن سيراخ الخطر الذي قام بسبب المجابهة بين الحضارة اليهودية والحضارة الهيلينية. فكتب يُدافِع عن الثقافة اليهودية الدينية والحضارية وعن نظرته إلى الله والعالم واختيار الله لشعبه. أراد سيراخ أن يؤكد لليهود كما للأمم أن الحكمة الحقيقية انطلقت أولاً من أورشليم وليس من أثينا.

هذا وما كان يشغل ابن سيراخ تعزيز الإيمان بإله إسرائيل والتقاليد اليهودية، غير أن بعض عباراته عن الصداقة، ونظرته بين الجنسين الذكور والإناث جاءت متناغمة مع بعض الآراء الهيلينية، وإن كانت تحمل مسحة إيمانية. ما يشغله أن يرى الإنسان سالكًا بروح الحكمة (٥٠: ٢٧)، وأن ينمو فيها، وهذا يتطلَّب الالتصاق بالشريعة الإلهية.

حاول أن يقنع أبناء دينه أن شعب إسرائيل، خاصة الذين في الشتات، لديهم الحكمة الحقيقية الموجودة في الشريعة، وبالتالي لا يحتاجون إلى مكتسبات الفكر والحضارة اليونانية التي تحمل جزءًا من الحق لكن يشوبه بعض الباطل. يؤكد على الشريعة واختيار الله لإسرائيل بكونه شعبه المحبوب لديه. ويُوَضِّح أن بلوغ الحكمة **من خلال الاستماع لرجال الله الحكماء وتنفيذ الوصية** (٦: ٣٢-٣٧). يُعَدُّ أحد ملامح سفره أنه يحتوي على عنصرين أساسيين، أولهما دراسة الكتاب المقدس وتفسيره وحفظ التقاليد، وثانيهما الأخذ بجدية التمتُّع بالحياة، كما يُقَدِّمها الكتاب المقدس.

كتب سيراخ لطبقة الحكماء اليهود، الذين اهتموا بالفلسفة مع تجاهلهم للسلوك بحسب الشريعة خاصة في مصر، الذين تولُّوا مناصب هامة بجانب الكهنة والأنبياء "لأن الشريعة لا تبيد (تختفي) عن الكاهن، ولا المشورة عن الحكيم، ولا الكلمة عن النبي" (إر ٨: ١٨). هذا العمل الذي صار نافعًا لليهود في كل الشتات.

يرى البعض أن يشوع بن سيراخ استطاع بحياته وفكره المقدس أن يسد الفجوة بين الحكماء

---

[1] *An Anchor Bible Dictionary, Vol. 6. p. 932 ff.*

القدامى أصحاب الأمثال من جهة والربيين (كُتَّاب التلمود)، مُعَلِّمًا أن الحكمة تطورت من خلال الخبرة العملية. كما قدَّم الله كمصدر لكل حكمة، وأَكَّد بروح الله أن بدء الحكمة مخافة الرب. "الحِكْمَةُ بَنَتْ بيتها. نحتتْ أعمدتها السَّبْعَة" (أم ٩: ١) ويُفَسِّرها مثلهم، وهذا يعني معرفة الله كخالقٍ وسيدٍ، والتعهُّد له بتبعيته والثقة فيه وتمجيده، وينتهي كل ذلك إلى حياة التقوى الشخصية، كما يؤكد أن الإنسان الذي له هذه الحكمة يقتني السعادة والخير والحياة الطويلة[١].

هذا العمل هو جسر نعبر به على فهم بعض تعاليم الربّيين (المُعَلِّمين اليهود) القدماء كما يُدخِلنا في جو العناصر الحكميّة التي نجدها في العهد الجديد.

اللغة

استخدمت النسخة *New American Bible* ما وُجِد من النصوص العبرية للسفر كنص أساسي مع بعض مقتطفات مما وُجِد في الكتابات اليهودية. جاء في الملاحظات الواردة في المقدمة، النص العبري الموجود حاليًا مُترجَم عن اليونانية.

في الفترة ١٨٩٦-١٩٠٠م أُكتُشف حوالي ثلثيّ السفر بنص عبري في معبد يهودي بالقاهرة، غير أن النص اليوناني أكثر وضوحًا من العبري. وإن كان غالبية ما ورد في النصّين متطابقًا معًا.

يوجد إجماع عام على أن النسخة الأصلية للسفر قد دُوِّنَت باللغة العبرية، حتى قبل اكتشاف أجزاء عبرية من السفر في كل من قمران وقلعة مسادا والمجمع اليهودي في مصر القديمة، ويقول **القديس جيروم** إنه رأى الأصل العبري نفسه ولديه النسخة العبرية وإن كنا لم نعد نسمع عنها فيما بعد إلا من خلال كتابات الربيين اليهود أنفسهم.

تأتي أهمية الأصل العبري في التأكُّد من أن كلاً من المترجم اليوناني أو المطلعين الأوائل على السفر – بعد زمن ابن سيراخ – قد نهلوا من النبع الأصلي بالفعل، وصاروا شهودًا أمناء لوجود الأصل الذي دوَّنه ابن سيراخ، وذلك بعد وفاته بزمن قصير.

تم تغطية حوالي ١١٠٠ بيت شعر من المخطوطات وثمانية آخرين من كتابات الربيين، فالمجموع الكلى ١١٠٨ من حوالي ١٦١٦ بيت شعر أصلي مُقدَّم بالأحرف اللاتينية في النص اليوناني.

الكاتب وحفيده ابن سيراخ المترجم

يُدعَى الكاتب "سمعان بن يشوع بن ألعازر بن سيراخ". يشوع اسم عبري معناه "يهوه يُخَلِّص". وسمعان اسم عبري معناه "مُستمِع". وألعازر اسم عبري معناه "الله قد أعان"، وسيراخ ربما لفظة أرامية،

---

[١] تفسير سفر يشوع بن سيراخ، لأنبا مكاريوس، الأسقف العام، الخصائص الأدبية للسفر.

تعني أسير "سيرا".

في مقدمة الترجمة اليونانية التي قام بها حفيده، يشرح متى قام جدُّه بترجمة السفر إلى اليونانية ولماذا. أمَّا هدفه فهو أن يُعرِّف الشتات اليهودي بعمل جدِّه. صارت اليونانية اللغة الدارجة، فقدَّم الحفيد كتاب جدِّه للذين يرغبون أن يتعلَّموا، أن يُصلحوا أخلاقهم، وأن يعيشوا بحسب الشريعة. محاولة نبيلة، لكنَّها لا تخلو من الصعوبات التي أدركها المترجم "لأن ما يُعَبِّر عنه بالعبرية ليس له ما يُعادِله بدقةٍ إذا تُرجِم إلى لغة أخرى" (مقدمة)[1].

شخصية واضع السفر

١. يحمل **روح الأُبوَّة الروحية**، كشف لتلاميذه كيف يتمسَّكون بالوصية الإلهية، وكيف يُمارِسون العبادة، خاصة الصلاة، ويحسبهم أبناء له (سي ٢: ١؛ ٣: ١٢، ١٧؛ ٤: ١؛ ٦: ١٨، ٢٣ الخ).

٢. **مُحِب للحكمة:** يقف كثير من الدارسين في دهشة أمام هذه الشخصية العجيبة، فهو يحب الحكمة منذ شبابه بروح الصلاة والتأمل والطاعة للشريعة (٥١: ١٣-٣٠). قدَّم الحكمة باعتبارها ينبوع لكل البركات، يهبها الرب لخائفيه، ويوصي بالتلمذة للحكمة، وقد افتتح مدرسة لتعليم الحكمة للشبان، واجه فيها الحركة الهيلينية وأخذ منها ما أخذ، وحذَّر من أضرارها باعتدال.

٣. **مُحِب لدراسة الشريعة:** اهتم بالشريعة والنبوات. اشتاق أن يتمتَّع الكل بالشريعة في وقتٍ مُبَكِّرٍ (٣٣: ١٨، ٣٤: ٩-١٢)، وخبرته وتجاربه. كرَّس نفسه للدراسة في الكتب المقدسة.

٤. **مُحِب للانتفاع بخبرة الآخرين:** كان كثير الأسفار، وقد أدرك أهميتها، ليتعلَّم الكثير (٣٤: ١١). يحتمل أن هذه الأسفار كانت ضمن بعثات رسمية، غير أنه عند عودته إلى أورشليم صُدِم لرؤية اليهود يخجلون من الشريعة، مُفَضِّلين الفلسفة اليونانية عنها (٤٢: ١-٢؛ ٤١: ٨). أشار إلى أنه واجه الكثير من التجارب والضيقات حتى الموت، غير أن الرب خلَّصه منها (٣٤: ١٢؛ ٥١: ١-٧).

٥. **رجل صلاة وتسبيح:** يُحب الصلاة ويَعْرَف قوتها (٢٣: ١-٦؛ ٣٥: ١٦-١٧). تشهد تسابيحه عن نظرته لعجائب الطبيعة، وعن قدرته الشخصية كشاعرٍ. يشمل السفر ثلاث تسابيح رئيسية: التسبحة الأولى (١: ١-١٨)؛ والتسبحة الثانية (الأصحاح ٢٤)؛ والتسبحة الثالثة (الأصحاح ٥١).

٦. **يهتم بالصداقات البنَّاءة:** "الصديق الأمين دواء الحياة، والذين يخافون الربّ يجدونه" (٦: ١٦).

---

[1] المدخل إلى الكتاب المقدس، ج ٣، الفصل السادس – يشوع بن سيراخ.

٧. **يعتزّ بماضي آبائه**، خاصة موسى وهرون وداود وسمعان بن أونيا الكاهن الأعظم.

٨. **يعشق الطبيعة الجميلة:** له نشيد عن عظمة الخالق بأسلوبٍ جذَّابٍ (٤٢: ١٥ – ٤٣: ٣٣).

٩. **كان إنسانًا لطيفًا متواضعًا**، بالرغم من تلميحه أن الرب اختاره كمستودع للحكمة الإلهية من خلال دراسة الأسفار وتتبُّع أقوال الحكماء والخبرة الشخصية والتأمل في الحياة، إذ يقول: "أنا كنت آخِر من استفاق ليلتقط في الكرم وراء القطَّافين. ببركة الربّ وصلتُ في الوقت المناسب، وملأت معصرتي كمن قطف العنب" (٣٣: ١٦-١٧). هكذا يظهر تواضعه باعترافه أنه امتداد لسابقيه.

ما كان يخشاه هو خطية الكبرياء، يُحَذِّرنا منها دائمًا بكونها من أخطر الخطايا، والتي يُقابِلها التحلّي بالتواضع، ليس بمعنى قبول المهانة، إنما في نظره التواضع يلازمه الكرامة واعتزاز الإنسان بما وهبه الله من وزنات وقدرات. يدعونا أن نُمَيِّز بين التواضع واهب الكرامة الحقيقية (١٠: ٢٨-٣١) والمذلة التي تُسَبِّب حالة من الإحباط.

١٠. اللهجة التي يُقدِّم بها نصائحه: "اسمعوني يا قادة الشعب، وأصغوا إليَّ يا رؤساء الجماعة" (٣٣: ١٩)، تُبرِز **أنه كان يشغل منصبًا رفيعًا في أورشليم.**

١١. كان **متزوجًا بامرأة فاضلة**، رُزِق منها بأولاد أحسن تربيتهم في حزمٍ ليُجَنِّبهم المتاعب التي تُواجِه المُنحلِّين (٣٠: ٧ -١٣). وكان يُحَذِّر بكل قوةٍ من الارتباط بزوجة شريرة. سكن في أورشليم وارتبط بطبقة الكُتَّاب هناك، وكانت لديه ثروة كبيرة، كما خصَّص وقتًا كبيرًا للدراسة في الكتب المقدسة التي كرَّس نفسه لها.

١٢. كان **مُعجَبًا بجماعة الحسيديين** (الأتقياء) ولم ينضم إليها. أشار إلى ثباتهم في مواجهة الإغراءات وشجاعتهم في الضيقات وثقتهم في الله (٢: ١-١١)؛ وقد تخرَّج منها الفريسيون بعد ذلك.

١٣. درس ابن سيراخ التقاليد الخاصة بالحكمة في مصر واليونان. وكان يبحث عن الحكمة أولاً من أجل نفسه كما من أجل كل طالبي الحكمة الذين يدرسون على يديه.

بُنية السفر وأقسامه

لا يتَّفِق الدارسون على تقسيم واحد للسفر، ليس بسبب تشويش أو خلط داخل السفر، وإنما بسبب حيوية النص وثرائه، فقد جمع سيراخ بروح الله القدوس تعاليمه وسكبها في نصائح ينتقل بها من موضوع إلى آخر، ويحتوي سفره على الكثير من الاستطرادات والشروحات، استخدم الأمثال والقصص الطريفة، قيل عن السيد المسيح "وبدون مَثَلٍ لم يكن يكلمهم" (مت ١٣: ٣٤؛ مر ٤: ٣٤).

يمتاز السفر عن بقية أسفار الحكمة بأنه يضم عبارات طويلة تُرَكِّز على اقتناء الحكمة. تُعرَف بُنية السفر بثمان قطع شعرية، يراها كثير من الدارسين أنها مقدمات لثمانية أقسام رئيسية للسفر:

القطعة الأولى (١: ١ –١٠): فهم الحكمة وأين توجد.

القطعة الثانية (٤: ١٩–١١): تطبيق الحكمة شخصيًا.

القطعة الثالثة (٦: ٣٧–١٨): تطبيقها اجتماعيًّا.

القطعة الرابعة (١٤: ١٥–٢٠: ١٠): الحكمة في الحديث والفكر.

القطعة الخامسة (٢٤: ٣٣–١): الحكمة في الحياة المنزلية.

القطعة السادسة (٣٢: ٣٣–١٤): استخدام الحكمة وأخذ قرارات صحيحة.

القطعة السابعة (٣٨: ٣٩–٢٤: ١١): أصحاب الحرف اليدوية وأصحاب الأعمال الكتابية.

القطعة الثامنة (٤٢: ٤٣–١٥: ٣٣): تمجيد أعمال الله في الخليقة وفي التاريخ.

ملحق (٥٠: ٥١–٢٥: ٣٠).

قصيدة ختامية (٥١: ٣٠–١٣).

ويقوم البعض بتقسيمه إلى ستة أقسام:

القسم الأول (١: ١٦–١: ٢٣): الحكمة والفطنة وأقوال متنوعة.

القسم الثاني (١٦: ٢٣–٢٤: ٢٧): الله؛ عمله في الخلق، خلقة الإنسان، العهد مع الله، عدله وعظمته ورحمته، التوبة. العطاء، تعلم الفطنة، الثرثرة وعدم الحُكْم على أحدٍ قبل معاتبته. الحكمة الحقيقية والحكمة الكاذبة، متى نتكلم ومتى نصمت، مناقضات وحكم متنوعة (٢٠: ٣١–١٨).

القسم الثالث (٢٤: ٣–١٧ ٣: ١٩): الحكمة والشريعة، ما نُحِبُّه وما نكرهه، إكليل الشيوخ، أمور بهيجة، المرأة الفاضلة والمرأة الشريرة، ما يُحزِن الحكيم، مخاطر التجارة، الكلمة تمتحن الإنسان، البحث عن البرّ، محادثة السفهاء، الفضول يقتل الصداقة، الخبث يُعاقب الإنسان حيث يخطئ، الحقود والخصومات وشر اللسان.

القسم الرابع (٣٣: ٢٠– ٤٢: ١٤). نصائح متعددة في الحياة.

القسم الخامس (٤٢: ١٥– ٥٠: ٢٤): مجد الله في الطبيعة وفي التاريخ.

القسم السادس (٥٠: ٢٥– ٥١: ٣٠) الخاتمة ومقصد الكاتب، نشيد شكر.

ويقوم آخرون بتقسيمه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: حكم وإرشادات (١–٤٣).

القسم الثاني: سير آباء أوّلين (٤٤–٥٠).

القسم الثالث: خاتمة وصلاة (٥١).

يرى آخرون أن السفر ينقسم إلى خمسة أقسام:

١. **الحكمة في الشريعة** (١-١٠).
٢. **الأسرة والأصدقاء** (١١-٢٢).
٣. **الشاب المتسيّب والنساء** (٢٣-٣٢).
٤. **الصلاة** (٣٣-٤٣).
٥. **أبطال الإيمان عبر التاريخ** (٤٤-٥١).

استحسنتُ هذا التقسيم، لكونه يُحَقِّق رسالة السفر كما في ذهن الكاتب. كل قسم يُمَثِّل معالجة جانب من جوانب الثقافة الهيلينية وعجزها عن تحقيق ما يُقَدِّمه الله للمؤمنين بفكرٍ إيجابي دون الهجوم العنيف على الثقافة الهيلينية أو التسخيف منها.

١. في حديثه عن **الحكمة في الشريعة** (ص ١-١٠)، يؤكد أن الحكمة هي هبة من الله تُقدَّم لخائفي الربّ أو أناس الله الأتقياء دون تجاهل عطية العقل والخبرة العملية والدراسة والتلمذة على الحكماء وتقدير مجهود الحكماء والعقلاء السابقين[1].

٢. في حديثه عن **الأسرة والأصدقاء** (ص ١١-٢٢)، يُقَدِّم الجانب الإيماني للأفكار الفلسفية، فإن أخذنا أفلاطون كمثالٍ لفيلسوف يوناني له شهرته وتقديره بين الفلاسفة اليونانيين القدامى، فقد ركَّز على رفع الفكر إلى المدينة المثالية، أي "الجمهورية"، كنموذجٍ حيّ يليق بالعالم أن يقتدي به. جاءت هذه المدينة خيالية يستحيل وجودها وتحقيقها عمليًا. أما شريعة الله فترفع قلوب المؤمنين وعقولهم إلى المدينة السماوية، أورشليم العليا أُمّنا (غل ٤: ٢٦)، فنتمتَّع عمليًا بعربونها في قلوبنا كما في حياتنا الكنسية والأُسريّة وفي المجتمع، خلال تقديس الأسرة والأصدقاء، ونتذوَّق الشركة مع الله القدوس، ونتمتَّع بعذوبة الحياة السماويَّة خلال حياتنا اليومية.

٣. بالنسبة **للنساء** (ص ٢٣-٣٢)، فقد وُجِدَت من بين الأصنام عبادة إلهة الجمال واهبة الخصوبة أفروديت. ومن الفلاسفة من احتقر المرأة وحسبها نجسة بطبيعتها. أما الشريعة الإلهية فتُقَدِّس الزواج وتُقِيم منه أيقونة لحياة العُرْسِ السماوي الأبدي. فالزوجة الحكيمة الصالحة لا تُقارَن بكائنٍ ما، أما الشريرة فتُدَمِّر زوجها وأسرتها.

٤. **الصلاة** (ص ٣٣-٤٣) هي الوسيلة للالتصاق بواهب الحكمة السماويَّة، مُقدِّس الحياة البشرية

---

[1] *J. Liesen &, L. W. Manhardt, Wisdom, Steubenville, OH: Emaus Road Publishing, p. 111-219.*

على كل المستويات: قلب المؤمن والأسرة والكنيسة والمجتمع.

٥. بالنسبة **لأبطال الإيمان عبر التاريخ** (ص ٤٤-٥١)؛ لم يُهاجِم سيراخ الفلاسفة كما لم يبرز أخطاءهم في الفكر أو السلوك. وإنما قدَّم ما هو إيجابي، فاختار أمثلة رائعة من أناس الله الأتقياء المُتَّسِمين بالحكمة السماوية مع مخافة الربّ والتقوى. بدأ بأخنوخ الذي تأهَّل أن ينقله الربّ وهو في الجسد، كما قدَّم أمثلة من الآباء البطاركة مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف، ومن الأنبياء كموسى وإيليا وأليشع، ومن الكهنة كهرون وفينحاس وسمعان بن أونيا الخ، وحكام وقضاة وملوك مثل داود الملك وسليمان وحزقيّا. مع تنوُّع دورهم في حياة المجتمع وتباين مواهبهم وقدراتهم، أبرز أن السماء تُرَحِّب بالكل، وتجمعهم معًا بروح الحب والوحدة والقداسة، وليس خلال الجدل الفلسفي، وتُقِيم منهم "أهل بيت الله" (أف ٢: ١٩).

الأفكار اللاهوتية والعقيدية والسلوكية في الربّ

أفكار ابن سيراخ[1]

ما يشغل ابن سيراخ هو التعليم الخاص بالحكمة وممارستها مُمتزِجة بمخافة الربّ وحِفْظ الوصايا الإلهية، مع التعلُّم المستمر والانتفاع بخبرة الحكماء والعقلاء القدامى والحديثين. كما عالج السلوك العملي للحكمة في حياة المؤمن. وقد جاءت كتاباته تكشف عن **مفاهيمه الإلهية** عن التدبير الحكيم للقادة المدنيين والدينين، كما عالج الكثير من السلوك اللائق بالمؤمن. وعالج العلاقات المتبادلة بين القادة والشعب، الأغنياء والفقراء، الوالدين والأبناء، السادة والعبيد، كما أعطى اهتمامًا خاصًا بالشبان، خاصة وأنه كان يقوم بتعليم تلاميذه وتدريبهم ليتأهَّلوا للعمل ككتبةٍ، وكان جميعهم من الرجال.

قام أيضًا بالتحذير من الالتصاق بفئاتٍ مُعيَّنة من المجتمع، ومن التسرُّع في أخذ قرارات تفوق إمكاناتهم أو قدرتهم، أبرز أيضًا ضرورة الاهتمام بالصحة الجسدية بجانب الحياة الروحية، وعدم المبالغة في الحزن على الموتى.

وطالب بالتمييز بين الحياء والخجل، وإدراك ما هو لائق وما هو ليس بلائقٍ.

١. معرفة الله وأسراره

سفر ابن سيراخ كسائر أسفار الكتاب المقدس لم يهدف إلى تقديم منهج لاهوتي نظري *systematic theology*، إنما يهدف إلى بثِّ الشوق إلى معرفة الله وأسراره ورعايته الإلهية التي تمسُّ حياتنا وأبديتنا وشركة المجد، وعمل الله فينا لكي نسترد صورته فينا.

ما يشغل السفر تأكيد حقيقة الحكمة الصادقة وارتباطها بالتقوى أي مخافة الرب؛ مصدرها هو الربّ. وفي نفس الوقت تظهر تعاليمه واضحة عن وحدانية الله، وعلى سبيل المثال يقول: "ليعرفوك كما نعرفك نحن، لأنّه لا إله إلا أنت يا زب" (٣٦: ٤).

يرى ابن سيراخ أن الله يظهر في جميع أعماله، وأنه بعيد عن الميول التي تنادي بألوهية الكون.

الله هو خالق كل شيءٍ، جميع الأشياء المخلوقة هي نتاج الحكمة الإلهية، كما أكَّد ذلك بوصف الله كمصدر لجميع المعرفة (٤٢: ٢٣-١٨).

الله موجود في كلّ مكانٍ (١٦: ١٧-٢٣)، خلق العالم بتدبيرٍ عجيبٍ كوحدةٍ متناسقةٍ (١٦: ٢٦-٣٠). وبينما تعتقد الفلسفة الهيلينية أن عمل الله كخالق يتمثَّل في الصياغة والتشكيل والتجميل، فإن

---

[1] *D.A. DeSilva (2002): Introducing the Apocrypha: message, context, and significance.*

السفر هنا يؤكد أن الله هو خالق الكون من العدم كما ورد في سفر التكوين.

الله رحوم غافر الخطايا، "ما أعظم رحمة الرب ويُقَدِّم نفسه كفارة للراجعين إليه!" (١٧: ٢٤). "إنه يرى ويَعْلَم نهايتهم أنها شريرة، لذلك يُقَدِّم لهم كفّارة كاملة. رحمة الإنسان هي لقريبه، أما رحمة الربّ فلكل ذي جسد. يُوَبِّخهم ويُدَرِّبهم ويُعَلِّمهم كراعٍ يردّ قطيعه إلى الحظيرة. إنه يرحم الذين يَقبَلون تأديبه، والذين يبادرون إلى أحكامه" (١٨: ١٣-١١).

أعماله لا تُستقصَى، "لا يسمح لأحدٍ أن يُخبِر بأعماله، لأنه من الذي يقدر أن يستقصي عظمة أعماله؟ من يقيس عظمة قدرته برقم؟ ومن يضيف إلى هذا القياس وهو يصف مراحمه؟ ما من أحد يقدر أن يُنقص منها أو يزيد عليها، ولا يوجد من يقدر أن يبحث في عجائب الربّ" (١٨: ٥-٣).

الله أعظم من كل أعماله، "كيف يمكننا أن نُسَبِّحَه كما ينبغي؟ فهو أعظم من جميع أعماله. رهيب هو الربّ وعظيم جدًا وعجيبة هي قوّته. مَجِّدوا الربّ وعَظِّموه ما استطعتم، فهو فوق هذا كله. وعندما تُعظِّمونه، عظِّموه بكل قوتكم، ولا تَكِلُّوا، فإنكم لن تُمَجِّدوه بالقدر الكافي. من رآه فيصفه؟ ومن يقدر أن يُعَظِّمه بالحق كما هو؟ مع هذا توجد خفايا كثيرة أعظم من هذه، فقد رأيناه، ولكن القليل من أعماله. لأن الربّ صنع كلّ الأشياء، ووهب الأتقياء (خائفي الربّ) حكمة" (٤٣: ٣٣-٢٨).

٢. المخافة الربّانية والحكمة والشريعة

يربط السفر بين المخافة الربّانية والحكمة والشريعة، جاء الحديث عن **المخافة الربّانية أو مخافة الله** في هذا السفر أكثر من ٥٥ مرة. لم يتكرَّر هذا التعبير "مخافة الربّ" وما يعادله في أي سفر آخر بهذه الصورة سوى في سفر المزامير حيث ورد ٧٩ مرة. لقد افتتح السفر بتأكيد "أن كل حكمة هي من الربِّ، ولا تزال معه إلى الأبد" (١: ١).

جاء تعبير **المخافة الربّانية** في هذا السفر بمعنى أخذ موقف التكريم التام والمهابة والتقدير لله القدير، خالق المسكونة. يؤكد هذا التعبير قوة الله وقدرته وجلاله وسلطانه.

لا تعني كلمة مخافة هنا الفزع أو الرعب، لأن مخافة الربّ هي اعتراف بسرّ السمو الإلهي المرتبط بالإيمان المُمتزج بالحب كما ورد في (تثنية ١٠: ١٢). وكما يقول القديس هيلاري أسقف بواتييه: "كلّ مخافتنا في الحُبِّ"[1].

الإنسان الذي يتمتَّع بمخافة الرب تطول أيامه ويغتني ويتمتع بصحة جيدة (١: ١٢-١٣، ١٧-١٨).

---

[1] *Cf. J. Liesen & L.W. Manhardt: Wisdom, Steubeniville, O: Emmaus Road Publishing, chapter 18, Sirach 1-10.*

يرى البعض أن ابن سيراخ يُحسَب ابنًا وارثًا للسيدة الرمزية "الحكمة" في شخصنتها (٢٤: ١-٣٢؛ ٤-٢٠). يحتفل بها ويكرمها كأوّل خليقة الله (١: ٤؛ ٢٤: ٣)، وعطيّة الله الفائقة التي تُوهب لخائفي الربّ (١: ١٠، ٢٦). كما يحسب نفسه وارثًا لمخافة الربّ، كبدء الانطلاق في رحلة نحو الحكمة. هذا في نظره لا يُقَلِّل من تقديره لمخافة الربّ، إذ يُقَدِّمها بداية الحكمة وكمالها وتاجها وجذرها أو أصلها (١: ١٤-٢٠)، بل وهي كُلية الحكمة أيضًا (١٩: ٢٠).

مخافة الربّ هي المفتاح الذي يفتح باب الحكمة للإنسان. هي أصل الحكمة وتاجها وكمالها "مَخافةُ الرَّبِّ مَجدٌ وفَخر وسُرورٌ وإِكْليلُ ابتِهاج... كمال الحكمة هو مخافة الرب، وتملأ الناس بثمارها... تملأ بيتهم كله بالمشتهيات، ومخازنهم بغلاتها

مخافة الربّ مجد وفخر وسرور وإكليل ابتهاج... مسرة الحكمة هي مخافة الربّ، وتُسكر الناس بثمارها... تملأ كل بيت من بيوتهم بالمشتهيات، ومخازنهم بغلاتها" (١: ٩-١٥).

مخافة الربّ عند ابن سيراخ هي[1]:

١. بدء الحكمة (١: ١٢).
٢. كمال قياس الحكمة (١: ١٤).
٣. إكليل الحكمة (١: ١٦).
٤. خائف الربّ لن يعصى كلماته (٢: ١٥).
٥. خائف الربّ يطلب رضا الربّ (٢: ١٦).
٦. مخافة الربّ تمارسها كل نفسٍ (٧: ٢٩).
٧. مخافة الربّ هي توبة القلب بالرجوع إلى الربّ (٢١: ٦).
٨. لا شيء أفضل من مخافة الربّ (٢٣: ٢٧).
٩. مخافة الربّ مثل فردوس البركة (٤٠: ٢٧).

أما عن **الحكمة** فهي الخط الرئيسي الذي يتخلَّل السفر من بدايته حتى نهايته، مؤكدًا أنها عطية إلهية. حكمة الله ليست فكرة مُجَرَّدة كحكمة الإنسان، إنما هي محيط يتعذَّر استيعابه، "لأن فكرها أعمق من البحر، ومشورتها أعمق من الهاوية العظيمة" (٢٤: ٢٩). يصورها الكاتب كشجرةٍ مُثمِرةٍ، وكرمةٍ تقدم كل الخيرات، خاصة الفرح الإلهي.

وردت كلمة "الحكمة" في سفر ابن سيراخ أكثر من ستين مرة. واعتبر طالب الحكمة ابنًا له.

يبدأ النصف الثاني من السفر بشخصنة الحكمة لتُعلِن أنها تُغَطِّي الأرض كلّها وتسكن في

---

[1] *J. Liesen & L.W. Manhardt: Wisdom, chapter 18, Sirach 1-10.*

الأعالي، وتُقِيم عرشها في عمود السحاب، وتتمشَّى في أعماق الهاوية (٢٤: ١-٥). لتنصب خيمتها في يعقوب، أي في شعب الله، وتستقر في صهيون، لتُقِيم من المؤمنين شعبًا مجيدًا يحمل قوّة إلهيّة، يعتزّ الربّ نفسه به. وكأن الحكمة تطلب صداقة فريدة مع المؤمن كشخصٍ ومع المؤمنين كجماعةٍ مقدسةٍ. إنها تسقي شعب الله بمياه الروح كي تُحَوِّلهم من بريةٍ إلى جنةٍ مُبهِجةٍ (٢٤: ٣٠-٣١).

قد تبدو الوصايا أحيانًا اجتماعية بحتة، لكن السفر وهو يهتم بالحياة الاجتماعية على مستوى الجماعة والفرد في نفس الوقت، غير أنه يبرز الحضرة الإلهية وعمل النعمة في حياة المؤمنين.

يُمَيِّز **القديس أغسطينوس** بين حكمة الله الخالق، وبين الحكمة عطية الله. أو بين الحكمة كأقنوم إلهيّ أتى إلى البشرية ليُقَدِّم لهم الخلاص، وبين الحكمة كتدبيرٍ إلهيٍ لخلاصنا. فيقول: [خُلِقَت الحكمة قبل كل شيءٍ... هكذا يا لعظم الفارق بين الحكمة التي تخلق وتلك التي هي مخلوقة! إنه فارق عظيم مثل الفارق بين البرّ الذي يُبَرِّر والبرّ الذي يتحقَّق بالتبرير[1].]

هذا ويدعونا السفر إلى تكوين علاقات مقدسة مع أصدقاء حكماء. إذ يكون المؤمن مواليًا لله ومُخلِصًا لشريعته، يتمتَّع بالالتصاق بحكمة الله. غير أنه يلزم أن يكون حريصًا لئلا تتسلَّل الخطية إليه، إذ يقول ابن سيراخ: "وإن ضلّ تهجره، وتُسَلِّمه إلى هلاكه" (٤: ١٩). لهذا فإن الخطاة المُصرِّين على الخطية هم حمقى ولن ينالوا حكمة: "الناس الأغبياء لا يجدونها، والخطاة لا يرونها. إنها بعيدة عن المتكبرين، والكذّابون لن يحتفظوا بها في ذهنهم" (١٥: ٧-٨). أما السالكون في حياة الفضيلة في الربِّ فإنهم يلاحقونها كالصياد ويترصدون آثارها (١٤: ٢٢).

يشخصن *personify* السفر الحكمة؛ تارة يدعوها **والدة** تُعَظِّم أبناءها وتملأهم فرحًا (٤: ١٢)، يرثونها (٤: ١٦). كما يدعوها **مُعَلِّمة** *teacher* تؤدِّب تلاميذها (٤: ١٧). إنها مثل **زوجة الشاب الحكيم** (١٥: ٢). وهي **محبوبة**، يتودَّد إليها الحكيم (٥١: ١٣-٢١).

يُعتبَر **حفظ الشريعة** التي أعطاها الله لإسرائيل، عنصرًا هامًا في تعليم ابن سيراخ. فهو يوصي دومًا بالشريعة التي تقود إلى برِّ الله، وتحفظ روح الصداقة بين المؤمنين، كما تُوَجِّهنا إلى الأسلوب اللائق عندما نُوبِّخ صديقًا. إنها مصدر الحكمة الأصلية.

أهم ملامح السفر تُطابِق الشريعة مع الحكمة، فالحكمة هي الشريعة. "هذه كلها هي سفر ميثاق مع الإله العليّ والشريعة التي أوصانا بها موسى، ميراثًا لجماعات يعقوب" (٢٤: ٢٣). يؤكد ابن سيراخ أن الحكيم والبار يتَّحِدان معًا في شخص ذاك الذي يعمل مشيئة الله ويتقي الرب. هكذا تتجلَّى مخافة الربّ في حفظ الوصايا (١: ٢٦؛ ٢: ١٥؛ ١٠: ١٩).

---

[1] *Confessions 12:15:20.*

يُظهِر ابن سيراخ تشديده على الشريعة، ليس كرجل دينٍ شرعيٍ، وإنما لأنها تُعلِن عن الله وعلاقته بالناس مبنية على حياة التقوى. لذلك فهو يفسر الشريعة بروح تقديس الفكر والكلام والسلوك، أي خلال الأعماق الخفية والسلوك الأخلاقي والاجتماعي في الرب.

رأى أن الشريعة والحكمة تياران متكاملان يصبّان في نهر عظيم مُتدفِّق وهائل لا ينضب (٢٤: ٢٣ -٢٩)، وأن رسالته كمُعَلِّمٍ أن يُخرِج منه تعليمه لتلاميذه أو لأبنائه المحبوبين (٢٤: ٣٠ -٣٤)، ليسقي نفوسهم كما لو كانت بستانه المحبوب لديه. إذ يقول:

"هذه الشريعة تملأ البشر بالحكمة، مثل فيشون، ودجلة[١] في أيام بكور الثمار. وهي تملأهم فهمًا، كالفرات ومثل الأردن في أيام الحصاد. هذه الشريعة تُشرِق بالتعليم مثل النور، وهي تفيض كالنيل بالتعليم، مثل جيحون في أيام القِطَاف (العنب). كما أن الإنسان الأول لم يعرف الحكمة كاملة، هكذا الإنسان الأخير لا يستقصي أعماقها. لأن فكرها أعمق من البحر، ومشورتها أعمق من الهاوية العظيمة. وأنا كقناة خارجة من النهر، ومثل مجرى خرج إلى جنة. قلت: "أسقي بستاني، وأُبلل مجمعات الزهور المتناسقة". فإذا بقناتي تصير نهرًا، وبنهري يصير بحرًا" (٢٤: ٣١-٢٥).

أَكَّد ابن سيراخ في أكثر من موضع أن الفرق بين "الحكمة البشرية المُجَرَّدة" "والحكمة الإلهية" أن الأخيرة مقرونة بالشريعة التي فيها أنفاس الله.

الحكمة عند ابن سيراخ ليست إلاَّ حفظ التوراة عمليًا (٢٤: ٢٣). هذا لا يعني تجاهُل التناغم بين الحكمة والتوراة. فالتوراة ليست ملخصًا للحكمة بالرغم من أن الحكمة مستقرة في التوراة، تُعرَف عندما تُمارَس التوراة. أيضًا التوراة هي تهذيب تعليمي يحيا به المؤمن بحكمةٍ، ويبلغ به إلى الحكمة، عطية الله لحافظي الحكمة.

يُوَضِّح ابن سيراخ أن حفظ التوراة ليس عقبة في تمتُّع الشخص أو الأمة بكرامة على مستوى العالم. على العكس حفظ المؤمن للتوراة يرفعه في الكرامة أمام العالم. كما أن الاستخفاف بالتوراة يدفع الأمة إلى العار والخزي حتى من غير المؤمنين. الإخلاص للشريعة الموسوية هو مصدر للكرامة حتى وإن كان الشخص فقيرًا.

درب الحكمة عند ابن سيراخ هو درب التقوى والقداسة، لهذا كرَّس نصيبًا كبيرًا من السفر للتعليم عن الحياة التقوية.

---

[١] نهر *Tigris* الاسم اليوناني لأحد الأربعة أنهار التي كانت تجري في جنة عدن. حداقل كما ورد في (تك ٢: ٢٤) أو دجلة. إنه نهر عظيم (دا ١٠: ٤).

Wiseman, D. J. (1996). Tigris. In D. R. W. Wood, I. H. Marshall, A. R. Millard, & J. I. Packer (Eds.), New Bible dictionary (3rd ed., p. 1187). Leicester, England; Downers Grove, IL: Intervarsity Press.

مخافة الربّ تستلزم اهتمامًا كبيرًا لتكريم الربّ مع الحرص على السلوك نحو الله والالتصاق به. لهذا ينصح طالبي المغفرة من الله أن يغفروا هم لإخوتهم (٢٨: ١-٧). هذا ويحذر الذين يعتمدون على مراحم الربّ وهم متهاونون في السلوك أن التباطؤ في العقوبة الإلهية لا يعني أن الخطية ليس لها فاعليتها في حياة الشخص والذين يتعامل معهم. لذلك يليق بالشخص أن يُسرِع إلى التوبة ولا يرجع ثانية إلى الخطية نفسها (٣٤: ٢٦-٢٥).

التزم ابن سيراخ بالاعتدال حتى لا ننحرف يمينًا ولا يسارًا (تث ٥: ٣٢)، فإن كان يعلن كثيرًا عن فيض مراحم الله مهما كانت خطايانا، غير أنه يؤكد عدل الله وعدم قبوله للشرّ، خاصة إن كان ثمرة تهاون واستهتار.

٣. الحكمة والعبادة المقدسة

يدعونا ابن سيراخ أن نجتهد في دراسة الشريعة (الكتاب المقدس) والتمتُّع بالحكمة الحقيقية، وفي نفس الوقت يؤكد أن **العبادة** عامل رئيسي للتمتع بالحكمة (٣٧: ١٥)، لأنها عطية الله (٣٩: ٥-٧). هذا لا يقلل من أهمية طلب المشورة من أناسٍ حكماء. الصلاة وليست الأحلام والخزعبلات هي مصدر المشورة الروحية (٣٤: ١-٨).

يربط العبادة المقدسة بالسلوك المقدس، فكلاهما تقدمة مقبولة ومرضية عند الرب. وأما إن مارسها المؤمن طقوس العبادة كروتين أو واجب بدون التهاب القلب بالحُبِّ والسلوك في حياة روحية فاضلة فهي مرفوضة. "لا تقل: "إن الله ينظر إلى كثرة تقدماتي، وإذا قربتها للعليّ فهو يَقبَلها". لا تكن خائرًا في صلاتك، ولا تهمل الصدقة" (٧: ٩-١٠).

كما يربط **التقدمات بالحياة المقدسة**، فمن يغتاب أخيه يُدَنِّس ثروته والعشور التي يُقَدِّمها. إنه لا يَقْبَل أية تقدمة يُصاحِبها ظلم الإخوة (٣٥: ١٣-١٥). كما أبرز الرحمة في حياة المؤمن وعبادته.

مع تركيزه على التقدمات العقلية غير الدموية، غير أنها لا تحل محل الذبائح والتقدمات المادية، بل تُكَمِّلها. هذا وقد أعطى اهتمامًا خاصًا للعبادة في الهيكل.

يهتم أيضًا **بربط الحكمة بالليتورجيا الكنسية**[1]. فسفره فريد بين أسفار الحكمة، في حديثه عن الحياة الليتورجيا والكهنوت والخدمات الهيكلية (الكنسية). اهتم أن يعطي مجالاً واسعًا في برنامجه لجمال **الليتورجية العجيبة** (٥٠: ٥-١٣). وتكريم كهنة أورشليم خلال ممارسة العبادة كما يليق (٧: ٢٩-٣٠). يشهد بذلك مديحه الرائع لهرون كرئيس الكهنة (٤٥: ٦-٢٢)، وحديثه عن سمعان الكاهن

---

[1] راجع تفسير سفر يشوع بن سيراخ، الأنبا مكاريوس، الأسقف العام، المقدمة.

الأعظم، إذ يقول:

"حين كان يرتدي حُلَّة مجد، ويلبس كمال الفخر، وفي صعوده إلى المذبح المقدّس، كان يُعظِّم ساحة المقدس. وعندما كان يتناول القطعة من أيدي الكهنة، وهو واقف على موقد المذبح، كان يحيط به إكليل من الإخوة، كشجيرة أرز في لبنان ويحيطون به مثل جذوع شجر النخيل. وكان جميع بني هارون في مجدهم، وتقدمة الربّ في أياديهم أمام كل جماعة إسرائيل. عند إتمام الخدمة على المذبح وتدبير تقدمة العليّ القدير... ثم ينزل ويرفع يديه على كل جماعة بني إسرائيل، ويفتخر باسمه (اسم الربّ). عندئذٍ ينحنون إلى أسفل ليسجدوا مرة ثانية لينالوا البركة من العليّ" (٥٠: ١١-١٤، ٢٠-٢١).

وفي **مديحه داود الملك**، يقول: [أقام مُرَتِّلي المزامير أمام المذبح، ليُرسلوا ألحان عذبة بأصواتهم. جعل للأعياد كرامتها، ونظَّم أزمانها خلال السنة، لتُسَبِّح اسم الله القدوس، ويدوي المقدس (الهيكل) منذ الصباح المُبَكِّر (٤٧: ١٠-٩).]

كما يذكر أن الله نفسه رتَّب الذبائح والباكورات (٤٥: ٢٥-٢٠)، ويشهد بأن ذبائح البار مَرْضيَّة أمام الرب وذِكْرها لا يُنسى (٣٥: ٦).

اهتمت الكنيسة القبطية منذ البداية بهذا السفر، فاقتبست منه في أكثر من عشرين مناسبة خاصة في قراءات الصوم الكبير وصلوات البصخة المقدسة وليلة عيد القيامة وإقامة[1] الراهب.

٤. الإنسان والكون[2]

خلق الله الإنسان على صورته (١٧: ٣) ووهبه السيادة على المخلوقات (١٧: ١-٤). وجعل الحكمة كالبخار تحتضن كل شيءٍ؛ لقد تمشَّت في أعماق الجحيم وعلى أمواج البحر (٢٤: ٥- ٦). أما سمات الخليقة فهي التميُّز والتنوُّع والتناغم والتدبير المتكامل التي تضيفه الحكمة على أعمال الله (١٦: ٢٦-٣٠).

الإنسان ككائنٍ متميّزٍ في عيني الله، منحه العقل وحرية الإرادة والمعرفة وشريعة الحياة (الناموس الطبيعي) يرشده في الطريق (١٧: ١١). ولذلك فهو يتحمَّل مسئولية تصرُّفاته لإرادته الحُرَّة. من البدء خلق الله الإنسان حُرًا في ميوله ونزعاته. "خلق الإنسان في البدء، وتركه يستشير إرادته (البشرية). فإن شئت، تحفظ الوصايا، وتُتَمِّم بأمانة مسرَّته الصالحة. إنه يضع أمامك النار والماء، فتمدّ يدك إلى

---

[1] الصلاة على الشخص لدخوله الحياة الرهبانية لا تُحسَب تمتعًا بسر الكهنوت، فهي إقامة

[2] راجع تفسير سفر يشوع بن سيراخ الأنبا مكاريوس، الأسقف العام، المقدمة.

ما تريده. الحياة والموت أمام البشر، فما يختاره الإنسان يُعطَى له. لم يُوصِ أحدًا أن يكون شريرًا، ولا يأذن لأحدٍ أن يخطِئ" (١٥: ١٧-١٤، ٢٠). فالله ليس مسئولاً عن الخطية، لكن الإنسان مسئول بإساءة استخدامه للعطية الإلهية!

بِقَوْل ابن سيراخ إن المرأة هي بداية الخطية لا يعني مسئوليتها، وإنما يعنى أنها أول من أخطأ، وبالتالي لا تقع عليها مسئولية سقوط نسلها. الموت هو أحد نتائج السقوط الكثيرة (٤٠: ٥-١).

كان الفلاسفة في ذلك الزمان يحاولون أن يُوَفِّقوا بين حرية الإنسان ووجود الشرّ من جهة، والإيمان بإله صالح قدير من جهة أخرى، وقد رأى ابن سيراخ أن الإنسان خُلِق حرًا.

٥. العدالة الاجتماعية والمثل الأخلاقية

يُصِرُّ السفر على الحاجة إلى العدالة الاجتماعية (٤: ١٠-١؛ ٣٤: ٢١-٣٥: ٢٢). يُحَذِّر أيضًا الأغنياء من إساءة التعامل مع الفقراء. في مرارة يشير ابن سيراخ إلى جشع الأغنياء، فعِوَض مساعدة الفقراء يحسبونهم مراعيهم التي تفيض عليهم بخيرات أكثر (١٣: ١٨).

يتضمن السفر مجموعة كبيرة من المثل الأخلاقية والنصائح القيِّمة بالنسبة لكل حدث طارئ يمكن حدوثه في الحياة، وحِكَم صالحة لجميع شرائح المجتمع في مختلف ظروف الحياة، حيث تتعلَّق نسبة كبيرة منها بالعلاقات اليومية العادية بين الناس، سواء الأغنياء منهم أو الفقراء، فتحدَّث عن الشهامة والنبل، والسلوك على المائدة والآداب العامة واحترام قدرات الأفراد.

دور الإنسان في المجتمع: جاء السفر دعوة كي يتعرَّف الإنسان عن رسالته في المجتمع، أن يكون حكيمًا متواضعًا يهتم بأسرته، كما يفتح قلبه ومخازنه للفقراء والمحتاجين، ويحب أن يُقَدِّم لهم مما لديه من بركات، وينصف المظلومين ما استطاع.

المجتمع بكل فئاته يشغل قلب ابن سيراخ وفكره، فيكشف بروح الحكمة كيف يتعامل الإنسان ليس فقط مع أفراد أسرته، المحتاجين، المظلومين والأصدقاء، وإنما كيف يتعامل مع القادة في المجتمع، الكهنة، الحزانى، المرضى، الخطاة، الأغنياء، الشيوخ، النساء، الأرامل والعذارى.

٦. اللسان

اللسان وهو آلة للبنيان، بدون تقديسه وضبطه يُفسِد الصداقات ويُسَبِّب نزاعات.

وعن الكلام والصمت يقول: "الزلّة على الأرض أفضل من الزلّة من اللسان" (٢٠: ١٨)، "الحكيم يرفع نفسه بكلماته، والإنسان الفَطِن يُرضي العظماء" (٢٠: ٢٧).

"لا تُذَرّ مع كل ريح، ولا تَسلك في كل طريق، فإنّه هكذا يفعل الخاطئ ذو اللسانيْن... كن مُسرِعًا

في الاستماع، ومتأنيًا في الإجابة. إن كنت تعرف شيئًا، فجاوب على سؤال قريبك، وإلا فاجعل يدك على فمك. في الكلام المجد والهوان، وسقوط الإنسان سببه لسانه. إياك أن تُدعَى نمّامًا، ولا تنصب كمينًا بلسانك، فإن السارق ينتظره الخزي، وعلى ذي اللسانيْن الحكم خطير" (٥: ٩، ١١– ١٤).

٧. الأسرة المقدسة

امتدح السفر البيت الذي فيه يحيا كل من الزوج والزوجة في وفاقٍ. كما امتدح **المرأة الفاضلة** بكونها عطية الرب التي لا تُقدَّر بثمنٍ، تُشرِق كالشمس على بيتها، مصدر للبهجة، إنها مُعِينَة لرجلها يستند عليها كما على عمودٍ.

"لطف الزوجة يُبهِج زوجها، ومهارتها تسمن عظامه. الزوجة الصامتة عطيّة من الربّ، والنفس المتأدِّبة لا تُقدَّر بثمنٍ. الزوجة المحتشمة نعمة فوق نعمة، وليس من ميزان يزن النفس العفيفة. مثل الشمس تُشرِق من أعالي السماء، جمال الزوجة الصالحة في بيتها المُرتَّب. مثل السراج الذي يضيء على المنارة المقدسة، جمال الملامح في حياة ذي الصحة الجيدة[١]" (٢٦: ١٣–١٧).

٨. الاهتمام بالوالدين خاصة في شيخوختهما

يوضح ابن سيراخ أن إكرام الوالدين جاء مباشرة بعد الوصية الخاصة بمحبة الله، ليؤكد أن علاقتنا بالوالدين تمسّ علاقتنا بالله نفسه. اهتم بعض الدارسين بما ورد في هذا السفر بخصوص إكرام الوالدين ورعايتنا لهم في شيخوختهم وفي مرضهم.

فأبرز *Stacy Davis* الآتي:

أ. أبرز الكتاب المقدس بعهديه أهمية تكريم الوالدين والاهتمام بهما.

ب. اهتمت المجتمعات المتقدمة برعاية الشيوخ، وخصَّصت ميزانيات ضخمة لذلك، فما هو موقف المؤمن من الوصايا الكتابية؟ هل لا يليق أن ينضم الوالدان إلى إحدى المؤسسات الخاصة برعاية الشيوخ مثل *Senior houses*؟

ج. لوحظ في المجتمعات الفقيرة نسبة انتحار الشيوخ قد تزايدت بشكلٍ كبيرٍ.

د. في الظروف المعاصرة، يصعب على الكثير من الأبناء أن يلحقوا الوالدين الشيخين في ذات مسكنهم.

هـ. تزايد الخلافات خاصة بين الزوجات وحمواتهن، إذ تشعر الزوجة أنها سيدة البيت، بينما يصعب على حماتها أن تَقْبَل هذا الوضع، وتتصرَّف الحماة لا شعوريًا كمُربية البيت، حتى في التعامل مع

---

١ بحسب *NRSV*: هكذا الوجه الجميل على بنية جليلة *so is a beautiful face on a stately figure*.

الأحفاد.

خلال خبرة الكنيسة في مصر، هذا الأمر يجب الاهتمام به، للأسباب التالية:

أ. ارتفعت نسبة العاملين خارج وطنهم حتى بالنسبة للعائلات الغنية نسبيًا، ويصعب على الأسرة أن تتحرَّك ومعها الجد والجدة.

ب. إلى الآن يحسب كثير من العائلات أن التحاق الشيوخ ببيوت كبار السن إهانة لهم وعدم اهتمام الأبناء بوالديهم.

ج. صارت بيوت كبار السن أمرًا لا مفر منه في حالات كثيرة، وتبنَّت بعض الكنائس مثل هذه البيوت كنوعٍ من الرعاية لكبار السن، ولتحاشي المشاكل الأسرية الناجمة عن ضمّ الشيخين إلى الأسرة الصغيرة. وفي بعض الدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية، تُساهِم الدولة في نفقات هذه البيوت سواء في إنشائها أو نفقاتها الشهرية، إذ تشعر أن المؤسسات والكنائس بهذا العمل تشترك في رفع بعض المسئوليات عن المؤسسات الحكومية.

د. ما يلزم تأكيده للطرفين الأبناء وكبار السن أن الالتحاق لبيوت السن لا يُحسَب إهانة للوالدين الشيخين مادام الأبناء يُقَدِّمون مشاعر حب ورعاية واهتمام عاطفيًا وماديًا ما استطاعوا.

٩. الشاب المتسيِّب والنساء [1]

يظن البعض أن ابن سيراخ كاره للنساء *misogynist*، بسبب نقده السلبي للنساء الشريرات. إذ قدَّم تحذيرات سلبية للشباب الذين كانوا تحت التعليم ليصيروا كتبة، منها:

- "لا تلتقِ بامرأة زانية، لئلا تقع في أشراكها" (٩: ٣).
- "لا تُسَلِّم نفسك إلى داعرات، لئلا تفقد ميراثك" (٩: ٦).
- "اصرف نظرك بعيدًا عن امرأة جميلة، ولا تتفرَّس في حسناء غريبة" (٩: ٨).
- "لا تتناول العشاء مع امرأة متزوجة لآخر، ولا تشترك معها في حفلات بها خمر" (٩: ٩).

وقد دافع البعض عنه:

أ. جاء السفر يضمّ ٥٦ آية عن النساء، ٢٨ آية تُقَدِّم الجوانب الإيجابية، و٢٨ تُقَدِّم جوانب سلبية وتحذيرات. في سفر المزامير وُجِدَت تحذيرات من الرجال الأشرار (مز ١٤٠: ١-٢٥؛ ١٤١: ٤). فكما يوجد نساء شريرات يوجد أيضًا رجال أشرار، وكما يوجد أبناء متمردون توجد بنات متمردات. لم يكن ابن سيراخ ضد المرأة، إنما ضد الشرّ سواء كان صادرًا من الرجل أو من المرأة. في الواقع انتقد

---

[1] *Cf. J. Liesen & L.W. Manhardt: Wisdom, Steubenville, O: Emmaus Road Publishing, chapter 18, Sirach 23-32.*

بحزمٍ كلاً من الرجال والنساء الذين يُحَطِّمون نذر الزواج (٢٣: ١٨-٢٧). حتى إن أخفى الإنسان خطية الزنا عن شريك (أو شريكة) الحياة، فإن الله ينظر ما يفعله الإنسان خفية.

ب. تحدَّث بكل تقدير وتكريم للإناث السالكات في مخافة الربّ وبروح الحكمة سواء كن زوجات أو أمهات أو بنات. لقد أبرز التبايُن بين الفتاة الصالحة والفتاة المُتسلِّطة والعنيدة التي تجلب العار والخزي لأسرتها.

ج. واضح أنه لم يكن كارهًا للمرأة، كما جاء في البداية عن التزامات الوالدين (٣: ١١). لقد دافع عن كرامة كل الأمهات وتكريمهن، سواء كانت الأم صالحة أو شريرة، لأنها قدَّمت له عطية الحياة. كما أعلن ابن سيراخ عن صلاح الزواج بامرأة حكيمة وصالحة.

د. عالج موضوع "النساء" بما يناسب الثقافة المُعاصِرة له. بلا شك كانت ظروف المجتمع التي عاش فيها ابن سيراخ في القرن الثاني ق.م. تختلف عن الظروف التي نعيش فيها اليوم خاصة في الغرب. كان يُنظَر إلى البنات كثقلٍ على أكتاف الوالدين أكثر منهن بركة يتهللان بهن. كان الوالدان يلتزمان بالحفاظ على بتولية ابنتهما لئلا يغتصبها أحد فلا يَقْبَلها أحد حتى وإن كان السقوط خلال عمل قهري. وكانت الفتاة تعتمد كليةً على والدها إلى يوم زواجها حيث يصير رجلها هو المُلتزِم بكل احتياجاتها. غالبًا لم يكن لها دور في اختيار الزوج، وكان يمكن للوالد أن يُلزِم ابنته أن تتزوج رجل أرمل يكبرها بسنوات كثيرة. كان من حق الزوج أن يُطلِّق امرأته لأنه لا يُسرّ بها. فداود ترك زوجته ميكال ابنة شاول لأنها استخفَّت به وهو يرقص أمام تابوت العهد (٢ صم ٦: ٢٠-٢٣)، وماتت دون أن تنجب طفلاً. وبالمثل قام الملك أحشويروش بتطليق زوجته الملكة وشتي، لأنها رفضت الظهور لإبراز جمالها أمام الملك وهو في حالة سُكر مع رجاله (إس ١).

هـ. كان ابن سيراخ أشبه بعميد لأكاديمية تضم شبابًا يتدرَّبون ليصيروا كتبة. كأستاذ ومُعَلِّم وأب روحي لمجموعة شباب يصيرون في المستقبل قادة، يليق بهم أن يكونوا قدوة للشباب. جاءت أحاديثه تُمَثِّل وصايا ونصائح وإرشادات لشباب في سن المراهقة المتأخرة.

و. بقوله: "من امرأة نشأت الخطية، وبسببها نموت نحن أجمعون" (٢٥: ٢٣)، حقًا لقد جُرِّبت حواء وأخطأت. لكنه هنا يشير إلى الخطية الأصلية (تك ٣: ١٣)، التي أنتجت عقوبة الموت على الجنس البشري: "إلى تراب تعود" (تك ٣: ١٩).

أما عن قوله: "خبث الرجل خير من امرأة تعمل ما هو صالح وهي تجلب الخزي والفضيحة" (٤٢: ١٤)، هذه العبارة التي تُسَبِّب مشكلة للبعض سببها الترجمة من العبرية إلى اليونانية. كتب ابن سيراخ بالعبرية، وحفيده ترجم عمله إلى اليونانية. جاءت الترجمة الحرفية العبرية: "خشونة الرجل

أفضل من سذاجة *do-gooder* امرأة". ما تحمله هذه العبارة ربما لأن ابن سيراخ كان يُوَجِّه حديثه للوالدين أو الأوصياء مُطالِبًا إياهم بالحزم مع الابنة العنيدة المُتمردة لئلا تجلب العار على الأسرة. النص العبري معناه "الأب الصارم أفضل من الأم المتهاونة بمبالغة والتي تُدَلِّل ابنتها". الخبث شرير بالنسبة للرجال والنساء. لكن الوالدية الصالحة غالبًا ما تتطلَّب حزمًا يراه الطفل خشونة وقسوة (عب ١٢: ١١). أحيانًا الآباء كما الأمهات يمكن أن يكونوا متراخين في ليونة. بهذا يُترَك الطفل دون أن يضع له أحد حدودًا، ويقدم له توجيهًا قويًا ويسنده بالتهذيب الحازم.

ز. كثيرًا ما تحدَّث الحكيم عن الصداقة، وقد خشي أن يُسِيء البعض مفهوم الصداقة، فلا يدركون غايتها، ولا يعرفون حدودها، فيرتبط الشاب بنساء بغير حذرٍ. هذا وقد قدَّم ابن سيراخ أبيجايل كنموذجٍ رائعٍ للصداقة الحكيمة المقدسة، ونابال رجلها كنموذج للشخص الفظ غير المهذب.

ح. يقول *Stacy Davis*: [بينما يُشَخْصِن ابن سيرا الحكمة كمؤنث، لم يفعل هذا بالنسبة للحماقة.] كما يقول إن سيراخ وهو يُقَدِّم لنا الحكمة بكونها مؤنث، فإن أتباعها المُخلِصين والمُتحمِّسين لها ذكور وإناث، وقد أبرز الكتاب المقدس هذا، مثل عرضه لدبّورة النبية والقاضية الحكيمة بين القضاة، وتقوع "امرأة حكيمة" (٢ صم ١٤: ٢-٢٠)، والمرأة الحكيمة التي في آبل أنقذت المدينة (٢ صم ٢٠: ١٦-٢٢).

جاءت كتابات قمران تحمل نفس الفكر، فقد تكرَّر التعبير عن الحكمة "المرأة الحكمة *Woman Wisdom*" بينما لم تذكر قط "المرأة الحماقة *Woman folly*".

هذا وقد كانت اليهودية مُحاطة بثقافات تُحاوِل أن ترفع من شأن المرأة، فكانت تتعبَّد لآلهات *goddess* كما لآلهة. حاليًا لازالت بعض الجماعات اليهودية تمتدح "السبت" بكونه "الملكة العروس السبت *bride, O Queen Sabbath*". وفي المسيحية تُكرم الكنائس الأرثوذكسية القديسة الملكة مريم بكونها والدة الإله بتجسده منها والعضو الأمثل في الكنيسة.

في العهد الجديد شُخصنت كل من الحكمة والحماقة بالمرأة، الأولى ترتدي الشمس (رؤ ١٢: ١)، والثانية المرأة الزانية التي ترتدي الأرجوان والقرمز وجالسة على الوحش (رؤ ١٧: ١، ٤).

ط. قام بعمل ثوري بخصوص المرأة الصالحة بكونها بركة، في الوقت الذي كان فيه يتعامل بعض الرجال مع النساء كمقتنيات يُمكِن للرجل أن يهب إنسانًا ابنته كزوجة بغير إرادتها. عوض التعصُّب لجنس الرجل مدح الزوجة العاقلة. في سفر الأمثال مُدِحَت الزوجة النموذجية من أجل اهتمامها بالعمل وخدمتها للفقراء، أما في هذا السفر فيمدحها لأجل حكمتها وتعقلها بكونها بركة للأسرة.

- "سعيد هو الزوج لزوجة صالحة" (٢٦: ١).
- "الزوجة الصالحة نصيب عظيم، وتكون نصيب من يخاف الربّ" (٢٦: ٣).
- "لا تتجاهل زوجة حكيمة وصالحة، فإن نعمتها أفضل من الذهب" (٧: ١٩).
- "لطف الزوجة يُبهِج زوجها، ومهارتها تسمن عظامه" (٢٦: ١٣).
- "الزوجة الصامتة عطيّة من الربّ" (٢٦: ١٤).
- أشار إلى جاذبية المرأة الحكيمة الفاضلة، وأنها أفضل من الذهب. لقد نُسبت الحكمة للنساء كما للرجال.

تحقَّقت الثورة الحقيقية في تقدُّم عالم المرأة في الكتاب المقدس بتجسد الكلمة الإلهي، ربنا يسوع الناصري، واحترامه وتكريمه لأُمِّه. تَمَّم أول معجزة بناءً على طلبها (يو ٢: ١-١١).

صادَق ربنا يسوع نساء، فأحبّ مريم ومرثا ولعازر (يو ١١: ٥). أظهر حنوًا على أرملة نايين التي مات ابنها الشاب، فأقامه من الموت، ودفعه إلى أمه (لو ٧: ١١-١٥). كانت النساء أول من شهد لقيامة المسيح من الأموات في فجر الأحد.

١٠. الصداقة

يرى *Jeremy Corley* في بنيان السفر ككل أننا لا نجد حديثًا عشوائيًا عن الصداقة، بل جاء الحديث عنها في ذات نسيج السفر الداخلي.

فحين تكلم عن تطبيق الحكمة كشخصٍ، قدَّم القصيدة الأولى عن الصداقة (٦: ١٧-٥) بخصوص السلوك الحكيم في التعامل مع الأصدقاء الكامنين (الذين يحملون إمكانية الصداقة الصادقة).

وعندما عالج موضوع تطبيق الحكمة اجتماعيًا، كان من الطبيعي أن يتعرَّض كثيرًا للصداقة (٧: ١٢، ١٨؛ ٩: ١٠-١٦؛ ١٢: ٨-٩؛ ١٣: ١٥-٢٣؛ ١٤: ١٣).

وعندما عالج موضوع تطبيق الحكمة في الحديث كما في التفكير، تحدَّث عن كسب الأصدقاء، مع مراعاة الحديث الذي يُحَطِّم الصداقة مثل الشتائم والإهانات (٢٢: ٢٦-١٩).

وعندما عالج موضوع تطبيق الحكمة في الحياة الأسرية، وضع في اعتباره ما يصيب الصداقة من ضرر بإفشاء أسرار الأسرة (٢٧: ٢١-١٦). وعندما تحدَّث عن استخدام الحكمة في أخذ قرارات صالحة (٣٧: ٦-١)، قام بالتمييز بين الأصدقاء الصالحين والأشرار.

١١. الولائم والحفلات

من المظاهر الاجتماعية التي كانت منتشرة في ذلك الحين والمبالغ فيها إقامة ولائم *symposium*. غير أن هذه الظاهرة ظهرت في الثقافة الفارسية والإمبراطوريات المتوالية (أس ١: ٥-١٢؛ ٥: ٤-٨؛ ٦: ١٤-٧: ٢؛ دا ٥: ١-٤) وأيضًا الثقافة اليهودية (إش ٥: ١١-١٢؛ ١ مل ١٦: ١٥-١٦؛ مر ٦: ٢١-٢٢). هكذا لم تكن هذه الظاهرة في القرن الثاني ق.م. قاصرة على الثقافة الهيلينية. يمكن القول إن انتشار الثقافة اليونانية ضاعف هذه الظاهرة في بلادٍ كثيرة.

كانت هذه الولائم تقوم على المنافسة في تقديم أطعمة كثيرة، وخمرٍ بفيضٍ مع موسيقى وأمور أخرى ترفيهية. لم يكن ممكنًا مهاجمة هذه الولائم، إنما طالب ابن سيراخ بالاعتدال في كل شيءٍ: في الأكل والشرب وعدم السماح للإنسان أن يطلق العنان لنفسه بلا تقديس وضبط النفس مع مراعاة إمكانيات الآخرين ومشاعرهم.

يليق بالمؤمن في شركته في الولائم لا الانشغال بالأكل والشرب واللذة، بل أن يحفظ نفسه مقدسًا مع ضبط نفسه. وجَّه ابن سيراخ تلاميذه مراعاة الوقت المناسب والكمية المناسبة، والكلام المناسب. يعرف متى يبدأ مشاركته في الوليمة ومتى يتوقَّف عن تناول الطعام، ويعرف متى يتكلم ومتى يصمت، وأيضًا مراعاة عدم التأخُّر عن الرجوع إلى بيته.

١٢. الخطية[٥]

الخطية شرّ، ولكن الله يُخرِج من الشرّ خيرًا بطرق شتى:

أ. **ضعف الخاطئ في حد ذاته يُثير عاطفة الله إن صحّ التعبير**. "فلذلك يطيل الربّ أناته عليهم، ويفيض برحمته عليهم. إنه يرى ويَعْلَم نهايتهم أنها شريرة، لذلك يُقَدِّم لهم كفّارة كاملة. رحمة الإنسان هي لقريبه، أما رحمة الربّ فلكل ذي جسد. يُوَبِّخهم ويُدَرِّبهم ويُعَلِّمهم كراعٍ يردّ قطيعه إلى الحظيرة. إنه يرحم الذين يَقبَلَون تأديبه، والذين يبادرون إلى أحكامه" (١٨: ١٣-١٠).

ب. **في الشريعة يعطي الإرشاد والتشجيع لتجنُّب الخطية**، وحفظ الوصية يعطي قوة أخلاقية لتحفظ الخاطئ من إثارات الخطية. إنها تدعونا إلى طلب الحكمة والهروب من الحماقة. "من حفظ الشريعة سيطر على أفكاره، وكمال مخافة الربّ الحكمة. من لم يكن ذكيًا لا يتعلَّم، ولكن يوجد ذكاء يكثر المرارة" (٢١: ١٢-١١). " من يخاف الربّ يَقْبَل التعليم، والمُبَكِّرون إليه ينالون رضاه. من يطلب الشريعة يمتلئ بها، وأما المرائي فيتعثَّر فيها... من يثق في الشريعة ينتبه إلى الوصايا، والذي يتَّكِل على الربّ لا تلحقه خسارة" (٣٢: ١٥-١٤، ٢٤).

---

[٥] راجع تفسير سفر يشوع بن سيراخ، الأنبا مكاريوس، الأسقف العام، المقدمة.

ج. **شعور الإنسان بميله إلى الخطية يجعله يتقرَّب إلى الله بالصلاة**، والصلاة تهبنا العون لتجنُّبها أو التغلُّب عليها. "من الذي يقيم حارسًا لفمي، وخاتم التعقُّل على شفتي، فلا أسقط بسببهما، ولا يهلكني لساني؟" (٢٢: ٢٧). "أيها الربّ أبو حياتي وإلهها، لا تدع لي عينين متعاليتين بل اصرف عني الشهوة الشريرة. لا تسمح للنهم ولا للشهوات أن تسود عليَّ، ولا تُسَلِّمني إلى نفسٍ وقحةٍ" (٢٣: ٤-٦).

د. **الغلبة على الإغراء يمكن أن يكون فرصة لاستحقاق المكافأة**. "فالربّ لا يؤجِّل، ولا يُبطِئ في مساعدتهم. حتى يُحَطِّم أحقاء الذين بلا رحمة، ويجازي بالانتقام على الأمم حتى يمحو جموع المتكبرين، ويُحَطِّم صولجان الظالمين. حتى يكافئ الإنسان حسب أفعاله، وأعمال البشر حسب أفكارهم. حتى يجري القضاء لشعبه، ويفرحهم برحمته" (٣٥: ٢٣-١٩). "من الذي يُمتحَن به فيوجد كاملاً؟ له أن يفتخر بذلك. من الذي استطاع أن يتعدَّى ولم يتعدَّ؟ وأن يصنع الشر ولم يصنع؟ ستكون خيراته ثابتة، وتخبر الجماعة بصدقاته" (٣١: ١١-١٠).

هـ. **حتى إن هزمتنا الخطية؛ فالتوبة تُقَرِّبنا بالأكثر إلى الله**، وتلغي عقوبتها.

"قبل أن تمرض تواضع، وعند ارتكاب الخطايا **أثبت رجوعك (لله)**" (١٨: ٢٠).

"أرضى أخنوخ الربّ، فنُقِل، **كمثال للتوبة لكل الأجيال**" (٤٤: ١٦).

١٣. الكبرياء

كثيرًا ما تحدَّث عن الكبرياء بكونه بدء الخطايا التي استخدمها عدو الخير لسقوط الأبوين الأولين، وأنها خطية مُوَجَّهة ضد الله، حيث لا يتجاهل المخلوق خالقه فحسب، بل ويُعلِن حالة تمرُّد عليه، كما تقف عائقًا عن قدسية الإنسان وممارسة الحب لله والناس، بدء الكبرياء ارتداد المخلوق عن خالقه (١٠: ١٢-١٣؛ ١٠: ١٨، ٢١؛ ٣٢: ١٢).

ما يُوَضِّحه ابن سيراخ أن الكبرياء كان غريبًا عن طبيعة الإنسان الأصلية، إذ يقول: "لم يُخلَق الكبرياء لأجل الناس، ولا حدّة الغضب لأجل مواليد النساء" (١٠: ١٨). لعل ابن سيراخ يود أن يؤكد للمؤمنين أن طبيعة الإنسان الأصلية تتَّسِم بالحرية، فلم يكن للكبرياء سلطانًا أن يقتحم قلب الإنسان وفكره، إنما بكامل إرادته استجاب لمشورة إبليس المتعجرف، ففقد الإنسان الحرية، وانحنت إرادته التي فسدت بالكبرياء.

إن كنا الآن قد صرنا خليقته الجديدة في المسيح يسوع، صارت كلمات الرب نيرًا حلوًا وهيّنًا إذ يقول: "تعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب" (مت ١١: ٢٩).

يليق بنا أن نُمَيِّز بين اعتزازنا بعمل نعمة الله الذي وهبنا وزنات مُعَيَّنة أو نجاحًا في حياتنا الروحية

أو في معاملاتنا في المجتمع، فلا نعجب من قول الرسول: "أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني" (في ٤: ١٣).

١٤. الاعتدال

خلق الله العالم بحكمةٍ وتدبيرٍ فائقٍ لأجل صالح الإنسان وبنيانه، وجاء السفر يدعو البشر إلى استخدام الخليقة بتدبيرٍ حسنٍ باعتدالٍ.

ففي **الأمور المالية** يطلب من الإنسان عند تقديم صدقة أو قرضٍ أو كفالةٍ أن يعرف لمن يُقَدِّم المال، وفيمَ يستخدمه وما هي حدود العطاء، وما هي إمكانية المعطي.

وفي **الأكل والشرب** يلتزم المؤمن بالاعتدال بوجهٍ عام لكي يُحافِظ على صحته.

وفي **الولائم والحفلات** تحدَّث عن آداب المائدة وعدم المبالغة في الأكل والشرب والموسيقى.

وفي **المرض** يذهب إلى الطبيب ولا يمتنع عن أخذ الأدوية (٣٨: ١٥-١).

وفي **الحزن على الميت** يكون باعتدال (٣٨: ٢٣-١٦).

وفي **استضافة صديقٍ له**، يليق بالضيف ألا يكون ثرثارًا وألا يطيل المدة (٣٢: ١٣-٤).

وفي **الكلام** طالب ألا يكون الإنسان ثرثارًا، كما لا يصمت إن كانت توجد حاجة للكلمة كي تنقذ إنسانًا من الظلم.

في نقل الكلام يقول: "لا تكرر أبدًا كلمة، فلا تكون خاسرًا قط؛ لا تُخبِر بها صديقًا أو عدوًا، ولا تكشفها ما لم تخطئ إن كتمتها" (١٩: ٨-٧).

إن كان الحكيم يتَّسِم بالاعتدال في كل شيء، فالأحمق لا يعرف الاعتدال. إنه **كإناءٍ مكسورٍ** لا يحتفظ بشيء فيه بل يتكلم بلا ضابطٍ (٢١: ١٤).

يظهر عدم اعتدال الأحمق حتى في **الضحك**: "يرفع الأحمق صوته عند الضحك" (٢١: ٢٠). **وطريقة مشيه** تشهد لتسَّرعه: "قدم الأحمق تسرع في دخوله بيت" (٢١: ٢٢).

وفي تهوره **يُسرع في الكلام** دون التفكير في قلبه (عقله)، إذ يقول: "قلوب الحمقى في أفواههم، وأفواه الحكماء في قلوبهم (٢١: ٢٦).

١٥. أخلاقيات المنع

من ملامح نصائح ابن سيراخ التي تستحق التفكير فيها بجديةٍ هي نصائحه عن المَنْعِ. جُمِعَت نصائح المصريين واليونانيين ولم يوجد فيها ما يمنع العمل من أجل نوال كرامة زمنية والعظمة الأرضية، بل بالعكس كانت غالبًا ما تدفع البشر إلى طلب هذه الأمور الزائلة. يرى البعض أن النهم

والخمر والأهواء الجسدية هي أكثر الأمور التي تُهَدِّد ضبط النفس عند الرجال والشبان، لذلك يتطلَّع البعض إلى المال والخمر والنساء، هؤلاء الثلاثة لهم أثرهم السلبي في حياتهم.

١٦. الحكمة والسيد المسيح

شخصنة الحكمة، جعل ارتباطها بالسيد المسيح أمرًا طبيعيًا في حياة الكنيسة في العهد الجديد. منذ الخلقة انسكبت الحكمة من عرش الله كعطية للبشرية، تكشف عن محبة الله لكل البشر. أما وقد جاء حكمة الله نفسه متجسدًا، فصار لنا أن نتمتَّع بالاتحاد به، ولم تَعُد الحكمة الإلهية غريبة عنا.

سيراخ يُعِدّ الطريق لإنجيل المسيح

كان لسفر سيراخ فاعلية في حياة القادة اليهود منذ القرن الثاني قبل الميلاد، وربما كان موضع دراسة وإعجاب بعض المفكرين من الأمم أيضًا. كان هذا تمهيدًا لبثّ الاشتياق إلى الفكر الإنجيلي وقبوله.

أولاً: تأثَّر المفسرون اليهود للشريعة بسفر سيراخ؛ هذا أَعدّ البعض للتلامس مع ما ورد في إنجيل متى ورسالة يعقوب، خاصة ما ورد في الموعظة على الجبل، والتركيز على الإنسان الداخلي، وأيضًا عدم استطاعة الإنسان أن يتمتَّع بالمغفرة من الله ما لم يغفر هو لقريبه.

ثانيًا: يمكننا إدراك تهيئة سيراخ للفكر المسيحي بمقارنة العبارات الواردة بالسفر مع ما ورد في العهد الجديد:

وجه المقارنة	سفر يشوع بن سيراخ	العهد الجديد
عطية الله لمُحبِّيه	(سي ١: ٨)	(١ كو ٢: ٩)
احتمال التجربة	(سي ٢: ١-٦)	(يع ١: ٢-٤)
الذهب يُمتحَن بالنار	(سي ٢: ٥)	(١ بط ١: ٧)
العطاء	(سي ٤: ٤)	(مت ٥: ٤٢)
الحب يهب بساطة الطفل	(سي ٤: ١٠)	(مت ٥: ٤٥)
سرعة الاستماع والتمهُّل في التكلم	(سي ٥: ١١)	(يع ١: ١٩)
دعوة المسيح إلى المجيء إليه	(سي ٦: ٢٤-٢٨، ٢٤: ١٩؛ ٥١: ٢٣-٢٧)	(مت ١١: ٢٨-٣٠)

عدم تكرار الكلام باطلاً	(سي ٧: ١٤)	(مت ٦: ٧، ١١: ٢٨)
فرحًا مع الفرحين وبكاءً مع الباكين	(سي ٧: ٣٤)	(رو ١٢: ١٥)
الرب يرفع المتواضعين	(سي ١٠: ١٤)	(لو ١: ٥٢)
الغِنَى	(سي ١١: ١٩)	(لو ١٢: ١٩)
محاسبة النفس	(سي ١٤: ٢)	(١ يو ٣: ٢١-٢٢)
التجارب	(سي ١٥: ١١ الخ)	(يع ١: ١٣-١٤)
تسيُّب اللسان	(سي ٢٢: ٢٧)	(يع ٣: ٦)
الصلاة للآب	(سي ٢٣: ١، ٤)	(مت ٦: ٩؛ يع ٣: ٩)
المغفرة للقريب	(سي ٢٨: ١-٥)	(مت ٦: ١٢، ١٤-١٥؛ ١٨: ٢٣-٣٥)
الغضب ضد الأخ	(سي ٢٨: ١-٧)	(مت ٥: ٢١-٢٢، ١٨: ٢٣-٢٥)
من الفم تخرج بركة ولعنة	(سي ٢٨: ١٢)	(يع ٣: ١٠)
الخزَّاف والطين	(سي ٣٣: ١٣)	(رو ٩: ٢٠-٢١)
ليس كل الأشياء تُوافِق	(سي ٣٧: ٢٨)	(١ كو ٦: ١٢)

سيراخ والديداكية

كلمة "ديداكية" *Didache* عن الحروف اليونانية الأولى لعنوان عمل يُسمَّى "تعليم الرب للأمم بواسطة الاثني عشر رسولاً". وهي تُعتبَر أهم وثيقة بعد كتابات الرسل، تكشف عن الحياة الكنسية الأولى من الجانب السلوكي والليتورچي والتنظيمي. يمكن مقارنة بعض العبارات التي في الديداكية بما ورد بسفر سيراخ:

أ. الصدقة والعطاء: "الماء يُطفِئ النار المُلتهِبة، والصدقة تُكَفِّر عن الخطايا" (٣: ٢٨). "إن كنت تملك شيئًا من تعب يديك، فقدِّم الفدية (بدم المسيح) عن خطاياك (بالعطاء)" (ديداكية ٤: ٦). "لا

تبسط يدك للأخذ، وتقبضها عن الإيفاء" (٤: ٣١). "لا تبسط يديك للأخذ وتطبقهما عند العطاء" (ديداكية ٤: ٥).

ب. الحكمة في الإحسان: "إذا أحسنت فاعرف إلى من تُحسِن، فتكون مشكورًا على أعمالك الصالحة" (١٢: ١). "ليكن إحسانك بعرق يديك إلى أن تعرف لمن تُعطِي" (ديداكية ١: ٦).

أورشليم أم أثينا

كانت ظروف اليهود في القرن الثاني ق.م في غاية الصعوبة، وكان موضوع المناقشة الرئيسي في ذلك الحين هو: أيهما يجلب السعادة للفرد كما للشعب. في المظهر الخارجي بدأ نجم أثينا –مركز الفلسفة اليونانية– يتلألأ ويتفوَّق على أورشليم مدينة الله، للأسباب التالية:

أ. كان الحُكْم السائد في يد أثينا، حيث تلألأت الإمبراطورية اليونانية، وسادت على دول كثيرة من بينها إسرائيل (فلسطين)، بالرغم من العلاقات الطيبة بين اليونانيين واليهود في الفترة الأولى من قيام الإمبراطورية والسماح لليهود بتدبير الأمور على أيدي قادة يهود مقابل دفع جزية سنوية.

ب. كان كثير من اليهود في حزنٍ شديدٍ حيث قارن الشيوخ بين عظمة الهيكل الذي بناه سليمان وإعادة بنائه بعد الرجوع من السبي البابلي.

ج. انجذاب بعض قادة اليهود إلى الفلسفات اليونانية، وعدم مراعاتهم الالتصاق بالله وحفظ التوراة أو شريعة موسى.

لم يُهاجِم ابن سيراخ الفلسفة في الأصحاح الرابع والعشرين ولم يُقارِن بين أورشليم وأثينا، وإنما قدَّم حديثًا على لسان الحكمة فيه تُبرِز **عظمة أورشليم** كمصدر السعادة الحقيقية بكونها مدينة الله واهب الحكمة السماوية خلال وصاياه.

أ. الحكمة كأمٍ تفتخر وسط شعبها المختار "**جماعة العليّ**" [٢].

ب. ليست حكمة بشرية أرضية، إنما خرجت من فم العلي، تجول في دائرة السماء [٣– ٤].

ج. إن كان لها شعب خاص، غير أنها ستجتذب كل الأمم، وتعمل في الشعوب، وتهبهم راحة سماوية [٨–٦].

د. مسكنها واستقرارها في صهيون [١٠].

هـ. مدينة الحكمة أورشليم المحبوبة [١١].

و. تحمل رائحة الحياة (رائحة المسيح الذكية) [١٥].

ز. تهب الشبع الداخلي بثماره الحلوة كالعسل والشهد [٢٠].

ح. لن يملّ منها أحد، بل كلما تناولها إنسان ازداد جوعه وعطشه إليها [٢١].

ط. تُقيم عهدًا مع البشر كما حدث مع الآباء البطاركة الأولين نوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب.

ي. تفيض بالفهم بغير مكيال مثل أنهارٍ تروي النفوس [٢٦-٢٥].

ك. تشرق بالتعليم والمعرفة كالنور [٢٧].

ل. تدخل بالإنسان إلى أعماقٍ بلا حدودٍ [٢٨].

م. إنها عروس فتاة لن تشيخ [٣٠]، تهب من يقتنيها نموًا مستمرًا وتقدُّمًا لا يتوقَّف [٣٠].

هذه السمات الفريدة تنطبق على شخص السيد المسيح حكمة الله المتجسد، إنها عربون أورشليم العليا التي فتح الصليب أبوابها للمؤمنين المُلتصِقين بربّ المجد، ولا تتوفَّر في أثينا وفلسفاتها.

هذه السمات التي لحكمة الله المقدمة لحافظي الشريعة تعبر بنا من هيكل الرب في أورشليم إلى المقادس السماوية، وتحث حتى المقاومين للحق الإلهي أن يمتلئوا رجاءً، وأن يتمتَّعوا بهذه العطية سواء كانوا يونانيين أو سامريين أو غيرهم عبر العصور.

يقول كل من *Hayward* و*Rogers* وغيرهما من الدراسين إن الأصحاح الرابع والعشرين من السفر يبرز أن مسكن الحكمة هو أورشليم التي هي أعظم من اليونان، وجاء وصفها أسمى من الإلهة المصرية إيزيس أيضًا[1].

[1] *Cf. C. T. R. Hayward: Sirach and Wisdom's Dwelling Place, 1999, p. 31-46; J. F. Rogers: Wisdom and Creation in Sirach, JNSL 22 no 22:141-56, 1996, p. 114-121.*

لأَتمتَّع بالصداقة الإلهية
فيتَّسِع قلبي لكل البشرية

❖ إلهي، بماذا أدعوك، وأنا منطلق في هذا السفر العجيب؟
أنت هو "**الصديق السماوي**"، إذ بالحق أنت ملجأ نفسي،
ودواء الحياة، والكنز الأبدي؟ (٦: ١٤، ١٦)
أنت هو "**المشير الواحد**" بين الألف من أتقيائك القديسين،
تقودني إلى أحضانك الإلهية؟ (٦: ٦)
أنت هو "**حكمة الله**"، إذ تُقِيم في نفوسنا،
فتسكب فينا الحكمة والفهم والمعرفة؟ (١:١)
أنت هو "**الأب الكليّ الحب**"، إذ حُمِلت عني الصليب،
كي أَجِدَك مُرافِقًا لي في الطريق الضيق، وتُحوِّله إلى فردوسٍ عجيبٍ! (٢: ٣- ٩)
أنت هو "**ابن الإنسان القدوس**"، نزلت من سماواتك، كي ألتصق بك في هذا العالم،
دون أن أرتعب من الالتصاق بك يا كليّ المجد! (٢: ٣)
أنت هو **أب الأيتام وقاضي الأرامل**، وإله المنسيّين والمرذولين! (٧: ٣٢)
أنت هو "**ضابط التاريخ**" حرَّكت وتُحَرِّك أُممًا إلى منتهى الدهور،
كي تُقَدِّم لي ولكل الأمم بشارة إنجيلك واهب التهليل!
أنت هو الكل في الكل! (١ كو ١٥: ٢٨)

❖ أخبرني، لماذا كادت أن تسود الثقافة الهيلينية العالم قبل تجسُّدك،
وكادت فلسفتهم أن تُحَطِّم تقديس شعبك القديم للشريعة؟
في غيرة مُتَّقدة انطلق سيراخ يُعلِّم بأنك واهب الحكمة الحقيقية، وشريعتك هي مصدرها!
عظيم هو جهاده، فقد أعلن لشعبه اليهوديّ كما للأمم أنك صديق البشرية كلها!
يجد فيك اليهوديّ التحرُّر من الحرف القاتل في العبادة وفهمًا عميقًا للشريعة.
ويجد فيك الأمميّ ما لم تستطع كل فلسفات العالم أن تعطيه إياه.
في غيرته لم يحمل كراهية للفلسفة والعلم والفكر،
بل طلب من الفلاسفة مراجعة حساباتهم،

ومقارنة عقولهم المتشامخة عليك يا خالقها، بالأفكار المقدسة فيك.
دعا سيراخ الجميع، اليهود والأمم، أن ينطلقوا معي في جولة للتلامس مع قدرتك أيها الخالق، ورعايتك الفائقة للمسكونة.
دعاهم لإدراك عظمتك ورعايتك الفائقة حتى للحيوانات والطيور.
انطلق باليهود من عبادة الحرف في ضيق أفقٍ إلى الحوار المفتوح والصداقة معك!
وانطلق بالأمم كي يترقَّبوا مجيئك إلى العالم،
بكونك الصديق الحقيقي، والمشير الفريد العجيب وواهب القيامة!

❖ بالحق ألهب سيراخ قلوبنا بالحب خلال التصاقنا بك،
فبقبولنا لك أيها الصديق السماوي،
انفتح لنا طريق الصداقة مع بني البشر.
رفعت أفكارنا في السماء، ودعوتنا للسلوك بالحكمة وروح التمييز في كل كبيرة وصغيرة.

❖ دعوتنا أن نُكَرِّس القلب بكامله لك أيها الصديق السماويُّ.
وإذ تحلّ فيه تقَّدس عواطفنا وأفكارنا وكلماتنا وسلوكنا!

❖ أرشدتنا إلى سكناك يا أيها الصديق السماويُّ في قلوبنا،
وحلولك في وسط عائلاتنا، وتقديسك لكل أعمالنا!
تُحوِّل عائلاتنا إلى سماوات جديدة متهللة!
دعوتنا ألا نخاف العدو كما لا نثق فيه،
من هو هذا العدو، سوى المُقاوِم لك أيها الصديق السماويُّ؟

❖ ماذا أَرُد لك عن عطاياك المخفية عن البشر؟
سمحت بترجمة التلمود إلى اليونانية، وثار الكثير من اليهود الأتقياء على ذلك.
لم يُدركِوا أنك أنت واضع الناموس ومُعلِن النبوات سمحت بذلك.
فلو لم يُترجَم التلمود إلى اليونانية بأمر بطليموس،
كيف كان يمكن لبولس الرسول أن يكرز بين الأمم والشعوب؟
قدَّم لهم النبوات، وما كان يمكنهم أن يقرأوها بالعبرية!
منذ عشرات القرون سمحت يا إلهي بترجمة التلمود،
كي أَتسلَّمه أنا في هذا القرن باللغة التي أستطيع أن أقرأها. يا لحُبّك لضعفي!

المراجع المستخدمة في ترجمة النص ومراجعة الترجمة

١. ترجمات للكتاب المقدس:

The Orthodox Study Bible. By St. Athanasius Academy of Orthodox Theology: Thomas Nelson, 2008.

جاء ترقيم الآيات بحسب *OSB* لاستخدام غالبية الأقباط المتحدِّثون باللغة الإنجليزية له في اجتماعاتهم الكنسية واجتماعات الشباب والدراسات الشخصية.

الكتاب المقدس: دار المشرق، بيروت – لبنان ١٩٩٧.

Brannan, R., Penner, K. M., Loken, I., Aubrey, M., & Hoogendyk, I. (Eds.). (2012). *The Lexham English Septuagint*. Bellingham, WA: Lexham Press.

The Holy Bible: New Revised Standard Version (NRSV). (1989). Nashville: Thomas Nelson Publishers.

La Bible en Français Courant (Nouvelle Edition révisée 1997). Alliance Biblique Universelle.

٢. قواميس يونانية

Liddell, H. G., Scott, R., Jones, H. S., & McKenzie, R. (1996). *A Greek-English lexicon*. Oxford: Clarendon Press.

Arndt, W., Danker, F. W., & Bauer, W. (2000). *A Greek-English lexicon of the New Testament and other early Christian literature* (3rd ed.). Chicago: University of Chicago Press.

Lust, J., Eynikel, E., & Hauspie, K. (2003). *A Greek-English Lexicon of the Septuagint: Revised Edition*. Deutsche Bibelgesellschaft: Stuttgart.

The Lexham Analytical Lexicon to the Septuagint. Bellingham, WA: Lexham Press, (2012).

٣. مراجع أخرى

Bullard, R. A., & Hatton, H. A. (2008). *A Handbook on Sirach*. (P. Clarke, S. Brown, L. Dorn, & D. Slager, Eds.). New York: United Bible Societies.

Skehan, P. W., & Di Lella, A. A., O. F. M. (2008). *The Wisdom of Ben Sira: a new translation with notes, introduction and commentary* (Vol. 39). New Haven; London: Yale University Press.

القسم الأول

الحكمة في الشريعة
[١-١٠]

مقدمة النص

يُقَدِّم الحفيد تمهيدًا للترجمة اليونانية لما وضعه جدّه يشوع بن سيراخ باللغة العبرية، وذلك كما قدَّم لوقا البشير تمهيدًا للإنجيل الثالث (لو ١: ١-٤). في هذا التمهيد، يُوَضِّح الحفيد هدف السفر، ويدعو القارئ أن يدرس السفر باهتمام. كما يعطي فكرة عن السيرة الذاتية بخصوص وصول الحفيد إلى مصر وانكبابه بجديةٍ للقيام بالترجمة اليونانية للسفر.

١. عظمة الشريعة والأنبياء

[من الأمور العظيمة الكثيرة التي أُعطيَت لنا خلال الشريعة والأنبياء والذين اقتفوا أثرهم، يلزمنا أن نثني على إسرائيل لأجل التعليم والحكمة.] (١- ٣)

٢. الاعتزاز بالمعرفة وتقديمها للغير

[من الواجب على أرباب المطالعة ألا يقتصروا على اكتساب الفهم، بل أن يتمكَّن محبو التعلُّم أن يفيدوا الذين في الخارج بالكلام والكتابة أيضًا.

هذا ما حمل جدّي يشوع، بعد أن كرَّس حياته لقراءة الشريعة والأنبياء وسائر أسفار آبائنا، وتضلَّع فيها كما ينبغي، على أن يُدوّن هو أيضًا شيئًا مما يختص بالتعاليم والحكمة. لكي ما ينشغل محبو التعلُّم في هذه الأمور، بالإضافة إلى تقدُّمهم في السلوك حسب الشريعة.

لذلك، أَتوسَّل إليكم أن تطالعوها برغبةٍ صالحةٍ ويقظةٍ، وأن تصفحوا عما قد يبدو أننا لم نقدر، مع ما بذلناه من الجهد، على التعبير عن بعض ألفاظه كما ينبغي. لأن ما يُعَبَّر عنه بالعبرية ليس له ما يُعادِله بدقةٍ إذا تُرجِم إلى لغة أخرى. ولا يقتصر هذا الأمر على هذا العمل، بل هناك فارق ليس بقليل بين الشريعة والنبوات وسائر الأسفار وبين نصها الأصلي.] (٣- ٢٥)

٣. اعتزازه بالشريعة دون مهاجمة الثقافة البشرية

[حين قدِمت إلى مصر في السنة الثامنة والثلاثين في عهد أورجيتيس *Eurgetes* الملك وأقمت بها بعض الوقت، وجدت فيها كتابًا مملوءًا بالتعليم. فأوجبت على نفسي أن أصرف أنا أيضًا شيئًا من العناية والجدّ إلى ترجمة هذا الكتاب.

واستخدمت لها كفاءتي نهارًا وليلاً، حتى أُتَمِّم هذا العمل وأنشره، لأجل مُحبي التعلُّم المغتربين، والذين أعدّوا أنفسهم أن يعيشوا حسب الشريعة.] (٣٥-٢٦)

في هذه المقدمة يُلاحَظ الآتي:

١. إنه السفر الوحيد الذي له مقدمة تحوي تفاصيل عن محتوياته. وقد أشارت إلى ترجمته من العبرية إلى اليونانية. حيث لم تكن اللغة العبرية شائعة بين المجتمع اليهودي في الإسكندرية في ذلك الحين.

وجَّه حديثه لليهود الذين في الشتات، بما فيهم الذين في مصر، فقد أدرك المترجم عندما جاء إلى الإسكندرية أن بعضًا من الجالية اليهودية قد انجذبوا إلى الفلسفة الهيلينية كمصدر للحكمة.

٢. أبرز المترجم أن السفر في لغته الأصلية (العبرية) له أثره الذي لا تستطيع أيّة ترجمة أن تصل إليه. هذا الأمر خاص بكل الأسفار، لذا كثيرًا ما يلجأ دارسو الكتاب المقدس إلى اللغة الأصلية للسفر حتى يتحققوا من المفهوم الدقيق لما تحمله العبارات والكلمات في أثناء كتابة السفر.

٣. يربط المترجم بين التعاليم والحكمة. ليس ما يعتزّ به شعب الله مثل تلقيه التعاليم والحكمة من شريعة الله وأنبيائه وبقية أسفار الكتاب المقدس. يقصد بالتعاليم هنا السلوك حسب الوصية الإلهية. كما يقصد بالحكمة المخافة الربانية. فإن الله يهب شعبه شريعته ليسلك كما يليق به كشعب الله ويتمتَّع بالمعرفة الاختبارية في مخافة مقدسة مُفرحة.

٤. يُكَرِّر تعبير "**أصدقاء المعرفة**"، أو "**مُحبّي التعليم**"، ويُقصَد بهم مُعَلِّمي الناموس. فإحدى سمات المُعَلِّم الحقيقي رغبته في التعلُّم والتمتُّع بمعرفة مستمرة. بهذا يلتهب قلبه بالحُبِّ نحو معرفة أسرار الله، ويختبر أعماقًا جديدة وخبرة متجددة في السلوك كما يليق به. هذا ما يجعل منه معلمًا ناجحًا بالتقليد الشفوي والسلوك العملي كما بالكتابة.

يربط بين الحكمة والمعرفة من جانب وكلمة الله أو الأسفار الإلهية من جانب آخر. لهذا يحث القارئ على المطالعة المستمرة برغبة صادقة ويقظة.

٥. لأول مرة نجد تقسيمًا للعهد القديم: الناموس، والأنبياء والأسفار الأخرى، والتي دُعيت بعد ذلك في العبرانية "الكتوبيم *writings*". وقد ذكر ذلك ثلاث مرات في هذه المقدمة الصغيرة: "الشريعة والأنبياء ومن اقتفى أثرهم (وسائر أسفار آبائنا)". هذا التقسيم أشار إليه القديس لوقا بكل وضوحٍ، إذ كتب: "يتم جميع ما هو مكتوب عني في ناموس موسى والأنبياء والمزامير" (لو ٢٤: ٤٤). فقد كان القسم الثالث، أي الكتوبيم، يُدعَى أحيانًا "المزامير".

❖ **هَب لي الحكمة** حتى أستطيع أن أختبر شريعتك عمليًا بانتباهٍ لائقٍ بها، وهكذا يمكنني أن أستلم من هذه الشريعة الممارسة العملية.

أعطني الفهم الذي يخصّ العمل والتأمل، بهذا أستطيع أن "أحفظها بكل قلبي"، واقترب إليها

بدون ترددٍ.

❖ ما دمنا نقول إن الأنبياء هم الطرق، فعندما نقرأ الشرائع والنواميس والأنبياء نكون قد سلكنا باستقامة في الطريق بالرب، فنفهم طرقه وندركها، حينئذ لا نخزى أبدًا، إذ تصير هي طرقنا فنحفظ جميع وصايا الله.

العلامة أوريجينوس

❖ دعني أُحَّذر القارئ هنا ألا يأخذ هذه الكلمات بالمعنى الحرفي، بل يحاول أن يفهم المعنى الرمزي. إذا ما كان الفكر قاصرًا عن توضيح المعنى المقصود، فذلك يرجع إلى ضعف الترجمة اليونانية من الأصل العبري.

إن الذين يدرسون اللغة العبرية لا تُواجِههم مثل هذه المشكلة. فالتركيبة النحوية للُّغة اليونانية لا تقارن بأناقة العبرية، بل تُسَبِّب مشاكل لأولئك الذين يتبعون القيمة السطحية للمفهوم الحرفي[1].

القديس غريغوريوس النيسي

❖ يليق بنا أن نتطلَّع إلى وصايا الله عندما تُقرَأ، أو عندما تستدعيها الذاكرة، وذلك كمن يتطلَّع في مرآة، كقول الرسول يعقوب. مثل هذا الإنسان يريد أن ينظر إلى وصايا الله كما في مرآة ولا يرتبك، لأنه يختار لا أن يكون سامعًا للوصايا فحسب بل وعاملاً بها. لهذا يرغب في أن تتجه طرقه نحو حفظ قوانين الله. كيف تُوجه إلا بنعمة الله؛ وإلا فإنه لا يجد في شريعة الله مصدر فرحٍ بل مصدر ارتباكٍ، إن اختار أن ينظر إلى الوصايا ولا يعمل بها.

القديس أغسطينوس

❖ من يحفظ وصية ويترك غيرها يكون قد غدر بجميع الوصايا، إذ يهين الله الذي أوصى بها وربط بعضها ببعض. فإن الذي قال لا تزنِ، قال أيضًا لا تسرق، فإن سرقت تصير مدينًا للشريعة كلها، ولكن من يحرص على جميع الوصايا لا يخزى في يوم الدينونة الرهيبة.

أُنسيمُس أسقف أورشليم

❖ يليق بنا ألا نتردَّد في احترامنا لكلمات الرب، بل نقتنع تمامًا أن كل كلمة من الله حق ومُمكِنة، حتى إن ثارت الطبيعة، فإن في هذا امتحان للإيمان (مت ١٤: ٢٥-٣١)[2].

القديس باسيليوس الكبير

---

[1] عظة ٢ على نشيد الأناشيد ترجمة الدكتور جورج نوّار.

[2] *Morals, Rule, 8:1.*

٦. أَكَّد حفيد يشوع بن سيراخ أنه قام بترجمة ما سجَّله جدّه ليس لنفع اليهود وحدهم الذين تسلَّموا التوراة، وإنما اهتمّ بالذين هم خارج إسرائيل. فقد كان مقتنعًا أن **هذا السفر ينتفع به كل إنسانٍ محبٍ للتعلُّم**. بهذا أخذ سيراخ خطوات في طريق التبشير بالإنجيل بين الأمم. وكأنه كان يُمَهِّد الطريق للتلاميذ والرسل في العهد الجديد.

٧. في هذه المقدمة نجد شهادة واضحة في الرغبة أن يشارك الأمم إسرائيل في التمتُّع بالحكمة حسب الفكر الإلهي، فلا يتعلَّم الأمم التوراة فحسب، بل يعيشون التوراة في حياتهم اليومية.

٨. يحمل هذا السفر فكرًا جديدًا واضحًا ومتماسكًا في تاريخ الخلاص.

٩. في عرضه لأبطال الإيمان، عبر التاريخ أوضح أن الحكمة لا تقتصر على زمنٍ مُعَيَّنٍ، إنما تجد لها موضعًا وهي تعيش في التاريخ.

الأصحاح الأول

يا لعظمة الحكمة!

يُفتتَح السفر بتأكيد أن الحكمة ليست نتاج مساعٍ بشرية، بل بالحري هي عطية إلهية (١ مل ٣: ٩؛ حك ٩: ١-٤)، يُقَدِّمها الرب للمؤمنين خلال الإعلان الإلهي في الكتاب المقدس. الطريق للتمتُّع بالحكمة هو الاستماع لكلمة الله. إذ يلتهب قلب المؤمن بالحُبّ لله، فيسكب الرب حكمته على محبوبيه، أي الخليقة العاقلة.

١. مصدر الحكمة وسماتها [١-١٠]

٢. الحكمة ومخافة الرب [١١-٢١]

٣. الحكمة والوصية الإلهية [٢٢-٢٩]

١. مصدر الحكمة وسماتها

كل حكمة هي من الرب،

ولا تزال معه إلى الأبد. [١]

الحكمة الحقيقية هي من الرب [١]، يهبها لطالبيها، وهي لا تُفارِقه؛ هي الابن الكلمة (١ كو ١: ٢٤). والروح القدس هو روح الحكمة (إش ١١: ٢)، من يسكن فيه الروح فله الحكمة (٢ تي ١: ٧).

إذ دخل الرب في حوارٍ مع أيوب، كشف له عن حاجته إلى الحكمة الإلهية. توقَّع أيوب أن الله يسأله عن خطايا مُعَيَّنة ارتكبها، ولم يكن يتوقَّع أن يسأله عن أمور خاصة بعجائب الخليقة التي صنعها الله لأجل كل إنسانٍ، ولا يستطيع الإنسان أن يعرف كل أسرارها (أي ٣٨). بهذا كشف الله عن جهل أيوب لكيفية خلقة الأرض (أي ٣٨: ٤-٧)، وجهله لوضع حدودٍ للبحار (١١-٨) وكيف يبرز نور الفجر (١٢-١٥) وإدراك ظل الموت والظلمة (١٦-٢١) والسحب والبَرَدْ والرعد... (٢٢-٣٠)، والكواكب وأثرها على الأرض (٣١-٣٣)، وقوة الله في الجو والظواهر الطبيعية (٣٤- ٣٨)، وعناية الله بالحيوانات غير العاقلة (٣٩- ٤١).

❖ مُعَلِّمنا الإلهي يؤُنَّق فيه، إذ يتَّسِم بثلاث سمات رائعة: التعقُّل والصلاح والسلطان.

بخصوص **التعقُّل** نقول إنه **حكمة الله الآب. "كل حكمة هي من الرب، ولا تزال معه إلى الأبد"**. وبخصوص **السلطان** نقول: إنه هو الله الخالق. "به كان كل شيءٍ، وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١: ٣). وبخصوص **إرادته الصالحة**، فهو وحده الذي سلَّم نفسه ذبيحة من أجلنا.

"الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف" (يو ١٠: ١١). بالحقيقة بذل ذاته. ما هي الإرادة الصالحة سوى الرغبة في الصلاح لصالح القريب[1].

القديس إكليمنضس السكندري

موضوع السفر كله هو تمتُّع المؤمن بالحكمة السماوية. يبدأ السفر بالتعبير "**كل حكمة**". وكأن السفر يود أن يؤكد وجود أنواع مختلفة من الحكمة، وإن جميعها مصدرها الرب.

أ. **الحكمة الطبيعية**، التي يقول عنها سفر ابن سيراخ إنها تنشأ مع المؤمنين في الرحم (١: ١٢). هذه الحكمة التي يقدرها المؤمنون كعطية إلهية، يُقَدِّمها الله لكل البشرية في غير محاباة لمؤمنٍ وغير مؤمنٍ، يهبها حسبما يناسب كل شخصٍ، يتقبَّلها المؤمن من يدي الله، فيُقَدِّم على الدوام ذبيحة شكر بروح التواضع. ويفتخر بها غير المؤمن كسمة خاصة به دون غيره، فتنتفخ فيه الأنا، ويسقط في التشامخ والكبرياء. يُعَبِّر عنها الكثيرون بالقول إن كل إنسانٍ يُعجَب بعقله، ولا يرضا أو يشبع بما لديه من مقتنيات، وكأنه يتَّسِم بالكبرياء مع الجشع.

تتسم الحكمة الطبيعية بالآتي:

١. هي عطية إلهية، غير أنها تتأثَّر بحياة الوالدين وإمكانياتهم وقدراتهم ومواهبهم، فلا يُمكِن تجاهل عامل الوراثة.

٢. ما يشغل فكر الله ليس كمية ثمار هذه الحكمة، إنما مدى أمانة الإنسان فيما وُهِبَ له من الحكمة وقدراتها. فقد يُكلَّل إنسان بالمجد بالرغم من حكمنا البشري عليه أنه لا يتمتَّع بالنبوغ الفائق كغيره.

٣. يليق بنا احترام تنوُّع هذه القدرات وتقديرها، فقد ينبغ الوالدين في الطب، وتصير لهما شهرتهما في ذلك، بينما يشعر ابنهما أن موهبته خاصة بالعمل الصناعي أو التجاري أو الإداري أو المهارة في أحد الفنون، أو القدرة الفائقة في تعلُّم لغات جديدة.

جمال الأسرة والمجتمع كما الكنيسة في تنوُّع المواهب، فيشعر كل شخصٍ بحاجته إلى أخيه، وأن نجاحه يقوم على تقديره لمواهب إخوته. هذا التنوُّع يسند الإنسان على التواضع، إذ يشعر بالحاجة إلى غيره، كما يساعد على روح الوحدة والتعاون، فيعمل الكل معًا *team work*.

٤. يُمكِن تنمية هذه الحكمة الطبيعية بروح التقوى مع الجهاد والرغبة في التجديد المستمر والنمو، ويمكن أيضًا الانحدار بها حتى تكاد تختفي خلال التهاون وعدم إضرام الموهبة.

ب. **حكمة الدراسة والعلم وأيضًا الانتفاع بخبرة الآخرين وخبرة الإنسان نفسه الشخصية في**

---

[1] *Paedagogus, FOTC Vol. 23, p. 86.*

الماضي. هذه يمكن أن يتمتع بها كل إنسانٍ، حتى وإن كان مُلحِدًا، لكن المؤمن يدرك أن العقل ذاته عطية من قبل الله وأن كل الظروف المحيطة به لم تحدث اعتباطًا أو مصادفة، إنما يد الله عاملة في كل حياته، حتى شعر رأسه محصي لدى الله. فهو مدين لله بعقله وقدرته على التعلُّم والتمتُّع بخبرات الآخرين وخبراته الخاصة.

يتمتَّع الإنسان بحكمة الدراسة والعلم والتمتُّع بالخبرة بغير محاباة. حقًا بتوجيه الحكمة الطبيعية نحو الاستقامة وعدم الانحراف بالعطية الإلهية المجّانية نتمتع بالنمو خلال الدراسة والخبرة. وعلى العكس كثيرون دفنوا مواهبهم الطبيعية بسبب انحراف هدفهم وإساءة سلوكهم.

ج. **الحكمة السماوية:** يُسرّ الله أبونا السماوي أن يحمل كل مؤمنٍ أيقونة الابن وحيد الجنس، "**حكمة الله**" (١ كو ١: ٢٤)، هذه التي يعتزّ بها المؤمن خلال تمتُّعه بنعمة البنوة. هذه الحكمة ينفرد بها المؤمن المُلتصِق بالله، إذ يتَّحِد بحكمة الله أو كلمة الله المتجسد، فيحمل حكمة سماوية. يقول الرسول يعقوب: "إن كان أحدكم تعوزه حكمة، فليطلب من الله الذي يُعطي الجميع بسخاء ولا يعير، فسيُعطَى له" (يع ١: ٥). جاء في أنشودة الحكمة التي يتغنَّى بها أيوب البار:

"أما الحكمة فمن أين توجد؟ وأين هو مكان الفهم؟

لا يعرف الإنسان قيمتها، ولا توجد في أرض الأحياء... إذ أخفيت عن عيون كل حي...

الله يفهم طريقها، وهو عالم بمكانها الخ" (أي ٢٨: ١٢-٢٣).

يرى **القديس أغسطينوس** أن المؤمن يطلب الحكمة بإدراكه أنه في حاجة إلى الاتحاد بالسيد المسيح نفسه حكمة الله. فعوض أن ينحصر الإنسان في ذاته، ينعم بالشركة مع حكمة الله.

❖ حقًا في هذه الأسفار التي يدرسونها بشغف يقرأون: "لأن الرب يعطي حكمة، من فمه المعرفة والفهم" (أم ٢: ٦). إنهم يتقبَّلون منه تلك الغيرة للدراسة، إن مُنِحَت بتقوى[1].

❖ ما لم يخرج الإنسان من ذاته، فلن يصير حكيمًا، ولكنه من خلال الله يكتسب الحكمة[2].

القديس أغسطينوس

❖ إنه (المسيح) يُدعَى الحكمة كما يقول سليمان... كما يُدعَى أيضًا "البكر"، إذ يقول عنه الرسول بولس: "بكر كل خليقة" (كو ١: ١٥). البكر إذن بالطبيعة ليس مختلفًا عن الحكمة، بل هو

---

[1] *Christian Instruction 3: 37: 59.*

[2] راجع الأنبا مكاريوس، أصحاح ٢.

بعينه. أخيرًا يقول الرسول بولس: "المسيح قوة الله وحكمة الله" (١ كو ١: ٢٤)[1].

❖ يوجد عند الله **فهم** لا تستطيع أن تجده في أي موضع سوى في المسيح يسوع. فإن كل الصفات الإلهية تتمثَّل في السيد المسيح: فهو **حكمة** الله؛ و**قدرة** الله؛ و**عدل** الله؛ و**القداسة**؛ وهو **الخلاص**؛ و**فهم** الله. فمع كونه واحدًا مع الآب في الجوهر، إلا أنه يحمل أسماء متعددة تشير إلى أشياء مختلفة. فإنك لا تستوعب نفس المعنى بخصوص السيد المسيح حينما تنظر إليه بكونه **الحكمة** وحينما تنظر إليه بكونه **العدل**.

عندما تنظر إليه بكونه **الحكمة** تفهم من ذلك عِلْمه بالأشياء الإلهية والإنسانية.

وعندما تنظر إليه بكونه **العدل** تفهم من ذلك قدرته على إعطاء كل ذي حقٍ حقه.

إذا نظرت إليه بكونه **القداسة** تفهم قدرته على تقديس كل المؤمنين به والمُكَرَّسين له.

وأيضًا ستدركه بكونه **الفهم**، فهو العالم بالخير والشر وبما هو ليس خيرًا ولا شرًا.

العلامة أوريجينوس

من الذي يحصي رمل البحر،

وقطرات المطر وأيام الدهر؟ [٢]

بعد أن يدعونا الحكيم إلى الالتصاق بالربّ للتمتُّع بحكمته، يطلب منا أن نتلمس هذه الحكمة الإلهية الفائقة خلال الخليقة ذاتها، التي أوجدها الله لخدمة الإنسان. إنه وحده يحصي رمل البحر، وقطرات الأمطار والزمن كله.

من الذي يسبر علو السماء واتّساع الأرض

وعمق الغمر (البحار) والحكمة؟ [٣]

حكمة الله فائقة، ومعرفته فوق كل الحدود، فهو يحصي رمل البحر، وقطرات المطر، وأيام الدهر. ليس شيء مخفى عنه، فهو يعرف أبعاد السماء، وحجم الأرض، وأعماق البحار.

خُلِقَتْ الحكمة قبل كل شيءٍ،

والعقل الفطين منذ الأزل [٤].

يرى البعض أن الحكمة المخلوقة التي وُهِبَت للإنسان هي النور الذي خلقه الله في اليوم الأول (تك ١: ٣). فالله وهبنا نور الحكمة كي نسلك كسفراءٍ عنه في حكمةٍ وتمييزٍ وفهمٍ وتعقُّلٍ.

ويرى بعض الدارسين أن هذا النص يخص حكمة الله الذي تجسَّد في ملء الزمان، غير أن خطة

---

[1] *De principiis 1: 2: 1.*

التجسد كانت في فكر الله قبل **خلقة كل الأشياء**. جاء حكمة الله المتجسد لكي يُخَلِّص البشر ليتمتعوا بحرية مجد أولاد الله (رو ٨: ٢١-٢٣؛ أف ١: ١٠؛ كو ١: ١٥-١٧).

أما قوله "**منذ الأزل**" فيظهر أن حكمة الله أزلي بلا بداية.

يربط الحكيم بين الحكمة المخلوقة قبل كل شيءٍ التي وهبها للسمائيين والبشر، والعقل الفطين إذ هو أقنوم الحكمة الأزلي. لقد أَكَّد الكتاب المقدس أن يسوع المسيح كلمة الله المتجسد هو حكمة الله الآب (١ كو ١: ٢٤)، واحد مع الآب في ذات الجوهر.

أبرز **القديس أغسطينوس** التمييز بين حكمة الله الخالق، وبين الحكمة كعطية إلهية.

❖ خُلِقَت الحكمة قبل كل شيءٍ، وهي بالتأكيد ليست الحكمة الشريكة والمساوية لك يا إلهنا، أباه، والذي به كان كل شيءٍ (يو ١: ٣)، والذي فيه بكونه البدء، خُلِقَت السماء والأرض (تك ١:١)... هذه تُدعَى حكمة مع أنها مخلوقة. وكما أن النور (الله) الذي ينير مختلف بقوةٍ عن النور الذي هو مُضاء.

يا لعظم الفارق بين الحكمة التي تخلق وتلك التي هي مخلوقة! إنه فارق عظيم مثل الفارق بين البرّ الذي يبرّر والبرّ الذي يتحقق بالتبرير؟[1]

❖ بكونه الله قيل: "قبل كل التلال ولدني" (أم ٨: ٢٥)، أي قبل كل الخلائق العظيمة جدًا. "قبل كوكب الصبح ولدتك" (مز ١٠٩: ٣ *LXX*)؛ أي قبل كل العصور؛ والأشياء الزمنية. وبكونه العبد قيل: "الرب قناني أول طريقه" (أم ٨: ٢٢).

بكونه الله قال: "أنا هو الحق"، وبكونه العبد: "أنا هو الطريق".

فإذ هو بكر الراقدين (رؤ ١: ٥)، أَعَدّ الطريق لكنيسته لملكوت الله، وللحياة الأبدية، هذا هو الرأس الذي يهب الخلود للجسم. بهذا فقد خلق في بدء طرق الله لأعماله (أو تدبيره)[2].

القديس أغسطينوس

يرى فلجينتوس *Fulgentius* تلميذ القديس أغسطينوس أن الحكمة التي خُلِقَت قبل كل شيءٍ هي الحكمة التي وهبها الله للملائكة عند خلقتها[3].

يرى **القديس غريغوريوس النيسي** أن كلمة "**خلقني**" هنا خاصة بالناسوت لا اللاهوت.

---

[1] *Confessions 12:15:20.*

[2] *On The Trinity 1:12:24.*

[3] *Selected Works, FOTC...vol 95, p. 393-4*

❖ تعبير "**خلقني**" يشير لا إلى لاهوته (وطبيعته) البسيطة، وإنما يقول هكذا إذ اتخذ طبيعتنا المخلوقة بخطته الإلهية[1].

القديس غريغوريوس النيسي

تمتاز الحكمة السماوية بأنها تهب المؤمن حياة الشركة مع الله، فيتذوّق أُبوّة الآب ويتفاعل مع عذوبة رعايته تحت كل الظروف، ويختبر خلاص كلمة الله المتجسّد، فيتهلل وهو يُسبِّح "مع المسيح صُلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ" (غل ٢: ٢٠). ويتلامس مع عمل الروح القدس الذي يُجدّد ويُقدِّس مَنْ تمتع بالميلاد الجديد في مياه المعمودية، ويختبر مراحم الله الجديدة في كل صباحٍ.

بعمل الثالوث القدوس يتهيَّأ المؤمن بعربون السماء (أف ١: ١٤) للحياة الأبدية، وكما يقول الرسول: "من يزرع للروح فمن الروح يحصد حياة أبدية" (غل ٦: ٨).

لمن أُعلن أصل الحكمة؟

ومن الذي عرف مشورتها الحكيمة؟ [٥]

خلال الشركة مع الله، يتمتَّع المؤمن بصداقة حميمة معه، فيكشف له الرب أسرار حكمته، ويهبه معرفة وفهمًا؛ يكتشف خطة الله الحكيمة في حياته الخاصة كما من جهة البشرية.

يُوجَد واحد هو الحكيم والعظيم المهابة،

وهو الجالس على عرشه [٦].

من هو هذا الواحد الحكيم الجالس على العرش سوى ربّ المجد الذي يقول عنه الرسول: "وأما للمدعوّين يهودًا ويونانيين، فبالمسيح قوة الله وحكمة الله" (١ كو ١: ٢٤).

❖ من يؤمن حقًا يتَّحِد تمامًا بذاك الذي فيه الحق واللاهوت والجوهر والحياة والحكمة، ويرى فيه كل هذه والتي ليست فيمن لا يؤمن. فإنه بدون ابن الله لا يكون لك وجود ولا اسم، ويصير القوي بلا قوة، والحكيم بلا حكمة. لأن المسيح هو "**قوة الله وحكمة الله**" (١ كو ١:٢٤)، فإن من يظن أنه يرى الله الواحد بلا قوة ولا حق ولا حكمة ولا حياة ولا نور حقيقي، إما أنه لا يرى شيئًا بالمرة أو بالتأكيد يرى ما هو شر[2].

القديس غريغوريوس النيسي

الرب هو الذي خلقها ورآها وأحصاها

---

[1] *Against Eunomius 3:1:50.*

[2] *Against Eunomius 2:7.*

وأفاضها على جميع أعماله [٧].

هنا يتحدَّث عن خطة الله الحكيمة من جهة خليقته العاقلة في السماء وعلى الأرض.

الله في كل أعماله **أفاض** عليها بحكمته، بمعنى أن الآب خلق كل شيءٍ بالابن الكلمة. وكما يقول الإنجيلي: "كل شيءٍ به كان" (يو ١: ٣).

هي مع كل بشرٍ (جسد) على حسب عطيّته،
ومنحها (بكثرةٍ) لمحبيه [٨].

يقول ابن سيراخ إن الحكمة تسكن مع كل إنسانٍ (مؤمنٍ) حسبما وُهِب له، يهبها الله لمحبيه. هذه العطية ليست جامدة (ستاتيكية)، بل دائمة النمو (ديناميكية). فخائف الرب ينمو في الحكمة ويزداد فيها، وكما قيل في سفر الأمثال: "يسمعها الحكيم فيزداد علمًا، والفهيم يكتسب تدبيرًا" (أم ١: ٥).

يعطي الربّ الإنسان بركاته ويُوَزِّعها حسب احتياجات الإنسان وقدراته وأيضًا حسب محبته واتِّساع قلبه. فإن كان الله يُقَدِّم كل شيءٍ حتى الحكمة بمعيارٍ مُعَيَّنٍ، فمن جانبنا يليق بنا في كل عملٍ أن نسلك بحكمةٍ واتزانٍ واعتدالٍ دون مبالغة من الجانب اليميني أو اليساري.

❖ من يَقْبَل تعاليم الحكمة بالإضافة للتعاليم الأولى، إذ هو بالفعل حكيم، ينال التعاليم التالية في أمور لم يكن قبلاً حكيمًا فيها، وبهذا يصير أكثر حكمة. كما يُقَال أيضًا: "عندما يسمع الحكيم هذه الأمور، يصير أكثر حكمة"[1].

العلامة أوريجينوس

❖ هذا هو واجب من هم غيورون في مسرَّة الله الصالحة أن يسألوا ما هو الأفضل لهم أن يفعلوه[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

٢. الحكمة ومخافة الرب

أوضح السفر أن بدء التمتُّع بالحكمة هو اقتناء مخافة الرب، حيث يتهيَّأ المؤمن لقبول الحكمة كعطية إلهية. مخافة الربّ ليست جائرة، بل تقود إلى الكرامة، بل هي إكليل مجدٍ وسموٍ وسعادةٍ وتهليلٍ دائمٍ للإنسان حتى لحظات الموت. يُميِّز ابن سيراخ بين الخوف الذي يُسَبِّب خزيًا وعارًا، والخوف الذي يهب كرامة ومجدًا (٤: ٢١-٢٠) مع فرحٍ دائمٍ. المخافة الأولى تصيب الإنسان كمرضٍ نفسيٍ، تدفعه إلى حالة من الإحباط، والمخافة المقدسة التي يُميِّزها بلقب "مخافة الرب"، هي عطية

---

[1] *Commentary on John 32:172*

[2] *Morals, Rule, 9:3.*

صالحة يهبها الله لأولاده.

مخافة الرب مجد وفخر وسرور وإكليل ابتهاج [٩].

مخافة الربّ هي مصدر مسرّة المؤمن وفرحه [١١-١٣]. مخافة الربّ هي الشعور بتكريمه بفكرٍ روحيٍ عميقٍ، مع السلوك بروح الربّ في اعتدال ولياقةٍ. بركات المخافة المقدسة هي:

أ. هي **فخر**، يعتز بها المؤمن حيث يشترك مع السمائيين الذين يُسَبِّحون الله بروح المخافة المقدسة المجيدة [٩].

ب. **تبهج القلب** بسرورٍ لا يقدر الزمن أن يُحَطِّمه [١٠].

ج. تشعل القلب بالشوق إلى **يوم الرب الأخير**، فلا يخشى المؤمن الموت [١١].

د. هذه المخافة يُمكِن أن توهب لأبناء المؤمنين وهم في الرحم كما حدث مع يوحنا المعمدان (لو ١: ٤٤)، ويعقوب بن اسحق (رو ٩: ١١-١٣)، وصموئيل بن حنة [١٢].

هـ. تهب الحكمة السماوية شبعًا داخليًا، كما تهب صحة للنفس بكونها دواءً لها [١٦].

و. يُحفَظ خائف الرب من السقوط في الخطايا والأفكار الشريرة التي تبدو طبيعية، ولا سلطان للإنسان عليها.

يرجع ارتباط الحكمة بمخافة الرب، أن الأسفار الحكمية في جوهرها دعوة للالتصاق بالسيد المسيح حكمة الله، والتمتُّع بأيقونته خلال عمل الروح القدس اليومي فينا، فننعم بالحضور الإلهي الدائم في حياتنا. هذا الحضور الإلهي يدفعنا إلى مخافة الربّ، فنتأهَّل بالأكثر إلى فيضٍ من العمل الإلهي فينا.

❖ حيث يوجد الله توجد مخافة الرب، توجد الجدية اللطيفة، والرعاية اليقظة والاهتمام بالغير بشوقٍ، والاختبار بفحصٍ جيدٍ، والشركة التي لها وزنها، والتقدُّم اللائق، والطاعة بتقوى، والخدمة بروح التكريس، والمظهر غير المتكلف، والحياة الكنسية المتجددة، وكل ما هو إلهي[1].

العلامة ترتليان

❖ **سؤال: لماذا يوجد أحيانا نوع من كآبة القلب والندامة في مخافة الرب تحل على النفس دون مجهودٍ كبيرٍ، ويتم تلقائيًا، وفي مرات أخرى يوجد في النفس نوع من البلادة، حتى إن غصب الإنسان نفسه، لا يستطيع أن يشعر بأية ندامة للقلب؟**

الإجابة: مثل هذه الندامة هي عطية من الله حيث تثير الرغبة، فتتذوَّق النفس عذوبة مثل

---

[1] *Prescriptions against Heretics 43.*

هذه الندامة التي تُثَار، فتتبنَّاها (تتبنَّى النعمة الموهوبة لها). أو لتُبَرْهِن أن النفس قادرة خلال الغيرة الشديدة أن تكون في ندامة دائمة. بهذا فإن من يفقد هذه النعمة خلال تراخيه ليس له عذر.

لكننا أحيانا نغصب أنفسنا (على الندامة)، مع هذا نعجز عن اقتنائها، كدليلٍ على إهمالنا السابق في دفعاتٍ أخرى. فإنه يستحيل أن ينجح الإنسان في عملٍ بمُجرَّد أن يأتي إليه دون أن يعطيه عناية شديدة مع تدريبٍ باجتهادٍ مع آخرين، ويظهر أن نفسه تشمئز من الرذائل والأهواء التي تعوق ممارسة ما هو لائق. وبحسب التعليم الذي نطق به الرسول القائل: "أما أنا فجسدي مبيع تحت الخطية، لأني لست أعرف ما أفعله. إذ لست أفعل ما أريده، بل ما أبغضه فإياه أفعل" (رو ٧: ١٤-١٥). أيضًا يقول: "لست بعد أفعل ذلك أنا، بل الخطية الساكنة فيَّ" (رو ٧: ١٧).

يسمح الله أن يحدث هذا عينه معنا بهدفٍ صالحٍ، حتى أن النفس بواسطة الأمور التي تعاني منها لاإراديًا، تدرك الأمور التي تسطو عليها، وإذ تتعرَّف على الطرق التي بها صارت مُستعبَدة للخطية بغير إرادتها (رو ٦: ٢٠) تصحو من جديدٍ، وتتحفَّظ من شباك إبليس (١ تي ٣: ٧؛ ٦: ٩)، كما تكتشف أن رحمة الله تحث على مساندة أولئك الذين بحقٍ يتوبون[1].

❖ **من أجلي حوَّلت نوحي إلى فرحٍ لي، مزقت مسحي، ومنطقتني بالفرح**" (مز ٣٠: ١٢).

فرح الله لا يستقر في كل النفوس، بل في تلك النفوس التي بكت على خطاياها بدموعٍ مستمرةٍ، كمن مات لها عزيز لديها. مثل تلك النفس يُحَوِّل الله نوحها إلى فرح، والحزن نافع هنا...

يبكي الأنبياء علينا، ويدعوننا لنبكي حتى نكتشف أخطاءنا في ضوء كلماتهم النبوية، عندئذ نبكي على هلاكنا، ونقمع جسدنا بالجهاد والتأديب.

الإنسان الذي يسلك مثل هذا الطريق، تُمَزَّق مسوحه، ويلبس لباس العُرْس المُزيَّنة حتى لا يخرج خارج العُرْسِ (مت ٢٢: ١١-١٣)[2].

القديس باسيليوس الكبير

هكذا ينقلنا السفر من الحكمة العقلانية الجافة إلى الحكمة العملية المقدسة الواردة في الكتاب المقدس. إنها ليست خنوعًا مرهبًا، بل تقوى وتكريس لله واعتزاز به (أم ٢: ١-٥). لا يفصل المؤمن الحب الإلهي عن المخافة الربّانية (تث ١٠: ١٢؛ سي ٢: ١٥). فمخافة الرب ليست غريبة عن المؤمن، إنها توهَب له وهو بعد جنين في البطن [١٢].

كمال الحكمة هو مخافة الرب [١٦]. إنها تُسكر المؤمنين بثمارها المبهجة، وتُشبع نفوسهم

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 16.*

[2] تفسير المزمور ٣٠ (٢٩).

بطعامها الفاخر، وتملأ مخازنهم بمحصولاتها، تهبهم سلامًا داخليًا وصحة كاملة.

مخافة الرب ليست هي بداية الحكمة فحسب، بل وكمالها وإكليلها. بمخافة الرب يتقبَّل المؤمن محصول الحكمة الغزير. فمن بركات مخافة الرب إنها تطرد الخطايا، وتنزع كل غضبٍ في النفس، لأن غضب الإنسان لا يصنع برّ الله (أم ١٥: ١٨، يع ١: ٢٠).

هكذا يربط السفر بين **الحكمة والوصية الإلهية ومخافة الرب**. وفي نفس الوقت يُحذِّر من التعريج بين الأفكار الهيلينية الوثنية والأمانة في الشركة مع الله.

❖ على أي الأحوال، من النافع أن نخافه وحده، ليس كظالمٍ بل بكونه الله البار. فالإنسان يخاف ممن هو ظالم لئلا يهلكه بالظلم، ويخاف البار لئلا يخطئ فيُعاقَب.

بمخافتك إياه تتحرَّر من كل المخاوف الضارة. فما لم تخف الرب الواحد خالق الكل، تصير عبدًا لكل الشرور التي تضرّك، أقصد تصير عبدًا للشيّاطين والأمراض (الروحيّة) وكل ما يمكنه أن يضرك بطريقةٍ أو أخرى[١].

❖ خف الله فإنّه عادل، لكن سواء كنت تخافه أو تحبّه يلزمك ألاَّ تخطئ...

من يخافه يستطيع أن يقتني الغلبة على الشهوات الشرّيرة، ولا يشتهي ما للغير، بل يمارس الحنو والوقار ويعمل بعدلٍ![٢]

الإكليمنضيات

بمخافة الربّ نتمتَّع بالحياة المطوَّبة، يقول القديس أرسانيوس إن من يخاف الواحد (الله)، لن يخاف الكثيرين.

❖ كما أن مصباحًا يضيء حجرة مظلمة، هكذا مخافة الرب، إذ تخترق قلب إنسان تنيره، مُعلِّمة إياه كل الفضائل ووصايا الله.

أحد آباء البرية

❖ ذاك الذي يسلك في كل شيءٍ في مخافة خلال الحياء المُبجّل **يُدعَى مُطوَّبًا**. إذ يقف ثابتًا في الحق، قادرًا أن يقول: "تقدَّمت فرأيت الربّ أمامي في كل حينٍ، لأنه عن يميني فلا أتزعزع" (مز ١٥: ٨ *LXX*)[٣].

---

[١] عظة ١٠: ٥.

[٢] عظة ١٧: ٧.

[3] *The Long rules, Preface*

القديس باسيليوس الكبير

يُقَدِّم لنا **القديس برصنوفيوس** تدريبًا عمليًا لنوال إكليل البهجة، إذ كتب: [لتعمل بكل جهدك، عندئذ سيُعِينك الله بصلوات آبائك. فإنه مُتعطِّش إلى خلاصك، إذ أقسم بذاته أنه لا يشاء موت الخاطي، بل أن يرجع ويحيا" (حز ١٨: ٢٣)... لتساهم مثل الأرملة بالفلسين اللذين لديك، فيُسرّ كما فعلت هي (مر ١٢: ٤٢). لتسرع بقاربك إلى سفينة آبائك، وهم يقودونك إلى يسوع، الذي وحده يمكنه أن يهبك التواضع والقوة والتعقُّل وإكليل الابتهاج[1].]

❖ افرح في الربّ، افرح في الربّ، افرح في الربّ. ليحرس الربّ نفسك وجسدك وروحك من كل شرّ، ومن كل مقاومة إبليس، ومن كل تخيلات متعبة. ليكن الربّ هو نورك وحمايتك وطريقك وقوتك وإكليل ابتهاجك وسندك الأبدي. اهتم بنفسك، كما هو مكتوب: "حتى الكلمة الخارجة من شفتيّ لا تتغيَّر" (مز ٨٨: ٣٥)[2]

القديس برصنوفيوس

جاء حديث الرب في سفر ملاخي عن رجال الكهنوت يوضح عمله الإلهي في حياتهم، إذ **يملأهم بالمخافة كحليّ** يتزيَّن به الكهنة، فيتمتعون بالمجد والتهليل، ويتحلُّون بالقداسة.

❖ "إنني أعمل هكذا حتى يكون (الكاهن) مملوءًا بالمخافة نحوي؛ أعمل بطريقة بها يرتعد أمام اسمي" (ملا ٢: ٥ *LXX*). إنه يحصي بطريقة لائقة كل زينة الكهنوت السامية، يحصل عليها بواسطة تعليم الشريعة. يُلهم أولاً وقبل كل شيءٍ بخوف الرب في خدمة العبادة الإلهية، فيجعلهم ينجذبون أمام اسمه بخوفٍ ورعدةٍ عندما يسمعون اسم الرب، ويدخل بهم إلى خبرة الميل نحو توقير (الرب) ليس كأمرٍ غير هامٍ، بل فيه جدية، فليس من أمرٍ أهم منه... قيل: "مخافة الرب مجد وفخر". بهذا يضمن الأمان لمن يمارس الكهنوت بقدسيةٍ وفي الحق.

لم يطلب منهم مجرد الانتعاش بالمخافة، بل أن يمتلئوا تمامًا بالمخافة، أي تملأ مخافة الرب كل القلب والنفس[3].

❖ تأملوا كيف يستخدم الله وسيلة لائقة به، فعوض معاقبتنا، يبرز آثار غضبه على الأجساد البشرية، مُفضِّلاً أن يروعنا بمخاوف خارجية بسيطة وخسائر هيّنة[4].

---

[1] *Letter 261, T.P. Hailton: Barsonuphius and John, FOTC Vol. 113, p. 267.*

[2] *Letter 10, FOTC, Vol. 113, p. 31.*

[3] *Commentary on Malachi 2:19.*

[4] *Commentary on the Twelve Prophets, FOTC..., vol. 124, p. 722*

القديس كيرلس الكبير

❖ نقطة البداية في خدمة الله [كعبيدٍ] هي الامتلاء بروح الخوف، حيث يكون الشخص لا يزال يُدعَى طفلاً. فبالنسبة للأطفال على وجه الخصوص، الخوف هو المُربّي. لهذا يقول الرسول عن مثل هذا الطفل: "وإنما أقول ما دام الوارث قاصرًا لا يفرق شيئًا عن العبد مع كونه صاحب الجميع؛ بل هو تحت أوصياء ووكلاء إلى الوقت المؤجَّل من أبيه. هكذا نحن أيضًا لما كنا قاصرين كنا مُستعبَدين تحت أركان العالم" (غل ٤: ١-٣)[1].

العلامة أوريجينوس.

يقارن **القديس أمبروسيوس** في حديثه عن قايين وهابيل بين ما يُقَدِّمه العالم وما تُقَدِّمه الكنيسة. فالعالم يعجز عن أن يعطي النفس سرورًا حقيقيًا وبهجة داخلية، وأما الكنيسة حيث حكمة الله ومخافة الرب، فتُسكر النفس بفرح الروح، مع حكمة وتعقُّل من قبل الله.

❖ "هلموا كلوا من طعامي، واشربوا من الخمر التي مزجتها" (أم ٩: ٦). هل تجدون بهجة في الأغاني التي تسحر المستمعين بالموائد؟ اصغوا إلى صوت الكنيسة التي تحثّنا ليس فقط في نشيد الأناشيد: "كلوا أيها الأصحاب، اشربوا وأسكروا أيها الأحباء" (نش ٥: ١)، ولكن هذا السُكر يجعل الناس عاقلين. هذا السُكر هو نعمة (من الله) وليس خبلاً للعقل[2].

القديس أمبروسيوس

مخافة الرب تبهج القلب،

وتعطي السرور والفرح وطول الأيام [١٠].

تمتد بركات مخافة الله في حياة الإنسان في هذا العالم، **إلى لحظة مماته**، حيث يلتقي بالسيد المسيح وجهًا لوجهٍ.

❖ إن أراد أحد أن ينال حب الله، فليكن فيه مخافة الرب، لأن الخوف يُوَلِّد بكاء، والبكاء يُوَلِّد قوة. وإذا ما كملت هذه كلها في النفس، تبدأ النفس تثمر في كل شيءٍ. وإذ يرى الله في النفس هذه الثمار الحسنة، فإنه يشتمَّها رائحة بخور طيبة، ويفرح بها هو وملائكته، **ويشبعها بالفرح، ويحفظها في كل طرقها حتى تصل إلى موضع راحتها دون أن يصيبها ضرر.**

إذ يرى الشيطانُ الحارس العلوي العظيم يحيط بالنفس، يخاف أن يقترب منها أو يهاجمها

---

[1] *Comm. on Rom. Book FOTC...6: 10.*

[2] *Cain & Abel, 1: 5: 19*

بسبب هذه القوة العظيمة.

إذًا، اقتنوا هذه القوة حتى ترتعب الشياطين أمامكم، وتصير أعمالكم سهلة، وتتلذذوا بالعمل الإلهي، لأن حلاوة حب الله أشهي من العسل.

حقًا أن كثيرين من الرهبان والعذارى في المجامع، لم يتذوَّقوا هذه الحلاوة الإلهية، ولم يقتنوا القوة الإلهية، ظانين أنهم قد نالوها، بالرغم من عدم جهادهم. أما من يجاهد لأجلها فينالها حتمًا خلال المراحم الإلهية، لأن الله لا يُحابِي الوجوه.

فمن يريد أن يكون له نور الله وقوته، يلزمه أن يستهين بكرامات هذا العالم ودنسه، ويبغض كل أمور العالم ولذة الجسد، ويُنَقِّي قلبه من كل الأفكار الرديئة. ويُقَدِّم لله أصوامًا ودموعًا ليلاً ونهارًا بلا هوادة كصلواتٍ نقيةٍ، عندئذ يفيض الله عليه بتلك القوة.

اجتهدوا أن تنالوا هذه القوة، فتصنعوا كل أعمالكم بسهولة ويُسْر، وتصير لكم دالة عظيمة قدام الله، ويهبكم كل ما تطلبونه[1].

القديس الأنبا أنطونيوس الكبير

خائف الرب تطيب آخرته،

وفي يوم موته يُطَوَّب [١١].

إذ نتحدَّث عن سلّم يعقوب الذي به تمتَّع يعقوب بالسماء المفتوحة، والشركة مع السمائيّين، فإننا نذكر أن يعقوب قد عانى من الخوف. لقد كان في عزلةٍ تامةٍ، ليس من أبٍ أو أمٍ أو أخٍ أو صديقٍ يُرافِقه ويسنده. كان في طريقه هاربًا من عنف أخيه يعاني من مخاطرٍ جمّةٍ ومن مستقبلٍ مجهولٍ. اتكأ يعقوب على الحجر رمز السيّد المسيح لينام، فتمتَّع بالرؤيا السماويّة، وتلامس مع مخافة الرب، إذ قال: "ما أرهب هذا المكان؟! ما هذا إلا بيت الله؟!" (تك ٢٨: ١٧).

حينما نعاني من خوف الجسد أو خوف العالم المُحَطِّم للنفس، نتكئ على مسيحنا حجر الزاوية، فيستبدل الخوف المُهلِك بالمخافة المقدّسة. عوض خوفنا من العالم بكل ظروفه القاسية نرى مجد الله وقداسته وحبّه فنترقَّب يوم خروجنا من العالم بفرحٍ، وندرك أننا ونحن على الأرض نقطن في بيت الله، بل صرنا "أهل بيت الله" (أف ٢: ١٩)، فكم بالأكثر يكون يوم موتنا مباركًا.

بدء الحكمة مخافة الرب،

تنشأ في الرحم مع المؤمنين [١٢].

---

[1] *Epistle 6.*

رعاية الله للإنسان ترجع إلى لحظة بدء الحبل به، تستمر والجنين في بطن أمه. لقد أظهر السيد المسيح اهتمامه بإيمان الرضع والأطفال (لو ١٨: ١٥-١٧).

يُمَيِّز القديس فيلوكسينوس بين أنواع مختلفة للخوف: خوف العبيد، وخوف الأجراء، وخوف الأصدقاء، وخوف البنين.

❖ يوجد من يخشى أن يُضرَب وهذه مخافة العبيد؛

ويوجد من يخشى أن يفقد أجرته، وهذه هي مخافة الأجراء؛

ويوجد من يخشى أن يُحرَم من الميراث، وهذه مخافة الأبناء؛

فبالرغم من أن المخافة ليس لها سوى اسم واحد إلا أن الفروق بينها عديدة.

كان الأنبياء القديسون يخافون الله، وكان الشعب اليهودي أيضًا من حين إلى آخر يخافون الله؛ ولكن شتّان ما بين المخافتين!

فالأنبياء كانوا يخافون أن يُحزِنوا الله كأصدقاءٍ له، لأنهم كانوا يُحبُّونه؛ بينما كان اليهود يخافون تأديبه وعقابه كعبيدٍ[١].

القديس مار فيلوكسينوس

يود مسيحنا أن يرفعنا بنعمته حتى نبلغ خوف البنين. فلا نخاف الله كعبيد يهابون سيّدهم، يُنَفِّذون الوصيّة؛ لا من أعماقهم، إنما خشية العقوبة.

ولا نخافه كأجراء يُتَمِّمون الوصيّة لأجل الأجرة أو خشية الحرمان منها، بهذا يكون الله وسيلة لا غاية، نخضع له لننال بركاته لا لنقتنيه وننعم بالشركة معه.

ولا نخافه كمجرد أصدقاء يطلبون إرضاء صديقهم.

وإنما نخافه كأبناء نُتَمِّم الوصيّة لكي تتشكَّل صورة أبينا في أعماقنا، فنتهيَّأ لشركة أمجاده. نقتنيه ويقتنينا، نعيش معه أبديًا في أحضانه!

يرى **القديس أغسطينوس** أن الطريق يبدأ بالمخافة ويرتقي بالإنسان على سلم القداسة حتى يبلغ إلى الحكمة "بدء الحكمة مخافة الرب".

❖ يُقَدِّم لنا إشعياء النبي السبع عطايا الروحية المعروفة. إنه يبدأ بالحكمة وينتهي بمخافة الرب، وكأنه ينزل من الأعالي إلى مستوانا نحن. يفعل هذا ليُعَلِّمنا أن نتسلَّق صاعدين مرة أخرى. هكذا يبدأ من حيث ما نريد بلوغه (الحكمة)، ويبلغ إلى نقطة البداية. يقول: "يحلّ عليه روح الرب: روح

---

[١] عظة ٧: ١٩٥-١٩٦.

الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة والتقوى **روح مخافة الرب**" (إش ١١: ٢). لذلك نزل من الحكمة إلى المخافة، لا للانزلاق إلى خلف، وإنما لكي يُعَلِّمنا أن نتسلَّق من المخافة ونصعد إلى الحكمة. نفعل ذلك لكي نتقدَّم، "لأن مخافة الرب هي بدء الحكمة[1]."

القديس أغسطينوس

❖ يليق بنفوس الذين يريدون أن ينطقوا بالحكمة، أولاً أن تتطهر بالمخافة الإلهية. لأن توزيع أسرار الخلاص لعامة الشعب وقبول كل الأشخاص على قدم المساواة (دون تمييز حكيم) بما فيهم الذين حياتهم غير مُزَيَّنة بالطهارة، والذين لم يُمتحنوا ولا تهيأوا لاستخدام الأسرار بطريقة معقولة، يكون كمن يسكب طيبًا ثمينًا في إناءٍ قذرٍ[2].

القديس باسيليوس الكبير

❖ كما يوجد بين الوثنيين من يمتنعون عن الملذات الموجودة أمامهم، وذلك إما لاستحالة نوال ما يرونه أو خوفًا من الناس، أو لنوال ملذات أعظم، هكذا أيضًا بالنسبة للإيمان، فإن البعض يُمارِسون ضبط النفس، إما لأنهم ينتظرون وعد الله أو من أجل مخافة الرب، فإن مثل هذا الضبط للنفس يقوم على معرفة وللتمتع بأمور أفضل، ويُحسَب جهادًا من أجل الكمال. يُقَال: "مخافة الرب رأس الحكمة" (أم ١: ٧)[3].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ بدء الحكمة هو المخافة، إذ يليق بنا ألا نبدأ بالتأملات (الروحية) ونترك الخوف. فإن التأمل غير المنضبط قد يدفعنا إلى حافة الانحدار. بالحري يلزمنا أن ننسحق ونتطهر، فنصير بالخوف مُتّسمين بوزن خفيف، ونرتفع إلى الأعالي.

فحيث يوجد الخوف يوجد حفظ الوصايا، وحيث حفظ الوصايا يوجد تطهير للجسد من السحابة التي تغطي النفس ولا تسمح لها برؤية الشعاع الإلهي. وحيث يوجد تطهير توجد استنارة، والاستنارة هي إشباع شهوات المشتاقين للأمور العظمى؛ أو الأمور التي تفوق كل الأمور العظمى[4].

القديس غريغوريوس النزينزي

---

[1] *Sermon 347:2.*

[2] *Homily on the Beginning of Proverbs, 4:5.*

[3] *Stromata 7: 12.*

[4] *On the Holy Lights 39:8.*

❖ ليتنا لا نسمح للوحش (الخطية) أن يكون بلا لجامٍ، لنسرع إليه ونضع كمامة قوية في كل جانب، وهي الخوف من الدينونة العتيدة.

عندما يعثرك صديق أو أحد من أهل بيتك فتغضب، فلتعتبر أن معصيتك هي ضد الله، وأن اللطف الذي تمارسه نحو الذين يضايقونك سيُرَد إليك في دينونتك بلطف الله لك[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

جَعَلَت أساسًا للحياة بين الناس،

وتستمر موضع ثقة مع نسلهم [١٣].

بركات مخافة الرب هي:

١. "**تُسكر الناس بثمارها**" [١٤]، فلا يشعر خائف الرب بجوعٍ إلى مجد العالم ومشتهياته وكنوزه، بل يشعر بالشبع، إذ تمتلئ أعماقه بثمر مخافة الرب.

٢. " **تملأ كل بيت من بيوتهم بالمشتهيات**" [١٥]. إذ تدخل به مخافة الرب إلى الحضن الإلهي، فيكتشف أن حلقه حلاوة وكله مشتهيات (نش ٥: ١٦).

٣. تملأ "**ومخازنهم بغلاتها**" [١٥]، أراد الغني الغبي أن يبني مخازن أكبر ويملأها بالخيرات ليأكل ويشبع، فإذا بنفسه تُطلَب في ذات الليلة قبل أن يتحرَّك لبناء المخازن (لو ١٢: ٢٠)، أما خائف الرب فيقيم روح الله من أعماقه مسكنًا لله الآب وابنه الوحيد الجنس، وتصير أعماقه ملكوتًا لله (لو ١٧: ٢١)، فماذا ينقصه؟ يسكن فيه رب المجد الذي فيه كل كنوز الحكمة (كو ٢: ٣).

٤. **يتوّج خائف الرب بإكليل الحكمة** [١٦]، فيزداد فيه السلام بلا توقُّفٍ، ويختبر الشفاء، فلا تجرحه خطية ما، ولا يتسلَّل فكر خبيث إلى عقله!

٥. **يُسَرّ الله بخائف الرب**، فيحصي ما تمتَّع به، ويُمطِر عليه مياه العلم والمعرفة والحكمة العملية (الفطنة)، ويرفعه من مجدٍ إلى مجدٍ [١٧].

٦. خائف الرب **لن يخشى مفارقة الحكمة له**، لأن مخافة الرب هي أصل الحكمة وجذورها المتأصّلة فيه، أما فروعها فلن تجف يومًا ما [٢٠].

مسرة الحكمة هي مخافة الرب،

وتُسكر الناس بثمارها [١٤].

يرى القديس ويصا تلميذ الأنبا شنودة رئيس المتوحدين أن الحكمة تعمل لا في حياة الحكيم وحده

---

[1] *Commentary on John the Evangelist John, FOTC..., vol. 33, p. 54.*

بل وفي حياة من هم حوله، وعلى العكس الحماقة تُحَطِّم الإنسان ومن يتعامل معه.

❖ "المرأة الحكيمة تبني بيتها، والحمقاء تهدمه بيدها" (أم ١٤: ١). هذا معناه أن المرأة الحكيمة تُشَجِّع جارتها في مخافة الله وبالحب الذي في قلبها نحو أختها وأخواتها. ومن جانب آخر المرأة الحمقاء تهدم بيديها بكلماتها المملوءة مرارة وكراهية واستخفافًا. كما هو مكتوب: "في فم الجاهل قضيب الاحتقار" (راجع أم ١٤: ٣)[1].

القديس ويصا

❖ إنه من غير اللائق تمامًا أن يبدأ التطويب من مصدرٍ آخر (غير المسكنة بالروح ومخافة الرب)، حيث بلوغ قمة الحكمة، لأن إكليل (بدء) الحكمة مخافة الربّ (١: ١٦)، ومن جانبٍ آخر يُوصَف الكبرياء أنه بدء كل خطية (١٠: ١٣). ليصارع المتكبر من أجل ممالك الأرض ويحبها؛ لكن "طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات"[2].

❖ من يجاهد من أجل الحكمة، ليس شيء بالنسبة له مثل القول: "مخافة الربّ بدء الحكمة"[3].

❖ أنصت إلى الكتاب المقدس: "إكليل (بدء) الحكمة مخافة الربّ" (سي ١: ١٦). لذلك يبدأ بخوف يوم الدينونة: فبالخوف يُصلح من نفسه، ليجاهد ضد أعدائه، أي ضد خطاياه. ليبدأ في تجديد حياته داخليًا، ويميت أعضاءه التي على الأرض، كقول الرسول: "فأميتوا أعضاءكم التي على الأرض... (كو ٣: ٥).

إنه يدعو أمور الشرّ الروحية "أعضاء على الأرض"، إذ يكمل موضحًا ذلك "الطمع، النجاسة"، وغير ذلك. حتى أن ذلك الإنسان الذي يبدأ بالخوف من يوم الدينونة أن يميت أعضاءه التي على الأرض، يمتد إلى ارتفاع أعضائه السماوية وتقويتها. يمارس الصلاح بأعضائه السماوية. وإذ ترتفع الأعضاء السماوية، يبدأ الاشتياق نحو المخافة. يخشى أن يأتي المسيح على الإنسان الشرير هذا الذي يود أن يلعنه... الآن النفس الطاهرة التي تشتهي أن تحتضن عريسها، وتجحد الزاني، فتبدأ تشتاق إلى مجيء المسيح.

إنها تصير بتولاً في أعماقها بهذا الإيمان والرجاء والمحبة. بهذا تثق النفس في يوم الدينونة، ولا تقاوم نفسها عندما تصلي: "ليأتِ ملكوتك" (مت ٦: ١٠). فمن يخاف من مجيء ملكوت الله

---

[1] *Besa Fragment 29, Letter to Antinoe 2: 3- 4.*

[2] *The Lord's Sermon on the Mount.*

[3] *Eighty-Three Different Questions. FOTC...Vol. 70, p.68-69.*

ربما تحل به مخاوف لئلا يُستجاب لصلاته[1].

القديس أغسطينوس

تملأ كل بيت من بيوتهم بالمشتهيات،
ومخازنهم بغلاتها [١٥].

إكليل الحكمة مخافة الرب،
تهب سلامًا وشفاءً للازدهار [١٦].

رآها الرب وأحصاها، وأمطر قوة الإدراك،
ويبجل مجد الذين يتمسكون بها [١٧].

أصل الحكمة مخافة الرب،
وفروعها طول الأيام [١٨][2].

مخافة الرب هي عجلة القيادة للنفس، يهبها روح الله القدوس لنا، القادر وحده أن يدخل بنا من مجدٍ إلي مجدٍ، ويهبنا نعمةً فوق نعمةٍ، خلال شركتنا مع رب المجد يسوع القدوس. تدخل بنا مخافة الرب إلي الطريق الملوكي، فلا ننحرف نحو الخطية، ولا إلى البرّ الذاتي. تحفظنا من الضربات الشمالية واليمينية، حتى ندخل إلى حضن الآب السماوي القدوس.

❖ خوف الرب يحث النفس على حفظ الوصايا، وعن طريق حفظ الوصايا يُشيد منزل النفس.

❖ ليتنا نخاف الرب ونُشيد منازل لأنفسنا، حتى نجد مأوى في الشتاء حيث المطر والرعد، لأن من لا منزل له يعاني من مخاطر عظيمة في وقت الشتاء.

الأب دوروثيؤس

❖ اخشَ الرب واحفظ وصاياه التي تُقوِيك في كل أمورك، فلا يكون مثيل لأعمالك... لا تخف الشيطان إذا خشيت الرب، فإن خشيتك لله تعطيك سلطانًا على الشيطان[3].

هرماس

يرى **القديس إكليمنضس السكندري** أن الرب غالبًا ما يتكلم ويُهَدِّد قبل أن يؤدِّب لكي يرجع

---

[1] *Tractates on the Gospel of John, 112-124, Tractates on John, FOTC... Vol. 92, p. 248-249.*

[2] جاء في بعض المخطوطات الإضافة: لأن مخافة الرب تطرد الخطايا".

[3] *Hermas: The Shepherd, Commandment 7:1-2.*

الإنسان عن شرّه.

❖ غالبًا ما يتكلم الرب قبل أن ينفذ العمل (التأديب). يقول: "أُنفِذ سهامي فيهم، إذ هم خاوون من جوعٍ ومنهوكون من حُمى وداءٍ سامٍ. أرسل فيهم أنياب الوحوش مع حُمة (الحيات) زواحف الأرض. من خارج السيف يُثكِل، ومن داخل الخدور الرعبةُ" (تث ٣٢: ٢٣-٢٥). هذا لا يعني أن الروح الإلهي يغضب كما يظن البعض. إنه غالبًا ما يُظهر تقييدًا مع التشجيع، ويُظهر لنا ما يجب أن نفعله. إنه يستخدم هذه الوسيلة الفعَّالة التي تكمن في إثارة المخافة فينا، فلا نرتكب خطية[1].

القديس إكليمنضس السكندري

الغضب الظالم لا يُبَرَّر،

لأن أثر الغضب الأكيد يسبب سقوطه [١٩].

❖ في الحقيقة كما أن المجانين والحمقى لا يلاحظون هذا عندما يلقون بأنفسهم في الهاوية، هكذا الأمر مع الذين يفقدون لطفهم ويُضرَبون بالغضب، هذا هو السبب لماذا الإنسان الحكيم الذي يريد أن يستعرض تدمير هذا السُكر (الغضب) يقول: "غضب الإنسان يميل بكفة الميزان لدماره". لاحظ كيف يطوِّق نفسه بالاستعباد لعمل هذا الهوى المدمّر بفداحة[2].

❖ الغضب وحش مفترس، وحش عنيف وثائر. ليتنا إذن نقرر لأنفسنا سُكر مهدئ مقتبس من الكتاب المقدس، فنقول: "كيف (لماذا) يتكبر من هو تراب ورماد" (سي ١٠: ٩)، ثقل غضبه يدمره (راجع سي ١: ١٩)... ليس شيء أكثر خزيًا، ليس شيء أكثر قباحة من الوجه الملتهب بالغضب. عندما تثير الوحل تشتم رائحة كريهة. وعندما تضطرب نفس بالهوى تصير بذيئة للغاية[3].

❖ هوى الغضب مفترس، أكثر شراسة من أي لهيب، لهذا نحتاج أن نسرع جدًا لمنع اللهيب، وألا نسمح له أن يتوهَّج إلى العلا. فإن هذا المرض يصير علة شرور كثيرة. إنه يُسقِط بيوتًا بأكملها، ويحلّ صداقات قديمة، ويسبب كوارث لا يمكن علاجها في وقتٍ قصيرٍ. قيل: "غضب الإنسان يميل بكفة الميزان لدماره"[4].

---

[1] *Paedagogus 1:8:68:3.*

[2] *Baptismal Instructions 5:4.*

[3] *On John , Homily48 :3*

[4] *On John, Homily 4: 4.*

الطويل الأناة يصبر إلى الوقت الملائم،

بعد ذلك تعاوده البهجة بقوةٍ [٢٠].

يُمَيِّز ابن سيراخ بين إنسان يُظلَم فيغضب ويثور، وآخر يسقط تحت الظلم، فيحتمل بطول أناة. الأول وإن كان غضبه قائم على ظلم حلّ به، غير أن غضبه هو الذي يُمَثِّل ثقلاً على نفسه فيسقط، وإن ظنّ أنه يبرر نفسه. أما الثاني فيحتمل إلى حين في صمتٍ ثم يعاوده السرور، ويشهد الكثيرون له وهو صامت لا يدافع عن نفسه.

يكتم كلامه إلى الوقت الملائم،

وشفاه الكثيرين تخبر بفهمه [٢١].

٣. الحكمة والوصية الإلهية

في كنوز الحكمة أمثال المعرفة،

والتقوى رجسة عند الخاطئ [٢٢].

إن كانت التقوى رجسة عند الخاطئ، فكم بالأكثر لا يطيقها عدو الخير إبليس فيثور ضد الأتقياء، مع هذا ليس له سلطان أن يؤذيهم.

❖ لو أن (الشياطين) لها سلطان، لن تتردَّد في استخدامه، بل تُمارِس الشرّ فورًا، إذ هذا هو غايتها خاصةً ضدنا.

انظروا فإننا مجتمعون معًا نتحدَّث ضدهم، وهم يعرفون ذلك أننا كلما تقدَّمنا نحن تزداد هي ضعفًا. فلو كان لها سلطان ما كانت تسمح لأحدٍ منا نحن المسيحيين أن يعيش، لأن خدمة الله هي رجس للخاطئ (راجع سي ١: ٢٢). فإذ ليس لها سلطان، تؤذي نفسها إذ لا تستطيع أن تُنَفِّذ شيئًا مما تُهَدِّد به. هذا يجعلنا نلتزم ألاَّ نخافها[1].

القديس أثناسيوس الرسولي

إن رغبت في الحكمة فاحفظ الوصايا،

فيهبها الرب لك [٢٣].

الفلسفة التي اكتشفتها الأمم هي نتاج الفهم البشري، أما الكتاب المقدس فيُعلِن أن الفهم هو

---

[1] *St. Athanasius, Vita Antonii, FOTC... Vol. 15, p. 161-162.*

من الله ذاته، يُقَدِّمه لمن يؤمن بوصاياه.

❖ لا تهجر وصية الربّ، بل احفظ ما تسلَّمته، ولا تضيف عليها شيئًا أو تستبعد عنها شيئًا[1].

الديداكية (تعليم الاثنا عشر تلميذًا)

❖ انهمكت وتأملت بحكمة في الوصايا التي وهبتني إياها، آمنت بها حتى حفظتها.

امنحني إذن الحكمة بتعليمي الصلاح والأدب والمعرفة.

تتفق هذه الطلبة مع القول: "يا ابني إن رغبت في الحكمة فاحفظ الوصايا، فيهبها الرب لك" (راجع سي ١: ٢٣).

القديس ديديموس الضرير

❖ يرسم لنا المزمور (الأول) طريق الفضيلة، بعلمٍ وفنٍ، **فالبُعْد عن الشر هو بداية الخير**، إن طلبت من البداية كمال الفضيلة، تراجعت قبل أن تبدأ، ولكن المزمور يُمَهِّد لنا الطريق لنواجهه بشجاعة.

وأعتقد أن النمو في حُبّ الله، يُشْبِه السلم الذي رآه يومًا ما الطوباوي يعقوب، والذي من ناحية على الأرض، وفي الناحية الأخرى كان منطلقًا نحو حياة الفضيلة، حيث يبدأ الإنسان بصعود درجات السلم الأولى، وبعد ذلك يرتفع إلى درجة أعلى بترو وتأنٍ، حتى يصل إلى ما يمكن للطبيعة البشرية أن تصل إليه.

إذن، بصعود درجات السلم الأولى، نرتفع فوق الأرض، لنحيا الحياة التي يريدها لنا الله.

وبداية التقدُّم، هو الابتعاد عن الشر، حيث يكون مثل هذا الابتعاد سهلاً مثل: "لا تقتل، لا تزني، لا تسرق" (خر ٢٠: ١٣-١٥)، لا يتطلَّب هذا عملاً إيجابيًا. أما عندما نُطالَب بتلك الوصية: "حب قريبك كنفسك"، "بع أملاكك وأعط للفقراء" (مت ١٩: ٢١)، "من سخرك ميلاً واحدًا، فاذهبْ معه اثنين" (مت ٥: ٤١)، هذه الأعمال يقوم بها المصارع الذي اختبر القوة بالحكمة الإلهية، الذي من خلال الأعمال الصغيرة، يقودنا إلى الكمال.

فهو يعرض علينا ثلاث أمور يجب أن نتجنَّبها، **السلوك** في مشورة الأشرار، **والوقوف** في طريق الخطاة، **والجلوس** في مجلس المستهزئين.

هذا الترتيب يبدأ باتِّخَاذ القرار ثم تنفيذ البداية هنا في الفكر النقي، فأساس أعمال الجسد تنبع من نقاوة القلب، والزنا يبدأ في النفس الشهوانية، وينتهي بزنا الجسد، لذا قال الرب: "الذي يُنَجِّس

---

[1] *Didache 4:3.*

الإنسان يخرج من القلب" (راجع مت ١٥: ١٨)[١].

القديس باسيليوس الكبير

يرى **العلامة أوريجينوس** أن الحكمة تبدأ بالسلوك المستقيم أو حفظ الوصية الإلهية.

❖ إن كان أحد يلهج في ناموس الرب نهارًا وليلاً (مز ١: ٢)، ويكون مثل فم الصديق الذي يلهج بالحكمة (مز ٣٧: ٣٠)، فسيكون قادرًا أن يسأل بحرصٍ فيجد. هكذا يكون الأمر بشرط أن يسأل بطريقة سليمة وبسؤاله يقرع باب الحكمة ليطلب من الله أن يفتح له، ويتأهَّل أن يَقْبَل بالروح القدس كلمة الحكمة، وكلمة المعرفة، ويصير رفيقًا لحكمة سليمان[٢].

❖ "مددت يدي وليس من يبالي" (أم ١: ٢٤). من المنطقي أنه قال بأنه (الله) يمد كلماته في قلبه (قلب سليمان)... لأن الله وهبه قلبًا متّسعًا.

يستطيع أن يشرح ما جاء باختصار ما ورد في الأسرار في التعاليم المتسعة المتناغمة المؤكدة في الكتاب المقدس إذ له قلب متسع.

لذلك من الضروري في توافق مع تعاليم الحكيم سليمان بالنسبة للشخص الذي يرغب أن يعرف الحكمة أن يبدأ بتدريب سلوكي، حتى يفهم ما هو مكتوب: "أتشتاق إلى الحكمة؟ احفظ الوصايا، فتُعطَى لك من قبل الله"[٣].

العلامة أوريجينوس

❖ الحكمة صالحة تملأ الذين يقتنونها بفرحٍ، وتنزل إلى أسفل بالذين لا يمارسون (الوصايا).

لكن ماذا يقول الكتاب المقدس؟ مخافة الرب بدء الحكمة (راجع سي ١: ١٢). من لا يحب أن يملُك، وقد جاء في المزامير نُصح الروح: "الآن أيها الملوك افهموا يا من تقضون على الأرض، **اخدموا الرب في خوفٍ ورعدةٍ**". هذا هو السبب لقول بولس: "تمموا خلاصكم بخوفٍ ورعدةٍ" (في ٢: ١٢). ونحن نقرأ: "إن رغبتم في الحكمة راعوا العدل، فيمنحها الرب لكم[٤]."

❖ يلزمك أن تُدَبِّر حياتك بواسطة وصايا الله، هذه التي نتقبَّلها لتعيننا أن نسلك الحياة الصالحة، مبتدئين بالمخافة التقوية، لأن "مخافة الرب رأس الحكمة" (أم ١: ٧)، بينما الكبرياء البشري يُحَطِّم

---

[١] عظة على المزمور ١.

[2] *Commentary on Song of Songs Prologue.*

[3] *Commentary on Song of Songs, Preface.*

[4] *Sermon 347:1.*

ويُضعِف[1].

الوصايا هي التي تختص بالخير، أي تجلب الخير، والخير هو الإيمان غير المرتاب، من هنا فإن الحكمة هي مكافأة الإيمان النقي. وأمّا المكافأة فستكون ما لم تره عين[2].

القديس أغسطينوس

❖ يُدعَى الناس عادة "عقلاء"، مع سوء استخدام كلمة "عقلاء". فالعقلاء ليسوا هم الذين يدرسون أقوال الآباء الحكماء الأولين وكتاباتهم، بل من كانت نفوسهم عاقلة، تقدر أن تُمَيِّز بين ما هو خير وما هو شر. فيجتنبون ما هو شر ومُضرّ للنفس، ويحرصون بحكمة على ما هو خير ونافع للنفس ويمارسونه بشكرٍ عظيمٍ لله. هؤلاء وحدهم بحق الذين يجب أن ندعوهم "عقلاء"[3].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ معرفة الصلاح لا تكفي لبلوغ الطوبى لمن لا يضع الصلاح موضع العمل، التقوى لله بالحق هي بداية المعرفة[4].

القديس ديديموس الضرير

فإن مخافة الرب هي الحكمة والتعليم،
والذي يُرضيه هو الإيمان والوداعة [٢٤].

❖ بالحقيقة اللاهوت لا يغضب كما يظن البعض، إنما عندما يستخدم الله تهديدات كثيرة، إنما يصنع هذا مناشدة مظهرًا للبشرية الأمور التي ستتحقق. هنا إجراءات بالتأكيد صالحة، يغرس الخوف ليحفظنا من الخطية. "مخافة الربّ تطرد الخطية، فمن ليس فيه خوف لا يقدر أن يتبرر". العقاب الذي يفرضه الله ليس عن غضبٍ بل عن عدلٍ، فمن يتجاهل: العدل لا يحقق تقدمًا[5].

القديس إكليمنضس السكندري

لا تعصِ مخافة الرب،
ولا تتقدَّم إليه بقلبٍ مزدوجٍ [٢٥].

الفكر غير المنقسم: للتمتُّع بمخافة الرب المقدسة واهبة الحكمة، يليق بالمؤمن أن يحفظ الوصايا

---

[1] *Letter 171 A.*

[2] راجع الأنبا مكاريوس، أصحاح ١.

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ١.

[4] *Commentary on Prov. (Fragment 1: 7).*

[5] *Paedagogus, FOTC... Vol. 23, p. 61-6.*

الإلهية، فهي تسند إيمانه بالله، كما تهبه أن يتحلَّى بالوداعة، فلا يسقط في التشامخ حتى على غير المؤمنين [٢٧]. ومن جانب آخر يلتصق بالله بكل قلبه دون ازدواجية.

إذ يتحدَّث عن الحكمة وارتباطها بالوصية الإلهية، يدعونا إلى **حياة البساطة** بكونها مفتاح للطاعة للوصية، محذرًا إيانا من **القلب المزدوج**. إن كانت البساطة تُوَجِّه قلوبنا إلى طريق الحق بلا انحراف، فإن القلب المزدوج يُفقِد الإنسان هدفه، فيعطي ساعة للرب وساعة للهو واللذات الزمنية.

إذ يتحدَّث **القديس غريغوريوس أسقف نيصص** على الفضائل، يضع بساطة القلب في المقدمة التي هي تضاد لازدواج القلب، إذ يقول:

❖ بخصوص عناصر الفضيلة، أي نوع منها يليق أن نعتبره الأعظم، وأي منها يلزم أن نمارسه أكثر من العناصر الأخرى، هذا هو ترتيبها، هذه الأمور لا يمكن أن ننطق بها. فإنها جميعًا لها ذات الكرامة، وتقود من يمارسها إلى الأعالي عن طريق كل عنصرٍ منها.

فالبساطة تفتح الطريق للطاعة، والطاعة للإيمان، والإيمان للرجاء، والرجاء للبرّ (العدالة)، والبرّ للخدمة، والخدمة للتواضع. بهذا يتحقَّق اللطف الذي يقود إلى النعمة، والنعمة للحب، والحب للصلاة. هكذا كل فضيلة تعتمد على الفضائل الأخرى. وتقودنا الفضائل إلى قمة ما نشتهيه. وذلك كما أن إكليل الشرّ يقود أصدقاءه إلى الشرّ المتزايد... بجانب هذا، من الضروري لنا أن نثابر على الصلاة (رو ١٢: ١٢). لأن الصلاة تشبه قائد خورُس الفضائل[1].

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

لنتبع الله بكل كياننا أو كل قلبنا وكل فكرنا: "تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قدرتك، ومن كل فكرك" (لو ١٠: ٢٧).

❖ هؤلاء وحدهم يتقبَّلون داخلهم عظمة الوصيّة وأولويَّتها، ليس من يحبُّون الرب إلههم فحسب، إنّما يضعون في أنفسهم أن يُحَقِّقوا هذا خلال ثلاثة شروط؛ أي **بكل قلبهم** يتمسَّكون في داخلهم بكمال هذا الحب وأفكاره وأعماله؛ **وبكل نفسهم** أي يكونون على استعداد أن يبذلونها من أجل الخدمة لله الذي خلق كل شيء، عندما يتطلَّب ذلك نشر كلمته؛ فإن الله يُحَب من كل النفس عندما لا يُمسك أي جزء من النفس خارج حفظ الإيمان؛ ويُحبّونه **بكل الفكر**، فلا يفكِّرون في شيء ولا ينطقون إلا في الإلهيّات[2].

العلاّمة أوريجينوس

---

[1] *Ascetical Works, FOTC, vol. 58, p. 151-152.*

[2] *PG 13:1599.*

❖ أعتقد أن الحكيم ينصح الأشخاص المنقسمين مشبهًا إياهم بالذين يقتربون من طريق الله عندما يقول: "لا تأتوا إلى الرب بقلبين"، إنما اقتربوا إلى طريقه كمن يبذر وآخر يحصد[1].

مار اسحق السرياني

❖ الحياة الفاضلة هي بالحق مصدر الحكمة وأصلها، كما أن الإثم مصدره الجهالة. أقول هذا فإن المتبجح وعبد الشهوة يؤخذ أسيرًا بواسطة هذه الرذائل كثمرة لنقص الحكمة... كل خطية تبدأ بعدم الحكمة، كما أن الشخص الفاضل الذي يخاف الله هو أحكم الجميع. لهذا السبب يقول الحكيم: "مخافة الرب رأس الحكمة" (أم ١: ٧). فإن كانت مخافة الرب هي أن تكون حكيمًا، وصانع الشر لا يقتني هذه المخافة، فهو بالحق مُجرَّد من الحكمة، ومن يُحرَم من الحكمة يكون بالحق أكثر الكل غباوة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يليق بالمسيحي أن **يُفَكِّر هكذا في دعوته السماوية، وأن تكون حياته لائقة بإنجيل المسيح** (فل ٢٧). يليق بالمسيحي ألا يكون بفكرٍ مزدوجٍ (لو ١٢: ٢٩)، ولا يكون منشغلاً عن تذكُّر الله وأهدافه وأحكامه[3].

القديس باسيليوس الكبير

لا تكن مُرائيًا في نظر الناس،

وكُن محترسًا لشفتيك [٢٦].

قيل عن كبرياء المرائي أنه يصعده كما إلى السماء، بفكره المتشامخ يبدو كمن يقوده إلى الحياة السماوية. في رياءٍ يظن أن رأسه قد بلغت إلى السحاب، إذ يظن أن عقله المفكر يساوي استحقاقات القديسين الذين سبقوه.

❖ الرياء أمر مكروه لدى الله، وممقوت من الناس، لا يجلب مكافأة، ولا يصلح قط في خلاص النفس بل بالحري يهلكها. إن كان أحد يهرب بالرياء لئلا يُكتشَف أمره، فإلى حين، إذ لا يدوم كثيرًا، بل ينكشف كل شيءٍ، فيجلب على صاحبه عارًا. وهكذا يكون أشبه بامرأة قبيحة المنظر، تُنزَع عنها زينتها الخارجيَّة التي وُضِعَت لها بطرق صناعيَّة. الرياء إذن غريب عن القدِّيسين، إذ يستحيل أن

---

[1] *Ascetical Homilies 37.*

[2] *Homilies on John, hom. 41.*

[3] *Letter 22 On the Perfection of the Life of Solitaries.*

يفلت شيء مما نفعله أو نقوله من عيني اللاهوت، إذ قيل: "ليس مكتوم لن يُستعلن، ولا خفي لا يُعرَف" (لو ١٢: ٢). فإن كانت كل كلماتنا وأعمالنا ستُعلَن في يوم الدينونة، فالرياء مُتعب وبلا منفعةٍ. يليق بنا أن نتزكّى كعابدين حقيقيّين نخدم الله بملامح صادقة وصريحة [١].

القدّيس كيرلس الكبير

❖ قد يوجد من يُقَدِّم صدقته قدام الناس لكنّه يتحاشى التظاهر بها، ويوجد أيضًا من لا يُقَدِّمها قدام الناس لكنّه يتباهى بها سرًا. فالله لا يجازي عن الصدقة بحسب صنعها إن كانت أمام الناس أم لا، بل بحسب نيّة فاعلها [٢].

❖ الكل يرى اللص "الرياء" يحمل كل شيء أمام عينيّه ويبتهج بذلك! يا لها من لصوصيّة جديدة من نوعها، تجتذب الناس وتبهجهم بينما هم يُسلَبون! [٣]

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ ما هو مكان المرائي (أي ٢٠: ٩) سوى قلب المُتملِّقين له؟ فإنه يستريح في الموضع الذي يجد فيه من يُحِبُّونه... ولكن مادام حيًا لا يكف عن أن يُعَلِّم أتباعه ذات الأمور التي يمارسها، وخلال جسارة طريقه الخاطئ يلد آخرين أيضًا على شاكلة الخداع الباطل الذي له.

❖ يبدو المراءون مثمرين ومخضرين في أعين زملائهم المخلوقين، لكنهم في نظر الديان الخفي يظهرون بلا ثمر وذابلين.

البابا غريغوريوس (الكبير)

لا ترتفع لئلا تسقط،
فتجلب على نفسك الهوان.
ويكشف الربّ أسرارك،
ويضربك في وسط الجماعة،
لأنك بالحق لم تتوجه إلى مخافة الربّ،
وقلبك مملوء مكرًا [٢٧].

الحكمة عطية مجانية يُقَدِّمها للمتواضعين، إنه يُقَدِّمها بلا محاباة، يهبها لمن يتمتعون بمخافة

---

[1] *In Luc Ser 86.*

[٢] الحب الأخوي، ١٩٦٤، ص ١٢٩.

[3] *In Acts, hom., 5.*

الربّ ويهتمون أن يحفظوا وصاياه [٢٧].

❖ أبغض العظمة، لأنها الثمرة المملوءة موتًا.

لأن آدم أكل منها في عدن، وأعطته الموت.

وبها سقط الشيطان من البدء. بها سقط بيت آدم من الفردوس.

ليس عند الله شيء بخس ومكروه كمثل حب العظمة، ومن يتشامخ بالكبرياء.

القديس مار يعقوب السروجي

❖ لاحظوا هؤلاء الناس المتكبرين المستهترين، لاحظوا الثور وهو يُعَدّ للذبح، يُترَك ليجول في حرية، يُدَمِّر ما يريد، حتى يوم ذبحه... يشير الكتاب المقدس إليه في موضع آخر كذبيحةٍ وأنه يُترَك لحرية شريرة (أم ٧: ٢٢)[١].

القديس أغسطينوس

❖ سقط الشيطان من رتبته السماوية بسبب كبريائه، لهذا فإنه يعمل كل جهده دومًا لكي يسقط كل الراغبين في التقدُّم نحو الله بكل قلوبهم، مستعينًا بنفس الوسيلة التي سقط بها هو، أعني العظمة ومحبة المجد الباطل. بهذا وما يشبهه يحاربنا على رجاء أن يبعدنا عن الله...

ما الذي دفع ربنا يسوع المسيح أن يترك ثيابه ويشد وسطه بمنطقة ويصب ماء في وعاء ويغسل أقدام من هم دونه (يو ١٣: ٤ الخ) إلا لكي يُعَلِّمنا التواضع؟! لقد أظهر لنا التواضع بالمثال الذي صنعه. لذلك فإن الذين يريدون أن يعودوا إلى رتبتهم الأولى، لن يمكنهم هذا إلا بالتواضع. لأن الكبرياء هو سبب السقوط في البداية من السماء.

وهكذا فإن من ينقصه التواضع العميق من كل القلب والفكر والروح والجسد، لا يرث ملكوت الله[٢].

❖ كثيرون أقاموا زمانًا طويلاً وهم رهبان وعذارى، ولم يتعلَّموا كيف يقتنون النقاوة. وذلك لأنهم يزدرون بتعليم آبائهم ويتبعون أهواء قلوبهم الخاصة. لذلك تسلَّطت عليهم الأرواح الشريرة المُهلِكة للنفوس، تجرحهم ليلاً ونهارًا أسهمها غير المنظورة، ولا تعطيهم سلامًا في أي موضع، بل يشغلون قلوبهم تارة بالكبرياء وأخرى بالمجد الباطل والغيرة الشريرة والذم والغضب والحنق والمشاحنات وكثير من الآلام الأخرى. هؤلاء نصيبهم مع الخمس عذارى الجاهلات، إذ أجازوا زمانهم بجهلٍ،

---

[1] *On Ps. 73 (72).*

[٢] رسالة ٦.

ولم يلجموا ألسنتهم، ولا حفظوا أعينهم نقية، ولا حفظوا أجسادهم من الشهوات أو قلوبهم من النجاسات وغيرها[1].

القديس أنطونيوس الكبير

من وحي سيراخ ١

لأقتنيك يا حكمة الله الأزلي!

❖ أنت هو حكمة الله خالق السماء والأرض!
أنت هو الحكيم العظيم المهابة، الجالس على عرشك!
تُرى مَن مِنْ الطغمات السمائية أو البشر يقدر أن يفحص أسرار خليقتك؟!
من يقدر أن يفحص طبيعتك؟
أنت حكمة الله، نزلت إليَّ لأقتنيك، فأصير بك حكيمًا؟
أنت واهب الحكمة وكل البركات، صرت عطية لي،
أقتنيك في داخلي وأعتزّ بك!

❖ وهبتني العقل مع حرية الإرادة لأتأمل أعمال محبتك،
ولكنني إذ أقف عاجزًا، نزلتَ إليّ لتقطن في أعماقي!
نزلتَ إليّ لتحملني فيك، وتُعِدّ لي مكانًا في سماواتك.
ألتقي معك وجهًا لوجهٍ، وتبقى بصيرتي في دهشة.
أنطلق إلى الفردوس، فأنعم بالأمجاد الأبدية وأسرارها، دون توقفٍ!

❖ تُبارِكك نفسي يا من وهبتني غريزة المخافة المقدسة.
إذ أتعرَّف عليك، تُسَمِّر مخافتك المقدسة فيّ،
فتتمجد أعماقي بحلولك فيها.
أفتخر بك يا سروري وبهجة قلبي!
مخافتك تقودني في رحلة غربتي إلى يوم خروجي من العالم.
مخافتك تضمّني إلى طغمات السمائيين، فأُسَبِّحك معهم بخوفٍ ورعدةٍ.

---

[1] رسالة ٢٠.

مخافتك تُحَوِّل برية قلبي الجافة إلى فردوسٍ مملوءٍ بثمر الروح.
مخافتك تُنَقِّيني من مخافة إبليس ومخافة البشرّ!
بمخافتك أَتحدَّى إبليس وكل قواته وكل أعماله،
فلا يقدر أن يتسلَّل إليّ فكر شرير، ولا كلمة باطلة، ولا سلوك أثيم!
مخافتك شجرة الحياة، فروعها تمتد إلى عواطفي وحواسي وكلماتي وسلوكي.
أقطف منها، فأتقدس في الداخل والخارج.
أقطف منها حبك، فأحب كل البشرية حتى المُقاوِمين لي!

❖ أقمت معي ميثاق حبٍ عجيبٍ، سجَّلته في كتابك المقدس.
أعطيتني كتابك ألهج فيه، فتمتلئ نفسي بحلاوتك!
وصاياك هي الحُلي الثمين الذي يُزَيِّن نفسي!
وصاياك تُعدّني للعُرْسِ الأبدي.
تجلس نفسي كملكة تتزيَّن بوصاياك، ويدهش لها السمائيون!
لكل كمالٍ وجدت حدًا، أما وصاياك فواسعة جدًا.
إذ قدَّمت نفسك لي صديقًا سماويًا،
وهبتني حكمتك ومخافتك ووصيتك!
كيف أُعانِي من عزلةٍ، وأنت تُرافِقني طوال رحلة غربتي؟
كيف أشكو فقري واحتياجي، وأنا غني بك!

❖ لك المجد من أجل رفقتك لي، فلا أنحرف يمينًا ولا يسارًا.
لن يعرف قلبي الازدواجية، لأنه في يدك.
حبك يملأ كل قلبي، فلن يجد إبليس موضعًا فيه!
لك المجد يا كلي الحكمة، واهب المخافة المقدسة،
ووصيتك المملوءة عذوبة!

مخافة الرب

تتجلَّى مخافة الرب في الطاعة لوصاياه، ومن يحفظ وصاياه، يتمتَّع بالمجد الداخلي، ويحيا في فرح الروح والسرور، وينال إكليل البهجة. يدَّعِي البعض أن وصايا الله وأحكامه تذل الإنسان، لأنهم لم يختبروا حقيقة الوصايا إذ ترد للإنسان صورة الله ويصير على مثاله، فيحيا في فرحٍ.

غاية الوصية أن يسكن الله فينا وفي وسطنا (زك ٢: ٥). لذا فإن مخافة الرب مجد وفخر وسرور وإكليل بابتهاج.

"مخافة الرب تنشأ في الرحم مع المؤمنين" [١٢]. هكذا يبدأ اهتمام الوالدين بأبنائهم من قَبْل ميلادهم، فإذ تقدَّس زكريا الكاهن وأليصابات، فحينما قامت القديسة مريم بزيارتهما وقدَّمت الكلمة المتجسد، تهلل الجنين يوحنا وركض مبتهجًا بالرب، وتمتَّع بمخافة الرب وهو بعد في الرحم.

أ. توجد **علاقة بين الحكمة ومخافة الرب.** فكلتاهما تحملان السعادة والبركة. مخافة الرب هي مبدأ الحكمة وكمالها وتاجها [١٢، ١٦، ١٨].

ب. **الحكمة أم وعروس لخائف الرب:** "تأتي وتقابله كأُمّ، وتَقْبَلَهُ كزوجة شبابه" (١٥: ٢).

ج. **عينا الرب على خائف الرب:** "وهو نفسه يَعْلَم كلّ عمل الإنسان" (١٥: ١٩).

د. **خائفو الرب مملوءون بالبركات والرجاءَ:** مخافة الرب كفردوس البَرَكة" (٤٠: ٢٧).

هـ. **خائفو الرب وكلمة الله:** "الذين يخافون الرب لا يعصون أقواله" (٢: ١٥).

إمكانيات خائف الرب: "من يخاف الربّ لا يخاف شيئًا، ولا يفزع أبدًا، لأن الربّ هو رجاؤه" (٣٤: ١٤). "لا يلحق شرّ بمن يخاف الربّ بل يُنَجِّيه (الربّ) في التجربة مرّة ومرّات. الحكيم لا يُبغِض الشريعة، أما الذي يدَّعي حفظها فيُشبِه قاربًا في العاصفة. رجل الفهم يثق في الشريعة، والشريعة عنده جديرة بالثقة، لأنها إعلان إلهيّ" (٣٣: ١- ٣).

و. **إكرام خائف الرب:** "أي نوع من النسل مُكرَّم؟ هؤلاء الذين يخافون الربّ" (١٠: ١٩).

ز. **مخافة الرب فخر الشيوخ:** "إكليل الشيوخ هو الخبرة العظيمة، ومخافة الربّ فخرهم" (٢٥: ٦).

ح. **مخافة الرب تفوق كلّ خيرٍ:** "مخافة الرب تفوق كل شيءٍ" (٢٥: ١١).

ط. **الزوجة الصالحة عطية لخائفي الرب:** "الزوجة الصالحة نصيب عظيم، وتكون نصيب من يخاف الربّ" (٢٦: ٣؛ راجع ٢٧: ٣).

بين خائفي الرب والأشرار

"من يخاف الربّ يَقْبَل التعليم، والمُبَكِّرون إليه ينالون رضاه. من يطلب الشريعة يمتلئ بها، وأما المرائي فيتعثَّر فيها. الذين يخافون الربّ يكتشفون الحُكم، وكالنور يضيئون أعمالاً بارة. الإنسان الخاطئ يرفض الإصلاح، ويجد حُججًا توافق مُبتغَاه" (٣٢: ١٧-١٤).

مخافة الرب والحياة الاقتصادية

١. يُحَدِّثنا عن الغِنَى والفقر؛ الغِنَى صالح لمن هو مقدّس، والفقر مُستقبح في ذهن الشرير (راجع ١٣: ٢٣). يمنح الغنى الإنسان السلطان والثقة بالنفس، لكن ليس مثل مخافة الرب والمشورة الصالحة.

"الذهب والفضة يُثَبِّتان القدم، لكن تُعتبَر المشورة أكثر قيمة من كليهما. الثروة والقوة تبنيان القلب، لكنّ مخافة الربّ أفضل من كليهما. ليس من خسارة في مخافة الربّ، ولا حاجة للبحث عن عونٍ معها" (٤٠: ٢٥ -٢٦).

٢. الغني والفقير: "الغني يخطئ ويثبت نفسه أنّه المُساء إليه، والفقير يُسَاء إليه ويلتزم أن يعتذر" (١٣: ٣).

يُنَبِّهنا إلى **أهمية العمل في الحياة الروحية والاقتصادية حتى الشيخوخة:** "لا تكره العمل المُتعِب، بخاصة الفلاحة التي خلقها العليّ... هل عندك قُطعان؟ اهتم بها" (راجع ٧: ١٥، ٢٢) "يا بُنَيَّ، لا تحيا حياة المتسوِّل، فإن الموت خير من الاستجداء. عندما ينظر الإنسان إلى مائدة الغير، عيشته غير عاقلة أو لا تُعد طريقة حياته حياة. إنه يفقد احترامه لذاته بطعام الغير، وأمّا الإنسان العاقل المتأدب فيتحفَّظ من ذلك. في فم عديم الحياء يحلو الاستجداء، لكن في معدته نار تلتهب" (راجع ٤٠: ٢٨-٣٠).

٣. يُنَبِّهنا إلى **الموازين والمكاييل** العادلة: "بصعوبة يتجنَّب التاجر ارتكاب الإثم، ولا يُبرأ البائع المتجول من الخطية" (راجع ٢٦: ٢٠).

٤. **الحكمة الحقيقية والعمل بلا تدبير:** "لا تجادل في أمر لا يخصك، ولا تجلس مع الخطاة عند حكمهم في قضية. يا بني، لا تدع عملك يتضمن أمورًا كثيرة، فإنك إن أكثرت منها، لا تستمر بدون عقاب، حتى إن تقدَّمت فيها، فإنك لا تدركها، ولا تنجو بالهرب. رُبّ إنسان يعمل ويعمل ويستمر يعمل ولكنه يزداد فقرًا" (راجع ١١: ٩-١١).

٥. **حُسن استخدام المال:** "السُهاد (الأرق) لأجل الثروة يُهلِك الجسم، والقلق على الثروة ينزع النوم... يتعب الغنيّ في جمع الأموال، وفي راحته يشبع من رفاهيته. يتعب الفقير في حاجة العيش،

وفي راحته يصبح معوزًا. من أحب الذهب لا يُدعَى بارًا، ومن اقتفى أثر الربح يضلّ بسببه... إنه فخّ للذين يُكَرِّسون حياتهم له، وكلّ غبيّ يسقط فيه. طوبى للغني الذي يوجد بلا لوم، ولا يسعى وراء الذهب" (راجع ١ تيمو ٦: ٣-١٠، ١٧-١٩).

لنبدأ بالخوف البدائي

❖ لا يقدر أحد أن يبلغ إلى الخوف الكامل ما لم يحصل أولاً على الخوف البدائي. إذ يقول الحكيم ابن سيراخ: "بدء الحكمة مخافة الرب... إكليل (رأس) الحكمة مخافة الله" (ابن سيراخ ١: ١٢، ١٦)، قاصدًا بكلمة "رأس" الخوف البدائي الذي يتبعه الخوف الكامل الذي للقديسين.

يتوقَّف الخوف البدائي على حال روحنا، وهو يحفظ النفس من كل سقطة، إذ قيل إنه بمخافة الرب يتخلَّص كل أحدٍ من الشر. ولكن الإنسان الذي يتخلَّص من الشر بسبب خوفه من العقاب يشبه عبدًا يخاف من سيده، وبالتدريج يبتدئ يصنع صلاحًا طوعًا.

في البداية يعمل كأجيرٍ ينتظر الأجرة عن عمله الصالح. فإن استمر هكذا متجنبًا الشر بسبب الخوف كعبدٍ صانعًا الخير على رجاء نوال المكافأة كأجيرٍ، عندئذ يقيم في صنع الخير ويصير له تذوق خاص بالخير الروحي، فلا يعود يريد الانفصال عنه. عندئذ يصل إلى عمل الابن، فيحب الخير لأجل الخير ذاته، ورغم أنه يخاف، لكنه يعمل لأنه يحب. هذا هو الخوف العظيم الكامل.

الأب دوروثيؤس

مخافة الرب وسلّم الحياة الإيمانيّة

يُقَدِّم لنا مار فيلوكسينوس سلّم الحياة الإيمانيّة العمليّة، فيبدأ بدرجاته الثلاث: **الإيمان والبساطة وخوف الرب**. ليست هناك شركة مع الله بدون إيمان، ولا يمكن أن يقوم الإيمان إلا من خلال البساطة التي وهبها الله للنفس كي تلتقي معه كطفل بسيط يؤمن بأبيه ويتعلَّق به. هذه البساطة التي تلد الإيمان هي التي تحفظه لتستمر النفس بنعمة الله ثابتة في إيمانها.

خلال هذا الإيمان تتمتَّع النفس بمخافة الرب. تؤمن به وتدرك عظمته، فتخافه، وتكرمه، وتحفظ وصاياه. فالإيمان إذن يلد "مخافة الرب"؛ فيحفظ الإنسان المؤمن الوصيّة ويطيعها خوفًا من العقاب... وإذ ينمو بالنعمة يطيع الوصيّة كابن يخشى أن يجرح مشاعر أبيه... إنه يخشى أن تتشوَّه طبيعته التي يقتنيها على صورة إلهه ومُخَلِّصه.

الأصحاح الثاني

المؤمن التقي
في مواجهة الضيقات

في الأصحاح الأول أبرز السفر أن بدء الطريق للانطلاق نحو التمتُّع بالحكمة الإلهية هو مخافة الرب، بل وإكليل الحكمة هو أيضًا مخافة الرب، وكأن المخافة المقدسة لا تنفصل عن الحكمة حتى في الأبدية. أما سؤال كل العصور بالنسبة لخائفي الرب أو للأتقياء فهو: لماذا تحلّ الضيقات بأناس الله الأتقياء أو بخائفي الرب؟ جاءت الإجابة باختصار: "يا بني، إن أقبلتَ لتخدم الربّ، فأَعدد نفسك للتجربة " (سي ٢: ١).

١. خائف الرب في البوتقة [١-٦].
٢. خائف الرب مملوء رجاءً [٧-١١].
٣. خائف الرب ينجو من ثلاث ويلات [١٢-١٤].
٤. خائف الرب والشبع بكلمة الله [١٥-١٨].

١. خائف الرب في البوتقة

يا بني، إن أقبلتَ لتخدم الرب،
فأعدد نفسك للتجربة [١].

وردت كلمة ابن (أو طفل) *teknon* ٣٦ مرة في هذا السفر.

"**يا بني**": يحسب سيراخ مدرسته عائلة لها دورها في حياة المجتمع. فيدعو تلاميذه "أبناءه"، تارة بصيغة الجمع علامة الوحدة بين التلاميذ وبعضهم البعض، وعلاقته بهم كأبٍ، وتارة يتحدَّث بصيغة المفرد: "**يا بنيّ**" لإبراز الجانب الشخصي لكل واحدٍ منهم. يود سيراخ أن يسلك بروح الله الذي يتعامل مع الجماعة سواء القادة أو الشعب بكون الجميع شعب الله موضوع حبه ورعايته الخاصة. وفي نفس الوقت يرى في كل ابنٍ أنه عضو خاص له مكانته الخاصة في قلب أبيه.

يقدم سيراخ فكرتين متكاملتين هما: أن الحكمة تبرز في خدمة الربّ، وأيضًا يستحيل بلوغ الحكمة بدون **طول الأناة في التجارب**. هاتان الفكرتان لا تفارقا فكر سيراخ.

يلزم مناقشة موضوع "**التجارب**" في حياة الشباب، إذ يليق بالشاب أن يتعلَّم في شيءٍ من التفصيل ليس فقط عن البركات الموعود بها للذين يجاهدون أن يرضوا الربّ، وإنما أن يعرف أيضًا أن

التجارب ترافقه أثناء جهاده. يلزم أن يعرف مقدمًا ما يمكن أن يحلّ به. هذا ما أكَّده يعقوب الرسول في رسالته: "ها نحن نطوب الصابرين، قد سمعتم بصبر أيوب، ورأيتم عاقبة الرب، لأن الرب كثير الرحمة ورؤوف" (يع ٥: ١١)، مشيرًا إلى ما حلّ بأيوب البار.

بعد أن ربط الحكيم بين الحكمة والطاعة للوصية الإلهية والتمتُّع بمخافة الرب، يؤكد لنا أن طريق حكمة الله يُعرِّضنا للتجارب. حقًا إن تكلفة الطريق متاعب كثيرة، لكنها تقدم معها بركات فائقة (٤: ١٧-١٨؛ ٦: ٢٤-٣١).

لم يُخفِ الرب عنا هذه الحقيقة، بل قال لتلاميذه: "اذهبوا. ها أنا أرسلكم مثل حملانٍ بين ذئابٍ" (لو ١٠: ٣). كما قال: "وقبْل هذا كلّه يلقون أيديهم عليكم ويطردونكم ويسلّمونكم إلى مجامعٍ وسجونٍ وتُساقون أمام ملوكٍ وولاةٍ لأجل اسمي، فيؤول ذلك لكم شهادةً... وسوف تسلّمون... ويقتلون منكم. وتكونون مُبغَضين من الجميع من أجل اسمي" (لو ٢١: ١٢، ١٣، ١٦، ١٧). ويقول يعقوب الرسول: "احسبوه كلّ فرحٍ يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعةٍ، عالمين أنّ امتحان إيمانكم ينشئ صبْرًا" (يع ١: ٢، ٣). كما قيل: "لا تخف مما أنت عتيد أن تتألم به. هوذا إبليس مزمع أن يُلقي بعضًا منكم في السجن لكي تُجربوا، ويكون لكم ضيق عشرة أيام" (رؤ ٢: ١٠).

في أيام ابن سيراخ كانت مقاومة الإيمان بالله تتركَّز في نشر الوثنية الهيلينية التي تسلَّلت حتى إلى الهيكل في أورشليم، والتي بلغت القمة في أيام أنطيوخس أبيفانُس (ضد المسيح في العهد القديم). فكان كل من أراد التخلي عن الهيلينية مع التمسُّك بالشريعة يُعرِّض نفسه للاضطهاد من قبل الحكام الإغريق.

هذه التجارب بالنسبة للمؤمن تقوم بعملية تنقية، وذلك كما تُنقِّي النار الذهب (أم ١٧: ٣). هذا والثقة في وعود الله تدخل بنا إلى العون الإلهي وسط الضيق (مز ٣٧: ٣-٦؛ أم ٣: ٥-٦).

ما يريد آباء الكنيسة تأكيده أن التجارب التي يسمح الله بها أن تحلّ على المؤمنين لا تعني غضب الله عليهم أو الانتقام منهم، بل هي علامة الحب الإلهي، لأجل تنقيتهم وتقدمهم وتكليلهم بإكليل النصرة. فإن غضب عليهم، فغضبه ينبع عن حبه الأبوي لهم.

❖ واضح أنك غاضب، بالحقيقة غاضب كأبٍ يُصلح، وليس كقاضٍ يدين[1].

❖ أولئك الذين عيَّنهم الله قبل إنشاء العالم ليأخذوا صورة ابنه الوحيد (رو ٨: ٢٩)، هذا الذي على وجه الخصوص عُصِرَ في آلامه بكونه العنقود العظيم، كانوا قبل اقترابهم إلى خدمة الله،

---

[1] *On Ps.80 (79).*

يتمتعون في العالم بنوعٍ من الحرية اللذيذة، مثل عناقيد عنب مدلاة أو زيتون على الشجر. ولكن كما قيل: "يا بني، إن أقبلتَ لتخدم الربّ، فأَعدد نفسك للتجربة" (راجع سي ٢: ١).

كل من يقترب من خدمة الله يجد نفسه في معصرة خمر، يحتمل متاعب، ويُسحَق، ويُعصَر، لا لكي يهلك في هذا العالم، إنما لكي ينساب في مخازن الله.

تُنزَع عنه أغطية الشهوات الجسدية مثل غلاف العنب (عند عصره)... يتحدث عنه الرسول: "اخلعوا الإنسان العتيق، وألبسوا الإنسان الجديد" (كو ٣: ٩-١٠؛ أف ٤: ٢٢). هذا كله لا يتم إلا بالعصر. لهذا تُدعَى كنائس الله في هذا الزمن "**معاصر**"[١].

❖ كن صبورًا وتحمل المحن التي تتعرَّض لها في طريقك للوصول إلى الله، فإنه يقبل الذين يصبرون في الضيق بشكرٍ...

إن نار التجارب والصعوبات إنما تُخرِج رجالاً أشدَّاء في الإيمان، فقد تكون مؤلمة، لكنها تُولِّد الأشداء لأنهم يرتكزون على أساسٍ قويٍ[٢].

القديس أغسطينوس

❖ (رسالة تعزية لأبٍ ماتت ابنتاه وأيضًا خادمته)

لست أخدعك بكلمات مداهنة، أو أسحب من تحت قدميك الأرض بالمديح المتملق. بالحري أقول ما هو صالح لك أن تسمعه: "يا بني، إن أقبلتَ لتخدم الربّ، فأَعدد نفسك للتجربة" (سي ٢: ١). "متى فعلتم كل ما أُمرتم به، فقولوا إننا عبيد بطالون، لأننا إنما عملنا ما كان يجب علينا" (لو ١٧: ١٠).

قُل لله: "الابنتان اللتان أخذتهما مني هما عطيتك. الخادمة التي أخذتها لك هي أيضًا قد أقرضتني إياها إلى حينٍ لتعزيتي. إنني لست حزينًا أنك استردتهن، إنما بالحري أشكرك لأنك سبق أن أعطيتهن لي"[٣].

❖ يجب ملاحظة أنه لو لم يبدأ الرب بالصوم ما كان قد وجد الشيطان الفرصة (لِيُجَرِّبَه)، وذلك حسب العبارة: "يا بني، إن أقبلتَ لتخدم الربّ، فأَعدد نفسك للتجربة" (سي ٢: ١). إجابة المُخَلِّص نفسها تشير إلى أنه قد جُرِّب كإنسانٍ: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من

---

[1] *On Ps 84 (83).*

[٢] راجع الأنبا مكاريوس، أصحاح ٢.

[3] *Letter 8 To Julian, 4*

فم الله" (مت ٤: ٤). لهذا إن كان أحد لا يقتات بكلمة الله، لا يحيا[1].

القديس جيروم

❖ الذين اختاروا أن يحيوا حياة مجيدة وبلا لوم يجب عليهم أن يُخَزِّنوا مُقدَّمًا في ذهنهم غيرة كافية لتحقيق ذلك. وأن يتذكَّروا القائل: "يا بني، إن أقبلتَ لتخدم الربّ، فأَعدد نفسك للتجربة. قوِّم قلبك على الإخلاص وكُنْ وفيًا" (سي ٢: ١-٢). أما الذين ليس لهم مثل هذه الغيرة، فكيف يمكنهم أن يصلوا إلى الهدف الموضوع أمامهم؟ يقول الرب: "وأي ملك إذا ذهب إلى مقاتلة ملكٍ آخر في حرب، لا يجلس أولاً ويتشاور مع نفسه، هل يستطيع بالعشرة آلاف التي له أن يغلب من هو أقوى منه؟" (لو ١٤: ٣١)[2]

❖ أي أمر يحدث دون توقع ويكون خطيرًا، يدفع حتى الشجعان إلى الاضطراب، وأحيانًا إلى أهوال لا تُحتمَل. لكن إذا ما ذُكر مقدمًا أنها ستحدث، فإنَّ توقعها يُخَفِّف وطأة هجومها، وهذا ما أعتقد معنى عبارة "**تهيأت ولم أضطرب**".

لهذا يقول الكتاب المقدس المُوحى به من الله للذين يبغون المجد بسلوكهم المقدس: "يا بني، إن أقبلتَ لتخدم الربّ، فأَعدد نفسك للتجربة. قوِّم قلبك على الإخلاص وكُنْ وفيًا" (سي ٢:١). وهو لا يتحدث ليُوجِد في البشر تكاسلاً واستهتارًا... لهذا فإن مُخَلِّص الجميع كان يهيئ مسبقًا التلاميذ، فأخبرهم أنه سيتألم بالصليب ويموت جسديًا ما أن يبلغ إلى أورشليم[3].

القديس كيرلس السكندري

❖ إذ تبدأ النفس تحب الحقائق السماوية، وتُرَكِّز بقوةٍ في هذا السلام الجوهري، عندئذ ينحدر العدو القديم الذي سقط من السماء (لو ١٠: ١٨) وهو يشعر بالحسد، فيبدأ في مضاعفة فخاخه الخفية. إنه يُطَوِّر التجارب بأكثر عنفٍ عن المعتاد. إنه يُجَرِّب بالأكثر النفس التي تُقاوِم. لذلك كُتِب: "يا بني، إن أقبلتَ لتخدم الربّ، فأَعدد نفسك للتجربة" [١]، وكن حازمًا في عدلٍ ومخافةٍ[4].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ غالبًا ما يُوَجِّه الله بعض أنواع التهديدات التي تحلّ على رؤوسنا، لا لكي ينزلها علينا، وإنما لكي

---

[1] *Commentary on Matthew 1: 4: 4.*

[2] تفسير إنجيل لوقا، عظة ١٠٥ ترجمة دكتور نصحي عبد الشهيد، ١٩٩٨، ص ٦٨-٦٩.

[3] *Comm. On Luke.*

[4] *Homilies on Ezekiel 1:12:24.*

يجتذبنا إليه، وعندما نعود إليه يتبدَّد الخوف سريعًا.

بالتأكيد لو أننا بقينا بنفس الوضع في أثناء التجارب في طمأنينة، فما كانت هناك حاجة إلى التجارب. ولماذا أتكلم عنّا نحن؟ حتى القديسين القدامى تعلَّموا درسًا عظيمًا، إذ يقول النبي: "خير لي أنك أذللتني" (مز ١١٩: ٧١). وأيضًا قال يسوع للرسل: "في العالم سيكون لكم ضيق" (يو ١٦: ٣٣). ويشير بولس إلى هذا بقوله: "أُعطيت شوكة في الجسد ليلطمني لئلا أرتفع" (٢ كو ١٢: ٧)... إن استعرضنا كل حياة داود نجده كان أكثر مجدًا عندما كان في خطرٍ، سواء هو أو من كان على شاكلته.

هكذا كانت حالة أيوب الذي أشرق بأكثر بهاءٍ أثناء متاعبه. ويوسف أيضًا بهذه الطريقة تزكَّى بالأكثر... فإن كل الذين لبسوا مثل هذه الأكاليل من المجد، اكتسبوها بواسطة المتاعب والتجارب[1].

❖ ليتنا لا نحزن بسبب الشرور التي تحدث لنا. هذه هي رزانة العقل. "ولا تصارع بقلقٍ في وقت الشدة" (سي ٢: ٢). كثيرون لهم أحزانهم المتعددة في المنزل، ونحن نشارك أحزان بعضنا البعض، وإن كان ليس في نفس المصدر. واحد غير سعيد بسبب زوجته، وآخر بسبب طفله، أو خادمه، وآخر بسبب صديقه، وآخر بسبب عدوه، وآخر بسبب قريبه، وآخر بسبب خسارة لحقت به. متعددة هي أسباب الحزن، حتى إننا لا نجد أحدًا متحررًا من تعبٍ أو شقاءٍ من نوعٍ أو آخر. لذا يليق بنا أن نكون صبورين، ولا نظن أننا وحدنا لسنا سعداء[2].

❖ إنه ليس شيء ما في الحياة الأخلاقية معفية من الحزن، إن لم يكن اليوم فغدًا، وإن لم يكن غدًا فيومًا ما مؤخرًا تحل المتاعب. فكما لا يقدر أحد أن يُبحر في رحلة بحرية طويلة ويشعر أنه غير هادئ، وإن كان ليس من الممكن أن تعبر خلال هذه الحياة دون اختبار الحزن؛ نعم حتى بالنسبة للغني، فإذ هو غني سيمر بمناسبات لا يشتهيها. نعم حتى الملك نفسه، لأن أمور كثيرة تحكمه، ولا يستطيع أن يحقق كل ما يلزم أن يفعله[3].

❖ إذا أخطأنا فإنّ الله قد يُنهِض علينا أعداءنا ليؤدِّبنا، وعلى ذلك لا ينبغي أن نُحارِبَهم، بل يجب أن نُحاسِب أنفسنا ونُثَقِّفها. وطالما أطلقهم علينا بسبب خطايانا، فمتى حاربناهم ينصرهم علينا، لهذا

---

[1] *Homilies on Matt. 10:8*

[2] *On 2 Timothy, Homily 1.*

[3] *Homilies on 2 Timothy, hom. 1.*

أَمرَنا ألاّ نجازي أعداءنا. فلنقبل الامتحانات كقبول الأدوية من الطبيب لكي نخلص، وكقبول التأديب من الأب لكي نتهذَّب. لهذا قال الحكيم: "يا بني، إن أقبلتَ لتخدم الربّ، فأَعدد نفسك للتجربة" (سيراخ ٢: ١).

القديس يوحنا الذهبي الفم

قوِّم قلبك على الإخلاص، وكُن وفيًا،

ولا تصارع بقلقٍ في وقت الشدة [٢].

لا يتجاهل ابن سيراخ المشاعر البشرية، ففي وقت الضيق يتألم الإنسان ويئن، لكنه بالإيمان يصرخ إلى الرب، فينزع عنه القلق. هذا ما حدث مع الرسول حين صرخ إلى الرب ثلاث مرات ليرفع عنه الضيق، وكانت استجابة الرب: "تكفيك نعمتي، لأن قوتي في الضعف تُكمَل" (٢ كو ١٢: ٩).

عندما عانى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** الآلام والاضطهاد من الإمبراطورة أفدوكسيا يعاونها رجال الدين أنفسهم كتب من سجنه إلى **الأسقف قرياقوص:**

[عندما أُستبعدت من المدينة لم أقلق، بل قلت لنفسي: إن كانت الإمبراطورة ترغب أن تنفيني، فلتفعل ذلك، فإنه "للرب الأرض"!

وإن كانت تود أن تنشرني، فإني أرى إشعياء مثلاً!

وإن أرادت إغراقي في المحيط، أُفكِّر في يونان!

وإن أُلقيت في النار، أجد الثلاثة فتية قد تحمَّلوا ذلك في الأتون!

إن وُضِعت أمام وحوش ضارية، أذكر دانيال في جبّ الأسود!

إن أرادت رجمي، فإن إستفانوس أول الشهداء أمامي!

إن طلبت رأسي، فلتفعل، فإن المعمدان يشرق أمامي!

عريانًا خرجت من بطن أمي، وعريانًا أترك العالم.

بولس يُذَكِّرني: إن كنت بعد أرضي الناس لست عبدًا للمسيح[١].]

وكتب **القدّيس كبريانوس** إلى بعض المعترفين يقول لهم: [في كل هذه الأمور نحن أعظم من غالبين لذاك الذي أَحبَّنا[٢].]

❖ عندما يريد الله أن ينصر الإنسان ويُعَظِّمه، يسلمه أولاً إلى الشر (التجارب) ليُختبَر ويُفحَص، ثم

---

[١] للمؤلف: القدّيس يوحنا الذهبي الفم، ١٩٨٠م، ص ١٠٢.

[2] *Ep. 25:4.*

يُظهر جماله للعالم بالبركات التي يعملها الله معه.

لما أراد الله أن ينصر يوسف ويجعله سيدًا على مصر، ماذا كانت بداية عمله ليبلغ به إلى نهاية صالحة؟ أولاً قبض عليه إخوته، وأهانوه، واستهزأوا به، ونزعوا ثيابه، وألقوه في الجب، وقطعوا رجاءه، وباعوه للتجار، وصار عبدًا يخدم الأرباب، وأُستعبِد ابن الأحرار الحسن الذي لم يقترف سوءًا.

من رأى هذا العمل السيئ لم يكن بوسعه أن يظن أن كل هذه الشرور كانت تُرتكَب لصالح يوسف. أما الله الذي كان يعلم ماذا يريد أن يصنع له، فلم يشفق عليه عندما كان يئن تحت وطأة كل هذه الشرور، بل تركه يسقط في الجب، ويُبَاع للتجار، ويُزج به في السجن ظلمًا. بعد هذه كلها أشرق جماله كالشمس، وظهر حقه كالذهب، وزالت شروره كالدخان، واعتلى قمة المركبة كملكٍ، وقام في العظمة التي من أجلها وضعه الله حتى يتواضع فيرتفع[1].

القديس مار يعقوب السروجي

❖ للإنسان العاقل حقًا اهتمام واحد، وهو أن يطيع الله القدير من كل القلب وإن يرضيه. وهو يُعلّم شيئًا واحدًا، واحدًا فقط، وهو كيف يصنع قدر استطاعته ما يوافق الله، شاكرًا إياه على عنايته المتحننة التي تعمل في كل ما يحدث في حياته.

وكما لا يليق بنا إلا أن نشكر الأطباء لعلاج أجسادنا، حتى إن قدَّموا لنا أدوية مُرَّة غير مقبولة، هكذا لا يليق بنا أن نجهل أن كل الأشياء تعمل معًا للخير، وذلك بفضل العناية الإلهية، فننكر معروف الله في الأمور التي تبدو لنا أنها مؤلمة[2].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ خلال العناية الإلهية، كل شيءٍ بالتأكيد هو صالح ولمنفعة النفس، كل ما يحدث هو لصالحنا وسعادتنا، فالله يحبنا ويحمينا. يلزمنا كما يقول الرسول أن نشكر الله في كل شيءٍ من أجل صلاحه معنا (١ تس ٥: ١٨). لا ننحط بقلوبنا ولا نفقد قلوبنا من جهة ما يحدث معنا، بل نَقْبَل الأحداث، مقتنعين أن كل ما يفعله الله معنا يصدر عن صلاحه لأنه يحبنا، وكل ما يفعله هو قويم. حقًا من الاستحالة أن تسير الأمور حسنًا إلا خلال مراحم الله[3].

الأب ثيؤدورس من غزة

---

[1] الرسالة الثانية والثلاثون

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ٢.

[3] *Spiritual Instructions 3:138.*

❖ ليتنا نطرد عنا كل الاهتمامات العالمية (القلق) بالصلاة والرجاء. فإذا لم نستطع أن نبلغ هذا إلى الكمال، فلنعترف بضعفنا أمام الله ولا نكف عن الجهاد في الصلاة.

القديس مرقس الناسك

التصق به ولا تَحِدْ،

لتُكرَم في أواخر حياتك [٣].

يُقَدِّم لنا ابن سيراخ خبرة عملية ننتفع بها وسط الضيق، وهي ألا نُوَجِّه أنظارنا إلى أسفل لئلا يبتلعنا الحزن، إنما نتطلَّع إلى فوق، أو إلى أعماقنا. فنتمسك بالرب ونلتصق به، ونطلب رفقته لنا وسط الضيق. نتهلل ونرنم: "مع المسيح صُلِبت، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيّ" (غل ٢: ٢٠). ندخل الطريق الضيّق لنرى الأبدية تلتصق بنا.

❖ نحن نعلم أن الإنسان إذا التصق بالله، يُطهِّره لكي يُخَفِّف عنه ثقل خطاياه، وتتم فيه كلمة المُخلِّص: "إذا ثبتم في كلامي، فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحق، والحق يُحرِّركم" (يو ٨: ٣١-٣٢). لأن الله هو الذي يُطَهِّر الإنسان. وقد كُتِب أن "المقدِّس والمقدَّسين جميعهم من واحد" (عب ٢:١١). وأيضاً: "كل غصن فيَّ لا يأتي بثمر ينزعه، وكل ما يأتي بثمر يُنقِّيه ليأتي بثمر أكثر" (يو ١٥:٢).

يا ابني، التصق بالله (سي ٢:٣) واهرب من جميع الأعمال الشريرة. أَعِنْ نفسك، واهرب من الخطية مثل الذي يهرب من الحيَّة[1].

القديس اسطفانوس الطيبي

❖ تدبير إلهنا ومخلصنا بشأن الإنسان هو إعادة الإنسان من السقوط، والعودة من الاغتراب الذي حدث له بسبب المعصية، إلى شركة مباشرة مع الله، لذلك جاء المسيح في الجسد، وعاش حسب المثال الذي نراه في الأناجيل، وتألم على الصليب وقُبِرَ وقام، لكي يُخَلِّص الإنسان باقتدائه بالمسيح ويعود إلى رتبة البنوة القديمة.

التشبُّه بالمسيح هو وحده الذي يقود إلى كمال الحياة، ليس فقط للتشبُّه بسيرته كمثالٍ للوداعة والتواضع والصبر كمنهج لحياتنا، بل بموته أيضًا. لذلك يقول بولس المُتشبِّه بالمسيح: "لأَتشبَّه بموته، لعلي أبلغ إلى القيامة من بين الأموات" (في ٣: ١٠-١١)[2].

القديس باسيليوس الكبير

---

[1] من تعاليم القديس إسطفانوس الطيبي على الحياة الرهبانية.

[2] *The Holy Spirit 15:35.*

مهما حلّ بك اقبله،

وكن صابرًا على تقلبات حالك الوضيع [٤].

يُقَدِّم لنا ابن سيراخ تدريبًا آخر، وهو أن نتطلَّع إلى حال البشرية في العالم، فنكون كمن يلتصق بعجلة الزمن. تدور العجلة، فنرى أنفسنا تارة فوق، وأخرى أسفل، تارة في اتجاه مُعَيَّن وسرعان ما نصير في الاتجاه المضاد.

العالم متغير، لكن إن ارتبطنا بالقدوس لا تشغلنا عجلة الزمن، بل مركبة الصليب الأكثر بهاءً من مركبة إيليا النبي، تنطلق بنا من مجدٍ إلى مجدٍ، حتى نبلغ السماء التي تنتظرنا وتُرَحِّب بنا.

❖ يقول (الرسول): "شاكرين كل حين على كل شيءٍ" (أف ٥: ٢٠).

ما هذا؟ هل نشكر على كل ما يحلّ بنا؟ نعم، حتى وإن حلّ بنا مرض أو فقر. فإن كان في العهد القديم ينصحنا الحكيم: "مهما حلّ بك اقبله، وكن صابرًا على تقلُّبات حالك الوضيع" (سي ٢: ٤) فكم بالأولى في العهد الجديد؟!

نعم، قَدِّم التشكرات حتى لو لم تعرف الكلمة (التي تقدمها)!...

إن كنت تشكر في الراحة والرخاء والنجاح والغِنَى فهذا ليس بالأمر العظيم، ولا هو بالعجيب، إنما يلزم الإنسان أن يشكر حين يكون في أحزانٍ وضيقاتٍ ومتاعبٍ. ليست كلمة أفضل من القول: "أشكرك أيها الرب"...

لنشكر الرب على البركات التي نراها والتي لا نراها أيضًا، والتي نتقبَّلها بغير إرادتنا، فإن كثيرًا من البركات ننالها بغير رغبتنا ودون معرفتنا...

حينما نكون في فقرٍ أو مرضٍ أو نكباتٍ، فلنزد تشكراتنا، لا أقصد بالتشكرات خلال الكلمات واللسان، وإنما خلال العمل والأفعال، وفي الذهن وبالقلب. لنشكره بكل نفوسنا، فإنه يحبنا أكثر من والدينا، وكبُعد الشر عن الصلاح، هكذا الفارق الشاسع بين حب الله لنا وحب آبائنا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ اعلم أن الأمراض الجسدية هي أمر طبيعي بالنسبة للجسد، إذ هو مادي وقابل للفساد. لذلك إن حلَّ به المرض، يجب على النفس المتعلمة (الصلاح) أن تتشجَّع وتصبر بشكرٍ دون أن تتذمر على الله الذي خلق لها الجسد.

القديس أنطونيوس الكبير

---

[1] *Homilies on Ephesians, 19.*

❖ **قال شيخ عن لعازر المسكين:** "إننا لم نرَ أنه عمل أيّة فضيلة غير أنه لم يتنمَّر قط على ذلك الغني الذي لم يرحمه، وكان شاكرًا لله على ما كان فيه، ولذلك فقط رحمه الله[1].

عن فردوس الآباء

فإن الذهب يُمتحَن في النار،

والمرضيين (والمختارين) من الناس في أتون الذلّ [٥].

لو أن الله الرحيم يسمح بالتجارب فوق قدرتنا، ما كان يوجد إنسان يقدر أن يقف أمام خطط الأرواح الشريرة الماكرة دون أن يسقط أرضًا. يقول الرسول بولس: "ولكن الله أمين، الذي لا يدعكم تُجرَّبون فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضا المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا" (١ كو ١٠: ١٣).

❖ ماذا إن افترضنا أن إنسانًا سقط في مرضٍ؟ حسنًا، ليسمع نصيحة أخرى: "في مرضٍ أو فقرٍ، ثق في (الله)، فإن الذهب يُمتحَن في النار، هكذا المرضيون من الناس في أتون الذل" (راجع سي ٢: ٤-٥). لذلك ليس الموت ولا خسارة الأموال ولا المرض الجسدي، ولا الإهانة ولا الخزي ولا شيء من هذا القبيل يقدر أن يُحزِنه، إنما يجعله أكثر فرحًا، فأي أساس للحزن يمكن أن يوجد في أي وقتٍ؟[2]

❖ يمكننا أن نقول: (هذه) الضيقة تجعل أولئك الذين يضطربون أكثر ثباتًا. "إن الضيق يُنشِئ صبرًا، والصبر تزكية، والتزكية رجاءً، والرجاء لا يخزى" (رو ٥: ٣-٥). ألا ترون أن التزكية النابعة عن الضيق تُنشِئ رجاءً في الخيرات المُقبِلة، وأن الثبات في التجارب يُسَبِّب لنا رجاء في المستقبل؟ لهذا لست أقول في اندفاع إن هذه الضيقات ذاتها تشير لنا نحو الرجاء في القيامة، وتجعل الذين يُجرَّبون في حالٍ أفضل، إذ يقول: "فإن الذهب يُمتحَن في النار، والمرضيين من الناس في أتون الذل" (سي ٢: ٥)[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ استمع يا الله إلى صلاتي وأنا مضطرب، خلِّص نفسي من الخوف من العدو.

ثار الأعداء ضد الشهداء. فماذا كان صوت جسد المسيح هذا (أي الشهداء) وهو يصلي؟

---

[1] جزء ٣، ص ٥٠٠.

[2] *Concerning The Statues, Homily 18 : 7*

[3] *Concerning The Statues, Homily 1: 23.*

هل كان يصلي أن يُخَلِّصه من الأعداء، وألا يكون للأعداء سلطان لقتله؟ هل لم يُسمَع لهم لأنهم قُتِلوا؟ وهل ترك الله خدَّامه الذين كانت لهم قلوب مُنسحِقة، وهل استخفّ بالذين كان لهم رجاء فيه؟ بالتأكيد لا! لأن من يدعو الله وهو ينساه؟! من ترجَّاه، وتركه؟!

لقد سُمِع لهم، وقُتلوا. ومع ذلك تخلَّصوا من أعدائهم.

آخرون كانوا خائفين استسلموا وعاشوا. ولكن هؤلاء أنفسهم ابتلعهم أعداؤهم.

الذين قُتِلوا خلصوا، والذين عاشوا أُبتلعوا.

هذا هو ما أشار إليه صوت المرتل المُتعرَّف عليه عندما قال: "لئلا يبتلعونا ونحن أحياء" (مز ١٢٤: ٣). كثيرون في الحقيقة أُبتلعوا وهم أحياء، ولكن كثيرين آخرين ابتلعوا وهم أموات. الذين يحسبون المسيحية غباوة هم بالفعل أموات. يأتي وقت يبتلعون فيه أنفسهم[1].

القديس أغسطينوس

اتكل عليه فيساعدك،

وقوّم سبلك، واجعل فيه رجاءك. [٦]

يقول المرتل: "أنفسنا انتظرت الرب؛ معونتنا وترسنا هو. لأن به تفرح قلوبنا، لأننا على اسمه القدوس اتكلنا" (مز ٣٣: ٢٠-٢١). ليس من يتكل عليه ويخزى، لأن نفسه تسكن فيه، ويسكن الله فيه (يو ١٤: ٢٣). "اتّكلْ على الربّ وافعل الخير. اسكن الأرض وارع الأمانة، سلّم للربّ طريقك، واتّكل عليه وهو يجري" (مز ٣٧: ٣، ٥).

❖ هكذا تفكر النفس التي تحب الله: الله هو موضعها؛ ولا تعرف موضعًا آخر تسكن فيه، ولا تقطن في موضعٍ إلا في الله، كما هو مكتوب: "الرب مسكن لنا إلى جيل الأجيال". إذًا حيثما يوجد المسيحي الحقيقي، يسكن في الله، ويسكن الله فيه، ولا يتكل على الموطن ولا الموضع. لهذا لا يحتاج إلى التنقُّل من موضعٍ إلى موضعٍ مثيله. لأجل هذا أَتوسل إلى محبتك أن تخدم إلهك بالمحبة الإلهية، كما أنت وحيثما وُجِدت[2].

القديس مار يعقوب السروجي

❖ من لا يتَّكِل على الله في الأمور الصغيرة، بالأكثر يكشف عن عدم إيمانه بالأكثر في الأمور

---

[1] *Expositions of Psalms 63:2.*

[2] الرسالة الأربعون.

العظيمة[1].

❖ **"يا رب إلهي، عليك توكلت"** (مز ٧: ١)...

بالرغم من أن هذه الصلاة بسيطة، ويمكن أن يُقَدِّمها أي شخصٍ، غير أنها لم تُقَدَّم هنا هكذا. فإن من يجعل اتِّكاله على إنسانٍ، أو يتكل على شيءٍ آخر في الحياة مثل السلطة أو الممتلكات، أو أي شيءٍ مما يعتبره الكثيرون أمرًا مجيدًا، لا يستطيع أن يقول: "يا رب إلهي، عليك توكلت".

بالحقيقة توجد وصية، وهي أنه لا يليق بنا الاتِّكال على الرؤساء. "ملعون الرجل الذي يتَّكِل على الإنسان" (إر ١٧: ٥). كما يليق بنا ألا نعبد شيئًا بجانب عبادتنا لله. هكذا يليق بنا ألا نتَّكِل على آخر غير الله رب كل الأشياء. قيل: "الرب رجائي وتسبحتي" (مز ٧٠: ٥؛ ١١٧: ١٤)[2].

❖ يُعَبِّر القلق عن قبح النفس وضعفها، لانفصالها عن الله. فلنُصَلِّ إذن حتى يُشرِق علينا نور وجه الله. فنكون مثل القديسين في وداعتهم وسلامهم في كل الظروف. وعلى استعدادٍ دائمٍ لعمل الخير، كقول المزمور: "أسرعت ولم أقلق" (مز ١١٩: ٦) من أجلي حوَّلت نوحي إلى فرح لي، مزقت مسحي ومنطقتني بالفرح (مز ٣٠: ١٢).

فرح الله لا يستقر في كل النفوس، بل في تلك النفوس التي بَكَت على خطاياها، بآياتٍ كثيرةٍ ودموعٍ مستمرةٍ، كمن مات لها عزيز لديها. مثل تلك النفس يُحَوِّل الله نوحها إلى فرحٍ. يُحَذِّرنا ربُّ المجد من التشبُّه بأولادٍ جالسين في السوق، ينادون بعضهم بعضًا، ويقولون: "نُحْنَا لكم فلم تبكوا، زمَّرنا لكم فلم ترقصوا" (لو ٧: ٣٢). المزمار آلة موسيقية، تُصدر نغمًا عندما يُنفَخ فيها، لذلك أعتقد إن **كل نبيٍ قديسٍ هو مزمار بالمعنى الروحي**، يعمل بنفخة الروح القدس. قيل: "زمَّرنا لكم فلم ترقصوا"، وتحثنا كلمات النبوة للعمل حسب الوصية، وهو ما يطلق عليه تعبير "رقص".

يبكي الأنبياء علينا، ويدعوننا لنبكي، حتى نكتشف أخطاءنا في ضوء كلماتهم النبوية، عندئذ نبكي على هلاكنا ونقمع جسدنا بالجهاد والعقاب. الإنسان الذي يسلك مثل هذا الطريق، **تُمَزَّق مسوحه ويرتدي لباس العُرْسِ المُزَيَّنة**، حتى لا يُطرَد خارج العُرْسِ (مت ٢٢: ١١-١٣)[3].

❖ **سؤال: هل يسقط في اليأس مِنْ خلاصه من أُصطيد في كثرة من الشرور، فأخطأ بعد عماده؟**

---

[1] *Morals, Rule, 8:2.*

[2] *Homily 11:2 on Psalm 7.*

[3] عظة على المزمور ٣٠.

أو ما هو المقياس الذي فيه لا يزال يستمر الإنسان في رجائه في محبة الله للبشر خلال التوبة؟

الإجابة: إن أمكن أن تُعادِل بين حنو الله الفائق أو ثقل عظمة رحمة الله وبين عدد الخطايا وثقلها فلا يوجد موضع لليأس.

أما إذا كان من المعقول أن الأخيرة تخضع للقياس والعدد، بينما استحالة قياس رحمة الله أو إحصاء حنوه، فلن يكون لليأس موضع قط. وإنما بمعرفة الرحمة وإدانة الخطايا، توجد مغفرة في دم المسيح كما هو مكتوب (مت ٢٦: ٢٨).

غير أنه توجد أماكن وطرق كثيرة خلالها نتعلَّم أنه يلزمنا ألا نيأس. تأملوا على وجه الخصوص مَثَل ربنا يسوع المسيح بخصوص الابن الذي أخذ ثروة أبيه وبَدَّدَها في الخطايا. فمِن كلمات الرب نفسه نتعلَّم ما هو نوع الوليمة وعظمتها التي تليق بالتوبة (لو ١٥: ٢٢-٢٤).

أَضِف إلى ذلك يقول الله بإشعياء: "إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج، وإن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف" (إش ١: ١٨). لكن يجب أن نعرف أن هذا يتحقَّق فقط متى كانت توبتنا تستحق ذلك، إن صدرت عن كراهيتنا للخطية، كما هو مكتوب في العهدين القديم والجديد، وكانت تحمل ثمارًا لائقة بها[1].

القدِّيس باسيليوس الكبير

٢. خائف الرب مملوء رجاء

يليق بكل إنسانٍ أن يعمل بكل طاقته، فلن يُحَقِّق ما يرغبه وهو في كسلٍ، مع هذا فما يقتنيه هو من الله، وذلك مثل المُزارِع وصياد السمك، كل منهما يعمل والربّ هو الذي يعطيهما.

يا خائف الرب انتظر رحمته،

ولا تحيد لئلا تسقط. [٧]

تذكّر أن معاملات الله عبر الأجيال تبني إيماننا ورجاءنا على خبرة عملية (مز ٣٤: ٨؛ ٣٧: ٢٥). ليتنا لا نُلقي بأنفسنا في أيدي البشر، بل في يديّ الله لأن جلاله في رحمته، وعظمته في حنوّه.

❖ لنتعلّم كيف نحتمل دون تذمُّر أو استنكار لما يحدث لنا، فإن الله يعرف ما هو خير لنا. وعلينا أن نحتمل البلية بشكرٍ، وحينئذ ستلحقنا البركات، فلنخضع لكل ما يأتي علينا شاكرين الله على كل شيءٍ، فهو يعلم ما هو الصالح لنا أكثر مما نعرف نحن. وهو يحبنا أكثر من الأب والأم. ولتكن

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 13.*

هذه الاعتبارات أغنية نتغنَّى بها لأنفسنا في وقت الضيقة حتى نطرد اليأس، ونُمَجِّد الله في كل شيءٍ[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يا خائف الرب آمن به،
فلا يضيع أجرك. [٨]

يا خائف الرب ترجى الخيرات والفرح الأبدي والرحمة. [٩]

كان الراهب ثيؤدور صديقًا للقديس يوحنا الذهبي الفم في الحياة النسكية، ولكن أغواه جمال امرأة شابة حسنة الصورة تُدعَى *Hermoine*، فسقط في حُبِّها ورغب في الزواج منها. سقط ثيؤدور الناسك في حب هذه المرأة، **لكن سقطته الكبرى كانت تتركَّز في يأسه من قبول الله له** وإمكانية عودته إلى حياته النسكية الأولى. رُفِعَتْ لأجله الصلوات، وبُذِلَت المجهودات، وأخيرًا أرسل إليه القديس يوحنا الذهبي الفم رسالتيْن سجَّلتا لنا أروع ما تحتاج إليه النفس اليائسة من علاج خلال **الرجاء الحي**. كشفتا لنا عن مراحم الله غير المحدودة، وأحضانه المفتوحة على الدوام لقبول الخطاة والزناة، مهما بلغت خطاياهم، مع الحذر من أبشع شيطان، ألاّ وهو **شيطان اليأس**.

❖ لا تيأس من تغَيُّرك تغيُّرًا كاملاً.

إن كان الشيطان لديه هذه القدرة، أن يطرحك أرضًا من العلو الشامخ والفضيلة السامية، إلى أبعد حدود الشر؛ فكم بالأكثر جدًا يكون الله قادرًا أن يرفعك إلى الثقة السابقة، ولا يجعلك فقط كما كنت، بل وأسعد من ذي قبل[2].

❖ عظيمة هي قوة الرجاء في الرب، قلعة لا تُقهَر، سور واقٍ لا يمكن مهاجمته، إمداد عسكري لا يُهزَم، ميناء هادئ، برج منيع، سلاح لا يُقاوَم، قوة لا تُقهَر قادرة على اكتشاف ملجأ في موضع لا يتوقَّعه أحد. بهذه القوة يصير غير المُسَلَّحِين مُسَلَّحِين، يكون حال النساء أفضل من الرجال، ويبرهن الأطفال أنهم بسهولة يصيرون أكثر قوة من الذين يمارسون فنون الحرب. أي عجب إن كانوا يغلبون أعداءً بينما في الواقع هم يغلبون العالم نفسه... الرجاء بالرب يُغَيِّر كل شيء![3]

---

[1] راجع الأنبا مكاريوس، أصحاح ٢.

[2] للمؤلف: ستعود بقوةٍ أعظم للقدّيس يوحنا الذهبي الفم، ٢٠٠٠، ص ٤١.

[3] *On Ps. 11.*

❖ يحملنا الرجاء إلى الأمام. إنه يشفينا! لا تكن قلقًا ولا تيأس، لئلا يصير رجاؤك باطلاً[1].

❖ ليس أحد يسلك في حياة صالحة ويقلق من جهة المستقبل... هل صلاحنا يتكئ على الرجاء؟ نعم، لكن ليس الرجاء في البشر الذي غالبًا ما يزول ولا يترك وراءه سوى الارتباك. **رجاؤنا هو في الله وهو أكيد وثابت**[2].

❖ ماذا يعني "بالرجاء خلصنا"؟ هذا يعني أننا لا نطلب كل شيءٍ لنا في هذه الحياة، وأن يكون لنا رجاء أيضًا، مؤمنين أن ما وعدنا به الله يُحَقِّقه لنا، بهذا نحن خلصنا؛ فإن فقدنا الرجاء نفقد كل ما نلناه...

يود أن يقول: أتساءل، ألم تكن أنت خاضعًا لخطايا بلا حصرٍ؟ ألم تكن يائسًا؟ ألم تكن تحت الحكم؟... ما الذي خلَّصك إذن؟ الرجاء في الله وحده، وثقتك من جهة مواعيده وعطاياه، فإنه ليس لك شيء آخر تُقَدِّمه له.

إن كان هذا هو الذي خَلَّصك، فلنتمسك به الآن أيضًا. فمن قدَّم لك بركات عظيمة هكذا لا يمكن أن يخدعك في البركات المُقبِلة. لقد وجدك ميتًا ومُحَطَّمًا وسجينًا وعدوًا، فجعلك صديقًا وابنًا وحُرًا وبارًا ووارثًا معه، مُقَدِّمًا لك أمورًا عظيمة هكذا لم يكن يتوقَّعها أحد. هل بعد التمتُّع بمثل هذه العطايا بسخاءٍ وحبٍ يخونك في الأمور المُقبِلة؟...

هذا الطريق (الرجاء) خلصك من البداية؛ إنه العربون الذي أحضرته وحده إلى العريس. فلنتمسك به ولنحتفظ به، فإنك إن طلبت شيئًا في هذا العالم تفقد صلاحك الذي به صرت بهيًا، لهذا يكمل الرسول: قائلاً: "ولكن الرجاء المنظور ليس رجاء، لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضا؟"[3]

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يُوجّه الصبر نحو الرجاء في الأمور العتيدة، ويُوجّه الرجاء نحو المكافأة[4].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ لماذا تعتمد على ذاتك وتسقط؟ ألق بنفسك على ذراعيه. لا تخف. إنه لن يتركك تنزلق. ألقِ

---

[1] *In Hebr. hom 10: 5.*

[2] *Hom. on Romans, homily 9.*

[3] *In Rom. hom 14.*

[4] *Stromata, 4:22.*

بنفسك في يقين، فإنه يتلقفك ويشفيك.

القديس أغسطينوس

❖ **سؤال: كيف تتأكَّد النفس تمامًا أنها تتطهَّر من الخطية؟**

الإجابة: إن عرف الإنسان دافع داود القائل: "أبغضت الإثم ومقته" (مز ١١٩: ١٦٣)، أو يعرف أنه يُتَمِّم وصية الرسول القائل: "أميتوا أعضاءكم التي على الأرض: الزنا، النجاسة، الهوى، الشهوة الردية، الطمع – الذي هو عبادة الأوثان –، الأمور التي من أجلها يأتي غضب الله" ويضيف إلى ذلك كامتداد للحُكْمِ ضد كل خطية "على أبناء المعصية" (كو ٣: ٥-٦)، حتى يستطيع القول: "قلب معوج يَبعدُ عني. الشرير لا أعرفه" (مز ١٠١: ٤).

مرة أخرى، يتحقَّق الإنسان أن له مثل هذا الوازع، إن كان يحمل عاطفة برعدةٍ مثل ما يفعله القديسون. لهذا يقول داود: "رأيت الغادرين ومقتُّ، لأنهم لم يحفظوا كلمتك" (مز ١١٩: ١٥٨). ويقول الرسول: "من يضعف وأنا لا أضعف؟ من يعثر وأنا لا ألتهب؟" (٢ كو ١١: ٢٩).

الآن، إن كان بحسب حق الكلمة تسمو النفس فوق الجسد (مت ١٠: ٢٨)، ونحن نهتم بالجسد، فنشمئز من كل قذارة ونكرهها ونتعاطف ونحزن قلبيًا عند رؤيتنا لجراحات أو لأذية تحلُّ بالجسد، فكم بالأكثر بالنسبة لما يحلّ بالخطاة. فإن المُحب للمسيح والمُحب لإخوته يتألم من أجلهم حين يرى نفوسهم مجروحة كما بوحوش مُفترِسة، وفي وحشية يتعرَّضون لهجمات شر مُمِيت. هكذا يقول داود: "قد أنتنت، فاحت حُبر ضربي من جهة حماقتي، لويت انحنيت إلى الغاية. اليوم كله ذهبت حزينًا. لأن خاصرتي قد امتلأتا احتراقًا، وليست في جسدي صحة" (مز ٣٨: ٥-٧). يقول الرسول: "أما شوكة الموت فهي الخطية" (١ كو ١٥: ٥٦).

لذلك عندما يعرف إنسان أن نفسه صارت في مثل هذا الوضع، من أجل خطاياه وخطايا الآخرين، يثق أنه يتنقَّى من الخطية تمامًا[1].

❖ **سؤال: كيف يلزم للإنسان أن يرجع عن الخطايا (أع ٣: ١٩)؟**

الإجابة: خلال الغيرة التي لنزعة داود الذي قال أولاً: "أعترف لك بخطيتي، ولا أكتم إثمي. قلت أعترف للرب بذنبي" (مز ٣٢: ٥) عندئذ أعلن عن حالة من يتعلَّم أن يعمل بطرقٍ متنوعةٍ في المزمور السادس وفي المزامير الأخرى.

قد يتعلَّم إنسان من الرسول تلك الأشياء التي شهد بها لأهل كورنثوس بخصوص خطية

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 296.*

الآخرين، عندما قال: "الحزن بحسب مشيئة الله يُنشِئ توبة لخلاص بلا ندامة" (٢ كو ٧: ١٠). ويضيف علامات الحزن: "فإنه هوذا حزنكم هذا عينه بحسب مشيئة الله، كم أنشأ فيكم من الاجتهاد، بل من الاحتجاج، بل من الغيظ، بل من الخوف، بل من الشوق، بل من الغيرة، بل من الانتقام، في كل شيءٍ أظهرتم أنفسكم أنكم أبرياء في هذا الأمر" (٢ كو ٧: ١٠-١١).

واضح من هذا أنه لا يليق بنا فقط أن نترك الخطية، وأن نحتمل هذه الأمور من أجل الخطاة، وإنما يلزمنا أيضًا أن ننسحب من الخطاة أنفسهم. فعل داود هذا بوضوح عندما قال: "ابعدوا عني يا جميع فاعلي الإثم" (مز ٦: ٨)، وأوصانا الرسول: "لا تؤاكلوا مثل هذا" (١ كو ٥: ١١)[1].

القديس باسيليوس الكبير

تأملوا الأجيال القديمة وانظروا:

هل اتكل أحد على الرب فخزي؟

أو هل ثبت على مخافته فخذل؟

أو هل دعاه فازدرى به؟ [١٠]

يُقَدِّم ثلاثة أسئلة بخصوص أمانته في الأجيال القديمة، ومع المتكلين عليه في الحاضر ليتمتعوا برحمته.

تدريب آخر وسط التجارب، ألا وهو دراسة معاملات الله مع المؤمنين سواء في العهد القديم أو العهد الجديد أو عبر التاريخ، كما في حياتنا. الله الذي حفظنا في الماضي يحفظنا في الحاضر وسيحفظنا في المستقبل. يقول بولس الرسول: "الذي نجانا من موت مثل هذا، وهو ينجي، الذي لنا رجاء فيه أنه سينجي أيضًا فيما بعد" (٢ كو ١: ١٠).

فإن الرب رؤوف رحيم؛

يغفر الخطايا، ويُخَلِّص في يوم الضيق. [١١]

سمات الله هنا هي الأساس الذي يقوم عليه إيمان الإنسان ورجاؤه فيه.

❖ لنا والدان ولدانا على الأرض للشقاء ثم نموت. ولكننا وجدنا والدين آخرين. فالله أبونا والكنيسة أمنا، ولدانا للحياة الأبديّة. لنتأمل أيها الأحباء أبناء من قد صرنا؟ لنسلك بما يليق بأبٍ كهذا... وجدنا لنا أبًا في السماوات، لذلك وجب علينا الاهتمام بسلوكنا ونحن على الأرض. لأن من

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 297.*

ينتسب لأبٍ كهذا عليه السلوك بطريقة يستحق بها أن ينال ميراثه[1].

القديس أغسطينوس

❖ هذا هو عمل الله... لقد خلق الله السماوات والأرض والبحر. عظيمة هي هذه الأعمال ولائقة بحكمته! لكن ليس شيء من هذه لها سلطان تجتذب الطبيعة البشريّة إليه، مثل رحمته وحبُّه للبشر![2]

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

٣. خائف الرب ينجو من ثلاثة ويلات

خائف الرب ينجو الويلات الثلاثة التي تلحق بمن يفشل في الشجاعة وبساطة القلب والصبر.

ويل للقلوب الجبانة وللأيدي المتراخية؛

وللخاطئ الذي يمشي في طريقين [١٢].

١. الويل الأول لصاحب القلب الخائر الذي يُعرج بين الطريقين، فيكون عضوًا في شعب الله، وفي نفس الوقت يسلك في الطرق الوثنية.

٢. الويل الثاني للذي لا يتكل على الله، فلا يجد ملجأ يحتمي فيه.

٣. الويل الثالث للذي بلا رجاء، ماذا يفعل عندما يفتقده الرب بالتأديب؟ هنا يشير ابن سيراخ إلى داود الذي اختار الوقوع في يد الرب لا في يد إنسان (٢ صم ٢٤).

❖ ماذا يعني: "نتقدم بقلبٍ صادقٍ" (عب ١٠: ٢٢)؟ أي بدون رياء، لأنه "ويل أن يكون بقلبٍ خائفٍ ويدين هزيلتين" (راجع سي ٢: ١٢). يقصد: ليته لا يكون بيننا شيءٍ زائف. ليتنا لا ننطق بشيءٍ ونفكر بشيءٍ آخر، لأن هذا هو زيف، ولا نكون خائري القلوب، فإن هذا ليس علامة "القلب الصادق"[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما نأتي إلى نعمة المعمودية، جاحدين كل الآلهة والأرباب الأخرى، نعترف بالله الواحد الآب والابن والروح القدس. لكن عندما نعترف بهذا، إن لم نحب الرب إلهنا بكل قلبنا وكل نفسنا ونلتصق به بكل قوتنا (مر ١٢: ٣٠؛ تث ٦: ٥)، لا نكون نصيب الرب، وإنما بالحري نكون

---

[1] الصلاة الربانية طبعة ٦٨ ص ٩.

[2] *In 2 Tim. hom 6.*

[3] *On Hebrews, Homily 19 : 3*

كمن وُضع على نوعٍ من السياج، ونعاني من تلك الآثام التي هربنا منها، ولا نسترضي الرب الذي هربنا والتجأنا إليه، لأننا لا نحبه بقلبٍ كاملٍ مخلصٍ (مر ١٢: ٣٠).

بسب هذا يصرخ النبي إلينا، إذ يرى تقلبات مشابهة في ترددنا عندما يقول: "ويل للخاطئ الذي يمشي في طريقين" إلى متى تعرّجون بين الفرقتين؟! (١ مل ١٨: ٢١). ويقول يعقوب الرسول: "رجل ذو رأيين هو متقلقل في جميع طرقه" (يع ١: ٨). هكذا نحن الذين لا نتبع الرب بنفسٍ مستقيمة وكاملة، وننتقل بين آلهة غريبة، نكون كمن على سياج. فمن جانب نسلك كمن ترك الآلهة الغريبة التي تحدرنا، ومن جانب آخر لا يحمينا ربنا لأننا غير ثابتين ومتردّدون[1].

العلامة أوريجينوس

❖ إن كان أحد يموت لأنه قد أُعطي له علاجات تعتمد على خزعبلات، فكم ماتوا بسبب هذه العلاجات؟ وكم ماتوا بدون علاج؟ بأية ثقة تتجه روحه إلى الله؟ لقد فقد علامة المسيح، إذ استعاضها بعلامة الشيطان.

ربما يقول إنه لم يفقد علامة المسيح. هل يمكن أن تكون لديك علامة المسيح مع علامة الشيطان؟ لا يقبل المسيح ملكية مشتركة. يريد أن يكون المالك الوحيد لمن اشتراه. لقد اشتراه بثمن عظيم (١ كو ٦: ٢٠)، ليكون المالك الوحيد. أتجعله شريكًا مع الشيطان الذي بعت نفسك له بخطيتك؟ "ويل لذوي القلبين"، الذين في قلوبهم يقدمون نصيبًا لله وآخر للشيطان. يغضب الله لوجود نصيب للشيطان، فيترك (القلب) ويملك الشيطان عليه كله. يوجد سبب لنصيحة الرسول: "لا تعطوا إبليس مكانًا" (أف ٤: ٢٧)[2].

القديس أغسطينوس

ويل للقلب الخائر، لأنه لا يؤمن،
لذلك لا حماية له. [١٣]

ماذا يعني بالقلب الخائر؟ القلب الذي يفقد الصبر والاحتمال، ويسلك بفكرٍ مزدوجٍ نابع عن عدم الإيمان أو ضعفه، فيصير متقلقلاً في جميع طرقه (يع ١: ٨).

❖ من كانت روحه تثق في الله، يلتصق بالله. الله أمين، ولا يسمح له أن يُجرَّب فوق ما يحتمل، بل يجعل مع التجربة طريقًا للهروب أيضًا، فيستطيع الاحتمال ولا يتراجع إلى الوراء في يوم المعركة

---

[1] *On Exod, Hom.8 : 4*

[2] *Tractates on the Gospel of John 7:7.*

(١ كو ١٠: ١٣).

ذاك الذي يُمَجِّد نفسه وليس الله، وإن أظهر مشهدًا عظيمًا مثل الانحناءة... إلا أنه يتّجه إلى التراجع والهروب من يوم المعركة. روحه ليست أمينة نحو الله، لذلك فإن روح الله ليس معه. مكتوب: "كل من لا يؤمن بإرادة الله لا يُحمى" (راجع سي ٢: ١٥ الفولجاتا)[1].

القديس أغسطينوس

ويل لكم أيّها الذين فَقدتم صبركم،

فماذا تصنعون يوم يفتقدكم الرب؟ [١٤]

يقول السيد المسيح: "بصبركم اقتنوا أنفسكم" (لو ٢١: ١٩)، هكذا وضع السيد اقتناء النفس في فضيلة الصبر، لأن الصبر هو أصل كل الفضائل والحامي لها. الصبر هو احتمال الشرور التي تسقط علينا من الآخرين بهدوء، دون أن نحمل مشاعر سخط ضد من يسقطها علينا.

يسمح الله للمؤمنين بالضيق، لكنه كأب يعلن اهتمامه بهم فلا تهلك شعرة واحدة منهم، وكما يقول **القديس أغسطينوس:** [تأكدوا يا إخوة أنه ليس للأعداء سلطان على المؤمنين إلا بالقدر الذي يتهاونون فيه خلال تجربتهم وامتحانهم[2].] كما يقول: [عندما حث الرب يسوع شهداءه على الصبر، وعدهم أن ينال الجسد نفسه كمالاً تامًا في المستقبل بلا فقدان، لا أقول فقدان عضو منه، وإنما دون فقدان شعرة واحدة[3].]

❖ يمكن للشخص أن يتابع في الإنجيل كلمات ربنا يسوع المسيح: "بصبركم اقتنوا أنفسكم" (لو ٢١: ١٩). وفي عبارة أخرى في الكتاب المقدس قيل: "ويل لكم أيّها الذين فَقدتم صبركم" (راجع سي ٢: ١٤). سواء تدعوه صبرًا أو قوة احتمال أو تسامحًا، فإن التعبيرات المتنوعة تشير إلى نفس الشيء.

لنضع في قلوبنا مرساة، فلا نهتم كثيرًا باختلاف الكلمات، إنما ما يشغلنا المفهوم الوحيد. ليتنا ندخل إلى العمق الذي تعبّر عنه الكلمات.

الشخص الذي ينشغل بالحقيقة أن الحياة التي يسلكها في هذا العالم بعيدة عن بيته الحقيقي، يعيش في صبرٍ أينما وُجِد في الجسد هنا على الأرض. يعيش في صبرٍ، عندما يعرف أنه يقتني بيتًا أبديًا في السماء، واثقًا أن هذا الوضع يجد فيه سعادته، التي لا يقدر أن يجدها هنا. إنه

---

[1] *Expositions on Psalms 77:10.*

[2] *Ser. On N.T. 12: 15.*

[3] *On Patience 7.*

يلتهب بالرغبة فيها، وهي رغبة صالحة مقدسة وطاهرة!

واضح أن الصبر ليس بالضرورة في الرخاء بل في الضيقات. لا يستطيع أحد أن يقول إنه يحتمل بصبرٍ ما هو مُبهِج، فما نتسامح فيه هذا الذي نسنده بالصبر هو أمر قاسي، أمر مُرّ. فالصبر ليس بالضرورة في السعادة، وإنما يمارس في الشقاء[1].

القديس أغسطينوس

٤. خائف الرب والشبع بكلمة الله

الذين يخافون الرب لا يعصون أقواله،

والمُحِبُّون له يحفظون طرقه [١٥].

يُوَجّه السيد المسيح حديثه إلى كل المؤمنين الذين يحبونه، ويظهر أن الوعد الإلهي عام للكل، ويُقِيم من القلب مسكنًا أو هيكلاً إلهيًا."إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً، الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني" (يو ١٤: ٢٣-٢٤).

❖ يقول: "خف الربّ واحفظ وصاياه" (جا ١٢: ١٣). هكذا بحفظ وصايا الله تكون قادرًا بقوة في كل عملٍ، وسيكون كل عملٍ فوق كل نقدٍ. إذن، خف الربّ، فتمارس كل عملٍ حسنًا، هذا هو الخوف الذي يجب أن تقتنيه لكي تخلص.

لا تخف من الشيطان. بمخافتك للرب تقتني السلطان على إبليس، ولا يكون فيه أدنى قوة... على أي الأحوال خف من أعمال الشيطان، ولا تُتَمِّمها، بل كن متحفظًا منها.

يوجد نوعان من الخوف (مخافة الرب والخوف من الشيطان أو من البشر)، إن كنت ترغب أن تفعل شرًا، خف الربّ فلا تفعله. وبالتالي مخافة الربّ هي ضمان وقدرة ومجد. خف الربّ وعش لأجله. كل الذين يخافونه، ويحفظون وصاياه سيحيون لأجله[2].

الأب هرماس

❖ برهان الحب هو إعلانه خلال العمل. هذا هو السبب الذي لأجله يقول يوحنا في رسالته: "من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه، فهو كاذب" (١ يو ٢: ٤).

حبنا حقيقي أن حفظنا إرادتنا متناغمة مع وصاياه. من يجول هنا وهناك خلال شهواته الشريرة

---

[1] *Sermon 359.*

[2] *The Shepherd of Hermas, Seventh Mandate 1-4.*

لا يحب الله بالحق، لأنه يضاد الله في إرادته[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ ذَكِّر نفسك إنه يجب عليك أن تُظهر تعقُّلك دائمًا، وذلك عن طريق الحياة الصالحة وأفعالك نفسها. وبنفس الطريقة فإن المرضى يحترمون الأطباء وينظرون إليهم كمنقذين لهم ومحسنين إليهم بالعمل لا بالكلام[2].

القديس أنطونيوس الكبير

الذين يخافون الرب يبتغون رضاه،
والذين يُحِبُّونه يشبعون من الشريعة. [١٦]

يُقَدِّم لنا **القديس مار فيلوكسينوس** كلمة الله كمصدر حيّ للمخافة الإلهيّة، موصيًا إيّانا ألا نُرَدِّدها بلساننا فقط، وإنما نعيشها في قلوبنا، فتفجر في داخلنا ينابيع إلهيّة تروي النفس، وتُحَوِّل قفرها إلى فردوس مثمر.

❖ لننشغل دائمًا بكلمة الله،
ليس فقط بترديدها بألسنتنا،
وإنما أيضًا بتأمّلنا فيها في داخل قلوبنا،
لكي يتكلم اللسان من فضلة القلب...
من يرتوي باستمرار من التعليم الإلهي،
يعطي كل حين ثمارا إلهيّة.
تعلن أسرار القلب الخفية، وتظهر من خلال سلوك الحواس الأخرى وتصرفاتها[3].

القديس مار فيلوكسينوس

❖ إن كان أحد لا يحفظ وصاياه، فهذا دليل على عدم محبته لله ومسيحه؛ أما حفظ وصايا المسيح باحتمال التجارب حتى الموت فهذا برهان الحب (يو ١٤: ٢١، ٢٤؛ رو ٨: ٣٥-٣٧)[4].

❖ من يفعل مشيئته يكرمه الله ويُمَجِّده، وأما من يعصى ناموسه فيُهِينه (مت ٥: ٦؛ رو ٢: ٢٣)[5].

---

[1] *Hom. 30, PL 76: 1220. Forty Gospel Homilies,*

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ١٩.

[3] عظة ٦: ١٦٠.

[4] *Morals, Rule, 3:2.*

[5] *Morals, Rule, 4:1.*

❖ "ذوقوا وانظروا ما أَطيَب الرب" (مز ٣٤: ٨)... الذي لم يَذُق العسل، لا يمكن أن يُدرِكَ مذاقه. هكذا لا يمكن التلذُّذ بكلمة الله عن طريق التعليم، بل ينبغي أن نختبر عُمْق تعاليم الحق، ونلمس محبة الرب في علاقة شخصية. يقول: "ذوقوا"، ولم يقل اشبعوا، "فإننا ننظر الآن في مرآة في لغز" (١ كو ١٣: ٢٢)، ولكن سيأتي وقت فيه أقتني ما أنال عربونه الآن.

أستطيع بالنعمة أن أَتذوَّقه بهذا المَذَاق في ملء الفرح.

ينبغي على الذين لا يستطيعون تذوُّق الأطعمة، وليس لهم أية شهية لها، بل يبتعدون باشمئزاز عن كل المأكولات، أن يعرضوا أنفسهم على الطبيب، ليفتح شهيتهم بمأكولات شهية، مضافًا إليها أطعمة ذات (رائحة) نفاذة لتفتح شهيتهم أكثر فأكثر. هكذا بخصوص كلمة الحق، نحتاج إلى اختبار حيّ لها، كما يقول المزمور إنه سيشعل فيكم الرغبة المستمرة، لذلك يقول: "ذوقوا"، لكي تأخذوا الطوبى، لإحساسكم الدائم بأنكم "جياع وعطاش إلى البرّ" (مت ٥: ٦)[١].

❖ **سؤال: ما هو معيار حبنا لله؟**

الإجابة: أن تتسع النفس أكثر من قوتها تجاه ارادة الله، وأن تجعل مجده هو شغلها الشاغل والرغبة الدائمة لها[٢].

❖ سؤال: **كيف يمكن أن نفعل كل شيء لمجد الله؟...**

إن فعلنا كل شيءٍ حسب فكر الله ووصاياه، ولا نطلب مديح الناس[٣].

القديس باسيليوس الكبير

الذين يخافون الرب يهيئون قلوبهم،

ويتواضعون أمامه. [١٧]

يقول **القديس مار يعقوب السروجي** أن العدو إبليس وآدم سقطا في نفس الرذيلة أي الكبرياء، لذلك نزع الله مجد آدم لئلا يسقط إلى الأبد مثل الشيطان، وقام السيد المسيح بإصلاح الموقف بأن نقتني تواضعه، فيحلّ فينا ملكوته.

❖ ذاك الحنّان المملوء خيرات أشفق بالمراحم، وأخذ من (آدم) المجد الذي كان متشحًا به.

خلع عنه المجد الذي كان متسربلاً به، لئلا يتكبر ويهلك نهائيًا مثل الشيطان.

---

[١] تفسير المزمور ٣٤ (٣٣).

[2] *Regulae brevius tractatae, 211.*

[3] *Reg. Brev., 195.*

استخدم معه توبيخا وهو يحتقره: يا ابن التراب، أنت غبار وطين حقير.
لماذا تريد أن تخطف مكانًا ليس مُلكك؟...
إنك لم تبسط السماء وحدك، ولم تصفّ القوات التي تطوف فيها.
الشمس والقمر وكل الكواكب لا تسير بواسطتك...
إنك تراب لا تتطاول على العظمة، أنت طين لماذا تفكر فيما لا يعنيك؟...
أبغض الكبرياء، لأنه فخ عظيم ومملوء موتًا، فيه سقط العدو منذ البداية...
لا يوجد شيء مبغض ومنبوذ عند الله مثل كبرياء من يتبختر بالتباهي[1].

القديس مار يعقوب السروجي

❖ الأراضي المنخفضة تمتلئ، والأراضي المرتفعة تجفّ. النعمة هي مطر. فلماذا تتعجَّبون إذن إن كان الله يقاوم المتكبّرين، ويعطي نعمة للمتواضعين (يع ٤: ٦)؟ لذلك القول: "بخوفٍ ورعدةٍ" (في ٢: ١٢) يعني بتواضعٍ. "لا تستكبر بل خفْ" (رو ١١: ٢٠). خفْ حتى تمتلئ، لا تستكبر لئلاّ تجفْ![2]

القديس أغسطينوس

لنقع في يدي الرب لا في أيدي الناس،
لأن رحمته على قدر عظمته [١٨].

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن داود الملك والنبي حين أخطأ واستحق التأديب طلب من الرب أن يقع في يديه لا في أيدي الناس، لأنه إله رحوم، يعرف ما هو لبنيانه وبنيان الشعب، فلا يبالغ في التأديب. إنه أب حكيم وقدير ومحبّ! أما إذا سقط تحت يد إنسانٍ، ففي تشامخٍ لا يهدف هذا الإنسان إلى إصلاحه، ولا يطلب ما هو لبنيانه وبنيان الشعب.

أما في يوم الرب العظيم فوقوع الإنسان المعاند الذي صمَّم على عدم التوبة حتى آخر نسمة في حياته في يد الرب أمر رهيب للغاية (عب ١٠: ٣٠)، عندئذٍ يُحسَب الوقوع في يدي البشر كلا شيءٍ.

❖ يقول: "مخيف هو الوقوع في يديّ الله الحي" (عب ١٠: ٣١) مكتوب: "لي الانتقام أنا أجازي يقول الرب" (عب ١٠: ٣٠)... قيل: "لنقع في يديّ الرب لا في أيدي الناس" (سي ٢: ١٨؛ ٢ صم

---

[1] الميمر ٦٥ على الكبرياء (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني). الميمر الربع، على العظمة، لأجل يوم الأربعاء من الجمعة الثانية من الصوم المقدس، قبطي.

[2] *Sermons on N.T. Lessons, 81 :3.*

٢٤: ١٤). لكن إن لم تتب، تقع في يديّ الله المخوف، ويُحسَب الوقوع في أيدي الناس كلا شيءٍ. إنه يقصد: عندما ترى إنسانًا يُعاقَب هنا، لا نرتعب للأمور الحاضرة، إنما نرتعب للأمور المُقبِلة." قدر رحمته أيضًا غضبه" و"سخطه يحلّ على الخاطئين" (سي ٥: ٦)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بالنسبة للذين دخلوا حديثًا في طريق التقوى، التدريب الرئيسي لنفعهم بالأكثر هو "المخافة"، وذلك حسب مشورة سليمان أحكم مِنْ في البشر: "رأس الحكمة مخافة الرب" (أم ١: ٧). أما بالنسبة لكم يا من عبرتم طفولتكم في المسيح، ولستم بعد تطلبون اللبن، بل أنتم قادرون على أن تصيروا كاملين في الإنسان الداخلي بطعام التعليم القوي (عب ٥: ١٣-١٤)، أي أنكم محتاجون إلى الوصايا العالية التي بها يتحقَّق كل الحق الخاص بالمحبة في المسيح.

ولكن يلزمكم أن تكونوا حرصين تمامًا لئلا بفيض عطايا الله تقعون تحت حكمٍ قاسٍ، إن كنتم جاحدين المعطي (الله)، إذ يقول: "كل من أُعطي كثيرًا يُطلَب منه كثير" (لو ١٢: ٤٥)[2].

❖ أجل، إن الرب صالح، ولكنه عادل أيضًا، ومن خصائص العادل أن يجازي بحسب الاستحقاق... إن الرب رحوم، ولكنه منصف أيضًا، فقد قيل: "الرب يحب الرحمة والعدل" (مز ١٠٠: ١)[3].

❖ إنه رحوم، لكنه هو ديَّان أيضًا، لأن الرب "**يحب الرحمة والحكم**" كما يقول المرتل...

أنتم ترون كيف بفطنة يهب الرحمة؛ لكنه ليس رحومًا دون عدل، ولا هو عادل دون الرحمة، لأن الرب رحوم وعادل (مز ١١٥: ٥)[4].

❖ تذمَّر الشعب لأنه لم يوجد ماء. مُجَرَّد أن قال موسى لشعبه: "أَمِن هذه الصخرة نُخرِج لكم ماء؟" (عد ٢٠: ١٠) هكذا تردد (موسى) إلى حدٍ ما، ولكن من أجل هذا وحده، للحال استلم التهديد أنه لا يدخل أرض الموعد، التي كانت في ذلك الوقت رأس كل الوعود المُعطاة لليهود. عندما أرى هذا الإنسان يسأل ولا ينال صفحًا، عندما أراه لا يتأهَّل لنوال المغفرة من أجل هذه الكلمات القليلة بجانب أعمال برٍ كثيرة هكذا، بالحق أُدرك صرامة الله في كلمات الرسول (رو ١١: ٢٢). أُدرك تمامًا هذه الكلمات حقيقية: "إن كان البار بالجَهد يخلُص، فالفاجر والخاطئ أين يظهران" (١ بط

---

[1] *On Hebrews, Homily 20 :4*

[2] *Reg. Fus. 2.*

[3] حفظ الوصايا والتعليم: ٤ ترجمة يوسف شماس المخلصي.

[4] *The Long Rules.*

٤: ١٨)[1].

القدّيس باسيليوس الكبير

أبرز الكتاب المقدس الغضب الذي يُهَدِّد به الله البشرية لا لكي نعيش في رعبٍ، وإنما كأبناء لله ندرك البركات التي نتمتَّع بها بالرجوع إليه.

❖ حين نقرأ عن غضب الرب وسخطه، ينبغي ألا نفهم اللفظ وفق معنى العاطفة البشرية غير الكريمة. إنما بمعنى يليق بالله، المُنَزَّه عن كل انفعالٍ أو شائبةٍ. ومن ثم ينبغي أن ندرك من هذا أنه الديان والمنتقم عن كل الأمور الظالمة التي تُرتكَب في هذا العالم.

وبمنطق هذه المصطلحات ومعناها، ينبغي أن نخشاه بكونه المخوف المجازي عن أعمالنا، وأن نخشى عمل أي شيء ضد إرادته. لأن الطبيعة البشرية قد ألفت أن تخشى أولئك الذين تعرف أنهم ساخطون، وتفزع من الإساءة إليهم، كما هو الحال مع بعض القضاة البالغين ذروة العدالة.

فالغضب المنتقم يخشاه عادة أولئك الذين يعذبهم اتهام ضمائرهم لهم، بالطبع ليس لوجود هذه النزعة في عقول هؤلاء الذين سيلتزمون بالإنصاف في أحكامهم. لكن بينما هم في غمرةٍ من هذا الخوف، فإن ميول القاضي نحوهم تتسم بالعدالة وعدم التحيز واحترام القانون الذي ينفذه. وهذا مهما سلك بالرفق واللطف، موصوم بأقسى نعوت السخط والغضب الشديد من أولئك الذين عوقبوا بحقٍ وإنصافٍ[2].

القديس يوحنا كاسيان

❖ تجد أجزاء كثيرة في الكتاب المقدس يتشبَّه فيها الله بصفات الإنسان. فإذا سمعت يومًا كلمات "**غضب الله وثورته**" لا تظن أن الغضب والثورة عواطف وصفات موجودة عند الله، إنما هي طريقة بها يتنازل الله ويتكلم ليؤدب أطفاله ويصلحهم.

لأننا نحن أيضًا حينما نريد أن نوجه أولادنا ونُصَحِّح أخطاءهم نظهر أمامهم بصورةٍ مخيفةٍ ووجهٍ صارمٍ وحازمٍ لا يتناسب مع مشاعرنا الحقيقية، إنما يتناسب مع طريقة التأديب.

إذا أظهرنا على وجوهنا التسامح والتساهل الموجود في نفوسنا ومشاعرنا الداخلية تجاه أطفالنا بشكلٍ دائمٍ، دون أن نغير ملامح وجوهنا بحسب تصرفات الأطفال، نفسدهم ونردهم إلى الأسوأ. بهذه الطريقة نتكلم عن غضب الله، فحينما يُقَال إن الله يغضب، فإن المقصود بهذا الغضب هو لتوبتك وإصلاحك، لأن الله في حقيقته لا يغضب ولا يثور، لكنك أنت الذي ستتحمل آثار الغضب

---

[1] *Preface on the Judgment of God.*

[2] *Cassian: De institutis caenoboum, 8:2-4.*

والثورة عندما تقع في العذابات الرهيبة القاسية بسبب خطاياك وشرورك، في حالة تأديب الله لك بما نسميه غضب الله![1]

العلامة أوريجينوس

❖ "كنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضًا" (أف ٢: ٣). ويقول إرميا عن هذا الغضب: "ملعون اليوم الذي وُلدت فيه" (إر ٢٠: ١٤). وعن هذا الغضب يقول أيوب الطوباوي: "ليته هلك اليوم الذي وُلدت فيه" (أي ٣: ٣). عن هذا الغضب يقول أيوب نفسه مرة أخرى: "الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعبًا. يخرج كالزهر ثم ينحسم..." (راجع أي ١٤: ١-٥).

القديس أغسطينوس

تداريب عملية

يُقَدِّم لنا ابن سيراخ التداريب التالية أثناء الضيق:

١. أن نعّد أنفسنا للتجارب طالبين من الله أن يسمر خوفه فينا [١]، ونؤمن بالمخلص السماوي أنه أكثر لطفًا وحبًا من والدينا، وهو القدير والحكيم.

٢. مقاومة القلق من الشدة بالصراخ لله [٢].

٣. نركز أنظارنا على الله لا على التجربة [٣].

٤. نتطلَّع إلى الحياة الزمنية أنها دائمة التغيُّر [٤].

٥. التطلع إلى معاملات الله مع مؤمنيه عبر التاريخ وفي حياتنا الخاصة [١٠].

من وحي سيراخ ٢

لأقع في يديك، لا في يديّ إنسان!

(سي ٢: ١٨)

❖ تُسَبِّحك نفسي وتشكرك حين تسمح لي ببوتقة التجارب!

تدخل بي إلى نيران الضيق،

لكن بحبك الفائق تحوِّط حولي.

مع الثلاثة فتية أختبر نيران الأتون، وقد صارت ندى!

بالضيق تفتح بصيرتي، فأرى المجد الذي تعدّه لي!

---

[1] *Homilies on Jer., 18.*

❖ نعمتك تسندني، وتملأ أعماقي بالرجاء فيك!
تتحوَّل الضيقات إلى أكاليل مجد أبدي!
وسط الأتون تسمع تشكّرات قلبي الخفية، فتضمّني إلى خورُس السمائيين.
عوض القلق، تتهلل نفسي بك يا مُخَلِّصي!

❖ ثلاثة عطايا أطلبها منك في ضيقي.
هب لقلبي روح القوة، فلا يخور، ولا يعرِّج بين طريقين!
اجذبني إلى جنبك المطعون، فأحتمي فيك!
هب لي الحكمة السماوية، فأدرك ما وراء الضيق،
ولا يضعف إيماني ولا أفقد الصبر،
فأصير من محبوبيك الذين تُسرّ بهم.

❖ هب لي مع داود النبي والملك أن أصرخ إليك:
لأقع في يديك، وليس في يديّ إنسان (٢ صم ٢٤: ١٤).
أنت بالحق أبي ومُخَلِّصي وصديقي الفريد.
إن تركني أبي وتركتني أمي، أنت تضمّني إليك!
أنت تخترق قلبي، وتعرف إمكانياته وأسراره.
لن تسمح بالضيق ما لم يكن لبنيان نفسي ولنفع الكثيرين.
أنت كلّي الحكمة،
كل ما تسمح به هو لخلاصي وخلاص إخوتي.
بروحك الناري تُجَدِّد على الدوام طبيعتي،
تسكب بهاءك على أعماقي وسط نيران التجارب.
تُشَكِّل أعماقي، فأصير أيقونة حيّة لك.
تُجمِّلني، فتعتزّ الطغمات السمائية بعملك فيّ.

الأصحاح الثالث

بركة الوالدين

التزاماتنا من نحو الله ومن نحو والدينا

لما كانت مخافة الربّ هي بدء الحكمة، كان يليق بالإنسان الحكيم أولاً أن يتعرَّف على التزاماته من نحو الله. هذا هو موضوع الأصحاحين الأول والثاني. الآن في هذا الأصحاح يتحدَّث عن التزامات المؤمن من نحو والديه، بكونه مدينًا لهما ووارثًا عنهما الحكمة، إذ سبقاه في الحياة. قد يكون الابن أكثر من والديه علمًا أو ذكاءً أو أكثر منهما في المواهب، وهذا ما يسرّ الوالدين أن يكون الجيل الجديد أكثر تقدُّمًا من القديم، غير أن الجيل الجديد لا يستخفّ بالقديم، لأنه مدين له بخبرته كما باهتمامه به من جوانب كثيرة.

يليق بالجيل القديم أن يعتز بالجيل الجديد، ويبتهج لتميُّزه بالتقدُّم المستمر، كما يليق بالجيل الجديد أن يدرك فضل الأجيال القديمة، ويعلم أنه يومًا ما سينضم إليهم حينما يأتي الجيل القادم الأحدث منه.

هذا الحب المتبادل والتقدير بين الأجيال يتحقَّق حين يكون الربّ حاضرًا في الأسرة كما في قلب كل عضوٍ منها، يُقَدِّس الأسرة ويهبها روح الحب والتواضع والتقدير المتبادل. فيحسب الوالدان أبناءهما هبة من الله، ما يقدمانه لهم إنما يقدمانه للربِّ نفسه، وهكذا نظرة الأبناء للوالدين، فكل تكريم لهما واحتمال لمتاعبهما خاصة في المرض والشيخوخة مُقدَّم لله نفسه.

اتبع ابن سيراخ ذات منهج الوصايا العشر حيث جاءت الوصية الخاصة بتكريم الوالدين مباشرة بعد الوصية الخاصة بمحبتنا لله،

في **الأصحاح الأول** ركّز ابن سيراخ حديثه في الحكمة ومصدرها وارتباطها بمخافة الرب وحفظ الوصية الإلهية. وفي **الأصحاح الثاني** أبرز مفهوم مخافة الرب، موضحًا أن خائف الرب يتحدَّى بروح الحكمة السماوية الضيق، مؤكدًا أن التجارب لا تُحَطِّم نفسيته بل تزيده بهاءً داخليًا كالذهب الذي يتنقَّى بالنار. خائف الرب لن يخور قلبه بسبب التجارب، بل يتزكَّى إيمانه ويتكلَّل بروح الصبر، ويحفظ طرق الرب.

الآن في **الأصحاح الثالث** يبدأ بجانب عملي مؤكدًا لتلاميذه كيف تصير الأسرة أيقونة السماء. يدعونا ابن سيراخ إلى طاعة الوالدين وتكريمهم، ليس أثناء صغرنا فحسب، بل حتى بعد بلوغنا سن الرشد، فنهتم بخدمتهم بفرحٍ دون انتظار لكلمة مديح أو شكر منهم أو من غيرهم، وإنما بالحب

نخدمهم كسادةٍ لنا بلا تذمرٍ (راجع خر ٢٠: ١٢؛ تث ٥: ١٦؛ مر ٧: ١٠-١٢). أوضح أيضًا ثمار هذه الطاعة القائمة على الحب والحنو. كما تنعكس هذه الطاعة على حياة المؤمن في المجتمع، فيتَّسِم بالوداعة والتواضع ومحبة العطاء للبشر.

١. الأبوة والبنوّة في الرب [١-٧]

٢. بركة الطاعة وتكريم الوالدين [٨-١١]

٣. احتمال ضعفات الوالدين [١٢-١٦]

٤. الأسرة مدرسة الوداعة [١٧-٢٩]

٥. الأسرة مدرسة العطاء [٣٠-٣١]

١. الأبوة والبنوّة في الرب

إذ يتحدَّث عن الأسرة المقدسة، يحسب مدرسته أسرة لها دورها في حياة المجتمع. يدعو تلاميذه أبناءه، تارة بصيغة الجمع علامة الوحدة بين التلاميذ وبعضهم البعض، وعلاقته كأبٍ لهم، وتارة يتحدَّث بصيغة المفرد: "يا بنيّ". يود أن يسلك بروح الله الذي يتعامل مع الجماعة سواء القادة أو الشعب بكون الجميع شعب الله موضوع حُبِّه ورعايته الخاصة. في نفس الوقت يرى في كل ابنٍ أنه عضو خاص له مكانته الخاصة في قلب أبيه.

أوضح أيضًا سرّ الاهتمام بالأبوة أو الأمومة والبنوة:

أ. "**واعملوا ما أُخبركم به لكي تخلصوا**" [١]، الحب المُترجَم في الأبوة والبنوة هو طريق الخلاص. فالسماء المُعدَّة لنا قانونها الحب، ولا يتمتَّع بها من لا يمارس الحب لله والناس.

ب. هذا الحب في حقيقته وصية إلهية، كل إكرام للوالدين يحسبه الرب إكرامًا له، وهو حق لهما ينالانه خلال الوصية الإلهية [٢].

ج. كل إكرامٍ مُوجَّه لهما، يفتح لنا باب مراحم الله، فننال غفران خطايانا، وكل اهتمام وتمجيد للأم إنما هو رصيد للابن أو الابنة محفوظ ككنزٍ في السماء [٤].

د. ما نُقَدِّمه للوالدين يُرَد لنا فيما بعد من أبنائنا، ويرفع صلواتنا هنا ونحن في العالم كما بجناحين إلى السماء [٥].

هـ. من يكرم والديه يُبارِك الرب كل دقيقةٍ من عمره، فتطول حياته خلال البركة الإلهية، فيجعل الرب كل يومٍ من أيامه كألف سنة (٢ بط ٣: ٨).

و. يليق بالأبناء ألا يخجلوا من خدمة والديهم، فمن يُكرِم والديه حسب الجسد، يُحسب تقدمة للآب السماوي والكنيسة أمه الروحية، لذلك يخدمهما كسيِّدين له.

في اختصار، يتطلَّع الرب نفسه إلى الأسرة بكونها كنيسة البيت المقدس.

أوضح أيضًا سرّ الاهتمام بالأبوة أو الأمومة والبنوة:

يا أبنائي اسمعوا لي أنا أبوكم،

واعملوا ما أُخبركم به لكي تخلصوا [١].

إذ يدعو سيراخ نفسه أبًا لتلاميذه، ويحسبهم أبناء له، إنما يؤكد أن دستور الأسرة يقوم على الحب المتبادل، والاهتمام بخلاص كل الأعضاء. فليس ما يشغله أن يحتلُّوا مراكز مرموقة في المجتمع، ولا أن يتدرَّبوا على توجيه الحوارات بطريقةٍ ما، وإنما أن يعمل الكل لأجل الخلاص.

❖ عَلَّمنا الرب ليس ألا نهتم بأي أمرٍ فيما يختص بمقتنياتنا وضرورات هذه الحياة فحسب، بل أيضًا أن نرتفع فوق المشاعر الطبيعية، إذ قال: من أَحبّ أبًا أو أمًا أكثر مني فلا يستحقّني" (مت ١٠: ٣٧). وهذا أيضًا ما ينطبق على الروابط العميقة كالصداقات الحميمة. فكم بالأكثر مع الصلات البعيدة والغرباء عن الإيمان. لذا أضاف: "من لا يحمل صليبه ويتبعني، فلا يستحقّني" (مت ١٠: ٣٨). يكتب لنا الرسول الذي نجح في هذا: "قد صُلِب العالم لي وأنا للعالم... فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ" (غلا ٦: ١٤؛ ٢: ٢٠).

دعونا نعود إلى كلمات الرب التي قالها مباشرة لكلِّ واحدٍ منا. حين سأله ذلك الرجل قائلاً: "ائذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي". أجابه: "دع الموتى يدفنون موتاهم، وأما أنت فاذهب ونادِ بملكوت الله" (لو ٩: ٥٩-٦٠). وذاك الآخر الذي قال له: "ائذن لي أولاً أن أُودِّع الذين في بيتي"، أجابه مُوَبِّخًا ومُعَنِّفًا إيَّاه، قائلاً: "ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء، يصلح لملكوت الله" (لو ٩: ٦١-٦٢)...

يريدنا الامتناع عن سماع أيّ صوت يجعلنا نحيد عن طريق الكمال والتقوى... إذ يقول: "من لا يحمل صليبه ويأتي ورائي، فلا يَقْدِر أن يكون لي تلميذًا" (لو ١٤: ٢٧). هذا الأمر نقوم به حينما نجوز مياه المعمودية حيث نُعلِن إيماننا ونعترف بأننا صُلِبنا مع المسيح ومُتنا ودُفنَّا معه... كما هو مكتوب (انظر رو ٦: ٤-١١)[١].

القديس باسيليوس الكبير

فإن الرب كرَّم الأب على أولاده،

وثبَّت حقّ الأمّ على أبنائها [٢].

---

[١] القديس باسيليوس الكبير: المعمودية المقدسة، ترجمة وإعداد الراهب القمص مرقريوس الأنبا بيشوي.

من أكرم أباه يكفر خطاياه [٣].

ومن يمجد أمه يكون كمدخر الكنوز [٤].

من يكرم والديه يتوقَّع من الله أن يسمع لصلاته، كما يتوقع أن أبناءه سيكرمونه.

من أكرم أباه يسّر بأولاده،

وحين يصلي يُستجَاب له [٥].

اعتاد الكتاب المقدس حين يتحدث عن الأب، غالبًا ما يعني الوالدان، فليس من تمييز بين الآباء والأمهات.

من يُعَظِّم أباه تطول حياته،

ومن يُطيع الربّ يُرِيح أمّه [٦].

يربط الكتاب المقدس طاعة الرب بطاعة الوالدين. بتكريم الوالدين ننال بركة الطاعة للوصية الإلهية (تث ٢٨: ١-٢). اللطف مع الوالدين يعين في غفران الخطايا، والاستخفاف بالوالدين يُحسَب تجديفًا على الله [١٦].

طاعة الوالدين لا تقف عند الأطفال والشباب، إذ يليق بالشخص الذي يبلغ سن البلوغ أيضًا أن يُكرّم الوالدين، فينال بركة الرب. وفي نفس الوقت يرتدّ عمله إليه، حيث يُكرِّمه أبناؤه ويطيعونه. جاء في هذا السفر:

ويخدم والديه كأنهما سيدان له [٧].

يخدم خائفو الرب والديهم بفرحٍ. يليق بهم أن يعينوهم في شيخوختهم ويترفقوا بهم إن فقدوا رشدهم.

٢. بركة الطاعة وتكريم الوالدين

أكرم أباك بالقول والعمل،

لكي تحلّ عليك البركة منه [٨].

كل تكريم يُقَدِّمه الإنسان لوالديه إنما يُحسَب كبذار يغرسها ليجنيها فيما بعد. هذه الوصية هي الوحيدة التي وردت في الوصايا العشر بما تحمله من بركات. "أكرم أباك وأمك لكي تطول حياتك على الأرض التي يعطيك الربّ إلهك" (خر ٢٠: ١٣).

اهتم الكتاب المقدس بهذه الوصية الإلهية التي يلحقها وعد إلهي، فأوردها ابن سيراخ هنا [٨-١١] في شيءٍ من التوسُّع، ربما لأن بعض الشباب جذبتهم الفلسفة عن الارتباط بالشريعة، فاستهانوا بالجيل القديم خاصة الوالدين، وحسبوا أنفسهم أكثر تقدمًا ومعرفة.

في العهد الجديد ذكر الرسول بولس ذات الوصية: "أكرم أباك وأمك التي هي أول وصية بوعدٍ،

لكي يكون لكم خير، وتكونوا طوال الأعمار على الأرض" (أف ٦: ٢-٣). وبعد الطوفان أول لعنة حلَّت في العالم الجديد على الإنسان كانت بسبب إهانة حام لأبيه نوح (تك ٩: ٢٠-٢٧).

يقول الربيون اليهود، تعليقاً على وصية أكرم أباك وأمك، أن قبل السبي البابلي كانت العلاقة بين الوالدين والأولاد قد ساءت بشكلٍ عام، حتى استحق إسرائيل السقوط تحت السبي لأنه لم يحفظ تلك الوصية والتي ترتبط بالبقاء طويلاً في أرض الموعد. وينقل لنا العهد الجديد صورة مؤسفة لهذا التنكّر من قبل الأبناء، ففي إنجيل معلمنا متى يرد "من قال لأبيه أو أُمِّهِ: قُرْبَانٌ هو الذي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي. فَلاَ يُكْرِمُ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ" (مت ١٥: ٥). وفي إنجيل معلمنا مرقس "إِنْ قَالَ إِنْسَانٌ لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ أَيْ هَدِيَّةٌ هُوَ الَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي فَلاَ تَدَعُونَهُ فِي مَا بَعْدُ يَفْعَلُ شَيْئاً لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ" (مر ٧: ١١، ١٢). هذا التقليد هو وصايا للناس، يتعارض مع الوصيّة الإلهيّة لهدف أو آخر، كالمثال الذي قدَّمه السيّد المسيح. فلأجل المنفعة الشخصيّة وضع قادة اليهود وصيّة تحمل مظهر العطاء الظاهري وتخفي كسْرًا للناموس الإلهي. كأن يستطيع الابن أن يَحرم والديه من حقوقهما، فلا يعولهما بحجّة أن ما يدفعه لهما يقدّمه قربانًا لله، فيكسِر وصيّة إكرام الوالدين، ويكون كمن شتمهما بأعماله، وهذا أقسى من السبّ باللسان، إذ يحرمهما من حق الحياة الكريمة، ويدخل بهما إلى ضنك العيش تحت ستار العطاء للهيكل. وكما يقول **العلاّمة أوريجينوس:** [إذ يسمع الآباء أن ما ينبغي تقديمه لهم صار من القربان المُخصَّص لله يحجمون عن أخذه من أبنائهم، حتى وإن كانوا في عوْز شديد لضرورات الحياة.] ويقول: [بأن الفرّيسيّين كانوا محبّين للمال (لو ٦: ١٤) فتظاهروا بجمعه للعطاء للفقراء، حارمين الوالدين من عطايا أولادهم.]

فإن بركة الأب تؤسس بيوت البنين،

ولعنة الأم تقتلع أسسها [٩].

لا تفتخر بإهانة أبيك،

فإن هوان أبيك ليس فخرًا لك [١٠].

❖ "لا تفتخر بإهانة أبيك" (٣: ١٠). إن كان هذا يُقَال عن آبائنا حسب الطبيعة، كم بالأكثر بالنسبة لآبائنا الروحيين. أكرمه بكونه يخدمك كل يومٍ، ويجعلك تقرأ الكتاب المقدس، يهيئ البيت لك، ويحرسك، ويصلي من أجلك. ويتوسَّل أمام الله لصالحك، ويُقَدِّم تضرعات لأجلك، كل عبادته هي من أجلك. لتقدِّر كل هذا، فكِّر في هذا، اقترب إليه بوقارٍ تقويٍ.

لا تقل: إنه شرير... الهبات التي يهبها الله ليست بناء على فضيلة الكاهن. كل عطاياه هي

من نعمته. دور الكاهن مُجَرَّد يفتح فمه، والله هو الذي يعمل كل شيء[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

كان **فيلجينتوس** يخشى أن تسقط العذارى في الكبرياء والتشامخ على أسرهن بسبب بتوليتهن.

❖ كما أن الشهوة ليس لها سلطان في جسم البتول، هكذا لا تدع للكبرياء سلطان على قلب البتول. مارسي خلاصكِ في مخافة ورعدة. لأن الله يعمل فيكِ إن تريدي وأن تعملي إرادته الصالحة.

فيلجينتوس (تلميذ القديس أغسطينوس)

بل مجد الإنسان بكرامة أبيه،

وإهانة الأُم عار للبنين [١١].

٣. احتمال ضعفات الوالدين

إذا أُصيب أحد الوالدين بضعف الشيخوخة أو بالمرض أو بفقدان الذاكرة، يحسب الابن ذلك بسماح من الله، فعوض التذمُّر يترفَّق بهما. هذا الحنوّ له فاعليته:

أ. يقول سيراخ عنه إنه لا يُنسَى [١٤]، فهو رصيد للابن لدى الله، فيسرع في نجاته وقت الضيق.

ب. يعين الابن في التكفير عن خطاياه، يُشَبِّهه ابن سيراخ بالشمس التي تذيب الجليد في الصحو.

يا بُنيّ، أَعِن أباك في شيخوخته،

ولا تُحزِنه في حياته [١٢].

في المجتمع الزراعي يُمكِن للابن أن يساهم في الأعمال الخاصة بالزرع كما في رعاية الغنم.

وإن فقد رُشده أَظهِر ترفُّقًا،

ولا تحتقره وأنت في كل قوتك [١٣].

فإن اللطف مع الأب لا يُنسَى،

وله اعتباره في التكفير عن خطاياك [١٤].

يوم ضيقك يُذكَر لصالحك،

وكالجليد في الصحو تذوب خطاياك [١٥].

---

[1] *Homilies on 2 Timothy, hom. 2.*

إذ تحدَّث ابن سيراخ عن بركات إكرام الوالدين، رفع قلوبنا إلى الله أبينا السماوي لنتمتَّع برعايته الفائقة. نكرِّم أبانا السماوي بتقديم ذبيحة شكر له، خاصة في وقت الضيق، علامة إيماننا وثقتنا في رعايته لنا وسط الضيق. أما ثمرة هذا الشكر فهو أن يعيننا على التكفير عن خطايانا، لنعيش ببرّ المسيح.

"يوم ضيقك يُذكر لصالحك، وكالجليد في الصحو تذوب خطاياك" يا له من تشبيه مُفرِح، فإن الشكر في الضيق يدخل بنا إلى صحو النهار، فيذيب شمس البرّ خطايانا ويزيلها.

❖ ماذا أردّ لك يا رب، فحينما تستدعي ذاكرتي هذه الأمور (الضيقات) لن أفزع منها!
إني أُحبك يا رب، وأشكرك، وأعترف لاسمك!
فإنك تزيل عني أعمالي الشريرة المُرعِبة والخبيثة.
أُنسب إلى نعمتك ورحمتك أنك تذيب خطاياي كالثلج[1].

القديس أغسطينوس

يرى **القديس أغسطينوس** خطايانا تشبه الجليد الذي يذوب بعمل الروح القدس وينحل. [صرنا مجمدين في السبي، خطايانا تربطنا، لكن إذ تهب ريح الجنوب (الساخنة)، أي الروح القدس، تغفر خطايانا، وتنحدر من جليد الإثم. فكما أن الثلج يذوب في الجو الدافئ هكذا أيضًا خطايانا.[2]]

من نبذ أباه يكون كالمُجَدِّف،
ومن أغاظ أمه يلعنه الربّ [١٦].

٤. الأسرة مدرسة الوداعة

إذ تجسد كلمة الله وحلّ بيننا كواحدٍ منا، دعانا أن نتعلَّم منه، قائلاً: "تعلَّموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب" (مت ١١: ٢٩). يقوم الزواج والحياة الأسرية على التدبير الإلهي، وإدراك خطة الله في الحياة الأسرية، وفي كل عضوٍ في الأسرة. خلال الحياة الأسرية المقدسة في الربّ يصير المجتمع سالكًا في تناغم مع خطة الله، مُحَقِّقًا رسالته.

يُقَدِّم لنا ابن سيراخ لمسات عملية لحياة الوداعة والتواضع ليعيشها المؤمن في أسرته الصغيرة كما في المجتمع بكونه الأسرة الكبرى.

أجمل تقدمة يُسرّ بها الوالدان، تواضع أبناءهما ووداعتهم. كلما تواضع الابن في سلوكه معهما، يزداد عظمة في عيني الله والناس. يتمجَّد الله في الشخص المتواضع، لأنه يعرف ضعفه، ويثق في

---

[1] *Confessions 2:7:15.*

[2] *On Ps 126 (125).*

الله الذي يقيم من الضعيف بطلاً (راجع يؤ ٣: ١٠). لا يطلب المؤمن رؤى وصنع عجائب ومعجزات، إنما ما يشغله هو السلوك حسب الوصية الإلهية [٢٢-٢١].

كما يلزم للعين أن تُفتَح لكي تقبل النور [٢٥]، هكذا يليق بالعقل أن يُفتَح ليقبل الحكمة (أم ٢٨: ١٤).

أ. لا تقف الوداعة عند بعض كلمات أو تصرفات معينة، بل يليق أن تمتزج وتتجلَّى في كل أعمال المؤمن [١٧].

ب. لا يسعى المؤمن نحو الكرامة الزمنية، إنما يليق به كلما نال كرامة أو سلطانًا أو نجاحًا في أعماله يزداد تواضعًا حاسبًا ما يناله إنما هو عطايا مجَّانية من الله، فيجد حظوة لدى الرب، وكرامة حتى من البشر [١٨].

ج. يليق بالمؤمن ألا يرتئي فوق ما يرتئي (رو ١٢: ٣)، بل يتعرَّف على حقيقة قدراته وإمكانياته. فلا يطلب ما يتعذَّر عليه، ولا يبحث في الأمور الخفيّة بحوارات نظرية جدلية غير نافعة [٢١-٢٤]. عندما سُئل البابا أثناسيوس من شخص أن يريه إلهه ليؤمن به، أجابه: "أرني روحك، وأنا أريك إلهي!"

د. الحذر من السقوط في العناد العقلي.

يا بُنيَ اقضِ أعمالك بالوداعة،

فيُحبك الشعب الذين يرتضيه الربّ [١٧].

ازدد تواضعًا كلما ازددت عظمة،

فتنال حظوة لدى الرب [١٨].

إن كانت مخافة الربّ هي بدء الحكمة، فإن التشامخ هو بدء الحماقة. كان في ذهن ابن سيراخ ما فعله الكبرياء، ليس فقط بالأفراد بل وبالأمم، فسقط أشور ثم بابل ثم فارس. هذا وقد عاصر سقوط قرطاجة عام ٢٠١ ق.م.

التواضع هو النزعة اللائقة بخائفي الربّ الذين يكرمون والديهم. كلما نال الإنسان كرامةً، سواء على المستوى الكنسي أو العالمي، احتاج بالأكثر أن يُضاعِف تواضعه حتى يصير موضع سرور الله لا رضا الناس. كان رؤساء الأساقفة يخشون الكبرياء لئلا يفقدوا خلاصهم. فكان **القديس يوحنا الذهبي الفم** يُرَدِّد في أعماقه كما وسط الأساقفة قوله المشهور: "عجبي من أسقف يخلص!" في بداية الاحتفالات بسيامة البابا شنودة كان أحيانًا يفتتح كلمته بترديد ما قاله الذهبيّ الفم حتى لا تشغله كلمات المديح عن أبديته. عبارة أبينا المحبوب القمص بيشوي كامل هي: خادم التربية الكنسية هو

خادم أولاد سيده، والكاهن خادم الخدام أولاد سيدهم فكم يلزم أن تكون مشاعر الأسقف والبطريرك.

ما يحزن قلوبنا أن يظن الكاهن أنه رئيس الكنيسة وما يقوله يلزم طاعته بلا حوارٍ وهكذا بالنسبة للأسقف والبطريرك.

❖ كثيرًا ما يكون النظام الكنسي والعمل اللاوي علّة للسقوط في الكبرياء لمن ينسى أنه نال هذه الكرامة في حضن الكنيسة.

كم من رجال كهنوت إذ صاروا في الرأس نسوا أنه يلزمهم أن يكونوا متواضعين، كما لو أن سيامتهم أَعْفَتهم من التواضع. على العكس يلزمهم حفظ التواضع بدقةٍ، لأنهم يُمنحَون كرامة عظيمة هكذا حسب قول الكتاب: الأعظم فيكم فليكن الأكثر تواضعًا.

الجماعة تختارك، فلتحني رأسك بأكثر تواضعًا. لقد اختارتك كقائدٍ للآخرين، فلا تشعر أنك مُمَجَّد! كن بينهم كواحدٍ منهم (لو ٢٢: ٢٧). يلزمك أن تكون متواضعًا ووديعًا. اهرب من الكبرياء مصدر كل الشرور[1].

❖ يُحارِبنا الشرير ليس فقط لكي نفعل الخطية بإصرار...، وإنما لكي نتكبَّر ونشعر أننا كاملون. لكن الله يقاوم المستكبرين ويعطي نعمة للمتواضعين (أم ٣:٣٤؛ يع ٤:٦؛ ١ بط ٥:٥). لذلك كلما تتواضع ترتفع وتجد رحمة عند الله [١٨]...

من يحيد عن الوصية لا يتبعها ما دامت وصية الله مستقيمة. "**ملاعين الذين حادوا عن وصاياك**"، ليس فقط الذين لا يعملون بها، وإنما حتى الذين ينحرفون عنها ولو قليلاً.

العلامة أوريجينوس

❖ "يا رب لا يرتفع قلبي، ولا تستعلِ عيناي، ولم أسلك في العظائم ولا عجائب فوقي" (مز ١٣١: ١). لننطق بهذا في أكثر وضوح ويسمع لنا. إنني لست متكبرًا. لم أرد أن أكون معروفًا بين الناس بقواتٍ عجيبة، ولم أطلب شيئًا فوق قوتي. بهذا أفتخر بين الجهال... ليته لا يتكبر إنسان بعطية الله له، بل يحتفظ بالتواضع، فيُتَمِّم ما هو مكتوب: "ازدد تواضعًا كلما ازددت عظمة، فتنال حظوة لدى الرب" [١٨]. كم يلزم الخوف جدًا من الكبرياء بعطية الله. يلزمنا أن نضغط على أنفسنا أكثر فأكثر[2].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Homilies on Ezekiel 9:2.*

[2] *On Ps 131 (130).*

❖ ليكن مجدنا هو في التواضع، وفخرنا هو في عدم محبة المجد (الباطل). ولتكن شهوتنا هي في تلك الأشياء التي تسر الله وترضيه، واضعين في أذهاننا ما يقوله لنا الحكيم: "ازدد تواضعًا كلما ازددت عظمة، فتنال حُظوة لدى الربّ" (سي ٣: ١٨). لأنه يرذل المستكبرين، ويعتبر المتعجرفين كأعداء له. أما الودعاء ومتواضعو القلب فيُكَلِّلهم بالكرامات[١].

القديس كيرلس الكبير

لأن قدرة الرب عظيمة،

والمتواضعون يمجدونه [١٩].

لا تطلب ما يتعذر عليك،

ولا تبحث فيما يتجاوز قدرتك [٢٠].

يبلغ الكبرياء أقصاه حينما يتشامخ الإنسان خلال دراساته الفلسفية، ولا يضع في اعتباره أن عطية العقل هي من الله. ومع عظمتها الرائعة يدرك أنها محدودة لا تستطيع أن تتعرَّف على أسرار غير المحدود ولا عن خطته بدون التمتُّع بعمل نعمته الإلهية.

يليق بنا أن نبحث عن الحكمة وأن ننمو في معرفتها، دون أن نعتمد على الفكر العقلاني المُجَرَّد، فإن الله الذي يعتزّ بالإنسان بكونه سفيرًا له على الأرض لا يبخل عليه بالمعرفة، إنما يُقَدِّم له ما هو لبنيانه قدر إمكانيات الإنسان، كما يكشف له عن إرادته الإلهية.

الخطر الذي كان يخشاه سيراخ أنه قد تسرَّب إلى الأرض المقدسة، التهاون بكلمة الله وعدم المبالاة بإرادة الله، وذلك خلال الأفكار الهيلينية. هذا الجو خلق قادة يهود متشامخين بأفكارهم وتصرفاتهم.

❖ التأمل العميق في الحياة الصالحة والعناية بالروح ينجبان أناسًا صالحين ومُحِبِّين لله.

من يطلب الله يجده، وذلك بغلبته على كل الشهوات بالصلاة الدائمة. مثل هذا الإنسان لا يخاف الشياطين[٢].

القديس أنطونيوس الكبير

يُقَدِّم لنا **القديس أمبروسيوس** أريوس كمثال لمن يدَّعي أنه صاحب معرفة فيما تتجاوز القدرة البشرية.

---

[١] تفسير إنجيل لوقا، عظة ١٤٣. ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، ٢٠٠١، ص ١١٧-١١٨.

[٢] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٢٧.

❖ قيل لأريوس ولكل البشر: "لا تطلب ما يتعذر جدًا عليك". مُنِع موسى من رؤية وجه الله (خر ٣٣: ٢٣)، وظن أريوس أنه تأهَّل أن يراه في سرٍ... يتحدث بولس عن الأمور الدنيا: "لأننا نعلم بعض العلم، ونتنبأ بعض التنبؤ" (١ كو ١٣: ٩). أما أريوس فيقول: "أنا أعرف الله تمام المعرفة وليس بعض المعرفة". هكذا بولس أقل من أريوس. الإناء المختار يعرف بعض المعرفة، وإناء الهلاك يعرف كل المعرفة. يقول بولس: "أعرف إنسانًا... أفي الجسد لست أعلم، أم خارج الجسد لست أعلم. الله يعلم. أُختطف هذا إلى الفردوس، وسمع كلمات لا يُنطَق بها" (٢ كو ١٢: ٣-٤). حُمِل بولس إلى السماء الثالثة ولم يعرف نفسه، أما أريوس فيتمرغ في الدنس ويعرف الله.

بولس يقول عن نفسه: "الله يعلم"، وأريوس يقول عن الله: "أنا أعلم"[1].

القديس أمبروسيوس

تأمل في ما أُمرتَ به،
فلا حاجة لك إلى الأمور الخفية [٢١].

❖ ينبهنا الكتاب المقدس: "تأمل فيما أمرت به، فلا حاجة لك إلى الأمور الخفيّة" [٢٢]. "لا تطلب ما يتعذّر عليك، ولا تبحث فيما يتجاوز قدرتك" [٢١]. طبعًا لا نقدر أن نستخدم كلمات تنسب للروح القدس حب الاستطلاع الباطل. إنما يلزمنا القول فقط أن البحث في أمور الله الخفيّة هو نصيب من طبيعته[2].

القديس أبيفانيوس أسقف سيلاميس

❖ لا تطلب ما يتعذر عليك، ولا تبحث فيما يتجاوز قدرتك [٢٠]. لا يعني هذا أن هذه الأمور ممنوعة علينا، إذ يقول السيد: "ليس مكتوم لن يُستعلَن، ولا خفي لن يُعرَف" (مت ١٠: ٢٦). لكننا إن كنا نستمر في الطريق الذي تعهدناه كما يخبرنا الرسول، فالله ليس فقط يعلن لنا ما لا نعرفه ويجب علينا أن نعرفه، بل ويعلن أي شيء نهتم أن نعرفه (في ٣: ١٥).

الطريق الذي نتعهَّده هو طريق الإيمان. ليتنا نحفظه بدون تردُّد. ليدخل بنا إلى أسرار الملك الذي تختفي فيه كل كنوز الحكمة والمعرفة (كو ٢: ٣)...

يليق بنا أن نسير في تقدُّمٍ ونموٍ حتى تتأهَّل قلوبنا وتتقبَّل ما نحن عاجزين عن قبوله الآن.

---

[1] *Of The Christian Faith, Book 5, Ch. 19: 235 – 237.*

[2] *Ancoratus 12:3-4.*

وإذا وجدنا اليوم الأخير قد تقدمنا بما فيه الكفاية، عندئذ سنتعلم ما لا نستطيع هنا أن نعرفه[1].

القديس أغسطينوس

لا تتطفل في (بحث) ما جاوز أعمالك،

لأن ما كُشِف لك يفوق إدراك الإنسان [٢٢].

ما هو الذي يجاوز عملك؟ البحث فيما لا يمكن إدراكه، مثل جوهر الله أو حتى جوهر النفس البشرية.

❖ نقرأ في إشعياء عن المسيح: "من يقدر أن يخبر بجيله؟ (راجع إش ٥٣: ٨). إذ يتحدث النبي الطوباوي عن الله الكلمة يستخدم كلمة "جيل" عوض القول "جوهر" أو "كيان". بالحقيقة من يستطيع أن يُخبر عن كيان الابن الوحيد؟ وأيّة لغة تُوَضِّح ولادة الابن غير المنطوق بها من الآب؟ وأي عقل لا يقف لا حول له ولا قوة في وجه هذا المفهوم؟ بالحقيقة نحن نعرف ونؤمن أن الكلمة وُلِد من الله الآب. لكننا نقول إن إدراك أي تساؤل في هذا الأمر من الحوار خطير للغاية... يلزمنا ألا نبحث في الأمور التي تتجاوز عقلنا ومعرفتنا، ليس بالنسبة لنا وحدنا بل ولكل خليقة بما فيهم هؤلاء الذين هم أرواح[2].

القديس كيرلس الكبير

❖ لم يجعل الله كل الأشياء مُعلَنة لك، ولم يسمح أن تكون كل الأشياء غير معروفة لك. فإنه لا يسمح أن تكون كل الأشياء غير معروفة لك، لئلا تقول إن الأشياء الموجودة ليست من العناية (الإلهية). ولا يسمح كل الأشياء أن تكون معروفة لك، لئلا عظم معرفتك تثير فيك الكبرياء. هكذا على الأقل فإن الشيطان الشرير دفع الإنسان الأول إلى التهور عن طريق الرجاء في معرفة أعظم، مجردًا إياه من المعرفة التي كانت لديه بالفعل. لهذا ينصحنا الحكيم، قائلاً: "لا تطلب ما يتعذر عليك، ولا تبحث في الأمور التي تتجاوز قدرتك، بل تأمل ما أمرت به بوقارٍ، فإن الجانب الأعظم من أعماله تُصنَع خفية" (راجع سي ٣: ٢١ –٢٢)[3].

❖ "ما كُشف لك يفوق إدراك الإنسان" (سي ٣: ٢٢). لكن هذا يقوله لأجل تعزية الإنسان الحزين الثائر، لأنه لا يعرف كل شيءٍ. فإنه حتى هذه الأشياء التي يلاحظها (الإنسان)، والتي سمح له

---

[1] *Tractates on the Gospel of John 53:7.*

[2] *Commentary on the Gospel of John, 5:7:27.*

[3] *Concerning The Statues, Homily 12 : 7*

أن يعرفها تعظم جدًا فوق فهمك، إذ لم تستطع أن تبلغها بذاتك بل علّمك الله إياها. لهذا لتقنع بالغنى (في المعرفة) الذي أعطي لك ولا تطلب المزيد، إنما قدِّم تشكرات على ما تسلَّمت، ولا تغضب على الأمور التي لم تتسلَّمها. أعطِ مجدًا من أجل ما تعرفه، ولا تتعثر بسبب الأمور التي تجهلها. فالله جعل كليهما نافعين بالتساوي، وهو يعلن بعض الأمور ويخفي الأخرى لأجل سلامك[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

كثيرون أَضَلَّتهم استنتاجاتهم،
وافتراضاتهم الشريرة جعلت أفكارهم تنزلق وتسقط [٢٣].

القلب العنيد عاقبته الدمار،
والذي يعشق الخطر يهلك فيه [٢٤].

يرى **فيلجنتيوس** أن الحكيم يتحدَّث هنا عن الشخص الهرطوقي العنيد، لهذا يدعوه أن يرجع إلى الكنيسة الجامعة، التي فيها الحب الذي يستر على كثرة من الخطايا خلال عطية الروح القدس.

❖ **سؤال: إذا كان واحد سيسقط تحت ضرباتٍ كثيرة، بينما آخر تحت ضرباتٍ قليلةٍ (لو ١٢: ٤٧)، فكيف يقول البعض إن العقاب لا نهائي؟**

الإجابة: الأشياء التي قيلت بشكلٍ مُقَنَّعٍ وغامضٍ في مواضعٍ مُعَيَّنة في كتاب الله الموحى به، وضحت في عبارات صريحة في مواضعٍ أخرى. يُعلِن الرب مرة أن هؤلاء يذهبون إلى العذاب الأبدي (مت ٢٥: ٤٦)، ومرة أخرى أنه يرسل أشخاصًا إلى النار الأبدية المُعَدَّة لإبليس وملائكته (مت ٥: ٢٢)، ويضيف: "حيث دودهم لا يموت والنار لا تُطفَأ (مر ٩: ٤٨)، الأمر الذي قاله بحقٍ النبي منذ فترة طويلة: "دودهم لا يموت، ونارهم لا تُطفَأ" (إش ٦٦: ٢٤).

حيث أن الكثير من مثل هذه الأقوال موجود في كل موضعٍ في الكتاب المقدس المُوحَى به؛ هذه بالتأكيد إحدى استراتيجيات الشيطان؛ أن الكثير من البشر بتجاهلهم هذا الكلام القيِّم والذي له وزنه وإعلانات من الرب، يطمئنون أنفسهم بأن العقاب له نهاية، حتى يفعلوا الخطية بتبجحٍ شديدٍ. إذا كان هناك نهاية للعذاب الأبدي، عندئذ بكل تأكيد الحياة لن تكون أبدية.

الآن إذا كنا لا نتحمَّل التفكير بهذه الطريقة تجاه الأبدية، بأي مَنْطِق من الممكن أن نجعل للعذاب الأبدي نهاية؟ سِمَة "أبدي" مربوطة بشكلٍ متساوٍ بكلا العنصرين. لذلك يقول: "فيمضي

---

[1] *Concerning The Statues, Homily 12 :7*

هؤلاء إلى عذاب أبدي، والأبرار إلى حياة أبدية" (مت ٢٥: ٤٦).

من وجهة نظر الأقوال الصريحة، يجب علينا أن نفهم أن الذين يُضرَبون ضربات كثيرة، ومن يُضرَبون ضربات قليلة، لا يعني هذا نهاية العذاب، وإنما يشير إلى درجات مختلفة.

إذا كان الله ديَّانًا عادلاً، ليس فقط بالنسبة للصالحين، ولكن أيضًا بالنسبة للأشرار، "سيجازي كل واحدٍ حسب أعماله" (رو ٢: ٦)، لذلك يستحق شخص نارًا لا تُطفَأ، التي من الممكن أن تحرق بهدوءٍ أو ببطءٍ، ومن الممكن أن يستحق آخر الدود الذي لا يموت، وهذا يمكن أن يكون معتدلاً أو كثيرًا حسب ما يستحقه الشخص تمامًا.

وقد يستحق ثالث جهنم، التي بها نوع مُختلِف من العذاب، بينما آخر يستحق الظلام الخارجي (مت ٨: ١٢؛ ٢٢: ١٣؛ ٢٥: ٣٠) حيث أن كل ما فعله هو البكاء، وآخر يُعانِي من صرير الأسنان بسبب الألم المُبرِح. والظلام الخارجي يدل بالتأكيد على وجود ظلام داخلي أيضًا.

علاوة على ذلك قيل في الأمثال عن أعماق الهاوية (أم ٩: ١٨) مما يظهر أن بعضًا ممن في الهاوية ليس في أعماقها، وإنما يتلقُّون عذابًا أقل عوضًا عن ذلك.

من الممكن إيضاح هذا الآن مع الأخذ في الاعتبار حالة الجسم. قد يُعانِي أحد من الحمى مع أعراض وآلام أخرى، بينما يُعانِي آخر من الحمى لكن ليس مثل السابق. وبطريقة أخرى ثالث يختلف عن الشخص الأول لا يعاني من الحمى مريض لكن لديه ألم في أطرافه من الممكن أن تكون أكثر أو اقل.

الآن في الحالة الحاضرة الكثير والقليل مما قاله الرب تبعًا للأسلوب المُعتَاد بتعبيرات مختلفة. وبالنسبة لنا هذا الأسلوب في الحديث يتم تطبيقه على المُبتلَى بمرضٍ ما، وكما نقول مُتعجِّبين من جهة شخص يعاني فقط من الحمى أو من ألمٍ لاذع في عينيه: كم من الوقت كان يعاني، أو ما هي المتاعب التي يعاني منها.

مرة أخرى أقول إن العقاب بشدةٍ أو لينٍ لا يرتبط بإطالة أو تقصير الوقت، ولكن باختلاف العقاب[1].

القديس باسيليوس الكبير

القلب العنيد يثقل بالآلام،
والخاطئ يزيد خطيّة على خطيّة [٢٥].

داء المتكبر لا دواء له،

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 267.*

لأن نبات الشر تأصل فيه [٢٦].

يؤكد ابن سيراخ خطورة العناد، الذي يمسّ أعماق الإنسان قبل أن يظهر خلال السلوك، ينسبه للقلب كما للعقل. فإن كان ثمرة العناد الدمار والانحراف من خطيةٍ إلى خطيةٍ. يحسبه كجذر نبات مخفي لكن حتمًا يُقَدِّم ثمره المُرّ في الوقت المناسب، وبلا توقُّفٍ. هذا العناد لا علاج له بمجرد أخذ قرارٍ بشريٍ بالتوقُّف منه، إنما يحتاج إلى النعمة القادرة على تغيير القلب الغليظ والقاسي وتجديده (مر ٨: ١٧؛ عب ٤: ٧).

الإنسان العاقل يُفَكِّر في أحاديث الحكماء، ويجعل أذنيه مصغيتين إلى صوت الربّ، فيتمتَّع مع موسى النبي بالحضرة الإلهية حين اقترب إلى العليقة المُلتهِبة نارًا ولا تحترق، وتعرَّف خلال هذه الحضرة بسرّ تجسد كلمة الله. الإنسان الحكيم يترنَّم بروح التواضع مع المرتل قائلاً: "يَا رَبُّ لَمْ يَرْتَفِعْ قَلْبِي، وَلَمْ تَسْتَعْلِ عَيْنَايَ، وَلَمْ أَسْلُكْ فِي الْعَظَائِمِ، وَلاَ فِي عَجَائِبَ فَوْقِي. بَلْ هَدَّأْتُ وَسَكَّتُّ نَفْسِي كَفَطِيمٍ نَحْوَ أُمِّهِ. نَفْسِي نَحْوِي كَفَطِيمٍ" (مز ١٣١: ١-٢).

❖ لست متكبرًا: لا أود أن أكون معروفًا بين الناس بقواتٍ عجيبة، ولا أطلب شيئًا فوق قدرتي، أفتخر بها بين الجهال. وذلك مثل سيمون الساحر الذي أراد أن يتقدَّم في العجائب فوق قدراته، ولهذا سُرّ بالأكثر بسلطان الرسل عن برّ المسيحيين[1].

القديس أغسطينوس

قلب العاقل يتأمل في المثل[2]،
والأذن المصغية هي أمنية الحكيم [٢٧].

٥. الأسرة مدرسة العطاء

الحياة الأسرية المقدسة هي مدرسة للعطاء.

١. يتمتَّع صانع الإحسان ومُعطِي الصدقة بحنو الله غافر الخطايا، فيسلك في أمانٍ لأن ما يُقَدِّمه اليوم يسنده في المستقبل وسط الضيق (٣: ٣٠-٣١).

٢. يحثنا سيراخ ألا نتباطأ في الاهتمام بالمعوزين، فنمارس بنوتنا لله محب العطاء؛ ونكون موضوع حبه. محبة الله للمعطي أعظم من محبة الأم لابنها.

٣. من يتجاهل احتياجات المساكين يصير ضحية اللعنة الصادرة عن تنهُّداتهم.

---

[1] *On Psalm 131 (130).*

[2] *Parable.*

٤. يليق أن نحترم الكل: الوجيه والفقير!
٥. من يُوهَب سلطانًا، فليدرك أن السلطان وزنة ومسئولية ويستلزم أن ينصف المظلومين.
٦. الله أب اليتيم الذي بلا أبٍ، وقاضي الأرامل اللواتي ليس لهن من يدافع عنهن (مز ٦٨: ٦).

الماء يُطفِئ النار المُلتهِبة،
والصدقة تُكَفِّر عن الخطايا [٢٨].

يحسب ابن سيراخ الصدقة أشبه بسفيرٍ يتقدَّمه، يُهَيِّئ له الطريق إلى الله، كما يراها رصيدًا للمؤمن يسنده في وقت الضيق والشدة.

❖ بعد الصلاة بجهادٍ توجد حاجة إلى صدقات كثيرة، لأن هذه على وجه الخصوص تعطي قوة لدواء التوبة. وكما أنه يوجد دواء بين الأطباء يُصنَع من أعشاب كثيرة، لكن يوجد دواء واحد هو العشب الأساسي، نعم يُحسَب كأنه كل شيءٍ. لهذا أسمع ما يقوله الكتاب المقدس: "أعطوا ما عندكم صدقة، فهوذا كل شيءٍ يكون نقيًا لكم" (لو ١١: ٤١). وأيضًا: "بالصدقة وأعمال الإيمان تُطهَّر الخطايا" (أم ١٦: ٦ *LXX*). و"الماء يطفئ النار الملتهبة، الصدقة تكفر الخطايا العظيمة" (سي ٣: ٢٨)[1].

❖ ماذا يُقال للشخص الذي يثيره (فقير)؟ أن يحتمل ضعفات الغير، وأن يُصلح من شأن السائل قبل أن يُقَدِّم له العطية، وذلك بإبراز ملامح رقيقة له وكلمات لطيفة[2].

❖ يجلب الصوم لنا راحة ليست بقليلة، ويحرر من الخطايا المرتبكة، بشرط أن ينكب الشخص على الحنو بالآخرين، ويطفئ لهيب غضب الله (١ تي ٢: ١). لأن "الماء يطفئ النار الملتهبة، والصدقة تكفر الخطايا" (سي ٣: ٢٨)[3].

❖ لنستخدم كل وسيلةٍ لغسل الدنس. لكن أولاً الجرن يغسل، وبعد ذلك توجد وسائل كثيرة من كل نوع. فإن الله بكونه رحومًا قدَّم بعد ذلك (أي بعد المعمودية) طرق متباينة للصلح، بين هذه كلها الأولى هي الصدقة. يقال بالصدقة وأعمال الإيمان تكفر الخطايا" (راجع سي ٣: ٢٨)[4].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *On Hebrews, Homily 8: 9.*

[2] *On the Priesthood 3:16:4.*

[3] *On John, Homily 7:2.*

[4] *On John , Homily73 :*

يكشف سلفيان كاهن مارسيليا في القرن الخامس أن العطاء في ذاته لا يهب حياة أبدية، حتى وإن أوصى الشخص بتوزيع بكل ما لديه وهو على باب الموت، مالم يسلك في المسيح يسوع بالتوبة.

❖ لست أظن أن الغِنَى يساعد أحدًا إن كان يعيش على الدوام في ملذَّات الجسد، وأن ينال الحياة الأبدية، ما لم يقاوم الخطية حتى الموت؛ حتى إن أوصى بكل ما له وهو على باب الموت، ما لم يتخلَّى بالحقيقة عن خطاياه، ويخلع ثيابه الدنسة المملوءة بفسقه، ويرتدي ثوب التوبة والقداسة من يديّ الرسول الذي ينصحه (رو ٢: ٥)[1].

سلفيان كاهن مرسيليا

في إحدى مقالاته الأخلاقية يُقَدِّم **القديس كبريانوس** الصدقة وأعمال البرّ كطريقٍ آخر للغفران بعد مغفرة الخطايا في المعمودية.

❖ يتكلم الروح القدس في الكتب المقدسة ويقول: "**بالصدقة والإيمان يُستَر الإثم**" (راجع أم ١٦: ٦)، وأيضًا يقول: "**الماء يطفئ النار الملتهبة، والصدقة تكفر الخطايا**" (ابن سيراخ ٣: ٣٣) وهنا يوضح أنه كما تنطفئ نار جهنم بماء الخلاص، هكذا بالصدقات والبرّ يخمد لهيب الخطايا (بالنسبة للمؤمنين بدم السيد المسيح). فإذ تُوهَب في المعمودية مغفرة الخطايا مرة واحدة عن جميع الخطايا، فإن العمل المستمر بلا انقطاعٍ، تابعًا مثال المعمودية، يهب مراحم الله مرة أخرى.

علَّمنا الرب أيضًا بهذا في الإنجيل، لأنه عندما أُشِير إلى التلاميذ أنهم يأكلون بدون غسل أياديهم، أجاب قائلاً: "**الذي صنع الخارج صنع الداخل أيضًا. بل أعطوا ما عندكم صدقة، وهوذا كل شيءٍ يكون نقيًا لكم**" (لو ١١: ٤٠-٤١). إنه يُعَلِّم بغسل القلب لا الأيادي، وأنه بالأولى انتزاع دنس الداخل لا قذارة الخارج، وأنه متى تنقَّى الذهن، عندئذ يبدأ الإنسان في تنظيف جسده. وإذ ينصحنا بكيفية الاغتسال والتنقية قال بضرورة تقديم الصدقات.

يعلمنا ذاك الحنون ويحثنا على إظهار العطف. فإذ هو يبحث عن خلاص أولئك الذين قدَّم عنهم تضحية هذا مقدارها، أشار أيضًا إلى أولئك الذين بعدما نالوا نعمة العماد وصنعوا الخطية يمكنهم أن يطهروا من جديد[2].

الشهيد كبريانوس

❖ ينثر بعض الأزواج على مقابر نسائهم زهور بنفسجية وورود وزنابق وزهور أرجوانية ويهدئون من

---

[1] *Salvian the Presbyter of Marseilles (c. 400-c. 480): Against Avarice 1:8:39-40.*

[2] *The Treatises of Cyprian, Treatise 8 (10 in Oxford edition):2.* ترجمة المرحوم سامي عبد الملك

حزن قلوبهم بتأديتهم هذا الواجب اللطيف. عزيزنا باماخيوس *Pammachius* روى الرماد المقدس وعظام بولينا المكرمة، لكن الحقيقة ذلك ببلسان الصدقة. هذا هو المستحضر الحلو والأطياب التي بها يُخلد رماد زوجته الميتة مدركًا المكتوب: "الماء يطفئ النار الملتهبة، والصدقة تكفر عن الخطايا" [٢٨][1].

القديس چيروم

❖ لماذا يرث الأولون الملكوت؟ "لأني جعت فأطعمتموني". لماذا يذهب الآخرون إلى النار الأبدية؟ "لأني جعت فلم تطعموني".

إنني أسأل، ماذا يعني هذا؟ إنني أرى الذين يرثون الملكوت قد أُعطوا كمسيحيين صالحين ومؤمنين، غير محتقرين لكلمات الرب، لهم رجاء ثابت في المواعيد، لهذا صنعوا لأنه لو لم يصنعوا هكذا فإن ذلك العقم ما كان يتفق مع حياتهم الصالحة. فقد يكونوا طاهرين غير غاشين ولا سكيرين، حافظين أنفسهم عن كل أعمال الشرّ، ولكنهم لا يضيفوا إلى هذا أعمالاً صالحة فيبقوا عقيمين. لأنهم أرادوا أن يُحفَظوا بعيدين عن الشر، "ولكنهم لم يريدوا أن يحفظوا أنفسهم، ويصنعون الخير" (مز ٣٤: ١٤)، مع ذلك فلم يقل حتى لهؤلاء "تعالوا، رثوا الملكوت" لأنكم عشتم طاهرين ولم تغشوا إنسانًا، ولا ظلمتم فقيرًا، ولم تعتدوا على تخم أحد، ولا خدعتم أحدًا بقسم. إنه لم يقل هذا، بل قال "رثوا الملكوت، لأني جعت فأطعمتموني".

يا لامتياز هذه عن بقية (الفضائل) جميعها، لأن الرب لم يشر إلى الكل بل إليها وحدها! كذلك يقول للآخرين: "اذهبوا إلى النار الأبدية المُعَدَّة لإبليس وملائكته".

كم من الأمور يمكن أن يثيرها ضد الأشرار عندما يسألون: لماذا نذهب إلى النار الأبدية؟ لماذا؟ أتسألوا أيها الزناة والقتلة والمُخادِعين ومنتهكي حرمة المعابد مُجَدِّفين وغير مؤمنين. ومع هذا فلم يذكر واحدًا من هذه، بل "لأني جعت فلم تطعموني".

أراكم تتعجَّبون مثلي. وحقًا إنه لأمر عجيب. ولكنني سأجمع قدر ما استطعت أسباب هذا الأمر العجيب ولا أخفي عليكم شيئًا. لقد كُتِب "الماء يطفئ النار المُلتهِبة، والصدقة تكفر الخطايا" (حكمة يشوع ٣: ٣٠)، كما كُتِب أيضًا: "اغلق على الصدقة في أخاديرك، فهي تنقذك من كل شر" (حكمة يشوع ٢٩: ١٢)[2].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Letter to Pammachius*

[2] *Sermons on New Testament Lesson, 10: 9-10.*

❖ [في مدحه للقديسة باولا والدة استوخيوم]

اعتادت كثير من النساء المتزوجات أن يُقَدِّمن هدايا للمادحين (الضاربين بالأبواق). وبينما هن يصرفن بمبالغة على قلة، يغلقن أياديهن على الكثيرين.

كانت باولا متحررة تمامًا من هذا الخطأ. أعطت ما لها لكل أحدٍ حسب احتياجه، وليس حسب رغباتها الخاصة، إنما لسدّ الأعواز. لم يخرج فقير من عندها فارغ اليدين. كانت قادرة أن تفعل كل هذا، لا بسبب عظم غناها، وإنما بتدبيرها الرائع. كان على شفتيها دومًا مثل هذه العبارات: "طوبى للرحماء، لأنهم يُرحَمون" (مت ٥: ٧).

"الماء يطفئ النار الملتهبة، والصدقة تكفر الخطايا" (سي ٣: ٢٨). "اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم، حتى إذا فنيتم يَقْبَلونكم في المظال الأبدية" (لو ١٦: ٩). "أعطوا ما عندكم صدقة، فهوذا كل شيءٍ يكون نقيًا لكم" (لو ١١: ٤١)[1].

القديس جيروم

من يرُدّ المعروف بالمعروف يفكر في المستقبل،

وفي يوم سقوطه يجد سندًا [٢٩].

❖ أسألكم ألا ننطق بالشر ضد مُعَلِّمينا، ولا ندعوهم للمحاسبة في تزمُّتٍ، لئلا نجلب شرًا على أنفسنا. لنفحص أنفسنا، ولا ننطق بالشر على الآخرين. لنكرم ذلك اليوم الذي فيه استنرنا (بالمعمودية). من له أب، أيا كانت أخطاؤه لنكتم على جميعها. فقد قيل: "لا تفتخر بهوان أبيك، فإن هوان أبيك ليس فخرًا لك... إن فقد رشده أطل أناتك عليه" (راجع سي ٣: ١٠-١٣). إن كان هذا قد قيل عن آبائنا حسب الطبيعة، بالأكثر يكون بالنسبة لآبائنا الروحيين. كرّمه بكونه كل يومٍ يخدمك، ويقرأ لك الكتاب المقدس، ويُعد لك المبيت، فكل عبادته هي من أجلك[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

من وحي سيراخ ٣

قدِّس أسرتي كنيسة لك

❖ نزولك إلى أرضنا قدَّس كل حياتنا.

---

[1] *Letter 108 : 16*

[2] *On 2 Timothy, Homily 2.*

تُقِيم من قلبي هيكلاً مقدسًا لك، ومن أسرتي كنيسة خاصة بك،
بل ومن العالم كله سماءً جديدةً متهللةً بحضورك!
لك المجد يا من تعتزّ ببني البشر!

❖ تبث في كل قائدٍ روح الأبوة أو الأمومة نحو الغير.
فيعيش معتزًّا بإخوته الأصاغر. لن يتلقط لهم الضعفات أو الأخطاء،
بل يتعلَّم من كل شخصٍ ما يبني نفسه،
ويحسب وجوده بين البشر عطية إلهية بنَّاءة!

❖ ما يشغلني هو خلاص كل العالم.
أَترقَّب بروح الرجاء يوم لقاء الكنيسة معك على السحاب.
أرى البشرية المؤمنة كلها من آدم إلى آخر الدهور،
أعتزّ بكوني عضوًا في أسرتك التي طهرتها بدمك الثمين،
وقدستها بقيادة روحك القدوس لها.

❖ درِّبني مع كل إخوتي على لغة السماء ودستورها.
لينطق لساني بالكلمة العذبة للكبار والصغار،
ويلهج قلبي بالحب الحقيقي للصالح والطالح،
وتنطلق إرادتي في تناغم وخضوعٍ لإرادتك الإلهية.
أُقَدِّم التكريم لوالديّ ولإخوتي وأبنائي.
أرى الجميع وهم في الطريق يرتدون ثوب برّك.
ويدهش السمائيون لجمال عروسك البشرية.
يفرح السمائيون لأن صلواتهم عنا منذ الإنسان الأول قد أثمرت بهاءً وجمالاً للبشر.

❖ ليس ما يشغلني أن أدفن والدي عند موته (لو ٩:٤٩-٦٠)؛
أو أن أُوَدِّع أسرتي لكي ما أتبعك (لو ٩: ٦١-٦٢)؛
إنما أن ننطلق جميعًا في مسيرتنا إلى السماء بحضورك فينا!

❖ إن شاخ أحد أو أُصيب بفقد الذاكرة، أَترفَّق به، حاسبًا ما حلّ به قد يحلّ بي.
ما أَتعامل به معهم سيُرد ليّ يومًا ما. ما أُقَدِّمه لهم، إنما أُقَدِّمه لك يا محب البشر.

❖ نزلت يا أيها الرب المخوف إلى الأسرة البشرية.

صرت لنا نموذجًا للوداعة وتواضع القلب. لنتحدّ بك، فنتذوّق عظمة الوداعة في حياتنا الأسرية.
لم تتشامخ القديسة مريم بأنها المختارة الوحيدة كأمٍ لك.
لكن بتجسدك منها ازدادت تواضعًا بك. هب لنا كلما ازداد نجاحنا بنعمتك نسمو بأكثر تواضعٍ.
كلما نلنا كرامة في الأسرة أو الكنيسة أو العالم، زيّن نفوسنا بمضاعفة التواضع والوداعة.
ليدرك كل عضوٍ أن كرامته من كرامة إخوته.
لنتعلَّم من رئيس الأساقفة يوحنا الذهبي الفم الذي يخشى على نفسه من الكبرياء، فكان يُرَدِّد:
عجبي من أسقفٍ يخلص!
أيها الكاهن أنت أب البشرية كلها.
أيها الأسقف، ليس من أسقفية بدون شعبٍ!
هب لنا جميعًا هذا الفكر المملوء حبًا ووداعة وتواضعًا!

❖ كعضوٍ في الأسرة البشرية المقدسة، هب لي ألا أرتئي فوق إمكانياتي (٢ كو ١٢: ٦).
لا أطلب المعرفة العقلانية الجافة لأفتخر بها.
ولا أشتهي صُنع معجزة أو عمل آية فائقة.
اعترف بولس أنه يعلم بعض العلم، فهل أحسب نفسي صاحب معرفة وعلم؟!
أُختطف إلى السماء الثالثة، ويحسب نفسه أول الخطاة.
فماذا أدعو نفسي المسكينة؟!
هب لي أن تحفظني في الإيمان، ولا أطلب ما يتجاوز قدرتي.
لست أبحث في جوهرك الإلهي، إنما أرتمي في أحضانك.
لست أتساءل كيف تحققت ولادتك الأزلية،
لكنني أذوب حبًا لروح التبنّي الذي قدَّمته للمؤمنين!
لا تشغلني معرفة درجات السمائيين، لكنني أطير فرحًا بانضمامي في خورسهم العجيب.

❖ فيك وبك أَتمتَّع بعضويّتي الأُسرية.
أنت أب الأسرة الإلهي.
رأس كل الأسرة التي تضم الطغمات السمائية، وجماعة المؤمنين!
أشكرك على ما قدَّمته لي من معرفة عن أسرارك.
وأُسَبِّحك على ما تخفيه عنّي لأجل بنياني.

الأصحاح الرابع

الحكمة قانون الأسرة الجامعة المقدسة

بعد أن تحدَّث عن المخافة الإلهية كبدء الحكمة في علاقتنا بالله أبينا السماوي في الأصحاحين الأول والثاني، ثم تكريمنا للوالدين في حياتنا الأسرية المحدودة في الأصحاح الثالث، الآن في هذا الأصحاح يتحدَّث عن دورنا في المجتمع البشري بكونه الأسرة البشرية الجامعة. هذه الأسرة التي لا تقوم على رابطة الدم المحدودة، إنما على التمتُّع معًا بالشركة بالله القدوس. هذه **القدسية مصدرها نعمة الله**؛ وأبعادها أنها تضمّ البشرية كلها بغير محاباة لصاحب سلطان أو غني أو قريبٍ بالجسد. يشعر المؤمن الحقيقي أنه ابن العلي، يليق به أن يحمل سمات أبيه القدوس الرحيم السماوي.

في الأسرة الجامعة المقدسة نلتقي بعينات كثيرة، وبحكمةٍ ندرك مسئولياتنا نحو كل شخصٍ حسبما يليق به. يذكر ابن سيراخ عينات ممن نلتقي بهم:

١. الفقير أو المُعدَم، المحتاج إلى لقمة العيش [١].
٢. المسكين المحتاج إلى نظرات ترد له الرجاء [١].
٣. الجائع المحتاج إلى طعام [٢].
٤. اليائس المحتاج إلى من يرفعه بروح الرجاء [٢].
٥. المتضايق الذي يلزمنا ألا نتخلَّى عنه [٣].
٦. مرّ النفس الذي يجب ألا نتجاهله في ضيقه [٤].
٧. الإنسان صاحب السلطان الذي نخضع له [٧].
٨. المظلوم الذي لا نتركه، بل نقف بجانبه [٩].
٩. عدم المحاباة لإنسانٍ في القضاء [٩].
١٠. ليكن الإنسان في منزلة الأب لليتيم والمساند للأرملة، بهذا نعلن بالحق أننا أبناء العليّ [١٠].

بهذا فإن الحكمة وهي تربط المؤمن بالله واهب الحكمة، تربطه بأسرته الجامعة بروح الحب والتواضع والتقدير، تربطه بكل فئات المجتمع، فلا يتجاهل احتياجات المحرومين، كما يخضع للسلاطين من أجل الربّ. بهذا لا يعزل الإنسان نفسه عن المجتمع السماوي والأرضي، حتى وإن عاش في حياة الوحدة. فقد عاش إيليا النبي لا مسكن له، لكنه لم يعزل نفسه عن إخوته، ولا تجاهل خلاصهم واحتياجاتهم.

هنا يواجه ابن سيراخ بعض الفلاسفة الذين اعتزلوا المجتمع بروح التشامخ، واستخفُّوا بعقول الآخرين. بمعنى آخر يليق بالمؤمن الحكيم ألاَّ يعزل عقله عن عقول إخوته، ولا قلبه عن قلوبهم.

المؤمن الحكيم لا يتجاهل الأجيال السابقة ويجاهد من أجل الأجيال المُقبِلَة. فهو يُقَدِّر ما تسلَّمه من الأجيال القديمة من بركات، ويعمل ويتقدَّم ليساهم فيما ستتمتع به الأجيال القادمة.

بالحكمة لا يقسي المؤمن قلبه، فيدين الفقير والمتألم، وإنما يفتح قلبه له ويسنده ما استطاع.

١. مسئوليتنا نحو المحتاجين كما نحو العظماء [١-١٠]

٢. طريق الحكمة المجيدة [١١-١٩]

٣. قدسية الأسرة الجامعة والتحفُّظ من الشرّ [٢٠-٣١]

١. مسئوليتنا نحو المحتاجين كما نحو العظماء

"يا بُنيّ، لا تحرم الفقير من عيشه، ولا تُخَيِّب نظرات المسكين" [١]. جاء في الديداكية أو تعليم الرب للأمم بواسطة الاثني عشر رسولاً (٤: ٥- ٨) [لا تبسط يديك للأخذ، وتطبقهما عند العطاء (سي ٤: ٣١). إن كنت تملك شيئًا من تعب يديك، فقدم عتقًا عن خطاياك (بالعطاء). لا تتردَّد في العطاء، وإذا أعطيت فلا تتذمر، فستعرف من هو المُجازِي خيرًا. لا تصرف محتاجًا، اقتسم كل شيءٍ مع أخيك (أع ٤: ٣٨). ولا تقل إن لك مالاً خاصًا بك. فإن كنتم تقتسمون الخيرات الخالدة فكم بالحري الفانيات؟ (رو ١٥: ٢٧)]

١. تقديم العطاء للمعيشة وليس للترف والرفاهية [١].

٢. إن عجز المؤمن عن العطاء المادي، لا يُلقي باللوم على الفقير ويُوَبِّخه [٢].

٣. لا يُقيِّم العطاء بالكم والمال، وإنما بممارسته بفرحٍ، كما لا يماطل المحتاج [٣].

٤. يركز أنظاره لا على ما سيعطيه، وإنما على قلب المحتاج، حتى يتمتَّع الاثنان بالخلاص [٤].

٥. يعطي الفقير احتياجه، ويقدم الكرامة لمن لهم الكرامة [٧].

٦. يعطي المحتاج كلمة عذبة ترفع نفسيته [٨].

٧. يسلك المؤمن بغير محاباة لغَنِي أو صاحب سلطان [٩].

٨. كابن العلي يفتح المؤمن قلبه للكل مُتشبِّهًا بأبيه السماوي [١٠].

يا بُنيّ، لا تحرم الفقير من عيشه،

ولا تُخَيِّب نظرات المسكين [١].

عندما نلتقي بإنسانٍ فقير نذكر أن الله وهبنا الخيرات كوديعة نردّها له، وكأبناءٍ له نتشبَّه به

بالعطاء بسخاءٍ وندخل في صداقة معه ونلتصق به.

❖ ما الحاجة إلى ذكر فضائل هذه الصناعة ومآثرها؟ إنها **تُعَلِّمك كيف تصير شبيهًا بالله**، وهذا رأس كل الخيرات.

❖ الصدقة قويّة وذات سلطان حتى تحلّ القيود والأغلال، وتُبَدِّد الظلام، وتخمد سعير نار جهنّم، وتؤهِّل فاعليّتها **للتشبُّه بالله**، لقوله: "كونوا رحماء كما أن أباكم الذي في السماوات هو رحوم".

❖ تُصعِد الرحمة الإنسان إلى علوٍ شامخٍ، **وتعطيه دالة بليغة عند الله.**

فكما أن المَلِكَةَ متى أَرادتْ الدخول إلى موضع الملك، لا يجسر أحد من رجال البلاط أن يمنعها أو يسألها عن المكان الذي تريد الذهاب إليه، بل جميعهم يستقبلونها بابتهاجٍ، هكذا من يصنع الرحمة والصدقة يمتثل أمام عرش الملك بدون عائقٍ، لأن الإله يحب الرحمة حبًا شديدًا، وهي تبقى بالقُرْب منه، لذلك قال الكتاب: "قامت الملكة عن يمينك". وذلك لأن الرحمة مُفَضَّلة عند الإله، إذ جَعَلَته يصير إنسانًا لأجل خلاصنا.

❖ ليس شيء يجعلنا هكذا مقرَّبين من الله وعلى شبهه مثل هذا العمل الحسن!

القديس يوحنا الذهبي الفم

لا تُحزِنْ نفس الجائع،

ولا تُغضب الإنسان في يأسه [٢].

كما يليق تقديم الطعام للإنسان الجائع جسديًا، يلزمنا أن نُقَدِّم الرجاء للإنسان الذي يُحَطِّمه اليأس. عوض توبيخه على نظرته السوداوية المملوءة باليأس القاتل، نسنده بروح الرجاء واهب الفرح وسط الضيقات. نشهد لحنو المُخَلِّص غافر الخطايا مهما كانت خطايانا.

❖ **سؤال: هل يسقط في اليأس مِنْ خلاصه من أُصطيد في كثرة من الشرور، وأخطأ بعد عماده؟ أو ما هو المقياس الذي فيه لا يزال يستمر الإنسان في رجائه في محبة الله للبشر خلال التوبة؟**

الإجابة: إن أمكنك أن تُعادِل بين حنو الله الفائق أو ثقل عظمة رحمة الله وبين عدد الخطايا وثقلها فلا يوجد موضع لليأس. أما إذا كان من المعقول أن الأخيرة تخضع للقياس والعدد، بينما استحالة قياس رحمة الله أو إحصاء حنوه، فلن يكون لليأس موضع قط. وإنما بمعرفة الرحمة وإدانة الخطايا، توجد مغفرة في دم المسيح كما هو مكتوب (مت ٢٦: ٢٨).

غير أنه توجد أماكن وطرق كثيرة خلالها نتعلَّم أنه يلزمنا ألا نيأس. تأملوا على وجه

الخصوص مَثَّل ربنا يسوع المسيح بخصوص الابن الذي أخذ ثروة أبيه وبَدَّدَها في الخطايا. فمن كلمات الرب نفسه نتعلَّم ما هو نوع الوليمة وعظمتها التي تليق بالتوبة (لو ١٥: ٢٢-٢٤).

أَضِف إلى ذلك قول الله بإشعياء: "إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج، وإن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف" (إش ١: ١٨). هذا يتحقَّق متى كانت توبتنا تستحق ذلك، إن صدرت عن كراهيتنا للخطية، كما هو مكتوب في العهدين القديم والجديد، وتحمل ثمارًا لائقة بها[1].

القدِّيس باسيليوس الكبير

لا تزد القلب المغتاظ قلقًا،

ولا تؤجل عطيتك للمُعوز [٣].

تأجيل العطاء لمن هو بالحقيقة في ضيقٍ، يثير القلق في نفسه، فنضيف إلى عوزه المادي حرمانه من السلام الداخلي.

لا تردّ المتوسّل في ضيقه،

ولا تصرف وجهك عن الفقير [٤].

يتطلع المعوز لا إلى العطية التي تُقَدِّمها له فحسب، بل يتفرَّس في وجهك ليرى إن كان يراه أيقونة لله المعطي بسخاءٍ وسرورٍ.

❖ لا يكفي أن نُظهِر رحمة، وإنما يليق بنا أن نُقَدِّمها باتِّساع، بروح سمِحة، وليس فقط بروح سمِحة بل بروح فرحة مبتهجة... ركَّز (الرسول) على نفس النقطة بقوّة عندما كتب إلى أهل كورنثوس ليحثّهم على الاتساع، إذ يقول: "من يزرع بالشح، فبالشح أيضًا يحصد، ومن يزرع بالبركات فبالبركات أيضًا يحصد" (٢ كو ٩: ٦). ولكي يُصَحِّح مزاجهم يقول: "ليس عن حزنٍ أو اضطرارٍ" (٢ كو ٩: ٧)... فإنك إن حزنت وأنت تصنع رحمة، فأنت قاسي وعنيف.

إن كنت حزينًا كيف تقدر أن تسند من هم في حزنٍ؟...

هذا هو سبب قوله: "الراحم فبسرور"، لأنه كيف يكون حزين الملامح من يتقبَّل الملكوت؟!

من يبقى كئيب النظرة وهو ينال غفران خطاياه؟

إذن لا تُفَكِّر في إنفاقك المال (عمل الرحمة) بل في الفيض الذي تناله خلال الإنفاق. فإن كان الذي يبذر يفرح مع أنه يبذر وهو غير متأكد من جهة الحصاد، كم بالأكثر من يُفلح السماوات؟ فإنك تعطي إنما القليل لتنال الكثير... بالفلسيْن حُسِبتْ الأرملة أنها فاقت من قدَّم

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 13.*

وزنات كثيرة، وذلك بسبب روحها المتسع[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

لا تُحوِّل نظرك عن المحتاج،

ولا تُعطِ للإنسان فرصة أن يلعنك [٥].

يدعونا القديس مار يعقوب السروجي إلى استقبال السيد المسيح خلال لقائنا بالفقير والمعوز. ونحسب ما نُقَدِّمه من حبٍ واهتمامٍ، إنما نُقَدِّمه للسيد المسيح نفسه. إنها فرصة رائعة للتعبير عن تكريمنا للربّ نفسه.

❖ بأعمال البرّ هذه التي تعطيها له، يطلب منك أن تستقبله بسرورٍ.

إن كنت تعطيه كسرة الخبز، وكأس الماء، ليكن فكرك مبتهجًا وبحبٍ.

إنه ضعيف ومتعب ومتضايق ومعذب وقادم إليك، فأسكنه وأرحه، وقم اخدمه وأنت مسرور.

إنه معذب كثيرًا بالفقر ويحمل الأمراض، فاظهر له محبة عظمى لئلا يتضايق.

هل وقف كفقيرٍ على بابك؟ الله نفسه جاء عندك، فافتح له ببشاشةٍ حتى يدخل.

لو أنه دخل عندك بواسطة غني لكنتَ تخجل، فسوف لا تقدر على استقباله.

جاء وتفقدك بالتواضع والحقارة، وعندما تملأ بطنه خبزًا تجد الحياة.

أعطه مما هو ملكه، ولا تعطه مما هو ملكك، إذ ليس لك شيء لتقدمه له مما هو ملكك.

هو الذي جاء، وبواسطة الفقراء يطلب منك أن تتاجر بالملكوت في كل الأحوال.

أعطاك جسده، قدِّم له الخبز لأنه جائع، وتشرب دمه، خذ وقرِّب له شرابًا لأنه عطشان.

أعطاك أن تلبس الضياء والبهاء من الماء، فلا تمنع عنه الثياب الرثة والملابس الحقيرة.

كل ما تعطيه بواسطة الفقراء الذين يسألونك، فهو يكافئك بلباس النور في العالم الجديد[2].

القديس مار يعقوب السروجي

فإن من يلعنك بمرارة نفسه،

يستجيب خالقه دعاءه [٦].

قد يستخفّ الإنسان بالفقير خلال ملامح وجهه، أو طريقة اللقاء معه، وتئن نفس الفقير دون أن ينطق بكلمة، لكن خالقه يتطلَّع إلى مرارة نفسه في الداخل، ويتجاوب معها.

---

[1] *In Rom. hom. 21.*

[2] الميمر ٦٦ على شجرة معرفة الخير والشر وعلى الصدقات وعلى الفقر (راجع نص الأب بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

كن محبوبًا من الجماعة،

واخفض رأسك للإنسان العظيم [٧].

إن كان الكتاب المقدس بعهديه يهتم بلقائنا مع الفقراء ومساندتهم ماديًا وروحيًا ونفسيًا، فمن جانب آخر يلزمنا أن نُقَدِّم الكرامة لمن له الكرامة. "فأعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الجباية لمن له الجباية، والخوف لمن له الخوف، والإكرام لمن له الإكرام" (رو ١٣: ٧).

أمل أذنك إلى الفقير،

وأجبه كلام سلام بوداعة [٨].

إذ تجسد كلمة الله وحلّ بيننا كواحدٍ منا، دعانا أن نتعلَّم منه، قائلاً: "تعلَّموا مني، فإني وديع ومتواضع القلب" (مت ١١: ٢٩). يُقَدِّم لنا ابن سيراخ لمسات عملية لحياة الوداعة والتواضع ليعيشها المؤمن في أسرته الصغيرة كما في المجتمع بكونه الأسرة الكبرى.

أ. لا تقف الوداعة عند بعض كلمات أو تصرُّفات مُعيَّنة، بل يليق أن تمتزج وتتجلَّى في كل أعمال الإنسان [١٧].

ب. لا يسعى المؤمن نحو الكرامة الزمنية، إنما يليق به كلما نال كرامة أو سلطانًا أو نجاحًا في أعماله أن يزداد تواضعًا، حاسبًا ما يناله إنما هو عطايا مجّانية من الله، فيجد حظوة لدى الربّ، وكرامة حتى من البشر [١٨].

ج. يليق بالمؤمن ألا يرتئي فوق ما يرتئي (رو ١٢: ٣)، بل يتعرَّف على حقيقة قدراته وإمكانياته. فلا يطلب ما يتعذَّر عليه، ولا يبحث في الأمور الخفيّة بحوارات نظرية جدلية غير نافعة [٢١-٢٤]. عندما سُئِل البابا أثناسيوس من شخصٍ أن يريه إلهه ليؤمن به، أجابه: "أرني روحك، وأنا أريك إلهي!"

❖ لا تحط من لسانك... املأه بالبركة وتقديم الصدقة الكثيرة. فيمكنك أن تُقَدِّم صدقة حتى بالكلام. "فهكذا الكلام أفضل من العطية" (راجع سي ١٨:١٦). وأيضًا: "أمل إلى الفقير، وأجبه كلام سلام بوداعة" (راجع سي ٤: ٨)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ينصحنا الصوت الإلهي بلغة الأسفار المقدسة: "أكرم الرب من مالك" (أم ٣: ٩)... يقول الرب أن المالك هو أنت؛ ولكي لا تتكبَّر نفوسنا قال: "أوفِ دينك" (سي ٤: ٨ الفولجاتا)...

---

[1] *Homilies on Matthew, 51: 5.*

إن تكرَّس الإنسان يعطي (للفقراء) كما مما له، وإن لم يُكرِّس نفسه يُطلب منه أن يرد المال إلى مالكه الأصلي، كما لو كان الذي لديه ليس ملكًا له. لقد ثبت الله الشريعة بحقٍ، بالرغبة في العطاء إراديًا، أو بالدفع عن ضرورة. يريد الله أن يقول: "أعطِ إن أردت ذلك، وإلا فإنك ترد للمالك الأصلي عند الرفض للعطاء"[1].

سلفيان كاهن مرسيليا

أنقذ المظلوم من يد الظالم،

ولا تكن جبانًا في القضاء لصالحه [٩].

يليق بالمؤمن أن يدرك أن كل إمكانية لديه هي هبة من الله لحساب المجتمع ما استطاع، سواء كان مالاً أو مركزًا رئاسيًا أو سلطانًا أو قوة وصحة. تتحوَّل حياته كلها إلى آلات برّ لحساب ملكوت الله، فإن أُعطيت له فرصة لإنصاف المظلوم، ولكن في محاباته للظالم لسببٍ أو آخر لم ينصف المظلوم يُدَان على ذلك. لا يجوز له أن يحابي أحدًا بسبب قرابة دم أو بسبب مركزه الاجتماعي أو غناه أو جنسيته أو ديانته أو صداقته له، فالله محب لكل البشرية.

❖ يمكن القول لمن لديه سلطة: لماذا لا تعين الأرملة والأيتام عندما يحلّ بهم ظلم؟ هل أنت بلا قوة؟ أما تستطيع أن تسندهم؟ لقد أقمتك هكذا لهذا الهدف لا أن تخطئ، بل أن تمنع الظلم[2].

القديس أمبروسيوس

❖ يلزم أن تكون المحبة متساوية للجميع بغير محاباة... فإن من يسلكون هكذا لن تجد العلاقة الدموية مجالاً لتقديم حب أعظم بسبب الرباط الدموي كما في التعامل مع الأخ أو الابن أو الابنة حسب الجسد، فتقدم حبًا أعظم من أجل العلاقة الدموية عن المحبة للآخرين. من يتبع الطبيعة في هذه الأمور (أي محاباة الأقرباء) يقدم شهادة واضحة أنه لم ينسحب بعد من الطبيعة تمامًا، بل لا يزال خاضعًا لقانون الجسد[3].

❖ النزاعات غير اللائقة، والمحبة الخاصة متشابهان، كلاهما يجب إزالتهما من الدير. لأن العداوة تنشأ عن المشاحنات والصداقة الخاصة والانقسامات التي تنشأ عن الريبة والغيرة.

في كل مثالٍ فقدان المساواة (في التعامل) هو أصل وأساس كل حسدٍ وكراهية من جانب الذين

---

[1] *Against Avarice 1:5:27 etc.*

[2] *Duties Of The Clergy, Book 1, Ch. 16: 63.*

[3] *An Ascetical Discourse, (Frs. Of the Church, volume 9, p. 220).*

يُستخف بهم. لهذا تقبلنا أمر الرب أن نتمثل بصلاحه الذي يشرق الشمس على الأبرار والأشرار (مت ٥: ٤٥). فإن كان يهب نصيبًا من النور بلا محاباة للجميع، هكذا يليق بأتباعه أن يبعثوا بأشعة الحب ببهاءٍ متساوٍ على الجميع تمامًا.

لكن إن كان "الله محبة" (١ يو ٤:١٦) كما يقول يوحنا، فبالضرورة الشيطان هو الكراهية. وكما أن الذي له الحب له بالتبعية الله، هكذا من له البغضة يحتضن الشيطان داخله[1].

القديس باسيليوس الكبير

كن بمنزلة أبٍ لليتامى، وزوجٍ لأمهم،
فتكون كابن للعلي،
وهو يحبك أكثر من حبّ أمك لك [١٠].

ما يشغل قلب المؤمن لا كمية العطاء الذي يُقَدِّمه، وإنما في كل تصرُّفه يكون "**كابن العليّ**" يتمتع بشركة الطبيعة الإلهية (٢ بط ١: ٤).

❖ لنتطلَّع إلى الفقراء كمُحسِنين إلينا، قادرين أن يُقَدِّموا لنا مبدأً أساسيًّا لخلاصنا. ونعطي بسخاء وبروح الفرح دون أن نتلكَّأ في تقدمتنا، إنما نتحدث معهم بوقارٍ عظيمٍ، مُظهِرين وداعة عظيمة (سي ٤: ١٠) حتى قبل تقديم عطيتكم، فترفعون روحه من الكآبة بسبب الاحتياج الشديد، وذلك بكلماتكم الرقيقة. يقول الكتاب: "الكلام أفضل من العطية" (راجع سي ١٨: ١٦). فالحديث يستطيع أن يرفع الروح، ويعطي راحة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. طريق الحكمة المجيدة

تشخصن هذه القصيدة الحكمة (أي تنظر إليها كشخصٍ) فتحسبها كأمٍ والذين يطلبونها أبناءً لها. في البداية تسمح الحكمة لطالبها بالدخول في تجاربٍ حتى يتزكَّى، ويُعلِن عما إذا كان يختار الحكمة أم الجهالة. وإذ ينجح في التجربة، تُعلِن له الحكمة عن أسرارها، وكمُعَلِّمٍ إلهيٍ يقوم بالتعليم.

١. يبدأ المؤمن طريقه بالضيق في صحبة الله مُفرِّح القلوب وكاشف الأسرار الإلهية [١٧-١٨].
٢. يحرص ألاَّ تفارقه الحكمة وهو في طريقه نحو الأبدية [١٩].
٣. تُقَدِّم الحكمة في الطريق بركاتها، منها الآتي:

---

[1] *An Ascetical Discourse, (Frs. of the Church, volume 9, p. 221).*

[2] *Homilies on Genesis, FOTC, Vol. 74, p. 127-128.*

أ. الاعتزاز بالبنوة لله المجيدة [١١].

ب. محبة طريق المحبة والتبكير فيه [١٢].

ج. تذوق عربون المجد الأبدي [١٣].

د. ينهل المؤمن من القدوس روح القداسة والحب [١٤].

هـ. يشهد لله، فيدين الأمم [١٥].

و. ما يشغله اقتناء حكمة الله نفسه، فهو واهب العطايا، وفي نفس الوقت يُقَدِّم نفسه عطية [١٦].

الحكمة ترفع بنيها،

وتحتضن من يطلبها [١١].

إذ يُطلَب من المؤمن أن يكون في منزلة الأب لليتيم والوليّ للأرملة [١٠]، ربما يشعر بالعجز عن تحقيق ذلك بكل قلبه، لذا يطلب أن تقطن الحكمة فيه، فيحمل روح الأمومة أو الأبوة الروحية، بها يشتاق مقتنيها أن يرفع الآخرين كأبناء له مع التجاوز عن السن. بقلبه يحتضن المؤمن كل إنسانٍ بالحكمة الساكنة فيه. يمكننا القول إن الحكمة الأم *Mother Wisdom* أبعد ما يكون عن أن تعتزل الآخرين، فمن يطلبها تحتضنه، وتهبه من سماتها، وبدوره يحتضن هو قلوب الآخرين.

الذين يطلبونها: التمتُّع بالحكمة الإلهية ليس أمرًا جامدًا، إنما تتطلب النمو فيها، لذا يلزم أن نطلبها [١١]، ونُحِبّها ونُبَكِّر إليها [١٢]، ونملكها أي نعتزّ بها [١٣] ونخدمها [١٤] ونطيعها [١٥] ونلتفت إليها أو ننصرف إليها [١٥] ونثق فيها ونتكِّل عليها [١٦].

الحكمة التي يمدحها ابن سيراخ هي التي بحقٍ تستحق المديح، حكمة الله، أي المُخَلِّص، من يحبه يحب الحياة على مستوى أبدي. فالسيد المسيح هو حكمة الله وقوة الله (١ كو ١: ٢٤). إنه **يُعظِّم أبناءه المؤمنين به**، فيكشف لهم بروحه القدوس عن الأسرار الإلهية، ويهبهم النمو الدائم في المعرفة، ويملأ حياتهم بفرح البشارة الإنجيلية. من يحب حكمة الله المتجسد، يحب الحياة، إذ يحفظ وصاياه، فينال الحياة الأبدية (يو ١٢: ٥٠). أي يتمتَّع في العالم بعربون الحياة الأبدية، إذ يختبر حياة الفرح الداخلي الدائم. بهذا يتحقَّق فيه قول الحكمة: "طوبى للإنسان الذي يسمع لي ساهرًا كل يومٍ عند مصاريعي، حافظًا قوائم أبوابي، لأنه من يجدني يجد الحياة، وينال رضى من الرب" (أم ٨: ٣٤-٣٥).

من أَحَبَّها يُحِبّ الحياة،

والذين يُبَكِّرون إليها، يمتلئون بهجة [١٢].

الحكمة تفتح القلب بالحب كما تفتح العقل للفهم المقدس، فتعكس على المؤمن روح البهجة. تدعو

الحكمة الجميع لعلهم يقبلون الانتساب إليها، فيصيرون أبناء لها، يطلبونها فتضمهم إلى أحضانها الأبوية. في سفر الأمثال نرى الحكمة ترفع صوتها في كل موضعٍ، وتدعو الجميع (أم ٥: ١-٢١).

❖ في الوضع الأول بينما تدعو الحكمة كل أحدٍ، فإنها تدعو البسطاء أن يفهموا بتعقُّلٍ، وغير المُتعلِّمين أن يستخدموا قلوبهم، حتى يمكن للقارئ الغيور واليقظ أن يُقِيم معاني الكلمات المتميزة والمختلفة. إنها تعلم بأن كل الأمور يجب أن تُمارَس وتُفهَم وتُمتدَح وتُدرَك حسب مناهجها وخططها (السليمة)[1].

القديس هيلاري أسقف بواتييه

من مَلَكَها يرث المجد،

والربّ يبارك أي موضع تدخله [١٣].

❖ يشهد بولس أنه مُرسَل ليُعلِن عن حكمة خفية لم يعرفها عظماء هذا العالم، ولذلك يُنعَتون بالغباء. حكمة الله مخفية، لأنها ليست في كلماتٍ بل في قوةٍ. يستحيل إبرازها بتعبيراتٍ بشرية، وإنما يُعتقَد بها بقوة الروح. سبق الله فرأى خطايا العالم المُقبِلة ولذلك شرع هذه الحكمة بطريقة مربكة للذين يريدون أن يحولوا حكمته إلى غباوتهم، وأيضًا لكي يمجدنا نحن الذين نؤمن به[2].

أمبروسياستر

❖ يتمجَّد عمل الآب الذي يعم كل الوجود، ويعظم جدًا عندما يتقدَّم كل إنسانٍ **ويبلغ أعلى قامات النمو خلال الشركة مع المسيح "الحكمة" و"المعرفة" و"القداسة".**

يتحقَّق ذات الأمر عندما يتقدَّس الإنسان ويتطهر ويبلغ أعلى درجات الكمال خلال شركة الروح القدس، ومن ثم يصير أكثر استحقاقًا لنوال نعمة الحكمة والمعرفة، حتى تُزال عنه كل أدران الدنس والجهل، فيبلغ هذا التقدم بكمال وفي نقاوةٍ. بهذا تكون الحياة التي نالها من الله لائقة بالله، أي تكون طاهرة وكاملة. فيستحق المخلوق هذه الحياة (المقدسة) (التي على مثال الخالق)؛ لأن الإنسان التي يريدها له الخالق ينال منه القوة على الوجود أبديًا.

العلامة أوريجينوس

الذين يخدمونها يخدمون القدوس،

والذين يُحِبُّونها يُحِبُّهم الرب [١٤].

---

[1] *On the Trinity 12:44.*

[2] *CSEL 81:24.*

من يطيعها سيدين الأمم،

ومن انصرف إليها يسكن آمنًا [١٥].

الحكيم الذي يسلك بروح الحب والتواضع يتمتَّع بتمييزٍ حقيقيٍ، فيدرك سرّ سقوط الأمم وقيامها، فيعيش مطمئنًا. إنه يدرك كيف تنهار الإمبراطوريات العظيمة بسبب كبريائها، فيحرص على روح التواضع والتسليم في يد الربّ. سفر ابن سيراخ يتلامس مع التقليد اليهودي للنبوة الذي يعلن عما وراء الأحداث التاريخية. يلمس المؤمن أن الأحداث التاريخية لم تأتِ اعتباطًا، وإنما الله نفسه هو ضابط التاريخ بغاية تفوق الفكر البشري.

إن اتَّكل عليها يرثها،

وذريته تبقي على امتلاكها [١٦].

في البداية تسير معه في طرقٍ مزعجة،

فتجلب عليه الخوف والرعب،

تُعَذِّبه بتأديبها، إلى أن تثق بنفسه وتمتحنه بأحكامها [١٧].

الحكمة الإلهية هبة مجانية تُقَدِّمها نعمة الله للمؤمن، فتسمح للمؤمن أن يدخل في ضيقات حتى تتنقَّى نفسه، ويتعلَّم في طريق الألم في صحبة المصلوب، وبهذه الصحبة ينعم بالحياة المقامة في المسيح القائم من الأموات.

❖ **"إن لم ترجعوا، يصقِل سيفه".**

قوله هذا إنما هو للتهديد، ليحثّ المتباطئين في التوبة على الرجوع *conversion*. إنه لا يُهَدِّد في الحال بالجراحات والضربات والموت، إنما يصقل أسلحة مع إعدادٍ معينٍ كما للانتقام.

يشير بهذا العمل إلى الهجوم كما في حربٍ. لذلك تشتاق إلى وقف حركة الله نحو الانتقام، يقول الكتاب المقدس إنه يصقل سيفه، يحني قوسه، ويجعله مستعدًا، وفيه يُعدّ آلة الموت (مز ٧: ١٣). آلات الموت هي القوى التي تُحَطِّم أعداء الله.

"**يجعل سهامه ملتهبة**" **(مز ٧: ١٣)**. أوجد الخالق النار للمواد التي تحترق. بالتأكيد لم تُخلَق للفولاذ الذي لا ينصهر بالنار، إنما بالنسبة للخشب الذي يحترق، هكذا أيضًا أوجد الله السهام لأجل النفوس التي يمكن أن تلتهب...

هؤلاء إذن الذين قُبلوا مقدمًا، وتمسَّكوا في داخلهم بالأسهم النارية التي لإبليس، هم الذين يقبلون سهام الله. لهذا السبب "**يجعل سهامه ملتهبة**".

الحب الشهواني يحرق النفس، وهكذا شهوة محبة المال، والسخط الناري، والأحزان التي

تلهب النفس وتصهرها، والمخاوف الغريبة عن الله. من لا يُصب بسهام العدو، ويرتدي سلاح الله (أف ٦: ١١)، يبقى غير متأثِّر بالسهام الجالبة للموت[1].

القديس باسيليوس الكبير

ثم تعود إليه رأسًا وتُبهجه،
وتُعلِن له أسرارها [١٨].

تحدث ابن سيراخ عن الذين يريدون أن يقتنوا الحكمة أنهم يتعرَّضون أولاً إلى التمحيص والتهذيب، فإذا ما جازوا الامتحان بصبرٍ، تعود الحكمة إليهم وتهبهم نفسها وتصير لهم مُرشِدة، وتُقَدِّم لهم أسرارها، فيتمتعون بحياة الفرح الداخلي والسرور. يرى البعض في هذه الآية إشارة خفية إلى سقوط سليمان الحكيم غير أنه عاد وتاب عن خطاياه.

ثم تعود إليه رأسًا وتُبهِجه،
وتُعلِن له أسرارها [١٨].

وإن ضلّ تهجره، وتُسَلِّمه إلى هلاكه [١٩].

يرى البعض أن سليمان الحكيم يتحدَّث عن سقوطه على لسان الحكمة التي هجرته في سقوطه ثم عادت إليه عند توبته: "لأني دعوت فأبيتم، ومددت يدي وليس من يبالي. بل رفضتم كل مشورتي، ولم ترضوا توبيخي... إذا جاء خوفكم كعاصفة، وأتت بليتكم كالزوبعة، إذا جاءت عليكم شدة وضيق. حينئذ يدعونني فلا أستجيب، يبكرون إليّ فلا يجدونني. لأنهم أبغضوا العلم ولم يختاروا مخافة الرب. لم يرضوا مشورتي، رذلوا كل توبيخي. فلذلك يأكلون من ثمر طريقهم، ويشبعون من مؤامراتهم. لأن ارتداد الحمقى يقتلهم، وراحة الجهال تبيدهم" (أم ١: ٢٤-٣٢).

٣. قدسية الأسرة الجامعة والتحفُّظ من الشرّ

إذ يتحفَّظ المؤمن من الشرّ، يتجنَّب العار الذي ساد العالم الهيليني (٥: ١٣-٦: ١؛ ١٦:٣١-٤٢: ٨). يُمَيِّز ابن سيراخ بين العار الذي يجلبه الشرّ، والعار بسبب الوداعة الذي يقود إلى الكرامة. فلا يليق بالحكيم أن يتوقَّف عن النطق بالحكمة في الوقت المناسب خشية العار المزيف.

راعِ الوقت المناسب، واحتفظْ من الشر،
ولا تجلب العار على نفسك [٢٠].

---

[1] *Homily 11:7 on Psalm 7.*

يليق بالإنسان أن **يراعي الوقت المناسب**. الآن هي اللحظة التي تعيشها، وتعيها وتستطيع أن تأخذ القرار اللائق بك، وتنطلق لتحقيق القرار المصيري، أما اللحظة القادمة فهي ليست ملكًا لك، ولا تعلم هل ستكون في وعيك قادرًا على أخذ القرار السليم أم لا.

"**لكل شيء زمان، ولكل أمر تحت السماوات وقت**" **(جا ٣: ١)**. حياتنا بكل ظروفها وأوضاعها تسير حسب تدبير وخطة منظمة، فتتحقَّق مقاصد الله في الوقت المناسب. علينا أن نؤدي واجباتنا بأمانة في الوقت المناسب، وإن نتهيَّأ للمستقبل، لنرى خطة الله من جهتنا. خلق الله العالم من أجلنا بخطة رائعة، وفي الوقت المناسب أرسل الآباء والأنبياء وأعطانا الناموس، وفي الزمن المُحَدَّد تحقَّق الخلاص بالصليب، وبحكمة سماوية يهتم الله بكل صغيرةٍ وكبيرةٍ في حياتك، حتى عدد شعر رأسك لا يفلت من رعايته.

بمعنى آخر **تاريخ العالم كله وتاريخ حياتك أنت على وجه الخصوص** بكل دقائقها هي حلقات من الأحداث التي يُنَسِّقها الله. عليك أن تعيش بروح الأمانة، تعمل بكل طاقاتك، وتحيا بفرحٍ وسرورٍ واثقًا في الله مُدَبِّر حياتك، فإنك بذاتك لا تقدر أن تفعل شيئًا مهما كانت رغبتك ومهما تكن إمكانياتك.

يقول **العلامة أوريجينوس:** ["لكل شيءٍ زمان، ولكل أمر تحت السماوات وقت". يوجد وقت لجمع اللآلئ الحسنة، ووقت آخر بعد جمعها لاكتشاف اللؤلؤة الكثيرة الثمن، حين يليق بالإنسان أن يذهب ليبيع كل ما يملك ليشتري تلك اللؤلؤة. لأنه كما أن إنسانًا يُريد أن يصير حكيمًا بكلمات الحق يلزمه أولاً أن يتعلَّم المبادئ ثم يعبر بعد ذلك خلال التعليم الابتدائي الذي يُقَدِّره كل التقدير لكن لا يظل قابعًا عند هذا الحد، إنما يُوَقِّره في مستهل الأمر ثم يطلب الكمال. إنه يقر بالجميل من نحو ما تلقنه في بادئ الأمر، لأنه أفاده كثيرًا! هكذا يُفهَم الناموس والأنبياء بإتقان كامل أنه تعليم ابتدائي لإدراك الإنجيل كاملاً وإدراك معنى كل كلمات المسيح وأعماله[1].]

إن كان الله كخالقٍ محب للبشر "**صنع الكل حسنًا في وقته**" **(جا ٣: ١١)**، وكل ما خلقه صالح وبتدبير حسن، إلاَّ أنه **يرفعنا إلى ما فوق الزمن**... خضع للزمن لكي يرفعنا نحن إلى ما فوق الزمن، فقد "جعل الأبدية في قلبهم، التي بدونها لا يُدرَك الإنسان العمل الذي يعمله الله من البداية إلى النهاية" (جا ٣: ١١).

فمن الخجل ما يجلب الخطية،

ومنه ما هو مجد ونعمة [٢١].

يرافق القداسة الحياء المجيد، لا الخجل من الله المهلك [٢١]. لاحظ **القديس يوحنا الذهبي الفم**

---

[1] *Comm. on Matt. 2:2:10.*

في إحدى عظاته أن الحاضرين أقل من المعتاد، وإذ عرف أن السبب وجود وليمة طعام قبل الاجتماع، علَّق القديس على كلمات ابن سيراخ: "فإن من المخجل ما يجلب الخطية، ومنه ما هو مجد ونعمة" (٤: ٢١)، قائلاً: ليس من المخجل أن يشترك الإنسان في وليمة كلمة الله الروحية بعد اشتراكه في وليمة الطعام. فإن وليمة كلمة الله ليس لها زمن مُحَدَّد، يشترك فيها الإنسان سواء كان قد سبق فاشترك في الطعام أو كانت معدته فارغة. يقول الرسول بولس "أكرز بالكلمة، أعكف على ذلك في وقت مناسب وغير مناسب" (٢ تي ٤: ٢). هذا ويروي لنا لوقا البشير أن بولس إذ كان مزمعًا أن يمضي من ترواس في الغد أطال الكلام إلى نصف الليل، وكان أفتيخوس الشاب جالسًا في الطاقة متثقلاً بنومٍ عميقٍ، فسقط من الطبقة الثالثة (أع ٢٠: ٧-٩). تساءل **الذهبي الفم:** [هل كان الزمن يُمَثِّل مشكلة بالنسبة له؟ هل أعاقه الزمن عن متابعة كرازته؟[1]]

❖ "قد جعلت وجهك صلبًا مثل وجوههم، وجبهتك صلبة مثل جباههم" (حز ٣: ٨). كما أن الخجل جدير بالثناء عند مواجهة الشر؛ فإنه مُلام عند استخدامه فيما هو صالح. عندما يحمر الوجه خجلاً بسبب الشرّ، فهذا عمل الشخص الحكيم، أما احمرار الوجه خجلاً بسبب عمل الصلاح فهذا أمر فيه جهالة...

من يخجل تائبًا عن شر ارتكبه، يتمتَّع بحرية الحياة؛ ومن يخجل من صنعه الخير، يسقط من وضعه المستقيم (١ كو ١٠: ١٢)، ويميل نحو اللعنة. وكما يقول المُخَلِّص: "لأن من استحى بي وبكلامي، فبهذا يستحي ابن الإنسان متى جاء بمجده" (لو ٩: ٢٦).

يحمل البعض ما هو صالح في أذهانهم، لكنهم إذ هم غير واثقين فيها لا يستطيعون الدفاع عن الحق. من لا يخاف ولا يخجل أن ينطق بما يفكر فيه باستقامة، يقدر أن يدافع عن الحق[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ الخجل الذي يجلب خطية هو خجل الإنسان من أن يغير مَيلَه للخطية خشية أن يُتَّهَم بأنه متقلِّب الرأي أو لئلا يُحكَم عليه بشهادة نفسه أنه مخطئ[3].

القديس أغسطينوس

لا تظهر محاباة لأحد تضرّ به نفسك،

---

[1] *On the Incomprehensible Nature of God, FOTC, Vol. 72, p. 254.*

[2] *Homilies on Ezekiel 1:10:17.*

[3] *Letters, FOTC, Vol. 18, p. 103-106.*

ولا تكريمًا للغير يؤدِّي إلى سقوطك [٢٢].

في خدمة النفوس الساقطة يُطالِب **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن يلتزم خادم هذه النفوس أن ينحني ليمسك بيد الإنسان الساقط على الأرض ويرفعه. لكن يلزمه أولاً أن يُثَبِّت رجليه على الأرض كي يرفع أخاه من الأرض وهو في أمانٍ، ولا يسقط هو مع أخيه المُلقَى أرضًا.

لا تضنّ بكلمة في وقت الاحتياج إليها [٢٣]. كثيرًا ما حذَّرنا ابن سيراخ من زلة اللسان، ومن خطية الثرثرة أو الكلام البطال. هذا يدفع البعض إلى محاولة التدرُّب على الصمت. هذا التدريب الذي يلتزم به الأتقياء، إن أُستخدم في وقتٍ غير مناسب يصير صمتًا شريرًا. فعندما يشعر المؤمن بضرورة التكلم في وقتٍ مناسبٍ من أجل بنيان أخيه، يلتزم أن يتكلم. كما يوجد كلام شرير، يوجد أيضًا صمت شرير؛ وكما يوجد صمت مقدس يوجد أيضًا كلام مقدس. عمل الحكمة أن تهب المؤمن روح التمييز، فيعرف متى يتكلم ومتى يصمت.

❖ أنت هو الكلمة التي تعطي كلمة للمتكلمين، بك يتكلم جميع المتكلمين من أجلك.

شعاعًا وإشراقًا ونورًا عظيما أشرق فيّ فأنظر إليك. فبنظري لك تستضيء النفس فتقتني الصلاح.

وحين تبتعد منك النفس تمتلئ ظلامًا، وإذا ما تفرَّست فيك، لبست النور لتنطق بكلام خبرك... الصمت والكلام قائمان عليّ يطالباننني. يا رب دَبِّر حياتي كإرادتك.

إن صمت أدهش، إذ أشعر بعدم كفايتي (للكلام). اصمت في دهشة، وليس بطغيانٍ باطلٍ.

وإن تكلمت تكون كلمتي حسب مجدك ولأجلك.

عندما تمتلئ النفس بالصمت في دهشٍ بك، يكون هذا الصمت حديثًا مملوءًا بكل منفعة.

وإذا ما تحرَّكت النفس لتُمَجِّدك بمحبة... فبالحب أتحرَّك، وأتحرَّك لأُمَجِّدك. وفي دهشٍ أصمت ولا أهدأ من تمجيدك.

هب لي يا رب الدهش والكلمة فأغتني. وفي كل يومٍ أدهش، وفي كل يومٍ أتحرَّك بالكلام!

القديس مار يعقوب السروجي

❖ ضع يا رب حافظا لفمي، وبابا حصينا لشفتي" (مز ١٤١: ٣). لم يقل: "حاجزًا حصينًا، بل "بابًا حصينًا". فالباب يُفتَح كما أيضا يُغلق. فإن كان هذا بابًا، فليفتح ويغلق. يفتح للاعتراف بالخطية، ويغلق للغفران عن الخطية. فإنه باب للحصانة لا للتدمير[1].

---

[1] *St. Augustine: On Ps. 141.*

القديس أغسطينوس

❖ في الصمت ترى عقلك، ولكن عندما تستخدم عقلك، فإنك تتكلم في داخل نفسك. لأنه أثناء الصمت يلد العقل الكلمة، وكلمة الشكر التي تُقَدَّم لله هي خلاص الإنسان[1].

القديس أنبا أنطونيوس الكبير

في رسالة **لمار فيلوكسينوس** إلى الرهبان الآمديين، كتبها من منفاه، حثَّهم فيها على الجهاد من أجل الإيمان المستقيم، جاء فيها:

[الراهب الذي يسكت عن الإيمان مرائي لا يعرف الله...

الراهب الذي يكون مع كل أحد مثله (يتلوّن ويجاري كل واحدٍ) مرائي يلبس وجه شيطان.

الراهب الذي يلبس المسيح ويصمت عن الحق، فإن لباسه هو برص جيحزى.]

فالحكمة تُعرَف بكلمةٍ،

والتعليم بكلمة اللسان [٢٤].

لا تعترض قول الحق، بل تخزى بسبب جهلك [٢٥].

اللسان الصالح هو اللسان المقدس والذي تحت ضابط. الإنسان الحكيم لن يتنازل عن الحق، ولا يخشى أن يعترف بجهله [٢٥] أو خطيته [٢٦].

لا تستحِ أن تعترف بخطاياك،

ولا تقف أمام مجرى النهر [٢٦].

الحق يشبه مجرى غير متوقِّف [٢٥-٢٦]، فلا يتستر الإنسان على خطاياه. الاعتراف بالخطأ لا يُسَبِّب خزيًا، بل تجاهله في غباوة هو الخزي الحقيقي.

❖ وقعت القرعة على (يونان)، وصار خاضعًا للاتهام على أساس الحقيقة. ربما كان خائفًا، لكن بالحقيقة صار الاتهام واضحًا (وأكيدًا) باعترافه. لذلك فإن المشورة الحكيمة للذين يرغبون في حفظها هي: "لا تستحِ أن تعترف بخطاياك" (سي ٤: ٢٦)[2].

القديس كيرلس الكبير

❖ من الضروري أن نعترف بخطايانا للذين أُعطِي لهم تدبير أسرار الله. الذين أظهروا ندامة في

---

[1] ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ١٠٧ (الفيلوكاليا).

[2] *Homilies on Twelve Prophets, FOTC, Vol. 116, p. 156-157.*

القديم قدَّموها أمام القديسين. جاء في الإنجيل أنهم اعترفوا بخطاياهم ليوحنا المعمدان (مت ٣: ٦)، وفي سفر الأعمال اعترفوا للرسل الذين اعتمدوا بواسطتهم أيضًا (أع ١٩: ١٨)[١].

❖ حين تنشغل بخطيةٍ ما، كن مُتَّهِمًا لنفسك (أم ١٨: ١٧)، ولا تنتظر الآخرين أن يُقَدِّموا الاتهام. بهذا تصير أشبه بإنسانٍ بارٍ يتَّهِم نفسه في أول حديث له في المحكمة، أو تكون كأيوب الذي لم يَعُقه جمهور الشعب في المدينة عن الإعلان عن جريمته أمام الكل[٢].

❖ اعترفوا للرب بالعود، بربابةٍ ذات عشرة أوتار، رَنِّموا له" (مز ٣٣: ٣)

نبدأ بالاعتراف للرب بربابة، أي بتنظيم تصرفاتنا الجسدية، فإن كنا قد أخطأنا بجسدنا، عندما قَدَّمنا أعضاءنا أداة للخطية لنفعل الشر، ينبغي أن يعترف جسدنا بالخطأ باستعمال نفس الأداة لمحو الخطية (رو ٦: ١٩)

هل شتمت أحدًا؟ تكلم عنه خيرًا!

هل أَسأت استخدام سلطانك؟ رُد ما أخذت!

هل أرضيت شهوة بطنك؟ صُم!

هل تكبرت؟ تواضع!

هل رفضت أن تأخذ من أجل كرامتك؟ اسأل!

هل قتلت؟ احتمل آلام الاستشهاد أو ما يُعادِلها.

اكسر جسدك بالاعتراف العلني. بعد هذا الاعتراف العلني، تستحق أن تحمد الرب بربابة ذات عشرة أوتار.

ينبغي أولاً أن تُعالِج خطايا جسدك حتى تسير في تناسقٍ وتناغمٍ نحو الكمال من خلال كلمة الله، وترتفع إلى أن تُعايِن الخيرات الروحية. فالنفس التي تبحث عن الخيرات السماوية تُدعَى ربابة، ولها شكل الربابة حيث تصدر الأنغام عن جزئها العلوي، وأعمال الجسد تعترف لله من أسفل، ولكن الأسرار التي تُكشَف للمعرفة فتأتي من فوق وفي النفس صدى الروح.

الذي يعمل بكل الوصايا يُكَوِّن منها سيمفونية جميلة. فهو يُغَنِّي لله على ربابة ذات عشرة أوتار، إشارة إلى الوصايا العشرة المكتوبة في الشريعة[٣].

القديس باسيليوس الكبير

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 288.*

[2] *On Humility.*

[٣] تفسير المزمور ٣٣ (٣٢).

ما هو موقفنا ممن لا يدينه ضميره (فلا يعترف بخطاياه)؟

❖ **سؤال: ماذا إن قال (الشخص): "إن ضميري لا يدينني"؟**

الإجابة: يَحْدُث نفس الأمر أيضًا بالنسبة للأمراض الجسدية. إذ توجد أمراض كثيرة لا يُدرِكها من يُصَاب بها. ومع ذلك يثقون في تشخيص الطبيب أكثر من عدم شعورهم الشخصي بالمرض. هكذا أيضًا بالنسبة لأمراض النفس، أي الخطايا. إن كان أحد غير مُدرِكٍ لخطيته، فلا يدين نفسه، إلا أنه يجب أن يثق في هؤلاء الذين يستطيعون أن يروا حالته بأكثر وضوحٍ. هذا يُوَضِّحه الرسل القديسون الذين مع اقتناعهم بنزعتهم الصادقة نحو الرب، غير أنهم إذ سمعوا: "إن واحدًا منكم يسلمني" (مت ٢٦: ٢١)، فَضَّلوا أن يثقوا في كلمة الرب، وأذعنوا لقوله، قائلين: "هل أنا هو يا رب؟" (مت ٢٦: ٢٢).

أما القديس بطرس فيُعَلِّمنا بأكثر وضوح، فمع أنه في غيرة تواضعه رفض خدمة سيده وإلهه ومُعَلِّمه (أن يغسل قدميه)، إذ سمع كلمات الرب: "إن كنت لا أغسلك، فليس لك معي نصيب" (يو ١٣: ٨)، اقتنع بالحق كما ورد في الكلمات، وقال: "ليس رجليّ فقط، بل أيضًا يديّ ورأسي" (يو ١٣: ٩)[1].

القدّيس باسيليوس الكبير

لا تُخضِع نفسك[2] لإنسان أحمق،

ولا تحابِ وجه حاكمٍ [٢٧].

حسن أن يسلك الإنسان بروح التواضع، لكن من أجل اهتمام المؤمن بخلاصه وخلاص إخوته يلزمه ألاَّ يسلم قيادة حياته في يد أحمقٍ، يُفسد رسالته، ويدخل به في متاعبٍ؛ كما يثير في الأحمق روح الكبرياء وعدم مراجعته لجهالاته.

روح التواضع لا يعني الخنوع لأي قائد مهما كان دوره على حساب المحتاجين والمظلومين.

جاهد عن الحق حتى الموت،

والرب الإله يُقاتِل عنك [٢٨].

يحثنا الحكيم على الجهاد (الروحي) من أجل الحق حتى الموت [٢٨]. ومن يبذل حياته من أجل الحق، يقاتل الربّ لحسابه. **فلا يخجل من الشهادة لإيمانه**، مهما كانت التكلفة.

❖ "جاهد عن الحق حتى الموت" (سي ٤: ٢٨). من ذات الكنوز الروحية تُصنَع أكاليل الشهداء عن

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 301.*

[2] *Yourself.*

الحق، لتوضع على رؤوسهم، وذلك مع كل من يشترك في المعارك الروحية، فيطأ (المؤمن) على الذين يشعلون النزاعات والذين يُعرفون بولاة العالم والسلاطين على ظلمة هذا الدهر وأجناد الشر الروحية (أف ٦: ١٢؛ سي ٤: ٢٨؛ نش ٣: ١٠)[١].

القديس ديديموس الضرير

❖ يُتوَّج المشترك في الألعاب الأولمبية لا بانتصاره على لاعبٍ أو اثنين أو ثلاثة، بل بعد انتصاره على جميعهم. هكذا من يرغب في أن يُكَلِّله الله يلزمه أن يتعلَّم العفة، لا من جهة الشهوات الجسدية فحسب، بل وينتصر عند تجربة محبة المال والرغبة في التعلُّق بما ليس له، والحسد ومحبة اللذات والمجد الباطل واتهامه بأمور ذميمة وعندما تحلّ به مخاطر مميتة وما إلى ذلك[٢].

❖ ليتنا نجاهد في الحياة الصالحة والحياة المحبة لله، لا لأجل مديح الناس، بل لأجل خلاص نفوسنا. لأن الموت ماثل أمام أعيننا كل يومٍ، ولأن كل ما هو بشري غير مستقر[٣].

القديس أنطونيوس الكبير

يُمَيِّز القديس أغسطينوس بين ثلاثة أنواع من الشهود للسيد المسيح.

❖ هذه الثلاث فئات هي:

الفئة الأولى تضم من يؤمن بالمسيح، وبصعوبة يهمس باسمه.

والفئة التالية من يؤمن بالمسيح، ويعترف علانية.

والثالثة من يؤمن بالمسيح ويعترف به، وهو مستعد أن يموت من أجل المسيح.

الأول ضعيف وخجله يقوم على خوفه، والثاني يحمل وجهه الشجاعة ولكن ليس إلى سفك دمه، الثالث له كل القوة ولا ينقصه شيء يشتهيه؛ إنه بالحقيقة كما ما هو مكتوب: "جاهد عن الحق حتى الموت" [٢٨]

القديس أغسطينوس

يرى **العلامة أوريجينوس** في طقس خيمة الاجتماع أو الهيكل وجود مذبحين، أحدهما منظور والآخر غير منظور. المذبح المنظور هو المذبح النحاسي الذي تُقدَّم عليه ذبائح المُحرَقة، إشارة إلى جهادنا الروحي من أجل الحق الإلهي حتى الموت. فإن كان مسيحنا قدَّم جسده مبذولاً حتى موت الصليب، إنما نُصلَب نحن معه، ونمارس إماتة الجسد خلال محرقة الحب الخالص. أما المذبح

---

[1] *Commentary on Zechariah, FOTC, Vol. 111, p. 117-120*

[٢] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٧٣.

[٣] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٧٤.

الخفي فيدخل إليه رئيس الكهنة في قدس الأقداس الذي يشير إلى السماء والدخول إلى العرش الإلهي.

هكذا يُقَدِّم لنا **العلامة أوريجينوس** تفسيرًا رمزيًا لذبيحة المُحرَقة في أعماقه الداخلية كرمزٍ لإماتة الجسد خلال روح الله القدوس الناري، حيث يجحد كل شيءٍ من أجل الحق الإلهي والحب، حاملاً الصليب كسيده بفرحٍ ومسرةٍ، نقتطف منه التالي:

❖ كل واحدٍ منا أيضًا له نفسه ذبيحة مُحرَقة كاملة، وهو نفسه يضيء المذبح الذي لذبيحة المُحرَقة الكاملة حتى تحترق.

إن كنت أجحد كل ما لدي (لو ١٤: ٣٣)، وأحمل صليبي، وأتبع المسيح (مر ٨: ٣٤)، أُقَدِّم ذبيحة مُحرَقة كاملة على مذبح الله. أو إذا سلَّمت جسدي حتى الاستشهاد، أُقَدِّم نفسي كذبيحة مُحرَقة كاملة على مذبح الله.

إن كنت أحب إخوتي، فأبذل حياتي عن إخوتي (١ يو ٣: ١٦)، إن كنت من أجل البرّ والحق أجاهد حتى الموت (سي ٤: ٢٨)، أُقَدِّم ذبيحة مُحرَقة كاملة على مذبح الله.

إن كنت أميت أعضائي عن كل شهوة للجسد (كو ٣: ٥)، إن كان العالم قد صُلِب لي وأنا للعالم (غل ٦: ١٤) أُقَدِّم ذبيحة مُحرَقة كاملة على مذبح الله، وأصير أنا نفسي كاهنًا للتقدمة[1].

❖ أنت أيضًا لك عجل يجب أن تُقَدِّمه. هذا العجل الجموح هو جسدك، إن أردت أن تُقَدِّمه للربّ تقدمة فاحفظه زاهدًا ونقيًا، قده إلى باب خيمة الاجتماع حيث تستطيع أن تسمع قراءة الكتب المقدسة هناك.

لتكن تقدمتك ذكرًا... فلا يكون فيها شيء من التدليل أو عدم الحزم.

ضع يدك على المُحرَقة حتى تكون رضا للرب، واذبحها قدام الرب، بمعنى أن تضع ضوابط للعفة ولا تترك قمع الجسد، بل كن كذاك الذي وضع يده على جسده حين قال: "أقمع جسدي وأستعبده حتى بعدما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضًا" (١ كو ٩: ٢٧).

اذبحه أمام الرب ولا تتردَّد في إماتة أعضائك (كو ٣: ٥)...

ليكن في داخلك كاهن وأبناؤه، أي الروح الذي فيك وحواسه، إذ خلالهم يكون فهم للرب وإدراك للعلم الإلهي. إذن لتُقَدِّم جسدك للرب بالزهد لكن مع فهمٍ روحيٍ، كقول الرسول: "ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية" (رو ١٢: ١)...

إذ يُقَدِّم البعض أجسادهم مُحرَقة لكن كما بغير كاهن، أي بغير ملء المعرفة... هؤلاء

---

[1] *On Leviticus, Homily 9 : 9 : 4*

يخزون، إذ يطلبون المجد البشري (في زهدهم)، أو يتدنسون بشهوة الطمع أو بارتكاب خطأ الحسد أو الحقد أو يضطربون بهياج الكراهية أو قسوة الغضب. هؤلاء يمارسون زهد الجسد لكنهم يُقَدِّمون مُحرَقة بلا كاهنٍ، أي بلا فهمٍ ولا إدراكٍ، فيُحسَبون من الخمس عذارى الجاهلات اللواتي كن بالحقيقة زاهدات في الجسد كعذارى، لكنهن لا يعرفن كيف يضعن زيتًا في آنيتهن، أي زيت المحبة والسلام مع بقية الفضائل. لهذا طُرِدن من حجال العريس (مت ٢٥)... أما نحن فيليق بنا مع زهد الجسد أن نكون أنقياء الروح... فنتأهَّل للتشبُّه بالمسيح الذبيح[1].

❖ الشخص الذي لم يصر بعد روحيًا بل هو جسداني، تهزمه أيّة (رذيلة)، حتى بغير إرادته. لأن إرادته ليست بعد قوية ومفعمة بالحيوية بما فيه الكفاية حتى تُقَرِّر في داخلها أن تلتزم بالجهاد حتى الموت من أجل الحق (سي ٤: ٢٨). هذا النوع من الإرادة لا يقول: نعم نعم ولا لا (مت ٥: ٢٧). بهذا لا تقدر أن تعمل ما تريده، بل ما لا تريده... لأن المسيح لم يسكنه بعد (رو ٨: ١٠) ولم يصر جسده هيكلاً لله (١ كو ٣: ١٦؛ ٦: ١٩)[2].

❖ إني أُقَدِّم تقدمة مُحرَقة كاملة على مذبح الله إن وضعت أعضائي للموت عن كل شهوةٍ للجسد؛ إن صُلِب العالم لي وأنا للعالم (غل ٦: ١٤). أُقَدِّم مُحرَقة كاملة على مذبح الله، وأصير أنا نفسي كاهن لتقدمتي[3].

العلامة أوريجينوس

❖ "لكل كمالٍ رأيت حدًا، أما وصيتك فواسعة جدًا" (مز ١١٩: ٩٦). إذ دخل مقادس الله، أدرك الآخرة (مز ٧٣: ١٧). الآن فإن كل النهاية تقترب مني في هذا الموضع لتُعينني على الجهاد عن الحق حتى الموت (سي ٤: ٢٨)، واحتمال كل شرٍ من أجل الصلاح الحقيقي الرئيسي. النهاية هي بالسمو في ملكوت المسيح الذي بلا نهاية، هناك حيث لا موت ولا ألم، بل حياة مُكَرَّمة تتحقَّق بالموت عن هذه الحياة واحتمال الأحزان والخزي[4].

القديس أغسطينوس

لا تكن فظًّا بلسانك،

ولا رخوًا كسولاً في أعمالك [٢٩].

---

[1] *In Lev. hom. 1:5.*

[2] *Commentary on Rom., FOTC. Vol. 104, p. 38-39.*

[3] *Homilies on Leviticus FOTC, Vol. 83, p. 196-197.*

[4] *On Ps 119*

يليق بالمؤمن ألاَّ يتسرَّع في الكلام، إنما يفحص الأمور بتأنِّي قبل أن ينطق برأيه. ومن جانبٍ آخر لا يجوز له التباطؤ في العمل في توانٍ.

لا تكن كالأسد في بيتك،

ولا تكن سخرية بين خدامك [٣٠].

لا يليق بالمؤمن أن يُمارِس العنف في بيته، إذ لا يَقْبَل أحد أن يعيش في جب أسود.

لا تبسط يدك للأخذ،

وتقبضها عن الإيفاء [٣١].

يلزم بسط اليد للعطاء لا للأخذ [٣١]. ليعرف المؤمن متى يحفظ يده مبسوطة ومتى يقبضها.

❖ يشارك البعض في الرأس (بخصوص حَمَلِ الفصح)، وآخرون في الصدر، وآخرون في الجوف، وآخرون في الفخذ، وآخرون حتى في الأقدام، حيث لا يوجد الكثير من اللحم. كل واحدٍ يشارك بحسب طاقته. ونحن إذ نشترك في جزءٍ من الحَمَلِ الحقيقي بما يتفق مع مقدرتنا على المشاركة في كلمة الله. فالبعض منا **يشارك في الرأس**، وإذا شئنا في جزء منها، مثلاً في الآذان، حتى إذ يصير لهم آذان يمكنهم سماع كلماته (راجع مت ١١: ١٥؛ ١٣: ٩، ٤٣).

والبعض **يذوق الأعين**، فينظرون جليًا (راجع مز ٣٤ [٣٣]: ٩؛ عب ٦: ٤-٥)، فلا يصطدم بحجر رجله (راجع مز ٩١ [٩٠]: ١٢، إر ١٣: ١٦؛ مت ٤: ٦؛ لو ٤: ١١).

أما من **يذوق الأيدي** فهم العاملون (راجع يو ٩: ٤)، الذين ليس لهم بعد أيادي مسترخية (عب ١٢:١٢)، مقبوضة عن العطاء (سي ٤: ٣١)، أولئك الذين يتقبَّلون تصحيح مسارهم قبل أن يحلّ عليهم غضب الرب (راجع مز ٢: ١١).

ويتكئ آخرون على **الصدر** (يو ٢٥:١٣)، فيتعرَّفون من خلال ذلك الغذاء عمن خانوا المسيح (راجع يو ١٣: ٢١-٢٦)[1].

العلامة أوريجينوس

---

[1] *Peri Pascha 30-32 (Translated by Robert J. Daly - ACW.*

قُدني كابنٍ لك وسط إخوتي!

❖ ما أعذب وصيتك لي؛ أن أحب قريبي كنفسي.
وما أعظم قوة نعمتك، فهي تقودني للعمل بالوصية بروح الفرح والتهليل.
أسلك بروحك القدوس كسفيرٍ لك.
خلقتَني عضوًا في الأسرة التي تضمّ كل البشرية.
أنتفع بخبرات الأجيال السابقة، وأتلامس مع معاملاتك العجيبة معهم.
ولا أعتزل إخوتي في الجيل الحاضر،
بل بالحب أَحتضن الكل بروح البهجة،
أشعر باحتياجي إلى كل إنسانٍ،
مع التزامي أن أعمل مع الجميع حسب قدراتي!
أتطلع إلى الأجيال القادمة وأتساءل:
ماذا أفعل لأبنائي وأحفادي القادمين عبر العصور المُقبِلة؟

❖ إذ ألتقي بالفقير المحتاج الذي تحسبه أخًا لك، وأنت خالق السماء والأرض،
أبسط يدي للعطاء مما وهبتني.
أشعر بالحياء، لأنني أُقَدِّم لك القليل مما أعطيتني.
كل ما في يدي فهو من بركاتك وعطاياك.

❖ هب لي الكلمة العذبة مع العطاء، التي بها أُفَرِّح كل القلوب.
العالم كله محتاج إليك وإلى عذوبتك وحنوك!
أنت كنزي الثمين، كلما قدَّمتك لإخوتي، تتجلَّى بالأكثر في أعماقي.

❖ لأسلك بروحك القدوس، فأبسط يديّ للكل،
بل وأفتح قلبي خاصة للمتألمين والمحتاجين والمظلومين وللذين ليس لهم من يسأل عنهم،
ولا يتسلَّل عدو الخير إليّ، فيدفعني إلى المحاباة.
لأَتشبَّه بك، فقد وهبتني روح البنوة.
صرتُ في أعين السمائيين ابن العليّ.
فلا تسمح لأحد أن تتمرَّر نفسه بسببي،

إذ أشتهي أن تُقِيم ملكوتك في قلب كل إنسانٍ.
هب لي روح التواضع، فأُقَدِّم الإكرام لمن له الإكرام في غير محاباة.

❖ لتقودني في طريق الحكمة الضيق،
أحمل معك صليبك، فأختبر بهجة قيامتك.
أُبَكِّر إليك على الدوام، وأرتمي في أحضانك الإلهية.
أختبر عربون السماء يومًا فيومًا،
إلى أن ألتقي معك على السحاب، وأَتمتَّع بموكب عُرسِك الأبدي.
تحتضنني حكمتك كأمٍ وعروسٍ،
تسكب فيّ روح القداسة، فأَخدمك يا أيها القدوس.
أمسك بك لترافقني كل الطريق، فلا أنحرف يمينًا ولا يسارًا.
لا تهجرني، فإنني لا أقدر على العيش بدونك.
تحفظني من الشرّ، وتجتذبني إلى برّك.

❖ هب لي يا ربّ قلبًا مُلتهِبًا بالحُبِّ نحو النفوس الساقطة.
أُثَبِّت رجلي بنعمتك، حتى لا أسقط مع الملقى على الأرض لأقيمه بنعمتك.
كثيرًا ما تشتاق نفسي إلى ممارسة تدريب الصمت المقدس، لئلا أَتعثَّر بسبب اللسان.
هب لي الحكمة لكي يكون صمتي مقدسًا بك، وكلماتي مقدسة أيضًا.
فأصمت في الوقت المناسب، ولا أحجم عن الكلمة المقدسة في وقتها المناسب!

❖ عَلِّمني أن أتكلم مُعترِفًا بخطاياي،
فيتحوَّل كل كياني إلى قيثارة تنشد لك تسبحة الشكر يا غافر الخطايا.

❖ هب لي ألاَّ أتسرع في الكلام بدون تفكير،
ولا أتوانى في العمل، فيما يحقق خطتك في حياتي الجادة.

الأصحاح الخامس

حياة الاستقامة

بعد أن تحدَّث عن الحكمة في علاقة المؤمن بالأسرة الجامعة التي هي البشرية ككلٍ من أدم إلى آخر الدهور، حيث يشتاق المؤمن إن أمكن يرى هذه الأسرة كنيسة مقدسة مجيدة. الآن يُرَكِّز على تقديس القلب والفكر كما اللسان والسلوك.

١. استقامة الإيمان [١-٧]

- **الإيمان والغطرسة [١-٣]**
- **لا تستخف بطول أناة الله [٤-٦]**
- **خطورة الجسارة واليأس [٧].**

٢. استقامة الفكر والإخلاص [٨-١٥]

١. استقامة الإيمان

حياة الاستقامة لا تفصل بين الإيمان والحياة المقدسة، فالإيمان بدون أعمال ميت (يع ٢: ٢٠، ٢٦)، وأعمال تبدو مقدسة بدون إيمان باطلة، كقول الرسول: "لكن بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه، لأنه يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود وأنه يجازي الذين يطلبونه" (عب ١١: ٦).

الإيمان والغطرسة

كان تلاميذ ابن سيراخ يؤمنون بالله، لكنه كان يخشى عليهم أن يفسد عدو الخير إيمانهم، لذلك اهتم بالحديث عن الغطرسة كمرضٍ يتسلَّل إلى قلب الإنسان وفكره، فيُفقِده روح التواضع مع الناس كما مع الله.

إذ يتحدَّث ابن سيراخ إلى تلاميذه الشباب الذين يعدّهم ليكونوا كتبة، لهم دورهم في حياة المجتمع، يعلم أن الكبرياء يتسلَّل بسهولة بين بعض الشباب بسبب إحساسهم بالحيوية والقوة مع تقدُّمهم العلمي والثقافي عن الأجيال السابقة، وعن إخوتهم في الجيل الحاضر، فيبالغون في شعورهم بالثقة في النفس. فعوض أن تدفعهم الثقة في النفس للعمل بجديةٍ وبأسلوبٍ إيجابيٍ لتقدُّم المجتمع، يسخرون داخليًا بالغير خاصة من كان ينتمون إلى الجيل القديم.

قدَّم ابن سيراخ مجموعة من الممنوعات بتكرار قوله: "لا..."، محذرًا إيانا من المخاطر الروحية التي تُسَبِّبها الغطرسة [١-٩].

من جانب آخر يصعب على الإنسان أن يكتشف خداعه لنفسه، حيث يعتقد نظريًا بالرب أنه هو الله، بينما عمليًا يُقِيم لنفسه آلهة أخرى. أما مصادر خداع النفس فهي الآتي:

أ. **المال هو إلهه** [١]: يُحَذِّر من المبالغة في الاتِّكال على المال. بحساباته البشرية المُجرَّدة يشعر أنه قادر على تدبير كل أموره بالمال، ولا يحتاج إلى الإيمان بالله، ولا إلى أحدٍ من البشر.

ب. آلهته هي **إشباع اللذات** والأهواء كمصدر سعادة وشبع [٢]. تقوم الطمأنينة الباطلة على العجرفة والغرور اعتمادًا على الثروة، بينما تقود الشهوات البشرية الشخص إلى الضلال.

ج. **إساءة فهم طول أناة الله** [٣-٦]، على أساس أن الله لم يسبق له أن عاقبه على خطاياه، مع جهل مفهوم الرجاء المُفرِح والاتكال الباطل على عظم رحمته [٦]. لا يليق التشامخ على الله، إذ لا يقدر الإنسان أن يقف أمام الله [٣].

د. **التأجيل للغد** [٧]. يُحَذِّرنا الحكيم من تأجيل التوبة لئلا يحلّ غضب الله على الإنسان بغتةً.

لا يعتمد قلبك على أموالك،

ولا تقل: "إنها تكفيني" [١].

يُحَذِّرنا من الاهتمام بالثروة والاتكال عليها وتجاهل الثقة في الله، الأمر الذي له خطورته على النفس. يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لا نفع للمال إذا كانت النفس فقيرة، ولا ضرر من الفقر إن كانت النفس غنية[1].]

لا تتبع هواك وقوّتك،

لتسير حسب شهوات قلبك [٢].

حسن أن يعتدّ الإنسان بما وهبه له من قدرات على التفكير والتدبير وإمكانية تنفيذ الوصية الإلهية، غير أن الكبرياء يُفسِد هذه العطايا حيث يسلك بتشامخٍ، ظانًا أن كل الأمور تسلك بما يُشبِع شهواته وأهوائه. للأسف من يتبع هواه قد يُنَفِّذ الوصية ظاهريًا لكن بدون إخلاص قلب؟

❖ من يقوم بتنفيذ وصية الله بدون إخلاص، لا يُمنَع. ففي المظهر يبقى كمن يُتَمِّم تعليم الرب بكل استقامةٍ. ومع أنه ليس أحد يخطئ بسبب هذا العمل ذاته، بل قد ينتفع البعض منه، لكن مثل هذا الشخص يلزم نصحه، لكي تكون دوافعه مُتَّفِقة مع عمله الصالح... (يُقَدِّم لنا الرسول بولس كمثالٍ عملي) "أما قوم فعن حسدٍ وخصامٍ يكرزون بالمسيح، وأما قوم فعن مسرَّةٍ. فهؤلاء عن تحزُّبٍ ينادون بالمسيح لا عن إخلاصٍ، ظانين أنهم يضيفون إلى وثقي ضيقًا. وأولئك عن محبةٍ، عالمين

---

[1] *In Matt. hom 80:4.*

إني موضوع لحماية الإنجيل. فماذا غير أنه على كل وجهٍ، سواء كان بعلَّةٍ أم بحقٍ يُنادَى بالمسيح، وبهذا أنا أفرح، بل سأفرح أيضًا" (في ١: ١٥-١٨)[1].

القديس باسيليوس الكبير

ولا تقل: "من هو السيد الذي يتسلط عليَّ؟"،

فإن الرب سيُعاقِبك حتمًا [٣].

قد يتطلَّع الإنسان إلى ما بلغه من نجاحٍ في حياته، في تشامخ يشعر أن الله لا سلطان له عليه، متجاهلاً يوم الرب العظيم. يقول النبي: "فهوذا يأتي اليوم المتقد كالتنّور، وكل المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشًا، ويحرقهم اليوم الآتي، قال رب الجنود فلا يبقى لهم أصلاً ولا فرعًا" (ملا ٤: ١).

❖ اهرب من الكبرياء، لأنه أكثر الأوجاع خداعًا للنفس. فمنه تنبع الشهوة الرديئة ومحبة المال والكراهية والحروب والصراعات. لأن الذين يطمعون في نوال أكثر مما لديهم لن يستطيعوا أن يتوقَّفوا. شهوتهم لا تنبع إلا من خلال حُبِّهم لاستعراض إنجازاتهم...

إذا ما استطعنا أن نقطع الكبرياء، رأس كل شرٍ، يُصاحِب ذلك إمكانية إماتة كل أعضاء الشر الأخرى. **فلا يوجد شيء يمنعنا من أن نعيش على الأرض وكأنها سماء!...**

إذا ما أردنا أن نقتني مجدًا، يلزمنا أن نهرب من مجد العالم ونشتهي مجدًا من الله وحده. حينئذ نُحَقِّق الاثنين معًا (المجد في العالم ومن الله)، ونتمتَّع بهما بنعمة ربنا يسوع المسيح ومحبته الحانية[2].

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

لا تستخف بطول أناة الله

لا تقل: "قد أخطأت، فماذا جرى لي؟"،

فإن الرب مُتمهِّل [٤].

يُسيء البعض فهم طول أناة الله عليه فيظنون أن الحديث عن تأديب الربّ للخطاة أفكار خيالية غير واقعية. هذه الطمأنينة كاذبة ومُخادِعة للنفس، تدفع الإنسان إلى تأجيل التوبة. يقول القديس بولس الرسول: "أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة؟" (رو ٢: ٤).

---

[1] *Morals Rule 19:2.*

[2] *On John, homily 28.*

❖ يقول النبي: "إنني أخطئ، ماذا حدث لي؟" وكأنه يقول: بالتأكيد الله لن يعرف خطاياي، ما دام لا يعاقبني ويؤدّبني في الحال. مرة أخرى يفكر الشخص: "الله ينساني، إنه يُخفِي وجهه والآن يرى (خطاياي)" (راجع مز ٩: ١ *LXX*). عندما يقول: "الله ينساني" يحكم بأن طول أناة غافر الخطايا في حقيقته إهمال (من الله). إنه يحسب طول أناة الله إغفال من جانب الله مع أنه في الحقيقة أن سماحة تدبير الله للعدالة تركت الأمر إلى وقتٍ متأخرٍ[1].

فستوس من Riez

❖ إن كان الحكم على الخطايا التي تُرتكَب بجهلٍ هكذا عنيفًا، وتحتاج إلى ذبيحة للتكفير عنها، هذه الحقيقة التي شهد لها أيوب بتقديمه ذبيحة عن أولاده، فماذا يُقَال عن الذين يرتكبون الخطية بمعرفة، أو الذين في صمتهم يذعنون إلى السلوك المخطئ الذي للآخرين؟[2]

القديس باسيليوس الكبير

لا تكن واثقًا من نيل الغفران،

حتى تضيف خطيئة على خطيئة [٥].

❖ مادمنا لا نعرف متى أو في أي وقتٍ نؤخذ من هذا العالم، فلنسرع بدون مماطلة أو تأخير أن ننطلق من جانب اليسار إلى اليمين. يليق بنا ألاَّ نثق في الصحة أو في سنوات عمرنا. فالشخص غير المتأكد دومًا من حياته يسرع طالبًا دواء خلاصه[3].

الأب قيصريوس أسقف آرل

❖ يقول "يحتقر الآخر" (مت ٦: ٢٤) دون أن يقول "يبغضه"، لأنه غالبًا ما لا يستطيع إنسان أن يبغض الله، بل يستهين به، أي لا يخافه كما لو كان يشعر بكثرة مراحم الله. ولكن الروح القدس ينزع تلك النظرة المُهلِكة، إذ يقول على لسان النبي: "يا ابني لا تزيد خطية على خطية وتقول رحمة الله عظيمة" (راجع سي ٥: ٥-٦). "غير عالمٍ أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة" (رو ٢: ٤). فمن هو رحيم مثل الله، الذي يغفر كل خطايا الراجعين إليه، ويجعل الزيتونة البرية شريكة في دسم الزيتونة، كذلك من هو حازم مثله حتى يقطع الأغصان الطبيعية لعدم إيمانها؟ (رو ١١: ١٧-٢٤)[4].

---

[1] *Faustus of Riez: On Grace 1: 17.*

[2] *On the Judgment of God.*

[3] *Sermon 56.*

[4] *Our Lord's Sermon on the Mount, 2:14:48.*

ولا تقل: "رحمته عظيمة، فيغفر كثرة خطاياي"،
فإن كل من الرحمة والغضب يأتيان منه، وسخطه يحلُّ على الخطاة [٦].

❖ كثير من الأشخاص المُهمِلين جدًا يستخدمون رأفة الله علة ليزيدوا من جرم خطاياهم، ويفرطوا في إهمالهم قائلين هكذا: "لا توجد جهنم، لا توجد عقوبة مُقبِلة. الله يغفر لنا كل خطايانا". لإغلاق أفواههم يقول الحكيم: "لا تقل: رحمته عظيمة، فيغفر كثرة خطاياي" (سي ٥: ٦)، وأيضًا: "كما أنه كثير الرحمة، هكذا هو كثير التأديب" (راجع سي ١٦: ١٢)[1].

❖ إن كانت قوانين البشر يلزم مراعاتها بدقةٍ، كم بالأكثر قوانين الله. يقول قائل: "لكنه هو صالح." إلى متى ننطق بهذا الكلام الأحمق؟ أقول إنه أحمق، لا لأن الله ليس بصالح، وإنما بالتمسُّك بالتفكير أن صلاحه في أيدينا بهذا الهدف... لتصغوا إلى الكتاب المقدس القائل: "لا تقل: رحمته عظيمة فيغفر كثرة خطايا" (سي ٥: ٦). إنه لا يمنعنا من القول بأن رحمته عظيمة. ليس هذا هو ما يأمرنا به، بل يدعونا أن نقول هذا على الدوام... إنما يقول هذا لكيلا نيأس بسبب خطايانا، بل نتوب. فإن صلاح الله يقودنا إلى التوبة (رو ٢: ٤) لا إلى شرٍّ أعظم[2].

❖ هل أنت شيخ، وقد حان وقت خروجك من العالم؟ لا تظن حتى في هذا أنك تُحرَم من التوبة. لا تيأس من خلاصك! تأمل كيف تحرَّر اللص وهو على الصليب، فأي وقت أقصر من تلك الساعة التي تُوِّج فيها؟! ومع هذا فإن هذا كان كافيًا لخلاصه.

هل أنت حدث صغير؟ لا تثق في حداثتك، ولا تظن أنك ضامن وقتًا ما تعيشه في الحياة. لأن "يوم الرب كلصٍ في الليل هكذا يجيء" (١ تس ٥: ٢). لقد جعل نهايتنا غير منظورة (غير معروفة)، لكي نبذل الجهد ونتطلَّع إلى قدام بجلاءٍ.

أما ترى الناس يؤخذون يومًا فيومًا قبل الأوان؟! لهذا نصحنا الحكيم، قائلاً: "لا تؤخر التوبة إلى الرب، ولا تتباطأ من يومٍ إلى يومٍ" (راجع سي ٥: ٧). لئلا تتأخر في أي وقت فتهلك.

ليحفظ الشيخ هذه المشورة، وليقبل الشاب هذه النصيحة. نعم. إنك الآن في أمان. هل أنت غني ولك ثروة وفيرة ولا تصيبك أحزان؟ اسمع ما يقوله القديس بولس الرسول: "لأنه حينما يقولون

---

[1] *On John, Homily 28: 1.*

[2] *Homilies on Ephesians, 4.*

سلام وأمان، حينئذ يفاجئهم هلاك بغتة" (١ تس ٥: ٣)[١].

❖ لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلّص به العالم" (يو ٣: ١٧). كثيرون من هؤلاء البشر يميلون إلى أن يضيفوا خطية فوق خطية، ويسيئون استخدام رحمة الله، فينغمسون في إهمالٍ جسيم، قائلين مثل هذه الكلمات: "إنه لا توجد جهنم، وليس من دينونة، الله يغفر كل خطايانا". فلكي يُبكمهم يقول الحكيم: "لا تقل رحمته عظيمة، فيغفر كثرة خطاياي. فإن عنده الشفقة والغضب، وسخطه يحلّ على الخطاة" (راجع سي ٥: ٦)؛ أيضًا: "كما أنه عظيم في رحمته، هكذا هو شديد في توبيخه" (راجع سي ١٦: ١٢)[٢].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ذاك الذي قال: "إذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها... كل معاصيه التي فعلها لا تُذكَر عليه" (حز ١٨: ٢١-٢٢)، قال أيضًا: "لا تؤخر الرجوع إلى الربّ" (سي ٥: ٧).

إن كان الوعد الأول يجعلك في أمان، فالطلب الثاني يُقَدِّم لك سببًا للنضال. أنصت إلى الأسفار الإلهية، إنها تقول: "اذكر أن الموت لا يبطئ" (سي ١٤: ١٢).

لا تقل: رحمته عظيمة، فيغفر كثرة خطاياي، فإن عنده الشفقة والغضب، وسخطه يحلّ على الخطاة" (سي ٥: ٦)، أي الذين يصرّون على خطاياهم. إن راعينا هذا بإخلاصٍ وعناية، ونلجأ إلى التوبة بدون تأجيل، نستطيع أن نهرب من العقاب الأبدي، وننال المكافآت الأبدية بسرور[٣].

قيصريوس أسقف آرل

خطورة الجسارة واليأس [٧]

بروح الحكمة يليق بالمؤمن ألاَّ يسيء الرجاء في مراحم الله بالتراخي في الرجوع إلى الله بالتوبة، كما يليق ألاَّ تتحطَّم نفسه باليأس بسبب كثرة خطاياه أو بشاعتها. فالرجاء الباطل كما اليأس هما مرضان خطيران يلزم معالجتهما.

❖ ماذا إذن يفعل الربّ مع المُعرَّضين للخطر بهذين المرضين؟

الذين يتعرَّضون للخطر بواسطة الرجاء يقول لهم هذا: "لا تؤخِّر الرجوع إلى الربّ، ولا تؤجِّل من يومٍ إلى يومٍ، فإن غضب الربّ يحل بغتة، فتُستأصَل في يوم العقاب" [٧]. والذين يتعرَّضون

---

[١] هل للشيطان سلطان عليك؟ ترجمة القمص تادرس يعقوب وجورج فهمي حنا، ص ٦٣-٦٤.

[2] *Homilies on John, hom. 28.*

[3] *Sermons, FOTC, Vol. 1, p. 317-318.*

للخطر بواسطة اليأس، ماذا يقول لهم؟ "إذا معاصيه لا أذكرها" (حز ١٨: ٢١-٢٢).

لذلك بسبب المُعرَّضين لخطر اليأس يُقَدِّم لهم ميناء المغفرة، وبسبب المُعرَّضين لخطر الرجاء والمخدوعين بالتأجيل جعل يوم الموت غير مؤكَّدٍ. إنك لا تعرف متى يأتي اليوم الأخير. هل أنت جاحد، لأن لديك اليوم في يدك لكي ما تُصلِح من شأنك؟[1]

القديس أغسطينوس

لا تؤخِّر الرجوع إلى الربّ، ولا تؤجل من يومٍ إلى يومٍ.

فإن غضب الرب يحلّ بغتةً، فتهلك في يوم العقاب [٧].

يكشف **القديس أغسطينوس** عن حرب عدو الخير إبليس مع بعض الناس في عصره. يبدأ العدو بمقاومة الإيمان المسيحي والتشكيك فيه. لكن إذ اكتشف البعض سمو الإيمان المسيحي وقدسيته ولم يستطع العدو أن يُشَكِّكَهم، صار يبرز لهم سمو الإيمان وقدسيته بطريقة رهيبة كي يُماطِلوا في الرجوع إلى الربّ وقبول الإيمان والاعتراف بخطاياهم، فصاروا يؤجِّلون من يومٍ إلى يومٍ دون أخذ خطوة جدية للقاء مع المُخَلِّص[2].

❖ يتذبذب العقل بين الجسارة والقنوط. يلزمك أن تخف لئلا تقتلك الجسارة؛ ولتخف أيضًا لئلا تفعل هذا بغير اعتبارٍ لرحمة الله؛ فتسقط تحت الحكم. كذلك يلزمك أن تخاف حتى لا يقتلك القنوط عندما تُفَكِّر في الخطايا المُرعِبة التي ارتكبتها أن لا غفران لها. بهذا لا تبلغ إلى التوبة، بل عوض عن هذا تسقط تحت حكم الحكمة: "أنا أيضًا أضحك عند بليتكم" (أم ١: ٢٦).

كيف يُعالِج الربّ الذين في خطر من هذين المرضين؟ بالنسبة للذين في خطر من الجسارة، يقول: "لا تؤخِّر الرجوع إلى الربّ. ولا تؤجل من يومٍ إلى يومٍ، فإن غضب الربّ يحلّ بغتة، فتُستأصل في يوم العقاب" (راجع سي ٥: ٧). بالنسبة للذين في خطر من اليأس، يقدم (الربّ) لنا ملجأ المغفرة.

بالنسبة للذين في خطر بسبب الجسارة ويُضَلِّلون أنفسهم بالتأجيل، جعل الربّ يوم الموت غير معروف. فإنك لا تعرف متى يحلّ اليوم الأخير بالنسبة لك. أنت إنسان ناكر للجميل. لماذا لا تستغل اليوم بكونه عطية من الله معطاة لأجل توبتك؟[3]

---

[1] *Tractates on the Gospel of John, FOTC, Vol. 88, p. 58-59.*

[2] *Letters, FOTC, Vol. 81, p. 21-23.*

[3] *Tractates on the Gospel of John 33:8.*

❖ ماذا أقول عن الشرور الكثيرة الخطيرة، الأمور المعروفة لدى العامة، والتي استنتجوها من تصرفاتك منذ زواجك؟ إنك مسيحي، ولك ضمير، وتخاف الله. تطلَّع إلى داخل نفسك، فستجد ما أَتردَّد عن أن أنطق به بسبب الشرور الكثيرة التي يلزمك أن تُقَدِّم عنها توبة. أعتقد أن هذا هو السبب لماذا تركك الربّ إلى الآن، وأنقذك من كل المخاطر، لعلك تندم على ما فعلت، وإنما بشرط أن تسمع ما هو مكتوب: "لا تؤجل الرجوع إلى الربّ، ولا تؤجل من يومٍ إلى يومٍ" (راجع سي ٥: ٧)[1].

❖ اسمع الكتاب المقدس: "إني لا أُسَرّ بموت الشرير، بل أن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا" (حز ٣٣: ١١). بكلمات الله هذه يرتدّ إلى الرجاء، لكن يوجد فخ يُخشَى منه، لئلا خلال هذا الرجاء يخطئ الإنسان بالأكثر. ماذا أيضًا تقولون، يا من خلال الرجاء تخطئون بالأكثر؟ "عندما أرجع يغفر الله لي كل شيءٍ، فلأفعل الآن ما أشاء". لا تقل: غدًا سأرجع، غدًا سأسر الله، وسيغفر لي كل أعمال اليوم والأمس". إنك تقول الحق: الله يعد بالمغفرة عن تصرفاتك، لكنه لم يعدك أن يكون لك الغد بتأجيلك (التوبة)[2].

القديس أغسطينوس

❖ ينصحنا أحدهم: "لا تؤجل من يومٍ إلى يومٍ" (راجع سي ٥: ٧). بهذا يمكنك أن تنجح في أغلب الأمور. وبهذا تُدَبِّر كل أمور بيتك حسنًا بالنسبة لك"[3].

❖ ليت الشاب يأخذ في اعتباره عدم التأكد (من موعد) الموت. كثيرًا ما يحدث أن شيوخ كثيرين يستمرون هنا بينما يُحمَل الشباب (إلى الموت) قبلهم. لهذا لا نضع مسيرة لموتنا، بل تُرك في غير يقين. لذلك ينصح الحكيم: "لا تؤخر الرجوع إلى الرب، ولا تؤجل من يومٍ إلى يومٍ، لأنك لا تعرف ما يلده الغد" (راجع سي ٥: ٧؛ أم ٢٧: ١). فالتأجيل فيه خطورة وخوف، وعدم التأجيل يكشف عن الخلاص في أمانٍ[4].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يجب ألا يخور الذين ليس لهم ميل طبيعي نحو الخير ولا ييأسوا، إنما يلزمهم ألا يكفوا عن الجهاد

---

[1] *Letters, FOTC, Vol. 32, p. 104-108.*

[2] *On Ps. 145 (144).*

[3] *Homilies on Matthew, 68: 5.*

[4] *On 2 Cor. Homily 2.*

نحو الحياة الفاضلة التي ترضي الله، مهما بدا لهم إنه يصعب الوصول إليها أو بلوغها[1].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ بالحقيقة، يلزم ألاَّ يتأخَّر أحد إلى وقت طويل في خطاياه معتمدًا على رجائه في مراحم الله، حيث لا يشتهي أحد أن يبقى مريضًا بالجسد إلى وقتٍ طويل من أجل رجائه في نوال الصحة في المستقبل... يقول الطوباوي داود: "اليوم إن سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم" (مز ٩٥: ٧). ويقول الطوباوي بولس: "انظروا أيها الإخوة ألا يكون في أحدكم قلب شرير بعدم إيمانٍ في الارتداد عن الله الحيّ، بل عظوا أنفسكم كل يومٍ ما دام الوقت يُدعَى اليوم لكيلا يُقسى أحد منكم بغرور الخطية" (عب ٣: ١٢: ١٣). لذلك يعيش بقلبٍ قاسٍ ذاك الذي إما انه لا يرجع، محتقرًا غفران خطاياه، أو ذاك الذي يترجَّى رحمة الله، متى حلّت نهاية الحياة الحاضرة وهو مستمر في إصراره على جرائمه[2].

فيلجينيتوس

❖ بنصيحة فعّالة تمامًا أيها الأحباء الأعزاء وبلطفٍ، ينصحنا الربّ بحنوٍ أبوي، عندما يقول النبي: "لا تؤخر الرجوع إلى الربّ، ولا تؤجل من يومٍ إلى يومٍ" (راجع سي ٥: ٧). "لا تعلم ما يلده اليوم" (أم ٢٧: ١). "بين الفجر والمساء يتغيَّر الزمان" (راجع سي ١٨: ٢٥). في موضعٍ آخر نُصحنا أيضًا بوصية فعَّالة: "سيروا ما دام لكم النور، لئلا يدرككم الظلام" (يو ١٢: ٣٥).

قد يقول إنسان مستهتر: عندما أبلغ الشيخوخة سألجأ إلى دواء التوبة. لا يعلم الإنسان الشقي أنه إذا اعتاد أن يرتكب خطايا مع الوعد بالتوبة إنه يخدع نفسه، إذ تقوده إلى حياة شريرة إلى زمانٍ طويل، لا يستطيع إلاَّ بمعاناة أن يتأهَّل لنوال ثمرة التوبة[3].

الأب قيصريوس أسقف آرل

٢. استقامة الفكر والإخلاص

يُقَدِّم لنا ابن سيراخ النصائح العملية التالية:

أ. رفض مال الظلم [٨].

ب. عدم التعريج بين الطرق [٩].

ج. الاهتمام بقدسية الفكر والكلمة [١٠-١٤].

د. الحذر من التقلُّب السريع [١٥].

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٤١.

[2] *Fulgentius, Select Works, FOTC, Vol. 95, p. 85-86.*

[3] *Sermons 209::1, FOTC, Vol. 3, p. 89-90.*

لا تعتمد على أموال الظلم،

فإنها لا تنفعك شيئًا في يوم الشدة [٨].

لا تُذَرّ مع كل ريح، ولا تسلك في كل طريق،

فإنه هكذا يفعل الخاطئ ذو اللسانيْن [٩].

امتدح السيد المسيح يوحنا المعمدان لأنه كان ثابتًا غير متردّدٍ "ماذا خرجْتمْ إلى الْبرّيّة لتنْظروا؟ أقصبةً تحرّكها الرّيح؟" (مت ١١: ٧). وجاء في رسالة معلمنا يعقوب الرسول: "رجل ذو رأيين هو متقلقل فى جميع طرقه" (يع ١: ٨).

كن ثابتًا في فهمك،

وليكن كلامك مترابطًا [١٠].

كن مُسرِعًا في الاستماع،

ومتأنيًا في الإجابة [١١].

من جهة الكلام يليق بالمؤمن أن يُسرِع إلى الاستماع، ويتأنَّى على الإجابة. الكلام بحكمة طريق الكرامة، وأما ذوي اللسانين فيتأهَّل للخزي والحكم الشديد.

❖ "فمي يتكلم بالحكمة، وقلبي يلهج بالفهم".

حيث أنه بحسب الرسول: "القلب يُؤمَن (به) للبرّ، والفم يُعترَف به للخلاص" (رو ١٠:١٠)، بالحقيقة عمل الاثنين في البشر يوحي بالكمال. لذلك جمعت العبارة الاثنين معًا في نفس الموضع، عمل الفم وتأمل القلب. بالحقيقة إن كان الصلاح لم يكن قد خُزِن مقدمًا في القلب، كيف يمكن لمن لم يقتنيه في الخفاء أن يُظهِر الكنز خلال فمه؟ وإن كان لديه أشياء صالحة في قلبه، فإن لم نفعل هذه علانية بالحديث، يُقَال له: "الحكمة المخفية، والكنز الذي لا يُرَى ما الفائدة في هذين، ليتكلم فمي بالحكمة، ولأجل تقدمي ليلهج قلبي بالتعقُّل".

"**أميل أذني إلى الأمثال؛ وأكشف ألغازي على قيثارةٍ *psaltery***" (مز ٤٩: ٤).

لا يزال يُقَدِّم النبي شخصه، حتى لا تُحتقَر كلماته كما لو قُدِّمَت بابتكارٍ بشريٍّ. يقول ما أُعلِم به من الروح (القدس)، هذا أعلنه لكم، ولا أنطق بشيءٍ من عندي، ليس شيئًا بشريًّا. ولكن حيث أني أسمع ألغاز الروح الذي يُنزِل حكمة الله سرّيًا. إني أكشف لكم وأظهر الألغاز. علاوة على هذا لا أظهر شيئًا آخر خلال القيثارة *psaltery*. القيثارة هي أداة موسيقية تظهر صوتها بتناغمٍ مع لحن الصوت.

تبعًا لذلك فإن القيثارة العقلية مكشوفة، خاصة في ذلك الوقت عندما تعزف الأعمال في تناغمٍ مع الكلمات. فمن يعمل بما يُعلِّم يكون قيثارة روحية. إنه هو الذي يكشف الألغاز في المزمور، يُعد إمكانية التعليم بكونه نموذجًا. لذلك إذ يدرك أنه لا يوجد شيء متنافر أو خارج نغم حياته، ينطق بثقة بالكلمات التالية: **"لماذا أخاف في يوم السوء، عندما يحيط بي إثم الذين يتعقّبونني"** (مز ٤٩: ٥). يقصد بيوم السوء يوم الدينونة، الذي قيل عنه: "يوم الرب يوم لا علاج له، على كل الأمم" (راجع إش ١٣: ٩)، يقول عنه النبي: "مكائده تقلق كل واحدٍ".

في ذلك الوقت، إذن، إذ لم أفعل شيئًا ضد الشريعة في طريق الحياة، لا أخشى يوم السوء. فإن علامات الخطاة لا تقف حولي ولا تقلقني، في اتهامات صامتة تقوم اتهامات ضدِّي.

لا يقف أحد كمتهمٍ لك إلا نفسك، أو أعمالك ذاتها، يقف كل عملٍ في شكله – الزنا والسرقة والفسق – كما بالليل، بالظروف المعينة التي تُظهِر سماتها، وبصفة عامة كل خطيةٍ بسمتها تكون حاضرة تحمل تذكُّرًا واضحًا.

علامات الخطاة إذن لا تقلقني، لأني أميل أذني إلى مثلٍ، أكشف بقيثارةٍ ألغازي[1].

القديس باسيليوس الكبير

إن كنت تعرف شيئًا، فجاوب على سؤال قريبك،

وإلا فاجعل يدك على فمك [١٢].

علامة الإخلاص مع النفس، التوقُّف عن الإجابة على الأسئلة الباطلة، التي تُشَتِّت الفكر، وتشغله فيما لا يفيد، وتفسد الوقت.

❖ عندما وجدوه في عبر البحر قالوا له: "يا معلم متى صرت هنا؟" (يو ٦: ٢٥)؛ هذا المقطع يُظهِر مشهدًا لأصدقاء يُعبِّرون عن أمرٍ حساس. على أي الأحوال تبدو بعض العناصر لا معنى لها، بل طفولية. كان يليق بهم في الواقع ألاَّ يتحدثوا مع المُعَلِّم العظيم عن أمورٍ تافهة، بل كان يليق أن يسألوه أن يتعلَّموا شيئًا. ما الحاجة أن يسألوا متى صار هناك؟ أو ما الفائدة التي يجنوها من معرفة ذلك؟ لهذا يلزمنا أن نطلب الحكمة من الحكيم، ونلتزم بالصمت الواعي عن أن ندخل في أحاديث غير ملائمة.

يحثنا الرسول على أن يكون حديثنا مملحًا بملحٍ (كو ٤: ٦). ويدعونا حكيم آخر إلى أمرٍ مشابه: "إن كان لك فهم فجاوب قريبك"، وإلاَّ فاجعل يدك على فمك" (سي ٥: ١٢). نتعلَّم أيضًا

---

[1] *Homily 19:2, On Ps 49 (48 LXX). Unto the End, a Psalm for the Sons of Core on the Prosperity of the Wicked.*

في موضعٍ آخر كيف نُدان عن أي نطقٍ مستهترٍ. "إن كان أحد فيكم يظن أنه دينٍ وهو ليس يلجم لسانه، بل يخدع قلبه، فديانة هذا باطلة" (يع ١: ٢٦)[1].

القديس كيرلس الكبير

في الكلام المجد والهوان،
وسقوط الإنسان سببه لسانه [١٣].

إياك أن تُدعَى نمَّامًا، ولا تنصب كمينًا بلسانك،
فإن السارق ينتظره الخزي،
وعلى ذي اللسانيْن الحكم خطير [١٤].

تعكس النميمة انشغال الشخص النمَّام عن خطاياه بالتشهير ولو خفية بخطايا الآخرين. فإن الإدانة تعنى عدم حُبّنا للغير، مع اغتصابنا لحق الله الديَّان وحده. لذلك يرى ابن سيراخ أن النميمة والإدانة هما سلب وسرقة يلحقهما الخزي في يوم الدينونة.

"ذو اللسانين": يعنى باللِّسانَين الرياء، حيث يظهر الإنسان على خلاف ما يُبطِن، أو يظهر بشخصيتين مختلفتين. مجتمع البشرية هو ميدان يقوم على الحكمة الحقيقية. إذ تقوم الحياة البشرية في كل مستوياتها على العلاقات المتبادلة بين البشر وبعضهم البعض في ثقة متبادلة، فإذا شعر إنسان بأن أخيه مخادع وغير مستقيمٍ في فكره وكلماته وسلوكه يتكلم بلسانين، يفقد الثقة فيه.

في الأمور الكبيرة أو الصغيرة لا تخطئ [١٥].

❖ **سؤال: كيف يكون التعامُل مع الذين يتجنَّبون الخطايا الكبرى، ويتهاونون في الخطايا الأقل؟**

الإجابة: أول كل شيءٍ يلزم أن يُفهَم أن هذا التمييز لا أساس له في العهد الجديد. إعلان واحد قُدِّمَ عن كل الخطايا، عندما يقول الرب: "من يعمل الخطية، هو عبد للخطية" (يو ٨: ٣٤)... إن كان يمكننا بأمان أن نقول عن خطية صغيرة وخطية عظيمة، فتوجد شهادة لا تُقبَل، الجدال مع أحدٍ أن الخطية العظيمة هي التي تقتنص الشخص تحت سلطانها، بينما الصغيرة فهي التي لا تبلغ اليد العليا، وذلك مثل المصارعين، فإن الأقوى هو المُنتصِر، وأما الضعيف فهو المهزوم بواسطة الأعظم منه أيًا كان[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

---

[1] *Commentary on the Gospel of John 3:4:25.*

[2] *Regulae brevius tractatae, 293.*

إيماننا الحيّ وحياة الاستقامة

❖ ماذا نَرُد لك يا ربّ من أجل كثرة إحساناتك؟
نعمتك تهبنا الإيمان العامل بالمحبة.
نعمتك تُشكّل أعماقنا، لنصير بالحق أيقونة لك.
نعمتك تُحطِّم كل خداعات العدو، فلن نسلك معه في طريق الغطرسة.
أشرق بنور معرفتك في أعماقي، فلن يحتل محبة المال قلبي،
ولن تلهب الشهوات والملذات عواطفي.
أنت وحدك مُشبِع نفسي، يا شهوة قلبي!
لن أشتهي المال ولو قُدِّمت لي كنوز العالم.
ولن تجتذبني شهوة مادمتَ مقيمًا فيّ.

❖ أستعذب وصيتك، لأنها تسكب من بهائك على نفسي.
تُجَمِّلني، وتُعدّني كعروس سماوية.
سلطانك هو كمال الحرية.
فلا يقدر الشرير أن يتسلَّل فيّ، ويستعبد إرادتي وقلبي وفكري وحواسي.
لك المجد يا أيها المُحَرِّر العجيب!
أفرح كلما تُحَرِّر إخوتي من عبودية إبليس وأعماله الشريرة.
حطِّم يا أيها العجيب في تواضعك كل كبرياء يتسلَّل داخلي.
سكناك فيَّ يُحَوِّل قلبي إلى سماءٍ.
من يلتصق بك يختبر عربون السماء، ولا يجد في العالم مجدًا أو مالاً يغويه.

❖ عجيب أنت في طول أناتك عليَّ، يا أيها القدوس!
أنت تعرف خطاياي الخفية والظاهرة، ولا تطيقها.
بنعمتك لن أستهين بطول أناتك عليَّ.
لأسرع إليك، فتهبني توبة صادقة، فلا أتهاون مع الخطية.
لأستعدّ للِّقاء معك بفرحٍ وسرورٍ، دون تأجيل ولو إلى لحظة!
رحمتك عظيمة للغاية، تدفعني للالتصاق بك حالاً!

هبني ألا أيأس من كثرة خطاياي، ولا أتهاون في سرعة التوبة.
بحُبِّك ملأت قلوبنا بالرجاء مهما بلغت خطايانا،
وبرعايتك طالبتنا بعدم التأجيل،
حتى لا يتسلَّل العدو إلينا ويخدعنا.
فتحت لنا ميناء للخلاص لتنزع عنا التواني!

❖ قدِّس يا رب كل خطوات حياتي. فبك أسلك الطريق المستقيم بلا انحرافٍ.
أنت هو الطريق والحق والحياة.
هب لي برَّك فلا أظلم أحدًا.
أمسك بيدي فألتصق بك على الدوام.
قدِّس فكري، وضع حافظًا لفمي.
هب لي الثبات فيك فلا أتزحزح عنك،
أعطني أن أسرع في الاستماع، وأكون متأنيًا في الإجابة.

❖ قدِّس يا رب لساني، فلا أكون نمَّامًا، لئلا أنشغل عن خطاياي بالتشهير بخطايا إخوتي.
ولا أكون مرائيًا ذي لسانين،
ما يتكلم به لساني غير ما يفكر فيه عقلي،
وغير ما ينطق به قلبي خفية.

الأصحاح السادس

الصديق الأمين والصداقة الإلهية

بعد أن تحدَّث في الأصحاح الخامس عن الجوانب السلبية التي تُفسِد القلب وعن ضبط النفس حتى لا يخطئ الإنسان في الأمور الكبيرة والصغيرة، تحدث هنا عن الصديق الأمين والصداقة الإلهية.

لا نجد في أسفار الكتاب المقدس من تعرَّض للصداقة أكثر مما ورد في سفر ابن سيراخ. اعتبر البعض أن السفر في مجمله هو حديث عن الصداقة مع الله والناس. تحدث مباشرة عنها في (٦: ١-١٧؛ ٩: ١٠-١٦؛ ١٩: ١٣-١٧؛ ٢٢: ١٩-٢٦؛ ٢٧: ١٦-٢١؛ ٣٧: ١-٦).

قدَّم لنا مجموعات من النصائح العملية لتدعيم الصداقة، كما أَكَّد على الحاجة إلى قيام صداقة مع الله. هذا وقيام الصداقة الأصيلة تتناغم مع الحكمة الإلهية التي لا تعزل المؤمن عن إخوته، بل تهبه اتِّساع القلب إن أمكن لكل البشر، الذين رقدوا والأحياء والأجيال القادمة، هذه الصداقة لا تقوم على مُجرَّد ارتباط جسدي بل على الحب والصلاة والعمل لأجل بنيان البشرية وتمُّتعها بالحياة المقدسة في الربّ. يليق أن يوجد حب حقيقي مُشترَك بين الصديقين مع ثقة متبادلة وعلاقة شخصية.

١. الحاجة إلى الصداقة الأمينة [١- ٤]

٢. اهرب من الصديق الشرير [٥- ١٣]

٣. من هو الصديق الفريد الأمين؟ [١٤- ١٧]

٤. الصداقة والتعلُّم *paideia* [١٨- ٣٧]

١. الحاجة إلى الصداقة الأمينة

يتطلع ابن سيراخ إلى محبة الله لخليقته، فقد وهب غالبًا كل كائن حيّ أن يحب ما يُشابِهه بالغريزة الطبيعية (سي ١٣: ١٤-١٥). أما بالنسبة للبشر فوهبهم إمكانية إقامة الصداقة بينهم بكامل حريتهم خلال عطايا الله لهم من عقل وعاطفة وغرائز الحب. لكن إذ انحدر الإنسان بسقوطه في الخطية، صار يُعانِي من العوز إلى صداقة أمينة صادقة، يصعب أن يجدها كما يشتهيها في أقرب من له. فالطفل يشتكي: "ليس من يشعر بي ويفهمني. والديّ لا يفهماني".

ففي ظل الناموس الطبيعي، شعر أيوب بالحرمان من الصداقة الأمينة التي تسنده في ضيقه. أبناؤه ماتوا وتركوه بلا عونٍ، وزوجته عوض مساندته قالت له: "العن (بارك) الربّ ومُتْ" (أي ٢: ٩)، وأصدقاؤه جاءوا ليُعَزُّوه، فكالوا له اتهامات جارحة. صرخ أيوب: "معزون متعبون كلكم" (أي ١٦: ٢).

وفي ظل الناموس الموسوي صرخ المرتل: "أنا قلت في حيرتي كل إنسانٍ كاذب" (مز ١١٦: ١١). تجاهل يسى ابنه الصبي داود، فلم يُقَدِّمه لصموئيل النبي حين طلب منه استدعاء أبنائه (١ صم ١٦: ١١)، وتجاهل شاول الملك كل جهده لإنقاذه هو وجيشه وشعبه من العدو وردّ له الخير بالشر وكرَّس طاقاته وإمكانياته لقتله (١ صم ١٩: ١). تمرَّد أبشالوم على داود أبيه وأراد قتله (٢ صم ١٦: ١١). لقد اشتكى النبي، قائلاً: "أبي وأمي قد تركاني، والرب يضمني" (مز ٢٧: ١٠).

وفي العهد الجديد، أدرك لوقا الإنجيلي حاجة كل البشرية إلى صديقٍ مُخلصٍ، فقدَّم السيد المسيح كصديقٍ للبشرية كلها، لذا كثيرًا ما دعاه "ابن الإنسان". أعلن الإنجيلي عن هذا الصديق الذي في صداقته للبشرية لم يخصّ شعبًا مُعيَّنًا بل هو مُحبّ البشر، "يطلب ما قد هلك" (١٩: ١٠). وفي أمثلة السيد المسيح ذكر الخروف الضال والدرهم المفقود والابن الضال دون تحديد جنسية مُعَيَّنة أو شعب معين. لم يستنكف هذا الصديق من اللقاء مع المرأة الخاطئة (لو ٧: ٣٦-٣٥) وزكا العشار (١٩: ١-١٠) واللص المصلوب (٢٣: ٤٠-٤٣). اهتم أيضًا باللقاء مع الأطفال والنساء والمعوزين، ولم يستنكف من لمس الإنسان الأبرص. تقدَّم إلينا كصديقٍ، ليشبع عاطفة الحب، فنقبل صداقته ونُصادِقه. تقدَّم إلينا كصديقٍ إلهيٍ، خلاله نُصادِق الناس ونَقْبَل صداقتهم. وكصديقٍ مثاليٍ فيه نفهم الصداقة ونتذوَّقها ونُمارِسها.

❖ تصوَّر دائرة تخرج من مركزها أشعة أو خطوط. فبقدر ما تبتعد الخطوط عن المركز تفترق عن بعضها البعض... وبالعكس كلما اقتربت من المركز تقاربت نحو بعضها البعض.

افترض أن هذه الدائرة في العالم، ومركز الدائرة هو الله. والخطوط من المحيط إلى المركز هي طريق حياة البشر، فإننا نجد نفس الأمر، فبقدر ما يتحرَّك القديسون في داخل الدائرة تجاه المركز راغبين في الاقتراب من الله، يقترب الواحد نحو الآخرين[1].

القديس دوروثيؤس

❖ لا يوجد حب حقيقي به نُحبّ الآخرين ما لم نُحِبّ الله. كل إنسانٍ يحب قريبه كنفسه، إن كان محبًا لله، لكنه إن لم يحب الله فلا يحب نفسه[2].

❖ لنُدَرِّب أنفسنا على محبة الإخوة... فإن أَحببت أخاك ستُعانِين الله، لأن بمحبتك لأخيك تعاين

---

[1] الفيلوكاليا، ص ١٧٦.

[2] *In Joan, Tr. 87: 1.*

المحبة ذاتها التي فيها يسكن الله[1].

القديس أغسطينوس

يشتاق الإنسان أن يجد الصديق الأمين، وأن يكون هو نفسه صديقًا مُخلِصًا إن أمكن للجميع. فما **سمات الصديق الأمين** الذي نطمئن إليه، وما يليق بنا أن نتَّسِم به لنكون أصدقاء أمناء؟

أ. الثبات في الصداقة:

لا تتحوَّل من صديقٍ إلى عدوٍ،

فإن السمعة السيئة تجلب الخزي والعار،

كذا هو الخاطئ ذو اللسانين [١].

يدعو ابن سيراخ المؤمن ألاَّ يتحوَّل يومًا من صديق *philo* إلى عدو، ولا يَقْبَل من يفعل هذا مع أحدٍ كصديقٍ له. إلتحام المجتمع يقوم على الصداقة المُخلِصة، وهي ضرورية سواء على أساس شخصي أو ثقة جماعية. يرى البعض أن كلمة عدو هنا في الأصل معناها متغطرس فلا يثق فيه أحد، عاجز عن التعامل مع الغير بروح الصداقة، معتاد على اغتياب الغير، يتجنَّب الحنو، ويسرع إلى المشاجرة. هذه السمات تنطبق على من يدعوه الكتاب المقدس بالأحمق. من يثبت في الله صديق البشرية، يثبت في الصداقة والحب إن أمكن لكل البشر، دون أن يتزعزع في محبته، فلا يكون أحمق.

ب. غير متشامخ: يليق بنا ألا ندخل في صداقة مع إنسان متشامخ ولا نكون نحن متشامخين.

لا ترفع من شأنك بمشورة نفسك،

لئلا تمزَّق نفسك إلى أجزاءٍ كما بواسطة ثورٍ [٢].

الإنسان في حماقته يتعالَى على الغير، حاسبًا نفسه أسمى من كل من يلتقي به، بينما الصديق الأصيل يشتهي أن يكون صديقه أفضل منه وأكثر منه نجاحًا وفرحًا وسعادة.

في المجتمعات القديمة الزراعية، كانت الأسوار قليلة، وكانت الثيران الصغيرة تترك مرعاها لطلب الطعام والحشائش، فتتعرَّض لها الثيران الضخمة القوية، قد تهاجمها وتُمَزِّقها. لذا يليق بالمؤمن أن يحتمي في سورٍ حصينٍ، فلا يظن أنه هو المرشد لحياته الروحية، فلا يطلب مشورة أب روحي يسنده في الرب ويحفظه من ضربات العدو.

ج. أشبه بشجرة مورقة على الدوام ومثمرة:

فتلتهم أوراقك، وتتلف ثمارك،

---

[1] *St. Augustine: 10 Homilies on 1st Epistle of St. John.*

وتترك نفسك كشجرةٍ يابسة [٣].

يليق بالصديق أن يكون مغروسًا على مجاري مياه الروح القدس (مز ١)، يُمارِس حياة الاتكال الدائم على الله بفرحٍ، ويكون الله بالنسبة له هو كل شيء.

د. **مقدس:** لنهرب من الشرّ، حتى لا تهلك نفسونا الشريرة ويهلك أصدقاؤنا. كما دعانا الكتاب المقدس أن نسلك في القداسة ونلتصق بأصدقاء قديسين، في نفس الوقت يُحَذِّرنا من الارتباط بأصدقاء أشرار. هذا وقد أفاض الآباء في الحديث عن الصداقة مع الأشرار بسبب خطورتها، أقتطف القليل منها، وقد سبق معالجة موضوع الصداقة بشيءٍ من التوسُّع[١].

❖ المجالسة مع الذين ليسوا حكماء تُفَتِّت القلب، ومحادثة الفضلاء ينبوع عذب.

❖ لا تتنازل مع المسترخين، وإلا صيَّرت نفسك في الدرجة السفلى، بل لتكن مناجاتك مع مُحِبّي الخير، ليكون سكناك معهم في الأعالي. لذلك ليكن مقامك بشجاعة في المواضع التي فيها المعرفة العليا. اذهب إلى بلدة النور ولا تتنازل مع الخطاة.

مار اسحق السرياني

❖ **لا تضلوا، فإن المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة" (١ كو ١٥: ٣٣)...** أنت تحتقر الذهب، يوجد آخر يحب الذهب.

أنت ترفض الغِنَى، هو يطلب الغنى بشغفٍ.

أنت تحب الصمت والضعف والحياة الخاصة، أما هو فيجد سعادته في الأحاديث الباطلة بلا تريث في الميدان العام والشوارع ومتاجر المخدرات...

لا تبقَ معه تحت سقفٍ واحدٍ. لا تعتمد على عفتك السابقة. فإنك لا تقدر أن تكون أكثر قداسة من داود أو أحكم من سليمان...

إن كان دورك في العمل الكهنوتي هو أن تفتقد أرملة أو عذراء لا تدخل البيت وحدك. ليصحبك أشخاص لا يسيئون إليك...

لا تجلس بمفردك مع سيدة سرًا بدون شهود. إن كان لديها أمر سري تريد أن تبوح به، يجب أن يكون معها مربية أو عذراء أو أرملة، أو سيدة متزوجة. لا تقدر أن تفيض بأسرارها لك بدون وجود صديقة لها[٢].

---

[١] راجع الحب الأخوي، ٢٠٠٧، ص ٤٥-٧٢.

[2] *Letter 32.*

❖ ألا ترى أن "**المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة؟**" بها لا تقدر أن تنطق بالإنجيل، وإنما تسمع كلمات الأوثان. بها تفقد الحق أن المسيح هو الله، وما تشربه هناك تتقيأه في الكنيسة[1].

القديس أغسطينوس

❖ شاب يصاحب شابًا للشرّ، فليبكِ عليهما المفرزون.

❖ أيها المحب لله، حين ترى المنافقين يتراشقون بألفاظ الغش والتدليس اهرب من هناك، لئلا يتعلَّق بأذنيك ألفاظهم القاتلة.

❖ هذه هي وقود الشيطان الذي يصارعنا، والتي توقد النار التي تحرقنا: الحديث الفاسد مع العلمانيين... وأم الشرور إنما هي الحنجرة ومعاشرة الإخوة البطالين. فإن تعرَّت نفوسنا من هذه الوقود المحرقة لا تقع في مصائد مصارعنا، وبسرعة تقدر أن تطير إلى الله، وبه تتخلَّص من مكائد إبليس.

صداقة رفقاء الكسل واللهو تملأك شراهة وشرًا.

آه ما هذه المحبة النجسة والفعل الطامث؟! اهرب من الذين اعتادوا على هذا يا أخي. لا تأكل معهم ولا تُصَادِقهم. نجسة هي مائدتهم، والشياطين يكونون مساعدين لتهيئتها، محبو الختن المسيح لا يذوقونها.

وليمة الإنسان الشره الملهي بالأطايب... تدنس نفس الوديع، وكسرة خبز يابسة من مائدة طاهر النفس، تجليها من كل الأوجاع والأدناس.

رائحة مائدة الشر تفسد نية الأطهار، والطفل ينجذب إليها مثل الكلب إلى بيت الجزار. والمواظب كل حين على الصلاة، مائدته تفوق رائحة المسك، ومن هو محب لله يشتاق كمثل الكنز.

الشيخ الروحاني

❖ إذا اتخذت لك صديقًا أمينًا وقَبِلَكَ إليه، فإن كنت ضعيفًا فهو يشدِّدك ويجعلك شجاعًا. ويجعلك عمَّالاً مجاهدًا، ويصير لك سياجًا متينًا وسندًا قويًا يعينك، ويكون لك كشجرة مظلِّلة تستريح عنده من جميع أتعابك. ويكون لك قوة وثباتًا وعزاءً في ضيقك، وتجده في شدائدك يحمل جميع أتعابك. وإذا ألقيت عليه أتعابك كلها يرفعها عنك.

القديس أنبا بولا الطموهي

---

[1] *Sermons on New Testament Lessons.*

❖ إذا عجزت عن أن تكون غنيًا بالله، فالتصق بمن هو غني به، لتسعد بسعادته، وتتعلَّم كيف تمشي حسب أوامر الإنجيل.

القدّيس باخوميوس

❖ إن كانت لك صداقة مع أحد الإخوة وانتابك ضرر بسبب مخالطتك إياه، أسرع واقطع نفسك منه. لست أقول لك هكذا أيها الحبيب لتبغض الناس، كلا، وإنما لتقطع أسباب الرذيلة.

مار أفرآم السرياني

❖ اسمع ما يقوله الرب: "فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك. خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تُلقَى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان. وأن أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك. خير لك أن تدخل الحياة أعور من أن تُلقَى في جهنم النار ولك عينان" (مت ١٨: ٨، ٩). إنه لم يقل ذلك عن الأعضاء، بل عن الإخوة، ومن أجل الأقرباء الذين لهم عندنا منزلة الأعضاء الضرورية... فيقول إنه ليس شيء أضرّ من الاجتماع الرديء والمؤانسة الخبيثة، لأن الصداقة مرارًا كثيرة تضر أو تفيد... فيأمرنا بصراحة شديدة أن نقطع الذين يضروننا...

إنه لم يقتصر على إعطائه الويل لمن تأتي منه الشكوك، بل أظهر لنا الطريق التي يخلص بها الإنسان من الشكوك. ما هو هذا الطريق؟ قال اقطع صداقة الأشرار... فلا تربحهم وتُهلك معهم نفسك.

❖ إذا كانت المعاشرات الرديئة تُفسِد الأخلاق الجيدة كما يقول الرسول، فينبغي علينا أن نهرب دائمًا من معاشرة الأشرار والمستهزئين وأمثالهم. لأن الاختلاط بهم، وسماع حديثهم يجذب سليمي القلوب إلى التخلق بأخلاقهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

النفس الشريرة تُهلِك صاحبها،

وتجعله موضع سخرية خبيثة لدى أعدائه [٤].

مسيحنا القدوس يطلب في صلاته الوداعية: "لأجلهم أُقَدِّس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضًا مُقَدَّسين في الحق" (يو ١٧: ١٩). يليق بالمؤمن لا أن يتقدَّس بالربّ فحسب، بل ويطلب من أجل كل البشرية كأصدقاء له أن يتقدَّسوا في الحق، فينعم بالصداقة معهم حتى في السماء إلى الأبد.

هـ. لسانه حلو: ففي كل صباحٍ يُرَنِّم: "ضع يا ربّ حارسًا لفمي، وبابًا حصينًا لشفتي" (مز ١٤١). خلال هذه الحراسة الإلهية يصير لسانه عذبًا يجذب الكثيرين للصداقة البناءة. إن كان لنا أصدقاء

قديسون يبلغون الألف، لكن ليس من صديقٍ يحتل كل القلب والفكر والمشاعر، يقود أعماقنا وكلماتنا وسلوكنا، سوى الصديق الواحد، ربّ المجد يسوع.

٢. اهرب من الصديق الشرير

الحديث العذب يُكثِر أصدقاءه،

واللسان اللطيف يُكثِر التحيات الطيبة [٥].

الصديق الحقيقي على عكس الأحمق، حديثه عذب، يمكن بسهولة الاقتراب إليه، كما يسهل اقترابه هو إلى الغير. الحديث العذب المملوء حبًا ورقة هو ذخر لتكوين صداقات ناجحة. وعلى العكس الأحاديث السلبية كالمزاح غير المُهذَّب والسخرية والكلمات القاسية تُحَطِّم الصداقة وتُحَوِّلها إلى عداوة. من هم الأصدقاء الذي اجتذبهم صوت المصلوب الحلو سوى المؤمنين من كل الأمم. ومن هم الوقورون سوى الطغمات السمائية التي تتهلل بخلاصنا. الكلمة الطيبة تُهَيِّئ الطريق للصداقة [٦: ٥]، أما الحديث الفظ فيُفسِد الصداقة (أم ١٦: ٢١؛ ٢٢: ١١).

و. **اجتاز امتحان الصداقة** [٧]: يليق بالإنسان أن يفحص أصالة الصداقة (مت ٧: ١٦)، بتقييم سلوك الصديق وقت الشدة. واضح أن ابن سيراخ عانى من أصدقائه السابقين، وأنقذه الله نفسه (٥١: ٢-٣).

ليكن المُسالِمون لك كثيرين،

والمشيرون لك من الألف واحدًا [٦].

الصداقة المثالية الفائقة هي التي أعلن عنها السيد المسيح عن نفسه، فمات بالجسد ليهبهم الشركة معه في حياته وأمجاده. هكذا فتح مسيحنا باب الصداقة للبشرية خلال الصليب؛ والعجيب أن الذين صلبوه بنو البشر، سمعوه يقول: "يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لو ٢٣: ٣٤).

❖ لا تتخذ لك أصدقاء كثيرين، فتمكث في راحة جميع أيام حياتك.. لأنه مكتوب: إذا كثرت أشغالك فلن تنجو من الخطية. "ليكن مشيرك واحدًا من الألف" (راجع سي ٦:٦)، وأيضًا: "الصديق الأمين دواء الحياة" (سي ١٦:٦)، كذلك: "الصديق الأمين صلاحه لا موازن له. الصديق الأمين لا يُعادِله شيء" (راجع سي ١٥:٦).

القديس أنبا بولا الطموهي

إذا اتَّخذت صديقًا فاتّخذه بعد الامتحان،

ولا تثق به سريعًا [٧].

عادة يأخذ الإنسان حذَّره من تصرُّفات العدو، غير أنه يجب أن يحذر من تصرفات الصديق غير المتوقَّعة منه. يقول الإنجيلي يوحنا: "لكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه، لأنه كان يعرف الجميع، ولأنه لم يكن محتاجًا أن يشهد أحد عن الإنسان، لأنه علم ما كان في الإنسان (يو ٢: ٢٤-٢٥).

ز. لا تقوم الصداقة على منفعة خاصة:

فيوجد الصديق من أجل نفعه الخاص،

لكنه لا يبقى بجوارك في يوم شدَّتِك [٨].

يُحَذِّرنا ابن سيراخ من الصداقة لأجل نفعٍ شخصي، عِوَض الانفتاح على الآخرين خاصة في أوقات الضيق. توجد صداقات حتى بين الخطاة والمُجرِمين لأجل منفعة شريرة مُشترَكة.

ويوجد صديق قد ينقلب إلى عدوٍ،

فيُعلِن الحرب على سيّئاتك [٩].

الصداقة غير المُخلِصة، لسبب أو آخر تنقلب إلى عداوة، مع استغلال ضعفات الأصدقاء للتشهير بهم. يُعَيِّر ابن سيراخ عما يجول في خاطر الكثيرين عبر كل العصور، وهو المخاوف من الصداقات المؤقتة، خاصة تلك التي تنقلب إلى عداوة! لذلك سجَّل لنا الجوانب السلبية كما الإيجابية لننعم بالصداقات الحقيقية مع كلمة الله المتجسد، ومع إخوتنا في البشرية.

ح. لا تقوم الصداقة على المجاملات والحفلات:

ويوجد صديق يُجالِسك إلى المائدة،

ولكنه لا يقف بجوارك في يوم شدَّتِك [١٠].

من الصداقات التي بلا جذور حقيقية، تلك التي تقوم على المجاملات والحفلات دون المساندة وقت الضيق. المجاملات والحفلات خاصة المُبالَغ فيها، تُحرِج الأصدقاء العاجزين عن مجاراة هذه التصرفات بسبب المبالغة في تكاليفها. للصداقة مستويات كثيرة، يوجد صداقات على مستوى موسمي، مثل صديق الدراسة، متى تخرَّج الشخص في جامعته تختفي صداقته مع زملائه في الدراسة. وتوجد صداقات بين الأطفال قد تستمر مدى الحياة، حتى وإن وجدت مسافات طويلة بين إقامة الأصدقاء. كما توجد صداقات تنقطع لظروفٍ لاإرادية، لكن يبقى الإنسان أمينًا لصديقه حتى لو لم يعد يراه، بل وحتى بعد الموت، كصداقة داود ويوناثان بن شاول (١ صم ٢٠: ١٣-١٥)؛ بقي داود أمينًا في وعده لصديقه حتى بعد موت صديقه.

❖ ألا تعرف من هو الصديق غير المُخلِص الذي يجلس إلى المائدة؟ إنه يهوذا نفسه الذي خان

السيد بقبلةٍ، صار مُرائِيًا بقبلته الخائنة، وصار مثالاً للشعب الذي قيل عنه: "هذا الشعب قد اقترب إليّ بفمه وأكرمني بشفتيه، وأما قلبه فأبعده عني" (راجع إش ٢٩: ١٣)[1].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ كيف يختلف الصديق عن المُتملِّق؟ المتملِّق يتحدَّث ليُعطي لذَّة، أما الصديق فلا يحجم عن شيءٍ حتى ولو كان فيه ألم.

القدّيس باسيليوس الكبير

❖ ليس شيء يثبت الحب بقوة مثل المشاركة في الفرح والألم. ليس لأنك بعيد عن المتاعب تنعزل عن مشاركة الآخرين أيضًا. فعندما يتعب قريبك احسب الضيق خاصًا بك. شاركه دموعه لكي تسند روحه المنسحقة، وشاركه فرحه ليصير الفرح فيه عميقًا متأصلاً.

ثبّت المحبة، بهذا تخدم نفسك أكثر من خدمتك له. فبدموعك تصير رحومًا، وبمشاعر البهجة تنقي نفسك من الحسد والغم... إن كنت لا تستطيع أن تنزع عنه الشرور شاركه بدموعك، فتزيل عنه نصف الشر؛ وإن كنت لا تستطيع أن تزيد خيراته، فشاركه فرحه فتضيف إليه أمرًا عظيمًا[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

ط. **لا تتعدَّى الصداقة الحدود اللائقة:** يرفض الصداقات دون الالتزام بالحدود اللائقة. كأن يتعامل الشخص مع أسرة الصديق وخدامه بجسارة زائدة معتمدًا على ثقة صديقه فيه.

في نجاحك يكون كأنّه مثلك،
ويخاطب خدامك بجسارة [١١].

لكن إذا انحططت ينقلب عليك،
ويتوارى عن وجهك [١٢].

الصديق الأمين يبقى مُخلِصًا في أيام يُسرّه كما في أيام الشدة.

ي. **الحذر من الأصدقاء،** فمع اتساع القلب بالحب للأصدقاء والثقة فيهم، يُحَذِّرنا ابن سيراخ فلا نسمح لأنفسنا أن نكسر وصية إلهية أو نتجاهلها من أجل صداقتنا مع أحدٍ.

تباعد عن أعدائك،

---

[1] *Paedagogus, FOTC, Vol. 23, p. 148-149.*

[2] *In Rom. hom. 22.*

واحذر من أصدقائك [١٣].

٣. من هو الصديق الفريد الأمين؟

بعد أن تحدَّث عن الجوانب السلبية للصداقة غير المُخلِصة (٦: ٨-١٣)، تحدَّث عن الصديق المُخْلِص (٦: ١٤-١٧) الذي هو كنز لا يُقَدَّر بثمنٍ. يتحدَّث هنا عن الصداقة الفريدة مع السماوي!

يجد المؤمن في المسيح يسوع صديقًا فريدًا، متى اتحد به بعمل الروح القدس يتمتَّع بشركة الطبيعة الإلهية (٢ بط ١: ٤). بهذا ينعم بعمل سماته فيه فيتأهَّل أن يقيم صداقة مع الكثيرين.

الصديق الفريد الأمين:

أ ملجأ حصين [١٤]: نتحدَّى قوى إبليس الذي يسحقه الربّ تحت أقدامنا. هكذا يرى أصدقاؤنا فينا أناس الله المحفوظين فيه، نطلب عنهم كي يذوقوا فينا عمل المُخَلِّص المُنقِذ من الشرّ.

ب. كنز ثمين [١٤]: من يقتنيه لا يشعر باحتياجٍ وعوزٍ. لأن مسيحنا هو كنزنا. وبالمسيح يسوع نُقَدِّم ما للمسيح لهم، فيشبعون ويرتوون لا منا، بل من العامل فينا وفيهم!

ج. لا يُعادِله شيء [١٥]: بالمسيح يُحَوِّل الربّ قلوبنا إلى سماءٍ جديدةٍ، ويُعلِن ملكوته فينا كوعده الصادق (لو ١٧: ٢١). بصداقتنا مع أحبائنا، نتمتَّع بوعده "إن اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي أكون في وسطهم" (مت ١٨: ٢٠).

د. دواء الحياة: فهو طبيب النفوس والأجساد، يُقَدِّم لنا جسده ودمه نتناولهما، فننعم بالحياة الأبدية (يو ٦: ٥٢). بكونه رأس الكنيسة، نشارك إخوتنا المرضى روحيًا، سائلين الربّ أن يُعلِن نفسه لهم طبيبًا ودواءً لنفوسهم.

هـ. لن نتمتَّع بهذا الصديق السماوي ما لم نسلك **بمخافة الربّ** [١٧].

الصديق الأمين ملجأ حصين،
ومن وجد واحدًا وجد كنزًا [١٤].

الصديق الأمين لا يعادله شيء،
وليس من يقدر أن يزن سموَّه [١٥].

بعد أن كشف ابن سيراخ عن حاجة البشرية إلى صديقٍ مُخْلِصٍ، مُحَذِّرًا إيانا من الصداقات التي بلا جذورٍ أصلية، مُعلِنًا عن عظمة الصداقات الحقيقية، الآن يرفع الستار عن هذه الصداقة ألا وهي الاتحاد مع الحكمة الإلهية، خلال الرغبة الصادقة في التعليم المستمر، الأمر الذي لأجله تجسَّد حكمة الله نفسه لنقتنيه فينا، ونقطن نحن فيه، ونتمجَّد معه إلى الأبد.

❖ ليس في هذا العالم من هو أثمن من الصديق المُخْلِص، وليس من ميزان يقدر أن يزن سموه.

الصديق الأمين ملجأ راسخ، وقصر حصين.

الصديق الأمين كنز الحياة.

الصديق الأمين أفضل من الذهب، وأثمن من الحجر الكريم.

الصديق الأمين جنة مُغلَقة وينبوع مختوم (نش ٤: ١٢)، يُفتَح ويتمتَّعون به في حينه.

الصديق الأمين ميناء مُنعِش، يفوق كل فهمٍ؛ يا له من نعمة عظيمة![1]

القديس غريغوريوس النزينزي

الصديق الأمين دواء الحياة،

والذين يخافون الرب يجدونه [١٦].

يليق بالمؤمن أن يجد في صديقه مخافة الربّ، فإن هذا هو الضمان للصداقة الحقيقية بينهما، فمن لا يُصادِق الربّ، لا يؤتمن على الصداقة معه.

❖ "الصديق الأمين دواء الحياة" (سي ٦: ١٦).

لا يوجد علاج مُؤثِّر في شفاء الأوجاع مثل الصديق الصادق الذي يُعَزِّيك في ضيقاتك، ويُدَبِّرك في مشاكلك، ويفرح بنجاحك، ويحزن في بلاياك. من وجد صديقًا هكذا، فقد وجد ذخيرة. فالصديق الأمين لا شبيه له، فوزن الذهب والفضة لا يُعادِل صلاح أمانته (سي ٦: ١٤، ١٥).

❖ بحقٍ ليكن لك صديق تدعوه "نصف نفسي".

❖ لا توجد صداقة حقيقيّة، ما لم تجعلها كوصلة تلحم النفوس، فتلتصق معًا بالحُبّ المُنسكِب في قلوبنا بالروح القدس.

❖ لا يوجد علاج مؤثر لشفاء الآلام مثل الصديق الصادق الذي يُعَزِّيك في ضيقاتك.

القدّيس أغسطينوس

الذي يخاف الرب يُحسِن توجيه صداقته،

فكما يكون هو يكون قريبه [١٧].

❖ يتلامس الإنسان بعقله مع القوة الإلهية غير الموصوفة، وبجسده يقترب من الحيوانات. لكن قليلين من هم حقًا عقلاء ومجاهدون في توجيه أفكارهم نحو الله الفادي والتمتُّع بالقرابة معه، وإظهار هذا

---

[1] *Select Orations, F. C., Vol. 107, p. 30-31.*

في أعمالهم وحياتهم الفاضلة. أما الأغلبية، هؤلاء الذين ينقص أرواحهم الإحساس الصالح، فإنهم يستهينون بالبنوة الإلهية الخالدة، ويميلون نحو القرابة الجسدية البائسة قصيرة الأمد التي تنتهي يومًا ما، مُفَكِّرين فقط فيما هو جسدي، ملتهبين بالشهوة كالحيوانات العُجم، حارمين نفوسهم من الله بأفعالهم، منحدرين بأرواحهم من السماء إلى هاوية الشهوات الجسدية[1].

القديس أنطونيوس الكبير

من يحمل مخافة الرب في قلبه، ويسلك بروح التقوى في حكمة الروح يحصل على صداقة صالحة ليس بين البشر فحسب، بل وحتى مع الطغمات السماوية كالملائكة.

❖ غنى المعرفة والحكمة يجلب إلينا الكثير من الملائكة، أما الشخص الفاسد فيُعزل حتى من الملاك الذي وُهب له عند ميلاده. الصداقة الروحية هي فضيلة، وخلال معرفة الله ترتبط أنفسنا بصداقة مع القوات المقدسة. هكذا يقال إن البشر الذين يتوبون يُسَبِّبون فرحًا للملائكة (لو ١٥: ١٠) إذ يصيرون مُستعدِّين أن ينالوا حكمة أعظم. هكذا أيضًا إبراهيم، الغني في المعرفة، قدَّم مائدة سرية للأصدقاء الذين ظهروا له في منتصف النهار[2].

القديس أوغريس

٤. الصداقة والتعلُّم *paideia*

الطريق للتمتُّع بالصداقة مع الحكمة ذاتها هو:

أ. التعليم المُستمِر من أجل اقتناء الحكمة [٢٢-١٨].

ب. نيرها حلو [٢٥-٢٣].

ج. البحث عنها [٢٨-٢٦].

١. تقدم لك راحة [٢٨].
٢. حماية قوية [٢٩].
٣. مجد بهي [٢٩].
٤. خبرة سماوية [٣٠].
٥. علم وحذاقة [٣٢].
٦. معرفة وحكمة [٣٣].

وردت كلمة *paideia* في سفر الأمثال في الترجمة السبعينية ٢٨ مرة، وغالبًا ما تترجم *musar* أي "التهذيب" أو "التدريب". وفي هذا السفر وردت ٣٦ مرة، وهي تعني معنى أعمق من "التعلُّم".

أ. يليق بالمؤمن أن يكون مُحِبًا للتعلُّم منذ شبابه [١٨]. يحتاج التلاميذ إلى طلب الحكمة في شبابهم.

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٤٢.

[2] *Scholia on Proverbs 189: 9: 4*

ب. طريق الحكمة ضيق يحتاج إلى جهادٍ وصبر، فالمُجاهِد أشبه بمُزارعٍ يحرث ويزرع وينتظر الحصاد الصالح، فينعم بالثمار المُفرِحة [١٩]. الحمقى يستصعبون الصبر والجهاد، ويحسبون ذلك ثقيلاً على نفوسهم، والحكيم يحسب هذه المتاعب أمرًا بديهيًا (أم ١٢: ١؛ عب ١٢: ١١).

ج. نتمتَّع بالصداقة مع الحكمة خلال التأدُّب بقلبٍ جادٍ [٢٠].

د. لا نخشى التجارب طول الطريق، بها نعبر إلى الأمجاد [٢١-٢٤].

هـ. ما دمنا في الجسد لا نتوقَّف عن البحث عن الحكمة والتمسُّك بها حتى النفس الأخير [٢٥-٢٨].

و. قبول الحكمة كعروسٍ سماويةٍ وملكةٍ متهللةٍ [٢٩-٣١].

ز. النمو فيها بالتعلُّم المُستمِر، والانتفاع بخبرة الشيوخ الأتقياء، والتمتُّع بالوصية الإلهية [٣٢-٣٧].

يا بني، اختر التعليم منذ شبابك،

فستجد الحكمة في شيبتك [١٨].

للتمتُّع بالحكمة، يلزمنا الاهتمام بالحياة الداخلية، حيث يصير الشخص في دور النضوج بعد التدرُّب على تقديس النفس وضبط الأهواء، وممارسة الحياة الفاضلة، وإدراك مفهوم التقليد الحقيقي ودراسة شريعة الله وطلب النعمة الإلهية، فيهبه الربّ الحكمة الحقيقية. يتدرَّب الشخص على هذا لينعم في شيبته بالحكمة الناضجة. كتب **القديس أغسطينوس** إلى ابنه المحبوب في الربّ *Palatianus*: [معاملاتك القوية والمُثمِرة مع الربّ إلهنا قادتنا إلى فرحٍ عظيمٍ. لقد اخترت تعليمك منذ صباك كي تجد الحكمة عند شيبتك (سي ٦: ١٨). فإن فهم الإنسان هو شيبة الشعر، والحياة التي بلا دنسٍ هي سن الشيخوخة (حك ٤: ٨-٩)[1].]

❖ "بِمَ يُزَكِّي الشاب طريقه؟ بحفظه إياه حسب كلامك" (راجع مز ١١٩: ٩)... هل ييأس الشيخ من ذلك؟ أو هل يُصلح الشيخ طريقة بوسيلة أخرى غير كلمة الله؟ أم هذه نصيحة لكي نعرف أي عمر يلزمنا في المقام الأول أن نصلح فيه طريقنا، حسب ما هو مكتوب: "يا بني اتخذ التأديب منذ شبابك، فتجد الحكمة إلى مشيبك" (راجع سي ٦: ١٨)[2].

القديس أغسطينوس

❖ تقريبًا كل المحاسن الجسدية تتغيَّر مع الزمن. بينما الحكمة وحدها تزيد إذًا بكل الأعمال الأخرى (في الإنسان) تضمحل. الصوم والنوم على الأرض والتحرُّك من موضعٍ إلى آخر وكرم الضيافة

---

[1] *Letter 218.*

[2] *On Ps 119 (118)*

للمسافرين، والدفاع عن الفقراء، والمثابرة على الوقوف في الصلاة، وزيارة المرضى، وعمل اليدين لجلب مال لتقديم الصدقة؛ كل الأعمال في اختصار هذه التي يُمارِسها الجسم تقل بضعفه[1].

القديس جيروم

أقبل إليها مثل الحارث والزارع،
وانتظر حصادها الصالح،
فإنك تتعب قليلاً في عملها،
فستأكل من ثمرها سريعًا [١٩].

دور المؤمن الجهاد في الصلاة وقبول التهذيب وتعلُّم شريعة الله، وهكذا يحرث ويغرس ويعتني بقلبه وفكره لتصير أعماقه حقل الربّ المملوء بثمر الحكمة. كما أن الفلاح الذكي لا يطلب الثمرة في الحال، بل يُعِدّ الأرض ويُنَقِّيها من الحجارة والأشواك ويقوم بحرثها والبذر والسقي الخ. وأخيرًا يجمع الثمار، هكذا يليق أن يعمل من يطلب ثمر الحكمة. هذا ويليق به ألاَّ يتوقَّف عن العمل الجاد في اقتناء الحكمة وممارستها مدى حياته كلها، حتى لا تتحوَّل أرض قلبه إلى بورٍ وجفاف بسبب إهماله.

يقول **القديس أمبروسيوس** إنه واحد فقط يُعَلِّم ولا يحتاج إلى التعلُّم، وهو الله. أما نحن فمهما يكن مركزنا أو عمرنا أو ثقافتنا نبقى محتاجين إلى التعلُّم كل يوم إلى لحظة انطلاقنا من هذا العالم.

❖ "**اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيِّق**" (لو ١٣: ٢٤)... الطريق المستقيم ضيِّق، أي انحراف عنه مملوء بالمخاطر، سواء على اليمين أو اليسار. إنه كجسرٍ، من يزلّ عنه من أي جانب منه يسقط في النهر[2].

❖ "ارجعي يا نفسي إلى راحتكِ، لأن الرب قد أحسن إليكِ". (مز ١١٦: ٧) المتباري الشجاع يُطَبِّق على نفسه هذه الكلمات المُعزّية تمامًا، مثل بولس عندما يقول: "قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، وحفظت الإيمان، وأخيرًا وُضِعَ لي إكليل البرّ" (٢ تي ٤: ٧-٨). قال النبي هذا عينه لنفسه: "حيثُ أنكِ تُتَمِّمين بكفاية طريق هذه الحياة، ارجعي إلى راحتكِ، لأن الرب قد أحسن إليكِ". لأن الراحة الأبدية تُوضَع قدام الذين يُجاهِدون في الحياة الحاضرة، حافظين الشرائع، راحة ليست مُقابِل دين بسبب أعمالنا، بل من أجل نعمة الله السخي للذين يترَّجونه[3].

---

[1] *Letter 52:3.*

[2] *Catena Aurea.*

[3] *Homilies, 22. F.C. vol 46, p. 356-57.*

❖ إنه يصف الراحة المستقبلية، مُقارِنًا إياها بالأمور الحاضرة. يقول: هنا أحزان الموت قد أحاقت بي، أما هناك فقد خلَّص نفسي من الموت. هنا عيناي تسكبان الدموع بسبب المتاعب، وأما هناك فلا تعود توجد دمعة تظلم أعين الذين يتهلَّلون بالتأمل في جمال مجد الله. إذ يمسح الله كل دمعة من كل وجهٍ[1].

القديس باسيليوس الكبير

❖ يقول **باسيليوس الكبير:** لا يمكننا أن نَتَمَتَّع بالروح الطاهر مادامت الأدناس في قلوبنا، وأيضًا حبّوا الله بدون غشٍ، من كل نفوسكم ومن كل قلوبكم ومن كل نياتكم، فلا يعتري إيمانكم ريب أو شك في أن الله هو المُعِين. وأيضًا "**اسكبوا قلوبكم**" معناه ابذلوا جهدكم وفرِّغوا غايتكم للتضرُّع والابتهال لله. السكب معناه الغزارة والوفرة، كقول الرسول إن محبة الله انسكبت في قلوبنا.

الأب أنسيمُس الأورشليمي

فهي شاقة على غير المتأدِّبين،

ولا يستمر معها فاقد القلب السليم [٢٠].

يُحَذِّرنا من التسرُّع في حصادٍ غير ناضج، لذا يليق بالشاب أن يتمتَّع بخبرة السابقين. بالنسبة للجاهل وغير المتأدِّب تبدو له الحكمة أنها شاقة وتتطلَّب جهدًا واشتياق القلب لها، فيشعر بسعادة متزايدة ومستمرة، تُحوِّل حياته إلى فردوسٍ دائمٍ، فلا يشعر بملالٍ، إنما يشعر بلذة التجديد المستمر.

فتكون ثقيلة عليه كحجر التجربة،

فلا يلبث أن يلفظها عنه [٢١].

الشاب الذي يدَّعي أنه قد نضج في الحكمة، يكون كمن يصطدم بحجرٍ ثقيلٍ يُحَطِّمه. لعل ابن سيراخ يشير هنا إلى المشاق الكثيرة التي تكبدها في سبيل حصوله على الحكمة، من صلاة لطلب الحكمة من الله، والأسفار سعيًا في طلبها مع عدم الاستحياء من طلبها من الصغار والكبار معًا (راجع سي ٣٩: ١-١١).

لأن الحكمة جديرة باسمها،

ولا تُعلَن للكثيرين [٢٢].

اسمع يا بني واقبل رأيي،

---

[1] *Homilies on Ps. 114.*

ولا تنبذ مشورتي [٢٣].

أدخِلْ رجليك في قيودها،

وعنقك في طوقها [٢٤].

نير الحكمة يبدو في البداية قيودًا ثقيلة، من يخضع لها بإرادته فيضبط نفسه، تتحوَّل القيود إلى نير حلو وهيّن كقول السيد المسيح (مت ١١: ٢٩-٣٠). يجدها المؤمن حلة مجيدة، وعلامة كرامة.

❖ يمكن أيضًا أن يُفهَم أن الذين يُكبَّلون بوصايا الحكمة مقيّدون، هؤلاء الذين بالصبر تتحوَّل الأغلال إلى زينات، كما هو مكتوب: "أدخِل قدميك في قيودها" (راجع سي ٦: ٢٤)[1].

❖ قيل: "أدخل قدميك في قيود" الحكمة، حيث تتعلَّم الحكمة. إنه يقصد قدمي القلب لا الجسم؛ يُربطا بسلاسلها الذهبية، فلا يترك طريق الله، ولا يصير هاربًا منه، وما نقرأه نتبَّناه ويكون المعنى الحق في أمان[2].

❖ كثيرون احتفظوا بكونهم من الأشراف، احتفظوا بسلطانهم الملوكي، ومع هذا فهم مسيحيون. مثل هؤلاء كمن هم في قيود ورباطات من حديد. كيف هذا؟ لقد قبلوا القيود لكي تحفظهم من الذهاب إلى الأمور غير الشرعية، قبلوا قيود الحكمة، قيود كلمة الله.

لماذا هي قيود من حديد وليست من ذهب؟ إنها حديد ما داموا يخافون. ليحبّوا فتصير من ذهب... **البداية هي قيود من حديد، والنهاية هي قلادة من ذهب**[3].

❖ ضعف الجسد وفساده بالحقيقة هما قيدان يثقلان على النفس (حك ٩: ١٥). هشاشة الجسم تشبه مادة يستخدمها مُضطهِد لتُسبب ألمًا وتعبًا، هكذا (ضعف الجسد) يضغط على كثير من القديسين نحو الشرّ. اشتاق الرسول أن يتحرَّر من هذه القيود وأن يكون مع المسيح، أما أن يبقى في الجسد فمن أجل الضرورة لصالح الذين يخدمهم بالإنجيل (في ١: ٢٣-٢٤). إلى أن يلبس هذا الفاسد عدم الفساد وهذا المائت عدم الموت (١ كو ١٥: ٥٣)، الجسد الضعيف يحبس إرادة الروح (مت ٢٦: ٤١؛ مر ١٤: ٣٨). لا يشعر أحد بهذه القيود سوى الذين يئنون في الداخل، المثقلون (٢ كو ٥: ٣-٤)، ويريدون أن يلبسوا الخيمة التي من السماء، لأن الموت مُرعِب والحياة الميتة تجلب حزنًا. ضاعف الرسول تنهُّداته من أجل الأشخاص الذين يتألَّمون، حتى تبلغ تنهُّداتهم أمام عيني

---

[1] *On Ps 79 (78)*

[2] *On Ps 95 (89)*

[3] *On Ps 150.*

الربّ. الذين يُربطون بتأديبات الحكمة يمكن أيضًا أن تُحسَب هذه قيودًا. لكن من يحتمل هذه التأديبات بصبرٍ، تتحوَّل هذه القيود إلى حليّ، لهذا كُتب: "ادخِل رجليك في قيودها" [٢٤][1].

القديس أغسطينوس

أحنِ كتفك تحتها واحملها،

ولا تغضب من قيودها [٢٥].

أقبل إليها بكل نفسك،

واحفظ طرقها بكل قوّتك [٢٦].

اقتناء الحكمة يتطلَّب منا ضبط النفس والتنازل عن الميول الطبيعية للإنسان مثل رغبته الجامحة إلى الكلام ورغبته كذلك في التسلُّط والتقدُّم على الآخرين والمباهاة، ومن ثم من أراد اقتناء الحكمة فعليه التنازل عن كل ذلك. ربما كان ذلك بالنسبة له في البداية مثل نيرٍ ثقيلٍ، عليه أن يحمله بفرحٍ وصمتٍ، ولن يلبث طويلاً حتى يجده خفيفاً مُفرِحًا. ولعل ابن سيراخ كان ماثلاً قدامه يوسف الصديق كمثل حي في هذا الصدد وهو من الرجال الحكماء في الكتاب المقدس وفى الأدب، وحيث ارتبطت فيه النبوة بالحكمة ولم يحصل على الموهبتين إلا بعد تمحيص وتجربة ونيرٍ ثقيلٍ (تك ٣٧: ٢٨)؛ مز ١٠٥: ١٦-٢٢)[2].

❖ يجب على العقلاء ألا يصغوا إلى كل صنوف الأحاديث، بل إلى النافع منها الذي يقود إلى فهم إرادة الله. إذ إرادته هي الطريق الذي يعود بالناس إلى الحياة والنور الأبدي مرة أخرى[3].

القديس أنطونيوس الكبير

ابحث عنها واطلبها، فتصير معروفة لديك،

وإذا أمسكتها فلا تفلتها[4] [٢٧].

❖ إن كان بالنسبة لي "الحياة هي المسيح" (في ١: ٢١)، بالحق يليق أن تكون كلماتي **عن المسيح، وكل فكري وعملي يعتمد على وصاياه، وأن تتشكَّل نفسي لتكون مثله**[5].

القدّيس باسيليوس الكبير

---

[1] *Exposition of the Psalms 78: 15.*

[2] راجع نيافة الأنبا مكاريوس.

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٢٤.

[4] وعندما تضبط نفسك لا تتركها.

[5] *Letter 159 to Eupaterius and his daughter, 1.*

ففي أواخرك تجد راحتها،
وتتحول إلى بهجة لك [٢٨].

فتكون قيودها كحماية قوية لك،
وأغلالها حلة مجيدة [٢٩].

ويكون نيرها زينة من ذهبٍ،
وقيودها خيطًا أزرق [٣٠].

فتلبسها كحلة مجيدة،
وتتقلدها كإكليل غاية في الابتهاج [٣١].

إذا ما اقتنيت الحكمة تصبح مفخرة لك، وتصبح مثل إكليل يُزَيّن الرأس، وقلائد تُزَيّن العنق "إكْليل نعْمةٍ لرأْسك وقلائد لعنقك" (أم ١: ٩). فإن الحكمة المتمثلة سواء في حسن الكلام أو السلوك هي مدعاة للبهجة لكل من الحكيم والذين حوله. لذلك كان الملوك والرؤساء والولاة في كثير من الممالك يحيطون أنفسهم بالحكماء والفلاسفة يزينون بهم مجالسهم وقضاءهم وقصورهم، وربما تذكرنا مظاهر الحكمة المجسدة هنا (حماية قوية، حلة مجد، حلي ذهبية، ثياب بنفسجية، قرمز، إكليل ابتهاج) ما وهبه فرعون مصر ليوسف: الخاتم والثوب والكتان والسلسلة الذهبية (تك ٤١: ٤٥). تشير السلاسل الإسمانجونية على وجه الخصوص إلى الشريعة. جاء في سفر العدد أن الإسرائيليين ملتزمون بوضع عصابة من إسمانجوني على هدب ذيل ثيابهم، يرونها فيتذكرون كل وصايا الربّ ويعملونها (عد ١٥: ٣٨-٣٩). أما هنا فيرى الأتقياء قيود الحكمة زينة ذهبية بعصابة إسمانجونية، ويرتدون ثوب مجدٍ ويحملون إكليلاً ساميًا (٦: ٣٠-٣١). حقًا إن الحكمة السماوية تُقِيم من المؤمن كاهنًا يُقَدِّم ذبيحة التسبيح والشكر (رؤ ١: ٦)، يرتدي ثوبًا مجيدًا (٥٠: ١١)، وإكليلاً فاخرًا (أم ٤: ٩)[١].

متطلبات اقتناء الحكمة

متطلبات اقتناء الحكمة هي: أ. الرغبة في التعلم المستمر [٣٢].
ب. الرغبة في الإصغاء [٣٣] أكثر من الكلام. ج. الالتصاق بالحكماء أصحاب الخبرة [٣٤].
د. الإصغاء إلى الوصية الإلهية باهتمام [٣٥]. هـ. الجدية والتردد على مواضع الحكماء [٣٦].
و. تقديس العقل في كل حينٍ، مما يجعله ثابتًا، غير متقلقل بكل ريحٍ غريبٍ [٣٧].

---

[١] راجع نيافة الأنبا مكاريوس.

إن شئت يا بني فإنك تتعلَّم،

وإن بذلت نفسك تصبح حاذقًا [٣٢].

يشتاق ابن سيراخ أن تلتهب قلوب المؤمنين شوقًا نحو تعلُّم الحكمة، لكي يصير الكل حكماء.

إن أحببت أن تصغي تقتني المعرفة،

وإن أملت أذنك تصير حكيمًا [٣٣].

أوضح أن الحكمة لا تتحقَّق بكثرة الكلام بل بالاستماع للحكماء والعمل بها خلال دراسة الشريعة.

❖ قيل: "الحكمة في فهم الأمين. زينوقراط *Xenocrates* في مقاله عن "الذكاء" يقول إن الحكمة تقوم حسب المعرفة العلمية أولاً على العلل وعلى الكائن العاقل. إنه يتطلَّع إلى "الذكاء" من جانبين: الجانب العملي والجانب النظري، الأخير هو الحكمة البشرية. لهذا فإن الحكمة هي نوع من الذكاء، لكن ليس كل نوع من الذكاء هو حكمة...

يهاجم هيراقليدس *Heraclitus* البشر الذين ينقصهم الإيمان، قائلاً: "إنهم لا يعرفون كيف يتكلمون وكيف يصغون. بلا شك استعان بالنص: "إن أحببت أن تسمع تقتني المعرفة، إن أملت أذنك تصير حكيمًا" (راجع سي ٦: ٣٣).

القديس إكليمنضس السكندري

قف في مجمع الشيوخ،

ومن هو حكيم التصق به [٣٤].

يربط ابن سيراخ بين الوصية الإلهية والتمتُّع بخبرات القديسين في الرب. بجانب التمتُّع بوصية الربّ كمصدرٍ للحكمة، ينصح تلاميذه أن يختاروا أصدقاء صالحين. فالصداقة أو الشركة مع الحكيم لها أثرها على الشخص. "المساير الحكماء يصير حكيمًا، ورفيق الْجهّال يُضرّ" (أم ١٣: ٢٠).

كن مستعدًا أن تسمع كل حديثٍ إلهيٍ،

ولا تدع أمثال الفهم تفلت منك [٣٥].

الحاجة إلى شريعة الله مصدر الحكمة. هذا ما يُمَيِّز الحكمة المملوءة تقوى عن الحكمة الفلسفية.

وإن رأيت إنسانًا فهيمًا فبَكِّر إليه،

واجعل خطاك تستنفد عتبة بابه [٣٦].

على الراغب في تعلُّم الحكمة التردُّد على مواضع الحكماء، وكلما سمع عن أحد الحكماء سعى نحوه وتردد على بابه حتى تألف قدماه أعتاب بابه.

يرى **القديس أغسطينوس** أن العاقل هنا هو ربّ المجد يسوع. يطلب منا أن نُبَكِّر إليه ونلتصق به ونسأله: "يا مُعَلِّم أين تمكث؟" (يو ١: ٣٨)، لكي نمكث عنده كل أيام حياتنا.

في حديث **القديس يوحنا الذهبي الفم** عن خصي وزير كنداكة ملكة أثيوبيا (أع ٨: ٣٠-٣١) المشتاق أن يفهم ما قاله إشعياء النبي، يقول: [لقد أظهر لنا الفضيلة في سلوكه بدعوته (لفيلبس)، وهو وزير وثني يجلس في مركبته، دعا إنسانًا أقل منه في الهيئة، يرتدي لباسًا مُزدرى به، كي يصعد ويركب معه. هل ترى روحه الغيور؟ أترى تقواه الفائقة؟ أترى وثنيًا خائف الله يُتَمِّم قول الحكيم: "إن رأيت عاقلاً فبكِّر إليه، ولتحك قدمك درجة بابه" (راجع سي ٦: ٣٦)؟. ألا ترى كيف تأهَّل ألاَّ يُستخَف به؟ ألا ترى كيف تأهَّل لنوال امتياز من الأعالي؟ ألا ترى أنه لم يهمل في شيءٍ من جانبه؟ لهذا نال خلال معلمه معرفة متميزة لفاعلية ما ورد في الكتاب المقدس، فأَشعّ نور على عقله[1].]

يرى **القديس أغسطينوس** أن هذه العبارة تشرح ما ورد في الآية ٣٤، وهو السعي إلى الالتصاق بالحكيم. قدَّم لنا مثلا بدعوة السيد المسيح لبطرس وأندراوس (مت ٤: ١٩). تبعاه ولم يتركاه، لقد سألاه: "أين تمكث؟" (يو ١: ٣٨)، فكشف لهما أين كان يمكث[2].

فكر في أوامر الرب، ومارس وصاياه،

فهو يقوّي عقلك في كل حينٍ،

وتُوهب لك الرغبة في الحكمة [٣٧].

يختم هذا الأصحاح بتأكيد دور ربنا يسوع في التمتُّع بالصداقة الحقيقية:

١. **التأمُّل في أوامر الرب** أو الوصية الإلهية يرفع قلب المؤمن كما إلى السماء، فيرى دستورها الحب الحقيقي؛ الله نفسه هو الحب. "نحن قد عرفنا وصدّقنا المحبة التي لله فينا؛ الله محبة، ومن يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه" (١ يو ٤: ١٦). ونتلامس مع الطغمات السماوية التي تمجد الله على محبته للبشر وعمله العجيب على الصليب لأجل خلاصهم.

٢. **بممارسة وصاياه في حياتنا اليومية** نتذوَّق عذوبة الصداقة مع الله والطغمات السماوية ومع بعضنا البعض.

٣. الرب **يثبت عقلنا في كل حينٍ**، فلا تقدر الأحداث أن تُزَعزِع صداقتنا، بل تُنَمِّيها وتثبتها.

٤. الرب **يهبنا الرغبة في الحكمة**، إذ يُقَدِّس إرادتنا فتتناغم مع إرادته الإلهية.

---

[1] *Homilies on Genesis, FOTC, Vol. 82, p.306-307.*

[2] *St. Augustine: Tractates on the Gospel of John 7: 9.*

أَشرِق بنور حُبِّك عليّ،
فألتصق بك يا صديق البشرية

❖ كم اشتاقت نفسي أن ألتقي بك في جنة عدن مع آدم وحواء.
أسمع صوتك ماشيًا في الجنة، فأشعر إني محمول على ذراعيك!
السماء ليست ببعيدة،
حتى وحوش البرية تطلب ودِّي، لأني محبوبك وصديقك.
قَبلَ أبويّ الأولين مشورة عدو الخير،
فاحتلّ التمرُّد على قلبي، وتحوَّلت صداقتي لك إلى عداوة!
حتى الطغمات السماوية وقفت في دهشةٍ مما فعلته وأنا تراب ورماد!
حلَّ العار والخزي بي، وفسدت طبيعتي، وحلّ الفساد في أعماقي!
حلَّ الظلام في قلبي، ودخلت العداوة معه!

❖ بحُبِّك نزلتَ إليّ، وبصليبك غرستني على مجاري المياه الحيّة.
صرت أُعاني من صراعٍ في داخلي.
هل ترجع الصداقة الأولى، وتتناغم إرادتي مع إرادتك المقدسة؟
بنعمتك وهبتني البنوة، وأَقمت ملكوتك في داخلي.
سكبت وداعتك فيَّ، لأجتذب إخوتي بالحديث العذب واللسان اللطيف.
أقمتني عضوًا في كنيستك، فصار المُسالِمون لي كثيرين.
لكن وسط الألف، أَجِدَك مشيرًا مُخْلِصًا وقديرًا.

❖ فسدت الصداقة في العالم، فيوجد الصديق الذي يطلب ما هو لمنفعته.
ويوجد من يُصادِقني في وقت الفرج، ويتجاهلني يوم الشدة.
يبذل كل الجهد لا ليسندني بل ليُعرقِل خطواتي.

❖ أنت الصديق الأمين، ملجأي الحصين.
أنت كنزي الأبدي، ودواء الحياة،
عوض الأرضيات تهبني السماويات.

وعوض الفساد تهبني الخلود وعدم الفساد.
تُقِيم ملكوتك في داخلي، فصرتَ أقرب إليَّ من أبي وأمي.
وصيتك تهبني نيرًا هيّنًا وحلوًا؟
تهبني السير في صحبتك يا أيها المصلوب،
أنطلق في الطريق الضيق إلى إكليل البهجة!
تُحَوِّل قيود الوصية إلى حليّ ثمين تتزيَّن بها نفسي.

❖ مع كل صباحٍ أَترنم بمراحمك الجديدة.
تُشرِق عليّ بنور معرفتك وأسرارك.
تُعَلِّمني وتُدَرِّبني، فأَصير بك حكيمًا.
بك لن يتزعزع عقلي، بل يزداد فهمًا وحكمة ومعرفة.
تحملني من نصرةٍ إلى نصرةٍ، ومن مجدٍ إلى مجدٍ.
تُعدِّني كعروسٍ سماوية تجلس عن يمينك، يا ملك الملوك ورب الأرباب.
لك المجد يا حكمة الله، إذ تجسَّدتَ لأجلي ولأجل كل إخوتي.

الصديق الأمين دواء الحياة

(سي ٦: ١٦)

١. **الحاجة إلى صديقٍ:** من هم الأصدقاء الذين اجتذبهم صوت المصلوب الحلو سوى المؤمنين من كل الأمم. ومن هم المسالمون سوى الطغمات السماوية التي تتهلل بخلاصنا.

"الصديق الأمين ملجأ حصين، ومن وجد واحدًا وجد كنزًا. الصديق الأمين لا يعادله شيء، وليس من يقدر أن يزن سموَّه. الصديق الأمين دواء الحياة، والذين يخافون الربّ يجدونه" (٦: ١٤– ١٦).

٢. **الصداقة الصادِقة:** يقول **القدّيس أغسطينوس:** ["الصديق الأمين دواء الحياة" (راجع ابن سيراخ ٦: ١٦). لا يوجد علاج مؤثِّر في شفاء الأوجاع مثل الصديق الصادق الذي يُعَزِّيك في ضيقاتك، ويُدَبِّرك في مشاكلك، ويفرح بنجاحك، ويحزن في بلاياك. من وجد صديقًا هكذا فقد وجد ذخيرة. فالصديق الأمين لا شبيه له، فوزن الذهب والفضة لا يُعادِل صلاح أمانته (راجع سي ٦: ١٤، ١٥).]

٣. **الصداقة ومخافة الرب:** من يحمل مخافة الرب في قلبه، ويسلك بروح التقوى في حكمة الروح يحصل على صداقة صالحة حتى مع الطغمات السماوية.

٤. **صداقة مع الحكمة ذاتها:** "يا بني، اختر التعليم منذ شبابك، فستجد الحكمة في شيبتك. أقبل إليها مثل الحارث والزارع، وانتظر حصادها الصالح، فإنك تتعب قليلاً في عملها، فستأكل من ثمرها سريعًا" (٦: ١٨، ١٩).

٥. **الحرص على حفظ الصداقة:** يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [لنتبع المحبة، فإنها صمام أمان لا تسمح لنا أن نعاني من أي شر. لنربط أنفسنا بعضنا ببعضٍ. لا يكون خداع بيننا ولا كذب، فحيث توجد الصداقة لا يوجد شيء من هذا القبيل. يخبرنا حكيم آخر بذلك: "إن جردت السيف على صديقك فلا تخف، فقد تتم المصالحة إلا في حالات الشتم والتكبر وإفشاء السرّ والضربة الماكرة. فإنه في هذه الحالات يفر كل صديقٍ" (راجع سي ٢٢: ٢١، ٢٢).]

٦. **الأصدقاء الباطلون:** يقول **مار أفرآم السرياني:** [إن كانت لك صداقة مع أحد الإخوة وانتابك ضرر بسبب مخالطتك إياه، فأسرع واقطع نفسك منه. لست أقول لك هكذا أيها الحبيب لتبغض الناس، كلا. وإنما لتقطع أسباب الرذيلة.]

الأصحاح السابع

بين الحب الإلهي والحب الأخوي

الاستقامة في الحياة العامة

توجد فكرة شائعة أن الحياة العامة تُلزِم أحيانًا البعض أن يتنازلوا عن بعض المبادئ، السامية، خاصة في جو السياسة والاقتصاد، فيُمارِسون بعض الشرور كالكذب أو الخداع أو الدعوة الباطلة التي ينادون بها بينما في أعماقهم يدركون أنهم لا يلتزمون بها. يفعلون هذا لكي يكسبوا إلى جانبهم ممن ارتبطوا بمنافسيهم أو يحتفظوا بمن هم بالفعل معهم ويخشون أن يكسبهم منافسيهم. فيقومون بدور تمثيلي ولا يلتزمون بالتدقيق في الأمانة والصدق في كلماتهم. لهذا نجد حتى الأمم لا تثق فيما بينها. فُتجنِّد جواسيس للتعرُّف على ما تفعله الأمم الأخرى من وراء الستار[1].

بين الصداقة الإلهية والحب الإلهي

في الأصحاح السادس رأينا كيف تَئن البشرية حيث تحتاج إلى صديقٍ وفيٍّ مُخْلِصٍ، قادرٍ أن يرفعها فوق الضيقات، لذلك نزل حكمة الله نفسه متجسدًا وحلّ بيننا كواحدٍ منا، حتى يجذبنا إلى صداقته الفريدة في فرحٍ وتهليلٍ، وليس في رُعبٍ وتحطيمٍ. جاء صديقنا الإلهي العجيب، يُعلِن حُبّه لنا لا في عواطفٍ جوفاء، بل بحبٍ عمليٍ صادقٍ في بذله. وتمتد آثار صداقته الإلهية إلى كل جوانب حياتنا.

١. تخترق أعماقنا لتُقِيم **ملكوت الله القدوس فينا** [١-٣].

٢. تُرافِقنا أينما وُجِدنا، فتقودنا إلى السلوك اللائق في **تعاملنا مع قادة المجتمع** [٤-٨].

٣. تلهب طاقاتنا في العبادة **لتؤهِّلنا إلى شركة التسبيح** والعبادة مع خورُس السمائيين [٩-١٠].

٤. تهبنا الحكمة في **تعاملنا مع كل فئات المجتمع** لنجتذب الكثيرين إلى مُحِب البشر [١١-١٨].

٥. تفتح عيون قلوبنا لنرى **في أسرتنا** ظلاً للأسرة السماوية [١٩-٢٨].

٦. **نكرم كهنته** الذين يكرمونه، بروح المخافة الإلهية [٢٩-٣٠].

٧. ننشغل **بالفئات المنسية** والمجروحة والتي في عوزٍ أو ضيقٍ [٣٢-٣٥].

٨. إذ ندخل مع كل صباحٍ إلى أعماقٍ جديدة في صداقتنا مع الله، يلتهب قلبنا شوقًا إلى الانطلاق من العالم. نترقَّب بفرحٍ وتهليلٍ لحظة انطلاقنا من العالم [٣٦].

---

[1] *cf. P.H. Readron, Wise Lives, Orthodox Christian Reflections of Wisdom of Sirach, 2009.*

١. الحب الإلهي وتجنُّب الشر [١-٣]
٢. الحب الإلهي والسلوك اللائق في الشئون العامة [٤-٨]
٣. بين الحب الإلهي والعبادة بروح التقوى [٩-١٠]
٤. استقامة الكلام والعمل والسلوك [١١-١٨]
٥. استقامة الحياة العائلية [١٩-٢٨]
٦. بين الحب الإلهي وحب الكهنة [٢٩-٣١]
٧. الحب الإلهي ومسئوليتنا نحو الفئات المنسية [٣٢-٣٥]
٨. الحب الإلهي والمجد الأبدي [٣٦]

١. الحب الإلهي وتجنُّب الشرّ

الصديق الوحيد القدوس والقادر أن يسكن في قلوبنا ويُقِيم فيها ملكوته، هو ربّ المجد يسوع. إنه يملك على القلب، فلا يجد عدو الخير له موضعًا فينا، فيهرب منا. بهذا لا يكون للشرّ أو الإثم سلطان على قلوبنا أو عقولنا أو عواطفنا، بل تتحوَّل أعماقنا إلى مقدس للربّ. نتقدَّس بالنعمة الإلهية، ونجتذب الكثيرين للتمتُّع بالصداقة الإلهية، والصداقة مع البشر في الربّ.

هذا من جانب الصديق الإلهي القدوس والقدير، غير أنه لا يقتحم حياتنا قسرًا، بل يهبنا أن يكون لنا دورنا الذي يكشف عن رغبتنا في الحياة المقدسة. يليق بنا أن نسعى إلى القداسة ونجاهد بروح اليقظة فنطرد كل فكرٍ شرير، ونسعى لاقتناء الفكر المقدس. فالشرّ لا يفرض نفسه علينا.

❖ الذين يُجاهِدون لكي تكون لهم حياة فاضلة وحياة حب لله، يجب عليهم أن يتخلُّوا عن الاعتداد بالذات وعن كل مجد باطل فارغ. كما يلزمهم أن يجاهدوا من أجل إصلاح حياتهم وقلوبهم.
الفكر الثابت المحب لله هو مرشد وطريق إلى الله[١].

❖ من يتنقَّى من الشر والخطية يُدعَى قديسًا. فإن غياب الشر عن الإنسان هو كمال أعظم للنفس ويُرضى الله جدًا[٢].

القديس أنطونيوس الكبير

هذا وقد رسم لنا الكتاب المقدس طريق الكمال بتقديم وصايا سلبية وأخرى إيجابية، وذلك بقيادة روح الله القدوس.

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٢٥.

[٢] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٦١.

❖ يرسم لنا المزمور (الأول) طريق الفضيلة، بعلمٍ وفنٍ، **فالبُعْد عن الشر هو بداية الخير**، إن طلبت من البداية كمال الفضيلة، تراجعت قبل أن تبدأ، ولكن المزمور يُمَهِّد لنا الطريق لنواجهه بشجاعة.

أعتقد أن النمو في حُبّ الله، يُشْبِه السلم الذي رآه يومًا ما الطوباوي يعقوب، والذي كان من ناحية على الأرض، وفي الناحية الأخرى كان منطلقًا نحو حياة الفضيلة، حيث يبدأ الإنسان بصعود درجات السلم الأولى، وبعد ذلك يرتفع إلى درجة أعلى بترو وتأنٍ حتى يصل إلى ما يمكن للطبيعة البشرية أن تصل إليه. إذن، بصعود درجات السلم الأولى، نرتفع فوق الأرض، لنمارس الحياة التي يريدها الله لنا. وبداية التقدُّم هو الابتعاد عن الشر، حيث يكون مثل هذا الابتعاد سهلاً مثل "لا تقتل، لا تزني، لا تسرق" (مز ٢٠: ١٣-١٥)، لا يتطلَّب هذا عملاً إيجابيًا. أما عندما نُطالَب بتلك الوصية: "حب قريبك كنفسك"، "بع أملاكك وأعط للفقراء" (مت ١٩: ٢١)، "من سخرك ميلاً واحدًا، فاذهبْ معه اثنين" (مت ٥: ٤١)، هذه الأعمال يقوم بها المصارع الذي اختبر القوة بالحكمة الإلهية، ومن خلال الأعمال الصغيرة يقودنا إلى الكمال.

فهو يعرض علينا ثلاثة أمور يجب أن نتجنَّبها، **السلوك** في مشورة الأشرار، **والوقوف** في طريق الخطاة، **والجلوس** في مجلس المستهزئين. هذا الترتيب يبدأ باتِّخَاذ القرار ثم تنفيذ البداية هنا في الفكر النقي، فأساس أعمال الجسد تنبع من نقاوة القلب، والزنا يبدأ في النفس الشهوانية، وينتهي بزنا الجسد، لذا قال الرب: "الذي يُنَجِّس الإنسان يخرج من القلب" (راجع مت ١٥: ١٨)[1].

❖ **سؤال: كيف يمكن للشخص أن يبلغ إلى كراهية الخطايا (مز ١١٩: ١٦٣)؟**

الإجابة: تثور الكراهية في الناس من الأحداث البغيضة والمُحزِنة نحو الذين يُسَبِّبون مثل هذا الاضطراب. لذلك إن كان أحد مُقتنِعًا تمامًا بخطورة الشرور الكثيرة التي تُسَبِّبها الخطايا، فإنه تلقائيًا وبدون أن يحثه أحد وبنزعةٍ داخليةٍ يختبر الكراهية لها، وذلك كما أظهر القائل: "أبغضت الإثم ومقته" (مز ١١٩: ١٦٣)[2].

❖ **سؤال: كيف تقتنع النفس تمامًا أن الله يغفر لها خطاياها؟**

الإجابة: عندما تلاحظ في داخلها نزعة ذاك القائل: "أبغضت الإثم ومقته" (مز ١١٩: ١٦٣). عندما أرسل الله ابنه الوحيد لغفران خطايانا يغفرها لنا ما دمنا نؤمن بدوره.

يترنَّم القديس داود بالرحمة والحُكْم (مز ١٠١: ١)، ويشهد بأن الله رحوم وعادل (مز ١١٥:

---

[1] عظة على المزمور ١.

[2] *Regulae brevius tractatae, 11.*

٥)، فمن الضروري يلزم أن تدخل فينا ما يقوله الأنبياء والرسل في العبارات الخاصة بالتوبة، أن أحكام برّ الله (مز ١١٩: ٦٢) ظاهرة، ورحمته كاملة في غفران الخطايا[1].

القديس باسيليوس الكبير

لا تصنع الشر،

فلن يستولي الشرّ عليك [١].

لا يفرض الشر نفسه على الإنسان، إنما الإنسان هو الذي يسعى إليه، وهو الذي يغرس بذار الشر في أخاديده، عندئذٍ يتضاعف الإثم ويصير له سلطان عليه.

الإثم مُجرَّد بذرة متى غرسها الإنسان تصير نبتة ضعيفة تنمو مع الوقت فتصير شجرة عاتية وحينئذ يحصد سَبعَةَ أَضْعاف. من يزرع الشرّ يحصد شرًا مضاعفًا. مثال ذلك، المشاكل التي حلَّت بأسرة داود الملك هي ثمرة الشرّ الذي ارتكبه مع بثشبع (٢ صم ١٢: ٩-١٢). في كل تهاون مع الخطية يصير لها الحق أن تقتحم أعماقنا بأكثر قوةٍ. ومع كل رفض لخداع العدو، تزداد النفس جرأة وقوة وسلطانًا على إبليس وحيله وأعماله.

يليق بالمؤمن أن يكون أمينًا في استقامة حياته، فلا يستخفّ بالشرّ ويَقْبَله في فكره أو قلبه أو مشاعره الداخلية كما في كلماته وسلوكه الظاهر. لتكن حياته في المسيح، سواء الشخصية أو الأسرية أو العامة. لا يبحث عن نجاحٍ أو مكسبٍ أو شهرةٍ على حساب مبادئه في الربّ.

❖ ابتعد عن الشرّ، فيبتعد الشرّ نفسه عنك. لا تزرع بذرة أعمال شريرة في أخدود الظلم، فلا تحصدها مضاعفة سبع مرات... لا تقل "مراحمه عظيمة، يغفر كثرة خطاياي"...

جاء في الأمثال: "الشرير تأخذه آثامه، وبحبال خطيته يُمسَك. إنه يموت من عدم الأدب، وبفرط حمقه يُفقد" (أم ٥: ٢٢-٢٣)[2].

فلجينتوس

❖ الذين يدركون تمامًا أن عملهم كله يجب أن يهدف نحو بلوغ الحياة الصالحة، ومع ذلك يلهون بالبركات الزمنية؛ هؤلاء أُشبههم بأناس يطلبون العلاج والدواء لكنهم لا يعرفون استخدامه، ولا يضطربون لأجل (جهلهم استخدامه). لذلك ليتنا لا نعتذر عن خطايانا التي نرتكبها بحجة ظروف البيئة أو بنسبها إلى إنسان آخر، بل نلقي باللوم على أنفسنا. لأنه إن كانت نفوسنا تستسلم عن

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 12.*

[2] *Fulgentius of Ruspe: On the Forgiveness of Sins 1: 26: 23.*

طيب خاطر للكسل، فإنها لا تقدر أن تهرب من الهزيمة[1].

❖ من يتقدَّم في حياة تقوية لا يسمح للشر أن يدخل إلى نفسه، وعندما تتحرَّر نفسه من الشرّ، يصير في سلام وأمان. ولا يكون للشياطين الأشرار أو الحوادث الطارئة سلطان عليه، إنما يُخلِّصه الله من كل شر، ويعيش في حماية غير منظورة، لأنه محب الله. إن مدح أحد مثل هذا الإنسان، لا يكترث بهذا، وإن سبَّه أحد لا يدافع عن نفسه ضد شاتمه، ولا يسخط على قول من أقواله[2].

القديس الأنبا أنطونيوس الكبير

❖ من يهرب من الملذَّات والشهوات العالمية يصير برجًا منيعًا ضد شيطان التذمُّر. فالتذمُّر يُسَبِّبه الشعور بالحرمان من بعض الملذَّات الموجودة أو المتوقعة. فلا نقدر أن نغلبه ما دمنا مربوطين برباطات أرضية. كلما تطلَّع إلينا الشيطان ورآنا مربوطين بها ينصب لنا شباكه ليُثير فينا التذمُّر.

الأب أوغريس الراهب

تباعد عن الإثم، فيتحوَّل عنك [٢].

يا بني لا تزرع في أخاديد الإثم،

فلا تحصد منه سبعة أضعاف [٣].

التباعد عن الإثم والهروب يحمل روح القوة، لأن عدو الخير يطلب أن ندخل معه في حوارٍ كي يلقي بالخداع في قلوبنا كما فعل مع حواء. من يذهب بكامل إرادته إلى أخاديد الإثم، وهناك يزرع نبتة صغيرة للإثم، ينمو هذا الغرس ويتضاعف، فلا يسهل اقتلاعه بعد الغرس. فبذرة الإثم تنبت وتنمو حتى تصير شجرة يصعب اقتلاعها. حينما نفتح الباب للعدو، يدخل ثم يقتحم موضع عجلة القيادة، وينطلق بنا إلى حيث يشاء.

٢. الحب الإلهي والسلوك اللائق في الشئون العام

لا تلتمس من سيدٍ رئاسة،

ولا من ملكٍ كرسي كرامةٍ [٤].

يدعونا الصديق السماوي ألاَّ نطلب المتكآت الأولى، كما يُحَذِّرنا من حُبِّ الرئاسة، حتى لا ننشغل عن خلاصنا بروح الكبرياء. يقول السيد المسيح: "متى دُعِيت من أَحدٍ إلى عُرسٍ، فلا تتكئ في المتكأ

---

[1] الفيلوكاليا، ج ١، ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، بند ٢٨.

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٩٠.

الأول، لعل أكرم منك يكون قد دُعِي منه. فيأتي الذي دعاك وإياه ويقول لك: أعطِ مكانًا لهذا. فحينئذٍ تبتدئ بخجلٍ تأخذ الموضع الأخير" (لو ١٤: ٨-٩). يليق بالمؤمن ألا يعتمد على فهمه الذاتي أو قدراته الذاتية، ولا يطلب كرامة زمنية، فلا يلتمس أمجادًا باطلة ولا سلطانًا زمنيًا، كما لا يُبَرِّر نفسه أمام الله. نزل الصديق الإلهي من السماء واحتل آخر صفوف البشرية، حيث صار العبد المصلوب بين لصين، يبعث فينا روح المنافسة على الانطلاق نحوه كي نحتل معه آخر الصفوف.

لا تُعلِن عن نفسك أمام سيّدٍ أنك بارّ،

ولا تظهر ككيمٍ أمام ملكٍ [٥].

خلال الصداقة الإلهية ما يشغلنا متى وقفنا أمام سيدٍ أو ملكٍ لا أن نبرز برّنا أو حكمتنا، بل تشهد تصرُّفاتنا لبرّ المسيح وحكمته الإلهية. يوصينا الحكيم: "لا تتفاخر أمام الملك، ولا تقف في مكان العظماء. لأنه خير أن يُقال لك: ارتفع إلى هنا من أن تُحط في حضرة الرئيس الذي رأته عيناك" (أم ٢٥: ٦-٧). ليس من الحكمة أن يُبَرِّر الإنسان نفسه أمام الله، لأن الكل أخطأوا (مز ١٤٣: ٢؛ رو ٣: ٩-١٠). وكما يقول المرتل: "إن حاكمت من يتبرَّر أمامك؟" ومن الغباوة أن يتباهى الإنسان بالحكمة أمام الملك أو الحاكم، لأنه يصعب إدراك ما في نواياه (أم ٢٥: ٣).

على القاضي التزام جاد أن يقتلع الشرّ بالإصرار على مقاومة قوى الشرّ (لا ١٩: ١٥).

❖ ليس شيء يُوَلِّد العجرفة مثل الضمير الصالح متى كنا غير حذرين. لذلك إذ يعرف يسوع أننا إن فعلنا شيئًا بأمانة تثور فينا هذه النزعة، قال لتلاميذه: "متى فعلتم كل ما أُمرتم به، فقولوا إننا عبيد بطَّالون" (لو ١٧: ١٠)... ويقول سليمان أيضًا: "لا تُبَرِّر نفسك قدام الربّ"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

لا تسعَ لتصير قاضيًا، إن كنت لا تستطيع أن تستأصل الإثم.

لئلا تُبجّل حضور الإنسان المقتدر،

فتُقدِّم تنازلات عن نزاهتك [٦].

جاء في النص العبري **"لتصير حاكمًا"**.

❖ "لا تسعَ لتصير قاضيًا، ما لم تكن قادرًا أن تستأصل الظلم" (راجع سي ٧: ٦). بالأكثر نقول هنا: "لا تسعَ أن تكون مُعَلِّمًا، إن كنت غير مؤهَّل لكرامة هذه الوظيفة، حتى وإن سُحبت إليها

[1] *Homilies on Hosea 3: 1.*

ارفضها[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لسنا ننصحك أن تترك ذاك الذي ائتمنك على الاهتمام بكنائس الله المقدسة (٢ كو ١١: ٢٨)، إنما نسألك أن تهتم بنفسك في مخافة الربّ. لا تقبل هدايا من أحد (أم ١٥: ٢٧)، ولا تراوغ في الحكم (سي ٢٠: ٢٩). لا تخجل أمام صاحب سلطان، ولا تبرئ مذنبًا أو تحكم على بريء (دا ١٣: ٣٥ *LXX*). اهرب من الطمع أصل كل الشرور (١ تي ٦: ١٠)، بالحقيقة دُعِي نوع من عبادة الأوثان (أف ٥: ٥). ولا تتكبَّر، لتكون تلميذًا للرسول القائل: "غير مهتمين بالأمور العالية، بل منقادين إلى المتواضعين" (رو ١٢: ١٦). لا تحاول أن ترضي الناس، فإنك تعرف مع من فعلوا هكذا. صاروا مُتغرِّبين عن خدمة المسيح. بالحقيقة يقول الرسول: "لو كنت بعد أُرْضِي الناس لم أكن عبدًا للمسيح" (غل ١: ١٠). ولتخضع للرب القائل: "تعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم" (مت ١١: ٢٩).

أطفئ الغضب، واستبعده عنك، فهو مُدمِّر للشخص. لتفعل كل شيءٍ حسب مشورة الله، فتجده مُعِينًا لك. خف دائمًا من الموت، فإنه قادم علينا جميعًا. تذكَّر ساعة رحيلك، ولا تخطئ في حق الله. فإن بلغت إلى نقطة الهدوء، تجد راحة ونعمة أينما قررت أن تنسحب[2].

القديسين برصنوفيوس ويوحنا

لا تخطئ إلى سُكان مدينة،

ولا تهن نفسك أمام الشعب [٧].

يليق بالمؤمن أن يعمل لحساب بنيان الجماعة وخلاصها، ولا يُحَطِّم طاقاته وينحرف عن رسالته نحوها، لئلا يهين نفسه أمام الجمهور، خاصة في يوم الرب العظيم.

لا تكرر خطيئك،

لأنك ستُعاقَب حتى بسبب (خطية) واحدة [٨].

من سمات من يستهين بطول أناة الله ويستخفّ بمحبة أخيه، ويتجاهل بنيان الجماعة أنه يخطئ في حق الله وخلاص نفسه وبنيان إخوته، وبعد أن يتوب عما ارتكبه يعود ويكرر الخطأ.

حتى في تعاملنا مع قادة أو رؤساء، قد نخطئ بسبب ضعفنا البشري والربّ يستر علينا، لكن إن

---

[1] *Homily on Titus, hom. 2.*

[2] *Book of Letters 789.*

تهاونا وكرَّرنا السقوط يرفع الربّ يده عنا، فتنكشف خطايانا الأولى التي سترها الربّ لينقذنا من أيدي القادة، ونُحاسَب على الأخطاء السابقة واللاحقة! فإن كان الله لا يؤدِّب حين نخطئ مرة، فلا يكون ذلك علة لتكرار الخطية اتكالاً على طول أناته. الله لا يدينا لأننا أخطأنا، وإنما يديننا ما لم نتب بعد ما أخطأنا، هذا ما يؤكده تكرارنا للخطية في تهاونٍ. يقول أحد آباء البرية: "لا أذكر أن الشياطين أطغوني في أمرٍ واحدٍ مرتين".

❖ من يُؤدَّب على خطاياه القديمة وينال المغفرة، فليُعِد نفسه لغضبٍ أشد من الأول إن أخطأ ثانية... "ها أنت قد برئت، فلا تخطئ أيضًا لئلا يكون لك أشر"(يو ٥: ١٤)[1].

❖ **سؤال: ماذا يلزم أن يفعل من يتوب عن خطية، ويعود فيسقط فيِ نفس الخطية؟**

الإجابة: من تاب مرة وارتكب نفس الخطية مرة أخرىِ، فليقتنع أولاً أمام نفسه أنه لم ينزع السبب الرئيسي للخطية، كما من جذرٍ فاسدٍ، لهذا بالضرورة تنبت نفس الشرور مرة أخرى. إنه يكون كمن يرغب في قطع أغصان شجرةٍ، تاركًا الجذر كما هو، وإذ يبقى الجذر في الأرض مخزونًا ينبت ذات (الخطية) بدرجة أقل. لذلك حيث توجد بعض الخطايا أصلها ليس فيها، إنما تصدر من خطايا أخرى، يلزم لمن يريد أن يُنَقِّي نفسه تمامًا من الخطية أن يقطع الأسباب الأولى ذاتها لهذه الخطايا. كمثالِ لذلك، فإن النزاع والحسد (رو ١٣: ١٣) لا ينبعان من نفسيهما، وإنما من جذر العجرفة ومحبة المجد (الباطل)، فمن يطلب مجدًا من البشر يتبارى مع من له شهرة عظيمة تفوق شهرته، ويحسده عليها.

لهذا من يسقط في يديّ رذيلة الحسد أو النزاع، ويعود فيسقط فيها مرة أخرى، فليُدرِك أن السبب البدائي هو محبة المجد التي تَكَلَّمنا عنها قبلاً. بهذا فليهتم بهذا المرض، إذ يحتاج إلى الشفاء منه، وذلك بما يناقضه، أي بالتواضع، حيث يقوم بخدمات بسيطة ممارسًا التواضع. بهذا إذ يتأسس في فضيلة التواضع لا يعود يسقط في نتاج العجرفة ومحبة المجد[2].

القديس باسيليوس الكبير

٣. بين الحب الإلهي والعبادة بروح التقوى

لا يحتاج صديقنا السماوي إلى كثرة التقدمات ولا الصلوات والصدقة، إنما يشتَّم في التقدمات بخور القداسة والنقاوة. ويُسرّ بالقلب الناري المتهلل بالحب في الصلاة، وتقديم الكلمة العذبة بفرحٍ مع كل

---

[1] *Morals, Rule 11: 2.*

[2] *Regulae brevius tractatae, 289.*

عطيةٍ أو صدقةٍ. طريق التقوى ليس مستحيلاً، لكنه بالحب لله بجدية ننعم بالحياة الفاضلة.

❖ يليق بنا ألا نقول باستحالة السلوك في حياة الفضيلة بالنسبة للإنسان، إنما نقول عنه إنه ليس سهلاً. حقًا إن (حياة الفضيلة) لا ينالها الجميع بقدرٍ متساوٍ، إذ لا يحصل عليها إلا الأتقياء الذين لهم فكر محب لله. فالفكر العادي أرضي ومتقلب، تخرج منه أفكار صالحة وأفكار شريرة، وهو متغير، يميل نحو الماديَّات، أما الفكر المحب لله، فيُحَطِّم الشر الذي يأتي للبشر بسبب إهمالهم غير المتعمد[1].

القديس أنطونيوس الكبير

لا تقل: "إن الله ينظر إلى كثرة تقدماتي،

وإذا قربتها للعليّ فهو يقبلها" [٩].

لا يحتاج الله إلى القرابين والذبائح التي نُقَدِّمها، إنما كانت قرابين وذبائح العهد القديم رموزًا لذبيحة الصليب التي قدَّمها المسيَّا المُخَلِّص للمصالحة. إنها ذبيحة حب من جهة الربّ أنه يكفر عن خطايانا. وأما ذبائح التسبيح والشكر التي لا نزال نُقَدِّمها في العهد الجديد، ففي حقيقتها بذل لإرادتنا البشرية المُجرَّدة وشكر لإرادة محب البشر، مُخَلِّص العالم. بهذا فإن التقدمات والذبائح في ذاتها لا تجلب رضا الله، ولن تكون موضع سروره ما لم تُقدَّم بالإيمان والثقة في الله غافر الخطايا.

لا تكن خائرًا في صلاتك،

ولا تهمل الصدقة [١٠].

يُحَذِّرنا الحكيم من اتكالنا الخاطئ على الصدقة. فإنه لا يليق بالمؤمن أن يصنع الشر معتمدًا أن تقديم صدقات كثيرة تغفر له كل ما يفعله من شرورٍ.

حرصت الكنيسة أن يكون لها تقويمها الإيجابي البنَّاء في حياة العبادة على المستوى اليومي والأسبوعي والشهري والسنوي واليوبيلي الخ، لا في ممارسات حرفية جافة، وإنما في لقاءات حية مع الله والتمتُّع بعربون السماء. نذكر في أسطرٍ أمثلة لذلك:

المستوى اليومي: ممارسة صلوات السواعي متفاعلة مع الصلوات الشخصية نذكر فيها حياتنا مع مولود المزود (صلاة أو تسبحة باكر). وحلول روحه القدوس (تسبحة الساعة الثالثة) وصلبه (السادسة) وموته لأجلنا (التاسعة) وانطلاقنا إليه (الحادية عشر) ورقادنا في الربّ (الثانية عشر) وانتظارنا لمجيئه الأخير (نصف الليل).

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ٧.

المستوى الأسبوعي كصوم يومي الأربعاء والجمعة، والشركة في سرّ الإفخارستيا، أي القداس الإلهي.

المستوى الشهري كالاحتفالات بأعياد القديسة مريم ورئيس الملائكة ميخائيل الخ.

المستوى السنوي كالأعياد السيدية وأعياد القديسين.

المستوى اليوبيلي لأجل تجديدنا بروح الله وتذوُّق التقوى.

❖ استأجرْ المساكين... فيعدّون لك مكانًا عاليًا في عالم النور، تضع فيه خزائنك. هم يبنون لك مقصورة عظيمة، ممتلئة خيرات، لتدخل فيها وتسكن وتجد كل كنوزك. هم سيكونون زمرة محفوفة بك في الطريق، وبذلك التصريح العظيم يسألون عنك ويُخَلِّصونك... هم يفتحون باب العريس قبل أن تقرع... كن صديقًا لهم حتى يقبلوك في مظالهم...

القديس مار يعقوب السروجي

٤. استقامة الكلام والعمل والسلوك

إذ يدعونا صديقنا السماوي للاستقامة في كلماتنا وأعمالنا وتحرُّكاتنا، نزل إلينا لنسلك على أثر خطواته، بل ويعمل فينا كي نكون أيقونة حية له في كل تصرفاتنا. ينصحنا الحكيم بالسلوك البار والتواضع. من يسخر بإنسانٍ تعيس فهو غبي، لأن الله الذي رفعك إلى فوق سمح للآخر أن ينزل، يمكنه أن يفعل العكس لعمل توازن [١-٦].

الكلمات الباطلة التي بلا معنى غير لائقة في أي اجتماعات مع الغير أو في الصلاة. هذا والأعمال اليدوية عيَّنها الله للبشرية (تك ٢: ١٥؛ ٣: ١٩)، ولذلك فهي مُكَرَّمة (٣٨: ٢٤-٣٤).

يقول الربيون أن دراسة التوراة يجب أن ترتبط بالعمل اليدوي[1]. هذا واضح عمليًا من بولس الرسول وأكيلا وبريسكلا إذ كانوا صانعي خيام. في الأنظمة الرهبانية يُحسَب العمل إلزاميًا للنفع الروحي.

إذ يملك الرب على القلب، تمتلئ النفس بروح الرجاء والفرح مع الثقة في عمل الله فيها وبها. يشعر المؤمن بغِنَى نعمة الله الفائقة التي تُقِيم منه ملكًا، له سلطان حتى على أفكاره، كما يغرف من غنى سمات الحكمة الإلهي المتجسد، فيسلك بروح الوداعة والتواضع، ولا يكون للكبرياء موضع فيه.

لقاؤنا مع الصديق الإلهي العجيب في حُبِّه يملأ كياننا الداخلي، فيقودنا للسلوك بحكمة سماوية. هذا الحب ينعكس على علاقة المؤمن بإخوته، فيفيض بالحب عليهم في الرب.

لا تستهزئ بأحد مُرّ النفس،

---

[1] *Mishnah Aboth 2: 2.*

لأنه يوجد واحدٌ يُذلُّ ويُرفع [١١].

من أهم الشرور التي تلحق بالمجتمع، الاستخفاف بمن هو مرّ النفس. ليس ما يزيد من مرارة هذا الإنسان مثل السخرية بشخصه، خاصة إن كان بسبب عجز شخصي فيه. يليق بالمؤمن أن يضع نفسه في مكان هذا الشخص وفي نفس ظروفه، فيشاركه مرارة نفسه، ويسنده بالحب وروح الرجاء، ويرفعه من مرارة حياته إلى العذوبة. أحد بنود دستور الصديق السماوي هو "بالكيل الذي تكيلون، يُكَال لكم ويزداد" (مر ٤: ٢٤). فمن يستخفّ بإنسانٍ مُرّ النفس، ترتد المرارة إليه، فيسقط في مذلةٍ، بينما يرتفع من هو مرّ النفس. ربما يقصد بُمرّ النفس، الإنسان الذي أَذَلّه العوز والاحتياج. وكما يقول الحكيم: "المستهزئ بالفقير يعير خالقه" (أم ١٧: ٥).

"**يُذل ويرفع**"، وكما قالت حنة: "الرب يميت ويحي، الرب يُفقر ويُغني، يضع ويرفع، يقيم المسكين من التراب، يرفع الفقير من المزبلة للجلوس مع الشرفاء، ويُملكهم كرسي المجد" (١ صم ٢: ٦-٨). لا يعني هذا أنه يحابي بين الأشخاص، وإنما كما قيل بالعذراء مريم: "أنزل الأعزاء عن الكراسي، ورفع المتضعين" (لو ١: ٥٢). مات المسيح مرة واحدة عن العالم كله، دون تمييز بين فئات البشر أو تمييز بين الأجناس. قدم الصليب عن الرضيع الصغير والشيخ، الرجل والمرأة، اليهودي والأممي.

لا تفترِ الكذب على أخيك،

ولا تفعل مثل ذلك على صديقك [١٢].

تقوم حياة المجتمع على الثقة فيما بين أعضائه، فيرتبط الكل معًا برباط المحبة. فالإنسان الذي يفتري على إخوته كذبًا لا يستحق أن يعيش في المجتمع. إنه يرتكب جريمة بغيضة، لأن من يفعل هذا يسيء إلى المجتمع نفسه الذي يستر على ضعفات الكل. من يفتري على الآخرين كذبًا يكون كمن يسكب في المجتمع سمًا قاتلاً.

احذر كلّ كذبٍ،

لأن التعوّد عليه لن يُقَدِّم أي صلاحٍ [١٣].

الصديق السماوي هو الحق، فمن يلتصق به لا يكذب على قريبٍ أو صديقٍ.

لا تتكلم باطلاً في جماعة الشيوخ،

ولا تُكَرِّر الكلام في صلاتك [١٤].

من يتكلم باطلاً في حضور شيوخ مختبرين يخطئ، فكم بالأكثر من يفعل ذلك في حضرة الله الفاحص القلوب والعالم بالأفكار الخفية. هذا الشرّ يصدر عن تشامخ النفس وعدم تواضعها [١٧].

الإنسان المتواضع بالحق يستحق أن يعيش في المجتمع ويكون له فاعليته البنَّاءة في حياة إخوته.

يليق بالمؤمن أن يجلس في حضرة الشيوخ الأتقياء يتعلَّم، فلا يزهو بمعرفته وخبرته وعلمه.

يليق بنا ضبط اللسان وتقديسه. فإن الثرثرة وكثرة الكلام فخاخ ينصبها العدو حتى يزل لساننا وينطق بالباطل. أما بالنسبة للصلاة، فيطلب الله القلب الناري الثابت في الإيمان، وليس كثرة الكلام والإطالة في الصلاة.

❖ تنصحنا الحكمة حسنًا: "لا تكثر الكلام في جماعة الشيوخ" (راجع سي ٧: ١٤). مرة أخرى يطلب أن نُحِدّ من الثرثرة الباطلة حتى في علاقتنا مع الله بوضع حد بهذه الوصية: "لا تكرر الكلام باطلاً".

القديس إكليمنضس السكندري

لا تكره العمل المُتعِب،

بخاصة الفلاحة التي خلقها العليّ [١٥].

العمل عطية جميلة، لها بركاتها الكثيرة. يقول السيد المسيح: "أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل" (يو ٥: ١٧). وقيل عن الملائكة: "العاملين مشيئته" (مز ١٠٤). وخلق الله آدم ليعمل في الجنة (تك ٣: ١٥). الإنسان الجاد لا يحتقر الأعمال البسيطة، بل يفرح إن كانت لديه القوة البدنية لإتمامها.

لا تكن بارزًا في مجلس الخطاة،

واذكر أن الغضب لا يبطئ [١٦].

مجالسة الخطاة تنضح علينا سماتهم الشريرة، وتُفقِدنا هدوء النفس والحرص على خلاصنا. ينعكس هذا على أفكارنا وكلماتنا وسلوكنا، فتجلب علينا اللعنة التي تنتظرهم، وإذ استهوانا مزاحهم وخطاياهم، يلزمنا أن نتذكَّر أن غضب الله آت ولن يبطئ، فنهلك معهم. يحرص المرتل على نقاوة حياته، لذا يترنَّم: "طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة المنافقين، وفي طريق الخطاة لم يقف" (مز ١: ١-٢).

ذلِّل نفسك تذليلاً،

لأن عقاب الشرير نار ودود [١٧].

تذليل النفس هنا هو ضبط النفس بالابتعاد عن مجالس المستهزئين (مز ١)، فالإنسان بطبيعته يجد لذة في ممارسة الخطية. حين يُذَلِّل الإنسان نفسه بالتوبة عن خطاياه، ينجو من الدينونة الأبدية.

نار ودود: قيل: "لأنّ دودهمْ لا يموت ونارهمْ لا تطْفأ" (إش ٦٦: ٢٤). الحديث هنا عن الدود فيه تبكيت للخاطئين الذين يرعون أجسادهم فقط، إذ في النهاية سيتغذَّى الدود عليها.

❖ تحمل الخطية فيها خبز الموت نفسه، تُقَدِّمه لمن تدعوهم من مُحبّي الملذّات والحمقى. "خبز الخفية لذيذ، والمياه المسروقة حلوة" (أم ٩: ١٧). مُجَرَّد أن يلمسها أحد "لا يعلم أن أبناء الأرض يهلكون بسببها" (راجع أم ٩: ١٨).

عندما يفكر إنسان في تذوُّق اللذة، فنتيجة الانتعاش بها لا تكون حلوة في النهاية. هذا ما تؤكِّده حكمة الله: "خبز الكذب لذيذ للإنسان، ولكن بعد ذلك يمتلئ فمه بالرمل" (راجع أم ٢٠: ١٧). وأيضًا: "لأن شفتي المرأة العاهرة تقطران عسلاً لحنكك إلى حين، لكن عاقبتها كالإفسنتين، حادة كسيفٍ ذي حدين" (أم ٥: ٣-٤) هكذا الأكل منها والتمتُّع بها إلى قليل، بعد ذلك يفترسه الدود وتصير نفسه بعيدة، فإن الأحمق لا يعرف أن الذين هم بعيدين عن الله يهلكون[1].

القديس أثناسيوس الرسولي

لا تُبدّل صديقًا بمالٍ،

ولا أخًا حقيقيًا بذهب أوفير [١٨].

ليس ما يُعادِل الصداقة والحب، فإن "المحبة لا تسقط أبدًا (١ كو ١٣: ٨). أحد الشرور الخطيرة في الحياة العامة والتي يلزم تجنُّبها هو خيانة الصداقة من أجل مكاسب مادية. صار يهوذا مثالاً لخيانة الصداقة من أجل الفضة، فقيل عنه أنه خير له لو لم يولد (مت ٢٦: ٢٤).

أوفير: في جنوب غربي العربية، كانت مشهورة بمصدر الذهب في العالم القديم. قيل عن الكنيسة الجالسة عن يمين السيد المسيح: "جُعلت الملكة عن يمينك بذهب أوفير" (مز ٤٥: ٩).

٥. استقامة الحياة العائلية

إذ يتحدَّث عن الأسرة، لا يقف عند رباط الزواج أو قرابة الدم، وإنما يوصي ابن سيراخ بالخادم الذي يعمل في الأسرة، وبقطعان الغنم التي ترعاها الأسرة، وبتهذيب الأبناء، والاهتمام بسلامهم الداخلي، وسيادة روح الوفاء والإخلاص وسط الجميع، وتكريم الوالدين.

إذ تجسد كلمة الله وصار إنسانًا، عاش كطفلٍ في أسرة متواضعة ومقدسة. انتسابها إليه جعلها عائلة مقدسة، وفتح الباب لكل عائلة كي يحلّ في وسطها ويُقَدِّسها. إذ يقول: "ليس لابن الإنسان أن يسند رأسه" (لو ٩: ٥٨)، يطلب منا أن ندعوه كي يستريح في عائلتنا، كبيت مريم ومرثا وأخيهما لعازر، ونتكئ على صدره مع القديس يوحنا الحبيب.

يشرح سيراخ بكل وضوح الالتزام نحو أعضاء المجتمع: الأسرة والأصدقاء والكهنة والمحتاجين.

---

[1] *Paschal Letters 7: 5: 17.*

من جهة الأصدقاء لا يُقدرون أن يستبدلوهم بالمال. ويُطالِب ابن سيراخ أيضًا بالمعاملة الحسنة مع الخادم الأمين في البيت (٣٣: ٣١-٣٣)، ومع العامل (تث ٢٤: ١٤).

الخادم الحكيم يلزم أن يحبه المؤمن كنفسه (لا ١٩: ١٨)، وتقدم له الحرية في السنة السابعة كما أمرت التوراة (خر ٢١: ٢؛ تث ١٥: ١٢).

كان للحيوانات أهميتها ومصدر غنى للشعب، لذا يلزم الاهتمام بها (أم ٢٧: ٢٣-٢٧).

تربية الأبناء يتطلب تهذيبهم (أم ١٣: ٢٤)، وإخضاع أعناقهم لنير الطاعة (٣٠: ١٢-١٣).

لا تتجاهل زوجة حكيمة وصالحة،

فإن نعمتها أفضل من الذهب [١٩].

إذ يتحدَّث عن الحب العائلي، يبرز أن الخيانة الزوجية أخطر من خيانة الصديق. فإن كان يليق بالمجتمع ككلٍ أن يلتزم برباط الأمانة والإخلاص والولاء للغير، فبالأكثر يلزم الالتزام بذلك على المستوى العائلي خلال رباط الزواج. من يخون زوجته يمتثل بالخائن يهوذا.

يهتم الصديق السماوي بالزوجة الحكيمة والصالحة، فهي تغني الأسرة كلها بالنعمة التي تتمتَّع بها.

يبدأ الحديث بالزوجة الصالحة ككنزٍ، نعمتها أفضل من الذهب. الزوجة الصالحة قادرة بالوداعة أن تكسب رجلها للصديق السماوي، كما لها الأولوية في التأثير على سلوك أبنائها وبناتها.

❖ المرأة الحكيمة تبني بيتها، والحمقى تهدمه بيدها" (أم ١٤: ١). هذا معناه أن المرأة الحكيمة تشجع جارتها في مخافة الربّ والمحبة التي في قلبها نحو أختها وأخواتها. ومن جانبٍ آخر المرأة الحمقى تدمرهن بكلماتها المملوءة مرارة وكراهية وشرّ واستخفاف[1].

القديس ويصا القبطي

لا تسئ معاملة[2] خادم يعمل بأمانة،

ولا أجير يبذل نفسه لأجلك [٢٠].

بعد أن تحدَّث عن الزوجة، كنا نتوقَّع أن يتحدث عن الأبناء والبنات؛ لكنه تحدث عن الخادم الأمين والأجير الجاد في عمله والباذل في سلوكه من أجل ربّ البيت. فالخادم والأجير في البيت أو في الحقل يترك بصمات استقامته على الأبناء والبنات.

لتحب نفسك[2] الخادم العاقل،

---

[1] *Fragment 29, Letter to Aninoc 2:3-4.*

[2] *Your soul.*

ولا تحرمه من الحرية [٢١].

تمتُّع الخادم العاقل بالحرية يحث الأبناء على الاهتمام بالتعلُّم والسلوك بحكمة كأبناء للعليّ.

يدعو ابن سيراخ القادة ورؤساء العمل إلى إدراك قيمة العامل البسيط أو الأجير أو الخادم متى كان أمينًا في عمله، فيحسبه غالبًا مثل نفسه، وإن كان عبدًا فليعتقه من العبودية. فالحكمة والتعقُّل مع الأمانة في حياة الإنسان لا تُقدَّر بثمنٍ.

أعطت النظم القديمة للسيد حرية التصرُّف في العبد، وليس من حق العبد الدفاع عن نفسه. وقد جاءت الشريعة تُطالِب السيد أن يردّ للعبد حريته بعد ستة أعوام من العمل وأن يُحسِن التعامل معه (خر ٢١: ٢؛ لا ٢٥: ٣٩؛ تث ١٥: ١٢-١٨).

كثير من العبيد سبقوا سادتهم، وقد أقام الرسول بولس أنسيمس العبد السارق والهارب من سيده أسقفًا بعد قبوله الإيمان وسلوكه بروح التقوى (راجع الرسالة إلى فليمون).

هل عندك قُطعان؟ اهتم بها،

وإن كان لك منها نفع فاحتفظ بها [٢٢].

أمانة الإنسان الحكيم لا تقف عند أفراد الأسرة أو الأصدقاء أو البشر بوجه عام، وإنما تمتد إلى الاهتمام بالحيوانات التي يقتنيها (أم ٢٧: ٢٣-٢٧؛ تث ٢٥: ٤؛ أم ١٢: ١٠).

هل لك أولاد؟ أَدِّبهم، اجعلهم مُطيعِين منذ صباهم [٢٣].

إن كان الربّ يدعونا للاهتمام بالحيوانات، كم بالأكثر يلزمنا أن نهتم بإخوتنا من البشر. يقول الرسول بولس: "ألعل الله تهمه الثيران؟ أم يقول مطلقًا من أجلنا؟! (١ كو ٩: ٩-١٠). غاية التأديب أن يتَّسِم الأولاد بروح الطاعة، فيتشبَّهون بالسيد المسيح وهو صبي، إذ كان مطيعًا للقديسة مريم ويوسف النجار.

هل لك بنات؟ اعتنِ بعفتهن،

ولا تظهر لهن تساهلاً شديدًا [٢٤].

من يحب ابنته لا يُذَلِّلها بطريقة تُفقِدها الاهتمام والحرص على عفتها، إنما يبذل كل الجهد لتعيش طاهرة إلى يوم زواجها. لقد عُرِف البعض بالتدليل الزائد لأبنائهم خاصة الأغنياء مما يفسد سعادة الأطفال أنفسهم ويحرمهم من تحقيق رسالتهم. كما اتَّسم البعض بالعنف الشديد، خاصة في وجود مشاكل أسرية. لذا يليق مع الحزم الالتزام بالحنو، ومع اللطف والحنو مراعاة الحزم باعتدالٍ.

يرى البعض أن الاهتمام بالبنات هنا كأوانٍ ضعيفة، فلا يُسَخِّرهن الوالدان في أعمالٍ قد تسلبهن

نضارتهن وشبابهن، مما يؤثر عليهن عند زواجهن. أما عدم البشاشة أمامهن، فربما يُقصد عدم إفساد حياءهن بمجالس يدور فيها أحاديث تخدش حيائهن[١].

يُحَذِّر **القديس يوحنا الذهبي الفم** رعاة الكنيسة من تدليلهم للفتيات بدافع الشفقة لئلا تسيء الفتيات فهمهن للرعاة[٢].

❖ المسيح مُرَبِّي البشرية، اللوغوس الإلهي، يدعونا أن نبذل كل الجهد بقوة مع عطية الحكمة لننقذ أبناءنا بالتوبيخ والتأديب ومحاسبتهم وتحذيرهم وتقديم العلاج مع الوعود والترفق بهم...

باختصار يتعامل الله معنا، كي نتعامل هكذا نحن أنفسنا مع أبنائنا.

هل لك أبناء؟ أَدِّبهم... أولادنا، ذكورًا كانوا أو أناثً، فلتحبهم فوق كل شيءٍ آخر[٣].

❖ بالحقيقة مُعَلِّم البشرية، الكلمة الإلهي يُكَرِّس نفسه بكل قوته ليخلص صغاره بكل وسيلة بتدبير حكمته: بالتحذير واللوم والتوبيخ والإصلاح والشفاء والوعود وتقديم إحسانات... بالحقيقة يتعامل الله معنا كما نتعامل نحن مع أطفالنا نهتم بأجسادهم، ولا نظهر لهم تساهلاً شديدًا. مع ذلك نكن حبًا عظيمًا لأطفالنا، أبناء أو بنات، أكثر من الحب لأي شيء آخر[٤].

القديس إكليمنضس السكندري

زَوِّج بنتك، فتكون قد قمت بأمرٍ عظيمٍ،
لكن أعطها لرجل ذي فهمٍ [٢٥].

هل لك زوجة حسب قلبك؟ فلا تُطلّقها،
لكن لا تأتمن نفسك للزوجة التي تكرهها [٢٦].

لم يأمر الزوج أن يحب زوجته، إنما بطريقة غير مباشرة أوضح أن عدم محبته لها تُمَثِّل خطرًا عليه. إن كانت الشريعة قد سمحت بالطلاق بسبب قسوة قلوبهم، حتى لا يتهوَّر الزوج على زوجته، فهنا يحذر ابن سيراخ من أن يُطَلِّق الزوج زوجته من أجل شهوته نحو امرأة أكثر جمالاً منها. فإن الجمال الأسمى هو في الحكمة والفهم والتقوى وحسن التدبير. أما إذا شعر الزوج بأن زوجته غير أمينة، فليحذر منها حتى لا تخدعه وتنحرف نحو الشرّ.

---

[١] راجع الأنبا مكاريوس.

[٢] راجع الأنبا مكاريوس.

[3] *Paedagogus 1: 11: 75*

[4] *Christ the Educator, FOTC, vol. 23, p. 67-78.*

أكرم أباك بكل قلبك،

ولا تنس آلام أمك في الولادة [٢٧].

أذكر أنك منهما وُلدت،

فماذا تكافئهما مقابل ما صنعاه معك؟ [٢٨]

لا يوجد من يحب للإنسان الخير والتقدُّم والنجاح أكثر منهما. وهب الله الأم أن تتعب بسرورٍ وبهجة من أجل أبنائها. يُقَدِّم الله حبها لأولادها كتشبيه لرعايته الساهرة لنا "هلْ تنْسى الْمرْأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء ينْسين، وأنا لا أنساك" (إش ٤٩: ١٥).

٦. استقامة الحياة وتكريم كهنة الربّ

جاء الحديث عن علاقة الإنسان بالكهنة في الربّ بعد الحديث عن الحياة الأسرية. هذا يكشف عن مفهوم الكهنوت سواء في ذهن الكاهن أو في ذهن الشعب.

سألني أحد الأساقفة من الكنيسة الإنجليزية عن سبب التصاق الشباب في مصر بالكنيسة وتزايد الرغبة في التكريس للربّ سواء خلال الشماسية أو الكهنوت أو الرهبنة. وكانت إجابتي: السبب الأول نظرتنا للكهنوت. فالمؤمن ينظر إلى الكاهن كعضوٍ معه في ذات أسرته، يُفاتِحه في كل ما يمسّ حياته كابنٍ مع أبيه. والكاهن لا يشعر أنه موظف يُطالب بإجازة سنوية ويُحَال على المعاش. فإنه وإن كان من حق أسرته وحقه هو أن يقضي فترة خاصة مع الأسرة لا كحقٍ شخصيٍ يطلبه إنما من أجل بنيان نفسه وأسرته.

كم تألَّمت نفسي حينما اتصلتُ براعي الكنيسة في لوس أنجيلوس وقلت له: "*Reverend*" فأجابني: أنا الآن "*Mr.*" لأنني أُحلت على المعاش!

الكاهن وهو على سرير الموت يطلب عن شعبه كأولادٍ له، بل وعندما ينطلق إلى الفردوس يُقَدِّم أبناءه للربّ كي يباركهم ويعمل في حياتهم. لهذا يليق بنا أن نضم ما تحدث به سيراخ "الحياة المستقيمة وتكريم كهنة الربّ" إلى البند السابق الخاص باستقامة الحياة العائلية.

تكريم الكاهن يتحقَّق في اقتدائه بالسيد المسيح "غاسل أقدام تلاميذه"، وفي مشاركته عائلته الكنسية، بل وإن أمكن مشاركة كل إنسانٍ في آلامه. عظمة الكاهن لا في سلطان يُطالِب به، بل في اِلتصاقه برئيس الكهنة السماوي المهتم بخلاص البشرية، ورفعهم إلى الفكر السماوي.

خَفِ الرب بكل نفسك،

وكرِّم كهنته [٢٩].

اهتم ابن سيراخ بالحياة الكنسية والعبادة الليتورچية، وتكريم الكهنة. مدح هرون رئيس الكهنة الأول كما مدح رئيس الكهنة المعاصر له سمعان بن أونيا. لم يَقْبَل الربّ أن يقدم لهم نصيبًا خاصًا في أرض الموعد، بل أراد أن يُمَيِّزهم بأن يكون هو نفسه نصيبهم.

أَكَّد ابن سيراخ الالتزام بتقديم مستحقات الكهنة، لأن انتشار الثقافة الهيلينية، وانجذاب البعض إلى الفلسفات الوثنية كان له أثره على دخل الكهنة واضطر بعضهم إلى العمل في الزراعة.

أحبب صانعك بكل قوتك،

ولا تُهمِل خُدَّامه [٣٠].

خَفِ الرب وأكرم كهنته،

وأعطه نصيبه بحسب ما أُمِرت به:

من الباكورة، وذبيحة الإثم، وتقدمة الأكتاف، وذبيحة التقديس، وباكورة المقدسات [٣١].

❖ من يكرم الكاهن يكرم الله أيضًا، والذي يتعلَّم أن يستخفّ بالكاهن، فعبر الزمن يسب الله. يقول: "أكرم كهنتي" (راجع سي ٧: ٣١). تعلَّم اليهود أن يستخفّوا بالله، لأنهم احتقروا موسى وأرادوا رجمه. فمن يتحرك بتقوى نحو الكاهن، إنما يفعل هذا بالأكثر نحو الله. وإن كان الكاهن شريرًا، فالله إذ يراك تكرمه، مع أنه ليس أهلاً للكرامة، يكافئك من أجل تكريمك له[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٧. الحب الإلهي ومسئوليتنا نحو الفئات المنسية

حقًا حسن أن يكون الشخص سخيًا مع كل أحدٍ، ويشترك في دفن الموتى (طو ١: ١٧). كما يدعونا ابن سيراخ لمشاركة الحزانى حزنهم وزيارة المرضى (رو ١٢: ١٥؛ مت ٢٥: ٣٩-٤٠). أخيرًا فإن معرفة الإنسان أنه قابل للموت يحفظه متواضعًا (٧: ١٧؛ ٢٨: ٦)، هذا مع تقديم التكريم اللائق بالقريب.

أبسط يدك للفقير،

لكي تكمل بركتك [٣٢].

يهتم الكتاب المقدس بالفئات المنسية التي ليس لها مند يسأل عنها، ويُطالِب باللطف حتى مع الأموات والمرضى، إنما لكي يشهد المؤمن لغير المؤمنين أن الله هو "إله المنسيين والمتألمين

---

[1] *On 2 Timothy, Homily2.*

والمحتاجين والمظلومين". لتمتد يد المؤمن بالعطاء، وقلبه بالحب لغير المؤمنين بكونه سفيرًا لله محب البشر.

❖ **[عن فلسيّ الأرملة والصدقة]**

حُبّها كان أعظم من قربانها، لأن الحب أفضل من الذبائح الكاملة... لهذا غلبت بقربانها الأغنيّاء. كهنة الشعب يقبلون النذور من الذين يقدِّمون بكثرة، ورب الكهنة جلس باتضاعٍ لم يشعروا به. الأحبار الشرهون يهتمّون بالذبائح، وربّنا طلب الحب داخل النفس... ابن الله يفرح بالذي فيه الحب.

❖ استطاعت الأرملة أن تعرف أن العليّ غير محتاجٍ إلى قربانٍ، بل يطلب سببًا ليغنيهم.

فكَّرت أنه لو أراد لجعل التراب ذهبًا، ومياه البحر مرجانًا، وقالت في نفسها إنه لا يطلب الذهب لاحتياجه، بل ليُشارِكه الناس بقرابينهم. لأن الذهب والفضة له، فكما هو مكتوب إن كانت الذبيحة عظيمة وحب مُقرِّبها قليل يرذلها. هذه وحدها عرفت أن تفرز وتقرِّب بقلب طاهر نذرًا كاملاً بإفراز (تمييز)... بحبٍ نقيٍ عرفت كيف تقرِّب! هذه قرَّبت نذرها الكامل أفضل من يعقوب. لأنها لم تفرز العُشرّ من مقتنياتها، بل أَحبت هذه الطوباويّة الرب أكثر من نفسها!

القديس مار يعقوب السروجي

لتظهر حنو العطاء في حضور جميع الأحياء،

حتى الموتى لا تمنع عنهم اللطف [٣٣].

ماذا يعنى باللطف مع الميت؟ الاهتمام بمواراته التراب بكرامة لائقة كما كان طوبيا يفعل. والاهتمام بعائلاتهم إن كان عليهم ديون، والتصدُّق على من كان يعطف الميت عليهم.

لا تنسحب عن الباكين،

واحزن مع الحزانى [٣٤].

يقول الرسول بولس: "فرحًا مع الفرحين وبكاءً مع الباكين" (رو ١٢: ١٥). قد يسهل على الإنسان أن يحزن مع الحزين ويئن مع أناته، لكن يصعب لدى البعض أن يفرح مع فرح أخيه، هذا يتطلَّب نفسًا سامية، فلا يحسد أخاه على نجاحه، بل يفرح معه، حاسبًا كل نجاحٍ لأخيه هو نجاح لنفسه. يقول الرسول: "فإن كان عضو واحد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه، وإن كان عضو يُكرَم فجميع الأعضاء تفرح معه، وأما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفرادًا" (١ كو ١٢: ٢٦-٢٧).

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [ليس شيء يثبت الحب بقوة مثل المشاركة في الفرح والألم.

ليس لأنك بعيد عن المتاعب تنعزل عن مشاركة الآخرين أيضًا. فعندما يتعب قريبك احسب الضيق خاصًا بك. شاركه دموعه لكي تسند روحه المنسحقة، وشاركه فرحه ليصير الفرح فيه عميقًا متأصلاً؛ ثبّت المحبة إذ بهذا تخدم نفسك أكثر من خدمتك له. فبدموعك تصير أنت رحومًا، وبمشاعر البهجة تُنَقِّي نفسك من الحسد والغم... إن كنت لا تستطيع أن تنزع عنه الشرور شاركه بدموعك، فتزيل عنه نصف الشر؛ وإن كنت لا تستطيع أن تزيد خيراته، فشاركه فرحه فتضيف إليه أمرًا عظيمًا[1].]

لا تتردَّد في افتقاد المريض،

فإنك بمثل تلك الزيارات تكون محبوبًا [٣٥].

زيارة المريض يحسبها السيد المسيح زيارة له، إذ يقول: "كنتُ... مريضًا فزرتموني" (مت ٢٥: ٣٦). كما نشتهي شفاء المريض، يليق بنا أن نشتهي له شركة الأمجاد الأبدية في الوقت المناسب.

٨. الحب الإلهي والمجد الأبدي

في جميع أمورك اذكر أواخرك، فلن تخطئ أبدًا [٣٦].

المؤمن في جميع أعماله لا يتحدَّث عن شيءٍ، ولا يشغل قلبه شيء ما، مثل دخوله إلى السماء. فيصير أشبه بهرون رئيس الكهنة الذي تثبَّت أجراس ذهبية على أذيال الجبة حواليها. "فتكون على هرون للخدمة ليسُمع صوتها عند دخوله على القدس أمام الرب" (خر ٢٨: ٣٥). ففي كل عملٍ يُمارِسه وفي كل أمرٍ يفكر فيه ما يشغله هو لقاؤه مع الرب ووقوفه أمام العرش الإلهي في المقادس السماوية، حيث يتمتَّع بالأمجاد الأبدية ويكون في صُحْبة السمائيين، وفي شركة التسبيح معهم.

❖ ليكن لديه أيضًا أجراس حول هدب ثوبه، إذ يقول الكتاب المقدس: عند دخوله القدس يعطي صوتًا ولا يدخل في صمتٍ (راجع خر ٢٨: ٣٥). وُضِعَت هذه الأجراس التي تعطي صوتًا في هدب الثوب. هدفها – كما أعتقد – أنه يلزم ألا تصمت عن الأمور الأخيرة ونهاية العالم، بل يلزمك أن تدق الأجراس على الدوام وتحاور وتتكلم حسبما قيل: "اذكر أواخرك فلن تخطئ أبدًا" (سي ٧: ٣٦)[2].

العلامة أوريجينوس

❖ يقول: "اذكر أواخرك، فلن تخطئ أبدًا" (سي ٧: ٣٦). فإن الذي يغفر الآن خطايانا، سيدين

---

[1] *In Rom. hom. 22.*

[2] *On Exodus, Homily 9 : 4*

خطايانا في يوم الدينونة. الذي مات لأجلنا سيظهر مرة أخرى ليدين كل البشرية[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ [في حديثه عن مارسيلا *Marcella*]: "اذكر أواخرك، فلن تخطيء أبدًا" (٧: ٣٦). وذلك كوصية الكاتب المتهكم: "عش مع الموت في ذهنك، فيطير الزمن"... لقد قضت أيامها وعاشت دائمًا تفكر أنها ستموت حتمًا. ملابسها ذاتها كما لو كانت تُذَكِّرها بالقبر. وقدَّمت نفسها ذبيحة حية عاقلة مقبولة لدى الله (رو ١٢: ١)[2].

القديس چيروم

❖ سؤال: كيف يمكن أن نفعل كل شيءٍ لمجد الله؟...

إن فعلنا كل شيءٍ حسب الله ووصاياه، ولا نطلب مديح الناس[3].

❖ "**قُمْ أيها الرب إلهي... بالوصية التي أوصيت بها**" (راجع مز ٧: ٨). هذا القول يُمكِن أيضًا أن يُشِير إلى سرِّ القيامة، إذ يدعو المرتل من الديَّان أن يقوم لينتقم من كل خطية، ويُتَمِّم الوصايا التي سبق أن وضعها لنا... لا تنتقم لي، بل لوصيتك التي أمرت بها، واستخفّوا بها"[4].

القديس باسيليوس الكبير

---

[1] *On John, Homily 39: 10.*

[2] *Letter to Principia 127: 6.*

[3] *Reg. Brev., 195.*

[4] *Homily 11:4 on Psalm 7.*

صديقنا السماوي والحب الأخوي

❖ بدالة الحب رفض موسى أن يتحرَّك، ما لم تتقدَّم أيها الرب الموكب كله بنفسك، إذ قال: "إن لم يسر وجهك، فلا تصعدنا من ههنا" (خر ٣٣: ١٥).
وها أنا أدعوك يا مُخَلِّصي، لا أن تُرَافِقني فحسب، بل وتُقِيم في داخلي.
وجودك يا صديقي القدوس، يُحوِّل أعماقي إلى ملكوتك المقدس.
يلهب قلبي بالشوق إلى الانطلاق المستمر نحو السماء بفرحٍ وتهليلٍ.
وجودك يملأ أعماقي بالحُبّ لكل إخوتي بني البشر.
بسكناك في داخلي، لن أَقْبَل الشر، ويبتعد عني كل إثمٍ.
لا يستطيع عدو الخير أن يدخل في قلبي وفكري وكل أعماقي،
ولن يجرؤ أن يمسك بعجلةٍ القيادة، لأنها في يدك!

❖ لن أشتهي مركزًا ساميًا، ولا مجدًا زمنيًا. ولن أَتباهى بالبرّ.
لأن كل ما هو مقدس، إنما هو هبة من عندك يا أيها البار القدوس.
وإن سقطت في خطيةٍ، تُقيمني بروحك الناري، وتُحَصِّن حياتي فلا أرجع إليها.
صديقي السماوي الطويل الأناة، أنا أعرف مراحمك الغافرة.
ها أنا أطلب نعمتك لتُشَكِّلني، فأصير بالحق أيقونة حيَّة لك!

❖ يا قابل التقدمات والقرابين وأنت لست في حاجةٍ إليها. تناديني: "يا ابني أعطني قلبك".
استلم قلبي، فأُناجيك بقلبٍ مُنفتِح. وتصعد صلاتي وكل عبادتي كرائحة بخور ذكية،
موضع سرورك ورضاك.
ترتفع صلاتي كنارٍ مُلتهِبةٍ بالحب.
ولا أَتوقَّف عن العطاء، فأرد لك مما وهبتني!

❖ استلم أيها السماوي كل حياتي وتحرُّكاتي، واسمح لي أن أسير على إثر خطواتك.
بك لا أَسخر بإنسانٍ ما مهما كانت ضعفاته، فقد يقوم بنعمتك، وأسقط بغباوتي!
أَعتزّ بصداقتك لي يا أيها الحق، فلا يكون لإبليس أب الكذّابين سلطان عليَّ!

❖ ألتزم بالصمت خاصة في حضور الشيوخ المختبرين.

حتى في الصلاة ما يشغلني ليس كثرة الكلام وبلاغته،
بل لغة القلب غير المسموعة من البشر.

❖ أرجو ألا أَتوقَّف عن العمل حتى في شيخوختي ومرضي،
فأنت لا تستريح للخاملين.
أهرب من مجالس الخطاة، حيث لا موضع لك بينهم!
أجول معك أصنع خيرًا، وأقتني لي أصدقاء على الدوام!

❖ لتدخل أيها الحبيب السماوي بيتي وتُقِيم وسط العائلة.
تنسب أسرتي إليك، فأنا لك يا حبيبي، وأنت لي!
تتجلَّى في حياة الأسرة كلها، الكبار والصغار.
تهب الكل حبًا وحكمة وتمييزًا وتعقُّلاً.
فيشتهي كل عضوٍ أن يُقَدِّم الكرامة لبقية الأعضاء!

❖ هَبْ لي روح البساطة، فأَراك في كل كاهنٍ وخادمٍ في كنيستك!

❖ ليكن محبوبيك محبوبين لي.
أهتم بالفقير بكونه أخاك الصغير،
والمحتاج والمتألم والمظلوم، إذ تعلن أنك إله المنسيين!
أبحث عن الضالين والمطرودين، لأراك تردّهم إليك وتحتضنهم.

❖ كن معي حتى النفس الأخير، تُعِدّني قبل سكرات الموت،
وفي لحظات الموت، وما بعد الموت.
تفتح بصيرتي، فأرى المقادس السماوية تنتظر ضعفي وكل إخوتي!

الأصحاح الثامن

المؤمن الحكيم والتعامل مع الفئات المتنوعة

يليق بالمؤمن أن يفتح قلبه بالحُبّ لكل إنسانٍ. وفي نفس الوقت يكون حكيمًا، فيتصرَّف حسب قدراته وإمكانياته. يرى القديس بولس أن إمكانيات الغالبية العظمى من البشر محدودة. فالكل وُلِدوا عراة. وفي نفس الوقت ليس الكل أصحاب سلطان، ولا الكل أغنياء، ولا الكل حكماء حسب الجسد، ولا الكل مقتدرون. لذا يليق بنا أن ندرك إمكانياتنا فلا نتعدَّاها، وبعمل نعمة الله وبحكمة حقيقية من قبل الربّ نعرف كيف نتعامل مع من هم أغنى منا، وأقدر منا، ومع من كان ثرثارًا الخ.

الحكمة في التعامل مع الفئات المختلفة[1]

كثيرًا ما يقف **المؤمن خاصة الراعي** في حيرة في تعامله مع الآخرين بين اللطف والحزم، والتوبيخ والتشجيع، التغاضي عن الخطأ أو كشفه الخ. إنه **يحتاج إلى حكمة تُرافِق الحب في أسلوب معاملته مع كل فردٍ من أفراد رعيَّته حتى لا يهلك أحد منهم**. يُعالِج سيراخ موضوع التعامل مع بعض الفئات، مثل المقتدرين، والمخطئين، والشيوخ، والمتهورين.

وقد تعرَّض **القدِّيس غريغوريوس النزينزي** وكثير من آباء الكنيسة إلى ضرورة استخدام الحكمة مع كل فئةٍ وحسب ظروف كل فرد وبيئته وطباعه. كذلك تحدَّث **البابا غريغوريوس (الكبير)** في كتابه *Pastoral Care* في هذا الأمر بأكثر تفصيل، قائلاً:

[قد سبق **غريغوريوس النزينزي** الموقر فعلَّمنا أن الراعي لا يُقَدِّم نصيحة واحدة للجميع. إذ لا تصلح مشورة واحدة للكل، طالما ليس للكل نفس الشخصيَّة ونفس الظروف. فالنصيحة التي تفيد البعض قد تضر الغير. كالمراعي التي تقتات فيها بعض الحيوانات بينما لا تصلح لغيرها. والصفير الهادئ الذي يُهَدِّئ الحصان قد يهيِّج الجرو. والدواء الذي يشفي شخصًا يزيد أمراض آخر. والطعام الذي يقوت الرجل القوي يهلك الطفل الصغير.]

يحتاج المؤمن إلى حكمة في معاملته مع كل فئةٍ وكل فردٍ بطريقةٍ يكسب بها الجميع، ويصير موضع ثقته، دون أي مساس بسلامه الداخلي أو محبَّته لله أو قداسته الخ. فبولس الرسول يقول: "فإنّي إذ كنت حرًّا من الجميع استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين. فصرت لليهود كيهوديٍّ لأربح اليهود، وللّذين تحت الناموس كأنّي تحت النّاموس لأربح الذين تحت الناموس، وللّذين بلا ناموسٍ كأنّي

---

[1] راجع للكاتب "الحب الرعوي" ٢٠٠٥، الباب الثاني، ص ٢١٢ الخ.

بلا ناموسٍ، مع إنّي لست بلا ناموسٍ لله بل تحت ناموسٍ للمسيح، لأربح الذين بلا ناموسٍ. صرت للضّعفاء كضعيفٍ لأربح الضّعفاء. صرت للكلّ كلّ شيءٍ لأخلّص على كلّ حالٍ قومًا" (١ كو ٩: ١٩-٢٢). يليق بالمؤمن أن يكسب في السيد المسيح إن أمكن الكل رجالاً ونساء، أشرارًا وقدّيسين، بسطاء وماكرين، وُدعاء ومتكبّرين.

❖ إن تعهَّد شخص ترويض حيوانات متنوعة، ذات أحجام مختلفة، لها درجات متفاوتة في الألفة والوحشية؛ فإن مثل هذا يتركَّز عمله الرئيسي على جهادٍ عظيمٍ لتدبير طبائع متمايزة غريبة، لأن كل حيوانٍ يكون له استجابته لمعاملة المروِّض من كلمات أو طعام أو ضرب له باليد أو تصفير الخ. مختلفة عن الحيوان الآخر بسبب طبيعته وعاداته. ماذا ينبغي لسيِّد هذه الحيوانات أن يفعل في ترويضه، مُعامِلاً كل حيوان بطريقة تتناسب معه، حتى ينجح في قيادة هذه الحيوانات المفترسة والمحافظة عليها؟!

وإذ يتكوَّن جسد الكنيسة من شخصيَّات مختلفة وعقول متمايزة، كما لو كانت جسدًا واحدًا له أعضاء كثيرة مختلفة. لذلك كان من الضروري أن يكون القائد بسيطًا، معتدلاً في كل الأمور، وبقدر الإمكان يستخدم وسائل كثيرة في معاملة الأفراد، يتعامل مع كل عضوٍ بطريقة تليق به وتُناسِبه. فالبعض يحتاج إلى التغذِّي بلبنٍ (١ كو ٣: ١-٢)، أي التعاليم السهلة الأوليَّة، أمثال أولئك الذين هم أطفال في عاداتهم. ويمكن القول عنهم أنَّهم حديثو الإيمان، ليس في قدرتهم أن يهضموا طعام الكلمة الدسم. فإن قدَّم لهم طعام أَدسم ممَّا لا تحتمله قدرتهم هلكوا بسبب ضعف عقولهم، كما في أمر الأجساد تمامًا التي إن قُدِّم لها طعام لا تقدر أن تهضمه وتقبله، يؤدِّي إلى فقدان قوَّتها الأولى.

والبعض تلزمهم الحكمة التي يُنطَق بها بين الكاملين (١ كو ٢: ٦). هؤلاء يلزمهم الطعام الدسم. إذ بسبب التمرُّن صارت لهم الحواس مُدَرَّبة على التمييز بين الحق والباطل (عب ٥: ١٤). فلو قُدِّم لمثل هؤلاء أن يشربوا اللبن الخاص بالأطفال أو يتغذُّوا بالخضراوات الخفيفة الخاصة بالمرضى يضجرون. إذ لا يَتقوون في المسيح، ولا يزداد جهادهم. بينما لو قدَّمت لهم كلمة الله الدسمة ليتغذُّوا بها بطريقة سليمة، تجعل منهم رجالاً كاملين، وترتقي بهم إلى مستوى روحيٍ سامٍ.

القدِّيس غريغوريوس النزينزي

❖ يختلط الكاهن (والمؤمن) بالمتزوِّجين الذين لهم أطفال وخدم، كما يختلط بالأغنياء وأصحاب المراكز العامة وذوي النفوذ... لهذا وجب أن يكون إنسانًا يعرف كيف يعامل الكل (*many sides*

(*man*. لست أقول أن يكون مُخادِعًا أو متملّقا أو مرائيًا، بل يكون **شديد المرونة**، يعرف كيف يتلائم مع كل واحدٍ حتى يربحه حسبما تقتضي الظروف. فيكون حازمًا (قاسيًا)، ورحومًا لأنَّه يستحيل أن يُعامِل كل الذين تحت إشرافه بمعاملة واحدة. كالطبيب الذي ليس له أن يطبق علاجًا واحدًا على جميع المرضى الذين يعالجهم. أو مثل ربان السفينة الذي ينبغي ألاَّ يعرف طريقة واحدة فقط لصدّ الرياح، لأنَّه مُعَرَّض أن تُصادِفه رياح كثيرة... تهاجمه لا من الخارج فحسب، بل ومن الداخل أيضًا.

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ ليس من المتاح في كل الأوقات أن نستخدم القوانين والقواعد العادية، بل يجب على الإنسان أن يضع في حسبانه الظروف المحيطة به، ويحاول تنفيذ ما هو مستطاع لديه حسب الإمكانيات التي لديه. لا تجهل الشياطين هذا، لذلك فإنها في هجومها علينا تمنعنا من أن نعمل حسب طاقتنا، إنما تحرضنا أن نعمل ما هو مستحيل[1].

الأب أوغريس الراهب

شخصيات متنوعة ومواقف متنوعة

يُقَدِّم ابن سيراخ التطبيق العملي للشريعة، فهو يُطالِبنا بالاعتدال في عبادتنا كما في سلوكنا. نراه يُوازِن بين الشجاعة والتروّي، إذ يجب علينا أن ندرس حساب النفقة، ونلتزم بالسلوك في ضوء إمكانياتنا وإمكانيات الآخرين، حتى لا نصطدم بالآخرين.

في هذا الأصحاح يُوَجِّه ابن سيراخ أنظارنا إلى تعامل المؤمن مع الفئات التالية:

١. مع المقتدرين أصحاب السلطة أو الأقوياء[١]

٢. الأغنياء ماديًا [٢]

٣. الخصام مع الثرثار [٣]

٤. مع الإنسان الممازح غير المهذب [٤]

٥. الخاطئ التائب [٥]

٦. اللقاء مع شيخ واهن القوة [٦]

٧. حضور جنازة ميت له سقطاته [٧]

٨. مجالسة الحكماء والنبلاء [٨]

---

[1] توجيهات إلى أناتوليس *Anatolius* عن "الحياة العاملة".

٩. مجالسة الشيوخ في نقلهم للتراث الآبائي [٩]

١٠. اللقاء مع خاطي ثائر [١٠]

١١. مع إنسانٍ متغطرس يتلقط الأخطاء [١١]

١٢. مع طالب قرض منك [١٢]

١٣. مع مُقرض متهاون في سلوكه [١٣]

١٤. مع قاضٍ أساء إليك [١٤]

١٥. مرافقة شخصٍ متهورٍ في رحلة ما [١٥]

١٦. مع إنسانٍ حانق [١٦]

١٧. مع إنسانٍ أحمق [١٧]

١٨. ممارسة أمر سري أمام غريب [١٨]

١٩. كشف أسرار القلب لكل إنسانٍ [١٩]

باستثناء الآيتين ٨، ٩ اللتين تُقَدِّمان لنا إرشادًا إيجابيًا للتعلُّم من الحكماء والشيوخ المختبرين، فإن الأصحاح كله يضم تحذيرات من الأعمال الحمقى بأشكالها المتنوعة:

١. **موقفنا مع فئات يمكن أن تُسِيئ إلينا [٧-١]. مواقف خاطئة نحو الغير** مثل مقاومة المقتدر، ومشاجرة الغني، مخاصمة الثرثار، والمزاح مع شخصٍ غير مهذب، وتعيير تائب عن الخطية، وإهانة شيخ، والشماتة في موت إنسانٍ ما.

٢. **التزامنا بالتعلم حتى نتعامل معهم [٩-٨].**

٣. **مواقفنا الإثارية الخاطئة [١١-١٠]. التأهُّل للسقوط بسب اقتراحات يُقَدِّمها الغير**، مثل إيقاد جمر الخاطئ، والوقوف في وجه متغطرس، وإقراض من هو أقوى منه، وتقديم كفالة فوق الطاقة.

٤. **ثقة في الغير بدون حكمة [٢٠-١٢].** مثل مقاضاة قاضي، واشتراك في رحلة مع شخصٍ متهور، ومحاربة شخصٍ حانق، وطلب مشورة من أحمق، وممارسة أمر سري أمام غريب، وكشف ما في القلب لكل من تلتقي به. لذا يليق بالمؤمن أن يتعرَّف على الشخص وإمكانياته قبل البدء في التعامل معه.

موقفنا مع فئات يمكن أن تسيئ إلينا [١- ٧]

يقول الرسول بولس: "إن أمكن فسالموا جميع الناس" (رو ١٢: ١٨). وفي نفس الوقت يُحَذِّرنا ابن سيراخ من مقاومتنا للمقتدرين أصحاب السلطة كالنبلاء والأشراف وقادة المجتمع [١] لئلا يصيروا أعداء، وتشاجرنا مع الأغنياء [٢]، ومن الجدال مع كثير الكلام صاحب الصوت العالي (الثرثار) [٣؛

أم ٢٦: ٢٠: ٢١]، ومزاحنا مع المازحين غير المهذبين بأسلوبٍ غير لائق [٤]، وتعييرنا لتائب، فنضيف وقودًا للنار.

مع ما اتَّسم به ابن سيراخ بتركيزه على الحكمة الإلهية التي نتمتَّع بها خلال نعمة الله والالتصاق به واللهج في كلمة الله، والتذوُّق الدائم للإيمان بالله، يطالبنا أن نضع في اعتبارنا حساب النفقة. النفقة هنا لا تتركَّز في المال أو القوة أو السلطة أو المواهب، وإنما إعطاء الأولوية للفكر المقدس والدراسة المتزنة.

لكي نشهد لإيماننا الحيّ يليق بنا ممارسة الشجاعة في ترو دون تهور، والاتكال الكامل على الله مع إدراك إمكانياتنا التي هي عطاياه لنا، وإمكانيات الغير حتى لا نصطدم بهم. يليق بنا العطاء بسخاءٍ في الربّ دون التبذير أو البخل، والعمل الدائم مع مراعاة إمكانياتنا الروحية والصحية وقدراتنا العلمية والفكرية.

١. التعامل مع المقتدرين

يليق بالمؤمن أن يتعقَّل في التعامل مع الغير، فلا يتشاجر مع أشخاص أصحاب سلطان لئلا يصيروا له أعداء [١]. ولا يُزعج غنيًا فيوشي السطات الحاكمة ضده (أم ١٧: ٢٣). ولا يجادل إنسانًا ثرثارًا صاحب حنجرة عالية كثير الكلام وبلا ضابطٍ (أم ٢٦: ٢٠-٢١).

لا تُقاوِم بحدةٍ المقتدر،

لئلا تقع في يديه [١].

لا يليق بالمؤمن أن يدخل في خصومة مع إنسانٍ متهورٍ يُشهر سلاحًا، أو يجاهر بتبكيت رئيس أو ملك فيُعرِّض نفسه للقتل باطلاً، إلاَّ إذا كان ذلك شهادة للإيمان المستقيم. إذ يستثنى من هذا المدعوون للاستشهاد بإعلانٍ إلهي، أو الأنبياء المدعوون لمواجهة رؤساء الكهنة والملوك، كما فعل إشعياء النبي ويوحنا المعمدان.

أما بالنسبة للمؤمنين من الشعب والكهنة الشباب، فيليق بهم ألاَّ يُحَطِّموا طاقاتهم في النقد ومحاولة الإصلاح بالاصطدام مع الآخرين، إنما ينيرون شمعة بدلاً من أن يلعنوا الظلام.

جاء في **قوانين البابا بطرس خاتم الشهداء (قانون ٩):**

[(الذين أثاروا المقاوم في اندفاع لكي يُلهِب نار الضيق فينعمون بالاستشهاد).

الذين كانوا كمن في نومٍ وقد وثبوا فجأة ليثيروا المقاوم، الذي كان كمن طال به زمان المخاض، هؤلاء يجرون على أنفسهم تجارب كهجعات البحر وفيض أمواج بلا حصرٍ، مُشعِلين نار (جمر) الأشرار ضد إخوتهم... هؤلاء نلتزم أن تكون لنا معهم شركة، لأنهم سلكوا هكذا من أجل المسيح، وإن

كانوا لم يصغوا لكلماته. فقد علَّمنا أن نُصَلِّي لئلا ندخل في تجربة، لكن نجنا من الشرير (مت ٦: ١٣).

لعلهم لم يعرفوا أن ربّ البيت ومُعَلِّمنا الأعظم كثيرًا ما كان ينسحب بعيدًا عن الذين ألقوا له شباك، بل وأحيانًا لا يسير علانية بسببهم. وفي وقت آلامه انسحب ولم يُسَلِّم نفسه لهم منتظرًا مجيئهم إليه بسيوف وعصي، قائلاً: كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصي لتأخذوني (مت ٢٦:٥٥)، وهم أسلموه إلى بيلاطس (مت ٢٧:٢).

وما حدث معه تكرر مع تلاميذه المتمثلين به، متذكرين كلماته الإلهية التي نطق بها ليثبتنا وقت الاضطهاد قائلاً: "احذروا من الناس، لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس وفي مجامعهم يجلدونكم" (مت ١٠:١٧). يقول إنهم يسلموننا ولا نُسَلِّم نحن أنفسنا. إنكم تُقدَّمون أمام ولاةٍ وملوكٍ من أجلي، لا أنتم الذين تُقَدِّمون أنفسكم. إنه يريدنا أن نعبر من موضعٍ إلى موضع حيث يوجد المضطهدون وذلك من أجل اسمه.

مرة أخرى يقول "متى اضطهدوكم في هذه المدينة، فاهربوا إلى أخرى" (مت ١٠:٢٢)، وكأنه يريدنا ألا نقحم أنفسنا على خدام الشيطان وأتباعه، حتى لا نكون نحن علة موتهم المضاعف ولا ندفعهم إلى القسوة دفعًا، فيرتكبون أفعالاً ميتة، لكنه يريدنا أن ننتظر ونحذر بالسهر والصلاة لكيلا ندخل في تجربة (مت ٢٦:٤١).

اقتفي إسطفانوس (الشماس الشهيد) الأول أثر السيد، فاحتمل الاستشهاد عندما ألقى العُصاة القبض عليه في أورشليم، ورجموه بعد تقديمه أمام مجمع. لقد تمجد من أجل اسم المسيح، مصليًا: "يا رب لا تُقِم لهم هذه الخطية (أع ٧:٥٩).]

لا تتشاجر مع غني، لئلا يقاوم قوتك،

فإن الذهب أهلك كثيرين، وأفسد عقول ملوك [٢].

لا تلتصق بالعظماء والأغنياء الأشرار لئلا يلتصق الشر بطبيعتنا كالتصاق الصدأ بالحديد، والتراب بالجسد.

❖ كما أن الصدأ ليس من صنع الحداد، والتراب ليس من وضع الوالدين، هكذا الشر ليس من عند الله. بل وهب الله الإنسان ضميرًا وعقلاً لكي يتجنَّب الشر، يكشفان له أن الشر مضر ويجلب عذابات. لذلك يليق بك أن تكون أكثر حرصًا. فعندما تُقابِل إنسانًا ذا عظمة وثروة، لا تترك للشياطين مجالاً لكي تخدعك، فتتقاد له، بل ضع في الحال الموت نصب عينيك، عندئذ لن

تشتهي شيئًا رديئا أو أرضيًا[1].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ **"الذين يثقون في قوتهم، وبكثرة غناهم يفتخرون"**. هذه العبارة يُوَجِّهها النبي إلى نوعين من الأشخاص: إلى الأرضيين *earthborn* والأغنياء. يتكلَّم إلى الأولين، لكي ينزعوا عنهم المفاهيم الخاطئة لسلطانهم. وللآخرين الذين يفتخرون بمقتنياتهم. يقول: أنتم يا من تَتَّكلون على قوتكم.

يتَّكِل هؤلاء الأرضيون *earthborn* على قوة الجسد، ويؤمنون أن الطبيعة البشرية فيها الكفاية في تحقيق ما يريدونه ببراعةٍ. يقول: وأنتم يا مَنْ تثقون في عدم يقينية الغِنَى، أصغوا. إنكم محتاجون إلى فدية لتنتقلوا إلى الحرية التي حُرِمتم منها عندما غَلَبَتكم قوة الشيطان الذي سحبكم تحت سلطانه، فإنه لا يترككم في حرية من طغيانه حتى يعمل فيكم مُخَلِّص قدير يريد أن يقايضكم. لا تكون الفدية من نفس نوع الذي سقط تحت سلطانه، بل يختلف عنه تمامًا، إن أراد بحق أن يُحَرِّر المسبيين من العبودية.

لذلك فإن الأخ يعجز عن أن يفديكم. لا يقدر إنسان أن يحث الشيطان أن ينزع سلطانه عن ذاك الذي خضع له مَرَّة! أيضًا يعجز (الأخ) عن أن يُقَدِّم لله كفارة عن خطاياه، فكيف يكون له سلطان أن يفعل هذا عن الآخرين؟

وأي شيء ثمين يملكه في هذا العالم يكفي ليُقايِض به ثمنًا لنفسٍ ثمينةٍ بطبيعتها، هذه التي خُلِقَت على صورة خالقها؟ وأي عملٍ في الزمن الحاضر يكفي تقديمه للنفس البشرية كوسيلةٍ وعونٍ لها في الحياة العتيدة؟

يمكننا أن نحسب هذه الأشياء بسيطة. فإنه حتى إن بدا إنسان أنه صاحب سلطان عظيم في هذه الحياة، حتى وإن أحاط به عدد عظيم من المقتنيات، فإن هذه الكلمات تُعَلِّمه أن ينزل عن مثل هذا الفكر، وأن يتواضع تحت يد الله القدير (١ بط ٥: ٦)، لا أن يتَّكِل على سلطان أحدٍ مشهورٍ، ولا أن يفتخر بكثرة غناه. مع هذا يمكن أن يصعد إلى العلو قليلاً في الفكر، وبالنسبة للذين يتَّكِلون على سلطانهم أو يفتخرون بثرواتهم أن يفكروا في قدرات (وسلطان) النفس، بقدر ما هي غير كاملة في ذاتها لتحقيق الخلاص. فإنه إن وُجِد أحد كامل بين بني البشر، إن كانت تنقصه حكمة الله، فلا يفتخر بشيءٍ. فإنه وإن نال كثرة من النظريات من حكمة العالم، وجمع الكثير من غِنَى المعرفة، فليسمع الحق كله من الأمر: كل نفسٍ بشرية انحنت تحت نير العبودية التي فرضها عدو الجميع العام، وإذ حُرِمَ من الحرية ذاتها التي نالها من الخالق، قادته الخطية

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٩١.

أسيرًا. كل مسبيٍ في حاجة إلى فدية من أجل حريته.

الآن، لا يقدر أخ أن يفدي أخاه، ولا يقدر أحد أن يفدي نفسه، لأن الذي يفدي يلزمه أن يكون أفضل من الذي هُزِمَ وصار عبدًا. في الواقع ليس لي إنسان له سلطان أمام الله كي يُكفِّر عن خاطي، مادام هو نفسه خاضعًا للخطية: "إذ الجميع أخطأوا، وأعوزهم مجد الله؛ مُتبرِّرين مجانًا بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح" ربنا (رو ٣: ٢٣-٢٤)[1].

القديس باسيليوس الكبير

التعامل مع الفقراء والأغنياء: المؤمن الذي يشعر بأثقال تجارب إخوته الفقراء يتلطَّف بهم في آلامهم وذلهم، فعندما يوصي الرب على لسان إشعياء بخصوص العاقر التي لم تلد (أي النفس المتألِّمة). **لا يستخدم التوبيخ والانتهار بل التشجيع**، فيقول: "أَيَّتها الذَلِيلَةُ المُضْطَرِبَةُ غَيْرُ المُتَعَزِّيَةِ، هَأَنَذَا ابني بِالإثمدِ حِجَارتك، وَبِاليَاقُوتِ الأَزْرَقِ أُؤَسِّسُكِ..."، "لاَ تَخَافِي لأَنَّكِ لاَ تَخْزِينَ وَلاَ تَخْجَلِي لأَنَّكِ لاَ تَسْتَحِينَ. فإنكِ تَنْسِينَ خِزْيَ صَبَاكِ، وَعَارُ تَرَمُّلِكِ لاَ تَذْكُرِينَهُ بَعْدُ. لأن بَعْلَكِ هُوَ صَانِعُكِ رَبُّ الجُنُودِ اسمهُ" (إش ٥٤: ١١، ٤).

أما الأغنياء فليبث الراعي (أو المؤمن) فيهم روح الخوف من الزهو والكبرياء، لأن **اللين الزائد معهم يزيدهم كبرياء**، ويفقدهم حياتهم الحقيقيَّة. لهذا نجد ربنا يسوع يُوَبِّخ الأغنياء (المتَّكلين على غناهم) "ويل لكم أيُّها الأغنياء. لأنكم قد نلتم عزاءكم" (لو ٦: ٢٤). والرسول بولس يرشد تيموثاوس تلميذه قائلاً: "أَوْصِ الأَغْنِيَاءَ فِي الدَهْرِ الحَاضِرِ أن لاَ يَسْتَكْبِرُوا، وَلاَ يُلْقُوا رَجَاءَهُمْ عَلَى غَيْرِ يَقِينِيَّة الغِنَى[2]، بَلْ عَلَى الله الحَيِّ الذي يَمْنَحُنَا كُلَّ شَيْءٍ بِغِنًى لِلتمتُّع..." (١ تي ٦: ١٧). يقول له "أوصِ" وليس "ترجى أو التمس منهم". لكن أحيانًا توجد هناك حاجة إلى استخدام قيثارة داود الملطِّفة لنزع روح الشر من قلب شاول المتكبِّر. **ليست قيثارة التملُّق والمداهنة**، بل قيثارة ترنيم باسم الرب، قيثارة الحب والترفُّق مع الصلاة، حتى يعطيه الرب روح التواضع.

وقد استخدم ناثان نفس القيثارة مع داود عند سقوطه وهو غني، إذ خبَّأ الدواء المُرّ في ثوبه مُستخدِمًا اللطف **في عرضه قضيَّة الشخص الذي اغتصب نعجة أخيه**، وإذ أدرك داود خطأه أمكن لناثان أن يقدِّم له الدواء. هذا ما عناه ابن سيراخ في العبارات التي بين أيدينا.

لا تُخاصِم بحدةٍ الثرثار،

---

[1] *Homily 19:3, (On Ps 48 LXX). Unto the End, A Psalm for the Sons of Core on the Prosperity of the Wicked.*

[2] "غير يقينية الغنى" تعنى أنه غني غير ثابت وغير أكيد (*the uncertainty of their riches*).

ولا تجمع على ناره حطبًا [٣].

من يدخل في خصومة مع شخصٍ ثرثارٍ يُغامِر بسمعته.

٢. التعامل مع المخطئين

لا تمازح إنسانًا غير مهذب،

لئلا يُهَان أسلافك [٤].

يُحَذِّرنا من مجاراة المازحين، فالمزاح غير لائق، إذ يطرد مخافة الربّ من القلب، ويفسد وزنة تقديس الوقت. يرى **القديس مار يعقوب السروجي** أن الله خلق الفم واللسان للتدرُّب على التسبيح والشركة مع السمائيين في حياة الشكر. المزاح في نظره انحراف باللسان عن عمله المقدس لحساب ملكوت الله. يليق بالحكيم أن يتَّسِم بالوقار والجدية مع اللطف، وفي ملاطفته يكون وقورًا خائف الله.

لا تُهِن من ابتعد عن الخطية تائبًا،

واذكر أننا جميعًا مستحقون (العقاب بسبب خطايانا) [٥].

جاء في المشناة *Mishnah* "إن تاب إنسان، لا يُقال له: تذكَّر أفعالك الماضية"[1]. فإن تاب أحد عن خطية ما قد ارتكبها يلزمنا ألا نستخفّ به. يقول **القديس أنبا موسى الأسود:** "لا تكن قاسي القلب على أخيك، فإننا جميعًا قد تغلبنا الأفكار". لكن هذا يدفعنا بالأكثر نحو التوبة الجادة في الرب.

الذي يفهم ويتمسَّك بالتقوى يقول: "يا رب من ينزل في مسكنك؟ من يسكن في جبل قدسك؟ السالك بالكمال، والعامل بالحق، والمتكلم بالصدق في قلبه. الذي لا يشي بلسانه، ولا يصنع شرًا بصاحبه، **ولا يحمل تعييرًا على قريبه**" (مز ١٥: ١-٣). أما نحن فنعيِّر الذين يتوبون، والذين يهتدون، مع أن الكتاب المقدس يقول: لا تعيِّر من تاب عن الخطية (راجع سي ٨: ٥)[2].

❖ يوجد إنسان مملوء بالإيمان، يأتي مُتَّجِهًا نحو الجماعة متهمًا نفسه، يكشف لكل شخصٍ الخطية التي ارتكبها. ومع ذلك فإن أولئك الذين ليس فيهم خوف من دينونة الله العتيدة، إذ يسمعون كلماته، بدلاً من مشاركته آلامه، وعوض الاهتمام به يزعجونه، عوض السقوط مع الساقط، يقولون: ابعد عني ولا تقترب مني، فإني طاهر! ثم يبدأون يلعنون هذا الذي كانوا قبلاً معجبين به (إذ كانت خطيته مخفية)، ويسحبون صداقتهم معه.

---

[1] *Baba Metzia 4: 5.*

[2] *On Jeremiah, Homily 16: 6: 2.*

إنه لم يرد أن يخفي جريمته. باقتناعٍ يقول عمن يعيرونه: "أصدقائي وأصحابي ابتعدوا عن وبائي، وأقربائي تركوني" (مز ٣٨: ١١ *LXX*)... الذي بعد ما ارتكب خطية يرغب في خلاص نفسه، ولا يبالي بتوبيخات الذين لا يفكرون في خطاياهم والذين لا يذكرون كلمات الأسفار الإلهية: "لا تعيِّر التائب عن الخطية، واذكر أننا جميعًا مستوجبون العقوبة" (راجع سي ٨: ٥). لا تضطرب من أجل هذه الأمور، إنما اضطرب من أجل نفسك، وصلِّ إلى الله أن يسمع لك، ويرفعك بعد سقوطك حتى تستطيع القول بعد ذلك: "أعرف إثمي، وأحزن على خطيتي" (مز ٣٨: ١٩ *LXX*)[1].

العلامة أوريجينوس

٣. التعامل مع الشيوخ

لا تُهِنْ إنسانًا في شيخوخته،

فإن أناسًا منا أيضًا سيشيخون [٦].

المجتمع الذي يستخفّ بالشيوخ، إنما يستخفّ بمستقبله. يليق بنا أن ننتفع بخبرة من سبقونا في الحياة، فإن الجيل الجديد سينتفع بخبرتنا مع اعترافنا بأنهم سيكونون أكثر تقدُّمًا منا. علامة حيوية المجتمع هو التقدُّم المستمر. هذا التقدُّم يقوم على ما جاهد فيه السابقون لهم، ويتعلَّم الجيل الجديد أن ليس فقط مما بلغناه من تقدم، بل ومن أخطائنا. هكذا تبقى الأجيال في تقدمٍ دائمٍ يعالج الأخطاء، لأنه لن يوجد إنسان كامل في كل شيءٍ. فالحاضر يُقَدِّم ما هو جديد للمستقبل دون تجاهل الماضي.

لنذكر ما قدَّمه الشيوخ في فترة شبابهم، ولا ننتقدهم بسبب ضعفهم الجسدي وضعف ذاكرتهم، وعجزهم عن ممارسة بعض العبادات، فإننا قد نشيخ يومًا مثلهم. ينصحنا الرسول بولس: "لا تزجر شيخًا بل عظه كأبٍ، والأحداث كإخوة" (١ تي ٥: ١). وجاء في سفر اللاويين: "من أمام الأشيب تقوم وتحترم وجه الشيخ وتخشى إلهك، أنا الربّ" (لا ١٩: ٣٢). يطالب ابن سيراخ الشيوخ بالعمل بما يناسب خبرتهم وقدرتهم الجسمية حتى النفس الأخير، فلا يسقطوا في الشعور بالقنوط بسبب البطالة.

لا تشمت بموت شخصٍ،

واذكر أننا حتمًا سنموت جميعًا [٧].

بعد أن أوصانا باحترام الخاطئ التائب والشيخ العاجز عن العمل، دعانا لاحترام الميت وأسرته، فمن يشمت في ميتٍ يسقط في الدينونة، لأنه لا يعلم ما في قلب الميت قبل موته، ولا يدرك خطة الله

---

[1] *Homilies on the Psalms (Psalm 37), Homily 2: 1.*

من نحوه. بالموت ينضم الشخص إلى سالفيه، فلا يشمت الشخص في موت أخيه لأنه سيلتقي به في الحياة العتيدة. يرى سيراخ الموت هو اجتماع مع السالفين [٧] (تك ٢٥: ٨؛ قض ٢: ١٠).

❖ أمر واحد مستحيل بالنسبة للإنسان، وهو أن يهرب من الموت. أما إن كان للإنسان شركة مع الله، فهذا ممكن للإنسان إن عرف الطريق. فإن أراد، وعرف الطريق، يستطيع بالإيمان والحق أن يختبر الحياة الصالحة ويجتمع بالله[١].

❖ النفس التي تعرف حقيقة العالم ما هو، وترغب في أن تخلص، لها قانون صارم، وهو أن تفكر في كل ساعةٍ في داخلها، قائلة: "إنها ساعة يأتي فيها (الموت)، وتأتي الدينونة، حيث لا تقدرين (يا نفسي) أن تحتملي (نظرات) الديان، وها أنتِ أوشكتِ على الهلاك". بهذا التفكير تحفظ النفس ذاتها من الملذَّات المعيبة[٢].

ما هو مائت ثانوي بالنسبة لغير المائت، ويخدمه، بمعنى أن المادة (الجسد المادي) يخدم الإنسان وذلك بفضل تحنُّن الله الخالق وصلاح جوهره (إذ أعطى أن يخدم الجسد النفس)[٣].

القديس أنطونيوس الكبير

لا تستخفّ بكلام الحكماء، بل الهج بأمثالهم.

فإنك منهم تتعلَّم التأديب، والخدمة لدى النبلاء [٨].

المؤمن الحقيقي يُشبِه النحلة التي تجمع رحيق الزهور المتنوعة، وتُقَدِّمه عسل نحلٍ حلو ونافع للآخرين. يقول سليمان الحكيم: "المساير الحكماء يصير حكيمًا، ورفيق الجهلاء يُضر" (أم ١٣: ٢٠). يعتز ابن سيراخ بالفُرَص التي قُدِّمَت له خلال أسفارٍ كثيرة، حيث خدم بعض العظماء، فلم يتشامخ بعمله هذا، وإنما كان يجمع الحكمة في أفكاره وفي ممارساته.

قصة لقاء السيد المسيح مع المرأة الخاطئة في بيت سمعان الفريسي (لو ٧) تكشف عن وجود ولائم لدى وجهاء اليهود، حيث يدعون أحد المُعَلِّمين، ويُقِيمون له وليمة لا لمُجَرَّد تقديم مائدة للأكل، وإنما يفتح باب بيته فيدخل الراغبون في الاستمتاع بما يُنَاقَش فيه مع المُعَلِّم.

❖ يمكن للإنسان أن يقول عن غير الراغبين في تعلُّم ما هو نافع لهم وصالح، إنهم ليسوا في صحة سليمة. أما الذين تعلَّموا الحق ومع ذلك يغالطون فيه بوقاحة، هؤلاء يُقَال عنهم إن إحساسهم

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٢٧.

[٢] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٣٦.

[٣] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٣٨.

مقتول، وطبعهم صار حيوانيًا، وإنهم لا يعرفون الله، ولا استضاءت نفوسهم بالنور[1].

القديس أنطونيوس الكبير

لا تتجاهل قول للشيوخ، فهم تعلَّموا من آبائهم،

ومنهم تقتني الفهم،

وتستطيع أن تجاوب في الوقت الملائم [٩].

يُقَدِّر المجتمع اليهودي القديم الشيوخ ونظرتهم إلى الحياة خلال خبرتهم الطويلة ومعرفتهم للتسليم من الأجيال السابقة لهم (٢٥: ٤-٦). الانفتاح على التعلُّم من الشيوخ والحكماء (لا ١٩: ٣٢) يدفع الجيل الجديد إلى التقدُّم المستمر (أم ٢٢: ٢٩). فالاهتمام بالجلوس مع الشيوخ يُعَلِّم البشر ما التقطوه من الأجيال السابقة لهم. وكأن الجلوس مع شيخ حكيم يزيد عمره الكثير، بتمتُّعه بخبرات السابقين في فترات قصيرة للغاية. هذا هو ما يُدعَى تسليمًا أو تقليدًا، حيث نتسلَّم منهم ما استلموه من الأجيال السابقة، خاصة الإيمان الحيّ والتدبير القويم. بهذا يعرف الإنسان بماذا يجاوب على الأسئلة التي تدور في ذهنه أو التي يعرضها عليه من هم حوله.

القدرة على الإجابة الصحيحة اللائقة هي نتاج الإنصات إلى التسليم من الشيوخ (أم ٢٢: ٢١).

❖ يطلب الرب منا (كمؤمنين) ما لا يطلبه من كل أحدٍ. فجماعة البشرية تعيش حسب العادات التي تتسلَّمها، أما قانون المسيحي في الحياة فهو وصية الرب، والاقتداء بالقديسين القدامى الذين كانت عظمة نفوسهم مُعلَنة فوق كل محنة!

في النهاية يليق بك أن تترك مثالاً للآتين بعدك للثبات (الجَلَد) والثقة الصادقة فيما تترجَّاه، مُظهِرًا أن حزنك لن يقهرك، بل تسمو فوق أحزانك، وتصبر في الآلام، وتبتهج في رجاءٍ[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

٤. التعامل مع المتهورين

لا توقد جمر الخاطئ،

فقد تحترق بنار لهيبه [١٠].

يليق بنا التعامل مع الخاطئ بحكمةٍ وحب، حتى لا نشعل جمره أكثر، فنُصَاب نحن بنار لهيبه. من يشعل أهواءه وانفعالاته يحصد ثمار غاية في الخطورة (أم ٢٦: ٢١).

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٤٦.

[2] *Letter 206 to Elipidius the bishop. Consolatory.*

لا تقف في وجه متغطرسٍ فإنه يثيرك،

لئلا يكمن منتظرًا أن يجعل من كلامك كمينًا ضدك [١١].

يشير إلى عدم التحدُّث مع المتغطرس، لئلا يثيرنا نحو الغضب فنخطئ في غضبنا، فيجد فرصة أن يتصيَّد زلات لساننا.

❖ ما حاجتك أن تصرخ قبل الحكم؟ جيد أن تلتزم بالصمت ما دام الديان منتظر؛ حسن ألاَّ ترد الشتيمة بالشتيمة، لئلا نُحسَب نحن أيضًا بين المستخفّين بالغير.

هكذا يليق بنا أن نمتثَّل بذاك الإنسان (أيوب) الذي دحض المُهاجِمين له بصمته. بالحق أعلن عن قوة روحه، إذ لم تؤثر الشتائم فيه، وأوضح براءة ضميره، لأنه لم يُبالِ بالاتهامات الموجَّهة ضده، إنما ضحك عليهم كما لو كانت غريبة عنه.

بالحقيقة، متى وُجِّهت ضدنا تعييرات، ونرغب في تبرير أنفسنا، نغتاظ ونريد النقمة، بهذا نُقَدِّم تأكيدًا (للاتهامات)، إذ يقول الكتاب: "لنبتعد عن الشتيمة، خذ ثوبك بعيدًا، لأن إنسانًا مؤذيًا عابر". وهكذا تلتزم بالصمت حتى يعبر ولا يثور فيحرق ثوبك، إذ مكتوب: "لا توقد جمر الخاطئ، فقد تحترق بنار لهيبه" [١٠]. لهذا القديس يصمت حتى إن إساء إليه خادم؛ والبار يصمت إن سبّه فقير؛ والبار يضحك إن صبّ خاطئ تعييراته؛ والرجل البار يبارك إن لعنه شخص ضعيف.

التزم داود بالصمت عندما لعنه شمعي بن جيرا (٢ مل ١٦: ٥-١٤). وأيوب ضحك (أي ١٩: ٧ *LXX*)، وبولس بارك، إذ قال: "تُشتم فنبارك" (١ كو ٤: ١٢)[1].

القديس أمبروسيوس

الكفالة ومسئولية الإشبين

لا تقرض من هو أقوى منك،

فإن أقرضته شيئًا، احسب أنك قد فقدته [١٢].

جيد أن نسند إخوتنا بالعطاء بسخاء، وفي نفس الوقت بحكمة لئلا نعطي فرصة لمن هو ليس في احتياج أن يقترض منا ولا يرد القرض. بهذا نكون قد أخطأنا في حقه، إذ نفتح له باب الطمع واستغلال الغير، وفي حق أنفسنا إذ نُحسَب غير أمناء فيما قدَّمه الله لنا.

لا تكفل ما هو فوق طاقتك،

فإن كفلت، فاهتمّ كمن يلتزم أن يفي [١٣].

---

[1] *Seven Exegetical Works, Catholic, Vol. 65 2: 5-6.*

كانت الكفالة عادة منتشرة في إسرائيل، كما كانت الأمثال تُحَذِّر من ممارستها باستهتار أو بما يفوق قدرتنا. مع التزام المؤمن بالحُبّ للجميع، غير أن ممارسة الحب تتطلَّب التعقُّل والسلوك بحكمة. هنا يحذرنا من أمرين بخصوص الكفالة:

أولا: لا يُقرض الإنسان من هو أقوى منه [١٢]، أي من هو في مستوى اجتماعي أعلى منه. حقًا يُطالِبنا الله بالعطاء للأرامل والأيتام ومن هم في ضيقة عن احتياج، لكن من يعطي من ليس في احتياج وصاحب سلطان كنوعٍ من الظهور بالغِنَى، يتوقَّع أنه قد لا يرد له الدين، فيكون غير أمينٍ في تدبير المال الذي وهبه إياه الربّ. بينما كان المحتاجون أَوْلَى بهذا المال.

ثانيًا: لا يكفل أحدًا بما ليس في مقدرته ككفيل أن يرده للدائن.

❖ أيها الأحباء الأعزاء ضعوا في اعتباركم أولئك الذين يُقَدِّمون أنفسهم كفلاء لأحدٍ بخصوص مالٍ (أو قرض) كيف يُعَرِّضون أنفسهم إلى خطرٍ عظيم... حقًا إن كان الشخص الذي استلم القرض أظهر أنه خيِّر، يرد ما اقترضه لمن ضمَّنه. لكن إن تحوَّل إلى شخصٍ شريرٍ، يُسَبِّب كارثة لمن قام بالكفالة. لهذا يُحَذِّرنا الحكيم: "إن كفلت فاهتم اهتمام من يفي" (راجع سي ٨: ١٣).

إن كان هذا هو الأمر بالنسبة للكفيل الخاص بالمال، ويلتزم أن يكون مسئولاً عن كل شيءٍ، كم بالأكثر الذين يقومون بالكفالة بخصوص الأمور الروحية، وفي أمر الفضيلة، إذ يلتزم بأن يُظهر يقظة وسهرًا عظيمًا، بالحث وإعلان حنوٍ أبويٍ. يليق (بالأشابين) ألاَّ يأخذوا الأمر باستخفافٍ، فإنكم تكونون في خطرٍ.

ستكون الفائدة مشتركة إن قدَّموا نصحًا شخصيًا ليقودوا الشخص في طريق الفضيلة، بينما تكون دينونتهم خطيرة إن أهملوا ذلك. لهذا جرت العادة أن يُدعَى هؤلاء (الأشابين) بالآباء الروحيين[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

لا تُقم دعوى ضد قاضٍ،

لأنه يُحكَم له بسبب مقامه [١٤].

لا يعني ذلك التهاون في مطالبة حتى رجال القضاء بحقوقنا، لكن يلزم استخدام القنوات الشرعية مع التروي والتعقل. يليق بالمؤمن أن يدرك أنه يستحيل أن يكسب قضية يرفعها ضد قاضٍ.

لا تسافر في رحلةٍ مع متهورٍ، لئلا بثقله يهوي بك إلى أسفل.

---

[1] *Baptismal Instructions 2: 15-16.*

فإنه يسعى في هوى نفسه، فتهلك معه بجهالته [١٥].

يلزم عدم مصاحبة متهورٍ في رحلاته، لئلا يدفعنا إلى المغامرة بدون دراسة مما يُسَبّب لنا متاعب.

لا تُحارِب الغاضب، ولا تسر معه في القفر،

فإن سفك الدم عنده كلا شيءٍ،

وحيث لا يوجد معين لك، هناك يصرعك [١٦].

لنحذر من الإنسان المملوء بالكراهية والحنق، فهو مندفع حتى سفك الدم. بل يليق بنا أن نقف بعيدًا عن الإنسان المُستسلِم للغضب.

لا تشاور الأحمق، فإنه لا يستطيع كتمان السرّ [١٧].

يليق بنا ألاَّ نشترك في أفكارنا مع من لا يستحقّون الثقة فيهم [١٧-١٩]. لئلا في إساءة البساطة نطلب مشورة من شخصٍ أحمق لا يحفظ السرّ. كما لا يجوز كشف أسرارنا لكل واحدٍ، لذا تطلب الكنيسة أن يكون الشخص صريحًا مع أب اعترافه، الذي ليس من حقه أن يفشي أسرار المُعترِف لأي شخص مهما كان مركزه العالمي أو الكنسي، لا صراحةً ولا بالتلميح.

لا تُمارِس أمام الغريب أمرًا سريًا،

فإنك لا تعلم ما سيبدو منه [١٨].

من الحكمة ألاَّ ننطق بأمورٍ سرية أمام شخصٍ غريب لا نعرف مدى حفظه للسرّ.

لا تكشف قلبك لكل إنسانٍ،

فعساه لا يُظهِر لك قسوة[١] [١٩].

من الحكمة ألاَّ نكشف ما في قلبنا لإنسانٍ لا نعرف طبعه، فقد ينقلب إلى عدوٍ شرسٍ.

من وحي ابن سيراخ ٨

لأتعامل مع كل أحدٍ في حضورك!

❖ إلهي ومُخَلِّصي وقائدي، الحبيب إلى نفسي،
محتاج إلى حضورك الإلهي لأسلك بروح الحكمة.
تُقَدِّس فكري وقلبي وفمي وكل كياني،

---

[١] بحسب *NRSV* لئلا تفقد سعادتك

فأُدرك كيف أتعامل مع كل شخصٍ بالحُبّ مع الحكمة،
باللطف والحنو بلا تسيّب، فلا يهلك أحد،
بل يراك الكل متجلّيًا في كل تصرفاتي.

❖ لا أخشى **إنسانًا مقتدرًا** صاحب سلطان، بل في غير محاباةٍ أحبه، وأطلب خلاص نفسه.
وبحكمةٍ لا أدخل في نزاع معه،
حتى لا أُفسد وقتي، وأُحَطِّم نقاوة قلبي وفكري.
يراك سرّ قوتي وسلطاني!
بل أسحق إبليس تحت قدميّ بروح الشجاعة مع التواضع.
يراني مختفيًا فيك، فلا يجسر أن يقترب منّي.

❖ بروح الحنو أقترب من **الغني**، غير مشتهٍ لشيءٍ مما لديه، فأنت غناي، وثروتي الأبدية.
يتلامس الغني مع سلامي الداخلي وفرحي الدائم،
فيشعر بحاجته إليك يا واهب غِنَى الروح والنفس والجسد!
يُدرِك زوال السماء والأرض الأولى،
ويترقَّب التمتُّع بالسماء الجديدة والأرض الجديدة.
يصغر العالم كله في عينيه،
ويسألك سرعة مجيئك ليغتني بأمجادك السماوية.

❖ أتطلع إلى الإنسان الثرثار، فأسألك أن تضع حافظًا لفمي، وبابا حصينًا لشفتي.
من هو الحارس إلا روحك القدوس،
الذي لن يسمح لكلمةٍ باطلةٍ لا نفع منها تخرج من فمي.
ومن هو الذي يُقدِّس شفتيّ
ويُعَلِّمني متى أصمت ومتى أتكلم، وبماذا أنطق.

❖ مَرِّر **كلمات المزاح** المتسيب، فلا أستطْيب لها،
بل أستعذب وصيتك التي تهبني عزاءً وفرحًا.

❖ انزع عن فكري خطايا الإنسان التائب، فلا أَتذكَّر ضعفاته،
بل أراه مرتديًا ثياب برّك يا إلهي.
أراه يسبق الكثيرين مُسرِعًا نحو المجد الأبدي.

لا أستخفّ بتوبته، بل أطلب خلاص نفسي وخلاص كل إخوتي.

❖ إن رأيت **شيخًا عاجزًا** عن الوقوف للصلاة، أو ممارسة الصوم وعمل المطانيات،
أذكر أن الشيخوخة ليست ببعيدة عنّي،
والمرض قد يصيبني في لحظات.
أدرك ضعفي وأصلي لأجل الشيخ والمريض،
طالبًا النمو لكل بني البشر.

❖ إن اشتركت في **الصلاة على أحد الراقدين**،
أشتهي أن تحل ساعة خروجي من العالم.
لا أذكر خطاياه، بل أُطوِّبه لأنه مُنطلِق إليك،
يشترك مع السمائيين ومع أحبائنا الراقدين في خورُس سماوي رائع.

❖ أما مع **الحكماء والخدام الباذلين**، فأحسب اللقاء معهم هبة من عندك.
أحسب نفسي نحلة صغيرة تجمع الرحيق من كل زهرةٍ،
أُقَدِّمه عسلاً حلوًا ونافعًا لكثيرين، لا فضل لي فيه.

❖ إن التقيت مع **إنسانٍ ثائرٍ** لا أنتقده، لئلا يلتهب بالأكثر غضبه،
فأحترق معه بنار لهيبه.
وإن التقيت **بإنسانٍ متغطرس**، أتذكر ضعفاتي القديمة،
فألتزم بالصمت مع الصلاة بحرارة من أجله.

❖ لا أقرض إنسانًا غير محتاج وهو أقوى منّي.
فما وهبتني إيَّاه هو أمانة للمحتاجين المساكين.

❖ امسك بيديّ وقُدْنِي، لأسلك فيك،
فأُكمِّل كل أيام غربتي في فرحٍ وسلامٍ.

الأصحاح التاسع

الطهارة بروح الحكمة

الطهارة حياة في الربّ

في الأصحاح السابق تحدَّث عن "المؤمن الحكيم والتعامل مع الفئات المتنوعة"، الآن يؤكد لنا عنصرًا هامًا يجب مراعاته في كل معاملاتنا، ألا وهو الالتزام بالطهارة كأبناء لأبينا القدوس.

الطهارة في جوهرها حياة مُقَدَّسة في المسيح القدوس، وهي حياة واحدة في كل الأوضاع والظروف. فالطاهر أينما وُجِد يشع منه بهاء القداسة التي تقطن في أعماقه.

لقد ترجم ابن سيراخ هذه الحياة خلال السلوك العملي للمؤمن حتى يتقبَّلها الجميع: اليهود والأمم. ما يشغله هو أن يجتذب إلى الله الفلاسفة من الأمم وقادة اليهود، فقدَّم الوصايا الخاصة بالطهارة بأسلوبٍ يَقْبَله حتى غير المتديّنين. لكن واضح أن ما في ذهنه هو أن القداسة هي تمتُّع بصورة القدوس في حياتنا الداخلية، والأسرية، وفي معاملاتنا مع أصدقائنا، بل وفي الطريق وأثناء العمل. بهذا يتهيَّأ المؤمن للشركة مع القدوس، وينمو فيها يومًا فيومًا. ما يشغل قلب ابن سيراخ وفكره أن يتمتَّع المؤمن بالنعمة الإلهية التي تعمل في قلبه وفكره وكل طاقاته كما في علاقته بالآخرين سواء على مستوى الأسرة أو الأقرباء أو الأصدقاء أو المجتمع الديني أو الوطن أو البشرية ككل.

الإنسان الحكيم في نظر ابن سيراخ لا ينسحب من الحياة الاجتماعية، بل على العكس يرغب في الشركة مع إخوته في البشرية، ويسعى نحو تقدُّم المجتمع في كل جوانب الحياة. إنه يقتني الحكمة بالرغم من التزاماته خلال ارتباطاته ومسئولياته نحو المجتمع. يجد المؤمن في القداسة ليس كبتًا لمشاعره وحرمانًا من اللذة، بل عذوبة في ضبط النفس وتقديسها مع مثابرة على التهذيب المُفرِح.

الطهارة بمنظارٍ مُتَّسعٍ

كثيرون يتطلعون إلى الطهارة بمنظار ضيِّق، ومن الجوانب السلبية أكثر من الإيجابية، فما يشغل الشخص محاولة ضبط فكره من الخطايا الجسدية وتحاشي الممارسات الخاطئة، أما ما يُقَدِّمه ابن سيراخ في هذا الأصحاح فهو أن الطهارة حياة يعيشها المؤمن مع القدوس حتى في حياته الترفيهية. هذا ويليق بالمؤمن بنظرته الطاهرة تقدير كل إنسانٍ حسب موهبته، خاصة الصناع والعاملين في الزراعة والنجارة والصناعة الخ.

جاءت الوصايا التسع الأولي في هذا الأصحاح [١-٩] تكشف عن دور الجنس *sex* في حياة المؤمن. الجنس طاقة جبارة يُمكِن أن تُوَجِّد الجنس البشري بروح القداسة متى أُستخدمت في مجالها

الحقيقي، ويمكن أن تُدَمِّر الإنسان نفسه والمجتمع أيضًا إن أُسيء استخدامها. إنها مثل الكهرباء التي تسند المجتمع والفرد في التقدُّم، ويمكن أن تُدَمِّرهما إن أُسيئ استخدامها. جاءت هذه العبارات التسع بوصايا سلبية فتبدأ بكلمة "لا..."، إذ يليق بالمؤمن أن يُدرِك حدوده التي يسلك فيها ولا يتعدَّاها، فيكون كرقيبٍ حكيمٍ وجادٍ لا يكف عن التطلُّع إلى الأسوار التي تحفظه مُقدَّسًا، فلا يتعدَّاها لئلا تفسد حياته.

ابن سيراخ أشبه بأبٍ يمنع أطفاله الصغار من اللعب بالكبريت أو لمس أسلاك الكهرباء المكشوفة، وفي هذا لا يحدّ من حريتهم الشخصية، بل يُوَجِّههم نحو ما هو لبنيانهم حتى متى صاروا ناضجين لا يخشى عليهم من السقوط فيما هو لهلاكهم وهلاك المجتمع. إنه يحزن لأن البعض سلكوا بروح النضوج في طفولتهم وشبابهم وعندما بلغوا سن النضوج ارتدُّوا إلى طفولة غير ناضجة.

١. الطهارة في الحياة الأسرية [١ -٢]

٢. الطهارة في الحياة الداخلية [٣ -٦]

٣. الطهارة في الطريق العام وفي الولائم [٧ -٩]

٤. الطهارة في التعامل مع الأصدقاء [١٠]

٥. الطهارة في نظرتنا للأشرار الناجحين [١١ -١٢]

٦. التعامل بحذرٍ مع المقتدرين الأشرار [١٣]

٧. الطهارة في اللقاءات الاجتماعية والولائم [١٤ -١٦]

٨. حياة الطهارة والتعامل مع فئات الشعب المتنوعة [١٧ -١٨]

١. الطهارة في الحياة الأسرية

لا تَغَرْ على الزوجة التي في حضنك،

فتعطيها مثلاً شريرًا يسيء إليك [١].

يبدأ ابن سيراخ بتأكيد تقديره للزواج. وفي نفس الوقت يكشف عن آفة خطيرة تُفسِد نقاوة الأسرة، وهي تسلُّل الشك في أحد أعضاء الأسرة، خاصة الزوجة. قد تتصرَّف الزوجة في شيءٍ من البساطة، فيليق بالزوج أن يتعامل معها بحكمةٍ لئلا بغيرته المُتطرِّفة يُفسِد بساطتها، وتحسب أن شكَّه فيها هو ثمرة عدم نقاوة قلبه. كما لا يليق بالزوج أن يغير من زوجته على ما تتمتع به من مواهب وقدرات وإمكانيات، لئلا يصير في عينيها مثلاً شريرًا.

الثقة المتبادلة بين الزوجين: يقول سليمان الحكيم: "امرأة فاضلة من يجدها، لأن ثمنها يفوق اللآلئ. بها يثق قلب زوجها، فلا يحتاج إلى غنيمة. تصنع له خيرًا لا شرًا كل أيام حياتها" (أم ٣١: ١٠-١٢). يقول **أوريجينوس** إن الزوجة كجنة عدنٍ بها شجرة حياة وشجرة معرفة الخير والشر[1].

لا تُسَلِّم نفسك إلى امرأة،
لئلا تطأ على قوتك [٢].

الشك في الزوجة غالبًا هو نوع من التطرف، يسبب توترًا في الأسرة كلها، فمن جانب آخر تسليم الإنسان نفسه his soul للطرف الآخر أي للزوجة أو الزوج غالبًا ما يكون على حساب بنيان الأسرة الروحي. إن من يُسَلِّم نفسه تحت سلطان امرأة (غالبًا يقصد زوجته)، تستخفّ بكرامته (أم ٣١: ٣). الشركة بينهما لا تعني سيطرة أحدهما على الآخر، والتواضع لا يعني ترك الأمور بغير تدبيرٍ.

٢. الطهارة في الحياة الداخلية

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن العدو يستخدم حيله وطاقاته لتحطيم نقاوة الإنسان الداخلية، لذا يليق بالمؤمن أن ينطلق كطائرٍ يحلق في السماويات، فلا يمكن أسره بفخٍ شيطاني.

لأجل نقاوة القلب، يطلب ابن سيراخ من تلاميذه أن يتجنَّبوا الالتصاق بامرأة غريبة، قد تصطاده في شباكها (أم ٧: ٢٣)، ومن التفرُّس في عذراء بأفكارٍ شهوانية، لئلا يتعثر ويتعرَّض للعقوبة.

لا تلتقِ بامرأة زانية
لئلا تقع في أشراكها [٣].

يُقصَد هنا امرأة داعرة يتردَّد عليها ذوو الثراء والسلطة. كثيرًا ما حذَّر ابن سيراخ تلاميذه من تكوين علاقات مع نساء بتدليلٍ وفي تهاونٍ (٢٥: ١٣-٢٦؛ ١٨؛ ٤٢: ٩-١٤). إنه يُحَذِّر من الخطر الأخلاقي بالاجتماع مع نساء مُتسيّبات. جاء في سفر الأمثال: "لا تعطي حيلك للنساء، ولا طرقك لمهلكات الملوك" (أم ٣١: ٣). "لأن الزانية هوة عميقة، والأجنبية حفرة ضيقة" (أم ٢٣: ٢٧). "لأنه بسبب امرأة زانية يفتقر المرء إلى رغيف خبز وامرأة رجل آخر تقتنص النفس الكريمة. أيأخذ إنسان نارًا في حضنه ولا تحترق ثيابه؟" (أم ٦: ٢٦-٢٧).

لا تُطل المقام مع راقصة،
لئلا تُصطَاد بحيلها [٤].

---

[1] *Expos. On Proverbs, Frag. 31:16.*

يطلب منهم ألا يطيل أحدهم الإقامة مع راقصة متسيبة [٤].

لا تتفرَّس في عذراء،

لئلا تتعثَّر، وتُسَبِّب لها أضرارًا [٥].

إنه لا يطلب من تلاميذه أن يغمضوا أعينهم، بل ألاَّ يتفرسوا فيها. وكما يقول السيد المسيح "كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه" (مت ٥: ٢٨). يخشى ابن سيراخ من السقوط في الخطية مع عذراء، فقد كانت عقوبة ذلك في العهد القديم غاية في الشدة (تث ٢٢: ٢٨-٢٩). يقول أيوب البار: "عهدًا قطعت لعيني فكيف أتطلع إلى عذراء؟!" (أي ٣١: ١).

لا تُسَلِّم نفسك إلى داعرات،

لئلا تفقد ميراثك [٦].

يدعوهم ألاَّ يسلموا أنفسهم *souls* لداعرات، فإن نفوسهم هي عرائس مُقدَّسة في يد العريس السماوي القدوس. لقد سلَّم شمشون الجبار نفسه لدليلة فاستطاعت أن تذله، أعطت الفرصة للأعداء أن يفقأوا عينيه، وصار يعمل في الطاحونة كالثور (قض ١٦: ٤-٢١). يقول **مار يعقوب السروجي:**

[واحسرتاه! على شمشون النذير الذي صار سخرية، أضحوكةً وعارًا للأجيال الآتية.

العظيم في البسالة الذي غلب الأسد في معركة، سقط في يديّ امرأة، يا للمهانة العظيمة!

كحية، عضَّت النذير، وسقط عنه شعره، فصار ضعيفًا، شقيًا، عاجزًا، ومترنّحًا.

ما أن قنص الفلسطينيون الأسد، حتى اجتمعوا، ليسخروا بالرجل الذي ضاعف قتلاهم.

ففي حنقهم قلعوا عينيه، وأذلوا بهاءه، أطفأوا سراجه المنير ورؤياه.

جعلوا عليه وصمة فظيعة ظاهرة، وانحط العظيم في مهانة عظمى.

أخذوه وأوثقوه وكان يطحن في بيت السجن، وكان هناك مناسبة لاحتفال كبير للفلسطينيين[١].]

٣. الطهارة في الطريق العام وفي الولائم

لا تسرِّح بصرك في شوارع المدينة،

ولا تتجوَّل في زواياها المقفرة [٧].

لم يمنع ابن سيراخ تلاميذه من السير في شوارع المدينة، إنما يدعوهم إلى تقديس بصرهم كيوسف الشاب الطاهر الذي أمسكت امرأة فوطيفار بثوبه، أما هو فأدرك أن عيني الربّ تنظران إليه (تك ٣٩: ١٣). قيل عنه: "حسن الصورة وحسن المظهر" (تك ٣٩: ٦)، وبتركه الثوب في يديّ سيدته كشف

---

[١] أبونا مينا المقاري *A Homily on Samson By Mar Jacob, Bishop of Serugh*

عن طهارته وجمال نفسه وعذوبة قلبه، وكما يقول **الأب قيصريوس أسقف آرل:** [كان يوسف جميلاً في الداخل أكثر من الخارج، بهيًا بنور قلبه أكثر من جمال جسده، حيث لم تكن عينا هذه المرأة تقدران أن تخترقا وتتمتَّعا بجماله[1].] ويقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [يوسف تعرَّى فصار أكثر بهاءً من غيره، وكأنه عاد إلى حال آدم العريان في الفردوس ولم يخجل، من أجل طهارته[2].] ويدعونا **القديس إكليمنضس السكندري** إلى ضبط الحواس وتقديسها، فلا يليق بالمؤمن أن يترك عينيه تجولان هنا وهناك كتائهٍ في الشوارع، ولا للقدمين أن يجولا في الزوايا المقفرة. [ما هي الزاوية المقفرة؟ "المكان المقفر هو المكان الذي لا يوجد فيه شخص طاهر حتى وإن كان فيه حشد صاخب[3].] يليق بنا تقديس العين بالمسيح نور العالم (يو ٨: ١٢)، والقدمين بالمسيح الطريق (يو ١٤: ٦).

اصرف نظرك بعيدًا عن امرأة جميلة،
ولا تتفرَّس في حسناءٍ غريبةٍ.
فإن حُسن المرأة أغوى كثيرين،
وبه تشتعل الشهوة كالنار [٨].

يطلب عدم التفرُّس في حسناء، لأن الخطية لا في جمالها، وإنما في التفرُّس بإرادة شريرة.

❖ وإن أَردت أن تعرف السبب، انظر في داخلك، فإن حُسن المرأة أغوى كثيرين من الناس، وبه تشتعل الشهوة كالنار. الصداقة التي تبدأ في نار، التي تُدعَى الهوى، لا يُمكِن إطفاءها في خطيتها بل ترتد إلى النار[4].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ أين تحدَّثت الأسفار المقدسة عن الخطية ومسبباتها؟ إنها تتَّهِم الذين عاشوا قبل الطوفان أنهم مارسوا علاقات دنسة. اسمع كيف أظهر السبب "إن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات، فاتخذوا لأنفسهم نساءً (منهن)" (تك ٦: ٢).

❖ هل كان الجمال هو علة الخطية؟ لن يمكن أن يكون ذلك! بالحقيقة، الجمال من صنع حكمة الله، وعمل الله لن يكون علة للشرّ. إذن هل خطيتهم أنهم تطلعوا إليهن؟ لا، النظر عمل طبيعي. فماذا

---

[1] *Ibid 90: 2.*

[2] *In Matt. Hom 18: 2.*

[3] *Cf. St. Clement of Alexandria, Paedagogus, Catholic Vol. 23, p. 220-224.*

[4] *Paedagogus, Catholic, Vol. 23, p. 26.*

إذن؟ لقد نظروا إليهن بنية شريرة، الأمر الذي هو بالحقيقة ثمرة للإرادة الشريرة. لهذا يُقَدِّم لنا الحكمة هذه النصيحة: "لا تتفرَّس في الحسناء (الغريبة). لم يقل: "لا تنظر"، لا لأن هذا يحدث تلقائيًا. بل بالحري يقول: "لا تتفرَّس"، مستقصيًا النظر المتعمَّد، التفرس المزعج والتفكير الطويل المدى الذي يصدر عن نفسٍ فاسدةٍ التي هي قنيصة الشهوة.

وما هي الخسارة، إن كان الشخص ينظر ويستطيع أن ينسحب من ذلك. يتبع هذا "الحب الذي يشتعل كالنار". حقًا بعد أن تلحق النار بالهشيم والتبن على الفور ودون حاجة إلى وقت تلحق بالخشب وتشعل نارًا ملتهبة. هكذا أيضًا نار الشهوة التي فينا، بعد أن تصير لهيبًا في صورة جميلة وسامية خلال عمل العينين للحال تحرق نفوس من يتفرسون[1].

❖ يقدم أحد (الحكماء) هذه النصيحة: "لا تتفرس في الحسناء الغريبة، ولا تلتقي مع امرأة تدمن الزنا" (راجع سي ٩: ٣، ٨). فإن العسل يقطر من شفتي الزانية، التي إلى حين تبدو رقيقة لحلقك، وبعد ذلك تجدها أكثر مرارة من المُرّ، وأكثر حِدّة من سيفٍ ذي حدين (أم ٥: ٣ –٤). فإن الزانية لا تعرف كيف تحب، وإنما فقط كيف تصطاد. قُبلتها فيها سم، وفمها مخدر مميت. إن كان هذا لا يظهر في الحال، بالأكثر يلزم تجنُّبها بسبب هذا، لأنها تحجب الهلاك، وتغطي على ذلك الموت، ولا تسمح له بالظهور في البداية[2].

❖ لم يقل فقط: "**من يشتهي**"، فإنه يمكن للشخص أن يشتهي حتى وإن كان جالسًا وحده على الجبال. بالحري قال يسوع: "**من نظر بشهوةٍ**"، بمعنى أن يفكر شخص في آخر لمُجرَّد الرغبة في الشهوة، ذاك الذي هو ليس تحت اضطرار يسمح للحيوان المفترس أن يدخل عنوة إلى أفكاره وهي هادئة. هذا الاقتحام لا يأتي عن الطبيعة، بل عن تهاون مع النفس. يُصَحِّح العهد القديم هذا من البداية، قائلاً: "لا تتفرس في جمال الغير" (راجع سي ٩: ٨)[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنه لمن الصواب قبل كل شيءٍ الهروب من التطلُّع إلى النساء، لأن الخطية ليست في اللمس فقط ولكن في النظر أيضًا، وعلينا أن نتدرَّب على تُجنب ذلك. "لتنظر عيناك إلى قدامك وأجفانك إلى أمامك مستقيمًا" (أم ٤: ٢٥). من الممكن للذي يتطلَّع إلى النساء أن يبقى ثابتًا، لكنه يحتاج أن

---

[1] *Homilies on Hosea 3:4.*

[2] *Concerning The Statues, Homily 14 :10*

[3] *Homilies on Mathew, 17: 2.*

يحترس من السقوط. من الممكن لمن ينظر أن يسقط، لكن من المستحيل لمن لا ينظر أن يقع في شهوة جنسية. لا يكفي للعفيف أن يكون طاهرًا، لكن يلزمه أن يجاهد كي يجتاز مجال اللوم والحرمان من كل الهواجس الأرضية من أجل إتمام الطهارة. لا من أجل أن نكون مؤمنين فقط بل من أجل أن نكون مستحقين الوديعة. ولهذا يقول القديس بولس الرسول عن الاحتراس: "متجنبين هذا أن يلومنا أحد في جسامة هذه المخدومة منا. معتنين بأمور حسنة ليس قدام الرب فقط بل قدام الناس أيضًا" (٢ كو ٨: ٢٠-٢١). يقول الكتاب المقدس: "اصرف نظرك عن المرأة الجميلة ولا تتفرَّس في الحسناء الغريبة" (راجع سي ٩: ٨). وإذا أردت معرفة السبب في قول الكتاب المقدس هذا يضيف قائلاً: "فإن حُسْن المرأة أغوى كثيرين من الناس، وبه يشتعل الحب كالنار" (راجع سي ٩: ٨). إن الشعور المُنبعِث من النار الذي نُسَمِّيه الحب، يؤدي إلى نارٍ لا تُطفَأ وهي عاقبة الخطية[1].

القديس إكليمنضس السكندري

لا تتناول العشاء مع امرأة متزوجة لآخر،

ولا تشترك معها في حفلات بها خمرٍ،

لئلا تميل نفسك إليها، وتنزل بروحك إلى الهلاك [٩].

دعاهم إلى عدم التلذُّذ بالخمر خاصة مع امرأة متزوجة لآخر. لقد نصحت والدة سليمان ابنها: ""ليس للملوك يا لموئيل، ليس للملوك أن يشربوا خمرًا، ولا العظماء المُسكر" (أم ٣١: ٤).

❖ إنها لوصية صالحة تُقَدِّمها الحكمة: "لا تجلس قط مع زوجة رجلٍ آخر، ولا تسترخِ على أريكة معها"، أي لا تتعشّ ولا تأكل معها كثيرًا. ثم أضاف: "لا تكن لك متعة بالخمر معها، لئلا يميل قلبك إليها، وتنزل بهواك إلى الهلاك" (راجع سي ٩:٩).

الشرب بلا ضابط خطير، لأنه يمكن بسهولة أن ينزل بك إلى التسيُّب[2].

القديس إكليمنضس السكندري

٤. الطهارة في التعامل مع الأصدقاء

بعد أن أوصى بالتحفُّظ في الطريق العام وفي الولائم والحفلات، حثّ المؤمنين على نصائح عملية، منها **الاعتزاز بالصديق القديم وعدم هجره** [١٠].

---

[1] *St. Clement of Alexandria: Paedagogus, Book III, Chapter XI.*

[2] *Paedagogus, Chapter 7: 54.*

لا تهجر الصديق القديم،

فإن الصديق الحديث لا يساويه.

الصديق الحديث يشبه خمرًا جديدة،

إذا عتقت طاب لك شربها [١٠].

تكوين صداقة مع شخصٍ ثم هجره يكشف عن أنه بنى الصداقة على منفعة زمنية. بينما الصداقة لا تُستخدَم لنفع مؤقت، إنما هي عربون الحُبّ السماوي الذي لا يُحَطِّمه حتى الموت، بل ينمو بلا توقُّفٍ، نعيشه في الأبدية. يُعتبَر الولاء للصديق القديم فضيلة عظيمة. يرى **القديس أغسطينوس** الصديق القديم هو الاعتزاز بالعهد القديم الذي أعلن عن العهد الجديد بالنبوات والرموز: [لولا العهد القديم لما آمنت بالعهد الجديد]. وجاء تلميذه **فلجنيتيوس** يُعلِن تقدير العهد الجديد لدور العهد القديم.

❖ يليق بالعهد القديم أن يُحفَظ بكرامة بطريقة لا يُهمل فيه بأية طريقة. هذا ما عناه ابن سيراخ كما يبدو لي حيث يوصي تحت مظهر الصديقين القديم والجديد، بقوله: "لا تهجر الصديق القديم، فإن الحديث لا يساويه". جاء على فم إرميا الكتاب الإلهي الذي يتطلع إلى الفارق في أسرار العهدين: "ها أيام تأتي يقول الرب، وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدًا جديدًا" (إر ٣١:٣١)[1].

فلجنيتيوس

تتجلَّى هذه الصداقة مع الله الأزلي خلال علاقة موسى النبي به، إذ قيل: "يكلم الرب موسى وجهًا لوجه كما يكلم الرجل صاحبه" (خر ٣٣: ١١). يقول **القديس غريغوريوس أسقف نيصص:** [يا سيزاريوس، يا رجل الله، لقد كتبت لك هذا بإيجاز عن الأمور الخاصة بكمال حياة الفضيلة ورسمت ما يشبه نمطًا لحياة موسى العظيم بحيث يمكن لكل منا أن يُقَلِّد صورة الجمال الذي يظهر لنا فيها بتقليد أسلوب حياة موسى. وليس هناك دليل على أن موسى قد بلغ الكمال أكثر من الصوت الإلهي الذي قال له: "لأنك وجدت نعمة في عيني وعرفتك باسمك" (خر ٣٣: ١٢، ١٧)، وكذلك أنه قد دُعِي صديق الرب: "ويكلم الرب موسى وجهًا لوجه كما يكلم الرجل صاحبه" (خر ٣٣: ١١)[2].]

وفي العهد الجديد قال القديس يوحنا المعمدان عن نفسه إنه صديق العريس (يو ٣: ٢٩)، الذي فرح وهو يرى الكثيرين التفُّوا حول السيد المسيح، بكونهم العروس المقدسة بالرب. كان دور صديق العريس عند اليهود هامًا لا يمكن الاستغناء عنه، وكان يُعفَى من بعض الالتزامات الدينية ليتفرَّغ لمساعدة المتزوجين حديثًا خاصة في السبعة أيام الأولى للزواج. أما عمله قبل الزواج فهو أن يهتم

---

[1] *Fulgentius of Ruspe: Letters 14:46.*

[2] حياة موسى، ٣١٩.

بالمخطوبة ويحرسها ويُقَدِّم شهادة للعريس عنها؛ كما يقوم بحلقة الصلة بينهما، فيحمل رسائل كل منهما للآخر، حيث لم يكن يسمح للمخطوبة أن تفارق البيت. أما بعد الزواج فيقوم بتعزيز شخصية العروس، ينام في شقة مجاورة لمسكن العروسين ليمنع حدوث أية أذية للعروس. وألا يسمح لأحد الطرفين أن يخدع الآخر، كما كان من واجبه فحص طهارة العروس، فمتى تأكد من ذلك تهلل وفرح. ولعل هذا ما قصده القديس يوحنا بقوله: "**إذا فرحي هذا قد كمل**" (يو ٣: ٢٩). يقوم بتقديم الهدايا القادمة للعروسين، وأخيرًا يساهم في الاحتفال المُبهِج للزواج لمدة سبعة أيام. بعد هذا الاحتفال يصير صديق العريس أشبه بالمُدافِع عن العروس (٢ كو ١١: ٢)، ويقوم بحل أية مشاكل تقوم بينهما.

❖ كأن يوحنا المعمدان قال: إنني كنت أتألم كثيرًا لو لم يكن قد صار هذا. لو كانت العروس لم تتقدَّم إلى عريسها، لكنت حينئذ قد توجَّعت وغمّني ذلك، لكنني لست أغتم الآن إذ كملت آمالي، وتحقَّق كل ما تمنيناه، وقد عرفت العروس عريسها، وأنتم شهدتم بذلك، وإذ رأيت هذا المطلب قد تحقَّق لذلك أُسرّ وأبتهج (كصديقٍ للعريس).

القديس يوحنا الذهبي الفم

٥. الطهارة في نظرتنا للأشرار الناجحين

لا تغر من كرامة تُقدَّم لخاطي،

فإنك لا تَعْلَم كيف تكون عاقبته [١١].

تساءل المرتل: "لماذا تُنجح طريق الأشرار؟"، وجاءت الإجابة: "لا تغر من الأشرار، ولا تحسد عُمَّال الإثم، فإنهم مثل الحشيش سريعًا يُقطعون، ومثل العشب الأخضر يذبلون، اتكل على الربّ وافعل الخير. اسكن الأرض وارع الأمانة" (مز ٣٧: ١-٣).

لا تبتهج بما يُسرُّ به الأشرار،

واذكر أن حتى مثوى الأموات لا يتبررون [١٢].

❖ "لا تغر من فاعلي الشر، فإنهم مثل العشب سرعان ما يذبلون". أخبرني ما هو مصير من يقوم بالسلب والنهب بعد رحيله؟ ألم يكن كل ما له حلمًا وخيالاً؟!... لكن ليس هكذا هو حال القديسين، فلا يمكنك أن تنطق بذات الكلمات عن حالهم، ولا تقل إن ما يخصهم هو حلم وأسطورة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *In 1 Cor., hom. 15.*

٦. التعامل بحذرٍ مع المُقتدِرين الأشرار

يُشَجِّع تلاميذه أن يُعاشِروا الحكماء (٩: ١٤-١٦)، الأتقياء، خائفي الربّ (أم ١٣: ٢٠).

تباعد عمن له سلطان على القتل، فلا تقلق بمخافة الموت.
وإن دنوت منه فلا تغظه، لئلا يقضي على حياتك.
اعلم أنك تخطو بين فخاخٍ،
وتمشي حول أبراج الرماية التي للمدينة [١٣].

حسنًا يبتعد تلاميذه عمن لهم سلطان القتل فيتجنَّبون خطر الموت [١٣].

❖ إن كنا نستخدم كل وسيلةٍ ونبذل كل جهدٍ لكي نتجنَّب موت الجسد، فكم بالأحرى يلزمنا أن نجاهد لكي نجتنَّب موت الروح؟! لأنه لا توجد عقبة أمام إنسانٍ يرغب في الخلاص اللهم إلا إهمال النفس وتراخيها[١].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ لتعرف أنك **تسير في وسط فخاخٍ**، وأنك ذاهب إلى برج رماية بجوار المدينة [١٣]. كل شيءٍ مملوء بالفخاخ، الشيطان يملأ كل شيءٍ بالشِباك. ولكن متى جاء كلمة الله إليك... فستقول: "انفلتت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيّادين، الفخ انكسر ونحن انفلتنا. تباركنا باسم الرب صانع السماء والأرض" (راجع مز ١٢٤: ٧)...

يسوع يُعدّ لك الطريق. لقد نزل إلى الأرض، وأخضع نفسه لشِباك العالم. إذ رأى قطيع البشرية العظيم محبوسًا في الشِباك، ورأى أنه هو الوحيد قادر أن يُمَزِّقها، جاء إلى الشِباك، وأخذ جسدًا بشريًا وأخضعه لشِباك العدو القوي، ومزَّقها قِطعًا من أجلك[٢].

العلامة أوريجينوس

❖ "اعرف نفسك"، أي افحص نفسك من كل الزوايا. احفظ عيني نفسك حارسة بلا نومٍ، لأنك أنت سالك وسط الفخاخ (راجع سي ٩: ١٣). العدو وضع شباك خفية في كل موضعٍ. تطلَّع إلى نفسك في كل الاتجاهات، بهذا تخلص كالسنونة من المصائد والعصفور من الفخاخ (أم ٦: ٥). أما الغزال فلا يمكن أن يسقط في فخٍ من أجل قوة نظره[٣].

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٤٥.

[2] *Homilies on the Song of Songs 2:12.*

[3] *Homily 3 on Deut. 15:9 LXX.*

القديس باسيليوس الكبير

❖ بالحقيقة نحتاج إلى دفاع أكثر، ناظرين أنه توجد كمائن من كل جانب. وذلك كما يقول سليمان ناصحًا: "اعلم أنك تجتاز بين الفخاخ، وتتمشَّى على جدران المدن" كم من أمورٍ صالحةٍ يعنيها هذا القول!... ليكتبه كل واحدٍ منا في ذهنه، ونحمله دائمًا في ذاكرتنا، حتى لا نسقط في خطية بسهولة... حتى الصبيان يخفون فخاخًا في الأرض، هكذا يغطي الشيطان خطايانا بملذات الحياة... توجد فخاخ في البيت، فخاخ على المائدة، وفخاخ في العلاقات الاجتماعية[1].

❖ كما أنه الطيور مادامت تلتصق بالطبقات العليا للجو لا يمكن اصطيادها بسهولة، هكذا أنت مادامت تتطلَّع إلى الأمور العليا، لا يمكن أسرك، سواء في فخ أو بأية وسيلة أخرى.

إبليس هو صيَّاد طيور. لتحلق في الأعالي فوق سهامه[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٧. الطهارة في اللقاءات الاجتماعية والولائم

يليق بنا في الولائم العائلية والكنسية أن نختار الجلوس مع أبرارٍ نقتدي بهم ونطلب بركتهم، وما يشغلنا هو شريعة الله.

قيِّم الأقرباء ما استطعت،

وتشاور مع الحكماء [١٤].

ليكن حديثك مع الحكماء،

وجميع كلامك في شريعة العليّ [١٥].

الصداقة الثابتة والقوية هي التي تقوم على حلول الربّ بين الصديقين، وتوجيهما حسب الوصية الإلهية. الصداقة المقدسة تهتم بالحديث عن عظائم الله، وتبادل الخبرات الروحية.

❖ يقول المسيح: "تضلون إذ لا تعرفون الكتب" (مت ٢٢: ٢٩). وأيضًا قال بولس: "حتى بالصبر والتعزية بما في الكتب يكون لنا رجاء" (رو ١٥: ٤). وأيضًا: "كل الكتاب مُوحَى به من الله ونافع" (٢ تي ٣: ١٦). "لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى" (كو ٣: ١٦). ويقول النبي: "يلهج في ناموس الرب نهارًا وليلاً" (مز ١ :٢). وفي موضع آخر: "ليكن جميع كلامك في شريعة العلي" (سي ٩:

---

[1] *Concerning The Statues, Homily 15 : 7*

[2] *Concerning The Statues, Homily 15 : 8*

١٥)... صدقوني، ليس شيء قويًا، ليس شيء نافعًا يصدر عنا[١].

❖ لتزين كل بقية زمانك أيضًا بالتدرب على شرائع الله. "فليكن... جميع كلامك في شريعة العلي" (راجع سي ٩: ١٥). إذ نزين أنفسنا هكذا، لنأتِ إلى ملكنا، ونسقط على ركبنا، لا بالجسد فقط، بل وبالفكر أيضًا. لنأخذ في اعتبارنا من هو هذا الذي نقترب إليه، ولحساب من، وماذا نحقق. إننا نقترب من الله الذي يتطلع إليه السيرافيم الذين يغطون وجوههم، ولا يحتملون بهاءه، هذا الذي ترتعب الأرض من رؤيته[٢].

القديس يوحنا الذهبي الفم

ليكن الأبرار جلساءك على المائدة،

وافتخارك في مخافة الربّ [١٦].

بجانب اهتمامنا باختيار أناس حكماء مُحِبّين لشريعة الله في اللقاءات الاجتماعية والولائم العائلية والمناسبات الكنسية، يليق أيضًا أن يسودها مخافة الرب، وتشهد لحياة البرّ في الرب. اهتم القديس باسيليوس بنظامٍ وترتيبٍ خاص بالمائدة، كما اهتم بآداب المائدة، فوضع المبادئ التالية[٣]:

أ. يُطالِب الكل أن يتناولوا الطعام بالشكر لله[٤].

ب. أثناء الطعام تُتلَى قراءة من الكتاب المقدس [يجب الإنصات إليها بلذة أعظم مما للذة التي لنا ونحن نأكل ونشرب، فتبدو أذهاننا غير مُشَتَّتة باللذة الجسدية، بل بالحري تفرح بكلمات الرب، وذلك مثل ذاك الذي وجدها "أحلى من العسل والشهد"[٥].]

ج. الجلوس بقدر المستطاع في آخر موضع على المائدة بروح التواضع.

د. الالتزام بالهدوء من جهة الحركات والصوت.

هـ. لا يسمح المؤمن لنفسه أن تمتلئ معدته وتشبع.

و. لا يدخل في مناقشات بطَّالة، حتى عند اختيار الموضع الأخير، فإن رأى إنسانًا يطلب المكان، يتركه له. وإذا شعر بوجود منازعات حول المكان الأخير، يلتزم بالطاعة للمسئول عن تهيئة المائدة. فالطاعة له أفضل من اختيار الموضع الأخير خلال محاورات لا نفع منها.

---

[1] *On Hebrews, Homily 8: 9.*

[2] *Homilies on Matthew, 51: 5.*

[٣] راجع للكاتب القديس باسيليوس، جزء ٢، باب ٥، ٢٠١٢.

[4] *Regulae fusius tractatae, 19.*

[5] *Regulae brevius tractatae, 180.*

٨. حياة الطهارة والتعامل مع فئات الشعب المتنوعة

تبرز طهارة المؤمن حتى في تقديره لكل إنسانٍ مهما كانت طبقته أو تعليمه أو عمله، فنحن نحتاج إلى العامل البسيط والحاكم العاقل. بدون العمال والصناع لا تقوم المدينة. ما يشغلنا أن يكون الكل أمناء في القليل الذي بين أيديهم. مع تحاشي الإنسان الثرثار، وأيضًا المتهور في كلامه [١٨].

يُثنَى على عمل أيدي الصناع،

أما قائد الشعب فإنه حكيم لأجل كلامه [١٧].

ستقف كل البشرية في يوم الربّ العظيم للدينونة، ما يُمَيِّزهم هو مدى أمانتهم في القليل الذي كان بين أيديهم في العالم كي يؤتمنوا على الكثير الذي يوهب في الأبدية للأمناء.

الرجل الثرثار يخافون منه في مدينته،

والمتهور في كلامه يُمقَت [١٨].

❖ إيّاك والغلظة في الحديث، فإن التواضع والعفة من سمات العقلاء...

الفكر المحب لله نور يضيء للنفس، كما تضيء الشمس للجسد[١].

القديس أنطونيوس الكبير

من وحي سيراخ ٩

هب لنا روح الطهارة يا أيها القدوس!

❖ متى تنضم البشرية مع خورُس السمائيين،

فيرتلون، قائلين: قدوس، قدوس، قدوس! ليُقَدِّسك الكل في حياتهم أينما وُجِدُوا!

❖ لتذكر يا ربّ كل أسرة، وتسكن أنت فيها!

في نقاوةٍ لا يغير الزوج على زوجته ولا منها. لا يحسدها على مواهبها وقدراتها.

ولا يدخل الشك بين الزوجين،

فتتأهَّل الأسرة كلها لبساطة السمائيين ومحبتهم وتقديرهم المتبادل بينهم!

❖ لتكن يا إلهي قائدًا للأسرة، فلا يُسَلِّم أحدهما نفسه للآخر، بل أنت تقود الجميع.

ولا يستخفّ أحدهما بالآخر، فالكل أبناء لك، يشتهون أن يكونوا أيقونة لك!

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٣١.

❖ هب لنا روح الحكمة المملوءة حبًا ونقاوة في جدية!
فلا يلتصق أحد بزانية في تدليل وتهاون، ولا يُفسِد شخص وقته في تسيُّب ورخاوة.
لا تتفرَّس عيني شاب في عذراء، حتى لا يتعثر! ولا يُسَلِّم نفسه لزانية تُفسِد ميراثه.

❖ لتتفرَّس عيوننا فيك فتمتلئ بهاءً. تتقدَّس البصيرة الداخلية وترتفع إلى الأمجاد.
لا نتسكَّع في شوارع المدينة، فأبواب أورشليم العليا مفتوحة لنا، والسمائيون مشغولون بنا!

❖ افتح عن بصيرتنا فنرى بروح الطهارة المائدة التي تُعِدّها لنا!
ليس من إنسانٍ يهبنا متعة، بل أنت شهوة قلوبنا!
أية حفلات تُقَدِّم ترفيهًا لنا؟ بل وليمتك تملأ أعماقنا فرحًا وبهجة!

❖ أي صديق أَحبَّنا قبل خلقتنا مثلك؟ ومن مات على الصليب، ليرفعنا إلى الأمجاد الأبدية؟
أنت هو الصديق القديم مُشبِع كل أعماقنا. تهبنا الحب والطهارة، فيتَّسِع قلبنا لكل البشر.

❖ كنت تحاور موسى النبي كما يكلم الرجل صاحبه (خر ٣٣: ١١).
صداقتك وهبتنا خلقة جديدة، نزعت عنا الشرّ ووهبتنا برّك الإلهي!
لقاؤنا معك يُقِيم منا حكماء عقلاء!

❖ لتمسك بيدي، فتُحَوِّل حياتي إلى رحلة مُبهِجة نحو السماء!
ترفعني من مجدٍ إلى مجدٍ حتى ألتقي بك.
ترفعني من تراب العالم، وتنقذني من فخاخ إبليس الخفية والظاهرة.

❖ هب لي أن ألتقي بأبنائك الحكماء،
فأَتعلَّم منهم الطهارة، وأَتمتَّع بصداقة بنَّاءة.
يحلو لنا الحديث معًا عنك وعن شريعتك.
نتمسَّك بوعودك الإلهية، وننمو في مخافتك، ونستعذب حبك!
لا أستخفّ بفقيرٍ ولا بعاملٍ بسيط، إذ أرى صورتك تتلألأ في قلوبهم،
وفرحك مُعلَن على ملامحهم.

❖ لأصمت فتسمع صوت قلبي، وأنصت إلى كلامك.
لا أستعذب الثرثرة مع إنسانٍ، ولا أسلك بروح التهور.
بروحك القدوس يتشكَّل كياني يومًا فيومًا، لتتجلَّى أيقونتك فيّ، وأَتأهَّل للعُرْسِ السماوي!

الأصحاح العاشر

القائد خائف الرب

القائد وروح الأُبوَّة الحكيمة

لا ينسى ابن سيراخ توجيه الحاكم ورؤساء المدن، لأن سمات القائد لها فاعليتها على حياة القادة الآخرين كما على كل فئات الشعب. وهو في حاجة دائمة للنمو في الحكمة بالتجائه إلى واهب الحكمة والنجاح والسلطان. وعليه أن يحذر الغطرسة والظلم، فلا يتحطَّم ويُحَطِّم الشعب. كما أن الأب له دوره في حياة الأسرة، هكذا للقائد دوره، فقد يدفع شعبه نحو الحكمة والنجاح، كما قد يُفسِد حياتهم.

١. القائد الحكيم المتواضع [١-٣].
٢. الرب واهب الحكمة للمُدَبِّر [٤-٥].
٣. الغطرسة مستودع الشر [٦-١٣].
٤. عظمة الودعاء مخافة الرب [١٤-٢٤].
٥. الكرامة الحقيقية ومخافة الرب [٢٥-١٩].
٦. الكرامة والتواضع [٢٦-٢٧].
٧. الكرامة الحقيقية [٢٨-٣١].

١. القائد الحكيم المتواضع

القائد الحكيم يُعلِّم شعبه،
وتدبير العاقل يكون مُرتَّبًا حسنًا [١].

خلق الله الإنسان ليكون قائدًا لنفسه قبل أن يقود غيره، وكلما تولَّى مركزًا قياديًا سواء على المستوى العائلي أو الاجتماعي أو العسكري أو الديني، يلزمه بالأكثر أن يتزيَّن بالحكمة، لأنه يصير مسئولاً عمن هم تحت قيادته، ويكون نموذجًا لهم، يقتدون به.

ما يشغل فكر ابن سيراخ من جهة الحاكم أو رؤساء المدن، ليس إدارتهم السياسية أو الاقتصادية أو الترفيهية الخ. فحسب، وإنما الاهتمام بسلام الشعب وبنيانه، حتى ينشأ جيل له شخصيته السوية. فالقائد الناجح يُقِيم إن أمكن من كل شعبه قادة يُدرِكون رسالتهم ودورهم بروح الاعتدال والفرح.

المثل الرائع في تاريخ إسرائيل الملك سليمان الحكيم، الذي بفكره المُتَّسِع وقيادته الحكيمة جذب حتى الملوك المحيطين به أن يتعلَّموا منه. كمثالٍ، جاءت ملكة سبأ لتمتحنه بمسائل (١ مل ١٠: ١)،

وقيل عنها: "رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته... لم يبقَ فيها روح" (١ مل ١٠: ٤-٥). قالت: "طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائمًا، السامعين حكمتك" (١ مل ١٠: ٨).

أما الملوك الأشرار فحطَّموا أنفسهم، وجرّوا ويلات على الشعب، فمنذ عهد رحبعام بن سليمان انقسمت المملكة إلى مملكتين، مملكة إسرائيل المنشقة ومملكة يهوذا، أي مملكة الشمال ومملكة الجنوب، وكثيرًا ما انضمت إحداهما إلى أمم غريبة لتقاوم أختها. سقطت الأولى تحت سبي أشور والثانية تحت السبي البابلي كما دخلت عبادة الأوثان في المملكتين، بل وفي هيكل الربِّ بأورشليم.

كما يسلك قائد الشعب هكذا يسلك وزراؤه،

وجميع سُكّان المدينة مرآة حاكمها [٢].

القائد مُعَلِّم لمن هم حوله ومن هم تحت سلطانه. يقوم بالتعليم ليس بالكلام بل بالأكثر بتدبيره وسلوكه. لا يقوم دوره على التدبير الحسن للأمور فحسب، وإنما يقودهم بالتقوى خاصة في مخافة الربّ. ولعل أعظم مثل في العهد القديم هو **موقف داود عندما طلب منه مرافقوه العسكريون أن يقتل شاول الملك الذي كان يتعقَّبه وقد سقط بين يديه، فقدَّم لهم درسًا عمليًا في عدم الانتقام من ذاك الذي كرَّس طاقاته الملوكية لقتله** (١ صم ٢٤: ١-٨).

يقف **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم** في دهشةٍ متسائلاً في أعماقه: ترى هل داود التقي كان قائد معركة أم كان مُعَلِّمًا أم كاهنًا أو أسقفًا؟ يراه **المُعَلِّم الصالح**، يحرص ألا يمد هو أو أحد رجاله إلى الشرّ. كان العسكريون يُرافِقون داود كي يحفظوه من مكائد شاول ومحاولته لقتله، وهو يرافقهم لكي يحفظهم من أي تصرُّفٍ أو فكرٍ غير مُقَدَّسٍ. إنه يهتم بخلاص نفسه كما بخلاصهم.

يراه أيضًا **الكاهن أو الأسقف**، فأينما وُجِدَ داود التقي حسب نفسه في حضرة الرب، كمن في هيكل مُقَدَّسٍ. كان الكهف في عينيه كنيسة مقدسة يُمارِس فيها عمل التعليم، تحدَّث مع مُرافِقيه كما مع شاول ليُرشِدَهم إلى طريق خلاصهم. كان يكرز بالحق، ويحرص على خلاص الكل.

يراه الذهبي الفم أشبه بأسقفٍ أو كاهن **يُقَدِّم ذبيحة الحب وتقدمة الوداعة والرحمة**. كما يراه أشبه بفدية، مُقَدِّمًا حياته مبذولة بعفوه عن مقاومه طالب نفسه، ويرى الكهف أشبه بمذبحٍ مُقَدَّسٍ وهيكل للرب لا يسمح بأي فكرٍ غير لائقٍ أن يكون له موضع فيه[١].

❖ إنكم ترون إنه لم يكن ممكنًا بدون عمل الله أن ينجح (داود) في السيطرة على هؤلاء الشديدي

---

[١] راجع تفسير أخبار الأيام الأول للكاتب (ملحق الأصحاح العاشر).

الهياج، لقد **وُجِدَتْ نعمة الله على شفتي الرجل المُلهَم تُقَدِّم نوعًا من هذه الكلمات المُقْنِعَة.** على أي الأحوال لم تكن مساهمة داود بقليلةٍ، فقد سبق فشكَّلهم في الماضي، لذلك وجدهم في اللحظة الحاسمة مُستعِدِّين وراغبين (فيما تعلَّموه منه). ها أنتم ترونه لم يكن كقائد لفِرق (جيشٍ) يأمرهم، وإنما **ككاهنٍ**، وقد **كان الكهف كنيسة** في هذه المناسبة.

كان كمن **سيم أسقفًا** يُقَدِّم لهم عظة. وبعد العظة قدَّم نوعًا من **الذبيحة الرائعة غير العادية**، لا بتقديم ثور كذبيحة ولا ذبح حملٍ، بل ما هو أعظم منهما، **قدَّم لله وداعةً ورحمةً**، ذابحًا الغيظ (الخفي) غير العامل فيه، قاتلاً الغضب، ومُميتًا الأعضاء التي على الأرض. عمل **كفدية وكاهنٍ ومذبحٍ.** كل شيءٍ صدر منه، الفكر الذي قدَّم لطفًا ورحمة، ووداعة القلب، الأمور التي جعلها تقدمات (لله)[1].

❖ لا يقل أحد: لي عدو شرير وفاسد وعنيد، يثير الاشمئزاز. مهما تقول عنه لا يوجد من هو أَشرّ من شاول الذي أنقذه داود في مواقفٍ كثيرةٍ، دبَّر بشخصه مكائد كثيرة بلا عددٍ، ومع هذا كان داود يُقَدِّم له إحسانات مُقابِل شروره، وكان مُصِرًّا على شرّه. أية دعوى تُقَدِّمها بعد ذلك؟ هل اغتصبوا جزءًا من أرضك، هل اقتحموا ممتلكاتك، وتعدُّوا على حدود بيتك، وسرقوا عبيدك، وأَضَرُّوك، وكانوا جشعين، ونزلوا بك إلى الفقر؟ مع هذا لم يأخذوا حياتك، الأمر الذي كان ذاك الرجل (شاول) مُصَمِّمًا عليه. وإن كانوا مُصَمِّمين على أخذ حياتك، ربما حاولوا هذا في مناسبة واحدة، وليس مرة تلو المرة مثله. وإن كرَّروا ذلك مرات، مع ذلك لم ينالوا منك منافع هكذا، إذ لم يسقطوا تحت يديك مرة ومرتين وعفوتَ عنهم. وإن حدث هذا، فلا يزال داود أكثر سخاءً.

إنه لأمر مستحيل لإنسانٍ في ظل تدبير العهد القديم أن يبلغ قِيَمًا عميقة، أما الآن بعد مجيء النعمة، فقد أُعطيت مثل هذه المحاسن العجيبة. لم يسمع داود عن مثل العشرة آلاف وزنة والمئة دينار (مت ١٨: ٢٣-٣٠). ولم يسمع الصلاة التي تقول: "اغفروا لهم ما عليهم، كما يغفر لكم أبوكم السماوي" (راجع مت ٦: ١٤). لم يرَ المسيح المصلوب، ولا الدم الثمين يفيض، ولا سمع الكلمات التي بلا عدد عن القِيَم السليمة. لم ينتفع بالبركات التي بلا عدد من القِيَم السليمة. لم ينتفع ببركات الذبيحة العجيبة، ولا اشترك في دم الرب. عوض هذا تربَّى في ظل الشرائع غير الكاملة التي لم تتطلَّب هذه الأمور، مع هذا نال ذروة القِيَم السليمة التي لعهد النعمة.

بينما أنتم كثيرًا ما تستاءون من أضرارٍ ماضية، وتتذمَّرون، إذا به على النقيض، فمع الخوف مما سيحدث مُستقبَلاً، ولديه إدراك كامل أنه إن أنقذ حياة الرجل، فالمدينة تفقد حصانتها

---

[1] *St. John Chrysostom, Homilies on David and Saul, Homily 2.*

بالنسبة له، وحياته تهلك، ومع هذا لم يكف عن تقديم رعاية (لعدوّه). لقد فعل كل ما في استطاعته ليَحمِي ذاك الذي يحمل له عداوة. من استطاع أن يقتني صبرًا أعظم من هذا؟

بالنسبة لكم، تعلَّموا أيضًا مما حدث في أيامنا. على أي الأحوال، إنه يمكننا أن نتصالح مع كل شخصٍ يحمل عداوة لنا إن أردنا. أي شيء يمكن أن يكون أكثر شراسة من الأسد، ومع هذا فالناس يُرَوِّضونه. فإن التدريب بمهارة يُقَدِّم ما هو أفضل في الطبيعة، والحيوان الأكثر شراسة، ويُحسَب ملكًا، يصير أكثر لطفًا من قطيع الغنم، ويتحرَّك في الأسواق دون أن يُسَبِّب رُعْبًا لأحدٍ. فأي عذرٍ لنا؟ أيّة حجة لنا إن كانت الوحوش تُرَوَّض، إن ادَّعينا بأن البشر لا يمكن تهدئتهم أو جذبهم لأخذ موقفٍ ودِّيٍ معنا؟

بالحقيقة الشراسة بالنسبة للحيوانات ترجع إلى الطبيعة، أما بالنسبة للكائن البشري، فهي ضد الطبيعة، فإن كنا نغلب الطبيعة، فأي عذرٍ لنا عندما ندَّعي أن حرية الإرادة لا يمكن إصلاحها؟... ليتنا نُرَكِّز على أمرٍ واحدٍ، لا على عدم معاناتنا من الضرر الذي يصيبنا من أعدائنا، وإنما أن نجعلهم لا يؤذون نفوسنا. فإننا لا نضطرب حتى إن كيَّلوا لنا متاعب بلا حصرٍ. فداود لم يُعانِ من شيءٍ بالرغم من أنه طُرِدَ وصار هائمًا، كان موضوع مؤامرات لإنهاء حياته، عوض هذا صار بالأكثر مشهورًا ومهوبًا أكثر من الآخر (شاول)، وصار بالأكثر محبوبًا لدى كل أحدٍ، ليس لدى البشر فقط، بل لدى الله نفسه. فوق هذا كله أي ضررٍ حلَّ بالقدِّيس من احتماله هذا كله من شاول في ذلك الوقت؟ أليست تسابيحه يُغنَّى بها إلى يومنا هذا؟ ألم يصر مشهورًا على الأرض وبالأكثر في السماء؟ أليست خيرات لا تُوصَف تنتظره، حتى في ملكوت السماوات؟

ومن الجانب الآخر أي خير حصل عليه هذا المسكين الشقي بمكائده الرهيبة هذه؟ ألم يفقد مركزه الملكي، وحلَّ به وبابنه موت يُرثَى له، سقط تحت اتهامات وَجَّهها إليه الكل، وما هو أَشرّ من هذا تنتظره العقوبة الأبدية التي سيلقاها؟[1]

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

الملك الغير منضبط يُدَمِّر شعبه،

لكن بحكمة حُكَّامها تصير مدينة صالحة للسكن [٣].

رأينا داود الملك ينقذ رجاله من السقوط في الانتقام من شاول الملك (١ صم ٢٤: ٦-٧)، وكان شاول الملك بقلبه الفاسد يبثّ الفساد في المحيطين به.

---

[1] *St. John Chrysostom, Homilies on David and Saul, Homily 3.*

٢. الرب واهب الحكمة للمُدَبِّر

مُلْك الأرض في يد الربّ،

وهو يُقِيم عليها الإنسان المناسب في الوقت المناسب [٤].

يؤكد ابن سيراخ اهتمام الرب بكل الأمم والشعوب، فلا يُقَام الملوك والرؤساء بطرق عشوائية، إنما بسماح من الله للخير. فالشعب المتهاون في خلاصه والمقاوم للحق، يسمح الله لهم أن يختاروا قائدًا شريرًا، لكي يدركوا أن ما حلّ بهم هو ثمرة شرهم، لعلهم يتوبون عن الفساد والظلم. فعندما ازداد شرّ البابليين وظنُّوا أنه لا توجد قوة في العالم يمكن في الحاضر أو المستقبل أن تقف أمامهم، سمح لهم أن يملك عليهم بيلشاصر حفيد نبوخذنصر، غالبًا ابن ابنته، الذي لم ينتفع من دروس آبائه (دا ٥). تحدَّى بيلشاصر الله نفسه، وأراد أن يهينه عن عمدٍ. وكما يقول **القديس جيروم:** [لم يكن مُتَّزِنًا حين صنع هذه الأمور، بل بالحري كان مخمورًا، ناسيًا العقوبة التي حلَّت بسالفه نبوخذنصَّر[1].]

كان بيلشاصر منشغلاً بإقامة وليمة تضم ألفًا من العظماء القادمين من كل موضعٍ، مع نسائه وسراريه. كان يظن أنه من المستحيل لكورش أو غيره أن يقتحم أسوار المدينة الضخمة، فتركه يُحاصِرها في استخفافٍ به وبجيشه. كانت أسوار بابل كما جاء في هيرودوت لا يقل عرضها عن ٨٧ قدمًا وارتفاعها عن ٣٥٠ قدمًا، مع وجود ٢٥٠ برجًا تعلو ١٠٠ قدمًا أخرى في الهواء. لذلك ظن بيلشاصر أنه لا يستطيع أحد أن يغزو بابل.

الجهد الذي بذله بيلشاصر في إقامة الوليمة والإمكانيات التي قُدِّمت لا يمكن تقديرها. هذا مع تحدِّيه لله، فعوض الصوم في وقت الحصار، والصراخ لله لكي ينقذه وينقذ مدينته، إذا به يُقيم وليمة، ويستخدم الأواني المقدسة للشرب لتدنيسها في جوٍ من الفساد والإباحية. وبينما كان بيلشاصر يفتتح الوليمة، كان جيش كورش على أبواب بابل. لقد حوَّل كورش مجاري كثيرة لنهر الفرات واقتحم المدينة فجأة، وزالت مملكة بابل. كان بيلشاصر مسئولاً عمن تحت قيادته، وهم مع بقية الشعب أيضًا من جانبهم كانوا أشرارًا، فكثيرًا ما يسمح الله بتأديب الشعب خلال إقامة قائدٍ شريرٍ. وكثيرًا ما غيَّر الله قلوب القادة الأشرار وأفكارهم خلال صلوات المرؤوسين ومخافتهم للرب وسلوكهم المقدس.

نجاح الإنسان في يد الربّ،

ويهب مجده لشخص الكاتب [٥].

الله في عدله يُعطِي نجاحًا للمُجاهِدين، ويُقِيم منهم قادة عظماء. يرى البعض أن كلمة "كاتب" هنا

---

[1] *PL 25:652.*

تعني صانع القرار، أو الحاكم. كانت فئة الكتبة عند اليهود مُثَقَّفة، تقوم بنسخ الأسفار المقدسة وبتفسيرها والتعليم بها. في أيام السيد المسيح كان يُنظَر إليهم كطبقة سامية، وكان كثير من الكهنة في أورشليم يخدمون ككتبة. كانوا يلتحقون بمدارس خاصة، ويدرسون مناهج مُعَيَّنة. من بينهم المؤرخ اليهودي يوسيفوس، وأيضًا هليل الذي كان عالمًا وصار مُعَلِّمًا مشهورًا.

٣. الغطرسة مستودع الشر

لا تحنق على جارك لأيّ ضرر سبَّبه،

ولا تُمارِس شيئًا من أعمال الإهانة [٦].

تعلَّم ابن سيراخ من سلوك داود النبي الذي لم يسمح ولا لرجاله أن تمتد أياديهم بالشر على شاول. حينما تضايق داود من نابال الذي أهانه، ولم يعطه شيئًا ليأكل هو وغلمانه الذين حرسوا ممتلكاته وغنمه، استل سيفه ومعه نحو أربعمائة رجل مستلّين سيوفهم لمقاتلته. أرسل له الرب أبيجايل زوجة نابال الحكيمة تصدّه عن هذا العمل بحكمةٍ ووقارٍ. سقطت على رجليه، وقالت: "لا تكن هذه مصدمة ومعثرة قلب لسيدي أنك قد سفكت دمًا عفوًا أو أن سيدي انتقم لنفسه". أجابها داود: "مبارك عقلك، ومباركة أنتِ، لأنك منعتني اليوم من إتيان الدماء وانتقام يدي لنفسي" (١ صم ٢٥: ٣٣).

يُحَذِّرنا ابن سيراخ من أخذ أي قرار عندما يكون الإنسان ثائرًا ومنفعلاً. الحقد والكراهية والحنق من ثمار الكبرياء. فالمتواضع يشفق على كل إنسانٍ حتى الذي يسيء إليه (لا ١٩: ١٧-١٨).

❖ يلزم ألا يغضب (المؤمن) على قريبه بلا سببٍ، ولا يتبنَّى السخط ضد أحدٍ، ولا يرد الشر بالشر. يليق به أن يُشتَم لا أن يَشْتِم، ويُضرَب عن أن يضرب، ويُسَاء إليه عن أن يخطئ، وأن يُسلَب عن أن يَنهِب[1].

❖ الغضب يجعل الألسنة مطلقة العنان، والأحاديث بلا ضابطٍ. كذلك العنف الجسماني وتصرُّفات الاستهزاء والسب والاتهامات والضرب وغير ذلك من الأعمال الشريرة غير المحصية تُولَد من الغضب والسخط[2].

❖ بغيضة وقبيحة تلك النفس التي وهبت ذاتها لشهواتها. **من يستطيع أن ينظر إلى إنسان في غضبه وشكله القبيح؟** ومن يستطيع أن ينظر إلى إنسانٍ حزينٍ واهن أمام نفسه المُستعبَدة؟...

لنحرص إذن على جمالنا، حتى يستقبلنا العريس الكلمة بالترحاب بهذه الكلمات: "كلكِ جميلة

---

[1] *A Discours on Ascetical Discipline, (Frs. Of the Church, volume 9, p. 34-35).*

[2] *Sermons 10 FC 86, P. 74.*

يا حبيبتي، ليس فيك عيبة" (نش ٤: ٧)[1].

❖ العفيف في الرغبة في الكرامة متواضع. والعفيف في الغِنَى قانع، ويحقق قياس الإنجيل في الفقر. **الذي يتحكَّم في السخط والغضب هو لطيف.** بالحق ملاحظة العفة الحقيقية تضبط اللسان وتضع حدًا للعينين وتطهر الأذنين من سماع النميمة بحُبّ استطلاع. أما من لا يحفظ هذا كله فإنه ليس بعفيفٍ بل جامح[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

يقول **القديس باخوميوس** إن من يُعَلِّم الغضوب أن يصير وديعًا، يكون قد أخرج منه شيطانًا.

التشامخ ممقوت عند الربّ والناس،

والظلم عند كليهما أمر فاضح [٧].

تشامخ الحاكم يدفع الأمة إلى الانهيار. من أمثلة ذلك ما حلّ بمصر من ضربات في أيام موسى بسبب كبرياء فرعون (خر ٧-١١). لقد تعلَّم ابن سيراخ هذا الدرس من سقوط أشور (٦١٢ ق.م) ومملكة بابل (٥٣٩ ق.م.) وفارس (٣٣١ ق.م.) واليونان (٣٢٣ ق.م.) الخ.

❖ أيها المُتميِّز لا تتعالَ على قريبك، تواضع أمامه ولو أمكن تقع أمام رجليه.

صور أمام ناظريك تواضع ابن الله، وكما تواضع هو تواضع أنت أيضًا لأندادك.

انظر إليه متواضعًا وهو يغسل أرجل بني بيته، وإذ هو إله أَحبّ التواضع وأبغض التباهي.

الشيء الذي يبغضه ابن الله لا تقترب إليه، فلو اقتربت سيقتلك ويفسدك.

أبغض الكبرياء الذي أَبغضه ورذله ابن الله: إنه الشرّ الذي منه تنبع كل الشرور.

أَحبِب التواضع، وأبغض الافتخار إن كنت تلميذًا، فلا تقدر جميع الشياطين أن تقترب منك.

التواضع أسقطهم من درجاتهم، ولو وجدوا فيك التواضع يهربون منك.

التواضع هو بيت اللاهوت وحيث هو موجود يسكن فيه الله...

تواضع ليأتي الملك ويحلّ عندك، فلن تؤذيك كل قوة العدو.

بيت الملك لا ينهبه اللصوص، لأن جنوده يحرسون أبوابه بحذرٍ.

إن كنت متواضعًا فهوذا الملكوت حالّ فيك، ولن يسرقك السراق ولا اللصوص.

---

[1] تفسير المزمور ٣٠ (٢٩).

[2] *Reg. Fus. 16:3.*

إن كنت متواضعًا فشجرة كل الشرّ منزوعة منك، ومشتول بدلها ربّنا الشجرة المباركة[1].

القديس مار يعقوب السروجي

ينتقل المُلْك من أمة إلى أمة،

بسبب الظلم والغطرسة والمال [٨].

ليس ما يُفسِد أية مملكة أو دولة أو أسرة مثل الظلم والغطرسة ومحبة المال.

❖ نقرأ أيها الأحباء الأعزاء في الكتاب المقدس: "طوبى للغني الذي لا يسعى وراء المكسب... يقدر أن يتعدَّى ولم يتعد، وأن يصنع الشرّ ولم يصنع" (راجع سي ١٠: ٨-١٠). حسنًا أيها الإخوة، لنسأل ضمائرنا ونرى إن كنا نحتقر الطمع بطريقة بها نشترك في هذا التطويب[2].

الأب قيصريوس أسقف آرل

كيف يتكبَّر من هو تراب ورماد؟

فإنه حتى أثناء حياته تنتن أحشاؤه؟ [٩]

يقف ابن سيراخ متعجبًا من الإنسان المخلوق من التراب والرماد، فإنه وهو بعد في هذه الحياة، إذ ينشغل بالأرضيات عوض حياته الداخلية، تصير أعماقه فاسدة ونتنة!

❖ الإنسان الذي يتَّجِه نحو الأمور الخارجية يتحوَّل إلى ما هو أسوأ، وهو حيّ يطرد عنه أحشاءه (راجع سي ١٠: ٩). بهذا يظهر للعالم أنه في حالة أفضل بالنسبة للذين يفكرون في الأمور الأرضية (في ٣: ١٩)، عندما يُمدَح الخاطئ على رغبات نفسه ويُطوَّب الإنسان الظالم.

❖ إنه يتغيَّر إلى الأفضل متى يتحوَّل اهتمامه تدريجيًا من الأرضيات التي تظهر في هذا العالم، ويضع مجده في الأمور العلوية الداخلية[3].

القديس أغسطينوس

العجيب أن الإنسان إذ يبقى ترابًا ورمادًا يتكبَّر حتى على خالقه، وإذا اتحد بالعلي يصير سماءً فيتواضع، مُتمثِّلاً بالسيد المسيح القائل: "تعلَّموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب".

يقول **القديس أغسطينوس** إن كان الشيطان ليس له ما يُبَرِّره على كبريائه مع أنه ليس ترابًا ورمادًا، فبماذا يبرر الإنسان كبريائه؟ العجيب أن الإنسان إذ ينبذ أحشاءه (النتنة)، يكون رد الفعل لا

---

[1] الميمر ٦٥ على الكبرياء (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني). الميمر الربع، على العظمة.

[2] *Sermons, FOTC, vol. 2, p.282-283.*

[3] *Letters, FOTC, vol. 1, p.266-268.*

الانسحاق والتواضع بل التغطية بالكبرياء والزهو.

❖ يُقال: "يطلع ينبوع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض" (تك ٢: ٦). إنه طلع من تلك الأرض، التي قال عنها الكتاب: "أنت هو رجائي، نصيبي في أرض الأحياء" (مز ١٤٢: ٦). عندما رُويت النفس بمثل هذا الينبوع لم تكن بعد قد عطشت إلى أعماقها الداخلية بالكبرياء. لأن بدء كبرياء الإنسان هو الارتداد عن الله (راجع سي ١٠: ١٢). وإذ تنتفخ بالأشياء الخارجية بالكبرياء، تتوقَّف النفس عن الارتواء بالينبوع الداخلي. لهذا بحق يُسخَر منا بكلمات النبي القائل: "لماذا يتكبر من هو من تراب ورماد، وقد أنتنت أحشاؤه مدة حياته؟" (راجع سي ١٠: ٩).

عن آباء شبه جزيرة إيبريا

❖ "مَن مِن الناس يعرف أمور الإنسان إلاَّ روح الإنسان الذي فيه" (١ كو ٢: ١١). ومع ذلك توجد أمور خاصة بالإنسان لا يعرفها الروح الذي فيه. أما أنت يا ربّ الذي خلقته فتعرفه تمامًا. إنني بالحقيقة بالرغم من كوني موضوع نظرك، أحتقر نفسي وأحسبها ليست إلاَّ تراب ورماد. إنني أعرف شيئًا خاصًا بك، ولا أعرف نفسي. بالتأكيد نرى في مرآة معتمة "وليس وجهًا لوجه" (١ كو ١٣: ١٢). ما دمت بعيدًا عنك فإني أقرب إلى نفسي عن قربي لك[1].

❖ أرتعب، لأن علة تغرّب النفس على الله أنها متكبرة. لا أشك في هذا. مكتوب: "الكبرياء هو بدء الخطية" (راجع سي ١٠: ١٣)، وبدء الكبرياء البشري هو البُعْد عن الله. مكتوب أن هذا ثابت وحق. وهكذا ما قيل عن كبرياء البشرية الزائلة، تلتحف في خرق الجسد البالية، تنحدر بثقل الجسد الفاسد (حك ٩: ١٥)، وإلى حين يتشامخ الإنسان ناسيًا ذات الجلد الذي يلتحف به ما هو؟ [٩] لماذا يتشامخ؟ لتخبرنا الأسفار المقدسة: "لأن أحشاءه انتنت" [٩]... الإنسان المتكبر يتخلَّص من أحشائه، أما المتواضع فيشتاق في غيرة إلى أعماقه. إن كنا بالكبرياء نُطرَد خارجًا، فبالتواضع نعود[2].

القديس أغسطينوس

❖ قد يقول قائل: كيف يمكن لمن يسقط في خطية اللهو أن يقتني الشيطان في نفسه؟ ما نقوله أيها الأحباء الأعزاء، نبرهن عليه من الأسفار المقدسة.

لتنصت إلى الكتاب المقدس القائل إن المتكبر هو مملوء بالشيطان: "كل متشامخ القلب مكرهة

---

[1] *Confessions, 10: 5: 7.*

[2] *Tractates on John 25: 15.*

الربّ" (راجع أم ١٦: ٥)، و "كل كبرياء هو بدء الارتداد عن الله" (راجع سي ١٠: ١٢). ماذا يعني الارتداد عن الله سوى مفارقته. علاوة على هذا، الإنسان الذي يعتزل الله بالضرورة يتحد مع الشيطان. هذا ويقول الكتاب إن الإنسان الحاسد لا يمكن أن يكون بدون شيطان. "بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم والذين يتبعونه يصيرون في صفه". يقول النبي: "روح الزنا قد أضلّهم" (هو ٤: ١٢).

الأب قيصريوس أسقف آرل Arles

❖ الكبرياء والتشامخ والعجرفة خطايا الشيطان، وبسبب هذه الأخطاء ترك السماء من أجل الأرض [سقط الشيطان من السماء]. لذلك "يقاوم الله المتكبرين، ويعطي نعمة للمتواضعين" (يع ٤: ٦). فمن يتعجرف ينسى ما سيصير عليه، أية هشاشة تحلّ به، وفي أية قذارة سيغرق، وأية مزبلة تخرج على الدوام من جسمه؟ ماذا تقول الأسفار الإلهية؟ كيف يمكن لمن صُنِع من التراب والرماد أن يفتخر؟ بفساد أحشاء الإنسان الداخلية. الكبرياء أخطر كل الخطايا، خطأ الشيطان الرئيسي[1].

العلامة أوريجينوس

الحاجة إلى النعمة الإلهية

كل الخليقة العاقلة في السماوات وعلى الأرض في حاجة إلى النعمة الإلهية التي تربطها بالله، فلا تسقط في الكبرياء، وبالتالي لا تعزل نفسها عنه بكونه مصدر صلاحها. عندما عزلت إحدى الطغمات السماوية نفسها عن الله بقبولها للكبرياء، حُرِمَت من النعمة الإلهية وصارت قوات ظلمة، لا تحتمل النور. وأيضًا إذ رفض أبوانا النعمة والتصقا بوعود إبليس وإرشاداته سقطا في الكبرياء. من يبتعد عن الله أو يعزل نفسه عنه يهلك، إذ يسلك حسب إرادته الشريرة، لا حسب إرادة الله المقدسة.

يرى **فلجنتينوس تلميذ القديس أغسطينوس** أن الإنسان الأول كان في حاجة إلى النعمة الإلهية.

❖ في الحقيقة لم تكن تستطيع الطبيعة البشرية بقدرتها الذاتية هذه الإمكانية، أي عمل الصلاح، حتى بالنسبة للإنسان الأول قبل أن يُجرَح بالخطية. لذلك، كيف كان يمكن للإنسان أن يسترد صحته بدون عون الطبيب، إن كان وهو في صحته لم يستطع أن ينجح في حماية صحته في ذلك الحين؟ لهذا يليق بالتراب والرماد ألاَّ يفتخر، لأن الفكر العميق في هذه الحياة هجره (سي ١٠: ٩)، ولم يكن ممكنًا للجريح أن يعمل كمن هو في كامل صحته، حاسبًا أن جرحه قد شُفِي. بالحريّ كان يلزمه في تواضع أن يكشف عن قلبه الجريح ونتن جراحاته. فيعلن مع النبي: "قد

---

[1] *Homilies on Ezekiel, 9: 2.*

انتنت، قاحت حُبُر ضربي من جهة حماقتي" (مز ٣٨: ٥)، فيقدر أن ينال الشفاء لا عن استحقاقه، وإنما خلال عطية الرحمة الإلهية المجانية. بالحقيقة كيف يملك الإنسان ما لم يستلمه؟ وإذ استلم هذا، فلماذا يمجد نفسه كمن لم يستلم شيئًا (راجع ١ كو ٤: ٧)؟[1]

❖ ابتدأ الإنسان يخطئ خلال اعتزاله الله. مكتوب: "بدء الكبرياء الابتعاد عن الله" (راجع سي ١٠: ١٤)، وفي موضعٍ آخر: "هوذا الذين يبتعدون عنك يبيدون، تُهلك كل من يزني عنك" (مز ٧٣: ٢٧). الذين يبتعدون عن الله ويرتكبون الزنا يهلكون... الله لا يريد هلاكهم بدينونته ما لم يهلكوا هم أنفسهم بآثامهم[2].

فلجنتينوس أسقف Ruspe

❖ لينصت المتواضعون إلى صوت الحق الملوكي: "**من يضع نفسه يرتفع**"، وليعلم المتكبرون أن "**كل من يرفع نفسه يتضع**" (لو ١٨: ١٤). ليعلم المتواضعون أن "**قبل الكرامة التواضع**" (أم ١٥: ٣٣)، وليعلم المتكبرون أن: "**قبل الكسر الكبرياء**" (أم ١٦: ١٨). ليعلم المتواضعون أن: "**إلى هذا أنظر: إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامي**" (إش ٦٦: ٢)، وليذكر المتكبرون القول: "**لماذا يتكبر التراب والرماد**" (راجع سي ١٠: ٩). ليعلم المتواضع أن "**الرب عال ويرى المتواضع**"، وللمتكبر يقول: "**أما المتكبر فيعرفه من بعيد**" (مز ١٣٨: ٦). ليعرف المتواضعون أن: "**ابن الإنسان لم يأتِ ليُخْدَم بل ليخدم**" (مت ٢٠: ٢٨)، وليعلم المتكبرون أن "**الكبرياء أول الخطأ (ومن رسخت فيه فاض أرجاسًا)**" (راجع سي ١٠: ١٥). ليعلم المتواضعون أن مُخَلِّصنا: "**وضع نفسه، وأطاع حتى الموت موت الصليب**" (في ٢: ٨).

ليعلم المتكبرون ما هو مكتوب عن رئيسهم: "**عند نهوضه تفزع الأقوياء**" "هو ملك على كل بني الكبرياء" (أي ٤١: ٢٥، ٣٤). بكبرياء إبليس حلَّت علينا الدينونة، وبتواضع الله تحقَّق عهد خلاصنا. لأن عدونا المخلوق كسائر المخلوقات أراد أن يتعالى فوق الجميع، أما مخلصنا فقد ارتأى أن يصير صغيرًا بين الجميع، وهكذا ظل متعاليًا وعظيمًا فوق الكل. لذلك ليعرف الودعاء أنهم يرتفعون كشبه الله عندما يتواضعون. وليعلم المتعالون أن بغرورهم يهبطون إلى شبه الملاك العاصي. ليس ما هو أحَطُ من الغرور الذي يُسْقِط الإنسان من حالة الرفعة الحقيقية. وما أرفع التواضع الذي بنزوله إلى الحضيض يرتبط بالخالق الذي هو فوق الجميع في الأعالي[3].

---

[1] *Letters, 4: 2: 3-4.*

[2] *Ad Monimum (512-513) 1:19:2.*

[3] البابا غريغوريوس (الكبير): الرعاية، ج ٣، ف ١٧، عظة ١٨، ترجمة جورج فهمي حنا، ٢٠٠٤.

المرض المُزمِن يُحَيِّر الطبيب،
ومَلِك اليوم غدًا يموت [١٠].

حين يموت الإنسان يرث الدبيب والوحوش والدود [١١].

بدء كبرياء الإنسان ارتداده عن الربّ،
لأن قلبه ينسحب عن خالقه [١٢].

❖ أبناء الله وأبناء الشيطان لا يتميَّزون عن بعضهم البعض إلاَّ خلال التواضع والكبرياء. عندما ترى إنسانًا متكبرًا لا تشك في كونه ابنًا للشيطان. وإن رأيت إنسانًا متواضعًا يلزمك أن تصدق وتثق أنه ابن الله ... ما الذي أسقط الشيطان سوى الكبرياء، والذي رفع المسيح هو التواضع، فقد وضع شفاء التواضع من أجل جرح الكبرياء. لهذا إن أردنا أن نتجنَّب الكبرياء يلزمنا أن ننسحب دومًا في دواء التواضع. لننصت إلى الربّ القائل: "تعلَّموا مني، لأني وديع، ومتواضع القلب" (مت ١١: ٢٩). لم يَقُل تعلَّموا مني خلقة العالم، أو إحياء الموتى أو صنع المعجزات الأخرى.

الأب قيصريوس أسقف آرل Arles

❖ الذي يتكبَّر يُعانِي ذات العقوبة مع الشيطان، لأن: أول كبرياء الإنسان ارتداده عن الربّ (راجع سي ١٠: ١٢). الكبرياء هو بدء الخطية، وهو الدافع الأول والتحرُّك نحو الشرّ. بالحقيقة ربما هو كل من الجذر والأساس. لأن البداية تعني الدافع الأول تجاه الشرّ أو خلفية الشرّ. ذلك مثل شخص يقول إن بداية الطهارة هو الامتناع عن النظر نحو الأمور غير اللائقة فهذا هو الدافع. أما أن نقول إن بداية الطهارة هو الصوم، فهذا هو الأساس الذي يقيم الطهارة. هكذا الكبرياء، هو بداية الخطية، لأن كل خطية تبدأ به وهو يسندها[1].

❖ لو لم يُصب الشيطان بهذا المرض (العجرفة) لما انحدر وصار شيطانًا، إذ لم يكن قبلاً شيطانًا. هذا ما طرحه من هذه الثقة، هذا دفع به إلى حفرة النار، هذا هو سبب كل ويلاته[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بدء الخطية البشرية هو التمرُّد على الله، وبدء كل خطية هو الكبرياء. وقد تكلم الرسول عن هذا

---

[1] *Homilies on Thessalonians, homily 1.*

[2] *On John , Homily 16 : 4*

الأمر بخصوص الخطية قائلاً: "لأنهم لما عرفوا الله لم يُمَجِّدوه أو يشكروه كإله، بل حمقوا في أفكارهم واظلّم قلبهم" (رو ١: ٢١). القلب المظلم عقابه في ذاته. ولكن من أين حدث هذا؟ "بينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء" (رو ١: ٢٢). لقد قالوا إن ما نالوه من الله صادر من ذواتهم. أو حتى إن عرفوا ممن استلموا هذا، لم يعطوا المجد لذاك الذي استلموا منه.

❖ الشقاء هو بذور الإثم، أما الخطية فهي الحبل بالشقاء؛ فإن الخطية الأولى هي الارتداد عن الله [١٢]. من يحبل بالشقاء يتمخض بالظلم. الإثم بعينه مثل الظلم، إنه ينجب ما قد تمخض به[1].

القديس أغسطينوس

لأن بدء كبرياء الإنسان هو خطيّة، ومن تَمَسَّك به يفيض رجاسة.

ولذلك يُنزل الربّ بالمتكبرين محنًا فائقة، ويُدَمِّرهم تمامًا [١٣].

ليس بالضرورة كل خطية يُرَافِقها الكبرياء، لكن كل خطية عِلّتها الأولى الكبرياء واعتزال الإنسان إلهه، ورفضه الإرادة الإلهية.

❖ ذاك الذي تعلَّم جيدًا خطوات الغلبة على الرذائل، يعرف أن هذه الرذيلة التي للمجد الباطل يلزم تجنُّبها الكامل... فإن هذه التي بها سقطت النفس أولاً، تسود البقية. "فإن أول كل خطية هو الكبرياء" وأيضًا: "بدء كبرياء الإنسان ارتداده عن الله" (راجع سي ١٠: ١٢-١٣)[2].

❖ عندما تحب النفس سلطانها تنحدر مما هو عام للجميع إلى ما هو خاص بها. لو أنها اتَّبعت الله كقائدها في الخليقة المسكونية تستطيع شرائعه أن تضبطها على أعلى مستوى من السمو[3].

❖ لا يحتاج التطويب إلى أي شيء آخر أيا كان، مادام يحتاج إلى بلوغ الحكمة العليا. "لكن مخافة الرب رأس الحكمة" (مز ١١٠: ١٠ *LXX*). ومن الجانب الآخر فإن الكبرياء يُدعَى "بدء كل خطية" (راجع سي ١٠: ١٣). يطلب المتكبر محبة ممالك الأرض، ولكن "طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات" (مت ٥: ٣)[4].

القديس أغسطينوس

❖ أتوسل إليكم أن نكون غيورين، أن نبتعد عن هذا الميل (الكبرياء)، حتى لا نسقط في نفس

---

[1] *On Ps .8.*

[2] *On Ps.7*

[3] *The Trinity, Catholic, Vol. 45, p. 356.*

[4] *Sermon on the Mount, 1:1:3.*

الدينونة، ولا نُخضِع أنفسنا لذات العقوبة، ولا نشترك في النقمة. يقول: "غير حديث الإيمان، لئلا يتصلَّف، فيسقط في دينونة إبليس" (١ تي ٣: ٦). من ينتفخ يعاني من ذات العقوبة مع إبليس "أول الكبرياء عدم معرفة الرب" (راجع سي ١٠: ١٢)[1].

❖ يقول حكيم: "الكبرياء بدء الخطية" (راجع سي ١٠: ١٣)، أي جذرها ومصدرها ووالدتها[2].

❖ بالحقيقة ليس شيء غريبًا عن رحمة الله، ويلقي في نار جنهم مثل طاغية الكبرياء. إن اقتنيناه في داخلنا، تصير حياتنا دنسة، حتى وإن مارسنا الطهارة والبتولية والصوم والصلاة والصدقة أو أية فضيلة كانت. يقول الكتاب: "مكرهة الربّ كل تشامخ القلب" (أم ١٦: ٥). لهذا يلزمنا التضييق على تشامخ النفس هذا، ولنقطع هذا الورم *tumor*، إن أردنا أن نكون أنقياء، ونتخلَّص من العقاب المُعَد للشيطان[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٤. عظمة الودعاء مخافة الرب

يُدَمِّر الرب عروش السلاطين،

ويُجلِس الودعاء مكانهم [١٤].

يقول الرسول: "وهو مات لأجل الجميع، كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام" (٢ كو ٥: ١٥). جاء الحديث هنا صدى لما ورد في (أم ٣: ٣٧) وفي (١ بط ٥: ٥-٦).

❖ جاء مسيحنا **لكي يُصَالِحنا مع الله (الآب) بتواضعه**، إذ ضللنا عنه بكبريائنا اللعين...

"الكبرياء هو بدء كل الخطايا" كذلك نقرأ: "أول الكبرياء للإنسان هو السقوط بارتداده عن الربّ" (راجع سي ١٠: ١٣، ١٤). لذلك ليته لا يعيش أحد لنفسه بل للمسيح، فيصنع إرادته، وليس إرادة الإنسان نفسه، ويثبت في حبه، ويفعل إرادة أبيه ويقطن في حُبِّه (يو ١٥: ١٠)[4].

القديس أغسطينوس

❖ أيوجد متكبر آخر؟ ليسمع: "يقاوم الله المستكبرين" (يع ٤: ٦). و"الكبرياء هو أول بدء الخطية"

---

[1] *On 2 Thessalonians, Homily 10.*

[2] *On John ,Homily 9 : 2*

[3] *Commentary on St. John, Catholic, Vol. 33, p. 88-95.*

[4] *Letters (131-164), Catholic, Vol. 20, p. 117-118.*

(راجع سي ١٠: ١٣). "مكرهة الرب كل متشامخ القلب" (أم ١٦: ٥)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يُقَدِّم لنا القديس مار يعقوب السروجي صورة رائعة لملك نينوى الوثني وهو ينقذ مملكته بإيمانه بروح التواضع والتوبة.

١. في تواضعٍ، لم يستخفّ بإنسانٍ أعزل من السلاح (يونان)، فقير ويبدو في مظهره كحقيرٍ.

٢. ترك الكرسي الملكي، مُقَدِّمًا التوبة في انسحاقٍ وتوبةٍ صادقةٍ.

٣. جمع الشعب ليشترك الكل، حتى الأطفال الصغار في المعركة.

٤. أدرك أن سلاح الرُضَّع والأطفال أعظم وأقوى من كل سلاح، فبهم يربحون المعركة، ويغتصبون مراحم الله العظيمة.

يُصَوِّر لنا القديس مار يعقوب السروجي لقاء يونان النبي مع ملك نينوى، قائلاً:

❖ قال يونان: ليس من وسيلة لإبطال الغضب، فقد اشتد الإثم وحلَّ الانقلاب ليحطمكم.

تَقرَّر الشر ووصلت النهاية المحتومة، اقترب الضيق، وصار السقوط على الباب.

أرسلني الرب، ذاك الجبار الحامل الخليقة، لكي أدعو بالانقلاب، وبصوت الفزع على أسواركم.

ذاك القوي الذي أرعب بأمره كل الخلائق، وينظر إلى الأرض وترتجف منه لأنه ربَّها.

ذاك الذي أَدَّب الأرض بمياه المجازاة وأباد الخطاة منها ولم ينجوا.

ذاك الذي شتَّتَ الشعوب في الأقطار منذ عهد بابل، وإذ أخطأوا ضده بلبل ألسنتهم وأهلكها...

لطمت هذه الأصوات ملك نينوى، وارتعب عندما سمع الأخبار المُخِيفة.

خاف من يونان أكثر من آلاف الجبابرة، وسقط الملك أمام ذلك الحقير.

قام من عرشه البهي، وطرح التاج عنه، ولبس مسوحًا، وأَعدَّ نفسه للتوبة.

رأى أن يونان لا يريد التراجُع فيما يقول، ففكَّر ليُبْطِلَ كلماته بالمتناقضات.

وجد أن النبي يُهَدِّدُ كثيرًا وبقوة، فشدَّ حقويه (حزم أمره) ليُواجِه الخطر ببأسٍ.

علم ماذا تتطلب تلك المعركة، فهيَّأ نفسه ليُقِيمَ الجبهة مثل باسلٍ.

أدرك إن هذه المعركة ليست كالمعارك المُعتادَة، فجمع شعبه، وحثَّهم على الجهاد.

جمع جنوده وصفَّهم للطِلْبَةِ، وموَّن صفوف الجنود بالصلوات ليَسِدَّ الثغرات.

جعل الرجال والنساء والأطفال يمسكون بالصوم، كل واحدٍ حسب قوته، ليصطفُّوا للقتال مُقابِل

---

[1] *On Acts of The Apostles, Homily 29*

الغضب.

قال الملك لجنوده مثل هذه الكلمات لجيوشه التي تجمَّعَتْ معًا لأجل الطلبة.

إن قتالاً جديدًا ندخل فيه غير مألوفٍ. لنوقظ نفوسنا على النصرة بالفضيلة.

أريحوا السلاح، واحملوا المسوح بدل الدروع، واتركوا السهام وليَفحْ منا صوت الطِلْبَات.

ليقم الأطفال والشيوخ، ويصطفّوا ضد الغضب، وليحارب الرجال والنساء ضد الهلاك.

ولا يتعطَّل عن المعركة حتى ابن يومٍ واحدٍ، لأن القتال شديد، فلا نظهر فيه الملل.

صبي لم يخطئ يهزم ألفًا في هذه المعركة، ليأتوا معنا لأن كل الحرب بهم تُربَح.

هوذا العبراني يُهَدِّدُ ويلوح ليُبِيدَنا، لنُجابِهَه لئلا يفرح بنا عندما يغلبنا.

رُضَّع اللبن يشتركون معنا هنا بين الصفوف ويسندوننا، إلى أن يُدفَعَ الشرُّ عنا.

في هذا القتال الصبيان أقوى من الرجال، والأطفال يُجاهِدون أسهل من الجبابرة.

الأطفال الذين لم يخطئوا يهزمون في هذه المعركة الألوف،

ويشتركون معنا، فبِهِم يصير النضال أفضل[1].

القديس مار يعقوب السروجي

يقتلع الربّ جذور الأمم،

ويغرس المتواضعين مكانهم [١٥].

عندما يموت إنسان مؤمن نشعر بأن ذكراه تدوم إلى الأبد، لأنه في حضرة الله، أما الأشرار سواء على مستوى الأفراد أو الأمم فينتهون كأن لم يكن لهم وجود من قبل.

❖ من المعتاد أن يُقَال عن المتكبر إن به أرواحًا متعالية. وهذا صحيح، لأن الريح تُدعَى روحًا. وبهذا كُتب: "النار والبرَد والثلج والضباب الريح العاصفة *Spirit of tempest*" (مز ١٤٨:٨) حقًا إن المتكبر يُدعَى منتفخًا، كما لو كان متعاليًا مع الريح. وهنا يقول الرسول: "العلم ينفخ، ولكن المحبَّة تبني" (١ كو ٨:١)... لنفهم بالحقيقة أن المساكين بالروح هم المتواضعون وخائفو الله، أي الذين ليس لديهم الروح التي تنتفخ. بالحق ليس للتطويبات أن تبدأ بغير هذه البداية، مادامت موضوعة لأجل بلوغ الحكمة العالية "رأس الحكمة مخافة الرب" (مز ١١١:١٠)، ومن الناحية الأخرى "الكبرياء أول الخطايا" (راجع سي ١٠:٥). إذن ليبحث المتكبر عن الممالك

---

[1] الميمر ١٢٢ على يونان النبي (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني)؛ الميمر ١٢ على يونان النبي وتوبة أهل نينوى (قبطي)؛ يونان النبي والنداء إلى نينوى، نقلها إلى العربية الأب إميل أبي حبيب الأنطوني، ص ١٨١–١٨٩.

الأرضية ويحبها، ولكن "**طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات**"[1].

القديس أغسطينوس

يقلب الربّ بلدان الأمم،
ويبيدها إلى أسس الأرض [١٦].

يزعزع بعضها، ويُبيد سكانها،
ويُزيل من الأرض ذكرهم [١٧].

لم يُخلَق الكبرياء لأجل الناس،
ولا حدّة الغضب لأجل مواليد النساء [١٨].

خُلِق الإنسان على صورة الله في وداعةٍ وتواضعٍ. أما ما حلّ بنا من كبرياء، فهو من تهاوننا واعتزالنا نعمة الله.

٥. الكرامة الحقيقية ومخافة الرب

أي نوع من النسل مُكرَّم؟ نسل الإنسان.
أي نوع من النسل مُكرَّم؟ هؤلاء الذين يخافون الربّ. أي نسل لا يُكرّم؟ نسل الإنسان.
أي نسل لا يُكرّم؟ المُتعدُّون على الوصايا [١٩].

إن كان أمام الإنسان مخافة الرب، ينعم بالكرامة بالتصاقه بالرب، أو أمامه تعدَّى الوصية الإلهية، فيجلب لنفسه الهوان بانفصاله عن الله. إذ كان نوح خائفًا الربّ (عب ١١: ٧) تمتع هو وأسرته بالخلاص من الطوفان، بل ودخل في عهدٍ مع الله ألاَّ يحدث طوفان يدمر الأرض كلها.

❖ البُعْد عن العمل بوصايا الله هو بُعْد عن الله؛ وهذا هو جوهر الخطيئة التي هي انفصال عن الله، وبُعْد عن الوحدة معه[2].

القديس باسيليوس الكبير

يُكرَم الرئيس بين الإخوة،
وخائفو الربّ يُكرَمون في عينيه [٢٠].

مخافة الربّ تتقدَّم طلب السلطة،

---

[1] *Our Lord's Sermon on the Mount, 1:1:3.*

[2] راجع الأب إلياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣١٣. عظة ٣: ١.

أما العنف والكبرياء ففيهما فقدانها [٢١].

الغني والوقور *eminent* والفقير على قدم المساواة،
فخرهم هو مخافة الرب [٢٢].

عظمة الإنسان وكرامته ليس في مقتنياته ولا في مركزه أو قدراته، وإنما في مخافته للربّ وتقواه وحكمته، مهما بلغ فقره.

❖ ليس الفقر مصدرًا دائمًا للفخر، بل الفقر الاختياري من أجل الإنجيل. هذا هو الكمال! كثيرون افتقروا للغِنَى، لكنهم يشتهونه في أعماقهم. لم يخلصوا لأنهم فقراء، ونيَّتهم الداخلية تدينهم. ليس سعيدًا من يفتقر في كل شيءٍ، بل الذي يعتبر الوصية هي أفضل من كنوز العالم. هكذا يُطوِّبه الرب: "طوبى للمساكين بالروح" (مت ٥: ٣). لا للذين يفتقرون إلى الغِنَى، بل الذين اختاروا الفقر من داخل نفوسهم. فلا تأتي السعادة إلا لمن اختار ذلك. فكل فضيلة، خاصةً فضيلة الفقر هي فعل اختياري[١].

القديس باسيليوس الكبير

ليس من العدل أن يُهَان الفقير العاقل،
ولا من اللائق أن يُكرَم الرجل الخاطئ [٢٣].

النبيل والقاضي والحاكم سيُكرَّمون،
وليس أحد منهم أعظم ممن يخاف الربّ [٢٤].
الأحرار يُقدِّمون الخدمة لخادم حكيم،
والرجل العاقل لا يتذمّر من ذلك [٢٥].

يقول سليمان الحكيم: "العبد الفطن يتسلَّط على الابن المخزي، ويقاسم الإخوة الميراث" (أم ١٧: ٢). ويقول الرسول بولس: "ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وأنثى، لأنكم جميعًا واحد في المسيح يسوع" (غل ٣: ٢٨). وأيضًا: "حيث ليس يوناني ويهودي، ختان وغرلة، بربري وسكيثي، عبد وحر، بل المسيح الكل وفي الكل" (كو ٣: ١١).

❖ "من دُعي في الربّ وهو عبد فهو عتيق الربّ" (١ كو ٧: ٢٢). الشخص الذي يخلص من الخطايا التي هي بالحق تشير إلى "العبيد"، يصير عتيق الربّ. لأن من يسلك بغير حكمة هو

---

[١] عظة على المزمور ٣٤.

عبد...

هذا رأي القدامى أيضًا، الذين كانوا يدعون الحكماء أحرارًا، وكل غير الحكماء عبيدًا. قيل: "الأحرار يخدمون العبد الحكيم" (راجع سي ١٠: ٢٥). لذلك من يؤمن، وإن كان عبدًا إلى حين يصير عتيق الربّ، لأن بإيمانه بالمسيح يسلك بالحكمة. الخطايا تخلق عبيدًا مثل حام بن نوح، الذي صار عبدًا من أجل خطيته ونقص التعقُّل (تك ٩: ٢٢-٢٤). وحين ينال أحد مغفرة الخطايا يصير متحررًا[1].

الأب أمبروسيستر

٦. الكرامة والتواضع

لا تُظهِر حكمتك عند القيام بعملك،

ولا تتعاظم في وقت شِدَّتِك [٢٦].

❖ الذين يقضون حياتهم في جهود صغيرة ومتواضعة، يصيرون أحرارًا من المخاطر، وليسوا في حاجة إلى احتياطات خاصة، ويجدون الطريق المؤدِّي إلى الله بسهولة، وذلك بانتصارهم الدائم على الشهوات[2].

القديس أنطونيوس الكبير

الذي يعمل وهو يملك الكثير،

أفضل ممن يتفاخر، لكنه في حاجة إلى الخبز [٢٧].

مهما بلغ غِنَى الإنسان فهو محتاج إلى العمل. حسب القديس باسيليوس الكبير العمل ضروريًا، للأسباب التالية:

١. العمل وصية إلهية وهِبَة إلهية، إذ خلق الله الإنسان ليعمل (تك ٢: ١٥). وبدون العمل يفقد الإنسان طعم الحياة. يؤكِّد القدِّيس باسيليوس أنه لا عذر للمتكاسل الذي يعيش في البطالة، بينما هو قادر على العمل. يليق به أن يتشبَّه بتلك الأسماك التي تقطع البحار بطريقة عجيبة طلبًا للطعام[3].

٢. يساعدنا العمل على صُنْعِ الخير، فنتقاسم الموارد مع الذين يفتقرون إليها. يليق بالمؤمن أن يعمل لا ليأكل فحسب، بل ولأجل بنيانه الروحي، ويُقَدِّم من عمل يديه للرب نفسه خلال المحتاجين.

٣. من لا يعمل لا يستحق طعامه (مت ١٠: ١٠؛ ٢ تس ٣: ١٠).

---

[1] *Commentary on 1 Cor. 7: 22: 1.*

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ٢٣.

[3] *Hexamaeron 7:5.*

٤. يدفعنا العمل إلى النشاط.

❖ من كان قادرًا فليعمل **ويُعطِ المحتاجين**، فمن كان غير راغبٍ في العمل يُدَان، ويُحسَب غير أهلٍ حتى أن يأكل (مت ١٠: ١٠؛ أع ٢٠: ٣٥)[1].

❖ يجب علينا عند الإمكان أن **نعمل**، لنتقاسم الموارد مع الذين يفتقرون إليها[2].

❖ إن النهي عن الاهتمام الزائد بحاجات جسدنا لا ينفي الاهتمام والعمل مُطلَقًا.

فقد بقي علينا أن نعمل لأنفسنا، لا للطعام الفاني، بل للطعام الباقي للحياة الأبديَّة (يو ٦: ٢٧)، لا لحاجاتنا الجسديَّة فقط، بل لنُسعِف القريب أيضًا (أف ٤: ٢٨). وسيقول لنا الرب في يوم الدين: "جُعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني..." (مت ٢٥: ٣٥). ويُعَدّ ما نفعله مع من كرَّسوا أنفسهم له كأنَّنا نعمل معهم، ويُعطَى لنا عن ذلك الملكوت السماوي. وبالعكس سيُعاقَب الذين لم يعملوا ولم يتعبوا ليساعدوا الضعفاء ويخدموا القريب (أع ٢٠: ٤، ٣٥)، ويرسلهم إلى العذاب الأبدي (مت ٢٥: ٤١-٤٦)[3].

القدِّيس باسيليوس الكبير

٧. الكرامة الحقيقية

يا بني، مَجِّد نفسك *your soul* بالتواضع،
وأعطها من الكرامة قدر استحقاقها [٢٨].

في بستان جثسيماني سجد الربّ ليستلم كأس الألم من يد الآب، مؤكدًا لنا أننا فيه نطلب المجد الذي يعدّه الله لنا "مجدني..." (يو ١٧: ٥). وكما يحذرنا ابن سيراخ من الاعتداد بالذات، يحذرنا أيضًا من صغر النفس الذي يدفعنا إلى حالةٍ من الإحباط.

❖ عندما تشتِم، فأنت الذي تُشتَم. أغلب الناس يعرفون هذا جزئيًا، عندما يقولون الواحد للآخر: "هلم نبتعد، لا تهين نفسك". لماذا؟ لأن الفارق كبير بينك وبينه. فإنك إذ تشتمه كثيرًا، يحسب هذا رصيدًا له. ليتنا نضع هذا في كل الحالات، ونرتفع فوق الشتائم. سأخبرك كيف هذا.

هل يليق بنا الدخول في نزاع مع من يرتدي الأرجوان. لنحسب إننا إذ نشتمه إنما نشتم أنفسنا، إذ نتأهَّل أن نكون في خزي. أخبرني ماذا تعني بهذا؟ عندما تكون مواطنًا للسماء ولك الفلسفة

---

[1] *Morals Rule 48:7.*

[2] *Moralia, 48, c 1.*

[3] *Regulae brevius tractatae Question 207.*

العلوية، هل تهين نفسك مع ذاك الذي يفكر في الأرضيات؟ (في ٣: ١٩) فإنه وإن كان يملك ثروات لا حصر لها، وبالرغم من أن له سلطان، مع هذا لا يعرف الصالح الذي في هذه الأمور. لا تشتم نفسك بشتيمتك له... كرِّم نفسك لا إياه. ألا يوجد مثل هذا: أن من يكرَّم إنما يكرم نفسه. بسبب صالح، فإن من يكرم لا يكرم الغير بل نفسه. اسمع ما يقوله الحكيم: "مَجِّد نفسك بالكرامة من ذلك المصدر" (راجع سي ١٠: ٢٨)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

من الذي يُبَرِّر إنسانًا يخطئ إلى نفسه *his soul*؟

ومن يكرم إنسانًا أهان حياته؟ [٢٩]

يحذرنا ابن سيراخ من استخفاف الإنسان بمن وهبه الله قدراتٍ ومواهبٍ وإمكانياتٍ.

يُكرَم الفقير لأجل معرفته،

ويُكرَم الغني لأجل غناه [٣٠].

يوجد ما يُكرم به الفقير ألا وهو المعرفة والحكمة والتقوى.

إذا أُكرِم إنسان وهو في فقرٍ، فكم وهو في غِنَى؟

وإن أُهين إنسان وهو في غِنَى، فبالأكثر وهو في الفقر؟ [٣١]

شعر رائع موسيقي لا يحتاج إلى تفسير. فإن من ينال الكرامة وهو فقير بسبب حكمته، فماذا لو صار غنيًا. ومن أهين بسبب جهالته وشره وهو غني، فماذا لو صار أيضًا فقيرًا؟!

---

[1] *On Hebrews , Homily 25: 5*

هب لي روح القيادة الحكيمة!

❖ إلهي، وأنت ملك الملوك، نزلت لتُقِيم حتى من الأطفال قادة مملوئين حبًا وحكمة.
خلقت البشر لا ليكون من بينهم من هو عبد، بل يحمل الكل أيقونة القيادة الحكيمة!
كل من يلتصق بك يصير ملكًا، له سلطان على أعماقه.
وبالحب حتى الأطفال الصغار يصيرون أبطالاً ناضجين.
عَلِّمني، دَرِّبني، يا كلي الوداعة والتواضع.
أَفِض بنعمتك في داخلي، فأَتمتَّع بروح الرئاسة الجذَّابة!
قَدِّسني، فتصير أورشليمي الداخلية مُقَدَّسة بك. لتُقِم ملكوتك في داخلي!

❖ أَقمت من الصبي داود ملكًا، ويشتهى كثيرون أن يُحسَبوا أبناء داود القائد الناجح.
وتشامخ شاول الملك، وامتلأت أعماقه بروح الانتقام من ذاك الذي أنقذه مرات ومرات!
أفسد أسرته ومات هو وبنوه في عارٍ، وانسحب العرش من تحته.

❖ احفظني لئلا أتهاون مع بيلشاصر ملك بابل (دا ٥)،
الذي انهار هو ومملكته في عارٍ عجيب!
حقًا سمحت بإقامته ملكًا فاسدًا لشعبٍ فاسدٍ، حتى تتأدَّب الأمم عبر العصور.
حكيم أنت يا ربّ، يا ضابط التاريخ، تُرسِل لكل أمةٍ قائدًا لبنيانها أو لتأديبها!

❖ هب لي روح الجدّية بلا تهاون، فتمتد يدك وتحملني بنجاحٍ، في طريق الحق.
استمع داود لصوتك خلال أبيجايل الحكيمة.
باركها داود، لأنها منعته من الانتقام لنفسه من رجلها نابال الجاهل.
هب لي يا ربّ أن أنصت مع داود إلى شريعتك أيا كان المتحدث بها!
لا يتسلَّل الغيظ إلى قلبي لمن يُسَبِّب لي ضررًا. ولا تسمح لفمي أن ينطق بكلمة إهانة.
لتقُد بنفسك قلبي وفمي، ولتضع حراسة مُشدَّدة عليهما. قَدِّسهما، لأشهد لك يا أيها القدوس!

❖ لتنزع عني روح الغضب، وتهبني من وداعتك! لتُحَطِّم فيَّ كل كبرياء، فأَتمتَّع بتواضعك!
ليحلّ ملكوتك في داخلي، وتتجلَّى أنت في أعماقي.
أشتهي أن أرى كل طفلٍ ملكًا وقائدًا. يطأ تحت قدميه عدو الخير وكل قواته،

ولا يستطيع لص أن يسرق مجده!

❖ أَعنّي حتى لا أَفقد عطيتك لي، فإنك تريدني قائدًا محبًا ومتواضعًا وعفيفًا.
انزع عني البغضة والكبرياء ومحبة المال.
خلقتني من تراب ورماد، ووهبتني أن يرتفع قلبي إلى سماواتك! لألتصق بك، ولا أَرتدّ عنك!
لتسحب أعماقي إلى سماواتك، فلا أَتمرَّغ في وحل هذا العالم.
لا تنزع عني نعمتك التي سندت الطغمات السماوية.
لئلا تسحبني الخطية إلى الهاوية، وأَنضمّ إلى قوات الظلمة.

❖ أنقذني من طاغية الكبرياء الذي هو بدء كل خطية،
وهبني أن أُتَمِّم إرادتك المقدسة لا إرادتي الشريرة.
هب لي القلب الغيور المتواضع، فلا أسقط تحت العقوبة مع إبليس المتصلف.

❖ هب لي ما أعطيته لملك نينوى الأممي.
في تواضعٍ لم يستخفّ بنبيك يونان البسيط في مظهره.
ترك كرسي المملكة وارتدى المسوح في توبة صادقة.
أدرك أن لا خلاص إلاَّ بشركة الشعب مع القادة،
حتى الأطفال اشتركوا في الصراخ إليك.
آمن الملك الوثني أن صراخ الأطفال والرضّع البسطاء أقوى من كل سلاح!
هب لي بروح التواضع أن أطلب مع كل الشعب مراحمك العظيمة.

❖ هب لي ألاَّ أعرف الشيخوخة،
أعمل لحسابك وبنعمتك حتى النفس الأخير.
أعمل وأنا على فراش الموت!

القسم الثاني

الأسرة والأصدقاء

[١١-٢٢]

الأسرة والأصدقاء [1]

يمكن أن يُدعَى سفر ابن سيراخ كتيبًا في الحكمة حسب فكر الله لممارسة الحياة المرضية لديه.

يستعرض باهتمامٍ العلاقات المتبادلة بين الرجال والنساء، خاصة بين الزوجين وبين أعضاء الأسرة وأيضًا بين الأصدقاء. والعجيب أنه يعالج بعض الأمور منذ حوالي ٢٢٠٠ عامًا، ولا زالت كتاباته يمكن أن تسند الكثيرين حتى اليوم.

الزواج أو الحياة الأسرية هي الأساس الذي يقوم عليه المجتمع. إن انحلّت ينحل معها المجتمع، وإذا كانت الزيجات والعلاقات الأسرية خاصة بالنسبة الأطفال مصونة يكون المجتمع قويًا.

لا تستطيع السلطات ولا القوانين أن تبثّ روح الحب والأمان في الحياة الزوجية والأسرية بدون الالتجاء إلى نعمة الله وإدراك خطة الله من جهتنا. فقد أقام الله بنفسه الأسرة كأول مؤسسة روحية اجتماعية. وإلى الآن يُسرّ الإنسان أن يحضر أو يشترك في الاحتفال بالزواج ويشعر بالانتماء إلى الأقرباء والأصدقاء.

يعتزّ المتزوج السعيد بالاحتفال السنوي أو اليوبيل الفضي أو الذهبي للزواج.

اهتم ابن سيراخ باعتزاز الزوج بامرأة شبابه، حتى يبقى أمينًا لسلامة بيته، كما حذَّر كثيرًا من العوامل التي قد تجتذب الشخص نحو الزنا، فيُفسِد قدسية أسرته.

---

[1] *J. Liesen & L.W. Manhardt: Wisdom, Steubeniville, O: Emmaus Road Publishing, Ch. 19, Sirach 11-22.*

الأصحاح الحادي عشر

الحكمة الحقيقية والتدبير السليم

الحكمة والتدبير الصالح

فضيلة الاعتدال

١. الحكمة الحقيقية والتقييم الشكلي [١-٦]

٢. الحكمة الحقيقية وعدم التسرُّع [٧-٨]

٣. الحكمة الحقيقية والعمل بلا تدبيرٍ [٩-١١]

٤. الحكمة الحقيقية والعون الإلهي [١٢-١٧]

٥. التدبير الحكيم والعمل الدائم [١٨-٢٤]

٦. الحكمة الحقيقية وانتظار المنتهى [٢٥-٢٨]

٧. الحكمة الحقيقية والحذر من الشرير [٢٩-٣٤]

الحكمة والتدبير الصالح

افتتح ابن سيراخ هذا القسم بهذا الأصحاح حيث يُقَدِّم لنا مبادئ العلاقات في المجتمع بوجه عام وبين أعضاء الأسرة والأصدقاء على وجه الخصوص.

فضيلة الاعتدال

اهتم كثير من الآباء بفضيلة الاعتدال بكونها طريق الإيمان الملوكي، من بين الآباء الذين تحدَّثوا عنها القديس باسيليوس الكبير.

لا يتطلَّع سيراخ إلى الاعتدال أنه خاص بالصوم والصلاة والعبادة فحسب، إنما هو طريق يمسّ حياة المؤمن من كل جوانبها؛ وفيما يلي أمثلة للسلوك باعتدال:

١. لا تذم أحدًا قبل الفحص والتفكير وعندئذ تقوم بالتوبيخ أو الإرشاد [٧]. الاعتدال إذن يعني عدم التطرُّف، فلا يقف الإنسان مُتفرّجًا في غير مبالاة بالنسبة لإنسانٍ مُخطِئ، ولا يتسرَّع وينفعل موبخًا إياه، إنما ليفحص الأمر ويفكر فيما هو لبنيان الشخص دون أن يُعثِرَه.

٢. بحكمة يلتزم الإنسان آداب الحوار، فلا يُقاطِع أحدًا أثناء حديثه، ولا يُجاوِب أحدًا بتسرُّعٍ. بحكمة وبروح الاعتدال يعرف متى يتكلم وماذا يقول، وما هي حدوده في الحديث [٨]. أيضًا لا يجادل في أمرٍ لا يعنيه، إذ فيه مضيعة للوقت، وقد ينجرف في أحاديث ليست للبنيان. أيضًا متى جلس خطاة للقضاء، فلا يشاركهم حتى لا يلتزم بمجاراتهم في أحكامٍ جاحفة [٩].

٣. عدم الارتباك بأعمالٍ كثيرة، فمن جهة لا تلجأ إلى الخمول والكسل، ومن جهة أخرى لا ترتبط بأعمالٍ كثيرة فلا تنجح في تحقيقها [١٠].
٤. لتعمل بأمانة واجتهاد، مُدرِكًا أن النجاح والفشل من عنده أو بسماحٍ منه؛ كذلك الحياة والموت.
٥. من الغباوة أن يترقَّب المؤمن الموت بائسًا (١٤: ٣-١٢)، بل يترقَّبه بفرحٍ وبروح الرجاء [٢٠].
٦. ما يشغل المؤمن ليس مظهر النجاح، إنما الأمانة في العمل حتى الشيخوخة. لا تثبط همة شخصٍ لشعوره أنه لا يعود ينال ثمرة عمله وهو شيخ، فإن الله يكافئه حتى في يوم موته [٢٦].
٧. يدرك المؤمن حدود كل تصرفٍ، فيعرف من الذي يسمح له أن يدخل إلى بيته [٢٩].
٨. لتكن الثقة في الله والاعتماد عليه مرافقًا لك حتى النهاية.
٩. متى حلَّت بنا خيرات ننسى أيام الضيق، وفي وقت الضيق ننسى ما نلناه من خيرات سابقًا [٢٥]. بينما يليق بنا حين نتمتَّع بالبركات ألاَّ ننسى فترات الضيق، فنشكر الله على بركاته، ونشارك المتألمين متاعبهم. وفي أيام الضيق لا ننسى أعمال الله معنا في الماضي، فندرك أنها لحظات تعبر، فنقدم الشكر لله المعتني بنا، وننتفع بالضيق حيث نتمتع بالصبر مع الثقة في رعاية الله.

١. الحكمة الحقيقية والتقييم الشكلي

حكمة الإنسان المتواضع ترفع رأسه،
وكرسيّه سيكون بين العظماء [١].

أخطر ما في العلاقات الاجتماعية بوجه عام هو تقييم الأشخاص بناء على المظهر الخارجي دون دراسة دقيقة لحقيقة شخصياتهم. إذ كثيرًا ما ينخدع الإنسان بالجمال الجسدي ورقة الصوت وأناقة الملبس والمستوى المادي للشخص أو مركزه الاجتماعي. كان يليق بالشخص أن يتطلَّع إلى أخيه أو صديقه من جهة حكمته الحقيقية.

حكمة الشخص المتواضع أشبه بجواز سفر به يعبر الحياة سواء كان في فقرٍ أو غِنَى، في ضيقٍ أو فرجٍ، في مرضٍ أو صحةٍ. ينطلق لتُجلِسه الحكمة الحقيقية المتواضعة وسط العظماء. أما الأحمق فيظن بمقتنياته وغناه ومواهبه ودراساته وقوته ومظهره الخارجي أنه قادر أن يقتحم مجالس العظماء في العالم، بل ويجلس في مُقَدِّمتهم، ولا يدري أن ما يفعله يكشف عن ضعفاته وحماقته وكبريائه، فإذا به ينحدر في عيني الله وأعين الكثيرين ليجلس كما في مزبلةٍ. هذا ما دعا الرسول بولس أن ينصحنا بأنه لا يجوز للإنسان أن يرتئي فوق ما ينبغي، وإنما إلى التعقُّل (رو ١٢: ٣).

من يقتني الحكمة ينطلق بروح التواضع في آخر الصفوف مع ربِّ المجد يسوع الذي صار عبدًا وصُلِب بين لصّين أثيمين، فيحمله رب المجد، ويدخل بقلبه وفكره إلى المقادس السماوية. أما من

يسلك بكبرياء في حماقة فينهار مع إبليس ما لم يرجع إلى نفسه بالتوبة.

إذ خلَّص الله حنة من المذلّة التي عانت منها بواسطة ضرّتها فنَّة، سبَّحته قائلة: "قسيُّ الجبابرة انحطمت، والضعفاء تمنطقوا بالبأس... الرب يميت ويحيي، يهبط إلى الهاوية ويصعد. الرب يُفقر ويُغني، يضع ويرفع. يُقيم المسكين من التراب، **يرفع الفقير من المزبلة للجلوس مع الشرفاء**، ويملكهم كرسي المجد، لأن للرب أعمدة الأرض، وقد وضع عليها المسكونة (١ صم ٢: ٤-٨).

❖ اسهر وكن ثابتًا في الرب. فإذا حفظت هذه الأقوال تصير صالحًا في كل شيء. لأنه مكتوب المجد يتقدَّم أمام المتضعين (أم ٢٣:٢٩)؛ وأيضًا: "حكمة المتواضع ترفع رأسه" (سي ١:١١)؛ وأيضًا: "إلى هذا أنظر: إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامي" (إش ٢:٦٦).

❖ مكتوب أيضًا: "تفرح العظام المنسحقة" (مز ٨:٥٠ سبعينية)؛ وأيضًا: "الرجل المتواضع تُقبل صلاته سريعًا" (راجع سي ١٧:٣٢). ومكتوب أيضًا: "أُنظر إلى ذُلّي وتعبي واغفر لي جميع خطاياي" (مز ١٨:٢٥). فانظر مقدار (عظمة) التواضع. إذا اقتنيت التواضع فقد اقتنيت كل شيءٍ.

القديس أنبا بولا الطموهي عن التواضع

لا تمدح الرجل لجمال منظره،

ولا تنفر من الإنسان لمظهره [٢].

لا يقوم المجد الحقيقي على المظهر الخارجي الذي كثيرًا ما يخدع الإنسان، وذلك في اختيار شريك الحياة أو الموظفين للعمل معه، مع أن التاريخ يكشف عن خداع المظاهر. لا نتعلَّم من أخطاء الأجيال السابقة.

دُهِش صموئيل النبي من جمال شاول بن قيس وهيئته، إذ قيل: "وكان له ابن اسمه شاول شاب حسن، ولم يكن رجل في بني إسرائيل أحسن منه، من كتفه فما فوق، كان أطول من كل الشعب" (١ صم ٩: ٢). "فقال الرب لصموئيل: لا تنظر إلى منظره وطول قامته، لأني قد رفضته، لأنه ليس كما ينظر الإنسان، لأن الإنسان ينظر إلى العينين، وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب" (١ صم ١٦: ٧)

❖ لماذا تضطرب عند وجود نقص في الجمال، مادام هذا ليس مُخزيًا؛ اسمع قول الحكيم: "لا تمدح رجل لجماله، ولا تنفر من الإنسان لمنظره" (راجع سي ١٠: ٢). بالحري ليكن الله معجبًا (بك)، الفنان الأعظم، لا الإنسان، الذي ليس له أي فضل في خلقته التي هو عليها. أخبرني ما هي منافع الجمال؛ لا شيء. إنه يُعَرِّض صاحبه لتجاربٍ كبرى خطيرةٍ وحوادثٍ مؤسفةٍ وشكوكٍ. فمن

ينقصه الجمال يهرب منه الشك، ومن يقتنيه يجب أن يتحفَّظ للغاية بطريقة غير طبيعية، ويُقَدِّم تقريرًا رديئًا. وما هو أشرّ من ذلك شك الزوج الذي ينال متعة أقل بتمسكه بجمالها، كما يعاني من متاعب الغيرة عليها. يصير جمالها باهتًا في عينيه من الاحتشام، وتعاني هي في شخصيتها من الضعفاء وأصحاب اللهو والخلاعة، فتنهار نفسيتها وتمتلئ غرورًا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

النحلة صغيرة في الخلائق الطائرة،

ولكن ثمرها هو الأول بين الأمور الحلوة [٣].

يرى **القديس أغسطينوس** أن النحلة تشبه بعض الحشرات الطائرة من جهة المظهر الخارجي[2]. لكن شتان ما بين النحلة التي تُقَدِّم لنا عسلاً وبين بعض الحشرات التي تُسَبِّب لنا أمراضًا.

النحلة أيضًا في مظهرها حشرة خطيرة تلدغ الإنسان وتُسَبِّب له آلام، بينما تُقَدِّم للبشرية غذاءً مفيدًا، يُعتبَر ثروة للأمم لا يُستهَان بها. ويرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن الحديث هنا للزوج الذي يرى أن زوجته ينقصها الجمال، متطلعًا إلى غيرها، إذ يقول:

❖ "لكي يُقَدِّسها، مطهرًا إياها بغسل الماء بالكلمة لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن أو أي شيء من مثل ذلك، بل تكون مقدسة بلا عيب" (أف ٥: ٢٦-٢٧). بالغسل أو في الجرن غسلها من الدنس. وبالكلمة، أية كلمة؟ "باسم الآب والابن والروح القدس" (مت ٢٨: ١٩). ليس فقط زيَّنها، إنما جعلها "مجيدة، لا دنس فيها ولا غضن أو أي شيء من مثل ذلك". ليتنا إذن نطلب هذا الجمال لأنفسنا، ويمكننا أن نُوجده.

لا تطلب من يد زوجتك أمورًا تعجز أن تقتنيها. ألا ترون أن الكنيسة لها كل شيء في يد ربّها؟ به صارت مجيدة، وبه صارت طاهرة بلا لومٍ؟

لا تُعطِ ظهرك لزوجتك بسبب تشويه فيها. اسمع ما يقوله الكتاب: "النحلة الصغيرة بين الحشرات الطائرة، أما ثمرها فهو أفضل من كل حلاوة" (راجع سي ١١: ٣). هي من صُنْعِ الله. لا تتهمها، بل تتهم خالقها، ماذا في استطاعة المرأة أن تفعله. امدحها لا على جمالها، لأن المدح يقوم على الجمال الخاص بالنفس... لتبحث عن جمال النفس. اقتدِ بعريس الكنيسة. الجمال الخارجي مملوء بالخداع والانحلال العظيم، يدفع الناس إلى الحسد، وهو يدفعك إلى توقُّع أمور

---

[1] *Homilies on 1 Timothy, hom. 4.*

[2] *Tract. In Joannem 1: 14.*

بشعة[1].

❖ سليمان أيضًا يفعل أمرًا مُشابِهًا، فيعود إلى من يعيش كما في حياة خاملة ويُواجهه بالنملة (أم ٦: ٦-٨)، وهنا يواجهه بالنحلة[2].

❖ إن رأيت إنسانًا ضخمًا له صفات حسنة، وطويلاً يفوق الآخرين في طول أطرافه، لا تعجب منه حتى تتأكَّد من حالة نفسه. يليق بنا أن نعلن عن الإنسان ونُطَوِّبه لا على جمال مظهره، بل الجمال الذي يتعلَّق بالنفس. كان داود قليلاً في جسمه، وقصيرًا في هيئته، ومع كونه قصيرًا هكذا وقليل الجسم، وذراعاه عاريتين (بلا أسلحةٍ)، أنزل بجيشٍ عظيمٍ بضربةٍ واحدةٍ، ذلك الجسم الذي كالبرج، بدون أن يقذف سهمًا، أو يستل سيفًا من غمده، إنما فعل هذا كله بحصاةٍ صغيرة. لهذا نُصِحنا هكذا: "لا تمدح الرجل لجماله... النحلة صغيرة في الخلائق الطائرة، ولكن ما تجنيه رأس كل حلاوة" (راجع سي ١١: ٢-٣)[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

لا تفتخر بثيابك الرائعة،

ولا تُعظِّم نفسك في اليوم الذي تُمجَّد فيه،

فإن أعمال الرب عجيبة، وأفعاله خفيّة عن البشر [٤].

أحيانًا يُمكِن اكتشاف شخصية الإنسان من ملبسه، غير أن البعض يُبالِغ في ارتداء ثيابٍ فاخرة ليخفوا شخصياتهم الهزيلة. بعض الفلاسفة العظماء ورجال العِلْم والمُكرَّسين للخدمة لا ينشغلون كثيرًا بملابسهم. هؤلاء يكتفون ببساطة المظهر دون ابتذال أو إهمال مُلفِت للنظر. من يدرك قيمة جمال نفسه التي يزينها روح الله القدوس، يشعر بالشبع الداخلي، ولا ينتظر كلمة مديح لمظهره الخارجي.

❖ ينصحنا مُعَلِّمنا جليًا: "لا تفتخر بالثياب التي ترتديها، ولا تترفَّع في يوم مجدك، إنها لا تدوم" [٤]. وبأكثر وضوح يتكلم ساخرًا بالذين يرتدون الثياب الناعمة، قائلاً في الإنجيل: "هوذا الذين في اللباس الفاخر والتنعم في قصور الملوك" (لو ٧: ٢٥). يقصد قصور الأرض هذه التي تتفتت حيث يقطنها البطلان والمجد الفارغ والتملق والخطأ. أما الذين يخدمون البلاط السماوي الذي لملك

---

[1] *Homilies on Ephesians, Hom. 20.*

[2] *Commentary on Isaiah 1: 1-3.*

[3] *Concerning The Statues, Homily 17 : 14*

الجميع، فيقدسون أجسامهم التي هي الثياب البالية لنفوسهم، ويُلبسونها عدم الفساد[1].

❖ لنسعَ وراء ذلك المجد (الحقيقي)، وليس ذاك الذي فيه شيء جليل. لنترك مجد العالم كأمرٍ تافهٍ. "لا تفتخر بالثياب التي ترتديها" (راجع سي ١١: ٤). حقًا إن الراقصات والزانيات والممثلات يرتدين ثيابًا زاهية وثمينة للغاية أكثر منك. بجانب أن هذا الافتخار من ذلك النوع الذي يهاجمه العث، فإنه يمكن أن يسلبك بهجتك[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

كثير من الطغاة يجلسون على التراب،
ولكن الذي لم يكن في الحسبان يلبس التاج [٥].

كثير من الحكّام يلحقهم أشدّ الهوان،
والمُمجَّدون يُسلَّمون إلى أيدي آخرين [٦].

"يذهب بالمشيرين أسرى، ويحمِّق القضاة. يحل مناطق الملوك، ويشد أحقاءهم بوثاق. يذهب بالكهنة أسرى، ويقلب الأقوياء. يقطع كلام الأمناء، وينزع ذوق الشيوخ. يلقي هوانًا على الشرفاء، ويرخي منطقة الأشداء" (أي ١٢: ١٧-٢١).

٢. الحكمة الحقيقية وعدم التسرُّع

لا تدن قبل أن تفحص الحالة،
بل افهم أولاً بعد ذلك احكمْ [٧].

لا تجاوب قبل أن تسمع،
ولا تقاطع متكلّمًا أثناء حديثه [٨].

❖ لا تسمحوا لإثارة المنازعات بحُبّنا للنصرة الفارغة أن تزحف في وسطنا. هدفنا استبعاد كل نزاعٍ. بالتأكيد هذا هو معنى العبارة: "سلام لكم" (يو ٢٠: ١٩، ٢١)، "لا تجاوب قبل أن تسمع" (١١: ٨). الصوت الغامض هو صوت إنسان أنثوي، على أي حال صوت الإنسان الضابط النفس معتدل في نبرته، فلا يكون عاليًا جدًا ولا كثير الكلام، ولا ينطق بسرعة، ولا يسهب في الكلام[3].

---

[1] *Christ the Educator, FOTC, Vol. 23, p. 182-186, Article 109.*

[2] *On 1 Timothy, Homily 2.*

[3] *Paedagogus, chapter 7.*

٣. الحكمة الحقيقية والعمل بلا تدبير

لا تجادل في أمر لا يخصك،

ولا تجلس مع الخطاة عند حكمهم في قضيةٍ [٩].

بروح التمييز يدرك إنسان الله حقيقة التزاماته، فيعمل بحكمة في حدود مسئولياته، عوض إفساد وقته فيما لا يخصه. هنا يدعونا إلى تحاشي العمل مع فئتين مُفسِدتين للوقت وهما: **فئة محبّي الجدل** في أمور لا تخصنا. مثل تحليل الأحداث السياسية والجدل فيها، مع عجزه حتى عن التعبير عن رأيه لعدم معرفته الحقائق. والفئة الثانية مجاراة القضاة الظالمين في نوع من الرياء ومحاباة الوجوه.

يا بني، لا تدع عملك يتضمن أمورًا كثيرة،

فإنك إن أكثرت منها، لا تستمر بدون عقابٍ،

حتى إن تقدَّمت فيها، فإنك لا تدركها، ولا تنجو بالهرب [١٠].

يليق بنا ألاَّ ننشغل بكثرة الأعمال والإنجازات، بل أن نلتزم بالأمانة حتى نسمع الصوت الإلهي: "كنت أمينًا في القليل، أقيمك على الكثير" (مت ٢٥: ٢١).

رُبّ إنسان يعمل ويعمل ويستمر يعمل،

ولكنه يزداد فقرًا [١١].

كثيرون ما يشغلهم هو عدد الساعات التي يقضونها في العمل، وليس العمل بأمانة وحكمة ليكون مُثمِرًا. لنذكر حاجتنا إلى طلب بركة الرب؛ ففي كثير من الأعمال يُمكِن للإنسان أن يُتَمِّم عملاً في ساعة واحدة، كان قبلاً يحتاج إلى يومٍ كاملٍ، قيل إن يومًا عند الرب كألف سنة (٢ بط ٣: ٨). هذا يشعر به الطالب حين يكون مضطربًا يدرك أن محصّلته في الدراسة ضعيفة، وحين تكون نفسه مملوءة سلامًا وفرحًا تكون محصلة دراسته جيدة للغاية. أيضًا أحيانًا يعمل الإنسان باجتهادٍ وبقوةٍ، لكن بكبرياءٍ وتشامخٍ فيفقد الكثير، بل ويفقد خلاص نفسه وأبديته.

٤. بين الحكمة الحقيقية والعون الإلهي

ويوجد آخر كسول ويحتاج إلى عونٍ، تنقصه القوّة ويزداد فقرًا،

لكنّ عيني الربّ تنظران إليه لخيره، ويُعيد خيره من حاله الوضيع [١٢]،

كثيرون حتى من المشاهير والعظماء والأبطال إذ يقارنون بين مديح الناس لهم وحقيقة إمكانياتهم يُصابون بحالة إحباط، وتتحوَّل إلى مرضٍ نفسي. يُقَدِّم لهم هنا العلاج وهو الإيمان بأن الله يركز

عينيه على الإنسان لأنه محبوبه، بنعمته ينهضه ويهبه الثقة في النفس *self-confidence*.

يرفع رأسه، فَيَدْهش بهذا الكثيرون [١٣].

يتطلَّع سليمان الحكيم إلى التاريخ فيرى فرسان اشتهروا بالشجاعة والقدرة على الدخول في المعارك، ونالوا نصرات، لكن منهم من سقط في الهزيمة فجأة. لهذا كان يليق بهم أن يُدرِكوا أن النصرة من عند الرب. "الفرس معد ليوم الحرب، أما النصرة فمن الرب" (أم ٢١: ٣١)

الخير والشر، الحياة والموت، والفقر والغِنَى من عند الربّ [١٤]...[١]

يؤكد الكتاب المقدس حقيقتين تمسّان حياة الإنسان، وهما أن الله وهب الإنسان حرية الإرادة حتى يكون مسئولاً عن تصرُّفاته، والثانية أن العقل عطية فائقة حتى يُدَبِّر حياة الإنسان بفهمٍ.

من جهة حرية الإرادة، قيل:

- ❖ الله كصالحٍ ومحبٍ (جوَّاد) وهب الإنسان حرية بخصوص الخير والشر، واهبًا إياه عقلاً به يقدر أن يعاين العالم وكل ما فيه، فيعرف الله الذي خلق لأجله كل شيءٍ. أما الإنسان الشرير، فقد يرغب في هذا (معرفة الله)، لكنه لا يفهم، بل يهلك بعدم إيمانه وبتفكيره المناقض للحقيقة. هذه هي حرية الإنسان فيما يختص بالخير والشر[٢].

القديس أنطونيوس الكبير

- ❖ (كان آدم حُرًّا ليقطف أو لا يقطف الثمرة المميتة).

جرّب ما أقوله بهذه الأمور التي هي خاصة بك ليصير حلّ شكوكك من تفكيرك.

لك سلطان أن تشتل أو لا تشتل شتلة، وبين يديك إمكانية فعل أي من الأمرين.

لو تشاء تشتل كرمًا يصير كرمًا، ولو لم ترد لن تشتله ولن يصير هكذا.

هكذا أعطى العادل الحرية لآدم الذي جبله، كان في سلطانه أن يحفظ ذاته من المضرات.

حُدد ذاك الأمر لتلك الحرية، لتُقَاد بإرادتها إلى حيث تشاء.

وضع لها سياجًا: ذلك الناموس لئلا يدخل إليها الزرع الشرير مثل غريب ليس مُلكها.

---

[١] وُجِدت العبارتان التاليتان في بعض المخطوطات القديمة:

الحكمة والفهم ومعرفة الشريعة والحب والطرق الفاضلة من عند الرب [١٥].

الضلال والظلمة خُلقا مع الخطاة،

والشر يشيخ مع الذين يفتخرون بالخبث [١٦]

سأترك ترقيم العبارات كما ورد في *The Orthodox Study Bible*.

[٢] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٢٥.

فتحت الباب ودخل إليها الماكر وألقى زرعه، ففسدت أرض النفس التي كانت فردوسًا.
نمى الشر وصار شجرة مملوءة موتًا، وعادت وأعطت ثمار الموت لمن شتلها.
كما أرشد موسى الشعب وهو يُعَلِّمه (قائلاً): انظر إلى قلبك، لا يكن فيه إثم بغيض.
هكذا أمر الآبُ آدم لئلا يأكل، أعني لا تقبل فيك زرعًا شريرًا[1].

القديس مار يعقوب السروجي

أما عن علاقة العقل بالنفس والجسد، فيُحَدِّثنا **القديس أنطونيوس الكبير**، قائلاً:

❖ الحياة هي اتحاد بين العقل (الروح) والنفس والجسد، وترابط بينهم، وأما الموت فهو تمزيق لهذه الوحدة، ولكن لا هلاك لهذه (العناصر) كلها بل يحفظها الله حتى بعد الانفصال[2].

❖ العقل الذي يرضي الله، يتدفَّق أمام النفس ويشير عليها أن تزدري بالزمنيات الماديات الفانيات، وأن تحب البركات الروحية الأبدية غير الفاسدة، حتى أن الإنسان وهو بعد في الجسد يدرك السماويات والإلهيات بذهنه ويتأمل فيها. بهذا يكون العقل المحب لله نافعًا للنفس ومُنقِذًا لها.

❖ النفوس التي لا يلجمها العقل، ولا يسيطر عليها الذهن، ويقمع شهواتها من لذات وآلام، ويُدَبِّرها ويُوَجِّهها (توجيها سليمًا)، هذه النفوس تهلك كالحيوانات العجماوات. لأن عقولهم تسحبها الشهوات، كما تسحب الخيول الجامحة سائقيها.

❖ توجد النفس في الجسد، ويوجد العقل في النفس، وتوجد الكلمة في العقل، وبالكلمة نتأمل الله ونُمَجِّده، الذي يعطي خلودًا للنفس، ويهبها سعادة أبدية غير فاسدة.

القديس أنطونيوس الكبير

❖ زينة الجسد هو العقل، وزينة العقل هو الله[3].

القديس أغسطينوس

نظرة العاقل للغِنَى: إذ يتلامس المؤمن مع رعاية الرب، لا يضطرب بسبب الفقر، ولا يتشامخ بسبب الغِنَى. كل ما يشغله هو الالتصاق بالرب.

❖ إن كنت تنظر إلى الغِنَى وكمال التمتُّع به ليس إلا زهوًا خادعًا لأمد قصير، وتعرف أن الحياة

---

[1] الميمر ٦٦ على شجرة معرفة الخير والشر وعلى الصدقات وعلى الفقر (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).
[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٩٣.
[3] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 32:3.*

الفاضلة التي ترضي الله هي أفضل من الغِنَى، وتتمسك بهذا المعتقد، وتحتفظ به في ذاكرتك، فإنك لن تتأوَّه ولا تتذمر ولا توبخ أحدًا قط، بل تشكر الله على كل حال حتى إن رأيت أناسًا أَشرّ منك يُمدَحون بسبب فصاحتهم أو معرفتهم أو غناهم. إن شهوة الغِنَى بجشع والملذَّات، ومحبة الشهوة والمجد الباطل، مقترنتين بجهل الحق، لهما أَشرّ آلام النفس[1].

القديس أنطونيوس الكبير

عطية الرب تبقى مع الأتقياء،

ورضاه يجلب ازدهارًا إلى الأبد [١٥].

يقول الحكيم: "الخير والشرّ، الحياة والموت، والفقر والغِنَى من عند الربّ" (راجع سي ١١: ١٤). يتساءل البعض هل الله هو مصدر الشرّ كما هو مصدر الخير؟ هل الله واهب الحياة هو ينبوع الحياة وينبوع الموت؟ هل واهب العطايا هو مصدر الفقر كما الغِنَى؟

❖ سبب الموت هو الشيطان، ذاك الذي خدع الإنسان، ولكن الله أنزل عليه عقوبة الموت ليس بكونه أصدر أولاً (الأمر بالموت)، وإنما كعقوبة (طبيعية) للخطية. لقد أجبت بنفسك على السؤال تمامًا عندما قلت لقد تُرِك الإنسان لنفسه، فإذا به يصير عذابًا لنفسه، خلال حكم الله، وتم ذلك بحرية إرادته. ليس من تضارب أن الإنسان نفسه هو مصدر عقوبته، وأن الله ينتقم من الخطية[2].

القديس أغسطينوس

❖ افتح يا رب دار الخزينة لنا، عند صلوات توسلاتنا.
لتخدم صلواتنا كسفيرٍ عنا، وتصالحنا مع لاهوتك.
أصغوا أيها الحكماء وانتبهوا يا كل المُتعلِّمين.
اطلبوا الفهم والمعرفة، ناظرين أنكم مُتعلِّمون وحكماء (بالربّ)[3].

القديس مار افرام السرياني

❖ عندما ترى جثمانًا محمولاً في السوق، ويتبعه أطفال أيتام، وأرملة تقرع صدرها، وخدم ينتحبون، وأصدقاء مكتئبون. تأمل في تفاهة الأمور الحاضرة، وأنها لا تختلف في شيءٍ عن الظل أو الحلم. ألا يناسبك هذا؟ فَكِّر في أولئك الذين كانوا أثرياء جدًا وهلكوا في الحرب. تطلع إلى البيوت

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ٤.

[2] *Against Julian, Catholic, Vol. 35, p. 279-280.*ؤ

[3] *Hymns preserved in Armenian 1: 1.*

التي حولك والتي كانت تخص عظماء مشهورين والآن نزلت حتى الأرض.

تأمل كيف كانوا قادرين والآن لم يُترَك لهم أية ذكرى. فإن أردت تجد كل يومٍ أمثلة لهذه الأمور: من خلافات الحكام، ومصادرة أموال الأغنياء. كثير من الطغاة جلسوا على التراب، وذاك الذي لم يفكر قط ارتدى التاج" (راجع سي ١١: ١٥). أليست أمورنا أشبه بعجلة؟[1]

القديس يوحنا الذهبي الفم

٥. التدبير الحكيم والعمل الدائم

شرح لنا السيد المسيح هذا القول بمثل الغني الذي ظن أن مقتنياته تهب نفسه شبعًا لسنين طويلة، ولم يكن يَعْلَم أن نفسه تُطلَب منه في ذات الليلة (لو ١٢: ١٦-٢١).

يوجد إنسان يغتني بسبب اهتمامه واقتصاده،

وهذا هو نصيب مكافأته: [١٦]

حين يقول: "قد وجدت الراحة، والآن سأقتسم خيراتي"،

وهو لا يعلم كم يمضي من الزمن حتى يموت ويترك ذلك لآخرين [١٧].

من الأمور المُحزِنة للغاية أن يقضي الإنسان كل حياته يُعد ما يقتنيه للمستقبل في هذا العالم ولا يدري ما سيحل. موقفه هذا مؤسف للغاية، إذ يضع رجاءه في غير موضعه. فالثروة يمكن أن تحفظ الإنسان من كثير من المتاعب، لكنها لا تستطيع أن تطرد الموت عن صاحبها. يسلب الموت الإنسان مما كرَّس حياته لاقتنائه. هذا ما أَكَّده مثل الغني الذي بنى الكثير من مخازنه ليأكل ويشرب ويفرح، وإذا به يسمع صوت الربّ: "يا غبي، الليلة تُطلَب نفسك منك، فهذه التي أعددتها لمن تكون؟!" (لو ١٢: ١٦-٢٠). هذا المثل يُقَدِّم تحذيرين: الاستعداد للعبور من هذا العالم؛ وتحاشي الطمع.

الكارثة لا في موت الشخص بل في عدم استعداده للعبور من العالم، وفقدان كل حياته لجمع ما سيتركه لاإراديًا، لهذا دعاه السيد "غبيًا" (لو ١٢: ٢٠).

اثبت على عهدك، واهتمّ به،

وابلغ الشيخوخة في عملك [١٨].

❖ لا يظن أحد أن الرسول يختلف عن كلماتنا هذه بقوله: أن يشتغلوا بهدوء، ويأكلوا خُبْزَ أنفسهم (٢ تس ٣: ١١-١٢). هذه الوصية مُوَجَّهة للعنيدين والمُتراخِين، وتعني أنه من الأفضل لكل إنسانٍ

---

[1] *On 2 Thess., Homily 1.*

أن يخدم على الأقل نفسه، ولا يُمَثِّل ثقلاً على الآخرين ويعيش عاطلاً... مرة أخرى، قوله: "كنا نشتغل بتعبٍ وكدٍّ ليلاً ونهارًا، لكي لا نُثَقِّل على أحدٍ منكم" (٢ تس ٣: ٨)، تحمل نفس المعنى. باسم المحبة الأخوية تَحَمَّل الرسول ثقل العمل بجانب التزامه من جهة الذين فُرِضُوا عليه، وذلك بهدف استبعاد الفوضى. التزم هذا الذي يجاهد بشغفٍ من أجل الكمال، أن يعمل ليلاً ونهارًا، "ليكون له أن يعطي من له احتياج" (أف ٤: ٢٨). الإنسان الذي يعتمد على نفسه أو حتى على شخصٍ آخر مُلتزِم أن يمدَّه باحتياجاته، ويظن أن بنشاطه ونشاط من يجتمع معه يكفي أن يُعينَه في معيشته، يسقط في خطر، إذ يضع رجاءه في إنسانٍ، فيسقط تحت اللعنة التي تقول: "ملعون الرجل الذي يتَّكِل على الإنسان، ويجعل البشر ذراعه، وعن الرب يحيد قلبه" (إر ١٧: ٣).

الآن بالقول: "يَتَّكِل على الإنسان"، يمنع الكتاب المقدس الإنسان أن يضع رجاءه في آخر. وبقوله: "يجعل البشر ذراعه" يمنعه من الاتِّكال على نفسه. في كلا الحالتين ارتداد عن الرب (أي يحيد قلبه عن الرب). بعد ذلك يضم الاثنين معًا بقوله: "ويكون مثل العرعر *tamaric* في البادية (الصحراء)، ولا يرى إذا جاء الخير" (إر ١٧: ٦). يُعلِن الكتاب المقدس أن أي إنسانٍ يجعل اتِّكَاله على نفسه أو على أحدٍ غيره، يحيد بنفسه عن الرب[1].

❖ إن النهي عن الاهتمام الزائد بحاجات جسدنا لا ينفي الاهتمام والعمل مُطلَقًا.

فقد بقي علينا أن نعمل لأنفسنا، لا للطعام الفاني، بل للطعام الباقي للحياة الأبديَّة (يو ٦: ٢٧)، لا لحاجاتنا الجسديَّة فقط، بل لنُسعِف القريب أيضًا (أف ٤: ٢٨). وسيقول لنا الرب في يوم الدين: "جُعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني..." (مت ٢٥: ٣٥). ويُعَدّ ما نفعله مع من كرَّسوا أنفسهم له كأنَّنا نعمل معهم، ويُعطَى لنا عن ذلك الملكوت السماوي.

وبعكس ذلك سيُعاقَب الذين لم يعملوا ولم يتعبوا ليساعدوا الضعفاء ويخدموا القريب (أع ٢٠: ٤، ٣٥)، ويرسلهم إلى العذاب الأبدي (مت ٢٥: ٤١-٤٦)[2].

القديس باسيليوس الكبير

لا تتعجب من أعمال الخاطئ، بل ثق بالربّ، وثابر في عملك،
فإنه هَيِّن في عيني الربّ أن يُغنِي الفقير في الحال بغتة (دون توقعٍ) [١٩].

بركة الربّ في مكافأة الإنسان التقيّ،

---

[1] *Regulae fusius tractatae, 42.*

[2] *Regulae brevius tractatae Question 207.*

وفي لحظةٍ يجعل الله بركته تزدهر [٢٠].

لا تقل: "أية حاجة لي؟
وأية خيرات تحصل لي مستقبلاً؟" [٢١]

لا تقل: أنا مستقل[1]. من الآن فصاعدًا
أيّ سوء سيصيبني؟" [٢٢].

يميل الإنسان بطبيعته منذ الصغر أن يكون مكتفيًا بذاته، لا يعتمد على غيره. هذا الميل له بركاته إن أُستخدم باعتدال وحكمة، خلاله يشعر بنوع من الاستقلال. أما إن عزل نفسه عن الله، ولا يتكل عليه، فيدفعه هذا إلى نوعٍ من الديكتاتورية والتشامخ.

يسند الله الإنسان لينعم بالشخصية السوية، إحدى متطلباتها الثقة بالنفس *self-confidence*، خلال عمل نعمته الإلهية، ولكن ليس في غرورٍ بنفسه وتشامخٍ عليٍ خالقه الذي يرعاه.

٦. الحكمة الحقيقية وانتظار المنتهى

في يوم الخيرات، تُنسَى البلايا،
وفي يوم البلايا لا تُذكَر الخيرات [٢٣].

يرى البابا غريغوريوس (الكبير) أن أيوب في وسط بلاياه يذكر الأعمال التي سبق فصنعها حتى لا تنجذب نفسه إلى اليأس، بل تلجأ إلى الرجاء الآمن.

❖ (في رسالة يتحدَّث فيها عن تاريخ خطية فابيولا *Fabiola* ثم عن توبتها)

إذ أجد نفسي ترتطم بضعفات خطية فابيولا تحدثت كثيرًا عنها وعن توبتها، لكي ما أفتح طريقًا متسعًا وهادئًا لا يُعاق، وذلك لكي ما أصف مديحها. لقد عادت إلى الشركة أمام أعين كل الكنيسة. ماذا فعلت؟ أيام الخيرات نست البلايا (راجع سي ١١: ٢٣). وعندما تحطَّمت سفينتها لم ترد أن تواجه مخاطر البحر مرة أخرى. لذلك عوض أن تعود تركب السفينة التي لحياتها القديمة، باعت كل ما استطاعت أن تمد يدها إليه من ممتلكاتها (إذ كانت ضخمة تليق برتبتها)، وحولته إلى نقدية وقدمته لفائدة الفقراء. لو أقام شخص مستشفى تضم المتألمين في الشوارع، كانت تقوم بتمريضهم، ولكل ضحايا الأمراض والعوز[2].

القديس چيروم

---

[1] *Independent*. أي عندي ما يكفيني ولا حاجة لي لأحد.

[2] *Letter to Oceanus, 77: 6.*

فإنه هَيِّن عند الرب أن يكافئ الإنسان يوم موته حسب طرقه [٢٤].

ساعة المعاملة القاسية تجعل الإنسان ينسى الرفاهية،

وعند نهاية حياة الإنسان تنكشف أعماله [٢٥].

يصعب الحكم على شخصٍ ما دام لا يزال يتنفس، وحتى بعد موته لا تتسرَّع الكنيسة في اعتبار الشخص قديسًا.

❖ ليس شيء ضد الفلسفة (الحكمة) مثل حياة اللذة، ومن جانب آخر، ليس شيء نافع للفلسفة مثل الألم. تأمل ما سيكون حال الإنسان الطمَّاع. إذ يُقال: "ساعة سوء تُنسي الإنسان اللذات" (راجع سي ١١: ٢٥)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

لا تعتبر أحدًا سعيدًا قبل موته،

والإنسان سيُعرَف في أبنائه [٢٦].

مدح الراقدين أفضل من مدح الأحياء: يُمدَح الإنسان الحكيم التقي، خائف الرب، في خاتمة حياته، فإن مدح الإنسان في نهاية حياته أفضل من مدحه أثناء حياته.

❖ مكتوب إن الحكمة تُعرَف عند الموت، بمعنى أن حياة الإنسان الحكيم تُمدَح في نهاية حياته. لذلك نقرأ في موضوع آخر: "لا تمدح إنسانًا أثناء حياته، وأيضًا لا تغبط إنسانًا قبل موته" (راجع سي ١١: ٢٦-٢٨). لتفترض أن إنسانًا يقول: امتدح إنسانًا بعد موته، لأن مديح الإنسان الحي يمكن أن يكون فرصة للمجد الباطل، من أجل الثناء عليه أو للإطراء لمن يقدم له المديح.

في كل الأحوال، مديح الميت نافع، أولاً لأنه إذ يكون الشخص غائبًا من يكافئنا عن مديحنا له؟ من الضروري أن يشير المجد كله لواهب النعمة. ثانيًا فإن الإعجاب بالفضيلة يبقى دون ريب من جهة المداهنة. لذلك فإن مديح الأموات الذي يُعلن في جماعة المؤمنين المقدسة مملوء بالتثقيف وخالي من أي نوع من التملُّق[2].

هيلاري أسقف آرل

❖ "لا تفتخر بالغد، لأنك لا تعلم ماذا يلده اليوم" (أم ٢٧: ١). لقد كُتِب: "لا تغبط أحدًا قبل موته".

---

[1] *Ibid, 5.*

[2] *Hilary of Arles: Life of St. Honoratus, Preface 3.*

فمادمنا نعيش نحن مشغولون بمعركة، وليس من نصرة أكيدة تلك التي تظهر في الحياة العتيدة[1].

القديس چيروم

❖ كيف يمكنك أن تعرف ذاك الذي هو غير معروف حتى لنفسه؟... أين إذن الضمان؟ هنا لا يوجد أي ضمان في هذه الحياة، اللهم إلا بالرجاء في وعد الله. أما هناك عندما نصل فنكون في أمان كامل، حيث تغلق الأبواب، حيث تتشدَّد عوارض أبواب أورشليم (مز ١٤٧: ١٣). هناك بالحق التهليل الكامل، والبهجة العظيمة. إنك لا تشعر بأمان في مدح أي نوع من الحياة: "لا تغبط أحدًا قبل موته" (راجع سي ١١: ٢٦)[2].

القديس أغسطينوس

❖ الموت الذي كان ممقوتًا صار موضوع تسبيح ويُعلن كأمرٍ مُطوَّب. ما كان في وقتٍ ما يسبب ألمًا وحزنًا ودموعًا وكآبة، يظهر كمصدر فرحٍ وتعييدٍ. كل خدام الله يتمتَّعون بالموت المُطوَّب، لأن نهاية حياتهم تحمل أمانًا حيث يُرَحِّب الله بهم. بالحقيقة يصيرون كاملين، وهذا الكمال يرد لهم التطويب ويهبهم صلابة الفضيلة، كما يؤكد التعليم: "لا تحكم على أحدٍ قبل موته" [٢٦][3].

الأب يوحنا الدمشقي

٧. الحكمة الحقيقية والحذر من الأشرار

مع حديث سيراخ المستمر عن العطاء والصدقة والحب، إلا إنه يود أن يلتزم المؤمن بالحكمة والاعتدال في كل تصرُّفٍ لأجل بنيان نفسه وبنيان من يتعامل معهم. فيُحَذِّر من استغلال الأشرار خدمة الغرباء والفقراء والأعداء.

يرفض ابن سيراخ تقديم عطاء لمن يُصرّ على الشر، كمن يأخذ صدقة ليشتري سلاحًا يقتل به، أو يشتري مخدّرات الخ [١٢: ١- ٢]. مسيحنا يدعونا في الموعظة على الجبل إلى العطاء بحبٍ حتى إلى الأعداء (مت ٥: ٤٤-٤٥)، فنشهد بحب الله للخطاة الذين دخلوا في عداوة ضد الله. يرى **القديس أغسطينوس** أن الحب يدفعنا إلى العطاء بروح الحكمة، فإن عرفنا أن العطاء يُستخدَم لأذية طالب الصدقة أو المحيطين به، يلزمنا أن نعطيه ليس مالاً، وإنما بروح الحب والحنو، نُقَدِّم له مشورة مقدسة في الرب. بهذا نتشبَّه بالرب الذي حتى في تأديبه يُقَدِّم حبًا مع شوقٍ لرجوع الشرير عن شرِّه.

---

[1] *Dogmatic and Polemical Works, Catholic, Vol. 53, p. 301-303.*

[2] *On Ps 100 (99).*

[3] *Homily on the Dormition, 1: 12.*

لا تُدخِل كل إنسانٍ إلى بيتك،

فإن مكائد المخادع كثيرة [٢٧].

يليق بالمؤمن مع حبه لاستضافة الغرباء، إن عُرف عن إنسان أنه نمَّام ويروِّج إشاعات وأكاذيب لا يدعوه إلى بيته، لئلا يُفسِد نقاوة قلب أهل البيت. فالنمَّام يُحوِّل حتى الخير إلى شرٍ، وبكلماته الباطلة والكاذبة يشعل نارًا في وسط الأسرة لا تُحمد عواقبها (يع ٣: ٥-٦). الإنسان الشرير يعمل على عزل المستمع إليه من مجتمعه سواء العائلي (أهل البيت) أو الكنسي. يرى **القديس إكليمنضس السكندري** أنه لا يترك بيته متسيبًا، فيستضيف إنسانًا غاشًا قد يفسد طهارته وطهارة أهل بيته[1].

❖ مكتوب: "لا تُدخِل كل إنسانٍ إلى بيتك" (راجع سي ١١: ٢٧). فعندما يقترب غريب إليك، أولاً صلِّ إلى الله، وبعد ذلك اسأله عن اهتماماته، من أين جاء وإلى أين هو ذاهب. فإن ظهر لك أنه يجب عليك أن تُرحِّب به، اقبله واسأله أن ينصرف بعد الأكل، ولا تعطه أي شيء آخر. فإنك إن دخلت معه في معاملات مادية تفوق قدراتك، سوف لا تقدر أن تحتمله بعد ذلك[2].

القديس برصنوفيوس وتلميذه يوحنا

❖ لستُ أقصد أن أُقلِّل من فضيلة سلفائنا خاصة الاستضافة. في الحقيقة إنها من بين الفضائل الأكثر سموًا التي مارسها الآباء، هذه التي تحنو نحو التقوى. استضاف أحدهم الله المُخَلِّص على مائدته، وآخر استضاف ملائكة. أحدهم نال مكافأة، فصار له ابن في شيخوخته، والآخر تمتَّع بالخلاص هاربًا من سدوم (تك ١٨-١٩). هذه التي تحدَّث عنها الرسول عندما حثنا على الاقتداء به: "لا تنسوا إضافة الغرباء، لأن بها أضاف أناس ملائكة وهم لا يدرون" (عب ١٣: ٢).

على أي الأحوال لتكن لدى الشخص الذي يُقدِّم استضافة حكمة الحية وبساطة الحمامة (مت ١٠: ١٦)، مُذعِنًا لوصية الربّ المضاعفة "كل من سألك فأعطه" (لو ٦: ٣٠)، "لا تُدخل كل إنسانٍ إلى بيتك" [٢٧]. هذا لكيلا تجلب خطر ذئبٍ في مسكن يسكنه حمل (مت ٧: ١٥)، أو دب حيث يوجد ثور (إش ١١: ٧)، الأمر الذي يُحَوِّل المكسب إلى خسارة.

أول كل شيءٍ، من الضروري مراعاة قدرتك على التسامح مع شخصيات صعبة للغاية.

أخيرًا يجب أن تضع في اعتبارك من هو هذا الذي تستقبله لينال منافع منك، هل هو غني أم فقير، بصحة جيدة أم ضعيف، محتاج إلى طعام أو ملابس. هذه هي المجالات التي خلالها تُمارَس الرحمة. بالحقيقة إبراهيم الطوباوي لم يستقبل في منزله (خيمته) مستشارين وقادة،

---

[1] *Cf. St. Clement of Alexandria, Paedagogus, Catholic Vol. 23, p 220-224.*

[2] *Letters, Catholic, Vol. 114, p. 261.*

الأشخاص المهيمنين في هذا العالم الزائل، الذين لديهم خيول... كان إبراهيم ساكنًا في مكانٍ خالٍ يستضيف العابرين، هؤلاء الذين يسافرون في الصحراء يأتون إلى الأب منجذبين نحو فضيلته، وقد صار منهم شحاذين في فقرٍ شديدٍ. بنفس الطريقة لوط الذي عاش في أشرّ مدينة في هذه الصحراء، بحقٍ كان يُرَحِّب بكل العابرين، ليحفظهم من عادات سكانها[1].

القديس بالاديوس

قلب المتكبر كالحجل الموضوع طُعما في القفص،

وكجاسوسٍ يرقب سقوطك [٢٨].

جاء في إرميا ١٧: ١١ "حجلة تنطق بصوتها (الترجمة السبعينية)، تحتضن ما لم تبض، محصل الغنى بغير حقٍ؛ في نصف أيامه يتركه، وفي آخرته يكون أحمق". غالبًا ما كان هذا مثلاً شائعًا في ذلك الحين، يُقصَد به أنه إذ يظن الإنسان أنه يملك لكنه وهو يتعب ويشقى يخسر الكثير ويتركه الغنى وهو بعد في العالم في منتصف أيامه، أما في آخرته فيدرك أنه سلك بحماقة. هذا هو التفسير الحرفي للعبارة؛ وقبل أن نلقي ضوءً عليها خلال المفهوم الروحيّ العميق، نود توضيح أن الحجلة هي طائر برّي، يسمى في العبرية "قوري"، وتعني "الصارخ أو المنادي". ولعله لهذا السبب جاء في النسخة السبعينية: "**حجلة تنطق بصوتها**" أو "**تعطي صوتها**"، إنها صاحبة أصوات لكن بلا عمل حق! هكذا الغني في جهاده المُرّ من أجل التمتُّع بالغنى ماديًا أو الشبع جسديًا، يكون كمن يعطي صوتًا بلا عملٍ، لأنه يترك كل شيءٍ ويخرج عريانًا من هذا العالم.

يرى **القديس هيبوليتس** أن هذا الطائر متعجرف، فإذ ترى الحجلة عش حجلة أخرى به صغار دون أمه تصنع صوتًا تقلد به صوت الأم وتدعو الصغار إليها وتأخذهم وتجرى بهم. فتبتهج متكبرة أنها استولت عليهم، لكن إذ تأتي الأم الحقيقية وتنادى بصوتها يكتشف الصغار خداع الأولى ويتركون المخادعة ويذهبون إلى الأم الحقيقية. هذا يحدث عندما يأتي ضد المسيح، فإنه يجتذب البشرية إليه بخداع ليملك على من هم ليسوا له، ويعدهم بالخلاص مع أنه غير قادر على خلاص نفسه[2].

تشير الحجلة إلى إبليس وجنوده خاصة الهراطقة، تعطي صوتها الذاتي، ولا تنطق بما لله، أما أولاد الله فينطقون بما لله لا بما لذواتهم، وكما يقول الرسول بولس: "إذ أنتم تطلبون برهان المسيح المتكلم فيّ" (٢ كو ١٣: ٣).

يتحدَّث **القديس غريغوريوس النيسي** عن الإنسان الذي يرتبط بحيل إبليس ويسقط تحت خداعات

---

[1] *Dialogue on the Life of St. John Chrysostom, 12.*

[2] *Cf. St. Hyppolutus: Treatise on Antichrist, 55.*

العدو: [لا يعود الله الصالح الحقيقي والآب إلهًا وأبًا لذاك الذي بفساده يصير خارجًا عن القانون... وعوض الآب يأتي من يبدو أبًا والذي باطلاً يدعى الحجلة التي تحتضن ما لم تبض كقول إرميا[1].]

يرى **العلامة أوريجينوس** أن الشيطان هو الحجلة مثل فرعون الذي لا يريد من الشعب إن يترك أرضه ليعبد الرب.

فإنه يكمن منتظرًا ويُحَوِّل الخير إلى الشر،
وفي خير الأمور يجد لومًا على ما يختاره الصالح [٢٩].

من شرارة واحدة تندلع نار في الفحم،
والرجل الخاطئ يكمن انتظارًا لسفك الدم [٣٠].

احذر من الشرير ومكائده،
لئلا يلحق بك عار إلى الأبد [٣١].

❖ كما أن السُّذَّج وغير المتعلِّمين يستهزئون بالعلوم ويرفضون الاستماع إلى شيءٍ منها، لأن المعرفة عندهم جهالة، لهذا يودّون أن يكون الكل جهلاء مثلهم، هكذا أيضًا المُنحلُّون في حياتهم وأخلاقهم لهم شوق عظيم أن يكون الكل أَشرّ منهم، ظانّين أنهم بهذا يجدون عذرًا لأنفسهم باعتبار أن الأشرار كثيرون[2].

❖ العاقل أو من يكون قد شرع في إصلاح نفسه، هو وحده الذي يليق به أن يُدعَى إنسانًا... لأن هذه الصفة (عدم القابلية للإصلاح) لا تليق بالإنسان، ومثل هذا الإنسان يجب اجتنابه.
أولئك الذين يرضون بالإثم لا يكون لهم نصيب بين الخالدين[3].

القديس أنطونيوس الكبير

استقبل الغريب إلى بيتك، فسوف يُحزِنك بالضيقات،
ويُبعِد عنك أهل بيتك [٣٢].

من وحي سيراخ ١١

هبني روح الحب والتدبير والأمان!

---

[1] *Against Eunomius, 12:1.*

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ٨.

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ١٣.

❖ حضورك الإلهي يُقدِّس أسرتي وأصدقائي.

كثيرًا ما اتكلت على حكمتي البشرية،

فخدعتني المظاهر الخارجية في كل من ألتقي به.

لتُعلِن حضورك في داخلي، يا أيها العجيب في تواضعك!

بك أسلك بروح الحكمة في تواضع.

تعبر بي حكمتك من آخر الصفوف،

وتجلسني في مجلس السمائيين.

تنزع عني الحماقة التي حدرتني إلى المذبلة.

❖ بك يا حكمة الله المتجسد لا يخدعني جمال إنسانٍ ومظهره.

ولا أسخر بأحدٍ بسبب عيبٍ في جسده!

تطلع صموئيل النبي إلى جمال شاول وطول قامته،

فظن أنه خير من يصلح ملكًا.

وتطلَّعت أنت إلى قلب داود الصبي، فأَعددته ليجلس على كرسي شعبك.

❖ كثيرون يتطلَّعون إلى النحلة كحشرة صغيرة تلدغ،

ولم يُدرِكوا أن أممًا كثيرة تعيش على العسل الذي تنتجه.

هكذا كثيرون يتطلعون إلى أشخاص يبدون بلا جمال،

ولا يدركون أنهم سينالون عرشًا مجيدًا من يديك.

يندم أحيانًا زوج، لأن زوجته ناقصة في جمال الجسد،

ولم يدرك أنها تفوق الكثيرات بجمال الروح والفكر.

في عينيه تمثل ثقلاً يود الخلاص منها، وفي عينيك قلبها سماء ثانية متهللة!

❖ هب لي التعقُّل وعدم التسرُّع في الحُكْمِ على الآخرين.

هب لي ألا أَتوقَّف عن العمل حتى النفس الأخير،

فأقتدي بالملائكة الذين لا يملُّون من العمل المُستمِر حسب مشيئتك.

هب لي ألا أرتبك بأعمال كثيرة،

بل أهتم أن أكون أمينًا في القليل،

فأتأهل لنوال الكثير في الأبدية.

لأعمل بفرحٍ، فأترقَّب يوم خروجي من العالم متهللاً.
هب لي الحكمة، فلا أسمح لكل أحدٍ أن يدخل بيتي،
لئلا تخرج يا أيها القدوس منه.
هب لي في وسط الضيق ألا أشتهي الفشل لمن سبَّبه لي.
هب لي في وسط آلامي أن أشكرك على أيام الفرج القديمة.

❖ بحُبِّك وهبتني الإرادة الحُرَّة، من يقدر أن يُقَدِّسها ويُثَبِّتها غيرك.
بك أَتحدَّى الشر، وأحتضن الخير،
بك أشكرك حتى إن افتقرت، وأخدمك بما وهبتني من مقتنيات.
بك أَتحدَّى الموت، وأستعذب الحياة فيك!
في وقت القحط لا أنسى أيام الخير،
وفي وقت الازدهار أُقاسِم إخوتي فيما أعطيتني!

❖ لتعبر أيام غربتي وأنا في صحبتك، وأَترقَّب الموت بروح الرجاء.
في طريق الغربة لا أنتقد أحدًا ولا أمدحه،
فإنني أَترقَّب نعمتك مع كل صباحٍ.
لا تسمح لي في غربتي أن يكون قلبي متكبِّرًا.
كالحجل المحبوس في قفص.
إنه لا يكف عن الصراخ المُزعِج بلا عملٍ!
عوض هذا الصوت، أَتمتع بكلمتك العذبة.
لأنه ليس بالخبز وحده أحيا هنا،
وإنما بكل كلمة تخرج من فمك.
أخيرًا، قَدِّسني أيها القدوس،
وقَدِّس كل أسرة وكل الأصدقاء، بل وكل العالم.

الأصحاح الثاني عشر

الحكمة في الإحسان واختيار الأصدقاء

بعد أن تحدَّث ابن سيراخ عن الالتزام بالحكمة بروح التواضع في علاقة المؤمن بأعضاء أسرته كما بالأصدقاء، وقَدَّم لتلاميذه الشبان تحذيرات سلبية مثل عدم الاعتماد على المظاهر الخارجية في الحكم على أحدٍ، وعدم التسرُّع لمن ندينه، وعدم التراخي في العمل حتى في سن الشيخوخة الخ. الآن يحدثنا عن الحكمة عندما نُقَدِّم إحسانًا أو صدقة، وأيضًا في اختيار الصديق الذي يبني نفوسنا.

يبدو أن الحديث عن اختيار الأصدقاء هنا فيه نوع من الحزم، ربما لأنه يكتب إلى شباب قليلي الخبرة في التعامل مع الأصدقاء، فقد سبق فطلب منهم أن يفتحوا قلوبهم بالحُبّ وفي سخاء، لكنه يخشى عليهم من الإحسان إلى أصدقاءٍ أشرارٍ يستخدمون هذا الإحسان في الشرّ، كما قد يكون له تأثير غير مباشر على المُحسِن نفسه، فيشاركهم السلوك في شرورهم.

يليق بالشاب أن يختار أصدقاء يسندونه على الحياة المقدسة المستقيمة، فلا تُفسِد الصداقة مفاهيمه الروحية والإيمانية. يقول *P.H. Readron*: [يسهل ملاحظة أن كثيرين تحطَّموا باختيارهم أصدقاء. سجوننا مملوءة من قوم سقطوا خلال أخطاء الجماهير. فَقَد بعض الحكماء سمعتهم وثرواتهم وأحيانًا حياتهم بسبب صداقاتهم. كل صداقةٍ هي استثمار، يدعونا سيراخ إلى الاستثمار بحكمة.]

١. الحكمة في الإحسان [١-٧].

٢. الحكمة في اختيار الأصدقاء [٨-١٣].

٣. الزهو مثل الوحوش المفترسة [١٤-١٨].

١. الحكمة في الإحسان

يُحَذِّرنا الرسول بولس من استضافة أناس قد يُسَبِّبون لنا كما للآخرين متاعب روحية، فيقول: "من هؤلاء من يدخلون البيوت ويسبون نسيات محملات خطايا، منساقات بشهوات مختلفة" (٢ تي ٣: ٦).

يُقَدِّم لنا ابن سيراخ نصائح عملية في الإحسان إلى الغير:

أ. يلزمنا بروح الحكمة أن نتعرَّف على من نحسن إليهم، فنُقَدِّم لهم ما فيه بنيانهم وبنياننا وبنيان الغير.

ب. إذ نرى في المحتاج الذي يتسلَّم الإحسان مُخَلِّص العالم نفسه، لذا يجب أن نهتم بالأكثر بالأتقياء أو المشتاقين لحياة التقوى. هذا ما دعانا إليه الرسول بقوله: "فإذا حسبما لنا فرصة، فلنعمل الخير

للجميع، ولاسيما لأهل الإيمان" (غل ٦: ١٠). بهذا نُقَدِّم العطاء للعليّ نفسه [٢]. هذا ومن جانب آخر، يليق بنا حتى في عطائنا المادي أن نُقَدِّم طعام الروح بروح المحبة والتواضع.

ج. عدم الانخداع بالمظهر، فقد يبدو الشخص متواضعًا إلى حينٍ، لكن الزمن يكشف أعماقه [١١].

د. الحرص ألا يستخدم الشخص الإحسان في الشر له أو لغيره [٤-٣].

هـ. نسند المحتاج لئلا يسقط في الشر، وحتى لا يُسِيء استخدام حنو المعطي، خاصة إن تحوَّل الاستجداء إلى ممارسة الحيل في المجتمع. فعوض التمتُّع بالإحسان تزداد شروره وتتضاعف [٥].

إذا أحسنت، فاعرف إلى من تُحسِن،

فتكون مشكورًا على أعمالك الصالحة [١].

يرى **القدّيس أمبروسيوس** أن كل إحسانٍ يُقَدَّم لفقير أو محتاج يُحسَب شركة مع المرأة التي سكبت الطيب على قدمي السيد المسيح (لو ٧: ٣٨).

❖ مات المسيح مرَّةً ودُفِن مرَّة واحدة، ومع هذا **يودّ أن يُسكَب الطيب على قدميه كل يومٍ**. من هم الذي يُحسَبون قدمين للمسيح، فنسكب عليهم الطيب إلا الذين قال عنهم: "بما أنكم فعلتم بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم". هاتان هما القدمان اللتان أنعشَتْهما المرأة المذكورة في الإنجيل، وغسلَتْهما بدموعها[1].

القدّيس أمبروسيوس

أَحسِن إلى الإنسان التقي، فتنال جزاءً،

إن لم يكن من عنده، فمن عند العليّ [٢].

❖ يظهر أنه بالحق الرحمة نحو الفقراء سكب زيتٍ على ذبيحة الله، أما الخدمة المُقَدَّمة للقديسين فتضيف عذوبة البخور[2].

العلامة أوريجينوس

❖ عندما يكرز شخص ما وأنتم تخدمونه، تُشارِكونه أكاليله. فإنه حتى في المصارعة لا يأخذ الإكليل من يغلب وحده، وإنما يشاركه فيه مُدَرِّبه والحاضرون وكل الذين أَعدّوا حلقة المصارعة. فالذين يقودونه ويُدَرِّبونه بحقٍ يشاركونه نصرته... **إن كنا نخدم القديسين بطيب قلبٍ نُشارِكهم مكافأتهم.**

---

[1] *Ep. 41:23.*

[2] *Homilies on Leviticus 4:9:1.*

هذا ما يخبرنا به المسيح أيضًا: "اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم، حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبدية" (لو ١٦: ٩)[١].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما ساعد الطوباوي الرسول بولس الإخوة في احتياجات ضيقته قال إن هذه الأعمال الصالحة هي ذبائح لله... فعندما يترفَّق أحد بمسكينٍ يقرض الله، وعندما يعطي الأصاغر يعطي الله ذبائح روحية رائحة رضا[٢].

الشهيد كبريانوس

يرى **الأب قيصريوس أسقف آرل** أن الإنسان محتاج إلى صدقة، ليست من المال فحسب ليقتني به طعامًا لمعدته، وإنما من كلمة الله لكي يشبع عقله بطعام الروح. لنُقَدِّم صدقة من كلمة الله، ولا ننتظر أن يردّها لنا أحد، بل يرّدها لنا الرب نفسه.

❖ ربما لا يملك الإنسان خبزًا يُقَدِّمه صدقة للمُعوزين، لكن يبقى ما هو أعظم أن يكون للإنسان لسان قادر أن يُعطِي. فإن من ينعش العقل ليعيش إلى الأبد بطعام الكلمة أعظم ممن يشبع بطعامٍ أرضيٍ المعدة التي للجسد الذي يموت.

لهذا يا إخوة لا تمتنعوا عن تقديم صدقة الكلمة لأقربائكم. يقول بولس: "إن كنا نحن قد زرعنا لكم الروحيات، أفعظيم إن حصدنا منكم الجسديات؟!" (١ كو ٩: ١١). "أحسن إلى التقي، فتنال مكافأة عظيمة، إن لم يكن من عنده، فبالتأكيد من عند الله" (راجع سي ١٢: ٢)[٣].

الأب قيصريوس أسقف آرل

لا إحسان إلى من يُصِرّ على الشر،
أو الذي لا يتصدَّق بفرحٍ [٣].

❖ تُعطَى الصدقة، لكن بحكمة للمستحقِّين لكي ننال مكافأة من العليّ.

والويل للذين يأخذون مَظْهَرًا مُخادِعًا، والذين يقدرون على مساعدة أنفسهم ويطلبون من الغير، لأن من كان لديه ويتظاهر بمظهرٍ مُخادِعٍ أو يطلب بسبب الكسل يُدَان[٤].

---

[1] *Homilies on Philippians, homily 1.*

[2] *Treatise 4 on the Lord's Prayer, 33.*

[3] *Sermon 8:5.*

[4] *Fragments from the Hypostyposes.*

❖ كل من سألك فأعطه بغير مقابلٍ (لو ٦: ٣٠). فإن الآب يريد أن يشترك الكل في النِعَم التي لدينا. طوبى للذي يعطي حسب الوصية، إذ هو بلا لومٍ. **ويل لمن يأخذ بغير احتياج.** إن أخذ أحد عن عوزٍ يُحسَب بلا لومٍ. أما إن أخذ عن غير عوزٍ، فسيُعطي حسابًا عن السبب والهدف اللذين من أجلهما أخذ. إنه يُلقَى في السجن، ويُسأل عن مسلكه، ولا يخرج من هناك حتى يوفي الفلس الأخير (مت ٥: ٢٦). لكن قيل أيضًا في هذا الصدد: ليبتل إحسانك بعرق يديك[١]، حتى تعرف لمن تعطي[٢].

الديداكية

أعطِ الإنسان التقي،

ولا تُساعِد الخاطئ [٤].

ربما يتساءل أحد: كيف يمكن إن يتمم الوصية: "من سألك فأعطه" (مت ٥: ٤٢) وأيضًا: "إن جاع عدوك فأطعمه" (رو ١٢: ٢٠)؛ وفي نفس الوقت: "لا تساعد الشرير (الخاطئ)" [٤]؟

❖ لتنفذ الرحمة مع الشرير، ليس بكونه شريرًا، أي لا تقبل الشرير بكونه شريرًا، لا تقبله لأنك تميل إلى شرّه وتستحسنه. فإنه ممنوع العطاء للشرير... لكن كيف ننصت إلى القول: "من سألك أعطهِ" (مت ٥: ٢٤)، وأيضًا: "إن جاع عدوك فأطعمه" (رو ١٢: ٢٠)؟ ربما يبدو في هذا نوع من التناقض، لكن لنفتح لمن يقرعون باسم المسيح، ويصير الأمر واضحًا لمن يسأل...

إن سألني خاطئ، أعطيه، ليس بكونه خاطئًا. متى تعطيه كخاطئ؟ عندما ما تعطيه ما يجعله خاطئًا، وتُسر عندما تعطيه... ليت الذين يعطون إنسانًا يصارع وحوشًا يخبرونني لماذا يعطونه؟.. عندما تُعطي، أعطيه لكي تجعله في خزي، لا في تباهٍ (بالخطأ)[٣].

❖ يبدو في نهاية العبارة أنها تشجب الحنو، إذ تقول: "لا تساعد الخاطئ". يجب أن تفهم "الخاطئ" هنا يُمَثِّل رمزيًا الخطية، فما نتوقَّف عن مساعدته هو خطيته[٤].

القديس أغسطينوس

---

[١] المصدر غير معروف. ربما كتبه عن التعبيرات المتداولة في ذلك الوقت ألاَّ تقدم المحبة أو العطاء بغير تمييز.

[2] *Didache 1:5-6.*

[3] *On Ps 103 (102)*

[4] *Christian Instruction: Admonition and Grace, Chapter 16: 24.*

❖ مكتوب: "ضع خبزك وخمرك على مدفن البار، ولا تأكل ولا تشرب منهما مع الخطاة" (طو ٤: ١٨)، والذي يُقَدِّم خبزًا وخمرًا للأشرار، يُقَدِّم العون للأشرار من أجل شرِّهم. هناك بعض الأثرياء يطعمون مهرجي المسرح ببزخٍ، بينما الفقراء المسيحيون يتضورون جوعًا. أما من يقدم الخبز للأثيم لأنه إنسان بشري، وليس لكونه أثيمًا، فإنه في الحقيقة يطعم متسولاً بارًا وليس خاطئًا، إذ يحب فيه طبيعته البشرية وليس خطيته[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

أَحسِن إلى الإنسان المتواضع، ولا تُعطِ الشرير.

امنعه من خبزه، ولا تُعطِه إياه، لئلا يسود به عليك.

فتجني من الشرّ ضِعْف كل ما كنت تصنع إليه من الخير [٥].

"أَحسِن إلى الإنسان المتواضع". هذه الوصية كما يقول **البابا غريغوريوس (الكبير)** مُوَجَّهة إلى الأغنياء الذين يُجامِلون المُسرِفين في ولائمهم، بينما يُعانِي الفقراء من الجوع[2]. يليق بنا أن نعطي الفقراء بكونهم بشرًا وليس كخطاة، فإن أدركنا أنه يستخدم العطاء في الشرّ لا يجوز لنا مساندته.

لأن العليَّ يمقت أيضًا الخطاة،

ويجازي الأشرار بالعقاب [٦].

يعاقب الربّ الخطاة الذين يصرّون على شرورهم وعدم الرجوع إليه بالتوبة.

أعط الصالح، ولا تساعد الخاطئ [٧].

عمل الوصية الإلهية السمو بالإنسان تدريجيًا، خاصة في ممارسة الحب والعطاء وعدم الاعتداء على الغير. هذا ما أوضحه **القديسان يوحنا الذهبي الفم وأغسطينوس** وغيرهما. ولتوضيح ذلك نُقَدِّم في سطور درجات سُلّم الحب:

أ. في الحضيض يميل الإنسان إلى **مهاجمة الغير بدون سببٍ**، فكانت بعض القبائل تهاجم القبائل المجاورة لمُجرَّد الاستيلاء على بعض ممتلكاتهم أو السيطرة عليهم. كما نلاحظ بعض الأطفال قبل أن يتعلَّموا الكلام يميلون إلى خطف ما بيد الأطفال الآخرين بالرغم من عدم استخدام ما يخطفونه.

ب. إذ يصعد الإنسان سلم الحب، لا يعتدي على أخيه بلا سببٍ، بل إن اعتدى الأخ عليه **يرد**

---

[1] البابا غريغوريوس (الكبير): الرعاية، ج ٣، ف ٢٠، عظة ٢١، ترجمة جورج فهمي حنا، ٢٠٠٤.

[2] *Pastoral Care 3: 20.*

الاعتداء باعتداء مضاعف حتى يؤدِّبه فلا يكرر ذلك.

ج. رفض الناموس الموسوي الدرجتين السابقتين، وسمح للإنسان من أجل ضعفه البشري أن يضبط نفسه، **فلا يرد الاعتداء إلاَّ بذات القدر:** "عين بعينٍ وسن بسنٍ".

د. يمكن للإنسان المؤمن أن يسمو **أكثر، فيرد الضربة بأقل منها** لمُجرَّد التأديب لا القصاص.

هـ. ما هو أسمى أن **يغفر الإنسان لأخيه عما فعله ضدّه.**

و. جاء السيد المسيح، فدعانا لمجد حرية أولاد الله **نرد الشرّ بالخير**، وليس مُجرَّد تنازل المؤمن عن حقه. ما كان يمكن البلوغ إلى الدرجة الأخيرة قبل مجيء السيد المسيح، ونوالنا نعمة البنوة لله. لذلك جاءت الوصايا في العهد القديم للإحسان إلى الإنسان التقي، وسمحت له ألاَّ يحسن إلى الشرير.

منعت الوصية الإحسان للخاطئ ليس كراهية له، وإنما لكي يُراجِع نفسه ويرتد عن شرّه، ويطلب حياة التقوى. أراد الرسول أن يسند المؤمنين إخوتهم للنمو في الحياة التقوية المقدسة، إذ يقول: "فإذًا حسبما لنا فرصة، فلنعمل الخير للجميع، ولاسيما لأهل الإيمان" (غل ٦: ١٠).

٢. الحكمة في اختيار الأصدقاء

في الظروف الصعبة يمكننا فرز الصديق المُخْلِص من العدو المُتستِّر في ثوب الصداقة. بحكمة يُدرِك المؤمن الصديق الحقيقي من العدو الذي على شفتيه حلاوة، بينما يُخَطِّط لانحدار صديقه في حفرة. قد تدمع عينا العدو كمن يشفق عليه، بينما يكمن في داخله شهوة سفك دمه.

كما قدَّم ابن سيراخ نصائح عملية بروح الحكمة والتقوى بخصوص الإحسان، يُقَدِّم هنا **نصائح يليق بالمؤمن أن يُراعِيها في اختيار الصديق**، وهي:

أ. يفرز الضيق الصديق من العدو. الأول بكل قلبه وإمكانياته يريد أن يساعد، أما الثاني فتظهر على ملامحه وسلوكه روح العداوة، مثل تركه له وتجاهله وسط الضيق [٨- ٩].

ب. عدم التسرُّع في اختيار الصديق، حتى يكشفه الزمن ويُمَيِّزه.

ج. عدم الانخداع بالمظهر، فقد يبدو الشخص متواضعًا، لكن الزمن يكشف أعماقه المتعجرفة [١١].

د. عدم إعطائه الفرصة للتقرُّب إليه مادام مصممًا على الشر، لئلا يغتصب صديقه [١٢].

هـ. نحذر من هو كالحية تتحيَّن الفرصة لتلدغ الراقين أو كوحش يفترس من يقترب إليه [١٣].

و. يلزم ألا ننخدع بابتسامة أو دموع من في داخله يشتهيَ سفك الدم [١٥- ١٦].

لا يُعرَف الصديق وأنت في السرَّاء،

ولا يُخفي العدو نفسه وأنت في الضرَّاء [٨].

في سرَّاء الرجل أعداؤه يحزنون،

وفي ضرَّائه ينصرف عنه حتى صديقه [٩].

لا تثق بعدوّك أبدًا،

فكما يصدأ النحاس هكذا هو شره [١٠].

لا يتوقَّف عدو الخير عن مقاومة أولاد الله، مستخدمًا البشر أو الملائكة الأشرار لمقاومتهم، لهذا يُحَذِّرنا ابن سيراخ من هؤلاء الأعداء، بكونهم أدوات إثم يعملون لحساب مملكة الظلمة.

المسيحي ليس إنسانًا معزولاً عن المجتمع، بل إيجابي معه، خادم للجميع ومحب للكل. لكن لا يجاري أولاد العالم في شرّهم، أي لا يُمارِس الحب على حساب خلاص نفسه أو نفوسهم، لهذا طالبنا الكتاب المقدس بضرورة الاهتمام باختيار الأصدقاء (مز ١: ١؛ ١ كو ١٠: ٣٣؛ ١ كو ٥: ٦-٧).

❖ المجالسة مع الذين ليسوا حكماء ثُقِّفت القلب، ومحادثة الفضلاء ينبوع عذب.

❖ لا تتنازل مع المسترخين، وإلا صيَّرت نفسك في الدرجة السفلى، بل لتكن مناجاتك مع مُحِبّي الخير، ليكون سكناك معهم في الأعالي. ليكن مقامك بشجاعةٍ في المواضع التي فيها المعرفة العليا. اذهب إلى بلدة النور، ولا تنزل عند الخطاة.

مار اسحق السرياني

❖ هذا هو وقود الشيطان الذي يُصارِعنا، والذي يوقد النار التي تحرقنا: الحديث الفاسد مع العلمانيين... وأم الشرور إنما هي الحنجرة ومعاشرة الإخوة البطالين. فإن تعرَّت نفوسنا من هذا الوقود المحرق لا تقع في مصائد مصارعنا، وبسرعة تقدر أن تطير إلى الله، وبه تتخلَّص من مكائد إبليس.

صداقة رفقاء الكسل واللهو تملأك شراهة وشرًا. آه ما هذه المحبة النجسة والفعل الطامث؟! اهرب من الذين اعتادوا على هذا يا أخي. لا تأكل معهم، ولا تُصادِقهم. نجسة هي مائدتهم، ويكون الشياطين مساعدين لتهيئتها، محبو الختن المسيح لا يذوقونها. وليمة الإنسان الشره الملهي بالأطايب... تدنس نفس الوديع، وكسرة خبز يابسة من مائدة طاهر النفس، تجليها من كل الأوجاع والأدناس. رائحة مائدة الشر تفسد نية الأطهار، والطفل ينجذب إليها، مثل الكلب إلى بيت الجزار. والمواظب كل حين على الصلاة، مائدته تفوق رائحة المسك، ومن هو محب لله يشتاق كمثل الكنز.

الشيخ الروحاني

❖ إن كان أحد يحبني وأنا أحبه للغاية، وعلمت أنه قد لحقني نقص بسبب محبته، أقطعه مني، وأنقطع عنه بالكلية.

الأنبا أغاثون

❖ إن كانت لك صداقة مع أحد الإخوة وانتابك ضرر بسبب مخالطتك إياه، فأسرع واقطع نفسك منه. لست أقول لك هكذا أيها الحبيب لتبغض الناس، كلا. وإنما لتقطع أسباب الرذيلة.

مار أفرآم السرياني

❖ اسمع ما يقوله الرب: "فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك. خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تُلقَى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان. وأن أعثرتك عينك فأقلعها وألقها عنك. خير لك أن تدخل الحياة أعور من أن تُلقَى في جهنم النار ولك عينان" (مت ١٨: ٨-٩).

إنه لم يقل ذلك عن الأعضاء، بل من أجل الإخوة والأقرباء الذين لهم عندنا في منزلة الأعضاء الضرورية... فيقول إنه ليس شيء أَضرّ من الاجتماع الرديء والمؤانسة الخبيثة، لأن الصداقة مرارًا كثيرة تضر أو تفيد... فيأمرنا بصراحة شديدة أن نقطع الذين يضروننا...

إنه لم يقتصر على إعطائه الويل لمن تأتي منه الشكوك، بل أظهر لنا الطريق التي يَخْلُص بها الإنسان من الشكوك. ما هو هذا الطريق؟ قال: اقطع صداقة الأشرار، ولو كانت في الغابة... فلا تربحهم وتهلك معهم نفسك.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أوصيك يا ابني ألا تمشي في الطريق مع إنسانٍ ليس لك منه منفعة روحية، لئلاَّ تتعثَّر في مسيرتك. ولا تُصاحِب إنسانًا غضوبًا أو حاد الطبع.

ولا تُشارِك إنسانًا نمَّامًا أو كثير الكلام.

لا تمشِ مع الحاسد، لأن "الودعاء يرثون الأرض" (مت ٥:٤).

لا تمشِ في الطريق مع إنسان متراخٍ.

ولا تُصادِق إنسانًا مبلبلاً، ولا مع مَنْ له صداقة مع امرأة.

بل احترس لنفسك حسب قوتك ألا تكون لك صداقة مع امرأة.

ولا تمشِ في الطريق مع مَنْ هو أصغر منك حتى لا تأتي إلى وراء.

القديس اسطفانوس الطيبي

وحتى إن تواضع ومشى مُطْرِقًا،

فلاحظ نفسك واحترس منه.

لتكن معه كمن يجلي مرآة،

وستعرف أنها لا تفسد على الدوام [١١].

❖ لا تُفسد وصية الله من أجل صداقة أحدٍ. لا تعُد إلى المدينة التي أخطأتَ لله فيها مرةً أخرى. لا تتخلَّ عن العبادة لئلاّ يصير ذلك لك فخًّا وعثرة.

الطوباوي أنبا أنطونيوس

لا تجعله يقف بجوارك، لئلا يقذف بك ويحتلّ مكانك.

لا تُجلِسه عن يمينك، لئلا يطمع في كرسي كرامتك،

عندئذٍ تفهم كلماتي أخيرًا، وتُنخس بالحزن بكلماتي [١٢].

يُحَذِّرنا **القديس باسيليوس** من الحسد، لأنه يُقَدِّم نوعًا بغيضًا من الصداقة التي لا تعرف الحب الحقيقي، إنما كل ما يشغل الصديق أنه يطمع فيما لدى صديقه سواء من مالٍ أو كرامةٍ أو امتيازٍ.

❖ ليس في قلب الإنسان هوَى مُفسِد مثل الحسد. ليس ما يُلحق الضرر بالإنسان مثل المصاب به. وكما أن الصدأ يُفسِد الحديد، فإنّ الحسد يُفسِد الإنسان المُصَاب به. الحسد حزن تلده سعادة القريب. فلا يخلو الحسود أبدًا من فرص الحزن. هل حقل الجار خصيب؟ وهل داره ممتعة؟ وهل هو سعيد؟ كل ذلك يدفع الحاسد إلى تنمية مرضه وإلى زيادة عذاباته. إنه يشبه إنسانًا عاريًا، يصوّب سهام كل شيءٍ في جرحه. هل هناك أحد قوي وفي صحة جيدة؟ إنها ضربة تصيب الحاسد. هل هناك إنسان جميل؟ إنه جرح جديد. هل إنسان ذكي، ينجح في أعماله، ويصنع الخير؟ كل ذلك سهام تصيب الحاسد في صميم قلبه.

أَشَق ما في هذا المرض أنه مرض مُخجِل. يشكو الحاسد أمره وتنحطّ قواه، لكن إن سألته عن سبب مرضه، يخجل أن يعترف به: "إني حاسد، وأشعر بالمرارة في قلبي، وأتألم من سعادة صديقي. ولا أحتمل نجاح الآخرين، وتبدو لي سعادة القريب مصيبة". هذا ما يجب عليه أن يقوله. لكنه يُفَضِّل ألا يقول شيئًا من كل ذلك، وأن يحفظ في صميم قلبه مرضه الذي يُضنيه.

لا يوجد طبيب أو دواء يشفي هذا المريض، لأن الانشراح الوحيد الذي ينتظره هو خراب الذين يحسدهم. وليس لبغضه إلا أمر واحد، وهو أن يرى قريبه يتحوَّل من سعيد إلى شقي. حينئذ ينهض **ويُظهر صداقة** حالما يجده يذرف الدموع. إنّه لا يعرف أن يفرح مع الفرحين، بل أن يبكي فقط مع الباكين، وهو يأسف للكارثة التي حلَّت، لا عن شعور بالتعاطف، بل ليزيد من ثقل الألم بتذكيره ما فُقِد منه... كما أنّ النسور تحوم فوق المروج والأماكن الممتعة والمطيَّبة، ولا تنقض إلا

على الجثث، كذلك الحاسد، فإنه لا يقدر أن يتوقَّف عند بهاء حياة وعظمة ما تمَّ من الأعمال، بل لا يرى في كل ذلك إلا الشوائب. وإذا أُرتُكب خطأ، وهو أمر يصعب تجنُّبه في المشاريع البشرية، فإنه يذيعه على الفور، وإليه يستند في تعريف كل إنسانٍ، وكأنه رسام هزلي لا يرى في صورة الإنسان إلا أنفًا مشوَّهًا، أو حدبة في الظهر، أو عيبًا طبيعيّا أو عرضيًا في الوجه.

فضلاً عن ذلك، فإنه خبير في التشويهات الخداعة التي تمكن من الاستهزاء بالخير، والتشهير بالفضيلة عن طريق النقيض المشابه. فالشجاع يصبح المتهوِّر، والحكيم الغبي، والعادل القاسي القلب، والمقتصد البخيل. وبكلمة واحدة، تتحوَّل الفضائل، في نظره، إلى الرذائل التي تُناقِضها"[1].

القدّيس باسيليوس الكبير

من سيشفق على راقٍ لدغته الحية،

أو على جميع الذين يدنون من الوحوش؟ [١٣]

❖ يُقال: "من الذي يرحم حاويًا لدغته الحية؟" (راجع سي ١٢: ١٣) يليق بنا أن نعرف طغيانه العنيف، حتى نهرب من تلك العبودية، ونُحَطِّم الشوق الخطير إليه. يقول قائل: "وكيف يكون ذلك ممكنًا؟" بإدخال شوق آخر، أي الاشتياق إلى السماء. فإن من يشتهى الملكوت يسخر بشيطان الجشع، ويستخفّ به. فمن يصير عبدًا للمسيح لا يعود يكون عبدًا للجشع، بل سيدًا له[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٣. الزهو مثل الوحوش المفترسة

هكذا لا يشفق أحد على من يُرافِق الإنسان الخاطئ،

ويتورَّط في خطاياه [١٤].

❖ كما أن الحيوان الشرس يفترس جسمًا رقيقًا ونبيلاً غير قادر على الدفاع عن نفسه، هكذا الزهو يغرس أنيابه العنيفة ويبث سمه ورائحته الكريهة للغاية فيك. إنه ينزع بعض الأجزاء بعد أن يشوهّها، ويبتر أجزاء أخرى ويقطعها قطعًا، ويفترس أجزاء أخرى. إنه يلقي بالجسم على الأرض، ويرتمي عليه وعينه على كل أعضائه. يهجم على كل من يقترب إلى الجسم، ولا يتركه. فمن يقدر أن يطرد هذا الوحش؟ (الله) الذي سمح بهذه المعركة يرسل ملائكته، إذ نناشده، فيُحَطِّموا جسارة

---

[1] راجع الأب صبحي حموي اليسوعي: القديس باسيليوس الكبير، لبنان. عظة ١١.

[2] *Homilies on Matthew, 10: 8.*

الوحش، ويلجموا فمه، ويطردوه. لكنه يتدخَّل في المعركة بشرط إذ يُطرَد لا نرجع نحن إليه.

هكذا بعد طرده يأمره أن يبقى بعيدًا عنا، إن كنا نحن – بعد أن خلصنا من صغاره وقد طُردت إلى كهفها، لا نزال نعاني من آلاف الجراحات نريد الرجوع إليه ونوقظه ونثيره. عندئذ لا يعود يترفَّق بنا وينقذنا." من الذي يرحم راقيًا لدغته الحية، وجميع الذين يدنون من الوحوش؟[1]"

القديس يوحنا الذهبي الفم

إنّه يبقى معك إلى حين،

وإن ترنحت بعيدًا عنه لا يقف لمساندتك [١٥].

العدوّ يتكلّم وعلى شفتيه حلاوة،

وفي قلبه يُخَطِّط أن يُسقِطَك في الحفرة.

العدو يسكب دموعًا،

وإن سنحت له الفرصة، لا يشبع من سفك دمك [١٦].

يليق بنا أن نحذر حيل إبليس المُخادِع الذي يجذبنا إلى الأشرار بكلماتهم المعسولة، وفي قلبهم يريدون أن يدفعونا إلى الهلاك.

يُحَذِّرنا القديس كيرلس الكبير من شباك الهراطقة الذين بكلماتهم المعسولة يفسدون عمل الإيمان.

إن أصابك شرّ، تجد عدوَّك هناك قد سبقك،

يبدو كمن يساعدك، ويسحب عقبك [١٧].

في تبكيت الحية، قال الرب لها: "هو يسحق رأسكِ، وأنتِ تسحقين عقبه" (تك ٣: ١٥).

هوذا الصديق الغاش الحامل روح العداوة، إذ يجد صديقه في ضيقٍ يسرع إليه ويبدو كأنه غيور عليه يريد أن ينقذه، وإذا به يسحب عقبه [١٧]. ماذا يعني سحب عقبه؟ إن كان مُخَلِّصنا قد وهبنا بالصليب أن نسحق رأس الحيّة القديمة، إبليس، إذا بهذا الصديق المزيّف يسحب عقب صديقه حتى لا يسحق رأس الشيطان!

الصداقة الأمينة، خلالها يُعلِن المصلوب سكناه في الصديقين، فيسحقان العداوة والغضب والغش والخداع أي كل ما للحية القديمة. فلا يحتمل الصديق الغاش سحق رأس أبيه إبليس، لذلك يسحب عقب صديقه.

يهزّ رأسه، ويُصَفِّق بيديه،

---

[1] *On Vainglory and the Right Way for Parents to Bring Up their Children, 1.*

ويهمس بأشياء كثيرة، ويُغَيِّر ملامحه [١٨].

الصديق المُخادِع إذ يرى صديقه في ضيقٍ يهز رأسه ويصفق بيديه ويهمس... هذه الحركات الظاهرة تعبير عن الشماتة الداخلية (مز ٢٢: ٧؛ أي ١٦: ٤؛ حز ٢٥: ٩).

لا يقف هذا العدو عند الخداع خلال الابتسامة الغاشة أو الدموع الكاذبة، وإنما يسرع ليضيف على آلام الشخص آلامًا؛ يدفع به دفعًا نحو الهلاك.

من وحي سيراخ ١٢

هب لي يا رب روح التمييز!

❖ أدعوك يا مُحِب البشر أن تهبني روح التمييز.

بنعمتك أعرف كيف أُقَدِّم الإحسان لإخوتي،

ولمن أُقَدِّمه؟ وما هي حدوده؟

كل الفضائل بدون روح التمييز تتحوَّل إلى رذائل.

تشتاق نفسي أن أُقَدِّمَك لهم،

فأنت هو شبع النفوس الجائعة وغِنَى النفوس المحتاجة.

أي خير يمكن أن أُقَدِّمه سوى التصاق الكل بك يا صانع الخيرات؟!

هب لي أن أَترفَّق بالخطاة،

كما تترفَّق أنت بي أنا الخاطئ.

هب لي ألا أُحسِن بجهالة وحماقة،

لئلا أدفع بإحساني للشرير، فيتضاعف شرّه.

❖ لأحب الخطاة، وأبغض الخطية! دعوت تلميذك الخائن يهوذا "يا صاحب"،

لكنك لم تمالقه، بل في حزمٍ قلت:

"يا صاحب أبقبلةٍ تُسَلِّم ابن الإنسان؟!"

هب لي ألا أَتملَّق أحدًا،

بل في جدية مع حنو أطلب خلاصهم.

ليكن أصدقائي لي كمرآة.

ألتقي بهم، فأدرك أخطائي. وبدون خداع يكتشفون هم أخطاءهم.

❖ لأقتدي بك يا من نزلت إلينا.

لقد أخذت آخر صف من صفوف البشرية.

صُلبت كعبدٍ بين لصين أثيمين، أراد المجتمع أن يتخلَّص منهما.

كنت قريبًا لهما بالجسد، يقترب صليبك مع صليبهما إلى أمتارٍ قليلةٍ.

ديماس اللص آمن بك ربًا له وملكًا. اشتاق أن تذكره في ملكوتك، فأرسلته فورًا إلى الفردوس.

ذُهِل السمائيون، إذ صار له حق الشركة في الأمجاد الإلهية.

اللص الآخر كان على نفس المسافة من صليبك جسديًا.

لكن كان في هوة عظيمة، إذ سلَّم نفسه للشرّ ورفض الإيمان.

صار ابنًا للهاوية، لا يقدر أن يلتقي بك،

حرم نفسه من التمتُّع بجلالك ومجدك!

اللص الأول صارت له دالة عندك،

يفتح لك قلبه لتقيم ملكوتك فيه.

والثاني حمل روح البغضة للحق،

فحرم بصيرته من رؤية أمجادك.

هب لي نعمة الالتصاق بك وبكل مؤمنيك الحقيقيين.

متى أراك وجهًا لوجهٍ؟!

الأصحاح الثالث عشر

الصداقة مع غنيٍ مخادعٍ متكبرٍ

يستمر هذا الأصحاح في الحديث عن الحذر بحكمة في اختيار الأصدقاء.

جاء الحديث عن الصديق ٤١ مرة في هذا السفر، وإن كان السفر ككلٍ يدور حول الصداقة مع الله والالتصاق به، والصداقة إن أمكن مع كل البشرّ في المسيح يسوع محب البشر.

في حديثه عن الصداقة يطلب الحكمة الإلهية والمخافة الربانية وحفظ الوصية خاصة الحب والقداسة. وقد عالج كل هذه الأمور بكونها جوانب متباينة لحقيقة واحدة وهي عودة الإنسان الساقط إلى الله والتصاقه به، فيسترد صورة الله المفقودة.

بالحكمة الإلهية يدرك المؤمن أن القلب المُتَّسِع بالحب يلتزم بالاعتدال، فلا ينحرف يمينًا ولا يسارًا عن الطريق الذي هو ربّ المجد يسوع نفسه (يو ١٤: ٦). **وبالمخافة الربانية** يدرك أن صداقته مع الله تقوم على بنوته له، فيكَّرمه كأبٍ، لا يخافه من أجل الحرمان من الأجرة، ولا من أجل عدم العقاب، وإنما من أجل بنوته له، يريد أن يكون أيقونة حية له. **وبحفظ الوصية** يُمارِس الحب لله ولأخيه، كما يطلب الحياة المقدسة كابن لله القدوس.

لا يعني الحذر من الأغنياء وأصحاب السلطة أن ينتقدهم، فليس جميعهم أشرارًا. لقد وُجِد إبراهيم أب المؤمنين، وكان غنيًا جدًا (تك ١٣: ٢). وداود كان ملكًا جبار بأس، قيل عنه إن قلبه مثل قلب الله. إنما يُحَذِّرنا من خطورة **الشركة مع الأغنياء وأصحاب السلاطين الأشرار:**

أ. يخشى أن يتشبَّه المؤمن بشرِّهم [١].

ب. لئلا يلتزم المؤمن أن يحمل ثقلاً أكثر من طاقته [٢].

ج. عندما يخطئ الغني المتكبر، يستطيع أن يتخلَّص من جرائمه، ويُلقي باللوم على الفقير، ويُطلَب منه أن يعتذر حتى عما لم يرتكبه (أم ١٨: ٢٣). فيعتذر المظلوم، بينما لا يبالي الغني بشيءٍ سوى نفعه الخاص وسمعته [٣].

د. لئلا يسقط المؤمن تحت خداعه، فالمتكبر يلاطف الإنسان متى كان في حاجة إليه، ويهجره أو يطرده إذا لم يكن محتاجًا إليه [٤-٨].

هـ. لا يعرف المتكبر الرحمة [١٢].

١. الحذر من الأغنياء وأصحاب السلطة [١-٨].

٢. التعامل مع حاكمٍ مقتدرٍ [٩-١٣].

٣. الشبيه يحب شبيهه [١٤-١٨].

٤. بين الغني والفقير [١٩-٢٢].

٥. الغنى صالح لمن يُحسِن استخدامه [٢٣-٢٥].

١. الحذر من الأغنياء وأصحاب السلطة

من لمس القار توسَّخ،

ومن عاشَر المُتكبِّر يصير مثله [١].

جاءت أغلب النصائح في هذا السفر تخصّ الشباب الذين لم يتمتَّعوا بعد بالخبرة الروحية الصادقة، والذين لا يدركون خطورة التصاقهم ببعض الأصدقاء الأشرار، خاصة الأغنياء منهم.

يُقَدِّم ابن سيراخ وهو الشاب الذي يلمس قارًا، ليؤكد مدى خطورة **التدنس بواسطة الصداقة الخاطئة، فالقار هنا ليس شخص الصديق ولا الغنى بل الشر والكبرياء**. رسالته هو تحذير الشباب من فئات مُعَيَّنة من البشر، مؤكدًا أن من الحكمة تجنُّب الدخول معهم في صداقات والالتصاق بهم.

يليق بالمؤمن أن ينعزل عن الأشرار في سلوكهم الشرير، وأماكن شرّهم وانحرافاتهم، فيتحاشى اختيار الأشرار كأصدقاء، من جهة سيره معهم في الطريق واندماجه معهم في فكرهم.

❖ نقرأ في سفر سيراخ *Ecclesiasticus*: "من يلمس القار يتوسخ به" (راجع سي ١٣: ١). ما دمنا مشغولين بأمور العالم، ما دامت نفوسنا مُقَيَّدة بالممتلكات والمال، لا نستطيع أن نفكر في الله بحريةٍ. "لأنه أية خلطة للبرّ والإثم، وأية شركة للنور مع الظلمة، وأي اتفاق للمسيح مع بليعال، وأي نصيب للمؤمن مع غير المؤمن" (٢ كو ٦: ١٤-١٥)، يقول الربّ: لا تقدر أن تخدم الله والمال (مت ٦: ٢٤)[1].

القديس چيروم

يرى **القديس كيرلس الكبير** أن القار الذي يلطخ النفس هو الاجتماعات التي لا تراعي القداسة.

❖ الآن يجب علينا أن نُراعِي الحذر، نحن الذين تبرَّرنا بالمسيح، وتمتَّعنا بشركة الروح القدس خلال الإيمان به، ألاَّ نختلط بشعبٍ أفكاره منحرفة، ذوي عقلية غير مقدسة. مثل هذا الشعب بالحقيقة غرباء، ينطقون بلغةٍ غريبةٍ، ويتكلمون بكلماتٍ منحرفة عن الحق. كل من يختلط بهم يتدنس تمامًا. يقول الكتاب: "من لمس القار توسخ"[2].

---

[1] *Letter to Lucinius 71: 3.*

[2] *Commentary on the Twelve Prophets.*

لا ترفع ثقلاً يفوق طاقتك،

ولا تُعاشِر من هو أقوى وأغنى منك.

كيف يُقارَن إناء خزفي بقدرٍ حديديٍ؟

يصدمه القدر فينكسر [٢].

خطورة الصداقة شاب مع شاب أغنى منه، أن يلتزم الشاب الفقير مجاراة الشاب الغني كما في تبادل الهدايا أو الولائم، فيجد الفقير نفسه مُلزمًا أن ينفق ما هو فوق إمكانياته [٢]. أحيانًا يُبهَر الشخص بغنى صديقه، ويحاول مجاراته فيكون كإناء خزفي يصطدم بإناء حديدي فيتحطَّم.

الغني يخطئ ويثبت نفسه أنّه المُساء إليه،

والفقير يُساء إليه ويلتزم أن يعتذر [٣].

صداقة الإنسان مع من هو أغنى منه تُعَرِّضه لتحطيم نفسيته، إذ يخطئ الغني ويُبَرِّر الخطأ الذي ارتكبه ويُقبَل تبريره، أما الفقير فيُظلَم من الغني، ويلتزم أن يعتذر للظالم.

إن كنت نافعًا يستغلك (الغني)،

وإن كنت معوزًا يهجرك [٤].

إن كان لك مال يُعاشِرك،

ويستنفد مالك دون أن يشعر بأسفٍ عليك [٥].

كان يليق بالغني أن يشكر الله على عطاياه مُقَدِّمًا ذبيحة شكر بمساعدته المعوزين، لكن بعض الأغنياء عوض مساندتهم للمعوزين يستغلونهم، كأن يُقَدِّمون لهم قروضًا مقابل دفع فوائد عالية أو ربا. وفي أنانيتهم إذ يشعرون أنهم غير محتاجين إلى الصديق الفقير يهجرونه.

❖ عندما لا يضع الإنسان الله أمام وجهه، ماذا يكون أمام عينيه إلا العالم؟ بمعنى آخر يجمع مالاً على مالٍ، ويهتم أن يزيد القطيع، وتمتلئ مخازنه، فيقول لنفسه: "يا نفسي لكِ خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة، استريحي وكُلي واشربي وافرحي" (لو ١٢:١٩).

❖ بحقٍ يقارن المريض بالاستسقاء بالغني الطمَّاع. الأول كلما نال رطوبة غير طبيعيَّة زاد عطشه، هكذا الغني الطمَّاع الذي نال غنى بفيضٍ يسيء استخدامه، فيزداد شغفًا لمحبَّة الغِنَى[1].

---

[1] *Quaest Evang 2: 29.*

القديس أغسطينوس

❖ حقًا أن حياة الإنسان لا تقوم على ممتلكاته خلال ما لديه من فيضٍ، إنما يُحسَب مُطَوَّبًا وذا رجاء مجيد من كان غنيًا بالله[1].

القدِّيس كيرلس السكندري

❖ لا تقوم حياة الإنسان على فيض ما يملكه من الأشياء[2].

القدِّيس إكليمنضس السكندري

❖ إذا قدَّمت لله جزءًا ممّا اقتنيته ظلمًا واغتصابًا، لن يَقْبَل عطيّتك... لترحم من ظلمته، صانعًا معه رحمة ومحبّة... فالله لا يشاركنا جشعنا، ولا يشاطر اللصوص والسالبين، ففي استطاعته أن يُطعِم الفقراء الذين عهد لنا بهم، لكنه يطلب ثمار البرّ ومحبَّة الناس.

البابا أثناسيوس الرسولي

❖ "يتعب باطلاً وبغير منفعة، ذاك الذي يتعلَّق بالثروة التي سوف لا يذوقها" (أي ٢٠: ١٨ *LXX*). ما هي فائدة فخامة قصر يقطر ذهبًا إن كان الشرير نفسه يدفن ستة أقدام تحت (الأرض)؟ ما هي فائدة كثرة ثياب الفرح وتنوُّع الملابس لشخص تجرده الهوام؟

الأب هيسيخيوس الأورشليمي

❖ هل الغِنَى يجعلك تعيش مدة أطول؟ فلماذا إذن تظهر شرورًا من أجل راحة غير مضمونة؟

الأب ثيؤفلاكتيوس

❖ يلزمنا أن نعرف أن الطمع أحيانا يتسلَّل إلى الناس عن طريق الكبرياء، وأحيانًا عن طريق الخوف. لذلك فإن البعض يهدفون نحو الظهور بسلطانٍ أعظم، ويلتهبون نحو نوال ما هو للغير. أيضًا يوجد أناس يخشون لئلا يصيروا في عوزٍ إلى ضروريات الحياة، فيُسَلِّمون أذهانهم للطمع ليطلبوا ما هو للغير، مُتخيِّلين أن ما لديهم لا يكفيهم.

البابا غريغوريوس (الكبير)

إن احتاجك يخدعك، ويبتسم إليك،
ويعطيك رجاءً ويُكَلِّمك بالخير، بل ويقول: "ماذا تحتاج؟" [٦]

---

[1] *In Luc Ser. 89.*

[2] *Strom 4: 6.*

يُخجلك بأطعمته، حتى يستنزفك مرتين أو ثلاثًا، وأخيرًا يسخر بك.

وإذا رآك بعد ذلك ينساك، ويهز رأسه عليك [٧].

يدعونا ابن سيراخ إلى الهروب من مائدة الشرير، لأنه وهو يُقَدِّم لك الأكل والشرب لا يحمل في داخله حبًا حقيقيًا، إنما ما يشغله هو تكلفة المائدة التي قدَّمها لك، أو كيف يستغل تقديم الوليمة ليدفعك إلى الشر. يقول الحكيم: "لا تتفاخر أمام الملك، ولا تقف في مكان العظماء، لأنّه خيْرٌ أن يقال لك ارْتفعْ إلى هنا، من أن تحطّ في حضرة الرئيس الذي رأته عيناك" (أم ٢٥: ٦-٧). يُقَدِّم لنا السيد المسيح نصيحة عند الدعوة إلى الولائم، قائلاً: "متى دُعِيت من أحدٍ إلى عُرْسٍ فلا تتَّكئْ في المتّكأ الأول، لعلّ أكْرم منْك يكون قدْ دُعي منْه. فيأْتي الذي دعاك وإيّاه ويقول لك: أعطِ مكاناً لهذا. فحينئذٍ تبْتدئ بخجلٍ تأخذ الموضع الأخير. بل متى دُعيت، فاذهب واتَّكئ في الموضع الأخير، حتّى إذا جاء الّذي دعاك، يقول لك: يا صديق ارتفعْ إلى فوق. حينئذٍ يكون لك مجْدٌ أمام المتّكئين معك. لأنّ كلّ من يرْفع نفْسه يتَّضع، ومن يضع نفْسه يرْتفع" (لو ١٤: ٨ -١١). يليق بالمؤمن أن يتحلَّى بضبط النفس والعفة الشاملة، عفة البطن وعفة اليد واللسان والحواس.

احذر لئلا تضلّ،

وتُذَلّ في غبائك [٨].

٢. التعامل مع حاكمٍ مقتدرٍ

إذا دعاك حاكمٍ، تمهَّل في قبول الدعوة،

فغالبًا يزيد من دعوته لك [٩].

لا تضغط عليه لئلا تُرفَض،

ولا تنسحب لئلا تُنسَى [١٠].

لا تنوي على محادثته كمساوٍ له، ولا تثق بفيض كلامه،

فإنه يختبرك بكثرة الحديث، وبينما يبتسم يفحصك [١١].

عادةً توجد حساسية فطرية في الإنسان تجاه من كان من ندّه، أي كان مساويًا له في السن أو التعليم أو العمل. فالإنسان يتعامل بشفقة مع من يصغره دون أن يغير منه، وأيضًا مع من يكبره سنًا دون غضاضة، لأن سنه يهبه الحق في التقدُّم عليه. يُنَبِّه ابن سيراخ الشباب الفقراء، ألا يتكلموا كثيرًا، وألا يكشفوا أسرارهم أمام الشباب الأغنياء وأصحاب السلطة.

من لا يصون كلماتك فهو بلا رحمة،

ولا يتردَّد في أذيتك أو سجنك [١٢].

احفظ كلامك لنفسك وتنبَّه،
فإنك تمشي على شفا سقوطك [١٣].

٣. الشبيه يحب شبيهه

وهب الله أغلب الكائنات أن يحب الكائن ما يشبهه. بهذا تكوَّنت الأمم والقبائل، إذ يتعايش ويتعاطف الشعب معًا بسبب وحدة اللغة وتشابه اللون والثقافة. وفي مملكة الحيوانات نراها تخرج معًا، فالأسود تسير معًا في قطيع واحد، وهكذا النمور والدببة والغزلان، ولا نجد حملاً يرعى بين الذئاب أو الثعالب، ولا قطة بين ثعابين أو حمامة تطير في سرب غربان. فلا ندهش إن رأينا جماعات من نوعٍ واحدٍ من الطيور تتطير معًا وتهاجر معًا أيضًا وفي هجرة الأسماك تنطلق الأسماك من نوعٍ مُعَيَّن معًا. أما في كنيسة العهد الجديد، فيتعاطف البشر معًا ليس على أساس وحدة اللغة ولا لون البشرة ولا الثقافة، إنما يتَّسِع قلب المؤمن مُتعاطِفًا بني البشر، مشتهيًا أن يصير الكل أيقونة الله ويصير العالم كله "أمة مقدسة" (١ بط ٢: ٩)؛ أي مملكة الله الواحدة.

كلّ كائن حيّ يحب ما يُشبِهه،
وكل إنسانٍ يحب قريبه [١٤].

❖ غرس الله في طبيعتنا جاذبية، تربطنا بعضنا ببعض بالحب. "كل وحشٍ (مخلوق) يحب ابن جنسه، وكل شخصٍ يحب قريبه" (راجع سي ١٣: ١٥). انظروا أنه يوجد في طبيعتنا بذورًا تميل بنا إلى الفضيلة؛ بينما البذور التي للرذيلة مضادة للطبيعة. فإن كانت الأخيرة هي المُهَيمنة، فهذا ليس إلاَّ شهادة عن خمولنا الشديد[1].

❖ إننا جميعًا بالطبيعة نتَّخذ موقفاً وديًا، فنشعر بالسخط مع أولئك الذين يعاملون باستخفاف... ونتعاطف مع الذين يتمتَّعون بالعون والحماية، ونُغلَب بواسطة المحن التي تحل بالآخرين، كما لنا الحنو المشترك. فبالرغم من أن الأحداث المؤلمة تبدو كما لو كانت تدفع إلى نوعٍ من الجبن، إلا أننا نضمر نوعًا من الحنان المشترك. يتحدَّث أحدهم عن هذا موضحًا: "كل كائن حي يحب ابن جنسه، وكل إنسانٍ يحب قريبه"[2].

---

[1] *Homilies on Ephesians, 2.*

[2] *Concerning The Statues, Homily 13 : 9*

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "كل مخلوق يحب ابن جنسه، حسب القول: "يبحث الناس إلى الاتحاد مع من هم مثلهم". يبدو أنه مرغوب جدًا حتى بيننا أن نعيش مع من لهم ذات عاداتنا، فكيف يمكننا أن نهرب من التفكير في أن هذا الأمر بالنسبة لله؟ فإذ هو صالح بالطبيعة، وهو بدء كل الفضائل ومصدرها، يأخذ مسكنه ليس في محبّي الشر، بل في فاعلي الفضيلة، ويترفَّع عن الدنس[1].

القديس كيرلس الكبير

في عظة **للأب قيصريوس أسقف آرل** على أعياد الشهداء القديسين، يرى أن الاحتفال بالشهداء القديسين يتحقق عمليًا بالشركة معهم وأن نقتدي بسلوكهم، كقول الحكيم: "كل مخلوق يحب ابن جنسه" (راجع سي ١٣: ١٤).

❖ إذ نرغب في الاحتفال بأعياد الشهداء القديسين، فإن الشهداء الطوباويين يريدون أن يتعرَّفوا على بعض فضائلهم فينا، فيُسرّوا بنا ويطلبون رحمة الله لحسابنا... فالشبيه يُرافِق ما يشبهه، وأما ما لا يشبهه فيعتزل بعيدًا عنه. انظروا إلى قديسنا الشفيع، الذي نريد بغيرة أن نحتفل بعيده فرحين، إنه ضابط النفس، فكيف يمكن لسكيرٍ أن يُرافِقه؟ أية شركة بين نفسٍ متواضعة ونفسٍ متكبرة[2].

الأب قيصريوس أسقف آرل

كل جسدٍ يقترن بحسب جنسه،

وكل إنسان يتمسَّك بمن هو كنفسه [١٥].

غاية التعامل مع بني جنسنا ليس المزاح والتسلية بل خلاصنا الأبدي.

❖ لا تتكلم مع كل أحدٍ عن الرحمة والحياة الفاضلة. وأنا لا أقول هذا حسدًا، إنما لأني أحسب أنك ستكون في عيني الغبي كمازحٍ. يتَّفِق الإنسان مع من يشبهه، والسامعون لمثل هذه الأحاديث (الروحية) قليلون، أو بالحري نادرون جدًا، لهذا من الأفضل ألا نتكلم، إذ ليس (مجرد الحديث معهم) هو ما يريده الله لأجل خلاص الإنسان[3].

القديس أنطونيوس الكبير

أيّ انسجام بين ذئبٍ وحملٍ؟

---

[1] *Commentary on the Gospel of John 10:14:24.*

[2] *Sermon 225 on the Feasts of the Holy Martyrs.*

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٨٤.

هكذا شأن الخاطئ مع الإنسان التقي [١٦].

أيّ سلام بين الضبع والكلب؟
وأيّ سلام بين الغني والفقير؟ [١٧]

حمير الوحش في البرية فريسة الأسود،
كذلك الفقراء هم مراعي الأغنياء [١٨].

يلجأ سيراخ إلى عالم الحيوان ليُوَضِّح التباين الخطير بين أنواع من البشر، ففي عالم الحيوان يفترس بعضهم البعض. فالذئب يفترس الحمل [١٧]. ليس ما يمكن أن يُقَدِّمه الحمل ليُعالِج موقف الذئب منه سوى الهروب من الصحبة معه. في نفس الوقت من الجانب الإيجابي ليست الثروة ذاتها شر، بل الشرّ يكمن في فكر الإنسان وإرادته الشريرة.

إذ دخلت الخطية إلى العالم فسدت حتى بعض الخلائق غير العاقلة، فالأسد القوي لا يكفّ عن افتراس الحيوانات الأضعف منه مثل حمير الوحش. والأغنياء يستغلّون الفقراء ويحسبونهم مرعاهم. عادة لا نجد الفقير ساكنًا بجوار الغني، لأن الغني غالبًا ما يستغل الفقير، وبوسيلة أو أخرى يضع يده على ما يملكه الفقير، إن لم يضع يده أيضًا على الفقير نفسه! كما فعل أخآب الملك وزوجته إيزابل مع نابوت اليزرعيلي (١ مل ٢١)، فسلب كرمه، ودبَّرت الملكة مؤامرة لقتل نابوت. قلة قليلة يسيطرون على المراكز القيادية الكبرى، أما الثمن فيدفعه الفقراء؛ فيزداد الأغنياء غنى، والفقراء فقرًا.

❖ إنهم لا يبالون بالبرّ؛ عوض ذلك بالتطلُّع إلى النفع (الذاتي)، استبدّوا بالمحتاجين، لينتفعوا من البائسين ويستخدمونهم كنعالٍ (عا ٨: ٦). يقول الكتاب المقدس: "الفقراء هم مراعي الأغنياء" [١٨]... محبة القريب مرتبطة بإنجازات البرّ، فبالحق "المحبة لا تصنع شرًّا للقريب" (رو ١٣: ١٠)[1].

القديس كيرلس الكبير

٤. بين الغني والفقير

يرى ابن سيراخ خطورة التفاوت العظيم بين البشر من جهة الثروة والسلطة، خاصة إن نقص المجتمع الحكمة الحقيقية.

المتكبر يمقت انخفاض المنزلة،

---

[1] *Commentary on Amos, Chapter 8.*

وهكذا الإنسان الفقير رجس عند الغني [١٩].

يرى المتكبر في التواضع نجاسة، وفي نفس الوقت يقيم من نفسه إلهًا، فيصير مثل ضد المسيح الذي يدَّعي التأله، ويقيم رجسة خراب في الهيكل.

إذا ترنَّح الغني يسنده الأصدقاء،

وإذا سقط المسكين يدفعه الأصدقاء [٢٠].

عندما يتعرَّض الغني للعثرة (ترنح)، يعتمد على ثروته وأصدقائه لتقديم العون له. أما إنسان الله فيجد في الله نفسه ونعمته الغنية العون الحقيقي والتعزية السماوية التي تخترق أعماقه.

❖ أحسب أن الحياة التي تعبر في شركة مع بعض الأشخاص في ذات المسكن أكثر نفعًا من جوانب كثيرة. أسباب هذه هي: أولاً ليس أحد منا مكتفيًا بذاته، بخصوص الاحتياجات المادية، إنما كل واحدٍ يطلب مساعدة الآخر لسد احتياجاتنا. القدم كمثال لها نوع من القوة وينقصها نوع آخر. وبدون التعاون مع الأعضاء الأخرى التي للجسد تجد نفسها عاجزة عن ممارسة نشاطاتها مستقلة عن غيرها لمدة طويلة... هكذا في حياة العزلة، ما في اليد يصير غير نافع لنا، وما ليس لدينا لا نقدر أن نحققه، حيث سنَّ الله الخالق أنه يلزمنا أن يساعد الواحد الآخر كما هو مكتوب، حتى نجتمع معًا[1].

القديس باسيليوس الكبير

عندما يزلّ الغني يعينه كثيرون،

وعندما يتكلم بكلمات رديئة يبرئونه.

إن زلّ المسكين يُوَبِّخونه بالأكثر،

وعندما يتكلم بعقلٍ، لا يُعطى له مكان [٢١].

إذا سقط المسكين لا يسنده أحد، بل يدفعه أصدقاؤه بالأكثر إلى أسفل ليتخلَّصوا منه. هذا ما حدث مع ربّ المجد يسوع في محاكمته حتى لا ينتظر تلاميذه عونًا أو مديحًا من الناس.

عندما يتكلم الغني يسكت الجميع،

ويرفعون قوله إلى السُّحب.

ويتكلم الفقير فيقولون: "من هو هذا الإنسان؟"،

وإن تعثَّر يدفعونه بالأكثر إلى أسفل [٢٢].

---

[1] *Long Rules, Q. 7.*

٥. الغنى صالح لمن يُحسن استخدامه

الغِنَى الذي ليس فيه خطيّة خير،

لكن الفقر فَشَرّ في فم الشرير [٢٣].

لئلا يُظَّن أحد أن كل الأغنياء أشرار أو قساة أو مستغلّون للفقراء، أوضح أن الغِنَى صالح لمن يُحسِن استخدامه، وقبيح لمن يُسيء استخدامه. إن كان وجه الإنسان تارة يحمل ابتسامة عذبة وملامح جذَّابة متى كان القلب نقيًا، وتارة يحمل علامات العنف والقسوة أو الغضب متى كان القلب غضوبًا، هكذا يكون الغِنَى.

هل الغِنَى خطية؟ ما يشغل المؤمن هو تقديس قلبه الذي ينعكس حتى على ملامحه.

❖ ليتنا جميعًا نُعَلِّم أطفالنا أن يُفَضِّلوا الفضيلة عن أي شيء آخر، ولا نعطي أهمية للغِنَى المادي... إبراهيم كان غنيًا وأيضًا أيوب، هذان ليس فقط لم يصيبهما ضرر من الغنى، بل وتمتَّعا بسمعة طيبة... لأنهما لم يستخدماه لمتعتهما وحدهما، بل ولراحة الآخرين يخففان آلام الاحتياج، ويفتحان بيتهما لكل غريبٍ[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يدعونا القديس أنطونيوس الكبير إلى الحياة المعتدلة.

❖ كلما كان الإنسان معتدلاً في حياته يصير في سلامٍ أكثر، إذ لا يكون ممتلئًا بالاهتمام بأمور كثيرة من خدم وأجراء وأغنام... إلا أننا عندما نتعلَّق بمثل هذه الأشياء نصير مُعرَّضين للضيقات التي تنبع عنها، والتي تقودنا إلى التذمُّر على الله.

وهكذا فإن الشهوة النابعة عن إرادتنا الذاتية (لاقتناء أشياءٍ كثيرةٍ) تملأنا اضطرابًا، فنتخبَّط في ظلام حياة الخطية غير عارفين أنفسنا[2].

القديس أنطونيوس الكبير

قلب الإنسان يغير ملامح وجهه،

إمّا إلى الخير، أو إلى الشرّ [٢٤].

مع اهتمام ابن سيراخ بالحياة الداخلية للإنسان، وتحذيره من الحُكْمِ على إنسانٍ خلال المظاهر الخارجية، يؤكد أن الحياة الداخلية لها أثرَها الفعَّال على ملامح الإنسان الخارجية. فمن فضلة القلب

---

[1] *Homilies on Genesis, 66: 15.*

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ٦.

يتكلم اللسان، وما تحمله ملامح الإنسان من بهجة، إنما هو انعكاس لسلام القلب. قيل: "القلب الفرحان يجعل الوجه طلقًا، وبحُزن القلب تنسحق الروح" (أم ١٥: ١٣).

الوجه المبتهِج علامة القلب المملوء بالصلاح،

لكن ابتكار الأمثال يتطلب تفكيرًا شاقًا [٢٥].

شتان ما بين إنسان يُسَجِّل حِكمًا وأمثالاً مقتبسة من كلمات وكتابات الآخرين، وبين من يُسَجِّلها كثمرة لخبرة يعيشها بفكره وسلوكه. لذلك يقول ابن سيراخ المختبر الحياة المستقيمة في الربّ: "ابتكار الأمثال يتطلب جهد الأفكار".

❖ يقول أيضًا "**وَجْهَكِ جَمِيلٌ**". تستطيع أن تدرك أي نوع من "الوجه" هذا الذي مدحه كلمة الله ووصفه أنه جميل، إن فهمت ما عناه بولس بالوجه في قوله: "ونحن جميعًا ناظرين... بوجه مكشوف" (٢ كو ٣: ١٨)، وقوله أيضًا: "لكن حينئذ وجهًا لوجه" (١ كو ١٣: ١٢). إنه بلا شكٍ نوع من الوجه يتجدَّد يومًا فيومًا (٢ كو ٤: ١٦)، حسب صورة خالقه (كو ٣: ١٠)، ليس فيه دنس أو غضن أو شيء من مثل ذلك، بل يكون مقدسًا وبلا عيبٍ، كالكنيسة التي يحضرها المسيح لنفسه (أف ٥: ٢٧).

بمعنى آخر يعني النفوس التي بلغت الكمال، هذه التي تكون جسد الكنيسة، يظهر هذا الجسد بالحق جميلاً ووسيمًا، متى كانت النفوس التي تتكوَّن منه مثابرة على نوال جمال الكمال. فكما أن النفس حين تكون ثائرة تشوّه شكل الوجه الجسدي، وتجعله مثيرًا، أما إذا كانت في هدوء فتعطي للوجه شكلاً يحمل سلامًا ورقة، هكذا أيضًا وجه الكنيسة يكون جميلاً أو قبيحًا حسب سمات المؤمنين وطموحهم.

لقد كُتِب أن الوجه الطلق يُشير إلى قلب ناجح [٢٥]، وفي موضع آخر قيل: "القلب الفرحان يجعل الوجه طلقًا، وبحزن القلب ينسحق الوجه" (أم ١٥: ١٣). **يكون القلب فرحًا متى كان روح الله فيه، هذا الذي أول ثماره هي المحبة، والثانية هي الفرح (غل ٥: ٣٢). وإنني أظن أن الحكم العالمية قد أخذت أفكارها من هذه الحقائق، إذ قالت إن الحكيم جميل، وكل إنسان شرير قبيح**[1].

العلامة أوريجينوس

---

[1] *Origen: Commentary on Song of Songs 2:13-14.*

لأتكئ على صدرك لا صدر إنسانٍ!

❖ صدرك يا مُخَلِّص العالم مُتَّسِع لكل إنسانٍ!
أنت الغني المتواضع، يلتصق بك كل إنسانٍ متواضعٍ!
هب لي ألاَّ أتكئ على غني ولا صاحب سلطان.
قد يُرَحِّب بي، لكنني لست أدرك ما في قلبه من نحوي.
أما أنت فكليّ الحب، تسكب من غناك ونعمتك في قلبي.

❖ كثيرون من الأغنياء جذبهم المال،
وصار لهم أصدقاء يكرمونهم من أجل ثروتهم وسلطانهم.
متى تعثَّروا يسرع الكثيرون لمساندتهم.
ومتى أخطأوا يداهنهم الناس، ويُبَرِّرون لهم أخطاءهم.
أما أنا ففي ضعفي ألتصق بك، لأنك بالحق تحبني وتعينني.
لتُعلِن حضورك في أعماقي، فألتقي بخدامك السمائيين وجماعة القديسين.
بك أغتني ولا أكون في عوزٍ إلى شيءٍ قط!

❖ من يُقِيم صداقة مع غنيٍ شريرٍ متكبرٍ،
يكون كمن لمس القار فتوسَّخ.
ومن يُقيم صداقة معك، يرتفع قلبه إلى سماواتك.
لا يجرؤ إبليس أن يتسلَّل إليه،
ولا أن ينصب فخاخه له في الطريق.
مع كل صباحٍ يدخل إلى أمجادٍ جديدةٍ،
فتتهلل نفسه برحلته في صحبتك.
تظلل عليه، فتحميه من شمس التجارب.
وبروحك القدوس يطير كما بجناحي نسرٍ.
لا ينطلق به إلى أرض الموعد كما حدث قديمًا،
بل يحمله إلى كنعان السماوية،
فتندهش به الطغمات السماوية وتُطَوِّبه.

من يُعاشِر الغني الشرير يصير شريرًا مثله.
من يُعاشِرك أيها القدوس يستعذب الاتحاد بك!

❖ الالتصاق بالأغنياء يُمَثِّل ثقلاً على الفقراء.
يعانون منهم، وينكسرون كما ينكسر الإناء الفخاري بالإناء المعدني.
والالتصاق بك يُقَدِّم له عذوبة،
فإن نيرك حلو، وحملك خفيف للغاية.

❖ الالتصاق بالأشرار الأغنياء يعرض الفقير للظلم.
وبالالتصاق بك يتمتَّع ببرِّك، ويدخل إلى أعماقك خلال جراحات حبك.
صليبك صار مركبة إلهية تحملنا وتنطلق بنا إليك بلا عائق.

❖ الالتصاق بالغني الشرير يُعَرِّضني لاعتزاله عني.
يهجرني ويحسبني كغريبٍ عنه.
أشعر بالعزلة وأُعاني من الوحدة القاتلة.
أما الالتصاق بك يا أيها القدوس،
فيُقِيم مني عضوًا في جسدك المقدس.
ألتقي بك وجهًا لوجه، وأَتمتع بأبوة الآب، وتقديس روحك القدوس.
لن أشعر قط بالعُزلة ما دمت في حضرتك.
وأستعذب الشركة مع السمائيين والقديسين.

❖ لن تستريح نفسي حين يدعوني حاكمٍ قديرٍ.
قد يدعوني مرة ومرتين، لكن تُرَى ماذا يحمل قلبه من جهتي؟
إن جلست على مائدته لن أَتطلَّع إلى الطعام الفاخر،
لأنني لا أقدر أن أُجاريه في غناه الزمني.
وإن تكلَّم معي بابتسامة، لست أدري هل بالحق يحبني أم يختبرني.
أما أنت أيها الخبز السماوي، فتُقَدِّم لي مائدة سماوية.
لا تُرسِل لي منًا من السماء، كما فعلتَ في البرية.
بل نزلتَ إليّ تُقَدِّم لي جسدك المقدس ودمك الكريم.
بهما أَتَقَبَّل من يديك شركة الطبيعة الإلهية.

تهبني ثمار الروح من حبٍ وفرحٍ وسلامٍ،
وصلاحٍ ووداعةٍ وعفةٍ، وحكمةٍ وفهمٍ وتمييزٍ.
يا لمائدتك الفائقة المجانية التي تُشبِع قلبي وفكري وكل أعماقي!
بالحق أَتشبَّه بك، وأكون أيقونة حيَّة لك.

❖ أعماقي تصرخ إليك:
لساني عاجز عن أن يُعَبِّر عن قوة الصداقة معك،
وتطويب الشركة السرّية معك،
يا أيها العجيب في حُبِّك وصداقتك.

الأصحاح الرابع عشر

السعادة والحياة المُطوَّبة

يفتتح الأصحاح بالكشف عن **الحياة المُطوَّبة**، يترجمها البعض "الحياة السعيدة!"، غير أن الحياة المُطوَّبة في حقيقتها تحمل مفهومًا أعمق بكثير من "الحياة السعيدة" كما يفهمها الكثيرون. فالسعادة في نظر الكثيرين هي حياة تَتَّسِم باللذة والشبع والفرح والسلام الخارجي، بلا ضيقات أو متاعب في العالم. غير أن الحياة المُطوَّبة تحمل هذه السمات، لكنها تمسّ أعماق القلب، حيث يُقِيم الله ملكوته فيه (لو ١٧: ٢١). ويرفع الروح القدس أعماقه ليختبر في كل يومٍ عربون السماء على مستوى جديد، فترتفع أعماق الإنسان من مجدٍ إلى مجدٍ. في وسط المتاعب اليومية يشعر أنه أشبه بطائرٍ يُحَلِّق في السماويات، لا تستطيع فخاخ الشيطان ولا مؤامرات البشر أن تُفقِدَه سلامه الداخلي وفرحه في الربّ.

ربما يتطلَّع البشر إلى المؤمن المُطوَّب أنه إنسان محروم من أمورٍ كثيرة، رجل أحزان وآلام، أما هو إذ يسلك في صحبة المصلوب، ويستظل تحت جناحيه، يشعر أنه أسعد كائن على وجه الأرض.

في الأصحاح السابق أوضح ابن سيراخ أن الذي تكمن سعادته في تكوين صداقات مع الأثرياء الأشرار، واشتراكه في ولائمهم وحفلاتهم، سرعان ما يكتشف حماقته حينما يسقط في ضيقة، فيتخلّون عنه، كمن لم يسبق لهم معرفته. وأحيانًا يتهمونه ظلمًا ويشتهون تدميره. الخطر الحقيقي لا يصدر عن الثروة التي بين أيديهم، إنما عن الاتجاه الطبيعي للساقطين في محبة المال واكتناز الثروة.

أحد ثمار خطية آدم، أن نسله صار يميل إلى عبادة ما هو صالح عوض عبادة خالقها، إذ لم يعد يُمَيِّز بين العطية والعاطي. الثروة في ذاتها ليست مشكلة. إنما تصير خطرًا متى وُجِد الجشع، وكأن القلب الفاسد هو مصدر مشكلة الإنسان مع الثروة.

في الأصحاح الذي بين أيدينا يكشف لطالبي السعادة الحقيقية الآتي:

أ. لا تقوم السعادة على تكوين صداقات مع أثرياء، إنما تصدر عن السلام الداخلي والفرح الروحي.

ب. مشكلة الثري مُحِب المال ليس كثرة المقتنيات أو قلتها. إنما يمكنه بالتقوى أن يكون سعيدًا.

ج. علة محبة المال عدم عفة اللسان والبطن والحواس والعواطف والمقتنيات.

١. عفة اللسان وتقديسه [١-٢].

٢. عفة الفكر [٣].

٣. العفة في المقتنيات [٣-٤].

٤. العفة في السلوك [٥-١٠].

٥. العفة والعُرْسِ الأبدي [١١-١٩].

٦. جهاد بفرح وتهليل [٢٠-٢٧].

١. عفة اللسان وتقديسه

طوبى للرجل الذي لا ينزلق ويسقط بسبب بفمه،

ولا يُلدغ بالألم بسبب خطيته! [١]

يبدأ سيراخ حديثه عن العفة والقداسة بعفة اللسان وتقديسه. فإن كانت الخطية تُفسِد سلام الإنسان الداخلي، فغالبًا ما يشغل راغبو العفة والقداسة التخلُّص من الأفكار الشهوانية الشريرة، خاصة بالنسبة للشباب، فيحسبون الخلاص منها أمرًا صعبًا لغاية. غير أن سيراخ يمسك بمفتاح الفكر الذي يُسَبِّب التسيُّب في اللسان بين الأصدقاء. فتحت ستار "المحبة والصداقة وعدم الكلفة" لا يُدرِك الإنسان أهمية قدسية الكلام والحوار حتى في فترات المرح أو الترفيه أو المزاح. يليق بالمؤمن كسفير للسيد المسيح، أن يضع في قلبه أنه في حضرة الله الدائمة، ويطلب أن تعمل نعمة الله فيه، فتخرج كل كلمة صالحة لبنيان نفسه وبنيان أصدقائه، بل والمجتمع. إنه إنسان الله! يتحدَّث الرسول يعقوب عن اللسان كعضوٍ صغير لكنه كالدفة الصغيرة التي تدير السفينة كلها. حياتنا على الأرض هي فترة تدريب في مدرسة الحياة كيف نتمتَّع بتقديس اللسان لكي يُوجه بالنعمة كيان الإنسانٍ للتمتُّع بالعُرْسِ السماوي الأبدي.

❖ بالتأكيد "طوبى للرجل الذي لا ينزلق بفمه، ولا ينخسه الندم على الخطية" [١]، أو على الأقل يتوب عن خطايا اللسان[1].

❖ إن كنا نلتقي في الحفلات من أجل المحبة، وإن كان غرض هذه الأعياد هو خلق شركة مقدسة بين الضيوف، ونستخدم الأكل والشرب كأدوات للمحبة، ألا يليق بنا أن نحتفظ بأسلوبٍ يدل على ضبط العقل؟... وإن كنا نجتمع بغية إظهار الإرادة الصالحة نحو بعضنا البعض، فلماذا نثير إرادة شريرة خلال المزاح واللهو بالآخرين؟ حفظ الصمت أفضل من الدخول في شجار واستخدام الأسلوب الفظ مع خطأ في العمل. بالتأكيد: "طوبى للرجل الذي لا ينزلق بفمه، ولا ينجسه الندم على خطية" (راجع سي ١٤: ١)، أو على الأقل يرجع عن خطاياه التي ارتكبها بالكلام، أو يتحاور بدون أن يُسَبِّب ألمًا لأحدٍ[2].

القديس إكليمنضس السكندري

---

[1] *Paedagogus, Chapter 7: 53.*

[2] *Paedagogus, FOTC, vol. 23, p. 140*

يُحَدِّثنا كثير من الآباء عن عفة الحواس وكل أعضاء الجسم:

❖ يتطلَّب الجهاد للحصول على النقاوة الكاملة؛ جهاد النفس والجسد معًا في أعمال التوبة، بتناسٍق وتساوٍ. فإذا وُهِب العقل نعمة ما، يستطيع عندئذ أن يُصارِع ضد الشهوات بلا هوادة أو تراخٍ، ويَتقبَّل أفكار الروح القدس وتوجيهاته وتعزياته، ويستطيع أن يطرد عن النفس الميول الدنسة النابعة عن شهوات القلب. وبفضل الشركة بين عقل الإنسان أو نفسه والروح القدس، يساعد الروح القدس الإنسان على تنفيذ الوصايا التي تعلَّمها، ويُرشِده لطرد كل الشهوات عن النفس، سواء النابعة عن النفس ذاتها مستقلة عن الجسد، أو تلك التي لحقت بها عن طريق الجسد.

الروح القدس يُعَلِّم الإنسان أن يحفظ جسده كله – من الرأس إلى القدمين – في تناسق: فيحفظ **العينين** لتنظرا بنقاوة.

ويحفظ **الأذنين** لتصغيا في سلام، أو تنصتا إلى الأمور الخاصة بالسلام دون أن تتلذَّذا بالأحاديث عن الآخرين والافتراءات وذمّ الغير.

ويحفظ **اللسان** لينطق بالصلاح فقط، معطيًا وزنًا لكل كلمة، فلا يسمح لشيءٍ دنس أو شهواني أن يختلط بحديثه.

ويحفظ **اليدين** لتتحرَّكا طبيعيًا فترتفعان للصلاة ولصنع الرحمة والكرم.

ويحفظ **المعدة** ليكون لها حدود مناسبة للأكل والشراب، وذلك حسب القدر الكافي لقوت الجسد، فلا يترك الشهوة أو النهم ينحرفان بها، فتتعدَّى حدودها.

ويحفظ **القدمي** ليسلكا ببر حسب إرادة الله، بهدف القيام بالأعمال الصالحة.

بهذا يكون **الجسد كله** قد اعتاد على كل عمل صالح، وصار خاضعًا لسلطان الروح القدس، فيتغيَّر شيئًا فشيئًا حتى يشارك – إلى حدٍ ما – في النهاية في صفات الجسد الروحي الذي يناله في القيامة العادلة[1].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ كان آدم مجيدًا أكثر من التاج بجماله العظيم، **ولم يوجد في المخلوقات جمال آخر ندّه.**

وضع صائغه **عيني النور** على قمة التاج، ليتطلَّع إلى المخلوقات المحيطة به كما من العلو.

وأتقن له في الأسفل **رِجلين** للركض كالمركبة، وبواسطتهما يمشي حيثما شاء أن يسير.

وأتقن في جانبيه **يدَين** وفيهما **الأصابع العشر**، وبها يستولي على البحر واليابسة وكل العالم.

---

[1] رسالة ١.

وأتقن **المخ** بيت العقل ليكون هناك، ويسكن في الطابق العلوي مثل الإله.
وصنع له **حَنَكًا** ليفحص الأطعمة، ووضع فيه طعمًا ليُمَيِّز بين الحلو والمرّ.
وفتح له **الشمّ** ليكون سبيلاً للروائح، وبه يُدرِك (مميزًا) الرائحة النتنة من اللذيذة.
ونقب **السمع**، وأحاطه بنمط الحلزون، لتدور فيها الأصوات وتدخل بلذة.
في صدره القلب المجتمعة فيه كل الأفكار، ليوزع كل الكنوز كما من خزينةٍ عظمى.
في فمه الكلمة وفي شفتيه تمييز الأصوات والجبين للرمز، وزين تجويف العين **بالجفنين...**
حكيم العوالم ركّب وصفّ وظيفة مختلفة في كل عضو في صورة الجمال عندما أتقنها.
صنع الخالق من اللاشيء شيئًا عظيمًا، ليصير سيدًا لكل شيء بالحكمة[1].

❖ **عندما خلق الخالق الفم، وضع فيه الصوت والكلمة ليتحرك للتسبيح.**
هكذا يجب على كل من يشعر بوجود الخالق أن يُسَبِّح الرب الذي خلقه.
ليس فم الإنسان مسلطًا ليستخدم الأخبار التافهة والكلمات غير اللائقة.
عندما خلق الخالق الفم أتقنه لتسبيحه، وليس ليتلفَّظ بأمورٍ باطلةٍ[2].

القديس مار يعقوب السروجي

"ولا يُلدغ بالألم بسبب خطيته" [١].

كنا نتوقَّع من ابن سيراخ وهو يُطوِّب من لا ينزلق بفمه أن يقول: "بل يحفظ لسانه مقدسًا"، لكنه عوض ذلك قال: **ولا يُلدغ بسبب خطيته**"، لماذا؟ إنه يُحَذِّرنا من التطرُّف بالتسيُّب في الكلام الباطل أو الشرير حتى وإن كان في نوعٍ من المزاح، أو بالمبالغة في الحزن والألم وهو يُقَدِّم توبة عن كل كلمة بطالة. فكما أن اللهو يُمَثِّل خطورة على الحياة المقدسة، أيضًا **الندامة بلا رجاء تُحَطِّم الإنسان.**

كثيرًا ما يتحدَّث ابن سيراخ عن فرح الروح حتى مع سكب دموع التوبة، لأن الرجاء يدفع الإنسان للتحرُّك الدائم نحو عربون السماء ونحن بعد في هذا العالم.

طوبى لمن لا تدينه نفسه،
ولم يَخِبْ من رجائه [٢].

ضبط اللسان بروح الرجاء المُفرِح: حسن أن يدين الإنسان نفسه في تسيُّب لسانه، لكن فيما هو يُقَدِّم التوبة بدموع الندامة، تمتزج هذه الدموع بدموع الرجاء المُفرِح، لأنه يلتقي بغافر الخطايا ومُقَدِّس

---

[1] الميمر ٨ على رجوع آدم، قبطي، الميمر ٧٧ على خلقة آدم وحياة الموتى (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).
[2] الميمر ١ (راجع نص الدكتور بهنام سوني).

النفوس من الفساد. لقد حذَّرنا الرسول بولس ألاَّ نصنع شيئًا بدمدمة، فنسقط في هوة اليأس. ذلك كما فعل يهوذا الذي ندم وألقى بالفضة للذين سلَّموه إياها، لكنه لم يفتح قلبه بالرجاء في مُخَلِّص البشر كما فعل سمعان بطرس، الذي قال: "أنت تعلم يا ربّ إني أحبك" (يو ٢١: ١٥).

هذا ما يؤكده القديس يوحنا الحبيب بقوله: "إن لامتنا قلوبنا، فالله أعظم من قلوبنا" (١ يو ٣: ٢٠). بمعنى إن أعلنت لنا حياتنا الداخلية أن دوافعنا غير سليمة فلنرتمي على الله، معترفين له بضعفنا بالرغم من مديح الناس لنا، وهو أعظم من قلوبنا، لأنه وحده القادر على إصلاح دوافعنا.

٢. عفة الفكر في المقتنيات

الثروة لا تناسب الرجل الضيق الفكر،

وما غاية الأموال مع الإنسان الحسود؟ [٣]

بعد أن حذَّرنا من تسيُّب اللسان، حذَّرنا من تسيُّب الفكر وعدم اتِّساعه. فخلال حياة اللهو لا يُبالِي الشخص بقداسة لسانه، وخلال ضِيق الفكر لا يطلب ما هو سماوي وأبدي، بل ما يشغله جمع المال، مُتطلِّعًا إلى السماويات أنها خيال وهروب من الواقع وفقدان للسعادة. من جانبٍ آخر، يربط ابن سيراخ بين ضيق الفكر والبخل. فالإنسان البخيل يضيق فكره فلا يُمارِس العطاء بفرحٍ، وإن مارسه فعن ضغطٍ شديدٍ. يصل البعض في بخلهم أن يحرموا أنفسهم حتى من الضروريات، فيجمعون ثروة يستخدمها غيرهم، سواء باغتصابهم لها أو بتبديدها بغير حكمة أو بتركها للورثة بعد موتهم.

لأن من جمع لنفسه،

جمعه لآخرين، ويتنعَّم غيره بخيراته [٤].

يشتهي البخيل أن يجمع كل ما أمكن من مقتنيات لنفسه، ويُصَاب بالحسد مشتهيًا أن يقتني لنفسه ما لدى الآخرين، ويُعانِي من عطشٍ دائم لكل ما في أيدي الغير. بهذا يصعب عليه أن يعطي، بل يريد دائمًا أن يأخذ، لذلك قال السيد المسيح: "مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ" (أع ٢٠: ٣٥).

❖ من يُحِبّ الخطية يحب المقتنيات الكثيرة، ويهمل البرّ، ولا يفكر في زوال الحياة وعدم ثباتها وقصر أجلها، ولا يتذكَّر حتمية الموت الذي لا يُرتشَى. وإن أظهر الإنسان عدم الحياء هذا، والنقص في الإحساس حتى بلوغه الشيخوخة، فإنه يكونَ كشجرة متعفنة لا نفع لها[١].

القديس أنطونيوس الكبير

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٠٣.

٣. العفة في السلوك

أبرز سيراخ إساءة الإنسان إلى نفسه حين يُمارِس سلوكًا غير مُقدَّس، مثل:

أ. يملكه المال عوض أن يملك هو المال [٥].

ب. يبخل حتى على نفسه [٦].

ج. إن قدَّم إحسانًا فبدون حب [٧].

د. يشعر أن ما في يد أخيه كان يلزم أن يكون له، فيحسد أخاه على ما يملكه.

من أساء إلى نفسه، فإلى من يُحسن؟

وهو لا يتمتَّع بثروته [٥].

حين يستعبد الإنسان نفسه للمال، يصير المال إلهًا له، وبدلاً من أن يخدمه المال، يصير هو أسيرًا له. يفرح إلى حين عندما يزداد رصيده، ولا يدري أن المال سيد مُستبِد. من أجله يسقط الإنسان أحيانًا في القلق، وبسببه يفقد أحيانًا الحنو والرحمة بأخيه. وينحدر به من فرح الروح إلى حالة من الاضطراب. يفقد ثمر الروح، ويحرم نفسه من الانطلاق بحرية نحو السماويات.

❖ إن كنت تنظر إلى الغِنَى وكمال التمتُّع به ليس إلا زهوًا خَادِعًا لأمدٍ قصيرٍ، وتعرف أن الحياة الفاضلة التي ترضي الله هي أفضل من الغِنَى، وتتمسَّك بهذا المُعتقَد، وتحتفظ به في ذاكرتك، فإنك لن تتأوَّه ولا تتذمَّر ولا توبخ أحدًا قط، بل تشكر الله على كل حالٍ حتى إن رأيت أناسًا أَشرّ منك يُمدَحون بسبب فصاحتهم أو معرفتهم أو غناهم. إن شهوة الغنى بجشع والملذات، ومحبة الشهوة والمجد الباطل، مقترنتين بجهل الحق، لهما أَشرّ آلام النفس[١].

القديس أنبا أنطونيوس

ليس أسوأ ممن يحسد نفسه،

ذلك جزاء رذيلته [٦].

جاءت كلمة يحسد في بعض الترجمات بمعنى أن يكون بخيلاً *stingy*، فمن يكون بخيلاً على نفسه، يهتم بالاقتناء دون الإنفاق لخلاص نفسه خلال العطاء، بهذا يحرم نفسه من التمتُّع بثروته خلال تخزينه لها. بهذا تحمل الخطية ثمرتها فيها، فمن يحسد نفسه، بأن يستعبد نفسه لمحبة المقتنيات، ينال عربون ثمر ذلك وهو على الأرض، إذ يفقد سلامه الداخلي وفرح الروح.

---

[١] الفيلوكاليا: القديس أنبا أنطونيوس ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ٤.

وإن صنع خيرًا، فذلك بدون قصد،

وفي الآخر يُعلِن عن رذيلته [٧].

إن قَدَّم إحسانًا أو صدقة مما عنده سهوًا، أي ليس بقصد العطاء بفرحٍ، إذ يتدارك الموقف يُظهِر رذيلته، أي يكشف أنه لم يُقَدِّم العطية عن حبٍ. وإذ يفقد العطاء عنصر المحبّة، يفقد كيانه ووجوده، وتتعطَّل حياة الإنسان ونموّه. يقول الرسول: "لو أطعمت كل أموالي... ولكن ليست لي محبّة فلا أنتفع شيئًا" (١ كو ١٣: ٣).

❖ أعطوا ممّا تملكونه بالبرّ، لأنكم لا تقدرون أن تُقَدِّموا رشوة للمسيح قاضيكم.

❖ إن كنت حزينًا وأنت تعطي، تفقد كلاً من الخبز والاستحقاق، لأن الله يحب المعطي المسرور[1].

القدّيس أغسطينوس

❖ إذا بسطت يدك وكان قلبك خاليًا من الحنو، فإنك لست تعمل شيئا. العبرة ليست في العطاء وإنما في السرور في العطاء، وإن لم توجد إمكانية للعطاء فالحنو وحده كافٍ لمن نحب.

القديس أنبا أنطونيوس

❖ إنها النية هي التي تجعل العطية قَيِّمة أو زهيدة[2].

القديس أمبروسيوس

شرير هو من يحسد بعينه،

إنه يُحَوِّل وجهه ويحتقر النفوس [٨].

إذ يحسد إنسان أخاه، حاسبًا أنه ليس أهلاً لما لديه، يستخفّ بأخيه ويحتقره.

يقول **القديس باسيليوس الكبير** إن الطمع هو المعيار الذي به يقيس الإنسان أعماقه إن كان قد تسلَّل إليها الطمع، وهو إن كانت محبته لنفسه أكثر من محبته لقريبه.

❖ سؤال: بأي مقياس يدان الطمع (لو ١٢: ١٥)؟

الإجابة: عندما يتعدَّى الإنسان الحدود التي وضعها الناموس. بحسب العهد القديم يظهر ذلك إذا فكر إنسان أن يأخذ أكثر من قريبه، فقد كُتِبَ: "حب قريبك كنفسك" (لا ١٩: ١٨؛ مت ٢٢: ٢٩). وبحسب الإنجيل، إذ اهتم أحد أن يأخذ من الضروريات أكثر مما يحتاج، بما يزيد عن احتياج اليوم

---

[1] *Robert Llewelyn, The Joy of the Saints, Spiritual Readings throughout the Year, Springfield, Illinois, 1989, p. 37.*

[2] *Duties of Clergy 1: 30.*

الحاضر. بسبب ذلك سمع شخص: "يا غبي هذه الليلة تُطلَب نفسك منك، فهذه التي أعددتها لمن تكون؟ هكذا الذي يكنز لنفسه وليس هو غنيًا لله" (لو ١٢: ٢٠-٢١)[1].

القديس باسيليوس الكبير

عين الجَشِع لا تشبع من نصيبه،

والإثم العديم الفائدة يُجَفِّف النفس [٩].

❖ يُقَال: "عين الجشع لا تشبع من نصيبه" (راجع سي ١٤: ٩). مَنْ مثل هذا، لا يمكن تقويمه ومن الصواب أن تعرض عنه[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ قال أحدهم: "ليس أحدٍ أَشرّ من محبي المال". هذا هو الشخص الذي يُثمِّن حتى نفسه. ويدور كعدوٍ عام للعالم، مشتكيًا أن الأرض لا تحمل ذهبًا عوض القمح، أو توجد ينابيع عوض مجاري المياه أو جبالاً عوض الحجارة. إنه يرتبك إن نال أي شخص نفعًا عامًا من شيءٍ ما.

إنه يغلق كل السبل التي لا تجلب مكافأة مالية. يتعامل مع أي شيء يأخذ منه ولو فلسين. يكره كل غنيٍ أو فقيرٍ. يكره الأغنياء لأن ليس لديه ما لديهم، ويحسب كل ما لدى الغير مسلوب منه. إنه بالحقيقة ملكه هو وقد اغتصبه (الغني) منه، فهو لا يُسرّ من أحدٍ. إنه لا يعرف ما هي الوسيلة للشعور بالوفرة، وليس لديه خبرة قط للشبع. إنه أبأس الجميع، كمن لا يملك شيئًا قط، وممارسة ضبط النفس أكثر شيءٍ مثير للحسد عنده[3].

❖ قيل: "عين الجشع لا تشبع من نصيبه" (راجع سي ١٤: ٩)... فقد جاءت الطبيعة إلى العالم عارية، وتخرج منه عارية. لذلك لا نطلب الكماليات، ما دمنا لم نحضر شيئًا معنا، ولا نأخذ شيئًا معنا[4].

القديس يوحنا الذهبي الفم

العين الشرّيرة لإنسانٍ تحسد خبزه،

لهذا ينقص عند مائدته [١٠].

الحسد هو ثمرة طبيعية للأنانية، حيث يود الإنسان أن يكون مركز كل شيءٍ، فيحسب أن له الحق

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 48.*

[2] *On 1 Tim, Homily 17.*

[3] *Commentary on the Gospel of Matthew 80:4.*

[4] *Homilies on 1 Timothy, hom. 17.*

أن يأخذ من أخيه ما لديه ولو كان كسرة خبز. هذه الأنانية تنزع عنه بركة الرب، فعِوَض أن يأخذ ما في يد أخيه، يفقد حتى ما لديه. يشعر الحاسد بجوعٍ وعطشٍ، وليس من طعامٍ أو شرابٍ أو مقتنيات يمكن أن يُشبعه، حتى إن أخذ العالم كله في يده.

٤. العفة والعُرْسِ الأبد

يا بني، بحسب ما تملك عامل نفسك حسنًا،

وقرِّب للرب تقدمات لائقة [١١].

إذ يدفعنا ابن سيراخ للحياة المُطوَّبة خلال عفة اللسان والفكر والسلوك الخ. يدفع قلوبنا إلى الحياة السماوية المُطَوَّبة كي نستعد لها. إنها احتفال على مستوى أبدي، حيث نلتقي بعريس النفوس ربّ المجد يسوع، وهو عُرْس لا يشيخ ولا يقْدم، بل يبقى كأنه جديد في كل الأبدية.

ما يشغل العروسان البشريان في اللحظات الأخيرة قبل الاحتفال بالفرح هو اللحظات التي فيها يتَّحِدان ليصيرا جسدًا واحدًا، ينسى كل منهما كل أموره من أجل هذا الاتحاد الدائم. هكذا ترقُّبنا للعُرْسِ السماوي يشغلنا حتى عن احتياجات الجسد، إذ نرى العريس السماوي يُعِدّ لنا العُرْس الأبدي. حتى خدامه السماويين يترقَّبون هذا اليوم العظيم بشوقٍ لرؤيتنا عروسًا ملكة سماوية.

مع كل لحظة من لحظات الأبدية – إن صحّ التعبير – نشعر كأننا لأول مرة نتمتَّع بأسرار العُرْسِ المجيد الأبدي. من جانب العريس قدَّم دمه الثمين مهرًا لنفوسنا، ومن جانبنا نُقدِّم له تقدمات تليق به. ما هذه التقدمات إلا أن نأخذ مما له ونُقَدِّمه! خلال حياتنا على الأرض بالجهاد العامل بالمحبة. يُشَكِّلنا الروح القدس، ويُقِيم منَّا العروس أيقونة المسيح الحيّة. هذه هي التقدمة اليومية التي حسب مسرّته الإلهية. ما هي التقدمات التي تليق بالرب؟

١. **تقدمة الحُبّ العملي:** في تعليق **للقديس يوحنا الذهبي الفم**[1] على (مت ٥: ٢٣-٢٤)، "فإن قدَّمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكَّرت أن لأخيك شيئًا عليك، فاترك هناك قربانك قدَّام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك. وحينئذ تعال وقَدِّم قربانك"، يقول:

❖ أي صلاح هذا! يا للحُب الفائق المُعلَن للبشرية! من أجل حُبّنا لقريبنا، لم يُعطِ أية أهمية للكرامة اللائقة به. فأي قول أكثر رقة من هذه الكلمات؟ إنه يقول: "أوقفوا الخدمة التي تقدِّمونها لي حتى

---

[1] *John Chrysostom. (1843–1844). The Homilies of S. John Chrysostom, Archbishop of Constantinople, on the Gospel of St. Matthew, Parts 1 & 2. (B. Prevost, Trans.) (Vol. 1, pp. 244–245). Oxford; London: John Henry Parker; J. G. F. and J. Rivington.*
Simonetti, M. (Ed.). (2001). Matthew 1–13 (pp. 103–104). Downers Grove, IL: Inter Varsity Press.

يستمر حبكم. عندما تصطلح مع أخيك تقدِّم ذبيحة لي". نعم من أجل هذا لم يقل يسوع "بعد القربان" بل "قبل القربان". بالأحرى وتحديدًا، والقربان نفسه موجود هناك أمامك، يرسلك كي تصطلح مع أخيك... ما حافزه من هذا الأمر الفوري؟ يبدو لي في ذهنه غايتين يشير ويُهَيِّئ إليهما. أولاً يريد أن يعلن كم يرفع من قيمة المحبة ويحسبها أعظم ذبيحة، فلا يَقْبَل ذبيحة العبادة بدون ذبيحة الحُبّ. ثانيًا، يُعظِّم من ضرورة التصالح بدون أن يُفسِح المجال لعُذرٍ ما[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. **تقدمة الطاعة:** تقدمة أخرى تليق بالرب وهي الطاعة في الربّ. ظنّ شاول أن الرب يُسَرّ بالمُحرَقات، فقال له صموئيل: "هل مسرّة الرب بالمحرقات والذبائح كما باستماع صوت الرب. هوذا الاستماع أفضل من الذبيحة، والإصغاء أفضل من شحم الكباش" (١ صم ١٥: ٢٢).

٣. **تقدمة التواضع:** "لا تُسرّ بذبيحة وإلا فكنت أقدمها. بمحرقة لا ترضى. ذبائح الله هي **روح منكسرة**. القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره" (مز ٥١: ١٦-١٨).

اذكر أن الموت لا يبطئ،

وأنّ عهد الهاوية لم يُكشَف لك [١٢].

الموت حقيقة لن يتجاهلها إنسان عاقل، ولن يعرف أحد متى يحلّ بنا، إنما هو لا يُبطئ. فإن عاش الإنسان ألف عام، تُحسَب بالنسبة للأبدية كقطرة ماء من بحر أو ذرة رمل في صحراء. بالنسبة للعروس تتهلل بيوم عُرْسِها، وبالنسبة للمُتمرِّد يشعر بمرارة عندما يسمع اسم الموت.

البند الرئيسي لعهد الهاوية أو ميثاقها أن الموت يحلّ على الإنسان دون التزام بميعاد مُعيَّن، ولا يتحقَّق حسب هوى الإنسان.

مثل كل الحكماء الحقيقيين يتأمل ابن سيراخ في خطورة الارتباك بالثروة، مُتذكِّرًا يوم موته حيث يترك كل ما جمعه أو لديه لغيره. فيليق بالإنسان أن ينفق على نفسه، أي لا ينشغل بتخزينها بل يُضرمها لأجل سلامه وخلاصه الأبدي، لذا يُقَدِّم للرب تقدمات تليق به كخالق ومُخلِّص ومعتني به.

❖ إن اهتدى الشرير وتنهَّد، لا تعود كل آثامه تُذكَر (حز ١٨: ٢١-٢٢). أيضًا قيل: لا تؤجِّل الرجوع إلى الربّ. إن كان الوعد الأول يهبك أمانًا فالالتماس الثاني يجعلك تقلق. اصغِ إلى الكتاب المقدس القائل: "اذكر يا بني أن الموت لا يبطئ" (راجع سي ١٤: ١٢)، ولا تقل: "رحمته عظيمة، فيغفر كثرة خطاياي. فإن عنده الرحمة والغضب، وسخطه يحلّ على الخطاة" (٥: ٦،

---

[1] *PG 57:250; NPNF 1 10:112.*

٧)، أي الذين يصرّون على خطاياهم. إن راعينا بأمانة ودقة علاجًا للشفاء بالتوبة دون تأجيل، نستطيع أن نهرب من العقوبة الأبدية، وننعم بالمكافآت الأبدية.

الأب قيصريوس أسقف آرل

❖ أيها الأحباء الأعزاء، لنفكر بحكمةٍ وبطريقةٍ مفيدةٍ بخصوص الدينونة ويوم الحساب حيث التنهُّدات والتأوهات في حزنٍ على الخطايا الخطيرة والأخطاء طوال أيام حياتنا...

❖ إن كنت تعترف بخطاياك، فالله يغفرها لك. ليته لا ييأس أحد، وبالمثل ليته لا يفكر أحد في الرجاء بروح العجرفة. الشخص الذي يعتقد أنه حتى إن تاب عن خطاياه لن تغفر له رحمة الله يخطئ باليأس. وكما قيل لليائسين: "في اليوم الذي فيه يرجع الخاطئ، تُغفَر كل خطاياه" (راجع حز ١٨: ٢١). كما يُقَال للمتعجرفين: "لا تؤخر الرجوع إلى الربّ" (راجع سي ٥: ٧).

أيها الأحباء، ليت كل البشر يهتمون بهذه الكلمات، الرجال والنساء، رجال الدين والعلمانيون، الشباب والشيوخ، الأولاد والبنات[1].

❖ إنني أحثكم، كما أفعل كثيرًا أيها الأحباء الأعزاء، أن تسعوا دومًا على التفكير في يوم موتنا والدينونة المُرعِبة. ليس من علاج مفيد لجراحات كل الخطايا مثل أن يتذكَّر كل أحدٍ في الساعة التي يرحل فيها من هذا العالم. هكذا يقول الكتاب: "يا بني، اذكر أن الموت لا يبطئ" (راجع سي ١٤: ١٢)، "اذكر نهاية حياتك وكف عن العداوة" (راجع سي ٢٨: ٦). إن كان ينتبه بدقة كيف يكون فحصه صعبًا أمام دينونة المسيح، حيث يجازي كل واحدٍ حسب عمله (مت ١٦: ٢٧)، لا تقدر خطاياه وأخطاؤه أن تُسَبِّب له لذة[2].

الأب قيصريوس أسقف آرل

❖ يستحيل علينا أن نهرب من الموت بأية وسيلة. وإذ يعرف العقلاء بحق هذا، يمارسون الفضائل ويفكرون في حبّ الله، ويواجهون الموت بلا تنهُّدات أو خوف أو دموع، مُفَكِّرين في أن الموت أمر محتَّم من جهة، ومن جهة أخرى إنه يُحَرِّرنا من الأمراض التي نخضع لها في هذه الحياة[3].

القديس أنطونيوس الكبير

قبل أن تموت أحسن إلى صديقٍ،

---

[1] *Sermon 64.*

[2] *Sermons, FOTC, vol. 1, p. 279-281.*

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٨٢.

وعلى قدر طاقتك ابسط يدك وأعطه [١٣].

يليق بنا ونحن نستعد للعُرْسِ السماوي، أن نُقَدِّم للعريس السماوي ما يليق به [١١]، وأن نُدرِك أن العُرْس لن يُبطئ، فساعة خروجنا من العالم قد اقتربت [١٢]. يلزمنا أن نُسرّ بالعريس حتى اللحظات الأخيرة من حياتنا على الأرض بالعطاء لإخوتنا، خاصة إخوة الرب [١٣]. حسن أن يستخدم المؤمن ثروته بالحب العملي لصديقه، باسطًا يديه بالعطاء ما استطاع، قبل أن يموت وتزول كل فرصة له.

لا تسمح ليومٍ أن يعبر دون عملٍ صالحٍ،

ولا يهرب منك تنفيذ رغبة صالحة [١٤].

حياتنا هي مجموعة فرص للاستعداد للعُرْسِ، يلزمنا ألا نسمح لأنفسنا أن يلعب بنا الزمن كما لو كنا كورة في يده، ففي الصباح نقول نصنع الخير ليلاً، وبالليل نؤجِّل لباكر، وهكذا يلهو بنا الزمن.

وضع الله في قلوب البشر **ميلاً نحو الأبدية، تنجذب إليها** حتى وإن أنكرها في حواراته مع الآخرين. هذا الميل هو الذي يُمَكِّنه من تفسير الأحداث الزمنية، ويكشف له عن خطة الله له ولكل البشرية. بدون الترقُّب للأبدية، تفقد البشرية رسالتها ورجاءها وتعيش في حالةٍ من التشويش.

❖ لا تعطي كل الأيام للإثم، مادام لك سلطان خَصِّص لك وقتًا للبرّ.

أخطأنا البارحة، لنبكِ اليوم على جرائمنا، لئلا تنتشر الخطيئة وتبيدنا[١].

❖ انظر إلى النهار، كم هو سريع! وتأمَّل الليل، كم هو يطارد! إنهما، وإن كانا هادئين، فهما مهتمان بأعمالهما، وإذ لا يعِدَان بشيء، فها هما ينفذان مهماتهما. لا يتكلمان ويكملان مسيرتهما. لو وَعَدَتْ الشمس أن تشرق، ولم تشرق، لما أنارت العالم بكلمات (أي بالوعد المجرد)...

❖ لا تجري الأعمال بالأقوال (بالوعود). إن الخلائق تُوجَد بالأفعال. تشرق الشمس وهي ساكنة، وتنير الأرض ولا تتكلم. لا تقل إذًا شيئًا دون أن تعمله، لكن افعل ما تقول[٢].

❖ إن ساورتك فكرة صالحة في المساء ابدأ بتنفيذها في ليلتها. وإن استيقظت فيك ذكرى الخيرات في الصباح لا تمتنع عن فعل الحسنات، لأن النهار لا يمنعك من إتمام أعمالك. اهتم بعملك قبل أن يغيب النهار[٣].

❖ لا تغمض عينيك في السبات إلا وفتحت فكرك على الصلاة. لقد رأيت كيف كان النهار مستعجلاً

---

[١] الميمر ٢٩ على التوبة والإرشاد (راجع نص بول بيجان والدكتور بهنام سوني).

[٢] الرسالة الثالثة والأربعون.

[٣] الرسالة الثالثة والأربعون.

ليذهب، اسرع لتغادر خطاياك معه! وليشرق برّك مع الصباح! لا تؤجِّل عمل اليوم إلى الغد.

❖ هوذا الأيام تُدفَن كالموتى. أمس دفنا البارحة، وها إننا ننصح اليوم بأنه سيفيد أيضًا. أبكِ إذًا على الأمس الذي لم يعد يُوجَد، وارفع صوتك على اليوم لأنه سينتقل أيضًا. هوذا الأيام تخطفك، والحياة تهرب. عندما يقبرك المساء يبعثك الصباح. إنها تميتك يوميًا لتعلم أنك ستموت[1].

❖ هربت منك حياة الأمس، وها هي حياة اليوم سريعة الزوال. إن كنت يقظًا أو نائمًا، فالليل لا يقف عن مسيرته، والنهار لا يهدأ من تكميل مسيرة دربه.

حياتك هذه تُنهَب، فانهب أنت منها الفائدة. لا تعتمد على الصباح لكونه منيرًا، إن لم يكن فكرك مستنيرًا بالله لكي يشرق. لا تفكر بأن المساء للراحة، مادامت نفسك مُعَذَّبة بآلام الشرور[2].

❖ إلى اليوم لم تكن ملكًا لنفسك، بل عبدًا للعالم. كن ملكًا لنفسك، واخدمها...

لو سرقك لص لولولت، بينما تُسرَق حياتك من حياة الله ولا تتألم عليها[3].

القديس مار يعقوب السروجي

ألست تترك كلّ تعب عملك لآخر،

وثمر وكلّ تعب عملك للاقتسام بالقرعة؟ [١٥]

يأتي وقت لكل إنسانٍ يتوقَّف فيه العمل حيث يرحل من هذا العالم، وكل ما كان يملكه يصير ميراثًا للغير.

أعط وخذ واضبط نفسك،

فلا سبيل إلى التماس الرفاهية في الجحيم [١٦].

العطاء هو الطريق الآمن للأخذ. كلما فتحنا قلوبنا ومخازننا لإخوتنا، نجد يد الله مبسوطة للعطاء بسخاءٍ، ومخازنه مفتوحة كي نغرف منها.

كلّ جسدٍ يبلى مثل الثوب،

فالعهد منذ البدء هي أن "موتًا تموت" [١٧].

❖ عن هذا الغضب يقول: كنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضًا" (أف ٢: ٣). وعنه يقول إرميا: "ملعون اليوم الذي وُلدت فيه" (إر ٢٠: ١٤). عن هذا الغضب يقول أيضًا أيوب: "الإنسان مولود

---

[1] الرسالة الثالثة والأربعون.

[2] الرسالة الثالثة والأربعون.

[3] الرسالة الثالثة والأربعون.

المرأة قليل الأيام وشبعان تعبًا، يخرج كالزهر ثم ينحسم... ولن يستمر في نفس الحال. فعلى مثل هذا حدَّقت عينيك، وإياي أحضرت إلى المحاكمة معك. من يُخرج الطاهر من النجس؟ لا أحد؛ حتى وإن عاش يومًا واحدًا على الأرض" (أي ١٤: ١-٥ *LXX*)... وعن هذا الغضب جاء في ابن سيراخ: "كل جسد يبلى مثل الثوب، فسُنة العالم من البدء أن موتًا تموت" (راجع سي ١٤: ١٧)...

عن هذا الغضب جاء صوت الرسول: "أُخضعت الخليقة للبُطل" (رو ٨: ٢٠). وعنه يرثي المزمور: "هوذا جعلت أيامي أشبارًا، وعمري كلا شيء قدامك إنما نفخة كل إنسانٍ جُعل" (مز ٣٩: ٥)[1].

القديس أغسطينوس

مثل أوراقٍ مزهرةٍ على شجرة كثيفة، تسقط البعض وتنبت البعض الآخر،
كذلك أيضًا أجيال اللحم والدم: واحد يموت وآخر يُولَد [١٨].

❖ يُحفظ جنس البشر بعمليتين جسديتين، يخضع لهما الحكيم والقديس كأمرين واجبين، وأما الجاهل فيندفع فيهما متهورًا منقادًا بشهوته. وهذا يختلف عن الآخر. ما هما هاتان العمليتان اللتان بهما تُحفَظ البشرية؟ الأمر الأول يتصل بنا ويخصّ **تغذيتنا**، وهذا بلا شك لا نستطيع استخدامه إلا بوجود بعض اللذة الجسدية. إن هذا الأمر هو **الأكل والشرب**. فإن لم تأكلوا وتشربوا تموتون، لأن جنس البشر يعيش بهذه المعونة بحسب قانون طبيعته. ولكن هذه العملية هي مؤنة تخص الأشخاص ذواتهم فقط، لأنه لا يكون لهم خلفًا بالأكل والشرب بل **بزواجهم**. هكذا تُحفَظ البشرية أولاً بوسائل الحياة، ولكن مهما بلغت عنايتهم لا يستطيعون أن يعيشوا إلى الأبد، لذلك أعطيت لهم معونة أخرى بها **يحل حديثي الولادة محل الذين يموتون**. لأنه كما هو مكتوب أن جنس البشر كورق الشجرة أو الزيتونة أو شجرة الغار أو أنواع أخرى من الشجر الذي يكون دائمًا مورقًا، ومع ذلك فلا يبقى الورق ذاته دائمًا [١٨]. لأنه كما هو مكتوب: "هذا يطرح وذاك ينبت"، لأن الأوراق الجديدة التي تنبت تحل محل الأخرى الساقطة. فتطرح الشجرة أوراقها دائمًا ومع ذلك فهي مغطاة دائمًا بالورق. هكذا لا تشعر البشرية بفقدانها للذين يموتون يومًا فيومًا بسبب إمدادها بالمولودين الجدد. لذلك تُدعم البشرية كلها بحسب قوانينها. وكما تُرَى الأوراق على الأشجار دائمًا، هكذا تُرَى الأرض مملوءة بالبشر. بينما لو كانوا يموتون دون أن يُولَد آخرون لتجرَّدت الأرض من كل

---

[1] *Against Julian*.

قاطنيها كما تتعرَّى بعض أنواع الشجر من كل أوراقها[1].

القديس أغسطينوس

كل عمل الإنسان يفسد وينفد،
والإنسان الذي يعمله يرحل معه [١٩].

٦. جهاد بفرح وتهليل

حياتنا على الأرض فرصة للطلب المستمر لنوال الحكمة والنمو فيها، بكونها العروس التي تتهيَّأ للاتحاد مع العريس، حكمة الله! [٢٧-٢٠] إنها تحتاج إلى جهاد مستمر باهتمامٍ وحرصٍ كصيادٍ يترصَّد آثار طير يريد أن يقتنيه. هذا الجهاد يمسّ حياة المؤمن الداخلية وتقديس فكره. خلال هذا الجهاد الجاد يجد المؤمن لذة في حياته، لأنه في رفقة واهب الحكمة، الذي يحميه من الحر الحارق ويهبه التمتُّع بمجد الحكمة [٢٧].

كما أن العروس تفكر دومًا في عريسها الذي تُبادِله الحب بالحب، وتفكر في حياتها الزوجية بتعقُّلٍ، هكذا يتأمل المؤمن في الحكمة السماوية، ويتأمل في طريقها الذي يقوده إلى الأحضان الإلهية، ويطلب معرفة أسرارها.

إنه لا يقف عند التأمل بل دائم الحركة نحو عريسه السماوي، يتمتَّع بصحبة الرب "حكمة الله" ويحمله في داخله ويقتدي به، ويختبر عربون سماواته كمن يتطلَّع على الأبدية وهو بعد في الجسد، ينطلق كما من بابٍ إلى بابٍ، كما فعلت إستير إذ فُتِحَت لها الأبواب حتى دخلت إلى عرش الملك. يصرّ المؤمن أن يعيش على الأرض كمن يقيم في بيت الرب، ويضرب أوتار خيمته كما تحت ظل رعايته، ويحتمي فيه من حرّ التجارب، ويتذوَّق المجد الداخلي بحلول الرب فيه. لا يكف عن أن يصلي لكي يذوق الكل عذوبة الشركة مع المُخَلِّص.

يُشَخْصِن الحكيم الحكمة كفتاة يطلبها المؤمن عروسًا له:

١. يتأمَّل فيها ليتعرَّف على أعماقها ومجدها، مُفكِّرًا بتعقُّلٍ [٢٠] كيف يتحد معها.
٢. يتأمل في طرقها في عقله [٢١]، ليسلك في المسيح الطريق الملوكي إلى حضن الآب.
٣. يمعن في أسرارها [٢١]، أي يتمتع بفكر المسيح ويتعرَّف على أسراره.
٤. يتطلَّع من نوافذها وينصت عند أبوابها [٢١]. لا يملّ من رؤية الرب والاستماع إلى صوته.
٥. يسعى وراءها كالصيّاد، ويترصَّد آثارها. لن يتوقَّف عن طلب الرب واقتنائه، والسلوك فيه.

---

[1] *Sermons on New Testament Lesson, 1:23.*

٦. يُقِيم بيته ملاصقًا لبيتها ويضرب وتد خيمته في أسوارها. يبقى ساهرًا للقاء معها.
٧. يُصوِّرها كشجرة يحتمي فيها فلا تضربه شمس التجارب الحارقة.
٨. يتحدَّث عن الحكمة كفتاة يود الزواج بها وكطائرٍ يريد اصطياده ويطير معه وكملكة جميلة صوتها عذب يتطلَّع إليها من النوافذ، وينصت لصوتها عند الأبواب. وكشجرة تحميه وتستره من الحر، وأخرى مملوءة مجدًا يود أن يقيم في داخلها تسكب جمالها وبهاءها عليه.

❖ مكتوب: "الحكمة خير من الحجارة الكريمة الثمينة، وكل الأشياء النفيسة لا تُقارَن بها" (أم ٨: ١١ *LXX*). لأن الحكمة النازلة من فوق من عند الله هي عطية لا مثيل لها. وعندما نُدرِكها بواسطة الكتاب المقدس المُوحى به من الله، وننال النور الإلهي ليسكن في أذهاننا، نتقدَّم آنذاك بلا انحرافٍ إلى كل ما هو نافع لفائدتنا الروحية[١].

القديس كيرلس الكبير

طوبى للرجل الذي يُمارِس الحكمة،
ويتحدَّث بتعقلٍ [٢٠].

ويتأمّل في طرق الحكمة في قلبه،
ويمعن النظر في أسرارها [٢١].

❖ العقل الذي يحيا في نفس محبة لله، يرى بالحق الله غير المنظور ولا موصوف... يرى الله الذي وحده طاهر بالنسبة للطاهرين[٢].

القديس أنطونيوس الكبير

يسعى وراءها (الحكمة) كالصياد،
ويترصَّد آثارها [٢٢].

يرى **العلامة أوريجينوس** أن آخِر ما ورد في سفر العدد هو الأمر الذي صدر من الله لموسى محددًا حدود أرض كنعان من الجهات الأربع. وأن القارئ البسيط يفهم هذا الأمر الإلهي أنه في غاية الأهمية يلزم حفظه حرفيًا حتى لا يتعدَّى أحد هذه الحدود، فيغتصب ما هو ليس من حقه. الآن تعدَّى اليهود الحدود حين قُيِّدوا إلى السبي خارج كنعان أو لجأوا إلى ترك كنعان وأقاموا في بلاد أخرى. فما نفع هذا النص لنا ونحن لسنا يهودًا؟

---

[١] تفسير انجيل لوقا، عظة ١٣٣، ترجمة ر. لضحى عبد الشهيد، القاهرة يوليو ٢٠٠١، ص ٤٩.
[٢] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٥٤.

يجيب **العلامة أوريجينوس** أن هذا النص رمزي يلزمنا الالتزام به روحيًّا. إنه يخصّ الحكمة، فيليق بالمؤمن أن يناضل لكيلا يخرج حدود الحكمة السماوية. إنه يبحث عنها لكي يتبعها بدقةٍ وحرصٍ، فتهبه فهمًا للأسفار المقدسة. هذا ما جاهد من أجله بولس الرسول، فقال إن الذين خدموا الناموس هم خدّام الظل وصورة السماويات (عب ٨: ٥). كل ما ورد في الناموس في الأمور المادية الزمنية هو ظل للخيرات العتيدة (عب ١٠: ٨). الأمور التي أشار إليها الناموس صالحة على الأرض، وهي ظل وصورة للسماويات[1].

ويتطلَّع من نوافذها بعزيمةٍ،
وينصت عند أبوابها [٢٣].

ويُقِيم بقرب بيتها،
ويضرب وتدًا في أسوارها [٢٤].

في العبارات السابقة [٢١- ٢٣] يتحدَّث عن طلب الحكمة كمن هو في رحلة لها متاعبها، والآن في العبارات التالية [٢٤- ٢٧] تتحوَّل الرحلة إلى إقامة مع الحكمة، يُقِيم المؤمن بالقرب من بيتها أي السماء، ويضرب وتدًا في أسوارها، أي يرتبط بالكنيسة الحاملة عربون السماء، ويختبر مع كل صباحٍ سكناه في الحكمة أو ثبوته في المسيح حكمة الله وثبوت المسيح في أعماقه، حيث يقيم ملكوته فيه.

ويؤسس بيته حسب إرادتها،
ويُقِيم في مأوى صالحٍ [٢٥].

❖ هذا هو واجب من هم غيورون في مسرَّة الله الصالحة أن يسألوا ما هو الأفضل لهم أن يفعلوه[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

يجعل أولاده في حمايتها،
ويلجأ تحت أغصانها [٢٦].

يأوى فيها من الحرِّ الحارق،
ويسكن في مجدها [٢٧].

في الختام يدعونا العريس السماوي أن نَقْبَلَ منه الحكمة السماوية، التي تحمينا من حرِّ تجارب العالم، وتُشبِعنا بعربون المائدة السماوية، وتسكب بهاءها علينا، فنستنير ونحن بعد في العالم، ونصير

---

[1] *Cf. Origen: Homilies on Numbers 28:1:1-2.*

[2] *Morals, Rule, 9:3.*

موضع دهشة السمائيين.

من وحي سيراخ ١٤

هب لي الحياة المُطوَّبة!

❖ لك المجد يا من تُقِيم ملكوتك في داخلنا!
من يستطيع أن يُحوِّل قلبي الترابي إلى سماءٍ سواك؟
لتُقِم يا رب حراسة مشدّدة على فمي، فتظهر فيه رائحتك المقدسة،
وتكون كل كلمة مُملَّحة بروحك القدوس.
إن زلّ لساني بكلمة غير لائقة، هب لي توبة صادقة بعمل روحك الناري.
فأصرخ مع الرسول: "أنت تعلم يا رب إني أحبك"!

❖ لا تتخلَّى عني، لئلا أسقط في عدم الرجاء، فعِوَض فرح الروح أُحَطِّم نفسي باليأس.
أعترف لك: "أخطأت إليك يا غافر الخطايا". هوذا الخطية تود أن تُحَطِّمَني.
لتُقَدِّس يا رب أفكاري، فأترنم مع الرسول، قائلاً: "لنا فكر المسيح".
أي فكر تهبني إيّاه يا من تشتهي خلاص العالم.
هب لي أن أَتمتَّع باتِّساع الفكر، فأطلب خلاص كل أحدٍ.
عوض أن يقتلني الحسد من جهة الأغنياء، تئن نفسي على كل من تعلَّق قلبه بالزمنيات.
أحسب كل شيءٍ خسارة كي أقتنيك! وتتهلل أعماقي مع توبة كل إنسانٍ!
لا يضيق فكري بروح التعصُّب الأعمى، ولا يرتبط قلبي وفكري بالزمنيات الباطلة!
هل يصعب عليك أن تُحَوِّل الأرض إلى سماءٍ متهللة؟
حضورك الإلهي في أعماقي ينطلق بي إلى السماوات التي في داخلي!
تعال أيها المُخَلِّص، ولتُعلِن حضورك الدائم في البشرية.

❖ أشكرك يا من وهبتني حتى المال كعطية منك، لا لأَتعلَّق به، بل أَتعلَّق بك.
أنت هو ثروتي وغناي، أنت مُشبِع كل احتياجاتي.
هب لي أن أضرم كل وزناتي حتى المال لحساب ملكوتك السماوي.
هب لي ألا يمتلكني المال ويستعبدني، بل أملكه وأُسيطر عليه،
افتح قلبي بالعطاء بسخاءٍ وفرحٍ لإخوتي، وبه أُقَدِّم ذبائح شكر لك يا خالقي.

❖ هب لي يا رب ألا تتطلع عيناي إلى ما في يد أخي.
ولا أشتهي أن أقتني ما له، بل أحسب أن ما بين يديه كأنه لديّ، فأفرح له!
انزع عني روح الطمع والجشع، فقد وُلِدتُ عريانًا وسأخرج من العالم فارغ اليدين.
لم أدخل العالم بشيءٍ، وأرجو أن أنطلق حاملاً إيَّاك وحدك في قلبي.

❖ إلهي، إني أراك قادم على السحاب، لتُقِيم العروس السماوية من مؤمنيك.
لقد قدَّمتَ دمك الثمين مهرًا لها، فماذا نُقَدِّم لك إلا ما وهبته لها بروحك القدوس!
نعم تعال أيها الرب يسوع، أيها العريس السماوي، وضمّني إلى موكب عُرْسِك،
بل تحتضن نفسي عروسًا وملكة جميلة، ينعكس بهاء مجدك عليها.
ويمجدك السماويين لأجل حُبّك الفائق لها!

❖ تُسَبِّحك نفسي، لأن وقت عُرْسِها قد اقترب.
إنها لحظات، فلنُقَدِّسها، ولتهبها أن تعمل بنعمتك بلا توقُّفٍ.
لا تسمح للزنا أن يلهو بي، بل قَدِّس كل نسمةٍ من نسمات حياتي.

❖ لتعمل حكمتك فينا، تحمينا من تجارب العالم.
وتدخل بنا إلى عربون وليمة العُرْسِ، نأكل ونشرب ونتهلل مع السمائيين،
ونتلامس مع المجد الذي تُعِدّه لنا. لك المجد يا كُلّي الحب لبني البشر!

❖ من يستطيع أن يتعرَّف على الحكمة الإلهية.
وبماذا أدعوها، فقد تجسدت يا حكمة الله لأجلي.
تراها النفس العروس السماوية، تتحد بها في عُرْسٍ أبدي لن يشيخ أو يقدم!
أراها كطائرٍ عجيبٍ يحملني، وينطلق بي من مجدٍ إلى مجدٍ حتى أستقر في السماء!
أراها ملكة جميلة صوتها عذب، تتطلَّع نفسي إليها كما من نوافذ الوعود الإلهية.
وأنصت إلى صوتها عند الأبواب، وهي تنفتح لأعبر إلى المجد الملوكي الحق.
أراها شجرة فريدة أستظل تحتها من حرِّ التجارب.
أراها مسكنًا فريدًا أسكن فيها، تقيم فيَّ!

الأصحاح الخامس عشر

خائف الرب وعطايا الحكمة الفائقة

استمر هذا الأصحاح في سرد بركات الحكمة للإنسان التقي أو خائف الرب [١٠-١]. كثيرًا ما يربط ابن سيراخ بين الحكمة والشريعة، فيُعَرِّف الحكمة أنها فهم التوراة؛ وممارسة الحكمة عمليًا بكونها حفظ التوراة أو كلمة الله أو الوصية الإلهية. أما طريق العبور إلى الحكمة فهو الطاعة لحكمة التوراة بروح الفرح والتسبيح.

- **خائف الرب والعطايا الإلهية**

١. الحكمة أمّ وعروس لخائف الرب [١-٨].

٢. التسبيح عطية لخائف الرب [٩-١٠].

٣. خائف الرب وحرية الإرادة [١١-١٧].

٤. عينا الرب على خائف الرب [١٨-٢٠].

خائف الرب والعطايا الإلهية

يرى سيراخ أن خائف الرب وحده يقدر أن يتعرَّف على الحكمة، ويتمتَّع ببركاتها وعطاياها. إنها تُعلِن حبها له، فتحسب نفسها عروسًا روحية، وأُمًا (والدة) له في نفس الوقت.

١. الحكمة ليست غريبة عن خائف الرب الذي يحفظ الشريعة الإلهية ويتمسَّك بها ويمارسها [١]. كثيرون يشتهون أن يكونوا حكماء ويبذلون الجهد في الدراسة وتعلُّم الفلسفات المتباينة، الأمر الذي لا يستهين به ابن سيراخ، غير أنها في متناول يد خائف الرب.

٢. تلتصق الحكمة بخائف الرب وتتَّحِد معه كعروس صبية مع عريسها [٢]، تهبه الفرح المجيد.

٢. تهتم به وترعاه بكونها أُمًا له [٢]، فهي ليست غريبة عنه (إش ٤٩: ١٥؛ ٦٦: ١٣).

٤. تُقَدِّم له طعامًا فريدًا ألا وهو خبز الفهم [٣]، فيتمتَّع بروح التمييز (أم ٩: ١-٦).

٥. تُقَدِّم له الحكمة شرابًا عذبًا يروي نفسه [٣].

٦. تُعِينه وتحتمل ضعفاته، إذ يتكئ عليها، فلا يسقط في الطريق [٤].

٧. تدخل به في طريق المجد السماوي، فلا يخزى [٤].

٨. تهبه نعمة خاصة في وسط أصدقائه، فيحسبونه ساميًا عنهم [٥].

١. الحكمة أمّ وعروس لخائف الرب

من يخاف الربّ يعمل ذلك (يحتمي في الحكمة)،

ومن يتمسَّك بالشريعة ينال حكمة [١].

خُتِم الأصحاح السابق بتطويب من يمارس الحكمة لأنها تضمّه وتحميه من حرِّ التجارب الخارق، وتمنحه حق الإقامة في مجدها (١٤: ٢٧-٢٦). الآن يُعلِن عن حنانها. إنه كخائف الرب تتبنَّاه وتصير له أمًا تهبه من فيض مجدها. أما هو يتمسَّك فيحفظ الشريعة ويقتني عطايا الحكمة.

تأتي وتقابله كأُمّ،

وتَقْبَلَهُ كزوجة شبابه [٢].

لما كان طريق الحكمة هو رحلة لها متاعبها، أبرز ابن سيراخ الحكمة كأم تحتضن طالبها وتسنده وسط جهاده، لا تسمح له بمتاعبٍ فوق طاقته. إنها تساعده في الطريق لتتشكَّل نفسه كأيقونة العريس السماوي. إنها أُم مملوءة حنانًا، وقادرة على تشكيل أعماقه لتتأهَّل للعُرْسِ السماوي.

يرى **القديس ديديموس الضرير** أن العبارة: "للمعانقة وقت، وللانفصال عن المعانقة وقت" (جا ٣: ٥) تنطبق على الحياة الزوجية بخصوص المعانقة الجسدية، ففي وقت الصلاة مع محبة الزوجين واتحادهما معًا، غير أنهما لا يتعانقا في أثناء الصلاة، أما بالنسبة للحكمة كزوجة روحية، فيليق بالمؤمن ألاَّ ينفصل عن معانقتها.

❖ عندما تكون هذه الزوجة مع شخص، تلد بصيرة وأفكار وأعمال حكيمة. يُحسَب ذلك وقت للمعانقة... يمكن للإنسان أن يُعانِق الحكمة على الدوام. هذا الوقت أبدي[1].

القديس ديديموس الضرير

في رسالة بعثها **القديس أمبروسيوس** للقديس إيريناؤس حوالي سنة ٣٨٦م، يمتدحه فيها بخصوص القرار الحكيم الذي اتخذه في إجابته عن السؤال إن كان يوجد فارق بين الذين قبلوا الإيمان منذ طفولتهم أو في شبابهم المبكر وبين الذين قبلوه بعد بلوغهم سن الرجولة أو البلوغ المتأخر. جاءت الرسالة تكشف الفارق بين خائف الله التقي وحافظ الشريعة منذ صغره ثم تعرَّف على الإيمان المسيحي في مخافة الربّ، وبين من مارس خطايا في عدم إيمانٍ بسبب عبادته الوثنية، وفي سن متأخر آمن بالسيد المسيح. الأول قَبِل الحكمة الإلهية خلال الشريعة، فاحتضنته الحكمة منذ طفولته وحفظته من ثقل العادات الوثنية الشريرة، وقَدَّمت له طعامًا روحيًا ورعاية صادقة **كأُمٍ** ترعى طفلها أو **كزوجة شابة**

---

[1] *Commentary on Ecclesiastes 75:4.*

أشبعته بعلاقة طاهرة، فلا يتعلَّق بغيرها، ولا يتدنَّس بعلاقة غير طاهرة. تُطعِمه الحكمة خبز الفهم فلا يجوع إلى طعامٍ مغشوشٍ، وتسقيه من المياه الروحية. يجِد منذ طفولته أو شبابه المُبَكِّر في الشريعة أو الحكمة، فيسلك في طريق الحق الذي بلا لومٍ. يتطلَّع الكل إليه بروح التقدير وفي وسط الجماعة ينصت الكل إلى كلماته باعتزاز. تمتلئ حياته بالبهجة، ويتمتَّع باسمٍ له تقديره لا يمحوه الزمن.

يرى **القديس أمبروسيوس** فيمن يلتصق بالسيد المسيح كلمة الله وحكمة الله المتجسد عريسًا، فتتهلل نفسه منذ طفولته أو صبوته أو شبابه بحضور العريس العامل في نفسه، واهبًا لها كل احتياجاتها ومُقَدِّسًا إياها. وكأن القديس يدعونا أن نلتصق بالربّ دون تأجيل، فنجد في رعايته الإلهية روح الأبوةٍ أو الأمومةٍ، ونتمتَّع بالوحدة كما بين العروسين في شبابهما.

❖ هذه النفس التي نالت سابقًا خبرة الفرح والبهجة، عندما اقتنت الكلمة البكر؛ لم تصم، لأن أيامها كانت عيدًا ووليمة. كان العريس حاضرًا يُقَدِّم لها بسخاءٍ من كل ثروته الوافرة، من مخازن الطعام السماوي، ويفيض بالخمر (الروحي) الذي يُبهِج قلوب البشر (مز ١٠٤: ١٥). بل وعندما تفقد العريس بأفعالها، طُلِب منها أن تُقَدِّم ندامة وهي في المسوح من أجل خطاياها، وتبكي على نفسها، لأن المسيح الكلمة البتول، مات وصُلِب من أجلها.

أحيانًا تتزوج النفس في سنٍ مبكرٍ، فلا تُعانِي من نيرٍ آخر، إنما من البداية تلتزم بتقديم زهرة البتولية خلال إيمانها بالمسيح، وتتَّحِد معه منذ البداية في أسرار التقوى، وتتقبَّل تدريبًا في القداسة، مثل بقرة صغيرة تحمل نيرًا (هينًا).

هكذا نفس *soul* الشخص اليهودي الأصل (خائف الربّ) الذي من نسل الآباء البطاركة القدامى (إبراهيم وإسحق ويعقوب)، إن حفظت نفسه مسيرة أم بلا عثرة، تُحسَب أهلاً لاستحقاق عظيمٍ، كعروسٍ بتولٍ للكلمة (اللوغوس)، وتكون مثل أُمٍّ تمسَّكت بالبرِّ وانطلقت تلتقي به، وتقبله كعروسٍ تتزوج ببتولٍ (راجع سي ١٥: ٢)[1].

القديس أمبروسيوس

تُطعِمه خبز الفهم،

وتُقدِّم له ماء الحكمة للشُرْبِ [٣].

يتحقَّق اقتناؤنا الحكمة باتحادنا بالسيد المسيح حكمة الله، الخبز النازل من السماء. الحكمة كأم تُقَدِّم للمؤمن طعامًا سماويًا، هو خبز الفهم، وشرابًا روحيًا، فلا يعاني من الجوع أو العطش، بل يشعر

---

[1] *Letter 74 to Irenaeus, FOTC, vol. 26, p. 420-424.*

دائمًا بالشبع والارتواء.

❖ المسيح هو الذي يعلن السرّ المخفي والمستور (مت ١١: ٢٥-٢٧) ويزرع الفهم في قلوبنا، لأن فيه وبه "مذخر كل كنوز الحكمة والمعرفة" (كو ٢: ٣) وبه ومعه المجد والقدرة من الآب مع الروح القدس من جيلٍ إلى جيلٍ والى أبد الآبدين آمين[1].

القديس كيرلس السكندري

❖ هل يقول أحدكم إن الفلسفة التي اكتشفها أهل اليونان قد جاءت نتيجة الفهم البشري؟ إلا أني أجد الكتاب المقدس يقول إن الفهم هو من الله ذاته. فالمُرَبّي يعتبر الفهم أعظم هبة مجانية، ويحث المؤمنين قائلاً، بأن داود بالرغم من فيض تجاربه، ومعرفته، يكتب: "علِّمني الرقة والحكمة والمعرفة، لأنني آمنت بوصاياك"[2].

القديس إكليمنضس السكندري

يتَّكئ عليها ولا يسقط،
ويتمسَّك بها فلا يُخزَى [٤].

إذ يخشى طالب الحكمة من السقوط في الطريق، تلتصق به الحكمة كمُعِينةٍ له فلا يسقط، ويتَّكِل عليها، فلا يخيب رجاؤه في أن يصير بالحق حكيمًا.

ترفع مقامه جنبًا إلى جنبٍ مع أقربائه،
وتفتح فمه في وسط الجماعة [٥].

لا يقف عمل الحكمة في طريق جهاد المؤمن أن تُرَحِّب به [٢]، بل تُطعِمه وتُشبِعه وترويه [٣]، وتُرافِقه ليتَّكِئ عليها ويستمد قوته منها [٤]، وأيضًا تسمو به أمام الجماعة، وكأنها تُكَرِّمه هنا على الأرض بعربون المجد الذي يتمتَّع به في الأبدية كعروسٍ ملكةٍ تجلس عن يمين ملك الملوك.

يجد السرور وإكليل الابتهاج،
ويرث اسمًا أبديًا [٦].

الناس الأغبياء لا يجدونها،
والخطاة لا يرونها [٧].

---

[1] *Letters, 41:25.*

[2] *Stromata, 6:8.*

يكشف ابن سيراخ عن ثلاث فئات تحرم نفسها بنفسها من الحكمة، وهي:

أ. فئة الأغبياء [٧]. ب. فئة المتكبرين [٨]. ج. فئة الكذابين [٨].

إنها بعيدة عن المتكبرين،

والكذَّابون لن يحتفظوا بها في ذهنهم [٨].

❖ إنه يُحَقِّق ما تنبأ عنه بحق الأنبياء: "أبيد حكمة الحكماء وأنزع فهم الفهماء". فإنه لا يبيد عطيته فيهم ولا ينزعها عنهم، بل ما ينسبونه لأنفسهم وما لم ينالوه منه... هذا محتقر كأمرٍ ضعيفٍ وغبيٍ موجود في الحكماء والأقوياء من أنفسهم. ولكن هذه هي النعمة التي تشفي الضعفاء الذين لا ينتفخون في كبرياء بطوباوية من عندياتهم، بل بالأحرى في تواضعٍ يعرفون بؤسهم الحقيقي[١].

❖ ليفكروا في ذاك الذي إذ نزل ليشفي بمثال تواضعه سرّ نفس الإنسان العظيم: الكبرياء! "اختار ضعفاء العالم ليخزي بهم الأقوياء، وجُهَّال العالم ليخزي الحكماء – ليسوا بالحق حكماء بل يبدو كأنهم هكذا – واختار أدنياء العالم وغير الموجود ليخزي الموجود"[٢].

القديس أغسطينوس

❖ "ليس كثيرون أقوياء، ليس كثيرون شرفاء"، فإن هؤلاء أيضًا مشحونون بالكبرياء. ليس شيء يسبب فشلاً من جهة معرفة الله الدقيقة مثل التشامخ والالتصاق بالغنى، فإن هذا يجذب الإنسان إلى الإعجاب بالأمور الحاضرة وعدم المبالاة بالأمور المستقبلة، ويفسد الآذان بسبب الارتباكات الكثيرة. أما الله فاختار جهلاء العالم، وهذه علامة عظيمة على النصرة، إذ يغلب الله بغير المُتعلِّمين[٣].

❖ لم يدعُ غير المُتعلِّمين فقط بل ودعا المحتاجين والمحتقرين والمجهولين لكي يخزي الذين هم في مراكز عالية[٤].

❖ صنع الله كل شيءٍ بهذا الهدف: أن يُحَطِّم المجد الباطل والكبرياء ويذل التشامخ. يقول: "هل أنتم أيضًا تشغلون أنفسكم بهذا العمل؟" لقد فعل كل شيءٍ حتى لا نصنع بأنفسنا شيئًا لحسابنا، بل

---

[1] *City of God 10:28.*

[2] *Sermons on New Testament Lessons.*

[3] *In 1 Cor. Hom. 5:2.*

[4] *In 1 Cor. Hom. 5:2.*

ننسب كل شيء لله. هل تعطون أنفسكم لهذا الشخص أو ذاك؟ أي غفران تنالونه؟[1]

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. التسبيح عطية لخائف الرب

لا يجمُل التسبيح في فم الخاطئ،

لأن الرب لا يُرسِله إليه [٩].

يليق بكل الخليقة أن تُسَبِّح الخالق، كل منها بلغتها، فالخليقة غير العاقلة تشهد له وتُسَبِّحه بقدرته وإبداعه ورعايته لها، والخليقة السماوية تُسَبِّحه بحضورها في السماء وتمتُّعها برؤية مجده، أما البشرية فقد كان أمامها أن تلتصق بالله فتنضم إلى صفوف السمائيين، أو تسمع لصوت العدو المتكبر فتفقد شركتها مع الله. للأسف اختار أبوانا اعتزال الله خالقهما، فالتصقت بهما الخطية والحماقة (الجهل).

خرج الإنسان من الفردوس جائعًا، لا يستطيع العالم كله أن يشبع قلبه أو أحاسيسه أو فكره، فبقي هائمًا على وجه الأرض في جوعٍ شديدٍ حتى يملأه الله القدوس بروحه القدوس المُشبِع! إنه في جوعه لا يستطيع أن يُسَبِّح الله، وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يدخل في شركة مع الله بدون التسبيح. فلا نعجب إن دعينا للتسبيح بنقاوة قلب، ودعينا للتمتُّع بالنقاوة بالتسبيح. كيف يتحقَّق هذا؟

تجسد حكمة الله لنقتنيه ونحيا به، ننعم بالحكمة العلوية، والحكمة تُقَدِّم لنا شبعًا يُوَلِّد فينا تسبيحًا، فيصير الإنسان كالرضيع الذي يفرح بأمه فتهتز كل مشاعره وتتجاوب كل أعضاء جسده مع فرحه ليُخرِج تسبحة حب حقيقي يعجز اللسان عن التعبير عنها. فالتسبيح الحق ليس مجرد كلمات ننشدها أو نغمات نتعلَّمها، لكنه في أعماقه حالة فرح حقيقي تهز كيان المؤمن كله: جسديًا وروحيًا ونفسيًا، فينطلق اللسان بالتسبيح، ويرقص القلب طربًا بالربّ، وتهتز النفس كلها بنغمات سمائية ملائكية.

هذا هو عمل الحكمة إذ تشبع النفس وترويها وتضمد جراحاتها، وترد لها مجدها فيه، وتنزع عنها عار الخطية والإثم، فتُكَرِّس كل طاقاتها ومواهبها لحسابه، مُعلِنة سُكنَى القدوس فيها كسرّ تقديسها وشبعها وتسبيحها الروحي!

❖ صَلِّ في سلام ونقاء، رتل بفهم ولذة وبذلك ستكون كنسرٍ صغيرٍ يُحَلِّق في أعلى السماء.

ترتيل المزامير يُسَكِّن الشهوات ويكبح نبضات آلام الجسد، والصلاة تدفع العقل لأن يكون حكيمًا وسليمًا في أفعاله...

---

[1] *In 1 Cor. Hom. 5:3.*

ترتيل المزامير هو صورة لتنوُّع الحكمة الإلهية...

إن لم تكن قد أَخَذْتَ عطية الله أو ترتيل المزامير، اطْلُب بحرارة وإلحاح فستأخذ[1].

الأب أوغريس

❖ إن كنت تعيش حياة شريرة، وتنطق بأمورٍ صالحة فلست تُسَبِّح الله.

مرة أخرى إن بدأت تعيش حسنًا، ونسبت ذلك إلى استحقاقاتك الذاتية، فإنك لست بعد تُسَبِّح الله. لا أريد أن تكون سارقًا تسخر بصليب ربّنا، ولا أريد منك وأنت هيكله أن تستبعد استحقاقاته التي فيك، وتحجب جراحاته.

إن كنت شريرًا ومُصِرّ على شرِّك هذا، لا أقول لك تسبيحك لا يفيدك، ولكن إنك لا تُسَبِّحني، لا أحسب ذلك تسبيحًا.

أيضًا، إن كنت تبدو متواضعًا وصالحًا، لكنك تنتفخ ببرِّك، مُحتقِرًا الآخرين بمقارنتهم بك، أو تتعالى بافتخار بسبب استحقاقاتك، فإنك لا تُسَبِّحني. ألم يكن ذاك الفريسي يفتخر بنفسه هكذا عندما قال: "أشكرك لأني لست مثل باقي الناس" (لو ١٨: ١١)[2].

الأب قيصريوس أسقف آرل

❖ خُلِق البشر ليُسَبِّحوا كثيرًا، ولعلهم يذكرون التسبيح كل يوم بزيادة!

الشمس النيِّرة ليست نيِّرة لنفسها أو تسير لنفسها، لكن لها نور لتنير البشر.

ولأجلهم صارت النيرات في الرقيع (أي السماء)، ولهم تنفع الأيام والليالي.

للبشر يوجد التمييز والمعرفة والكلمة والصوت، ليعطوا التسبيح للعلي في موضعه.

فم الإنسان متقن كأنما لتسبيح الرب، ومن توقَّف عن التسبيح صار ناكرًا (للجميل).

ولهذا لك الفم لتُسَبِّح به وتشكر به وتهلل به وتبارك به.

سَبِّح لأن لك الكلمة المُسبِّحة، وهَلِّل لأن لك الصوت المملوء أنغامًا.

اشكر لأن لك الذهن والتمييز، وبارك لأنك صرتَ إناء ناطقًا وغير صامتٍ.

لم تكن شيئًا، وجعلتك المراحم شيئًا عظيمًا، وبما أنك صرتَ، فاشكر بعجبٍ، لماذا أنت ساكت؟

ادخل إلى ذاتك وانظر إلى شخصك في داخلك، ففيك توجد كل عجائب القدرة الخالقة[3].

---

[1] الفيلوكاليا عن الصلاة ص ٢٥-٢٦.

[2] *Sermons, FOTC, vol. 2, p. 244-250.*

[3] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان – ترجمة الدكتور سوني بهنام).

لأن التسبيح يُعبَّر عنه بالحكمة،

والرب يجعله يزدهر [١٠].

لا يليق التسبيح بفم الخاطئ، مقابل هذا يتهيَّأ المؤمنون الأمناء للترنيمة السماوية الجديدة (رؤ ٥: ٩)، كل مؤمنٍ يتمتَّع بها حسب نقاوة قلبه. لذلك قال الربّ: "في بيت أبي منازل كثيرة" (يو ١٤: ٢).

❖ بالرغم من أن الأشرار يُصَمِّمون على حفظ العيد وتسبيح الله كمن هم في عيدٍ، ويقتحمون كنيسة القديسين، إلا أن الله يدحضهم. إنه يقول للخاطئ: "**ما لك تُحدِّث بفرائضي؟** (مز ٥٠: ١٦). والروح القدس اللطيف يُوبِّخهم، قائلاً: "**لا يجمل التسبيح في فم الخاطئ**" [٩]. ليس للخطية شركة ما مع التسبيح لله. فإن فم الخاطئ ينطق بأمور فاسدة، "**فم الأشرار ينبع شرورًا**" (أم ١٥: ٢٨).

كيف يمكننا أن نُسَبِّح الله بفمٍ دنسٍ، إذ لا يمكن للأشياء المضادة لبعضها البعض أن توجد معًا. "لأنه أيّة خلطة للبرّ والإثم؟ وأيّة شركة للنور مع الظلمة؟ (٢ كو ٦: ١٤). هذا يُوَضِّحه بولس خادم الإنجيل. هذا هو حال الخطاة وكل الذين ينفرون من الكنيسة الجامعة، والهراطقة وأصحاب الانقسامات، إذ يخرجون عن تمجيد الله مع القديسين، لا يقدرون أن يستمروا كحافظين للعيد بلياقةٍ[1].

البابا أثناسيوس الرسولي

❖ إن كانت تسبحتك تُحَرِّكها الشهوة، فأنت تتغنَّى بالترنيمة القديمة. دَعْ كلمات الترنيمة الجديدة ترنّ في فمك؛ لكن إن كنت خاطئًا فليس شيءٍ من التسبحة الجميلة على شفتيك. الأفضل أن تتجدد وتُؤدّب عن أن تستمر مرنّمًا نفس الترنيمة القديمة.

بالحقيقة إنك تصير شخصًا جديدًا، حتى وإن التزمتَ بالصمت، وتسبيحك لن يصل إلى آذان بشرية. ليرفع قلبك الترنيمة الداخلية الجديدة (مز ٩٦: ١)، فتصل إلى أذن الله الذي جدَّدَك. إنك تحب حتى وإن كنتَ صامتًا. حبك نفسه هو صوت الترنيمة المُقدَّمة لله[2].

❖ من أجل ذلك عندما قال "سبحوا الرب لأن المزمور جيد" (مز ١٤٧: ١)، قال "ولإلهنا يلذ التسبيح" كيف يلذ التسبيح للربّ؟ إن كان يُسبَّح بحياتنا الصالحة. اسمعوا ذاك التسبيح المُلِذ له. يقول في موضع آخر: "لا يجمل التسبيح في فم الخاطئ" (راجع سي ١٥: ٩)... يمكن للمديح

---

[1] *Paschal Letters 7:4.*

[2] *Expositions of the Psalms 95:3.*

أن يُسر إنسانًا، عندما يسمع أحدًا يمدحه بعواطفٍ رقيقةٍ بارعةٍ، وبصوتٍ عذبٍ. لكن التسبيح يُسر الله الذي أذناه مفتوحتان على القلب لا الفم، على حياة من يسبحه لا على لسانه[1].

القديس أغسطينوس

تعرف الروح النجس على السيد المسيح بكونه قدوس الله الذي تجسد بتواضعٍ (مر ١: ٢٤). وقد أدرك أن تواضع السيد يغلب كبريائه، وحسب أن الوقت قد حان لإدانته، لذلك صرخ قائلاً: "آه! ما لنا ولك يا يسوع الناصري، أتيت لتهلكنا. أنا أعرفك، من أنت؟ قدوس الله". لقد رفض الرب شهادته منتهرًا إياه، قائلاً: "اخرس واخرج منه" (مر ١: ٢٥).

❖ حتى الشياطين تنطق باسم الله، ومع ذلك فهم شياطين... كان ينتهرهم ويخرجهم. لهذا أسألكم أن تتنقُّوا من هذا الخطأ (النطق باسم الله باطلاً[2]).

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ماذا قال المُخَلِّص للشيطان؟ "انتهره يسوع قائلاً: اخرس واخرج منه" (مر ١: ٢٥). فالحق لا يحتاج إلى شهادة الباطل له. "لم آت لكي أُعرف بواسطة شهادتك، وإنما لأطردك من إحدى مخلوقاتي". المديح من الخاطئ غير لائق... لتصمت، فصمتك هو مديح لي. إني لست محتاجًا إلى صوتك يمدحني، بل عذابك هو مديح لي. عذابك يُكرِّمني.

هل أسعد بمديحك؟ إني أسعد بخروجك. اصمت واخرج من هذا الإنسان (مر ١: ٢٥). كأنه قال له: اخرج من بيتي. ماذا تفعل هنا في مسكني؟ أريد أن أدخل، فاخرج واترك هذا الإنسان، هذا الكائن العاقل. اخرج من هذا الرجل واترك لي مسكني المُعَدّ لي[3].

القديس جيروم

٣. خائف الرب وحرية الإرادة

وهبنا الله حرية الإرادة، فلا نعتذر بأن الربّ أراد لنا أن نُمارِس خطأ ما أو نرتكب جريمة معينة. خلال الحرية الإنسانية اختار آدم مصيره. بدون حرية الإرادة ما كان لنا أن نتمتَّع بالمكافأة الأبدية أو نسقط تحت العقاب الأبدي.

❖ كما أن الشمس تؤذي العيون الضعيفة ليس بسبب طبيعتها اللائقة بها، هكذا أيضًا بالنسبة للذين

---

[1] *On Ps. 147.*

[2] *Instr. To Catech .2: 4.*

[3] *Homilies on the Gospel of Mark 2.*

لا يبالون بكلمة الله. هكذا قيل في حالة فرعون إن (الله) قسى قلبه. هكذا يكون حال من هم مصرّون تمامًا على مقاومة كلمات الله.

هذا هو أسلوب الكتاب، كما قيل: "أسلمهم إلى فكرٍ مرفوض" (رو ١: ٢٨)... فإن الكاتب هنا لا يُقَدِّم الله بكونه هو نفسه يفعل هذه الأمور، إنما يظهر أنها تحدث خلال شرّ الآخرين. فلكي يرعب السامع لذلك يقول الكاتب: "قسى الله"، "أسلمهم".

ولكي يُظهِر أنه **لا يسلمنا ولا يتركنا إلاَّ إذا أردنا نحن ذلك**، اسمع ما يقوله: "أليست شروركم قد فصلت بيني وبينكم؟" (إش ٥٩: ٢ *LXX*). ويقول هوشع: "أنتم نسيتم ناموس إلهكم، وأنا أيضًا أنساكم" (هو ٤: ٦ *LXX*). وهو نفسه يقول: "كم مرة أَردتُ أن أجمع أولادكِ... ولم تريدوا؟" (لو ١٣: ٣٤)... إذ نعرف هذا ليتنا نبذل كل الجهد ألا نترك الله، بل نتمسك بالاهتمام بنفوسنا ومحبة بعضنا البعض. ليتنا لا نبتر أعضاءنا، فإن هذا عمل من هم مجانين، بل كلما رأيناهم في وضع شرير نترفَّق بهم بالأكثر[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ينصحنا بولس أن نزيد سرعتنا. يقول: **اركضوا لكي تنالوا**. فإنه هو نفسه في حركة سريعة أراد أن يبلغ ما هو أمامه ناسيًا ما هو وراء. كان بالحق مصارعًا سريع الحركة يلاحظ بكل دقةٍ مقاومة المضاد له. إنه مُسلَّح بطريقة حسنة في أمان في كل خطوة يخطوها، لن يُوَجّه سلاحه الذي في يده ضد ظل فارغ، إنما يهاجم عدوّه بضرباته الحيّة التي يصوّبها عليه[2].

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

❖ إنه لم يوبخ الذين تركوه ولا هددهم بطريقة عنيفة بل بالأحرى اتَّجه نحو تلاميذه قائلاً: "**أتريدون أنتم أيضًا أن تمضوا؟**" (يو ٦: ٦٧)، مُحترِمًا بالحق القانون الذي به يمارس الإنسان حريته ويبقى في حرية إرادته يختار الموت أو الخلاص[3].

الشهيد كبريانوس

لا تَقُل: "الربّ جعلني أسقط،
فإنه لا يعمل ما يمقته [١١].

---

[1] *Homilies on St. John, 68: 2 – 3.*

[2] *Beatitude, sermon 2. (ACW)*

[3] *Letter 59 to Cornelius: 7.*

يظهر تقديس الله لحرية الإرادة في حياة شمشون الذي قام بأعمال عجيبة ترمز لعمل المسيح الخلاصي ورعايته لشعبه، وإذ أراد أن يذهب إلى امرأة زانية لم يلزمه بالعدول عن ذلك (قض ١٦: ١-٣). حين كان يسلك في الرب حمل انعكاس بهاء ربّه، وحين سقط بإرادته صار في مهانةٍ وذلٍ.

❖ توجد في قصة شمشون أفعال جميلة وأخرى دنسة،

بعضها سامية وبعضها نابية، يليق بنا أن نذكر الحقيقة كلها.

حين حمل أسرار ربّه كان جميلاً، وحين سقط من بهائه صار دنسًا مكروهًا.

كان جميلاً عندما أخرج الحلو من المرّ، وصار ذليلاً حين كشف سرّه لامرأة (زانية)...

الرب وديع جدًا وطويل الأناة تجاه بني البشر، وعندما يسقطون ليس هو الذي يدفعهم إلى ذلك. العظائم التي صنعها شمشون كانت من الله، ولكن الأخرى الرديئة كانت من شمشون وحده.

لم يأمره الرب بالذهاب إلى المرأة، إنما اشتهى ذلك بنفسه، والرب لم يمنعه، حيث كان حرًا.

حين عطش وطلب الماء أعطاه الرب وشرب، وعندما أراد الذهاب إلى زانية دخل لأنه أراد...

ربما كان ذهاب شمشون للزانية بسماح من التدبير، ليكون سقوطه لخلاصك.

ويكون لك مرآة تكشف عيوبك، فترى نفسك، ولا تسقط كما سقط[١].

القدّيس مار يعقوب السروجي

لا تَقُل: "هو أضلَّني"،

فإن لا حاجة له إلى رجل خاطئ [١٢].

الرب يبغض كلّ رجاسات،

وهي ليست بمحبوبة عند الذين يخافونه [١٣].

❖ يكتسب الإنسان الصلاح من الله، إذ هو صالح. أما الشرّ فيخضع له من داخله[٢].

❖ الله صالح، أما الإنسان فشرير. لا يوجد في السماء شرّ، ولا على الأرض صلاح حقيقي. لكن الإنسان العاقل يختار الأفضل. إنه يتعلَّم أن يعرف الله القدير، ويشكره ويمجده، وأن يقمع جسده حتى قبل الموت، ولا يشبع مشاعر (شهوات) الجسد، لأنه يعلم ضررها وعملها الخبيث[٣].

---

[١] الميمر ١٦٠ على شمشون (راجع نص دكتور سوني).

A Homily on Samson by Mar Jacob, Bishop of Serugh, Translated from Syriac by the Holy Transfiguration Monastery.

[٢] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٠٠.

[٣] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٠٢.

خلق الإنسان في البدء،

وتركه يستشير إرادته (البشرية) [١٤].

لا يلقي **القديس باسيليوس الكبير** اللوم على الجسد أو النفس، فالله الصالح خلقهما صالحين، إنما الإنسان إذ تفسد إرادته، لا يُمارِس جسده ولا نفسه الحياة المقدسة. خلق الله الإنسان قادرًا أن يُمارِس البرّ، أو يفعل الشرّ. كما وهبه حرية الاختيار (راجع سي ١٥: ١٤). حتى بعد السقوط في التمرُّد على الله لم ينزع عنه عطية حرية الاختيار (سي ١٥: ١٥)، وإن كان قد أفسد الإنسان إرادته الحرة، فصار في حاجة إلى نعمة الله ليمارس البرّ، دون أن يلتزم الإنسان بممارسة البرّ قهرًا بغير إرادته.

❖ لو كانت النفس لا قدرة لها أن تُذَلِّلَ أهواء الجسد وتُرَوِّض حركاته، لكان لهم (للهراطقة) حجة في لوم الجسد. إلا أن الأبطال المجاهدين قد قهروا أوجاع الجسد، ورَوَّضوا حركاته، واستخدموه في المنافع، والنفس هي التي يلزمها اللوم، لأنها توانت، مع أن لها سلطان على الجسد.

والنفس أيضًا ليس فيها شر بطبعها – حاشا لله – إنما وُجِدَ فيها الشر لأنها لم تعمل الخير الذي أُعطي لها القدرة عليه والاختيار فيه. فإن الشرَّ في الإنسان ليس هو إلا انعدام الفضيلة، وحيث لا فضيلة فهناك الشر حقًا[١].

❖ أولا، يلزم تأكيد حقيقة أننا بالفعل **نلنا من الله القوة لتنفيذ الوصايا التي أعطانا إياها**، حتى لا يكون التزامنا بها أمرًا كريهًا، كأن الوصايا غريبة عنا وغير مُتوقَّعة، ونُطالَب بها. لا نشعر بأنها غير واقعية (خيالية)، وكأننا نُسأَل أن نُقَدِّم ما لم يُعطَ لنا[٢].

❖ بهذه القوة المعطاة لنا من الله بحقٍ وبطريقةٍ لائقةٍ نستخدمها، فنقضي حياتنا كلها بقداسة حياة فاضلة. أما إن أسأنا استخدامها، فإننا نسقط تدريجيًا فريسة للرذيلة. بهذا تعريف الرذيلة هو **الاستخدام الخاطئ**، وانتهاك وصية الرب لما أُعطي لنا بواسطة الله لغرض صالحٍ. بنفس الطريقة، تعريف الفضيلة التي يتطلبها الله منا، هو استخدام هذه العطايا بضميرٍ صالحٍ حسب أمر الرب.

هذا هو الحال، نُطَبِّقه على المحبة. فقد تسلَّمنا وصية محبة الله، ولدينا القوة الغريزية للحُبِّ

---

[١] راجع دير السريان: القديس باسيليوس، ٢٠٠٣، ص ٦٨.

[2] *Reg. Fus. 2.*

منذ اللحظة الأولى لخلقتنا[1].

❖ هذا لا يحتاج إلى برهان خارجي، إذ يمكن لكل إنسانٍ أن يكتشف ذلك بنفسه في داخله. بالطبيعة نشتهي ما هو جميل، حتى وإن اختلفت مفاهيم الجمال من شخصٍ إلى آخر بطريقة واسعة[2].

القديس باسيليوس الكبير

فإن شئت تحفظ الوصايا،

وتُتَمِّم بأمانة مسرَّته الصالحة [١٥].

❖ **سؤال: ما هي العلامات الكامنة فينا التي تدل على الحب تجاه الله؟**

الإجابة: عَلَّمنا الرب ذلك، عندما قال:" إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي" (يو ١٤:١٥)[3].

❖ إن كان إنسان يعترف بالرب ويسمع كلماته، لكنه لا يطيع وصاياه، يُدَان حتى وإن كان له امتياز إلهي، إذ وُهِب عطية مواهب روحية (مت ٧: ٢١-٢٣)[4].

❖ **سؤال: من هو (الذي يُدعَى) قصبة مرضوضة أو فتيلة مدخنة؟ وكيف لا يقُصَف الأول، ولا يُطفَأ الآخر (مت ١٢: ٢٠)؟**

الإجابة: أحسب أن القصبة المرضوضة هو الذي يُتَمِّم وصية الله بتأثير هوى مُعَيَّن. لا يجوز لأحد أن يكسره أو يقطعه، بل بالحري أن يشفيه، وذلك كما فعل السيد حين علّم: "احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم" (مت ٦: ١). ويوصينا الرسول: "افعلوا كل شيءٍ بلا دمدمة ولا مجادلة" (في ٢: ١٤). وفي موضع آخر: "لا شيئًا بتحزّبُ أو بعجبٍ" (في ٢: ٣).

والفتيلة المدخنة هي أن يُتَمِّم أحد الوصية دون رغبة مُلتهِبة وغيرة كاملة، بل بخمول وبلا نظامٍ، ويلزمنا ألا نكبح مثل هذا، بل بالحري نحثّه بتذكيره أحكام الله ووعوده[5].

القديس باسيليوس الكبير

إنه يضع أمامك النار والماء،

---

[1] *Reg. Fus. 2.*

[2] *Reg. Fus. 2.*

[3] *Regulae brevius tractatae, 213.*

[4] *Morals, Rule, 7:1.*

[5] *Regulae brevius tractatae, 291.*

فتمدّ يدك إلى ما تريده [١٦].

بخلقة الإنسان "رأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدًا" (تك ١: ٣١). هذا لا يعني أنه خلق الإنسان غير قابل للسقوط، إنما خلقه على صورته ومثاله، ووهبه أسمى عطية وهي حرية الإرادة. لم يخلق فيه شيئًا شريرًا، وإنما وهبه أن يختار طريقه بكامل إرادته، فإن التصق بخالقه وسلك بنعمة الله يزداد بهاءً ومجدًا. أما وقد عزل نفسه عن خالقه عاد إلى أصله الترابي وفسد. الله لم يخلق الإنسان شريرًا، إنما أَحَبّ الإنسان الظلمة أكثر من النور، صار في حاجة ليس فقط أن ينال المغفرة عما فعله من آثام، بل وإلى من يُقدِّس إرادته وأعماله. يضع أمامك النار والماء، فللإنسان حق الاختيار بين السقوط في الدينونة (النار الأبدية) أو الخلاص بالبنوة لله خلال العماد.

الحياة والموت أمام البشر،

فما يختاره الإنسان يُعطَى له [١٧].

يُقَدِّس الله حرية الإرادة للبشر. فمن حق الإنسان الخيار بين "النار والماء"، و"الحياة والموت". هذا يحمل صدى ما ورد في سفر التثنية كي يحث المؤمن على الاختيار (تث ٣٠: ١٩).

الله في محبته العجيبة للبشرية يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يُقبِلون (١ تي ٢: ٤). في نفس الوقت يهتم بتكريم الإنسان، فلا يُقَدِّم عطيته السماوية دون أن يكشف عن حرية الإنسان. يُقَدِّم له نعمته تسنده. لعلّه يقصد بالنار أن يُجاهِد المؤمن محتملاً نيران التجارب والمتاعب بفرحٍ من أجل الأبدية، ولا يمد يده إلى الماء أي الرغبة في الحياة الباردة والتراخي. من حق الإنسان أن يختار الحياة خلال نعمة الله، أو في تراخٍ يختار الموت الأبدي [١٧]. إذ يختار المؤمن الحياة الأبدية لا الموت يلتصق بالمسيح فيملك في قلبه، ويُبطَل الموت كآخر عدو (١ كو ١٥: ٢٦).

❖ "لأنه يجب أن يملك حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه" (١ كو ١٥: ٢٥)، حتى "آخر عدو يبطل هو الموت" (١ كو ١٥: ٢٦). إذ يبطل هذا تبقى الحياة وحدها (المسيح) التي نؤمن بها (يو ١١: ٢٥). مادام الموت قائمًا بين البشر، فإن الذين يأسرهم لا يؤمنون بالحياة (بالمسيح)[1].

❖ الحياة هي المسيح (يو ١٤: ٦)، والموت يشير إلى آخر عدو (١ كو ١٥: ٢٦)، أي الشيطان. لذلك تأخذ النفس قرارها إن كانت تختار الحياة أي المسيح، أو تتَّجِه نحو الموت، أي الشيطان.

العلامة أوريجينوس

❖ اقتبس بيلاجيوس *Pelagius* العبارة التالية عن المزمور (مز ١٠٩: ١٧): "وأحب اللعنة فأتته،

---

[1] *Commentary on the Gospel of Matthew 15:32.*

ولم يُسرّ بالبركة فتباعدت عنه". لكن من لا يعلم أن هذا خطأ، إنها لم تتم خلال الطبيعة كما خلقها الله، بل خلال الإرادة البشرية التي تباعدت عن الله؟ الحقيقة أنه حتى إن لم يحب اللعنة وإن اشتهى البركة، ولكن في هذا المثال ينكر أن إرادته كانت مُعانَة بالنعمة الإلهية، وبجحوده وعدم تقواه حُرِم من أن يحكم نفسه، فحُرِم من القيادة الإلهية، وجُلب عليه الدمار. هذا يمكن أن يُكتشَف بالتأديب أنه كان عاجزًا أن يحكم نفسه.

بنفس الطريقة، في عبارة أخرى يقتبسها بيلاجيوس ... وضع أمامك النار والماء، فتمد يدك إلى ما شئت. الحياة والموت أمام الناس، فما يختارونه يُعطَى لهم؟ (راجع سي ١٥: ١٦-١٧). واضح أنه إن وضع يده في النار، وإن كان الشرّ والموت يسرّانه، فإن إرادته البشرية هي المسئولة. وبالعكس إن أَحَبّ الصلاح والحياة، ولم يجعل إرادته وحدها تُحَدِّد الاختيار، وإنما إرادته التي تُعِينها الإرادة الإلهية. فإن العين ليست كافية في ذاتها أن ترى، أي في الظلام، ولكي ترى لا يكفيها نورها الذاتي، ما لم يساعدها نور خارجي يجعلها قادرة على ذلك، وإلاَّ تكون الصرخات باطلة: "لا تملكني شهوة النهم ولا الزنا" (راجع سي ٢٣: ٦).

الله يهب هذا الامتياز للذين يملك عليهم، وليس للذين يظنون أنهم قادرون أن يحكموا أنفسهم والذين في عنادٍ متكبرٍ يتطاولون بإرادتهم الذاتية ينكرون أن يقودهم الله[1].

القديس أغسطينوس

اقتبس بيلاجيوس *Pelagius* هاتين العبارتين بين عبارات أخرى من الكتاب المقدس ليُبَرِّر إصراره على أن كل شيء في حياة الإنسان يحكمه إرادته، متجاهلاً نعمة الله.

❖ كل شيءٍ سبق أن أشرنا إليه، أي الصالح والشرير، محويان في العبارتين. لأن مُقترح لنا السماء وجهنم، المسيح والشيطان، العلو والعمق. بنعمة الله جعل هذه في إمكانية كل واحدٍ منا أن يختار وأن يبسط يديه إلى ما يريده.

المسيح له السلطة على الاستقامة والطريق الضيق، أما الشيطان فيقترح الطريق المفتوح على مداه والواسع. الأول يدعو الإنسان إلى السماء، والأخير يُحَرِّك الإنسان نحو جهنم. واحد يرفع الإنسان إلى العلو، والآخر يضغط عليه إلى أسفل إلى الأعماق. الشيطان يُظهِر عذوبة باطلة لكي يجذب الإنسان إلى المرارة الحقيقية. المسيح يدعوه إلى مصاعب قليلة كي يقوده إلى تطويب ممتد. إن فتحنا عيوننا الجسدية وحدها يخدعنا الطريق المُتَّسِع والمفتوح على مداه، ولكن إن

---

[1] *Four Anti-Pelagian Writings, FOTC, vol. 86, p.115-116.*

أصغينا إلى بصيرة قلوبنا، فالطريق الضيق والصعب يجعلنا في أمانٍ[1].

الأب قيصريوس أسقف آرل

❖ كما أن الجسد بدون النفس ميت، هكذا النفس بدون العقل خاملة (عقيمة) وتعجز عن أن ترث الله[2].

❖ كما أن السماء غير منظورة، هكذا الصلاح غير منظور. وكما أن ما على الأرض منظور هكذا الشر أيضًا منظور. الصلاح لا يمكن أن يقارن، وللإنسان بذهنه أن يختار الأفضل...[3]

القديس أنطونيوس الكبير

٤. عينا الرب على خائف الرب

عظيمة هي حكمة الربّ،
وهو قدير في سلطانه، ويرى كل شيءٍ [١٨].

عيناه على الذين يخافونه،
وهو نفسه يَعْلَم كلّ عمل الإنسان [١٩].

لم يُوصِ أحدًا أن يكون شريرًا،
ولا يأذن لأحدٍ أن يُخطِئ [٢٠].

❖ يليق بنا أن نَحْذَرَ لئلا يظن أحد أن الجرائم التي لا ينطق بها أولئك الذين يرتكبون ما يجعلهم لا يرثون ملكوت الله (١ كو ٦: ١٠)، يرتكبونها يوميًا ويظنون أنهم يخلصون منها بالصدقة. يلزم أن تتغيَّر حياتنا إلى ما هو أفضل، ويلزم تقديم الصدقة ليسترضوا الله عن الخطايا الماضية، ولا يحسبون أنهم يشترون بها رخصة أن يرتكبوا ذات الخطايا كمن في حصانةٍ تمنعهم من الدينونة. "لا أذن لأحدٍ أن يخطئ" (راجع سي ١٥: ٢٠)، حتى وإن كان برحمته يغسل الخطايا التي بالفعل ارتكبناها[4].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Sermons, FOTC, vol. 2, p. 319-323.*

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٣١.

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٣٣.

[4] *Christian Instruction, Admonition and Grace. FOTC, vol. 2, p. 429-432.*

سَمِّر خوفك في قلبي

فتتهلل نفسي بحكمتك ووصيتك!

❖ ماذا أطلب منك يا كلّي الحب؟! سَمِّر خوفك في داخلي، فتنسكب حكمتك فيَّ،
أَتمتَّع بحكمتك وأستعذب وصاياك وأَتلذَّذ بها. فتتحوَّل حياتي إلى تسبحة شكرٍ لا ينقطع!
حكمتك هي أمي، تحملني في أحضانها، وتُقَدِّم لي الخيرات السماوية.
وهي العروس الجميلة المتهللة على الدوام، أَتَّحِد بها فتفيض في داخلي بفرح الروح
بدالة وجرأة ألتقي بها، فهي ليست غريبة عني. بها أنطلق نحو السماء يومًا فيومًا.
أجوع إليها فتقدم لي خبز الفهم وروح التمييز. يزداد جوعي وعطشي إليها، وأَتمتَّع بأمجادٍ جديدةٍ!
لا يلحق بي عار ولا خزي، إذ ارتدى بنعمتك ثوب برّك، أنا التراب والرماد!

❖ في رفقتك يا مُخَلِّصي تتهلل نفسي فتتحوَّل رحلة حياتي إلى طريق العُرْسِ الأبدي.
لا أحتاج إلى مزودٍ ولا إلى عصا (مت ١٠:١٠؛ لو ٩: ٣).
عوض المزود تشبع نفسي من الطعام السماوي (حك ١٩: ٢٠).
وعوض العصا تحميني من قوات الظلمة.
أعانقها بقلبي وفكري بلا انقطاع أبديًا. فتتحوَّل حياتي إلى عيدٍ دائمٍ ووليمةٍ لا تفرغ.
أَتَّكِئ عليها فلا أسقط. وإن سقطت بضعفي، تمد يدها وترفعني بالرجاء بدون يأس.

❖ نفسي حزينة على الأغبياء والمُتكبِّرين والكذَّابين. أَشرِقْ بنورك عليهم، لكي يرجعوا إليك.
اجذبهم إليك وجَدِّد حياتهم. عوض الفساد يتمتعون بالقداسة.
وعوض المرارة ينفتح فمهم بالتسبيح! وعوض التشامخ يتمتَّعون بعذوبة وداعتك.
تهب الإنسان روح القوة، فبك يتحدَّى الشر، ولا يقدر عدو الخير بكل حيله أن يسلبه منك،
بك تتحوَّل الفتيلة المدخنة إلى نار حبٍ ملتهب. ويتبدَّد الظلام حيث تشرق يا شمس البرّ.

❖ وضعت النار والماء أمام كل بشرٍ، نجتاز النار فيتحوَّل إلى ندى، ونعبر الأردن، ونستلم البنوة.
وبك ومعك نعبر مياه الأردن، ونستلم روح البنوة بالعماد.
أنت هو حياتنا الأبدية الخالدة، بك تنكسر شوكة الموت، وتنفتح أبواب الأبدية أمامنا!
ترفعنا إلى الأعالي لنوجد في أحضانك، ويعجز إبليس عن أن يحدرنا إلى الهاوية!

الأصحاح السادس عشر

إعداد البشرية للحياة السماوية

في الأصحاح السابق أَصرّ سيراخ على إبراز مسئولية الإنسان في اختياراته بكامل إرادته، الآن يبرز التعرُّف على الاختيارات الشريرة حتى نتجنَّبها، مؤكدًا أن الخطية تُقَدِّم للخاطئ مرارة ثمرها. هذا ما يسمح لنا به الرب لعلنا نرجع عن الشر الذي يُحَطِّمنا أبديًا. عظيم هو الله في رحمته، وعظيم أيضًا في تأديب المُتمرِّدين، لا عن كراهية أو انتقام منهم، وإنما يطلب رجوعهم إليه كمصدر حياة ومجد لهم، وفي نفس الوقت يتَّعِظ بهم من هم حولهم.

*** الحزم ضد الخطية**

١. الأسرة أيقونة السماء [١-٤].

٢. الحزم ضد الخطية [٥-١٤].

٣. ليس أحد غير معروف! [١٥-٢٣].

٤. عظمة الخليقة الأرضية [٢٤-٢٨].

الحزم ضد الخطية

سماح الله بتأديب العصاة المُتمرِّدين يكشف عن اهتمام الله بالإنسان، فإنه يهتم بكل صغيرة وكبيرة في حياة كل أحدٍ، يهتم أن يردّهم عن أخطائهم (مز ٨: ٤-٦؛ إر ٢٣: ٢٤).

قَدَّم سيراخ أمثلة من التاريخ عمن اختاروا الشرّ، مثل سدوم وعمورة "جماعة الخطاة" (تك ١٩:٢٤) [٦]؛ الجبابرة الأولون المتمرِّدون [٧]؛ أمة الهلاك [٩]؛ تأديب الإسرائيليين، فحرّم ستمائة ألف من المشاة من دخول أرض الموعد (١٠؛ عد ١١: ٢١؛ ٢٦: ٣٠)؛ غليظو الرقبة [١١]؛ فرعون الذي تحدَّى الرب [١٥] فتقسَّى قلبه برفضه الرب (خر ٧-١١).

إن كانت الأمة بأكملها، عدا يشوع بن نون وكالب بن يفنّة، حُرِموا من التمتُّع بأرض الموعد، وذلك بسبب تمردُّهم، فكم بالأكثر يليق بالفرد أن يخشى التمرُّد على الله.

١. الأسرة أيقونة السماء

لا تشتهِ كثرة أولاد غير نافعين،

ولا تفرح بالبنين الأشرار [١].

إذ يُقَدِّم لنا معاملات الله مع الخطاة الذين اختاروا ممارسة الخطية على حساب حبّنا لله وحفظنا

للوصية الإلهية، لماذا بدأ بالحديث بعدم الانشغال بكثرة عدد البنين، بل بتربيتهم وتقديسهم كما يليق بأناس الله القدوس؟ بدأ بالأبناء لسببين:

السبب الأول: إن الإنسان السوي – حتى غير المؤمن – يشتاق أن يرى أبناءه ناجحين في الحياة، مُتقدِّمين في العلم والمعرفة، محبوبين من المجتمع، يتمتَّعون بصحة جيدة وطول الأيام أكثر منه. كثيرون يشتهون أن ما يصيب أحد أبنائهم من أمراض تصيبهم هم ويُشفَى أبناؤهم. لهذا عندما حذَّر الرب شعبه من الخطية أوضح أن عواقبها تمتد في حياة أبنائهم وأحفادهم، فتمتد ثمار الخطية على الأبناء والأحفاد دون إلقاء اللوم أو مجازاة الأولاد، إنما لكي يكف الآباء عن الخطية حبًا في أبنائهم! قيل: "افتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي" (خر ٢٠: ٥).

السبب الثاني: أن الإنسان يشعر أن أبناءه عطية إلهية، خاصة في العهد القديم. فقد كان كثرة الأبناء علامة على بركة الربّ (تك ٢٤: ٦٠؛ مز ١٢٨: ٣-٦). وفي العهد الجديد يُنظَر إلى كثرة الأبناء حسب الروح كبركة إلهية، فإذ يكون لهم أطفال صغار يشهدون للإنجيل يترنَّم الآباء: "هأنذا والأولاد الذين أعطانيهم الربّ" (عب ٢: ١٣). لذلك يُحَذِّرنا ابن سيراخ من الأبناء غير النافعين أو الأشرار الذين ليس لهم نصيب في ملكوت السماوات.

يقول المرتل:"هوذا البنون ميراثٌ من عند الربّ، ثمرة البطن أجرةٌ" (مز ١٢٧: ٣). كان العبرانيون يحسبون البنين بركة من قِبَل الرب: "مباركة تكون ثمرة بطنك" (تث ٢٨: ٤)، "ويزيدك الرب خيرًا في ثمرة بطنك" (تث ٢٨: ١١). إن كان البنون حسب الجسد هم هبة من قبل الرب، فبالأكثر البنون الذين يتمتَّعون بنعمة التبني كأبناء لله هم عطية الرب يهبها للكنيسة كأم ولود، كقول **القديس أغسطينوس.**

ويرى **القديس جيروم** أن الزوجة العروس التي تنجب أبناء كثيرين مباركين هي الحكمة، إذ يقول يجب أن تفهم الزوجة والأبناء روحيًا، وإلا نتوهَّم أن الملائكة لا ينعمون بمثل هذه البركات، لأن ليس لهم زوجات ولا أبناء. فمن هي الزوجة الروحية؟ لقد تاق سليمان أن تكون له الحكمة زوجة (أم ٤: ٦، ٨).

❖ فلنتخذها نحن أيضًا زوجة لنا، ولنحتضنها (جا ٢:٨). لا ندعها تُفارِق أحضاننا، ولا تهرب من بين أذرعنا. فإن تلك العروس دائمًا في حضننا، فسننجب منها أبناء... أعني ما يقوله هنا: "بنوك مثل غروس الزيتون حول مائدتك"... فالذي يتَّخِذ الحكمة زوجة له ينجب منها أولادًا...

كما تحمل الكرمة عناقيد كثيرة ولها جذر واحد، تضرب بأغصانها في اتِّساعٍ وازدهارٍ... هكذا الحكمة التي هي زوجتنا، إن لم ندعها تتركنا ولا تولد فينا عناقيد كثيرة أي فضائل عدة، وإرادة

قوية مقدسة وأعمال شريفة كثيرة[1].

القديس جيروم

❖ امرأته هنا قيلت بخصوص المسيح، وهي الكنيسة. امرأته هي نحن "مثل كرمة مُثمِرة"[2].

❖ الكنيسة أيضًا أمنا الحبيبة تلد بنين صالحين. تأملوا كيف تلد. إنها تلد بالمعمودية التي هي رحم الكنيسة لكي كل من يريد أن يُولَد من جديد يدخل بطن أمه ثانية ويولد منها. هذه المعجزة لم يقدر نيقوديموس مُعَلِّم إسرائيل أن يفهمها[3].

القديس أغسطينوس

إن كثر عددهم فلا تفرح،

إذا لم تكن فيهم مخافة الربّ [٢].

❖ لا تهتموا بعددهم، فإن إنسانًا واحدًا خائف الله أفضل من ألف شرير، كما قال الربّ بالنبي[4].

الشهيد كبريانوس

❖ قليلون بالحقيقة يصيرون محصيين في العدد وهم أغنياء في الفضيلة. قل: أي نفع إن وُجِد قش كثير بينما كان يليق أن توجد حجارة كريمة؟ لا يُحصَى العدد في مجموعة بل فيما يتزكَّى. كان إيليا واحدًا، ومع ذلك كان العالم كله لا يستحق ما استحقه. يضم العالم ربوات، لكنهم ليسوا ربوات حينما لا يبلغون إلى هذا الواحد. واحد يفعل إرادة الله أفضل من عشرة آلاف عصاة. لأن العشرة آلاف لم يبلغوا بعد إلى هذا الواحد.

"لا تشتهِ كثرة أولاد لا خير فيهم" (راجع سي ١٦: ١).. ماذا انتفع من هذا الجمهور. إنهما بالأكثر طعام للنيران. هذا يمكن أن يراه الشخص حتى في الجسد، فالطعام المعتدل مع الصحة، أفضل من ثورٍ سمين مع دمارٍ. هذا الطعام أكثر من الآخر. الأول طعام، والثاني مرض.

هذا الأمر أيضًا نراه في الحرب، فإن عشرة أشخاص أصحاب خبرة وشجاعة أفضل من عشرة آلاف بدون خبرة. الأخيرون بجانب أنهم لا يعملون، فإنهم يعطلون حتى الذين يعملون[5].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *Homily 42 on Psalms.*

[2] *On Psalm 128 (127).*

[3] *On Ps. 127 (126).*

[4] *Letter 44 to Cornelius 252 A.D., 15.*

[5] *On Acts Of The Apostles, Homily 24*

لا تعتمد على (طول) حياتهم، ولا تستند إلى عددهم.

ولد واحد تقي خير من ألف، والموت بلا إنجاب خير من أن يكون لك أولاد أشرار [٣].

تنشئة الأطفال اللائقة: كثيرًا ما تحدَّث **القديس يوحنا الذهبي الفم** عن تربية الأطفال التي يعتبرها عملاً مقدسًا، فلم يشغله في تربيتهم المظهر الخارجي ولا الافتخار بنجاحهم الزمني. من جانب آخر فإن إهمال تربيتهم يُعتبَر جريمة خطيرة تفوق قسوة البرابرة الوثنيين.

❖ قسوة البرابرة تؤدي فقط أن تنزل بالأعداء إلى العبودية مع دمار مدينتهم واستعبادها والاعتداء الجسيم بعذابات جسدية. أما أنت فإنك تنزل (بأطفالك) إلى عبودية النفوس، تربطهم بقيودٍ كعبيدٍ، وتُقَدِّمهم فريسة للشياطين الأشرار المتوحّشين ولشهواتهم. بالحقيقة لا تقدم لهم نصيحة روحية، ولا تترك المجال لغيرك أن يؤدّوا هذا الواجب؛ سلوكك مختلف تمامًا[1].

❖ هذا الالتزام يخص الآباء كما الأمهات أيضًا. يوجد آباء يضحون بكل شيءٍ لكي يؤَّمنون لأطفالهم مُعَلِّمين للتمتُّع بالملذّات، ويجعلون منهم ورثة أغنياء. أما أن يصير الأولاد مسيحيين ويمارسون التقوى، فلا يبالون كثيرًا بهذا. يا للعمى الذي يُحسَب جريمة!

إنه إهمال سخيف، مسئول عن الارتباك الذي يجعل المجتمع في مرارةٍ. لنفترض أنك تُعد لهم ممتلكات عظيمة. فإنهم إن كانوا يجهلون كيف يسلكون في حياتهم، فحتمًا لن تدوم هذه الممتلكات معهم. إنها ستتبدد، وتهلك مع أصحابها، ويصير ميراثًا غاية في الخطورة!

❖ سيكون أبناؤك في غِنَى بما فيه الكفاية على الدوام، إن تقبَّلوا منك تنشئة صالحة، قادرة أن تُدَبِّر حياتهم الأخلاقية وسلوكهم. هكذا ليتك لا تجاهد لتجعلهم أغنياء، بل أتقياء، سادة على أهوائهم، وأغنياء في الفضائل. عَلِّمهم ألا يفكروا في احتياجات مخادعة، فيحسبون أنهم يُكرمون حسب مستواهم الزمني (العالمي المادي). راقب بلطفٍ تصرفاتهم، ومعارفهم وأصدقاءهم، ولا تتوقَّع أية رحمة تحل من عند الله إن لم تُتَمِّم هذا الواجب.

القديس يوحنا الذهبي الفم

في تعليق **العلامة أوريجينوس** على قلة عدد الأتقياء بالنسبة للأشرار، يبرز أن الحاجة لا إلى طول عمر الإنسان أو إلى عدد الأتقياء، فإن الله يُسَرّ بإنسان تقي أفضل من ألف غير أتقياء. إبراهيم كان إنسانًا تقيًّا، رأى الله فيه أممًا وشعوبًا كثيرًا مقدسة للرب قبل أن تنجب زوجته.

---

[1] *Against the Opponents of the Monastic Life 3:3.*

❖ إنسان واحد بار يحسب كأنه العالم كله، أما الأشرار، وإن كانوا كثيرين يحسبهم الله قلة قليلة، بل ولا شيء[1].

العلامة أوريجينوس

❖ ذاك الذي يُدعَى إله العالم كله لا يخجل من أن يُدعَى إله الثلاثة رجال (إبراهيم وإسحق ويعقوب)[2].

❖ عشرة آلاف مقاييس من القش والتبن لا تعادل عشرة لآلئ. فإن "واحدًا يفعل إرادة الرب، أفضل من عشرة آلاف من العصاة" (راجع سي ١٦: ٣)[3].

❖ إن الذين غلبوا إبليس لهم كرامة أفضل بكثير من المغلوبين، حتى ولو كان المغلوبون كثيرين والأولون قليلين، إذ يقول: "(ولد) واحد يتقي الرب خير من ألف منافقين" (راجع سي ١٦: ٣)[4].

القديس يوحنا الذهبي الفم

لأنه بطفلٍ واحدٍ حكيمٍ تُعَمَّر المدينة بالشعب،
لكن بقبيلة آثمة تصير مهجورة [٤].

❖ ليكن البيت كنيسة تضمّ رجالاً ونساء، فلا تظن أنك أنت الرجل الوحيد الموجود في البيت، ولا هي المرأة الوحيدة الموجودة فيه، فإن هذا يُمَثِّل عائقًا. يقول: "لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم" (مت ١٨: ٢٠). وحيث يوجد المسيح في الوسط تكون جموع عظيمة. حيث يوجد المسيح يوجد الملائكة. وبالضرورة رؤساء الملائكة أيضا وقوات أخرى. فأنت لست وحدك، إذ لديك ذاك الذي هو ربّ الكل. لتسمع أيضًا النبي يقول: "واحد يفعل إرادة الرب خير من عشرة آلاف عصاة" (راجع سي ١٦: ٣). ليس أضعف من جمهور الأشرار، وليس أقوى من رجلٍ واحدٍ يعيش حسب شريعة الله. إن كان لك أبناء أيقظهم أيضًا، وليكن بيتك كله كنيسة بالليل. وإن كانوا ضعفاء ولا يحتملون السهر ليبقوا إلى الصلاة الأولى أو الثانية ثم أرسلهم للراحة[5].

❖ هذا هو الطريق الذي اعتاد أن يتكلم به الكُتَّاب الملهمون، وذلك كما نجده في هذه المناسبة

---

[1] *Homilies on Numbers 12:2:2-3.*

[2] *On Hebrews , Homily 24 : 6*

[3] *On Hebrews, Homily 27: 6.*

[4] هل للشيطان سلطان عليك؟ ترجمة القس تادرس يعقوب وجورج فهمي حنا، ص ٥٣.

[5] *Hom. on Acts, hom. 26.*

يتواضع (الله) فيُدعَى منسوبًا لعبيده. فمع كونه ربّ الكل العام نجده فيما بعد يقول: "أنا هو إله إبراهيم وإسحق ويعقوب" (راجع خر ٣: ٦). لهذا اعتاد الكُتَّاب الملهمون أن يقولوا: "يا الله إلهي"، لا ليحدوا سلطانه على أنفسهم، إنما كإعلان شخصي في رغبة متحررة من القيود. إذ يفعل البشر ذلك فليس بالأمر الغريب، ولكن إن هو ينسب نفسه هكذا للكائنات البشرية فهو أمر غير مألوف ومدهش. مع ذلك لا نزال ندهش أيها الأحباء الأعزاء، اسمعوا كلمات كاتب ملهم: "شخص واحد يفعل إرادة الربّ أفضل من أعداد بلا حصر لأناس متمردين" (راجع سي ١٦: ٣). جاءت كلمات الطوباوي بولس: "طافوا في جلود غنم وجلود معزى، مُعْتَازِين مكروبين مُذلين، وهم لم يكن العالم مستحقًا لهم" (عب ١١: ٣٧-٣٨)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. تأديب الخطاة

رأت عيني كثيرًا من أمثال هذه،

وسمعت أذني بأسوأ منها [٥].

يُقَدِّم لنا سفر صموئيل الثاني (الأصحاح الثاني) مثلاً خطيرًا عن إهمال رئيس الكهنة عالي في تربية ابنيه. كم كان حزنه عندما وصلته الأخبار المخزية عن سلوك ابنيه في الهيكل لقد جلبا العار على الشعب كله كما على والدهما.

في جماعة الخطاة تشتعل النار،

وفي الأمة المُتمرِّدة يضطرم الغضب [٦].

النار التي تشتعل في الخطاة والغضب الذي يشتعل في الأمة المتمردة يشيران إلى إثارة الأهواء البشرية الخاطئة. يقصد بالأمة المتمردة بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر، وكان من بين الذين هلكوا في البرية أبكارٌ نجوا برش الدم من سيف الملاك المهلك (خر ١٢)، ومع ذلك لم يشفق الرب عليهم بسبب شرورهم.

لم يعفُ عن الجبابرة الأولين الذين ابتعدوا عن الربّ بسبب قوتهم [٧].

ورد ذكر الجبابرة الأولين المتمردين المعتمدين على قوتهم في (تك ٦: ٤؛ باروخ ٣: ٢٦؛ ٣ مك ٢: ٤). وصفوا كجبابرة ذوي بأس متشامخين وقحين أقوياء، يتَّكِلون على قوتهم. هؤلاء هلكوا في الطوفان الذي حدث في أيام نوح.

---

[1] *Homilies on Genesis 18-45, FOTC, vol. 82, p. 374-388.*

لم يُشفِق على المدن التي أقام فيها لوط مؤقتًا،
ومقتهم لتشامخهم [٨].

ولم يرحم أمة الهلاك،
أولئك الذين هلكوا بخطاياهم [٩].

يقصد بالمدن التي أقام بها لوط سدوم وعمورة. جاء في حزقيال النبي عن خطايا سدوم: "هكذا كان إثم أختك سدوم: الكبرياء والشبع من الخبز وسلام الاطمئنان كان لها ولبناتها، ولم تشدد بيد الفقير والمسكين، وتكبَّرن وعملن الرجس أمامي، فنزعتهن كما رأيت" (١٦: ٤٩-٥٠).

حدث نفس الشيء مع الست مئة ألف من الرجال الذين تجمَّعوا في قسوة قلوبهم [١٠].

ارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد (خر ١٢: ٣٧). سمح الله بموت الستمائة ألف المشاة في البرية بسبب قسوة القلب.

حتى لو وُجِد واحد غليظ الرقبة، لكان من العجب أن يبقى بلا عقابٍ.
لأن الرحمة والغضب يخُصَّان الربّ، وهو قدير على الغفران، وساكب للغضب [١١].

كما أنه عظيم في رحمته، هكذا هو شديد في توبيخه،
ويدين الإنسان حسب أعماله [١٢].

إن كان الإنسان ممن يطلبون المجد الباطل، قد يُكَافأ هنا، ولا يتبقَّى له هناك ما يتمتَّع به، إذ يُقَال له: قد استوفيت خيراتك في حياتك (راجع لو ١٦: ٢٥).

❖ الله نفسه كما أنه محب للبشر، فهو بنفس الطريقة يعاقب على الخطايا. "كما هو كثير الرحمة، هكذا هو كثير التوبيخ" (راجع سي ١٦: ١٢). عندما تقول لي: "الله محب البشر"، عندئذ تخبرني عن سبب التأديب، أي الخطأ ضده. لهذا قال بولس أيضًا: "مخيف هو الوقوع في يد الله الحيّ" (عب ١٠: ٣١)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "الرب يدين الشعوب" (مز ٧: ٨). الحديث عن الدينونة مُنتشِر في مواضع كثيرة في الكتاب المقدس، بكونه تعليمًا أساسيًا ومقنعًا بالنسبة للديانة الحقيقية لمن يؤمن بالله في المسيح يسوع.
وردت كلمة "دينونة" (ومشتقاتها) بمعانٍ كثيرةٍ، مما يُسَبِّب ارتباكًا للذين لا يُمَيِّزون بدقةٍ بين

---

[1] *On 1 Cor. Homily 9: 3.*

المعاني...

كلمة "يدين" تُستخدَم أحيانًا في الكتاب المقدس بمعنى **الاستحسان**، كما في العبارة: "احكم لي يا رب إن سرت في براءتي". إذ يكمل: "جَرِّبني يا رب وامتحنّي".

أيضًا تعني "**إصدار حكم**"، كما في العبارة: "إن حكمنا على أنفسنا، **فلا يُحكَم** علينا" (راجع ١ كو ١١: ٣١). إن امتحنا أنفسنا حسنًا، لا نخضع للدينونة.

مرة أخرى قيل إن الرب يدخل في المحاكمة مع كل جسدٍ (إر ٢٥: ٣١)، أي في فحصه الأعمال في حياة كل أحدٍ يُخضِع نفسه للمحاكمة، ويقارن وصاياه بأعمال الخطاة، مدافعًا عن نفسه ببراهين مؤكدًا أنه يفعل كل شيءٍ من أجل خلاص الذين يُدَانون، حتى يقتنع الخطاة أنهم يستحقُّون ما يحلّ عليهم من عقوبة بسبب خطاياهم، ويدركون العدالة الإلهية، ويقبلون بإرادتهم العقوبة التي تحل بهم[1].

❖ لازال يوجد معنى آخر لكلمة "يدين"، وذلك كقول الرب: "ملكة الجنوب ستقوم في يوم الدين وتدين هذا الجيل" (مت ١٢: ٤٢). إنه يقول إن الذين يرفضون التعليم الإلهي، ولا يُحِبُّون النبلاء والصالحين، بل ويهجرون تمامًا التعاليم التي تُعلِّم الحكمة، فبمقارنتهم وتضادهم لمن كانوا في جيلهم أكثر غيرة نحو النبلاء والصالحين، **ينالون دينونة أقسى بسبب الأمور التي أهملوها.**

أعتقد أن الذين لهم هذا الجسد الترابي لا يُدَانون بطريقة واحدة، بواسطة الديَّان العادل متى كانت لهم عوامل خارجية متباينة تمامًا عن غيرهم، لهذا فإن الحُكْمَ يتفاوت من حالةٍ إلى أخرى.

الظروف التي نحن فيها ليست في سلطاننا، بل وُجِدنا فيها بغير إرادتنا، مما يجعل خطايانا قد تكون أكثر خطورة أو أخف في حدّتها.

تخيَّل إدانة الزنا، فالإنسان الذي سقط فيه منذ بداية حياته بممارسات شريرة ووُجِد مع والدين فاسقين، ونشأ بعادات شريرة كالسُكْرِ والعربدة وسماع قصص مُخزِية، بينما آخر كان يقوم بتحدٍّ للتمتُّع بأمورٍ سامية للغاية، ونال تعليمًا وكان له مدرسون، واستمع إلى وصايا إلهية أكثر، وتمتَّع بقراءات مفيدة ونصائح من الوالدين، وأنصت إلى قصصٍ تحثّ على الجدّية وضبط النفس وانتهاج أسلوب حياة راقيًا، فإن اندفع الأخير نحو الخطية مثل الأول، فإنه إذ يُقَدِّم حسابًا عن حياته، كيف يمكن لمثل هذا أن يكون غير مستحقٍ لعقوبة أشد بمقارنته بعقوبة الأول؟! يُتَّهَم أحدهما (الأخير) على أساس أنه لم يستخدم الميول المغروسة في أفكاره باستقامة. أما الآخر فيُتَّهم – بالإضافة إلى ذلك – أنه غرَّر بنفسه في وقت قصير بالرغم من نواله عونًا لخلاصه،

---

[1] *Homily 11:4 on Psalm 7.*

وعدم ضبط نفسه وعدم حرصه.

بنفس الطريقة أيضًا من تدرَّب منذ بداية حياته على التقوى والهروب من كل انحرافٍ عن تعاليم الله، ونشأ في شريعة الله التي تهاجم كل خطية وتدعو إلى عكسها، لا يكون له عذر إن عبد الأصنام مثل من تربَّى على يدي والدين فَضوليين، أو مثل أناسٍ تعلَّموا منذ البداية عبادة الأوثان[1].

القديس باسيليوس الكبير

لا يفلت الخاطئ بغنائمه،
ولا يضيع صبر التقي [١٣].

لكلّ عمل رحمة يجعل مكانًا،
وكل واحدٍ يتلقَّى ما تستحقه أعماله [١٤].

❖ **سؤال: إن سمع أحد قول الرب: "ذلك العبد الذي يَعْلَم إرادة سيده ولا يستعد ولا يفعل بحسب إرادته، فيُضرَب كثيرًا. ولكن الذي لا يَعْلَم، ويفعل ما يستحق ضربات، يُضرَب قليلاً" (لو ١٢: ٤٧-٤٨)، لكنه لا يهتم أن يعرف إرادة الرب، فهل له أي عذرٍ؟**

الإجابة: مثل هذا بسبب الجهل، فلا يهرب من الحُكْمِ على خطيته. يقول الرب: "لو لم أكن قد جئت وكلمتهم، لم تكن لهم خطية، وأما الآن فليس لهم عذر في خطيتهم" (يو ١٥: ٢٢). هكذا يُعلِن الكتاب المقدس في كل موضعٍ إرادة الله للكل. لهذا فإن مثل هذا الشخص لا يُدَان مع الجهال قليلاً، بل بالحري يُدَان بأكثر شدة مع الذين كُتِبَ عنهم: "مثل الصلّ الأصم يسد أذنه، الذي لا يستمع إلى صوت الحواة الراقين، ليُشفَى بدواء يُعدّه الحكيم" (مز ٥٨: ٤-٥ *LXX*).

أما الذي عُيِّنَ لنشر كلمة الله ويُهمِل في الإعلان عنها، فإنه يُدَان كقاتل النفوس كما هو مكتوب (حز ٣٣: ٨)[2].

القديس باسيليوس الكبير

٣. ليس أحد غير معروف!

ورد فى بستان الرهبان عن رئيس دير جاءه أحد الأشخاص الفقراء على باب الدير راغبًا في مقابلته، ولكنه تباطأ في ذلك بحجة أن معه ضيوفًا غرباء، وظل رئيس الدير يستقبل فوجًا ويودع آخر

---

[1] *Homily 11:5 on Psalm 7.*

[2] *Regulae brevius tractatae, 45.*

على باب الدير، بينما الرجل واقف يتوسَّل إلى الرئيس لكي يحدثه ولكنه تركه ودخل إلى داخل مع بعض الضيوف. انصرف الرجل بعد أن ترك لرئيس الدير رسالة مع البواب قائلاً: "إن كنت تحب مجد العالم، فإنني سأرسل لك أناسًا من جميع أطراف الأرض، وأما خيراتي فلن ترثها على هذا النحو!" لقد كان الرجل هو السيد المسيح نفسه[1].

٣. عين الرب على البشرية

لا تقُل: "سأتوارى عن الربّ، ومن العُلا من سيتذكَّرني؟
في وسط شعبٍ كثيرٍ لا أُعرَف،
وماذا تكون نفسي مقارنة بخليقة لا تُعدّ؟" [١٥]

لا يليق أن يستصغر الإنسان خطيته بالقياس إلى خطايا الآخرين الكبيرة، ولا يظن أن كثرة الخطاة يعفيه من الدينونة، لكن الخاطئ الذي يموت في خطيته لا يفلت من الدينونة، لاسيما وأن الله قد منحه جميع السبل التي يمكنه بها أن يتحرَّر من خطاياه.

ها إن السماء وسماء السماء والهاوية والأرض تتزعزع عند افتقاده [١٦].

جاء في إرميا: "إذا اختبأ إنسان في أماكن مستترة، أفما أراه أنا يقول الرب؟ أما أملأ أنا السماوات والأرض يقول الرب" (إر ٢٣: ٢٤). ويقول المرتل: أَيْنَ أَذْهَبُ مِنْ رُوحِكَ، وَمِنْ وَجْهِكَ أَيْنَ أَهْرُبُ؟" (مز ١٣٩: ٧) هل يوجد مكان فيه يتجنَّب الإنسان روح الله؟ هل يوجد موضع يختفي فيه الإنسان من الحضرة الإلهية؟ شعور الخاطئ بالرغبة في الهروب من روح الله أو وجهه، أمر يرجع منذ سقوط آدم وحواء، إذ حاولا باطلاً الهروب من خالقهما. هذا الشعور صار غريزيًا في حياة الإنسان، يظهر بوضوح حين يرتكب طفل خطأ ما يحاول الاختفاء من والديه. يليق بنا أن ندرك أن الله في محبته يتنازل ويرغب في اللقاء بنا حتى ندرك حنوه، ونطلب الرجوع إليه.

❖ أي موضع يمكن أن يحمي الهارب من الله؟ الذين يحمون الهاربين، يسألونهم: ممن أنتم هاربون؟ وإن وجدوا عبيدًا لسيدٍ أقل منهم قوة يحمونه دون خوفٍ، قائلين في قلوبهم: "ليس له سيد يقدر أن يتعقَّبه". ولكن إن أخبروا بأن له سيد صاحب سلطان، إما أنهم يمتنعون عن وقايته، أو يحمونه وهم في رعبٍ شديدٍ، لأنه يمكن أن يُخدَع الإنسان حتى وإن كان صاحب سلطان.

لكن من يقدر أن يخدع الله؟ من الذي لا يراه الله؟ ممن لا يطلب الله الهارب منه؟ أين يمكن

---

[1] الأنبا مكاريوس.

للهارب أن يذهب من وجه الله؟ أن يرده من هنا أو هناك![1]

القديس أغسطينوس

❖ ليتنا لا نستمر في الشرّ ولا نيأس من المصالحة، بل لنقل: "أقوم وأذهب إلى أبي"، ونقترب إلى الله. فهو لا يبتعد عنا، نحن الذين نبتعد عنه. نقرأ: "أنا هو الله من قريب، ولست إلهًا من بعيد". مرة أخرى ينتهرهم على لسان النبي: "آثامكم صارت فاصلة بينكم وبيني" (إش ٥٩: ٢)[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

وفي نفس الوقت الجبال وأسس الأرض ترتعد رعبًا عندما ينظر إليها [١٧].

ولكنّ القلب لا يتأمل في ذلك،
ومن الذي يُفَكِّر مليًّا في طرقه؟ [١٨]

ستهبّ عاصفة مفاجئة لا يقدر إنسان أن يبصرها،
فإن أكثر أعماله تتم في السرّ [١٩].

❖ يقول الرسول بولس بالروح القدس "يفحص كل شيء حتى أعماق (الله)" (١ كو ٢: ١٠)، يسأل عن قياس "عمق حكمة الله وعمله (معرفته)" (راجع رو ١١: ٣٣)، ومع هذا فإنه يعجز عن بلوغ هدفه، أو قل يبلغ إلى معرفة جوهرية صريحة. ففي يأسٍ مع دهشة يُعَبِّر عن ذلك، قائلاً: "يا لعمق غنى الله وحكمته" (رو ١١: ٣٣). لتأكيد أنه في يأس من الحصول على فهمٍ كاملٍ، قال هذا الهتاف. أنصت إلى قوله: "ما أبعد أحكامه عن الفحص، وطرقه عن الاستقصاء!" (رو ١١: ٣٣). فإنه لم يقل إنه يمكن قياس أحكام الله بصعوبة، بل لا يستطيع أحد أن يقيسها نهائيًا... ليس من عقل مخلوقٍ يستطيع بأية وسيلة أن يُدرِكَها... لذلك أسألكم أيها الإخوة، إن كنا لا نحزن من أجل الذين يسلكون الحياة الشريرة. انظروا فإن المسيح وملائكته ينتظروننا في السماء، إذ نقاوم إبليس وملائكته. ليتنا لا نحزن يا إخوة، لأن المسيح ليس فقط ينتظرنا، بل ويعيننا. لا تخافوا ولا تسقطوا في اليأس، فإن الشيطان بالحق يثير بقوة عارمة، وأما المسيح فيبسط تعزيته. إنه يتابع حربكم، يسندكم في الضيقات، ويُكَلِّلكم في نصرتكم، فلا تيأسوا، ولا تبطلوا رجاءكم إذ لكم حاكم كهذا، فهل تخافون؟[3]

---

[1] *On Ps. 139 (138).*

[2] *Letter to the Fallen Theodore 1: 8.*

[3] *Pamphilos of Caesarea: Apology for Origen, FOTC, vol. 120, p. 75-83 (Origen 29).*

العلامة أوريجينوس

يرى **العلامة أوريجينوس** في عظاته على سفر إرميا[1] أن اليهود لا يسمعوا الشريعة بطريقة خفية، لأن ما يشغلهم الأمور الظاهرة مثل الغرلة والختان، ولم يدركوا أن من يهتم بالخارج كختان الجسد دون ما يحمله في الخفاء من معانٍ روحية بالحقيقة ليس يهوديًا. ومن يحتفل بالفصح خلال ذبح حمل الفصح، بينما يدرك المؤمن الحقيقي حقيقة الفصح، أي تقديم حمل الله نفسه ذبيحة، مقدسًا جسده المبذول ذبيحة روحية خفية[2].

❖ "وإن لم تسمعوا ذلك، فإن نفسي تبكي في أماكن مستترة من أجل الكبرياء". أو "وإن لم تسمعوا بطريقة مستترة، فإن نفوسكم سوف تبكي أمام الشدة" (راجع إر ١٣: ١٦-١٧). إن من بين الذين يسمعون، يوجد من يسمعون **بطريقة مستترة**، ويوجد من لا يسمعون بطريقة مستترة. فما هو إذًا السمع بطريقة مستترة إلا ما تقوله الآية: "**بل نتكلم بحكمة الله في سرّ. الحكمة المكتومة التي سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا**" (١ كو ٢: ٧) وفي موضعٍ آخر يُقَال: "**أكثر أعمال الرب في الخفاء**" (راجع سي ١٦: ١٩). فعندما أسمع الناموس، إما أسمعه بطريقة مستترة أو لا أسمعه بطريقة مستترة؛ فاليهودي مثلاً لا يسمعه بطريقة مستترة؛ ولهذا فهو يختتن بطريقة ظاهرية، غير عالم أن "**اليهودي في الظاهر ليس هو يهوديًا، ولا الختان الذي في الظاهر في اللحم ختانًا**" (رو ٢: ٢٨)، أما الذي يسمع ويفهم الختان **بطريقة مستترة** فسوف يكون مختتنًا في الخفاء. وإذا كان اليهود قد قتلوا السيد المسيح قديمًا، وهم مسئولون حتى يومنا هذا عن موته، فإن هذا حدث لأنهم لم يسمعوا الناموس ولا الأنبياء بطريقة مستترة[3].

❖ مكتوب: "إن أكثر أعمال الربّ في الخفاء" (راجع سي ١٦: ١٩). هذا هو السبب أنه يليق بكل أحدٍ أن يشتهي حسب قدرته أن يسعى، أن ينسى ما هو وراء ويمتد إلى ما هو قدام، لأجل أعمالٍ صالحة وفكرٍ واضح وفهم في المسيح يسوع مخلّصًا الذي له المجد إلى جيل الأجيال (في ٣: ١٣، رو ١٦: ٢٧؛ بط ٤: ١٢)[4].

العلامة أوريجينوس

أعمال برّهِ من يُخبِر بها؟ أو من يحتملها؟

---

[1] *Cf. Homilies on Jeremiah, 12: 13.*

[2] *Cf. Homilies on Jeremiah, 12: 13.*

[3] عظة ١٢: ١٣ على إرميا، ترجمة جاكلين سمير كوستى.

[4] *Pamphilos of Caesarea: Apology for Origen, FOTC, vol. 120, p. 75-83 (Origen 29).*

فإن عهده بعيد [٢٠].

هذا ما يُفكِّر فيه الإنسان فاقد الفهم وبلا تمييز،
الذي ينخدع ويفكر بحماقة [٢١].

يتحدَّث هنا عن أصحاب الفكر المتشكك، الذين يرفضون الإيمان بالله، إذ لا يدركون أن حكمة الله اللانهائية تسمو فوق أفكارهم. يدعوهم ابن سيراخ أناس فاقدي الفهم والتمييز، مخدوعين بحماقتهم.

أنصت لي يا بُنيّ، واكتسب المعرفة، وانتبه بدقةٍ إلى كلامي في قلبك [٢٢].

سأكشف عن التعليم بوزنٍ،
وأعلن المعرفة بتدقيقٍ [٢٣].

❖ لا فائدة من دراسة العلوم إن كانت النفس ليس لها حياة صالحة ترضي الله.
علة كل الشرور هو الغرور وعدم معرفة الله[١].

❖ يمتلئ الذين يعرفون الله بكل أنواع الأفكار الصالحة، وباشتياقهم يزدرون بالأرضيات. ولكن مثل هؤلاء الناس نادرًا ما يرضي الناس عنهم، حتى كثير من الأغبياء لا يقفون عند حد كراهيتهم بل يسخرون بهم ويذمُّونهم. هؤلاء مستعدون أن يقبلوا الفقر المدقع، إذ يعلمون أن ما يبدو لكثيرين إنه شر، هو خير بالنسبة لهم.

من يفكر في السمائيات يؤمن بالله، ويعرف أن كل الخليقة هي من عمل إرادته. أما الذين لا يفكرون هكذا، لا يؤمنون بأن العالم من صنع الله، وإنه مخلوق لأجل خلاص (نفع) الإنسان[٢].

القديس أنطونيوس الكبير

٤. عظمة الخليقة الأرضية

تكشف الخليقة عن رعاية الله (مز ١٠٤: ٢٤؛ رو ١: ٢٠)، الذي يهتم بكل مخلوق وكل احتياجاته (٣٩: ٣٤-٣٣). يعلن ابن سيراخ أن الإنسان الذي لم يتعرَّف على الناموس ولا سمع عن المُخَلِّص ليس له عذر في عدم إيمانه، إذ يطلب المعرفة من الله الذي بالنسبة له يبدو مجهولاً، فيتحدث إليه في قلبه ويكشف عن نفسه بتعليم له وزنه ومعرفة دقيقة.

يُعَدِّد ابن سيراخ مصادر المعرفة الإلهية للإنسان. قصة الخليقة الواردة في سفر التكوين (١-٣)

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٢٦.

[٢] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٥٣.

هي الأساس الذي يكشف عن قدرة الخالق وحكمته العجيبة في تدبير الخليقة وعظمتها. في البدء قبل خلقة الإنسان خلق الله المسكونة، ومع كثرة المخلوقات فإن لكل مخلوقٍ مكانه الخاص ودوره [٢٤].

لم يخلق الله العالم ويضع له قوانينه الطبيعية فحسب، وإنما هو الإله المحب لخليقته، ويُدَبِّر لها احتياجاتها، لا يتركها تجوع أو تقلق ولا أن تعيش خاملة لا دور لها [٢٥]. أوجد تناسق عجيب في الخليقة المتسعة ووهبها السماع لكلمته بالغريزة الطبيعية [٢٦]. كما زيَّن الخليقة الأرضية بخلقة الإنسان من ترابها، ووهبه أن يحمل صورته الإلهية ويكون على مثاله (تك ١: ٢٧) [٧: ٣].

وهبه القدرة على الدراسة والتفكير [٧: ٥]، وأطلعه على الخير والشر [٧: ٦]. قدَّم له إعلانات إلهية خلال ميثاقه [٧: ٩]. وفتح له باب الرجاء مقدمًا، معلنًا طريق الرجوع إليه [٧: ١٩].

حين قضى الربّ أعماله في البدء،

قرر لها حدودها [٢٤].

يقصد هنا بدء عملية الخلق وليس في الأزل، لأنه لا يرجع أصل المخلوقات إلى الأزل، وقد خلقها بترتيبٍ عجيبٍ ووزنٍ دقيقٍ، وحدَّد لكل مساره لا يتجاوزه وعمله. خلق الإنسان الأول آدم كاملاً على صورته، وأَعَدّ له ما يحتاجه، وأعطى له طعامه كما أعطى أيضًا لكل المجرات والنجوم احتياجاتها فلا شك أن هذه الأجرام تستهلك طاقة كبرى في سبيل عملها هذا، فالشمس على سبيل المثال يحدث فيها يوميا آلاف الانفجارات النووية وهو ما ينتج عنه الضوء والدفء والتوازن الفلكي لها[1].

❖ كل أعماله بالأمانة"؛ ماذا يعني هذا؟ إن السماوات وأنظمتها تجدها مُرشِدًا إلى الإيمان، تشهد لصانعها. وإن رأيتم نسق الأرض، فإنها تُزيد إيمانكم بالله. مع هذا فإنه ليس من خلالنا نحن بعيوننا الجسدية نؤمن به، وإنما بقوة العقل ندرك غير المنظور خلال دلائل المنظورات[2].

القديس باسيليوس الكبير

رتَّب أعماله إلى الأبد منذ مبادئها بحسب أجيالها.

فلا تجوع ولا تقلق ولا تتوقَّف عن أعمالها [٢٥].

لا يضرّ الواحد الآخر المُلاصِق له،

ولا يعصون كلمته أبدًا [٢٦].

بعد ذلك نظر الربّ إلى الأرض،

---

[1] راجع الأنبا مكاريوس.

[2] *On Ps. 32. No. 3.*

وملأها من خيراته [٢٧].

❖ مكتوب: "**ملأ الرب الأرض من خيراته**"... كل هذه الأشياء، إذ هي أرضية وزائلة ومؤقتة، إن قورنت بذاك الحق، حيث قيل: "أنا هو الذي هو" (خر ٣: ١٤)، فإن هذه كلها التي ستعبر تُدعَى باطلة. مع الزمن تبطل كالدخان في الهواء. ولماذا أقول أكثر مما قاله يعقوب الرسول، إذ يريد أن ينزل بكبرياء الإنسان إلى التواضع: "ما هي حياتكم؟ إنها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل" (يع ٤: ١٤)[١].

القديس أغسطينوس

❖ وأتقن الكائن كل المخلوقات وهو يتباهى في ستة أيام كما يشهد كتاب موسى.
تشهد الخليقة كيف أن الخالق جبار، ومن أتقن أناته يتعلم المرء كيف أنه حكيم.
لكونه مخفيًا عن الناطقين والحكماء، فالخليقة التي خلقها هي فم كبير يشيد بتسبيحه.
النور بشروقه والجَلد بعلوه والبحر بأمواجه والأرض بجمالها وبالآكام المصفوفة فيها.
الشمس والقمر بأشعتهما وبوميضهما، والكواكب بمسيرتها وبتغيير أنوارها.
الأسماك في البحار، والطير في ارتفاع الهواء، الكل من موقعه يصعد التسبيح للخالق.
الذي قال وصار، وأمر وأقام، ودعا وجلب، وعمل العالم الذي يقوم ويوجد من لا شيءٍ.
الطبيعة تصرخ بأن لها خالقًا مخفيًا، وتشهد الخليقة بأن لها ربًا يُدَبِّرها.
وتغيير الأزمنة ذاته يكرز بالخالق الذي به تتحرَّك وتذهب وتأتي في حدودها[٢].

القديس مار يعقوب السروجي

وغطَّى سطحها بجميع أنواع المخلوقات الحيَّة،
وإليها ستعود مرة أخرى [٢٨].

من وحي سيراخ ١٦

أَدِبّني، وإلى الموت لا تُسَلِّمني!

(مز ١١٨: ١٨)

---

[1] *On Ps 144 (143)*

[٢] الميمر ٧١ عن اليوم السابع.

❖ تدبيرك عجيب يا أيها القدوس.

في لحظات سقوطي في الخطية عيناك تنظران إليّ، لا لتجازيني على عنادي،

وإنما لتعلن لي أن أبواب مراحمك مفتوحة لي.

وأنت القدوس لن تَقْبَل الشركة مع الظلمة.

إنما تسمح بتأديبي كي أطلب نورك يُبَدِّد ظلمتي.

❖ أعلنت لي أن الأبناء بركة من عندك.

تُوَجِّهني كي أُمارس تربية أولادي بما يليق بخائفي الرب.

فابن واحد مقدس أفضل من ألفٍ من الأشرار!

بطفلٍ واحدٍ حكيم من ثمر الروح، تعمر المدينة التي في أعماقي،

وتتهلل أورشليم حيث يُعلن فيها هيكل قدسك!

كيف أنجب أبناء قديسين سوى خلال نعمتك واتحادي بحكمتك!

قدَّمت لي الحكمة عروسًا متهللة ومُخصبة،

أحمل ثمر روحك القدوس من محبة وفرح وسلام...

هذه الثمار هي أبناء مقدّسين، أَتمتَّع بهم عاملة في قلبي!

ثمر روحك أثمن من كل كنوز العالم، أفضل من الغِنَى والمجد.

❖ سمعت كيف دمرت الخطية أممًا ومدنًا وأفرادًا.

في أول جيل من أبناء آدم دمرت الخطية قايين، فاشتهى الموت!

وفي أيام نوح تمرَّد الجبابرة، فغرقوا في الطوفان.

وفي عصر لوط، احترقت سدوم ومعها عمورة،

وصارت عبرة لمن يشتهي الفساد!

وفي عصر موسى صمم فرعون على التحدّي ضدك،

وبإصراره في عنادٍ سلّمته لقسوة قلبه، فهلك هو وجيشه.

وفي البرية هلك من أجل تذمّرهم الذين أنقذت أبكارهم،

وماتوا في البرية، ولم يتمتَّعوا بأرض الموعد.

❖ هب لي حكمتك، فلا أهرب مع آدم وحواء، لأختفي منك بين الأشجار.

بل أرجع إليك مع أبي داود، ويصرخ قلبي معه:

"أين أهرب من وجهك، إن صعدت إلى السماء فأنت هناك!
وإن انحدرت حتى الأعماق فأنت هناك."
مع يوسف الشاب البسيط المُتغرِّب والمُستعبد أصرخ:
"كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟! (تك ٣٩: ٩)
أؤمن أنك كنت مشغولاً بخلاصي، حتى عندما أعطيتك القفا لا الوجه.
لم تقتحم قلبي، ولم تضغط على إرادتي،
لكن بالحُبّ دعوتني كي أطلب نعمتك سندًا لي.

❖ يا كلّي الحب والحكمة والقدرة، قُدنِي إليك.
فأنت الأب المحب واهب الحكمة القدير.
من يُحَرِّرني من خطيتي سواك؟!
خلقت كل شيء بتدبير فائق! الخليقة المنظورة وغير المنظورة.
رعايتك عجيبة حتى للحيوانات والطيور.
أما تهتم بضعفي حتى أسترد صورتك فيّ؟
قلبي وفكري وكل أعماقي تُسَبِّحك يا مُخَلِّص الكل!
عدِّني للقاء معك، حتى أستقر في أحضانك الإلهية!

❖ أخيرًا، ماذا أطلب؟ لتكن عيناك عليّ. تنظران إليّ فأَتطلَّع إليك.
عيناك تجتذباني إليك. عيناك تطبعان أسرار حُبِّك في قلبي.
عيناك ساهرتان عليّ، حتى ألتقي بك وجهًا لوجهٍ.

الأصحاح السابع عشر

عظمة الإنسان ودعوته للتوبة

بعد أن تحدَّث ابن سيراخ عن حكمة الله ومحبته للبشر إذ خلق العالم، مُهَيِّئًا للإنسان احتياجاته، تحدَّث عن خلقه الإنسان في شيءٍ من التفصيل. خلقه من التراب؛ لكنه فريد في كل الخليقة، على شبه قوته على صورته [٣] وأعطاه سلطانًا على المخلوقات الأخرى، على الأرض وفي المياه وفي الجو. يقوم هذا السلطان على انفراده في القدرة على التفكير والدراسة والفهم والتذكُّر والتخيل.

١. يا لعظمة الإنسان! **[١-٨].**

٢. ميثاق مع إسرائيل **[٩-١١].**

٣. وصية الله للإنسان! **[١٢-١٨].**

٤. دعوة للتوبة **[١٩-٢٧].**

١. يا لعظمة الإنسان!

يبرز السفر مدى اعتزاز الله بالإنسان كخليقة فريدة محبوبة لديه جدًا.

١. خلق الإنسان من التراب (تك ٢: ٧) وعندما أخطأ خضع للموت (تك ٣: ١٩). كثمرة عصيانه لله مصدر حياته. ويبرز سفر سيراخ مهابة الموت في نظر الإنسان، إذ يترقَّبه في كل لحظةٍ من لحظات حياته. لكن بانطلاقنا من العالم ندرك أنه يليق بنا ألا ننشغل بما عشناه على الأرض إن كان يومًا واحدًا أو ألف سنة، إنما ما يشغلنا هناك أسلوب حياتنا هل كنا في شركة مع الله أم غرباء عنه. عمرنا وقت مُحَدَّد، أما في الدهر الآتي فخلود في السماء حيث نرى الله ونتمتَّع بالمجد الأبدي، أو حرمان أبدي من ملكوت السماء.

٢. إن فاقت بعض الحيوانات الإنسان في ضخامة الجسد كالفيلة، أو في القوة الجسمانية كالأسد، أو السرعة مثل الإيل، أو القدرة على الطيران مثل النسر أو السباحة في أعماق المحيطات كالسمك. غير أن الله وهبه سلطانًا، وألقى الرب رعب الإنسان على كل الكائنات الحية [٢- ٤].

٣. يشترك الإنسان مع كثير من الحيوانات في وجود حياة ولسان وأعين ومخ ويتميَّز عنها في انفراده أنه على صورة الله ومثاله، كما ألبسه قوة تليق بمحبوب الله [٣] ووهبه العقل والإرادة الحرة.

٤. أحيانًا يفوق الحيوان عن الإنسان في استخدام بعض الحواس في الأمور الأرضية، فيمكن للحيوان بالشم أن يدرك النبات السام، أما الإنسان فيحتاج إلى دراسة علمية ليُدرِك أن به مادة سامة.

٥. تستخدم حواس الإنسان للانطلاق إلى ما وراء الأرضيات والزمنيات، فاللسان يسند الإنسان للتسبيح مع السمائيين، وخلال الأعين يمكن للبصيرة الداخلية أن ترى ما هو غير منظور. يرى بعض الآباء أن حواس الإنسان الخمس يمكن أن تساهم في حواسه التي للإنسان الداخلي [١٣].

٦. للحيوان مخ لكن ليس له عقل يسنده في التطور والتقدم كدراسة الفضاء والإلكترونيات والتعرُّف على قوانين الطبيعة، بل والالتقاء مع الله أبديًا والتعرُّف على السمائيين.

٧. وهب الله الإنسان إمكانية قبول النعمة المجانية التي تسنده على التمتُّع بأسرار الشريعة الإلهية، بل وتهبه بهجة في حفظها، وتقدم له معرفة فائقة [٧- ١١].

٨. يكرِّم الله الإنسان، فيتعامل معه كما لو كان الند للند، فيدخل معه في عهدٍ لا على مستوى زمني مؤقت بل على مستوى أبدي [١٢].

٩. يشتاق الله أن يتطلَّع الإنسان إلى مجد عظمته، وأن يسمع مجد صوته، لأن مصيره الأبدي هو الأحضان الإلهية، يتمتع بالأمجاد السماوية.

❖ لماذا خُلِق الإنسان؟ لكي يمجد الله ويراه خلال خليقته، الله الذي أوجد الخليقة من أجل الإنسان. الذهن المُحِب لله هو عطية غير منظورة يُقَدِّمها الله لبلوغ الحياة الصالحة[١].

❖ إن أخطر أمراض النفس وأَشرّ الكوارث والنكبات، هي عدم معرفة الذي خلق الكل لأجل الإنسان ووهبه عقلاً وأعطاه كلمة بها يسمو إلى فوق وتصير له شركة مع الله، متأملاً وممجدًا إيَّاه[٢].

القديس أنطونيوس الكبير

خلق الربّ الإنسان من الأرض،

وإليها أعاده مرّة أخرى [١].

❖ سمعنا أن الرب أخذ "ترابًا من الأرض" و"صنع الإنسان" (انظر تك ٢: ٧). من هذه الآية أيقنت أن الإنسان لا شيء وعظيم في الوقت ذاته. فإذا نظرت إلى طبيعتنا الترابية على حدى، فهي لا شيء ولا تستحق أي شيءٍ، ولكن إذا نظرت إلى الكرامة التي تُوِّج بها، ترى الإنسان عظيمًا...

لم يقل الله: "ليكن الإنسان" مثلما قال: "ليكن جَلَد". هكذا ترى أن الإنسان لم يُخلَق مثل باقي المخلوقات. فَخَلْقُ الإنسان هو أسمى من النور والسماء والأجرام السماوية، بل وفوق كل شيءٍ. نال جسمنا كرامة أن يُصَاغ كليًّا بواسطة يدي الله. لم يأمر الله ملاكًا، وليست الأرض هي التي

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٥٥.

[٢] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٩٧.

ولدتنا تلقائيًا كما تلد بعض الحشرات. لم يُخبر أن القوات الملائكية التي تخدمه تفعل هذا أو ذاك. لكن بيده الخاصة كفنانٍ، أخذ من تراب الأرض وشكَّل الإنسان.

حينما تتأمل ما أخذه الرب (التراب)، تُدرِك ماذا يكون الإنسان؟ لكن عندما تتأمل في ذاك الذي صاغ، تدرك أن الإنسان عظيم. حقًا، فهو لا شيء بسبب المادة التي خُلِقَ منها، وعظيم بسبب الكرامة التي نالها من الله خالقه[1].

القديس باسيليوس الكبير

لقد عاد الإنسان إلى التراب بسقوطه في التمرُّد ضد خالقه، ولم يتخلّ الخالق عنه بل حمل خطايا العالم على الصليب، وأعطاه إمكانية ردّ صورة الله في استحقاق الدم. يرى **القديس غريغوريوس النيصي** من بركات الله على الإنسان أنه قابل للتغيير، فبالنعمة يرتفع من مجدٍ إلى مجدٍ، وبالتهاون يسقط ويفقد خلاصه.

❖ ما دمنا قابلين للتغيير، فالأفضل أن نتغيَّر إلى ما هو أفضل: "**من مجدٍ إلى مجدٍ**" (٢ كو ٣: ١٨). وهذا يجعلنا نتقدَّم دائمًا نحو الكمال بالنمو اليومي، مع عدم الاكتفاء بحدودٍ مُعيَّنة نحو الكمال. يعني عدم التوقُّف نحو ما هو أفضل، وعدم وضع أيّة حدود نقف عندها في نمونا[2].

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

جعل للناس أيامًا معدودة ووقتًا مُحَدَّدًا،

ووهبهم سلطانًا عليها [٢].

تحدَّث **القديس مار يعقوب السروجي**[3] عن العظمة الحقيقة والعظمة الباطلة تحدث في إبداع حيث أبرز حب الله الفائق نحو الإنسان. فقد زيَّن السماء بالكواكب، وهيَّأ الأرض بالمخلوقات الجميلة، وقدَّمهما للإنسان لتكونا تحت سلطانه. **لقد أراد الله للإنسان أن يكون صاحب مجد وسلطان**، لكن بحسد إبليس سقط في العظمة الباطلة، ففقد عظمته الحقيقية. ومع هذا سمح الله لآدم أن يعود إلى ما كان عليه من تراب لا ليذله، بل لكيلا يحيا إلى الأبد فاقد عظمته، إنما باكتشاف حقيقته ينال المجد خلال عمل المُخَلِّص.

وألبسهم قوَّة شبه قوّته،

وخلقهم على صورته [٣].

---

[1] *The Origin of Man, homily 2:2.* ترجمة: ريمون يوسف

[2] من مجدٍ إلى مجدٍ، تعريب القمص إشعياء ميخائيل، ١٩٨٤، فصل ١:٢.

[3] ميمر "على العظمة" يُقرأ يوم الأربعاء من الأسبوع الثاني من الصوم الكبير.

❖ لقد رسم فينا الرب صورته من أجل حنانه، وبنفس المراحم هذه سيقيمنا في اليوم الأخير[١].

❖ صوَّر جميع الكائنات في أشكالها، ولم يرسم له صورة إلاَّ على آدم. الأرض واسعة، والسماء عالية، والشمس بهية، والقمر جميل، ومسيرة العساكر مجيدة. عندما صنع كل هذا الجمال، لم يُسمَع أن الرب صنع شيئًا على صورته، ماعدا آدم، صورة (الابن) الوحيد، ولأجله سُميَ صورة الله[٢].

❖ **ترك الله رؤساء الملائكة ليرسم صورته وشبهه في النفس البشرية.** لقد زيَّنها بجمالٍ فاقت به جميع المخلوقات[٣].

❖ صورته جعلتهم يقتنون الدالة، لكي يتضرَّعوا إليه بلا خجلٍ بواسطة (صورته) الخاصة[٤].

❖ النفس خليقة نبيلة وجميلة، لا تفوقها أية خليقة أخرى. إنها صورة الملك. وصورة اللاهوت النبيلة، ويفوق جمالها جمال كل المخلوقات. تأمل كم كان جميلاً نور اليوم الأول، لكن الله لم يرسم عليه صورة اللاهوت الجميلة. انظر إلى الجَلَد، الخيمة المبسوطة على كل المخلوقات، لم يكن هو أيضًا مستحقًا ليحمل صورة الملك، كذلك الشمس والقمر لم يستحقا بأشعتهما أن يحملا الصورة النبيلة[٥].

القديس مار يعقوب السروجي

❖ يقول **القديس باسيليوس الكبير** إن مدينة الرب (مز ١٠١) هي الإنسان، لأن الله خلقه على صورته ومثاله. وأما أشرار الأرض وفاعلو الإثم فهم الأفكار الشريرة الخارجة من القلب مثل القتل والفجور والزنا والسرقة وشهادة الزور والتجديف وما إلى ذلك. يجب علينا قتلها وإبادتها من مدينة الرب باكرًا، أي في بداياتها أو في حداثة عمرنا، ولا ندعها تنمو فينا بالأكثر.

الأب أنسيمُس الأورشليمي

❖ ماذا يعني الكتاب المقدس عندما قال إننا قد خُلِقْنا على صورة الله؟

لنتعلَّم الأمور التي تخصّ الله، ولنفهم تلك التي تخصّ أنفسنا، وهو أننا **ليس لنا ما هو على**

---

[١] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ٨٠.

[٢] راجع المرجع السابق، ص ٩٦.

[٣] راجع المرجع السابق، ص ٩٦-٩٧.

[٤] راجع المرجع السابق، ص ١٠٨.

[٥] راجع المرجع السابق، ص ٩٠.

صورة الله في شكل جسدي، لأن شكل الجسد قابل للفساد. إن ما هو غير قابل للفساد لا يُوصَف بما هو قابل للفساد، كما أن ما هو قابل للفساد ليس صورة لما هو غير قابل للفساد...

كيف، إذًا، يتشابه ما هو قابل للتغيير مع ما هو غير متغيِّر؟ إن جسدنا البشري يهرب منا مثل نهر يتدفَّق قبل أن نراه ينتهي. يظهر في هيئةٍ ما ثم في هيئةٍ أخرى.

"**على صورتنا**"! أنحصل من الطبيعة غير المتغيرة على صورة متغيرة؟ أنحصل على شكل مِنْ مَنْ ليس له شكل؟ إذن كيف نفحص ما هو بحسب الصورة؟ من الأمور التي نطق بها الرب ذاته. إذا كنت أتكلم بشيءٍ من عندي فلا تَقْبَله، أما إذا كان كلام الرب فبالحق اِقْبَله في قلبك.

"لنعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، **فيتسلَّطون** على سمك البحر" (تك ١: ٢٦). هل بالجسم أم بالعقل؟ أَتَكْمُن تلك القوة المتسلطة في الروح أم في الجسم؟ إن **الجسم أضعف من الحيوانات**، فما هي المقارنة التي توجد بين جسم الإنسان وجسم الجمل؛ بين الإنسان والثور؛ بين الإنسان وأي حيوان متوحش تختاره؟ جسم الإنسان يَسهُل أسره ومهاجمته بواسطة حيوان مُفترِس.

فيمَ يكمن مبدأ التسلُّط؟ في سمو شأن العقل. **ما كان ينقص قوة الجسم أُكمِل بالعقل!** لكن كيف يتسنَّى للإنسان أن ينقل أوزان ثقيلة ضخمة؟ هل بالفكر أم بقوة الجسد؟[1]

القديس باسيليوس الكبير

❖ إن أردت، تستطيع أن تكون عبدًا للشهوات. وإن أردت، تقدر أن تتحرَّر منها ولا تخضع لنيرها، لأن الله خلقك وأعطاك هذا السلطان. من يُقهر شهوات الجسد يُتوَّج بعدم الفساد. فلو لم تكن هناك شهوات ما كان يمكن أن توجد فضائل، وبالتالي ما كان يعطي الله أكاليل لمن يستحقونها[2].

القديس أنطونيوس الكبير

وألقى خوف الإنسان على كل جسدٍ،
وأعطاه السلطان على الوحوش والطيور [٤].

وأعطى البشر القدرة على الدراسة،
وأعطاهم لسانًا وعينين وأذنين وقلبًا للتفكير به [٥].

يمكن للإنسان أن يكون له تاريخ لأنه خلقه كمن هو راوي قصص، كل إنسانٍ يتسلَّم من أسلافه روايات عن عمل الله معهم، ويرويها بدوره للأجيال القادمة. لقد أعلن الله للإنسان عن نفسه خلال

---

[1] *The Origin of Man, homily 1:6*. ترجمة: ريمون يوسف

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٦٧.

الطبيعة والتاريخ حتى قبل إرسال موسى وتسليمه الناموس المكتوب.

❖ من لا يرون ما هو نافع لهم، ولا ينظرون ما هو صالح، هؤلاء نفوسهم عمياء وذهنهم هكذا أيضًا. فيجب علينا ألا نتطلّع إليهم لئلا بإهمالنا نسقط في آلامهم بغير إرادتنا كما يحدث مع العميان (الذين يقودهم عميان)[١].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ أنا وحدي أملك الحرية من بيت الخلائق التي تُمَجِّدك بمسيرة طبائعها السريعة. لا الشمس ولا القمر البهي ولا النجوم تدور بسرعة في مساراتها بإرادتها. إن قوتك العظمى تلزمها كلها على تسبيحك، ولا تميز هي حريتها لتسبح مخافتك. بي يليق التسبيح أنا الحر لو فهمت، لأن إرادتي لها سلطان لإبطال أو الاستمرار في التسبيح[٢].

❖ بإرادتنا نصبح أصحاء أو مرضى، لأننا نحن سبب صحتنا ومرضنا[٣].

القديس مار يعقوب السروجي

وملأهم من البراعة في الفهم،
وأطلعهم على الخير والشرّ [٦].

في إبداع يتحدَّث **القديس مار يعقوب السروجي** عن سمو العقل في حياة الإنسان، فيُشَبِّهه وهو في رأس الإنسان أي في العلو بالله الساكن في الأعالي، أي في السماوات. وفي نفس الوقت مادام للعقل دوره القيادي مع الإرادة البشرية في حياة الإنسان، لهذا يُحَذِّرنا من التهاون في تقديسه، والانحراف نحو إتباع الشهوات الجسدية التي تظلم العقل، وتنحط بالنفس لتصير في عبودية للجسد، فتبدو كأنها جسدية.

❖ من يأتي إلى الكنيسة، لا يأتي بدون تمييز مثل الحيوانات التي لا فهم لها. لا يزور أحد عيادة الطبيب كنوعٍ من العادة، ما لم يجبره المرض لزيارته طلبًا للشفاء[٤].

❖ **أتقن (الله) المخ بيتًا للعقل، ليجلس هناك في الطابق العلوي مثل الله**[٥].

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٦٨.

[٢] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ١٢٤-١٢٥.

[٣] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ٢٢٦.

[٤] راجع الدكتور الأب بهنام سُوني: الإنسان في تعليم مار يعقوب السروجي الملفان، ١٩٩٥، ص ٢٢.

[٥] راجع المرجع السابق، ص ٢٦.

❖ يظلم العقل بالشهوات لئلاَّ يفهم... فمن أكثر من طعامه، **أنزل نفسه لتصير جسدًا**[1].

القديس مار يعقوب السروجي

وجعل عينه على قلوبهم،

ليظهر لهم عظمة أعماله [٧].

مع ما تمتَّع به الإنسان من مزايا عجيبة، غير أنه فائق للغاية بإنسانه الداخلي، يستطيع بقلبه وطاقاته الداخلية أن يدرك عظمة عمل الله فيه ومعه.

فيحمدون اسمه القدوس،

ليصفوا تمامًا عظائم أعماله [٨].

وهب الإنسان القدرة على التعبير عن اعتزازه بعجائب الله التي يُقَدِّمها له، بالحمد لاسمه القدوس، ففي قدرة الإنسان وهو مخلوق من التراب ويعيش على الأرض أن يشارك السمائيين تسابيحهم لله.

❖ توجد النفس في الجسد، ويوجد العقل في النفس، وتوجد الكلمة في العقل، وبالكلمة نتأمل الله ونمجده، الذي يعطي خلودًا للنفس ويهبها سعادة أبدية غير فاسدة. لأن الله وهب الوجود بمفرده بصلاح الله[2].

القديس أنطونيوس الكبير

إذ كان **القديس يوحنا الذهبي الفم** كارزًا بالحياة السماوية، متطلعًا إلى عمل السيد المسيح الأول أن يقيم من الأرض سماءً ومن البشر ملائكة، فإن التسبيح هو العمل الأول والرئيسي سواء في حياة الكنيسة كجماعة أو حياة المؤمن كعضوٍ فيها.

❖ هل أنت عامل حِرَفي؟ إذ تجلس في عملك رنِّم بالمزامير. ألا تريد أن تُسَبِّح بفمك؟ افعل هذا في قلبك. **المزمور رفيق عظيم**. إنك لا تقوم بعملٍ شاق. إنك تجلس في عملك كما في ديرٍ.

❖ التسبيح في ذاته صالح، والمزمور يُقَدِّم خيرات كثيرة: إنه يعزل العقل عن الأرض، ويعطي النفس أجنحة، ويجعل (الأجنحة) خفيفة قادرة على الطيران في الجو. لهذا يقول بولس: "مترنمين ومرتلين في قلوبكم للرب" (أف ٥: ١٩).. توجد حاجة للتسبيح من أجل حياة المرتل وصلاته والتوفيق[3].

❖ تُوِّج أيوب وصار مشهورًا، ليس لأنه لم يهتز بالرغم من التجارب غير المحصاة التي أحدقت به،

---

[1] راجع المرجع السابق، ص ٦٧.

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٩٨.

[3] *On Ps. 147.*

وبالرغم من مقاومة زوجته له، وإنما استمر في شكره للرب على كل حالٍ ليس عندما كان غنيًا فقط، وإنما عندما صار فقيرًا أيضًا، ليس عندما كان في صحة، بل وعندما ضُرِبَ جسمه (بالقروح) أيضًا، ليس عندما حلَّت به هذه الأمور ببطء، وإنما عندما حلَّت به عاصفة عنيفة حلَّت ببيته كما بشخصه بالكامل أيضًا[1].

❖ عندما جاء الرسل إلى الطوباوي أيوب واحد يلي الآخر، وسمعهم يعلنون عن أخبار مميتة، مضافًا إلى ذلك دمار أبنائه الذي لا يُحتمَل، لم يصرخ ولا تنهَّد بل التجأ إلى الصلاة وقَدَّم تشكُّرات للربِّ. فلتتمثلوا به[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. ميثاق مع إسرائيل

منحهم المعرفة،

وأعطاهم شريعة الحياة كميراثٍ [٩].

كان في قدرة الإنسان أن يتطلَّع بالبصيرة الداخلية أو القلب أعمال الله ويتلامس مع رعايته الفائقة ومحبته له. اكتشف الإنسان أن الله وحده يرى قلبه ويفحصه ويسمع صوته الخفي، ويتمتَّع الإنسان بالحُبّ المشترك بينه وبين محبوبه السماوي. إدراك الإنسان لعمل الله وثقته فيما يعده له، يدفعه للإيمان الذي هو القناة الأولى لتمتُّعه بالشركة مع الله. "بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه" (عب ١١: ٦). بهذا الإيمان تعرّف على أعمال الله التي أَعدّها له لخدمته قبل أن يخلقه. "بالإيمان نفهم أن العالمين أُتقنت بكلمة الله حتى لم يتكون ما يُرَى مما هو ظاهر" (عب ١١: ٣). هذه النظرة الإلهية في القلب البشري أعانت الإنسان على التطلُّع إلى حكمة الله في القلب في كل الأشياء، منحهم معرفة أحكامه [٩].

❖ أَعْيننا لا ترى (القمر) في كمال حجمه على الدوام. الآن يُمَثِّل كمال القرص المستدير، وعندما ينقص ويقل يظهر القصور في جانب واحد. وعندما يزداد من هلالٍ إلى بدرٍ يُظلم من جانب واحد. وعندما يكون شاحبًا يختفي الجانب الآخر. الآن ليس بدون سبب سرّي يجعل الخالق الإلهي للمسكونة القمر يظهر من وقتٍ إلى آخر بأشكالٍ مختلفةٍ. إنه مثل مبهر لطبيعتنا. ليس شيء مستقر في الإنسان. هنا يقوم الإنسان من العدم إلى الكمال... وفجأة يخضع إلى تدهور

---

[1] *On Ps 111.*

[2] *Concerning the Status, 16:2.*

تدريجي ويتحطَّم بالنقص المستمر. هكذا النظر إلى القمر يجعلنا نفكر في سرعة تقلبات الأمور البشرية، فيعلمنا ألاَّ نتكبَّر بخيرات هذه الحياة، ولا نتمجَّد بسلطاننا، ولا يغرينا الغِنَى الزائل، إنما نحتقر جسدنا الخاضع للتغيير ونهتم بالنفس لأن صلاحها غير مُتغيِّر[1].

القديس باسيليوس الكبير

وأقام معهم ميثاقًا أبديًا،

وأراهم أحكامه [١٠].

فرأت عيونهم عظمة مجده،

وسمعت آذانهم مجد صوته [١١].

انطلق سيراخ من سفر التكوين حيث أعلن الله عن نفسه خلال الطبيعة إلى سفر الخروج حيث أعلن الله عن نفسه على جبل سيناء حيث أقام عهدًا مع شعبه فرأوا مجده وسمعوا مجد صوته [١١].

إذ خلق الله قلب الإنسان يشتهي أن يعلن الله له عن كلمته وحكمته، جاء خلال النار والضباب على جبل سيناء، وتمم شهوة قلب الإنسان، إذ سلَّمه الشريعة هبة لشعبه [٩].

نقش شريعته على حجر وسلَّمها إليهم، وكأنه حفظ القلب البشري حتى لا يتحوَّل إلى حجر. بمعنى آخر إن كانت آثام البشرية وجميع خطاياهم قد حجَّرت القلب البشري، فإنه خلال ناره الإلهية نقش شريعته على الحجر، حتى يسلّم الإنسان له قلبه الحجري فينقش أصبع الله شريعته عليه.

في سفر التكوين خلق الله كل البشرية على مثاله، وفي سفر الخروج أعلن الله عن إقامة عهده مع من يلتصق به ويصير عضوًا في شعبه ويقبل تجديد قلبه ليسترد الصورة الإلهية.

وهب الله الإنسان نفسًا تتقبَّل وصاياه التي يعلنها له طبيعيًا عبر التاريخ البشري. الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكن القول عنه أنه له تاريخ ممتد ومتقدم. يستطيع الإنسان أن يدرك طرق الله التي لا تُخفَى عن عينيه وعن بصيرته الداخلية [١٣]. إن كان الله يطلب من كل الأمم كما من كل إنسان: "احترسوا من كل ظلم، وأوصاهم كل واحدٍ في حق قريبه" [١٤]، فبالحريّ في تدبيره لخلاص الأمم وإسرائيل لا يسمح بالظلم؛ إنه محب لكل البشرية، وبار في خطته وتدبيره لخلاص العالم. تتلخص هذه الخطة في الآتي:

أولاً: أقام ملوكًا وحكامًا لكل أمة، ويرعى إسرائيل بكونه نصيب الربّ، وفي رعايته لا يحابيهم.

ثانيًا: بروح الشرّ كانت الأمم تجتذب إسرائيل وتغريها على عبادة الأصنام، فالطرفان سقطا في

---

[1] *The Hexaemeron, homily 6: 10.*

الشرّ. الأمم أغرت إسرائيل، وإسرائيل خان الربّ بعبادته لأصنام الأمم وارتكابه الرجاسات الوثنية.

ثالثًا: بغير محاباة سمح الله بتفريق إسرائيل بين الشعوب بسبب خطاياه، وفي نفس الوقت فتح لهم باب الرجوع إلى أرض الموعد، فإن تابوا يجمعهم من أقاصي المسكونة.

١. غاية الوصية أن يُمارِس الإنسان الحب لإخوته في البشرية، فلا يطيق أن يظلم أخاه، ويبذل كل الجهد لخدمة بني جنسه (أي البشر) بفرحٍ [١٤]. بهذا يصير على مثال الله، وتصير الوصية بالنسبة له ليست ثقلاً بل حُليّ تتزيَّن به نفسه كعروس سماوية كقول مار يعقوب السروجي.

٢. يبذل الكثيرون في كل العصور نشر فكرة عدم اهتمام الله بالإنسان، وكأن الله مشغول بسماواته والإنسان بأرضه. هنا يؤكد السفر: "طرقهم أمامه في كل حين"، وكأن ما يشغل قلب الله هم بنو البشر، إذ هم خليقته (خر ١٩: ٥؛ تث ٧: ٦). إنه ينظر إليهم ليُقِيم منهم قديسين يتمتعون بشركة المجد، أما من يصرّون على العناد، فيلقون أنفسهم بأنفسهم في هلاكٍ أبدي.

٣. يُسرّ الله بعطاء الإنسان لأخيه، فيحسب الصدقة ثمينة، كخاتم يحفظه عنده، أو يعتبره كحدقة عينه. يعتبر الله البشرية، خاصة القديسين له، كحدقة عينه (تث ٣٢: ١٠) يهتم بهم [١٧].

٣. وصية الله للإنسان!

وقال لهم: "احترسوا من كل ظلمٍ"،

وأوصاهم كل واحدٍ من أجل قريبه [١٢].

يقول الرسول بولس: "فإن كان عضو واحد يتألم، فجميع الأعضاء تتألم معه، وإن كان عضو واحد يُكرَم، فجميع الأعضاء تفرح معه" (١ كو ١٢: ٢٦).

❖ إن رأيتَ أعمى يسقط في هوة، أما تمد يدك إليه وتسنده حالاً. فكيف إذن يسوغ لنا أن نرى إخوتنا ساقطين في مثل هذه المخاطر ولا نمد إليهم يد الإغاثة، وهم مُشرِفون على السقوط في الحفرة الجهنمية الخالدة؟[١]

❖ متى رأيتَ إنسانًا محتاجًا إلى شفاء روحي أو جسدي، لا تَقُل في نفسك أن هذا من عمل فلان أن ينقذه من شره ويَشفيه. فإنني أنا علماني ولي زوجة وأولاد، وهذا من عمل الكهنة والرهبان. أَجبني يا هذا، هل لو وجدتَ وعاءً مملوءً ذهبًا تقول في نفسك: لِمَ لا يأخذ هذا الوعاء فلان أو فلان... بل تبادر كالذئب الخاطف وتأخذه قبل أي إنسان. ليكن لك هذا الاشتياق بالنسبة لإخوتك الساقطين، **واضعًا في نفسك أنك وجدتَ كنزًا ثمينًا جدًا، وهو اعتناؤك بأمر خلاص أخيك.** هوذا

---

[١] للمؤلف: الحب الأخوي، ١٩٦٤، ٧٣.

الله نفسه يقول على فم رسوله إن أنقذتَ إنسانًا من الضلالة تُخلِّص نفسًا من الموت!

❖ عندما تدخل شوكة في عقب إنسانٍ غالبًا ما يشعر بها كل الجسم ويهتم بها. فالظهر ينحني والبطن وما يرتبط بهما، واليدان تتحرَّكان كحارسين وخادمين لسحب ما دخل في العقب، والرأس تنحني نحوه، والعينان تلاحظان ما يحدث بكل عناية.

فمع كون القدم هي الأقل من حيث عجزها عن الارتفاع ولكن بانحناء الرأس إليها تظهر المساواة بينهما، وتنعم بذات الكرامة، خاصة عندما يُسَبِّب القدم للرأس أن ينحني وينزل إليه. ليس كمن يُقَدِّم إحسانًا بل لارتباطه بالقدم... الرأس يُكَلَّل، فيُكرَم الجسم كله. الفم يتكلم والعينان تضحكان وتبتهجان[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

طرقهم أمامه في كل حين،

فهي لا تُخفَى عن عينيه [١٣].

❖ يشير الله إلى المسافة الشاسعة التي تفصلنا عنه. "أخبرني: من الذي يحاول أن يخفي نفسه عني أنا العارف بالأسرار بدقة؟!"

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عدد النفوس – في نظرنا – لا يمكن حصره؛ ينطبق نفس الشيء على الشخصيات، إذ لهم جميعًا من الحركات والتصرفات والغايات والمشاعر والأحاسيس مالا يُحصَى! يوجد واحد فقط يقدر أن يُهَيْمن على هؤلاء جميعًا، كأحسن ما تكون الهيمنة والسيادة، فهو يعرف الأوقات المناسبة، والعون الملائم اللائق ومتى يمنحه، وسبل التدريب والإرشاد؛ هو الله أب كل الكون[2].

❖ عناية الله تهتم بنا كل يومٍ، على مستوى الجماعة كما في الحياة الخاصة، سرًا وعلانية، حتى حينما لا نعرف عن تدبيره شيئًا[3].

❖ خُلِقَت كل الأشياء مبدئيًا لأجل نفع الكائن العاقل... الله ليس كما يظن صلسس *Celsus* يهتم فقط بالكون ككلٍ، بل بجانب هذا يهتم بكل كائنٍ عاقلٍ على وجه الخصوص. مع ذلك فعنايته بالكل لا تخيب، لأنه حتى أن انحل جزء من الكل بسبب خطية الإنسان العاقل، يسعى الله من أجل تطهيره

---

[1] *In 1 Corinth., hom. 31:5.*

[2] *De Principiis 3; 1:14. (In Philocalia 21:13).*

[3] *Sel. Ps. 14:44.*

وتنقيته واستعادة الكون إليه[1].

العلامة أوريجينوس

أقام حاكمًا لكل أمةٍ،

وأما إسرائيل فهو نصيب الربّ [١٤].

حسب الله إسرائيل نصيبه، فدخل معه في ميثاق، ويليق بإسرائيل أن يفتح قلبه للأمم، لأن الله نفسه يهتم بها ويقيم حاكمًا لكل أمة. إن كانت الأمم قد رفضت الإيمان بالله، فالله لم يسحب رعايته عنهم تمامًا، بل أقام بنفسه حكامًا لهم حتى يأتي ملك الملوك، ويجتذبهم إلى الإيمان به.

❖ أقول: هل الله يستخدم الظلم لينتزع الأمم من سلطان أعدائه ويدعوها إلى الإيمان به وإلى الخضوع لسلطانه؟ ليس كذلك! لأن إسرائيل كان يومًا ما نصيبه (سي ١٧: ١٤). لكن الأمم جعلت إسرائيل تنحرف عن الله بالخطية، وبسبب خطاياهم قال الله لهم: "إن خنتم، فإني أُفَرِّقكم في الشعوب" (نح ١: ٨). ولكن مرة أخرى قال لهم: "وإن رجعتم إليّ وحفظتم وصاياي وعملتموها إن كان المنفيون منكم في أقصاء السماوات فمن هناك أجمعهم يقول الربّ" (نح ١: ٩؛ تث ٣٠: ٤). ولأن رؤساء هذا العالم (يو ١٦: ١١) غزوا أولاً نصيب الربّ، فإن الربّ بالضرورة يترك التسعة وتسعين على الجبال (مت ١٨: ١٢؛ لو ١٥: ٤-٥)، وينزل إلى الأراضي، ويبحث عن الخروف الواحد المفقود، وإذ يجده يرده على منكبيه إلى المرعى الكامل في الأعالي[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

جميع أعمالهم كالشمس أمامه، وعيناه على الدوام على طرقهم [١٥].

لا تُخفى عليه آثامهم، وجميع خطاياهم أمام الربّ [١٦].

صدقة الإنسان كختمٍ معه، فيحفظ الإحسان كحدقة عينه [١٧].

وبعد ذلك يقوم ويجازيهم، ويكافئهم كاستحقاقهم على رؤوسهم [١٨].

٤. دعوة للتوبة

التوبة في جوهرها عودة إلى الحضن الإلهي ورجوع إلى العَليّ واشتياق جاد للتمتُّع بعربون السماء.

❖ **سؤال: ما الفرق بين "الحزن بحسب مشيئة الله" و"حزن العالم"؟ (٢ كو ٧: ١٠)؟**

الحزن بحسب مشيئة الله هو: أن يحزن الإنسان على إهماله أو احتقاره وصية الله، كما يقول

---

[1] *Contra Celsus 4:99.*

[2] *Homilies on Genesis, homily 9.*

المزمور: "الحمية أخذتنى بسبب الأشرار تاركي شريعتك" (مز ١١٩: ٥٣). أما الحزن بمشيئة العالم فيحدث إذا كان ما يُسَبِّبه شيء بشري أو خاص بالعالم[1].

❖ **سؤال: ما هو الحزن الذى يجب أن نتحمَّله لكي نستحق التطويب (مت ٥: ٤)؟!**

...عندما نحزن على خطايانا سواء كانت بسبب اهانة الله، وذلك لأن التعدِّي على الناموس يهين الله (رو ٢: ٢٣)، أو حين نبكي على هؤلاء الغارقين في خطر الخطية، لأن "النفس التى تخطىء هي تموت" (حز ١٨: ٤)، فنقتدي بالقائل: "أنوح على كثيرين من الذين أخطأوا من قبل ولم يتوبوا" (٢ كو ١٢: ٢١)[2].

القديس باسيليوس الكبير

إنه يجعل للتائبين عودة،

ويُعزِّي من ينقصه الاحتمال [١٩].

إذ يتحدَّث عن الأمم كرافضي شهادة الخليقة للخالق القدير والمحب والحكيم، بينما اختار الربّ إسرائيل نصيبًا له، الآن يفتح باب الرجاء للأمم وإسرائيل، مُعلِنًا عجز الإنسان عن العمل بنفسه. الكل كأبناء البشر محتاجون إلى مجيء الربّ نفسه متجسدًا، يشرق بنوره الإلهي، بكونه شمس البرّ.

❖ إن الذي أخطأ في جسده يلتزم باستعمال الجسد في التعويض والتكفير.

إنك جدَّفت، فعليك أن تُسَبِّح الله بفمك. إنك سرقت، فعليك أن تُعوِّض بالحسنة.

إنك شربت المُسكِر، فعليك أن تصوم. إنك تكبَّرت، فعليك أن تتواضع.

إنك حسدت الغير، فعليك أن تُصَلِّي من أجل من حسدتَه.

إنك ربَّما قتلت، فعليك أن تتحمَّل ألم الاستشهاد، وأن تُرهِقَ جسدك بالإماتة[3].

القديس باسيليوس الكبير

❖ الذين يؤمنون بالرب يلزمهم أن يُقَدِّموا توبة حسب بشارة يوحنا ورَبّنا يسوع المسيح (مت ٤: ١٧). والذين لا يتوبون الآن، ينالون عقوبة أشد من الذين أُدِينوا قبل وقت الإنجيل (مت ١١: ٢٠-٢١)[4].

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 192.*

[2] *Regulae brevius tractatae, 194.*

[3] الأب الياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٧٠.

[4] *Morals, Rule, 1:1.*

❖ الحياة الحاضرة هي زمن التوبة وغفران الخطايا، وفي الحياة العتيدة يأتي زمن الدينونة العادلة[1].

❖ بعد الرحيل من هذه الحياة، لا توجد فرصة للأعمال الصالحة، حيث أن الله في طول أناته يمدنا بالحياة الحاضرة لممارسة الأشياء التي ترضيه[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

ارجع إلى الربّ، وأقلع عن خطاياك.
صلِّ في حضوره، وأقلل من إثمك [٢٠].

❖ **سؤال: ما هي الثمار التي تُختبَر للتوبة الحقيقية؟**

الإجابة: أسلوب أولئك الذين يتوبون، والنزعات التي لهؤلاء الذين ينسحبون من الخطية، وصراعهم من أجل الثمر اللائق بالتوبة (لو ٣: ٨) الذي قيل عنه في المواضع الخاصة بها[3] (وهي **الرجوع إلى الله**)[4].

القدِّيس باسيليوس الكبير

أرجع إلى العلي،
وأعرض عن الظلم، وأبغض الدنس بشدّةٍ [٢١].

من يُسَبِّح العلي في الهاوية،
كما يفعل الأحياء والشاكرون؟ [٢٢]

الشكر ينقطع من الميت حيث إنه لم يعد يحيا،
فلا يُسَبِّح الربّ إلا الحيّ المعافى [٢٣].

التوبة ممكنة هنا على الأرض، وليس في العالم الآخر.

❖ لنحزن هنا على ذلك الذي خرج من الوليمة (بسبب ثيابه القذرة)، لأنه هناك لا يقدر أحد أن يحزن على قريبه.

ليخَف كل واحدٍ لعله يكون هو ذاك اللابس الملابس القذرة، وهو المطرود من الوليمة.
ليرَ كل واحدٍ ملابسه إن كانت جميلة ومقدسة، وليبيّضها لو كانت قذرة بالشهوات.
ولو صارت قذرة فليُنَظِّفها بالتوبة قبل أن يخرج الختن ليرى المدعوين في موضعه.

---

[1] *Morals, Rule, 1:2.*

[2] *Morals, Rule, 1:5.*

[3] *Regulae brevius tractatae, 5, 10.*

[4] *Regulae brevius tractatae, 14.*

ليغسل كل واحدٍ ملابسه هنا في موضعنا، لأنه يوجد مجال لننظفها لو صارت قذرة.
في ذلك الموضع عندما يدخل المرء إلى المتكأ لا يُسمَح له أن يُبَدِّل ملابسه القذرة في الوليمة.
ولو وُجِد هناك رجل لابس ملابس قذرة، سيلقونه هو وملابسه ليخرج من الوليمة.
هناك لا يقبلون التوبة ولا الطلبة ولا التوسّل، لأن كلمة الملك لا تُقاوَم.
هنا يمكن الرجوع في كل الأفعال، ومن سقط يسهل عليه القيام لو شاء.
ومن كان زانيًا يتقدَّس بالتوبة، ومن كان مدينًا يقدر أن يوفي ديونه.
ومن هو مرتدي ملابس قذرة يغسلها بالدموع فتصير نظيفة أكثر من النار التي تُطَهِّر القذارة[1].

القديس مار يعقوب السروجي

يرى **القديس أغسطينوس** أن كلمة "ميت" هنا تشير إلى الخاطئ، الذي بالحق نفسه ميتة، لهذا لا يقدر أن يُقَدِّم ذبيحة شكر أو تسبيح الله، وإن قدَّمها تصدر عن فمه لا عن قلبه.

❖ لأن هذا الذي هو رأسنا، مُخَلِّص الجسد نفسه، لا يمكن أن يُحمل بأية شهوة جسدية في أي طريقٍ شريرٍ، حتى يكون محتاجًا أن يمنع منه قدميه، ومع ذلك يمكنهم (أعضاء جسده) بحرية إرادتهم أن يسلكوا هكذا. هذا ما نفعله عندما نمنع أقدامنا عن الشهوات الشريرة، الطريق الذي لا يسلكه هو فلا نسلك نحن فيه. بهذا نقدر أن نحفظ كلمة الله، إن كنا لا نسير وراء الشهوات الشريرة (راجع سي ٢٠:١٧). بهذا لا نطلب الشهوات الشريرة بل نقاومها بالروح الذي يشتهي ضد الجسد (غل ١٧:٥)، فلا تسحبنا وتغوينا وتلقي بنا في الطرق الشريرة.

القديس أغسطينوس

يخشى داود النبي لئلا بسقوطه في الإثم والعصيان ينحدر إلى أعماق الهاوية، فتغلِق فمها عليه فلا يرجع إلى الله بالتوبة، ويتأهَّل لتسبيحه. ما دمنا في العالم لن تستطيع الهاوية أن تغلق فمها علينا!

❖ **"لا تدع العمق يبتلعني، أو الهاوية تطبق عليَّ فاها" (مز ٦٩: ٢٥).**

ماذا يعني هذا؟ من أجل أي شيء يصلي؟ عمق الإثم البشري هو هاوية عظيمة، من يسقط فيها يسقط إلى أعماق بعيدة. على أي الأحوال من يسقط فيها ويعترف لله بخطاياه، لا تغلق الأعماق فمها عليه. كما جاء في المزمور: "من الأعماق صرخت إليك يا رب؛ يا رب اسمع صلاتي" (مز ١٣٠: ١-٢). لكن الأمر مختلف إذا حدثت الكارثة المذكورة في موضع آخر في الكتاب المقدس بخصوص الخاطئ: "إذا جاء الشرير جاء الاحتقار، فيسقط عميقًا في الخطية

---

[1] راجع الميمر ١٧١ على ذلك المثل الذي قاله ربنا: يشبه ملكوت السماء رجلا ملكا صنع وليمة لابنه (مت ٢٢: ١-١٤؛ لو ١٤: ١٥-٢٢).

والعصيان" (أم ١٨: ٣). فإن الهاوية تطبق فمها عليه. ماذا يعني أنها تغلق فمها عليه؟ إنها تُحكِم غلق فم الشرير. عندما يرفض أن يعترف بذنبه، فهو بالحقيقة ميّت كمن لا وجود له...

إخوتي وأخواتي، لنرتعب من هذه الكارثة. إن رأيت شخصًا يرتكب خطية، احسبه أو احسبها قد سقط أو سقطت في الهاوية. لكن إن أشرت إليه عن خطيته، فقال لك: "إني مخطئ. بالحق إني أعترف"، فإن الهاوية لا تكون بعد قد أطبقت فمها عليه. أما إن سمعته يقول: "هل ما أفعله شر؟ فقد صار مدافعًا عن خطيته، وتغلق الهاوية فمها عليه. ولا يوجد طريق لسحبه خارج الهاوية. بوضوح إن لم يعترف، فلا مجال للرحمة.

إن دافعت عن خطيتك فهل يُحَرِّرك الله منها؟ إن أردت منه أن يكون مُحَرِّرًا لك، يلزمك أن تكون المُدَّعي العام ضد نفسك![1]

القديس أغسطينوس

ما أعظم رحمة الربّ،

ويُقَدِّم نفسه كفارة للراجعين إليه! [٢٤]

إذ يعزل الإنسان نفسه عن الالتصاق بالربّ يُحسَب كميتٍ عاجزٍ عن التمتُّع بحياة التسبيح والشكر. يُحسَب كمن هو غير موجود، لا يتمتَّع بالأبدية. إنه تراب ورماد، لكن خالقه الذي يُحِبّه ينتظره. بل ويُعِينه كي يرجع إليه. إنه رحوم وقدير ومُحِبّ للبشر.

الله الرحوم يشتاق إلى خلاص الإنسان ومجده، أكثر من اشتياق الإنسان نفسه لخلاصه. إنه يسندنا ويعيننا حتى عندما نعاني من تشتيت الفكر.

❖ تذكَّر أن الله لطيف ورقيق ويحتمل تشتيتنا (في الصلاة)، وينتظر أن يهبنا أن نُصَلِّي بطريقة كاملة. عندما يهبنا تلك الصلاة يقبلها منا، ولا يذكر كيف كنا نصلي قبلاً بطريقة خاطئة. إن كنت أمام قاضٍ وفي أثناء حديثك بدأت تهمس مع صديق، ماذا يحدث؟ مع ذلك فإن الله يرفعنا بالصلوات التي تقتحمها أفكار أخرى.

عندما تقرأ يتحدَّث هو معك، وعندما تصلي تتحدث أنت معه. إن كان الأمر هكذا هل نيأس يا إخوة، ظانين أن العقوبة تنتظر من يجول فكره مشتتًا أثناء صلاته؟ لا، لنقل: "فرِّح نفس عبدك، فإني إليك أرفع نفسي!"

كيف أرفعها؟ قدر ما أستطيع حسب القوة التي تهبني إياها؛ قدر ما أضبط أفكاري المشتتة.

---

[1] *Expositions of the Psalms 68:1.*

لأنك لطيف ورقيق لا تطردني. قَوِّني فأثبت، ولتحتملني حتى أبلغ هذا[1].

القدِّيس أغسطينوس

فليس في الإنسان قدرة على كل شيءٍ،
لأن ابن الإنسان ليس بخالدٍ [٢٥].

أي شيء أبهى من الشمس؟ مع ذلك تُكسَف،
هكذا الجسد والدم حينما يُدفَن الشرّ في القلب [٢٦].

❖ لتعطوا اهتمامًا دقيقًا لهذا الأمر لتلجموا أولئك الذين يهدفون نحو خداعهم لأنفسهم، والذين ليس لديهم ما يعملوه بخصوص نسبهم الكرامة الخاصة بالخالق للمخلوقات. لذلك فإن الكتاب المقدس لم يُظهر فقط جمال الشمس وضخامتها وفوائدها بالقول: "أشعتها مثل العريس مثل الجبار في جريها في مدارها،" وإنما تحدَّث أيضًا عن محدوديتها وضعفها.

أنصتوا إلى ماذا يقول في موضع آخر: "أي شيء أبهى من الشمس، وهي مع ذلك تكسف" (راجع سي ١٧: ٢٦). لا تنخدعوا بالمظاهر. إنها تخبرنا: لو لم يشأ الخالق ويُوَجِّهها تختفي كما لو كانت لم توجد قط[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

يفحص (الربّ) قوّات السماء العليا،
لكنّ جميع الناس هم تراب ورماد [٢٧].

❖ الكائنات السمائية خالدة بالصلاح الذي فيها، أما الكائنات الأرضية فتصير مائتة بإرادتها الذاتية الشريرة، تلك الإرادة المتزايدة في غير العاقلين بواسطة كسلهم وعدم معرفتهم الله[3].

❖ الإنسان العاقل الذي يفكر في الشركة مع الله والحياة به لن يلتصق قط بأي شيء دنيء أو أرضي، بل يُوَجِّه ذهنه نحو الأمور السماوية الأبدية، عالمًا أن إرادة الله – التي هي علَّة كل صلاح ومصدر كل بركات البشر – هي أن الناس يخلصون[4].

القديس أنطونيوس الكبير

---

[1] *On Ps 85: 7.*

[2] *Homilies on Genesis, homily 6.*

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٤٨.

[4] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٤٣.

خلقتني وخلَّصتني وتترقَّب رجوعي إليك

❖ خالقي ومُخَلِّصي العجيب.
تبقى محبتك العجيبة لي موضوع دهشة السمائيين.
بكلمة من فيك خلقت المسكونة؛ كان يكفي أن تقول: "ليكن نور..."
أما أنا، فصنعتني بيديك من التراب.
نفخت نسمة حياة، فإذا بي على صورتك!
ألبستني قوة عجيبة،
ووهبتني سلطانًا على المخلوقات الأرضية.
ميَّزتني بالإرادة الحُرَّة والعقل والفهم،
عينك عليَّ لتُقِيمَ مني سفيرًا لك!

❖ في غباوة أعطيتك القفا لا الوجه.
سُلِبَت مني صورتك، وعُدت إلى التراب في فسادٍ.
لم تتركني في فسادي، بل نزلتَ إليَّ.
وصرتَ لأجلي إنسانًا، لتُقِيم معي عهدًا أبديًا.
وهبت لي نعمتك كي أرجع إليك، وتُقِيم ملكوتك في داخلي.
أوصيتني أن أُحِبّك، وأُحِبّ كل إخوتي في البشرية،
فأصير بالحق سفيرًا لك يا كلي الحب.

❖ عيناك تترقَّبان رجوعي إليك،
فتهبني روح القداسة اللائقة بمن أقمته ابنًا لك في مياه المعمودية!
فأَتحدَّى الموت، وأنطلق مع كل صباحٍ إلى عربون السماء!
يشتاق السمائيون إلى يوم لقائنا معك وجهًا لوجهٍ.
ننضم إلى صفوفهم، ونصير معهم خورُس سماوي دائم التسبيح!

الأصحاح الثامن عشر

تسبحة لحب الله ورحمته

في الأصحاح السابق كشف ابن سيراخ عن اعتزاز الله بالإنسان، فأبرز خلقته الفريدة على صورة الله، وعند سقوطه قَدَّم له الخلاص، ودعاه للعودة إليه ليسترد الصورة المفقودة. تلامس ابن سيراخ مع حنو الخالق والمُخَلِّص وعمله العجيب في حياة التائبين فقدَّم تسبحة له في شكل قطعة شعرية.

١. يا لعظمة الخالق وقوته! [١-٥].
٢. يا لحنو الخالق والمُخلِّص! [٦-١٣].
٣. الكلمة اللطيفة تلازم العطية [١٤-١٩].
٤. الوقاية خير من العلاج [٢٠-٢٨].
٥. النفس العاقلة وضبط النفس [٢٩-٣٣].

١. يا لعظمة الخالق وقوته!

ليس من مقارنة بين الله الحيّ إلى الأبد والإنسان الذي يظن أنه عظيم إن عاش مائة سنة (مز ٩٠: ١٠). مع أنه إن عاش ألف عامٍ بمقارنته مع الله تُحسَب سنواته كقطرة ماء في البحر أو ذرة رمل في صحراء. هذا وتقديم السمائيين والأرضيين تسابيح وتماجيد لله، لن تزيده مجدًا (جا ٣: ١٤).

تتجلَّى عظمة الله في اهتمامه بكل الخليقة (مز ١٠٣: ١٣-١٤). فبينما يحنو الإنسان على قريبه أو بعض الأقرباء والأصدقاء (١٣: ١٩)، تمتد رحمة الله على كل جنس البشر، كراعٍ يهتم بكل القطيع (إش ٤٠: ١١؛ مز ٢٣: ١).

❖ بعدما تشبعون (تكتفون)، اشكروا هكذا:

نشكرك أيها الآب القدوس، من أجل اسمك القدوس، الذي أسكنته في قلوبنا، ومن أجل ما أعلنته لنا، من معرفة وإيمان وخلود، بيسوع ابنك، المجد لك أبد الدهور.

أنت، أيها السيد القدير، خلقت الكون للإشادة بذكر اسمه.

وأعطيت البشر الغذاء والشراب والتلذُّذ حتى يشكروك.

ولكنك كافأتنا نحن بغذاء وشراب روحيين، وبالحياة الأبدية، بيسوع ابنك[1].

الديداكية (تعليم الاثنا عشر تلميذًا)

---

[1] *Didache, 10:1-3.*

الحيّ إلى الأبد خلق كل شيءٍ [١].

ورد فى سفر التكوين (تك ١: ١) "فِي البدءِ خلق اللهُ السّماواتِ والأرض"، ثم شرح السفر بعد ذلك تفاصيل هذا الخلق، وفى كل هذه الخلائق عاقلة وغير عاقلة يؤول المجد إلى الله وتعود إليه العظمة.

❖ أعطني أيها الخالق أن أتكلم عن الخليقة وجمالها وترتيب تدبيرها.

بك أبدأ أن أتكلم حين أدهش بجبروتك، كم أنت مرتفع عن الناطقين...

أعطِ فمي أن يتحرَّك لتمجيدك، فإني غير مؤهَّل لذلك،

فقد اعتدت أن تُلبس المجد حتى لما هو سمج.

فقد أَلبست الشوك ورودًا، كلباسٍ أمجد من حلل الملوك.

حَرِّك فيَّ القول، كما تهب الشوك الورود الجميلة.

بروحك ينطق لساني بأمورٍ عالية مجيدة...

القديس مار يعقوب السروجي

الربّ وحده سيُعلَن عنه أنه البار [٢].

ليس من وجه مقارنة بين الله الخالق وخليقته سواء السماوية أو الأرضية، فهو وحده يُزكى، أي العادل أو البار [٢].

لا يسمح لأحدٍ أن يُخبِر بأعماله،

لأنه من الذي يقدر أن يستقصي عظمة أعماله؟ [٣]

أول سؤال قَدَّمه الله لأيوب يمسّ وجود ذاته، إذ يسأله أين كان حين وضع الله أساسات الأرض من أجله؟ (أي ٣٨) فمن جانب لم يكن بعد أيوب ولا آدم نفسه قد خُلِق، ومن جانب آخر فإن الله خلق الأرض له ولإخوته قبل أن يكون لهم وجود. لم يكن أيوب في الوجود حين أَسَّس الله الأرض، وبالتالي لم تكن له قدرة على العمل مع الله في الخلقة أو تقديم استشارة أو حتى إدراك وفهم ما يفعله الله من أجله. كيف إذن يجسر أن يشكو من خطة الله نحوه. إن كان أيوب عاجزًا عن فهم وضع أساسات الأرض، فهل يقدر أن يدرك خطة الله وحكمته؟

❖ يقول الله: ماذا تقول؟ من أجلك أسست الأرض بعناية هكذا، فهل أهمل مَنْ مِنْ أجله خلقتها؟ ...ينطق بهذا للذين يطلبون منه أن يُقَدِّم حسابًا وتفسيرًا للأحداث دون التطلُّع إلى سمو حكمته. من الذي دفعني لهذا؟ من الذي أشار عليَّ؟ من الذي جاء ليعاونني؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هل عبر اليوم؟ أشكر ذاك الذي قدم لنا الشمس لخدمة عملنا النهاري، ويهبنا نارًا لكي تنير الليل وتخدم احتياجاتنا الأخرى في الحياة. ليت الليل أيضًا يوحي لنا بما يدفعنا للصلاة.

عندما تتطلَّع إلى السماء وترى جمال النجوم صلِّ إلى ربّ كل الأشياء المنظورة، خالق المسكونة الذي بحكمة صنع الكل (مز ١٠٤ :٢٤). وعندما ترى كل الطبيعة تغُط في النوم، اسجد لذاك الذي حتى بغير إرادتنا يعتقنا من ضغط العمل المستمر، وبفترة راحة صغيرة يردّنا مرة أخرى إلي نشاط قوتنا. لا تسمح لليل بأكمله إن يكون للنوم لا تسمح لنصف عمرك أن ينقضي بلا فائدةٍ في نوم ببلادةٍ وسباتٍ. بل قسم وقت الليل بين النوم والصلاة. وليكن نومك الخفيف ذاته تداريب للتقوى. فإن أحلامنا أثناء النوم غالبًا ما تكون انعكاسات لأفكارنا في النهار[1].

القديس باسيليوس الكبير

من يقيس عظمة قدرته برقم؟

ومن يضيف إلى هذا القياس وهو يصف مراحمه؟ [٤]

سأل الرب أيوب: "من وضع قياسها؟ لأنّك تعلمُ! أو من مدّ عليها مطمارًا؟" (أي ٣٨: ٥) يسأله: إن كنت تعرف، من الذي وضع مقاييس الأرض وحدَّد أبعاد خط الاستواء؟ من هو المهندس المعماري الذي صَمَّم أبعاد الأرض؟ من الذي أمسك بالمطمار[2] لقياسها، مُحَدِّدًا مناطقها وأبعادها؟

يبرز الحديث الإلهي أن الأرض التي يعيش عليها الإنسان لم تُوجَد مصادفة بلا تخطيطٍ، وإنما وراءها المهندس الأعظم الذي وضع خطة دقيقة لإنشائها، خُلِقَت بحكمة الخالق وقدرته الفائقة.

مازال العلم الحديث يحاول اكتشاف الكون من حولنا، لهذا نحن ننحني أمام كل أسرار الخليقة وهذه العظمة صامتين مُقَدِّمين المجد والسبح للخالق.

❖ إنها ليست بدون إبداع أُخِذَت المقاييس، ولا جاءت مصادفة أو بطريقة عشوائية، ولكن الله صَمَّمها بهدفٍ متناسقٍ، عملٍ كمعماريٍ بارعٍ.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الإنسان الذي يريد ويؤمن، لا يكون طريق إدراكه لله صعبًا. فإن أردت أن تُعاين الله، تأمل كمال نظام الخليقة التي أوجدها بكلمته، وعنايته بها، فإنه خلق هذا كله من أجل الإنسان[3].

---

[1] *Cf. Reg. Brev. 32.*

[2] المطمار هو خيط البناء الذي يضمن به استواء الحائط ووضعه الرأسي.

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٦٠.

ما من أحد يقدر أن يُنقص منها أو يزيد عليها،

ولا يوجد من يقدر أن يبحث في عجائب الربّ [٥].

جميع المخترعات الحديثة هي في الواقع إعادة تشكيل أو اكتشاف للمادة الموجودة أصلاً وليست إضافة إلى خلائق الله. كذلك لا يستطيع شخص ما أن ينكر أن الله خلق كل شيءٍ، أو ينسب إلى الخلائق الصدفة.

❖ تنبع كل الأشياء من الله. وحيث أن المخلوقات عديدة ومتنوِّعة، فهي قد تثبَّتَت وتواءمت مع الخليقة كلها. ومع ذلك فحينما نلاحظها على إنفراد نجدها متناغمة في تقابلها، كالقيثارة التي تتكوَّن من العديد من المقاطع المتقابلة. لكنها في النهاية تعطي نغمة مُتَّصلة من خلال المقاطع التي تفصل الواحد عن الآخر.

يجب ألاَّ ينخدع الباحث عن الحقيقة بالفواصل التي تفصل بين المقطع والآخر أو يتصوَّر أن السبب في ذلك يرجع إلى ملحنٍ أو آخر، بل عليه أن يثق أنه يوجد كائن واحد قد صنعها جميعًا ليثبت المهارة والجودة وجمال العمل جميعه.

أولئك الذين يستمعون إلى النغمة يلزمهم أن يُسَبِّحوا الصانع ويُمَجِّدوه ويظهروا عجبهم بعمله. تارة يُقَدِّم لهم مقطوعة عالية ومرَّة أخري ناعمة. ليدركوا الفرق بين هذه النغمات المتباينة. وليدركوا الطبيعة الخاصة للبعض الآخر، وحينئذٍ يتساءلون عما يهدف كل منها، وعن سبب التباين.

فلا نيأس أبدًا من تطبيق دورنا في الحياة، ولا نحبط الخالق. ولا نلقي إيماننا بالله الواحد الذي خلق الموجودات ولا نجدف على الخالق[1].

القدِّيس إيرينيؤس

٢. يا لحنو الخالق والمُخَلِّص!

إذا أتم الإنسان بحثه (في عظمة أعماله) حينئذ يبتدئ من جديد،

وإذا توقَّف يبقى مرتبكًا [٦].

عظمة الله في سرمديته كما في حنوِّه العجيب لكل البشر (راجع مز ١٣٦). تتجلَّى رحمته لا في عاطفة مجردة، إنما يعمل لصالح الإنسان، فينتهره ويُدَرِّبه ويُعَلِّمه. إنه يهذب الإنسان!

بعد أن قَدَّم مصادر المعرفة الإلهية بالنسبة للإنسان، خشي ابن سيراخ أن يظن الإنسان أنه قد

---

[1] *Adv. Haer., 2:25.* ترجمة دكتورة إيفا إدوارد بدمياط

تعرَّف على الله وأسراره خلال الفلسفات والطبيعة والشريعة الخ. فيتوقَّف عن البحث والدراسة بروح التقوى والتواضع. لذا يؤكد ابن سيراخ أنه متى ظن الإنسان أنه قد أَتم بحثه، يليق به أن يبدأ من جديد ولا يتوقَّف لأنه مهما بلغت خبرته في الدراسة، فإن ظن أنه شيخ مختبر بلغ المئة من عمره، فهل يدرك أسرار الله الأزلي الأبدي! فإن عمره كله يشبه نقطة ماء في البحر أو ذرة رمل في صحراء متسعة!

يرى **القديس ديديموس الضرير** أن الإنسان الحكيم يشعر بالحاجة المستمرة للنمو. فكلما بلغ إلى نهاية ما، يشعر أن هذه بداية جديدة. حتى في هذه الحياة، مهما بلغنا من معرفة روحية، فإننا إذ ننتهي من هذه الحياة نشعر أن معرفتنا غير كاملة، إنما "نعلم بعض العلم" (١ كو ١٣: ٩)، ونود المعرفة الكاملة في الأبدية.

مع ما يجده المؤمن من شبع في المسيح يسوع، كلما تمتَّع به ازداد شوقه وجوعه وعطشه إليه بلا توقُّفٍ. بهذا الروح يحيا المؤمن في تجديدٍ مستمرٍ وفرحٍ لا ينقطع، ولا يعاني من الشعور بالملل. لذلك يرى **القديس أغسطينوس** أنه لا يجوز التوقُّف عن البحث عن الأسرار الإلهية بروح الصلاة وعن الاشتياق إلى التعرُّف المستمر على الله.

❖ لنبحث كي نكتشف ما يحتاج إلى الكشف عنه، وعما هو بالفعل مُكتشَف. الذي نريد أن نكتشفه هو مُحتجب كي نبحث عنه. وإذ نجد أنه غير محدود، يبقى موضوع بحثنا. لذلك يُقَال "**التمسوا وجهه دائمًا**" (مز ١٠٥: ٤). فإنه حتى وإن شبع الباحث من معرفة أعماق جديدة، فإن ما وجده يجعله أكثر قدرة على البحث حتى يبلغ إلى ملءٍ جديد حسب نمو قدرته لنوال المعرفة.

لذلك لم يقل "التمسوا وجهه دائمًا" بذات المعنى في الأمور الأخرى، حيث يُقَال: "يتعلمن في كل حين ولا يستطعن أن يُقبلنَ إلى معرفة الحق أبدًا" (٢ تي ٣: ٧). وإنما كما يقول الكارز: "**إذا أتم الإنسان فحينئذٍ يبتدئ**" [٦]، عندما نبلغ إلى تلك الحياة حيث نمتلئ هكذا، تنال طبيعتنا أقصى إمكانية، إذ نبلغ الكمال ولا نسعى إلى زيادة. فكل ما يُشبعنا يُعلن لعيوننا. أما هنا فنطلب على الدوام، ولا نبلغ مكافأة وجود ما نطلبه إلى نهاية بحثنا[1].

❖ يقول (بولس الرسول): "أيها الإخوة، أنا لست أحسب نفسي أني قد أدركت، ولكني أفعل شيئًا واحدًا: إذ أنا أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام، أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع. فليفتكر هذا جميع الكاملين منا" (في ٣: ١٣-١٥).

---

[1] *Tractates on John 63:1.*

إنه يقول إن الكمال في هذه الحياة أن ننسى ما هو وراء، وأن نسعى مُتقدِّمين نحو الهدف الموضوع أمامنا. فإن الهدف الآمن بالنسبة لمن يبحث، أن يستمر في البحث حتى يبلغ إلى ما يهدف إليه ويصارع لأجله. أما الهدف السليم فهو ذاك الذي ينبع من الإيمان. فإن الإيمان الأكيد هو بطريقة ما بدء المعرفة، والمعرفة الأكيدة تتكمل بعد هذه الحياة، حين نراه وجهًا لوجه (١ كو ١٣: ١٢).

إذن ليكن فينا هذا الفكر، فنعرف أن الانجذاب نحو البحث عن الحق أكثر أمانًا من الغطرسة بأننا نعرف ما لا نعرفه. إذن ليتنا نبحث كمن يجد، وإذ نجد نحسب أننا نبدو أننا نبحث، لذلك "إذ أتم الإنسان فحينئذٍ يبتدئ" (راجع سي ١٨: ٦)[1].

❖ قيل: "اطلبوا وجهه كل حين"، وكما يقول البعض: "يتعلَّمن في كل حين ولا يستطعن أن يقبلن إلى معرفة الحق" (٢ تي ٣: ٧)؛ بل بالحريّ كما يقول أحدهم: "إذا أتم الإنسان فحينئذٍ يبتدئ" (راجع سي ١٨: ٦)، حتى نبلغ إلى تلك الحياة التي فيها نمتلئ، فنصير بلا (فضاء متسع)، إذ نصير كاملين ولا نطلب تقدمًا. إذ يظهر لنا ما يكفينا. أما هنا فيلزمنا البحث الدائم، ولا نتوقَّف عن الفحص لثمرة ما نكتشفه[2].

القديس أغسطينوس

ما هو الإنسان؟ وما منفعته؟

ما هو خيره؟ وما هو شره؟ [٧]

يقيس ابن سيراخ هنا عظمة الإنسان بالعظمة الإلهية، وسني الإنسان مهما طالت بالحياة الأبدية، وأعمال الإنسان نفسها قدام صفات الله... "**ما خَيرُه**"، أي ماذا يساوى كل برّ الإنسان، أليس مثل خرقة الطامث، كذلك شرّه هل يقدر أن يسيء إلى الله أو يبطل خطته. فليخزى الآن المفتخرون بشرّهم، فإنهم سيفنون وسيبطل شرّهم. وليتضع المفتخرون ببرّهم، فإن كل ما فيهم من برّ هو من الله[3].

عدد أيام الإنسان تُحسَب عظيمة إن بلغ مئة سنة [٨].

لكنها كنقطة ماء من البحر، وكذرة من الرمل،
هكذا السنوات قليلة بالنسبة ليوم الأبدية [٩].

---

[1] *The Trinity, FOTC, vol. 45, p. 269-271.*

[2] *Tractates on the Gospel of John, FOTC, vol. 90, p. 42-45.*

[3] نيافة الأنبا مكاريوس.

فلذلك يطيل الربّ أناته عليهم،

ويفيض برحمته عليهم [١٠].

إذ ليس من مقارنة بين عمر الإنسان والحياة الأبدية، لذا فإن الربّ يتعامل مع الإنسان في ضعفه بطول أناة، ويسكب رحمته عليه. إنه يود أن يعدَّه للحياة الأبدية المُطوَّبة.

إنه يرى ويَعْلَم نهايتهم إنها شريرة،

لذلك يُقَدِّم لهم كفّارة كاملة [١١].

رحمة الإنسان هي لقريبه،

أما رحمة الرب فلكل ذي جسد.

يُوَبِّخهم ويُدَرِّبهم ويُعَلِّمهم كراعٍ يردّ قطيعه إلى الحظيرة [١٢].

يُعدّ ابن سيراخ شعب الله القديم للانفتاح على كل الأمم بمجيء المسيَّا مُخَلِّص العالم، لذا يؤكد: "أما رحمة الربّ فلكل ذي جسد". حقًا إنه يُوَبِّخ ويُؤَدِّب، لكنه يُدَرِّب ويُعَلِّم كي يرد القطيع كله!

❖ كلنا محتاجون إلى رحمة الله، كما هو مكتوب: "أما رحمة الربّ فلكل ذي جسد" (١٨: ١٢). لكن إن كان أولئك قد احتاجوا إلى رحمة الله، فماذا يقول الإنسان عن البقية؟ أخبرني لماذا جعل الشمس تُشرِق على الأشرار والصالحين؟ هل أَوْقَف المطر لمدة عامٍ واحدٍ، أما كان ذلك يُهلك الجميع؟ وماذا لو سمح بالمطر أن يغمر (الأرض)؟... إنه يسهل عليه أن يهلك الأشياء ويخلقها من جديد... ذاك الذي له مثل هذا السلطان علينا، وهو يرانا نخطئ كل يوم، ومع ذلك لم يعاقبنا، كيف هذا سوى أنه يحتملنا برحمته[1].

❖ لاحظوا أن العالم تأسس بالرأفة (حك ١: ١٤؛ ١١: ٢٣)، وعندئذ امتثلوا بربّكم. "رحمة الإنسان لقريبه، أما رحمة الرب فلكل ذي جسد" (راجع سي ١٨: ١٢). كيف "لكل ذي جسد"؟ تعني سواء الخطاة أو الأبرار، فإننا جميعًا في حاجة إلى الرحمة. كلنا ننعم بها...

ماذا يقول هذا الطوباوي؟ "لكنني رُحمت لأني فعلت بجهل" (١ تي ١: ١٣). ماذا إذن، هل لم يعد محتاجًا إلى الرحمة فيما بعد؟ اسمع ماذا يقول: "أنا تعبت أكثر منهم جميعهم، ولكن لا أنا بل نعمة الله التي معي" (١ كو ١٥: ١٠). وعن أبفرودتس يقول: "فإنه مرض قريبًا من الموت، لكن الله رحمه، وليس إياه وحده، بل إياي أيضًا لئلا يكون لي حزن على حزنٍ" (في ٢: ٢٧). وأيضًا: "إننا تثقلنا جدًا فوق الطاقة، حتى يأسنا من الحياة أيضًا. لكن كان لنا في أنفسنا حكم الموت لكي

---

[1] *Homilies on Philippians, hom. 5.*

لا نكون متكلين على أنفسنا، بل على الله الذي يُقِيم من الأموات. الذي نجَّانا من موتٍ مثل هذا وهو يُنَجِّي" (٢ كو ١: ٨-١٠)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

إنه يرحم الذين يَقْبَلون تأديبه،
والذين يبادرون إلى أحكامه [١٣].

❖ لا يوجد شيء يبغضه الربّ (حك ١١: ٢٥). بالتأكيد إنه لا يبغض شيئًا، ويبقى هذا الشيء في الوجود... بالتأكيد التام لا يحدث أنه لا يريد ألا يوجد شيء ما وفي نفس الوقت يوجد... وإن كان لا يكره شيئًا مما خلقه، بالتالي فهو يحب ما خلقه... لكنه يحب الإنسان محبةً عظيمة تفوق كل شيءٍ، حيث أن الإنسان هو أشرف الكائنات الحية التي خلقها[2].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ العالم تصونه العناية الإلهية، إذ لا يوجد مكان لا تُدرِكه هذه العناية.

والعناية الإلهية هي تنفيذ مواعيد الكلمة الإلهية، الذي يهب شكلاً للمادة التي يتكوَّن منها هذا العالم، وهو المهندس والفنان لهذا كله. فالأشياء ما كان يمكن لها أن تأخذ جمالها لولا فطنة قوة الكلمة الذي هو صورة الله (الآب) وعقله وحكمته وعنايته[3].

القديس أنطونيوس الكبير

٣. الكلمة اللطيفة تلازم العطية

سبق لنا الحديث عن العطاء كيف يلزم أن يصاحبه الحنوّ واللطف في التعامل مع المحتاج. الكلمة بالنسبة للمحتاج أفضل من العطية؛ فالعطية مهما بلغ قدرها تفقد قيمتها إن صاحبتها كلمة أو نظرة قاسية من المعطي. الكلمة اللطيفة تنزل على قلب المحتاج كالندى الذي يُرطب القيْظ أو حرارة العوز والاحتياج!

القدوس هو ديَّان المسكونة، جاء لا ليُقَدِّم عطايا فحسب، بل قدَّم نفسه، ويهبنا روحه القدوس، ويدخل بنا إلى أحضان الآب، حتى ندرك المحبة الإلهية، فنُسرّ بعطاياه. هكذا يليق بنا أن نسلك بذات الروح!

---

[1] *On Philippians, Homily 4.*

[2] *Paedagogus, FOTC, vol. 23, p. 56-78.*

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٥٦.

يا بُنيَ، لا تجلب خزيًا على العمل الصالح الذي تفعله،
ولا تُسَبِّب حزنًا بكلماتك وأنت تُقَدِّم عطية [١٤].

قد يظن الإنسان أنه يتشبَّه بالله، فيمد يده للعطاء، لكن بالحقيقة يُفسِد العطية بكلمة قاسية يُوَجِّهها للمحتاج. الإنسان التقي اللطيف يُقَدِّم الكلمة المريحة ترافق العطية اللائقة [١٤].

أليس الندى يُسكِّن القيظ؟
هكذا الكلمة أفضل من العطيّة؟ [١٥]

❖ كان الأب أغاثون ذاهبًا يومًا ما إلى المدينة ليبيع عمل يديه، فقابل مُقعَدًا في الطريق مشلولاً في رجليه وسأله: "إلى أين أنت ذاهب؟" فأجابه: "إلى المدينة." فقال له: "اصنع محبة واحملني إلى هناك"، فحمله إلى المدينة. وقال له المُقعَد: "أنزلني حيث تبيع عملك." ففعل هكذا. ولما باع شيئًا سأله المُقعَد: "بكم بعته؟" فأخبره عن الثمن. فقال له: "اشتَرِ لي كعكة." فاشترى له. ولما باع أبًا أغاثون شيئًا آخر سأله المريض: "بكم بعته؟" فأخبره عن ثمنه. فقال له: "اشتَرِ لي هذا." فاشتراه. ولما باع أبًا أغاثون كل بضاعته أراد أن يرجع، فقال له المُقعَد: "اصنع محبة وأرجعني إلى الموضع الذي وجدتني فيه،" فحمله وردَّه إليه. وحينئذٍ قال المُقعَد: "يا أغاثون، إنك ممتلئ بالبركات الإلهية في السماء وعلى الأرض." ولما رفع القديس عينيه لم يَرَ إنسانًا، فقد كان ملاك أرسله الرب ليمتحنه[١].

فردوس الآباء

بالحقيقة أليست الكلمة أفضل من عطيّة مناسبة؟
وكلاهما توجدان في الرجل اللطيف [١٦].

إذ يحثّ سيراخ تلاميذه على التعقُّل، يُطالِبهم بضبط النفس خاصة في الكلام [١٦-١٩]. يليق بالحكيم أن يتَّسِم بالحنو والتواضع مع ممارسته للتوبة عن الخطية. هذا يتحقَّق إن وضع الإنسان في ذهنه الدينونة الإلهية التي يواجها كل إنسانٍ [٢٢، ٢٤، ٢٥].

الكلمة القاسية تُكَدِّر من وهبْته عطية صالحة، فيحسب ما قدَّمته له كلا شيءٍ، بينما الكلمة الطيبة تشبه الندى الذي يُرَطِّب من شدة الحرارة (الغيظ). لهذا يحسب الإنسان الكلمة الطيبة الخارجة من قلب مُخلص ونقي أفضل من العطايا المادية.

من يريد أن يُوَبِّخ إنسانًا على خطأ مُعَيَّن أو خطية ما، لا يختار الوقت الذي يُقَدِّم فيه عطية

---

[١] فردوس الآباء، ج ١، ص ٤٧٧.

للشخص، لأن الكلمة القاسية تفسد قيمة العطية، (وتقديم العطية أثناء النصيحة يفسدها). للعطية وقت وللتوبيخ وقت بأسلوب يليق بمن يوبخه.

❖ لا تستخفّوا بهذا النفع العجيب الذي تنعمون به خلال الاستضافة، ولكن يومًا فيومًا جاهدوا أن تقتنوا لأنفسكم مكسب هذه التجارة الرائعة، بمعرفة أن ربّنا يتطلَّع إلى كَرَم الروح، لا إلى تقديم كميات كبيرة من الطعام، ولا تقديم مائدة غنية، بل تقديم البشاشة، لا بالكلمات وحدها بل أيضًا بالحُبّ من القلب والذهن المَخْلِص. لذلك قال حكيم ما: "أما ترى أن الكلام أفضل من العطية الصالحة" (راجع سي ١٨: ١٦).

في حالاتٍ كثيرة رأيتم أن الاهتمام بالكلمة قد أعانت الشخص المحتاج ليرجع على قدميه متهللاً أكثر من العطية. راعوا هذا، ولا تستصعبوا مقابلة الزائرين؛ عوض هذا فإننا من جانب نحن في موقف من يُخَفِّف من فقرهم، نفعل هذا بحُبٍ وبشاشةٍ، لا كمن يعطي شيئًا، بل يعطي نفعًا في غاية العظمة. ومن جانبٍ آخر إن لم نستطع أن نفعل ذلك، ليتنا لا نكون غير مهذبين معهم، فنُقَدِّم على الأقل اهتمامًا بالكلمة متجاوبين مع متاعبهم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا يستطيع أحد أن يقول: "أنا فقير، ليس لديّ طريق ما لإظهار الرحمة." إن كنت غير قادر على العطاء مثل الأغنياء الذين ألقوا في الخزانة، فأعطي فلسين كالأرملة، وسيحسب الله هذا أعظم من تقدمات الأغنياء (مر ١٢: ٤١-٤٤؛ لو ٢١: ١-٤).

هل ليس لديك هذا؟ فإنك لا تزال لك القوة أن ترحم، وبهذه القوة تُمارِس الرحمة في خدمة المرضى. هل لا تستطيع هذا؟ تستطيع أن تُعزِّي أخاك بالكلمات. بهذا كن رحيمًا معه بكلماتك، وأصغِ إلى القائل: "الكلمة أفضل من العطية" [١٦].

افترض أنك لا تستطيع أن تُمارِس الرحمة بالكلمات. مع ذلك إن كان أخوك ثائر عليك، يمكنك أن ترحمه وتسنده وسط هياجه، حاسبًا أن العدو العام (إبليس) يُسيء معاملته، وبدلاً من أن ترد عليه بكلمة قاسية وتزيد من ارتباكه؛ لتصمت وتترفَّق به وبنفسه، لتسرقها من يد العدو.

حتى إن عاد الأخ إلى الهياج عليك مرة أخرى يمكنك أن تترفَّق به وتعفو عن خطيته نحوك حتى تتمتَّع أنت بالمغفرة من قبل الله. في الحقيقة يقول الله: "اغفروا يُغفَر لكم" (لو ٦: ٣٧)، وبهذا تجدون معونة ورحمة لنفس أخيكم بالعفو عن خطاياه نحوكم[2].

---

[1] *Homilies on Genesis, 18-45.*

[2] *Spiritual Instructions 14:156.*

❖ إن التزم أحد أن يستجدي صدقة بسبب الجوع، وبسبب استجدائه يضطر أن يسلك في خجلٍ، وبسبب خجله يحتمل الخزي، عندئذٍ تحت ثقل الكآبة يشعر بالتعقيد مصحوبًا بظلمة تحل على نفسه. يليق بمن يهتم بمثل هؤلاء أن يكون طويل الأناة، ولا يسلك بطريقة تُزيد من كآبتهم واستفزازهم. يليق به أيضًا أن يُخَفِّف بالتشجيع من طبيعته المُتَّسِمة بالكآبة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

الأحمق يهين الآخر ويخزيه،

وعطيّة الإنسان الحاسد تُعَتِّم العيون [١٧].

لا يعرف الإنسان الأحمق كيف يلاطف ليكسب الآخرين بالحنو مع الحكمة، إنما ينتقد على الدوام بروح العنف والقسوة، فيُحَطِّم نفوس من يتعامل معهم.

أما الحاسد، فإنه وإن قدَّم عطايا لإخوته، لكنه فاقد المحبة الصادقة، فلا يشتهي نجاحهم وتَقَدُّمهم بسبب أنانيته الخفية؛ هذه العطايا تعتم عيون الغير، إذ لا يدركون ما في أفكاره وما في قلبه من حسدٍ، كما تعتم عينيه، فيظن أنه أدَّى واجبه على أكمل وجه بتقديم العطايا دون إصلاح قلبه.

يرى **القديس جيروم**[2] أن الكلمة اللاتينية للحاسد هي *invidus* جاءت في اليونانية بأكثر قوة بمعنى الذي يقذف بتعويذة ساحرة *spellcaster*. فالحاسد يتأذَّى بنجاح الآخرين وتَقَدُّمهم. إن كان بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم، فإنه لا يكف عن أن يبثّ روح الحسد في الإنسان لا لنفع ما يقتنيه، وإنما ليثير بغضته ضد الناجحين.

قبل أن تتكلم تعلَّم،

وقبل أن تمرض اعتن بصحتك [١٨].

وقبل أن تحكم افحص نفسك بأمانة،

فتجد الكفّارة ساعة الافتقاد [١٩].

كما يهتم الإنسان بصحته الجسدية، خاصة عندما يعاني من مرضٍ، يليق به أن يُعِدّ نفسه للمجد الأبدي، ليتمتَّع بالعفو الكامل في يوم افتقاد الربّ [١٩].

---

[1] *On Priesthood 3.*

[2] *St. Jerome, commentary on Galatians, FOTC, vol. 121, p. 117-120.*

٤. الوقاية خير من العلاج

قبل أن تمرض تواضع،

وعند ارتكاب الخطايا أثبت رجوعك (لله) [٢٠].

❖ من يحب الأرضيات وشهواتها لا يفكر في أن يكون مع المسيح بعد انتقاله، ولا يقدر أن يقول: "**غريب أنا على الأرض**"، إذ هو مهتم بما للأرض. أما من يقول "**لا تُخفِ عني وصاياك**" فهو قديس... لذلك يطلب النبي من الله أن يكشف له عظائم وصاياه للحياة السماوية[١].

العلامة أوريجينوس

لا يمنعك شيء من إيفاء نذرك من غير إبطاء،

ولا تنتظر الموت لتكون بارًا [٢١].

يقول المرتل: "لك ينبغي التسبيح يا الله في صهيون ولك يُوفى النذر" (مز ٦٥: ١)؛ "انذروا وأوفوا للرب إلهكم يا جميع الذين حوله ليقدموا هدية للمهوب" (مز ٧٦: ١١). ماذا يعني **الوفاء بالنذر** سوى تقديم ذبيحة التسبيح والشكر مع الطاعة بفرحٍ لوصية الله المحبوبة!

❖ "لك يُوفى النذر" (مز ٦٥: ١) في أورشليم. فإننا سنكون هناك كاملين، أي نكون في قيامة الصديقين كاملين. هناك يُوفى كل نذرنا، ليس من جهة النفس وحدها، بل والجسد أيضًا، لا يعود بعد قابلاً للفساد، لأنه لا يعود بعد ليكون في بابل، بل يصير الآن جسدًا سماويًا ويتغيَّر...

سيغلب السلام، وستنتهي الحرب. وعندما يغلب السلام، فستغلب تلك المدينة التي تُدعَى رؤية السلام (أورشليم). لا يعود يوجد بعد كفاح مع الموت. أما الآن فيا لخطورة الموت الذي نكافحه!

❖ لا تتلكأوا في النذر، فإنكم **ستوفون النذور ليس بقوتكم**. إنكم ستفشلون إن كنتم تعتمدون على أنفسكم. أما إن اعتمدتم على ذاك الذي تنذرون له، فإنكم تصيرون في أمانٍ وتوفون النذور. "**أنذروا وأوفوا للرب إلهكم**". ما الذي يلزمنا أن ننذره نحن جميعًا؟ أن نؤمن به، ونترجَّى منه الحياة الأبدية، ونحيا بالتقوى حسب القياس اللائق بكل البشر[٢].

القديس أغسطينوس

❖ ماذا ننذر ونوفي يا إخوة؟ آمنوا به، ترجُّوا منه الحيَاة الأبدية والحياة الصالحة حسب المستوى العام. يوجد مستوى عام لكل البشر. "لا تزنِ" هي وصية للمتزوجين كما لغير المتزوجين... لذلك

---

[١] من تفسير وتأملات الآباء الأولين: المزمور المئة والتاسع عشر (١١٨) غنى كلمة الله ولذتها، ١٩٩٦.

[2] *On Ps. 76.*

يلزمنا نحن جميعًا أن ننذر ما هو يخص الإيمان والعدل والعفة أو الرحمة، وبمعونة ذاك الذي ننذر له ذلك نوفي...

ينذر البعض ألاَّ يسمحوا أو يرغبوا في ألاَّ يعرفوا أحدًا في المستقبل، حتى وإن كانوا حاليًا غير متزوجين. هؤلاء نذرهم أعظم من السابقين. آخرون ينذرون هذه البتولية منذ بدء حياتهم، فلا يمارسون قط مثل أولئك الذين حاولوا لكنهم فيما بعد تركوا ذلك؛ هؤلاء أعظم الكل[1].

الأب قيصريوس أسقف آرل

قبل أن تنذر، هيِّئ نفسك،

ولا تكن كإنسانٍ يُجَرِّب الربّ [٢٢].

يليق بالإنسان ألاَّ يجرب الربّ في صلواته ونذوره لاختيار طريقٍ مُعَيَّن، ولا يتعجَّل في النذر (قض ١١: ٢٩-٤٠).

تذكَّر غضبه في يوم موتك،

وفي وقت العقاب عندما يُحَوِّل الرب وجهه [٢٣].

يليق بنا أن نطلب من الله المشورة والنعمة لنسلك حسب مرضاته حتى النفس الأخير، ونبغض ما يبغضه هو.

❖ لتبغض الرياء، وكل ما لا يسر الربّ. لا تهجر وصايا الربّ، إنما احتفظ بما تسلمت بدون إضافة ولا حذف. لتعترف عن معاصيك في الكنيسة، لا تأتِ لصلاتك بضميرٍ شريرٍ. هذا هو طريق الحياة[2].

الديداكية

في وقت الشبع اذكر وقت الجوع،

وفي أيام الغِنَى اذكر الفقر والعوز [٢٤].

يليق بالمؤمن في وقت شبعه أن يذكر عطايا الله له، إنما وهو يستخدم الثروة لشبعه يذكر الجائعين!

❖ إذ نرى الله لا يسمح لنا أن نُبتلَع في فيضان تلك المتاعب عندما تحلّ علينا، ليتنا لا نسمح لأنفسنا أن نصير مستهترين عندما تعبر. نذكر إننا عندما كنا حزانى عزَّانا. لنشكره الآن أننا

---

[1] *Sermon 135: 1.*

[2] *Didache 4: 12-14.*

مبتهجون. في آلامنا أعطانا راحة ولم يتركنا. ليتنا لا نخون أنفسنا في وقت اليسر بانحرافنا إلى الكسل. يقول أحدهم: "في وقت الشبع لا تنسى وقت الجوع" (راجع سي ١٨: ٢٤). لذلك نفكر في يوم الفرج وقت التجربة. وبالنسبة لخطايانا لنعمل بذات الطريقة. إن كنت قد أخطأت، وقبلت المغفرة، قَدِّم تشكُّرات، ولكن لا تنسَ الخطية، لا لكي تحث نفسك بالتفكير فيها، إنما لكي تُعَلِّم نفسك ألا تكون متهاونًا، وتنتكس مرة أخرى في ذات الفخاخ (عب ٦: ٤)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

من الصباح إلى المساء يتغيَّر الزمن،

وكل شيءٍ يمرّ سريعًا في حضرة الربّ [٢٥].

❖ لا تعرف ما يُقَدِّمه لك أي يوم: "ما بين الصباح والمساء يتغيَّر الجو". في موضع آخر نُنصَح بوصية مفيدة: "لنسر مادام لنا النور، لئلا يدركنا الظلام" (راجع يو ١٢: ٣٥).

يقول الشخص المهمل: عندما أصير شيخًا ألجأ إلى علاج التوبة. هذا البائس لا يعرف أنه متى اعتاد شخص أن يرتكب خطايا على انتظار التوبة، لن يتأهَّل لنوال ثمر التوبة، أو يتأهَّل لها بصعوبة[2].

الأب قيصريوس أسقف آرل

❖ هنا الأزمنة راكبة على العجلات لتنتقل، وخلالها يُوزع يوميًا الغنى والفقر.

مَن هو اليوم غني لعله غدًا يفتقر، والفقير الآن لعله بعد قليل يغتني؟

المريض يُشفَى، ومَن هو معافى يمرض، فهذا العالم وفعالياته منسوج على التغييرات.

الطفل يكبر، والرجل يشيخ، والشيخ يموت، لأنه لا توجد قامة كاملة بدون تغيير في العالم.

عبر الصباح، ويأتي الظهر، ويدنو المغيب، ويأتي المساء، ويحل محلها.

النهار شهي ومنظره محبوب وجماله بهي، والليل يمشي ويدخل عوضه ويفسده[3].

القديس مار يعقوب السروجي

الحكيم فيه مخافة الله في كل شيءٍ يعمله،

وفي أيام الخطايا يحترص من الهفوات [٢٦].

---

[1] *Concerning The Statues, Homily 12 : 1*

[2] *Sermon 309: 1.*

[3] الميمر ١٦ على الغني ولعازر (لو ١٦: ١٩-٣١) (راجع نص بول بيجان والدكتور بهنام سوني)، الميمر ٤٣١، على الغني ولعازر لأجل يوم الجمعة ختام الصوم المقدس، قبطي.

❖ مخافة الرب هي اللجام الذي يوقف انطلاق الإنسان نحو ارتكاب الشرّ، ويجذبه للخلف حينما يُستعبد للجري وراء شهواته الكريهة، ليس فقط في حياته الخارجيّة، بل وعلى وجه الخصوص في حياته الداخليّة الخفية[1].

❖ الإنسان الذي يعيش في تذكُّر الله كل حين يمتلئ بالمخافة، حتى عند مقاومته فكر شهوة يمر على نفسه، فيصير مرتعبًا بسبب هذا الفكر. لكن يهرب الفكر في الحال أمام مخافة النفس، كالعصفور الذي يهرب من أمام الإنسان الذي يقلق راحته. الخوف واحترام قوانين الناس يحافظان على الجسد ضد الشهوات. والمخافة وخجل الإنسان أمام الله يحافظان على النفس ضد أفكار الشرّ. لأنه إذ يعرف أن الله يراه في كل حين، يُراقِب نفسه باستمرار لكيلا يخطئ[2].

القديس مار فيلوكسينوس

كل إنسانٍ عاقلٍ يعرف الحكمة،
ويمدح من يجدها [٢٧].

يقول الحكيم: "طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة، وللرجل الذي يجد الفهم" (أم ٣: ١٣). يليق بالمؤمن العاقل أن يطلب الحكمة ويَجِدّ في البحث عنها ويسأل الرب لاقتنائها، ويمدح كل من يقتنيها، فإنها تهب الحياة المُطوَّبة، كما تُقدِّم له الغِنَى والمجد الحقيقيين الدائمين.

يتساءل **القديس الذهبي الفم:** هل كان القديس بطرس فقيرًا ليس له ما يعطيه للمقعد؟ يرى **العلامة أوريجينوس** أن الحكمة التي نقتنيها هي ناموس الرب، وهي أثمن من الذهب والفضة.

❖ هذا يعنى خير لي الناموس الصادر عن فمك؛ الذي هو المسيح. إني أستهين بالقطع الذهبية والفضية البَرَّاقة، لكي أَتَلَذَّذ بناموس فمك وأَتَنَعَّم به.

يمكننا القول بأن "**ناموس الفم**" هو ترتيب الكلمات الصادرة عن فم الله: الكلمات الأولى قيلت للمبتدئين، بينما الكلمات التالية قيلت لمن تسلم الأولى حتى يبلغوا الكمال[3].

العلامة أوريجينوس

الحكماء في الكلمات يجعلون الآخرين حكماء،
ويمطرون الأمثال السديدة [٢٨].

---

[1] ميمر ٦: ١٨١.

[2] ميمر ٦: ١٧٥-١٧٦.

[3] المؤلف: مزمور ١١٩، ١٩٩٦، ص ١٥٦.

إذ يسعى الإنسان أن يكون حكيمًا، فليدرك أن الله يهبه الحكمة متى سعى بصلواته وسلوكه أن يتمتَّع إخوته بالحكمة من عند الله، فما يشتهيه لإخوته في جديةٍ يفتح الباب له ولهم.

٥. النفس العاقلة وضبط النفس

يُشَبِّه القديس باسيليوس النفس بالفارس الذي يعرف كيف يُرَوِّض فرسه ويقوده، فيكون هو والفرس في أمان. أما إذا كان الفارس عديم الخبرة، فبقيادته الخاطئة يُسَبِّب لنفسه وللفرس أَذيّة وهلاكًا.

❖ النفوس التي لا يلجمها العقل، ولا يسيطر عليها الذهن، ويقمع شهواتها من لذَّات وآلام، ويُدَبِّرها ويُوَجِّهها (توجيها سليمًا)، هذه النفوس تهلك كالحيوانات العجماوات. لأن عقولهم تسحبها الشهوات، كما تسحب الخيول الجامحة سائقيها[١].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ انظر الآن يا حبيب إلى ما أقول: اعلم أنه كما أن الحصان إنما يكون جيدًا من جهة إسراعه في الخدمة المُحَدَّدة له، لكنه يحتاج إلى مُرَوِّض يركبه ويثنيه إلى الموضع الذي يريده، لأن البهيمة وحدها لا تعرف ما ينبغي فعله. وكما أنه إذا رُكِب الحصان، فلابد أن يستعمل الأمور الطبيعية له أعني أن يثب ويقفز، فإذا دَبَّر راكبه أسباب حركاته جيدًا زال الضرر وحصلت المنفعة.

وكما أن الراكب لا يكفيه أن يُدَبِّر الحصان فقط، بل وأن يقتني أيضًا معرفة واعتيادًا للثبوت عليه، حينئذ تكتمل بذلك الحاجة والسلامة للراكب والمركوب. أما إذا لم يُدَبِّره جيدًا، ولم يكن عارفًا ومعتادًا الثبوت عليه، يحيد الحصان في دفعات كثيرة عن الطريق المستقيمة... ويخرج إلى طرق شاهقة وعرة، فيتعثَّر ويسقط معه راكبه، ويصيران كلاهما في شدةٍ. وسبب ذلك جميعه غفلة راكبه، إما لكونه لم يكن عارفًا برياضته، ولا معتادًا الثبوت عليه، وإما لأنه أهمل سياسته وتدبيره وردّه إلى الطريق المستقيمة.

كذلك أيضًا بهذا المثال خلق الله الإنسان، وجعل فيه عقلاً يعقل به إكرامًا للنفس التي خلقها مع الجسد. فإذا ما تدبَّرت النفس جيدًا، ومارست عمل الرئاسة كما ينبغي، وأَلجَمَت حركات الجسد تنجو وتخلص الجسد من السقوط في الشدة. أما إذا توانت، ولم تُدَبِّر حركات الجسد كما يجب، وتغافلت وكسلت وأطلقت لجام الجسد، فمن أجل أن لا فكر له، يخرج إلى الطرق الوعرة وتسقط النفس معه في هذه الشرور. هذا ليس من أجل شرٍ في الجسد – حاشا لله – بل من أجل أن

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٩٦.

النفس لم تُدَبِّره كما يجب[1].

❖ نور الجسد هو العين، وبصيرة النفس هي العقل المخلوق فيها بالطبع، ولستُ أقول إن العقل غير النفس كأنهما منفصلان أحدهما عن الآخر. كلا، بل أن النفس والعقل مرتبطان باتِّحاد. لأن العقل هو قوة طبيعية للنفس. وهو أحشاؤها، خُلِقَ معها، وليس غريبًا عنها ولا دَخَل إليها بعد زمان[2].

❖ إذا ما تحرَّكَت النفس إلى معقولها الذي هو العقل (هذا الذي جعله الثالوث القدوس خالق كل شيءٍ مغروسًا فيها منذ جبلها)، وفكَّر العقل فيما ينبغي ويليق بالله، حينئذ تصير النفس مخلصة، وتهرب من جميع استعمالات الأهواء.

وعندما تسبق النفس فتنظر حركات الجسد وتضبطها، حينئذ تكون في هدوءٍ وورعٍ يليقان بها. فإذا ما صارت في المناظر الفاضلة كطبيعتها، تبقى مُتفكِّرة في جميع أعمال الله ومجده بخوفٍ وهدوءٍ، من غير قلقٍ. بل دفعات تجدها في دهشٍ، ناظرة قدَّامها إلى الثالوث، تفكر في مجد اللاهوت الذي لا يُدرَك من أجل عظمة نوره. وتبقى مُتفكِّرة في ذلك النور الطوباوي والحكمة التي بلا نهاية وعدم الاضطراب. فإذا ما حفظت النفس عقلها متيقظًا كطبيعتها، وتفكَّرت فيما ينبغي، لابد للعقل أن يكون في ثيؤريا (تأمل) الأعمال الممجدة وكل ما هو للسلام[3].

القديس باسيليوس الكبير

لا تتبع أهواءك، بل اكبح شهواتك [٢٩].

في حديثه عن ضبط النفس، يُحَذِّرنا من الانحراف نحو الشهوات والأهواء وحياة الترف، كما يُطَالِبنا بالتعقُّل في مجابهة المسئوليات المادية.

❖ إن كان الذين تلزمهم الضرورة أن يعبروا بحارًا واسعة، هؤلاء متى كانوا متيقظين يحافظون على حياتهم، لأنه حتى وإن كانت الأمواج هائجة أثناء إبحار قواربهم، فإنهم يُنقذون أنفسهم بأن يمسكوا بأي شيء على الشاطئ. أما إن كانوا سكارى، فإنهم وإن قاموا بمحاولات لا حصر لها لكي يسبحوا إلى الشاطئ، فإن الخمر يغلبهم، فيغرقون وسط الأمواج ويفارقون الحياة.

هكذا النفس أيضًا إن سقطت بين أمواج هائجة وسط دوامة تيارات الحياة، فإنها بجهادها الذاتي لا تقدر أن تتغلَّب على محبة الجسد، كما تعجز عن أن تعرف (بذاتها) أنها نفس إلهية

---

[1] راجع دير السريان: القديس باسيليوس، ٢٠٠٣، ص ٦٦-٦٨.

[2] راجع دير السريان: القديس باسيليوس، ٢٠٠٣، ص ٦٣.

[3] راجع دير السريان: القديس باسيليوس، ٢٠٠٣، ص ٦٣-٦٤.

خالدة مرتبطة بجسد مادي قابل للموت مملوء بالشهوات... وإن هذا هو محك لاختبارها، فإن سمحت لنفسها أن تتلوَّث بالشهوات الجسدية، فإنها تهلك ويكون هلاكها وخروجها من دائرة الخلاص نتيجة إهمالها وسكرها بالجهل واستخفافها بالصلاح. إن الجسد كنهر غالبًا ما يبتلعنا بالملذات الدنيئة[1].

❖ تجد الخطية لها عونًا في المادة، ويصير الجسد عرشًا لها. أما النفس العاقلة فإنها إذ تفهم هذا، تُلقي عنها عبء المادة، وتنهض من تحت ثقلها، وتدرك الله القدير، وتغسل الجسد بحرصٍ من غير أن تأتمنه، إذ هو عدو لها وخصم. بهذا يتوّج الله النفس، إذ تغلب الشهوات والشرور[2].

❖ الإنسان الحُرّ هو ذاك الذي لا تستعبده الملذات (الجسدية)، بل يتحكَّم في الجسد بتمييزٍ صالحٍ وعفةٍ، قانعًا بما يعطيه الله، مهما كان قليلاً، شاكرًا إياه من كل قلبه.

عندما يأتي كل من العقل المحب لله والنفس إلى الفهم، عندئذ يسهل ترويضه (الجسد) ولو بغير إرادته، ويمكن للنفس بواسطة العقل أن تخمد كل حركة حيوانية[3].

❖ الذين لا يقنعون بالكفاف، بل يطلبون المزيد (بشهوة)، يستعبدون أنفسهم للشهوات التي تقلق وتدخل فيها كل الأفكار الرديئة والهواجس، أي كل ما هو شرير، مع إنه يلزمنا أن نحصل على أشياء صالحة جديدة. وكما أن الثياب المغالى في طولها تعوق المسافرين عن السير، هكذا الرغبة المغالى فيها نحو المقتنيات تعوق النفس عن أن تجاهد وتخلص[4].

القديس أنطونيوس الكبير

يناجي **القديس أغسطينوس** الربّ طالبًا عمل النعمة فيه، إذ لا يستطيع بقدراته الشخصية أن يتحرَّر من الأهواء والشهوات، ففي اعترافاته يعلن عن حاجته إلى عمل الله فيه، ليُتَمِّم ما يوصيه به.

❖ سمعت صوت إلهي يوصيني: "احترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم في خمار وسكرٍ" (لو ٢١: ٣٤). الخمر بعيد عني، لترحمني لئلا يقترب السُكر مني.

على أي الأحوال النهم يحاول أحيانًا التسلل ليمسك بعبدك. لترحمني، فيبتعد عني! إذ لا يستطيع أحد أن يكون عفيفًا ما لم تهبه ذلك (حك ٨: ٢١).

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٤٢.

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٥٠.

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٥٦.

[4] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٥٧.

إنك تعطينا الكثير عندما نُصَلِّي. وكل ما نلناه من أمورٍ صالحة حتى قبل الصلاة، تسلَّمناه منك. والحقيقة التي عرفناها مؤخرًا أننا نلناها منك.

لم أكن يومًا ما سكيرًا، لكنني أعرف سكيرين كثيرين، بك صاروا أناسًا سامين للغاية. فهذا هو من عملك أنت أن هؤلاء الذين لم يكونوا قط هكذا وكان يلزم ألاَّ يكونوا هكذا، صاروا هكذا. إنها أعمالك كي يتعلَّموا من الذي عمل فيهم هكذا.

لقد سمعت أيضًا بيانًا آخر من لدنك: "لا تتبع أهواءك، بل اكبح شهواتك" (راجع سي ١٨: ٢٩).

خلال معونتك سمعت بيانًا آخر أحببته جدًا: "إن أكلنا لا نزيد، وإن لم نأكل لا ننقص" (١ كو ٨: ٨). بمعنى آخر، لا يجعلني الأول غنيًا، ولا الأخير فقيرًا.

سمعت أيضًا بيانًا آخر: "قد تعلَّمت أن أكون مكتفيًا بما أنا فيه... وأن أستفضل وأن أنقص. أستطيع كل شيءٍ في المسيح الذي يقويني" (في ٤: ١١-١٣)... إنه يقويني حتى أستطيع ذلك. هب لي يا من أوصيت، ولتوصي بما تريده.

اعترف هذا الرجل (القديس بولس) أنه استلم ذلك، لهذا يفتخر في الربّ (١ كو ١: ٣١).

سمعت إنسانًا آخر يصلي كي يأخذ، قائلاً: "انزع عني نهم البطن" (انظر سي ٢٣: ٦). واضح من هذا أيها الإله القدوس أنك أنت الذي تعطي، وأنك تعمل بما أمرت أن يُعمل[1].

❖ يليق بالإنسان أن يكون روحيًا لكي يحفظ الشريعة روحيًا؛ لا يكون هذا خلال الشريعة، إنما بواسطة النعمة، أي ليس خلال الوصية، وإنما خلال العطية المجانية، ليس خلال دافع الحرف، وإنما دافع الروح. الآن يبدأ الإنسان أن يتجدَّد في الداخل حسب النعمة بشرط ألاَّ يتبع ما يُحِبّه في ذهنه ولا يُوَافِق ما يلح عليه الجسد والذي يبغضه. هذا لا يعني أنه خالٍ من الشهوات الشريرة تمامًا، وإنما لا يتبعها (١٨: ٣٠)[2].

❖ إطاعة الوصية "لا تشتهِ" (خر ٢٠: ١٧) شيء، ومحاولة الامتناع عن أن يمارسها الشخص شيء آخر. حيث يتبع الإنسان ما هو مكتوب: "لا تتبع هواك".

ولكي تعرف أن بدون نعمة المُخَلِّص لا يستطيع أحد تنفيذ الوصية الأولى أو الأخرى. لكي تمارس البرّ في عبادة الله الحقيقية، حارب في صراعٍ داخلي مع الشرّ الداخلي للشهوة، وأن تحقق البرّ الكامل بعدم وجود خصم نهائيًا. لأن من يحارب يتعرَّض دائمًا للخطر، وأحيانًا يُجرَح حتى

---

[1] *Confessions, FOTC, vol. 21, p.301-305.*

[2] *Letter 175 to Bishop Asellicus.*

وإن لم يسقط. أما من ليس له عدو فيتمتَّع بسلامٍ كاملٍ.

ويُقَال بحقٍ أنه بلا خطيةٍ ذاك الذي لا تعيش الخطية فيه. ولا يعلن ذاك الممتنع عن الأعمال الشريرة: "لست أفعل الصالح الذي أريده، بل الشرّ الذي لست أريده فإياه أفعل" (رو ٧: ٢٠)[1].

❖ ما هو تحقيق الصلاح إلاَّ التوقُّف عن الشرّ **وإنهائه؟** وما التوقُّف عن الشرّ سوى ما يقوله الناموس: "لا تشته" (رو ٧: ٧؛ خر ٢٠: ١٧)؟ الاشتهاء ليس هو إتمام الصلاح، لأنه هو **الانتهاء** من الشرّ... لذلك يقول: "أما أن أفعل الحسنى فلست أجد" (رو ٧: ١٨).

إنني عاجز عن تحقيق ما يُقَال: "لا تشته". فماذا أحتاج؟ تحقيق: "لا تتبع أهواءك" (سي ١٨: ٢٩). لتفعل هذا مادامت الشهوات غير القانونية حاضرة في جسدك... لا تُسَلِّم نفسك لشهواتك، فإنك إن تبعتها تعطيها قوة. وبإعطائك قوة لها كيف تنتصر على أعدائك وأنت تسندهم ضد نفسك بقوتك؟ إذن ما هي الحرية الكاملة في الربّ يسوع القائل: "إن حرركم الابن فبالحقيقة أنتم أحرار؟" متى توجد الحرية الكاملة تمامًا؟ حين لا يوجد أعداء، وعندما "آخر عدو يبطل هو الموت" (١ كو ١٥: ٢٦)...

ليتنا نتوسَّل نحن الجرحى إلى الطبيب، لنُحمَل إلى الفندق لكي نُشفَى (بواسطة الراعي الصالح لو ١٠: ٣٠-٣٥). إنه هو الذي يعد بالصحة، الذي يترفَّق على الإنسان الذي تُرِك بين حيّ وميت على الطريق بواسطة اللصوص[2].

القديس أغسطينوس

يربط **الأب فلجنتيوس تلميذ القديس أغسطينوس** بين هذه العبارة وقول السيد المسيح: "من يحب نفسه يهلكها، ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية. إن كان أحد يخدمني فليتبعني، وحيث أكون أنا هناك أيضًا يكون خادمي" (يو ١٢: ٢٥-٢٦).

❖ كيف من يحب نفسه يهلكها؟ يفعل هذا من يتبع أهواءه العنيدة، ذاك الذي يرضيها أكثر مما يجب. لهذا يُحَذِّرنا الكتاب المقدس بالكلمات: "**لا تتبع أهواءك**" (سي ١٨: ٢٩). إن تبعتها تخسر نفسك، لأن هذا السلوك هو خارج الطريق الذي يقود إلى الفضيلة. ذلك مثل السلوك المعاكس: من يبغضها في هذا العالم يخلصها... حقًا ما لم تمت لا تحمل ثمرًا لك[3].

الأب فلجنتيوس Fulgentius

---

[1] *Four Anti-Pelagian Writings, FOTC, vol. 86, p. 76-87.*

[2] *Tractates on the Gospel of John, FOTC, vol. 88, p. 135-149.*

[3] *Commentary on St. John the Apostle and Evangelist, homily 67, FOTC, vol. 1.*

❖ لذيذة هي الحياة الحاضرة ومملوءة بالملذَّات الكثيرة، لكن ليس للكل، بل للذين ينجذبون إليها. فإذا تطلَّع أحد إلى السماء، ونظر الأمور الجميلة هناك، للحال يستخفّ بهذا الحياة، ولا يبالي بها. وذلك كما أن جمال أي شيء يُعجَب به، حينما لا يُرَى ما هو أجمل منه، ولكن إذ يظهر ما هو أفضل يُستخَفّ بالسابق. لذلك إن كنا نختار التطلُّع إلى ذلك الجمال، ونلاحظ سمو الملكوت هناك، نُحَرِّر أنفسنا من القيود الحاضرة، فإن التعاطف مع الأشياء كما يقول المسيح يجلبنا إلى هذا: "من يحب نفسه يهلكها، ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية؛ إن كان أحد يخدمني فليتبعني" (يو ١٢: ٢٥– ٢٦).

تبدو الكلمات كأنها لغز، لكنها ليست كذلك، بل هي مملوءة بحكمةٍ عظيمةٍ. ولكن كيف: من يحب حياته يهلكها؟ عندما يُمارِس شهواتها غير اللائقة، عندما يُشبِع شهواته حيث كان يلزم غير ذلك. ذلك ينصحنا أحدهم: "لا تتبع هواك" (راجع سي ١٨:٢٩)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

إن ملأت نفسك بالشهوة في اللذة،

تجعلك سخرية أعدائك [٣٠].

❖ ليس فقط هذا الضبط للنفس مستحق للمديح بالاعتدال في الطعام، وإنما أيضًا الاعتدال في الشهوة. إذ مكتوب: "لا تتبع أهواءك، بل أكبح شهواتك، فإنك إن أبحت لنفسك الرضا بالشهوة جعلتك شماتة لأعدائك" (راجع سي ١٨: ٢٩–٣٠). ويقول بعد ذلك: "الخمر والنساء تُضَلِّل الحكماء" (راجع سي ١٩: ٢). يُعَلِّمنا بولس الاعتدال في الزواج نفسه، فمن لا يكون عفيفًا في الزواج يُحسَب هذا نوعًا من الزنا، ويكسر قانون الرسول[2].

القديس أمبروسيوس

❖ الإنسان وهو مُتَقدِّم على كل هذه (المخلوقات) في الكرامة، لم يفهم وتجاهل تبعية الله والرغبة في أن يتشبَّه بخالقه، وصار عبدًا لشهوات الجسد. "إنه يُقارَن بالبهائم البليدة وصار يشبهها".

تارة يشبه **حصانًا شهوانيًا**، يصهل على امرأة صاحبه (إر ٥: ٨).

وتارة مثل **ذئبٍ خاطفٍ**، يتربَّص للغرباء (حز ٢٢: ٢٧).

وفي وقت آخر بسبب خداعه لأخيه، يجعل من نفسه **ثعلبًا خسيسًا** (حز ١٣: ٤).

حقًا توجد غباوة متزايدة، إذ يتشبَّه ذاك الذي خُلِقَ على صورة الخالق بالبهيمة التي بلا عقلٍ.

---

[1] *On John, Homily 67 : 1*

[2] *Letter 63 : 32*

إنه لا يعرف بنيانه منذ البداية، ولا يرغب في أن يفهم التدابير العظيمة التي صُنِعَت لأجله؛ على الأقل أن يتعلَّم كرامته منها، إنما لا يبالي بالحقيقة، ملقيًا عنه صورة السماوي، ليأخذ صورة الترابي. ولكيلا يبقى في الخطية، من أجله "الكلمة صار جسدًا، وحلَّ بيننا" (يو ١: ١٤)، "وأخلى نفسه حتى أطاع إلى الموت، موت الصليب" (في ٢: ٨).

إن كنتم لا تبالون بأصلكم الأول، فمن أجل الثمن الذي دُفِعَ عنكم اقبلوا على الأقل شيئًا من التفكير في كرامتكم، وتطلَّعوا إلى ما قُدِّم عوضًا عنكم، وتحقَّقوا مما تأهَّلتم له. لقد اُشتريتم بدم المسيح الثمين، فلا تكونوا عبيدًا للخطية. افهموا كرامتكم، فلا تتشبَّهوا بالبهائم البليدة.

"**طريقهم هذا عثرة لهم**" (مز ٤٨: ١٣ *LXX*). الله الذي يُدَبِّر شئوننا يعوقنا عن السلوك في الشر، فيضع عوائق وموانع حتى ننفر من الحياة غير المُتعقِّلة، بعد ذلك نبتهج بلساننا. القلب يُؤمَن به للبرّ، والفم يُعترَف بالإيمان به لخلاصنا (راجع رو ١٠:١٠). اضطهد بولس كنيسة المسيح، لقد سلبها، وضغط من جانبه بالشر (أع ٨: ٣)، وبعد ذلك ابتهج بفهمه، مُعلِنًا للمَجْمَع أن هذا هو المسيح (أع ٩: ٢٢)[1].

القديس باسيليوس الكبير

❖ "مثل الغنم للهاوية يُساقون؛ الموت يرعاهم" (مز ٤٩: ١٤).

هذا الذي يقود إلى السبي أولئك الذين يشبهون البهائم، ويُقارَنون بالقطعان البليدة مثل غنمٍ، التي بلا عقلٍ ولا قدرةٍ على الدفاع عن نفسها، وهو عدو نزل بهم إلى سجنه، وسَلَّمهم إلى الموت ليرعاهم. فإن الموت قد ملك عليهم من أيام آدم حتى قيادة موسى (رو ٥: ١٤)، حتى جاء الراعي الحقيقي وبذل حياته من أجل قطيعه، وأقامهم معًا وقادهم (يو ١٠: ٣-١٨) من سجن الهاوية إلى فجر القيامة، وسَلَّمهم للأبرار، أي لملائكته لكي يرعوهم.

"ويسودهم المستقيمون في الصباح (الغداة)". كل مؤمنٍ يصحبه ملاك مستحق أن يتطلَّع إلى الآب في السماء. هؤلاء المستقيمون إذن، يسودون عليهم عندما يتحررون من أقسى عبودية مُرَّة، ويسودونهم في الصباح، بمعنى عندما يتقدَّمون في شروق النور.

تأملوا في كل مجموعات الكلمات المكتوبة. عندما كان الإنسان في كرامةٍ لم يفهم، صار يُشبه بهائم بليدة. ذاك الذي له كرامة، ولم يعرف نفسه بسبب الخطية الساكنة فيه، صار يُشبه بهائم بليدة. لذلك إذ تَغَرَّب عن كلمة الله، وصار بهيمة عجماء، ساقه العدو مثل قطيع غير

---

[1] *Homily 19:8, (On Ps 48 LXX). Unto the End, A Psalm for the Sons of Core on the Prosperity of the Wicked.*

مُعتنى به، وألقى به في الهاوية، وسَلَّمه إلى الموت ليرعاه.

لذلك إذ يخلص من هذا، ويتحرَّر من الراعي الشرير (الموت)، يقول: "الرب راعي" (مز ٢٣: ١). لا يعود بعد موت بل حياة، وعوض السقوط تكون قيامة، وعوض الخداع يكون الحق.

"ومعونتهم تبلى في الهاوية" (مز ٤٨: ١٤ *LXX*). ربما يتكلم هنا عن الموت، إذ لا يمكن بكل عونه أن يحفظ من رعاهم، هذا الذي يُحَطّمه (المسيح) الذي له سلطان على الموت (عب ٢: ١٤)، فإن كل معونتهم قديمة وضعيفة. في ذلك الوقت معونة هؤلاء الذين خُدِعُوا في الفكر، وكانوا متشامخين بسبب الثروة أو المجد أو السلطان، يظهرون باطلاً.

"تبلى في الهاوية" إذ يتحقَّق ضعفهم. أو ربما معونة الأبرار الذين خلصوا بالرب تنحل في الهاوية، إذ لم ينالوا بعد الوعود، لأن الله أَعَدَّ لنا ما هو أفضل، وهو أن الذين سبقونا "لن يكملوا بدوننا" (عب ١١: ٤٠).

"إنما الله يفدي نفسي من يد الهاوية، لأنه يأخذني" (مز ٤٨: ١٥ *LXX*). واضح أنه يتنبأ عن نزول الرب إلى الجحيم، هذا الذي يخلص نفس النبي مع آخرين، ولا يبقى هناك[1].

القديس باسيليوس الكبير

لا تستمتع بالترف الزائد،

حتى لا تُلزم نفسك بنفقاتها [٣١].

❖ ماذا نفعل بخصوص هذه الحقيقة وهي أن الرسول نفسه قَدَّم لنا قائمة ضخمة من الرذائل، وأشار من بينها إلى السُكر وختمها بالتحذير من أن نأكل خبزًا مع من يخطئون بمثل هذه الأمور؟[2]

❖ إنه لأمر مثير للشفقة، مُذكِّرًا إيَّانا بمدى خطورة الأكل مع الذين هم يخطئون بالنهم حتى في بيوتهم[3].

القديس أغسطينوس

لا تصير شحَّاذًا بإقامة مآدب ولا تقترض مالاً،

وليس في كيسك شيء [٣٣].

بالنسبة للشره أو النهم أو شهوة البطن، فإن كثير من الآباء خاصة النُسّاك يحسبون ترويض شهوة

---

[1] *Homily 19:9, (On Ps 48 LXX). Unto the End, a Psalm for the Sons of Core on the Prosperity of the Wicked.*

[2] *Ep. 22:3.*

[3] *Ep. 39:5.*

البطن يهب نصرة على كل الأفكار والتجارب. وقد خَصَّص **القديس مار فيلوكسينوس أسقف منبج Mabbug** في ميامره الثلاثة عشر ميمرًا للحديث عن النهم. أبرز فيه أن شهوة البطن أكثر الأهواء دنسًا، تحرمنا من الفكر المُتعقِّل، وهي باب كل الشرور، تستعبد النفس كما الجسد، وتعوق الحنو، بكونها ضد الصوم فهي تُحَطِّم الصلاة وتُسَبِّب الخمول[1].

يُمَيِّز **مار فيلوكسينوس** بين الجوع وشهوة البطن، فالجوع هو عطية من الخالق تسند الصحة دون السقوط في شهوة البطن التي تُحَطِّم سلطان الإنسان وتستعبده لشهوات أخرى. خلق الله الإنسان إلهًا على بطنه، يقوتها ولا يُستعبَد لها.

يُقَدِّم لنا **مار فيلوكسينوس** مشكلة شهوة البطن خلال ثلاثة أمثلة خطيرة: **آدم** في بساطته خلال شهوة البطن (تك ٣: ٦)، **وعيسو** فقد باكوريته وبركاتها لنفس السبب (تك ٢٥: ٣٤)، **وشعب إسرائيل** خلال شهوة البطن عبدوا العجل الذهبي ونسوا الله (خر ٣٢: ١٩).

فيما يلي بعض مقتطفات من هذا الميمر:

- ❖ الشخص الذي يخنع تحت هذه الشهوة الدنيئة، يعجز عن أن يَقْبَل نير التلمذة للمسيح... ما أن تصير المِعْدَة سيدة على الجسد، حتى تأمر وتُخضع كل إرادته، وعوض الطريق الصاعد إلى السماء، تريه الطريق الآخر الذي ينحدر إلى الهاوية[2].
- ❖ شهوة البطن هذه أكثر دناءة من كل الأهواء. ما أن يصير الشخص خادمًا لها، ويحمل نيرها على كتفيه، لا تعود تسمح له بالراحة من خدمته لها. إنه يخدمها ليلاً ونهارًا، وترسله في كل موضعٍ تشتهيه مثل خادم مُرهِق، لا في طريقٍ نظيفة بل في طرقٍ مملوءة عثرات، وإلى موضع به أمور ضارة، محب شهوة الأشياء ليس لديه عينان ترى النور، لأنه حتى إن أراد ذلك، فإن ثقل الطعام يجعلانهما تظلمان. النهار بالنسبة له ليل، والليل موت مضاعف[3].
- ❖ خلق الله الحيوانات لأمرين، بينما كل ما لحياتهم هو الأكل، يقومون بعمل خدمة للجنس البشري، أما الإنسان النهم فيأكل ولا يعمل. بينما هو غيور لأجل المائدة، يكون مُتجرِّدًا من كل الأعمال الهامة. النفس التي تخدم البطن لا تُدرِك الله، إذ هي ميتة عن كل أفكار المعرفة، وعن التأمل في الله، حيث أن معرفة النفس تصدر عن استنارة الجسم وأعضاء الجسم. واستنارة الجسم تصدر عن

---

[1] *Robert A. Kitchen: The Discourses of Philoxenos of Mabbug, p xxxix.*

[2] *Discourse 10:1, 2.*

[3] *Discourse 10:3.*

تقليل الطعام، لكن بالتأكيد الإنسان النهم مُثقل بنيرين، وهما ظلمة الأفكار وثقل الجسد[1]

القديس مار فيلوكسينوس

من وحي سيراخ ١٨

أُسَبِّحُك يا أيها الخالق العظيم من أجل تدبيرك!

❖ اسمح لخليقتك الأرضية أن تقتدي بالخليقة السماوية، يا خالقي العجيب!
أقف مع كل المسكونة، كما في خورُس عاجزٍ عن التعبير عن تدبيرك العجيب!
تُقَدِّم للجسد الترابي احتياجاته، فيشبع ويرتوي، ولنفسي الحب والحنو والفرح والخلود.
تحتضنّي برعايتك، فلا يعوزني شيء.

❖ خطيتي حدرتني إلى الحرمان من الحياة؛
فتحت الهاوية فاهها لتبتلعني وليس من مُنقِذٍ.
نزلتَ إلى الأرض، وتجسدتَ لكي أقترب إليك.
قبلت الموت، لكي بقيامتك أطأ على الموت تحت قدمي!
قبلت الجراحات في جسدك، فألبسته المجد عِوَض العار والخزي.
وُضِعَ إكليل الشوك على رأسك، فأزهر وقَدَّم لي ورود سماوية.
ضُرِبَ جنبك بالحربة فأفاض دم وماء. بدمك طَهَّرتني أيها البار من خطاياي،
وبالماء وهبتني بروحك القدوس روح التبنّي.
كُلما تطلَّعتُ إلى تدبير خلاصك أَقِف في حيرة؛
من يقدر أن يصف حُبَّك ومراحمك؟!
قَدَّمتَ لي عفوًا كاملاً، وألبستني ثوب برّك.
لو بلغت أيامي ألف سنة فهي كقطرة ماء من بحر الأبدية، وذرة رمل في الصحراء.
كشفت لي عن طول أناتك وفيض رحمتك!

❖ بحُبّك لكل البشرية تُوَبّخ وتُؤدّب وتُدَرّب وتُعلّم،
وترد الخراف الضالة لا إلى جنة عدن،

---

[1] *Discourse 10:20.*

بل إلى الفردوس لتضمّها إلى خورُس السمائيين.

❖ لُطفك بالبشر لا يُوصَف، وعطاؤك لا يُقَدَّر.

هب لنا اللطف فنُقَدِّم لإخوتنا مما وهبتنا:

الكلمة العذبة مع العطايا الروحية والنفسية والمادية.

مهما قَدَّمنا، فإننا نغرف من مخازن حُبِّك لنغتني ونُقَدِّم لإخوتنا.

هب لنا طول أناتك، فلا ندين أحدًا قبل الأوان.

هب لنا من تواضعك، مهما قدَّمنا لإخوتنا من كرامة،

لن نبلغ الصف الأخير الذي حُجِزَ لك وحدك يا أيها المصلوب عنَّا!

❖ ارتفاعك على الصليب هو الدواء الوحيد لشفاء أمراض نفسي.

من أجلي قَدَّستَ نفسك وأنت القدوس،

وكعضوٍ في جسدك أنذر حياتي لك،

مشتهيًا أن تتقدَّس كل البشرية معي.

فَرِّح قلبي برجوعي مع كل البشرية إليك.

لنسمع صوتك العجيب:

اليوم تكونون معي في الفردوس.

ليصعد إليه قلبي الآن، ولا أؤجل حتى ولا إلى لحظة.

حقًا من الصباح إلى المساء يتغيَّر الزمن.

لقد أَشرقتَ عليّ يا شمس البرّ،

فلا أنتظر إلى المساء، بل أرتمى في أحضانك،

وأصرخ مع يعقوب أبي: "لا أطلقك إن لم تباركني!" (تك ٣٢: ٢٦)

❖ لتُرافِقني، فأَتمتَّع بحضورك الإلهي كل لحظات عمري.

لا أتبع أهوائي، لأن حُبَّك يُقَدِّسني.

من يكبح شهواتي، سوى شهوة التمتُّع بالاتحاد بك؟!

لا أُعانِي بعد من النهم، لأن خبز هذا العالم لا يهب الحياة.

لا أُنفِق على الملذات وموائد العالم،

لأن قلبي وفكري وحواسي وعواطفي وكل طاقاتي ممتصة بالكامل في حُبِّك!

الأصحاح التاسع عشر

حياة التدقيق

خُتِم الأصحاح السابق بمقدمة عن النفس العاقلة وضبطها من جهة الشهوات والترفه والنهم...

قد يظن الإنسان أنه يُمارِس ضبط النفس، سالكًا بتعقُّلٍ، لأنه لا يسقط في الزنا ولا السرقة ولا الغضب ولا الكراهية ولا الأفكار الشريرة الخ. غير أن ابن سيراخ يوضح جوانب يتجاهلها كثيرون، أو يحسبون أنها تافهة لا تفسد أعماقهم، وبالتالي لا تقف عائقًا عن خلاصهم. أبرز ابن سيراخ الآتي:

١. يتجاهل البعض ما يُسَمُّونه **بالصغائر**، مثل الكذب الأبيض أو المزاح أو الاستخفاف بالغير بحجة أنه نوع من التسلية أو المزاح أو اللهو. ويُظهر الوالدان فرحهما بطفلهما أنه بدأ يتكلم ولو كان ينطق بكلمة غير لائقة. لذا يُطالِبنا ابن سيراخ بالتدقيق في الأمور الكبيرة والصغيرة [١- ٥].

٢. **التهاون في شُرْب الخمر**، خاصة في أيام الأعياد، بكونه تعبيرًا عن الفرح، مما قد يصل الإنسان إلى حالة من السُكْرِ [١]. وأحيانًا يظن الشخص أنه يمارس السخاء وكرم الضيافة بالضغط على الضيف أن يشرب خمرًا.

٣. **السلوك بدالة وفي تسيُّبٍ مع الجنس الآخر** تحت ستار المحبة البريئة [٢]. ومعاشرة زانية أو زانٍ بدعوة أنه لا يتأثَّر بمعاشرة الزناة [٢].

٤. **التسرُّع في الثقة بالآخرين** بغير فحصٍ ودراسة والتأكُّد من شخصية من يتعامل معه [٤].

٥. **من يفرح بالإثم** الذي يرتكبه هو أو غيره، وكأن الطهارة أو العفة أمور لا وزن لها في فكره [٤].

٦. **كثرة الكلام** بلا ضابط [٦] ونقل ما يسمعه للآخرين [٧]، فيصير أمًا ولودًا تلد كلامًا أحمق [١١].

٧. **عدم التدقيق في الصمت كما في الكلمة** التي ينطق بها، إذ يليق بكلاهما أن يتقدَّسا [١٢].

٨. **التسرُّع في الغضب** على إنسانٍ ما، بناء على كلمة نقلها أحد إليك [١٣- ١٧].

٩. الاهتمام بالمعرفة النظرية، دون **ترجمتها في حياته العملية** [٢٠- ٢٢].

١٠. الحُكْم على شخص من **تصرُّفاته الظاهرة**، وقد تكون مخادعة [٢٢- ٢٣].

١١. مع اهتمامنا بالحياة الداخلية نراعي **ترجمتها خلال كل مظاهر حياتنا** [٢٦- ٢٧].

١. التدقيق في الأمور الكبيرة والصغيرة [١-٥].

٢. التدقيق في الكلام [٦- ١٢].

٣. عدم التسرُّع [١٣- ١٧].

٤. الحكمة الحقيقية والمظاهر الخارجية [١٨-٢٧].

١. التدقيق في الأمور الكبيرة والصغيرة

يبدأ بالتهاون في شرب الخمر، بينما تؤكد التجربة العملية أن حياة السكير مملوءة بؤسًا، والتهاون في الأمور الجسدية (الجنسية) غير اللائقة مأساوية، ومعاشرة الزناة تفسد حياته. التهاون في هذه الأمور يسبب خسائر مادية وتضليلاً للعقل، وفقدان السمعة، وفساد الجسد، وطياشة النفس، والسقوط تحت الدينونة. هذا كله يدعونا إلى ضبط النفس بطريقة صحية.

العامل السكير لا يصير غنيًا،

والذي يحتقر الأمور الصغيرة يسقط شيئًا فشيئًا [١].

يقول الرسول: "لا تكن في ما بعد شراب ماء، بل استعمل خمرًا قليلاً من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة" (١ تي ٥: ٢٣). كان الخمر مسموحًا به في أقل الحدود كدواءٍ، وفي بعض المناطق الباردة من أجل البرد القارص.

يقول **العلامة ترتليان** إن تيموثاوس [كان ممتنعًا عن الخمر ليس عن قانون، وإنما بسبب تكريسه.] فالخمر في ذاتها ليست مُحرَّمة بقانون، لكنها غير لائقة خاصة بالنسبة للمُكرَّسين لخدمة الرب. ويرى **القديس إكليمنضس السكندري** أن تيموثاوس استخدم الخمر كمقوٍ يناسب جسده المريض الخائر، أما تأكيد استخدام "القليل" منه فخشية أن ينسى المرضى بكثرة الخمر[1].

كان البعض يستخدمه كمشروبٍ للضيافة وفي أضيق الحدود لئلا يعتاد الأطفال عليه وبدون حدودٍ، إلاّ أن الكنيسة فضَّلت منع تعاطيه، لاسيما وأن الامتناع عنه لا يُمَثِّل ضررًا على الإنسان، في حين أن تعاطيه قد يتسبَّب في إدمانه، ومشكلة الخمر أنه عندما يصل بالشارب إلى حدّ السكر، يتحوَّل إلى شخصٍ آخر يفتقر إلى الوقار والاتزان والشعور بالمسئولية، بل وعدم الشعور بخطورة السُكْرِ. إنه يُفقِد الإنسان سترته، ويُعَرِّيه حتى أمام بنيه، كما حدث مع نوح (تك ٩: ٢١). يقول **القديس چيروم:** [لا يجوز لأحد أن يقول بأن السكر ليس بخطية، نقرأ عن نوح أنه سكر مرة، ولكن الله يُحَذِّرنا من أن نظن فيه أنه سكير ومدمن للخمر[2].] كما يقول: [ساعة واحدة سكر فيها عرّت (نوحًا) الذي ظل مستترًا طوال ستمائة عام بالوقار[3].] كما يقول: [بعد سكره تعرَّى جسده، فإن تدليل النفس يؤدّي في النهاية إلى السقوط في الشهوة، فالبطن تتخم أولاً وعندئذ تثور الأعضاء[4].] ويقول

---

[1] *Paedagogus, 2: 2.*

[2] *On Forgiveness of Sins and Baptism 12.*

[3] *Ep. 69: 6.*

[4] *Ep. 22.*

القديس أمبروسيوس: [يا لسلطان الخمر! فقد جعلت ذاك الذي لم تغلبه مياه الطوفان أن يصير عاريًا![1]]

❖ كان الرهبان يحتفلون بأحد الأعياد في الإسقيط، وأعطوا أحد الشيوخ كأسًا من الخمر، فرفضها قائلاً: "ابعدوا هذا الموت عني". فلما رأى الآخرون الذين كانوا يأكلون معه ما فعله، رفضوا هم أيضًا أن يأخذوا من الخمر[2].

فردوس الآباء

شهوة السُكْرِ تجعل الإنسان عاجزًا حتى على شراء الطعام اللازم. يقول الحكيم إن الخمر والنساء المستهترات يجعلون الشخص مقهورًا (أم ٢٣: ٣١-٣٣).

من يضبط نفسه لا يُبَدِّد أمواله في السُكْرِ، ولا يتهاون حتى في الأمور الصغيرة. يقول **القديس أغسطينوس:** "الأمانة في الأمور الصغيرة ليست بالأمر الصغير". يرى **القديس أغسطينوس** أن ربنا يسوع كثيرًا ما يعلن "اسهروا" (مت ٢٤: ٤٢؛ ٢٥: ١٣؛ ٢٦: ٣٨، ٤١؛ مر ١٣: ٣٧)، كما يقول: "سيروا ما دام لكم النور، لئلا يدرككم الظلام" (يو ١٢: ٣٥)، إذ يمنعنا من الاقتراب التدريجي للحية التي تبث الشرّ فينا[3].

❖ ليتنا لا نستهين بخطايانا لأنها ضئيلة، بل نخشاها لأنها كثيرة. قطرات المطر صغيرة، لكن لأنها كثيرة يمكن أن تهز جبالاً[4].

الأب قيصريوس أسقف آرل

❖ كما أن المياه المتجمعة في بطن السفينة والتي ترتفع تدريجيًا وبصورة لا نشعر بها يكون لها نفس المفعول كما لو كانت سفينة في وسط الإعصار. كذلك أيضًا تكون الالتهابات صغيرة عندما تظهر البثور منثورة على أعضاء الجسد، ولكن عندما تنتشر ولا يمكن إحصائها، قد تُدَمِّر الحياة كما لو كانت جرحًا واحدًا كبيرًا وخطيرًا يؤلم الصدر. لذلك نقرأ المكتوب: "**العامل السكير لا يصير غنيًا والذي يحتقر اليسير يسقط شيئًا فشيئًا**". الذين يهملون الحزن والتوبة ولا يتجنَّبون الخطايا الصغيرة، لا يسقطون فقط من حالة البرّ، بل ينحدرون قليلاً قليلاً وبعيدًا حتى السقوط التام.

---

[1] *Conc. Virgins 1: 9 (53).*

[2] فردوس الآباء، ج ٣، ص ٤٠١.

[3] *The Catholic and Manichaean Ways of Life, FOTC, vol. 56, p. 37-38.*

[4] *Sermons, FOTC, vol. 3, p. 199-204.*

❖ الذين يتعدُّون على الدوام بخطايا صغيرة، عليهم أن يفكروا جيدًا أنه في بعض الأحيان يتم ارتكاب الخطايا الأسوأ في الأمور الصغيرة أكثر منها في أمورٍ أكبر. إننا نتعرَّف على الخطايا الأكبر بأكثر سرعة، وهكذا يمكن الشفاء منها بسرعة أكثر. بينما الخطايا الأصغر لا نتطلَّع إليها بل ولا نعتبرها خطايا. وهكذا تنمو وتصير أسوأ، إذ نبدي اهتمامًا قليلاً عند ارتكابها. كذلك يحدث دومًا أنه عندما تعتاد النفس على هذه الصغائر، لا تعود تهاب الكبيرة منها[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ أضاف (القديس زوسيما): قال القديس أغناطيوس حامل الإله: إنني في حاجة إلى الوداعة التي بها أهدم كل قوة رئيس هذا الدهر. إنّ علامة رفضنا للعالم هو ألاّ نضطرب لشيءٍ فيما بعد. فقد يحدث أنه بعد أن يترك الإنسان الملايين يرتبط بإبرة صغيرة ارتباطًا مريضًا، حتى أنه يضطرب من أجلها. فالإبرة قامت مقام الملايين، وهكذا يصير عبدًا لهذه الإبرة أو للقلنسوة أو لرداءٍ أو لكتابٍ، فلا يعود بعد عبدًا لله![2]

فردوس الآباء

الخمر والنساء تُضلل العقلاء،

والذي يُعاشِر الزناة يزداد طياشةً [٢].

❖ يظهر مدى شرّ السُكْرِ بوضوح في حالة لوط وبنتيه. فعندما سكر بالخمر نام مع بنتيه ولم يبالِ بذلك. فرعون أيضًا إذ كان مخمورًا علَّق الخباز على صليب.

أضف إلى ذلك الشعب اليهودي، نقرأ عنه: "جلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب" (خر ٣٢: ٦). لقد شربوا خمرًا بكثرة، وبعد ذلك طلبوا صنع أصنام وفي تكريمهم لهذه الأصنام بدأوا يرقصون، يثنون أطرافهم في حالة هياج بحركات من كل نوعٍ. أيضًا هيرودس، إذ صار محمومًا من الخمر الكثير، أمر بقتل القديس يوحنا المعمدان مكافأة لرقصة واحدة قامت بها فتاة[3].

الأب قيصريوس أسقف آرل

العفن والدود يرثانه،

ونفسه الطائشة تُستأصل [٣].

---

[1] البابا غريغوريوس (الكبير): الرعاية، ج ٣، ف ٣٣، عظة ٣٤، ترجمة جورج فهمي حنا، ٢٠٠٤.

[2] فردوس الآباء، ج ٣، ص ١٠٨.

[3] *Sermons, FOTC, vol. 1, p .234-235.*[3]

❖ يُفهَم من الزنا جميع الشهوات الجسدية والحيوانية. فالكتاب المقدس يتحدث عن عبادة الأوثان كزنا، ويدعو الرسول بولس الطمع عبادة أوثان وبالتالي يكون زنا. إذن كل شهوة شريرة تُدعَى بحق زنًا، لأن الروح تفسد بتركها الشريعة السامية التي تحكمها، وتبيع شرفها بشهوة دنيئة لا تتناسب مع سمو الروح[١]!

القديس أغسطينوس

❖ بطلت عادة الزواج من الأخوات منذ وقت إبراهيم. وبطل إقامة عقد زواج من زوجات عديدات منذ أيام الأنبياء. وكما نقرأ: "لا تتبع أهواءك، بل اكبح شهواتك" (٨: ٣٠). وفي موضع آخر: "ليكن ينبوعك مباركًا وأفرح بامرأة شبابك" (أم ٥: ١٨)، إذ تمنع بوضوح تعدد الزوجات. وبوضوح يعطي إرميا اسم حصنًا معلوفة على الذين يشتهون نساء أخريات[٢].

الأب ميثوديوس

❖ قبل كل شيء يليق بالراهب أيضًا أن يمتنع عن مجالس النساء وشرب الخمر، لأن الخمر والنساء تضلل حتى الحكماء (راجع سي ١٩: ٢)[٣]

القديس باسيليوس الكبير

من يُسرِع في الثقة، فهو غير حكيم في القلب،
ومن يخطئ فهو مجرم إلى نفسه [٤].

❖ قلبي يتهلل بك يا ابني العزيز، الذي يحرسك هو الله الأبدي والرب يسوع المسيح! لا تُصَدِّق كل الناس، ولا تضع ثقتك في الجميع، ولا تدع أحد يتفوَّق بالمجاملة والإطراء. يوجد كثيرون يخدمون الشيطان، "من تسرَّع في الثقة، فهو خفيف العقل..." (راجع سي ١٩: ٤)[٤].

القديس أغناطيوس الأنطاكي

من يفرح بالإثم يُدَان [٥].

٢. التدقيق في الكلام

يُحَذِّر **القدِّيس مار يعقوب السروجي** النساء كما الرجال من الثرثرة في الكنيسة المُقَدَّسة. ضبط

---

[١] أغسطينوس في شرح الموعظة على الجبل طبعة ٦٨ ص ٩٢.

[2] *Methodius: Symposium or Banquet of the Ten Virgins 1:3.*

[3] *A Dis Course On Ascetical Discipline*

[4] *The Epistle of St. Ignatius to Hero, a Deacon of Antioch, chapter VI*

اللسان يتطلَّب عدم الثرثرة، وعدم نقل الكلام لأي إنسانٍ مهما كان صديقًا لك، والالتزام بالحيطة والتحفظ. الاستخدام اللائق باللسان يتجلَّى في الآتي:

١. تحاشي الثرثرة، يحفظنا من الشر.

٢. الحذر من نقل ما نسمعه للغير، إلا إن كان في الصمت ضررًا وخسارة وظلمًا لإنسانٍ!

٣. لتكن أعماقنا أشبه بمقبرة ندفن فيها ما نسمعه؛ لئلا نتمخض بكلمة تصير جنينًا للشرِّ.

❖ صادفني العالم وهو حامل الويلات ليوزِّعها لي. ربِّي، لا آخذ من عطيته المملوءة مضرات. **في العالم التقتني الثرثرة** والضجة مع الشتائم؛ أعطني كلمتك لأجد في صُحْبَتِها الهدوء. إنه بحر ثان، وها هو يُقلِقُني بعواصفه. يا ميناء الحياة، أعطني الراحة في موضعك النقي. العالم حمأة، ومن ينزل إليه يُنَتِّن نفسه. ربِّي، بتعليمك اغسلني لأنني مُدَنَّس بالعالم[١].

❖ الفريسي الذي كان بارًا حسب الناموس جمُلَ في عيني نفسه، ووقف ليذكر حسناته. نظر إلى العشار الذي صعد أيضًا ليُصَلِّي، واحتقره ورذله، ووجَّه إليه كلامًا ساخرًا. شكر الرب بروح مملوء ثرثرة، وقارن نفسه بالعشار، ووجد أنه أعظم منه. قال: اللهم أشكرك لأنني لا أُشبه هذا العشار، لأنه نسي أنها كانت صلاة (لو ١٨: ١١)[٢].

❖ تجلس النساء في هيكل الصلوات المقدس (الكنيسة)، وفمهن مفغور بالكلام الزائد. يصرخ الأنبياء ليُعَلِّموا الأرض الصالحات، وهن يثرثرن بأخبار باطلة غير حسنة. يعمي الشيطان نفسُه عيون البشر، وفي كل الفرص يحاول أن يقتلهم. وجد المارد بأن كل واحدٍ يهمس بهدوء في الصلوات بينه وبين الرب، وبدل مسيرة الصلوات وضع همسات الأخبار الباطلة في فم النساء. أيتها الشقية اهمسي في الصلاة، واكشفي جرحَك للطبيب الخفي، الذي يضمد الجرح ولا يفضحه... يريد الشرير أن يُعَكِّر **بالثرثرة** هذا العمل الذي يُضَمِّد جراحات **جميع الخطاة**. يجعل المرء **يثرثر مع قريبه في الهيكل المُقَدَّس** ليسرد أخبارًا باطلة بدون فائدة. يجمع الشيطان ويجلب بعض الكلمات من الفضلات التي تركتها الضلالة في البشر. يُذَكِّرك بكلمات كنتَ قد نسيتَها قبل أن تدخل حتى تنطقها في وقت الصلوات[٣].

---

[١] الميمر ٦٨ على الآخرة والدينونة المخيفة (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

[٢] الميمر ١٣ على الفريسي والعشار (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني) الميمر ١١، على الفريسي والعشار اللذين صعدا إلى الهيكل ليصليا، قبطي.

[٣] الميمر ١٨٢ على الإرشاد (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني) الميمر ٥، لأجل الوعظ، يقرأ يوم الخميس من الجمعة

القديس مار يعقوب السروجي

يرى مار يعقوب السروجي لسان المؤمن المقدس أُمًّا ولودًا، لا يلد ثرثرة بل تسابيح لله خالق:

١. لا يكفّ عن إنجاب تسابيح جديدة، لا من جهة الألفاظ، بل من جهة سمتها كتسبحة حبٍّ لا يَقدُم.
٢. كانت الصخرة التي تابعت الشعب في البرية تفيض عليهم بمياهٍ جارية حيَّة، هكذا يلد اللسان المُقَدَّس أنهار مياه حيّة.
٣. لا يليق بلسان المؤمن أن يكون كالعبد الكسلان الذي أخفى فضة سيده في التراب، ولم يُتاجِرْ بها، فلم تربحْ (مت ٢٥: ١٤-٣٠).
٤. إن توقَّف اللسان عن التسبيح، فإن الله يدعو الحجارة أن تُسَبِّحَه، كما حدث يوم صلبه حيث توقَّف البشر عن التسبيح، فانطلقت الشمس والقمر والأرض والصخور والقبور تسبحه، كل منها بلغتها الخاصة بها.

والذي يكره الثرثرة تَقِلّ خطيته [٦].

لم يخلق الله اللسان للثرثرة، بل لنضعه بين يديه فيُقَدِّسه، ويجعل منه قيثارة روحية يعزف عليها روحه القدوس سيمفونية حُبّ مُفرِحة. الله مهتم بلسان الإنسان، يُقَدِّم له حراسة سماوية، ولكن ليس قسرًا، بل بناءً على طلب الإنسان.

❖ البشر مخلوقون ليُسَبِّحوا كثيرًا، **ولعلهم يذكرون التسبيح كل يومٍ بفيضٍ!** الشمس النيّرة ليست نيّرة لنفسها أو تسير لنفسها، لكن لها نورًا لتُنِير البشر.

ولأجلهم صارت النيرات (الكواكب) في الغلاف الجوي، وينتفع (البشر المستنيرون) بالأيام والليالي.

للبشر يوجد التمييز والمعرفة والكلمة والصوت، **ليعطوا التسبيح للعلي في موضعه.**

فم الإنسان متقن، كأنما لتسبيح الرب، ومن يتوقَّف عن التسبيح يصير ناكرًا (للجميل).

ولهذا لك الفم لتُسَبِّح به وتشكر به وتهلل به وتبارك به.

سَبِّح، لأن لك الكلمة المُسَبِّحة، وهَلِّلْ، لأن لك الصوت المملوء أنغامًا.

اشكرْ، لأن لك الذهن والتمييز، وبارك، لأنك صرتَ إناء ناطقًا وغير صامتٍ.

لم تكن شيئًا، وجَعَلَتْك المراحم شيئًا عظيمًا... فاشكرْ بعجبٍ، لماذا أنت ساكت؟

ادخلْ إلى ذاتك وانظر إلى شخصك في داخلك، **ففيك توجد كل عجائب القدرة الخالقة**[١].

الثانية من الصوم المقدس، قبطي.

[١] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان ترجمة دكتور سوني بهنام).

❖ ربِّي ليفرح بك الفم الحقير الذي يُهَلِّلُ لك، واللسان الذي يُنشِدُ تسبيحك وهو لا يستحق.
ربِّي، ليفرح بك المتكلم أيضا والسامعون، لأنك أبهجتهم بميلادك، لك التسبيح[1].

❖ صنع له فمًا يُسَبِّح الربَّ ربَّه، وبه يتناول الأطعمة لكل جسده[2].

القديس مار يعقوب السروجي

لا تُكَرِّر أبدًا كلمة،
فلا تكون خاسرًا قط [٧].

لا تُخبِر بها صديقًا أو عدوًا،
ولا تكشفها ما لم تخطئ إن كتمتها [٨].

قد يسمعك أحد ويحترس منك،
ويبغضك إذا حان الوقت [٩].

هل سمعت كلمة؟ فلتمت عندك.
تشجَّع! فإنها لن تجعلك تنفجر [١٠].

❖ سمعت كلمة من إنسانٍ وهو في حالة غضبٍ، متألم وممتعض؛ دع الكلمة تموت فيك. لماذا تُكَرِّرها؟ لماذا تُعلِنها؟ إنها لا تُمَزِّقك إن تركتها في داخلك. على أي الأحوال، تكلَّم مع صديقك الذي يريد أن يجعلك عدوًا لصديق آخر لك. تكلم معه وعالجه بدواءٍ مسكنٍ مثل نفس مريضة.
قل له: لماذا تريدني أن أصير عدوًا لذاك الإنسان؟ قد يجيبك: إنه عدوي!
قل له: أتريدني أن أكون عدوًا لعدوك؟ إنني أريد أن أكون عدوًا لخطيتك. الذي تريدني أن أكون عدوه هو إنسان. يوجد عدو لكما أنتما الاثنان وينبغي أن أكون عدوًا له إن كنتُ صديقًا لك.
يجيبك: من هو هذا العدو الآخر الذي لي؟
- إنه شرُّك.
- وما هو شرّي؟
- البغضة التي بها تكره صديقك.

بهذا كن طبيبًا. فالطبيب لا يحب المريض ما لم يكره مرضه. إنه يحارب ضد الحمى ليحرر

---

[1] الميمر ٢٠٣ على ميلاد ربنا (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني)، الميمر ١١، على ميلاد ربنا بالجسد، يقرأ قبل بخور باكر، قبطي.

[2] الميمر ٧١ اليوم السادس.

المريض منها. لا تحب رذائل أصدقائك إن كنت تحبهم[1].

الأب قيصريوس أسقف آرل

❖ لست أعرف من أين سقط هذا المرض على البشر. صرنا ثرثارين، لا نُبقِي شيئًا في ذهننا. اسمع نصيحة حكيم، قائلاً: "هل سمعت كلامًا؟ ليمت عندك، وتشدَّد. فإنه لن يجعلك تنفجر" (راجع سي ١٩: ١٠) مرة أخرى: "أمام كلمة يتمخض الأحمق، كما تتمخض الوالدة بالجنين" (راجع سي ١٩: ١١). إننا مستعدون لنصبّ اتهامات، ومهيؤون للإدانة. فإنه وإن لم نرتكب شيئًا شريرًا آخر، هذا يكفي لتدميرنا، ويحملنا إلى جهنم، ويشغلنا بربوات الشرور. ولكي تعرف هذا بالتأكيد، اسمع ما يقوله النبي: "تجلس تتكلم على أخيك" (مز ٥٠: ٢٠).

القديس يوحنا الذهبي الفم

أمام كلمة كهذه يتمخَّض الأحمق،
كما تتمخَّض الوالدة بطفلٍ [١١].

كالسهم المغروز في لحم الفخذ،
هكذا الكلمة في جوف الغبي [١٢].

❖ الإنسان بجسده قابل للموت، أما بذهنه وكلمته فهو خالد.

في الصمت ترى عقلك، ولكن عندما تستخدم عقلك، فإنك تتكلم في داخل نفسك. لأنه أثناء الصمت يلد العقل الكلمة، وكلمة الشكر التي تقدم لله هي خلاص الإنسان[2].

❖ من يتكلم بغباء ليس له عقل، إذ يتكلم دون أن يفكر في كل الأمور. لذلك امتحن ما هو مفيد لك، لأجل خلاص نفسك، لكي تفعله[3].

❖ الكلمة العاقلة التي تفيد النفس هي عطية من قبل الله، أما الكلمة الفارغة التي تبحث في مُجَرَّد مقاييس السماء والأرض، والبعد بينهما، وأحجام الشمس والنجوم، فإن الذين يعملون في ذلك... يكونون كمن يُخرِجون الماء بمنخل، لأن البشر لا يقدرون أن يكتشفوا (كل) هذا[4].

القديس أنطونيوس الكبير

---

[1] *Sermons, FOTC, vol. 3, p. 134-138.*

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٠٧.

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٠٨.

[4] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٠٩.

٣. عدم التسرُّع

عند سماعك أن شخصًا يتحدث عنك بشيء ردي، يُستحسن الحديث معه مباشرة في محبةٍ ووداعةٍ، مع عدم الحديث مع الآخرين عما سمعته.

اسأل صديقك، فلعله لم يفعل شيئًا،

وإن كان قد فعله قد لا يعود يفعله [١٣].

يحثنا ابن سيراخ على الدقة في فحص الأمور. بروح المحبة والحكمة إن سمع عن صديقٍ له أو جارٍ تحدث عنه شرًا، عليه أن يفحص الأمر بدون انفعال. بحكمة يتحدث مع الصديق أو الجار حتى لا يكرر ذلك بخصوص أي شخصٍ آخر. ليسلك دائمًا حسب شريعة العليّ [١٧].

اسأل جارك لعلَّه لم يقل شيئًا،

وإن كان قد قال، ربما لا يُكرِّر القول [١٤].

اسأل صديقك، فغالبًا ما تكون افتراءً،

ولا تُصَدِّق كل كلمة (سمعتها) [١٥].

❖ إن كان أحد يتهم شخصًا أنه أساء إليه، ليته لا يحتفظ بذلك في ذهنه، سواء كان ذلك ضد قريبه أو ضدنا نحن. إنني أطلب منك إحسانًا، أن تأتي إلينا، وتقدم الاتهام وتتقبَّل منا الدفاع عن أنفسنا. قيل: "اسأله لئلا يكون ما سمعته عنه لم يقله. اسأله لئلا يكون لم يفعل (ما تتهمه به). وإن كان قد فعله فلا يعود يكرر ذلك". فإننا إما أن ندافع عن أنفسنا أو إن كنا مخطئين نعتذر ونسعى ألاَّ نسقط في ذات الأخطاء. هذا لنفعك ولنفعنا، لأنك ربما اتهمتنا بلا سببٍ، وعندما تعرف حقيقة الأمر تُصَحِّح ما ظننته؛ ونحن إن كنا قد أسأنا إليك بغير معرفةٍ نُصلح من شأننا[1].

❖ "أَنزِل وأَرَى هل فعلوا بالتمام حسب صراخكها الآتي إليّ وإلا فأَعلَمُ" (راجع تك ١٨: ٢١). ما يقوله الأب هو هذا: "جاءني تقرير لكنني أريد مرة أخرى أن أختبر هذه الإشاعة بأكثر دقةٍ على ضوء الوقائع. لست أفعل هذا لأنني لا أعلم إن كنت أفعل ذلك، لأنني أريد أن أعلّم البشر ألاَّ يهتموا بالكلام وحده، ولا أن يصدقوها بإهمال إن نطق بها أحد ضد آخر". يليق بالبشر أن يصدقوا ما يسمعونه وذلك بعد أن يقوموا بفحصٍ دقيقٍ، ويجدوا البرهان على ضوء الحقائق. هذا هو السبب أن الله قال في موضع آخر: "لا تصدق ما يُقال" (راجع سي ١٩: ١٥). لأنه ليس شيء يخرّب

---

[1] *Homilies on 2 Thessalonians, hom. 4.*

حياة البشر مثل تصديقه لكل ما يقوله الناس[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

قد يزلّ إنسان بغير عمدٍ،
فمن الذي لا يخطئ بلسانه؟ [١٦]

اسأل جارك قبل أن تُهدِّده،
ودع شريعة العليّ تأخذ مجراها [١٧].

❖ نقرأ في الأسفار المقدسة أيها الأعزاء المحبوبين أن المشورة الصالحة تحفظ أولئك الذين هم تواقين إلى خلاص نفوسهم، كما تقول الكلمة الإلهية: "المشورة المقدسة تحفظك" إن كانت المشورة المقدسة تحفظ نفسًا، فإن المشورة غير المقدسة ليس فقط تفشل في حفظها بل وتقتلها[2].

الأب قيصريوس أسقف آرل

٤. الحكمة الحقيقية والمظاهر الخارجية

في شيءٍ من الاستفاضة يُحَذِّرنا ابن سيراخ من المظاهر المُزيّفة للحكمة بكونها نوع من الدهاء تعمل في خدمة الظلم والشرّ تحت ستار مظاهر خادعة. إنها لا تُمارَس بمخافة الربّ، ولا تهتم بحفظ ناموس الرب عمليًا وبجدية من أعماق القلب.

كل الحكمة هي مخافة الربّ،
وفي كل حكمة إتمام الناموس [١٨].

لا تقف الحكمة عند مجرد إرشاد الخطاة. فالإنسان الحكيم يلتزم بحفظ ناموس الرب ويسلك بخوف الربّ.

ليست الحكمة هي معرفة الشرّ،
وليس التمييز في مشورة الخطاة [١٩].

❖ المملوئون شرًا وقد أسكرهم الجهل لا يعرفون الله، إذ هم ليسوا سامين في الروح. أما الله فلا يُعرَف إلا بالذهن (أي بسمو فهمنا الروحي)، ومع إنه غير منظور، لكنه يُدرَك بوضوح في المنظورات، مثل الروح التي تظهر في الجسد. وكما أن الجسد لا يقدر أن يعيش بدون الروح، هكذا لا يمكن

---

[1] *On the incomprehensible Nature of God, FOTC, vol. 72, p. 233-243.*

[2] *Sermon 45:1.*

لشيء منظور وموجود أن يثبت بدون الله[1].

القديس أنطونيوس الكبير

يوجد ذكاء رجس،
ويوجد غبي تعوزه الحكمة [٢٠].

خير أن يكون الإنسان جاهلاً لكنه يحفظ نفسه من الخطية، عن أن يكون صاحب معرفة ويسيء استخدامها

الإنسان الخائف (الله) وينقصه الفهم
خير من وافر الفطنة وهو يتعدَّى الشريعة [٢١].

ورُبَّ مهارة مُحكمة وهي ظالمة،
ورُبَّ رجل يخدع ليثبت حقه [٢٢].

رُبَّ صانع شرٍ يسير منحنيًا في حزنٍ،
وباطنه مملوء خداعًا [٢٣].

يحجب وجهه ويتظاهر أنه أصم،
وحين لا يشعر به أحد يتغلَّب عليك [٢٤].

وإن مُنِع عن الخطأ لأنه يفتقر إلى القوة،
يصنع الشر فيما بعد متى حانت له الفرصة [٢٥].

❖ كثيرون لهم مظهر التواضع، لكن ليس لديهم الفضيلة. كثيرون يُقَدِّمون المظهر من الخارج، أما في داخلهم فيحاربون ضدّها. يقومون بعمل تمثيلية للتواضع، لكنهم يرفضون الحق، لأنه "رُب شخص يسير منحنيًا تحت وطأة الشرّ، وباطنه مملوء مكرًا" (راجع سي ١٩: ٢٣). مثل هذا الشخص بعيد كل البعد عن التواضع[2].

القديس أمبروسيوس

حقًا يليق بنا أن نُرَكِّز على حياتنا الداخلية، لأنها تنعكس على سلوكنا الظاهر. وفي نفس الوقت لا نتجاهل المظهر الخارجي، إذ يمكن أيضًا أن يكشف عن الحكمة الداخلية.

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٥٤١.

[2] *Letter to Constantius*.

من مظهره يُعرَف الإنسان،

ومن ملامح وجهه يُعرَف العاقل عندما تقابله [٢٦].

لباس الإنسان وطريقة ضحكه ومشيه تشير إلى من هو [٢٧].

الجديّة مع اللطف في كل المظاهر والملبس والتحرُّكات حتى طريقة المشي والضحك تكشف عن شخصية الإنسان. فلا يليق بالإنسان الحكيم أن يسلك مثل الشخص المهرج أو المازح.

لا يحتاج المؤمن الحقيقي أن يشهد له أحد عن تقواه وسلوكه في المسيح يسوع، إنما حتى مظهره الخارجي أو لغة جسمه المقدس مثل ملبسه وابتسامته وطريقة مشيه تشهد له وهو صامت. فالمسيحي الحقيقي مُمَيَّز عن غيره مُقدَّسًا في داخله وفي سلوكه الخارجي.

❖ يظهر تعقل النفس الحقيقي وفضيلتها في نظرات الإنسان وطريقة مشيه وصوته وابتسامته وأحاديثه وأخلاقه. فإن كل ما في مثل هذه النفس يكون قد تغيَّر، وصار على أفضل وجه، ويكون فكرها المحب لله حارسًا ساهرًا عليها يمنع دخول الأفكار الشريرة المُخجِلة[١].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ ما أن نُنقَش في مجلس الكنيسة الروحي، بحق لا نسمح لأنفسنا أن نُمارِس ذات الأفعال التي يُمارِسها الغير، وإنما دائمًا نُعلِن ضبط لساننا ونقاوة ذهننا، وتتعلم أعضاؤنا ألا تتعهَّد عملاً غير نافع للنفس.

ماذا أقول؟ نستخدم اللسان فقط في التسابيح والحمد وفي قراءة الأحكام الإلهية والأحاديث الروحية. كما يُقَال: "لا تخرج كلمة رديئة من أفواهكم، بل كل ما كان صالحًا للبنيان، حسب الحاجة، كي يعطي نعمةً للسامعين، ولا تُحزِنوا روح الله القدوس الذي به ختمتم" (أف ٤: ٢٩-٣٠). أتعلمون أنكم إن فشلتم في هذا تُحزِنون الروح القدس؟ لذلك أطلب إليكم أن تحاولوا ألا تفعلوا شيئًا يُحزِن الروح القدس.

إن كان يلزمنا أن نخرج، ليتنا لا نشترك في اجتماعات خطيرة متجاوزة الحدود، مملوءة غباوة. بالحري لا تُفَضِّلوا شيئًا عن كنيسة الله، بيوت الصلاة، والمناقشة في الاجتماعات الروحية. ليكن كل عملٍ جليلاً للغاية. كما يُقَال: "لباس الرجل وضحكة الفم ومشي الإنسان تخبر بمن هو" (راجع سي ١٩: ٢٧). الهيئة الخارجية تُوَضِّح بجلاء حالة النفس. حقًا إن حركة العضو تُعلِن عن

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ٢٠.

جماله بطريقة مُعيَّنة..." إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة" (٢ كو ٥: ١٧)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لتكن نظراتها وحبها ولغتها وطريقة مشيها ولبسها تخبر عن الفضيلة[2].

القديس چيروم

من وحي سيراخ ١٩

أعماقي تصرخ إليك: قَدِّسني إلى التمام!

❖ إليك يا أيها القدوس أشتكي نفسي،
من يقدر أن يضبط أعماقي سواك؟!
هب لي ألا أتهاون فيما أحسبه صغائر،
حتى لا أتهاون أيضًا في الكبائر!
أقمتني هيكلاً مقدسًا يسكنه روحك القدوس.
ليكن هو مقدِّسي والحافظ والحارس لي.
من يحفظني مما يُسمَّى خطأ الكذب الأبيض؟
ومن يهبني الجدّية، فلا أنجذب إلى كلمة مزاح،
ولا تفلت من لساني سخرية على سبيل المداعبة.
دفعت دمك الثمين ثمنًا لتقديس كل فكرٍ أو كلمةٍ أو حركةٍ خفيّة أو ظاهرة.

❖ هب لي ألا أتهاون فأشرب كأس خمرٍ في مناسبةٍ أو أخرى.
احتفل أبونا نوح بالعالم الجديد الذي غسله الطوفان.
شرب خمرًا بزيادة فتعرَّى؛ فاستخفّ به ابنه حام،
هذا الذي أنقذه هو وأخويه سام ويافث وبقية الأسرة.
ليسكب روحك القدوس فرحه في قلبي،
فلا أُشارِك نوحًا في سُكْرِه،
بل أُشارِك الطغمات السمائية في تسابيحها المملوءة تهليلاً.

---

[1] *Baptismal Instructions 4:24-26.*

[2] *Letter 107.*

❖ شمشون الذي قتل أسدًا بلا سلاح،
وتمتَّع بالعسل من جوف الأسد هو ووالديه،
داعب دليلة، فصار ذليلاً أمام الأعداء يطحن كالثور،
فقأوا عينيه، فأدرك أنه فقد بصيرته الداخلية.
هب لي الجدّية،
فلا تكون لي دالة خاطئة تحت ستار اللطف البريء.

❖ هب لي الحكمة من عندك، فلا أختار لي صديقًا دون فحص ودراسة!
أَقمتَ من قلبي خزانة تودِع فيها أسرارك الإلهية،
فلا أترك بابها مفتوحًا بلا حراسة سماوية.

❖ لأستتر فيك يا أيها الطريق والحق والحياة،
فلا أسلك في طريق الخطاة،
ولا أَشترِك في مجلس المستهزئين.
لا أفتح فمي باستهتار في الحديث مع ساقطٍ في الخطية،
بل ألتزم بسكناك في قلبي وفكري،
فلا أنطق بكلمة لا تليق بابنك،
ولا أُشوِّه ملامح وجهي باللهو مع مستهترٍ!

❖ من يُقَدِّس لساني ليكون كأمٍ تلد تسابيحٍ وتشكرات،
يُسَبِّحك على الدوام بالترنيمة الجديدة.
يلد لساني الكلمات العذبة التي تحمل حلاوة وصاياك.
ولا يلد ثرثرة كلام باطلٍ لا نفع له.
روحك القدوس يعزف على كل أوتاري:
اللسان والقلب والفكر والحواس والعواطف،
فتصدر سيمفونية حب، تشتمّها رائحة رضا.

❖ هب لي الحكمة من عندك،
فيكشف صمتي مع كلماتي عن عملك فيَّ!
لا يكون موضع للحماقة في أعماقي،

فلا أُمارِس صمتًا باطلاً أو فاسدًا،
ولا يصدر عن فمي كلمات غير لائقة!
لأختفي فيك، فلا أَتجاوَب مع الكلمات التي أَسمعها بتسرُّعٍ،
إنما ألتقي بك على الدوام، لأنك مشيري الإلهي.
إن أبلغني إنسان أن أخاه أساء إليَّ بالحديث عني افتراءً،
في ترو أُعاتِب أخي لا ليعتذر لي،
بل لكي يمتلئ بالحُبِّ والوداعة واللطف.
إن اعترف بخطئه، أطلب عنه وعن نفسي،
كي يُنَقِّينا الربّ جميعًا من كل ضعفٍ وخطيةٍ.

❖ حقًا أصرخ: بنورك أُعايِن النور. اكشف لي عن أسرارك، فإني أريد أن أراك،
وأَتعرَّف على تدبيرك العجيب وحُبِّك ورعايتك.
أريد أن أحفظ وصاياك، وأَتمتَّع بنيرها العذب،
فأَتهيّأ ليوم لقائي بك!
هب لوصاياك أن تتجلَّى في أفكاري وعواطفي وفي سلوكي الخفي والظاهر؛
وصاياك تقود حتى ابتسامتي وأسلوب أكلي وشربي ونومي وتسليتي.

❖ هب لي ألا أحكم على أحد خلال سلوكه الظاهر،
فلا يعرف أحد ما في قلبه سواك.

الأصحاح العشرون

تقديس الصمت والكلام

إذ تحدث سيراخ في الأصحاح السابق عن ضبط اللسان، يُقَدِّم لنا في هذا الأصحاح مجموعة من النصائح العملية والأخلاقيات تخصّ الصمت والكلام. فالتعرُّف على المتناقضات يسندنا في ممارسة الحكمة حين نتكلم وحين نصمت، حيث لا ننشغل بالمظهر الخارجي، بل أن تكون لنا مفاهيم عميقة في تصرُّفاتنا وكلماتنا وصمتنا.

الإنسان الحكيم لا يعتمد على المظاهر الخارجية، إنما يشعر بضرورة الدراسة ومعرفة الحقيقة، حتى لا تخدعنا المظاهر الخارجية، فنجاح الإنسان قد يكون في حقيقته خسارة، ورُبّ مجدٍ يكون طريقًا للمهانة الخ. يدعو ابن سيراخ تلاميذه الشبان ألاَّ يتسرَّعوا في الحُكْمِ معتمدين على المظاهر، بل يحتاج الشاب أن يقف دقائق يفحص الأمر، فيُدرِك أن حقيقة الأمر مختلفة عن المظهر.

١. للصمت وقت وللكلام وقت [١-٨].
٢. حسابات خاطئة [٩-١٥].
٣. إنسان بدون النعمة الإلهية [١٦-٢٠].
٤. تعليقات على الخطاة [٢١-٢٦].
٥. طرق الحكيم [٢٧-٣١].

١. للصمت وقت وللكلام وقت

يوجد توبيخ ليس في وقته،

ويوجد من يصمت وفيه تمييز [١].

ليس الكلام ولا الصمت فضيلة في ذاتهما ولا رذيلة، إنما استخدام الصمت أو الكلام في الوقت المناسب وبأسلوب لائق بأبناء الرب يُحسَب فضيلة. إذ يمكن للإنسان أن يصمت لكن قلبه ليس نقيًا، وأيضًا يتكلم وقلبه غير نقي.

❖ من اقتنى الحق، يحدثه يسوع، ويستطيع أن يصغي حتى إلى صمته (صمت السيّد المسيح)، فيكتمل ويعمل بكلمته وصمته (صمت المؤمن المدرك لصمت السيّد المسيح)[1].

القدِّيس أغناطيوس الثيؤفورس

---

[1] *Ephes. 15:2.*

❖ ابتعدوا عن الإصغاء إلى القصص العالمية، حتى لا توصم نفوسكم بأية وسيلة بالوحل. لا تكونوا توَّاقين لسماع أقوال الغير، ولا أن تلقوا أنفسكم في مناقشات الآخرين، فلا تجعلوا من أنفسكم موضوع سخرية وتُسَبِّبوا للآخرين أن يرتكبوا افتراءات[1].

القديس باسيليوس الكبير

❖ يجب على المتزعزعين وغير المختبرين ألا يحاولوا إخضاع العقلاء لمُجرَّد التساؤل (لا يكون همُّهم هو مُجَرَّد سؤالهم)، لأن العاقل هو من يسعى في إرضاء الله، ويُكثِر من الصمت، وإن تكلم يتكلم قليلاً، ينطق بما هو ضروري ومرضي لدى الله[2].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ خير لك أن تبقى بين ألوف من البشر وقلبك مُحِب، عن أن تختفي في الكهوف بمفردك وفيك كراهية.

القديس أوغريس

كم يكون التوبيخ أفضل من الهياج بالغضب [٢].

من يعترف بخطئه ينجو من الخسارة [٣].

التوبيخ بحُبٍ وحكمة هو إعلان عن محبة الكنيسة للخاطئ وبغضها لخطيته، لهذا يلزم في الراعي أثناء توبيخه أن يُراعِي:

أ. يصدر عن قلب أبوي مملوء رأفة ووداعة (١ كو ٤:٢١).

ب. يُقدَّم حسب حالة الخاطئ وإمكانياته، ويُقَدَّم التأديب بصورة مرنة لا في شكل قانونٍ صارمٍ أو إلزامٍ جافٍ.

ج. يجب أن ينتهي التأديب بالتوبة المملوءة رجاء.

❖ إنَّني أسأل: مَن مِنَ الناس فسد أكثر من ملك بابل (نبوخذنصر)... لقد أُعطيت له فرص كثيرة للتوبة. الأولى هي تلك المعجزة التي تمَّت في أتون النار (أي ظهور ابن الله مع الثلاثة فتية في وسط النار) (دا ٣). والثانية هي تلك الرؤى التي ظهرت له، وقد فسرَّها له دانيال، هذه الرؤى الكفيلة بأن تسحق أي قلب حجري (دا ٤)، بعد ذلك نصائح النبي نفسه.

في كل هذا لم يعاقبه الله بل أطال أناته عليه ناصحًا إيَّاه تارة بالرؤى وأخرى على لسان

---

[1] *On Renunciation of the World, (Frs. Of the Church, volume 9, p. 27).*

[٢] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٣٣.

نبيّه، ولكن إذ لم يحدث له أي إصلاح بأية وسيلة من هذه الوسائل، أخيرًا صبَّ عليه العقاب "فطُرِد من بين الناس، وتساوى قلبه بالحيوان، وكانت سكناه مع الحمير الوحشيَّة، فأطعموه العشب كالثيران وابتلَّ جسمه بندى السماء" (دا ٥: ٢١). ولم يكن هذا العقاب للانتقام، إذ أعاده ثانية إلى مركزه الأول دون أن تصيبه أيَّة خسارة، بل استفاد أكبر فائدة ممكنة.

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ يُعَلِّمنا بولس الرسول ألاَّ نهجر أولئك الذين ارتكبوا خطيَّة للموت، إنَّما نلزمهم بخبز الدموع (أي التوبة)، لكن ليكن حزنهم معتدلاً. وهذا هو ما تعنيه عبارة: "سقيتهم الدموع بالكيل" (مز ١٣٠: ٥)، **فحزنهم يجب أن يكون بكيلٍ، لئلاَّ يُبتلَع التائب من فرط الحزن.** وذلك كما قال لأهل كورنثوس: "ماذا تريدون، أبعصا آتي إليكم، أم بالمحبَّة وروح الوداعة؟!" (١ كو ٤: ٢١). إنه يستخدم العصا، لكن بغير قسوة، إذ قيل: "تضربه أنت بعصا، فتنقذ نفسه في الهاوية" (١ مل ٢٣: ١٤). وماذا يقصد الرسول بالعصا، ظهر عند طعنهِ ضد خطيَّة الزنا (١ كو ٥: ١)، منذرًا ضد الفسق بالأقرباء المحرَّم الزواج بهم، معنِّفًا كبرياءهم، إذ تكبر هؤلاء الذين كان يلزمهم أن يحزنوا. وأخيرًا في حديثه عن المُذنِب (الذي يريد الزواج بامرأة أبيه) أمر بعزله عن الجماعة وتسليمه للشيطان، ليس لأجل هلاك نفسه، بل لهلاك جسده.

القدِّيس أمبروسيوس

❖ من الضروري أن نعترف عن خطايانا للذين أُعطِي لهم تدبير أسرار الله. الذين أظهروا ندامة في القديم قدَّموها أمام القديسين. جاء في الإنجيل أنهم اعترفوا بخطاياهم ليوحنا المعمدان (مت ٣: ٦)، وفي سفر الأعمال اعترفوا للرسل الذين اعتمدوا بواسطتهم أيضًا (أع ١٩: ١٨)[1].

❖ حين تنشغل بخطيةٍ ما، كن مُتَّهِمًا لنفسك (أم ١٨: ١٧)، ولا تنتظر الآخرين أن يُقَدِّموا الاتهام. بهذا تصير أشبه بإنسانٍ بارٍ يتَّهِم نفسه في أول حديث له في المحكمة، أو تكون كأيوب الذي لم يَعُقه جمهور الشعب في المدينة عن الإعلان عن جريمته أمام الكل[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

كالخصي المشتهي فض بكارة فتاة،
هكذا من يستعمل العنف في تحقيق العدالة [٤].

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 288.*

[2] *On Humility.*

إذ يستحيل على الخصي أن يحقق شهوته نحو عذراء يعاني من الكبت والشعور بالفشل، ومن يظن أنه يُحَقِّق العدالة بالعنف يفشل تمامًا.

رُبّ صامت يُعد حكيمًا،

ورُبّ رجل يُبغَض لكثرة كلامه [٥].

يتحدث عن إنسانٍ يجهل معالجة أمرٍ ما، أو يجهل الإجابة على سؤالٍ مُوَجَّه إليه، إذا اعترف في داخله بجهله فصمت، يُحسَب حكيمًا. وإن حاول الإجابة ليبدو كمن يعرف، فحديثه هذا يجعله مكروهًا.

رُبّ أحد يصمت لأنه لا يجد جوابًا،

وأحد يصمت لأنه يعرف الوقت المناسب للكلام [٦].

اثنان يلتزمان بالصمت، أحدهما لأنه لا يعرف الإجابة، ومن الحكمة أن يصمت. والثاني له معرفة إنما يصمت لأن الوقت غير مناسب للكلام. الأخير يتكلم في الوقت المناسب.

الإنسان الحكيم يحتفظ بالصمت إلى الوقت المناسب للكلام،

أما المتكبّر والغبي فيفوتهما الوقت المناسب للكلام [٧].

الحكيم يُقَدِّم الدواء المناسب في الوقت المناسب، فكلمته تأتي بالثمر اللائق، أما المتكبر والغبي فيصمتان حين كان يلزمهما أن يتكلما، وكأنهما لا يقدمان العلاج في الوقت المناسب، فيتأخَّران عن الإجابة مما يُسَبِّب تضخُّم المشكلة وتعقيدها.

❖ حقيقة عندما يرى إنسان أن ما يفعله القريب شرّ ويصمت، فكأنه يمنع البلسم عن الجراح التي يراها، وبذلك يؤدّي به إلى الموت، وذلك بمقدار تمنعهم عن تقديم الشفاء عندما كان في استطاعتهم. في هذه الحالة لا ينبغي أن يُرْبَط اللسان تمامًا، بل أن نتحكَّم فيه بتعقُّلٍ وحكمةٍ، لأنه مكتوب: "**الإنسان الحكيم يسكت إلى حين (أما العاتي والجاهل فلا يبالي بالأوقات)**" (راجع سي ٢٠: ٧). بمعني أنه عندما يكون التكلم بما هو ملائم مناسبًا، ينبغي إزاحة الرقابة على الصمت والتكلم حتى يُقَدَّمَ العون بكل الجهد. وقد كُتِبَ أيضًا: "**للسكوت وقتٌ، وللتكلمِ وقتٌ.**" (جا ٣: ٧) بمعنى أن هناك أوقات متنوعة لا بد أن نفكر فيها بحكمة[١].

البابا غريغوريوس (الكبير)

---

[١] البابا غريغوريوس (الكبير): الرعاية، ج ٣، ف ١٤، عظة ١٥، ترجمة جورج فهمي حنا، ٢٠٠٤.

❖ الآن ماذا يلزمنا أن نتعلَّمه قبل كل شيء آخر سوى الصمت حتى يمكننا أن نتكلم؟ لئلا صوتي يدينني، قبل أن يبرئني شيء آخر، كما هو مكتوب: "بكلامك تُدَان" (مت ١٢: ٣٧).

أي شيء نحتاج إليه أكثر أمانًا مثل حفظ الصمت، لكي ما نسرع إلى التحفُّظ من الإدانة التي بواسطة الكلام؟ كم من كثيرين رأيتهم يسقطون في الخطية بواسطة الكلام، بينما نادرًا ما يسقط أحد بالصمت. وهكذا فإنه يصعب جدًا أن تعرف كيف تحفظ الصمت عن كيف تتكلم. يندر جدًا أن يصمت أحد حين يكون الكلام غير نافعٍ له. أخيرًا، فإن حكمة الله يقول: "أعطاني الرب لسان المتعلمين لأعرف متى يكون الكلام صالحًا" (إش ٥٠: ٤ *LXX*). حسنًا يقول الكتاب المقدس: "الإنسان الحكيم يسكت إلى الوقت المناسب" (راجع سي ٢٠: ٧)[1].

القديس أمبروسيوس

الكثير الكلام سيُمقَت،

والفارض نفسه يُبغَض [٨].

بعد أن عالج سيراخ موضوع الالتزام بالصمت أو الكلام حسبما فيه نفع، الآن يشير إلى نوعين من الخطأ. الخطأ الأول أن الشخص يتكلم في الوقت المناسب، ولديه إجابة حسنة، غير أنه يُكَرِّر الإجابة مدة ومرات، فلا تأتي إجابته بثمرٍ، لأن المُستمِع يمل من كثرة الكلام. والخطأ الثاني أن الشخص يُقحِم نفسه في حياة الأخرين دون أن يُطلَب منه ذلك، فيُبغِضه المُستمِع.

٢. حسابات خاطئة

أحيانًا يخفي المظهر الخارجي الحقيقة، بل وقد يخدع الإنسان نفسه أو من هو حوله. فقد تدفع خبرة الفشل إلى مراجعة الإنسان نفسه ليسلك بروح النجاح في المستقبل، بينما قد تتحطَّم حياة إنسان بمظهر النجاح، كما يحدث عندما يكسب مبلغًا ضخمًا في يانصيب[2].

رُبّ نجاحٍ يكون في وسط المحن،

وأيضًا مكسب يتحوَّل إلى خسارة [٩].

قد يتمتَّع شخص بنجاحٍ أو مكسبٍ، لكن بسوء تصرُّفِه، يسبب له نجاحه متاعب، ويدخل به في تجارب قاسية، وما ناله من مكاسب يتحوَّل إلى خسائر. لذا يليق بالشخص أن يعرف كيف يُقابِل النجاح أو المكسب بحكمة ودراسة دون تسرُّع.

---

[1] *Duties Of The Clergy, Book 1, Ch. 2: 5.*

[2] *Jeremy Corley: New Collegeville Bible Commentary: Sirach, 2013, p. 57*

❖ لا تخشى إذا اغتنى إنسان، إذا زاد مجد بيته" (مز ٤٨: ١٦ *LXX*).. هذا الإعلان ضروري لسكان العالم، سواء للأرضيين *earthborn* أو لبني البشر، للأغنياء كما للفقراء أيضًا. "لا تخف عندما يغتني إنسان"، يقول: عندما ترى الظالم صار غنيًّا والبار فقيرًا، لا تخف على نفسك. لا يفزع ذهنك، كما لو كانت عناية الله لا تتطلَّع إلى الشئون البشرية، أو أن السهر الإلهي يمتدُّ إلى بعض الأماكن، وليس إلى كل الأرض، لكي يرعى شئوننا. إن كانت توجد عناية إلهية، لكانت تمتد إلى كل إنسانٍ بما يناسبه. فالأبرار الذين يفهمون كيف يستخدمون الثروة يصيرون أغنياء، والأشرار الذين يستخدمون الثروة كأداة لشرِّهم يلزم أن يكونوا فقراء.

الآن، حيث يوجد كثيرون في الأمم وبين الأرضيين الذين لهم مثل هذه المفاهيم، وبسبب التناقض الواضح في توزيع الثروات للحياة، يظنُّون أن العالم ليس من عمل العناية الإلهية.

يُوَجِّه الكتاب المقدس حديثه إليهم، لكي يُهَدِّئ من انفعالاتهم غير السليمة في البداية عينها. يدعوهم أن ينصتوا إلى التعاليم. بالتأكيد، تشير على وجه الخصوص فقط إلى الشخص الفقير، عندما تقول: "**لا تخشى إذا اغتنى إنسان**". هؤلاء على وجه الخصوص يحتاجون إلى تعزية، ألا يرتعدوا أمام أصحاب السلطان. إذ تقول إن الإنسان الغني ليس لديه ميزات عند موته، إذ لا يستطيع أن يأخذ ثروته معه. على أي الأحوال، إنه يحسب أن كل ما يقتنيه هو التمتُّع بها، إذ تظن نفسه أنها سعيدة في هذه الحياة بواسطة المُتملِّقين له. أما عند موته فلا يأخذ كل تلك المقتنيات.

تقول: إنه يأخذ فقط الثوب الذي يستر به عاره، وهذا كما يبدو أفضل ما يُقَدِّمه له أهل بيته عندما يُغَطُّونه. يلزمه أن يكون راضيًا أن ينال قطعة أرض صغيرة يُقَدِّمونها له إذ يحنو عليه الذين يدفنونه، يقدمونها إليه من أجل تكريم الطبيعة البشرية بوجه عام، وليس كامتيازٍ خاصٍ به، بل لتكريم البشرية.

إذن لا تضطربوا من أجل الأمور الحاضرة، إنما انتظروا تلك الحياة المُطوَّبة. فإنكم سترون أن ما يحلّ بالبار من فقرٍ وإهانة وحرمان من الترف، إنما هو لصالحه. لا تضطربوا الآن، من جهة ما تحسبونه خيرات، أنها توزّع كما بطريقة غير عادلة. ستسمعون كيف سيُقَال لغنيٍ ما. "إنك استوفيت خيراتك في حياتك" (لو ١٦: ٢٥). أما للفقير فقد حَلَّت به بلايا في هذه الحياة، لذلك فالأخير يتعزَّى والأول يتعذَّب.

"وسيحمدك إذا أحسنت إليه" (مز ٤٨: ١٨ *LXX*). بالنسبة للإنسان الأرضي وذاك الذي يظن أن الخيرات هي الميزات التي في هذه الحياة من ثروة وصحة وسلطة خاصة به. بالحقيقة

مثل هذا الإنسان يحمد الله عندما ينفرد بأمورٍ حسنة، ولكن في الظروف الخطيرة ينطق باللعنات... هكذا أيضًا بالنسبة للاتهامات التي وَجَّهها الشيطان ضد أيوب (أي ١: ٩)، وهي أن أيوب لم يكرِّم الله مجانًا، إنما نال مكافأة عن تقواه: الغِنَى وكل بقية الممتلكات. لذلك لكي يبرهن على فضيلته سحب الله كل ما لديه لكي يكون شكر الإنسان نحو الله مشرقًا خلال كل شيء[1].

القديس باسيليوس الكبير

رُبّ عطية لا تنفعك في شيءٍ،

ورُب عطية تُلزمك بإيفائها مضاعفة [١٠].

يتحدَّث **العلامة أوريجينوس** عن العطايا الإلهية للإنسان بعضها روحي والآخر غير روحي. العطايا الروحية تسند الإنسان الحكيم، وتبني نفسه كما تبني الآخرين، أما العطايا غير الروحية قد يُسِيء الإنسان استخدامها، فمع كونها ليست شريرة، لكن باستخدامها الخاطئ تصير شريرة.

قد يربح الإنسان مالاً، فيُسِيء استخدامه في حياة مترفة والسُكْر أو الارتباط بالأشرار. وآخر يجد في المال فرصته ليسند عائلته وأصدقاءه والمحتاجين. لذا يليق بنا أن نقتدي بسليمان الحكيم الذي لم يطلب مالاً ولا مجدًا ولا نصرة على الأعداء، بل أن يهبه الله الحكمة لتدبير حياة المملكة وحياته.

❖ عندما يقول (الرسول): "لكي أمنحكم هبة روحية" (رو ١: ١١) يعرف بأنه توجد عطايا غير روحية. بالتأكيد عطية الإيمان روحية، وأيضًا عطية الحكمة والمعرفة وما أشبه ذلك كالبتولية. ولكن عندما يتحدث عن الزواج والبتولية يقول: "لكل واحدٍ له موهبته الخاصة من الله. الواحد هكذا والآخر هكذا" (١ كو ٧: ٧). هكذا بالحقيقة يدعو الزواج عطية، إذ كتب: "الزوجة (المُتعقِّلة) فمن عند الربّ" (أم ١٩: ١٤)، لكن هذه العطية ليست روحية. أمور أخرى كثيرة يمكن أيضًا أن تُدعَى عطايا من الله مثل الثروة والقوة الجسدية والجمال الخارجي والممالك الأرضية. فإن هذه يهبها الله، كقول دانيال: "يعزل ملوكًا وينصب ملوكًا" (دا ٢: ٢١)، لكن هذه العطايا ليست روحية[2].

العلامة أوريجينوس

بعض العطايا والمواهب قد لا تنفع شيئًا متى أساء الإنسان استخدامها أو استخدمها بروح الكبرياء والعجرفة، فإن الله يستطيع أن يرفع إنسانًا متواضعًا ويذل إنسانًا متكبرًا. إنه يقيم أناسًا من المزبلة ويُجلسهم مع أشراف أشراف شعبه كما فعل مع يوسف بن يعقوب (تك ٣٧-٥٠)، وكما ورد في

---

[1] *Homily 19:10, (On Ps 48 LXX). Unto the End, a Psalm for the Sons of Core on the Prosperity of the Wicked.*

[2] *Commentary on Romans, FOTC, vol. 103, p. 60-69.*

تسبحة القديسة مريم (لو ١: ٤٧-٥٣).

رُبّ مجد يُسَبِّب خسائر،

ورُبّ إنسان يرفع رأسه من حالة الذلّ [١١].

سقط كثيرون بسبب مجدهم الزمني في الكبرياء، فأنزلهم الرب عن كراسيهم، بل وفقدوا أبديتهم بينما رفع الرب رؤوس المتواضعين. "أنزل الأعزاء عن الكراسي، ورفع المتضعين" (لو ١: ٥٢).

❖ عظيمة هي قوّة هذا الدواء، وعظيمة هي قدرة هذا التشبيه، في علاج مرض الكبرياء. لماذا تنتفخ؟ أو لماذا يحتقر آخر نفسه؟ أليس جميعنا جسدًا واحدًا، العظيم منّا والصغير؟ إن كنّا في مجموعنا واحدًا، وأعضاءً لبعضنا البعض، فلماذا تعزل نفسك بالتشامخ؟ لماذا تهين أخاك؟ فكما هو عضو لك أنت عضو له. لقد قرَّر (الرسول) أمرين يكسران الروح المتكبر: الأول إننا أعضاء بعضنا لبعض، ليس فقط الصغير عضو للكبير وإنما الكبير أيضًا للصغير، والثاني إننا جسد واحد. بل توجد نقطة ثالثة، وهي أن العطيّة من قِبَل النعمة، لذلك لا تستكبر، لأنها معطاة لك من الله...

أيضًا إذ يمسّ موضوع المواهب، لا يقل إن أحدًا أكبر وآخر أصغر بل ماذا؟ المواهب مختلفة! كلماته هكذا **"لنا مواهب" (رو ١٢: ٦)** ليست أقل وأعظم بل **"مختلفة"**[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

رُبّ مشترٍ كثيرًا بقليلٍ،

لكنه يدفع ثمنه سبعة أضعاف [١٢].

ما ورد هنا يعاني منه الكثيرون، حيث ما يشغل البعض أن يشتروا ما يحتاجون إليه بأقل ثمنٍ ممكن دون التقدير الصحيح لما يفقدوه بسبب اختيارهم هذا. من أمثلة ذلك:

أ. إنسان يشتري مبنى قديم ويحاول إصلاحه وصيانته معتبرًا الثمن أقل من ثمن الأرض نفسها. وإذ يلتزم المشتري بإصلاحات مستمرة يجد نفسه أنفق على المبنى أضعاف ما كان سيدفعه، لو كان قد قام ببنائه أو بشراء مبنى في حالة جيدة.

ب. كثيرًا ما نجد بعض الأشخاص يقضون ساعات طويلة لشراء شيء ما بأقل ثمن ممكنٍ، لقد أضاعوا من وقتهم الكثير، وهم وعائلتهم في حاجة إلى الوقت أكثر مما وفَّروه في الثمن.

ج. في اختيار أقل تكلفة لشراء شيء ما أو تصنيعه قد يدخل في مناقشات أسرية تفسد سلام الأسرة، الأمر الذي لا يُقَدَّر بثمنٍ.

---

[1] *In Rom. hom. 21.*

الحكيم يجعل نفسه محبوبًا بكلماته،

ولطف الأحمق يُنسَى [١٣].

الحكيم يعرف قدر الكلمة العذبة التي تُقِيم صداقات، أما الأحمق فقد يُقَدِّم لطفًا وإحسانا، لكن إذ لا يربط الإحسان بكلمة عذبة، يفقد الإحسان قيمته، ولا يعود مستلم الإحسان يذكره.

عطية الغبي لا تنفعك شيئًا،

لأن له عيونًا كثيرة عِوَض العين الواحدة [١٤].

في غباوة يُبالِغ الأحمق في الأمور، فينظر إليها كما بعيون كثيرة. مثال ذلك الأم غير الحكيمة ترى في ابنها أذكى إنسانٍ، وفي ابنتها أجمل فتاة. عدم تقدير الأمور كما ينبغي يُفسِد سلام الشخص، ويُحَطِّم من هم حوله. في نفس الوقت يظن الشخص في مبالغته أنه هو مصدر نجاحهم وغناهم الخ.

❖ العين هي مصدر نظر الجسد، والعقل هو مصدر نظر النفس. وكما يكون الجسد أعمى بدون العينين، فلا يُعايِن الشمس المنيرة على الأرض والبحر، ولا يقدر أن يتمتَّع بضيائها، هكذا تكون النفس عمياء بدون العقل السليم والحياة الصالحة، فلا يكون لها معرفة بالله، ولا تُمَجِّد الخالق صانع الخيرات للبشرية كلها، ولا تقدر أن تتمتَّع بالفرح عن طريق حصولها على عدم الفساد ونوالها تطويبًا أبديًا[١].

القديس أنطونيوس الكبير

يُعطي يسيرًا ويُهين كثيرًا، ويفتح فاه مثل المنادي.

يُقرض اليوم ويُطالب به غدًا. مثل هذا الإنسان بغيض [١٥].

تحذير من الإنسان الغبي إن قَدَّم هدية، فإن وراءها كيل من الإهانات. يُقَدِّم هدية ويُسَبِّب خسائر أكثر مما قدَّم. في جهالة يُقَدِّم الغبي القليل جدًا ويحسب نفسه أكثر الناس بذلاً وسخاءً. ينتظر دومًا ممن يتعامل معهم كلمات المديح والشكر والتكريم بوسيلةٍ أو أخرى. فَمه دائمًا مفتوح يشتكي ممن هم حوله لأنهم لم يكرموه كما يليق به. حياته في نظره صفقات خاسرة، ليس من يكافئه على عطاياه.

مثل هذا الإنسان بغيض، لأنه يُقَدِّم القليل ويُلحق التقدمة بشكاوى وتذمر وإهانات مما يُسَبِّب لنفسه كما لمن وهبه تقدمة خسائر نفسية وروحية.

٣. إنسان بدون النعمة الإلهية

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١١٨.

بعد أن تحدَّث عن خداع المظاهر الخارجية، وطالب الحكيم أن يدرس الأمور بحكمةٍ وتروٍ وعمقٍ حتى يعرف الحقائق ولا ينخدع، تحدث عن حاجة الإنسان إلى نعمة الله التي تقود الفكر إلى الداخل فيتعرَّف على الحق. الإنسان الذي يتَّكِل على فهمه وأفكاره متعريًا من النعمة فاقد التمييز الصادق. فمهما بلغ ذكاء الإنسان وقدراته ودراساته محتاج إلى تقديس أعماقه بالنعمة الإلهية، لا لتُحَطِّم فكره بل لتسمو به وتُقَدِّسه وتكشف له الأسرار الفائقة.

يقول الأحمق: ليس لي صديق،

وأعمالي الصالحة لا تُقابَل بشكرٍ [١٦].

إذ يشعر الجاهل أن لا صديق، وليس من يشكره على أعماله الصالحة، يبذل كل جهده كي يخلد اسمه وذكراه على الأرض. قد يُقِيم مشروعات تشهد لصلاحه وأبنية فاخرة ينحت اسمه عليها. ولا يدرك أنه بخطاياه صار ميتًا، يُلقَى في القبر. جسده نفسه يصير قبرًا لنفسه الميّتة. يدهش القديس باسيليوس ممن ينحتون أسماءهم على المقابر، فيربطون أسماءهم بالموت عوض تسجيلها في سفر الحياة. وكأنهم إذ فشلوا في وجود أصدقاء لهم في السماويات، يطلبون أصدقاء من الموتى. إذ لا يتمتَّع الإنسان الأحمق بالنعمة الإلهية ولا يتجاوب معها دائم الشكوى، يحسب أنه محروم من صديقٍ مُخْلِصٍ، يُقَدِّر أعماله الصالحة. يرى أن الكثيرين يأكلون خبزه، وعوض تقديم الشكر له يسخرون به.

❖ الجهال والبلداء (الحمقى *senseless*) يهلكون معًا، ويتركون ثروتهم لآخرين. مقابرهم هي مساكنهم إلى دورٍ فدورٍ، ينادون بأسمائهم على الأراضي" (مز ٤٨: ١٠-١١ *LXX*)...

البليد (*senseless*) بالحقيقة هو من ينقصه الإحساس العام، والذي ليس لديه بصيرة سليمة بالنسبة للأعمال البشرية العادية. بنفس الطريقة، عادة يُدعَى الذين يُمَيِّزون في شئون الحياة ما بين هو نافع وما هو ضار بالحكماء أو العقلاء *prudent*. هذا ما عُبِّر عنه في الإنجيل: "لأن أبناء هذا الدهر أَحْكَم من أبناء النور في جيلهم" (لو ١٦: ٨). إنهم ليسوا حكماء بطريقة مُطلَقة، وإنما بسبب حصافتهم في تدبير حياتهم الحاضرة في الجسد، يُدعَون أيضًا خدام الظلم. بحسب هذا المعنى، فإن الحكماء هم أيضًا أفاعي، التي تُعَد أماكن خفية لنفسها، وفي حالة الخطر تتجنَّب بكل وسيلة الضربات أن تسقط على الرأس.

يُقَال **جاهل** على من ليس لديه خصال الإنسان الرفيعة. هذه التي هي **فهم** الله الآب، **وقبول** الكلمة، الذي "في البدء كان مع الله" (يو ١: ٢)، **والنور** الذي يأتي من الروح القدس.

هؤلاء الأشخاص الذين لهم هذا الفكر، القادرون على القول مع بولس: "لكن لنا فكر المسيح" (١ كو ٢: ١٦). مع ذلك يستخدم الكتاب المقدس النقيض، بالقول إن الشرير بليد في

الكلمات التالية: "قال الجاهل في قلبه ليس إله" (مز ١٥: ١). مرة أخرى يدعو ما هو ضار للحياة غباوة، كما فعل الرسول في حديثه عن الذين سقطوا في شهوات غبية ومُضِرَّة (١ تي ٦: ٩).

هكذا ينزل البليد والجاهل إلى نهاية واحدة، وهي الهلاك. ويمكن لأحدٍ أن يقول إن الذي يعيش مثل الوثنيين يُدعَى أحمق، وأما الذي يسلك حياته كيهوديٍ بمظهر خارجي (حرفي) في حفظ الناموس فهو جاهل. إذ قال الرب للإنسان الأحمق بسبب إلحاده الذي فيه: "يا **غبي** هذه الليلة تُطلَب نفسك منك" (لو ١٢: ٢٠). أما إسرائيل الذي سلك حسب الجسد فدُعي **جاهلاً**، كقول النبي: "وصار أفرايم كحمامة **رعناء**، يدعون مصر، يمضون إلى أشور (هو ٧: ١١).

حيث هلك هؤلاء تمامًا بجهلهم، صرنا نحن الغرباء ورثة لثروتهم. صارت لنا الوصايا، وصار لنا الأنبياء والآباء، وهكذا صار الأبرار في العالم لنا. هؤلاء الذين هلكوا في جهلهم تركوا لنا ثروتهم.

على أي الأحوال صارت بيوت هؤلاء الحمقى والجهَّال لهم مقابر إلى الأبد. لأن مقابر هؤلاء الذين امتلأت حياتهم بأعمال مَيِّتة بكل نوعٍ من الخطايا هي بيوتهم إلى الأبد. **ذاك الذي هو مَيِّت بالخطايا، لا يسكن في بيتٍ، بل في قبرٍ، لأن نفسه مَيِّتة.**

الآن يعقوب البريء في سلوكه وبسيط، سكن في بيتٍ. كُتِبَ عنه أنه إنسان بسيط وصالح سكن في بيتٍ (راجع تك ٢٥: ٢٧)، أما الرجل اللئيم فيسكن في قبرٍ، ولا يضع أساسًا للندامة، بسبب أعماله المَيِّتة، إنما يُشبِه قبرًا مبيضًّا من الخارج رائعًا جدًا، ولكن من الداخل مملوء عظامًا مَيِّتة وكل نجاسة (مت ٢٣: ٢٧). لهذا عندما يتكلم مثل هذا، لا يفتح فمه بكلمة الله، إنما له قبر، حنجرته قبر مفتوح. لذلك إن كان أحد يؤمن بالمسيح ولا يمارس أعماله في تناغُم مع إيمانه، فإنه إذ يصغي إلى تعاليم فاسدة، ويُجَدِّف على معاني الكتاب المقدس، يَتَحَطَّم على صخرة قبره[1].

❖ "**بيوتهم إلى الأبد مساكنهم إلى دورٍ فدورٍ**" (مز ٤٨: ١٢ *LXX*)، بمعنى أن قبورهم هي بيوتهم إلى الأبد. عندئذ، إذ يشرح ماذا يعني بالقبور، لكي يُظهِر أنه كان يتكلم عن أجسادهم التي تهلك فيها نفوسهم بشرورهم، يضيف هذه الكلمات: "مساكنهم إلى كل الأجيال؛ لأن الأجساد البشرية تُدعَى دومًا مساكن". هؤلاء أيضًا يدعون أراضيهم بأسمائهم. فإن اسم الإنسان اللئيم لا يُسَجَّل في سفر الأحياء، ولا يُحسَب مع كنيسة الأبكار المحصاة في السماء. إنما تبقى أسماؤهم على الأرض، إذ فَضَّلوا هذه الحياة الزائلة القصيرة المدى عن المساكن الأبدية. ألا ترون كيف أن الذين

---

[1] *Homily 19:6, (On Ps 48 LXX). Unto the End, A Psalm for the Sons of Core on the Prosperity of the Wicked.*

يبنون الأسواق والمدارس في المدن، ويُقيمُون أسوارًا، وينشئون قنوات، يكتبون أسماءهم على المباني الأرضية؟

بالفعل قام البعض بنقش أسمائهم على قطعان الخيل، ووضعوا خططًا أن يبسطوا ذكراهم إلى زمن طويل في الحياة، أقاموا أبنية فخمة لمقابرهم، ونقشوا أسماءهم على الأنصاب. هؤلاء هم الحكماء في الأمور الأرضية، الذين يهتمون بالمجد الحاضر، ويحسبون تذكُّر الناس لهم فيه الكفاية لتحقيق السعادة. فإنكم إن رأيتم أحدًا من هؤلاء الذين يتشامخون جدًا، فيما يدعونه باطلاً بالمعرفة، ويُكَرِّسون أنفسهم لتعاليم فاسدة صادقوا عليها، وعوض اسم المسيحيين نسبوا أنفسهم لأحد الهراطقة: مرقيون أو فالنتينوس أو أحد المُعاصِرين في الحاضر، مُكَرِّسين أنفسهم للعمل لحساب أناس مُدَمِّرين، وفي اختصار في الأمور الأرضية[1].

القديس باسيليوس الكبير

إن كان الحمقى لا يكسبون لهم أصدقاء، فإنهم لا يدركون مفهوم الصداقة الحقيقية.

كثيرًا ما يتحدث **القديس يوحنا الذهبي الفم** عن المحبة التي تُقِيم للإنسان أصدقاء فإن أقام عشرة أصدقاء معًا، فعوض أن يكون له يدان يعمل بهما يصير له كل الأيدي أي ٢٢ يدًا يعمل بها كل واحدٍ منهم، فكم لو بالحب كسب الآلاف يعمل بهم، وهم يعملون به.

❖ أتدركون سمو المحبة، كيف تجعل الإنسان الواحد لا يُقهَر يزداد مرات كثيرة عما هو عليه. ألا ترى أن الإنسان الواحد يمكن أن يكون حاضرًا في أماكنٍ كثيرة في وقتٍ واحدٍ (إن كل صديقٍ له يُحسَب كأنه هو). فسيكون جزء منه في فارس كما في روما.

أي شيء لا تقدر المحبة أن تفعلها. جزء منه يكون حاضرًا هنا والآخر هناك. أو بالحريّ يكون الكل هنا والكل هناك. فإن كان له ألف صديق، أو له ألفان، تخيَّل مرة أخرى مدى قوته... (لا ترى أن المحبة تضاعف قوة الإنسان)؟ إنه لأمر ملحوظ أن إنسانًا واحدًا يحمل ألفًا من قوته[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

الذين يأكلون خبزي كلامهم عديم الفائدة.

ما أكثر الذين يستهزئون به! وفي أحوالٍ كثيرة! [١٧]

هذه هي مشاعر الأحمق، فإذ يسلك بخبثٍ يظن فيمن يُقَدِّم لهم إحسانًا، عوض الشكر يتحدَّثون عليه بلسانٍ خبيثٍ.

---

[1] *Homily 19:7, (On Ps 48 LXX). Unto the End.*

[2] *Commentary on the Gospel of St. John, homily 78 (on John 16: 5-15).*

الزلّة على الأرض أفضل من الزلّة من اللسان،

هكذا يكون سقوط الشرير سريعًا [١٨].

لماذا يسمّى خطأ اللسان "زلة"؟ لأن ما ينطق به الأحمق هو ردّ فعل لاشعوري لحماقته. يخطئ الأحمق بلسانه بدون تفكير، لكن أثر هذه الزلّة خطير، وقد يمتدّ إلى يوم الرب العظيم، ما لم يكن قد قَدَّم عنه توبة حقيقية. يبدو كأن زلة اللسان كلام في الهواء لا خطورة منه، غير أن سيراخ يشبهه بالسقوط على رصيف فيُسَبِّب له كسور، ويمكن أن يُسَبِّب تفجير في شرايين المخ تؤدي إلى موته.

❖ سلامة اللسان هي شجرة الحياة. اللسان الذي لا يخطئ بالكلام يستخدم سلامة العقل. بالحق مرض اللسان هو الخطية. من يقدر أن يضبط لسانه ولا يخطئ مملوء بالروح القدس[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

الإنسان فاقد النعمة، كقصة تُروَى في غير وقتها،

إنها تستمر على شفاه الجهلاء [١٩].

قصة الأحمق فاقد النعمة يُرَدِّدها الجهلاء، أما الحكيم فيشتهي خلاص الأحمق بالرجوع إلى الله قبل فوات الأوان. نلاحظ في ابن سيراخ كثيرًا ما يُرَدِّد "الوقت المناسب"، فالآن يوم خلاص ووقت مناسب للتوبة، أما التأجيل فغباوة لأننا لا نملك الغد. إنه يُدرِك أن السالك بالنعمة الإلهية قادر على الدراسة والتدقيق في كل شيءٍ، والتعامل مع الغير بحكمةٍ ووقارٍ وتقديرٍ لهم. أما فاقد النعمة فيسقط في الجهالة ويستخفّ بوصية الله، مع عدم تقديره لمن هم حوله.

فاقد النعمة في جهالة لا يَقْبَل ضبط اللسان وضبط الشهوات وضبط النفس، لا يَقْبَل الوصية الإلهية، ولا التدبير الصادق للمجتمع، ولا خبرة الشيوخ الأتقياء. يُعرِّف ابن سيراخ الأحمق أنه إنسان فاقد النعمة، قد ينطق بكلمات حكمة تخرج من شفتيه لكن بدون خبرة.

يُرفَض المثل من فم الأحمق،

لأنه لا ينطق به في الوقت اللائق [٢٠].

إذ لا يرجع الأحمق إلى الله ليهبه نعمة التوبة، تُحسَب كل كلماته مُقَدَّمة في وقتٍ غير لائقٍ.

لا يستطيع الشرير أن يشهد للبرّ، وأن تكون لشهادته فاعلية.

٤. تعليقات على الخطاة

---

[1] *Commentary on the Proverbs, Fragment 15:4.*

يوجد من يمنعه عوزه عن الخطية،

وفي راحته لن يخترقه الأسى [٢١].

يسمح الله للبعض بالعوز أو المرض أو أية ضيقة تمنعهم عن ممارسة الخطية، بينما لو كانوا في راحة لا يمارسون التوبة والندم على الخطية بل يسلكون في تراخٍ وإهمالٍ.

. يوجد من يفقد حياته من الخزي،

أو يفقدها لأجل تصرّفه الغبيّ [٢٢].

بعض الناس يخزون مما يرتكبونه، لكنهم لا ينطلقون إلى التوبة بروح الرجاء المُفرِح.

يوجد من يعطي وعدًا لصديقه من الخجل،

فيكسبه عدوًا له بغير سببٍ [٢٣].

يُقَدِّم البعض وعودًا لأصدقائهم وهم يدركون عجزهم عن الوفاء، لكن بسبب الخجل يُقَدِّمونها. وإذ يأتي وقت الوفاء بالوعد يتحوَّل الأصدقاء إلى أعداء.

الكذب شرّ مُخزٍ في الإنسان،

وهو يستمرّ في شفتي الجاهل [٢٤].

يُعتبَر الكذب وصمة عار في الشخصية، ينشأ لأسباب كثيرة أهمها الخوف خاصة في الطفولة، حيث يود الطفل أن يهرب من العقوبة التي تُفرَض عليه؛ أو بسبب الشعور بالنقص، فيود أن يظهر بغير حقيقته. إذا أُكتشِف الكذب، يفقد الكثيرون الثقة فيه في كل ما يقوله أو يظهر عليه. يُسَمَّى الشيطان الكذاب وأبو الكذاب (يو ٨: ٤٤). مادام السيد المسيح هو "الحق" (يو ١٤: ٦)، فالكذب الذي هو ضد الحق، من سمة "ضد المسيح". يقول **العلامة أوريجينوس:** [يشير الكذب إلى خصم ذاك القائل: "أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦). هذا هو ضد المسيح، الذي أبوه كذَّاب بكونه إبليس[1].]

❖ يجب على كل أحدٍ أن يُعطِي اهتمامًا عظيمًا لئلا يسلبه "الكذب"، لأن الكذَّاب لا يتَّحِد مع الله. الكذَّاب غريب عن الله. ويقول الكتاب بأن الكذَّاب هو من الشيطان، إذ هو "كذَّاب وأبو الكذَّاب" (يو ٨:٤٤). هكذا دُعِي الشيطان أبو الكذَّاب، أما الحق فهو الله، إذ يقول بنفسه: "أنا هو الطريق والحق والحياة" (يو ١٤:٦).

أما ترون إذن كيف أننا نصير غرباء عن الله بالكذب وبمن نتَّحِد **(عن طريقه)**؟! لذلك إن أَردنا بحق أن نخلص، يلزمنا أن نحب الحق بكل قوتنا وكل غيرتنا، ونحرس أنفسنا من كل كذب،

---

[1] *Commentary on John, Book 20:173.*

حتى لا يفصلنا عن الحق والحياة[1].

الأب دوروثيئوس

يُعالِج القديس باسيليوس موضوع الكذب، خلال إجابته على أسئلة وردت في القوانين المختصرة.

❖ **سؤال: هل يُدَان من يكذب عن عمدٍ فقط، أم أيضًا من ينطق بشيءٍ مُخالِفٍ للحق، عن جهلٍ منه؟**

الإجابة: حكم الرب أيضًا ضد الذين يخطئون عن جهلٍ واضح من قوله: "الذي لا يعلم ويفعل ما يستحق ضربات، يُضرَب قليلاً" (لو ١٢: ٤٨). وفي كل الأحوال التوبة تحمل الرجاء الأكيد في المغفرة (مت ٣: ٨؛ لو ٣: ٨)[2]

❖ **سؤال: إن كان أحد فَكَّر فقط أن يفعل شيئًا، ولم يفعله، فهل هذا يُحكَم عليه أنه كاذب (١ تي ١: ١٠)؟**

الإجابة: إن كان ما فَكَّر أن يفعله ليس هو حسب الوصية، فإن الروح القدس يدينه ليس فقط ككاذبٍ، وإنما كعاصٍ، لأن الله يفحص القلوب والكلى (مز ٧: ١٠)[3]

❖ **سؤال: إن قَرَّر أحد مُقَدَّمًا أن يفعل شيئًا مكروهًا لدى الله، لكنه امتنع عن ذلك، فهل يلغي قراره الشرير، أم يكمل الخطية خشية الاتهام بأنه كاذب؟**

الإجابة: أولاً: يليق بمثل هذا أن يتوب أولاً لأنه بهذا تجاسر وقرر بنفسه أن يفعل شيئًا أيّا كان هذا (دون طلب مشورة الله)، فإنه يجب ألا يعمل حتى ما هو صالح من نفسه على مسئوليته.

ثانيًا: ما هو أكثر خطورة أنه لم يخف أن يأخذ قرارًا لا يسر الله.

أما عن كونه تراجع عمَّا قرره مقدمًا بما ينافي وصية الرب، ولم يُتَمِّم القرار عمليًا، فهذا واضح في حالة الرسول بطرس الذي قَرَّر مُقَدَّمًا وأعلن: "لن تغسل رجليّ أبدًا" (يو ١٣: ٨). وعند سماعه الحُكْم الذي نطق به الرب: "إن كنت لا أغسلك، فليس لك معي نصيب، قال..." يا سيد ليس رجليّ فقط، بل أيضًا يديّ ورأسي" (يو ١٣: ٩)[4].

❖ **سؤال: هل يوجد استثناء خاص خلاله يمكن الكذب لأجل منفعة مُتوقَّعة؟**

---

[1] *Philokalia, Book 1.*

[2] *Regulae brevius tractatae, 58.*

[3] *Regulae brevius tractatae, 59.*

[4] *Regulae brevius tractatae, 60.*

الإجابة: لا يمكن التغاضي عن هذا بشريعة الرب القائل تمامًا إن الكذب من الشيطان (يو ٨: ٤٤)، دون تمييز بين كذبٍ وكذبٍ. كذلك توجد شهادة الرسول حيث كُتِبَ: "إن كان أحد يجاهد، لا يُكَلَّل إن لم يجاهد قانونيًا" (٢ تي ٢: ٥)[1].

القديس باسيليوس الكبير

السارق خير ممن يكذب باستمرار،

لكن كليهما يرثان الهلاك [٢٥].

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** ["**لاَ يَسْرِقِ السَّارِقُ فِي مَا بَعْدُ**"، هذا لا ينزع الخطية، وإنما كيف تُنزَع؟ إن عملوا، ومارسوا علاقات الحب مع الآخرين! إنه لا يريدنا أن نعمل فحسب وإنما نعمل ونتعب. لكي نمارس علاقات ودية مع الغير. فإن السارق أيضًا له أعمال لكنها أعمال شريرة[2].]

حال الإنسان الكذَّاب يجلب العار،

وخزيه معه على الدوام [٢٦].

٥. طرق الحكيم

الحكيم يرفع نفسه بكلماته،

والإنسان الفَطِن يُرضي العظماء [٢٧].

نستطيع أن ندرك مدى فاعلية كلامنا، إذ قيل: "بكلامك تتبرر، وبكلامك تُدَان" (مت ١٢: ٣٧). يقول السيد المسيح: "ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان، بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان" (مت ١٥: ١١). والحكيم يقول أيضًا: "واجعل لفمك بابا ومزلاجًا" (راجع سي ٨: ٢٩)."

يتحدَّث **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** عن ضبط اللسان، قائلاً: [إن الوعاء الذهبي لا يُستعمَل للأشياء الدنيئة لغِلوّ ثمنه، فكم بالأحرى الفم فهو أثمن من الذهب والمرجان، فلا يجوز أن نُدنِّسه بالكلام القبيح والشتم وطعن الآخرين.]

ويقول الأب **يوحنا من كرونستادت:** [اهتم بكلماتك فإن الكلمة ثمينة!... لتنطق بكلمة الله الخلاَّقة، فإن كلمة الله هو علّة كل الخليقة، فيه يوجد الحاضر والماضي والمستقبل[3].] كما يقول: [إن كنت تتحدَّث مع قريبك، فتكلَّم بتعقُّل ووقار وبطريقة بنَّاءة، مُتجنِّبًا كل كلمة بطَّالة بكونها سمّ الحيّة[4].]

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 76.*

[2] *In Eph. hom 14*

[3] *My Life in Christ, v I, p. 192.*

[4] *My Life in Christ v 2, p. 114.*

الذي يفلح الأرض يزيد من محصوله،

والذي يُرضي العظماء يُكَفِّر عن الخطأ [٢٨].

إن كان المحصول الوفير هو ثمرة جهد وتعب في فلاحة الأرض، فإن الكلمة اللطيفة التي ترضي العظماء تنقذ المظلومين.

الهدايا والعطايا تعمي أعين الحكماء،

وكلجامٍ في الفم تمنع التوبيخ [٢٩].

يُحَذِّرنا **القديس يوحنا الذهبي الفم** من الحسد الذي يخترق حتى الكنيسة، فيفسدها بالطمع بكون الحسد أم للطمع، وتحرك الهدايا والعطايا شئونها.

❖ (الحسد) يخترق الكنيسة. من البداية يجلب نتائج خطيرة بلا حصر. إنه بمثابة الأم للطمع، والوباء الذي يقلب الأمور رأسًا على عقب، ويفسد العدالة. يقول الكتاب: "العطايا تعمي عيون الحكماء، وكلجامٍ في الفم تمنع التوبيخات" (راجع سي ٢٠: ٢٩). الطمع يجعلنا عبيدًا عوض كوننا أحرارًا. إننا نتحدَّث عنه كل يوم، لكن لا نُحَقِّق تقدُّمًا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

الهدايا التي تُقَدَّم كرشوة تفسد بصيرة الحكماء، وتلجم أفواههم فتمنعهم عن توبيخ المُخطِئ، فلا يستطيعون أن يعاينوا الحق. وتسد الأفواه، فلا توبخ الظالمين والأشرار، أما الانشغال بالأمور السماوية والهبات الإلهية فتفتح الأعين لرؤية أسرار الله وإدراك الحق الإلهي، كما تفتح الأفواه لتسبح مع الملائكة، وتنتهر إبليس وكل قواته، ولا تداهن الأشرار.

❖ هذا (حب الشهرة والمال) اندفع إلى الكنائس. هذا سبب ربوات الأمور القاتلة منذ البداية. هذا والد الطمع. هذا المرض قلب كل الأشياء رأسًا على عقبٍ، وأفسد العدالة. قيل: "الهدايا تعمي أعين الحكماء، وكلجامٍ في الفم تمنع التوبيخات" (راجع سي ٢٠: ٢٩). هذا جعل أحرارًا عبيدًا. عن هذا نتحدَّث كل يومٍ بلا نفعٍ. صرنا أَشَرّ من الحيوانات المفترسة، نسلب الأيتام، ونُجَرِّد الأرامل، ونخطئ في حق الفقراء، ونضيف ويلاً إلى ويلٍ. "ويل! قد باد التقي من الأرض" (مي ٧: ١)[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ سأل خوري إبسكوبوس القديس برصنوفيوس إن كان يترك عمله الأسقفي وينسحب إلى ديرٍ،

---

[1] *Commentary on the Gospel of St. John, homily 64 on John 11: 41-48.*

[2] *On John, Homily 64: 4.*

فجاءت الإجابة: لا أستطيع أن أنصحك أن تهجر ذاك الذي ائتمنك أن تهتم بكنائس الله المقدسة (٢ كو ١١: ٢٨)، وإنما أن تهتم بنفسك *own soul* حسب المخافة الإلهية. **لا تَقْبَل عطايا من أحدٍ** (راجع سي ٢٠: ٢٩؛ أم ١٥: ٢٧). لا تتردَّد في أحكامك (خر ٢٣: ٣). لا تخجل من حضور أي حاكم (راجع سي ٧: ٦). لا تبرئ المذنب، ولا تدين البار. احفظ الطمع بعيدًا عنك، فإنه أصل كل الشرور (١ تي ٦: ١٠)... لا تتشامخ بل كن منقادًا إلى المتضعين (رو ١٢: ١٦)... تذكَّر يوم رحيلك، عندئذ لا تخطيء للربّ (راجع سي ٧: ٣٦). وإن بلغت إلى نقطة السكون، فستجد راحة مع نعمة أينما انسحبت[1].

القديسين برصنوفيوس ويوحنا

❖ "الهدايا والرشاوى تعمي أعين الحكماء" (راجع سي ٢٠: ٢٩)، ومن يقبلها ليُسبِّب ضرراً للآخرين، ليس بناسكٍ.

نصائح للنُسَّاك للقديس هيبريشيوس الكاهن

الحكمة المكتومة والكنز الدفين أية منفعة فيهما؟ [٣٠]

❖ الذين يستطيعون التعليم بتأثير عظيم إلا أنهم يبتعدون بسبب التواضع المُفرِط، ينبغي أن يتعلَّموا بأن يستدلوا من التفكير في الأمور الصغيرة كم يخطئون كثيرًا في حق المهام الأكبر والأعظم. لذلك إن كانوا يخفون الأموال التي لديهم عن الإخوة المعوزين، فإنهم دون شك يبثّون فيهم الكآبة والحزن. ليتفكَّروا كم هم متورطون في ذنبٍ عظيم، لأنهم يحجبون كلمة التعليم عن الإخوة الخطاة، يحجبون دواء الحياة عن نفوسٍ سائرة إلى الموت. لذلك بالحق يقول الحكيم: "**الحكمة المكتومة والكنز المدفون أية منفعة فيهما**" (راجع سي ٢٠: ٣٢). إن حلَّت مجاعة تفني شعبًا، وأخفي الشعب قمحه، فهؤلاء بلا شكٍ هم دعاة للموت ومبشرون به. **وعليه ليفتكر الذين لا يتقدَّمون لخدمة خبز النعمة التي قد أُنْعِمَ بها لهم عندما تهلك النفوس من العطش للكلمة المقدسة، فكم يكون هول العقاب.** لذلك قيل أيضًا بالحق على لسان سليمان: "**محتقر الحنطة يلعنه الشعب**" (أم ١١:٢٦) الذي يخبئ الحنطة يحتكر لنفسه كلمات التعليم المقدس. إن مثل هذا الإنسان تصيبه اللعنة، لأنه بسبب **خطيئة الصمت** يستحق عقاب كل الذين كان يمكن أن يسلكوا في الصواب بسببه[2].

---

[1] *Letter 789.*

[2] البابا غريغوريوس (الكبير): الرعاية، ج ٣، ف ٢٥، عظة ٢٦، ترجمة جورج فهمي حنا، ٢٠٠٤.

الإنسان الذي يكتم حماقته خير من الإنسان الذي يكتم حكمته [٣١].

ليكتم الإنسان حماقته بصمته، فهو أفضل من الذي يكتم حكمته.

من وحي سيراخ ٢٠

لألتصق بك في صمتي كما بكلماتي!

❖ ما يشغلني في صمتي كما في حديثي الالتصاق بك!

في صمتي أدخل في حديث سرّي معك، وبكلماتي أنطق حسب توجيهك لي.

أنت تتكلم بي، فأحمل روح الحب وطول الأناة حتى على مضايقي.

هب لي ألا أتكلم بروح الحماقة. ضع لي يا رب حارسًا لفمي وبابًا حصينًا لشفتيّ.

❖ هب لي روح الحكمة لئلا يجتذبني نجاح وقتي إلى التشامخ.

فلا أفرح لمكاسب زمنية تتحوَّل إلى خسائر، ولا أطلب مجد العالم، لأنك أنت هو مجدي.

❖ لست أطلب من الأحمق شيئًا، لئلا يحسبني مدينًا له.

يعطيني اليوم، ويأخذ مني مضاعفًا!

انزع عني كل حماقة، فما يشغلني صداقتك لي.

دَرِّبني على الحوار معك، فتشبع نفسي بحُبِّك!

تُدَرِّب لساني، فلا أسقط في زلة لسانٍ، بل لتكن كلماتي مملحة بملح الروح،

نعمتك ترفعني، فلا أتكلم إلا بما أتذوقه وأعيشه!

❖ هب لي الحكمة، فلا أعطي وعودًا أعجز عن الوفاء بها!

لتكن كل وعودي وكلماتي صادقة، لأنك أنت هو الحق والحياة!

هب لي ألا أسرق ما هو ليس لي.

❖ لتكن كل كلمة تخرج من فمي تُعلِن عن برِّك.

أعرف متى أتكلم بالحكمة، ومتى أصمت.

الأصحاح الحادي والعشرون

حفظ الشريعة والخطية

إذ يهتم ابن سيراخ باستقامة القلب والفكر واللسان والسلوك، يدعو المؤمنين إلى حفظ الشريعة وتفهمها، فيتمتعون بمخافة الربّ التي تحفظهم من الخطية، وتهبهم حكمة ومعرفة صادقة [١١]. حفظ الوصية يُقَدِّس الفكر. لكن كثيرين أذكياء ولا يَقْبَلون طاعة الشريعة إلاَّ بحسب فهمهم الذاتي. من لم يكن ذكيًا لا يتعلَّم، ولكن يوجد ذكاء بدون مخافة الربّ يكثر المرارة [١٢]. بالإيمان يقتني المؤمن مخافة الربّ، وبدون الإيمان لا يمكن أن يُسَرّ الله (عب ١١: ٦) ولا يستطيع الشخص حفظ الشريعة في أعماقه. بالإيمان يهرب المؤمن من الخطية بعمل نعمة الله، فيهرب من الخطية، ويتخلَّص من ممارسة الظلم والكبرياء والحماقة، وأخيرًا أعطى اهتمامًا لأخطاء اللسان خاصة السبّ والنميمة.

١. اهرب من الخطية بروح الرجاء [١-٣].
٢. اهرب من الظلم والكبرياء [٤-١٠].
٣. اهرب من الحماقة واطلب الحكمة [١١-١٩].
٤. آداب سلوك الحكيم [٢٠-٢٦].
٥. اهرب من السب والنميمة [٢٧-٢٨].

١. اهرب من الخطية بروح الرجاء

يا بُنيّ، هل أخطأت؟ لا تَزِدْ عليها،
بل صَلِّ عن خطاياك السالفة [١].

سيطرت الخطية على البشرية، لأنها عزلت نفسها عن الله مصدر القداسة والنقاوة، فصارت محتاجة إلى روح الرجاء واهب الفرح. أحيانًا يسلك الإنسان فترة ما بروح العفة والطهارة، وفجأة يُحارَب بفكرٍ شريرٍ أو شهوةٍ رديئةٍ أو ممارسة أية خطية، فيظن أنه فقد طهارته تمامًا، وعِوَض الرجوع إلى الله يستسلم للخطايا. لذلك يقول ابن سيراخ: "يا بني هل أخطأت؟ لا تزد، بل صلِّ عمّا سلف من خطايا".

يُوَجِّه حديثه إلى الخاطئ قائلاً: "**يا بني**"؛ فإذ أراد أن يبثّ روح الرجاء في الخاطئ يحسبه ابنًا له، ليرى فيه صورة الله أبيه. يدعوه إلى الصلاة بروح الرجاء مع الجدية عوض الاستسلام للخطية.

❖ عندما تفهم النفس الخطية تكرهها، (وتتطلَّع إليها) كحيوانٍ مفترسٍ ذا رائحة فاسدة. ولكن عندما تجهل النفس الخطية، تصير الخطية لها محبوبة، فتستعبد النفس التي تحبها وتأسرها. الإنسان

البائس الفقير لا يرى ما هو قادر على خلاصه، بل ولا يفكر في هذا، إنما يُرَجِّب بالخطية بسرور، إذ يتصوَّرها أنها تُزَيِّنه[1].

❖ تتقدَّس النفس النقية وتستنير بالله لأجل صفائها. عندئذ يفكر ذهنها فيما هو صالح، وتتبع عنه ميول وأفعال صالحة. أما النفس التي تتدنَّس بالخطية، فإن الله يتخلَّى عنها، بل بالحري هي التي تتركه، فتُدخل إلى فكرها الشياطين الرديئة وتقترح (على صاحبها) أشياء مشينة: زنا وقتل وسلب وأفعال أخرى مشابهة شريرة وشيطانية[2].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ تذكَّر هذه الأمور، حتى تسد بها أفواه الكسالى والفاسقين والمتراخين وكارهي أعمال الفضيلة، هؤلاء الذين يتَّهمون سيد الكل. أنت أخطأت. اصمت، ولكنك "أخطأت؟ فلا تزيد أيضًا". فليست هناك خطية أَشَرّ من إنك بعدما تخطئ تتَّهِم السيد. اعرف علة الخطية فستجد أنه لم يخطئ أحد إلا أنت. في كل وضع الحاجة إلى القصد الصالح. وإنني أظهر لكم هذا لا عقليًا فحسب، بل وبأمثله من العبيد رفقائكم السالكين في العالم ذاته. استخدموا أنتم هذه الوسيلة أيضًا...

هل أحد زاني؟ قَدِّم له إنسانًا آخر ضابط لنفسه.

هل أحد طمَّاع وجشع؟ أريه إنسانًا يعطي صدقات.

هل يعيش في غيرةٍ وحسدٍ؟ عَرِّفه إنسانًا نقيًا من هذا الألم.

هل هو مغلوب من الغضب؟ أحضر إلى الوسط إنسانًا يسلك بحكمة[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ التوقُّف عن الخطية ليس كافيًا، إن تجاهلنا إصلاح الذنب القديم. يقول الكتاب المقدس: "يا بني هل أخطأت؟ **لا تزد!**" على أي الأحوال، لئلا تظن أن هذا وحده فيه أمان، أسرع فقال بخصوص الماضي: "صلِّ عمّا سلف من الخطايا" [1]. ولكن أية فائدة لمثل هذه الصلاة، إن لم تتأهَّل أن تُسمَع صلاتك لعدم وجود ثمار تليق بالتوبة، فلا تُقطع مثل شجرة بلا ثمرٍ وتُلقى في النار (مت ٢٥: ٤٢). إن أردت أن تُسمَع صلاتك عن خطاياك: "اغفروا، يُغفَر لكم" (لو ٦: ٣٧)[4].

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٥١.

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٥٢.

[3] هل للشيطان سلطان عليك؟ ترجمة القس تادرس يعقوب وجورج فهمي حنا، ص ٦٣-٦٤.

[4] *Sermon 389:6.*

❖ حقيقة أن التوبة عن الخطايا تُصلح البشر، ولكن لا يظهر لها فائدة إن كانت عقيمة من أعمال الرحمة. هذا ما يشهد به الحق على لسان يوحنا الذي قال للذين جاءوا إليه: "يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا ثمارًا تليق بالتوبة. ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أبًا. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم. والآن قد وُضِعَت الفأس على أصل الشجر. فكل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا تُقطَع وتُلقَى في النار" (لو ٣: ٧-٩).. سألته الجموع، قائلة: "فماذا نفعل؟ فأجاب وقال لهم: "من له ثوبان فليعطِ من ليس له ومن له طعام فليفعل هكذا"... ماذا يعني سوى ما يسمعه الذين على اليسار: "اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المُعَدَّة لإبليس وملائكته، لأني جعت فلم تطعموني" (مت ٢٥: ٤١-٤٢).. وماذا ينفعكم لو طلبتم الغفران دون أن تهيئوا أنفسكم لكي ما يُسمَع لكم، وذلك بعدم صنعكم "أثمارا تليق بالتوبة"، فتقطعون كشجرةٍ بلا ثمر، وتلقون في النار؟ فإن كنتم تريدون أن يُسمَع لكم عندما تطلبون الغفران، "اغفروا يُغفَر لكم. أعطوا تعطوا" (لو ٦: ٣٧-٣٨)[1].

القديس أغسطينوس

❖ البعض ليس فقط لا يندمون على ما يفعلون، وإنما يدعمون تصرفاتهم (الشريرة) بلا توقُّفٍ ويستحسنوها. حقًا إن الخطية التي تُدعم تتضاعف. بحق يدين أحدهم هذا الاتجاه بقوله: "يا بني، هل أخطأت؟ لا تزد على ما تفعله". إنه يزيد خطية فوق خطية، ذاك الذي يضيف إلى ما فعله تبريرًا لخطئه.. هكذا عندما سُئِل آدم الإنسان الأول بخصوص خطئه.. سؤال الله له هو دعوة للتوبة، لكن آدم أجاب مُبَرِّرًا نفسه، قائلاً: "المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلتُ" (تك ٣: ١٢). يلوم آدم خالقه بالتلميح على سقوطه في العصيان. وكأن آدم يقول: "لقد زوَّدتني بفرصة لارتكاب الخطية، لأنك أعطيتني المرأة". هذا النوع من الخطية يبقى واضحًا في الجنس البشري إلى الوقت الحاضر. إننا لا نزال نُبَرِّر أفعالنا الخاطئة[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

اهرب من الخطية هربك من الحية،

فإنك إن دنوت منها تلدغك.

أنيابها كأنياب الأسد، تُهلك نفوس البشر [٢].

الإنسان الصادق في توبته، متى أخطأ يلجأ للحال إلى الله بالصلاة يطلب المغفرة، مُتطلِّعًا إلى

---

[1] *Sermons on New Testament Lesson, 10:12.*

[2] *Morals on The Book Of Job, 4: 37-39.*

الخطية كسمٍ قاتلٍ، يهرب منها كما من سمّ الحية ذات أنياب الأسد. قوة التائب في عدم محاورة الخطية كما فعلت حواء مع الحية، فالهروب من الخطية ليس جبنًا بل فيه شجاعة وقوة وحكمة. يقول الرسول: "اهربوا من الزنا" (١ كو ٦: ١٨).

يتحدَّث هنا عن عدو الخير الذي يغوينا للاستسلام للخطايا بأنه يشبه حيّة وأنيابها كأنياب الأسد، فقد حارب الشيطان حواء على لسان الحية، وتطلَّع بطرس إلى عدو الخير كأسدٍ زائر يجول يفترس أحدًا (تك ٣: ١-٧؛ ١ بط ٥: ٨).

❖ الخطية هي الشيء الدنس؛ لنهرب منها، وعنها نمتنع. "إن دنوت منها لدغتك" (راجع سي ٢١: ٢).. أي شيء لا تدنسه؟ إنها تدنس الأيادي والنفس، البيت نفسه الذي نضع فيه الكنز الشرير. غير أن اليهود حسبوا هذا كلا شيء. فموسى حمل عظام يوسف (كانت في نظر اليهود دنسة) وشمشون شرب من فك حمار وأكل عسلاً من الأسد، وإيليا كانت الغربان تقوته. أخبرني إن كنا نعتزّ بهذه الأشياء، فأي شيء دنس أكثر من كتبنا المصنوعة من جلد الحيوانات (الميتة)؟[1]

❖ يليق بنا ألا نحصر أنفسنا في الشكل الخارجي والظلال، بل نقترب من الحق، ونتمسك به. الخطية شيء دنس. "إن دنوت منها لدغتك" (راجع سي ٢١: ٢)[2].

❖ لنتجنَّب كل خطية تمامًا، فبسببها يُجَدَّف عليه. قيل: "اهرب من الخطية، هربك من الحية، فإنها إذا دنوت منها لدغتك" (راجع سي ٢١: ٢). إنها لا تأتي إلينا، بل نحن نسعى إليها[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

كل إثم كسيفٍ ذي حدين،

ولا شفاء لجرحه [٣].

الإثم هو التمرُّد، يقول عنه الربّ هو ممارسة الإنسان ما يحسن في عينيه (تث ١٢: ٨). إن كانت الخطية كسيفٍ ذي حدّين، فخلاصنا يتَّطلب كلمة الله التي كسيف ذي حدّين (عب ٤: ١٣).

٢. اهرب من الظلم والكبرياء

بعد أن دعانا إلى الهروب من الخطية بوجهٍ عام، ركَّز على سقوط الأغنياء في ظلم الفقراء، وسقوط من يظنُّون أنهم أتقياء أو أغنياء في الفضيلة في الكبرياء. يليق بالظالمين والمتكبرين ألاَّ

---

[1] *Homilies on Titus, homily 3.*

[2] *On Titus, Homily 3.*

[3] *On Romans, Homily 8.*

يمقتوا التوبيخ بل يخافوا، فيرجعون إلى الربّ بقلوبهم. أما الخطر الذي يسقط فيه الأشرار فهو التصاقهم ببعضهم البعض، فيستكين قلبهم للشرّ، ويجذب الواحد الآخر للانحدار أكثر إلى لهيب نار الجحيم.

إن كان باب الحق ضيق وطريقه كرب، فطريق الخطية مُتَّسِع ومفروش بحجارة ملساء متى انزلق فيه أحد لا يقدر أن يقف بل ينحدر بلا توقفٍ. إنه محتاج إلى نعمة الله، تسنده على حفظ الوصية الإلهية تغرس فيه مخافة الربّ. بهذا يسيطر على أفكاره ويتمتَّع بالحكمة الإلهية.

الرعب والعنف يُدَمِّران الثروة،

وبمثل ذلك يُدمَّر بيت المتكبر [٤].

لا يقبل الله العنف والظلم، بل ويرفض صدقة الإنسان العنيف والظالم.

❖ لماذا تسبّ الرب بتقديمك له قرابين وهدايا نجسة؟!... أولى بك ألا تُعَرِّي أناسًا لتكسي آخرين، ألستَ تظلم من تُعَرِّيهم؟! فإنك إن ظلمتهم، ولو أعطيت ما أخذته منهم للغير فليس هذا رحمة.

❖ إذا اختطفت أموالاً وأعطيتها للغير... فما هو عذرك؟ أتريد أن تعلم مقدار ما تصنعه من الشرّ؟ اسمع ما يقوله سليمان إن الذي يُقَرِّب ذبيحة من أموال الفقراء كمن يقتل أمام الأب ابنه!

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كفى أيها الغني، لقد نسيتَ جبلتك، لا يغشك الغِنَى الزمني الذي لا يُخَلِّصك.

أيها الجبار القوي وَبِّخ نفسك، لماذا تهدد، لو ينسى قلبك الرب، فأنت ضعيف؟

حقيقية هي كلمة النبوة: لا يستكبر الحكيم ولا الجبار ولا الغني.

ليفتخر الإنسان بالرب إن افتخر، لأنه يثبت إلى الأبد، له التسبيح[١].

القديس مار يعقوب السروجي

صلاة الفقير تخرج من فمه، وتبلغ إلى أذني الربّ،

فسرعان ما يُجرى له قضاؤه [٥].

الله هو إله المساكين والمظلومين والذين ليس لهم من يسأل عنهم، يميل أذنيه لكل الفئات المتألمة والمحتاجة والمنسية ويسمع صرخات قلوبهم. إنه يُغلَب من صلواتهم وتنهُّداتهم ودموعهم، يقول لهم: "حوّلي عني عينيك فإنهما قد غلبتاني" (نش ٦: ٥).

---

[١] الميمر ٤٣ على محبة الافتخار (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

❖ الصلاة وحدها هي التي تغلب الله (لأنه رحوم). لكن أَكَّد السيِّد المسيح أنها لا تعمل لحساب الشرّ، وقد أعطاها كل فاعليتها عندما تُستخدَم للخير. فهي لا تعرف إلاَّ أن تهب الضعفاء القوة، وتشفي المرضى، وتحل المُقَيَّدين بالأرواح الشريرة، وتفتح قضبان السجون، وتفك قيود الأبرار.

كما أنها تَغسل العيوب وتُثبط التجارب، وتُطفِئ نيران الاضطهاد، وتُعَزِّي النفوس الخائرة، وتُشَجِّع المطروحين، وتُرشِد المسافرين، تُهَدِّئ الأمواج، وتُرهِب اللصوص، وتُنعِش المساكين، وتَضبط الأغنياء.

الصلاة تُقِيم الهابطين، وتُخَلِّص الساقطين، وتُثَبِّت الواقفين.

الصلاة هي سور الإيمان. فهي تُسَلِّحنا وتطلق سهامًا تجاه العدو المُتربِّص لنا من كل ناحية. فلن نكون عزَّل. في النهار نكون واعين بواجبنا، وفى الليل بسهرنا. وإذ نحمل سلاح الصلاة نحرس لواء قائدنا. وننتظر مصلين لبوق رئيس الملائكة[1].

العلامة ترتليان

من يمقت التوبيخ يسير في خطوات الخاطئ،

لكن من يخاف الربّ يرجع إليه بقلبه [٦].

قيل عن بركات التوبيخ: "ارجعوا عند توبيخي، هأنذا أفيض لكم روحي، أعلمكم كلماتي" (ام ١: ٢٣). "يا ابني لا تحتقر تأديب الرب ولا تكره توبيخه" (أم ٣: ١١). "لأن الوصية مصباح، والشريعة نور، وتوبيخات الأدب طريق الحياة" (أم ٦: ٢٣). "وَبِّخ حكيمًا فيحبك" (أم ٩: ٨). "من يحب التأديب يحب المعرفة ومن يبغض التوبيخ فهو بليد" (أم ١٢: ١). "فقر وهوان لمن يرفض التأديب ومن يلاحظ التوبيخ يكَّرم" (أم ١٣: ١٨). "الأحمق يستهين بتأديب أبيه، أما مراعي التوبيخ فيُذكَّى" (أم ١٥: ٥).

❖ كثيرًا ما يحدث أن ينهار الإنسان إلى حين عندما يُوبَّخ، فيقاوم ويصارع. لكنه بعد ذلك في خلوته حيث لا يوجد سوى الله وهو، لا يخاف من استياء الآخرين، فيُصلح من نفسه، إنما يخشى غضب الله برفضه الإصلاح. فلا يعود يُكَرِّر هذا التصرُّف الذي استهجنه الأخ، فيحب أخاه الذي كان يتطلع إليه كعدوٍ وهو في الخطية، بقدر ما يكره الخطية نفسها[2].

القديس أغسطينوس

---

[1] *On Prayer, 29*. ترجمة الدكتورة نهى عزت

[2] *Letter 210*.

القدير في الكلام يُعرَف من بعيد،

لكنّ العاقل يُعرَف متى زلّ [٧].

يُمَيِّز ابن سيراخ بين من وُهِب القدرة على الكلام ومن تمتَّع بالتعقُّل، الأول ما يشغله هو سمعته وشهرته، أما الثاني فما يشغله هو خلاص نفسه، لذا يدرك خطاياه ويعترف بها، راجعًا لله بالتوبة.

من بنى بيتًا بأموال غيره،

كمن يجمع حجارته في عاصفة (أو لقبره) [٨].

من بين نصائح ابن سيراخ اهتمامه بتدبير الأمور المالية بحكمة: لذلك يُحَذِّر من أخذ قروض فوق طاقة الإنسان وإمكانياته لبناء بيته.

مجلس الأثمة مثل حزمة ملتهبة،

وعاقبتهم لهيب نار [٩].

إن كان الأشرار يهتمّون بالوحدة معًا كحزمةٍ، لكنها تلتهب بنيران الشرّ التي تحرق وتُحَطِّم. هنا وغالبًا ما يبلغ الشرير إلى الذروة في شرّه، فلا يكفيه أن يُمارِس الشرّ ويفتخر به ويحبه أكثر من الخير، وإنما يحب الأشرار ليُشَارِكهمّ شرهم أو يحثّهم بالأكثر على ممارسته بكل عنفٍ. تصير لذّته في صحبة الأشرار والتشاور معهم، لا لهدفٍ إلا لأنه يُسَرّ بهلاك الناس، ويفرح بالغش والكذب.

طريق الخطاة مفروش بحجارة،

وفي نهايته حفرة الهاوية [١٠].

ما هو طريق الخطاة المفروش بحجارة صلدة، وفي نهايته حفرة الهاوية، سوى الطريق الواسع الذي يؤدِّي إلى الهلاك (مت ٧: ١٣). وأما الطريق الكرب الذي يؤدي إلى الحياة (مت ٧: ١٤)، ففيه تترنَّم نفسي: "مع المسيح صُلِبتُ، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ" (غل ٢: ٢٠).

❖ عندما يمارس الإنسان أمورًا غير شرعية، إنما يخشى مما فعله!

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ خرج الملك ليرى هؤلاء المدعوين الذين أتوا، فرأى هناك رجلاً متشحًا بملابس قذرة (مت ٢٢: ١١-١٣).

وقال له: قل لي يا صاحب مَن أدخلَكَ وأنت غير متشح بملابس الوليمة المجيدة؟

لماذا تأتي بهذه الملابس القذرة إلى هنا؟ إن هذه الملابس لا تليق بالوليمة.

وأمر الملك الخدام وربطوا يدَيه، وكتفوا رِجلَيه، وألقوه في الظلمة المخيفة.

حيث البكاء العظيم وصرير الأسنان على ذلك المتشح بملابس قذرة في الوليمة[1].

القديس مار يعقوب السروجي

في الطريق الواسع أعاني من عار العري، أما في الطريق الضيق أَتعرَّى من ثياب العالم وأرتدي ثوب البرّ.

❖ أُعطِي لنا ثوب البرّ سابقًا في الفردوس، وتجرَّدنا منه، وصرنا عراة. هذا العري الذي للابن الضال وهبه الأب أن يتغطَّى، إذ قال عند عودته: "احضروا له سريعًا الثوب الأول" (راجع لو ١٥: ٢٢). الثوب الأول هو ثوب البرّ الذي بحق تَسَلَّمه الإنسان عند خلقته، لكنه إذ خُدِع بواسطة الحية خسره. مرة أخرى قيل عن هذا العري: "طوبى لمن يسهر ويحفظ ثيابه لئلا يسير عريانًا" (رؤ ١٦: ١٥). فإننا نحفظ ثيابنا عندما نحفظ وصايا البرّ في قلوبنا، حتى إن تجرَّدنا نظهر عراة أمام الديان بالإثم، فبالندامة نتغطَّى ويعود لنا البرّ الذي فقدناه.

البابا غريغوريوس (الكبير)

٣. اهرب من الحماقة واطلب الحكمة

ما يشغل ابن سيراخ تقديس الداخل ليتمتَّع المؤمن بروح الحكمة والتمييز في كل جوانب حياته. لذلك دعانا إلى طلب كمال مخافة الربّ [١١] والتمتُّع بالمعرفة الصادقة كينبوع حياة يفيض على الفكر والقلب [١٣]، والتمتُّع بالنعمة الإلهية [١٦]، ونزع الحماقة باقتناء الحكمة [١٨]، والمثابرة على التعليم المقدس كحليّ يُزَيِّن النفس [٢١] الخ.

من حفظ الشريعة سيطر على أفكاره،

وكمال مخافة الربّ الحكمة [١١].

❖ الاختلاف بين الحكمة والحماقة مثل النور وهو يُقارَن بالظلمة، أظن أنه من اللائق أنه استخدم التشبيه بالنور في إدراك الصلاح. وحيث أن الظلمة في طبيعتها ليست بحقيقة (لا كيان لها)... بينما يُمكِن إدراك النور في جوهره. أظهر بهذا التشبيه أن لا وجود للشرّ في ذاته، بل يقوم بفقدان الصلاح، أما الصلاح فدائمًا قائم وثابت، ولا يقوم بفقدان أي شيء أسمى منه[2].

القديس غريغوريوس النيصي

---

[1] راجع الميمر ١٧١ على ذلك المثل الذي قاله ربنا: يشبه ملكوت السماء رجلا ملكا صنع وليمة لابنه (مت ٢٢: ١-١٤؛ لو ١٤: ١٥-٢٢).

[2] *Homilies on Ecclesiastes 5.*

بين سمات الحكيم وسمات الأحمق:

بالنعمة الإلهية العجيبة تتحطَّم حماقة الإنسان وتتجلَّى حكمة المسيح في فكره وقلبه وكلماته وسلوكه. حقًا أية مقارنة بين من تستعبده حماقة قوات الظلمة ومن يُحَرِّره حكمة الله المتجسد؟!

❖ الشخص الحكيم والشخص الأحمق لا يشتركان في شيء سواء في الاصطلاحات الخاصة بالذكريات البشرية أو المكافآت الإلهية... الإنسان الحكيم لن يشارك مصير الأحمق[1].

القديس غريغوريوس صانع العجائب

١. يشبِّه عقل الأحمق بإناءٍ مكسورٍ لا يحتفظ فيه بشيءٍ [١٤]، وعقل الحكيم بينبوع مياه عذبة ونقية.
٢. الأحمق كبيت خرب، لا يسكنه شيء صالح، بل تسكنه بعض الحيوانات والطيور الشرسة [١٨].
٣. يسمع الأحمق كلمة الله فيلفظها، إذ يحسبها كلمة غير منطقية ولا مقبولة، وبلا معنى.
٤. الأحمق مثل الأبله، توجد قيود في رجليه وفي يده اليمنى، تمنعه من الحركة والعمل [١٩].
٥. يضحك الأحمق بصوتٍ عالٍ، ويبتسم الحكيم في سكون يكشف عن سلامه وفرحه الداخلي [٢٠].
٦. التعليم للحكيم كحليّ تُزَيِّن العروس السماوية وسوارٍ في ذراعه يدفعه للعمل المقدس الروحي [٢١].
٧. الأحمق يدخل بيت من يزوره في تهورٍ وينتظر الحكيم ليأذن له صاحب البيت بالدخول [٢٢].
٨. الغبي يتطلَّع من الباب لينظر ما في داخل البيت، أما الحكيم المُهذَّب فيقف خارجًا! [٢٣].
٩. يليق بالحكيم ألا يقتحم خصوصيات الغير فلا يتصنَّت على أحدٍ [٢٤].
١٠. الحكيم يزن كلماته، فلا تخرج من فمه كلمة باطلة، أما الغبي فيُكَرِّر كلماته [٢٥].
١١. عقول الحمقى في أفواههم، أما الحكماء فأفواههم في عقولهم لا ينطقون بكلمة دون التفكير فيها.

من لم يكن ذكيًا لا يتعلَّم،

ولكن يوجد ذكاء يكثر المرارة [١٢].

الذكاء عطية يُقَدِّمها الله للبشر، لكن الكبرياء يُحوِّل الذكاء إلى مرارة.

معرفة الحكيم كالطوفان،

ومشورته تفيض بغزارة كينبوع حياة [١٣].

يرتوي الحكيم من المعرفة الحقيقية فتهبه بهجة، وتفيض في داخله كطوفان لا يمكن قياسه. كما يفيض على إخوته بالمشورة الصادقة كينبوع حياة. هذا هو عمل الروح القدس فينا (مر ١٣: ١١).

أعمال الأحمق الداخلية (عقله) كإناءٍ مكسورٍ،

---

[1] *Paraphrase of Ecclesiastes 2:16.*

لا يحتفظ بشيءٍ من المعرفة [١٤].

تفيض الحكمة على الإنسان في أعماقه بالمعرفة كطوفانٍ لا يتوقَّف. أما الأحمق فيشبه إناءً مكسورًا لن يحتفظ بشيءٍ في داخله. إذ تُوَلِّد الحماقة الشرّ فيعاني الأحمق من الفراغ، ويصير كحيوانٍ أعجمٍ يموت ويهلك وكأنه لم يكن له وجود في وقتٍ ما. أما الحكيم فإنه وإن مات إنما يرحل إلى الفردوس ليتمتَّع بأمجادٍ أبدية وبالخلود.

❖ عدم الإحساس وعدم التعقُّل يُوَلِّد في النفس الجهل بالله، وهذا الجهل يُوَلِّد الشر. وأما معرفة الله فتجلب الصلاح وتنقذ النفس. لهذا إن بقيت في حالة من السمو مع معرفة بالله ومحاولة عدم إشباع شهواتك الخاصة، يتَّجِه عقلك إلى الفضيلة. أما إن سكرت بالجهل بالله، وتمتَّعت بإشباع شهواتك الشريرة، ناسيًا الشدائد التي تنتظرك بعد الموت، فإنك تهلك كالحيوان الأعجم[١].

القديس أنطونيوس الكبير

إذا سمع رجل الفهم كلمة حكمة، يمدحها ويزيد عليها.

أما المنغمس في الملذَّات،

فإذ يسمعها، يكرهها وينبذها وراء ظهره [١٥].

شتان ما بين الحكيم الذي يجد لذته في كلمة حكمة، والنمو المستمر في المعرفة، وأما الأحمق فلا يطيق كلمة حكمة، بل يستخفّ بها ويكرهها ويتجاهلها، ويحسبها تحرمه من سعادته وملذاته الزمنية.

حديث الأحمق كحملٍ ثقيلٍ في رحلةٍ،

وأما النعمة فعلى شفتي الإنسان العاقل [١٦].

شتان ما بين الحكيم والأحمق، الأول تلتصق النعمة بشفتيه، فلا يمِلّ أحد من كلمات النعمة الصادرة من فيه. أما حديث الأحمق فبلا نفعٍ، ويود من يرافقه ألاَّ يسمع كلماته، لأنها ثقيلة ومُفسِدة.

نُطق الفطن يبتغونه في المجلس،

وكلامه يتأملون فيه في قلوبهم [١٧].

إذا ما تحدَّث العاقل في مجلسٍ يصغي الكل إليه، لأنه يبثّ فيهم البهجة ويملأهم بالرجاء، ويدفعهم إلى التقدُّم المستمر. يحسبون كل كلمة ينطق بها لها نفعها في حياة السامع كما في المجتمع.

كلمة "قلب" هنا كما سبق الإشارة تعني الفكر أو العقل. فالمستمع للعاقل يحرص أن يحفظ ما يسمعه ويعتز به، ويجتره على الدوام!

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١١٩.

الحكمة للأحمق كبيت قد اختفى،

ومعرفة الجاهل كلام لا يتصدَّى للفحص [١٨].

يستثقل الأحمق كلمات الحكمة يحسبها كخيالٍ، أو كبيتٍ لا يود السكنى فيه، بل كحلمٍ عبر.

اليوم الذي لا يتعلَّم فيه الإنسان شيئًا جديدًا ليس فقط ضاع من عمره، بل يُفسِد ما سبق أن تعلَّمه. وكأن معرفة الإنسان لن تكون جامدة؛ إما أن تتجدَّد وتنمو أو تتوقَّف لا ليبقى الحال على ما هو عليه بل يخسر وقته، وتضعف معرفته، ويتخلَّف إلى الوراء. يشبهها **القديس غريغوريوس** بمن يَسْبَح في بحرٍ، إما أن يتقدَّم إلى الميناء أو يتوقَّف في وسط البحر فيغرق ويهلك.

التعليم للأحمق كالقيود في الرجلين،

وكالغُلّ في اليد اليمنى [١٩].

التعليم عند الأحمق ثقيل للغاية، إذ يحسبه قيودًا لحياته تفقده الحرية في التصرُّف والتلذُّذ.

٤. آداب سلوك الحكيم

يُقَدِّم لنا ابن سيراخ بعض سمات لسلوك الإنسان الحكيم، مثل الابتسامة عوض الضحك بصوتٍ عالٍ [٢٠]، تقدير خاص بالتعليم فيعتزّ به كما تعتز العروس بالحليّ والجواهر التي يُقَدِّمها لها عريسها [٢١]، عدم التسرُّع عند دخول بيت أحد الأقارب أو الأصدقاء [٢٢]، وعدم التصنت على الباب [٢٤]، وعدم الإكثار من الكلام [٢٥]، مع وزن كل كلمة قبل النطق بها [٢٦].

يرفع الأحمق صوته عند الضحك،

أما الحاذق فيبتسم بهدوءٍ بشيءٍ من التردُّد [٢٠].

❖ إن كنا نراعي أنفسنا بمخافة إلهية عند دخولنا في صحبة الآخرين، وإن كنا نهتم بقلوبنا في سهرٍ، لا نجد علة أن نضطرب أو نضحك. ففي حضور المخافة الإلهية لا يوجد ضاحك. أما بالنسبة للحمقى فقد قيل إنهم يرفعون صوتهم عند الضحك. كلمات الأحمق تحمل اضطرابًا، أما البار فيتحدَّث فقط ليبتسم[1].

❖ إن كنا قبل صدامنا مع الغير، نُهَيِّئ قلوبنا بالسهر في مخافة الله، فلماذا نجد سببًا لنصير في انزعاجٍ أو ضحكٍ؟ بالحقيقة لا يوجد ضاحكٍ في حضور مخافة تقويّة. قيل عن الأغبياء أنهم يرفعون أصواتهم عندما يضحكون، وأن حديث الغبي مُزعِج ويؤدي إلى فقدان المسرَّة. على أي

---

[1] *Letter 454.*

الأحوال، يُقَال عن البار إنه مُجَرَّد يبتسم. لذلك إن كنَّا نجلب لأنفسنا تذكُّر الله، ونملأ أفكارنا بالتواضع الهادئ عندما نكون في صحبة أصدقائنا، فإننا نحبهم بهذا الأسلوب، ونضع أمام عيوننا دينونة الله المخوفة. فإن الله يسكن حيث يوجد هدوء ولطف وتواضع.

القديسان برصنوفيوس ويوحنا

أوضح **القديس باسيليوس** التمييز بين الضحك المُفسِد والضحك بمعنى فرح النفس وتهليلها بالله.

❖ الانغماس في الضحك بطريقة غير مُنضبِطة ومبالغ فيها علامة على الإسراف ونقص ضبط الإنسان لمشاعره، والفشل في قمع طيش النفس باستخدام العقل بحزمٍ. أنه ليس بالأمر غير اللائق أن نشهد عن مرح النفس بابتسامة مبهجة، إن كانت فقط توضح ما هو مكتوب: "القلب الفرحان يجعل الوجه طلقًا" (أم ١٥: ١٣). أما الضحك الأجش والذي بلا ضبط لحركات الجسم فهو ليس بمؤشر عن نفس لها تدبيرها الحسن أو عن وقارٍ شخصي أو من يسود على نفسه.

هذا النوع من الضحك يشجبه الجامعة خاصة بكونه مُخَرِّبًا لثبات النفس، وذلك بالكلمات: "للضحك قلت خطأ (مجنون)" (جا ٢: ٢). مرة أخرى: "كصوت الشوك تحت القدر هكذا ضحك الجهلاء" (جا ٧: ٦). علاوة على هذا فإن الرب يظهر أنه مارس هذه العواطف الضرورية المُلازِمة للجسم، كما أيضًا تلك التي ترتبط بالفضيلة، كمثال الحزن على الحزانى والحنو عليهم، ولكن كما نعلم من قصة الإنجيل أنه لم يضحك قط. على العكس لقد أعلن عن الذين يستسلمون للضحك أنهم غير سعداء (لو ٦: ٢٥).

لا نسمح لكلمة (الضحك) أن تخدعنا إذ لها معنيان. فكثيرًا ما تستخدمها الأسفار المقدسة عن فرح الروح وبهجة المشاعر التي تتبع الأعمال الصالحة. كمثالٍ تقول سارة: "قد صنع إليَّ الله ضحكًا" (تك ٢١: ٦). ويوجد قول آخر: "طوباكم أيها الباكون الآن، لأنكم ستضحكون" (لو ٦: ٢١). بطريقة مماثلة كلمات أيوب: "**عندما يملأ فاك ضحكًا**" (أي ٨: ٢١). كل هذه الشواهد للبهجة يشير إلى مرح النفس عوض المرح الصخب. لذلك من يكون سيدًا لكل هوى ولا يشعر بهياجٍ في مسرته، أو على الأقل لا يظهر تعبيرات خارجية بل يميل إلي ضبط كل لذَّة ضارة بحزمٍ، مثل هذا فهو عفيف كامل، وهو في نفس الحق تحرَّر من كل خطية بكل وضوح[1].

القديس باسيليوس الكبير

التعليم للفطن كحليّ من ذهبٍ،

---

[1] *The Long Rules, Question 17.*

وكسوارٍ في ذراعه اليمنى [٢١].

الحكيم يفرح بالتعليم، وكأنه بالعروس التي تعتز بهدايا عريسها التي يُقَدِّمها لها كي تتزيَّن بها.

قَدَم الأحمق تُسرِع في دخوله بيت،

أما الإنسان الواسع الخبرة فيقف بوقارٍ خارجًا [٢٢].

يتحرَّك الحكيم بوقارٍ وفي حياءٍ، فلا يسرع في دخوله بيوت أصدقائه، معتمدًا على صداقته الوثيقة بهم، إنما يعرف حدود الصداقة فلا يتعدَّاها.

الذي بلا تمييز يُحدّق من الباب إلى داخل البيت،

أما المُهذَّب فيقف خارجًا [٢٣].

يُظهِر الإنسان قلَّة أدبه بالتصنُّت على الباب،

والفطن يُحزِنه ذلك العيب [٢٤].

شفاه الأغبياء تصف الأمور بتفصيل،

وكلام الفطناء يوزن بالميزان [٢٥].

قلوب الحمقى في أفواههم،

وأفواه الحكماء في قلوبهم [٢٦].

❖ لسببٍ صالحٍ قال النبي: "لسان (الشرير) يخترع مفاسد" (مز ٥٢: ٤). التأمل يناسب النفس الحيّة خلال شعورها الحيّ، أما اللسان فلم يُخلَق بما يناسب الطبيعة العاقلة، وإنما ليكون خادمًا للطبيعة العاقلة. مع ذلك يُظهِر نبي آخر قول موثوق به مُوحى به وكامل، إذ يقول: "عقول (قلوب) الحمقى في أفواههم"، قاصدًا بذلك أنهم ينطقون بأشياء عشوائية لا أساس لها، فقد اعتادوا عدم الرجوع إلى تمعن العقل بعد التأمّل فيه في القلب، وإنما يسلكون في تحركٍ متهوّرٍ للسان بطياشةٍ.

إن كان قلب الأحمق في فمه. إنما لأنه لا ينطق بما يفكر فيه، إنما يفكر بعد أن ينطق. هذا يشير إلى لسان الأحمق، أما عن لسان الحكيم فنقرأ بالحري: "فم الصديق ينطق بالحكمة" (مز ٣٧: ٣٠). "لساني قلم كاتب ماهر" (مز ٣٧: ٣٠). لسان الحكيم يولد من التأمل في الحكمة، لهذا يشبه قلم كاتب، لا ينطق قط بارتباك أو بما فيه شك. بل بالحري يخضع لما يُفكر فيه وما يُقرأ، فيفيض بذكاءٍ حادٍ حسب حكم الشخص[1].

---

[1] *Homilies on Psalms 51:7.*

٥. اهرب من السب والنميمة

إذا لعن الشرير الشيطان، يلعن نفسه *his soul* [٢٧].

يرى البعض أن الحديث هنا عمن يظن أن أحدًا ما شيطان فيلعنه، إذ باللعنة ترتد إليه. ينسب **العلامة أوريجينوس** كل شيطانٍ إلى خطية مُعَيَّنة، فمن يرتكب خطايا كثيرة يكون مثل ذلك الإنسان الذي كان يسكن في القبور وقد سكن فيه لجيئون، أي شياطين كثيرة (مر ٥: ٩؛ لو ٨: ٣٠).

❖ إن كان الشيطان يُدعَى "الخصم"، لذلك فإن كل الذين ضد إرادة الله يمكن دعوتهم أبالسة[1].

❖ لماذا يبدو غريبًا أن ننسب شيطانًا لكل نوعٍ من الخطايا، وقد كُتِب أنه وُجِد في شخصٍ واحدٍ لجيئون من الشياطين؟ بل إنني أَتذكَّر قولاً مُشابِهًا عند تفسيرنا العبارة الواردة في مزمور: "باكرًا أبيد جميع أشرار الأرض، لأقطع من مدينة الرب كل فاعلي الإثم" (مز ١٠١: ٨). أيضًا قيل إن: "سيوف ذو حدّين في يد البار" (راجع ١٤٩: ٦)، بلا شك إنها تُستخدَم لتحطيم القوات المقاومة. لكنني أعتقد أنه لكي نعطي تأكيدًا أكثر قوة وبطريقة قاطعة نقتبس كلمة بولس الرسول: "إله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعًا" (رو ١٦: ٢٠)[2].

العلامة أوريجينوس

النمام يُنَجِّس نفسه *his own soul* وسيكرهه جيرانه [٢٨].

لا يُسِيء النمام إلى الغير بقدر ما يُسِيء إلى نفسه. جاء عن **القدِّيس أغسطينوس** أنه كتب بيتين شعر ضد النميمة وعلَّقهما في بيت المائدة. اِتَّفق أن جلس معه على المائدة بعض الأساقفة فأخذوا يغتابون قومًا، فنصحهم قائلاً لهم: إما أن تمحوا هذين البيتين، أو أنني أقوم عن المائدة.

❖ الإنسان الذي لا يعرف كيف يُمَيِّز بين الخير والشر، ليس له أن يحكم في البشر أن هذا صالح وذاك شرير. من يعرف الله يكون صالحًا. وإذا لم يكن الإنسان صالحًا فهذا يعني إنه لا يعرف الله والله لا يعرفه. لأن الصلاح هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله[3].

القديس أنطونيوس الكبير

---

[1] *Homilies on Joshua, FOTC, vol. 105, p. 148-150.*

[2] *Homilies on Joshua 15:6.*

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٢٩.

❖ إذا سمعت أحدًا يثلب غيره اهرب منه كهروبك من حية سامة، حتى يخجل ويتعلَّم ألاَّ يتكلم بهذا مرة أخرى.

القدِّيس جيروم

من وحي سيراخ ٢١

إليك ألجأ يا مُخَلِّص الساقطين

❖ وصيتك نور عجيب ونار مُلتهِبة، تكشف عن خطاياي، وتلهب قلبي بنيران حُبِّك.
تزحف الحية لتلدغني بسمها القاتل، وتزأر كأسدٍ لكي ترعبني في برية هذا العالم.
إلى من ألجأ إلاَّ إليك يا غافر الخطايا، وواهب الرجاء المُفرِح والبرّ والقداسة.

❖ وصيتك تنتشلني من البغضة والعنف والظلم؛ فألتصق بك وأقتني حُبّك وحنوك وتواضعك.
لن أنسى إني تراب ورماد، وقد دبّ الفساد فيَّ، لكنك تحتضنني،
يا من تُقِيم الهابطين وتُخَلِّص الساقطين، وتثبت الواقفين، وترفع الترابيين كما إلى سماواتك.

❖ تؤدِّبني بتوبيخك لي، فأتلمس حُبَّك، وأرجع إليك.
تهبني حكمتك، فلا أبني بيتي على رمل العالم، بل أقطن فيك يا صخرة الأبدية.
ألتصق بالشاكرين لك، ولا أجلس في مجلس الأثمة الأشرار.
لا يجتذبني طريق الخطاة المُتَّسِع، بل أُسرّ بالصلب معك يا أيها الطريق والحق والحياة.

❖ وصاياك في جوهرها دعوة لاقتنائك يا كلمة الله.
لا تكف على القول: "أنا هو..." كي أتعرَّف عليك وأقتنيك.
بك أتمتع بالحكمة والتمييز، وأنفض عني الحماقة والجهل.
بك أسير في النور، وأسمع صوتك العجيب: "أنتم نور العالم" (مت ٥: ١٤).
تتبدد ظلمة الخطية الواهية، ولا يكون لها موضع داخلي!
أشكرك لأنني في حماقتي كنتُ كإناءٍ مكسورٍ، لا يحتفظ بماء الحياة،
وبك أتمتع بينبوع مياه عذبة ونقية.
بحماقتي كنت كبيتٍ خربٍ، تسكنه قوات الظلمة، كحيواناتٍ وطيورٍ شرسةٍ،
وبك أَتَمَتَّع بملكوتك في داخلي.
في حماقتي كنت أسخر بكلمتك، وبك أترنم:

"ما أحلى قولك لحنكي أحلى من العسل لفمي" (مز ١١٩: ١٠٣).

في حماقتي كنت أضحك بصوتٍ فارغٍ عالٍ، وبك تعلن ابتسامتي عن سكناك فيَّ.

في حماقتي كنت أظن وصاياك قيودًا ونيرًا ثقيلاً،

وبك أراها الحلي الثمين الذي تعتزّ به العروس السماوية.

في حماقتي كنت متهورًا في كل شيءٍ، وبك أنطلق في هدوءٍ كما من مجدٍ إلى مجدٍ.

❖ هب لي أن أستعذب كلمة الحكمة، وأحسبها لؤلؤة أحتفظ بها في عقلي وقلبي.

أجترّها على الدوام، وأحسب أنني لم أبلغ بعد إلى أعماقها.

انزع عني الحماقة والثرثرة حتى لا تكون كلماتي ثقلاً على سامعيها.

وهب لي نعمتك، فأحتضن حكمتك،

تملأني بالبهجة الحقيقية ويشتاق كل من ألتقي به أن يقتنيها ويُمارِسها.

يتأملها من حينٍ إلى حينٍ، إذ يختبر عذوبتها في أعماقه.

❖ دَرِّبني على الاقتداء بك يا خالقي ومُخَلِّصي.

أنا من صُنْعِ يديك، مدين لك بكل حياتي.

تسألني على الدوام: "أتريد أن تبرأ؟" عَلِّمني ألاَّ أضغط على أحد من إخوتي،

ولا أقتحم مسكنه دون الاستئذان منه.

قَدِّس خطواتي وكلماتي، فأشعر بمرافقتك لي في كل نسمات حياتي.

انزع عني الثرثرة الباطلة، واحرس لساني من النميمة.

الأصحاح الثاني والعشرون

الاهتمام بقداسة الأبناء والأصدقاء

في الأصحاح السابق أبرز مصادر القداسة والفهم والحكمة كي يتمتَّع المؤمن بروح التمييز، ويلتهب قلبه شوقًا نحو التقديس في الداخل والخارج. كما يشتهي أن يتمتَّع كل البشر بالحياة المقدسة، خاصة أبناءه وأصدقاءه.

في هذا الأصحاح يتحدَّث عن قدسية الأبناء، فأبرز ضرورة بثّ روح الجديّة **وعدم الكسل** والتراخي فيهم، هذا من الجانب السلبي، أما من الجانب الإيجابي فيُهَيِّئ المؤمن لأبنائه **التمتُّع بالحكمة** الصادقة. كما يلتزم الأب **بتأديب أبنائه** بروح الحب واللطف مع الحزم. ويطلب منهم الهروب من الصديق الأحمق حتى لا تفسد نقاوة قلوبهم. أما بخصوص قدسية الأصدقاء، فأبرز الآتي:

- مع انشغالنا بقدسية الأصدقاء يلزمنا أن نهتم **بينبوع المياه الحيّة التي في داخلنا.**
- الحرص على **قدسية اللسان**، من الشتيمة أو إفشاء الأسرار لئلا تتحطَّم الصداقة وتفسد.
- يعتبر دخول الصديق في متاعب فرصة أن **نهتم به في شدته**، فيشعر بصدق صداقتنا له.
- يختم الحديث **بطلب الحراسة المُشَدَّدة على اللسان** وحفظه من الشر.

١. الأبناء وعدم الكسل [١-٢].

٢. الأبناء الحكماء [٣-٥].

٣. تأديب الأبناء [٦-٧].

٤. الهروب من الأحمق [٨-١٨].

٥. الحرص على حفظ الصداقة [١٩-٢٧].

١. الأبناء وعدم الكسل

بدأ الأصحاح بأخطر عدوين ضد الحكمة وهما الكسل والانغماس في الملذَّات. يشتهي الوالدان أن يكون أبناؤهما أفضل منهما أدبًا وعلمًا ومعرفةً ونجاحًا في كل شيءٍ، لذلك بدأ الحديث عن الكسل حتى لا يُذَلِّل الوالدان أبناءهما كي ينشأوا جادين في حياتهم. ثم يتَّحدث بعد ذلك عن الحكمة، ليسلكوا بروح التعقُّل في الربّ. كما يؤكد تأديب الابن إن أخطأ. ويُطالِب الأبناء بالهروب من الصداقات الفاسدة والالتصاق بالأصدقاء الحكماء.

بالنسبة لابن سيراخ التراخي أو الكسل هو العلامة البارزة للأحمق. فالأحمق بكسله يُمَثِّل مشكلة

لنفسه وللآخرين، للكسل أثاره على المجتمع. فليس من إنسانٍ يريد أن يلتصق بشخصٍ كسلان.

يتحدث ابن سيراخ عن الفتاة الصغيرة الكسلانة، إذ لا يريد أحد أن يتزوجها، وتقضي عمرها معتمدة على والديها [٣-٤]. والابنة الوقحة إذا تزوجت تجلب عارًا على والدها وزوجها [٥].

الإنسان الكسلان أشبه بحجر مُلوَّث،

كل أحد يُصفِّر لخزيه [١].

يدفع الكسل الإنسان إلى الخزي (أم ٢٤: ٣٠-٣٤). يشبه حجرًا ملوثًا بالقاذورات. من يتطلَّع إليه يستاء منه. قيل: "قال الله **نعمل** الإنسان على صورتنا كشبهنا... ذكرًا وأنثى خلقهم" (تك ١: ١٦، ٢٨). إنه **الله العامل!** ربما تعجب لهذه الصفة التي يندر أن يركز الإنسان بصيرته على الله بكونه العامل. في جسارة أقول يليق بالصورة أن تتشبَّه بالأصل وتلتصق به، وتطلب نعمته لتحمل الصورة الصادقة التي إحدى سماتها **العمل!**

بعد أن أوجد الفنان الأعظم هذا العالم الرائع في جماله لأجل الإنسان، وبعد أن خلق الإنسان كملكٍ في قصره "جنة عدن" صاحب سلطان، قيل: "**ورأى الله كل ما عمله، فإذا هو حسن جدًا**". لقد سُرّ الله بما عمله، لا عن احتياج إليه، وإنما لأن العمل يسكب سعادة وفرحًا على محبوبه الإنسان!

هكذا خلقنا وأوجدنا في جنة عدن، ولم نكن في حاجة إلى العمل لنأكل ونشرب ونتلذَّذ. لكنه أراد لنا أن نتشبَّه به، فنعمل ونحفظ الجنة. لو لم يخطئ أبوانا الأولان، لصرنا نعمل دون تعبٍ، ونجد مسرَّتنا في تقديم عمل المحبة لمن هم حولنا، ويفرح الكل بعمل الحُبِّ المشترك.

قيل عن الله: "فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدسه" (تك ٢: ١-٢). راحة الله في اليوم السابع ليست خمولاً، فإنه دائم العمل: "**أبي يعمل حتى الآن، وأنا أعمل**" (يو ٥: ١٧). أكمل الخليقة، وبقي يرعاها ويهتم بخلاص الإنسان الذي أفسد طبيعته.

ونحن من جانبنا راحتنا لا في الهروب من العمل، لكن إن كان لأجل راحة الجسد والفكر نتمتَّع بالأجازات، إنما نعمل حتى في نومنا وراحتنا خلال الحب. نعمل بحكمةٍ واتزانٍ في كل جوانب حياتنا الروحية والعقلية والنفسية والعلمية والاجتماعية والجسمية، فينعم الإنسان بالإبداع فيما وهبه الله، ليكمل عمل إخوته في الجوانب الأخرى.

يعتزّ الرسول بولس بأنه كان ينفق على نفسه ومن معه خلال عمله (أع ٢٠: ٣٤-٣٦). وفي رسالته إلى أهل كورنثوس (١ كو ٤: ٨-١٣) أوضح أنه كان يعمل ويتعب. وهو بهذا يُوَبِّخهم، إذ في تراخيهم وكسلهم ظنوا في أنفسهم ملوكًا لا يمارسون أعمالاً.

❖ كن منشغلاً بما هو للربّ، أو مشغولاً بعملك، ولكن لا تكن عاطلاً[1].

الدسقولية

❖ في البدء كان يمكن أن **تعمل دون كدٍ**... لأن الله نفسه أراد هذا، لكنك لم تسمح بذلك. فإن الله لم يمزج العمل بالكد. لو أن الإنسان اختبر الكد منذ البداية لما أُبتلي به كعقابٍ بعد ذلك. يمكنك أن تعمل وفي نفس الوقت لا تصل إلى مرحلة العمل الشاق، كما في حالة الملائكة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الذين يدركون تمامًا أن عملهم كله يجب أن يهدف نحو بلوغ الحياة الصالحة، ومع ذلك يلهون بالبركات الزمنية؛ هؤلاء أُشَبِّههم بأناس يطلبون العلاج والدواء لكنهم لا يعرفون استخدامه، ولا يضطربون لأجل (جهلهم استخدامه). لذلك ليتنا لا نعتذر عن خطايانا التي نرتكبها بحجة ظروف البيئة أو بنسبها إلى إنسانٍ آخر، بل نلقي باللوم على أنفسنا. لأنه إن كانت نفوسنا تستسلم عن طيب خاطر للكسل، فإنها لا تقدر أن تهرب من الهزيمة[3].

القديس أنطونيوس الكبير

الإنسان الكسلان يُمكن أن يُشبَّه بقذارة الزبل،
كل من يجمعه ينفض يده منه [٢].

كثيرًا ما هاجم **القديس يوحنا الذهبي الفم** الكسالى بلا عملٍ، وقد أوضح ذلك في عظته[4] *In inscriptionem altaris*. وعندما تحدث عن الفقراء كان يقصد العاملين الكادحين. فلا يمتدحهم على فقرهم، بل على كفاحهم في العمل، يتعبون لكي يعولوا عائلاتهم.

❖ إن أردتم أن تستأصلوا الفقر، فإنكم حتمًا تستأصلون كل هيكل الحياة، تحطمون حياتكم. لا تجدون ملاحًا ولا قائد مركب ولا مزارعًا ولا بنَّاءً، ولا نساجًا ولا صانع أحذية ولا نجارًا ولا حدادًا ولا صانع جلود ولا طحانًا؛ لن تجدوا أحدًا من هؤلاء العاملين ولا غيرهم... إن صار الكل أغنياء، يعيش الكل في خمولٍ، يهلك كل شيءٍ ويتبدَّد[5].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *Didascalia apostolorum, P. 129 (Connolly).*

[2] *Homilies on John, 36:3.*

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٢٨.

[4] *In inscr. Altaris, 2 PG 51: 69.*

[5] *De Anna 5: 3 PG 54: 673.*

٢. الأبناء الحكماء

الابن الفاقد الأدب خزي لأبيه،

وولادة الابنة الحمقى خسارة له [٣].

الابن الحرون الفاقد الأدب يخزي والديه. أما ولادة البنت الحرونة، فتحسب خسارة في العائلة. البنت الفاقدة الأدب لا يحتملها زوجها فتُخزي والديها، فلا يكرمها زوجها ولا والداها.

البنت الفطينة تجلب ميراثًا لزوجها،

والبنت المُخزية فهي حزن لوالدها [٤].

البنت الوقحة تخزي أباها وزوجها،

وتُهَان من كليهما [٥].

٣. تأديب الأبناء

الكلام في غير وقته كموسيقى في الحزن،

أما التأديب وتعليم الحكمة، فمناسبان في كل وقتٍ [٦].

يؤدِّب الربّ أبناءه خلال الحب، وبنفس الروح يؤدِّب الوالدان طفلهما (عب ١٢: ٥-٨). يبدو أن ابن سيراخ كان يئن من التدليل الزائد للأبناء، خاصة في الأوساط الأرستقراطية، كما كان حزينًا على العائلات التي تتجاهل تربية أطفالها. لاحَظ أن عدد الأطفال الذين أفسدتهم العائلات قد تزايد جدًا. ما كان يشغل العائلات العمل بكل طاقاتهم والصلاة لكي يهبهم الربّ أطفالاً، دون بذل جهدٍ لتربيتهم كما يليق بهم كأناس الله.

المسئول الأول عن تربية الطفل هو الأسرة، وإن فشلت الأسرة يليق بالمُعَلِّمين أن يحاولوا توجيه الأطفال، وإن فشل المُعَلِّمون، يتدخَّل رجال الشرطة لتأديب غير المُهذَّبين.

توجيه الأبناء وتأديبهم بطريقة لائقة أمر ضروري، حتى لا ينشأوا حمقى، ويفقدوا الحياة الكريمة.

❖ يؤدِّب الرب الكائنات البشرية ليس عن كراهية، لأنه تألم لأجلنا حين كان قادرًا أن يهلكنا بسبب أخطائنا. إنه المُعَلِّم الصالح الذي لديه القدرة الكاملة أن يُعنِّف بكلمات التوبيخ.

كلمات التوبيخ تُشْبِه سوطًا يجلد به عقل البشر الخامل. وإذ يجلدهم يتحرَّك كي ينصحهم. فإن أولئك الذين ينهضون بكلمات المديح يُنخَسون بإلقاء اللوم عليهم. والذين لا يستطيع اللوم أن يرفعهم للخلاص كما لو كانوا أمواتًا، يقومون للحق خلال اتهامهم. "أما الضرب والتأديب، فهما

مناسبان في كل الظروف للحكمة"[1].

القديس إكليمنضس السكندري

مَن يُعلِّم الأحمق يشبه من يجبر كسر إناء خزفي،
وكمن يحاول أن يوقظ مُستغرِقًا في نومه [٧].

٤. الهروب من الأحمق

البكاء على الإنسان الأحمق أكثر مرارة من البكاء على ميت. لذلك يُطالِب ابن سيراخ بعزل الأبناء عن الخلطة مع الأحمق، للأسباب التالية:

أ. لأن حياة الأحمق أردأ من الموت.

ب. لا يَقْبَل التعليم، فالحديث معه إفساد للوقت، يُسَبِّب ضجرًا لمن يتحدَّث معه.

ج. التعامل معه يُحسَب ثقلاً على النفس، فهو أثقل من الرصاص والرمل والملح وكتلة الحديد.

د. الحكيم يأخذ قرارًا ثابتًا يتحدَّى به حدوث زلزلة من المتاعب (مز ١١٢: ٧؛ مت ٧: ٢٤-٢٧)، أما الأحمق فمُتردد يُحَطِّمه مُجَرَّد الخوف من المتاعب.

من يحكي شيئًا لأحمق، يُكَلِّم إنسانًا نائمًا،
وفي النهاية يقول: "ما هذا"؟ [٨]

إذا عاش الأبناء بأمانة، ومعهم الضروريات،
يُغَطُّون على انحطاط والديهم. [٩]

لكنّ الأطفال المتكبرين فمن خلال الاحتقار ونقص القوت،
يُلطّخون نُبل أقربائهم [١٠].

لا يليق بالمؤمن أن يستهين بالأطفال والرضع، فالطفل السيء السلوك يُسِيء إلى عائلته، والطفل السالك في طريق الحق بركة لها ويسندها، فقد قيل عن توبة أهل نينوى:

❖ آه، يا لانسجام التوبة! يا له من حزنٍ حكيمٍ وقويٍ! إنهم لم يتركوا الحيوانات خارجًا عن التدبير، إنما بِطُرقٍ بديعةٍ ألزموها أن تصرخ هي أيضًا. لقد عزلوا العجل من أُمِّه، وحَرَموا الحمل من الرضاعة.

أخذوا الأطفال الرُضَّع من أذرع أمهاتهم. وُضِع الأمهات في موضعٍ، والأطفال في موضعٍ

---

[1] *Paedagogus 1:8:66:1-2.*

آخر، يدعون بعضهم البعض، ويجيبون بأصواتٍ حزينة. يطلب الرُضَّع الجائعون مصدر لبنهم، بينما تُنخَس الأمهات بغريزة الأمومة، تصرخن نحو أطفالهن بأصوات مغمومة.

يصرخ الرُضَّع الجائعون، فقد أمسكت بهم صرخات استغاثة مُرَّة، أما قلوب الأمهات، فكانت مُعَذَّبة بآلام العاطفة الطبيعية. لهذا فإن الكلمة المُوحَى بها حفظت توبتهم نموذجًا جامعيًا عن كيفية الحياة.

حزن الشيوخ بسبب التأديب الذي هُدِّدوا به، كانوا في مرارة، وهم في شيبتهم.

ينوح الصبيان والصغار بأكثر حرقةٍ.

يتنهَّد الفقراء، بينما نسي الأغنياء راحتهم، وارتدوا المسوح التي تليق بالحزانى.

ترك ملك نينوى مجدَه وسموَّه مُتَّجِهًا نحو الخزي. ترك تاجه، ووضع ترابًا على رأسه، ونزع الثوب الملوكي واِلْتَحَفَ بالمسوح. ترك مجده العالي المجيد، وزحف على الأرض في مسكنةٍ. ترك الترف الخاص به كملكٍ، لكي يحزن مع الشعب. صار واحدًا منهم عندما رأى غضب سيد الكل[1].

القدِّيس باسيليوس الكبير

ابكِ على الميت، لأنه ترك النور خلفه،

وابك على الأحمق، لأنه ترك العقل خلفه.

ابكِ بفرحٍ على الميت، لأنه في راحة،

لكن حياة الأحمق أسوأ من الموت [١١].

بقوله: "ابكِ بفرح على الميت، لأنه في راحة"، يكشف عن وجود حياة مُطوَّبة بعد الموت، وليس عن توقُّف الحياة.

❖ التعقُّل الحقيقي هو معرفة ما تفعله وما لا تفعله. من يقتنيه لا يتوقَّف عن الأعمال الفاضلة، ولن يُطعَن بسهم الرذيلة القاتل. هكذا من يفهم كلمات التعقُّل يعرف الفرق بين ما هو مغري ومبني على الخداع، وما يذكرنا بهدوءٍ بالطريق الحقيقي لممارسة الحياة... أعطِ مثل هذا التعقُّل لمن يبني بيته، حتى يلقي الأساس على صخرة، أي يمدها بالإيمان بالمسيح، فلا يتزعزع عندما تهب الرياح وتسقط الأمطار وتهاجم العواصف (مت ٧: ٢٥)[2].

القديس باسيليوس الكبير

---

[1] *In the Time of Famine and Drought, 3.*

[2] *Homily on the Beginning of Proverbs 6.*

❖ كما أن الجسد بدون النفس ميت، هكذا النفس بدون العقل خاملة (عقيمة) وتعجز عن أن ترث الله[1].

❖ يوجد في النفس عقل يعمل، أما الجسد فتوجد فيه الغريزة. ويجعل العقل النفس إلهية، وتفسد الغريزة الجسد (أي إذا أشبعنا غرائزنا وشهواتنا الطبيعية).

تعمل الغريزة في كل جسدٍ، لكن ليس كل نفسٍ يعمل فيها العقل. لهذا ليس كل نفس تخلص[2].

القديس أنطونيوس الكبير

النوح على الميت يستمر سبعة أيام،
لكن النوح على الأحمق يستمر جميع أيام حياته [١٢].

❖ إن كان إرميا قد رأى الذين جُرِحوا في الحرب يستحقُّون النحيب الدائم، فماذا نقول بالأكثر من أجل تلك الكوارث التي تلحق بالنفوس؟! لقد قال (إشعياء): "قتلاكِ ليس هم قتلى السيف، ولا موتى الحرب" (إش ٢٢: ٢). إنني أندب لدغة الموت الحقيقي، وخطورة الخطية، وسهام الشرير المُتَّقِدة، تلك التي تلهب النيران بقسوة لأجل الأرواح كما الأجساد أيضًا.

حقًا إن الوصية الإلهية تتأوَّه بصوتٍ عالٍ عندما ترى نجاسة كهذه تدب على الأرض، فتعلن في القديم "لا تشتهِ امرأة قريبك" (خر ٢٠: ١٧؛ تث ٥: ٢١). وفي الإنجيل المقدس أيضًا تقول: "إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه" (مت ٥: ٢٨). وها هي الآن ترى عروس الرب ذاتها، تلك التي رأسها السيد المسيح، ترتكب بجسارة خطية الزنا.

إنه حتى جماعات القديسين يئنون عليها![3]

القديس باسيليوس الكبير

❖ لتحسب كل شخصٍ أفضل منك (في ٢: ٣). ابكِ على ميتك (راجع سي ٢٢: ١١؛ يو ١١: ٣١). أولاً اخرج الخشبة من عينك (مت ٧: ٥). أَعِد بناء بيتك الذي دُمِّر. لتصرخ: ارحمني يا ابن داود لكي أبصر مرة أخرى (مر ١٠: ٤٧-٥١؛ لو ١٨: ٣٨-٤١). تعلَّم أنت حتى يصمت كل لسانٍ (رو ٣: ١٩)، ولا تتكلم بتشامخ. اجعل مزلاجًا لبابك (فمك)[4].

القديسان برصنوفيوس ويوحنا

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٣١.

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٣٥.

[3] رسالة ٤٦: رسالة إلى عذراء ساقطة.

[4] *Letters, FOTC, vol. 113, p. 63-64.*

لا تطل الحوار مع الأحمق، ولا تفتقد غبي؛
تحفَّظ منه لتتجنَّب التعب، ولا تتلوث منه إذا اتصلت به.
أعرض عنه فتجد راحة، ولا تُرهَق من حماقته [١٣].

يدعونا ابن سيراخ ألاَّ ندخل في حوارٍ مع أحمق، حتى لا نتلوَّث ونُصَاب بحالٍ من الاضطراب.

❖ عندما تلتقي بإنسان محب للجدال، ويبدأ يجادل معك فيما هو بديهي وحق، اقطع الحديث وانسحب سريعًا، إذ تَحوَّل ذهنه إلى حجرٍ. فكما أن الماء يُفسِد أجود أنواع الخمور، هكذا المناقشات الغبية تُفسِد الفضلاء في السيرة وفي طباعهم[١].

القديس أنطونيوس الكبير

أي شيء أثقل من الرصاص؟
وماذا يكون اسمه سوى الأحمق؟ [١٤].

الرمل والملح وقطعة من الحديد
أسهل في الحمل من الرجل الأحمق [١٥].

الدعامة الخشبية الموصولة في بناء لا تفكَّك في الزلزلة،
كذلك العقل الثابت المُحَصَّن بالمشورة العقلانية لا يخاف من أزمة [١٦].

العقل المؤسس على تفكير حكيم
كزينة من الجبس على حائط مصقول [١٧].

يُقارِن ابن سيراخ بين استقرار الحكيم وتقلقل الأحمق. هذا الاستقرار أو التقلقل يمسّ حياة الشخص وسط الجماعة.

كما أن السياج الموضوعة في مكانٍ عالٍ لا تثبت أمام الريح،
كذلك القلب الجبان في فكر الأحمق لا يثبت أمام أيّ نوع من الخوف [١٨].

٥. الحرص على حفظ الصداقة

كان موضوع الصداقة قريبًا للغاية لقلب ابن سيراخ، إذ يشتهي أن يرى المجتمع، إن لم يكن العالم كله، يسوده الوحدة والحب والحنو والتكامل. فالحكمة في ذهنه لا تقف عند تدبير الإنسان حياته الخاصة أو تمتعه بالخلاص الأبدي، إنما تمسّ حياة الجماعة إن لم يكن البشرية ككلٍ!

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٤٤.

القسم الأول من هذا الأصحاح يتحدث عن الحكمة التي عدوها الخطير هو الكسل، فغاية الحكمة والاجتهاد أو المثابرة الدائمة أن تتفاعل البشرية كلها معًا بروح الصداقة الأصيلة. فالإنسان الأحمق المتقلب يرتد شرّه على حياة الجماعة. مثل هذا الشخص لا يمكن الاعتماد عليه. إنه غير ثابت في ولائه وإخلاصه للغير، لذلك يُصَاب الراغبون في تكوين صداقة معه بحالة من الإحباط. ليس من أحد يود أن يُبقِي على صداقة شخصٍ غضوبٍ أو شتَّامٍ [٢٠].

هذا لا يعني أنه لا يوجد غضب بين صديقين مخلصين، إنما بروح الإخلاص سرعان ما يزول الغضب، وقد ينتج عن ذلك محبة أفضل وثقة وتفاهم.

من ينخس عينه يسيل الدموع،

ومن ينخس القلب يبرز مشاعره [١٩].

يدعونا **العلامة أوريجينوس**[1] أن نضرب العين والقلب بالصلاة بإيمان؛ نطلب عمل الله فينا، كما نطلب المزيد من عطاياه. وكما جاء في المزامير: "افتح فاك وأنا أملأه" (مز ٨١: ١١).

جاءت العبارة في كتاباته: "من ينخس عينه تسيل الدموع، ومن ينخس القلب يبرز المشاعر"، يعني بالعين والقلب هنا الحياة الداخلية. يليق بالمؤمن أن يشرب من ينابيعه الداخلية، أي من بصيرته وعواطفه. إن كان كلمة الله بتجسده حلّ في وسطنا، ليُقِيم ملكوته فينا (لو ١٧: ٢١)، فقد وجَّه أنظارنا إلى أعماقنا، لنراه عاملاً فينا. جاء لا مستخفًّا بنا، بل مكرّمًا إيَّانا باتحادنا، وتمتعنا بأعماله الفائقة.

في حديث **العلامة أوريجينوس** عن عمل الروح القدس في الإنسان، يسألنا أن نشرب المياه الحية من ينابيعنا وآبارنا الداخلية كما جاء في سفر الأمثال (٥: ١٥، ١٨). يليق بنا أن نحفر في أرضنا الداخلية، لننعم بهذه المياه الحية.

❖ دعونا نعمل حسب نصيحة الحكمة لنا القائلة: "اشرب مياهًا من جبَّك، ومياهًا جارية من بئرك. ولتكن لك..." (أم ٥: ١٥، ١٧). تأكد أيها القارئ أن لك بئرك وينبوعك، حتى إذ تمسك الكتاب المقدس، تبدأ تعبِّر خلال تعليمك النص، وذلك بانسجام مع ما تعلَّمته من الكنيسة، وأيضًا تحاول أن تشرب من مصدرك الداخلي الروحي.

في داخلك ينبوع مياه حيّة (تك ٢٦: ١٩)، شرايين دائمة، وفيض غزير جارٍ، مع فهم عقلي مادام لا يصطدم بالأرض ومخلفات الصخور. لتستمر عاملاً لحفر أرضك وتنقيتها من الدنس، فتزيل الكسل عن نفسك، وتطرد الخمول من قلبك. اسمع ماذا يقول الكتاب المقدس: "اضرب العين فتسيل الدموع،

---

[1] *Cf. Homilies on Exodus 4:5.*

واضرب القلب فينتج فهمًا" [١٩]. يلزمك أيضًا أن تُطَهِّر روحك، فتشرب من ينابيعك الحيّة. بالحقيقة إن قبلت كلمة الله في داخلك، يصير فيك ينبوع مياه يفيض حياة أبدية[1].

❖ لديكم طبيعة المياه الحية داخلكم (تك ٢٦: ١٩). يوجد فيكم شرايين دائمة ومجاري تفيض بالفهم المُتَعَقِّل، متى كانت فقط غير مملوءة بالتراب والنفايات.

لتهتموا أن تحفروا أرضكم وتزيلوا القاذورات، أي تنزعوا بطالة قدرتكم الطبيعية، وتطردوا خمول قلوبكم. اسمعوا ما يقوله الكتاب: "من ينخس العين يسيل الدموع، ومن ينخس القلب يبرز الفهم" (راجع سي ٢٢: ١٩)[2].

❖ استمر في حفر أرضك وتنظيفها من القذارة، أي انزع عنها الخمول الذي لقدرتك الطبيعية، واطرد منها خمول قلبك. يقول الكتاب: اضرب العين فتسيل الدموع، واضرب القلب فيبرز الفهم[3].

العلامة أوريجينوس

❖ لتصونوا يا أبنائي تلك الصداقة التي بدأتم بها مع إخوتكم، فإنه ليس شيء في العالم أجمل من هذا. إنه لأمر مُعَزٍّ في هذه الحياة أن يكون لك واحد يمكنك أن تفتح له قلبك، وتُشارِكه الثقة، وتأتمنه على أسرار قلبك. إنه لأمر مُعَزٍّ أن يكون بجانبك إنسان موضع ثقة، يفرح معك في سعتك، ويتعاطف معك في متاعبك، ويُشَجِّعك في الاضطهاد.

يا لهم من أصدقاء صالحين هؤلاء الشبان العبرانيون الذين لم يفصلهم لهيب نيران الأتون عن محبتهم لبعضهم البعض (دا ٣: ١٦ الخ)! نقول عنهم ما قيل: "شاول ويوناثان المحبوبان والحلوان في حياتهما لم يفترقا في موتهما" (٢ صم ١: ٢٣)[4].

❖ لا يقدر أن يكون صديقًا لإنسانٍ من لا يكون مُخْلِصًا لله. الصداقة هي حارسة التقوى ومُعَلِّمة المساواة، لتجعل من الأعظم مساويًا للأقل، والأقل للأعظم[5].

❖ لا يمكن أن توجد صداقة حيث يوجد المداهنة الكاذبة[6].

القديس أمبروسيوس

---

[1] *Cf. Homilies on Genesis 12:5.*

[2] *Homilies on Genesis 12:5.*

[3] *Homilies on Genesis and Exodus, FOTC, vol. 7, p. 183-184.*

[4] *Duties Of The Clergy, Book 1, Ch. 22:131*

[5] *Duties Of The Clergy, Book 1, Ch. 22:132*

[6] *Duties Of The Clergy, Book 1, Ch. 22:134*

رمي الطيور بحجر، يجعلها تفزع هاربة،

وإهانة الصديق تقطع الصداقة [٢٠].

يُحَذِّرنا سيراخ لئلا نفقد الصداقة بتصرُّفٍ تافهٍ نمارسه. فالأصدقاء يفارقون الشخص بسرعة متى شعروا بخطرٍ يلحق بهم، وذلك كالطيور التي تهرب لو ألقى شخص حجرًا نحوهم.

يليق بالشخص أن يسرع بالاعتذار عن تصرُّفِه الخاطئ دون تبرير نفسه، فإن نطق بكلمة قاسية أو جرَّد سيفًا نحو صديقه فلا ييأس من استرداد الصداقة إن كان جادًا في ذلك.

من يقترب من قريبه في وقت ضيقته، غالبًا ما ينسى الصديق ذلك حينما يصير في يُسْرٍ.

يليق بالإنسان ألا يستحي في الدفاع عن صديقه وقت فقره أو ضيقه، ولا يحاول الهروب منه.

إن أَصابك شرّ من صديقك احرص ألاَّ تُخطِيء بكلمة ضده.

إن جرّدت السيف على صديقك فلا تيأس،

فإن تجديد الصداقة مُمكِن [٢١].

❖ لنتبع المحبة، فإنها صمام أمان لا تسمح لنا أن نعاني من أي شر. لنربط أنفسنا بعضنا ببعضٍ. ليته لا يوجد خداع بيننا ولا كذب. فحيث توجد الصداقة لا يوجد شيء من هذا القبيل. يخبرنا أيضًا الحكيم "إن جرّدت السيف على صديقك، فلا تيأس فإنه يُمكن تجديد الصداقة". إن فتحت فمك ضد صديقك فلا تخف، فقد تتم المصالحة، إلاَّ في حالة السب والتشامخ وإفشاء السرّ والضربة الماكرة. فإنه في هذه الحالات يفرّ كل صديق"... أي سرّ لديك؟ هل تريد أن يصنع شرًا بأخيك؟ أو هل تريد أن تحرمه من أن يشاركك بعض المنافع، لهذا وجب إبطال السرّ![1]

القديس يوحنا الذهبي الفم

إن فتحت فمك ضد صديقٍ لا تخف، فالمصالحة مُمكِنة،

إلا عند السب والتشامخ وإفشاء السرّ وضربة الخيانة،

فأي صديقٍ يفر من سلوك مثل هذا [٢٢].

حينما يفشي أحد سرّ صديقه، ما يشغل الصديق ليس خسائره المادية أو المعنوية بسبب إفشاء السرّ، وإنما بالأكثر فقدان الثقة وعدم الإخلاص.

❖ ليس شيء صالح بدون صداقة... ليكن لدى شخص ربوة من المواهب، وآخر لديه مئة صديق؛ الأخير أغنى في مصادره من الأول.

---

[1] *Homilies on Ephesians, 9.*

اربح ثقة قريبك في فقره، فقد تشبع معه في يُسْرِه.
قف معه في وقت الضيق، فقد تُشارِكه في ميراثه [٢٣].

يُعرَف الصديق الحقيقي المُخْلِص بثباته في الصداقة العملية واهتمامه إن أصاب الصديق فقرًا أو عوزًا أو ضيقًا. تتجلَّى الصداقة الحقيقية عندما يعمل الصديق كل ما في وسعه أن يحميه من عدوه [٢٥].

كما أن دخان الأتون وبخاره يسبقان النار،
هكذا الإهانة تسبق الدماء [٢٤].

لا أستحي من أن أحمي صديقًا،
ولا أتوارى عن وجهه [٢٥].

وإن أصابني شرّ بسببه،
فكلّ من يسمع بذلك يتحفَّظ منه [٢٦].

❖ إن صدرت الصداقة عن ينبوع الإرادة الصالحة، فلا تتردَّد عن احتمال المخاطر العظيمة في الحياة من أجل الصديق. يُقَال: إن أصابتني منه شرور فسأحتملها[1].

❖ بالتأكيد، إن كانت توجد ضرورة أن تُقَدِّم شهادة، فيجب أن من يعرف خطأ في صديقٍ له أن ينتهره سرًا، وإن لم يصغِ يلزم أن يفعل ذلك علنًا. فإن الانتهار صالح، وغالبًا ما يكون أفضل من الصداقة الصامتة. حتى إن كان الصديق يظن أنه قد تأذَّى، يلزم أن تنتهره. وإن كانت مرارة جراحات عقله لإصلاحه، فلا تكف عن انتهاره، لا تخف!

"أمينة هي جروح المحب، وغاشة هي قبلات العدو" (أم ٢٧: ٦). لتنتهر إذن صديقك المُخطِئ، ولا تتخلَّى عن البريء. فإنه يجب أن تكون الصداقة مُخْلِصة ومستقرة في عاطفة حقيقية. يليق بنا ألا نستبدل أصدقاءنا بطريقة طفولية بهوى تافه[2].

❖ عند الضرورة نحتمل حتى المتاعب من أجل الصديق. حتى العداوة يمكن احتمالها من أجل براءة الصديق. نحتمل حتى الشتائم إن كان أحد يدافع ويجيب من أجل صديق يخطئ في حقه ويتهمه

---

[1] *Duties Of The Clergy, Book 1, Ch. 33 : 172*

[2] *Duties Of The Clergy, Book 1, Ch. 22:127*

باتهامات (باطلة). لا تخف من مثل هذه المتاعب، فإن صوت البار، يقول: "وإن أصابني شر منه أحتملها من أجل الصديق" (راجع سي ٢٢: ٦).

في وقت الشدة أيضًا يظهر الصديق، لأنه في وقت السعة يبدو الكل أصدقاء. وكما أنه في وقت المحنة يكون الصبر والاحتمال مطلوبين، هكذا في وقت السعة التأثير القوي (للأصدقاء) مطلوب لفحص ودحض غطرسة الصديق المستبد[1].

القديس أمبروسيوس

من الذي يقيم حارسًا لفمي، وخاتم التعقُّل على شفتي،
فلا أسقط بسببهما، ولا يهلكني لساني؟

❖ لا يليق بالإنسان أن يفتح فاه بما هو غير لائق، بل يفتحه في كلام يرزق كنوزًا من خيرات الله.

الأب أنسيمُس الأورشليمي

❖ لنضع في أذهاننا بخصوص الفم واللسان أن نُقَدِّم صلاتنا ونحن حافظين لهما متحررين من الشر. إن كان لكم إناء ذهبي أو مصنوع من معدنٍ ثمين، فإنكم لا تختارونه لاستخدامه في أمر شائنٍ، كم بالأكثر أولئك الذين أفواههم أثمن من الذهب واللآلئ، كيف يُلَوِّثونها بقبحٍ مشينٍ وفسادٍ وسخريةٍ. إنكم لا تُقَدِّمون بخورًا على مذبح من النحاس أو حتى من الذهب، بل ما هو أثمن من هذا في هيكلٍ روحي، فمادة الأول بلا حياة، بينما يجعل الله مسكنه فيكم، أنتم أعضاء جسد المسيح... لنحرس أفواهنا على الدوام، نُقِيم عقلاً عليها ليغلقها، فلا تبقى مُغلقَة على الدوام، إنما يفتحها في الوقت المناسب.

يوجد وقت يكون فيه الصمت أثمن من الكلام، وأيضًا يوجد وقت يكون فيه الكلام أثمن من الصمت... من الضروري كما ترون ليس فقط أن نحفظ الصمت والكلام في الوقت المناسب، وإنما يلزم أن **يكون ذلك بمحبة عظيمة**. لهذا يقول أيضًا بولس: "ليكن كلامكم كل حين بنعمةٍ مصلحًا بملح، لتعلموا كيف تجابوا كل واحدٍ" (كو ٤: ٦).

ضعوا في اعتباركم أن هذا هو العضو الذي به تدخلون في حوارٍ مع الله، وبه نُقَدِّم التسبحة. هذا هو العضو الذي به نتقبَّل الذبيحة المهوبة، فإن المؤمنين يعرفون ماذا أقول[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *Duties Of The Clergy, Book 1, Ch. 22:129*

[2] *On Psalms 141.*

أيها القدوس، قَدِّس أبنائي وأصدقائي!

❖ نزولك إلى أرضنا حوَّل قلبي إلى مقدسٍ لك،
تُقِيم منه هيكلاً يسكنه روحك القدوس.
أزلت التراب عنه، فتفجَّرت ينابيع مياه حيَّة في داخلي!
اِلتهب قلبي بنيران حُبِّك،
فأرى في الصغار أبناء لي،
وفي الكبار أصدقاء وأَحِبَّاء.
كم تشتهي أعماقي أن يتقدَّس كل الجيل الجديد (الأبناء)،
ومعه الجيل الحاضر (الأصدقاء).

❖ أعترف لك بكسلي وتراخيّ، فأَعثرتُ أبنائي.
انزع عنهم العثرة، وعوض الكسل يعملون بك يا أيها القدير.
من أجلهم لم تكف عن العمل لخلاصهم.
أَحببتهم وصُلِبت من أجلهم،
وها أنت تُعِد لهم منازل مجيدة في سماواتك.
املأهم بروح الحكمة،
فيسلكون بالطهارة والعفة والحب وطول الأناة.
يصيرون أيقونة حيَّة لك فيندهش السمائيون لعملك فيهم.

❖ أَشرِق بنور معرفتك في قلوبهم،
فيرفضوا الحماقة والجهالة.
يَقْبَلون منك التوبيخ والتأديب من أجل بنيانهم على مستوى سماوي.
لك المجد يا باسط يديك على الصليب،
ها أنت تحتضن كل الأجيال.

❖ وماذا أقول عن إخوتي، إنهم أصدقائي وأحبّائي.
فَجِّر في قلوبهم ينابيع مياه روحية،
تُحَوِّل ترابهم إلى جنّات روحية مقدسة ومثمرة.

❖ قَدِّس لساني وألسنتهم، فتصير آلات برّ تشهد لخلاصك.
عوض الثرثرة والكلمات القاسية وإفشاء أسرار الآخرين،
هب لي ولهم اللسان المقدس، والكلمات العذبة، والابتسامة الدائمة.
لن نأتمن حارسًا لألسنتنا قادرًا على ترويض أفواهنا سوى روحك القدوس.
ما أسهل ترويض الحيوانات المفترسة وتعليم الطيور،
أما تروِّيض ألسنتنا فهو عملك أنت وحدك!

❖ هب لنا روح الأمانة والإخلاص،
فنجد في شدة أصدقائنا فرصة لخدمتهم بفرحٍ،
لنُعَبِّر بها عن حُبِّنا الطاهر والصادق لهم.

القسم الثالث

الشاب المُتسيِّب والنساء

[٢٣-٣٢]

الأصحاح الثالث والعشرون

تقديس الحواس وخطورة الزنا

ما يخشاه ابن سيراخ تسيب أحد تلاميذه وتكوين دالة غير لائقة مع النساء. لذلك عالج انحرافين خطيرين يقاومان مخافة الرب، وبالتالي يحرمان الإنسان من التمتع بالحكمة. هذان الخطران هما انحراف اللسان [٧-١٥] والانحراف الجنسي [١٦-٢٧]، تحدث عنهما ابن سيراخ بعد أن قدم صلاة إلى الربّ أبي حياته وسيدها كي يهبه تقديسًا لحياته [١-٦].

١. صلاة من أجل تقديس الحواس والتمتُّع بالحكمة [١-٦].

٢. تحذير للبنين [٧-١٥].

٣. الرجل الزاني [١٦-٢٧].

في الأصحاح ٢١، يدعونا ابن سيراخ إلى حفظ الشريعة والهروب من الخطية، وفي الأصحاح ٢٢ يحثنا على الاهتمام بقداسة الأبناء (الجيل الجديد) وقداسة الأصدقاء، وفي هذا الأصحاح يُجِيب على التساؤل: كيف يتحقَّق هذا؟ أي حفظ الشريعة والهروب من الخطية وتقديس حياتنا الداخلية والأبناء والأصدقاء؟

يُقَدِّم لنا ثلاث أمور عملية لتحقيق هذا:

أولاً: الصلاة حيث ندرك إلى من نصلي، وماذا نطلب.

ثانيًا: حفظ اللسان: من الشتائم والتشامخ، والتسرُّع في النذور، والتجديف، وعدم القسم، والهروب من الكلمات السوقية.

ثالثًا: الهروب من نيران الشهوات الجنسية، فإن قبلناها مرة بتهاونٍ، يصعب التخلُّص منها، إذ لا تتركنا حتى نحترق تمامًا.

١. صلاة من أجل تقديس الحواس والتمتع بالحكمة

أيها الربّ أبو حياتي وسيّدها،

لا تتركني لمشورتهم (لساني وشفتي)،

ولا تدعني أسقط بسببهم [١].

لمن نُصَلِّي؟ للربّ أبو حياتي وسيّدها، لي دالة البنوة وثقة أنه يهبني الحياة عوض الموت.

وماذا أطلب؟ لا أئتمن أحدًا يضرب أفكاري بالسياط سوى أبو حياتي!

أعترف بخطاياي خاصة خطايا التعالي والشهوة الشريرة والنهم.

كثيرًا ما يشعر الإنسان أن الوصايا الخاصة بتقديس الحواس والفكر والقلب أعلى من قامته الروحية، بل تبدو هناك استحالة أن يُتَمِّم إنسان هذه الوصايا وهو بلا سلطانٍ على حواسه، بل وكل إنسانه الداخلي. وفي نفس الوقت يليق بنا أن نُدرِك محبة الله، فبكامل حرية إرادتنا نُطالِبه أن يُقَدِّس إرادتنا الحُرَّة، ويهبنا الاشتياق مع الغيرة على القداسة. لا يستطيع أحد أن يضبط حواسه ويُقَدِّسها، لذا يلزمه أن يصرخ إلى الله القادر وحده على تقديس الشفتين والأفكار والعقل والعينين وكل الشهوات حتى لا يسقط أمام خصومه، أي إبليس وملائكته.

الصلاة من أجل الحكمة في هذا الأصحاح تطابق صلاة للقديس أفرام السرياني، تستخدمها بعض الكنائس الأرثوذكسية في الصوم الكبير:

❖ ربّي وقائد حياتي، انزع عني روح الكسل والخوار، وشهوة السلطة، والكلام الباطل، لكن هب لعبدك عوض هذا روح الطهارة والتواضع والصبر والحب.

نعم أيها الربّ الملك، هب لي أن أرى أخطائي، ولا أدين إخوتي.

فإنك مبارك أنت من جيل إلى جيل. آمين.

القديس مار أفرام السرياني

يمزج ابن سيراخ الأقوال الحكمية بالصلاة: "أيها الرب الأب، يا سيد حياتي لا تتركني ومشورة شفتي، ولا تدعني أسقط بهما" [١].

أ. **الرجوع عن الشر:** "ارجع إلى الرب، وأقلع عن خطاياك. صلِّ أمام وجهه، وأقلل من آثامك" (راجع ١٧: ٢٥). "اهرب من الخطيئة هربك من الحية، فإنك إن دنوت منها لدغتك" (راجع ٢١:٢).

ب. **إكرام الوالدين:** "من أكرم أباه سُرّ بأولاده، وفي يوم صلاته يُستجَاب له... فإن اللطف مع الأب لا يُنسَى، ويعين في التكفير عن خطاياك" (راجع ٣:٤، ١٤). أكرم أباك بكل قلبك، ولا تنس آلام أمك في الولادة. اذكر أنك منهما وُلِدت، فماذا تكافئهما مقابل ما صنعاه معك؟ (راجع ٧: ٢٧-٢٨)

ج. **الإعداد للقاء مع الله:** "قبل تقديم صلاة هيئ نفسك، ولا تكن كإنسانٍ يُجَرِّب الرب" (١٨: ٢٣).

د. **يخدم حسب مرضاة الرب:** "من يقوم بخدمة الرب بحسب مرضاته، يُقبَل وتبلغ صلاته إلى السحب" (راجع ٣٥: ١٦).

هـ. **الوداعة والتواضع:** "صلاة المتواضع تخترق السحب، ولا يتعزَّى حتى تصل إلى الرب" (راجع ٣٥: ١٧). "ازدد تواضعًا كلما ازددت عظمة، فتنال حظوة لدى الرب" (راجع ١٨:٣). "حكمة

المتواضع ترفع رأسه، وتُجلِسه في جماعة العظماء" (راجع ١١: ١).

و. **التبكير للصلاة:** "يصرف قلبه إلى القيام مبكرًا إلى الرب صانعه" (راجع ٣٩: ٥).

ز. **عدم تِكرار الكلام باطلاً (مت ٦: ٧):** "لا تُكَرِّر الكلام في صلاتك" (راجع ٧: ١٤).

طلب ابن سيراخ في صلاته من الربّ الآب وقائد حياته أن يحميه من لسانه، وأن يهذب الربّ عقله وقلبه، ويمنعه من السقوط في الخطأ.

يدعو ابن سيراخ الربّ **أبا حياتي وسيدها**، فبدالة البنوة يتحدَّث مع الربّ كأبٍ له وهو سيده وخالقه.

من الذي يُخضِع أفكاري للسياط، وقلبي لتأديب الحكمة،

بحيث لا تُشفِق على أخطائي، ولا تُهملني في خطاياي؟ [٢]

طلب من "أب وسيد" حياته أن يُخضِع أفكاره وقلبه للسياط، وكأن ابن سيراخ يود أن يُقَدِّم نفسه مثلاً أمام تلاميذه. فهو ليس أفضل منهم، إذ ليس له سلطان على فكره وقلبه، أي على إنسانه الداخلي، بل يحتاج إلى الله أبيه ومُعَلِّمه ومُدَرِّبه ومُهَذِّبه أن يمسك بالسوط ليقوِّم أعماقه الداخلية. فإن كان سيراخ الحكيم يعلن عن حاجته إلى سياط من عند الربّ لتقويمه، كيف يظن أحد من تلاميذه أنه قادر أن يتجنَّب خطايا الفكر والعاطفة بمجهوده الشخصي؟!

❖ "من الذي يُخضِع أفكاري للسياط، وعقلي لتأديب الحكمة، بحيث لا يشفق على أخطائي، ولا يتغاضى عن خطاياي؟ [٢] لاحظوا على وجه الخصوص: "من الذي يُخضِع أفكاري للسياط؟" هكذا توجد سياط تجلد الأفكار. إنها سياط الله، لأن الكلمة (اللوغوس) إذ يقود النفس إلى إدراك كيف أخطأت يجلدها. إنه يجلد الإنسان الطوباوي الذي يتألم من الجلدات، لأن كلمات (التوبيخ) تلمسه دون أن يشتكي من يُوَبِّخه. لكن يوجد البعض بلا حساسيةٍ يُقَال عنهم: "لقد جلدتهم، ولكنهم لم يتألموا" (إر ٥: ٣)[1].

❖ لننظر ماذا قيل عن الخطاة: "**جلدتهم (بالسياط) فلم يتوجعوا**" (إر ٥: ٣). إن السياط الأرضية حينما نضرب بها الأجساد الحية، تُسَبِّب ألمًا للمضروبين، سواء أرادوا أو لم يريدوا. أما سياط الله فهي ليست كذلك، لأن بعض المضروبين يتوجعوا والبعض الآخر لا يتوجعوا... البائسون هم الذين لا يتوجعون من ضربات الله، والسعداء هم الذين يتوجعون من هذه الضربات.

يقول سفر الحكمة في هذا الشأن: "وإنما نُخِسوا ليتذكروا أقوالك، ثم خلصوا سريعًا لئلا يسقطوا

---

[1] *Homilies on Jeremiah and on 1 Kings 28، FOTC، vol. 97، 3-64.*

في نسيان عميق، فيُحرموا من إحسانك". كما قيل: "من يضع سوطًا لأفكاري، وكلام الحكماء في شفتي، لئلا يترفقوا بي في أخطائي، فأهلك بسبب خطاياي" (راجع سي ٢٣: ٢).

دَقِّق النظر في هذه الكلمات: "**من يضع سوطًا لأفكاري؟**" إذًا توجد سياط لضرب الأفكار. سياط الله هي التي تضرب الأفكار، فإن الكلمة "*Logos*" حينما يأخذ النفس جانبًا ويدفعها ويضغط عليها حتى يستيقظ ضميرها تجاه الأخطاء التي ارتكبتها، يضربها بالسياط.

فهو يضرب الإنسان المُطوَّب (الحكيم)، الذي يتوجع تحت الضرب، لأن كلمات الله أَثَّرَت في نفسه، ولم يلقِ بهذه الكلمات باحتقار لأنها أخجلته. ولكن يُوجَد إنسان، يمكن أن يقال عنه، عديم الإحساس، يُقَال عنه: "**ضربتهم فلم يتوجعوا**"[1].

العلامة أوريجينوس

لئلا تتكاثر أخطائي، وتزداد خطاياي،
فلا أسقط أمام خصومي، ولا يشمت بي عدوي [٣].

يُمَيِّز **العلامة أوريجينوس** بين سياط العالم وسياط الله. الأولى سياط مادية تقع على الأجسام الحيّة، والكل يشعر بآلامها. أما سياط الله التي للتأديب فهي من نوع آخر، تسقط على الفكر، فيتقبَّلها البعض ويشعرون بها ويُقَدِّمون توبة ويرجعون إلى الله، ويصيرون مُطوَّبين. والبعض الآخر لا يشعرون بآلامها، ولا يتجاوبون مع دعوة الله بالرجوع إليه، هؤلاء يُضرَبون ولا يتوجّعون (إر ٥: ٣).

❖ يُقَال عن الخطاة "ضربتهم فلم يتوجَّعوا" (٥: ٣). تقع سياط هذا العالم المحسوسة على الأجسام الحيّة، سواء كان المضربون يقبلونها أو يرفضونها، وهي مؤلمة (للجميع). أما سياط الله فهي من نوعٍ يسبب ألمًا للبعض، بينما لا يتألم آخرون منها.

دعونا نشرح ماذا يعني عدم التألم منها. لماذا هؤلاء أصحاب الطبائع الشريرة لا يتألمون من سياط الله، بينما الذين يتوجعون منها هم مُطوَّبون. تقول الحكمة: "من الذي يُخضِع أفكاري للسياط وخاتم التعقُّل على شفتين، فلا يشفق على أخطائي، فلا تقودني أخطائي إلى الهلاك".

لننتبه إلى الكلمات: "من الذي يُخضِع أفكاري للسياط". إذن توجد سياط خاصة بضرب الأفكار. إنها سياط الله التي تضرب الفكر، حيث ترتبط الكلمة بالنفس، وتقودها إلى معرفة خطاياها. إنها تضرب النفس المُطوَّبة، فتتألم، لأن الكلمة تأتي وتخترق النفس في أعماقها... أما

---

[1] عظة ٦: ٢ على إرميا، ترجمة جاكلين سمير كوستى.

من كان متبلدًا من جهة الضرب، فيقال عنه: "ضربتهم فلم يتوجَّعوا"[1].

العلامة أوريجينوس

أيها الرب أبو حياتي وإلههما،

لا تدع لي عينين متعاليتين [٤].

طلب منه أن ينزع عنه عينيه المتعاليتين، أي التطلُّع إلى الأمور العالية التي فوق قامته الروحية.

بل اصرف عني الشهوة الشريرة [٥]

طلب من الرب ألا يسمح أن تمتلكه شهوة النهم ولا الزنى، ولا يُسَلِّمه إلى نفسٍ وقحةٍ (٢٣: ١، ٤-٦، ١٣، ١٥). هذه الصلاة تصف شخصية الإنسان الحكيم. الصلاة بإيمان لكي يتشكَّل المؤمن على صورة الحكمة نفسها.

لا تسمح للنهم ولا للشهوات أن تسود عليَّ،

ولا تُسَلِّمني إلى نفسٍ وقحةٍ [٦].

يرى **القديس أغسطينوس** أن كثير من هذه الطلبات وردت في الوصايا الإلهية. هنا يتساءل القديس أغسطينوس، لماذا يُقَدِّم سيراخ هذه الطلبات، وهو يَعْلَم أنها تتفق مع إرادة الله ووصاياه. يجيب أنه يليق بالمؤمن أن يعلن رغبته الشخصية، مؤكدًا أن إرادته هي أن تتم إرادة الله فيه. وكأنه يقول: "لتكن مشيئتك" (مت ٦: ١٠)[2].

في حديث **القديس أغسطينوس**[3] عن النعمة وحرية الإرادة، يقول إن أتباع بيلاجيوس يظنّون أنهم يعرفون أمرًا هامًا عندما يؤكدون أن الله لا يأمر بشيءٍ يَعْلَم أن البشر عاجزين عن ممارسته. يُعَلِّق قائلاً: "من يجهل هذا؟" ويكمل: لكن الله يُقَدِّم وصايا فوق قدراتنا، لكي نعرف أنه يجب أن نسأله، فيهبنا القدرة على تنفيذها. فبالإيمان نُصَلِّي لكي نتمم الوصايا. قَدَّم القديس الكثير من الطلبات التي يسألها الحكيم (ابن سيراخ) حتى نمارس بالنعمة ما هو فوق طاقتنا.

يرى **القديس أغسطينوس** أن كل الصلوات الواردة في العهد القديم لا تخرج عن الصلاة الإنجيلية التي علَّمنا إياها ربنا يسوع، وقد ضرب أمثلة كثيرة، منها بعض الطلبات الواردة في سفر سيراخ. فالصلاة الواردة هنا: "لا تملكني شهوة النهم ولا الزنا" (راجع سي ٢٣: ٦) ليست إلاَّ "لا تدخلنا في تجربة"، والطلبة الواردة في (سي ٣٦: ٤) والتي يترجمها "لتتقدس بين كل البشر كما تتقدس بيننا"

---

[1] *Homilies on Jeremiah 6:2.*
[2] *The Teacher، the Free Will; Grace and Free Will، FOTC، vol. 59، p. 285-287.*
[3] *Grace and Free Will، FOTC، vol. 59، p. 285-287.*

ليست إلاَّ الطلبة: "ليتقدس اسمك"[1]

٢. تحذير للبنين

يُرَكِّز على أخطاء اللسان، وكثيرًا ما يُعَدِّدها كما رأينا.

يا أبنائي، اسمعوا تعليم فمي،

فإن من يحفظه لن يُهزَم [٧].

إن كان سيراخ يطلب لنفسه جلدات تصدر من يد أبيه المُترفِّق به والكلي الحكمة، حتى يضبط أفكاره وقلبه ولسانه. هذا اللسان الذي يمكن أن يُحَطِّم صاحبه ومن هم حوله، إن تَقَدَّس، يُقَدِّم تعليمًا حسب الفكر الإلهي، لذا يقول لتلاميذه: "يا أبنائي اسمعوا **تعليم فمي**" [٧]

مرة أخرى يقول: "يوجد أسلوب كلام يشبه الموت" [١٢]. فاللسان يمكن أن يكون آلة للبرّ لحساب ملكوت الله يشهد لتعليم الربّ، أو آلة إثم تدفع الآخرين إلى الموت الأبدي.

يُصطاد الخاطئ بشفتيه،

وبهما يزلّ الشتام المتكبِّر [٨].

إننا في حاجة إلى حراسة إلهية تحفظ شفاهنا من السقوط في الخطية.

❖ علَّمكم موسى بدم الحمل الذي رشَّه على الأبواب، يليق بكم أن ترطبوا شفاهكم بدم الابن كل يومٍ.

لأنّ الفم هو باب الإنسان، الذي يُطلِق كلاً من التسابيح والكلمات، المجد والشتيمة، من مُختلَف الأنواع.

طلب داود أن يُقَام عليه حارسٌ. مَنْ هو هذا الذي يقف حارسًا عندما يُطلَب منه ذلك، إن لم يكن المصلوب؟

طلب داود قائلاً: "ضع يا رب حافظًا لفمي" (مز ١٤١: ٣). إنه الصليب الذي يحرس باب الفم من الشيطان.

قام الصليب على أبواب بني الشعب، وحفظهم من قاتل الأبكار على الأرض.

أنت أيضًا الآن، خذ دم ابن الله، وبأصابعك ارسم علامة الصليب على شفتيك.

اجعله حارسًا لفمك، وكن واثقًا من فاعليته الأكيدة، وحينئذٍ عندما يراه المُهلِك لن يقترب منك.

إن كان رمزه قد تَمَكَّن من أن يقف على الباب ويحرسهم، فكم بالأكثر يمكنه هو نفسه أن يحرس الذي يطلبه؟

---

[1] *St. Augustine, Letters, FOTC, vol. 18, p. 392-395.*

تَقَبَّل الدم من الكأس الإلهي على شفتيك، وهو سيُبرِهن لك على أنه حارسٌ مضمونٌ للباب.
كانت أبواب الشعب تُختَم بدم الحمل، فاختمْ بابك بدمِ جنب ابن الله.
اصبغ لسانك وشفتيك وفكرك بدم ربّك، فسيحرسك من الأذى.
ابحث كل يومٍ عن هذا الحارس لفمك وشفتيك، اربحه بالدموع، وهو يحفظك دون أن ينام.
دم المسيح المذبوح مرشوشٌ على أفواه الشعب؛ نظر موسى ذلك وصوَّره في دم الحمل[١].

القديس مار يعقوب السروجي

لا تُعَوِّد فمك على النذور،
ولا تألف النطق باسم القدوس [٩].

فكما أن العبد الذي دومًا يُضرَب، لا يخلو من الكدمات،
كذلك من ينذر وينطق باسم القدوس على الدوام، لا يتطهر من خطيَّة [١٠].

❖ "لا تُعَوِّد فمك الحلف، ولا يألف التلفظ باسم القدوس" (راجع سي ٢٣: ٩). لماذا؟ "كما أن الخادم الذي لا يزال يُضرَب لا يخلو من آثار الضرب، كذلك من يحلف" (راجع سي ٢٣: ١٠).
انظر تمييز هذا الحكيم. لم يقل: "لا تعود عقلك بل فمك، لأنه إذ هذا من عمل الفم تمامًا، فإن علاجه سهل. إذ يصير هذا عادة بدون قصد، وذلك كمثال يوجد كثيرون يدخلون الحمامات العامة بمجرد مرورهم عند تخومها وعبورهم عليها[٢].

❖ إنه يستحيل، يستحيل تمامًا للفم الذي يمارس القسم ألا يرتكب الحلف كذبًا. لهذا أطلب إليكم جميعًا إن تتخلُّوا عن هذه العادة القاتلة الشريرة، حتى تنالوا إكليلاً آخر[٣].

القديس يوحنا الذهبي الفم

الإنسان الذي يحلف كثيرًا يمتلئ إثمًا، ولا تبرح الكارثة بيته.
فإن أخطأ، فخطيته عليه. وإن استخفّ بالأمر فخطيته مضاعفة.
وإن حلف بالزور لا يتبرَّر، ويمتلئ بيته بالبلايا [١١].

في العهد القديم كان يُطالب الإنسان أن يحلف في وقارٍ وصدقٍ ليشهد لإيمانه بالله، مقابل

---

[١] الأب مينا المقاري: ميمر رقم ٧٩، نشره بالإنجليزية سباستيان بروك *S. Brock*، وذلك في مجلة *Sobornost, Vol. 3, no. 1, 1981*؛ الميمر ٧٩ على البرقع الذي على وجه موسى (خر ٣٤: ٣٣-٣٥) (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).
Sebastian P. Brock: Jacob of Sarug's Homily on the Veil on Moses' Face, Gorgias Press, 2009.
[2] *On Acts Of The Apostles، Homily 10.*
[3] *Concerning The Statues، Homily 14 : 16*

الوثنيين الذين يحلفون بآلهتهم (الأصنام) باطلاً. فاللسان الذي ينطق اسم الله القدوس إن مارس القسَم بكثرة بغير حكمة، يحلف كذبًا فيُحسَب قسمه إثمًا.

يُحَذِّرنا من التسرُّع في القَسَمْ باسم القدوس، لئلا تصير عادة، فيستخدمها الإنسان بلا حكمة ولا يتطهر من خطية. هذه العادة تدفع الإنسان إلى ارتكاب خطية مضاعفة [١١]: التسرُّع في القَسَمْ بلا تعقُّلٍ، والعجز عن إيفاء ما أقسم أن يفعله (لا ٥: ٤؛ عد ٣٠: ٢). خلال هذا التسرُّع يتعرَّض الإنسان إلى التجديف الذي عقوبته الموت (لا ٢٤: ١٥-١٦؛ يو ١٠: ٣٣). يليق بالإنسان ألاَّ يتعوَّد على التسرعُّ، ليس فقط في القسم باسم القدوس بل حتى في مجلس البشر العظماء، لئلا يتصرَّف بحماقةٍ، فيتعرَّض لمتاعبٍ، فيود لو لم يولد، ويلعن يوم ولادته [١٤] (أي ٣: ٣؛ إر ٢٠: ١٤).

في العهد الجديد، إذ دخلنا إلى النضوج الروحي يأمرنا السيّد ألا نقسم مطلقًا، بل ليكن كلامنا نعم نعم ولا لا. ويُعَلِّل **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** هذا بقوله إن القسم أشبه بالريح بالنسبة لسفينة الغضب، بدونه لا يمكنها أن تبحر في حياة الإنسان. إنه يقول: [ضع قانونًا على إنسان كثير الانفعال ألاّ يقسم قط، فلا تكون هناك حاجة لتعليمه الاتّزان[1].] ويعتبر **القدّيس يوحنا الذهبي الفم أن** عدم القسم هو العلامة التي تُمَيِّز المسيحي ولغته الخاصة: [لنتقبَّل هذا كختم من السماء، فيُنظَر إلينا في كل موضع أننا قطيع الملك. ليتنا نعرف من نحن خلال فمنا ولغتنا][2].

❖ يليق بالإنسان ألاَّ يحلف قط، إذ مكتوب: "الرجل الحلّاف يمتلئ إثمًا، ولا يبرح السوط بيته" (راجع سي ٢٣: ١١). ما قيل عن السوط الذي لا يفارق بيته لا يُفهَم بيته الأرضي، وإنما نفسه *his soul* التي هي هيكل الله[3].

الأب قيصريوس أسقف آرل

يوجد أسلوب كلامٍ يشبه الموت. ليته لا يوجد هذا في ميراث يعقوب!

لأن الأتقياء يبتعدون عن هذه الأخطاء كلها، ولا يتورطون في الخطايا [١٢].

ربما يقصد هنا كلام التجديف على الله الذي يستوجب الموت والحرمان من ميراثِ يَعْقوب، أي من الملكوت. كما يقصد النقد العنيف الذي يؤذي المشاعر، ويفسد العلاقات، وقد يتطور في كثير من الأحيان إلى ما هو أسوأ من جرح المشاعر. مثل هذا الإنسان لا يليق به الانتماء إلى الميراث الأبدي.

---

[1] *In Acts, hom 9.*
[2] *In Acts, hom 9.*
[3] *Sermons, FOTC, vol. 1, p. 119-121.*

لا تعوِّد فمك على الكلام بتعبيرات خليعة،

فإن هذا كلام خاطئ [١٣].

يُطالِبنا معلمنا يعقوب الرسول أن نضبط أفواهنا وألسنتنا، مشبهًا ذلك بوضع اللجم في أفواه الخيل لتطاوعنا، فندير جسمها كله (يع ٣: ٣). كما يشبه اللسان بدفة السفينة الصغيرة التي تُحَرِّك السفينة كلها (يع ٣: ٤-٦). يمدح ضابط لسانه، قائلاً: "إن كان أحد لا يعثر في الكلام، فذلك رجل كامل، قادر أن يلجم كل الجسد أيضًا" (يع ٣: ٢).

اذكر أباك وأمك إذا جلست في مجلس العظماء، لئلا تنسى نفسك أمامهم،

وبواسطة العادة تتصرَّف كالأحمق.

عندئذٍ تودّ لو لم تولد، وتلعن يوم ولادتك [١٤].

❖ أبغض العظمة، لأنها الثمرة المملوءة موتًا.

لأن آدم أكل منها في عدن، وأعطته الموت.

وبها سقط الشيطان من البدء. وبها سقط بيت آدم من الفردوس.

ليس عند الله شيء بخس ومكروه مثل حب العظمة، والتشامخ بالكبرياء.

القديس مار يعقوب السروجي

من تعوَّد الكلمات المُسيئة،

لا يتأدَّب كل أيام حياته [١٥].

يظن البعض أن الشتيمة هي أن ينطق بكلمات غير لائقة ضد أحدٍ، غير أن القديس باسيليوس يرى أن كل كلمة حتى وإن كانت في ذاتها غير شريرة، لكنها تُشَوِّه صورة الآخرين مباشرةً أو ضمنًا فهي شتيمة. كما يُحَذِّرنا القديس باسيليوس أن نهين إنسانًا ولو بتعبيرٍ عامٍ وبقصد المزاح.

❖ **سؤال: ما هو الشتَّام؟**

الإجابة: كل كلمة يُنطَق بها بقصد تشويه صورة شخصٍ، حتى إن كانت الكلمة ذاتها لا تبدو أنها شتيمة. هذا واضح من قول الإنجيل عن اليهود: "شتموه، وقالوا: "أنت تلميذ ذاك"! (يو ٩: ٢٨)[1].

❖ **سؤال: ما هي كلمة "رقا" (مت ٥: ٢٢)؟**

الإجابة: هي كلمة عامية لتلك الأُمّة عن إساءة خفيفة شائعة تُقَال من الأشخاص المعروفين

[1] *Regulae brevius tractatae, 24.*

له بدون كلفةٍ[1].

القدِّيس باسيليوس الكبير

٣. الرجل الزاني

أخطر ما في الزنا ثلاثة أمور:

أ. الزنا نار متوهجة، لا تطفأ إلا بدمار الإنسان تمامًا.

ب. مع ما للزنا من أمور تشمئز منها النفس، تستمر لذَّتها إلى دقائق، تقدم عذوبة لما هو فاسد.

ج. من يفتح الباب للزنا بتهاون، يصير للزنا حق ملكية للقلب والفكر والعواطف ويتمسك بها، وكلما تهاون الإنسان صار طرد الزنا أصعب مما كان عليه. من يتهاون مع الشهوات والأفكار تلتهب أعماقه بنارٍ يصعب إطفائها، وتبقى ملتهبة حتى تأكله النار.

يبدو أن ابن سيراخ يُمَيِّز بين **ثلاثة أنواع من خطايا الذكور:**

١. الزنا مع فتاة غير متزوجة، هذا الهوى ناره تُحَطِّم الإنسان (١ كو ٧: ٩).

٢. علاقات جنسية بين أقرباء تحرمه شريعة موسى الزواج (لا ١٨: ٦). هذه الخطية تشعل نار الغضب الإلهي (عد ١١: ١).

٣. الزنا مع امرأة متزوجة (٩: ٩) يشبه من يأكل خبزًا محببًا إلى النفس (أم ٩: ١٧؛ ٣٠: ٢٠) يؤدي إلى الموت.

يظن مرتكب الزنا أنه لا يراه أحد، لكن الله يعرف كل تصرفات البشر (١٧: ١٩-٢٠)، حتى إن بدت مخفية عن الجميع (أم ٥: ٢١).

بالتأمل في مصير الأتقياء والأشرار، يقتنع المؤمن أنه ليس شيء أفضل من الحياة في خوف الربّ وحفظ وصاياه (جا ١٢: ١٣؛ تث ١٠: ١٢-١٣).

"**الإنسان الزاني** بجسده لا يتوقَّف عن شرّه هذا إلى أن تأكله النار. الإنسان الزاني كل طعام يحلو له، فلا يهدأ إلى أن يموت. من يكسر نذور زواجه، قائلاً في نفسه: من يراني؟ الظلمة حولي، والحيطان تخفيني. ولا أحد يراني، فماذا أخشى؟ إن العلي لن يلاحظ خطاياي. إنه يخاف من عيون البشر، ولا يعلم أن عيني الرب أكثر ضوءً من الشمس ربوات المرات، فتُبصران جميع طرق البشر، وتنفذان إلى الطرق الخفية" (راجع ٢٣: ١٦-١٩). "**لا تتفرَّس في جمال أي إنسان**... فإنه من الثياب يخرج العث" (راجع ٤٢: ١٢-١٣).

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 51.*

من الناس صنفان يُكثِران من الخطايا،

وصنف ثالث يجلب السخط [١٦].

يظهر خطر عدم ضبط اللسان وأيضًا السقوط في الشهوات أنهما يصيبان المجتمع كله، لأن العلاقات بين أعضاء المجتمع غالبًا ما تقوم على التعامل باللسان والجنس بكونه الأساس البيولوجي للزواج وتكوين الأسرة التي هي عماد المجتمع، والعنصر الرئيسي في تأسيس الجماعة.

فساد الكلام يُحَطِّم الثقة بين البشر، وفساد الجنس يُحَطِّم النظام الأسري الذي تقوم عليه كل البشرية ويهبها الوحدة. إذا لم يوجد ضبط للجنس، فلا يوجد أيضًا ضبط للسان. الزنا ليس خطية ضد الطهارة فحسب، بل وضد العدالة، لأن الزنا هو انتهاك للميثاق البشري. حينما يرتكب الإنسان الزنا لا يُجرِم في حق أسرته فحسب، بل وفي حق المجتمع. أما العلاج الرئيسي لهذه الخطايا فهو التمتُّع بمخافة الربّ.

النفس المتوهجة كنارٍ ملتهبةٍ، لا تنطفئ حتى تفنى.

والذي يُسَلِّم جسده بالكامل للزنا، لا يتوقَّف حتى تحرقه النار.

الإنسان الزاني كلّ طعامٍ يحلو له، ولا يتوقَّف حتى يموت [١٧].

❖ لنُقَدِّم زوجات (لأولادنا) في سن مبكر، حتى تتقبَّل العرائس أجسادهم طاهرة غير دنسة، فيكون حبهم أكثر تأججًا. من كان طاهرًا قبل الزواج يكون بالأكثر طاهرًا بعد الزواج؛ ومن يُمارِس الزنا قبل الزواج يمارسه بعده. "الإنسان الزاني كل طعام يحلو له" (راجع سي ٢٣: ١٧).

توضع الأكاليل عادة على رؤوس العرسان، كرمزٍ للنصرة، حيث تشير إلى أنهم يقتربون إلى فراش الزواج غير منهزمين باللذة. أما إذا كان أسيرًا للذة، وسلَّم نفسه لزانية، فلماذا يلبس الإكليل وهو منهزم؟![1]

❖ إنه هوى ليس له حدود. مرة أخرى الذين يتلذذون بالزنا لا يقدرون أن يكفوا عنه. قيل: "الإنسان الزاني كل طعامٍ يحلو له" (راجع سي ٢٣: ١٧). إنه لا يتوقَّف حتى يُفترَس. فإنه هوى![2]

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الذي يظن أنه يخفي جريمته يضيع خلال رجاء فارغ، لأن هذا قول باطل وليس فيه الحق. والكلام الباطل الذي ينطق به الخطاة مكروه (راجع سي ٢٧: ١٣). وهو لا ينتج ثمرًا بل ثقلاً.

---

[1] *On 1 Tim، Homily 10.*

[2] *On 2 Thess، Homily 1.*

لأن حديث الأحمق كحملٍ في الطريق (راجع سي ٢١: ١٧). وما هي الخطية إلاَّ حمل ثقيل؟ إنها ثقيلة يحملها الهارب في هذه الحياة، حيث يتثقَّل جدًا بحمل جريمته الثقيلة. فإن كان لا يريد أن يسقط تحت الحِمل، يلزمه أن ينتبه للربّ القائل: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (مت ١١: ٢٨)[1].

القديس أمبروسيوس

الإنسان الذي يتعدَّى فراش زواجه، قائلاً في نفسه: "من يراني؟
الظلمة حولي، وحيطان بيتي تُخفِيني. ولا أحد يراني،
فماذا أخشى؟ إن العليّ لن يذكر خطاياي" [١٨].

❖ لنسلك دومًا بلياقة كما في النهار (رو ١٣: ١٢)، ونجحد أعمال الظلمة. نحن نعلم أن الليل قد عُيِّن لراحة الجسد، لا للعمل والأنشطة، فلهذا نقضي الليل في النوم في نسيان مريح، ولا نقضيه في ولائم وسكرٍ وعربدة وعدم احتشام. يليق بنا ألا نقول: الظلمة والحيطان تخفينا، فإن العلي يلاحظنا ويرانا. عوض هذا لنُحِبّ النور والسير في ضوء الشمس، ونريد أن أعمالنا تكون متألقة في حضرة الله[2].

❖ كل شخص يتجنَّب النور يحب الظلمة، طالبًا أن يختفي، مع أنه لا يستطيع أن يختفي عن الله، الذي يعرف ليس فقط ما يحدث فعلاً، وإنما حتى ما يُفَكِّر فيه سواء في أعماق المكان أو في أذهان البشر. هكذا يقول أيضًا سفر يشوع بن سيراخ: "من يراني؟ الظلمة حولي، والحيطان تسترني. ولا أحد يراني، فماذا أخشى؟" (راجع سي ٢٣: ١٨)[3].

القديس أمبروسيوس

❖ ذاك الذي يطلب مُجَرَّد اللذة الجنسية، يُحوِّل زواجه إلى زنا. إنه ينسى كلمات المُعَلِّم: "الإنسان الذي يكسر نذور زواجه، قائلاً في نفسه: من يراني؟ الظلمة حولي، والحيطان تخفيني. ولا أحد يراني، فماذا أخشى؟ إن العليّ لن يلاحظ خطاياي" (راجع سي ٢٣: ١٨). مثل هذا الإنسان بائس للغاية، لأنه يخشى فقط عيون البشر، ويظن أنه يُخفى عن الله. "إنه لا يعلم ما يكلمه الكتاب: إن عين الربّ أكثر ضوءًا من الشمس... تبصران جميع طرق البشر، وتنفذان إلى الطرق الخفية" (راجع سي ٢٣: ١٩). في وقتٍ آخر يُحَذِّرنا المُعَلِّم بإشعياء: "ويل لكم يا من تجعلون مشورتكم

---

[1] *Seven Exegetical Works، FOTC، vol. 65، p. 331-333.*
[2] *Hexamaeron 2:10:38.*
[3] *Duties Of The Clergy، Book 1، Ch. 14:54.*

في الخفاء، وتقولون: من يرانا؟" (إش ٢٩: ١٥ *LXX*).

النور الذي يمكن أن تراه الحواس يمكن أن يعبر ولا نلاحظه، أما الذي ينير الذهن فلا يمكن تجاهله... ليتنا لا نسمح لأنفسنا أن نُبتلَع بالظلام بأية وسيلة، لأن النور ساكن فينا، والظلمة لا يمكن أن تغلبه (راجع يو ١: ٥). الليل يتحوَّل إلى نهار بالتعقُّل الطاهر.

يدعو الكتاب المقدس إلى نهار بالتعقُّل الطاهر. يدعو الكتاب المقدس عقل الإنسان الصالح مصباحًا لا يمكن أن ينطفئ (حك ٧: ١٠). في الواقع المحاولة ذاتها للتغطية على ما يفعله الشخص هي علامة أن الإنسان يدرك أنه يرتكب خطية[1].

القديس إكليمنضس السكندري

عيون البشر هي خوفه، ولا يَعْلَم أن عينيّ الربّ أكثر بهاءً من الشمس ربوات المرات، فتُبصران جميع طرق البشر، وتلاحظان حتى الأماكن الخفية [١٩].

❖ مثل هذا الشخص بائس للغاية، إذ يخشى أن يلاحظه الناس فقط، ويظن أنه يختفي عن الله[2].

القديس إكليمنضس السكندري

في رسالة بعثها **القديس أمبروسيوس** إلى القديس إيريناؤس أَكَّد أن الذين يظنون أن الله لا يراهم لأنهم يُمارِسون الشرّ في الظلمة، وأن الأعماق تغطيهم، رجاؤهم هذا باطل، لأن الله يرى الأعماق الخفية التي لا تُدرَك، كل شيءٍ مكشوف أمامه قبل أن يحدث.

أوضح أيضًا أن إيليا النبي كان يختار السُكنَى في الجبال وتلميذه أليشع كان يسكن في العلية.

❖ لم يعش إيليا أو أليشع في مساكن تحت سطح الأرض. واحد منهما حمل الميت ابن الأرملة إلى العلية حيث كان ساكنًا وهناك أعاد له الحياة (٢ مل ١٧: ٢٢). والثاني كانت له غرفة مُعَدَّة في العلية بواسطة المرأة العظيمة الشونمية كما شهد الكتاب... ماذا أقول عن بطرس الذي صعد إلى السطح في الساعة السادسة، وتعلم سرّ عماد الأمم (أع ١٠: ٩). من ناحية أخرى فإن المجرم أبشالوم وضع لنفسه عمودًا في وادي الملك، وقد أُلقي في حفرة عندما قُتِل (٢ مل ١٨: ٧).

هكذا فإن القديسين يصعدون إلى الربّ، والأشرار ينحدرون إلى الخطية. القديسون على الجبال، والمجرمون في الوديان، فإنه هو إله الجبال وليس إله الوديان (١ مل ٢٠: ٢٨)[3].

❖ ليتنا نسلك بلياقة كما بالنهار، ونترك أعمال الظلمة (رو ١٣: ١٢-١٣). إننا نعرف أن الليل يعبر

---

[1] *Paedagogus, FOTC، vol. 23، p.175-176.*
[2] *Paedagogus 2: 10: 99E.*
[3] *Letters، FOTC، vol. 26، p.448-449.*

في النوم والنسيان حتى يجد الجسم راحة. لم يُعَيَّن الليل لممارسة أي عمل أو أية تعاملات. ليتنا لا نشترك في الحفلات والسُكْرِ... لا نقل "الظلمة والحيطان تغطينا، من يعلم إن كان العلي يرانا (راجع سي ٢٣: ١٩). ليكن فينا محبة النور وتقديرنا للصلاح، حتى نكون كمن يسير في النهار، نرغب أن تشرق أعمالنا في حضرة الله[1].

القديس أمبروسيوس

هو عالم بكل شيءٍ قبل أن تُخلَق المسكونة،
ونهاية سائر الأشياء معروفة أيضًا له [٢٠].

هذا الزاني يُعاقب في شوارع المدينة،
وحيث لا يتوقَّع يُقبَض عليه [٢١].

هذا هو شأن المرأة التي تترك زوجها،
وتجعل له وارثًا من رجلٍ غريبٍ [٢٢].

بالنسبة لزنا المرأة [٢٢-٢٧]، خطيتها مثلثة الجوانب:

أ. كسر شريعة الله (تث ٥: ١٨؛ خر ٢٠: ١٤).

ب. تخطئ في حق رجلها.

ج. تحمل بأطفالٍ ليسوا من رجلها.

حسب الشريعة الموسوية تُرجَم المرأة حتى الموت (تث ٢٢: ٢٢؛ دا ١٣: ٣٦-٤١)، وتحرم نفسها من ممارسة الأمومة والتمتُّع بأحفادها (حك ٣: ١٦: ١٩؛ ٤: ٣-٦). عوض تكريمها بعد موتها يصير ذكرها عارًا (٤١: ٥-٩).

لأنها أولاً عصت شريعة العليّ،
وثانيًا أخطأت إلى زوجها،
وثالثًا تنجَّست بالزنا،
وأنجبت أولادًا من رجل غريب [٢٣].

فهذه يؤتى بها إلى المجلس،
ويُجرَى تحقيق في أمر أولادها [٢٤].

---

[1] *Hexamaeron …. FOTC، vol. 42، p.43-44.*

إن أولادها لن يكون لهم أصول،
وأغصانها لن تُخرِج ثمارًا [٢٥].

وهي تُخلّف ذِكرًا ملعونًا،
وفضيحتها لا تُمحَى [٢٦].

فيعرف الباقون بعدها أن لا شيء أفضل من مخافة الربّ،
ولا شيء أعذب من الاهتمام بوصايا الرب [٢٧].

❖ يا من تُحِبُّون التعليم، وتتوقون إلى الإصغاء، اقبلوا مرة ثانية الكلمات المقدسة، وأبهجوا أنفسكم بعسل الحكمة، لأنه مكتوب: "الكلمات الحسنة شهد عسل، وحلاوتها شفاء النفس" (أم ١٦: ٢٤ *LXX*). عمل النحل حلو جدًا، وينفع نفس الإنسان بطرقٍ كثيرةٍ، وأما العسل الإلهي الخلاصي، فيجعل أولئك الذين يستقر فيهم ماهرين في كل عملٍ صالحٍ، ويُعَلِّمهم طرق التقدُّم الروحي[١].

القديس كيرلس الكبير

❖ أَتُحِب المُتعة والملذَّات؟ تطلَّع إلى وصايا الرب، فهي بالنسبة للنفس السوية أحلى من العسل والشهد![٢] إنه سحر الحق الذي عَبَّر عنه المرتل، مؤكدًا ذلك عند قوله: "كم هي حلوة كلماتك لحلقي، إنها أحلى من العسل في فمي". نير المسيح حلو، وحمله خفيف في إنعاش من يخضعون له، أما كل ما هو غريب عن تعليم الإنجيل، فهو ثقيل ومُتعِب (مت ١١: ٢٨-٣٠)[٣].

❖ **سؤال: كيف يمكن لمن صار متراخيًا في الوصية، أن يسترد غيرته ويقظته؟**

الإجابة: بالاقتناع بحضرة الرب الإله الذي يسهر على كل الأشياء في كل مكانٍ، وأن يضع أمام عينيه التهديد ضد المتراخين، والرجاء بمكافأة عظيمة من الله، الذي وعد بها خلال بولس الرسول، قائلاً: "كل واحدٍ سيأخذ أُجرته بحسب تعبه" (١ كو ٣: ٨)، والعبارات المشابهة التي تُشَجِّع على الغيرة والصبر من كل أحدٍ لمجد الله[٤].

❖ **سؤال: كيف يمكن أن يُتَمِّمَ إنسان وصايا الرب بوازعٍ داخليٍ وبغيرةٍ؟**

الإجابة: بالطبيعة، خلال خبرة ما هو حلو ونافع، وتوقُّع أي شيءٍ من هذا النوع، يُولَد في

---

[١] تفسير انجيل لوقا، عظة ١٢٠، ترجمة دكتور نصحي عبد الشهيد، نوفمبر ١٩٩٨، ص ١٥٤.

[2] *Ep. 8:8.*

[3] *Morals Rule 44:1.*

[4] *Regulae brevius tractatae، 37.*

النفس وازع وشوق إليه. لذلك إن أبغض أحد الإثم ومقته (مز ١١٩: ١٦٣)، وتطهَّر من كل خطية، فكما عندما يفقد الجسم الشهية ولذَّة الطعام بسبب مرض، هكذا خلال مرض الخطية تعاني النفس من البلادة والنفور من أحكام الله البارّة. وان اقتنع أحد تمامًا أن وصية الله هي حياة أبدية (يو ١٢: ٥٠)، وأن كل المواعيد التي للذين يحفظونها هي حق، عندئذ بهذا يعمل الوازع فيه، إذ قيل: "أحكام الرب حق عادلة كلها. أشهى من الذهب والحجارة الكريمة جداً، وأحلى من العسل وقطر الشهاد. أيضًا عبدك يُحذّر بها، وفي حفظها ثواب عظيم" (مز ١٩: ١٠-١٢)[1].

القدِّيس باسيليوس الكبير

[1] *Regulae brevius tractatae، 174.*

ارحمني يا أبي من مشورتي!

❖ إليك أشكو نفسي، يا أيها الرب أبو حياتي وسيِّدها.
لتكن مشيئتك في حياتي، ولتصلب مشورتي المتهاونة.
من يستطيع أن يؤدِّب أفكاري المتهاونة، ويجلدها بالسياط سواك.
لست أئتمن أحدًا يجلد أفكاري سواك.
فأنت أب سماوي رحوم، وقدير وعالم بكل أعماقي!
بسياطك الحازمة والمملوءة حبًا حَطِّم تعالي عينيّ المتشامختين.
لك وحدك السلطان أن تقتلع شهواتي الشريرة والنهم، وكل فساد من جذوره.

❖ اسندني وأَقِم حراسة مُشَدَّدة لحفظ لساني.
لا تسمح لكلمة شتيمة أو تشامخ أو تسرُّع في النذور يصدر من فمي.
لا تسمح لفمي الدنس أن يتهاون، فيحلف باسمك يا أيها القدوس وحده!
كلمات التجديف تهاجم فمي كي تحتله، فيحلّ بي الموت.
كابن لك لا تسمح لكلمات رخيصة غير لائقة تصدر من فمي!

❖ لتُطفِئ نيران الشهوات حتى لا تحرقني، وتُدَمِّرني تمامًا.
كل النفوس مهما بلغ فسادها تدرك أن الشهوات رديئة،
لذّتها ربما تدوم إلى دقائق وتشمئز منها النفس.
لكنها إذ تمسك بقلب الإنسان وفكره، تضرب بجذورها في أعماقه،
وتحسب أنها أقامت مملكتها فيه...
من يقدر أن يطردها من كرسي عرشها؟!
أنت وحدك يا أيها القدوس، تشرق ببرّك، فتتبدَّد ظلمة الشهوات!

الأصحاح الرابع والعشرون

أمومة الحكمة للبشرية

في الأصحاح السابق يدعونا ابن سيراخ أن نهتم برعاية أبنائنا وقداسة إخوتنا. وفي هذا الأصحاح يُجيب على سؤال ربما وجَّهه أحد التلاميذ إليه: "من هم أبنائي؟؛ ومن هم إخوتي؟" لهذا يُقَدِّم لنا الحكمة الإلهية تُعلِن عن نفسها كأم للبشرية كي نُحِبّها ونقتنيها ونسلك بروحها ونقتدي بها. عندما ننصت إلى كلمات الحكمة هنا، نذكر اهتمام السيد المسيح بالإعلان عن نفسه، لكي يدرك المؤمن حاجته إلى اقتناء المُخَلِّص الذي يُشبِع احتياجاته.

وكأننا نسمعه يقول لكل واحدٍ منّا:

[أنا هو الخبز السماوي، من يأكلني يتمتَّع بالوليمة الأبدية.

أنا هو الحياة، بدوني لا وجود لك.

أنا هو نور العالم، أُشرِق عليك فتختبر نور الأبدية.

أنا هو الحق، أدخل بك إلى الأسرار الإلهية.

أنا هو القيامة، لن يقدر الموت أن يسبيك بعد!

أنا هو الباب، أدخل بك فيّ لتبلغ إلى أحضاني.

أنا هو الراعي الصالح، أحملك على منكبيّ بكل ضعفاتك!

أنا هو الكرمة الحقيقية، لتثبت فيّ وأثبت فيك!]

لما كانت الحكمة التي تُعلِن عن ذاتها هي حكمة الله التي صارت إنسانًا، يمكننا أن ندرك حاجتنا لاقتنائها والتمتُّع بالشركة معها، حتى نتمتَّع بالخليقة الجديدة التي فقدناها خلال خطايانا وعنادنا ضد الله. وفيما يلي ما تُقَدِّمه الحكمة الإلهية للمؤمن:

١. إن كانت **السماء هي مسكن الحكمة** [٤] إلاَّ أنها تهتم بكل المسكونة على الأرض. هكذا يليق بالمؤمن أن يختبر عربون السماء فينفتح قلبه بالحُبِّ لكل البشرية.

٢. وضع حكمة الله في خطته الإلهية أن **يرعى شعب إسرائيل كميراثٍ له** [٨]، غير أنه يهتم بكل الشعوب والأمم [٦]، فيشعر كل إنسانٍ أن له موضع خاص في الأحضان الإلهية.

٣. تحفظ الحكمة مدينتها أورشليم، **وتُقدِّس هيكلها في صهيون** [١٠]، وتشبهها بجنة فريدة تدعو الراغبين فيها أن يقطفوا من ثمارها مجدًا وغنى [١٧]، لم تُحَدِّد شعبًا مُعيَّنًا لسكان المدينة، أما الجنة التي تثمر مجدًا وغنى فهي السماء عينها أو أورشليم العليا، تضم المقادس السماوية.

ختم الأصحاح بتأكيد ما نطق به هنا **نبوة يتركها للأجيال الآتية** [٣٣]، حيث تدرك كنيسة العهد الجديد أن ابن سيراخ رآها من بعيدٍ وتهلل بها، لأنها تطلب المسيح الحكمة الحقيقية.

تؤكد الحكمة مرة ومرات: "هذه الشريعة تملأ البشر بالحكمة" [٢٥]، إنها أشبه بأربعة أنهار تفيض على المسكونة في المشارق والمغارب والشمال والجنوب [٢٥-٢٦]. تعليمها يشرق كالنور ويفيض كالنيل [٢٧] أي يفيض على مصر وأثيوبيا، أو على الأمم.

تُشبِّه الحكمة نفسها كقناة تحوَّلت إلى نهرٍ، والنهر تحوَّل إلى بحرٍ [٣٠] ينطبق هذا على حكمة الله المتجسد ربنا يسوع الذي كان كقناة صغيرة بتجسده في رحم القديسة مريم، فجعل من القديسة جنة مقدسة، وإذ خدم أكثر من ثلاث سنوات في إسرائيل صار الإيمان به كنهرٍ، فاض بمياه حُبِّه على التلاميذ والرسل وكل الذين آمنوا به وحملوا ثمر الروح المفرح، وإذ أرسل روحه القدوس انطلقت الكنيسة تشهد وتكرز في كل الأمم والشعوب والألسنة بالإيمان بالمُخَلِّص بحرًا عظيمًا! واضح أن الرسول بولس وهو يتحدث عن تجسد الابن في رسالته إلى فيلبي (في ٢: ٥-١١) كانت عبارات هذا الأصحاح في ذهنه.

يرى البعض أن هذا الأصحاح يحتل تقريبًا منتصف الطريق في السفر، حيث تبسط الحكمة يديها، وتدعو الجميع كي تحتضنهم وتلتصق بهم، وتسكب من بهائها وخيراتها عليهم. تُشبِع احتياجاتهم الداخلية، إذ تقول لهم: "**أنا أم الحب والمخافة والمعرفة والرجاء المقدس. وبكوني أبدية أُعطي كل أولادي الذين لقبوا بواسطة الربّ**" [١٨]

يُصوِّر ابن سيراخ في هذه القصيدة الحكمة كعطية الله ويشخصنها. تكشف عن ذاتها وإمكانياتها، فيتعرَّف عليها البشر بالإيمان ويقتنونها، فيتشبَّهون بالسمائيين، ويتمتعون بإمكانيات إلهية لخلاصهم. يتناغم هذا الأصحاح مع (أمثال ٨: ٢٢-٣١)، وسفر الحكمة ٦، حيث يشخصن الحكمة، بكونها صادرة من فم العليّ لتُغَطِّي الأرض [٣]. ففي بدء الخليقة كان روح الله يرف على وجه المياه، فخلق العالم وأبدع بخلقة الإنسان على صورة الله ومثاله (تك ١: ٢، ٢٧). أما وقد فسدت الطبيعة البشرية، نزل "حكمة الله" وتجسد ليرُد هذه الصورة (٢ كو ٥: ١٧)، تتمتع بشركة الطبيعة الإلهية (٢ بط ١: ٤). حديث الحكمة هنا ينطبق على حكمة الله ربّ المجد يسوع واهب الحكمة الحقيقية، لنصير أيقونته الحية حيث ننتهي جميعنا إلى إنسانٍ كاملٍ، إلى قياس قامة ملء المسيح (أف ٤: ١٣).

أ. "إني خرجت من فم الله" [٣]؛ "من عند الله خرجت" (يو ١٦: ٢٧؛ ١٧: ٨).

ب. كالبخار غطيت الأرض" [٣]؛ هكذا أحب الله العالم... لكي لا يهلك كل من يؤمن به" (يو ٣: ١٦).

ج. "نصبت خيمتي في الأعالي" [٤]؛ "أنتم من أسفل، أما أنا فمن فوق" (يو ٨: ٢٣).
د. "التمست موضع راحة" [٧]؛ "أما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه" (مت ٨: ٢٠).
هـ. "جعلت راحتي في المدينة وسلطنتي في أورشليم" [١١]؛ "ملكوت الله في داخلكم" (لو ١٧: ٢١)، أي في قلب المؤمن مسكن الله.
و. "أنا كالكرمة أنبت النعمة، وأثماري ثمار مجد وغنى" [١٧]؛ "أنا الكرمة وأنتم الأغصان، الذي يثبت فيّ وأنا فيه، يأتي بثمرٍ كثيرٍ" (يو ١٥: ٥).
ز. "ذكري أحلى من العسل" [٢٠]؛ "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين... نيري هَيِّن (حلو)" (مت ١١: ٣٠).
ح. "الذين يأكلونني سيجوعون أكثر" [٢١]؛ "أنا هو الخبز الحيّ الذي نزل من السماء" (يو ٦: ٥١).

يحتوي هذا الأصحاح على قسمين:

١. **الحكمة تُعلِن عن نفسها [١-٢٢].**
٢. **تعليق عملي على حديث الحكمة [٢٣-٣٤].**

١. الحكمة تُعلِن عن نفسها

ستمدح الحكمة نفسها،
وتفتخر بين شعبها [١].

تفتح فمها في جماعة العليّ،
وتفتخر أمام قدرته [٢].

ماذا تقول حكمة الله؟

أ. إذ تدعو المؤمنين إلى اقتنائها، تمدح نفسها وتفتخر بين شعبها، ليس لأنها في حاجة إلى مديحٍ أو مجدٍ خارجي، سواء من بني البشر أو من الطغمات السماوية، وإنما لأنها تقدم ما لها للمؤمنين. وكأنها تقول لهم **ما هو لي أهبه لكم**. فمن يجدني إنما يشهد لما يناله من مجدٍ باتحاده بي.
ب. إن كان السمائيون يمجدونني، فإنني أود أن أرتفع بشعبي الذين أَعتزّ بهم **لينضموا إلى جماعة العليّ**، فترتفع أفكارهم وقلوبهم إلى السماويات.
ج. إن كان مسكن الحكمة في الأعالي وعرشها في عمود السحاب، إلاَّ أنها ليست ببعيدة عن كل الخليقة العاقلة. فإن كان الإنسان قد انحدر إلى أعماق الهاوية (الغمار) بسبب عصيانه وحرمانه

من مصدر حياته، فأنا لست ببعيدة أينما وجدت سواء على الأرض أو في البحار أو في الهاوية؛ أخلصه وأنطلق به إلى مسكني في الأعالي، وأضمّه إلى جماعة العلي. بغير محاباة أعمل في حياة المؤمن أيًا كانت جنسيته، لي سلطان على كل شعبٍ وأمةٍ.

د. كيف تلتمس الحكمة الراحة؟ إذ تستريح الخليقة العاقلة المحبوبة لدى حكمة الله، تحسب كل راحة للخليقة هي راحة لها أينما وُجِدَت هذه الخليقة.

هـ. إذ تملأ حكمة الله المسكونة كلها، في السماء وعلى الأرض، غير أنها تهتم بشعب الله، فتنصب خيمتها في يعقوب، وميراثها في إسرائيل [٨]. وكأن شعب الله هو بيتها وميراثها. هذا هو وضع كل مؤمنٍ حقيقيٍ، فيتغنى: "أنا لحبيبي وحبيبي لي" (نش ٦: ٣). يؤكد لنا السيد المسيح، حكمة الله وقوة الله: "ملكوت الله داخلكم" (لو ١٧: ٢١).

و. يمتد تدبير حكمة الله لخلاصنا الأبدي إلى ما قبل الخليقة، ويستمر عمله إلى الأبد [٩].

ز. سلطان حكمة الله على كل الشعوب والأمم [٦]، تحسب نفسها عاملة لحساب من يَقْبَلها ويتجاوب معها، فتحسبها مدينتها المحبوبة وهيكلها المقدس، نصيبها وميراثها، وهي نصيبه وميراثه [١٠-١٢]. إنها تطلب أن تستقر في الإنسان المؤمن، ويستقر هو فيها.

إنّي خرجت من فم العليّ،
وكالبخار غطَّيت الأرض [٣].

تشير هنا إلى ميلاد الابن المولود من الآب منذ الأزل. يرى **القديس أمبروسيوس** أن الله الكلمة صدر عن الآب، هذا الذي هو في حضن الآب (يو ١: ١٨). وأن الحضن هنا يعني نوعًا من السكنى الكلية العمق في حب الآب وفي طبيعته (لا ينفصل عنه)، فهو دائم السكنى فيه. وهو مولود في قلبه حيث نطق بالكلمة، وهنا يصدر عن فم العلي حيث يصدر العدل (البرّ) الإلهي، ومنه تصدر الحكمة فتقول: "من فم العلي صدرت" (راجع سي ٢٤: ٣)[1].

❖ قيل إن الحكمة خرجت من فم العلي (راجع سي ٢٤: ٣)، ليست خارجًا عن الآب، بل هي مع الآب، لأنه "والكلمة كان عند الله" (يو ١: ١). ليس فقط "عند الله"، وإنما أيضًا في الله، إذ يقول: "أنا في الآب، والآب فيّ" (يو ١٤: ١٠). وعندما يخرج من عند الآب لا يخرج من موضع (مُعَيَّن)، ولا ينفصل عنه، كما ينفصل جسم عن جسم[2].

---

[1] *Cf. St. Ambrose: The Patriarch 11: 51.*

[2] *Of The Holy Spirit, Book, Chapter 11: 120.*

❖ لا يبدو أن الابن خرج من أي موضع، بل الإله من الإله، الابن من الآب، وليس له بداية في دورة الزمن، بل خرج من الآب بكونه مولودًا، وذلك كما قال المولود نفسه: "إني خرجت من فم العلي" (راجع سي ٢٤: ٣)[1].

❖ من عمل سلطانه أنه جعلنا أبناء الله (يو ١: ١٠ إلخ)، بينما تكشف لنا تعاليم الله عن ولادته بخصوص السمة الأقنومية، لأن حكمة الله تقول: "إني خرجت من فم العلي" (راجع سي ٢٤: ٣)، بمعنى ليس عن إلزامٍ بل بكامل الحرية، ليس تحت رباط السلطة، إنما ولد ميلادًا سريًا، بقوة أقنومية للكائن الأسمى وبرّ السلطة. مرة أخرى ذات الحكمة التي هي الرب يسوع يقول عنه الآب في موضع آخر: "من الرحم أنا ولدتك قبل كوكب الصبح" (مز ١١٠: ٣). هذا يقوله، لا لنفكر في رحم جسدي، بل ليظهر أنها ولادة حقيقية، عمل لائق[2].

القديس أمبروسيوس

ونصبت خيمتي في الأعالي،

وعرشي على عمود السحاب [٤].

❖ سليمان (سيراخ) يظهره أنه كلمة الله (الخارج من فم العليّ)، الذي بيديه خلق أعمال العالم هذه. يقول: "إني خرجت من فم العليّ بكر كل الخلائق. جعلت في السماء ما يشرق نورًا لا يخفت، وكسحابٍ غطيت كل الأرض، سكنت في الأعالي، وعرشي في عمود السحاب" (راجع سي ٢٤: ٣-٥). يقول هذا يوحنا: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١: ١-٣)[3].

الأب لاكتانتيوس

أنا وحدي جُلت في دائرة السماء،

وتمشَّيت في أعماق الهاوية [٥].

المتحدث هنا حكمة الأزلي الواحد مع الآب والروح القدس، سرمدي، باتحادنا به نتمتَّع بالخلود. قال عنه بولس الرسول: "المبارك العزيز (صاحب السلطان) الوحيد، ملك الملوك ورب الأرباب، الذي **وحده** له عدم الموت، ساكنًا في نورٍ لا يُدنَى منه" (١ تي ٦: ١٤-١٦).

---

[1] *Of The Christian Faith, Book 1, Chapter 16: 115*

[2] *Of The Christian Faith, Book 4, Ch.: 88 – 89.*

[3] *Lactantius: The Divine Institutes, FOTC, vol. 49, p. 261-2.*

يُمَيِّز **القديس أغسطينوس** بين النفس البشرية التي قيل عنها في خلقة آدم: "ونفخ في أنفه نسمة حياة" (تك ٢: ٧)، وبين صدور الابن أو الحكمة من فم الله، إذ لم يقل "نفخ فم الله" إنما صدر عن فم الله[1].

❖ لا يمكن القول بأن الحكمة تصدر عن فم العليّ (راجع سي ٢٤: ٥)، ليكون خارجًا عن الآب، وإنما مع الآب، لأن الكلمة مع الله (يو ١: ١)، ليس فقط مع الآب، وأيضًا في الآب. إذ يقول: "أنا في الآب والآب فيّ" (يو ١٤: ١٠). لكن عند خروجه من الآب لم ينسحب كما من موضع، ولا انفصل عنه كما ينفصل جسد عن جسد. وإذ هو في الآب لا يُحسَب كجسدٍ في جسدٍ[2].

القديس أمبروسيوس

وعلى أمواج البحر والأرض كلها،
وعلى كل شعبٍ وكل أمةٍ تسلَّطت [٦].

تعمل الحكمة في حياة الكنيسة الجامعة بكونها شعبها الواحد المقدس، كما تعمل في حياة المؤمن كعضوٍ في هذا الشعب. تُوَجِّه حديثها إلى الجماعة المقدسة كما إلى كل عضوٍ فيها.

في هذه كلها التمست موضع الراحة،
وفي أيّ ميراث ألجأ [٧].

حينئذ أوصاني خالق الجميع، والذي خلقني أَقرّ مكانًا لأحيا،
وقال: "انصبي خيمتك في يعقوب، واستلمي ميراثكِ في إسرائيل" [٨].

جاءت هذه العبارة تُعلِن عن تجسد الابن حكمة الله، بالقول: "أقر مكانًا لأحيا"، "انصبي خيمتك في يعقوب"، "واستلمي ميراثك في إسرائيل".

❖ تحدث نبي آخر عن الابن بنفس الطريقة: "هذا هو إلهنا، ولا يُقارن به غيره" (با ٣: ٣٦). عمن يقول هذا؟ هل قال هذا عن الآب؟ طبعًا لا! اصغوا كيف يشير إلى الخطة الإلهية حسنًا! فبعد أن قال: "هذا هو إلهنا، ولا يُقارَن به غيره"، أضاف: "كشف كل طريق المعرفة، وجعله ليعقوب عبده وإسرائيل محبوبه، وبعد ذلك تراءى على الأرض، وتحاور مع البشر" (با ٣: ٣٦-٣٨)[3].

---

[1] *City of God, Books 8-16, FOTC, vol. 14, p. 244.*

[2] *The Logical and Dogmatic Works, FOTC, vol. 44, p l78-79.*

[3] *On the Incomprehensible Nature of God, FOTC, vol. 72, p.144-145.*

❖ إرميا هو أول من قال إن الله يصير إنسانًا، يبقى إلهًا. هذا هو إلهُنا، ولا يُقارن به غَيرُه[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

قبل الدهور ومنذ البدء خلقني،
وإلى دهر الدهور لا أزول [٩].

في خيمته المقدسة أمامه أخدم،
وهكذا استقرّيت في صهيون [١٠].

وجعل راحةً في المدينة المحبوبة،
وسلَّطنتي في أورشليم [١١].

فتأصَّلت في شعبٍ مُكرَّمٍ،
وفي نصيب الرب، ميراثه [١٢].

حُسب **الشعب مجيدًا**، لأنه تمتَّع بكلمة الله ووعوده الإلهية؛ هكذا إذ يحتضن المؤمن كلمة الله في قلبه، ويتمتع بالشركة مع المسيح غاية الناموس (رو ١٠: ٤)، ينعم بالكنز الحقيقي، إذ فيه كنوز الحكمة والمعرفة (كو ٢: ٣).

كشجرة الأرز في لبنان ارتفعت عاليًا،
وكشجرة السرو في جبال حرمون [١٣].

إذ تقدم ما لها للمؤمنين، تُقِيم منهم جنة مقدسة تضم ستة أنواع من الشجر مع ورود وثمارٍ متنوعة:

أ. أرز لبنان العظيم (١ مل ٦: ٩-١١).
ب. سرو جبال حرمون (٢ مل ١٩: ٢٣).
ج. نخيل عين جدي (٢ أي ٢٨: ١٥).
د. شجيرات وورود أريحا.
هـ. شجر زيتون (قض ٩: ٨).
و. الدلب الذي يرتفع وهو بجوار المياه.
ز. القرفة وقندول العطر (قصب الخيرزان).
ح. مُرّ منتقى ذو رائحة عطرة.
ط. قنة (الجلينة) وجزع ومیعة (المستكاء).
ي. بخور لبان كما في خيمة الاجتماع [١٥].
ك. فروعها مثل فروع البطمة، مصدر لزيت التربنتينا ومواد الدباغة [١٦].

---

[1] *St. John Chrysostom: Apologist, FOTC, Vol. 73, p. 191-192.*

ل. الكروم [١٧].

كشجرة النخيل في عين جَدْيَ ارتفعت، وكغروس الورد في أريحا،
كشجرة الزيتون النضير ارتفعت في السهل، وكشجرة الدُّلب ارتفعت بجوار المياه [١٤].

كالدارصيني والقندول العطر فاح عطري، وكالمُرّ المنتقى انتشرت رائحتي،
كالقنّة والجزع والميعة ومثل عطر اللبان في الخيمة [١٥].

إنّي مددت أغصاني كالبطم،
وأغصاني أغصان مجيدة وذات نعمة [١٦].

أنا ككرمةٍ أُنبت النعمة،
وأزهاري تُثمر ثمار مجدٍ وغنى [١٧].

أنا أم الحب النقي والمخافة، والمعرفة، والرجاء المقدس.
لذلك بكوني أبديّة، أُوهَب لكل أولادي الذين لُقّبوا بوسطته (أي بواسطة الرب) [١٨].

تعالوا إليَّ أيها الراغبون فيَّ،
واشبعوا من ثماري [١٩].
تدعو أبناءها أن يأتوا إليها باشتياقٍ، ويشبعوا من ثمارها وحصادها (أم ٩: ٤-٦).

فإن ذكري أحلى من العسل،
وميراثي أعذب من شهد العسل [٢٠].
تؤكد لأبنائها إذ يقتربون إليها ويتمتعون بثمارها، يختبرون حلاوتها التي لا تُفارِق ذاكرتهم، ويرثون ما هو أحلى من العسل.

الذين يأكلونني سيجوعون أكثر،
والذين يشربونني سيعطشون أكثر [٢١].
من يأكل منها ويشرب يزداد جوعه وعطشه إليها مع شوقٍ عظيمٍ. وفي نفس الوقت من يجوع إليها ويعطش يتمتع بالشبع بها أبديًا.

❖ لكنك لن تتوقَّف عن الحب، لأن ذاك الذي تراه هو كمن يربكك ليس بأي نوع من القلق، وإنما يشبعك وأيضًا لا يشبعك في نفس الوقت. عندما أقول إنه يشبعك أخشى أن تكون كمن قد شبع ويود أن يرحل، كما من الغذاء أو العشاء. فماذا إذن أقول؟ لا يشبعك؟ مرة أخرى أخشى أن يبدو

كمن لا يشبعك، فتبدو كمن في احتياج، كمن هو فارغ، وهذا الفراغ يحتاج أن يمتلئ. إذن ماذا أقول سوى ما يمكن قوله، وإن كان بصعوبة يمكن التفكير فيه. إنه يشبعك ولا يشبعك أيضًا، إذ أجد الاثنين في الكتاب المقدس. بينما يقول: "طوبى للجياع فإنهم يشبعون" (مت ٥: ٦)، مرة أخرى يقول عن الحكمة: "الذين يشربون يعطشون مرة أخرى" (راجع سي ٢٤: ٢١). لا، لم يقل: "مدة أخرى" بل "**لا يزالون**"، لأنهم يعطشون مرة أخرى، كما كانوا مثل من يشبع مرة فيرحل ويهضم ثم يعود ليشرب[1].

القديس أغسطينوس

من يطيعونني لا يُخزون،
والذين يعملون معي فلا يخطئون [٢٢].

٢. تعليق عملي على حديث الحكمة

هذه كلها هي سفر ميثاق مع الإله العليّ
والشريعة التي أوصانا بها موسى،
ميراثًا لجماعات يعقوب [٢٣].

تربطهم الحكمة بالعهد مع الله وحفظ الشريعة كميراثٍ لهم [٢٣].

لا تتردَّد في أنك قويّ في الربّ، التصق به، فهو يُثَبِّتك،
فإن الربّ القدير هو الله وحده. وبجواره لا يوجد مُخَلِّص آخر. [٢٤]

يُنظَر إلى هذا الأصحاح أنه مركز السفر يمطر بالبركات الفائقة على نفوس المؤمنين طالبي الحكمة. وحتى لا يظن أحد أن ما تقوله الحكمة لا يخصّه، لأنه أضعف من أن يتمتَّع بها، تُشَجِّعه، قائلة: "لا تتردَّد في أنك قوي في الربّ، التصق به، فهو يثبتك" [٢٤]. فهو وحده المُخَلِّص القدير. لا يقدر الإنسان نفسه ولا إخوته أن يُخَلِّصوه.

❖ "إنه لا يملك أن يؤدي إلى الله كفَّارة عن نفسه، أو قيمة فدية نفسه، (حتى لو كدَّ إلى الأبد)" (مز ٤٨: ٧-٨ *LXX*). إذن لا تسأل أخاك فدية عنك، بل اسأل ذاك الذي يفوق طبيعتك، فهو ليس إنسانًا مُجَرَّدًا، بل الله المتأنس يسوع المسيح؛ الذي وحده قادر أن يُقَدِّم فدية لله (الآب) عنَّا جميعًا. لأن الله قَدَّمَه كفارة بالإيمان بدمه (رو ٣: ٢٥). كان موسى أخًا لإسرائيل، ولم يكن قادرًا على

[1] *On Ps 87 (86)*

خلاصه. الآن هل يمكن لأي إنسانٍ عادي أن يُخَلِّص؟ لذلك تعلن العبارة: "لا يقدر أخ أن يُخَلِّص؟" وعبارة أخرى في جدية يستفهم: "هل الإنسان يُخَلِّص؟" (مز ٤٨: ٧ *LXX*)

لم يُحَرِّر موسى شعبه من الخطية، إنما سأل الله الإعفاء من العقوبة عن الخطية. على أي الأحوال، لم يكن قادرًا أن يفدي نفسه عندما أخطأ. فإنه بعد أن صنع عجائب كثيرة عظيمة وآيات رآها، نطق بهذه الكلمات التي تُعَبِّر عن الشك: "اسمعوا أيها المُتمرِّدون المرتابون: أمن هذه الصخرة يمكننا أن نخرج لكم ماءً؟!" (راجع عد ٢٠: ١٠). لهذا، من أجل هذه الكلمات قال الرب لموسى وهرون: "من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تُقَدِّساني أمام أعين بني إسرائيل، لذلك لا تُدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتهم إيَّاها" (عد ٢٠: ١٢)، لذلك لم يُقَدِّم لله فدية عن نفسه.

بالحقيقة ماذا يقدر الإنسان أن يجد شيئًا عظيمًا كافيًا ليُقَدِّمَه فدية عن نفسه؟ لكن وُجِدَ شيء واحد يستحق أن يُقَدَّم عن كل الناس معًا. هذا قُدِّم كثمنٍ لفداء نفوسنا، دم ربنا يسوع المسيح المقدس والمُكَرَّم جدًا، الذي سفكه من أجلنا جميعًا، لذا فنحن أُشترينا بثمنٍ عظيمٍ (١ بط ٢: ٢٢).

إن كان الأخ لا يُخَلِّص، فهل يقدر إنسان أن يَخلُص؟ لكن إن كان الأخ لا يقدر أن يُخَلِّصنا، إذن فإن الذي خَلَّصنا ليس إنسانًا. لهذا لا تظنُّوا لأنه حلَّ بيننا "في شكل جسدنا الخاطئ" (رو ٨: ٣)، أن ربَّنا إنسان مُجَرَّد، عاجزين عن إدراك قوة لاهوته، هذا الذي ليس في حاجة أن يُقَدِّمَ فدية عن نفسه، ولا أن يفدي نفسه، لأنه "لم يفعل خطية، ولا وُجِدَ في فمه مكر" (١ بط ٢: ٢٢). ليس أحد فيه كفاية أن يُخَلِّصَ نفسه، ما لم يأتِ ذاك الذي يزيل سبي البشر لا بفديات، ولا بعطايا كما هو مكتوب في إشعياء (٥٢: ٣)، وإنما بدمه.

وإن كنا لسنا إخوته، إذ صرنا أعداء بعصياننا، فإن ذاك الذي ليس إنسانًا مُجَرَّدًا وإنما هو الله، بعد الحرية التي وهبنا إيَّاها دعانا إخوته. إنه يقول: "أُخْبِر باسمك إخوتي" (مز ٢٢:٢٢؛ عب ٢: ١٢)، ذاك الذي يُخَلِّصنا، إن فحصتم طبيعته، فهو ليس أخًا ولا إنسانًا، إنما إن فحصتم تنازُله إلينا بالنعمة يدعونا إخوته، ينزل إلى طبيعتنا البشرية ذاك الذي لا يعطي الله فدية عن نفسه، إنما عن العالم كله.

إنه ليس في حاجة إلى فدية، هو نفسه كفَّارة. "لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا قدوس بلا شرٍّ ولا دنس قد انفصل عن الخطاة، وصار أعلى من السماوات، الذي ليس له اضطرار كل يومٍ مثل رؤساء الكهنة أن يُقَدِّم ذبائح أولاً عن خطايا نفسه، ثم عن خطايا الشعب" (عب ٧: ٢٦-٢٧). عندئذ يقول: "وعمل (حتى ولو كدَّ) إلى الأبد أو عاش إلى النهاية" (راجع مز ٤٩: ٨-٩).

فإن وجود (الفادي) بذاته، وقدرته، وطبيعته المثابرة تعمل بكدٍّ في هذه الحياة، وعندما تعب من الرحلة جلس عند البئر (يو ٤: ٥)[1].

القديس باسيليوس الكبير

❖ عندما أستدعي كل هذه الأشياء في ذاكرتي (إن كنت أتحدث حسب مشاعر)، فإني أُضرَب بنوعٍ من المخافة الرهيبة ورعبٍ باردٍ، لئلا خلال تشتيت الفكر والانشغال بالأباطيل أسقط من محبة الله وأصير موضع إهانة للمسيح. لأن ذاك الذي يخدعنا الآن ويسعى بكل وسيلةٍ أن يحثنا على تجاهل المُحسِن إلينا خلال الارتباك بإغراءات العالم التي تقفز علينا وتطأ علينا لتحطيم نفوسنا، عندئذ في حضرة الرب توبّخنا على وقاحتنا، وتشمَت لعصياننا وارتدادنا. ذاك الذي لم يخلقنا قط ولا مات لأجلنا ليحسبنا بين تابعيه في عصيانٍ وإهمالٍ لوصايا الله.

هذه الإهانة الموجهة للرب، وهذه النصرة لعدوّنا تبدو لي أكثر رعبًا من عقوبات جهنّم، لأننا نعطي لعدو المسيح المادة ليفتخر، والحجة لكي يتشامخ على من مات لأجلنا وقام. من أجل ذلك فإننا مدينون له بمعنى خاص جدًا كما هو مكتوب (رو ٨: ١٢). لهذا يليق بنا بالأكثر أن نراعي محبة الله.

ليس هدفي، كما قلت سابقًا، أن أعرض كل الموضوع، إذ هذا مستحيل، بل أن أغرس في نفوسكم باختصار تذكُّر الاحتفاظ بالشوق الإلهي يقظًا داخلكم[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

❖ **سؤال: ماذا إن أوصي أحد فرفض الوصية، لكنه بعد ذلك ترك رفضه هذا بإرادته وتَمَّم الوصية؟ (مت ٢١: ٢٩).**

الإجابة: برفضه يُعتبَر مُعارِضًا (للوصية)، ومُثيرًا للآخرين ليُمارِسوا شرورًا مُماثِلة. ليته يدرك أنه يخضع لهذا الحكم: "المُعارِض يُثير كل شرٍ، فيُطلق الرب عليه رسولاً قاسيًا" (راجع أم ١٧: ١١). لهذا فليقتنع إنه لا يقاوم إنسانًا أو يطيعه، إنما الرب القائل: "الذي يسمع منكم يسمع منّي، والذي يرذلكم يرذلني" (لو ١٠: ١٦).

أما بتذكُّره الوصية، فأظهر ندامة، فليعتذر أولاً وبعد ذلك إن سُمِحَ له، يُتَمِّم العمل[3].

---

[1] *Homily 19:4, (On Ps 48 LXX). Unto the End, A Psalm for the Sons of Core on the Prosperity of the Wicked.*

[2] *Reg. Fus. 2.*

[3] *Regulae brevius tractatae, 38.*

هذه الشريعة تملأ البشر بالحكمة، مثل فيشون،

ودجلة[1] في أيام بكور الثمار [٢٥].

استخدم ابن سيراخ ما ورد في العهد القديم عن الأنهار خاصة في جنة عدن، إذ يرى فيها الفيض بالتمتُّع بسمات الحكمة (تك ٢: ١٠-١٤).

يتحدث عن القناة الصغيرة التي تحوَّلت إلى نهرٍ عظيم، خلال خبرته العملية حيث يتطلَّع إلى ما اقتناه من حكمة في بداية حياته، وإذ كان يطلب من الله على الدوام كي يهبه الحكمة، تحولت قناة الحكمة في داخله إلى نهرٍ يفيض على الكثيرين. تقدم لهم مياه الحياة التي لا يوجد نهر يفيض بمثلها، لذا قدمت لهم ستة أنهر مشهورة. أربعة أنهر منها وردت في قصة الخليقة (تك ٢: ١٠-١٤) تروي جنة عدن، ونهر النيل والأردن [٢٥-٢٨].

إن كانت مياهها أفضل من كل الأنهار، فإنها متسعة للغاية وكأن النهر يصير بحرًا، وفي نفس الوقت تصير بروح التواضع كساقية من النهر أو قناة تروي الجنة. تهتم بالمؤمن لترويه بساقية أو قناة صغيرة، وإذ تدخل أعماقه تصير القناة نهرًا، والنهر يصير بحرًا. ما هذه المياه التي تفيض على النفس البشرية كما من قناة إلاَّ الحكمة الإلهية التي تقدم حياة حافلة بالبركات (إش ٥٨: ١١؛ خر ٤٧: ١-١٢).

مياه الحكمة هي أيضًا نور يشرق في النفس كالفجر الذي يسطع من بعيد.

لم يقل مثل نهر الأردن مثلما ذكر أنهر موجودة في بلاد الأمم، إذ كثيرًا ما أعلن ابن سيراخ عما تتمتع به الأمم خلال الكرازة بالإنجيل.

❖ "اسمعوا هذا يا جميع الشعوب، أصغوا يا جميع سكان الدنيا. يا أيها الأرضيون (*earthborn*)، وأنتم يا بني البشر، الأغنياء والفقراء سواء" (مز ٤٩: ١-٢).

مكان الاجتماع ضخم جدًا، حيث يدعو المزمور كل الأمم للاستماع، كما كل الذين يملأون العالم بمساكنهم. أظن أنه بهذا الإعلان السامي يجتذب ليس فقط الأرضيين *earthborn* بل كل بني البشر، الأغنياء والفقراء، ويدعوهم إلى الإصغاء.

أي نوع برج المراقبة هذا القائم في ارتفاعه على كل الأرض ليرى كل الأمم من بعيد،

---

[1] نهر *Tigris* الاسم اليوناني لأحد الأربعة أنهار التي كانت تجري في جنة عدن. حداقل كما ورد في (تك ٢: ٢٤) أو دجلة. هو نهر عظيم (دا ١٠: ٤).

Wiseman, D. J. (1996). Tigris. In D. R. W. Wood, I. H. Marshall, A. R. Millard, & J. I. Packer (Eds.), New Bible dictionary (3rd ed., p. 1187). Leicester, England; Downers Grove, IL: Intervarsity Press.

ويحتضن كل العالم بعينيه؟ أي مذيع عالي الصوت هكذا، يصرخ فتسمعه آذان كثيرة في نفس الوقت؟ أي مكان قادر أن يستوعب تلك التجمعات؟ أية عظمة وأية حكمة لهذا المُعَلِّم، ليُقَدِّم تعليمات تليق بهذا المَحْفَل العظيم؟ انتظروا قليلاً، فستتعلَّمون أن ما يتبع هذا يليق بالوعد (المُقَدَّم لهم). فإن الذي يجمع الكل، ويدعوهم للإعلان هو الباراقليط، روح الحق، الذي يجمع معًا الأنبياء والرسل الذين يخلصون. الذين قيل عنهم: "بلغت أقوالهم إلى كل الأرض، وكلماتهم إلى أقاصي العالم" (مز ١٩: ٥ *LXX*). لذلك جُمِعَت الكنيسة من كل طبقات البشر (الحياة)، حتى لا يُترَك أحد بدون عونٍ منها.

توجد ثلاث مجموعات مدعوة، يضمها كل جنس البشر: **وثنيون، وسكان العالم** وهم أرضيون *earthborn*، **وبنو البشر** الأغنياء والفقراء. من إذن تُرك ولم يُدعَ للاستماع؟ أولئك الذين هم خارج الإيمان مدعوّون بدعوة الوثنيين. سكان العالم هم الذين في الكنيسة.

الأرضيون *earthborn* الذين هم حكماء في شئون الأرضيات، وملتصقون بملذَّات الجسد.

بنو البشر هم أولئك الذين يسلكون بشيءٍ من الجدية ويُدَرِّبون عقولهم، لأن التعقُّل هو سمة الإنسان.

الأغنياء والفقراء لهم هويّتهم تُعرَف منهم: الأولون لهم المقتنيات المتزايدة لضروريات الحياة، والآخرون يقفون في عَوْزٍ إليها.

وحيث أن طبيب النفوس لم يأتِ ليدعو الأبرار، بل الخطاة إلى التوبة (مت ٩: ١٣)، ففي دعوته وضع أولاً في كل مجموعة الذين يُدَانون. **فالوثنيون** أَشرَ من **سكان العالم**، ومع ذلك اختيروا أولاً في الدعوة، لكي يأتي المرضى أولاً، يَتَمَتَّعون برعاية الطبيب. وبعد ذلك **الأرضيون** *earthborn* وضعوا قبل **بني البشر، والأغنياء** قبل **الفقراء**.

المجموعة التي كانت ميؤوسًا منها وخلاصها أصعب دُعِيَت قبل الفقراء. هكذا هو حنو الطبيب، يُقَدِّم معونته لمن هم أضعف أولاً.

في نفس الوقت، المشاركة في الاستدعاء هي اتحاد في سلام، حتى أن أولئك الذين كانوا حتى ذلك الوقت يقاومون بعضهم بعضًا، بسبب اختلاف العادات، باجتماعهم معًا، يعتادون على بعضهم البعض في حبٍ. ليَعْلَم الغني أنه مدعو بنفس الإعلان مثل الفقير. يقول: "**أغنياء وفقراء سواء**" (مز ٤٩: ٢).

ليُترَك خارجًا التشامخ على الذين هم في أكثر احتياجٍ وغطرسة الثروة، بهذا ادخلوا كنيسة الله. إذن ليت الأغنياء لا يُعامِلون الفقير بازدراءٍ، ولا ينكمش الفقير مُرتعِدًا تحت سلطان الأثرياء. ليت

بني البشر لا يستخفُّون بالأرضيين *earthborn*، ولا الأرضيون *earthborn* يعزلون أنفسهم عنهم. ليت الوثنيين يعتادون على التعامل مع سكان العالم، وسُكَّان العالم خلال المحبة يقبلونهم كأصدقاء ضيوف خلال العهود[1].

القديس باسيليوس الكبير

وهي تملأهم فهمًا،

كالفرات ومثل الأردن في أيام الحصاد [٢٦].

هذه الشريعة تُشرِق بالتعليم مثل النور، وهي تفيض كالنيل بالتعليم،
مثل جيحون في أيام القطاف (العنب) [٢٧].

إذ يتحدَّث عن الشريعة التي تشرق بالتعليم لا يشبهها فقط بالأنهار التي كانت تسقي جنة عدن، وإنما ضمّ إليها أنهارًا أخرى مثل النيل، لأن الشريعة الإلهية لا تقتصر على اليهود وحدهم. مسيحنا يفيض علينا بالنعمة، وكما يقول الرسول: "الذي فيه لنا الفداء بدمه... حسب غِنَى نعمته، التي أجزلها لنا بكل حكمةٍ وفطنةٍ" (أف ١: ٧-٨).

❖ "مجرى النهر يُفرِّح مدينة الله" (مز ٤٦: ٤). مياه البحر الهائجة بفعل الرياح تزيد وترتفع، أما مجرى النهر، فينساب بدون إزعاجٍ. ينساب بهدوء، لمن استحقُّوا أن يقبلوه. لذلك يُفرِّح مدينة الله، والآن يشرب البار من المياه الحيَّة (يو ٤: ١٠)، لكنه في المستقبل سيشرب بفيضٍ عندما يُكتَب اسمه في الساكنين في مدينة الله.

الآن يشرب كما في مرآةٍ في لغزٍ (١ كو ١٣: ١٢)، لأن ما يأخذه من تأملات إلهية قليلة، لكن حينئذ يمتلئ، ونهره يستطيع أن يفيض بالفرح في مدينة الله.

فما هو نهر الله؟ إنه الروح القدس الذي يجري في الذين يستحقُّون، الذين لهم الإيمان بالمسيح حقًا. "الذي يؤمن بي، كما يقول، تجري في بطنه أنهار..." (يو ٧: ٣٨) أيضًا من يشرب من الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية (يو ٤: ١٣). هذا هو النهر الذي يُفرِّح مدينة الله. إنه مجرى الروح القدس[2].

القديس باسيليوس الكبير

---

[1] *Homily 19:1, (On Ps 48 LXX). Unto the End, A Psalm for the Sons of Core on the Prosperity of the Wicked.*

[2] تفسير المزمور ٤٦ (٤٥).

كما أن الإنسان الأول لم يعرف الحكمة كاملة،

هكذا الإنسان الأخير لا يستقصي أعماقها [٢٨].

مع ما وهب به الإنسان الأول من فهمٍ وحكمةٍ لم يستطع أن يبلغ أعماق الحكمة الإلهية، وتبقى البشرية عاجزة عن ذلك حتى الإنسان الأخير. يؤكد ابن سيراخ أنه لا يوجد شخص واحد عبر كل العصور وإلى انقضاء الدهر قادر أن يدرك أعماق حكمة الله.

لأن فكرها أعمق من البحر،

ومشورتها أعمق من الهاوية العظيمة [٢٩].

يرى **الأب قيصريوس أسقف آرل** أن المؤمن إذ يأكل ويشرب كلمة الله، يدخل في حوارٍ مع الله، هذا الحوار لا يتوقَّف، لذا لا يستطيع الشيطان أن ينتصر عليه[1].

وأنا كقناة خارجة من النهر،

ومثل مجرى خرج إلى جنة [٣٠].

قلت: "أسقي بستاني،

وأُبلل مجمعات الزهور المتناسقة".

فإذا بقناتي تصير نهرًا،

وبنهري يصير بحرًا [٣١].

ما هي هذه القناة التي صارت بحرًا؟ يرى **القدِّيس باسيليوس الكبير** أنها دموع التوبة.

❖ من يُصَلِّي بمجاري من الدموع، يتقبَّل عواصف من الأمطار في الوقت المناسب؟ من يغسل الخطايا **متمثِّلاً بالطوباوي داود**، الذي سكب الدموع على سريره؟ من غسل أقدام الغرباء، وشطف تراب السفر، حتى في وقت الاحتياج يشفع هذا الشخص لدى الله، طالبًا وَقْف الجفاف؟ من يسند طفلاً محرومًا من الوالدين، لكي ما في مقابل هذا يمدّه الله بالقمح، كيتيم تَحطَّم برياحٍ مضادة؟ من يهتم بأرملة أصابتها مصاعب الحياة حتى ترتد إلينا المعونات التي يحتاج إليها؟ مَزِّقوا العقود الظالمة، حتى تُحَل أيضًا الخطايا.

ارفعوا الديون التي بفوائدٍ باهظة، حتى تأتي الأرض بالثمار العادية[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

---

[1] *Sermons, FOTC, vol. 1, p. 51-52.*

[2] *In the Time of Famine and Drought, 4.*

أجعل التأديب يضيء مثل الصباح،
وأجعله يسطع إلى بعيد [٣٢].

أفيض التعليم مثل نبوة،
وأتركه خلفي للأجيال الآتية [٣٣].

❖ "**ستدخل إلى جيل آبائك**" [١٩]. أظن أنه يتكلم عن الخاطئ الذي يعرف الله حسب ما سَلَّمه له آبائه، لكنه لم يكتسب شيئًا إضافيًا بفكره، ولا أضاف إلى معرفته للحق بنفسه.

يقول: "أيها الرب أنت قريب"، وفي نفس الوقت لديه فكرة عظيمة عنك بكونك موجودًا في أجيال آبائه. بينما **يسلك بكسلٍ، وروحه تنشغل بالأرضيات والجسديات**، التي تترنَّح في الثروات والترف، وفكره مشحون باهتمامات الحياة، لذلك "لا يعاين النور" [انظر ١٩].

إذ **يعهدون بقيادتهم إلى مُعَلِّمين عميان**، يحرمون أنفسهم من بركة النور. يحمل هذا القول: "يدخل إلى جيل آبائه"، نفس المعنى. هذا يُقَال بالنسبة للذين يجتازون حياة شريرة، ومن تعاليم صادرة من آبائهم، ولكنهم مُتغرِّبون عن التقوى، ليس فقط ستعاقبهم، بل تطرد واضعي التعاليم الفاسدة. هذا ما يقصده بالقول: "يدخل إلى جيل آبائه". ليس فقط ذاك الذي له أفكار ملومة عن الله، بل والذي يقود الآخرين إلى هذا الدمار. هكذا هم الذين **يتقبَّلون هذا الشر من آبائهم السابقين**، والتي تقوّى خلال الاستمرار فيه بعادات لمدة طويلة، وتوجد صعوبة في تنقيتها. "**لا يعاين النور**"، إذ يُرسَلون إلى الظلمة الخارجية، حيث البكاء وصرير الأسنان (مت ٨: ١٢). هذا يحل بهم حسب حكم الله العادل، إذ أبغضوا النور في هذه الحياة، لأنهم صنعوا شرًا.

"**إذ كان الإنسان في كرامة ولم يفهم، صار يُقارَن بالبهائم البليدة، ويشبهها**". يا له من تقرير بغيض! الإنسان؟ هذا الذي وضعتَه قليلاً عن الملائكة" (عب ٢: ٧)، والذي يقول عنه سليمان: "الإنسان شيء عظيم، الإنسان الذي يُرثَى له مُكرَّم" (أم ٢٠: ٦ *LXX*). إنه يُقارَن بالبهائم البليدة، ويصير مثلها"، لأنه لا يدرك كرامته، **وينحني لشهوات الجسد**[1].

القديس باسيليوس الكبير

وكما ترون أنّي لم أجاهد لأجلي وحدي،
بل لجميع الذين يطلبون الحكمة [٣٤].

---

[1] *Homily 19:11 (On Ps 48 LXX). Unto the End, a Psalm for the Sons of Core on the Prosperity of the Wicked.*

لأعرفك، فأُحبّك وأقتنيك!

❖ هل تحتاج أن تفتخر يا حكمة الله، وأنت مالئ السماوات والأرض؟
إنك تفتخر بحُبِّك العجيب لنا نحن الخطاة،
نتعرَّف عليك، فنلتصق بك ونُحِبّك.
انطلقت بصليبك لتهز أساسات الهاوية،
وتحملنا إلى فردوسك، وتحسبنا جماعة العليّ، وتُقَدِّم لنا المستحيلات!

❖ خرجت من فم الآب، دون أن تنفصل عنه.
ووهبت لنا روح التبنّي، فصارت لنا الدالة أن نناجيك.
جئت في دائرة السماء، وأنت خالقها.
بروحك ترفعنا من مجدٍ إلى مجدٍ،
حتى نلتقي بك وجهًا لوجه.

❖ عجيب أنك في تواضعك وحُبِّك،
تلتمس الراحة فينا، وتطلب لك ميراثًا!
راحتك أن تُقِيم من ضعفنا سماءً جديدة، فتستريح داخلنا!
وميراثك أن تُحوِّل قلوبنا إلى ملكوتك الإلهي!

❖ نصبت خيمتك في يعقوب، وحسبت إسرائيل ميراثًا لك،
وها أنت تُقَدِّم لي ملكوتك في داخلي، لأترنم: "نصيبي هو الرب، قالت نفسي!"
ملكوتك في قلبي، ليس له شبيه على الأرض.
بماذا أصفه؟ هل هو جنّة فريدة؟
كلما مددت يديّ لأتناول من ثمارها، يزداد جوعي إليها،
وكلما شربت من مياهها، يزداد عطشي إليها.

❖ كلما التصقت بك أشعر أنني قوي.
أترنَّم مع الرسول: "أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقوّيني" (في ٤: ١٣).
أنت الرب القدير وحدك، ليس لي مُخَلِّص غيرك!

أي ثمن أعظم من دمك الكريم المبذول فدية عنّي؟
أيّة خليقة سماوية أو نبي من الأنبياء يُكفِّر عن خطاياي غيرك؟

❖ بالحق أنت محب كل البشر، تُقَدِّم شريعتك وميثاقك،
لا لشعب مُعيَّن، بل لكل البشرية.
في طفولتك هاجت اليهودية ضدك، حتى العارفين بالنبوات الخاصة بك.
وجاء إليك المجوس من المشرق يسجدون لك.
هربت في طفولتك إلى مصر، لتؤسس كنيستك هناك.
العالم يشعر بحُبّك ومدين لك بخلاصه.

❖ رعايتك فائقة للبشرية، نعمتك تروي بستاني،
فتفوح رائحة زهوره الجميلة،
يشتمّها السمائيون ويتهللون بعملك العجيب فينا.
تفيض قناة حُبّك بالنعمة لتروي أعماقي.
وكلما اتَّسع البستان ونما، تتحوَّل قناتك إلى نهرٍ عظيمٍ.
ويبقى بستاني في عطشٍ إليك أكثر فأكثر،
ويتحوَّل نهرك العظيم إلى بحرٍ عظيمٍ.
ومع كل نموٍ في الفهم والمعرفة،
أُدرك إنني لازلت على شاطئ بحر حكمتك.
ليت كل البشرية تشاركني خبرتي بنعمتك وحبك ورعايتك!

الأصحاح الخامس والعشرون

عروس المسيح أم عبْدَة (أمَّة) الشيطان

ختم سيراخ الأصحاح السابق مُعلِنًا أن ما يُسَجِّلَه هو نبوة لا تخصّه وحده، بل تخصّ جميع الذين يطلبون الحكمة عبر العصور [٣٣-٣٤]. الآن يُقارِن بين عروس المسيح وعبدة الشيطان، فمن يتَّحِد بالحكمة المتجسد، ينضمّ إلى الكنيسة العروس الخالدة المتهللة، ومن يُسَلِّم نفسه للشيطان، ينضم إلى مملكة الظلمة التي قانونها السبي والبغضة والفساد والظلمة والكذب والارتباك.

هذا الأصحاح يفرز كنيسة المسيح عن مملكة الظلمة، ويدعونا لإعادة تقييم حياتنا لنرى أية مملكة نحن نُنسَب إليها. بهذا يدعونا إلى أخذ القرار المصيري الذي يمسّ حياتنا بخصوص المملكة التي ننتمي إليها، كما يدعونا إلى التبكير ما استطعنا لنتمتَّع بحرية مجد أولاد الله (رو ٨: ٢١)، أو لنُسَلِّم أنفسنا عبيدًا لشهوةٍ أو لذةٍ تحت قيادة عدو الخير.

١. ثلاثة أمور جميلة وثلاثة أشخاص ممقوتين [١-٢].

٢. جاذبية الحكمة في الشيخوخة [٣-٦].

٣. عشرة أفكار مُبهِجة [٧-١١].

٤. الزوجة الخبيثة [١٢-٢٦].

١. ثلاثة أمور جميلة وثلاثة أشخاص ممقوتين

حديث ابن سيراخ عن الثلاثة أمور الجميلة والثلاثة أمور الممقوتة يمكن فهمه خلال التفسير السلوكي الشخصي، وأيضًا خلال التفسير الرمزي.

من جهة التفسير السلوكي للمثل، نلاحظ الآتي:

أ. أن ما هو جميل في عيني سيراخ جميل أيضًا في عينيّ الرب وفي أعين الناس. وكأنه يؤكد أن إنسان الله لا يعتد برأيه الفردي، إنما يعتزّ ويُقَدِّر أولاً نظرة الرب نفسه دون انعزاله عن الناس، لأنه عضو حيّ في الجماعة المقدسة. حسن أن يكون للإنسان تفكيره وتقييمه للأمور، وفي نفس الوقت رؤيته يقودها الفكر الإلهي والفكر الكنسي. مسرَّته في رضا الرب وفي التناغم مع كنيسة المسيح.

ب. سرّ الجمال هو الاتفاق والوحدة خلال الحب، فالعامل المشترك في الثلاثة أمور هو الحب بروح الوحدة، أو الوحدة بروح الحب.

ت. لا يفصل المؤمن حياته الأسرية عن حياته الاجتماعية وعن حياة البشرية ككل. ومع كون الأسرة

المقدسة والناجحة هي سرّ تقديس الجماعة ككل ونجاحها، غير أنه بدأ بالإخوة، أي كل البشر، تلي ذلك الإخوة والأقرباء، وأخيرًا الأسرة. هكذا بروح الحب يتَّسِع قلب المؤمن لكل بني بالبشر إن أمكن، وهذا لن يتحقَّق بدون اهتمامه بالأقرباء، وهذا بالتالي لا يتحقَّق بدون تقديس الأسرة ووحدتها في الرب.

❖ إذ يُعَدِّد الحكيم الأمور التي تُحسَب بركات يذكر ضمنها "**زوجة تتَّفق مع رجلها**" [١]: وفي موضع آخر يذكر بين البركات أن تسكن امرأة في انسجام مع زوجها (راجع سي ٤٠: ٢٣).

في الحقيقة من البداية أظهر الله اهتمامًا خاصًا بهذه الوحدة، وحسب الاثنين واحدًا. لقد قال: ذكرًا وأنثى خلقهما الله (تك ١: ٢٧)، وقيل: "ليس ذكر وأنثي" (غل ٣: ٢٨). إنه لا توجد علاقة بين إنسانٍ وآخر في قوَّة العلاقة التي تقوم بين الرجل وامرأته، إن كانا مرتبطين معًا في الرب! لذلك عندما أراد الحكيم أن يُعَبِّر عن الحب الفائض في حزنه على شخص عزيز لديه، لم يشر إلى أب أو أم أو ابن أو أخ أو صديق بل قال: "محبتك لي أعجب من محبّة النساء" (٢ صم ١: ٢٦). حقًا إن هذا الحب عنيف أكثر من أي عنف، لأن الأنواع الأخرى (من الحب) قويّة، لكن هذا الود ليس فقط قويًا بل لا يذبل أيضًا. يوجد حب مُعيَّن مستقر في العمق، في طبيعتنا، يربط أجساد بعضنا البعض بطريقة لا تُدرَك. من البداية عينها خرجت المرأة من الرجل، وبعد ذلك يخرج كل رجل وامرأة من الرجل والمرأة معًا (١ كو ١١: ٨).

أتدرك شدة الرباط وقوّة العلامة؟! كيف أن الله لم يسمح لطبيعة مغايرة أن تتدخَّل من الخارج. لاحظ كيف امتلأت التدابير من العناية الإلهيّة؟! فسمح للرجل أن يتزوَّج أخته، لا ليس أخته بل ابنته، ليس ابنته بل ما هو أكثر من ابنته، إنها جسده! (هنا يشير إلى زواج آدم بحواء).

هكذا خلق الله الكل من بداية واحدة، فيجتمع بعضهم البعض كالحجارة في المبنى في وحدةٍ واحدةٍ. لم يخلقها من الخارج حتى لا يشعر الرجل أنها غريبة عنه، ولا أوقف الزواج عندها وحدها، حتى لا تقتصر على نفسها، وتظن أنها مركز الكل (هنا يقصد لا تقدر أن تنجِب بدون الرجل، وإلا لتشامخت عليه، ولما قامت المحبّة بينهما، إنّما شعورها بالحاجة إليه للإثمار يجعل من البنين علامة الاتحاد والحب بينهما). ليس هناك شيء يلحم حياتنا مع بعضنا البعض هكذا مثل حب الرجل وزوجته[1].

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *In Eph. Hom 20.*

أما بالنسبة للأمور الممقوتة، فنلاحظ الآتي:

أ. لا يمكن للمؤمن أن يمقت الأشخاص، إنما يمقت "**أسلوب حياتهم الشرير**".

ب. كثيرًا ما تحدث عن الاهتمام بالفقير بالعطاء المادي والمعنوي والروحي، لكن الفقر في ذاته ليس فضيلة، بل إن ظن الفقير في جهالة أنه أفضل من الغني في عيني الربّ، فبكبريائه مع فقرة يصير ممقوتًا! والغنى أيضًا ليس في ذاته رذيلة ممقوتة، فالغني الصادق الذي يدرك أن كل ما لديه عطية من الله له ليقدم منها للفقراء، فهو بار مثل إبراهيم الذي كان غنيّا جدًا (تك ١٣: ٢)، وأيوب الغني الذي لم يفارقه التسبيح حتى في تجاربه (أي ١: ٢١). أما الغني الكذَّاب فهو الذي يحسب أن غناه هو ثمرة ذكائه الشخصي أو العائلي، فيتشامخ بشخصيته أو ينسبه لأسرة غنية قدَّمت له ميراثًا عظيمًا، هذا الغني كذَّاب، لأن ما بين يديه قد يُبَاد في لحظة من الزمن!

أيضًا الشيخ يليق به أن يُقَدِّم للشباب ما تَعلَّمه خلال طول عمره بحبٍ وتواضعٍ وحكمةٍ وقداسة. فإن نسيَ أنه بشر، يليق به ألا يأتمن جسده متهاونًا في تصرفاته، وسلك بغير حكمة معتمدًا على شيخوخته وخبراته الطويلة سرعان ما يسقط فيما لم يسقط فيه وهو شاب؛ بهذا يفقد الفهم. بهذا يُقَدِّم نموذجًا سيئًا للشباب. كان يليق بالشعر الأبيض أن يكون نموذجًا يقتدي به الشباب.

من جهة التفسير الروحي الرمزي نلاحظ الآتي:

في الأصحاح السابق ذكر سيراخ أن ما يكتبه إنما هو نبوّة (٢٤: ٣٣)، يُقَدِّمها لجيله المعاصر له كما للأجيال المقبلة. فما يُقَدِّمه هنا في المثلين نبوة عن كنيسة العهد التي تحمل صورة عريسها ربّ المجد يسوع، والدائمة التجديد بواسطة عمل الروح القدس فيها.

أولاً: كنيسة العهد الجديد عروس المسيح المقدسة.

بروح النبوة يتطلَّع إلى كنيسة العهد الجديد الجميلة، تتَّسِم بالثلاثة أمور الجميلة في المسيح يسوع:

أ. جمال الكنيسة أن **تنفتح على البشرية** بالحُبّ لتُقَدِّم لها المُخَلِّص الأبرع جمالاً من بني البشر (مز ٤٥: ٢)، يقتنيه المؤمن الحقيقي، فينعكس جماله عليه، وتتحوَّل الأرض في نظره إلى سماء بهية لا عيب فيها، ويختبر عربون السماء والشركة مع السمائيين.

ب. هذا الجمال الروحي لن يتحقَّق ما لم يتقدَّس الأقرباء **بروح الوحدة** والتناغم معًا في الرب. هؤلاء الأقارب هم أعضاء الكنيسة؛ ووجود أي انشقاق فيها خاصة بين القيادات من رجال الكهنوت أو الرهبنة أو الخدام أو الخادمات، وأيضًا الخلافات على مستوى العائلات، أو على مستوى الأسرة الواحدة، بل وعلى مستوى الشخص نفسه حيث لا تتقدَّس النفس مع الجسد، والعقل مع العاطفة

الخ.

يلاحظ في الأمور الجميلة جميعها الجانب الجماعي "الإخوة، والجيران، والزوجان". أما الثلاثة أنواع من الناس الذين تبغضهم نفس سيراخ فهم على مستوى فردي أناني انعزالي: "فقير متكبر، وغني كذَّاب، وشيخ زاني".

توجد ثلاثة أمور جميلة للرؤية، وهي جميلة أمام الربّ والناس:

اتِّفاق الإخوة، والصداقة بين الجيران، وزوجة وزوج مُتّفقان حسنًا [١].

لا توجد علاقة بين رجلٍ ورجلٍ حميمة مثل تلك التي بين رجل وزوجته، إن التصقا ببعضهما كما ينبغي. ليس شيء أثمن من الحب بواسطة الزوجة وحُبّه لها.

❖ هذه هي النقطة الرئيسية التي تفوق الكل، صالحة في البيت "رجل وزوجته متفقان" (راجع سي ٢٥: ١). حيث يوجد هذا، لا يوجد شيء غير مبهج. حين يكون الرأس متناغمًا مع الجسد، ولا يوجد خلاف بينهما، كيف لا تكون كل بقية الأعضاء الأخرى في سلام؟[1]

❖ ليس شيء أثمن من أن يُحب هكذا بواسطة زوجة وأن يحبها[2].

❖ بالحقيقة من البدء، أظهر الله مئونة خاصة لهذه الوحدة متحدثًا مع الاثنين كشخصٍ واحدٍ. لقد قال: "ذكرًا وأنثى خلقهما" (تك ١: ٢٧). مرة أخرى: "ليس ذكر وأنثى" (غل ٣: ٢٨). فإنه ليس علاقة بين ذكرٍ وذكرٍ حميمة مثل علاقة رجلٍ بزوجته، إن ارتبط الاثنان معًا كما ينبغي[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

ثلاثة أنواع من الناس تُبغِضهم نفسي وتمقت أسلوب حياتهم مقتًا:

الشحاذ المتكبّر، والغنيّ الكذَّاب، والشيخ الزاني ناقص الفهم [٢].

ماذا يقصد بالفقير المتكبر؟ لا يعني بالفقير الإنسان الذي يعاني من فقرٍ مادي فحسب، وإنما كلمة فقير أو مسكين تعني بالأكثر الإنسان الذي في عوزٍ روحي. فالخطية تجعل الإنسان مسكينًا محتاجًا إلى مراحم الله ومعونته، كما تحمل أيضًا الإنسان الذي لا ينشغل بأمور العالم الزمنية، فيركز بصيرته الداخلية على ملكوت الله. افتتح السيد المسيح عظته على الجبل بقوله: "طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات" (مت ٥: ٣).

---

[1] *On Titus, Homily 4.*

[2] *On Acts Of The Apostles, Homily 49*

[3] *Homilies on Ephesians, 20.*

يُقَدِّم لنا **العلامة أوريجينوس** في عظاته على سفر القضاة، كيف دفعت الخطية بالشعب إلى ضيقٍ شديدٍ، وإذ صرخوا للربّ في مسكنتهم استجاب لهم.

❖ الآن، هؤلاء الأشخاص الذين سُلِّموا (للضيق) بسبب الخطية وصاروا في معاناة، فلننظر ماذا فعلوا؟ بالحقيقة كُتِب: "صرخوا إلى الربّ في ضيقهم، فأنقذهم من شدائدهم. أخرجهم من الظلمة وظلال الموت، وقطع قيودهم" (مز ١٠٧: ١٣-١٤).

أضف إلى هذا، كل واحدٍ منا، إن كان صغيرًا، حتى وإن كان صغيرًا جدًا، حتى إن كان تافهًا جدًا حسب الأسلوب العلماني، يمكنه أن يعمل خلال رذيلة الكبرياء، وليس ممن هو أحمق وممقوت هكذا (مثله)، ليس من هو خسيس وحقير، حسب ما ورد في الكتاب المقدس، مثل الفقير المتكبّر أو الغني الكاذب.

أحيانًا يتغلغل مرض الكبرياء ليس فقط بين الفقراء، بل ويهاجم نظام الكهنة واللاويين، أحيانًا نجد الكبرياء حتى بيننا نحن الذين كان يجب أن نكون أمثلة للتواضع، ونجتمع حول المذبح كمرآة للذين يلاحظوننا، ومع ذلك فإن رذيلة التشامخ تبعث رائحتها النتنة الكريهة. هكذا يحدث أنه من مذبح الربّ الذي يتطلب تقديم بخور برائحة ذكية، تصدر رائحة الكبرياء الغبية للغاية وأشعة الاعتداد بالذات. لكن يلزم طرد هذه الرائحة التي في غاية الحماقة، وذلك من أجل السماء. لتُطرَد من كل الكنيسة المقدسة، خاصة من الذين يخدمون في المقدسات، حتى نقول مع بولس القائل بأننا قادرون أن نكون رائحة المسيح الذكية (٢ كو ٢: ١٥)؛ لئلا يتَّقِد غضب الربّ (مز ٢: ١٢)[1].

العلامة أوريجينوس

٢. جاذبية الحكمة في الشيخوخة

إن كانت نفس سيراخ تمقت الشيخ الزاني [٢]، فإنها تتهلل بالشيخ الذي له فضيلة التمييز، وتقديم المشورة الحسنة، والتزين بالحكمة والفهم، والتتويج بالخبرة العظيمة الفائدة، سرّ فخره مخافة الربّ.

الحكمة في حياة الشاب: قد يستهتر شاب في الالتصاق بالحكمة، مؤجِّلاً ذلك إلى وقت شيخوخته. إن لم يذخر الشاب الحكمة، فماذا يجني في شيخوخته [٣]؟ من يلتصق بالحكمة في شبابه يُقَدِّم قضاءً حكيمًا في شيخوخته، ويقبل الكثيرون مشورته الصادرة من خبرته العملية. تضفر الحكمة إكليلاً للشيخ، بل تصير إكليله [٥]. بالحكمة الصادقة يكرَّم الشيخ المختبر بإكليل مخافة الربّ [٦].

---

[1] *Homilies on Judges, 3.*

إن كنت لم تذخر شيئًا في شبابك،

فكيف تجد شيئًا في شيخوختك؟ [٣]

الشاب الجاد في البحث عن السعادة الحقيقية يهتم بدراسته وعمله وكل جوانب حياته وينتفع بخبرة من سبقوه. ولا ينسى الشاب أنه يومًا ما سيبلغ إلى الشيخوخة، فيجد الكثير من الشيوخ، رجالاً ونساءً، يعانون من الفراغ مع قلة المجهود الجسماني، وأحيانًا يعانون من ضعف الذاكرة. لذا يليق به أن يتطلَّع إلى هذه المرحلة القادمة بجدية ويُعِدّ نفسه للحياة المطوَّبة، حينما يطلب ويسعى في شبابه إلى نوال الحكمة من الله وخبرة إخوته، يصير له رصيد في شيخوخته، حيث تفيض الحكمة من فمه المقدس، ويشتهي الكثيرون الانتفاع بخبراته. "فخر الشبان قوتهم، وبهاء الشيوخ الشيب" (أم ٢٠: ٢٩).

بروح القوة صرخ دانيال الشاب حين رأى سوسنّة البريئة تُسَاق إلى الموت ظلمًا، وبروح الحكمة "صرخ بصوتٍ عظيم: أنا بريء من دم هذه" (دا ١٣: ٤٥). مثل هذا الشاب يتحقَّق فيه القول: "عند الشيب حكمة، وطول الأيام فهم" (أي ١٢:١٢). وأيضًا القول: "تاج جمال شيبة توجد في طريق البرّ" (أم ١٦: ٣١).

حُسن التمييز هو جمال الشيب،

وحسن المشورة للشيوخ [٤].

❖ كما أن الربابنة (مديري الدفة) وسائقي المركبات يكتسبون خبرة في عملهم بالتمييز (الحكمة في التصرُّف) والجهاد المتواصل، هكذا أيضًا يليق بطالبي الحياة الفاضلة حقًا أن يستخدموا التمييز بيقظة، ويحرصوا أن يعيشوا كما يليق وكما هو مقبول لدى الله. لأن الإنسان الذي يرغب في هذه الحياة الفاضلة ويؤمن إنه يستطيع تحقيق رغبته، ينال بالإيمان عدم الفساد (الحياة النقية)[١].

القديس أنطونيوس الكبير

الحكمة أشبه بالجمال للشيوخ،

والفهم والمشورة لأرباب المجد! [٥].

يقول سليمان الحكيم: "لأن الشيخوخة المُكرَّمة لا تقوم على طول الزمن، ولا تُقَاس بعدد السنين" (حك ٤: ٨). كرامة الشيخ لا في شعره الأبيض وطول سنواته وخبراته، فقد تكون خبراته شريرة يتمسَّك بها، حاسبًا إياها الحكمة بعينها.

❖ الشيخ هو من يسبق أولاً ويسمع عن العمل.

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ١٧.

الشيخ هو من يحيا عمرًا عظيمًا في الإيمان.

الشيخ هو من يكون عمره موضع تقدير، وزمانه الطويل بلا غضن[1].

القديس أمبروسيوس

إكليل الشيوخ هو الخبرة العظيمة،

ومخافة الربّ فخرهم [٦].

❖ "الخبرة الغنية هي إكليل الشيوخ" (راجع سي ٢٥: ٦)، وشيبة الشعر هي أكاليلهم التي تشهد لتلك الخبرة. ومع ذلك فالبعض يخجلون من تقدُّم السنوات ومن شيبة شعرهم[2].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ ذهب في أحد الأيام أنبا آمون لزيارة (أنبا شيشوي) فوجد أنه حزين على مجيئه من البرية، فقال له: أيها الأب، ليس جيدًا لك أن تحزن، لأنك اقتربتَ من مكان سُكنَى الإخوة، لأنّ جسدك صار ضعيفًا ولم تعد قادرًا على القيام بتلك الأعمال التي تريدها في البرية.

فلما سمع أنبا شيشوي هذا الكلام نظر إلى أبّا آمون بحدّةٍ وأجابه قائلاً: ما هذا الذي تقوله لي يا أبّا آمون؟ ألَم تكن حرية الأفكار التي كانت لي في البرية كافيةً لأن تأخذ مكان جميع الأعمال؟ ...أخبرني ماذا يمكنك أن تفعل في البرية في السنّ المتقدِّمة؟ وحتى إذا كنتُ أنا غير كفء لأعمال الجسد لأنني صرتُ ضعيفًا بسبب شيخوختي، فعندي مقدرة أكثر على إتمام أعمال الفكر مما كنتُ في رجولتي المبكِّرة.

فردوس الآباء

٣. عشرة أفكار مُبهِجة

تسعة أفكار أغبطها في قلبي، وسأذكُر العاشرة:

أب يبتهج بأولاده، وإنسان يعيش فيرى سقوط أعدائه [٧].

يُقَدِّم لنا عشرة أمثلة لأناسٍ مطوبين. أولهم آباء مطوبون يفرحون بأبنائهم كعطية من الله (مز ١٢٨: ٣-٥). يليهم من يرى أعداءه (إبليس وجنوده) ساقطين، لا سلطان لهم عليه (مز ١١٢: ٨).

حذَّرنا **القديس يوحنا الذهبي الفم** من الاهتمام بتربية أطفالنا بدافع الكبرياء أنهم آباء لأبناء ناجحين دون الاهتمام بحياتهم الأبدية. ما يبهج قلوب الحكماء أن يروا أبناءهم حكماء في الربّ.

---

[1] *On Joseph, 8: 43.*

[2] *Paedagogus, FOTC, vol. 23, p.212-214.*

زوج يُطوَّب لأنه يعيش مع امرأة عاقلة،

وإنسان لا يزل بلسانه،

وإنسان لا يخدم من لا يستأهله! [٨]

الزوجة العاقلة تتأهَّل هي وأسرتها للحياة المُطوَّبة، أي تشارك السمائيين حياتهم المُطوَّبة. إنها تعكس على رجلها هذا التطويب، فيعيش الاثنان كملاكين مملوئين بحياة التطويب والفرح السماوي. يقول الحكيم: "البيت والثروة ميراث من الآباء، أما الزوجة المُتعقِّلة فمن عند الرب" (أم ١٩: ١٤).

جاء في حديث القديس غريغوريوس النزينزي عن والديه غريغوريوس الذي جذبته زوجته نونا *Nonna*، لا ليؤمن بالسيد المسيح فحسب، بل ويصير أسقفًا فيما بعد. [هوذا الراعي الصالح هو ثمرة صلوات زوجته وإرشادها، وقد تعلَّم منها حياته الرعوية المثالية. بقوة هرب من عبادة الأوثان، وبعد ذلك صارت الشياطين تهرب منه... لقد صارا متساويين في التعقُّل والبهاء، غيورين يسندان بعضهما البعض، يطيران فوق الجميع... كان لهما جسدان، ولكن كأنه قد تحوَّل الجسدان إلي روحٍ، حتى قبل انحلالهما... كانا يملكان كل شيء ولا يعوزهما شيء. لقد رفضا الغنى، فصارا غنيين في الكرامة ... أقول فقط كلمة واحدة عنهما، إنهما بحقٍ وعدلٍ قد عُين كل واحدٍ منهما لجنسه، عُين هو زينة للرجال، وهي زينة للنساء، ليس فقط زينة، بل ومثالاً للحياة الفاضلة[١].]

"لماذا يطوّب من لا يخدم من لا يستأهله؟" لا يعني بهذا أن التطويب نابع عن عدم الخدمة للشرير، إنما عن الحكمة التي يمارسها الشخص الذي لا يحابي شريرًا، وعوض مساندته على التخلي عن الشرّ في تهاون ومداهنه يخدمه، مما يدفع الشرير على التمادي في الشرّ.

إنسان يُطوَّب لأنه يجد التمييز!

وإنسان يُطوَّب لأنه يتحدَّث إلى آذانٍ صاغيةٍ! [٩]

عندما سُئِل القديس الأنبا أنطونيوس عن أفضل الفضائل، أجاب "**التمييز**".

أما عن الآذان الصاغية، فهذا يتطلَّب منا أن نُصَلِّي من أجل المُستمِعين لصوت الرب الذي ننادي به.

❖ يلزمك أن تكون حريصًا بخصوص من تُحَدِّثه. إن لاحظت أن هذا الشخص يود أن ينتفع عندئذ تحدث. ولكن إن لم يكن كذلك، فلا حاجة للكلام. إذ مكتوب: "طوبى لمن يتكلم في آذان الذين يصغون" (راجع سي ٢٥: ٩).

---

[١] راجع قاموس آباء الكنيسة وقديسيها، حرف ج (القديسة جورجونيا).

ليتك لا تُوجَد قط مُقَدِّمًا للكلاب القدسات، أو تطرح دررك قدام الخنازير (مت ٧: ٦). ليهبك الربّ احتشامًا أيها الأخ، فلا تنحرف عن طريق التواضع[1].

القديسان برصنوفيوس ويوحنا

❖ عندما ظهر القديس بولس أمام الملك أغريباس ليجيب على الاتهامات المقدَمة ضده، أراد أن يستخدم أسلوبًا واضحًا لسامعيه، وكان واثقًا من نجاح منطقه، بدأ يُهَنِّئ نفسه بهذه الكلمات: "إني أحسب نفسي سعيدًا أيها الملك أغريباس، إذ أنا مزمع أن أحتج اليوم لديك عن كل ما يحاكمني به اليهود، لاسيما وأنت عالم بجميع العوائد والمسائل التي بين اليهود" (أع ٢٦: ٢، ٣). لقد قرأ يشوع (بن سيراخ) "طوبى لمن يخبر آذان الذين يصغون" (راجع سي ٢٥: ٩). وقد عرف أن المدافع بالنسبة لمن له تأثيره على القاضي. أنا أيضًا أظن نفسي سعيدًا أن تصغي الآذان المثقفة إلى دفاعي[2].

القديس چيروم

❖ كان إرميا يكرز بالكلمة، لكن لم ينصت أحد إلى كلامه. فكان بذلك مثل الطبيب الذي يُبَدِّد أدويته بسبب عناد مرضاه الذين لا يريدون اتباع علاجه ولا أخذ أدويته. كأنه طبيب يقول: "**لم أفعل صلاحًا، ولم يفعل لي أحد صلاحًا**". ربما يرجع سبب التناقض في هذه الآية إلى شعور الحب والود الذي يحمله الإنسان الذي عُمِل معه الصلاح، تجاه الإنسان الذي عَمَل له هذا الصلاح. وينتج عن هذا أن الذي يَكرِز بالكلمة يأخذ هو أيضًا صلاحًا من كلمته (أي يحصل علي حب السامعين له). وكما هو مكتوب: "**طوبى لمن يتكلم مع أذن تصغي**" (راجع سي ٢٥: ٩). وأن أعظم صلاح يمكن أن يجنيه المُعَلِّم من السامعين له، هو أن ينموا ويتقدَّموا حتى **يكون له ثمر فيهم** (رو ١: ١٣)[3].

❖ الذين هم عظماء وأقوياء في نفوسهم ذكرهم الكتاب بالتطويب. عندما ينشغل إنسان بأعمال عظيمة، ويكون لديه طموحات ذات قيمة، ويضع باستمرار أمام عينيه أهدافًا واضحة ليعيش دائمًا بحسب الحق الصحيح، ولا يريد حتى أن ينظر إلى أي شيءٍ تافه أو صغير، فإن مثل هذا الإنسان تكون عنده **القوة والعظمة** في النفس. أما هؤلاء الآخرون الذين كانوا "**مساكين**"، فإنهم **لم**

---

[1] *Letter 689, FOTC, vol. 114, p.243.*

[2] *Letter 57: 1.*

[3] عظة ١٤: ٣ على إرميا، ترجمة جاكلين سمير كوستى.

يسمعوا لكلام الرب كما يقول النبي؛ ولكي نكون أكثر تدقيقًا فإنهم لم يسمعوا لأنهم كانوا مساكين.

لهذا، فإنه إذ قيل هذا الكلام لنا نحن أيضًا، فلنصلِ إلى الله حتى نأخذ من عنده **قوة وعظمة** تُمكِّننا من الاستماع لتلك الكلمات المقدسة، عالمين أن الذين ينطقون بكلمات التوبيخ لا يخسرون شيئًا مثلما يخسر الذين يسمعون ولا يقبلون هذا التوبيخ، والذين يتهمهم إرميا بأنهم مساكين في عقولهم وأفكارهم[1].

العلامة أوريجينوس

يا له من مطوَّب من يجد الحكمة!

لكن ما من أحد يسمو فوق من يخاف الربّ [١٠].

مخافة الرب تفوق كل شيءٍ،

وبماذا تُقارَن؟ [١١]

❖ مخافة الرب هي اللجام الذي يُوقِف انطلاق الإنسان نحو ارتكاب الشرّ، ويجذبه للخلف حينما يُستعبد للجري وراء شهواته الكريهة، ليس فقط في حياته الخارجيّة، بل وعلى وجه الخصوص في حياته الداخليّة الخفية"[2].

❖ الإنسان الذي يعيش في تذكُّر الله كل حين **يمتلئ بالمخافة**، حتى عند مقاومته فكر شهوة يمر على نفسه، يصير مرتعبًا بسبب هذا الفكر.

لكن يهرب الفكر في الحال أمام مخافة النفس، كالعصفور الذي يهرب من أمام الإنسان الذي يقلق راحته. الخوف واحترام قوانين الناس يحافظان الجسد ضد الشهوات. والمخافة وخجل الإنسان أمام الله يحافظان النفس ضد أفكار الشرّ. لأنه إذ يعرف أن الله يراه في كل حين، يراقب نفسه باستمرار لكيلا يخطئ[3].

مار فيلوكسينوس

٤. الزوجة الخبيثة

استمر ابن سيراخ في التنديد بالزوجة الشريرة وفي كل مرة بعد أن يُنَدِّد بالزوجة الشريرة للحال يمدح الزوجة الصالحة (٢٦: ١-٦؛ ١٣-١٨).

---

[1] عظة ٦: ٣ على إرميا، ترجمة جاكلين سمير كوستى.

[2] عظة ٦: ١٨١. ترجمة جاكلين سمير كوستي.

[3] عظة ٦: ١٧٥-١٧٦. ترجمة جاكلين سمير كوستي.

أي جُرح ولا جُرح القلب،

وأي شر ولا شرّ الزوجة! [١٢]

يربط بين جرح القلب وشرّ الزوجة، ليبرز أن المرأة الشريرة تجرح أعماق قلب رجلها ومشاعره الداخلية، حتى وإن لم يظهرها على ملامحه. ما يُقَال عن المرأة الشريرة ينطبق على الزوج الشرير.

أي بؤس، ولا بؤس الذين يبغضونني!

أي انتقام، لكن ليس كانتقام الأعداء! [١٣]

قد تهاجم الحيوانات الشرسة الإنسان، لكنها لا تحمل بغضة من جهته. يُقَال عن الأسد متى افترس إنسانًا وشبع لا يؤذي من هم حوله، لأنه يهاجم الإنسان من أجل جوعه وليس عن بغضةٍ. كما يُقَال عن بعض الحيوانات والحيّات أنها لا تعتدي على الإنسان متى لم يهاجمها. فما تفعله بالغريزة أفضل مما يفعله الإنسان العاقل عند بغضه لأخيه.

ليس رأس أشرّ من رأس الحية،

ولا غضب أشرّ من غضب العدو! [١٤]

أود بالأحرى السكن مع أسدٍ أو حيةٍ،

خير لي من السكن مع زوجةٍ شريرةٍ [١٥].

حسب بعض الدارسين المحدثين أن ابن سيراخ كاره للمرأة، وقد فنَّد بعض الدارسين هذا الرأي، لأن ما كتبه هنا خاص بالمرأة الشريرة، خاصة وهو يُحَذِّر تلاميذه الشباب من التسرُّع في اختيار الزوجة لمجرد جمالها. بقدر ما حذَّر من النساء الشرّيرات، كرَّم وأثنى على النساء التقيات الحكيمات[١].

يُقَال إن كلمة "رأس" وكلمة "سُمّ" بالعبرية "روش". وكأن سيراخ يُقَدِّم السمات التالية للمرأة الشريرة: "الانتقام" [١٣]، و"السم" [١٤]، و"الافتراس" [١٥]، و"اللدغات" [١٥]، والخبث [١٦]، والملامح العنيفة [١٦]. خلال هذه السمات نُدرِك سمات الزوجة الصالحة بكونها على نقيض سمات الشريرة. فنلمس فيها اللطف والحنوّ الشافي والبذل والعطاء، وطول الأناة مع الوداعة، ويتجلَّى فيها الحب والابتسامة الصادقة.

شرّ الزوجة يُغَيِّر منظرها،

ويجعل وجهها قاتمًا كالدبّ [١٦].

ينعكس خبث الزوجة الشريرة الداخلي على ملامحها الخارجية، "الإنسان الشرير من كنز قلبه

---

[١] راجع البند الخاص بالنساء في مقدمة هذا الكتاب – الأفكار اللاهوتية والعقيدية والسلوكية في الرب، بند ٩.

الشرّير يُخرِج الشر، فإنه من فضلة القلب يتكلم اللسان" (لو ٦: ٤٥؛ مت ١٢: ٣٥).

زوجها يذهب إلى جيرانه ليأكل،

وعلى كره منه يتأوَّه بمرارةٍ [١٧].

إذ يعتصر قلب الزوج بسبب شرّ زوجته، لا يجد من يسنده سوى الله، فيتأوَّه بمرارة. إنه غالبًا ما يخجل أن يشكو زوجته لأحدٍ، حتى الأقرباء.

كل سوءٍ بإزاء سوء الزوجة خفيف.

لتقع قرعة الخاطئ عليها [١٨].

يسمح الله أحيانًا للرجل الخاطئ بزوجة شريرة، لأجل تأديبه، لذا يليق بمن يشعر أن زوجته شريرة، قبل أن ينتَّقِدها، يفحص نفسه ويُقَدِّم توبة عن خطاياه.

كما يكون الصعود على تلٍ رملٍ لقدمي شيخٍ،

هكذا تكون الزوجة الثرثارة لزوجٍ هادئٍ [١٩].

يجد الزوج الهادئ صعوبة لمعالجة الثرثرة التي للزوجة الشريرة، فيكون حاله مثل شيخ يصعد على تل رملي، إذ يتعثَّر في مشيّه، وتُغرَس قدماه في الرمل، وبصعوبة شديدة يستطيع أن يتحرَّك.

لا تسقط بسبب جمال امرأة،

ولا تشتهِ جمالها [٢٠].

من لم يختر بعد زوجة، يلزمه أن يبحث لا عن جمالها، بل عن حكمتها وتعقُّلها وقداستها، حاسبًا السُكنَى مع أسدٍ مفترس أو حية سامة، خير من السُكنَى مع زوجة شريرة [١٥-١٦]. الجمال عطية من الله، إن ارتبط بجمال الروح في تواضع، يجد الزوج سعادته في زوجته المتواضعة.

سخط ووقاحة وفضيحة عظيمة المرأة التي تنفق على زوجها [٢١].

لكل من الزوج والزوجة مسئولية والتزام في الأسرة، لذلك يتعرَّض الزوج الذي في رخاوة لا يجاهد لتدبير أمور الأسرة ماليًا إلى استخفاف الزوجة به.

سبب القلب المكتئب والوجه العبوس والقلب المجروح الزوجة الشرّيرة.

الزوجة التي لا تُسعِد زوجها، تجعل اليدين هامدتين والركبتين ضعيفتين [٢٢].

للزوجة دورها الفعَّال في حياة زوجها؛ يمكن بحكمةٍ أن تسنده فيتمتَّع بنجاحٍ فائق، ويمكن في غباوة أن تُحَطِّم طاقاته ومواهبه وقدراته فيفشل.

من امرأة نشأت الخطيئة،

وبسببها نموت نحن أجمعون [٢٣].

يقول الرسول بولس: "آدم لم يُغوَ، لكن المرأة أُغويت فحصلت في التعدِّي؛ لكنها ستخلص بولادة الأولاد، إن ثبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقُّل" (١ تي ٢: ١٤). يرى البعض أن القديسة مريم قدَّمت للنساء كرامة عظيمة، إذ أَنجبت لنا المُخَلِّص. ويرى آخرون أن النساء وإن كن قد حُرِمن من التعليم العام في الكنيسة في وجود الرجال، لكنهن ينلن أكاليلهن خلال تربية أولادهن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقُّل، الأمر الذي لا يستطيع الرجال القيام به. إنهن بحق يُقَدِّمن للكنيسة أعضاء قيادية مباركة!

❖ تنبأت أليصابات قبل يوحنا. وقبل ميلاد الرب والمُخَلِّص تنبأت مريم. بدأت الخطية من المرأة، ثم انتشرت إلى الرجل. بنفس الطريقة بدأ الخلاص أولاً من النساء. هكذا بقية النساء يمكنهن أن يلقين ضعف جنسهن، ويمتثلن قدر المستطاع بحياة وسلوك هؤلاء النسوة القديسات اللواتي يصفهن الإنجيل[1].

العلامة أوريجينوس

❖ حواء، التي منها بدأت الخطية، قد تشكَّلت من جنب الإنسان (تك ٢: ٢١). إذ هي خرجت من جنبه وهو نائم؛ المسيح كان مُعَلَّقًا ومات على الصليب عندما جُرِح. النوم والموت ملتصقان لبعضهما البعض، وهكذا هو الجنبان: جنب آدم وجنب المسيح، جُرِح الربّ من حيث نشأت الخطية. لكن من الجنب الذي تشكَّلت منه حواء التي بارتكابها الخطأ جلبت الموت علينا. ومن جنب المسيح تشكَّلت الكنيسة واهبة لنا ميلادًا[2].

القديس أغسطينوس

لا تجعل للماء مخرجًا،

ولا للزوجة الشرّيرة جسارة الكلام [٢٤].

يقول الحكيم: "ابتداء الخصام إطلاق الماء، فقبل أن تدفق المخاصمة اتركها" (أم ١٧: ١٤). الإهمال في جرحٍ بسيطٍ يُمكِن أن يتضاعف ويؤدِّي بحياة الإنسان كلها. وثغرة صغيرة في خندق إن أُهمِلَت يمكن أن تُسَبِّب تدفُّقًا لمياه غزيرة لا يمكن مواجهتها. هكذا الزوجة الشريرة التي لا تضبط

---

[1] *Homilies On Luke, Homily 8: 10*

[2] *Sermon 336:5.*

لسانها، فإنها تُحَطِّم الأسرة.

إن لم تسلك بحسب توجيهك الصالح،
افصلها عنك [٢٥].

❖ لم تأمر الشريعة الموسويّة بالطلاق، بل أَمرت من يُطَلِّق امرأته أن يعطها كتاب طلاق، لأن في إعطائها كتاب طلاق ما يُهَدِّئ من ثورة غضب الإنسان. **فالربّ الذي أمر قساة القلوب بإعطاء كتاب طلاق أشار إلى عدم رغبته في الطلاق ما أمكن.** لذلك عندما سُئِل الرب نفسه عن هذا الأمر أجاب قائلاً: "إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم" (مت ١٩: ٨). لأنه مهما بلغت قسوة قلب الراغب في طلاق زوجته، إذ يعرف أنها بواسطة كتاب الطلاق تستطيع أن تتزوَّج من آخر، يهدأ غضبه ولا يُطَلِّقها. ولكي ما يؤكد ربّ المجد هذا المبدأ، – وهو عدم طلاق الزوجة باستهتارٍ – جعل الاستثناء الوحيد هو عِلَّة الزنا. فقد أمر بضرورة احتمال جميع المتاعب الأخرى (غير الزنا) بثباتٍ من أجل المحبّة الزوجيّة ولأجل العفّة. وقد أَكَّد ربّ المجد نفس المبدأ بدعوته من يتزوَّج بمطلّقة يزني.

شرح الرسول هذا الأمر قائلاً في (رو ٧: ٢-٣) إن الزوجة تكون مرتبطة مادام رجلها حيًّا، ولكن إن مات رجلها فيُسمَح لها بالزواج. أعتقد أنه بنفس القاعدة إذا ترك الرجل زوجته، لذلك لا يُسمَح للمرأة أن تتزوَّج مادام رجلها حيًّا ولا للرجل أن يتزوَّج مادامت المرأة التي طلَّقها حيّة[1].

القدّيس أغسطينوس

من وحي سيراخ ٢٥

حَرِّرني من عبودية إبليس،
وهَيِّئني للعُرْسِ السماوي!

❖ بإرادتي انجذبت إلى الخطية للتمتُّع بلذّتها الوقتية،
فاصطادني عدو الخير، واستعبدني لحساب مملكته.
عوض صورة الله التي خُلِقْتُ بها، حلّ الفساد في طبيعتي.
صار ليس من طبعي الحُبّ الحقيقي والوحدة الصادقة والقداسة.
سقطت في التشامخ والكذب والشهوات الرديئة.

---

[1] *Sermon on the Mount.*

من يُحَرِّرني من عبودية الشيطان سواك؟

❖ في شبابي بجهالة لم أطلب الحكمة السماوية.
وحَلَّت بي شيخوخة العجز، وأنا بعد صغير السن.
ها أنت تفتح لي أبواب حُبِّك ومخازنك العجيبة.
ألتصق بك، وأَتعرَّف على أسرارك. أغرف الحكمة والفهم والتعقُّل والتمييز.
تُتوِّجني بإكليل الحب والطهارة والمخافة الربَّانية.
لا أخشى بعد الشيخوخة، بل أمتلئ بالقوة.
فحلولك فيَّ يهبني الحياة المُطَوَّبة التي للروح القدس.

❖ صارت أفكاري مبتهجة بك.
بك أَتمتَّع بالحب الأبوي، فيجد كل إنسانٍ في قلبي موضعًا خاصًا به،
لا أرتعب من إبليس، لأني بك سحقته تحت قدميّ.
تُقِيم من نفسي عروسًا سماوية لا تعرف الخبث، وتُقِيم حراسة مُشدَّدة على لساني.
لن تخرج كلمة إلا من خلالك يا قدوس!
تهبني روح التمييز، فأسلك بحكمة وتدبيرٍ حسنٍ.
مخافتك تُقِيم من ضعفي أشبه بساروفٍ أو كاروبٍ.

❖ من يقدر أن يجرح قلبي، وأنت ساكن فيه؟!
كيف أشتهي ما لدى إخوتي، وأنت هو نصيبي.
لا تقدر الحيّة القديمة أن تبتلعني، لأني بنعمتك لا أزحف على بطني،
بل أطير كما إلى السماء.
ليزأر إبليس الأسد المتوحش، ولتزحف الحيّة، فإن قلبي في يديك.
كيف يكتئب وجهي، وملكوتك قائم في داخلي؟
تُقَدِّم لضعفي الفرح والبهجة والمجد والغنى والبرّ والكمال.
أنا اصغر من أن أشكرك وأُسَبِّحك!

الأصحاح السادس والعشرون

حول الفاضلة المُطَّوبة والزوجة الشرّيرة

بعد تحذيره في الأصحاح السابق من اختيار الشاب امرأة شريرة خبيثة ليرتبط بها زوجة مهما بلغ جمالها، حثّ على ضرورة الارتباط بزوجة فاضلة. أمران يهتم بهما سيراخ في اختيار الزوجة: الصلاح [١] ومحبة السلام [٢]. هاتان السمتان تجعلان الحياة الزوجية مملوءة سعادة عبر الأعوام.

١. السعادة بالزوجة الفاضلة [١-٤].

٢. الزوجة الشرّيرة [٥-١٢].

٣. الزوجة المُطَوَّبة [١٣-١٨].

٤. ثلاثة أمور تُحزن القلب [١٩-٢٠].

١. السعادة بالزوجة الفاضلة

سعيد هو الزوج لزوجة الصالحة،

فإن عدد أيامه يتضاعف [١].

الزوجة الصالحة تُقَدِّم لزوجها السعادة [١، ٢، ٤] وطول العمر [١] والسلام [٢]. الأسرة المقدسة التي تتمتَّع بسلام الله تؤثر حتى على صحة الإنسان الجسدية والنفسية. وعلى العكس وجود خلافات أسرية خاصة بين الزوجين تُحَطِّم نفسية الزوجين والأولاد، وتؤثِّر على صحتهم البدنية. يقول الحكيم: "المرأة الفاضلة تاج لبعلها، أما المخزية فكنخرٍ في عظامه" (أم ١٢: ٤).

من الجانب الروحي، مضاعفة عدد أيام الإنسان، تعني مضاعفة البركة. فقد يعيش إنسان حتى الشيخوخة، لكن أيامه تُحسَب كلا شيء، وقد يموت طفل وتحسب أيامه القليلة في عيني الله وأعين السمائيين أفضل من آلاف السنين. ما قام به الجنين يوحنا المعمدان وهو لم يكتمل بعد، ولا خرج إلى العالم أعظم من أعمال رؤساء الكهنة وكل القيادات في ذلك الحين. هذا وسنُفاجَأ في يوم الرب العظيم بأطفال صغار يُحسَبون أبطالاً عظماء، أيامهم تُحسَب غاية في الطول، ومثمرة في الرّب. قيل عن أناس الله الأتقياء مثل إبراهيم وإسحق وأيوب أنهم ماتوا وهم شبعى أيامًا (تك ٢٥: ٨؛ ٣٥: ٢٣).

❖ كيف يمكننا أن نعبر عن السعادة الزوجيّة التي تعقدها الكنيسة، ويثبّتها القربان، وتختمها البركة؟[1]

العلامة ترتليان

---

[1] *To his Wife 2:9.*

الزوجة الفاضلة تسر زوجها،

فيقضي سنيّه مملوءة سلامًا [٢].

حيث توجد التقوى مع الإخلاص، تتحوَّل الحياة الأسرية إلى حياة شِبْه سماوية، فتذوق الأسرة البركة في كل عملٍ تمتد إليه أياديهم، ويحلّ فرح الروح على جميعهم، ويمتلئون بالسلام الداخلي.

إن كانت السماء في جوهرها "شركة حب" و"حياة وحدة في الله مركز السماء"، فإن الحياة الزوجيّة الحقّة في صميم كيانها هي وحدة حُبّ زوجي، خلالها يصير الاثنان واحدًا.

❖ الزواج أعظم من أن يكون بشريًا، إنه مملكة مُصَغَّرة هو بيت صغير للربّ.

القدّيس إكليمنضس السكندري

الزوجة الصالحة نصيب عظيم،

وتكون نصيب من يخاف الربّ [٣].

يتطلَّع الزوج الخائف الله إلى زوجته الصالحة، فيحسبها عطية إلهية، قَدَّمها له الربّ نصيبًا عظيمًا ينعم به. حيث يوجد الحب المتبادل بين الله والإنسان التقي، يقول المؤمن: "أنا لحبيبي، وحبيبي لي" (نش ٦: ٣). يحسب المؤمن أن الرب نصيبه (ار ٣: ٢٤). ويحسب الرب أولاده نصيبًا له، كما قيل عن سبط اللاويين: "الرب هو نصيبه" (تث ١٠: ٩). هكذا يحسب الزوج زوجته نصيبه العظيم، والزوجة تحسب رجلها نصيبها العظيم.

❖ إنني لا أرفض رباط الزواج، لا بل أسلم به في حب أعظم، لأنني بهذا أشهد معترفًا لزوجتي التي عينها لي الرب وأكرّمها، ولا أرفض الارتباط بها برباط الحب في المسيح الذي لا ينفك أبدًا[1].

الأب ثيوناس

القلب الصالح لغنيٍّ أو فقيرٍ وجه مبتهج في كل وقت[2] [٤].

يتحدَّث الأسقف **الراهب القدّيس أمبروسيوس** عن المتزوّج في علاقته بامرأته، قائلاً: [الرجل بدون زوجة يُحسَب كمن هو بلا بيتٍ[3].]

❖ ليس هناك شيء أثمن، ولا يمكن أن يوجد شيء أثمن من أن يُحَبّ الإنسان من زوجته ويُحبّها!

يقول الكتاب: "زوجة تتَّفق مع رجلها" (كإحدى البركات الثلاث التي ذكرها الحكيم) (راجع ابن

---

[1] *Cassian: Conf 21: 9.*

[2] بحسب *NRSV*: قلبه قانع سواء كان فقيرًا أو غنيًا ووجهه مبتهج في كل الأوقات.

[3] *On Paradise 11:50.*

سيراخ ٢٥: ١)، لأنه حيث يوجد هذ (الحب) يوجد الغنى ويفيض الرخاء، وحيث ينعدم لا يفيد أي شيء آخر، بل تسير كل الأمور في طريق خاطئ، وتصبح الحياة بؤسًا وقلقًا.

ليتنا نطلب هذا قبل كل شيء! من يطلب المال لا يطلب شيئًا. لتطلب ما يدوم!

لا تطلب الزوجة من بين الأغنياء، لئلا زيادة الغنى من جانبها يُسَبِّب عجرفة.

يليق بنا ألا نطلب الزوجة من أجل ثروتها، بل نطلبها شريكة لنا في الحياة من أجل التدبير لتكون معينة من أجل إنجاب الأبناء. أعطى الله المرأة لا لتجلب مالاً بل لتكون معينة![1]

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

٢. الزوجة الشريرة

من بين السمات الشريرة للزوجة: الغيرة من المُنافِسة لها [٦] واللسان السليط [٦] والسُكْر [٧] والثرثرة [٨] والعجرفة [١٠-١١].

ثلاثة أمور يخاف منها قلبي، ورابع أُصَلِّي من أجله.

افتراء المدينة، وتجمهر العامّة، واتِّهام باطل، كل ذلك أثقل من الموت [٥].

تُعتبَر هذه العبارة مقدمة لحديثه عن الزوجة الشريرة، هنا يُقَدِّم أربعة أمور تثير القلق، غير أن الزواج بامرأة شريرة أخطر من هذه الأمور.

أ. الأمر الأول هو افتراء المدينة، أو التشهير الكاذب العلني، حيث يرى الإنسان الظلم يسود المدينة، وليس من أحد يستطيع الوقوف أمامه للدفاع عن الحق.

ب. التجمهر وهياج الغوغاء وحدوث حالة اضطراب عامة.

ج. اتهام باطل.

د. الثلاثة أمور السابقة تقوم على غياب الحق وسيادة الكذب والبطلان، مما يجعل الحياة لا طعم لها، فيشتهي الإنسان الموت مع ثقله عن الحياة في هذا الجو الكئيب. إذ يشعر الإنسان أن يترك الكثيرين تحت نير الظلم، إلا أنه أَهْوَن من الحياة مع حدوث الأمور السابقة.

ينتقل بعد ذلك إلى الأمر الرابع الخطير الذي يحدث في الخفاء وليس علنًا مثل الأمور السابقة، وهو غيرة زوجة من ضرّتها (في تعدُّد الزوجات) أو من سيدة لها علاقة بالأسرة عن طريق القرابة أو الجوار. الحديث عن المرأة الشريرة التي تُمَثِّل خطرًا أبشع من الأمور السابقة، يبرز الآتي:

أ. **الزوجة الغائرة** من سيدة أو فتاة تُنافِسها، فتتحوَّل حياتها إلى سوطٍ يصيب كل الأسرة [٦].

---

[1] *In Acts, Hom 40.*

ب. الزوجة الشريرة، تشبه نيرًا غير مُحكَم يُدمي رقبة من يحمله، وعقربًا تبثّ السم فيمن يمسك بها [٧].

ج. الزوجة السكّيرة، تتعرى في فضيحة شائنة [٨].

د. الزوجة الزانية، إن أخفت تصرفاتها الدنسة، فعيناها في وقاحة تشهدان لنجاستها [٩].

هـ. الزوجة الصغيرة [أو الابنة] القليلة الحياء، تحتاج إلى حراسة جادة [١٠].

و. الزوجة المتعطّشة للدنس، تشرب من كل ماء بلا تمييزٍ [١٢-١١].

يوجد أيضًا وجع قلب وحزن عندما تغار زوجة من امرأة أخرى،

ولسانها سوط يصيب الجميع [٦].

قلب هذه السيدة يتحوَّل إلى بركانٍ ثائرٍ. إذ تغير على زوجها، وتلاحقه وتشك في تصرفاته، سواء بالحديث الصريح معه أو بطريقة غامضة. لسان المرأة التي تغير لا يصمت، وفكرها يتحرَّك في دائرة مغلقة، فيتحوَّل البيت إلى جحيم لا يُطَاق. حتى الأبناء – أيّا كان عمرهم – يفقدون السلام والفرح دون أن يعرفوا السبب الخفي لهذه الحياة المُرَّة.

الزوجة الشريرة تشبه نير ثورٍ ثائرٍ،

من يريد ضبطها يكون مثل من يقبض على عقربٍ [٧].

يُشبِّه ابن سيراخ المرأة الشريرة بالنير المتحرك من هنا وهناك غير المُحكَم الذي يوضع على رقبة الثور، فلأنه يتحرَّك يُسَبِّب آلامًا، حتى إن كان ثورًا عفيًّا؛ هذا النير غير المُحكَم يؤثر على قدرة الثور على العمل. هكذا المرأة الشريرة تشبه نيرًا على رقبة رجلها، تُسَبِّب له آلامًا كثيرة تُحَطِّم طاقته وتفسد حيويته، فتصير كأنها قيد في حياته تعطل عمله لحساب الأسرة وبنيانها. إن تدخَّل أحد لإصلاح الموقف، واقترب إليها بنصيحة حكيمة، تبثّ السم فيه وتلدغه كالعقرب.

المرأة السكيرة سخط عظيم،

ولا تستر على فضيحتها [٨].

قد يدفع الشرّ المرأة نحو شرب الخمر بدعوى أنها تنسى همومها، وإذ لا تعرف حدودًا للشرب تسكر وتفقد وعيها كما حدث مع نوحٍ، إذ تعرَّى عندما سَكر. الزوجة السكيرة تُعبِّر عن شرور قلبها بلسانها وسلوكها بغير اتزانٍ وبلا تعقُّلٍ. تفضح فساد قلبها وانحراف سلوكها في سكر وعي. يخجل الروج من تصرُّفاتها خاصة أمام أبنائهما.

زنا الزوجة يظهر في نظراتها الشامخة وجفنيها [٩].

يتحدَّث عن الزوجة الشريرة الوقحة، إذ تحاول إغراء من هو ليس بزوجها على السقوط معها في الخطية، فهي المسئولة الأولى عن سقوطها وإغراء الطرف الثاني. تنكر الزوجة الزانية أنها سقطت في الخطية غير أن وقاحة عينيها وحركات جفنيها تشهد ضدها. يُحَذِّر سليمان الحكيم من حركات وجهها المثيرة: "لا تشتهين جمالها بقلبك، ولا تأخذك بهدبها" (أم ٦: ٢٥). ويتحدَّث **القديس إكليمنضس السكندري** عن الزنا خلال غمزات العين.

❖ لا يمكن تقديم عذر للرجل المُتعقِّل عندما يخطئ، وبالأكثر المرأة ذات السمعة الرديئة أيًا كانت، إذ تجلب عارًا. بتعبير الكتاب المقدس: "المرأة السكيرة سخط عظيم، ولا تُستر فضيحتها" (راجع سي ٢٦: ٨)، إذ يقال عنها أنها صارت بالخمر ماجنة ويحلّ عليها سخط الله. لماذا؟ لأن سلوكها المخزي مفضوح. فما أن تستسلم المرأة للذة، حتى تسقط سريعًا في العمل اللاأخلاقي[1].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ يقول الكتاب: "سراج الجسد هو العين" (مت ٦: ٢٢)، لأن ما بالداخل يُلقَى عليه الضوء، ويصير ظاهرًا بالنور المشرق عليه، لذا "زنا المرأة يظهر في وقاحة عينيها" (راجع سي ٢٦: ٩)[2].

القديس إكليمنضس السكندري

شدِّد الحراسة على الابنة العنيدة،

لئلا تجد شيئًا من الحرية، فتستخدمه لأذيّتها [١٠].

يطالب بالحراسة الحكيمة على الابنة (ربما يقصد الزوجة الصغيرة السن) القليلة الحياء، فالتهاون معها في احتفاظها بعفّتها يضرّها. إنه لا يطلب تقييدها، إنما مساندتها على الاحتفاظ بطهارتها. ما تحدث عنه بخصوص مساوئ الزوجة الشريرة يراه مضاعفًا بالنسبة للابنة القليلة الحياء.

تحفَّظ من عينها قليلة الحياء،

ولا تعجب إذا أخطأت ضدك [١١].

يُقصَد بالتحفُّظ عدم التمادي أو التهاون في الحديث معها والالتصاق بها. هذا التحفُّظ قد يثيرها بالغضب على الشخص، فإن الساقط في الزنا لا يحتمل السلوك الإنسان الطاهر.

التهاون في تربية الابنة يبلغ بها إلى عصيان أبيها.

تفتح فمها كمسافرٍ عطشان، وتشرب من كل ماء بالقُرْبِ منها،

---

[1] *Paedagogus, FOTC, vol. 23, p. 121-123.*

[2] *Paedagogus, FOTC, vol. 23, p. 253-254.*

وتجلس عند كل وتد خيمة، وتفتح جعبتها لكل سهمٍ [١٢].

يشبه الزوجة الزانية بإنسانٍ غير مستقرٍ دائم السفر، يعاني من العطش، يشرب من كل ماءٍ بالقُرْبِ منه. فخطية الزنا تجعلها في عطشٍ إلى كل إنسانٍ تلتقي به. كلما وجدت وتد خيمة تجلس عنده لتلتقي بالداخل إلى الخيمة، فتدخل معه وتغويه على السقوط في الخطية.

٣. الزوجة المطوبة

بعد أن كشف عن سمات الزوجة الشريرة، يُحَدِّثنا عن الزوجة المُطوَّبة:

أ. تُبهج زوجها، وتسمّن عظامه بمهارتها [١٣].

ب. تتَّسِم بالصمت المقدس والسلوك بأدبٍ [١٤].

ج. عفيفة النفس، ومحتشمة في ملابسها، تحمل نعمة الطهارة [١٥].

د. منيرة كالشمس كمن تشرق من أعالي السماء [١٦]، وتسلك بتدبيرٍ ونظامٍ.

هـ. تنير على السالكين في الظلمة كالسراج الموضوع على المنارة [١٧].

و. تحرُّكاتها مجيدة، قدماها جميلان كعمودين من ذهب على قاعدتين من فضة [١٨].

في اختصار، تتشبَّه الزوجة المُطوَّبة بأورشليم العليا، التي تقدم حياة مطوّبة للساكنين فيها. كما تتشبَّه بالكنيسة عروس المسيح. هذا وما ينطبق على الزوجة سواء الصالحة أو الشريرة، ينطبق على الزوج أيضًا، بل وعلى كل إنسانٍ. بنفس الروح يُقَدِّم لنا القديس بطرس دور الزوجة الصالحة في كسب زوجها غير المؤمن (١ بط ٣: ١-٥).

بدأ بالحديث عن المرأة الصالحة المُخلِصة المُحِبّة للسلام كنصيبٍ عظيمٍ وبركةٍ تُمنَح لخائف الربّ [٣]. يلي ذلك حديثه عن الزوجة الشريرة والابنة الوقحة ثم يعود للحديث عن الزوجة المُطوَّبة. وكأنه لا يريد التسرع في حكم الزوج أو الأب على الزوجة أو الابنة، فيُبَرِّر لنفسه الثورة ضدهما. إنما يلزم أن نتطلع إلى ما هو صالح ومُطوَّب في حياتهما، بهذا يبدأ الحديث عنهما وأيضًا يختمه.

أما سمات الزوجة الصالحة فهي:

اللطف الذي يسكب البهجة على الزوج [١٣].

المهارة، لها قدراتها الفنية والعقلية، فلا تعرف الخمول، ولا تسقط في صغر النفس، بل ويشعر رجلها كأن عظامه داخله تُسر بزوجته [١٣].

الاحتشام، وقارها واتزانها يسكب على شخصيتها نعمةً فوق نعمةٍ، ويُعجَب رجلها بعفتها وطهارتها [١٥].

جمالها لا يصدر عن منظرها الجسدي، بل على البهاء الذي يشرق منها كما من الشمس، كنعمة

سماوية، وينعكس حتى على نظام بيتها [١٦].

كالمنارة المرتفعة، تبدد الظلمة وتنير على من هم حولها.

تناغم بين الجمال الخارجي حتى لقدميها والجمال الداخلي للقلب الخفي الذي لا يراه أحد سوى الربّ. فقدميها تتحركان على الأرض كإنسانة الله التقية، وبقلبها تنطلق إلى السماء حيث يُقيم السماوي ملكوته في قلبها. مثل هذه الزوجة لا يمكن لشخص أن يتعرَّف عليها بفكره المُجَرّد، إنما هي عطية من الربّ [١٤].

لطف الزوجة يُبهِج زوجها،

ومهارتها تسمن عظامه [١٣].

يرى الزوج في زوجته المُطوَّبة صورة حيّة للكنيسة التي يُسرّ بها العريس السماوي. ومهارتها تسمَّن عظامه؛ هكذا جدّية المؤمنين في تشغيل مهارتهم ومواهبهم لحساب ملكوت الله.

الزوجة الصامتة عطيّة من الربّ،

والنفس المتأدِّبة لا تُقدَّر بثمنٍ [١٤].

الزوجة الصامتة في الرب، قلبها يلهج في ناموس الرب، وفكرها يناجي مُخَلِّصها، ونفسها متأدِّبة تخضع لعريسها السماوي. ينعكس هذا على العلاقة الزوجية، فيشعر زوجها أنها لا تُقَدَّر بثمنٍ.

الزوجة المحتشمة نعمة فوق نعمة،

وليس من ميزان يزن النفس العفيفة [١٥].

احتشام الزوجة لا يقف عند المظهر الخارجي والملابس، لكن احتشامها يرجع إلى حياتها الداخلية حيث يُقيم الربّ نفسه ملكوته المقدس والمهوب. هذا الاحتشام الداخلي ينعكس على كل سلوكها الخارجي حتى طريقة مشيها وابتسامتها وصوتها، فيشعر من يتعامل معها بفيض نعمة الله عليها بلا انقطاعٍ. كما يشعر بالعجز التام عن وصفها وتقييم حياتها.

مثل الشمس تُشرِق من أعالي السماء،

جمال الزوجة الصالحة في بيتها المُرتَّب [١٦].

كل من يتطلَّع إلى كنيسة المسيح يراها أيقونة لشمس البرّ، كلها نور، تضيء على العالم، وتُشرِق على كل من يحيا فيها. هكذا الزوجة المُطوَّبة تشرق كالشمس من أعالي السماء. يشعر الزوج والأبناء أن حياتها المقدسة ترفع البيت كله كما إلى الفردوس. ترى الأسرة في هذه الزوجة المُطوَّبة أنها تتعدى برّها الذي ليس إله تشويش بل إله سلام كما في جميع كنائس القديسين (١ كو ١٤: ٣٣).

مثل السراج الذي يضيء على المنارة المقدسة،

جمال الملامح في حياة ذي الصحة الجيدة[1] [١٧].

تطلع القديس يوحنا الحبيب إلى السيد المسيح الجالس على العرش وحوله كنيسته كسبع منائر منيرة (رؤ ١: ١٢). هكذا الزوجة المُطوَّبة أو النفس المقدسة، يرفعها روح الله القدوس من مجدٍ إلى مجدٍ، فيراها السمائيون منارة في السماء حول العرش الإلهي.

القدمان الجميلان مع قلب ثابت،

تشبه أعمدة من الذهب تقوم على قواعد فضية [١٨].

لم يصف سيراخ جسم الزوجة المُطوَّبة، إنما اكتفى بقدميها وقلبها. **فالقدمان** الجميلان يشيران إلى التحرُّك المستمر ليلاً ونهارًا، حتى أثناء نعاسها، إذ قيل: "أنا نائمة وقلبي مستيقظ" (نش ٥: ٢)، تتحركان كما بجناحي الروح القدس من علوٍ إلى علوٍ، حتى تبلغ إلى رؤية العريس السماوي وجهًا لوجه (١ كو ١٣: ١٢). أما قدماها فأشبه بأعمدة من ذهب تقوم على قواعد فضية، تُذَكِّرنا بخيمة الاجتماع وهيكل سليمان القائمين على أعمدة قواعدها فضية. هكذا يرى الزوج في زوجته المُطوَّبة هيكل الله وروح الله ساكن فيها (١ كو ٣: ١٦). أما **القلب**، فيشير إلى المقادس السماوية الخفية تفيض بالقداسة والحب.

٤. ثلاثة أمور تُحزن القلب

يحزن قلب ابن سيراخ على أمرين، ويثور فيه الغضب على الأمر الثالث. فما هي هذه الأمور الثلاثة؟ خشي ابن سيراخ أن يسيء بعض الشباب فهم حديثه عن الزوجة الشريرة، فيتطلَّع إلى المرأة بنظرة تشاؤمية، متسائلاً: هل يمكن لشاب أن يجد الزوجة التي لها هذه السمات. هذا ما دفعه إلى إبراز عينات خطيرة من الشباب الأشرار، مثل:

١. **بطل حرب** في كبريائه ينحرف إلى الخمول.

٢. **شباب يهينوا العقلاء** ويستخفّون بهم [١٩].

٣. **أبرار** بتهاونهم انحرفوا إلى الخطية [١٩].

٤. **تجَّار** عاملون غير أمناء، يرتكبون الإثم [٢٠] بجشعهم وعدم أمانتهم.

أمران يحزن لهما قلبي، وبالأمر الثالث يثور فيَّ الغضب،

رجل الحرب الذي في عوزٍ بسبب الفقر، والرجال العقلاء إذا أُهينوا،

والمرتد عن البرّ إلى الخطية: فالربّ سيُعِدّه للسيف [١٩].

---

١ بحسب *NRSV*: هكذا الوجه الجميل على بنية جليلة *so is a beautiful face on a stately figure*.

الأمر الأول: رجل حرب أعوزه الفقر، فإن كان كرجل حرب يبذل كل جهده لحماية الدولة، ففي وقت السلم لا يعتمد على سمعته كمحاربٍ قديرٍ مُحِبٍ لبلده وشعبه، إنما يلزمه أن يعمل بلا توقُّفٍ. يتطلَّع سيراخ إلى العمل كأمرٍ مقدس، لا لإشباع الاحتياجات الزمنية فحسب، وإنما يحفظ النفس مجاهدة بلا خمول. لهذا يُطالِب حتى الشيوخ أن يعملوا حسب قدرتهم وإمكانياتهم.

الأمر الثاني: إهانة العقلاء، عوض تكريمهم بالاقتداء بهم وطلب مشورتهم.

الأمر الثالث: أن يرتدّ الإنسان عن برِّ الله بسبب لذَّة وقتية للخطية.

❖ حتى الذي يصوم من أجل خطاياه، ويسلك في طريقه مرة أخرى ويُمارِس ذات السلوك، من يسمع لصلاته؟ مرة أخرى نقرأ: "إن رجع أحد من برِّه إلى الخطية، سيعدّه الرب للسيف"، وأيضًا: "كما يقود الكلب إلى قيئه هكذا الجاهل يعيد حماقته" (أم ٢٦: ١١)[1]

القديس يوحنا الذهبي الفم

بصعوبة يتجنَّب التاجر ارتكاب الإثم،

ولا يُبرأ البائع المتجول من الخطية [٢٠].

يمكن أن تكون التجارة عملاً مقدسًا متى كان البائع والمشتري أمينان يحرصان على خلاص نفسيهما.

أ. أشارت الشريعة إلى الدقة في الميزان والمكيال وعدم الغش.

ب. عدم الغش في البضائع للبيع.

ج. الحذر من إغراء الربح المُبالَغ فيه.

من وحي سيراخ ٢٦

هَيِّئ الكل كعروسٍ سماوية!

❖ كل مؤمنٍ يشتاق أن يتسلَّم عروسه من يديك.

وكل مؤمنة تود أن تراك مُتجلِّيًا في عريسها.

ليعمل روحك القدوس في كل أسرة.

لتكن كل حياتنا موضوع رضاك وسرورك.

تهبنا سلامك وتمنحنا بركاتك. أعماقنا تتمتَّع بعربون سماواتك.

---

[1] *Letter to the fallen Theodore 1:20.*

وسلوكنا وملامحنا تشهد لنعمتك!

❖ انزع عنا روح الحسد والغيرة الشريرة، ولتعطي للساننا العذوبة.
لنسكر بخمر حُبِّك، فيتَّسِع قلبنا لكل البشرية،
وتتقدَّس عواطفنا وحواسنا بحلولك فينا. انزع عنَّا كل انحرافٍ، وسَمِّر خوفك فينا.
هب لنا العين البسيطة غير الوقحة. هب لي في رحلة حياتي أن تُرافِقني.
فلا أشتهي مياه العالم وملذَّاته.

❖ ثبِّتني في العضوية الحقيقية في كنيستك.
فيبتهج السمائيون بلطفك معي.
وتُقَدِّس كل طاقاتي للعمل لحساب ملكوتك.
هب لي الصمت المقدس، يصمت لساني، فيتكلم قلبي،
ويصمت قلبي، فتتكلم يا قدوس في داخلي.
خوفك المقدس يهبني الاحتشام الحقيقي.
يسكب نعمتك فيَّ، فيمتلئ قلبي بالعفة.

❖ أشرق يا شمس البرّ من سماواتك على نفسي.
تجعلني نورًا للعالم حسب وعدك الإلهي.
لا يكون موضع للظلمة في داخلي، بل أحمل انعكاس بهائك عليَّ.

❖ متى أرى كل البشرية كمنائر مضيئة حول عرشك؟!
متى تنير سراج نفسي، وترفعني على المنارة.
قَدِّس حتى قدميّ، فأتحرك دومًا نحو سماواتك.
تحسبني عمودًا من ذهب قائمًا على شريعتك، القاعدة الفضية.
هب لقلبي ثباتًا، فلا تُحرِّكني رياح العالم.

❖ ليتني لا أُحزن قلوب القديسين.
فلا أكون كرجل حربٍ خاملٍ بعد المعركة،
بل أعمل على الدوام بقيادة روحك الناري.
ولا أستخفّ بالعقلاء، بل أطلب مشورتهم وصلواتهم وبركتهم.
ولا أعود إلى الخطية مرة أخرى، بل أختفي في برِّك.

❖ اجعلني تاجرًا ناصحًا، لا أطمع في مقتنيات العالم،
ولا أسلك بروح الغش، بل أبيع كل شيءٍ لأقتنيك.
يا أيها اللؤلؤة الكثيرة الثمن!

الأصحاح السابع والعشرون

خطايا خطيرة وثمارها المُرَّة

في الأصحاح السادس والعشرين تحدَّث بن سيراخ عن **فئات خطيرة:** الزوجة الشريرة، والابنة الوقحة، ورجل الحرب الذي يعجزه الفقر بسبب الخمول، الناقد الحكماء بلسانٍ سليطٍ، البار المتهاون في جهاده، والمُستسلِم للخطية. وختم حديثه عن عدم الأمانة في العمل التجاري (سي ٢٦: ١٩)، فحذَّر من محبة المال التي تدفع إلى الخطية سواء عن طريق الكذب أو الطمع أو السرقة أو الغش أو اللجوء إلى الطرق غير المشروعة. الآن في هذا الأصحاح يُحَذِّرنا من بعض **الخطايا الخطيرة** مثل خطايا اللسان وخيانة الأصدقاء والرياء والتهكُّم والشماتة والغضب والحقد، إذ تقدم لنا ثمارًا مُرَّة.

١. انحراف الفكر [١-٣].
٢. اختبار النفس البشرية [٤-٧].
٣. المكافأة والجزاء [٨-١٠].
٤. أنواع الأحاديث [١١-١٥].
٥. إفشاء الأسرار والصداقة [١٦-٢١].
٦. الرياء والتهكُّم [٢٢-٢٤].
٧. الخطية تحمل ثمرها فيها [٢٥-٣٠].

١. انحراف الفكر

وراء الخطايا الخطيرة انحراف الفكر، خاصة في العمل التجاري. يبحث بعض رجال الأعمال عن الفرص المناسبة التي تُحَقِّق لهم ربحًا أكثر مع **تنازلهم عن بعض المبادئ المستقيمة.**

التجارة بوجه عام ليست شرًا، لكن إن مارس إنسان تجارته على حساب مبادئه المستقيمة من أجل أكبر ربح ممكن، فمع كون هدفه سليم، وهو تحقيق ثروته عن طريق التجارة، غير أنه إذا فقد الشخص استقامة حياته يخطئ، حتى وإن اعتاد غيره من بعض رجال الأعمال على ذلك.

كثيرون أخطأوا بسبب نوال ربحٍ،
والذي يطلب الغنى يغضّ نظره [١].

يُغرز الوتد بين الحجارة الملائمة،
وتنشب الخطية بين البيع والشراء [٢].

من لا يتمسك بثبات بمخافة الربّ،

يُهدَم بيته سريعًا [٣].

كما أن الوتد يجد له مكانًا آمنًا ثابتًا بين الحجارة الملائمة، هكذا خطية محبة المال تتستر وراء بعض عمليات التجارة، والعلاج هو التمسُّك بمخافة الرب. يليق برجل الأعمال أن يسلك في مخافة الربّ بأمانة وصدق وإخلاص وقناعة، حتى إن اعتاد بعض رجال الأعمال على نوع من الخداع من أجل المكسب. "من بنى بيتًا بأموال غيره، كمن يجمع حجارته في عاصفة (أو لقبره)" (راجع سي ٢١: ٨).

٢. اختبار النفس البشرية

عند هز المنخل تبقى الأقذار،

هكذا قذارة الإنسان تبقى في أفكاره [٤].

مادام المنخل ساكنًا مكدسًا فيه القمح أو غيره من الحبوب، فلا يظهر ما فيه من رملٍ وترابٍ، وما أن يُهز حتى تنزل الحبوب، وتتبقى الأقذار لإلقائها في المزبلة، هكذا الإنسان مادام متراخيًا في فحص أعماقه ومراجعة أهدافه تحت قيادة الروح القدس، لا يُدرِك عيوبه، ولا يُقَدِّم عنها توبة.

❖ بقي الآن أن نفهم ما تتضمنه هذه الوصيَّة باعتبارها مُوجَّهة إلى قُدرَة العقل. "**اهتم بذاتك**"؛ أعني أن تُلاحِظ ذاتك من جميع النواحي، أن تكون بصيرة نفسك يَقِظة لحماية ذاتك، إذ تجوز وسط الفخاخ؛ فالعدو قد نَصَبَ فخاخًا مخفيَّة من كل جهة. راقب بكل حرصٍ كل شيءٍ حتى "تَخلُص، مثل الظبي من الأشراك، ومثل العصفور من الحبائل (أم ٦: ٥)[1].

❖ حين تنشغل بخطيةٍ ما، كن مُتَّهِمًا لنفسك (أم ١٨: ١٧)، ولا تنتظر الآخرين أن يُقَدِّموا الاتهام. بهذا تصير أشبه بإنسانٍ بارٍ يتَّهِم نفسه في أول حديث له في المحكمة، أو تكون كأيوب الذي لم يَعُقه جمهور الشعب في المدينة عن الإعلان عن جريمته أمام الكل[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

❖ كما يخرج الإنسان من بطن أمه عريانًا، هكذا أيضًا تخرج النفس من الجسد. تخرج بعض النفوس نقية ومتلألئة، وأخرى ملطخة ومتدهورة، وثالثة مدنسة بخطايا كثيرة. لهذا فإن النفس العاقلة المُحِبَّة لله، إذ تذكر التجارب والشدائد المنتظرة بعد الموت، وتتأمل فيها، تعيش في برٍّ حتى لا

---

[1] عظة عن اعرف نفسك (اهتم بذاتك)، ترجمة ريمون يوسف.

[2] *On Humility*.

تُدان، ولا تخضع لهذه الشدائد. أما غير المؤمنين فليس لهم مثل هذه المشاعر، إذ يرتكبون الخطايا، مستهينين بما ينتظرهم[1].

القديس أنطونيوس الكبير

كما تُختبَر آنية الخزّاف بالأتون،
يُختبَر الإنسان بحججه [٥].

يرى **الشهيد كبريانوس أسقف قرطاجنة** أن هذه العبارة هي الأساس في نظرة القديس بولس وكل المسيحيين للألم.

❖ بعد انكسار السفينة، وبعد الجلد، وبعد عذابات مرعبة للجسد (٢ كو ١١: ٢٣-٣٣)، يقول الرسول بولس إنه لم يصبه ضرر، إنما انتفع من المحنة، لأنه بالحقيقة تزكّى خلال مثل هذا الحزن المرعب. إنه يقول: "أُعطيتُ شوكة في الجسد ملاك الشيطان ليلطمني لئلا أرتفع. من جهة هذا تضرَّعت إلى الربّ ثلاث مرات أن يُفارِقني. فقال لي: تكفيك نعمتي، لأن قوّتي في الضعف تُكمَل" (٢ كو ١٢: ٧-١٠).

عندما يمسك بنا ضعف أو عدم كفاءة أو أي خراب، عندئذ تُكمل قوّتنا. لذلك إن كان إيماننا وُضِع تحت الاختبار يثبت ويتسلَّم إكليلاً، كما كُتِبَ: "الأتون يختبر أواني الخزاف، وامتحان المحنة تختبر الأبرار". هذا باختصار هو الفرق بيننا وبين الآخرين الذين لا يعرفون الله، إنهم في يوم المحنة يشتكون ويتذمَّرون، أما المحنة فلا تدعونا أن نترك الحق الذي للفضيلة والإيمان، بل تُقَوّينا بآلامها[2].

الشهيد كبريانوس أسقف قرطاجنّة

❖ لله سلطان علينا كالخزَّاف على الطين، ليُشَكِّل من ذات المادة أوانٍ للكرامة وأوانٍ للهوان. لذلك بالنسبة لكم يا من تجاوبون الله بروح الغطرسة، يكفيكم أن تسمعوا هذه الأمور[3].

العلامة أوريجينوس

❖ يتسلَّل الأسد إلى كمين خفي ليفترس البار، والأواني الخزفية تُختبَر بالأتون (راجع سي ٢٧: ٥)، والأبرار يُختبَرون بالتجارب. ففي موضعٍ آخر مكتوب: "يا بني، إن أقبلت لتخدم الربّ، فأعدد

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١١١.

[2] *On Mortality 13.*

[3] *Commentary on Romans, FOTC, vol. 104, p. 119-120.*

نفسك للتجربة" (راجع سي ٢: ١)[1].

القديس چيروم

هذه النار كما يقول **القديس أغسطينوس** إنها نار التجارب التي تحرق من كانت أعماله أرضية، بينما تنقي من كانت أعماله حسب رضى الربّ، وتزيده بهاءً[2].

❖ الأواني الخزفية تصير صلبة بالنار، هكذا قوة جسد المسيح لا تُستهلَك بالنار كالقش بل تزداد صلابة مثل الأواني الخزفية، وذلك بنار آلام (المسيح)[3].

❖ النار تفحص نوعية عمل كل أحدٍ، إن كان عمله يصمد هذا الذي قام ببنائه (وهو يصمد إن كان الشخص مهتمًا بالأمور الإلهية كيف يرضي الربّ)، فينال مكافأة عن اهتمامه، وإن احترق يفقد مكافأته، لأنه لا يقدر أن يحتفظ بما يحبه (الأرضيات)، وأما هو فيخلص كما بنارٍ (١ كو ٣: ١٥). هذا التعبير الأخير يعني أنه بدون ألم النار لا يقدر أن يُحَطِّم الملذَّات التي أحب أن يبنيها.

❖ هنا يبدو لي أنه لدينا نار لا يفقدها هؤلاء الناس، نار تقدم ربحًا لشخصٍ ما، وخسارة لشخصٍ آخر، وهي امتحان للاثنين. هذه النار ليست النار التي يقصدها ربُّنا عندما يقول للذين عن يساره: "ابعدوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية" (مت ٢٥: ٤١)[4].

القديس أغسطينوس

يُمَيِّز **القديس أغسطينوس** بين من يُجرَّب ومن يسقط في التجربة. ففي الصلاة الربانية، إذ نطلب "لا تدخلنا في تجربة"، لسنا نطلب ألاَّ نُجرَّب، وإنما ألاَّ ندخل فيها.

❖ الصلاة هنا ليست لكيلا نُجَرَّب، وإنما لا ندخل في تجربة. إنها كمن يجتاز تجربة بالنار، لا يصلي ألاَّ تلمسه النار، بل ألا يهلك بالنار، لأنه تُختبَر آنية الخزف بالأتون، والأبرار بتجربة المحنة [٥]. فيوسف جُرِّب بإغراءات زانية، لكنه لم يدخل في التجربة (تك ٣٩: ١٧). وسوسنة جُرِّبت لكنها لم تدخل في التجربة (دا ١٣: ٢٠). وهكذا كثيرون من كلا الجنسين، خاصة أيوب[5].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Against Jovianianus, Book 2: 3.*

[2] *St. Augustine: Treatises on Various Subjects, FOTC, vol. 16, p. 439-441.*

[3] *On Genesis, FOTC, vol. 84, p. 131-132.*

[4] *City of God 7-22, FOTC, vol. 24, p. 400-401.*

[5] *Our Lord's Sermon on the Mount, 2:9:32.*

❖ الإنسان منا بعد أن يعترف بخطئه، يتحوَّل بتوبته إلى التغير خلال المعرفة، ويظهر تقدمًا ملحوظًا، فيُجرَّب بواسطة العدو، وتُختبَر قوة نفسه وسلامة هدفه. بالحقيقة يقول الكتاب: الذي لم يُختبَر لا يكون جديرًا بالثقة. لن يصل أحد إلى الكمال ما لم يُختبَر أولاً بالتجارب[1].

روفينيوس

❖ الطوباوي يوحنا الإنجيلي الذي لم يكن بالتأكيد أقل من القديس يعقوب (بن اسحق) في الاستحقاقات، يعلن: "إن قلنا إنه ليس لنا خطية، نضل أنفسنا وليس الحق فينا" (١ يو ١: ٨). علاوة على هذا نقرأ في موضع آخر: "الصديق يسقط سبع مرات ويقوم" (أم ٢٤: ١٦). لهذا إذ لم يكن ممكنًا ليعقوب الطوباوي ألا يكون بدون خطايا هينة، أراد الله أن يهلك هذه المعاصي الصغيرة في هذا العالم بنار الضيقات. لقد تحقَّق فيه قول الله بالروح القدس: "تختبر آنية الخزاف بالأتون، ويمتحن الإنسان بحديثه". علاوة على هذا، فإن الله يجلد كل ابن يقبله" (عب ١٢: ٦) "وبضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله" (أع ١٤: ٢١). لهذا لكي يُحضر الله يعقوب القديس كذهب نقي في يوم الدينونة المقبل، أزال أولاً كل وصمات الخطية منه، حتى لا يجد الشاهد الناري الآخر فيه شيئًا يحترق[2].

الأب قيصريوس أسقف آرل

كما تُظهِر الثمرة كيفية زراعة الشجرة،
كذلك يُظهِر فكر الإنسان قلبه [٦].

لا تمدح إنسانًا قبل أن يكشف طريقة تفكيره،
فإنه بهذا يُمتحَن الإنسان [٧].

كما تُعرَف الشجرة من ثمرها، هكذا يُعرَف الإنسان من كلامه. فالكلام ترجمة للمشاعر الداخلية وتعبير عن مكنونات القلب "فالحكمة تُعرَف بكلمةٍ، والتعليم بكلمة اللسان" (راجع سي ٤: ٢٤). بهذا لا يليق مدح إنسان دون الاستماع إليه. هكذا يقيم ابن سيراخ قيمة كبرى للصمت والكلام، فبالصمت يسمع الإنسان لأعماقه ويجد الفرصة للتعرُّف على نفسه والدخول في حوارٍ مع الله، وفى كلام الإنسان ترجمة لشخصيته.

٣. المكافأة والجزاء

---

[1] *Rufinus: The Blessings of the Patriarchs, 2: 20.*

[2] *Sermon 91: 4.*

إذا سعيت وراء البرّ تناله،

وترتديه كحُلّةٍ مجيدة [٨].

يخشى ابن سيراخ من وجود تعارض بين متطلبات الحكمة ومتطلبات الثروة، فيوضح إمكانية التغلُّب على هذا التعارض، بقوله من يسعى لطلب الحكمة يجد ذلك، بل ويرتديها كحلة مجيدة [٨]. ليس من تعارض لا مفر منه بين البرّ المقدس وممارسة التجارة. الله القدوس يسعى إلى الإنسان ويبحث عنه، ويقدم له برَّه وفى يده الإكليل، ليضعه عليه إن تجاوب معه.

كما تجتمع الطيور إلى أشكالها،

هكذا يعود الحق إلى العاملين به [٩].

من العوامل التي تجعل التعارض بين الحياة المقدسة والتجارة يمكن التغلب عليه وجود رجال أعمال صالحين وهم ليسوا بنادرين كما يظن البعض. هؤلاء يمكن أن يجتمعوا معًا ليقدسوا العمل التجاري، لأن الطيور تجتمع إلى أشكالها. هكذا الأتقياء في كل عملٍ يسندون إخوتهم في الرب.

يكمن الأسد منتظرًا فريسته،

كذلك تكمن الخطيئة لفاعلي الإثم [١٠].

يقول الرسول: "اصحوا واسهروا، لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمسًا من يبتلعه هو" (١ بط ٥: ٨).

❖ هل يوجد شيء أكثر رعبًا من الشيطان؟ مع ذلك لا نجد درعًا ضده سوى الإيمان، إذ هو ترس غير منظور ضد عدو غير منظور، يصوب أسهمًا مختلفة في وسط الليل نحو الذين بلا حذر. لكن إذ هو عدو غير منظور فلنا الإيمان آلة قوية كقول الرسول: "حاملين فوق الكل ترس الإيمان الذي به تقدرون أن تطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة" (أف ٦: ١٦). إذ يُلقي الشيطان شرارة ملتهبة من الشهوة المنحطة، يُظهِر الإيمان صورة الدينونة فيطفئ الذهن الشرارة[1].

القديس كيرلس الأورشليمي

٤. أنواع الأحاديث

حديث التقيّ حكيم على الدوام،

أما الغبيّ فيتغيَّر مثل القمر [١١].

---

[1] *Catechetical Lect. 5: 4.*

يمتاز الأتقياء الحكماء بثباتهم في تقواهم وإخلاصهم وصدقهم ويُحسَبون رجال سلام، لذا كثيرًا ما يستريح إليهم العاملون في التجارة ويطمئنون لسلوكهم. أما الحمقى فحتى إن أقسموا لا يثق الآخرون فيهم ولا يطمئنون للتعامل معهم. يرى **العلامة أوريجينوس** أن الإنسان الأحمق يشبه المريض بالصرع؛ عندما يهجم عليه المرض يصير أشبه بشخصية أخرى مختلفة تمامًا عما هو عليه.

❖ يهاجم الصرع مرضاه على فترات متباينة، فعندما يعاني منه المريض يبدو كشخص مختلف تمامًا عنه وهو في صحة جيدة، حين لا يكون الصرع عاملاً فيه. هذا الاضطراب نفسه قد تجده في نفوس معينة، تلك التي يُظَن أنها صحية عندما تكون في حالة ضبط النفس وممارسة فضائل أخرى. لكنها تصير أحيانًا كما لو في حالة صرع عندما تثيرها أهواؤها. إنها تسقط من حالتها التي كانت قائمة، وتسحبها خداعات هذا العالم والشهوات الأخرى (مر ٤: ١٩). ربما لا تخطئ عندما تقول عنها أنها تعاني من صرعٍ روحي، حيث تسقط بواسطة "أجناد الشرّ الروحية في السماويات" (أف ٦: ١٢).

إنهم غالبًا ما يصيرون مرضى في الوقت الذي فيه تهاجم الأهواء نفوسهم، فيقعون في النار (مت ١٧: ١٥). كما قيل بهوشع إنهم يصيرون زناة "كتنورٍ مُحمى من الخباز" (هو ٧: ٤). ويسقطون مرة أخرى في الماء (مت ١٧: ١٥)، عندما يحدرهم ملك كل التنانين من الفَلَك حيث كانوا يظهرون يتنسمون بحرية، وسقطوا في أعماق تيارات بحر الحياة البشرية.

تفسيرنا هذا بخصوص الأحمق يسنده القائل في سفر الحكمة بخصوص سمات الإنسان البار. "حديث الشخص التقي دائمًا حكمة"، أما الأحمق فيتغيَّر كالقمر[1].

العلامة أوريجينوس

يتغيَّر الغبي مثل القمر: يقول **القديس أغسطينوس:** [الشمس تشير إلى الروحيين، والقمر إلى الجسدانيين... الشمس هي الشخص الحكيم، والقمر الشخص غير الحكيم... "الحكيم يصمد كالشمس، والأحمق يتغيَّر مثل القمر"[2].] كما يرى أن الحكيم هنا يشير إلى حكمة الله المتجسد، بكونه شمس البرّ، والأحمق هو آدم الساقط في الخطية.

❖ لاحظوا الآن ما نقرأه في الأمثال: "الحكيم يستمر كالشمس، وأما الأحمق فيتغيَّر كالقمر" (راجع سي ٢٧: ١٢). من هو الحكيم الذي يستمر سوى شمس البرّ الذي قيل عنه: "شمس البرّ يشرق عليّ" (راجع ملا ٤: ٢). أما الأشرار الذين لا يشرق عليهم، فسيقولون باكين في اليوم الأخير:

---

[1] *Commentary on Matthew 13: 4.*

[2] *St. Augustine: Exposition on Ps 73: 19.*

"نور البرّ لا يشرق علينا... والشمس لا تشرق علينا". لأن الله جعل الشمس منظورة للأعين الجسدية، تشرق على الصالحين والطالحين (مت ٥: ٤٥)..

من هو الأحمق الذي يتغيَّر مثل القمر، سوى آدم "الذي فيه أخطأ الجميع" (راجع رو ٥: ١٢). بلا شك إذ يبتعد الذهن البشري عن شمس البرّ، أقصد عن التأمل الداخلي في الحق غير المُتغيِّر، مُحَوِّلاً كل طاقاته إلى الأرضيات، يصيبه العمى أكثر فأكثر عن رؤية ما بالداخل والأمور العلوية. لكن عندما يبدأ في الرجوع إلى الحكمة غير المتغيرة، فبقدر ما يقترب إلى الحكمة (الله) بالحب المقدس، "يفنى الإنسان الخارجي، والداخل يتجدَّد يومًا فيومًا" (٢ كو ٤: ١٦). عندئذ كل نور ذهنه الذي كان موجهًا إلى أهدافٍ دنيئة يتحوَّل إلى أهدافٍ عاليةٍ، بمعنى يتحوَّل من الأمور الأرضية لكي ما يموت الشخص أكثر فأكثر عن العالم، وتصير حياته مستترة بالمسيح في الله[1].

القديس أغسطينوس

❖ أعيننا لا ترى (القمر) في كمال حجمه على الدوام، الآن يمثل كمال القرص المستدير، وعندما ينقص ويقل يُظهر القصور في جانب واحد. وعندما يزداد من هلالٍ إلى بدرٍ يُظلم من جانب واحد. وعندما يكون شاحبًا يختفي الجانب الآخر.

الآن ليس بدون سبب سرّي جعل الخالق الإلهي للمسكونة القمر يظهر من وقتٍ إلى آخر بأشكالٍ مختلفة. إنه مثل مُبهر لطبيعتنا. ليس شيء مستقر في الإنسان. هنا يقوم الإنسان من العدم إلى الكمال... وفجأة يخضع إلى تدهور تدريجي، ويتحطم بالنقص المستمر. هكذا النظر إلى القمر يجعلنا نفكر في سرعة تقلبات الأمور البشرية، فيعلمنا ألاَّ نتكبر بخيرات هذه الحياة، ولا نفتخر بسلطاننا، ولا يغرينا الغنى الزائل، إنما نحتقر جسدنا الخاضع للتغيير، ونهتم بالنفس لأن صلاحها غير متغيرٍ[2].

❖ إن كان القمر يُسَبِّب لكم حزنًا بنقص تألقه، ونقصه تدريجيًا، هكذا يليق أن تزعجكم النفس بالأكثر التي لها فضيلة وبسبب الإهمال تحطم جمالها، ولا تبقى على حالها كما هو، إنما تتقلب وتتغيَّر باستمرار خلال نزوات العقل. بالحق يقول الكتاب: "الأحمق يتغير كالقمر" (راجع سي ٢٧: ١١)[3].

---

[1] *Letters, Vol. 1, p. 260-293.*

[2] *The Hexamaeron, homily 6: 10.*

[3] *Exegetic Homilies, FOTC, vol. 46, p. 99-101.*

القديس باسيليوس الكبير

❖ إن كنا نشعر بحزنٍ عند رؤيتنا للقمر عندما يصير شاحبًا، الذي يسترد ما فقده ويجدد نفسه، فبالأولى جدًا إن كانت نفسك المملوءة بثمر الفضيلة تتغير غالبًا في هدفها واتجاهاتها المتلونة بتهورٍ. هذا هو غاية الغباوة والجهل، إذ يقول الكتاب: "الغبي يتغيَّر كالقمر"، أما البار فيستمر مثل الشمس (مز ٧٢: ٥).

القمر لا يشترك في الغباوة، لأنه لا يتغير مثل الغبي، إنما الغبي يتغير مثل القمر... القمر يعمل من أجلك، ويخضع لتدبير إرادة الله... أما أنت فتتعهَّد التغيير باختيارك... إنك بدون فهمٍ غالبًا ما تجد فرحًا في ذلك[1].

❖ الإنسان الحكيم لا يُذَمِّره الخوف، ولا يتغير بالقوة، ولا يتبجح بالأخبار السارة، ولا يبتلعه الحزن. حيث توجد الحكمة توجد قوة الروح مع المثابرة والصمود.

الإنسان الحكيم ثابت في النفس، لا يتأرجح بتغير الأحداث. إنه لا يتقلَّب كطفلٍ، ولا يتحرَّك مع كل ريح للتعليم، بل يبقى كاملاً في المسيح، متأسسًا على المحبة، متأصلاً بالإيمان. الإنسان الحكيم لن يكون عاطلاً وليس له خبرة تغيير مزاج العقل، إنما يشرق مثل شمس البرّ الذي يشرق في ملكوت أبيه (مت ١٣: ٣٤)[2].

❖ الإنسان الجاهل لا يقدر بذاته أن يصير تلميذًا للفضيلة أو يثابر في هدفه، لأن الجاهل يتغيَّر مثل القمر[3].

القديس أمبروسيوس

❖ يسكن الله وسط قديسيه، وحيث توجد القداسة، يوجد مسكن الله. يهب الله مسكنًا للبشر في طريق واحد، هؤلاء الذين يختارون طريق الحياة الواحدة ويثابرون فيه. حقًا الإنسان البار ثابت (غير متغير)، إذ يأخذ قرارًا واحدًا وعلى الدوام أن يحيا الحياة البارة. أما الخاطئ فعلى العكس متقلب، "الشرير متغير مثل القمر" (راجع سي ٢٧: ١١)[4].

القديس چيروم

---

[1] *Hexameron, FOTC, vo. 42, p. 154-155.*

[2] *Letters, FOTC, vol. 26, p. 286-287.*

[3] *Jacob and the Happy Life, 2:3:11.*

[4] *Homilies, of St. Jerome, FOTC, vol. 1, p. 51-52.*

اقتصر وقتك بين الأغبياء،

وبدلاً عن ذلك اقضه بين العقلاء [١٢].

يليق بالمؤمن أن يختار الوقت المناسب ليتكلم مع الجهلاء ويسمع لهم، بل ويحرص أن يهرب منهم متى لزم الأمر، لأن حديثهم أحيانًا يكون بلا معنى ومزاحهم سخيف وقصصهم معثرة تفسد نفس المستمعين. "قيِّم الأقرباء ما استطعت، وتشاور مع الحكماء. ليكن حديثك مع الحكماء، وجميع كلامك في شريعة العليّ. ليكن الأبرار جلساءك على المائدة، وافتخارك في مخافة الرب" (راجع ٩: ١٤-١٦).

حديث الحمقى مكروه،

وضحكهم في ملذَّات الخطية [١٣].

حديث الحمقى مكروه، خاصة حديثهم عن الله، إذ يظنون أنه في سماواته لا علاقة له بالبشر وهم على أرضهم. يمارس الحمقى شرورهم في الظلمة، ظانين أن الله لا يراهم ولا تشغله حياتهم.

❖ الإنسان الذي يظن أنه لا يراه ذاك الذي يرى كل الأشياء، وأن معاصيه تخفيها الظلمة، فهو يسكن في الظلال. باطلاً يحسب أنه ليس من يراقبه، لأن عين الربّ أكثر بهاءً من الشمس، تكشف كل الأسرار، وتنير كل الظلمة، وتدخل إلى معرفة أعماق القلب، وتخترق الأعالي والأعماق (راجع سي ٢٣: ١٩).. لذلك يُكتشف كمن هو هارب ومأجور (مُرتزق) شرير، يُعرَف قبل أن يخفي نفسه..

من يظن أنه يخفي جريمته يسقط في رجاءٍ باطلٍ، ينطق بكلامٍ باطلٍ وليس بالحق. حقًا إن حديث الحمقى مكروه (راجع ٢٧: ١٣)، لا ينتج ثمارًا بل عويلاً. فإن كلام الأحمق يشبه حِملاً (ثقيلاً) في الطريق (راجع ٢١: ١٦). ما هي الخطية سوى ثقل؟ إنها تثقل عابر السبيل في هذا العالم، حتى ينحدر إلى أسفل بسبب ثقلها. من أراد ألاَّ يُثقل، فليتطلَّع إلى الربّ القائل: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (مت ١١: ٢٨)[1].

القديس أمبروسيوس

الكلام المملوء بالقَسَم، يجعل الشَعْر يقف في النهاية،

والمخاصمة تلزم الإنسان أن يسدَّ أذنيه [١٤].

من يتجاسر ويستخدم الاسم القدوس المرهوب دون تحفُّظ أو خشية، حديثه يُوقف الشَعر.

---

[1] *Seven Exegetical Works, FOTC, vol. 65, p. 17-22.*

مخاصمة المتكبرين تقود إلى إراقة الدماء،

وشتائمهم سماعها ثقيل [١٥].

يليق بنا ألا نتحاور مع المتكبرين المتهورين، ولا نهينهم، ولا نحتك بهم، وعلينا استخدام الطرق المناسبة لهم وفي الوقت المناسب.

٥. إفشاء الأسرار والصداقة

الذي يفشي الأسرار يهدم مصداقيته،

ولا يجد صديقًا مدى الحياة [١٦].

يليق بالإنسان أن يكون أهلاً ليصبح مستودعًا للأسرار. هذا يتطلَّب أن يكون حكيمًا يتمتَّع بالشبع الروحي والامتلاء بالمعرفة الروحية والاجتماعية. فإن إفشاء السرّ يُعَد وصمة عار بالنسبة لمن أفشاه. الصديق الوفي لا يفشي الأسرار حتى بعد موت أصحابها وإنما يظل أمينًا لهم حتى بعد انتقالهم.

أَحبِب صديقك وكن أمينًا له،

لكن إن أفشيت أسراره، فلا تجدّ في إثره عن قُرْب [١٧].

تمامًا كما يُدمِّر الإنسان عدوّه،

هكذا دمَّرتَ صداقة قريبك [١٨].

يصعب أن يسترد الإنسان صداقة وثقة من أفشى سرَّه.

وكما أنك قد تطلق طائرًا من يدك،

هكذا دَعْ قريبك يذهب، ولا تعود تصطاده [١٩].

لا تَجِّد في إثره، فإنه قد ابتعد بعيدًا عنك،

وفرّ كالأيّل من الفخّ [٢٠].

يُشَبِّه ابن سيراخ الصديق الذي فقد الثقة في صديقه، لأنه أفشى سرَّه، بالطائر الذي فلت من يد من الصياد وطار منه فلا سبيل لاستعادته. ومثل ظَبْيْ خرج من الفخ انطلق بلا عودة إلى نفس الفخ.

إن الجرح يُمكِن تضميده، والسبّ يمكن مغفرته،

أما الذي يفشي الأسرار فلا أمل له [٢١].

يكاد يستحيل للصديق أن يسترد صداقته مع من أفشى سره، وإن عاد إليه فلا يكشف له سرَّه بعد.

٦. الرياء والتهكُّم

الغامز بعينه يُخطِّط أعمالاً شريرة،
وليس من يقدر أن يتجنَّبه [٢٢].

في حضورك يكون حديثه حلو، ويُعجَب من كلامك،
وبعد ذلك يُشَوِّه بكلامه ما قُلتَه، ومن كلامك يضايقك [٢٣].

إني أبغضُ أمورًا كثيرة، ولكن لا كبغضي له،
والرب أيضًا سيبغضه [٢٤].

يتحدَّث المرتل عن المرائي، قائلاً: "أنعم من الزبدة فمه، وقلبه قتال، ألين من الزيت كلماته، وهي سيوف مسلولة" (مز ٥٥: ٢١). ينطبق هذا على يهوذا الذي سلَّم سيده بقبلةٍ.

❖ اقتربوا إليه يجربونه (لو ٢: ١٩-٢٦)، يخفون عنه هدفهم المخادع. كانوا يخاطبونه بكلمات لينة، وهم مثل وحوشٍ شرسةٍ في ثياب حملانٍ. مثل هؤلاء وَبَّخهم المرتل أيضًا قائلاً: "**ألْين من الزيت كلماتهم، لكنها سهام مسنونة**"[1].

القديس كيرلس الكبير

٧. الخطية تحمل ثمرها فيها

من يلقي حجرًا في الهواء، فإنّما يلقيه على رأسه،
والضربة بالمكر تجرح الماكر [٢٥].

ظن إبليس أنه قادر أن يتخلَّص من السيد المسيح بصلبه، ولم يُدرِك أنه بالصليب تحطَّم سلطان إبليس وكل قواته.

❖ الذين سلموا يسوع (للصلب) صاروا منسيين. رؤساء الكهنة لم يعد لهم وجود، ولم يأت بعدهم رؤساء كهنة. الكتبة الذين حكموا عليه بالموت، اظلمَّت عقولهم، وأُصيبت أذهانهم بالعمى، ولم يعودوا بعد قادرين أن يروا معنى النصوص المقدسة.

كل الذين أدانوا يسوع بالموت، سُلِّموا لعدو المسيح. الذين سخروا به هم بدورهم صاروا موضوع سخرية عندما أحاط الأعداء بأورشليم واقترب خرابها (لو ٢١: ٢٠). الذين جلدوا يسوع هم أنفسهم جُلدوا واستمروا هكذا حتى يأتي زمان كمال الأمم (رو ١١: ٢٥).

بالحقيقة من يلقي حجرًا في الهواء يسقط على رأسه [٢٥]. هذا كله حدث من أجل اهتمام الله

---

[1] *Commentary on Luke, homily 135.*

بهم الذي لا يتوقَّف، ويصيرون من ضمن الذين يخلصون من الأمم مع البقية المختارة (رو ١١: ٥). حقًا لولا أن الله أبقى بقية لصاروا مثل سدوم وعمورة (إش ١: ٩)[1].

العلامة أوريجينوس

❖ يحدث أحيانًا عندما يُوجَّه السهم نحو شيءٍ صقيلٍ يرتد على ضاربه، ويجرح من كان يود أن يجرح (الغير). بهذا تتحقق الكلمات: "من رمى حجرًا إلى فوق، فقد رماه على رأسه" [٢٥][2].

القديس جيروم

من يحفر حفرة سيسقط فيها،

ومن ينصب فخًا سيُمسَك به [٢٦].

❖ مكتوب: "من يحفر حفرة يسقط فيها"، فإنهم وإن ربطوا أيادينا وأقدامنا (مثل الثلاثة فتية)، فالحب له سلطان أن يحلنا. لاحظوا هذه المعجزة. الذين ربطوهم حررتهم النار. كما لو أن بعض الأشخاص قد سُلِّموا لخدام أصدقائهم، وإذا بالخدم بسبب صداقة سادتهم، بدلاً من أن يؤذوهم تعاملوا معهم بكل رقةٍ. هكذا فعلت النار عندما علمت أن الثلاثة فتية هم أصدقاء، حطَّمت أغلالهم وحررتهم، وتركتهم يمشون وصارت النار ممرًا لهم، ساقطة تحت أقدامهم. بعدلٍ طُرِحوا في النار لمجد الله[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

من يصنع الشرور فعليه تنقلب،

ولا يشعر ما يصدمه[4] [٢٧].

يُحكَى عن عبدٍ مسيحيٍ تقيٍ أن بقية العبيد في القصر أبغضوه، وخطَّطوا لقتله، فذهب أحدهم ووشى به لدى السيد الذي دَبَّر له مكيدة ليقتله. فقد أمره بالمضي باكرًا عند أناس خارج المدينة يشعلون نارًا ليحضر له منهم شيئًا وكان قد اتفق معهم على قتله بإلقائه في النار حالما يصلهم. أما العبد الطيب فسمع وهو في طريقه صباح ذلك اليوم ناقوس الكنيسة، فمضى إلى هناك على أن يقضي للسيد حاجته بعد القداس. أما الذي وشى به، ففي الصباح وبعد مرور بعض الوقت على خروج العبد المسيحي من القصر، فكر في أن يتمتع برؤية العبد المسيحي وهو في النار. فلما أقبل

---

[1] *Commentary on Matthew 16: 3.*

[2] *Letter 125 : 19*

[3] *On Titus, Homily 6.*

[4] بحسب *NRSV*: ولا يشعر من أين يأتي (الشر).

نحو النار هجم عليه الرجال، وأسرعوا بإلقائه في النار دون أن يتحققوا من شخصيته، ودون أن يسمعوا لاحتجاجه. ولما انتهى القداس وذهب العبد المسيحي نحو المكان الذي فيه العبيد وجد نارًا قد انطفأت ولم يجد أحدًا من الناس، فعاد ليعتذر للسيد الذي دُهِش برؤياه. وبعد أن أعياه التفكير وقف على حقيقة الأمر كله وأن المسألة لا تعدو كونها وشاية، وقد عوقب الواشي بأن مات عوضًا عن ذاك الذي وشى في حقه، وهكذا ردّ الله الشر على صاحبه[1].

التهكُّم والشتم يرجع إلى المتكبّر،
والانتقام يكمن له مثل أسدٍ [٢٨].

الشامتون بسقوط الأتقياء يؤخذون في الفخّ،
والألم يفنيهم قبل موتهم [٢٩].

يؤكِّد كثير من آباء الكنيسة مثل **القديس مقاريوس الكبير** أن الخطية تحمل فسادها فيها، فالشرير المُصَمِّم على شرّه يهلك كثمرة طبيعية للشرّ محقق الفساد. لا يحتاج الشرير إلى من يردعه ويعاقبه، إنما ما يفعله يُقَدِّم له المرارة والموت! يشرب من ذات الكأس التي ملأها لنفسه، اللهم إلا إذا ألقى الكأس خلال تمتعه بالشركة مع مُخَلِّصه، وجهاده الجاد خلال الإرادة المقدسة في الرب.

❖ إن بقيت فيما يخص التراب، فستتحوَّل إليه في النهاية. يليق بك أن تتغيَّر، يجب أن تتحوَّل، يجب أن تصير سماويًا[2].

العلامة أوريجينوس

الغضب والحقد كلاهما ممقوتان،
والإنسان الخاطئ يقتني كليهما [٣٠].

❖ "الغضب يُدَمِّر حتى العاقل. الجواب اللين يصرف الغضب، والكلمة الموجعة تهيج السخط" (راجع أم ١٥: ١). بالتأكيد كل الأمور تعتمد على قرارنا، أن نثير الغضب أو أن نهدئ منه... "الجواب اللين يصرف الغضب"، أي طريقة الجواب في تواضع واضح وبدون قسوة[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ قَدَّم لنا ربنا أغلب وصاياه بالإقناع أكثر من الأوامر. الأمطار الهادئة ترطب الأرض وتخترقها،

---

[1] الأنبا مكاريوس.

[2] *Homilies on Genesis, 9.*

[3] *Commentary on the Proverbs of Solomon, Fragment 15: 1.*

أما المطر الشديد الغزارة فيفسد أسطح الأرض ويضغط عليها فلا يُمتصّ. "الكلام الموجع يهيج السخط" (أم ١٥: ١)، ويُسَبِّب أذية. عندما تفتح الكلمة القاسية بابًا يدخل الغضب، ويعقبه ضرر[1].

القديس مار إفرام السرياني

من وحي سيراخ ٢٧

احفظني من فساد الخطية ومرارتها!

❖ وهبتني العقل والفكر لأتعرَّف عليك وأُحبّك.
في غباوة نزلتُ بأفكاري إلى التراب. هب لي أن أترك التراب والرماد،
وأَتمتَّع باللقاء مع روحك القدوس، يكشف لي عن اعتزازي بك، يا أيها القدوس.
أرجع إليك كي تُقَدِّس أفكاري بك.
أرذل لذّة الخطية، ويلتهب قلبي شوقًا إلى الشركة معك.
لأعرف نفسي أنها ثمينة للغاية في عينيك!

❖ لتُغَرِبِل أعماقي بأتون التجارب.
تعيد تشكيلها وتردّ لي صورتك.
بنيران التجارب تهدم كل ما هو تراب فيَّ،
وتغرس صليبك في داخلي.
تُقِيم ملكوتك وتُحَطِّم كل ظلمة فيَّ!

❖ هب لي أن أنطلق نحو السماويات مع قديسيك.
نجتمع معًا كما تجتمع الطيور إلى أشكالها.
لا أخشى إبليس الذي يزأر كي يفترسني.
أحتمي بك أيها الأسد الخارج من سبط يهوذا.
ينكسر فخ الشيطان، وبك أنجو من شباكه!

❖ هب لي بنعمتك أن أنمو على الدوام،

---

[1] *Homily on Our Lord, 22: 3.*

أستنير بك يا شمس البرّ، وأنير دومًا.
لن أُعاني من التغيير المستمر كالقمر،
بل أصير بك نورًا للعالم!
أطيل المقام مع العقلاء، وأهرب من مجالس الحمقى!
تُقَدِّس فمي، فلا ينطق إلاَّ بالحق،
لا يعرف الكلمة الجارحة ولا الكلمة الرديئة!
لا أعرف مخاصمة المتكبرين ولا شتائمهم.

❖ لألتصق بك يا أيها الصديق العجيب.
بك أستر على ضعفات إخوتي،
وبك أسلك بأمانة، فلا أفشي أسرارهم.

❖ انزع عني ثوب الرياء المُخادِع،
وهب لي أن أرتدي برَّك يستر ضعفاتي!
لن ألقي حجرًا في الهواء، لئلا يسقط على رأسي.
ولا أحفر حفرة لأحدٍ، لئلا أسقط فيها.
لا أضمر شرًّا لأحدٍ، لئلا يحلّ بي!
لا أشمت بسقوط أحدٍ في الفخ، ولا أُسرّ بموت إنسانٍ شريرٍ!
بل ليستقر الحب في أحشائي، في قلبي وفكري.
لِيَجْرِ الحُبّ في دمي نحو كل البشر!
لأختبر عربون السماء، فلا أعرف الحقد ولا الغضب.
حَرّرني من كل خطية وحَرّر كل إخوتي،
فأختبر فرح الروح مع كل مؤمنٍ!

الأصحاح الثامن والعشرون

حُبّ الانتقام والخصام

بعد أن تحدَّث بن سيراخ عن "بعض الخطايا الخطيرة وثمارها المُرَّة"، يحدثنا عن "حُبّ الانتقام والخصام" كخطية لا تليق بصورة الله فينا التي هي الحُبّ والرحمة.

١. حُبّ الانتقام [١].
٢. إظهار الرحمة [٢-٧].
٣. التوقُّف عن الخصام والحديث الشرير [٨-١٢].
٤. النميمة واللسان الشرير [١٣-٢٦].

١. حب الانتقام

الانتقام من أول الخطايا التي مارسها الإنسان (تك ٤: ١٤-١٥، ٢٣-٢٤). بدأ سيراخ بملاحظة أن الذين يطلبون الانتقام من إخوتهم، يُطالِبون هم أنفسهم عما ارتكبوه من أخطاء وخطايا. قيل لقايين: "كل من قتل قايين، فسبعة أضعاف يُنتقَم منه" (تك ٤: ١٥).

من يطلب الانتقام يُدرِكه انتقام الربّ،
الذي بالتأكيد سُيعاقِبه على خطاياه [١].

سَجَّل لنا سفر التثنية نفس المفهوم: "لي النقمة والجزاء، في وقت تزل أقدامهم. إن يوم هلاكهم قريب وما هُيئ لهم مسرع" (تث ٣٢: ٣٥)، وأكد الرسول بولس ذلك: "لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء، بل أعطوا مكانًا للغضب، لأنه مكتوب: لي النقمة أنا أجازي يقول الربّ" (رو ١٢: ١٩).

يقف القديس باسيليوس الكبير في دهشة وهو يتطلَّع إلى الإنسان وهو في حالة هياجه. إذ يفقد سماته الطبيعية كإنسانٍ، وتتغيَّر حتى ملامحه، ويصير أشبه بإنسانٍ آخر.

تُرَى هل تحوَّل الإنسان إلى وحشٍ، أو دخله شيطان فغيَّر كل كيانه؟!

❖ من يقدر أن يصف بدقة مثل هذا الشرّ؟! كيف أن سريعي الغضب، ما أن تتملكهم ذريعة بالصدفة، حتى يصرخوا ويصيحوا ويهاجموا في خزيٍ لا يقل عن خزي البهيمة أو الوحش الذي ينفث سمًا! مثل هذا الشخص لا يوقفه شيء حتى يقع أذى ضخم لا يمكن علاجه، وكأن فقاعة من غضب تنفجر وتغلي، تصب جامات مُلتهِبة بلا هوادة. ليس حد سيف ولا نار، ولا أي شيء آخر مُروِّع يمكنه أن يوقف ويحجز نفسًا مندفعة في جنون بالغضب.

لا يقدر أحد على إيقاف الممسوسين من الشياطين، هكذا لا يختلف الغَضْبى عنهم، لا في المظهر ولا في ميول نفوسهم.

لأن الذين يتوقون إلى الانتقام يغلي الدم في قلوبهم، وكأنه يتأجَّج وينفث كما من نارٍ مشتعلةٍ هائجةٍ. ينفجرون ويظهر غضبهم للعيان، **فيبدو الإنسان الغاضب مختلفًا عن الإنسان المألوف للجميع، والذي اعتاد عليه الكل**، وكأنه وضع على وجهه قناع كالذي يرتديه من يقف على مسرح. والقريبون منه لا يرون في عينيه تلك التعبيرات المعتادة، لكن تبدو في نظرته علامات الجنون، وتتوقَّد في عينيه النيران. ويسن أسنانه كخنزير برّي يخرج إلى القتال. يحتقن وجهه ويمتلئ بالدماء، ينتفخ جسمه ويثقل، وتنفجر أوعيته الدموية. تتسارع أنفاسه في وحشية، وكأن في داخله عاصفة تثور. صوته يعلو ويتهدج ويبلغ أقسى درجات الارتفاع، ولا يفهم أحد ماذا يقول، يتدفق بلا هوادة، يتسارع بلا ترتيبٍ ولا منطق وبغير وضوحٍ[1].

القدِّيس باسيليوس الكبير

٢. اظهار الرحمة

اغفر لقريبك الظلم الذي مارسه،

فتُمحَى خطاياك متى صلّيت [٢].

لا يطلب ابن سيراخ من الحكيم عدم الانتقام فقط، بل يلزمه أن يغفر لمن عمل على أذيته، فيسمع له الله ويغفر خطاياه [٢]. وكما يُعَلِّمنا السيد المسيح أن نُصَلِّي: "اغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا" (مت ٦: ١٢). يُعَلِّق السيد المسيح على هذه الصلاة: "إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضًا أبوكم السماوي؛ وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضًا زلاتكم" (مت ٦: ١٥). أوضح السيد المسيح هذا المبدأ بِمَثَلِ العبد غير الغافر لزميله (مت ١٨: ٢٣-٢٥).

حقًا الله الكلي الحب والرحمة يشتاق أن يغفر لنا خطايانا، لكن إذ لا نغفر نحن لإخوتنا لن ننعم بالحب الإلهي. إصرارنا على الانتقام من المقاومين لنا يحجب عنا التمتُّع بروح الحُبّ والتواضع، وبالتالي نُحرَم من قبول مراحم الله علينا.

❖ يلزم ألا يغضب (المؤمن) على قريبه بلا سببٍ، ولا يتبنَّى السخط ضد أحدٍ، ولا يردّ الشر بالشر. يليق به أن يُشتَم لا أن يَشْتِم، ويُضرَب عن أن يضرب، ويُسَاء إليه عن أن يخطئ، وأن يُسلَب

---

[1] *Against Those Who Are Prone to Anger*. ترجمة د. جرجس كامل يوسف

عن أن يَنهِب[1].

القدِّيس باسيليوس الكبير

أيحتفظ الإنسان بالحقد على قريبه،

ثم يلتمس من الربّ الشفاء؟ [٣]

من يحتفظ بالحقد يُصَاب بمرضٍ خطيرٍ يحرمه من الشفاء من خطاياه.

❖ يُفَضِّل الله الحُبّ فوق كل شيءٍ. كما في صنع الثوب الملوكي الأرجواني الأزهار والصبغة التي يُصنَع منها لون الثوب تحسب أثمن شيءٍ، هكذا لا شيء يُدعم الحب مثل عدم تذكُّرنا أخطاء المقاومين لنا... إنه لأمر حلو أن نحب شخصًا أخطأ إلينا عن أن نبغضه[2].

❖ لماذا نتمثَّل بالمجانين، يفترس كل واحدٍ الآخر، نُحارِب أجسادنا؟ اسمع ما يقوله العهد القديم، كيف يهتم جدًا بهذا الأمر: "طرق المنتقمين تؤدي إلى الموت" (راجع أم ١٢: ٢٨ *LXX*). "أيحقد إنسان على إنسانٍ، ثم يلتمس من الرب الشفاء؟ " (راجع سي ٢٨: ٣)[3]

❖ لا تكن غضوبًا مع أحدٍ، ولا تحمل حقدًا، مُسامِحًا كل تعدياتهم. فقد قيل: "أيحقد إنسان على إنسانٍ ثم يلتمس من الرب الشفاء" (راجع سي ٢٨: ٣). "اغفروا يُغفَر لكم" (مر ١١: ٢٥)[4].

القديس يوحنا الذهبي الفم

هل يمكن ألا يرحم إنسانًا مثله،

ثم يسأل لنفسه الرحمة من الله؟ [٤]

في مثل السيد المسيح الذي يعلن فيه عن السقوط العام للطبيعة البشرية (مت ١٨: ٢٣-٣٥) يدعونا للترفُّق بالساقطين، فيترفَّق الله بنا.

إن أمسك الغضب باستمرار وهو بشر،

فمن سيُكَفِّر عن خطاياه؟ [٥]

❖ من اللائق ومن المُكرَّم جدًا أن يمارس الإنسان المسيحية، فلا يطلب دم (زوجته) الزانية، نقتبس

---

[1] *A Discours on Ascetical Discipline, (Frs. Of the Church, volume 9, p. 34-35).*

[2] *Homilies on Matthew 79.*

[3] *Homilies on Matthew, 68: 5.*

[4] *Homilies On Heb. 9: 8*

له المكتوب: "اغفر لقريبك ظلمه، فإذا صليت تُمحَى خطاياك. أيحقد الإنسان على آخر، ثم يلتمس من الربّ الشفاء؟ أم لا يرحم إنسانًا مثله، ثم يصلي لأجل غفران خطاياه؟ إن أمسك الحقد وهو بشر، فمن يكفر خطاياه" (راجع سي ٢٨: ٢-٥). بهذا يمكننا القول: "اغفر لنا ما علينا كما نغفر نحن لمن لنا عليهم" (مت ٦: ١٢). وجاء في الرسول: "لا تجازوا أحدًا عن شرٍ بشرٍ" (رو ١٢: ١٧)[1].

القديس أغسطينوس

اذكر نهاية حياتك، وكُفَّ عن العداوة،

واذكر الهلاك والموت، واثبت على الوصايا [٦].

الطريق العملي لتهدئة النفس من الرغبة في الانتقام هو تذكُّر الموت ويوم الدينونة. يحثنا الكتاب المقدس وآباء الكنيسة أن نتأمل في يوم رحيلنا ولقائنا مع المسيح في يوم الدينونة العظيم.

❖ جيد هو تذكُّر الموت (سي ٢٨: ٦؛ ٤١: ١)، لكي يعرف الإنسان أنه مائت، ويدرك أن المائت ليس أبديًا. فإن من هو ليس أبديًا بالتأكيد سيترك هذا الدهر، ولو بغير اختياره. لذلك بالتذكُّر الدائم للموت يتعلَّم الإنسان أن يفعل الصلاح بإرادته الحُرَّة.

القديسان برصنوفيوس ويوحنا

اذكر الوصايا، ولا تبثّ غضبك على قريبك،

تذكَّر ميثاق العليّ، وأغفل الأخطاء [٧].

يليق بالمؤمن خلال محبته لخلاص كل البشرية كإخوة له، أن يتطلَّع إلى من يُسيء إليه كمريضٍ يحتاج إلى الحُبِّ والحنو واللطف والهدوء كأدوية لمساندته على خلاص نفسه. بنفس الروح يدعونا **القديس أغسطينوس** إلى التطلُّع نحو من يُسيء إلينا كابنٍ صغير مُصَاب بحمّى، نترفَّق به ولا نتضايق منه، بل نحتضنه حتى يُشفَى منها.

❖ يجب أن يُعامَل فاعل الشر كما بواسطة طبيب الذي لا يغضب على المريض، وإنما يحارب المرض. هكذا تُهاجَم الرذيلة، ويُصلح من ضعف النفس... كمثال يُصلَح الكبرياء بالمطالبة بممارسة التواضع. والكلام الباطل بالصمت، والكسل بالعمل، والشراهة بالامتناع عن الطعام، والتذمُّر بالاعتزال من جماعة الإخوة[2].

---

[1] *Treatises on Marriages ..., FOTC, vol. 27, p.120-122.*

[2] *Reg. Fus. 51.*

٣. التوقُّف عن الخصام والحديث الشرير

تجنَّب المخاصمة، فتُقَلِّل خطاياك،

فالإنسان العنيف الطبع يلهب المخاصمة [٨].

❖ اطرد ظلمة الغضوب الذي تراه **بِصَمْتِك**، وتعود تقتني الفرح في قلبك، والسلام في الإخوة والأخوات الذين يشبهونك في الفكر، والغيرة والاهتمام بحفظ كنائس الرب[١].

❖ لا تُعالِجوا الشر بالشر، ولا تحاولوا أن يغلب بعضكم البعض، في مثل هذه الأمور. لأنه في التناحر على الفوز بالغلبة بالشر، يكون الغالب دائمًا شقيًا بائسًا، إذ يرحل ومعه خطيته الأعظم. لهذا لا يصبح ذاك الذي يجازي عن شرٍ بشرٍ كاملاً... أَوْقِف الشر بالصمت! لكنك حين تستقبل في قلبك عاصفة غضب هذا الشخص، تقتدي بالريح، فتضرب ما لفحك بضربة مضادة. لا تستخدم عدوك كمعلمٍ، فيما تكرهه! لا تحاكيه في ذلك. لا تكن إن جاز التعبير، مرآة للمندفع بالغضب، مظهرًا نفس الشكل في داخلك مثله.

لقد احمَّر لونه؛ أتريد لونك يشبه لون الخمر؟ عيناه حمراوان كجمر النار[٢].

❖ العفيف في الرغبة في الكرامة هو أيضًا متواضع. والعفيف في الغِنَى قانع، ويحقق قياس الإنجيل في الفقر. **الذي يتحكَّم في السخط والغضب هو لطيف.** بالحق ملاحظة العفة الحقيقية تضبط اللسان، وتضع حدًا للعينين، وتطهر الأذنين من سماع النميمة بحُبّ استطلاع. أما من لا يحفظ هذا كله فإنه ليس بعفيفٍ بل جامح[٣].

❖ من يستخدم ذكاءه ومهارته في تدمير الغير فهو شرير؛ أما من يعمل بذكاءٍ وفي حزمٍ لتجنُّب الأضرار التي يخزنها له الغير فهو يتعرَّف على ما هو لصلاحه بحكمة، مقتنيًا التعقُّل الممدوح.

أصغِ باجتهاد إلى صوت النفس المُتعقِّلة، فستعرف أن بها مركز يستخدم التعقُّل لتقديم مشورة صحية لنفسها كما لقريبها، وهذا أمر ممدوح[٤].

---

[1] *Letter 65 to Atorbius.*

[2] *Against Those Who Are Prone to Anger.* ترجمة د. جرجس كامل يوسف

[3] *Reg. Fus. 16:3.*

[4] *Homily On The Beginning Of Proverbs, 11*

الرجل الخاطئ يُضايق أصدقاءه،
ويبث التنافر بين المُسالِمين [٩].

تضطرم النار حسب كمية الخشب، هكذا أيضًا تضطرم النار حسب عناد المخاصمة[١].
وبحسب قوة الإنسان يكون غضبه، وبحسب غناه يزداد سخطه [١٠].

❖ الإنسان الذي يقيم سلامًا مع آخر للحال بعدما يكون قد ثار ضده، يعالج غضبه لكنه لا يعالج حقده، لذلك فانه يبقى مستاءً من أخيه. لأن **الغضب شيء، والحقد شيء آخر، والتهيج (الثورة) شيء ثالث، والاضطراب شيء آخر.**

ولكي تفهم الأمر بوضوح أكثر، أعطيك مثالاً: لكي يشعل الإنسان نارًا يأخذ قطعة من الفحم، وهذه هي الكلمة التي أساء بها أخوك إليك، إن احتملتها تكون قد أطفأت الفحم. ولكن إن فكرت: "لماذا يقول لي هذا ذلك القول؟ إنني أيضًا أرد عليه قائلاً كذا وكذا. إنه لو لم يقصد الإساءة إليَّ ما كان قد قال لي هذا. لذلك يجب عليّ أن أرد الإساءة بالمثل". بهذا التفكير تضع بعض الوقود أو ما أشبهه لتبدأ النار. وبذلك ينتج دخانًا الذي هو **الاضطراب.** والاضطراب هو حركة في الأفكار وتقليب لها، تثير القلب وتهيجه.

أما **التهيج** فهو عمل انتقامي ضد من أساء إليك. وهذا يبعث نحو الجسارة. وقد قال القديس مرقس: "**سوء النية إذ تغذّيها الأفكار، تهيج القلب، ولكن الصلاة تقتلها**".

مع أنك لو احتملت تلك الكلمات الصغيرة التي نطق بها أخوك، لأطفأت قطعة الفحم الصغيرة قبل أن تنتج اضطرابًا. ومع هذا فإنك **إن أردت تقدر أن تطفئ حتى الاضطراب في بدايته بالصمت والصلاة، بل وبمجرد انحناءه من القلب.** أما إذا داومت في التدخين، أي تهيج القلب وإثارته بالأفكار القائلة: "لماذا فعل بي كذا؟.. وأنا أيضًا أَردّ له المثل، فإنه بهذا يشتعل القلب ويتولَّد التهاب التهيج. **وإن أردت أيضًا تقدر أن تطفئ حتى التهيج قبل أن يبلغ إلى الغضب.**

لكن إن داومت على إثارة نفسك وتهيجها، فإنك تكون كمن يضيف إلى النار وقودًا. وهكذا تنتج لهيبًا، الذي هو **الغضب.** والغضب إذا استمر يتحوَّل إلى **حقد،** الذي لا يقدر أن يتحرَّر منه الإنسان إلا ببذل دمه (أي عرقه وجهده وتعب نفسه)[٢].

الأب دوروثيؤس

---

[١] بحسب *NRSV*: وبحسب العناد يزداد الصراع.

[٢] توجيهات بخصوص التداريب الروحية، ٥٢.

❖ **سؤال: ما هو الفرق بين المرارة والسخط والغضب والصياح (أف ٤: ٣١؛ مز ٥٨: ٥)؟**

الإجابة: الفارق بين السخط والغضب أظن أنه في النزعة والدافع، حيث أن ألم أحدهما الذي يثير الغضب يمتد فقط إلى النزعة (أو الميل)، كما يُظهر بوضوح القائل: "اغضبوا ولا تخطئوا" (مز ٤: ٥؛ أف ٤: ٢٦). أما **الإنسان الساخط، فيمتد دافعه، إذ قيل عن الساخط إنه كالحية** (مز ٥٨: ٥). فقد كان هيرودس ساخطًا على صور وصيدا (أع ١٢: ٢٠). أما امتداد السخط فيبلغ إلى الصياح، فتُعلَن المرارة بتصميمٍ مُرعِبٍ للغاية مع حقدٍ في القلب متعمدٍ (أف ٤: ٣١)[1].

❖ الغضب **يتجاهل الإخوة بعضهم البعض**، وكذا **يتناسى الآباء والأبناء ما بينهم من رابطة طبيعية**. لأن الأشخاص الغضوبين يبدأون أولاً بتجاهُل أنفسهم، ثم يتجاهلون بالحقيقة كل أصدقائهم. مثلما تندفع السيول من أعلى الجبل فتجرف أمامها كل شيءٍ في الأودية يعترض طريقها، هكذا نوبات الغضب التي يصعب السيطرة عليها تجعلها تكتسح أمامها كل من يعترض طريقها. الذين يمتلكهم **السخط** لا يحترمون كبار السن، ولا يهتمون بحياة الصلاح، ولا تعنيهم صلة القرابة القوية، ولا الإحسانات التي قَدَّمها لهم أناس من قبل، ولا أي شيء آخر مُكَرَّم.

السخط نوع من جنون قصير الأمد. وغالبًا ما يؤذي الغَضْبى أنفسهم في اندفاعهم نحو الانتقام، غير مبالين بمصالحهم الشخصية. فما أن يتذكروا الذين أحزنوهم، يبدون كمن لدغهم ذباب الخيل في كل أنحاء جسمهم، فيثور سخطهم، ويقفز في داخلهم، ولا يهدأون حتى يفعلوا شيئًا يؤذي من أثارهم، وربما يتلقون هم أنفسهم الضرر، مثلما تتهشم أشياء بعنفٍ، فيصيبها تلف بالغ أكثر من التلف الذي قد تحدثه حين تصطدم بأشياء صلبة[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

النزاع عن تسرُّعٍ يُضرِم النار،
والمخاصمة بحماسٍ تسفك الدم [١١].

إذا نفخت في شرارة اضطرمت، لكن إذا بصقت عليها انطفأت،
وكلاهما يصدران من فمك [١٢].

من لا يهرب من جو المخاصمة، يزداد قلبه لهيبًا نحو الانتقام. هذا وتضطرم نيران الغضب في لسانه، فيبدأ بالكلام العنيف كشرارة لا نعرف إلى أي مدى تلهب نيران النقمة (يع ٣: ٥-٦).

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 55.*

[2] *Against Those Who Are Prone to Anger.* ترجمة د. جرجس كامل يوسف

يُقَدِّم لنا القديس باسيليوس دورة الغضب؛ إذ كثيرًا ما تتحوَّل مشاعر الغضب الداخلية إلى صراعٍ وشجارٍ، والشجار يُوَلِّد أخطاء، والأخطاء تدفع إلى الضرب، والضرب يُسَبِّب جراحات، والجراحات قد تدفع إلى الموت. توقُّف الغضب في مراحله الأولى المُبَكِّرة أسهل بكثير من توقُّفه في مراحله المتأخرة.

كيف تُوقِف الغضب في بدء مراحله؟ تَذَكَّر أن ما يهينك به شخص ما في الواقع ليس إهانة، لأن إبراهيم أب الآباء، قال عن نفسه إنه تراب ورماد، وداود حسب نفسه دودة لا إنسانٍ. لنتشبَّه بموسى الذي أساء إليه هرون ومريم، فعِوض التفكير في الإهانة التي لحقت به، صلَّى لأجلهما.

❖ أخبرني، هل يبدو الهدوء على محيّاك؟ صوته متهدج، فهل صوتك أنت رقيق؟

فإن صدى الصوت في الصحراء لا يكون مثلما يفعل من يرد على المسيء إليه. بالعكس فإن الصدى لا يرد إلا على الكلمة بكلمة مثلها، بينما الذي يصارع الآخر يرد عليه بكلمات أخرى إضافية. لأنه ما هي طبيعة الكلام الذي يقوله المتشاحنون سويًا؟ يقول أحدهما للآخر إنه شخص تافه ابن تافه، فيرد عليه الآخر أنه عبد ابن عبد.

يقول أحدهما: إنه عامل مسكين، فيقول الآخر: يا متشرد!

يقول واحد: يا أحمق، فيرد الآخر يا مجنون.

وهكذا يتبادلون الإساءات فيما بينهما كالسهام المرتدة. هذه هي شتائم اللسان التي تتسارع، ثم لا يلبث أن يحل بينهما الانتقام من خلال الأفعال. لأن السخط يولد الصراع والشجار، والشجار يولد الخطأ، والخطأ يولد ضربات، والضربات تولد جراحات، والجراحات غالبًا ما تؤدي إلى الوفاة.

هكذا فلنوقف الشر منذ البداية مبكرًا جدًا! لنزيل الغضب من نفوسنا، بكل جهدٍ ممكن. بهذا نستطيع أن نستأصل الكثير من الشرور مع الأهواء، فالشر نوع من الجذور، ونوع من المنابع[1]

❖ هل بصق عليك، واعتبرك نكرة؟ تَقَبَّل هذا الفكر عنه، أنك مأخوذ من تراب الأرض، وأنك إلى الأرض والتراب تعود (تك ٣: ١٩). من يُطَبِّق هذا الفكر على نفسه أصلاً ومن قلبه، يجد أن كل تحقيرٍ له هو أقل من الحقيقة. بهذا لا تعطي لعدوك أية فرصة للانتقام، فتُظهِر له أنك لا تعصف بك الإساءة. فتثمر لنفسك إكليلاً عظيمًا للمثابرة، جاعلاً جنون الآخر نقطة البدء لحكمتك. لهذا إن كنت تنصت إلى غضبه، فستضيف بإرادتك مزيدًا من الإهانات لذاتك...

هل يدعوك أحمق ومتسوِّلاً لا تستحق شيئًا؟ قل إنك أنت نفسك "دودة" (مز ٢٢: ٦)، ومولود من حمأة "كومة روث"، مثلما قال داود[2].

---

[1] *Against Those Who Are Prone to Anger*. ترجمة د. جرجس كامل يوسف

[2] *Against Those Who Are Prone to Anger*. ترجمة د. جرجس كامل يوسف

٤. النميمة واللسان الشرير

الغضب يُفقِد السيطرة على الإرادة وعلى الحواس والجسد، خاصة اللسان. متى ثار في الفكر أو القلب يُفقِد الإنسان سيطرته على لسانه، فينطق أحاديث بلا ضابطٍ، وتثور أعضاء جسمه بروح العنف، ويحمل في داخله حركات السخرية والعنف الجسماني، وهكذا يتولَّد من الغضب والسخط أعمال شريرة غير محصاة! في اختصار يُفقِد الغضب الحرية ويُقِيم من نفسه أَمة (عبدة) بلا سلطان!

❖ الغضب يجعل الألسنة مطلقة العنان، والأحاديث بلا ضابطٍ. كذلك العنف الجسماني وتصرُّفات الاستهزاء والسب والاتهامات والضرب وغير ذلك من الأعمال الشريرة غير المحصية تُولَد من الغضب والسخط[1].

❖ بسبب الغضب **لا تُلجَم الألسنة**، ولا تُخرَس الشفاه، ولا تُقيَّد الأيدي، بل يتولَّد من الغضب وأهوائه ومن السخط ومشاعره ما لا يُعَد ولا يُحصَى من هياج وثورات وتوبيخات ونميمة وضربات وأمور أخرى بلا حصر. بالسخط أيضًا يُسَنُّ حد السيف، فتتجرأ يد الإنسان على قتل إنسانٍ[2].

القدّيس باسيليوس الكبير

اِلعنوا الإنسان النمام والمُخادِع،

فإنه يُهلِك كثيرين من المُسالِمين [١٣].

عدم ضبط اللسان يشعل بالأكثر الشرارة. فقد تحطَّمت كثير من الأمم تمامًا بسبب شرارة صغيرة صدرت عن لسانٍ غير مضبوط.

النميمة تزعزع الكثيرين وتُشَتِّتهم من أُمّة إلى أُمّة،

وتهدم مدنًا مُحَصَّنة، وتقلب بيوت العظماء [١٤].

❖ الحسد جرثومة وأصل الشرور، فمنه ينبعث القتل والبغضة والنميمة والسلب واشتهاء ضرر الغير وما أشبه ذلك. فمن منكم لا يعرف أنه بالحسد يتشبَّه إبليس الذي بحسده دخل الموت إلى العالم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

النميمة تطرد نساء فاضلات،

---

[1] *Sermons 10 FC 86, P. 74.*

[2] *Against Those Who Are Prone to Anger*. ترجمة د. جرجس كامل يوسف

وتسلبهن ثمار أعمالهن [١٥].

أحشويرش الملك سمع لنميمة السكرى، فطرد الملكة وشتي الفاضلة (إس ١: ١٧).

من يُكَرِّس نفسه للنميمة لا يجد راحة،

ولا يسكن مطمئنًا [١٦].

❖ يا تُرَى، ما معنى أن ننقطع عن أكل اللحم، ونحن لا ننقطع عن أكل لحم قريبنا بالنميمة والغيبة؟ وما معنى أن نصوم عن الأكل، ونحن لا ننقطع عن الأفكار الرديئة والزنا والحقد والبغض؟

احذر أن تصوم فقط عن اللحم وتفتكر أن هذا هو ما يُطلَب منك. الصوم الحقيقي هو الامتناع عن كل رذيلة: "ابعدوا عن كل إثم" (إش ٨: ٥)، وهو مغفرة كل إساءة للقريب؛ هو ترك الديون للمحتاجين: لا تصوموا لكي تخاصموا، وتترافعوا لدى المحاكم[1].

القديس باسيليوس الكبير

❖ ألعلنا نستطيع أن نجد إنسانًا آخر مثل بولس الرسول يمكنه أن يقول: **"لي اشتهاء أن أنطلق، وأكون مع المسيح"** (في ١: ٢٣)؟

من جهتي لن أستطيع أن أقول مثل بولس، لأنني أعرف إنني إذا انطلقت فإن كل ما هو خشب وعشب وقش (١ كو ٣: ١٢) فيَّ يجب أن يُحرَق. هذا الخشب الموجود فيَّ هو النميمة، والإفراط في الشرب والسرقات وغيرها من الأخشاب التي تراكمت على الأساس الموجود في بيتي. كل ذلك يغيب عن كثير من المؤمنين، كل واحد منا يظن أنه طالما لم يزنِ ولم يرتكب الفحشاء يخلص؛ ولا ندرك أنه "لابد أننا جميعًا نظهر أمام كرسي المسيح، لينال كل واحدٍ ما كان بالجسد، بحسب ما صنع، خيرًا كان أم شرًا" (٢ كو ٥: ١٠). ولا نضع أمامنا الذي قال: "إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض. لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم" (عا ٣: ٢)، ليس على بعض ذنوبكم، والبعض الآخر لا أعاقبكم عليها[2].

العلامة أوريجينوس

ضربة السوط تُسَبِّب جرحًا،

وضربة اللسان تكسر العظام [١٧].

يظن البعض أن الكلمات لا تُسَبِّب لهم ضررًا، لكن الخبرة العملية تكشف عن مدى خطورة عدم

---

[1] راجع الأب الياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٢٩٠.

[2] *Homilies on Jeremiah. Homily 20:3.*

ضبط اللسان، إذ حطَّم أناسًا وعائلات وأممًا.

كثيرون يسقطون بحدّ السيف،

لكنهم ليسوا بذات الكثرة كالساقطين بسبب اللسان [١٨].

❖ إن استطعنا أن نرى كيف جُرِح إنساننا الداخلي بكل خطية!... ألم تقرأ: السيوف تجرح، ولكن ليس كما يجرح اللسان [١٨]. لذلك فإن النفس تُجرَح باللسان، كما أيضًا بالأفكار الشريرة والشهوات الرديئة، إذ تنكسر وتتحطَّم بأعمال الخطية. إن كنا قادرين أن نرى كل هذه الأمور وندرك ندبات النفس المجروحة، بالتأكيد سنقاوم الخطية حتى الموت.

على أي الأحوال كما أن الذين يعانون من الهذيان وفقدان رشدهم لا يشعرون أنهم مجروحون، لأنهم فقدوا أحاسيسهم الطبيعية. هكذا لا نستطيع أن نشعر بخطورة جراحاتنا ومدى بؤس النفس الذي تُسَبِّبه الخطية، إن أُصبنا بجنون محبة اللذَّات العالمية والسُكْرِ بالرذيلة[1].

الأب قيصريوس أسقف آرل

طوبى للإنسان الذي يحتمي منه، ولا يتعرَّض لغضب اللسان،

ولا يجُرّ نيره، ولا يوثق بقيوده [١٩].

فإن نيره نير من حديد،

وقيوده قيود من نحاس [٢٠].

الموت به موت شرير،

والهاوية خير منه [٢١].

لا يتسلَّط اللسان الشرير على الأتقياء،

ولا يحترقون هُمْ بلهيبه [٢٢].

التقوى أو مخافة الربّ تُخَلِّص الإنسان من نير اللسان وعبوديته [٢٢-٢٦]. إن لم يسيطر الإنسان على لسانه، فاللسان يسيطر عليه؛ أو من لا يستعبد لسانه، لسانه يستعبده.

الذين يتركون الربّ يسقطون تحت سلطانه، فيشتعل بينهم ولا ينطفئ.

يُطلَق عليهم كالأسد، ويفترسهم كالنمر [٢٣].

كما أن المُزارِع يحفظ ملكيته بسياج، هكذا يليق بالحكيم أن يحفظ لسانه من القذف. الأشخاص

---

[1] *Sermons, vol. 2, p.136-138.*

غير المبالين الذين يزلُّون بواسطة ألسنتهم، يسقطون ضحية للمُتفرِّجين (أم ١٣: ٣؛ ٢١: ٢٣).

انظر، سيِّج ممتلكاتك بالشوك،

وأغلق على فضتك وذهبك [٢٤].

في كل صباحٍ يطلب المؤمن: "ضع يا ربّ حارسًا لفمي، احفظ شفتي" (راجع مز ١٤١: ٣).

❖ أيها الأخ المحبوب أندراوس، أنصت: إنّ الذين ينالون عملات خالصة نقية من الملك، إذا حافظوا عليها بغيرةٍ واهتمامٍ تحتفظ ببريقها ونظافتها. ولكنهم إذا لم يعتنوا بها، فهي لا تتلوث فحسب، بل ربما تضيع أيضًا. لهذا السبب قال أحد الحكماء: "صرَّ ذهبك وفضتك" (راجع سي ٢٨: ٢٤).

إنني أقول لك لا أن تربطها بإيمانٍ غير متردِّدٍ فحسب، بل أيضًا أن تختمها بالتواضع وطول الأناة مع الصبر الذي به مَنْ يحتمل يخلص. إنني أقول لك أمرًا جريئًا بالله الذي يسمح لي بذلك: الرب يسوع الوسيط العظيم ابن الآب المُبارَك مُعطِي الروح القدس المحيي يخبرك بواسطتي أنا آخر الكل: "خطاياك الكثيرة مغفورةٌ لك" (لو ٥: ٢٠؛ ٧: ٤٨)، خطاياك منذ ولادتك حتى الآن! بقبولكم هذا الفرح العظيم الذي لا يُعبَّر عنه، تحبونه بكل قدرتكم، مُقَدِّمين ثمرًا يليق بالتوبة (مت ٣: ٨)[1].

القديسان برصنوفيوس ويوحنا

❖ ليت كل واحد يُرَحِّب بالصوم بحماسٍ بكونه أم لكل تقديس وإماتة وخضوع الجسد (١ كو ٩: ٢٧)، ويختار التعهُّد بهذا العمل: يسيج ممتلكاته بالشوك [٢٤]، كما يقول أحد حكمائنا[2].

البابا كيرلس الكبير

❖ أيها الإخوة الأحباء، نتحاشى بشجاعة ونتجنَّب كلمات الذين ينتشر كلامهم كآكلة (٢ تي ٢: ١٧)، وكما يقول الرسول: "المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة" (١ كو ١٤: ٣٣). هكذا يُحَذِّرنا (الحكيم): سَيِّج أذانك بالشوك، ولا تسمع اللسان الشرير [٢٤][3].

الشهيد كبريانوس

❖ لمن كُتِب: "سيج ملكك بالشوك، وصُر فضتك وذهبك. واجعل لكلامك ميزانًا ومعيارًا، ولفمك بابًا ومزلاجًا" [٢٤-٢٥]؟

---

[1] *Book of Letters 115.*

[2] *Festal Letters, FOTC, vol. 118, p.103-104.*

[3] *Letters, FOTC, vol. 51, p.191-193.*

ملكك هو عقلك، وذهبك هو قلبك، وفضتك هي حديثك. "كلام الرب نقي كفضة مصفاة في بوطة (بالنار)" (مز ١٢: ٦). العقل الصالح ممتلكات صالحة. وبالتالي فإن الحياة الداخلية النقية هي ممتلكات ذات قيمة. سيِّج هذه الممتلكات إذن بالفكر، احفظه بالشوك، أي بالرعاية التقية، لئلا تندفع عليه أهواء الجسد المفترسة وتسبيها، وتهاجمها العواطف العنيفة، وتتعدَّى على حدودها وتحمل كرومها.

احفظ حياتك الداخلية. لا تهملها، ولا تستخفّ بها، كأنها تافهة، فإنها ممتلكات قيِّمة. بالحقيقة هي ثمينة، ثمارها لا تفسد فقط إلى حين، لكنها تبقى لكي تستخدم للخلاص الأبدي[1].

❖ اربط كلماتك لئلا تجري في طيش وتصير مُتسيِّبة، فترجع خطايا بكثرة الكلام. لتضيق عليها فترجع إلى حدودها. فالنهر الذي يفيض يجمع بسرعة وحلاً... رزانة العقل له لجام يلجمه، يقوده ويُوَجِّهه[2].

القديس أمبروسيوس

اجعل لكلامك ميزانًا ومعيارًا،
ولفمك بابًا ومزلاجًا [٢٥].

يرى **الشهيد كبريانوس** أن المؤمن يسيج أذنيه من سموم الهراطقة، بانسحابه من الذين هربوا من الكنيسة. أما الرسول فيأمرنا: "ثم نوصيكم أيها الإخوة باسم ربنا يسوع المسيح أن تتجنبوا كل أخٍ يسلك بلا ترتيبٍ. وليس حسب التقليد الذي أخذه منا" (٢ تس ٣: ٦). إذ لا يمكن أن توجد شركة بين الإيمان والعدو.

من كان ليس مع المسيح، فهو ضد للمسيح، وهو عدو لوحدته وسلامه، ولا يستطيع أن يتحد معنا. إن جاءوا بالصلوات والإصلاح فليُسمَع لهم. وإن هاجموا باللعنات والتهديدات يُرفضَوا[3].

❖ واضح أننا نُدَنِّس أنفسنا عندما نتحدث بكل ما يمر على فكرنا ونتكلم عن أمورٍ يلزم ألاَّ نناقشها، فتصير مصدر خطايا، بالرغم من معرفتنا أنه يليق بشفاهنا أن تُغلَق بفهمٍ (أم ١٥: ٧)، ويليق بنا أن نجعل لكلامنا ميزانًا ومعيارًا [٢٥][4].

العلامة أوريجينوس

---

[1] *Duties Of The Clergy, Book 1, Ch. 3:11.*

[2] *Duties Of The Clergy, Book 1, Ch. 3:12.*

[3] *St. Cyprian the Martyr, Letters 44, FOTC, vol. 51, p. 171-193.*

[4] *Commentary on Matthew 11: 12.*

❖ "اغلق بابك" (إش ٢٦: ٢٠) في وجه العدو. "زِنْ كلماتك بالميزان، واجعل لبابك مزلاجًا" (راجع سي ٢٨: ٢٥). أنت تعلم كيف أُكَلِّمك، فافهم الأمور التي أقولها. كِدّ لكي تُحكِمها، وأنت تجد الكنوز المخبّأة فيها بحسب الله، وأعطِ فيها ثمرًا يليق بالله، ولا تُخزِ شيبتي، إذ أُصلِّي لأجلك نهارًا وليلاً. لعل الله يعطيك أن تفهم وأن تعمل بمخافته، آمين[١].

❖ لتعبر من هذا العالم، لتصعد الآن إلى الصليب؛ ارتفع عن الأرض، انفض التراب عن قدميك (مت ١٠: ١٤)، استهن بالخزي (عب ١٢: ٢). لا تشترك مع الكلدانيين في إشعال نيران الأتون حتى لا تحترق معهم (دا ٣: ٢٣) بواسطة غضب الله. لتحسب كل شخصٍ أفضل منك (في ٢: ٣)، **ابك على ميتك** (سي ٢٢: ١١).. اربط كلماتك بإحكام في النير، واصنع لبابك مزلاجًا (راجع سي ٢٨: ٢٥)[٢].

القديسان برصنوفيوس ويوحنا

❖ ضع بابًا ومزلاجًا على الفم (راجع سي ٢٨: ٢٥). لأن شرورًا بلا حصرٍ تصدر عن الثرثرة، العائلات تُهدَم، والصداقات تُمزق، ومآسي لا حصر لها تحدث. لا تشغل نفسك يا إنسان بأمور قريبك. لكنك أنت كثير الكلام، وبك ضعف. تحدث عن أخطائك أمام الله. هكذا يتحوَّل الضعف إلى عدم ضعف، بل وإلى نفع. تحدَّث عن ضعفاتك لأصدقائك الذين هم بحق أصدقاء وأتقياء، وتثق فيهم، حتى يُصَلُّوا من أجل خطاياك. إن تحدَّثت عن أخطاء الآخرين، فلن تنتفع شيئًا، ولا تقتني شيئًا، بل تُدَمِّر نفسك[٣].

❖ لنطلب معونته لكي نتمم اجتهادنا بالعمل، ونحفظ فمنا جاعلين مزلاجًا لعقلنا، لا يكون مُغلَقًا دائمًا، بل ليُفتَح في الوقت الملائم... لذلك يقول الحكيم سليمان: "للسكوت وقت، وللتكلم وقت" (جا ٣: ٣). لو كان واجبًا أن يُفتَح الفم دائمًا لما لزم له وجود باب، ولو كان واجبًا أن يغلق دائمًا لما لزمت له حراسة. فالباب والحراسة لكي يعمل كل شيءٍ في وقته. يقول آخر: "اجعل لكلامك ميزانًا ومعيارًا" (راجع سي ٢٨: ٢٩)، أي أن نلفظ كلامنا باحتراس وازنين إياه ومُفَكِّرين فيه[٤].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[١] فردوس الآباء، ج ٣، سؤال ٤٨، ص ٣١١.

[2] *Letters, FOTC, vol. 113, p.63-64.*

[3] *On Hebrews, Homily 21: 8.*

[٤] المطران أبيفانيوس، القديس يوحنا الذهبي الفم، ص ٣٩.

❖ ليكن لفمك باب يغلق، وعند الحاجة يرفع. ليغلق بإحكام حتى لا يستطيع أحد أن يثير صوتك للغضب، فترد الشتيمة بشتيمة[1].

القديس أمبروسيوس

واحذر أن تزل بلسانك،

لئلا تسقط فريسة أمام الكامن لك [٢٦].

طريق واحد لتجنُّب الخطايا، الهروب من النزاعات، لأن الإنسان المُحِب للخصام يُمَزِّق الصداقات (أم ١٥: ١٨؛ ١٦: ٢٨). المخاصمون يضعون وقودًا على النار (أم ٢٦: ٢٠-٢١؛ يع ٣: ٥-٦)، خاصة إن كانوا أغنياءً وأصحاب سلطان (٨: ٣-١؛ ١٣: ٢)، وقد تؤدي الخصومات إلى سفك دماء (٢٢: ٢٤؛ ٢٧: ١٥).

من وحي ابن سيرخ ٢٨

ردّ صورتك فيَّ!

❖ وهبت الإنسان الأول سلطانًا على كل الخليقة الأرضية،
لا ليستعرض جبروته، بل ليتمتَّع برعايتك له.
في عنادي فقدت الحب والحنو والرحمة، إذ زالت صورتك المقدسة من أعماقي.
عوض الحزن على ما أفسدته، سيطر حب الانتقام والتشامخ على مشاعري وإرادتي.
حُبّنا للانتقام يجعلنا أهلاً أن يُنتقَم منَّا!
بحُبّنا للانتقام نسلب عملك، إذ تقول: "لي النقمة أنا أُجازِي يقول الرب" (رو ١٢: ١٩).

❖ حَوِّل عينيّ عن تصرفات إخوتي، فأرى خطاياي، وأطلب الرحمة لهم ولي.
افتح قلبي للحب، فأستعذب الحنو على الساقطين.
أغضب على خطاياي وخطايا إخوتي ولا أغضب عليهم، فكلنا ننتظر رحمتك.
لأكره المرض لا المريض، فليس من إنسانٍ لا يتعرَّض للمرض.

❖ دَرِّبني أن أهرب من المخاصمة بالصمت المقدس. فيتهلل قلبي بعملك العجيب في الخطاة!
لينطلق قلبي من معارك العالم، ولينضمّ إلى خورُس السمائيين.

---

[1] *Duties Of The Clergy, Book 1, Ch. 3:13.*

عِوَض الدخول في منازعاتٍ وجدالٍ، بالحُبّ أطلب سلامًا وفرحًا ونعمةً لإخوتي ولي!
طَهِّرني بالتمام، فلا أُفسِد وقتي في المخاصمات، ولا أذنيّ في الاستماع للغضب.

❖ عِوَض إلقاء الوقود في نيران الغضب، هَبْ لي أن أسكب مياه الحُبّ واللطف والحنو.
لا تسمح للغضب أن يتحوَّل إلى حقدٍ، ولا الحقد إلى تهيّج، ولا التهيّج إلى انتقام،
بل بروحك القدوس أطفئ فيَّ كل انفعال غير لائقٍ.
عذوبة الشركة معك يا إلهي، تنزع مرارة غضبي على أخي!

❖ عوض أن أنفخ بفمي في شرارة الغضب، هب لي أن أتفل بفمي على الشرارة فتنطفئ!
هب لي أن أقتدي بموسى النبي الذي صلَّى من أجل هرون ومريم اللذيْن أهاناه (عد ١٢: ١٣).

❖ هب لي ألا يتحرَّك لساني في غضبي، وأَقِم حراسة من عندك للساني الداخلي.
لتُطفِئ يا رب شرارة لساني في بدء انطلاقها، لئلا تتحوَّل إلى أتون مميت.
انزع عنّي خشب النميمة، لئلا أحترق أنا به.

❖ احفظني من لساني، واحميني من نيره القاسي،
وحَرِّرني من قيوده المُرَّة، وأطفئ نار غضبه!
لتُقَدِّسه فيتأهَّل للتسبيح مع السمائيين.
إن روَّضته، يسكب حلاوة وعذوبة ولطفًا.
وإن لم يتروَّض يفترسني كأسدٍ أو نمرٍ.
سَيِّج فمي بنعمتك، فلا تخرج منه كلمة جارحة،

❖ ضع يا رب لفمي حارسًا من قِبلك.
فأعرف متى أتكلم ومتى أصمت.
إن تكلمت، فهبني أن تتكلم أنت بي،
وإن صمت، فلتتجلّى أنت في داخلي.

الأصحاح التاسع والعشرون

المعاملات المالية

القروض والهبات والكفالة

المعاملات المالية أساسية في حياة الإنسان الاجتماعية، تقوم إلى حدٍ كبير على الثقة المتبادلة بين أعضاء المجتمع. ويليق بالمؤمن أن يسلك بروح الرب في معاملاته المادية، خاصة مع المحتاجين. يُقَدِّم لنا ابن سيراخ منهجًا نكتشف به إن كنا نسلك في معاملاتنا المادية كخائفي الرب، وحافظي وصاياه. كما دعانا الالتزام بالحكمة في المعاملات المالية حتى لا نتعرَّض لمواقف حرجة، وفي نفس الوقت نُتَمِّم التزاماتنا المالية بأمانة وحب مع إظهار الرحمة والترفُّق في الوقت المناسب.

١. بخصوص القروض [١-١٣].

٢. بخصوص الكفالة [١٤-٢٠].

٣. كن قنوعًا ولا تثقِّل على أحدٍ [٢١-٢٥].

٤. الحكمة والوصية الإلهية [٢٦-٢٨].

١. بخصوص القروض

إذ يتحدَّث ابن سيراخ عن القروض التي تُقدَّم للمحتاجين الذين في ظروفٍ قاسية، يطالب كل من المقرض والمقترض الالتزام بالوصايا الإلهية. فإن كان من هو في وسع يلزم أن يسند أخاه الذي في حاجة، فمن الجانب الآخر يليق بالمقترض ألاَّ يستغل من يقرضه.

الذي يصنع رحمة يُقرِض قريبه،

والذي يقوّيه بمدّ يد المساعدة، يحفظ الوصايا [١].

الدافع الحقيقي للإقراض هو الرحمة بمن في ضيقة وطالب قرضًا، بهذا يحفظ الوصايا. يقدم له القرض ولا يطلب فائدة. من يُقرض أخاه المحتاج بفائدة (ربا) مستغلاً احتياجه، فهذا خطية.

يليق بالمؤمن أن يُميِّز بين تقديم قرض لإنسان يمرّ بأزمة مؤقتة، وتقديمه لرجل أعمال، يستخدم القرض لتدبير عمله الذي يدرّ عليه ربحًا. فالأول يُقدَّم له القرض بدون فائدة. "إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك، فلا تكن كالمرابي، لا تضعوا عليه ربا" (خر ٢٢: ٢٥).

أقرض قريبك في وقت حاجته،

وعندما تقترض، سدِّد ما عليك لجارِك في الميعاد [٢].

من جانب المُقرض يليق به ألا يتباطأ إن كانت الحاجة أكيدة، ومن جانب المقترض يلزم أن يحفظ الأمانة، ويُسَدِّد ما عليه من قروض دون مماطلة [٢].

❖ لماذا إذن أيها الغني تشتهي مؤخرًا جدًا وأنت في الجحيم ما لم تترجاه قط عندما كنت تتنعم برفاهياتك؟ ألست أنت ذاك الذي تجاهلت الشخص الذي كان ملقيًا عند بابك؟ (لو ١٦: ٢٠) ألست أنت الذي كنت تستخفّ بالمسكين (لعازر) مستهزئًا بموسى والأنبياء؟ لقد رفضت أن تتمسك بالإيمان في تعاملك مع القريب أثناء فقره، والآن لست تنعم بوقته الممتع... هذا هو الطريق أن نكون على نفس الخط مع تعليم الرب: "اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبدية" (لو ١٦: ٩). يوجد هنا أناس فقراء ليس لهم مسكن ليَقْبَلُوكم فيها. كَوِّنوا صداقة معهم بمال الظلم، المكاسب التي يحسبها الظلم مكاسب. إذ توجد مكاسب يحسبها العدل مكاسب، هذه توجد في خزائن الله. "من يقبل نبيًا باسم نبي، فأجر نبي يأخذ... ومن سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ، فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره" (مت ١٠: ٤١-٤٢)، ولهذا بخيراته الصالحة[1].

القديس أغسطينوس

احفظ كلمتك، وكن موضع ثقة عنده،

فتجد احتياجك في كل الظروف [٣].

لا يليق بالمقترض أن يستغل لطف المُقرض ويتباطأ أو يرجئ السداد، لأنه قد يحتاج في المستقبل، ومن جانبٍ آخر عدم السداد قد يحرم إخوته المحتاجين من أن يجدوا من يُقرضهم.

كثيرون يحسبون القرض كسبًا مُفاجِئًا غير متوقَّع،

ويجلبون المتاعب للذين يساعدونهم [٤].

لا يتسرَّع الإنسان في طلب قرض دون دراسة، إذ كثيرًا ما يُسَبِّب لنفسه وللآخرين متاعب.

يُقبِّل يد المُقرِض حتى يستلم القرض،

ولكي يأخذ مال قريبه يخشع بصوته،

فإذا حلّ وقت الإيفاء يؤجِّل ويُسدِّد فقط بكلمات بها عدم اكتراث، ويلوم الزمن [٥].

من العار أن يستخدم الإنسان معيارًا مزدوجًا، فعندما يطلب أن يقترض يتحدَّث بخشوعٍ ورقّةٍ وفرحٍ، ويبالغ في الوعد بالسداد في حينه؛ وعندما يحلّ موعد الوفاء بالدين أو رد القرض، يتحوَّل إلى

---

[1] *Sermon 41:5-6.*

شخصية أخرى، فيماطل الدائن ويحاول التهرُّب منه، ويُقَدِّم له أعذارًا ويحسب أن الوقت غير مناسبٍ، ويتهم المُقرض بالعنف وعدم الرحمة. فيضطر الدائن أن يضغط عليه لينال ولو نصف القرض، ويدخل الاثنان في عداوة بلا سببٍ. أحيانًا يقوم المقترض بإهانة من أقرضه بدلاً من إكرامه. هذا ما يدفع البعض أن يمتنعوا عن تقديم قروض حتى لا تُسلَب أموالهم، ويفقدوا الصداقة [٧].

متى كان المُقرِض حازمًا معه، بالكاد يسترد نصف القرض،

ويحسب ذلك رِبْحًا غير متوقَّع،

وإن لم يُسدِّد المقترض شيئًا، فقد سلبه ماله،

ويحسبه عدوه بلا سببٍ. فيُسدِّد المقرض له إذن باللعنات والشتائم والإهانة بدل الإكرام [٦].

يرفض كثيرون أن يُقرضوا ليس لأنّهم أشرار، وإنّما مخافة أن يُسلَبوا بلا سبب [٧].

مع ذلك، كن طويل الأناة مع من هو في ظروف بائسة، ولا تدعه ينتظر صدقاتك [٨].

يدعونا ابن سيراخ أن نحتمل بطول أناة متى كان طالب القرض في ظروفٍ قاسية. يليق بنا أن نعين المسكين فنُتَمِّم وصيته، فهي أفضل من الذهب والفضة [٨– ١١].

لأجل الوصية ساعد المسكين،

وفي عوزه لا تردّه فارغًا [٩].

اخسر مالك من أجل أخيك وصديقك،

ولا تدعه يصدأ تحت حجرٍ فيتلف [١٠].

عمل الرحمة يحفظ ممتلكات الإنسان من السرقة أو الصدأ (مت ٦: ١٩: ٢١). ومتى كفّ الإنسان عن العطاء، يكون كمن يحفظ ماله تحت حجر، ومع مرور الزمن يتلف هذا المال.

استعمل كنزك بحسب وصايا العليّ،

فينفعك أكثر من الذهب [١١].

هذه العبارة هي تهيئة لقول السيد المسيح في (مت ٦: ١٩–٢١) الخاصة بدعوته: "اكنزوا لكم كنوزًا في السماء". إن كان ابن سيراخ يسألنا أن نحفظ الصدقة، ونغلق عليها في خزانتنا [٢١]، أي في مكانٍ أمين لا يستطيع لص أن يتسلَّل إليه، فقد جاء السيد المسيح يُعلِن أن السماء هي مكاننا الأمين، الذي لا تقدر كل قوات الظلمة أن تقتحمه.

جاء في الترجمة اللاتينية القديمة (الفولجاتا) لدى بعض الآباء اللاتين، "اغلق (لتقم بتخزين)

صدقاتك في قلب الإنسان الفقير". كأنه عندما يلتقي المؤمن بفقيرٍ، يرى في قلبه خزانة أمينة يودع فيها عطاياه النابعة من قلبه المُحِب. وكأن قلبي المؤمن والفقير يلتقيان معًا في المسيح يسوع العامل فيهما. يعمل في قلب المقتدر ليعطي بحبٍ، ويعمل في قلب الفقير ليَقْبَل العطية بشكرٍ لرّب المجد ومؤمنيه الأسخياء.

أغلق على الصدقات في خزائنك،

فهي تُنقِذك من كل حزنٍ [١٢].

إن أردنا حفظ ما في خزينتنا، فلنُقَدِّم صدقة تحفظنا في يوم الشرّ. إنها سلاح قوي لحمايتنا ضد المُقاوِمين لنا [١٢- ١٣].

❖ علَّمنا المعلم الصالح كيف يليق بنا أن نُطَهِّر فساد جسمنا، قائلاً: "أعطوا ما عندكم صدقة، فهوذا كل شيء يكون نقيًا لكم" (لو ١١: ٤١). ألا ترون كم من علاجات توجد! الحنو يطهرنا، كلمة الله تطهرنا، كما هو مكتوب: "أنتم أنقياء بسبب الكلام الذي كلمتكم به" (يو ١٢: ٩). ليس فقط في هذه العبارة، وإنما في عبارات أخرى رأيتم عظمة النعمة. "الصدقة تنجي من الموت" (طو ١٢: ٩). "أغلق على الصدقة في قلب المسكين، فهي تنقذك في اليوم الشرير" (راجع سي ٢٩: ١٢)[1].

القديس أمبروسيوس

❖ إننا قد اعتمدنا ومع ذلك فنحن مديونون، ليس لأن شيئًا ما لم يُغفَر في المعمودية، بل لأننا نصنع في حياتنا ما نحتاج إلى مغفرته يوميًا. إن الذين اعتمدوا وللحال تركوا هذا العالم خرجوا من جرن المعمودية بدون أية خطية. وأما الذين اعتمدوا وبقوا في هذه الحياة فإنهم يصنعون نجاسات بسبب ضعفهم الجسدي، والتي رغم أنها لا تُسَبِّب غرق للسفينة، إلا أنها تحتاج إلى الاستعانة بالمضخة (لنزحها)، وإلا يدخل الماء قليلاً قليلاً الذي يؤدي إلى غرق السفينة كلها.

الصلاة هو استنجادنا بالمضخة في منع السفينة من الغرق، تستخدم كل الأصوات والأيدي. فالآن نستخدم أصواتنا عندما نقول "اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا"، ونعمل بأيدينا عندما نصنع هذا: "أن تكسر للجائع خبزك، وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك" (إش ٥٨: ٧). اصنع إحسانًا في قلب الفقير، فيشفع فيك أمام الرب (راجع سي ٢٩: ١٢)[2].

القديس أغسطينوس

---

[1] *Exposition of the Gospel Of Luke, 7: 100- 101.*

[2] *Sermons on New Testament Lesson, 6:11.*

❖ إن العلاج لاستعطاف الله قد أُعطى لنا في كلمات الله نفسه، إذ تُعَلِم التعاليم الإلهية الخطاة ما يلزمهم أن يفعلوه، وهو أن الله يكتفي بأعمال البرّ (خلال دم المسيح). فبالرحمة يستحقون غفران الخطية. وقد جاء في سليمان: "أغلق على الصدقة في أخاديرك (في قلب الفقير)، وهي تنقذك من كل شر" (راجع سي ٢٩: ١٢).

وأيضًا "من يسد أذنيه عن صراخ المسكين، فهو أيضا يصرخ ولا يُستجَاب" (أم ٢١: ١٣). لأن من لا يرحم لا يقدر أن يتأهَّل لمراحم الرب. ومن ليس لديه إنسانية تجاه طلبات الفقير، لا يستدر بصلواته أي نصيب من العطف الإلهي. هذا ما أعلنه الروح القدس في المزامير مؤكدًا "طوبى للذي ينظر إلى المسكين، في يوم الشرّ يُنَجِّيه الرب" (مز ٤١: ١).

تذكَّر أية وصايا قَدَّمها دانيال لنبوخذنصر الملك عندما كان قلقًا وخائفًا من الحلم الخطير، مُقَدِّمًا له علاجًا ليحصل على عون إلهي ينتزع الشرور، إذ يقول: له "لذلك أيها الملك فلتكن مشورتي مقبولة لديك وفارق خطاياك بالبرّ، وآثامك بالرحمة للمساكين..." وإذ لم يطعه الملك سقط تحت المصائب والشرور التي رآها، والتي كان يمكنه أن يهرب منها بالصدقات...

وروفائيل الملاك يشهد بمثل هذا حاثًا على إعطاء الصدقة باختيار وسخاء، إذ يقول: "الصلاة جيدة مع الصوم والصدقة، لأن الصدقة تُنَجِّي من الموت، وتُطَهِّر عن الذنوب" (طو ١٢: ٨-٩). إنه يُظهِر أن صلواتنا وأصوامنا ما لم تعينهما الصدقة يصيران أقل نفعًا. لأن من يفعلهما دون أن يسندهما بالأعمال الصالحة، تكون قوتهما ضعيفة في بلوغ طلبته[1].

الشهيد كبريانوس

إنها تقاتل عنك أمام عدوك،

أكثر من ترسٍ متينٍ ورمحٍ قويٍ [١٣].

الفضائل بدون الصدقة تصير عقيمة بلا ثمرٍ. إذ يتقبَّل السيد المسيح عطية المُقتدِر مُقَدِّم الصدقة يقوم بتخزينها له في السماء، فلا يستطيع عدو الخير بكل قواته أن يقترب إليها. إنها محفوظة إلى يوم الربّ العظيم، يُعلِن عنها الديان العجيب، قائلاً: "كنت جوعانًا فأطعمتموني..." (مت ٢٥؛ ٣٥).

❖ أولئك الذين سينالون الملكوت هم الذين يساعدون الفقراء بأمورٍ صالحة، وهم مسيحيون مخلصون، يتبعون كلمات الربّ، وبثقةٍ يترجّون وعوده. هكذا يكون سلوكهم، لأنه بدون ذلك تكون حياتهم اللائقة بالقداسة عقيمة، مقيدين أنفسهم بالامتناع عن الخطايا، فلا يدنسون الطهارة، ويمتنعون عن

---

[1] *The Treatises of Cyprian, Treatise 8 (10 in Oxford edition) 5*. ترجمة المرحوم سامي عبد الملك

السكر والسرقة وممارسة أي شرّ. فإن لم يضيفوا أعمال الحب، يبقون بلا ثمرٍ، إذ هم يحفظون الجزء الأول من الوصايا: "حِدْ عن الشرّ" وليس الجزء الآخر "وافعل الخير" (مز ٣٧: ٢٧).

هكذا عندما يُقَال: "تعالوا رثوا الملكوت" (مت ٢٥: ٣٤)، هذه الدعوة لا يستنهضها أنهم عاشوا في طهارة، وامتنعوا عن السرقة، ولا أنهم لم يستغلوا الفقراء، ولا سلبوا ممتلكات آخرين، أو لم يحلفوا كذبًا. بالحريّ يُقَال لهم: "لأني جعت فأطعمتموني" (مت ٢٥: ٣٥)... إنهم يخلصون ليس لأنهم لم يخطئوا، وإنما خلصوا من خطاياهم بأعمالهم الصالحة[1].

القديس أغسطينوس

٢. بخصوص الكفالة

يُعالِج ابن سيراخ موقف الكفيل وأيضًا من طلب الكفالة [١٤].

١. يليق بالكفيل ألا يبخل على قريبه، فيمتنع عن أن يكون كفيلاً يضمنه [١٥- ١٧].

٢. يليق بمن كفله قريبه، أن يبذل كل الجهد ليوفي المطلوب منه، فلا يخذل من كفله.

٣. لا يتسرَّع إنسان فيكفل أحدًا غير موثوق فيه، أو يكفل إنسانًا بما فوق قدرته. يلخص ذلك بقوله: "ساعد قريبك بقدر طاقتك، واحذر على نفسك أن تسقط" [٢٠]. بمعنى آخر كن سخيًّا ما استطعت، وكن مُتعقِّلاً لأجل سلامك!

الإنسان الصالح يكفل قريبه،

والذي فقد كلّ حياء يتخلَّى عنه [١٤].

الإنسان الصالح يعمل بروح مُخَلِّصه الذي قَدَّم نفسه كفيلاً عنا ونحن خطاة، فكفَّر عن خطايانا، ووهبنا برَّه. صار مسيحنا شفيعًا كفاريًا عنا لدى الآب بالرغم من أنه لا يوجد فينا شيء صالح. فإن رفضنا نحن الكفالة عن إخوتنا شركائنا في الضعف وخذلناهم، نفقد كل حياءٍ برفضنا أن نكون أيقونة لشفيعنا. وردت قصة عن الكفالة في بستان الرهبان:

[بينما كانت فتاة ثرية تتنزه في حديقتها، شاهدت شابًا يُحاوِل الانتحار. فأسرعت إليه وعلمت منه أنه يحاول هذا بسبب ديونه الكثيرة وضغطات الدائنين عليه، فقرَّر التخلُّص من الحياة، مُعتبِرًا أن الموت أفضل من هذه الحياة المُحزِنة. تعهَّدت له بتسديد كل ديونه حتى ولو كلَّفها ذلك جميع مالها. وبالفعل فقد كلفها ذلك معظم أموالها. وبعد قليل افتقرت هي وسلَّمت نفسها للخطية. وأما الله الرحوم فلم يشأ أن يضيع تعبها ومحبتها، فسمح لها أن تمرض. وبينما هي على فراش المرض عادت إلى

---

[1] *Sermon 389: 5.*

نفسها، وندمت وعزمت على أن تصير مسيحية. فطلبت من جيرانها أن يسألوا البابا في أن تتعمد، ولكنهم تشككوا في طلبها بسبب سمعتها الرديئة.

ذات ليلة وقف بها ملاك الرب في صورة الرجل الذي رحمته، فطلبت منه أن يعينها في أن تتعمد. فطمأنها وأحضر ملاكين آخرين حملاها إلى الكنيسة، وتمثَّل الثلاثة في صور ثلاثة من الأراخنة المعروفين في المدينة في حاشية الملك. فلما سألهم القسوس هل يضمنونها كأشابين. فأجابوا: نعم فتعمدت ولبست الملابس البيضاء وأعادها الملائكة إلى بيتها.

ولما رآها جيرانها وهي ترتدى ملابس المعمودية البيضاء، تعجَّبوا وأبلغوا الخبر إلى البابا الذي أحضر القسوس واستفسر منهم عما حدث. فقالوا له إن ثلاثة من الأراخنة ضمنوها، فلما أحضروا الأراخنة، أنكروا معرفتهم بهذا الأمر، فعلم البابا حينئذ أن الأمر هو من قِبَل الله. وعندئذ سألها أي خير عملت في حياتك. فقالت له: إذا كنت خاطئة وزانية، فأي خير أعمل، ثم روت له قصة الرجل الذي كفلته. وعند ذلك رقدت في سلام، فهتف البابا قائلاً: "عادل أنت يا رب، وأحكامك عظيمة جدًا جدًا"[1].]

لا تنسَ لطف الكافل معك،

فإنه يبذل حياته لأجلك [١٥].

كما يُشَدِّد سيراخ على أن نسند إخوتنا بحكمةٍ ما استطعنا، فإنه من جانبٍ آخر يُطالِب الشخص ألاَّ يستهين بكافله ويخذله، فيستغل محبته ويُبَدِّد ماله، ويتجاهل عمل الخير الذي قام به. يليق بالمكفول أن يتحلَّى بالشكر والوفاء حتى يُشَجِّع الآخرين على الاستمرار في عمل الخير ويُقَدِّمون كفالة ما استطاعوا.

الخاطئ يُبَذِّر خيرات كافله،

والجاحد يُنكِر مُخَلِّصه عن قصدٍ [١٦].

من هو الكفيل الذي يقوم بإيفاء ديوننا سوى السيد المسيح. فالخاطئ الذي لا يبالي بنعمة الربّ وعمله المجاني الخلاصي، إنما يُبَدِّد خيرات كفيله.

أهلكت الكفالة الكثير من الأغنياء، وقذفتهم كأمواج البحر [١٧].

سحبت الكفالة رجالاً ذوي نفوذ سلطة من بيوتهم، فتاهوا بين أمم غريبة [١٨].

أهلكت الكفالة الكثير من الميسورين الذين قدَّموا ممتلكاتهم وأموالهم كَرَهْنٍ لينقذوا من هم في عوزٍ،

---

[1] عن الأنبا مكاريوس.

ولم يبالِ من أنقذوهم بموقف الكفيل، الذي يضطر أحيانًا إلى الهروب من المدينة.

الخاطئ الذي يخاطر بالكفالة والرجل الذي يسعى وراء الكسب، يسقطان تحت الحُكْم [١٩].

الخاطئ الذي يُسيء استخدام محبة كفيله، ما يشغله هو استغلال الكفيل قدر المستطاع. هذا الخاطئ إن أفلت من العقوبة في هذا العالم، يُدَان في يوم الربّ.

ساعد قريبك بقدر طاقتك،

واحذر على نفسك أن تسقط [٢٠].

ينصح ابن سيراخ بتقديم المحبة العملية مع الحكمة حتى لا تُسَبِّب الكفالة ضررًا للطرفين.

❖ لا يطلب الله منك أن تفعل خيرًا لقريبك فوق طاقتك، لأنه هكذا يقول: "لا تكف عن فعل الخير لقريبك حين يكون في طاقة يدك أن تفعله" (انظر أم ٣: ٢٧؛ سي ٢٩: ٢٠)[١].

القديس برصنوفيوس

❖ الحقيقة أنه إن وزعوا كل ما يملكون على الفقراء، أعضاء المسيح، مقابل خطية واحدة وحيدة، فلا نفع نهائيًا، ما لم يكفوا عن الخطية ويقتنوا الحب الذي لا يعرف الخطية (١ كو ١٣: ٤).

إذن أي شخص يُقَدِّم صدقات مقابل خطاياه، فليبدأ بالحب (المسيح) نفسه. يليق بالشخص أن يذكر قول الربّ: "حب قريبك كنفسك" (مت ٢٢: ٣٩)، لكي تتحَّقق كيف أنه ليس من اللائق للشخص أن يعطي صدقات لقريبه دون أن يترفَّق بنفسه. لنتذكَّر أيضًا الكلمات: "ترفَّق بنفسك *your soul* فتسرّ الله". كيف يمكن لشخصٍ أن يعطي صدقة لقريبه مقابل خطاياه، إن لم يعطِ نفسه صدقة تسرّ الله؟ بنفس المعنى يقدم لنا النص نفس الدرس: "من أساء إلى نفسه، فإلى من يحسن؟" (راجع ٢٤: ٥). بالتأكيد الصلوات تعين في تقديم صدقات. هنا تظهر أهمية الاكتراث بالكلمات: "يا بني، هل أخطأت؟ لا تزد، بل صلِ عما سلف من خطايا" (راجع ٢١: ١) لكي تُغفَر. غاية الصدقة ذاتها أننا عندما نصلي من أجل غفران خطايانا، تُسمَع الصلاة. ليس هدفها أن نستمر في خطايانا، متخيلين أننا بالصدقات ندفع ثمن المغفرة لخطايانا[٢].

القديس أغسطينوس

٣. كن قنوعًا ولا تُثَقِّل على أحدٍ

---

[١] فردوس الآباء، ج ٣، ص ٣١٤ (رسالة ٥٦).

[2] *The City of God*.

يلزم ألاَّ نتطفَّل كضيوفٍ غير مرغوبٍ فينا خاصة النزول عند الأثرياء، فخير للإنسان أن يقتات بما هو ضروري للحياة كالخبز والماء والملبس والمسكن الذي يأويه، ويعيش في كوخٍ بسيطٍ، من التطفُّل لدى غني. بهذا يشعر المؤمن بالكفاية ويشكر الله دون تذمُّر من جهة الحرمان من الكماليات.

أساسيات الحياة الماء والخبز واللباس وبيت يوفِّر الخصوصية [٢١].

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن ابن سيراخ كان يفكر في نوحٍ البار كيف فقد كرامته واتزانه حتى في نظر أهل بيته بسبب الكماليات والسُكْرِ بالخمر.

❖ نوح أول فلاح حرث الأرض وغرس كرمًا. لقد شرب من الخمر وسكر، ورقد في مسكنه عاريًا.

يا له من أمر مُرْعِب! إنكم أيها الأحباء الأعزاء ترون في السُكْرِ أمرًا مرعبًا، قادرًا أن يبلد الحواس، ويُميت إدراك العقل، مع أن نوحًا كان إنسانًا عاقلاً عُهِدَت إليه مسئولية جميع المخلوقات، قُيد بقيودٍ لا تُفك، وانحدر فصار كجثة هامدة.

بالحقيقة صار أردأ من الجثة، فالجثة عاجزة عن صنع الخير أو الشرّ، أما السكران فعاجز عن صنع الخير، ولكنه يصير أكثر قدرة على فعل الشرّ، يرتمي ويصير موضوع سخرية الزوجة والأبناء حتى الجيران...

ماذا يمكن أن يكون أكثر دناءة من الشخص الذي يدمن الشرب، تفوح منه رائحة كريهة ترتفع إلى السماء يومًا فيومًا، ويفقد عقله؟ لذلك جاء تحذير الحكيم: "حياة الإنسان أساسها المعيشة الماء والخبز واللباس وبيت لستر العورة" (راجع سي ٢٩: ٢١). حتى إذا سقط أحد ضحية للسُكْرِ لا يصير منظرًا للعامة، بل لا ينظره أصدقاؤه ولا يصبح موضوع سخرية لكل أحدٍ[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

عيش الفقير تحت مأوى من جِذَع الأخشاب،

خير من الأطعمة الفاخرة في بيت إنسانٍ غريبٍ [٢٢].

يشعر المؤمن بالأمان وهو في الكنيسة بيته البسيط أفضل من التمتُّع بولائم الفلاسفة التي تبدو فاخرة ولكن في أرض الغربة.

كن قانعًا بالقليل أو الكثير،

فلا تسمع توبيخًا بأنك غريب [٢٣].

---

[1] *Homilies on Genesis, FOTC, vol. 82, p. 205-206.*

بئس حياة الإنسان المتنقِّل من بيتٍ إلى بيتٍ،
وحيثما تنزل لا تجرؤ على فَتْحِ فمك [٢٤].

تستضيف ضيوفًا، وتسقي جاحدين،
وفوق ذلك تسمع كلمات مُرَّة [٢٥].

٤. الحكمة والوصية الإلهية

"تعال هنا، يا أيها الغريب، أَعِدّ المائدة،
وإن كان بيدك شيء فأطعمني [٢٦].

انصرف، يا أيها الغريب، من أمام شخصٍ كريمٍ،
هنا ضيف أهمّ منك،
أخي جاء، وأنا محتاج إلى بيتي" [٢٧].

أمران يستثقلهما الإنسان الحكيم:
اللوم على أهل البيت وشتيمة الدائن [٢٨].

الحكمة هبة مجّانية يُقَدِّمها الرب لخائفيه، حافظي وصاياه، الذين يسلكون في الإيمان بروح الوداعة.

ما يشغل قلب ابن سيراخ هو مخافة الرب التي تعطي قلبه روح البساطة فلا يسلك بقلبٍ مزدوجٍ، أي يُعرّج بين طريقين، تارة يسلك في الرب وأخرى خارج الرب.

من وحي سيراخ ٢٩

لا تُفارِقني في معاملاتي المالية

❖ يدك العجيبة يا إلهي، ترفع قلبي فوق المعاملات المالية!
لا لأحطم هباتك المالية، بل أطلب ألاَّ تفارقني، فأسلك بحكمة حسب وصاياك.
في كل معاملاتي تتجلَّى بالأكثر في أعماقي، وأُتَمِّم مشيئتك في كل شيءٍ.
إن سألني أخي قرضًا أُقَدِّمه باسمك.
لا أتباطأ ولا أَتسرَّع، وذلك من أجل خلاص نفسي وخلاص نفسه.
أُقَدِّم القرض فيزداد رصيد حُبِّي عندك.

إن كان قادرًا أُطالِبه بالسداد حتى لا يفسده الطمع، وأجد الفرصة لمحتاجٍ آخر.
وإن اقترضت من أحدٍ، أسرع في السداد مع تقديم الشكر الصادق من القلب!

❖ إن كان أحد بالحق محتاجًا أحسبه الخزانة الأمينة لممتلكاتي،
التي لا يقدر لص أن يعتدي عليها.
أحسب العطاء الحكيم سلاحًا لي ضد العدو.
إذ أعطي حبًا ولطفًا بحكمة وسخاء،
أسمع صوتك العجيب: "كنت جوعانًا فأطعمتموني".

❖ هب لي أن أكون كفيلاً حكيمًا، أُقَدِّم ما هو في إمكانياتي.
أنت وحدك الكفيل القدير،
كفلت البشرية أمام أبيك، ودفعت الثمن على الصليب!
لن أنسى نعمتك عليَّ يا أيها الكفيل الإلهي!
لن أجحد حُبَّك، إذ وهبتني برَّك عوض الفساد الذي حلّ بي!
خلال الكفالة انطلقت بالصليب إلى الجحيم،
لم يستطع أن يسبيك، بل دمّرت قيوده، وأطلقت المسبيين إلى الفردوس!
حررتني من قيود الخطية، وأشرقت يا شمس البرّ عليّ،
فلم يعد للظلمة موضع داخلي.
لأستتر فيك، فأشتهي أن يتمتَّع العالم كله بالحرية عوض العبودية للخطية.

❖ أنت كنزي وشبعي وتهليل نفسي، ليس ما تشتهيه نفسي سواك!
إن فتحت بيتي لأحد إخوتي أراك تبارك البيت وتقبل الاستضافة.
وإن استضافني أحد لا أُثَقِّل عليه.
وعلى مائدته ألتصق بك، يا من تحتل آخر الصفوف.
ما دمتُ في هذا العالم أينما وُجِدتُ فأنا ضيف غريب.
وما دام قلبي منطلق إلى سماواتك أينما وُجِدت، فأنا في بيتي.
حضنك الإلهي هو موضع راحتي واستقراري.
أَتهلَّل بك، لأنك تحسبني من "أهل بيت الله" (أف ٢: ١٩).

الأصحاح الثلاثون

تنشئة الأطفال والحياة السعيدة

يُعالِج سيراخ في هذا الأصحاح موضوعين:

١. **التنشئة الصحيحة لتربية الأطفال [١-١٣].**

٢. **الصحة الجسدية [١٤-٢٥].**

١. التنشئة الصحيحة لتربية الأطفال

يُقَدِّم نصائح عملية في تربية الأبناء، وقد سبق أن تحدَّث عن هذا الأمر عدة مرات. فالأب يهتم بثلاثة أمور في حياة ابنه: يحبه *agapon*، ويُهَذِّبه *paidevon*، ويُعَلِّمه *didaskon*. هذه العناصر الثلاثة أي المحبة والتهذيب والتعليم تُمَثِّل وحدة واحدة في بنيان الجيل الجديد. ففي التأديب يلزم إبراز الحب الصادق، وفي التهذيب إبراز التقوى، وفي التعليم الرغبة في أن يكون الابن ناميًا في المعرفة الروحية والعلمية. الحب يسند التهذيب، والتهذيب يقود إلى التعليم.

الإنسان الذي يُحبّ ابنه يُكثِر من تأديبه،

لكي يُسرّ به في السنوات الأخيرة [١].

من يُحِبّ ابنه يكون حازمًا معه، فيصير موضع سرور والديه وفرحهم (أم ١٠: ١؛ ٢٢: ٦). الأب السماوي يرعى أولاده "الذي يحبه الربّ يؤدبه، ويجلد كل ابن يقبله. إن كنتم تحتملون التأديب يعاملكم الله كالبنين، فأي ابن لا يُؤدِّبه أبوه؟!" (عب ١٢: ٦-٧)

لا يفهم التأديب أو العصا أو القضيب هو العقوبة الجسدية فحسب، وإنما يعنى استعمال الحزم الممزوج بالحب واللطف بحكمة واتزان، فإن من يسرف في ضرب أولاده واستخدام القسوة قد يفقدهم.

❖ ليس أحد يُؤَدب ويُصلح من شأنه يفقد الرجاء، لأن من يحب ابنه يؤدبه (راجع سي ٣٠: ١). يليق ألاَّ يفقد أحد الرجاء في العلاج[1].

القديس أمبروسيوس

من يؤدِّب ابنه يجني ارتياحًا به،

ويفتخر به بين معارفه [٢].

ما يتأسَّف له القديس يوحنا الذهبي الفم أن ما يشغل الكثيرون في تربيتهم لأبنائهم ليس خلاص

---

[1] *Letters, FOTC, vol. 26, p. 234-235.*

أبنائهم وبنيانهم الداخلي ونجاحهم الحقيقي، وإنما يتطلَّعون إلى أبنائهم من خلال مجدهم الباطل، فيريدون نجاحهم في أعمالهم وغناهم ونوالهم مراكز اجتماعية عظيمة، لا لهدفٍ سوف الافتخار بهم، فيصير الأبناء وسيلة للمجد الباطل لآبائهم[1]. أما ما يعني سيراخ هنا فهو اعتزاز الآباء بتمتعهم بالشخصية القيادية القادرة على تحقيق نموٍ مستمرٍ في كل جوانب الحياة.

من يُعَلِّم ابنه، يُثير حسد أعدائه،

ويُسرّ به جدًا أمام أصدقائه [٣].

إثارة العدو المشار إليها هنا بسبب حسن التربية يُقصَد بها عدم إعطاء الفرصة لعدوٍ ما أن يشمت بسبب فساد الأولاد.

عندما يموت أبوه فكأنه لم يمت،

لأنه خلَّف من هو نظيره [٤].

الابن الذي قام والديه بتأديبه يتأهَّل ليحتل مركز أبيه (طو ٩: ٦). وكأن دور الوالدين هو تأهيل أبنائهما ليحتلُّوا أماكنهما بصيتٍ حسن (٤١: ١٣؛ ٤٤: ٨). لذلك يموت الوالد الصالح وهو مرتاح البال، لأنه ترك ابنًا صالحًا تقيًا ناجحًا، يسلك كإنسان الله.

في حياته رآه ففرح به،

وعند وفاته لم يحزن [٥].

أمام أعدائه ترك خلفه منتقمًا،

ومن يرد لأصدقائه الخدمات [٦].

عند موته، يترك الوالد ابنًا شجاعًا يتحدَّى إبليس عدوه، ولا يسمح لأعمال الظلمة أن تتسلَّل إلى فكره، وفي نفس الوقت يقدم كل حبٍ لأصدقاء أبيه، في نضوجٍ وبروح القوة [٦].

يُعتبَر طوبيا الابن مثالاً رائعًا، إذ كان يشبه أباه من كل جهة بحسب شهادة كل من رعوئيل حماه وغابيلوس المدين لأبيه بالفضة. كان على مستوى المسئولية إذ تحمل مشاق السفر في سبيل تنفيذ وصية أبيه وهو فتى صغير، وصار بركة لوالديه؛ حمل الدواء لأبيه وأعاد البهجة لأمه (طو ٩: ٦)[2].

---

[1] *Chrysostom: The Upbringing of Children and Vainglory.*

[2] الأنبا مكاريوس.

من يُدَلِّل ابنه فسيضمد جراحه،

وعند كل صراخٍ يتألَّم قلبه [٧].

يُحَذِّر ابن سيراخ الوالدين من تدليلهما لأبنائهما. فالتدليل يُسَبِّب جراحات في نفوس الأبناء. الأب الذي يُدَلِّل ابنه يشرب من ثمر تدليله قبل أن يموت، أي يلمس فشل ابنه. كما حدث مع عالي الكاهن الذي دَلَّل ابنيه، فقُتِلا في المعركة، وسقط أبوهما ميتًا، وانهزم الشعب (١ صم ٤).

يكشف القديس **يوحنا الذهبي الفم** عن خطورة حياة التدليل، سواء تدليل الإنسان لنفسه أو لابنه أو لمرؤوسيه. الحب الصادق يدفعنا إلى الجهاد والحزم بحكمةٍ وحبٍ.

يشفق الأب بابنه وهو يؤدِّبه، خوفًا عليه، فإنه يضمد جراحاته ويحنو عليه بل وتئن عليه أحشاؤه. فمع اضطراره لاستخدام التأديب بحنو أيضًا عليه، يضرب بيدٍ ويعصب بالأخرى، فالغرض من التأديب هو الترويض وليس الانتقام.

❖ "من أراد أن يُخَلِّص نفسه يهلكها، ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها. لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟! أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه" (مت ١٦: ٢٥-٢٦). هذا معناه: إني أقضي بهذه الأمور ليس لأني لا أَهتمّ بكم، بل لأنني أَهتمّ بكم جدًا.

في الواقع من يسند طفله على الدوام يُحَطِّمه، أما الذي لا يسنده هكذا يُخَلِّصه. يقول الحكيم نفس الشي: "إن ضربت (ابنك) بعصا لا يموت، بالحريّ تنقذه من الهاوية" (راجع أم ٢٣: ١٣-١٤). وأيضًا: "من دلل ابنه فسيضمد جراحه" [٧].

هذا أيضًا الحال في الجيش. فالقائد المهتم بجنوده يأمرهم بالبقاء الدائم في المدينة (دون التدريب العسكري)، لا يُسَبِّب موتهم وحدهم بل والآخرين في المدينة أيضًا...

لا تبقى في الداخل، بل اخرج وحارب. فإنك وإن سقطت في المعركة فستحيا. إن كان في الحروب الأرضية الشخص المستعد أن يُقتَل له تقديره الخاص عن غيره، لا يُقهَر ويكون مُرعبًا للعدو، فإنه حتى بعد موته لا يستطيع الملك الذي أعطاه السلاح أن يعيده إلى الحياة، كم بالأكثر يليق بالشخص أن يُقَدِّم حياته للموت فيجدها (مت ١٦: ١٥). أولاً لا تؤخذ حياته بسرعة، وثانيًا حتى وإن سقط فتُقَدَّم له حياة أسمى[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

الفرس الذي لم يُروَّض يصير جموحًا،

---

[1] *Homilies on Matthew 55: 2.*

والابن الذي يُسمَح له بالجري في الفسق يصير عنيدًا [٨].

الفارس الناجح هو الذي يعرف كيف يُرَوِّض الخيل ويقودها ويتعامل معها كما بلغة مشتركة. يُسَرّ الفارس حين يجد الفرس الذي يروضه يقوم بدوره كما يليق. كم بالأكثر يحتاج الابن من والديه أن يُرَوِّضاه بروح الحب والحنو وفي لطفٍ دون تسيُّبٍ.

❖ يوجد نوعان من الخوف، نوع يرتبط بالتقدير. هذا النوع يشعر به المواطنون نحو حكامهم إن كانوا صالحين، ونشعر به نحن نحو الله بكوننا أبناء يتعاملون مع أبيهم. يقول الكتاب: "الفرس الذي لم يُروض يصير جموحًا، والابن الذي لم يُضبط يصير وقحًا" (راجع سي ٣٠: ٨).

النوع الآخر من الخوف ممتزج بالكراهية، هذا هو خوف العبيد يشعرون به نحو سادتهم، وشعر به العبرانيون عندما كانوا يتطلَّعون نحو الله كسيدٍ لهم وليس كأبيهم[1].

القديس إكليمنضس السكندري

إن دللت ابنك يروّعك،

وإن لاعبته يحزنك [٩].

ما أروع أن يشعر الأبناء أن والديهم أصدقاؤهم أو كإخوة كبار لهم، ويتحدَّث الوالدان والأبناء في صراحة وانفتاح. غير أن التدليل أو المزاح هو نوع من التطرُّف المضاد للقسوة، والتطرُّفان يُمَثِّلان خطرًا على الأسرة كلها. يقول **القديس أغسطينوس** أن الحُبّ له نظامه. فمحبة الآب لها حدودها، ومحبة الأم أيضًا لها حدودها. فالحب والانفتاح لا يعني التسيُّب أو المزاح بأسلوب غير لائقٍ.

❖ هذا الالتزام يخص الآباء كما الأمهات أيضًا. يوجد آباء يضحّون بكل شيءٍ لكي يؤَّمنون لأطفالهم معلمين للتمتع بالملذات، ويجعلون منهم ورثة أغنياء. أما أن يصير الأولاد مسيحيين ويمارسون التقوى، فلا يبالون كثيرًا بهذا. يا للعمى الذي يُحسَب جريمة!

إنه إهمال سخيف، مسئول عن الارتباك الذي يجعل المجتمع في مرارةٍ. لنفترض أنك تُعد لهم ممتلكات عظيمة. فإنهم إن كانوا يجهلون كيف يسلكون في حياتهم، فحتمًا لن تدوم هذه الممتلكات معهم. بل تتبدَّد، وتهلك مع أصحابها، ويصير ميراثًا غاية في الخطورة!

القديس يوحنا الذهبي الفم

لا تضاحكه لئلا تغتمّ معه،

وفي آخرتك يأخذك صرير الأسنان عليه [١٠].

---

[1] *Paedagogus, FOTC, vol. 23, p. 77-78.*

ماذا يعني بقوله "تضاحكه"؟ حسن أن يلاطف الوالدان أبناءهما بروح مرحة خلال الابتسامة واللطف، غير أن الضحك المُبالَغ فيه يُفسِد حياة الأبناء والآباء، حيث يفقد الشخص روح الحكمة والاعتدال بدعوى إيجاد جو لطيف. نسمع عن أبناء طردوا آباءهم وأمهاتهم في شيخوختهم، وتنكَّروا لهم، وأساءوا معاملتهم، وذلك ثمرة التدليل الزائد وسوء التربية، فحصدوا شوكًا في آخرتهم عوض العنب وحسكًا بدل التين.

يحتاج الوالد إلى الحكمة وإرشاد الله له، فيعرف متى يعطي ومتى يُحجم، متى يسمح للابن بالخروج ومتى يمنعه، متى يعاقبه ومتى يُلاطِفه، فإن أعطاه مالاً بمبالغة ربما يفسده، وإن لم يعطه قد يشعر بالحرمان. إذا سمح له بالخروج قد يحيط به أصدقاء السوء ويجتذبوه إلى ما يؤذيه، وإذا لم يُسمَح له كيف تنمو شخصيته وتتطوَّر من خلال المجتمع عمليًا. وإن قسى عليه ربما تضعف شخصيته ويصبح شخصية متخاذلة انسحابية؛ وإن لاطفه فقد يفسده التدليل![1]

ولا تعطه سُلْطَة في شبابه [١١].

حسن أن يبثّ الوالدان في أبنائهما روح القيادة والثقة في النفس مع الإيمان بالله واهب الحكمة والقوة والفهم. لكن المبالغة في روح القيادة والسقوط في حُبّ التسلُّط والإصرار على الرأي مُفسِد للنفس.

اضغط على ضلوعه في صباه،
لئلا يصير عنيدًا فيعصاك، (ويسبب لك حزنًا[2]) [١٢].

أَدِّب ابنك واجتهد معه لئلا يربكك بسلوكه [١٣].

❖ لنستخدم سلطان الكتاب المقدس: "اضرب ضلوعه ما دام صغيرًا لئلا يتمرد..." (راجع سي ٣٠: ١٢). لئلا يصير جامحًا لا يُروض. غاية مثل هذه العقوبات البشرية أن تساعد على التخلُّص من الجهل، وكبح شهواتنا غير المُروَّضة[3].

القديس أغسطينوس

٢. الصحة الجسدية

خشي ابن سيراخ أن يهتم الشخص بتقديم ثروة ضخمة لأبنائه مع إهماله صحتهم.

---

[1] راجع أنبا مكاريوس.

[2] محذوفة في *OSB*.

[3] *City of God, Book 17-22, FOTC, vol. 24, p. 474-476.*

أبرز السيد المسيح مسئولية الإنسان من ناحية الصحة الجسدية، بقوله: "أليست الحياة أفضل من الطعام؟ والجسد أفضل من اللباس؟" (مت ٦: ٢٥). للأسف يُحَطِّم البعض صحتهم بالعمل الزائد بغية ازدياد الثروة. صحة الروح لها دورها في صحة الجسد، وإن كانت صحة الجسد أيضًا يمكن أن تسند صحة الروح. يستطيع الحكيم أن ينتفع بصحة الجسد كما بمرض الجسد، ولا يجوز له تحطيم الجسد، لأن ضعف الجسد غالبًا ما يؤثِّر على العمل لبنيان الروح.

فقير ذو عافية وصحيح البنية،

خير من غني مُصاب في جسده [١٤].

يليق بالفقراء أن يشكروا الله على الصحة الجسدية والتي يشتهيها الكثير من الأغنياء. فالغني المريض يشتهي أكل البسطاء وعملهم.

العافية وصحّة البنية خير من كلّ الذهب،

وقوّة الجسم أفضل من ثروة هائلة [١٥].

الجسد هو وزنة مُقَدَّمة لنا من الله، والعناية بالصحة الجسدية أمر ضروري. يقول الرسول: "فإنّه لمْ يبْغضْ أحدٌ جسده قطّ بلْ يقوته ويُرَبّيه، كما الربّ أيضًا للكنيسة" (أف ٥: ٢٩). تصلي الكنيسة في ليتورجياتها من أجل الصحة الروحية والنفسية والجسدية.

ليست ثروة أعظم من عافية الجسم،

ولا سرور يفوق فرح القلب [١٦].

يربط هنا سلامة الجسد ببهجة الروح، فنشكر الله على صحة جسدنا وتهليل قلوبنا به.

الموت أفضل من الحياة البائسة،

والراحة الأبديّة أفضل من المرض المُزمِن [١٧].

فقدان الصحة أحيانًا يحرم الإنسان من السعادة، حتى يشتهي الموت بكونه أفضل من حياة مملوءة بالمعاناة من المرض.

❖ الموت بالنسبة للذين يفهمونه خلود، أما بالنسبة للبلهاء الذين لا يفهمونه فهو موت.

يجب علينا ألا نخاف هذا الموت، بل نخاف هلاك النفس الذي هو عدم معرفة الله. هذا هو ما يرعب النفس بحق![1]

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٤٩.

❖ كما أنك عندما تركت الرحم لم تعد تذكر ما كان يحدث لك فيه، هكذا عندما تترك الجسد لا تعود تذكر ما حدث وأنت فيه[١].

❖ وكما أنك بتركك الرحم صرت إلى حال أفضل ونما جسدك، هكذا عندما تترك الجسد وأنت نقي وغير مدنس تصير في حالٍ أفضل غير قابل للفساد[٢].

❖ وكما أن الجسد يجب أن يولد عند تمام نموه في الرحم، هكذا يلزم على النفس أن تترك الجسد عندما تصل إلى نهاية الحياة بالجسد في الوقت المُعَيَّن من قبل الله[٣].

❖ كما أنك تعالج النفس وهي في الجسد، فإنها هي ستعالجك عندما تترك الجسد.

الإنسان المتهاون مع جسده في هذه الحياة، مقدمًا له كل صنوف الراحة، إنما يُقَدِّم لِذَاتِه مرضًا بعد الموت، جالبًا على نفسه دينونة بغباوة[٤].

❖ كما لا يقدر الجسد أن يعيش إن ترك الرحم قبل أن يكتمل، هكذا لا تقدر النفس أن تخلص أو يكون لها شركة مع الله عند تركها الجسد ما لم تنل التطلُّع إلى الله بحياتها الصالحة (وهي في الجسد)[٥].

القديس أنطونيوس الكبير

الخيرات الموضوعة أمام فم مُغلَق،

كتقدمات الطعام الموضوعة على قبرٍ [١٨].

من كان مريضًا عاجزًا عن الأكل لا تفيده الخيرات الكثيرة، تصير الأطعمة بالنسبة له كأنها موضوعه على قبرٍ، لا تجد من يأكلها.

انتقد **القديس أغسطينوس** العادات الوثنية حيث يأتون بتقدماتٍ يضعونها على قبر الميت، فكما أن الفم المُغلَق لا ينتفع بالخيرات المُقَدَّمة للإنسان، هكذا لا ينتفع عابد الأوثان من التقدمات التي على قبره[٦].

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١١٢.

[٢] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١١٣.

[٣] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١١٤.

[٤] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١١٥.

[٥] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١١٦.

[6] *St. Augustine: Sermon 361: 6.*

ما منفعة للصنم بقربان من الفاكهة،

فإنه لا يقدر أن يأكل أو يشم.

هكذا من يُحزِنه الربّ [١٩].

من لا يتمتَّع بمسرَّة الرب به، يكون كمن يُقَدِّم فاكهة لصنمٍ لا يأكلها ولا يشم رائحتها. لقد سخر دانيال بالصنم بيل الذي كان ملك بابل يظن أنه يأكل ويشرب ما يُقَدِّمه له كهنة بيل[١].

يرى بعينيه ويتنهَّد،

كخصيٍ يُعانِق عذراء [٢٠].

ماذا يعني بالخصي الذي يعانق عذراء ويتنهَّد، سوى أنه لا يقدر أن يتقدَّم ليتزوجها. هكذا يكون حال من يرى الثروة والغنى والخيرات الثمينة ولا يقدر أن يستخدمها.

❖ لماذا تُكَدِّس أيها المائت الذهب؟ لماذا تطلب لنفسك عبودية مُرَّة؟ سجن شاق؟ لماذا تجلب على نفسك قلقًا قاسيًا؟ إنك تظن أن عروق الذهب في المناجم أو الذهب في القصور يمكن أن يكون لك. بالحقيقة حتى إن صار لديك كثرة من الثروة، فإنك كل ما تفعله أنك تخبئها. إنها لا تخدمك، فإنك إن لم تستخدم ما لديك الآن، فلا تلمسه كما لو كان هذا لآخر غيرك، فماذا ستفعل إن صار لك مزيدًا منه؟ عادة بالنسبة للجشعين كلما زادت الثروة وجمعوها حولهم، يطلبون بالأكثر أن يُخَزِّنوها. ربما تقول: "إنني أعرف أنها ملكي". في هذه الحالة ممتلكاتك هي في أفكارك وليست للتمتُّع بها. يمكنك أن تعترض: "إنني عظيم قدام الآخرين." بالحقيقة ستظهر ضعيفًا أمام الأغنياء والفقراء واللصوص والمفترين والخدم – بالحقيقة أمام كل الذين يتآمرون عليك...

من يريد أن يُعانِق فتاة يُحِبّها وهو عاجز عن أن يشبع رغبته، يُعانِي أَمَرّ العذابات. هكذا يفعل الغني، إذ لديه ثروة وفيرة، وهي معه، لكنه عاجز عن إشباع رغبته[٢].

القديس يوحنا الذهبي الفم

لا تُسَلِّم نفسك *yourself* إلى الحزن،

ولا تُقلِق نفسك عن قصد [٢١].

الحياة السعيدة: سعادة الإنسان تنبع من داخله، لا من الظروف الخارجية المحيطة به. فمن يستسلم للحزن ويرتبك بأفكاره لا يتمتَّع بالسعادة.

---

[١] راجع تتمة دانيال.

[2] *Homilies on Matthew, 83:2-3.*

بهجة القلب حياة الإنسان،

وفرح الإنسان يُطِيل أيامه [٢٢].

البهجة الداخلية تعطي للحياة طعمًا، فتطول أيام حياته.

أَحبب نفسك *your soul*، وأَرِح قلبك، واطرد الحزن عنك بعيدًا.

فإن الحزن أهلك كثيرين، وليس فيه منفعة [٢٣].

ما المنفعة من الحزن؟ إنه قتل كثيرين، ولم ينفع أحدًا. يشتكي كثيرون من سقوطهم تحت مرارة الحزن، كأنه يقتحم قلوبنا أو يتسلَّل إليها. هنا يؤكد لنا ابن سيراخ بأن الحزن هو ثمرة تهاوننا أو أخطائنا. يليق بالمؤمن أن يحب نفسه *his soul* ويفرّج عن قلبه بالالتصاق بالمُخَلِّص مُفَرِّح القلوب. بهذا يتمتَّع بسلطانٍ أن يجرد الحزن عن أعماقه.

يتحدَّث آباء الكنيسة عن الحزن القاتل، مُمَيِّزين بين الحزن المقدس الذي يصحبه سلام داخلي، هذا الذي يُطَوِّبه السيد المسيح، قائلاً: "طوبى للحزانى، لأنهم يتعزون" (مت ٥: ٤)، الحزن المُهلِك النابع عن عدم الرجاء.

ترى **القديسة الأم سنكليتيكا** في الشهوة والمسرَّة الزمنية والحزن المُهلِك ينابيع ثلاثة للشرّ. وهي مُرتبِطة ببعضها البعض، كل ينبوع يفتح الطريق للآخر. فإن سمح الإنسان للشهوة أن تصدر من الداخل، واستطاب لها ولو بالفكر، تتطوَّر إلى فرح زمني مؤقت، وبالتالي عِوَض التمتُّع بفرح الروح والاشتياق إلى العريس السماوي، يسقط في الحزن المُهلِك. من يضبط الشهوة بعمل النعمة الإلهية، لن تكون مسرَّته جسدانية مؤقتة، وبالتالي لا يحَطِّمه الحزن القاتل.

❖ يوجد ثلاث ينابيع للعدو ينبثق منها كل شرٍ: **الشهوة واللذة والحزن.** وهي متصلة بعضها ببعض، وكل منها يتبع الآخر. من الممكن التحكُّم في اللذة إلى درجةٍ ما، ولكن يستحيل التحكُّم في الشهوة، لأنّ إشباع اللذة يتمّ بواسطة الجسد، ولكن الشهوة تبدأ من النفس، في حين الحزن يمكن أن يحلّ في كليهما. إذن، لا تسمحن للشهوة أن تصير فعَّالة، وبذلك تبدِّدن الاثنتين الأخيرتين (أي المسرّة الشريرة والحزن). أمّا إذا سمحتنّ للأولى أن تبرز، فهي تتطور إلى الثانية ثم يشَكِّلان معًا "حلقةً فاسدةً" لا يمكن للنفس أن تفلت منها.

القديسة الأم سنكليتيكا

يرى **القديس أغسطينوس** في كل عمل محبة يُقَدَّم للإخوة من أجل الله، ما يشغل قلب المؤمن أن هذا العمل يمسّ خلاصه الشخصي، وهذا الحب إنما هو حب للشخص نفسه، فما يُقَدِّمه إنما لحساب بنيانه الروحي. من لا يحب نفسه روحيًا كيف يُتَمِّم الوصية: "حب قريبك كنفسك".

❖ كل إنسان يعطي صدقة من أجل التكفير عن خطاياه، يبدأ أولاً بالمحبة لنفسه. ليتذكَّر الشخص قول الربّ: "حب قريبك كنفسك" (مت ٢٢: ٣٩)، ليتحقَّق أنه ليس من اللائق أن يعطي صدقة لقريبه دون الترفُّق بنفسه هو. يوجد أيضًا تذكر آخر: "أَحبب نفسك " [٢٤]. كيف يمكن لأحدٍ أن يُقَدِّم صدقة مُقابِل خطاياه، إن لم يعطِ لنفسه صدقات تسر الله؟ بنفس المعنى: "من أساء لنفسه، فإلى من يحسن؟" (راجع سي ١٤: ٥).

وبالطبع الصلوات لها دورها بالنسبة للصدقات. هنا يظهر أهمية الكلمات: "يا بني هل أخطأت؟ لا تزد، بل صلِ عما سلف من الخطايا" (راجع سي ٢١: ١)[1].

القديس أغسطينوس

الحسد والغضب يُقللان عدد أيامك،

والقلق يأتي بالشيخوخة قبل الأوان [٢٤].

الغيرة والغضب والهمّ يفسدون الحياة، فيشيخ الإنسان قبل الأوان.

صاحب القلب المسرور الصالح،

ينتفع بالطعام الذي يأكله [٢٥].

الإنسان المتهلل ينتفع بالطعام الذي يأكله أيّا كان نوعه!

من وحي سيراخ ٣٠

قَدِّس الجيل الجديد ونَقِّيه من أخطائنا!

❖ قَدِّس أيها القدوس نظرتنا للجيل الجديد.

نشتهي أن يكونوا أَقدَس وأفضل منَّا.

إن لم يكن الأجيال القادمة أسمى منَّا،

تُحسَب الكنيسة راكدة ومريضة وتحمل رائحة الموت.

❖ لتقُدنا أيها المُخَلِّص في تربية الجيل الجديد.

هب لنا روح الحب والرعاية والمعرفة.

نحب الجيل الجديد بلا تدليل وتسيُّب مُفسِد.

---

[1] *City of God, Book 17-22, FOTC, vol. 24, p.406-407.*

في حزم وجدّية نود أن نراهم قادة ناجحين.
يدركون أنهم سفراء عنك، يشهدون لحُبّك الإلهي.
من يُرَوِّضهم سوى روحك القدوس، فلا يتعثَّرون في ضعفاتنا.
نُسرّ بثقتهم في قوة نعمتك وجهادهم ليكونوا أيقونة لك.

❖ نشكرك يا طبيب النفوس والأجساد.
بك تتحدَّى نفوسنا العالم بكل مغرياته وأحزانه.
لا تستطيع مقتنياته أن تستعبدنا ولا تستعبد أولادنا.
سواء في صحة جسدية أو مرضٍ نباركك،
لأنك تقودنا إليك، ومع كل صباحٍ نختبر نحن وأبناؤنا أمجادك،
غنانا أو فقرنا لن يُحوِّل عيوننا عن التطلُّع إليك.

❖ إن هاجمنا العدو بالحزن، فلن يسحب فرح الروح من قلوبنا.
غربتنا في هذا العالم مُفرِحة، لأنك رفيقنا بالأكثر في الأحزان.
أيامنا قليلة للغاية، وكأنها آلاف السنين، لأنك تبارك كل يومٍ، فتجعله كألف سنة.

❖ أنت هو سرور قلبنا،
أنت هو الباب ندخل خلاله إلى الالتصاق بك.
أنت كنزنا، فلا نحتاج إلى شيء سواك.

❖ أيها القدوس قَدِّس الجيل الجديد بنعمتك.
قَدِّس جسدنا، فنجاهد بنعمتك، ونشكرك على عطية الصحة الجسديّة.
قَدِّس أرواحنا، لنتأهَّل لسكناك فيها.
قَدِّس فرحنا وتهليلنا، لتقبله ذبيحة شكر على أعمالك العجيبة معنا.

الأصحاح الحادي والثلاثون

الثروة وآداب المائدة

عالج ابن سيراخ في الأصحاح السابق موضوع الصحة الجسدية بكونها وزنة في يد الإنسان، إن أهملها يمكن أن تفسد سلامة روحه أيضًا، والآن يعالج موضوع الثروة واستخدامها السليم اللائق بالشخص الحكيم، وأيضًا آداب المائدة. ما يشغل المؤمن أن يلتهب قلبه شوقًا نحو المائدة السماوية؛ يسلك بأمانة في الثروة التي أقامه الله وكيلاً عليها هنا، فيُقِيمه الربّ على الكثير في السماويات.

١. الاستخدام السليم للثروة [١-١١].

٢. السلوك اللائق في الولائم [١٢-٣١].

١. الاستخدام السليم للثروة

يتحدَّث عن الاستخدام السليم للثروة بعد حديثه عن الصحة الجسدية مباشرة، لأن البعض يُحَطِّم صحته ببذله مجهودًا مبالغًا فيه من أجل الثروة. فقد سيطرت محبة المال على كثيرين، وجعلت البعض لا يبالون بسلامة أرواحهم وأجسادهم. بسبب محبة المال، فيتعرَّض البعض إلى الآتي:

أ. **تحطيم صحة الجسد** بسبب السهر حبًا في المال [٢]

ب. **المعاناة من القلق** والحرمان من المدة الكافية للنوم [١].

ج. يتعرَّض البعض لأمراضٍ جسدية بسبب **الرفاهية والمبالغة في الأكل** [٣].

د. محبة المال **تطرد برّ الله** من القلب [٥]، فيخسر الإنسان الحياة المُطوَّبة والمال نفسه [٨].

هـ. يسقط في التجارب متى حلَّت الضيقة [١٠].

و. يفقد دوره في مساندة المحتاجين في الجماعة المقدسة (الكنيسة).

السُهاد (الأرق) لأجل الثروة يُهلِك الجسم،

والقلق على الثروة ينزع النوم [١].

الثروة في ذاتها ليست شرًا، لكنها تُمَثِّل ثقلاً للنفس المُتعلِّقة بها، يفقدها حياتها وينزعها عن الالتصاق بمُخَلِّصها. يحدثنا **القديس يوحنا الذهبي الفم** عن النوم كعطية من الله قَدَّمها لنا بالطبيعة لأجل راحتنا. لكننا نحن لا نشفق على أنفسنا، بل نقف في عداوة مع أنفسنا، نخترع لأنفسنا طاغية أكثر من قوة الطبيعة، يفقدنا راحة النوم.

❖ قيل: "القلق على الثروة ينزع النوم" [١]. انظروا عظمة عناية الله! إنه لم يترك لنا الخيار أن ننام

حسب إرادتنا ولا حسب احتياجنا للنوم، إنما ربطنا بضرورات الطبيعة، حتى يتم الصالح لنا ولو بغير إرادتنا. أن ننام هو أمر حسب الطبيعة. لكننا نحن كمبغضين عنفاء ضد أنفسنا، أشبه بأعداء ومضطهدين غرباء، نخترع طاغية أقوى من هذه الضرورة التي للطبيعة، هذا الذي يأتي من جهة المال[1].

❖ أَشَرّ من كل احتراق ما يحلّ بنفوسنا خلال مرارة الحزن. وكما أن الجسم يجف ويُرهَق بجهاده ضد عنف أشعة الشمس، فيُجلب إلى مأوى فيه عدة ينابيع، ليهدأ بالنسيم اللطيف، هكذا يفعل الليل حيث تُسلم نفوسنا للنوم. نعم، بالحريّ يلزمني القول إنه ليس الليل ولا النوم يفعل هذا، إنما الله الذي يعلم مدى تعب شقاء جنسنا يفعل هذا. بينما نحن لا نترفَّق بأنفسنا كما لو كنا أعداء لنفوسنا وهبنا ما هو مستبد أكثر قوة من الحاجة الطبيعية للنوم، أي الأرق بسبب الثروة... انظروا عظمة رعاية الله. فإنه لم يترك لإرادتنا حق الراحة، ولا الحاجة إلى النوم حسب اختيارنا، إنما ربط النوم بضرورة الطبيعة، حتى نمارس الصلاح ولو بغير إرادتنا[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما تثور فيك إحدى آلام نفسك، اذكر أن الذين يفكرون حسنًا ويرغبون في تأسيس ما لديهم على أساس قويم ثابت، لا يفرحون بالغِنَى الفاسد، بل بالمجد الحقيقي الذي في السماوات، وبهذا يصيرون مُطوَّبين. فالثروة قد ينهبها أو يسرقها من لهم سطوة أقوى، أما فضيلة الروح فهي وحدها الممتلكات الأمينة التي لا تُسلَب، هذا بجانب أنها تنقذ صاحبها بعد الموت.

الذين يفكرون هكذا، لا يخدعهم بريق الغِنَى الباطل، والمباهج الأخرى[3].

القديس أنطونيوس الكبير

هَمّ الأرق يحرم من الغفو،

والمرض الشديد يضع نهاية للنوم [٢].

أحد تراكمات مشاكل الانشغال بالثروة اقتحام القلق إلى النفس والمعاناة من الأرق، مما يُسَبِّب أيضًا أمراضًا جسدية. في هذا يقول الرسول بولس: "وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون في تجربةٍ وفخٍّ وشهواتٍ كثيرةٍ غبيّةٍ ومضرّةٍ تغرّق النّاس في العطب والهلاك، لأنّ محبّة المال أصلٌ لكلّ

---

[1] *On Philippians, Homily 3.*

[2] *Homilies on Philippians, homily 2.*

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٣٢.

الشرور، الذي إذ ابتغاه قوْمٌ ضلُّوا عن الإيمان، وطعنوا أنفسهم بأوْجاعٍ كثيرةٍ" (١ تي ٦: ٩ -١٠).

❖ لماذا تحسد الغني؟ هل لأنه أخضع نفسه لاهتماماتٍ كثيرةٍ؟... فإنه يُربَط مثل كلبٍ بربوات القيود – أي غناه!... وكأننا بروح العداوة لأنفسنا نورِّثها لطاغية أكثر قوة من الحاجة الطبيعية للراحة – أي الأرق الصادر عن الغنى.

القديس يوحنا الذهبي الفم

يتعب الغنيّ في جمع الأموال،

وفي راحته يشبع من رفاهيته [٣].

يُعلِّق **القدِّيس أمبروسيوس** على مثل "لعازر والغني" (لو ١٦: ١٩-٣١) هكذا: [ليس كل فقر بالضرورة مقدَّسًا، ولا كل غِنَى يكون ممقوتًا[1].] بمعنى آخر ليس الفقر غاية في ذاته ولا الغنى شرّ في ذاته، إنما حياة الإنسان هي التي تفسد هذا أو ذاك؛ الحياة المدللة المترفة غير المترفقة بالمحتاجين تهين الغنى، والحياة المقدَّسة الشاكرة تُزَيِّن الفقر.

يتعب الفقير في حاجة العيش،

وفي راحته يصبح معوزًا [٤].

المولود في الفقر لا ذنب له في فقره، فإن قَدَّم ذبيحة شُكْر لله على ما وهبه من ملكات، فمع كونه معوزًا في الزمنيات، يُحسَب غنيًا في تقدماته. وذلك مثل الأرملة التي قَدَّمت فلسين (مر ١٢: ٤٢).

من أحب الذهب لا يُدعَى بارًا،

ومن اقتفى أثر الربح يضلّ بسببه [٥].

يُعَلِّق **القدِّيس كيرلس الكبير** على قول السيِّد المسيح: ""كان إنسان غني، وكان يلبس الأرجوان والبزّ، وهو يتنعَّم كل يوم مترفهًا. وكان مسكين اسمه لعازر الذي طرح عند بابه مضروبًا بالقروح" (لو ١٦: ١٩-٣١)، قائلاً: [أسألك أن تلاحظ بدقة كلمات المُخلِّص... لقد دعاه "غنيًا" هكذا، أما الفقير فأشار إليه بالاسم. ماذا نستنتج من هذا؟ أن الغني بكونه غير رحيم كان في حضرة الله بلا اسمٍ، إذ قيل في موضع آخر بصوت المرتل عن الذين لا يخافون الرب: "لا أذكر أسماءهم بشفتي" (مز ١٦: ٤)، أما الفقير فكما قلت فذُكِر اسمه بلسان الله[2].]

كثيرون سقطوا في كارثة لأجل الذهب،

---

[1] *In Luc 16:19–31.*

[2] *In Luc Ser 111.*

فأضحى هلاكهم أمام وجوههم [٦].

❖ في مثل لعازر والغني (لو ١٦: ١٩-٣١) أخيرًا صار الغني شحاذًا يطلب من الفقير، ويسأل من مائدة ذاك الذي كان جائعًا وملقيًا لأفواه الكلاب. لقد تبدَّل الحال، وعرف كل واحدٍ من هو الغني الحقيقي ومن هو الفقير بحقٍ، فظهر لعازر أغنى من الكل، والآخر أفقر الجميع.

كما في المسارح يلبس المُمَثِّلون قناعات الملوك والقادة والأطباء والمُعَلِّمين والأساتذة والجنود، لكنهم هم ليسوا كذلك في حقيقتهم، هكذا الغِنَى والفقر هنا مُجَرَّد أقنعة، إن جلست في مسرح ورأيت إنسانًا يرتدي قناع ملك فلا تغبطه ولا تحسبه قد صار ملكًا، ولا تشتهي أن تكون مثله... هكذا الغني هنا غالبًا ما يكون فقيرًا (في أعماقه)، إن نزعت عنه قناعه، وكشفت ضميره، ودخلت إلى فكره، غالبًا ما تجد فيه فقر الفضيلة، وتجده منتميًا إلى أدنى الطبقات[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ اسمع كيف كان يتباهى ويسعد الغني الذي كان (لعازر) مُلقَى ومطروحًا على بابه.

كان جسمه سليمًا وغنيًا في مقتنياته، ولباسه لائقًا وأطعمته جيدة.

ومائدته زاخرة، وبيته يرعد، ومنزلته مخيفة، وغني ومعافى وكل واحدٍ يحبه ويكرمه.

لباس بهي، وجسد معافى، وكيس مليء، وحياة هنيئة بكل الخيرات بدون مضرّات.

مبتهج بغناه، ومتكبر بثيابه، وكله بهي ومتنعم ومعافى، ولم يكن ينظر إلى الفقير.

لعازر كان على باب هذا المتباهي، وهو مملوء ويلات، ويرى الخيرات ولا يتذمَّر.

كان يشتاق فقط أن يشبع من الفتات، ولم يكن يطلب الزيادات الموجودة هناك.

لم يكن يرغب في اللباس، ولا في الغنى، ولا في الأطعمة المتوفرة على المائدة.

كان محتاجًا فقط إلى الفتات التي تأكلها الكلاب، هذا ما تتطلبه الطبيعة، وهذا ما تاق إليه[2].

القديس مار يعقوب السروجي

إنه فخّ للذين يُكَرِّسون حياتهم له،

وكلّ غبي يسقط فيه [٧].

تكريس الإنسان حياته لمحبة خيرات العالم تُفسِد أعماقه، فتصير خيرات العالم بالنسبة له شرورًا.

❖ خيرات (العالم) هي بالحقيقة شرور، وشروره (ضيقاته) أيضًا هي بالتأكيد خيرات.

---

[1] *Conc Lazar 2.*

[2] الميمر ١٦ على الغني ولعازر (لو ١٦: ١٩-٣١) (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

كل خيرات هذا العالم هي مملوءة موتًا، ومَن يحتمل يجمع الحياة من شروره.

من هو مستريح فيه: العذابات هي مهيأة ومحفوظة له، ومَن هو معذب فيه: يستريح في العالم الجديد.

بشارة ربنا تُعَلِّم البشر هكذا، ومَن أراد ألا يفهم، فهذا يعود إليه.

قال بوضوح: مَن وجد نفسه يهلكها، ومَن أهلك نفسه في العالم يجدها (مت ١٠: ٣٩).

مَن يهلك نفسه هو ذاك الذي يتعب ويُضطهَد ويُسحَق ويُصلَب يوميًا الأهواء والشهوات (لو ٩: ٢٣، غل ٥: ٢٤؛ ٦: ١٤).

ويموت كل يومٍ لأجل رجاء العالم المزمع، وحياته في العالم الذي لا يحبه هي زيادة.

ومَن يهلك نفسه هنا يذهب ويجد موضعًا شهيًا وحياة النور بدون نهاية.

ويجد نفسه مملوءة تطويبات في العالم العظيم، وتكمل فيه (عبارة): يجد نفسه لو يهلكها.

ذاك الذي يتباهى ويستريح ويخطئ ويتمايل (في مشيه) معجبًا بنفسه والموجودة فيه حياة العالَم وكل ملذاته،

ويحب الغنى، ونفسه مرتبطة بالمقتنيات، ويبغض المشاكل وينهزم من العذابات،

ويجد نفسه في الحياة الهنيئة بدون مضايقات، هذا يهلك، ويجعل النفس التي وجدها تذنب.

ويذهب ويرث بحر النار مثل الغني الذي قبِل هنا كل خيراته كما قيل (لو ١٦: ٢٥)[1].

القديس مار يعقوب السروجي

طوبى للغني الذي يوجد بلا لوم،

ولا يسعى وراء الذهب [٨].

يوجد أغنياء مُطوَّبون، مثل إبراهيم أب الآباء الذي كان غنيًا جدًا (تك ١٣: ٢). لم يشغله غناه عن التصاقه بالله والتمتُّع بالشركة معه، واستضافته للغرباء، وإشراك سارة زوجته في خدمتهم.

❖ يلزم أن يتبعك الذهب، لا أن تتبعه أنت. بالحقيقة الذهب شيء صالح؛ بالتأكيد الله لم يخلق شيئًا شريرًا. لا تكن أنت شريرًا، فيصير الذهب صالحًا.

انظر هنا، إني أضع ذهبًا بين يدي شخصٍ تقي، وآخر غير أمين. إن أخذه الشخص غير الأمين، فإن الفقير يُقهَر، وأصحاب السلطة يفسدون، والقوانين تُكسر، والحياة الاجتماعية تُشوش. لماذا؟ لأن غير المُخْلِص أخذ الذهب. وإذا أخذه الشخص التقي، فالفقير يُسنَد، والعريان يكتسي،

---

[1] الميمر ١٦ على الغني ولعازر (لو ١٦: ١٩-٣١) (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

والمقهورون يتحرَّرون، والمساجين يُنقَذون. يا لعظم الصلاح الذي يجنيه الشخص الصالح من الذهب، وكم من الشرور تحدث بواسطة الذهب الذي أخذه غير الأمين؟...

إن كنت غير أمين ستتبع الذهب، وإن كنت تقيًا فالذهب يتبعك. ماذا يعني أن الذهب يتبعك؟ أنك تسود عليه ولا تكون أنت خادمه، لأنك أنت تملكه، وليس هو يملكك[1].

القديس أغسطينوس

من هو فندعوه مغبوطًا؟

إنه يصنع عجائب وسط شعبه [٩].

أفرح بأعمالك العجيبة فأنسى حتى نفسي، وأبتهج فيك وحدك. فأي شيءٍ أفضل منك؟ بالحقيقة أنت الإله العظيم، تصنع عجائب في الجسد كما في النفس، وتُقِيم من الإنسان الترابي ابنًا لك، تعكس بهاءك عليه أبديًا.

❖ الحكمة تعمل في كل شيء؛ إنها ترافق كل ما هو صالح. إذ كيف يمكنها أن تُقَدِّم نصيحة صالحة ما لم يكن معها العدالة أيضًا، حتى تستطيع أن تلتحف بالاستقامة، ولا تخاف الموت، ولا تتراجع بأي إنذار، أو خوف، ولا تظن أنه من الصواب أن تتجنَّب الحق بأي نوع من المداهنة، ولا تتجنَّب النفي، إذ تعلم أن العالم هو وطن الإنسان الحكيم. إنها لا تخشَ العوز، إذ تعلم أن الحكيم لا ينقصه شيء، بل العالم كله بغناه هو له. من هو أعظم من الإنسان الذي يعرف ألا يُثَار عند التفكير في المال، مستخفًا بالغنى ومستهينًا به كمن يتطلَّع من أساس عالٍ على شهوات الناس؟ يحسب الناس أن من يعمل هكذا هو أسمى من أن يكون إنسانًا. قيل: "من هو فنغبطه؟ لأنه يصنع عجائب في حياته" [٩]. بالتأكيد يلزم أن يعجب من ذاك الذي يستخفّ الثروات، متطلعًا إلى أن كثيرين يهتمون بها أكثر من اهتمامهم بأمانهم هم أنفسهم[2].

القديس أمبروسيوس

❖ يخبر بعجائب الله (مز ١:٩) من يراها تتحقَّق ليس فقط علنًا في جسده، وإنما أيضًا بطريقة غير منظورة في نفسه، بل هذه العجائب أكثر سموًا ورفعة. فالبشر كأرضيين وينقادون بما يرونه بالعين ويتعجبون بالأكثر أن لعازر الميت يقوم في الجسد، أكثر من تعجُّبهم أن بولس المضطهد يقوم في الروح (يو ١١؛ أع ٩). ولكن الأعجوبة المنظورة تدعو النفس للتمتُّع بالنور، أما بغير المنظورة

---

[1] *Sermon 311: 9.*

[2] *Duties Of The Clergy, Book 1, Ch 13:66*

يعبر الإنسان ليدركها فيتحدث عن كل عجائب الله[1].

❖ أن تفرح بأعمال الله (العجيبة) تنسى حتى نفسك، إذ يمكنك أن تبتهج فيه وحده. فأي شيءٍ أفضل منه؟ ألا ترى هذا أنك إذ ترجع إلى نفسك، إنما ترجع إلى أمر خاطئ. "أتذكر عجائبك منذ القدم" (مز ٧٧: ١١)... "أنت الإله الصانع العجائب وحدك" (مز ٧٧: ١٤). بالحقيقة أنت الإله العظيم، تصنع عجائب في الجسد كما في النفس، أنت وحدك الصانع لها. الصم يسمعون، والعميان يبصرون، والضعفاء يشفون، والأموات يقومون، والمفلوجون يتشدَّدون. لكن هذه العجائب تمت في ذلك الحين في الجسد. لننظر تلك التي تمت في النفس. هؤلاء الذين كانوا منذ قليل سكرى صاروا عاملين، هؤلاء الذين كانوا منذ قليل عبدة أصنام صاروا الآن مؤمنين، هؤلاء الذين كانوا قبلاً يسلبون الآخرين الآن صاروا يُقَدِّمون عطايا للفقراء[2].

❖ "السماوات تحمد عجائبك يا رب" (مز ٨٩: ٥)... فإنه في كل عمل رحمة من نحو النفوس المفقودة، عمل تبرير للخطاة، ماذا نُسَبِّح سوى أعمال الله العجيبة؟ أنتم تحمدونه لأن الموتى يقومون، أحمدوه بالأكثر لأن المفقودين قد خلصوا. بالأمس قد رأيت يا إنسان دوامة سكر، الآن ترى جمالاً لضبط النفس. بالأمس كنت ترى مُجَدِّفًا على الله، الآن تراه مُسَبِّحًا له. بالأمس كان عبدًا للمخلوق، اليوم صار عابدًا للخالق. هكذا تحول البشر عن هذه الأحوال الرهيبة. ليتهم لا يتطلعون إلى استحقاقهم الذاتية. ليصيروا سماوات ويحمدوا عجائب ذاك الذي جعلهم سماوات"[3].

القديس أغسطينوس

من الذي يُمتحن به فيوجد كاملاً؟ له أن يفتخر بذلك.
من الذي استطاع أن يتعدَّى ولم يتعدَّ؟ وأن يصنع الشرّ ولم يصنع؟ [١٠]

ستكون خيراته ثابتة،
وتخبر الجماعة بصدقاته [١١].

ما يُزَكِّي الإنسان للملكوت ليس كمية المال، إنما أمانته في استخدامه، فالبعض أعانهم المال في خلاص نفوسهم عندما استخدموه لمجد الله وخير إخوتهم، اكتفوا منه بالضروري فقط لأنفسهم. فطوبى لذلك الإنسان الذي كان بإمكانه أن يُخطِئ ويتعدَّى الوصية بسبب المال، لكنه أمسك عن ذلك

---

[1] *On Ps. 9.*

[2] *On Ps. 77 (76).*

[3] *On Ps. 89 (88).*

بمخافته لله. فإن خيراته ثابتَة، لأن تصرفاته تُمَجِّد الله.

❖ أظهر أعمال البرّ، لأنك قادر أن تحقق الأعمال حسب قدرتك. مخافتك لله وطاعتك له لا يظهران في الامتناع عن الأعمال التي فوق طاقتك، وإنما في تلك التي إذ تستطيع تنتهك الناموس، لكنك لا تنتهكه [١٠]. إن كنت تعطي الفقراء صدقة بعد أن سلبتهم ما لديهم، فكان الأفضل لك ألا تأخذ منهم ولا أن تعطيهم. لماذا تدنس ثروتك التي بالحق هي ثروتك أنت وذلك بإضافة مال ظلمٍ إليها؟ لماذا تُقَدِّم العطية من الظلم الذي تجاسرت لتقدمه رجاسة بأن تحمل نية إظهار الرحمة لفقير آخر؟ كن رحومًا لذاك الذي أخطأت إليه. أظهر له الحنو، وبهذا تُحَقِّق واجب الرحمة مع العدل. الله ليس له شركة مع الجشع، وليس الرب رفيقًا للصوص والسارقين. لم يترك لنا الفقراء لنقوتهم لأنه عاجز عن فعل هذا، إنما يسألنا أن نفعل هذا لصالحنا نحن، كثمرةٍ للرحمة والعدل[1].

القديس باسيليوس الكبير

٢. السلوك اللائق في الولائم

يربط ابن سيراخ تصرُّفات الإنسان في كل المجالات بالحكمة اللائقة بإنسان الله. يليق بالمؤمن الحامل صورة الله، وسفير السيد المسيح، أن يشهد للحياة المُطوَّبة شبه السماوية حتى في أكله وشربه، بل وفي مشيه وحركات جسمه. متى دُعِي مؤمن إلى مائدة يليق به أن يمارس ضبط النفس وضبط شهوة الأكل ليس من أجل المشتركين معه في المائدة، بل من أجل سلامة أعماقه. فمع الاهتمام بسلامة الجسد في المشاركة في الولائم يليق بنا الاهتمام بسلامة الروح.

يُقَدِّم لنا السلوك اللائق في الولائم، مثل الاعتدال في الطعام والشراب، والالتزام بسلوكٍ تقويٍ لائقٍ بأناس الله، والحرص في الأحاديث أثناء الوليمة، والسخاء بروح الحكمة.

المائدة مدرسة رائعة خلالها يتعلَّم الكل، الأطفال والشباب والبالغين والشيوخ، كيف يتمتَّعون بالحضرة الإلهية وهم على المائدة، نذكر على سبيل المثال الآتي:

أ. ليس فقط يبدأ الأكل بعد الصلاة، وإنما يشعر الكل أنهم في الحضرة الإلهية أثناء مشاركتهم في الأكل أو الحديث أثناء الطعام. يعرف الإنسان التقي أثناء الطعام متى يصمت ومتى يتكلم، وكيف يُقَدِّس كل نسمة من نسمات حياته أينما وُجِد!

ب. الولائم فرصة رائعة لا ليستعرض الإنسان زهده في الطعام أو مشاركة الآخرين فيه، وإنما ليُعَبِّر طبيعيًا عما في أعماقه من فرح الروح والشبع بالحضور الإلهي.

---

[1] *On Mercy and Justice*.

ج. تقديس الوقت حتى في لحظات الأكل والشرب. أذكر على سبيل المثال في إحدى المؤتمرات الكنسية بين الأرثوذكس الخلقيدونيين وغير الخلقيدونيين، وفي فترة تناول وجبة الغذاء بسويسرا، لاحظت نيافة الأنبا غريغوريوس أسقف الدراسات القبطية قد حوَّل عينيه لدقائق في اتجاه مُعَيَّن وهو صامت. سألته: "فيمَ تفكر؟" أجابني: "انظر إلى هذه الأيقونة الصغيرة التي على الحائط؛ إنها فن قبطي! لاحظ كيف يلتصق خدّ الطفل يسوع بخدَّ القديسة مريم! لقد صارت القديسة مريم عرشًا إلهيًا فريدًا يجلس عليه ويُعلِن حُبّه نحو البشرية في شخص أمه حسب الجسد!" وروى لي قصة رجل بريطاني لم يسمح حتى لنفسه أن يجلس على كرسي في بيته لأن الملكة فيكتوريا جلست عليه يومًا ما. يا لعظمة القديسة مريم التي جلس في حضنها ملك الملوك؟! هذا ما كان يشغل قلب نيافة الأنبا غريغوريوس وهو يتناول الطعام.

د. جلوس الأطفال مع والديهم أثناء الوليمة أو في البيت يُحسَب مجالاً رائعًا لتشكيل شخصياتهم لينقلوا في صمتٍ عن والديهم حياة الشكر وعدم النهم وعدم الانشغال بالطعام، ومراعاة الغير فلا يملأوا طبقهم أكثر مما سيأكلونه! يدركون أنهم حتى في وسط الوليمة هم أعضاء في جماعة مقدسة، تتمتَّع بعربون السماء في كل المناسبات.

هـ. الشره أو النهم شرّ عظيم.

و. يأكل الإنسان في أدبٍ مما يُقَدَّم له بتروٍ.

ز. ليكن المؤمن أول من يتوقَّف عن الأكل.

ح. لا يمد المؤمن يده للأكل قبل الآخرين.

ط. يحرم النهم الإنسان من النوم الهادئ.

ي. عدم المبالغة في شرب الخمر، لئلا يهلك الإنسان.

ك. السُكْر يثير الغضب ويضيف جراحات للنفس.

ل. في مجلس الخمر لا نُوَبِّخ أحدًا ولا نضايقه بمطالبنا.

هل تجلس إلى مائدة إنسان عظيم؟ لا تكن نهمًا،

ولا تقل: "ما أكثر الطعام الذي عليها" [١٢].

يليق بالإنسان الحكيم ألاَّ يُرَكِّز عينيه على كثرة الطعام أو تنوُّعه، بل على شبعه الداخلي وجمال أعماقه وصحة روحه أمام الله والسماء.

في مثل "لعازر والغني" (لو ١٦: ١٩-٣١)، ربط السيد المسيح بين كبرياء الغني وحياة الترف، خاصة اهتمامه بإقامة الولائم. يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [لننظر إلى كبرياء الغني الذي كان

متعجرفًا بسبب أمور ليست بذات قيمة حقيقيَّة، إذ قيل: "**كان يلبس الأرجوان والبزّ**"، أي كان همه أن يتزيَّن بلباس جميل، فكان ثوبه غالي الثمن. يحيا في ولائم لا تنقطع، هذا ما يعنيه بالقول "يتنعَّم كل يوم"، هذا بجانب القول "مترفهًا" أي مسرفًا... ماذا كانت النتيجة؟ يختلف قليلاً عن أشكال التماثيل والرسم، إذ بالحقيقة كان الغني موضع إعجاب المنهمكين في الحسيات، أما قلبه فكان مملوء كبرياءً وتشامخًا، فكان يظن في نفسه شيئًا بعجرفة، مع أنه لا يوجد في ذهنه شيء ممتاز، كان يقدم ألوانًا متباينة بسبب كبريائه الفارغ. كانت لذته في الولائم الباهظة التكلفة والموسيقى والطرب، له طباخون كثيرون يعملون لإثارة النهم بالأطعمة الشهية؛ يرتدي حاملو الكؤوس ثيابًا جميلة؛ لديه مغنون ومغنيات؛ يسمع أصوات المُتملِّقين. هكذا كان يعيش الغني، لذا يُحَذِّرنا تلميذ المسيح، قائلاً: "لأن كل ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظُّم المعيشة" (١ يو ٢: ١٦). بينما كان لعازر يعاني من المرض والفقر، مطرودًا عند باب الغني. كان الغني يسكن القاعات المرتفعة والمنازل الفسيحة الفخمة، أما الفقير فكان ملقيًا خارجًا، مُهمَلاً يبدو كمن لا يستحق شيئًا. إذ حُرِم من الحنو عليه والرعاية به، لم يجد ما يشبع جوعه، فكان يجمع الفتات الساقط من مائدة الغني. كان أيضًا يتعذَّب من مرضٍ خطيرٍ بلا علاجٍ، نعم والكلاب كانت تلحس قروحه؛ وكما يبدو أنها لم تكن تؤذيه وإنما كانت تواسيه وتحنو عليه، فبألسنتها يرطبون أتعابه وينزعون ما يؤلمه، ويلطفون من أمر قروحه. لكن الغني كان أقسى من الوحوش، إذ لم يترفَّق به ولا واساه، إنما كان عنيفًا[1].]

اذكر أن العين الشريرة شر عظيم. أي شيء خُلِق أسوأ من العين؟

لذلك تدمع لكل وجه[2] [١٣].

العين التي خُلِقَت لمساندة الروح على التمتُّع ببصيرة روحية لا تشبع من العالم كله إن قُدِّم لها، إنما ما يشبعها هو لقاؤها مع الله وشركتها معه، واستعدادها للتمتُّع بالمائدة السماوية وخبز الملائكة.

لا تمدّ يدك إلى كل ما تنظر،

ولا تُزاحِم أحدًا في طبقٍ [١٤].

المشاركة في قبول الدعوة للوليمة، لا تعني تجاهل ضبط النفس، فلا يليق بالمؤمن أن يمدّ يده إلى كل ما ينظر إليه على المائدة.

افهم ما عند قريبك[1] مما عندك،

---

[1] *In Luc Ser 111.*

[2] باليونانية *πρόσωπον*.

وترؤَ في كل أمرٍ [١٥].

كُلْ مما يوُضع أمامك، كما يأكل الإنسان،

ولا تلتهمه بطريقةٍ نهمة، لئلا تُحتقَر [١٦].

يحرص المؤمن ألاَّ يكون سببًا لاضطراب صاحب الوليمة، فيربكه بأطعمة مُعَيَّنة قد يصعب عليه تقديمها في ذلك الوقت.

كُنْ أول من يتوقَّف عن الأكل مراعاة للأدب،

ولا تكن نهمًا لئلا تسبب جُرمًا [١٧].

يشير إلى الاهتمام بطريقة الأكل، فالبعض لهم طريقة مقززة في أكلهم وكثيرًا ما تنفّر هذه الطريقة الجلوس معهم وتثير اشمئزازهم مثل إحداث صوت من الحلق عند تجرع الماء، والأكل بطريقة تنم عن النهم وعدم النزاهة[٢].

وإذا جلست إلى مائدة بين كثيرين،

فلا تمدّ يدك قبلهم [١٨].

يليق بالمؤمن أن يمدّ يده إلى الطعام بعد أن يبدأ الكل وينتهي منه قبل الكل.

❖ علامة الشخص المعتدل، أن يأخذ كمية قليلة عند الأكل أو الشرب، ولكن تفعل هذا في وقتٍ مناسبٍ؛ فلا تتسرَّع لكي تكون أنت المبتدئ بالأكل، وتتردد هنا وهناك لكي تكون أنت أول المنتهين من الأكل فتأخذ اتجاهًا بعدم المبالاة[٣].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ علامة الإنسان الضابط لنفسه، أن يأخذ كمية قليلة عندما يأكل أو يشرب، ولكن يفعل ذلك في وقتٍ مناسبٍ، فلا يتسرَّع بقدر الإمكان، في بداية أكله، ولا يتلكأ هنا وهناك. ويكون أول من ينتهي من الأكل، ويراعي ألاَّ يبرز عدم المبالاة. يقول الكتاب: "كن أول من يتوقف عن الأكل مراعاة للأدب... وإذا جلست إلى المائدة بين كثيرين، لا تمد يدك قبلهم" (راجع سي ٣١: ١٩).

ليس من حاجة للقول إنه لا يليق بنا ألاَّ نميل إلى الأمام لكي نبدأ بأخذ الطعام وذلك بدافع النهم، كما لا يليق بنا أن نبتعد جدًا ونعترف بعدم ضبط أنفسنا خلال خطأنا.

---

[١] بحسب *NRSV* مشاعر قريبك.

[٢] الأنبا مكاريوس. .

[3] *Paedagogus, Chapter 7:55.*

وفي نفس الوقت لا نقف كمن نحرس طعامنا مثل الحيوانات التي تقف متحفزة لطعامها، ولا نخضع للذة خلال ملذات الطعام الكثيرة. إنه علامة ضبط النفس أن نقوم من المائدة قبل الجميع وننسحب منها بروح التواضع. قيل: "إذ آن الوقت فقم ولا تتأخر، أسرع إلى بيتك ولا تتسكع" (راجع سي ٣١: ١١)[1].

القديس إكليمنضس السكندري

ما أقل ما يكتفي به الإنسان المتأدِّب،
وعلى فراشه لا يتنفَّس بصعوبة [١٩].

الاكتفاء بأكل القليل مما يُقَدَّم للشخص ليست وصية خاصة بالرهبان، إنما يليق بكل المسيحيين الالتزام بها.

الرقاد الصحي يتوقَّف على الاعتدال في الطعام. يقوم مبكرًا بروحٍ صالحةٍ.
أما النهم فيُصاحِبه القلق بسبب الأرق والتقيؤ والمغص [٢٠].

يعتمد النوم الصحي على الاعتدال في الأكل. **يحدثنا القديس يوحنا الذهبي الفم** عن رذيلة شهوة الطعام الفاخر، موضحًا أن هذه اللذة سرعان ما تتوقَّف بملء البطن، وأحيانًا قبل الشعور بالشبع، إذ يفقد الإنسان جاذبية هذه اللذة والطعام لا يزال بعد في الفم لم يبلعه الشخص.

❖ لنختبر أولاً رذيلة اللذة بخصوص المائدة الفاخرة الجذابة للغاية...

في اللحظة التي يبدأ الشخص يشعر بالشبع، تتوقَّف اللذة. بل وأحيانًا تتوقَّف بسرعة أسرع من مجرى ماء متدفق. وأحيانًا لا تبقى اللذة حتى بلع الطعام نفسه، وإنما تتوقَّف والطعام بين الأسنان.

لست أتحدث عن الشرور التي تتبع ذلك، ومدى خطورة العاصفة التي تصدر عن ملذات المائدة. بالحقيقة الشخص الذي يمتنع (عن اللذة) ليس فقط يشعر براحة، بل ويشعر أنه خفيف وفي راحة أكثر من ذاك الذي يرقد في مخدعه وهو مُثَّقل بمعدة متخمة. يقول الكتاب النوم الصحي يعتمد على الاعتدال في الأكل. هل من حاجة أن تستدعي الأمراض، وعدم الهضم، والمحن، والتبذير؟ إنها من مثل هذه الوجبات[2].

❖ نقرأ: "رقاد الصحة لقناعة الجوف الاعتدال في الأكل (راجع سي ١٣: ٢٠). في أي شيء

---

[1] *Paedagogus, FOTC, vol. 23, p. 141-142.*

[2] *Against the Opponents of the Monastic Life 2: 10.*

تحتفظ بالمعيار المناسب يكون مبهجًا، أما من يتعدَّى المعيار، فيفقد المَسرَّة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

إذا أُتخمت بالطعام،

فقم في وسط الوجبة وتوقَّف عن الأكل [٢١].

هذه عادة رديئة كانت منتشرة بين الرومان، متى كان الشخص مدعوًا لأكثر من وليمة، كان يقوم بعد الطعام ويدخل إلى الحمام ويتقيأ الطعام، ومن ثم يعد نفسه للوليمة التالية. ربما يعطي هنا نصيحة للشخص الذي اضطر إلى الإكثار من الطعام تحت ضغط المُضيف.

اسمع لي يا بني ولا تستخفّ بي، فستُدرِك أن أقوالي هامة.

في جميع أعمالك، كُنْ مستعدًا، فلا يلحق بك مرض [٢٢].

يخشى ابن سيراخ أن يستخفّ البعض بأقواله بسبب دخوله في تفاصيل حياتية، لكنه يود أن يصل القارئ إلى حالة الاعتدال في كل شيءٍ.

السخيّ في (تقديم) طعامه تُطَوِّبه الشفاه،

وشهادتهم لسموّه موثوق بها [٢٣].

من كان بخيلاً بالطعام، تتذمَّر عليه المدينة،

وشهادتهم لبخله شهادة صحيحة [٢٤].

بينما يوبخ الضيف الشره، يحثّ المضيف على تقديم كل ما يمكن بسخاء لضيفه.

لا تثبت شهامتك (بشرب) الخمر،

فقد أهلكت الخمر كثيرين [٢٥].

كما أن الأتون يمتحن صلابة الفولاذ في عملية إصلاحه،

هكذا تمتحن الخمر القلوب في قتال المتكبرين [٢٦].

❖ هؤلاء جديرون بالشفقة الذين يعتزلون الاعتدال في تجمعاتهم، ظانين أن حياتهم أسعد عندما تتحوَّل إلى الشرب الماجن. حياتهم ليست إلاَّ احتفالات سُكْر ماجن، مملوءة بالمتاعب (صداع)، تتسم بالبطالة والشرب الخ. ترى بعضهم بالحقيقة نصف سكارى، يتلعثمون في الكلام مع بعضهم البعض، يضعون أكاليل حول رقابهم وكأنها زجاجات (سُكْر)، وتحت ستار الصداقة الصادقة كل

---

[1] *On Acts Of The Apostles, Homily 16*

منهم يبصق خمرًا على الآخرين... حسنًا قيل: "مثل الأتون الذي يمتحن الفولاذ الصلب الذي يُلقَى فيه، هكذا الخمر تجعل القلب متكبرًا" (راجع سي ٣١: ٢٦)[1].

القديس إكليمنضس السكندري

الخمر تُشبِه حياة للإنسان إذا اعتدلت في شربها، أية حياة لمن ليس له خمر؟
فهي خُلِقَت لتُبهِج الناس [٢٧].

الخمر ابتهاج القلب وسرور النفس
لمن يشرب منها في وقتٍ مناسبٍ وباعتدالٍ [٢٨].

كانت الخمر في العهد القديم تشير إلى السرور والفرح (قض ٩: ١٣؛ مز ١٠٤: ١٥). فعندما تقدَّمت السيدة العذراء إلى السيد المسيح في عُرْسِ قانا الجليل، قالت له "**قد فرغ الخمر**"، وهو ما يعني أن الفرح قد انقطع من إسرائيل، وهذا ما قصده ابن سيراخ هنا.

الإفراط من شرب الخمر مرارة للنفس،
ويجلب الإثارة والزلة والسقوط [٢٩].

❖ يقول الكتاب: "لا تكونوا مفرطين في الخمر، لأن الخمر حطمت كثيرين" (راجع سي ٣١: ٢٩). ينشغل السكيثيون والسلتيون (من عرق هندي أوربي كانوا يقطنون أواسط أوربا وغربها) وشعب جزيرة إيبريا) بالشرب بدون حدود، وكانوا جميعًا شعوبًا مقاتلة، ويظنون أنهم يمارسون عملاً نبيلاً مبهجًا. ليتنا نحن الشعب المُسالِم نحتفل بأعيادنا ونشرب كؤوس الصداقة بدون خمرٍ، وذلك لكي نُسرّ، دون أن نرتكب خطية[2].

القديس إكليمنضس السكندري

السُكْر يهيج غضب الغبي لأذيَّته،
ويُقَلِّل قوته، ويضيف جراحاته [٣٠].

❖ يقول الكاتب التراچيدي *Tragedian*: "كل إنسان تغلبه الخمر يصير ساقطًا تحت أهوائه وفارغًا من العقل، ينطق بثرثرة باطلة، ويلتزم بغير إرادته أن يسمع أمورًا قالها بإرادته". قبل هذا كُتِب تحذير للحكمة: "السكر المبالغ فيه يثير مشاحنات ويُسَبِّب خرابًا كثيرًا" (راجع سي ٣١: ٣٠)[3].

---

[1] *Paedagogus, FOTC, vol. 23, p. 116-117.*

[2] *Paedagogus, FOTC, vol. 23, p. 120-122.*

[3] *Paedagogus, FOTC, vol. 23, p. 113-124.*

في مجلس الخمر لا تُوَبِّخ قريبك، ولا تحتقره في لهوه.
ولا تنطق بكلمة إهانة ضده، ولا تُحزِنه بمطالب تطلبها منه [٣١].

في حديث **البابا غريغوريوس (الكبير)** عن الرعاية، يؤكد الالتزام بالعمل في اللحظة المناسبة. يدعونا للعمل بلا تخوُّفٍ وإنما بروح الحكمة[1].

❖ إذ يعرف الله أن شرب الخمر باعتدال صحي ويزيد من التمييز، بينما من يتجرعه بلا مقاييس يُوَلِّد رذائل (راجع سي ٣١: ٢٨-١٩)، أعطانا هذه الخليقة. ترك للبشرية الحرية، إمكانية استخدامها بوفرة، حتى باستخدام كمية ضئيلة يكون درسًا في الرزانة، وحال الطبيعة البشرية يتحمَّل الخطأ والدمار من إساءة استخدامه وارتكاب جريمة السكر. صار نوح سكرانًا ومترنحًا بسبب الخمر، فسقط في نومٍ عميقٍ (تك ٩: ٢١). بهذا الطريق ذاك الذي اقتنى مجدًا خلال الطوفان، صار في خزيٍ بالخمر. ومع ذلك حفظ الرب السمات الصالحة في الخمر بطبيعته، حتى جعل ثمرها يساهم في خلاصنا، وجعلنا ننال غفران الخطايا باستخدامه (في القداس الإلهي)[2].

القديس أمبروسيوس

❖ ليتنا نبتعد كل البعد عن المزاح، فهو بداية السبّ، به تتطوَّر مخاصمات شديدة والعداوات العائلية وقيام الأعداء. نعتقد أن العجرفة مرافقة للسُكر... يقول الكتاب: "في مجلس الخمر لا توبخ جارك"[3].

القديس إكليمنضس السكندري

من وحي سيراخ ٣١

مشتاق أن أَتمتَّع بالمائدة السماوية!

❖ هب لي يا رب الأمانة في القليل الذي وكَّلتني عليه،
فتُقِيمني على الكثير الذي تعدّه لي.
بحكمتك أُتاجِر في الوزنات هنا، لأَتمتَّع بالأمجاد في الأبدية.

---

[1] *Pastoral Rule 3: 15.*

[2] *Hexameron 5: 17: 72.*

[3] *Paedagogus, Chapter 7: 53.*

انزع عنّي كل تعلُّق بالثروة الزمنية، فأَتمتَّع بسلامك في يقظتي كما في نومي.
أَتمتَّع بصحة الروح كما بصحة الجسد.
أبسط يدي للعطاء لا للأخذ.
أُدَبِّر ما لديّ بحكمة، فلا يستعبدني شيء ما.
لن أكون أسيرًا للحزن ولا للألم، بل أَتمتَّع بمجد أولاد الله.
عوض الحياة المترفة، أرتدي برَّك البهي.
لا أُكرِّس قلبي للزمنيات الزائلة، بل لك يا أيها السرمدي.

❖ وعدتني أنك صاعد تُعِدّ لي مكانًا.
أي مكان تُعدّه لي سوى أن تُهيّئني أن أستقرّ في أحضانك؟!
إستير الملكة لم تكن تُسَرّ بالجلوس على مائدة الملك، بل تتمتَّع بمائدة السماء!
من أجل المحبة أشترك مع إخوتي، دون شهوة للأكل أو الشرب.
حين أبدأ بالصلاة على المائدة، أطلب ألا تحرمني من خبز الملائكة.
أريد أن أَسكَرَ بحبك الإلهي، فتتهلل نفسي.
طعام العالم إن زاد قليلاً، يُربِك نفسي وجسدي.
أما طعام السماء، فيزيد جوعي وعطشي إليك، يا مُشبِع النفوس!

الأصحاح الثاني والثلاثون

الحكمة في قيادة الموائد والحفلات

اهتم الأصحاح السابق بالآداب اللائقة بالإنسان الحكيم حين يشترك في مائدة أو وليمة، أما هذا الأصحاح فيهتم بسلوك قائد المائدة ودوره العملي بروح الحكمة والتعقُّل.

انتشرت الولائم في منطقة فلسطين بتأثير من الإغريق ثم الرومان. كانت مثل عشاء عمل، حيث تُناقَش فيها قضايا على أعلى مستوى من الأهمية والخطورة. ونظرًا لما كان يحدث فيها من تجاوزات، حذَّر منها الربيون كثيرًا. أما ابن سيراخ فيوصي بالتزام اللياقة والحكمة[1].

١. قيادة المائدة [١-٣].

٢. الثرثرة في الحفلات [٤-١٣].

٣. التعقُّل والتمييز [١٤-٢٤].

١. قيادة المائدة

قديمًا كانت قيادة وليمة تُعتبَر تكريمًا عظيمًا للشخص. متى أُقِيم الإنسان التقي رئيسًا على المائدة يضع في قلبه أنه كواحدٍ من كل الحاضرين، يتَّسِم في تعامله بروح التواضع، والاهتمام بكل المدعوين أيًا كانت مراكزهم.

هل أقاموك رئيسًا للوليمة؟ لا تتكبَّر،

بل كن كواحدٍ منهم،

اهتمّ بهم وعندئذٍ اجلس [١].

غاية الولائم ممارسة الحُبّ وشركة الفرح وممارسة الإخوَّة بروح الوداعة، لذلك يلتزم قائد المائدة بسمات خاصة، منها لا يظن أنه في مركز الرئاسة والتحكُّم في تدبير أمور المائدة، إنما يحسب نفسه واحدًا من المشتركين في المائدة، يلتزم باللطف بروح الحُبّ والحكمة، وأنه مدعو لكي يخدم الحاضرين لا أن يُخدَم.

❖ انظروا كيف القائد الذي قادهم إلى الأرض المقدسة، أرض الموعد، هو نفسه كان من الشعب. كان خلفًا لموسى، ومع ذلك لم يسمح لنفسه أن يطالب بنصيبٍ من الأرض. فمع كونه قائد الشعب انتظر ليأخذ النصيب الصغير، استحق ذاك الذي يُدَعى يشوع (يسوع) أن يبني الموضع

---

[1] الأنبا مكاريوس.

الذي تسلَّمه وأن يقوم بتعميره، حتى يجعله بحقٍ لائقًا بكونه عطية الله وميراثًا إلهيًا... سحب (يشوع بن نون) القرعة للجميع وترك لنفسه آخر موضع. ماذا تظن، لماذا أراد أن يكون هو الأخير؟ بالتأكيد ليكون أول الكل (مت ١٩: ٣٠)[1].

العلامة أوريجينوس

بعد القيام بكل واجباتك، اجلس إلى المائدة،

لكي تفرح لحسابهم، وتنال إكليلاً لحُسْنِ قيادتك [٢].

يليق بالقائد أن يدرك مسئولياته من جهة الطعام وتدبيره، وأن يلاحظ ويُوَجِّه الحوار بين الحاضرين، لا في مزاحٍ غير لائق، ولا في جدية جافة. يليق به ألاَّ تدور حوارات حادة بل مرحة مملوءة حبًا ونافعة. الحوار المُبهِج هو إكليل المائدة المُعدّة بطريقة لائقة. يجب تأجيل بعض المناقشات إلى الوقت اللائق بها، كما أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان (مت ٤: ٤).

كذلك المائدة ليست المكان المناسب لحوارات جافة.

تكلّم أيها الشيخ، فإنّك أهل لذلك،

تعمل بمعرفةٍ دقيقة، ولا تُعطِّل الموسيقى [٣].

في تدبير الشخص لقيادة الوليمة يليق به أن تكون الوليمة أيقونة حية لوليمة عشاء الحمل (رؤ ١٩: ٩)، يسودها الموسيقى الهادئة لا الصخب.

٢. الثرثرة في الحفلات

لا تطلق كلامك في حفلٍ،

ولا تأتِ بالحكمة في غير وقتها [٤].

المائدة ليست مجالاً لاستعراض بلاغة الإنسان أو حكمته أو مواهبه وقدراته.

❖ في رأيي يجب وضع حدود للكلام، إن أراد أحد أن يُمارِس ضبط النفس، فحدوده هو أن يقف عند الإجابة على الأسئلة المُوَجَّهة إليه، حتى وإن كان قادرًا على الكلام.

القديس إكليمنضس السكندري

حفلٍ موسيقيٍّ في مائدة خمر،

كفص من ياقوت في حلي من ذهب [٥].

---

[1] *Homilies on Joshua 24: 2.*

إذ يُفَضِّل سيراخ الموسيقى الهادئة مع القليل من الخمر، يعني أن يسود المائدة جو من الحُبّ والفرح، فليست المائدة مجالاً للحديث عن أفكارٍ عميقة يصعب تتبُّعها، ولا أن يسودها روح الجدل الذي قد يتحوَّل إلى نوعٍ من الاحتداد في الأسلوب. يقول **العلامة ترتليان:** "الجدل في الأسفار المقدسة لا يفيد شيئًا. هذا واضح، إنه يُسَبِّب تعبًا لمِعْدَةِ الإنسان أو فكره."

في العصور الأولى، كان المسيحيون ممنوعين من الأكل مع الهراطقة، ربما خشية أن تتحوَّل المائدة إلى جوٍ من الجدال الجاف.

لحن موسيقي على خمر لذيذة،

كفص من زمرد في مصوغ من ذهب [٦].

تكلم يا شاب متى دعتك الحاجة،

مرتين بالأكثر إن سُئلت مرارًا [٧].

يُقَدِّم لنا وصايا خاصة بسلوك الشاب في الوليمة، فهي ليست فرصة لاستعراض شخصيته المرحة بتطرُّفٍ بالضحك بصوتٍ عالٍ وأحاديث باطلة غير بنَّاءة. يُطالِبه ابن سيراخ أن يُقَلِّل من كلامه في الوليمة، ربما لكي يكون بالأكثر مصغيًا، فينتفع بخبرة الآخرين.

كن مقتضبًا وعَبِّر عن الكثير بكلمات قليلة،

وكن كمن يعرف، لكنه يُمسِك لسانه [٨].

الإيجاز في الكلام أثناء الطعام فعَّال وعملي. كثرة الكلام مهما كان موضوع الحديث يُشَتِّت الفكر، خاصة على مائدة الطعام. كلما قَلَّل الشاب الكلام، يصير موضع تقدير الحاضرين وإعجابهم، خاصة وأن العظماء والشيوخ لا يميلون إلى الاستماع كثيرًا.

❖ على هؤلاء أن ينتبهوا بأن فراخ الطيور عندما تُحاوِل الطيران قبل أن تَقْوي أجنحتها، تسقط من فوق حيث كانت تحاول التحليق. كذلك عليهم أن يفهموا أنه إذا وضعنا قوائم الخشب الثقيلة على هياكل البناء التي لم تقوَ بعد فالنتيجة تكون لا معيشة حياة بل دمارًا وموتًا.

كذلك عندما تلد النساء أطفالاً لم يكتمل نموهم، يملأون قبورًا بالموتى، وليس بيوتا بالحياة. لذلك يُعَلِّم الحق ذاته تلاميذه عن قوة التعليم هذا الذي أراد أن يُقَدِّم مثالاً لأتباعه بألا يُقْدِموا على خدمة التعليم بدون أن تكتمل قدرتهم على ذلك. وهو الذي كان يمكن أن يعطي القوة في الحال لمن يريد أن يقويه، أضاف قائلاً في الحال: "**فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من الأعالي**" (لو ٢٤: ٤٩).

إن البقاء في المدينة يعني الاعتكاف بيننا وبين أنفسنا حتى لا نتجوَّل كمُعَلِّمين إلا إذا لبسنا القوة الإلهية. عندئذ فقط نخرج خارجًا من التأمل في أعماق نفوسنا إلى حيث يمكن أن نُعَلِّم الآخرين. لذلك قيل بلسان الحكيم: "تكلم يا شاب لكن نادرًا متى دعتك الحاجة. إنْ سُئلتَ مرتين فجاوب بالإيجاز" (راجع سي ٣٢: ١٠-١١).

لأجل هذا مُخَلِّصنا ذاته وهو الخالق وهو الجالس في السماوات يُعلِمْ الملائكة على الدوام بإعلان قوته الفائقة، لم يرد أن يكون معلمًا للناس على الأرض قبل سن الثلاثين. ومن الواضح أنه كان يريد أن يبثّ في هؤلاء المُتسرِّعين خوفًا مقدسًا عندما يرون أنه وهو الذي بلا خطيئة لم يتقدَّم للتعليم بنعمة الحياة الكاملة إلا عندما بلغ كمال العمر. وهنا تبين الأناجيل: "ولما كانت له اثنتا عشرة سنة... بقي... الصبي يسوع في أورشليم" (لو ٢: ٤٢-٤٣). ولما كان أبواه يطلبانه "وجداه في الهيكل جالسًا في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم" (لو ٢: ٤٦)[١].

البابا غريغوريوس (الكبير)

في جماعة العظماء، لا تساوِ نفسك بهم،
وإن تكلم غيرك، قَلِّل كلامك [٩].

البرق يضيء قبل الرعد،
والنِّعم[٢] تتقدم الإنسان المتواضع [١٠].

الوليمة فرصة رائعة لإبراز الحب بروح التواضع، دون توقُّع كلمات مديح من الحاضرين.

❖ إن حملنا فكر الله المُقَدَّس كختمٍ لا ينفك، ينطبع على قلوبنا بالذكرى الدائمة الطاهرة. بهذا نصير شركاء في حُبِّ الله، الذي يوحي إلينا بإتمام وصايا الرب، ويبقى ذاته محفوظًا فينا بلا تشتيتٍ[٣].

❖ هذه شهادة لا يستطيع أحد أن يتنكَّر لها، أنه لو أتممنا كل الطقوس وأعمال البرّ، وحفظنا كل وصايا الرب، وصنعنا عجائب عظيمة بدون المحبة، فإنها تُحسَب كأعمال إثم وليس كمواهب للروح، لا لأن شيئًا ما معيبًا في هذه الأعمال ذاتها، بل لأن من يقوموا بها كل غاياتهم هي أن يُعَظِّموا ذواتهم، كما يقول الرسول: الذين "يظنُّون أن التقوى تجارة" (١ تى ٦: ٥). وفي موضع آخر يقول: "أما قَوْم فعن حسدٍ وخصامٍ يكرزون بالمسيح، وأما قَوْم فعن مسرَّة، فهؤلاء عن تحزُّب

---

[١] البابا غريغوريوس (الكبير): الرعاية، ج ٣، ف ٢٥، عظة ٢٦، ترجمة جورج فهمي حنا، ٢٠٠٤.

[٢] باليونانية *χάρις*.

[3] *Reg. Fus. 52.*

ينادون بالمسيح لا عن إخلاص، ظانين أنهم يُضِيفون إلى وثقي ضيقًا" (في ١: ١٥-١٦). وفي موضع آخر يؤكد: "فإننا لم نكن قط في كلام تملُّق كما تعلمون، ولا في عِلَّة طمع، الله شاهد! ولا طلبنا مجدًا من الناس، لا منكم ولا من غيركم، مع إننا قادرون أن نكون في وقارٍ كرسل المسيح" (١ تس ٢: ٥-٦)[١].

❖ في كل مرة نحني الركبة ونقوم، نُظهِر بهذا العمل أن الخطية تطرحنا أرضًا، ومحبة المسيح تدعونا إلى السماء[٢].

القديس باسيليوس الكبير

❖ ما هو رأس الفضائل؟ التواضع! لذلك بدأ (السيد المسيح) به، قائلاً: "طوبى للمساكين" (مت ٥: ٣؛ لو ٦: ٢٠). هذا الرأس ليس فيه خصلة طويلة من الشعر ولا شعر على شكل حلقات بل فيه جمال لكي تجتذب الله إليه. عنه يقول: "إلى هذا أنظر، إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامي" (إش ٦٦: ٢)؛ و"عيناي على ودعاء الأرض" (راجع مز ١٠١: ٦)؛ و"قريب هو الربّ من المنكسري القلوب" (مز ٣٤: ١٨)... هذا هي والد الحكمة. متى كانت لدى أحد، تكون له بقية الفضائل أيضًا... إنه يسكب جمالاً عظيمًا حتى على الأعضاء الأخرى. إن خلط أحد ألوانًا بلا حصرٍ، لن تجلب مثل هذا الجمال[٣].

القديس يوحنا الذهبي الفم

قم لتترك الموضع في وقتٍ مناسبٍ، ولا تتباطأ.

أسرع إلى بيتك ولا تتكاسل [١١].

يدعونا إلى مراعاة تقديس الوقت، فلا يليق التباطؤ والإفراط في السهر، حرصًا على صحة الشخص. ومن جانب آخر يليق ألاَّ تكون الوليمة على حساب مسرَّة العائلة خاصة الأطفال، أو على حساب عبادة الشخص في بيته. الترفيه في البيت أفضل من السهر في الحفلات.

هناك تُسر، وتصنع ما يبدو لك،

ولكن لا تخطئ بكلام الكبرياء [١٢].

وبارك خالقك على هذه كلّها،

---

[١] راجع الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيشوي: المعمودية المقدسة، ٢٠٠٨، ص ٣٢-٣٣ (ك ١، ف ٢، ب ٢٥).

[2] *Treatise on the Holy Spirit, 27.*

[3] *Homilies on Matthew 47: 4.*

الذي يُشبِعك بخيراته [١٣].

إن كان يلزم افتتاح الوليمة بالصلاة لكي يبارك الربّ الطعام، ويقود الحاضرين إلى فرح الروح بحضرته الإلهية حتى أثناء تناول الطعام، يليق بالشخص أن يُقَدِّم ذبيحة شكر على ما تمتَّع به من جوٍ روحيٍ مُبْهِجٍ.

٣. التعقُّل والتمييز

من يخاف الرب يَقْبَل التعليم،

والمُبَكِّرون إليه ينالون رضاه [١٤].

يمدّ الله يده طوال النهار (إش ٦٥: ٢)، كل من يُبَكِّر إليه ويسعى بجدية في طلبه يجده، إذ يُقَدِّم له الباكورة، فيَنال رضاه. "أُحِبَ الذين يحبونني، والذين يُبَكِّرون إليّ يجدونني" (أم ٨: ١٧)

من يطلب الشريعة يمتلئ بها،

وأما المرائي فيتعثَّر فيها [١٥].

يربط بطريقة غير مباشرة بين مخافة الربّ وطلب الشريعة، إذ يقول إن مخافة الربّ تُعِدّ المؤمن لقبول التعليم، ويكمل بقوله إن من يطلب الشريعة يمتلئ بها، فيصير تقيًا خائف الربّ وليس مرائيًا [١٥]. المرائي هنا يعني ذاك الذي يعرف الشريعة ويتعمَّد تجاهلها في فكره وقلبه وسلوكه، وإن كان يمارس بعض مظاهر التدين. في عصر ابن سيراخ كان بعض اليهود يفتخرون بالشريعة ويحفظونها عن ظهر قلبٍ لكنهم لا يعيشونها.

الذين يخافون الربّ، يكتشفون الحُكم (العادل)،

وكالنور يضيئون أعمالاً بارة [١٦].

في تسلسل رائع وربط عجيب يبدأ ابن سيراخ بالمخافة الإلهية التي تهب رضا الربّ ومسرَّته بأولاده [١٤]، أما ثمر ذلك فشوق المؤمن للتمتُّع بعذوبة الشريعة والامتلاء بها دون تعثُّر، الأمر الذي لا يتمتَّع به المرائي [١٥]. بهذا يدخل خائف الرب إلى أعماق جديدة، فيكتشف جمال التمييز والتعقُّل، ويُمارِس أعمال البرّ خلال النعمة الإلهية كنورٍ يشرق من أعماقه [١٦]

الإنسان الخاطئ يرفض الإصلاح،

ويجد حُججًا توافق مُبتغاه [١٧].

الإنسان الحكيم يهتم بإصلاح نفسه على الدوام، أما الخاطئ المستهتر فيتجاهل ذلك.

❖ جاء في إرميا: "قد أخطأت أورشليم خطية عظيمة، من أجل ذلك صارت في صخبٍ؛ كل مكرميها

يحتقرونها، لأنهم رأوا عورتها" (مر ١١: ٨). على أي الأحوال إنه يُخَفِّف من صرامة الاتهام وغلاظته، مظهرًا عذوبة معلمه، قائلاً: "يا ابني لا تحتقر تأديب الربّ، ولا تكره توبيخه. لأن الذي يحبه الربّ يؤدبه، وكأبٍ بابنٍ يُسرّ به" (أم ٣: ١١-١٢)، بينما "الإنسان الخاطئ يرفض التوبيخ" [١٧]. لذلك يقول الكتاب: "ليتهمني الصديق ويؤدبني، أما زيت الخطاة فلا يدهن رأسي" (مز ١٤١: ٥)[1].

القديس إكليمنضس السكندري

صاحب المشورة لا يتجاهل التفكير،
أما الغريب والمتكبر فلا يرتعبان في خوف [١٨].

لا تعمل شيئًا بغير مشورة،
ولا تندم على عملك [١٩].

الإنسان الجاد في خلاص نفسه يهتم بالتفكير العميق للشريعة، ويَقْبَل مشورة العقلاء والحكماء. التجاء المؤمن إلى المشورة يبثّ فيه روح التواضع، فلا يسقط في الكبرياء.

❖ أيها الأخ، يقول الكتاب المقدس: "افعل كل الأمور بمشورة، وبدون مشورة لا تفعل شيئًا". عندما كنت تفعل بدون مشورة بل بمشيئتك الخاصة، لم تكن تجاهد مع ذهنك. لأنه لا يوجد أحد لا يحتاج إلى مشورة إلاَّ الله وحده الذي خلق الحكمة. ولكنك عندما طلبت أن تقطع هواك بحسب فكر الله وتبلغ إلى التواضع، وأن تتخذني أنا أخاك الصغير جدًا كمشيرك، فقد أثرت حسد الشيطان عدو الخير، الذي يحسد جميع الناس على الدوام[٢].

❖ إن كنت لم تبلغ بعد المستوى الروحي، ولا زلت على المستوى الجسدي، تواضع بذهنك، واخضع لمُعَلِّمِك، حتى يُعَلِّمك بحنوٍ، و"بدون مشورة لا تفعل شيئًا" حتى إن بدا لك صالحًا، لأن نور الشيطان يُعلن في النهاية أنه ظلمة. إذن إن سمعت أو فكرت أو رأيت شيئًا دون أقل مجهود في قلبك، فلتعلم أن هذا من قِبَل الشيطان[٣].

القديسان برصنوفيوس ويوحنا

❖ **سؤال: يوصي الرب: "من سخرك ميلاً واحدًا، فاذهب معه اثنين" (مت ٥: ٤١). ويُعَلِّمنا الرسول**

---

[1] *Paedagogus 1: 9.*

[٢] فردوس الآباء، ج ٣، رسالة ٦٧ *Letter 66, FOTC, vol. 113, p. 87-88*

[3] *Letters, FOTC, vol. 113, -.143-144.*

أن نخضع بعضنا لبعضٍ في خوف المسيح (أف ٥: ٢١)، فهل نلتزم بالطاعة لكل أحدٍ، لأي إنسان يعطينا أوامر؟

الإجابة: يختلف الأمر حسب الذين يعطون الأمر، يلزمهم ألا يجحفوا طاعة الذين يتقبَّلون الأمر. موسى لم يرفض أن يسمع لحميه يثرون عندما قَدَّم له مشورة صالحة (خر ١٨: ١٩). لكن بالتأكيد يوجد اختلاف ليس بالهيّن في الأوامر، فالبعض يُقَدِّمون أوامر ضد وصايا الرب، وآخرون يفسدون وصايا الرب، يُزَيّفونها بطرقٍ متنوعة بمزجها بأمورٍ ممنوعةٍ، وآخرون يعطون أوامر تتَّفِق مع الوصية. آخرون أيضًا وإن كانوا لا يتَّفِقون مع الوصية بوضوح، غير أنهم يساهمون ويساعدون على تنفيذها. إذن من الضروري أن نتذكَّر وصية الرسول القائل: "لا تحتقروا النبوات؛ امتحنوا كل شيء، تمسّكوا بالحسن. امتنعوا عن كل شبه شرّ" (١ تس ٥: ٢٠-٢١). مرة أخرى يقول: "هادمين ظنونًا وكل علوٍّ يرتفع ضد معرفة الله، ومستأسرين كل فكرٍ إلى طاعة المسيح" (٢ كو ١٠: ٥). بهذا إن أُمرنا أن نفعل شيئًا يتفق مع وصايا الرب أو ما يساهم في إتمامها أو يساند النفس، يلزمنا أن نَقْبَل الأمر بغيرة واهتمام حسب إرادة الله، ونُحَقِّق المكتوب: "محتملين بعضكم بعضًا في المحبة التي للمسيح" (أف ٤: ٢).

أما إذا أُمرنا أن نفعل شيئًا ضد وصايا الرب، أو شيئًا يبدو أنه يُفسد الوصية أو يزيّفها، فقد حان الوقت للقول: "ينبغي أن يُطَاع الله أكثر من الناس" (أع ٥: ٢٩)، ونتذكَّر الربّ القائل: "أما الغريب فلا تتبعه، بل تهرب منه، لأنها لا تعرف صوت الغرباء" (يو ١٠: ٥).

يليق بنا أن نأخذ بعين الاعتبار الرسول الذي أراد أن يُعِيد تأميننا، فتجاسر ليتحدث حتى عن الملائكة قائلاً: "ولكن إن بشّرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشّرناكم فليكن أناثيما" (غل ١: ٨).

من هذه الأقوال نتعلَّم أنه حتى إن كان الشخص عزيزًا علينا جدًا، وربما في مركزٍ كبيرٍ وموضع إعجاب، لكنه يعرِّفنا ما يطلبه ربّنا، أو يأمرنا أن نفعل شيئًا يمنعه الرب، هذا الشخص يلزم نبذه، ويُشجب بواسطة كل الذين يُحِبّون الرب[1].

القديس باسيليوس الكبير

❖ المتسرِّعون يقضون على كل فعل صالح، ويسقطون في الشر بسبب عدم تمييزهم للأعمال الصالحة. مثل هؤلاء لا يفكرون فيما يفعلونه ولا متى يفعلونه. إنهم لا يدركون أنه كان ينبغي ألا يُفعل أمر ما إلا بعد انقضائه. لهؤلاء يوجه ابن سيراخ قوله المناسب: "لا تعمل شيئًا بغير مشورة،

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 114.*

فلا تندم على عملك" (راجع سي ٣٢: ١٩). ويقول (سليمان) أيضًا: "(لتنظر عيناك إلى قدامك) وأجفانك إلى أمامك مستقيمًا" (أم ٤: ٢٥). وهذا لا يتم إذا لم تسبق المشورة أفعالنا. والذين لا يفحصون أفعالهم، يتقدَّمون ولكن بعيون مغلقة. هؤلاء يسقطون بسرعة حيث أغفلوا جفون المشورة فزلت أقدامهم[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

لا تَسِرْ في طريق مملوءة بالعقبات،
ولا تعثر في أرضٍ حجريّة [٢٠].

لا تثق بمبالغة في طريق غير مفحوصة [٢١].

الإنسان الحكيم يتجنَّب الطرق المملوءة بالعثرات. وفي نفس الوقت يلزمه أن يسلك بحذرٍ لئلا توجد عثرات خفية [٢٠- ٢١].

واحترز من أولادك [٢٢].

في جميع أعمالك سَلِّم نفسك للربِّ،
فإن ذلك حفظ للوصايا [٢٣].

❖ **سؤال: هل الكلمة تسمح لنا أن نفعل الصلاح كما يحلو لكل واحدٍ منا؟**

الإجابة: من يرضي نفسه، يرضي إنسانًا، لأن كل واحدٍ منا هو بشر. لكن عندئذ "ملعون الرجل الذي يتَّكِل على إنسان، ويجعل البشر ذراعه" وهذا واضح فيمن يتَّكِل على نفسه. ويُضَاف إلى ذلك:" وعن الرب تحيد نفسه (قلبه)" (إر ١٧: ٥).

هكذا من يرضي آخر، أو يفعل شيئًا لإشباع ذاته يسقط من التقوى، ويسقط في التردُّد لنفعٍ بشريٍ. يقول الرب: "كل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس" (مت ٢٣: ٥؛ ٦: ٢). ويعترف الرسول: "فلو كنت بعد أرضي الناس، لم أكن عبدًا للمسيح" (غل ١: ١٠). لكن يوجد تهديد أخطر يُقَدِّمه كتاب الله المقدس، قائلاً: "الله قد بدَّد عظام الذين يرضون البشر (مز ٥٢: ٦ *LXX*)[2].

القديس باسيليوس الكبير

من يثق في الشريعة ينتبه إلى الوصايا،
والذي يتَّكل على الربّ لا تلحقه خسارة [٢٤].

---

[1] البابا غريغوريوس (الكبير): الرعاية، ج ٣، ف ١٥، عظة ١٦، ترجمة جورج فهمي حنا، ٢٠٠٤.

[2] *Regulae brevius tractatae, 298.*

❖ ما الصعب والمؤلم أو المستحيل في قول الرب: "بع ما عندك وأعطه للمساكين". لو أنه كلَّفك أن تحرث الأرض أو تخاطر في التجارة، وتتحمَّل ما يتبع ذلك من جهودٍ، لفهمت ما يعتريك من الحزن، لكنه **يعرض عليك الحصول على السعادة الأبدية**، بطريقة سهلة وبدون عمل أو عرق، فلماذا لا تُسرّ بسهولة الخلاص، بدلا من التحسُّر وتعريض نفسك لفقدان الأجر على عملك؟

فإذا كنت لم تقتل حقًا كما تقول، ولم تسرق، ولم تشهد زورًا، فإنك تجعل كل جهودك باطلة، حين **لا تضيف إلى ذلك ما يمكنه أن يفتح لك ملكوت الله**. لو تَقَدَّم إليك طبيب ليصلح لك عضوًا من أعضائك، فإنك لا تتردَّد، بل تَقْبَل ذلك بطيب خاطرٍ، فلماذا تحزن وتتضايق حين يتقدَّم إليك طبيب النفوس، وهو يريد أن **يُصَيِّرَك كاملاً بأن تضيف إليك ما ينقصك جوهريًا**.

لا شك أنك بعيدًا جدًا عما يقتضيه حُبّ القريب، وتشهد زورًا بأنك تُحِبُّه مثل نفسك.

إن ما يعرضه عليك الرب دليل قاطع علي خلوّك من المحبة الحقيقية. لأنك لو كنت قد حفظت حقًا منذ صغرك وصية الحُبّ لقريبك، وساويت ما بينك وبين أخيك، لما أمكن أن تكون لديك هذه الثروة الطائلة؟ إن الاهتمام بالفقراء يستدعي نفقات عظيمة، إذا أردنا أن ينال كل واحدٍ منهم الضروري، وأن يستفيد جميع الناس من خيرات الأرض، ويحصلوا على ما يسد حاجتهم. فمن يُحِبُّ قريبه كنفسه، ينبغي ألا يكون عنده أكثر من أخيه.

من الأكيد أن عندك أملاكًا واسعة، فمن أين نشأ هذا التفاوت، إلا من إيثارِك تَمَتُّعك الشخصي على حساب سعادة الآخرين؟ فكلما زدتَ غِنَى نقصتَ حبًا. لو أنك أَحببتَ قريبك لكنت قد وَزَّعت منذ زمان طويل جزءًا من أموالك. ولكنك تتعلَّق بهذه الخيرات تَعَلُّقك بجزء من روحك. ويؤلمك حرمانك منها كما يؤلمك قطع عضو من أعضائك[1].

القديس باسيليوس الكبير

من وحي سيراخ ٣٢

لتكن حياتي وليمة لا تتوقَّف

❖ حضورك الإلهي يُحَوِّل حياتي إلى عيدٍ لا ينقطع.

أيّة وليمة تُشبِع نفوسنا فرحًا كحضورك فينا؟!

تقود الوليمة بحُبِّك ورعايتك،

---

[1] راجع الأب ج. عقيقي اليسوعي: القديس باسيليوس الكبير الإنسان والقديس (العظة ٣،٦).

يا من بتواضعك تحتلّ الصف الأخير.
حضورك في أيّة مناسبة يجعل ولائمنا ينبوع فرحٍ وبهجةٍ وقداسةٍ!
أنت تعطي الشيوخ حكمة وكلمة، وتجتذب الشباب إلى كلمتك.
تسكب خمر حُبّك في قلوبنا، فتسكر نفوسنا،
وترتفع قلوبنا وعقولنا إلى سماواتك!

❖ وجودك يبعث فينا روح القيادة الحكيمة،
فيكون سلوكنا أفضل لغة نُعبّر بها عن التصاقنا بك!
تُشرِق بنورك يا شمس البرّ كالبرق،
ويرعد صوتك، فيُحَطِّم كل شرّ فينا!
كثيرًا ما نحسب حفلاتنا مضيعة للوقت،
أما وليمتك فتبارك كل لحظةٍ كأنها سنوات مجيدة ومُثمِرة.

❖ في كل احتفال ووليمة نلتزم بالعودة سريعًا إلى البيت من أجل مشاعر أطفالنا.
في احتفالك ننطلق كما إلى بيتنا السماوي،
ننطلق مع أطفالنا إليك، لكي يستريح الكل في أحضانك!
في حفلك يعزف السمائيون مع الآباء والأنبياء والرسل موسيقى الروح الهادئة.
يكشف لنا روحك القدوس عن عذوبة وصاياك!
طعام وليمتك سماوي وعجيب للغاية.

القسم الرابع

الصلاة

[٣٣-٤٣]

الصلاة[1]

لم يتحدَّث يشوع بن سيراخ إلى تلاميذه فحسب، وإنما كان يُصَلِّي من أجلهم في مَسْمَعٍ منهم، كما سجَّل بعض صلواته عنهم. تُعتبَر صلواته مع صلوات أناس الله القديسين من رجال ونساء في القديم نموذجًا للصلوات المعاصرة.

صلواته حديث مشترك بينه وبين الله. وهي تقدم تكريمً الله، إذ تتطلَّع إلى رعايته الإلهية لكل البشر، كما تحمل حبًا للبشرية. الرغبة في الصلاة، وروح الصلاة هما عطية من الله. من يرغب في الصلاة يقف في حضرة الله متخليًا عن كل ارتباك بالأمور الزمنية، متجهًا نحوه.

يُقَدِّم ابن سيراخ خمسة أشكال للصلاة متكاملة معًا:

١. العبادة لله الذي يستحق التسبيح (سي ٢٣: ١؛ ٣٩: ٣٥).
٢. التوبة والاعتراف بالخطايا التي نسقط فيها بمعرفة أو بغير معرفة (سي ٣٦: ١، ١٧).
٣. الشكر لله من أجل نعمته الإلهية وبركاته (سي ٥١: ١).
٤. الطلبة، حيث نطلب منه أن يُشبِع احتياجاتنا، خاصة سكناه فينا وإقامة ملكوته في داخلنا، وأن يهبنا الحكمة (سي ٥١: ١٧، ٢٢).
٥. الشفاعة: يليق بالمؤمن مع شعوره بالضعف، أن يُصَلِّي باسم البشرية كلها، بكونه عضو في كنيسة الله يشتهي أن يتمتَّع إن أمكن كل بني البشر بالمجد الأبدي.

ضمّ السفر الكثير من الصلوات:

١. الصلاة الأولى (سي ٢٢: ٢٧ – ٢٣: ٦).
٢. الصلاة الثانية (سي ٣٦: ١-٢٢).
٣. الصلاة الثالثة (سي ٣٩: ١٢-٣٥).
٤. الصلاة الرابعة (سي ٥٠: ٢٢-٢٤).
٥. الصلاة الخامسة (سي ٥١: ١-١٢).
٦. الصلاة السادسة (سي ٥١: ١٣-٣٠).

---

[1] *J. Liesen & L.W. Manhardt: Wisdom, Steubeniville, O: Emmaus Road Publishing, Chapter 21, Sirach 33-43.*

الأصحاح الثالث والثلاثون

الحكمة والتدبير بما يُناسِب كل إنسانٍ

تكشف نعمة الله عن حكمته ورعايته للعالم، لكي ما تأتي به إلى ملكوت الله، ولهذا يليق بخائف الربّ أن يتعرَّف على رسالته ودوره في الحياة وخطة الله على مستوى أبدي.

١. **بين خائف الرب الرزين والأحمق الخفيف** **[١-٦].**

٢. **الحكيم والحاجة إلى نعمة الله** **[٧-١٣].**

٣. **مقابلات** **[١٤-١٥].**

٤. **الكاتب المُعَلِّم يلتقط وراء القطافين** **[١٦-١٩].**

٥. **لا تكن تحت وصاية أحدٍ!** **[٢٠-٢٤].**

٦. **ليقم كل إنسانٍ بما يناسب دوره ومواهبه** **[٢٥-٣٣].**

١. بين خائف الرب الرزين والأحمق الخفيف

لا يلحق شر بمن يخاف الربّ،

بل ينجيه (الربّ) في التجربة مرّة ومرّات [١].

خائف الله أو إنسان الله **في مركزٍ فريدٍ**، يُدرِك أنه في فكر الله؛ بكونه محبوب الرب، ليس في خوفٍ لئلا تلحقه تجربة وتجارب، فإن الله يُنَجِّيه، ويُحَوِّل التجارب إلى تمتُّع بالدخول في أمجادٍ أبدية. هذا هو إيماننا الذي يدفعنا للصلاة، ويبعث فينا الرجاء المُفرِح. هذا تحقَّق بالأكثر بتجسُّد كلمة الله، إذ صار لنا مركز عظيم، لذلك تهلل الرسول قائلاً: "وبالإجماع عظيم هو سرّ التقوى، الله ظهر في الجسد، تبرر في الروح، تراءى لملائكة، كرز به بين الأمم، أومن به في العالم، رُفِع في المجد" (١ تي ٣:١٦). به نتمتَّع بالبرّ، ونتحدَّى كل قوات الظلمة.

❖ لنضع على رؤوسنا خوذة الخلاص، لكيلا نُجرَح ونموت في المعركة.

لنُمَنطِق أحقاءنا بالحق، فلا نوجد ضعفاء في القتال.

لنقم ونوقظ المسيح، فيهدئ الأمواج عنا.

لنأخذ الترس تجاه **الشرير**، كاستعدادٍ لإنجيل مخلصنا (أف ٦: ١٥-١٦).

لنَقْبَل من ربنا السلطان أن **نسود على الحيات والعقارب** (لو ١٠: ١٩)...

لنفرح في رجائنا في كل وقتٍ (رو ١٢: ١٢)، حتى يفرح بنا ذاك الذي هو رجاؤنا

ومخلصنا...

لنأخذ لأنفسنا سلاحًا للمعركة (أف ٦: ١٦)، هو الاستعداد للإنجيل.

لنقرع باب السماء (مت ٧: ٧)، فيُفتَح أمامنا وندخل فيه.

لنسأل الرحمة باجتهاد، فننال ما هو ضروري لنا...

لنرفع أعيننا إلي العلا، لنرى الضياء المتجلي.

لنرفع أجنحتنا كالنسور، لنرى حيث تكون الجثة (مت ٢٤: ٢٨)...

من له جناحان يطير بهما عنه (عن الشيطان)، فلا تبلغ إليه السهام التي يقذفها نحوه؟

يراه الروحيون يحارب، ولا يتسلط سلاحه على أجسادهم.

لا يخافه كل أبناء النور، لأن الظلمة تهرب من أمام النور. أبناء الصالح لا يخشون الشرير، لأنه أعطاهم أن يطأوا عليه بأقدامهم (تك ٣: ١٥)[1].

القديس أفراهاط

الحكيم لا يُبغِض الشريعة،

أما الذي يدَّعي حفظها، فيُشبِه قاربًا في العاصفة [٢].

بينما يعيش المؤمن محفوظًا في يدي الله، لا يخشى التجارب، إذا بالإنسان المرائي في حفظ الوصية الإلهية لا يُفارِقه القلق، يشبه قاربًا صغيرًا في وسط عاصفة شديدة. يُحَوِّل حياة الإنسان من رحلة ممتعة في صحبة الربّ، منطلقًا في هدوءٍ نحو السماء، إلى قاربٍ في وسط عاصفة خطيرة.

رجل الفهم يثق في الشريعة،

والشريعة عنده جديرة بالثقة،

لأنها إعلان إلهي [٣].

يؤمن إنسان الله الحكيم بالله من خلال كلمته، فيفهم خطة الله نحوه، ويثق في وعوده الإلهية، ويحسب نفسه مُطَوَّبًا، لأن الله يُعلِن له أسراره الإلهية.

هيئ ما تقوله، فيُسمَع لك،

واستجمع علمك وجاوب [٤].

كيف يتهيأ خائف الرب للدخول في حوارٍ صريحٍ مع الله، سوى بأن يستجمع كل طاقات الداخلية؛ لأنه يتمتَّع بأعظم لحظات عمره، إذ يقف أمام محبوبه.

---

[1] *Demonstrations, 6.*

❖ لا يحتاج الله إلى خُطَب رنَّانة، ولا إلى كلمات فصيحة، إذ يعرف ما هو مفيد لنا. وهكذا يمكننا أن نحدِّد الصلاة بأنها عمل يتم في ضمير الإنسان وفي داخله، وهي عمل يمتد إلى كل الأعمال التي تنسج حياة الإنسان[١].

القدِّيس باسيليوس الكبير

قلب الأحمق مثل عجلة عربة،

وأفكاره مثل المحور الدوار [٥].

يعيش الأحمق في دوامة الحياة لا يتلمس الطريق الحق، ولا يعرف إلى أين يذهب، يدور حول نفسه كل حياته. عقله يشبه عربة صغيرة خفيفة (كارة)، ليس من قائد حكيم يُوَجِّهها، لا تدرك طريق الاستقامة الذي يقود إلى السماء، بل يبقى في ارتباكٍ وبلبلةٍ.

الصديق المستهزئ كخيلٍ جموح،

يصهل تحت كل من يركبه[٢] [٦].

الصديق الذي يسخر بصديقه مثل فحل خيل يصهل تحت كل من يركبه، يعطي أصواتًا مُزعِجة بلا معنى ولا هدف.

❖ عندما سقط الإنسان الأول وعصى الله، صار الإنسان كما يقول الكتاب يشبه غنمًا (للهاوية مز ٤٩: ١٤)، لأنه أخطأ ضد العقل. بسببٍ صالحٍ حُسِب الإنسان غير عاقل مثل الحيوانات. بطريقٍ مشابه يقول الحكمة: "طالب اللذة والزاني مثل فحل خيل" (راجع سي ٣٣: ٦)، لأنه صار مثل الحيوانات بلا تعقُّلٍ. لذلك أضاف: "الذي يصهل تحت كل راكبٍ عليه". مثل هذا الإنسان لا يعود يتكلم، لأن من يخطئ ضد العقل ليس بعاقلٍ، بل حيوان أعجم مُستسلِم للشهوة، حيث يمكن لأي نوعٍ من اللذة أن تمتطيه وتقوده[٣].

القديس إكليمنضس السكندري

٢. الحكيم والحاجة إلى نعمة الله

لماذا يكون يوم أفضل من يومٍ،

ونور أيّام السنة كلّه من الشمس؟ [٧]

---

[١] عظة ٥.

[٢] بحسب *OSB* الصديق المستهزئ كخيلٍ شهواني.

[3] *Paedagogus, FOTC, vol. 23, p. 89-90.*

إن كان مصدر استنارة كل أيام السنة هو الشمس بعينها، غير أن الله عيَّن أيامًا مقدسة ومواسم وأعياد، تتميَّز هذه الأيام عن غيرها. هكذا من محبة الربّ، شمس البرّ، أن ينير كل أيام حياتنا ببرّهِ الإلهي، يهبنا أيامًا خاصة مثل الآحاد والأعياد الشهرية والسنوية، تُقَدِّم لنا إعلانات عن عمل الله الخلاصي مع تذوُّق لعربون السماء التي يُعدّها لنا.

عِلْمُ الربّ هو الذي ميَّز بينها،

فقد نوَّع الفصول والأعياد [٨].

رتب الله هذا التنوُّع حتى نختبر خطته في الخلق والخلاص، فنشتهي بلوغ الحياة الأبدية. والكنيسة تدعونا خلال التقويم الكنسي مع بداية كل سنة كنسية حتى نهايتها ألاَّ نتوقَّف عن التمتُّع بخبرة الشركة مع الثالوث القدوس مُحِب كل البشر! فمع كل صباحٍ يتغنَّى المؤمن مع إرميا النبي الذي كانت جدران قلبه توجعه (إر ٤: ١٩) من أجل ثكلى بنت شعبه التي يُحَطِّمها عصيانها وتغرُّبها عن الله، لكن خلال خبرته الداخلية وتأكُّده من عمل الله، تتحوَّل أعماقه إلى سماءٍ ثانيةٍ، فيقول: "مراحمه لا تزول جديدة في كل صباح ... نصيبي هو الربّ قالت نفسي" (مرا ٣: ٢٣-٢٤).

وسرّ تهليل قلب القديس مار يعقوب السروجي وسط الآمه، إدراكه أن جبل الجلجثة هو "**عُرْس الجلجثة**"، يُصلَب مع العريس السماوي ليقوم كل يومٍ معه، ويختبر أحضان الربّ ينبوع السلام الداخلي والفرح السماوي! هذا هو دور التقويم الكنسي.

❖ يجب إدراك أنه يليق بكل واحدٍ منا البرهنة هل هو في أيام الخير أم في أيام الشر؟ وهل يقتني "أيام يشوع" التي هي أيام البرّ، أم يقتني أيام الشر. لأننا إن أدركنا: "النور الحقيقي الذي يُنير كل إنسانٍ آتيًا إلى العالم" (يو ١: ٩)، وسلَّمنا أنفسنا إليه كي نستنير، وإذا أشرق "شمس البرّ" (ملا ٤: ٢) فينا، وأنار عالم أنفسنا، فسوف نقتني "أيام يشوع"، أي أيام يسوع المسيح، أيام الخلاص. أما إذا سلَّم أحد نفسه "للنور الذي سينطفئ" (راجع أي ١٨: ٥)، النور الذي يُضَاد الحق، فإنه سوف يقتني أيضًا أيامًا، لكنها أيام الشرّ. لن يكون في أيام يشوع، إنما في أيام منسى أو فرعون، في الأيام الشريرة التي لملوك آخرين.

العلامة أوريجينوس

بعض الأيام رفَّعها وقدَّسها،

وبعض الأيام جعلها عادية [٩].

تدعونا الكنيسة أن تكون كل أيامنا للربِّ، فنتمتَّع بالفرح الدائم، كما أقامت مناسبات تُجَدِّد فينا

تذكار أعمال الله الخلاصية، وتُحوِّل حياتنا إلى عيدٍ مُفرِحٍ دائمٍ، نذكر على سبيل المثال الآتي:

أولاً: فرح يومي: في صلاة باكر نتمتَّع ببهجة القيامة، وفي صلاة نصف الليل بهجة مجيء العريس.

ثانيًا: فرح أسبوعي: في يوم الأحد نتمتَّع ببهجة قيامة المسيح.

ثالثًا: فرح شهري: حيث نتمتَّع بتذكار البشارة والميلاد والقيامة.

رابعًا: تذكارات وأعياد مُفرِحة سنوية.

والبشر كلهم من تراب،

فمن الأرض خُلِق آدم [١٠].

يتعامل الله خلال التاريخ البشري، مميزًا كل إنسانٍ عن أخيه حسب جديته في الحياة والخلاص، وأمانته في تشغيل طاقاته واستخدام مواهبه. لذلك وُجِدَت فروق شاسعة في حياة البشر وتطلعاتهم للحياة. بالرغم من أن الجميع من نسل رجلٍ واحدٍ مخلوقٍ من ترابٍ، وهو آدم [١٠].

ميَّز الربّ بينهم بسعة حكمته،

وغيَّر طرقهم [١١].

الله في محبته للبشر وهب كل إنسانٍ مواهبه وقدراته المتنوعة حتى يعيش الكل معًا، كل واحدٍ يُكَمِّل الآخر. هذا التنوُّع يُكسِب البشرية جمالاً وحبًا وتواضعًا؛ كل شخصٍ يحتاج إلى أخيه.

فمن الأيّام ما باركها ورفَّعها، ومن الأيّام ما قدَّسها وقرَّبها إليه،

ومن الأيّام ما لعنها وأذلَّها وخلعها من مقامها [١٢].

واضح أن حديثه عن الأيام هنا يقصد بها أيام الإنسان. أوضح أن كل البشر متساوون إذ خُلِقُوا من التراب، ووهبهم الله وزنات متنوعة، فيبارك بعض الأيام ويُقَدِّسها، كما يسمح بالمذلة في بعض الأيام. وهو بهذا يدعونا إلى التفكير الجاد في حياتنا ورسالتنا.

أ. يود الله أن يبارك كل الأيام؛ فمن جانبه يبسط يديه ليهبنا بركته، فإن أعطيناه القفا لا الوجه (إر ٢: ٢٧)، تصير حتى أيام الأعياد مكرهة له (إش ١: ١٣).

ب. تأكيد أن حياة الإنسان قابلة للتغيير، فيليق بالمؤمن إن سقط أن يرجع بروح الرجاء إلى الله.

ج. أن يُدرِك أن حكمة الله فوق التفكير البشري، فقد يسمح الله للإنسان بالمذلة بدون سبب ظاهر، إنما ليعبر به الربّ إلى المجد لبنيانه وبنيان الكثيرين، كما حدث مع الشاب البار يوسف بن يعقوب.

د. يليق بالأغنياء وأصحاب السلطة والقادة الكنسيين أن يتجمَّلوا بالتواضع، وما يتمتعون به هو عطية

إلهية. حين تشامخ بنو إسرائيل كشعب الله، سمح لهم بمذلة السبي البابلي سبعين عامًا.

كل طرقه حسب مسرَّته الصالحة، كالطين في يد الخزاف.

كذلك الناس في يد صانعهم، وهو يجازيهم بحسب حُكْمِه [١٣].

يدعونا الكتاب المقدس إلى الخضوع لإرادة خالقنا لنختبر عمله فينا كمحبٍ للبشر (راجع إش ٤٥: ٩؛ ٦٤: ٧؛ إر ١٨: ٦). ويقول الرسول: "أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناءً للكرامة وآخر للهوان؟" (رو ٩: ٢١). يهبنا الله روح التبني، لنتعرَّف على أسراره الإلهية، فنشتاق إلى التمتُّع بالمجد الأبدي الذي يُعِدّه لنا. ومن جانبنا يليق بنا أن نُدرِك أننا "خزف من أخزاف الأرض. هل يقول الطين لجابله: ماذا تصنع؟ أو يقول: عملك ليس له يدان؟ ويل للذي يقول لأبيه: ماذا تلد؟ وللمرأة: ماذا تلدين؟" (إش ٤٥: ٩-١٠). يؤكد **القديس يوحنا الذهبي الفم**[1] أن الرسول يود أن يقدم جانبًا واحدًا من المثل وهو أن الله يعمل بنا ولا نقدر نحن إلا أن نطيع. لكنه لا ينزع عنا حرية إرادتنا، فإن أردنا الحياة معه يقوم هو بتغييرنا لمجد اسمه، بطريقة تفوق إدراكنا.

٣. مقابلات

الخير يقابل الشرّ، والحياة تقابل الموت،

وبنفس الطريقة الخاطئ يقابل التقي [١٤].

هكذا تأمل في جميع أعمال العليّ،

فهي تبدو اثنين اثنين، الواحد مقابل الآخر [١٥].

حياة الإنسان إما خير أو شرّ، يكون خاطئ أو بار؛ ليس هناك من وضع بين الاثنين، "فإنّ منْ له سيُعطَى ويُزَاد، وأمّا منْ ليْس له، فالذي عنْده سيُؤْخذ منْه" (مت ١٣: ١٢). ومن جانبٍ آخر فإن الله الصالح قادر على تحويل الشر إلى خيرٍ. فصليب ربّ المجد يسوع مثل فريد لتقديم الخير من الشرّ. يقدم نعمة الخلاص بالصليب الذي أَعدّه عدو الخير للخلاص منه.

يرى **القديس أغسطينوس** في هذه العبارة كشف عن غاية السفر، وهو تقديم الخير عوض الشرّ، والحياة عوض الموت، فيتطلع الإنسان إلى أعمال العليّ الذي يعمل في الخاطئ كي يصير تقيًا[2].

٤. الكاتب المعلم يلتقط وراء القطافين

---

[1] *In Rom. hom 16*

[2] *Letters, FOTC, vol. 14, p. 213-214.*

أنا كنت آخِر من استفاق

ليلتقط في الكرم وراء القطَّافين [١٦].

بروح التواضع يُقَدِّم ابن سيراخ مثالاً أن نقتدي به، فمع مواهبه الفائقة وعمل الله العجيب في حياته، لم يفتخر بحكمته، بل حسب نفسه كمن يلتقط وراء القطافين. حسب نفسه مثل راعوث الفتاة الأممية التي كانت تجمع السنابل وراء الحصادين باهتمامٍ وجهادٍ في غير رخاوة، فصارت جدّة ليسوع المسيح، السنبلة الإلهية واهبة الحياة والشبع والمجد لمؤمنيه من كل الشعوب والأمم والألسنة. هذا ما كان يبهج قلب ابن سيراخ أن جهاده وسهره لم يتمتع به وحده، بل قَدَّمه لجميع الذين يطلبون التعليم.

ببركة الربّ وصلت في الوقت المناسب،

وملأت معصرتي كمن قطف العنب [١٧].

لاحظ ابن سيراخ كمُعَلِّمٍ أن البعض يقدمون تساؤلات في أمور تافهة بعيدة عن خلاص النفس، فمع عدم استخفاف المُعَلِّم بتلاميذه، يحاول توجيه تلاميذه فيما هو للبنيان.

فالسيد المسيح العامل في المُعَلِّمين الصالحين في حواره مع السامرية التي حاولت توجيه الحوار بعيدًا عن خلاص نفسها، حدَّثها بلطفٍ دون أن يجرح مشاعرها كامرأة تعيش مع إنسانٍ ليس برجلها، قادها إلى الحق الإلهي. تطلَّع إلى المرأة وكأنها سنبلة ساقطة من الحصادين يليق به أن يجمعها كما كانت تفعل راعوث، لكن رفعها إلى مستوى أفضل لأجل خلاصها. هذا ما فعلته نُعمى مع راعوث، إذ قبلت جهادها في جمع السنابل الساقطة، غير أنها وجَّهتها نحو صاحب الحقل بوعز، فصارت جدة للسنبلة الإلهية الفريدة، يسوع بن داود، الخبز النازل من السماء، واهب الخلاص والشبع.

في اختصار، مع عدم استخفافنا بالتقاط الساقط من الحصادين، يلزمنا أن نرفع من نرعاهم ونخدمهم إلى مستوى سماوي فائق. سأل أحد الإخوة الأب الشيخ برصنوفيوس بخصوص قلنسوة أرسلها أخ إليه إن كان يقبلها أم لا. جاءت إجابة الشيخ إليه أن هذا الأمر يلزم ألاَّ يشغله لئلا يُفسِد وقته في أمورٍ تافهة، إنما يلزمه أن يهتم بالحصاد الكثير الذي لحساب ملكوت الله.

❖ أيها الأخ، أرسلت إليك حكمة: "كن متحررًا، فماذا تريد؟ التفت إلى نفسك "الحصاد كثير" (مت ٣: ١٦). اترك كل شيءٍ، وأعط وقتك للحصاد والتجميع حتى يكون لديك ثمار من الحنطة والخمر (مز ٤: ٧؛ تث ٣٣: ٢٨)، حتى يتقوَّى قلبك، ويصير فرحًا في الربّ. أما بخصوص القلنسوة، فإن كان الأخ يرغب في إعطائها لك من كل قلبه، اقبلها وتدين نفسك بأنك غير مستحق[1].

---

[1] *Letter 53.*

لاحظوا جيدًا أن تعبي لم يكن لي وحدي،

بل لجميع الذين يلتمسون التعليم [١٨].

قارن نفسه بالآباء إبراهيم وإسحق ويعقوب والأنبياء، فأدرك أنه كمن يجمع السنابل وراء الحصادين. وبروح الرجاء أدرك أن تعبه لن يضيع هباءً، بل بنعمة الله ينتفع به كل الذين يطلبون التعليم.

اسمعوني يا قادة الشعب،

وأصغوا إليَّ يا رؤساء الجماعة [١٩].

أدرك ابن سيراخ بروح الله أن جميع طالبي التعليم ينتفعون بعمله، فتجرَّأ ليتحدث مع قادة الشعب ورؤساء الجماعة. التواضع الحقيقي يدفع الإنسان للعمل بروح القوة، حتى بين القادة والرؤساء!

٥. لا تكن تحت وصاية أحدٍ!

لا تُولِّ على نفسك في حياتك ابنك أو امرأتك أو أخاك أو صديقك، ولا تعطِ ممتلكاتك لآخر، لئلا تُغيِّر فكرك، فتتضرع من أجلها [٢٠].

ما حييت وما دام فيك نَفَسٌ،

لا تدع أحد يأخذ مكانك [٢١].

أن يطلب أبناؤك منك،

خير من أن تنظر أنت إلى أيدي أبنائك [٢٢].

يشتاق المؤمن أن يرى كل إنسانٍ قائدًا يعتز بعمل الله فيه ومعه، فالأب الحكيم يعطي الفرصة لأبنائه وزوجته أن يشتركوا معه في تدبير أعمال الأسرة وإدارته لكل جوانب الأسرة. لصالحهم كما لصالحه، بروح الحكمة لا يُسَلِّمهم كل شيءٍ أثناء حياته:

أ. يتعرَّض الأبناء أحيانًا للانحراف، كما حدث مع الابن الضال (لو ١٥)، فبَدَّد كل ما استلمه.

ب. قد يتعرَّض الشخص نفسه لأزمة بسبب مرض أو ظروف البلد الاقتصادية، وإذ يطلب من أولاده، قد لا يتجاوبوا معه. فمن الحكمة أن يعطيهم نصيبًا أثناء حياتهم، ويكتب وصية ببقية ممتلكاته يحفظها معه، ويعطيهم علمًا بمكانها.

كن متميِّزًا في جميع أعمالك،

ولا تُشوِّه سُمعتِك [٢٣].

مع محبة الأب لأبنائه أكثر من اهتمامه بنفسه، يود ابن سيراخ أن يبقى الأب له سلطان الحب، فتبقى صورة الأب المُحِب الحكيم والمُدَبِّر حتى لحظات موته.

في اليوم الذي فيه تُتمِّم أيام حياتك،

وفي وقت مماتك قسم ميراثك [٢٤].

لا يترك الأب أولاده يدخلون في خلافات بخصوص توزيع ثروته، بل يُدَبِّر أمر الميراث بينهم بعدلٍ وحكمةٍ وصراحةٍ قبل موته إن أمكن.

٦. ليقم كل إنسانٍ بما يناسب دوره ومواهبه

العلف والعصا والحمل للحمار،

والخبز والتأديب والعمل للعبد [٢٥].

مع التطلُّع إلى العبد (أو الخادم) كأخٍ، يلزم أن يهتم السيد بثلاثة أمور:

أ. تقديم العلف أو الخبز، فلا يتركه جائعًا، أو محرومًا من الطعام.

ب. العصا، ويُفهَم منها ممارسة الحزم مع الحب، فيدرك حدوده دون غبنٍ من جانب السيد.

ج. العمل باعتدال؛ فإلزامه بما فوق طاقته يُحسَب عنفًا قد يدفعه إلى التمرُّد، والتهاون معه قد يدفعه إلى الكسل، وهذا ليس لصالحه روحيًا وجسديًا واجتماعيًا.

شغِّل عبدك فتجد راحة،

أطلق يديه يلتمس الحرية [٢٦].

إن كانت القوانين في ذلك الوقت تجاهلت حق العبيد كبشرٍ، فإن الشريعة لم تترك للسيد التحكُّم فيهم بطريقة مُطْلَقَة. توجيه العبد للعمل بما يناسب طاقته يعطي السيد نوعًا من الراحة.

النير والرُّبط تحني الرقاب،

وللعبد الشرير التنكيل والألم [٢٧].

كما يُدَافِع سيراخ عن حقوق العبيد، فإنه يطلب تأديب المُتمرِّدين والمُفسِدين للعمل بحكمة، وذلك لصالح الطرفين.

أَرغِمه على العمل، لئلا يبقى بطالاً،

فإن البطالة تُعَلِّم شرورًا كثيرة [٢٨].

يرى القديس **يوحنا الذهبي الفم** أن تعبير "**البطالة**" له معنى أوسع من مُجَرَّد "عدم العمل"، إذ يرى

من يعمل لمُجَرَّد اقتناء الطعام الباطل، يُحسَب عاطلاً، كما يرى أن من يرهق كل قواه وطاقته لمُجَرَّد الأكل فهو يعمل لحساب الطعام الباطل. يدعونا **القديس الذهبي الفم** أن نعمل لنُقَدِّم للسيد المسيح طعامًا وشرابًا وملبسًا، من أجل ملكوت السماوات؛ هذا الطعام ليس باطلاً، بل بالحق يبقى إلى الأبد[1].

❖ إن النهي عن الاهتمام الزائد بحاجات جسدنا لا ينفي الاهتمام والعمل مُطلَقًا. فقد بقي علينا أن نعمل لأنفسنا، لا للطعام الفاني، بل للطعام الباقي للحياة الأبديَّة (يو ٦: ٢٧)، لا لحاجاتنا الجسديَّة فقط، بل لنُسعِف القريب أيضًا (أف ٤: ٢٨). وسيقول لنا الرب في يوم الدين: "جُعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني..." (مت ٢٥: ٣٥). ويُعَدّ ما نفعله مع من كرَّسوا أنفسهم له كأنَّنا نعمل معهم، ويُعطَى لنا عن ذلك الملكوت السماوي. وسيُعاقَب الذين لم يعملوا ولم يتعبوا ليساعدوا الضعفاء ويخدموا القريب، ويرسلهم إلى العذاب الأبدي (مت ٢٥: ٤١-٤٦)[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

ألزمه بالعمل كما يليق به،

فإن لم يطع، فثقِّل رجليه بالقيود [٢٩].

البطالة مُضِرَّة للسيد كما للعبد، للطفل كما للشيخ، حتى للمرضى. يليق أن كل البشرية تعمل حسب مواهبهم ووقتهم وقدراتهم. كثيرًا ما أكَّد القديسان باخوميوس وباسيليوس التزام الراهب بالعمل لبنيانهم الروحي.

ولا تتصرَّف متعاليًا تجاه أي جسد،

ولا تصنع شيئًا بدون حُكْمٍ [٣٠].

كان ابن سيراخ حريصًا ألاَّ يسقط التلاميذ في الحرف القاتل، فيُطَالِبهم أن يمارسوا كل شيءٍ بتعقُّلٍ وليس بالتنفيذ الحرفي للوصية.

إن كان لك عبد، فليكن كنفسك،

فإنك تقتنيه بدمك [٣١].

يُهَيِّئ سيراخ اليهود والأمم لقبول السيد المسيح المُخَلِّص، الذي يبسط يديه ليحتضن إن أمكن كل البشر دون تحيُّزٍ لجنسٍ أو سنٍ أو مركزٍ أو إمكانيات. فالكل خُلِقُوا من تراب، ولأجل الكل يُقَدِّم المُخَلِّص نفسه ذبيحة عنهم، وها هو يُعد أماكن في السماء لكل من يؤمن به ويتجاوب معه.

---

[1] *Commentary on St. John, FOTC, vol. 33, p.445-447.*

[2] *Regulae brevius tractatae Question 207.*

إن كان لك عبد فعامله كأخٍ،

فإنك تحتاج إليه احتياجك إلى نفسك [٣٢].

بلا شكٍ هذه العبارة تُمَثِّل ثورة على نظام العبيد، لا بالعنف، وإنما بالفكر السليم.

إن أسأت إليه، ففرّ هاربًا،

ففي أي طريق تذهب لتبحث عنه؟ [٣٣]

يُحَذِّر من إساءة معاملة العبيد. فقد عاش في عصر كان الإنسان يستعبد أخاه في البشرية، ليس من قانون يحمي العبيد. إنه يُهَيِّئ الطريق لتحرير العبيد! طالب السيد أن يحسب عبيده كنفسه، يعاملهم كأخوة، مُبرِزًا الحاجة المتبادلة بينهم. أثار هذا الرأي حفيظة الحكام الرومان، وذلك لأن الإمبراطورية في ذلك الوقت كان بها ستون مليونًا من العبيد، وكان يُخشَى من أن يدفعهم هذا التعليم إلى الثورة على السادة مما ينذر بثورة لا تُحمَد عقباها، ولعل ذلك كان من أسباب اضطهاد المسيحية. "أيّها السّادة، قدّموا لِلْعبيد الْعدْل والْمساواة، عالمين أنّ لكمْ أنْتمْ أيْضاً سيّداً في السّماوات" (كو ٤: ١).

❖ لتُمحَ الاختلافات الاجتماعية، فلا يوجد خضوع وسلطة، فقر وغنى فاحش، أشراف وعامة، أسرة مُنحطَّة وأسرة مُكَرَّمة، ولا مجال لعدم المساواة... لنحكم بالمساواة السياسية والتشريعية، وتوزع على كل واحدٍ في كمال الحرية، وبطريقة مملوءة سلامًا ليختار ما يريده[1].

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

من وحي سيراخ ٣٣

هب لي الحكمة والتدبير الحسن

❖ سَمِّر خوفك في داخلي، فلا أخشى التجارب.
أَتمسَّك بوعودك الصادقة، فتطمئن نفسي.
انزع عني كل حماقة، فلا أسلك في حلقة مفرغة!

❖ لألتصق بك، فتُقَدِّس كل أيامي لك.
تُشرِق بنورك يا شمس البرّ على حياتي،
فتتحوَّل حياتي إلى عيدٍ دائمٍ وفرحٍ مجيدٍ.

---

[1] *De Morstuis.*

❖ تراب ورماد أنا، لكن هباتك لي فائقة.
مع كل صباح تنطلق نفسي من مجدٍ إلى مجدٍ.
لمسات يدك تُقِيم مني إناءً للكرامة، يا أيها الخزاف الأعظم.
أعترف لك بضعفاتي، فتُحَوِّل شرّي إلى خير حقيقي،
وتُقِيمني من الظلمة إلى النور، ومن الموت إلى حياة أبدية!

❖ أحسبني كراعوث الأممية ألتقط وراء الحاصدين.
أقتنيك أيها السنبلة الإلهية، فتجعلني من أهل بيت الله.
وعدتني أنك لا تنسى كأس ماء بارد،
فاقبل خدمتي لكل من يلتمس التعليم الحق.

❖ هب لي روح الحكمة مع الحب، أعرف أن أعطي بسخاء وبتدبير حسن!
هب لي ألاَّ أَتوقَّف عن الجهاد الحسن.
فلا أسقط تحت اليأس، ولا يحلّ بي تشامخ!
عَلِّمني ألاَّ أَستخفّ بإنسانٍ ما،
فقد نزلتَ لتحتل آخر صفوف البشرية.
تبسط يديك على الصليب،
وتحتضن الخطاة والزناة وتُقَدِّسهم.
ليكن كل إنسانٍ كنفسي، فلا أتجاهل أحدًا.
إذ أود أن يصير الكل أعضاءً في جسدك يا أيها القدوس.

الأصحاح الرابع والثلاثون

الأحلام المُخادِعة والتقدمات المرفوضة

يُعالِج هذا الأصحاح أربعة مواضيع، وهي:

١. الأحلام الباطلة [١-٨].

٢. الخبرات العملية وفائدة الأسفار [٩-١٢].

٣. مخافة الرب ميناء الأمان [١٣-١٧].

٤. تقدمات غير مقبولة [١٨-٢٦].

١. الأحلام الباطلة

كان قدماء اليونانيين غالبًا ما يُفَكِّرون في الأحلام أنها رسائل من قِبَل الآلهة. أما بالنسبة لليهود فوردت أحلام في العهد القديم تحمل رسائل من الله، كما ورد تحذيرات من الأحلام الباطلة المُخادِعة.

ذكر العهد القديم الأحلام التي رآها يوسف بن يعقوب، في صباه رأى حلمين وفي السجن فَسَّر حلمين لساقي الملك وخبَّاز الملك، وفي القصر فسَّر حلمين لفرعون ملك مصر. هذه الأحلام الستة كانت من عند الله وتحقَّقت بالفعل. وفي العهد الجديد رأى يوسف النجار ثلاثة أحلام: الأول بعد تجسد الكلمة في العذراء (مت ١: ٢٥) والثاني للهروب إلى مصر مع الطفل يسوع وأمه، والثالث خاص بالرجوع من مصر. وأما بالنسبة لدانيال الذي كان أقرب منها في الزمن لابن سيراخ فعُرِف برجل الأحلام، فَسَّر الكثير من الأحلام التي أعلنت خطة الله وشملت نبوات تَحَقَّقت في التاريخ وأخرى تنبأت عن مجيء السيد المسيح ومجيئه الأخير.

مع ذلك فالشخص الغبي يستسلم لأحلامٍ باطلة، ويضع رجاءه فيها.

وقد حذَّر الأنبياء في القديم كثيرًا، من الضلالة التي يمكن أن تأتيها الأحلام، وشَدَّدوا على عدم الاعتماد عليها، لاسيما وقد حدث خلط فيما بينها وبين العرافة والسحر والشعوذة. "قَدْ سمِعْت ما قاله الأنْبياء الّذين تنبّأوا باسْمي بالْكذب قائلين: حلمْت حلمْت، حتّى متى يوجد في قلْب الأنْبياء الْمتنبّئين بالْكذب؟ بلْ همْ أنْبياء خداع قلْبهم! الّذين يُفَكِّرون أنْ ينسّوا شعْبي اسْمي بأحْلامهم الّتي يقصّونها الرّجل على صاحبه، كما نسي آباؤهم اسْمي لأجْل الْبعْل. النّبيّ الّذي معه حلْمٌ فلْيقصّ حلْمًا والّذي معه كلمتي فلْيتكلّمْ بكلمتي بالْحقّ. ما للتّبْن مع الْحنْطة يقول الرّبّ؟" (إر ٢٣: ٢٥ -٢٨؛ راجع تث

١٣: ٢-٦؛ جا ٥: ٦-٧؛ إر ٢٩: ٨-٩؛ ٢٧: ٩-١١؛ زك ١٠: ٢)[١].

الإنسان العديم الفهم له آمال غير مجدية وكاذبة،

والأحلام تُعطِي عديمي الفهم أجنحة [١].

النفوس الفاسدة والمُنحرِفة عن الحق تضع رجاءها لا في الرجوع إلى الله بقلبٍ نقيٍ وحياة مستقيمة وتوبة صادقة، وإنما في رجاء باطل مُعتمِد على أحلامٍ مُخادِعة.

المُلتفِت إلى الأحلام مثل القابض على الظلال،

والساعي وراء الريح [٢].

السالك وراء العالم الباطل، أحلامه باطلة، يتمسَّك بها كمن يقبض على الظلال، ويجري وراءها كما وراء الريح [٥].

رؤيا الأحلام هي هذا مقابل ذاك،

وشبه الوجه أمام الوجه [٣].

غالبًا ما يكون الحلم مُجَرَّد انعكاس لأحداث أو تخيلات، كانعكاس وجه الإنسان في المرآة؛ وكأنه لا يُمَثِّل وجودًا حقيقيًا.

ماذا يتطهر من شيءٍ نجس؟

وماذا يكون حق من شيء باطل؟ [٤]

لن ننتفع من الأحلام ما لم تتطهَّر أعماقنا، فيعمل الله فينا.

لا يقصد أن كل الأحلام نجسة، لكنه يُقَدِّم مثالاً، إن كان ما هو نجس لا يصدر منه شيء طاهر، هكذا فإن ما يرد في الحلم لا يُمَثِّل حقيقة، بل هو باطل وكذب، فهل الباطل يُنتج الحق؟!

العرافة والفأل (التّطيرُ) والأحلام عديمة القيمة،

مثل المرأة في آلام المخاض، يصير القلب منظورًا [٥].

يرى ابن سيراخ السعي في العرافة والفأل والأحلام يكشف عن اضطرابات وعدم استقرار نفسي للشخص، وقد منعتها الشريعة صراحةً (لا ١٩: ٢٦؛ تث ١٨: ١٠-١٤). بينما كانت تُحسَب غير لائقة بالنسبة للمؤمن (١ صم ٦: ٢؛ إش ٤٤: ٢٥؛ حز ١٣: ٦-٨؛ ٢١: ٢٦)، كان الوثنيون يمارسونها. أوضح ابن سيراخ أن عقل الإنسان يُصَوِّر العرافة والفأل والأحلام الباطلة من عنده، وهو

---

[١] الأنبا مكاريوس.

يبرز الجانب النفسي الذي ينادي به علماء النفس الحديثين.

إن لم تُرسَل الرؤى من عند العلي في افتقاد منه،

فلا توجه إليها قلبك [٦].

الإنسان التقي الحكيم يُمَيِّز الأحلام والرؤى التي من عند العليّ، فيفتح لها قلبه، حتى لا تُضَلِّله العرافة والفأل والأحلام الكاذبة.

فإن كثيرين أضلَّتهم الأحلام،

والذين وضعوا رجاءهم فيها سقطوا [٧].

يرى **البابا غريغوريوس (الكبير)** أن الصور التي تظهر في الأحلام تؤثِّر على النفس وهي تصدر بطرق مختلفة، لذا يجب تمييزها[1]:

١. أحيانًا تحدث الأحلام بسبب سوء الهضم.

٢. أحيانًا تحدث كثمرة لخيالات وهمية تشغل فكر الإنسان.

٣. أحيانًا يكون الحلم إعلانًا لأمرٍ ما.

٤. توجد أحلام يُثيرها عدو الخير إبليس، لهذا يُحَذِّرنا الكتاب المقدس: "فإن كثيرين أضلَّتهم الأحلام، والذين وضعوا رجاءهم فيها سقطوا" [٧]. كما أمرنا: "لا تتفاءلوا ولا تعيفوا" (لا ١٩: ٢٦).

٥. توجد أحلام هي إعلانات مقدسة. يقول **البابا غريغوريوس (الكبير):** [على أي الأحوال القديسون بما تميَّزوا به من إدراك اقتنوه، قادرون على التمييز بين الخيالات والإعلانات، وأن يخترقوا معنى الكلمات والصور التي في الرؤى. هكذا يعرفون ما هو من الروح الصالح وما هو من التخيلات المخادعة. لكن إن كانت النفس غير متعقلة في أمر الأحلام تجد نفسها قد هلكت وسط غابة للبطلان هي من عمل الروح المخادع، الذي بفَنِّه يُقَدِّم في بعض الأوقات الكثير من الأمور الحقيقية، وبعد ذلك يأسرها في فخ كذبة واحدة.]

هذا ويرى بعض العلماء أن الأحلام غالبًا ما تكون انعكاسًا لما في داخل الإنسان لمشاهد وأحداث وتخيُّلات، وذلك عندما ينام الإنسان حيث يكون الرقيب على اللاشعور ضعيفًا. وبعضها ثمرة النوم في وضعٍ غير مريح. والبعض ثمرة انشغال الإنسان الشديد لأمرٍ ما طول النهار، خاصة في فترة ما قبل النوم مباشرة. أحيانًا تعكس الأحلام بعض أحداث أو تصرفات للشخص وهو طفل أو صبي، ولم يعد يتذكَّرها. وبعض الأحلام هي خداعات عدو الخير للإنسان كي تُضَلِّله.

---

[1] *Dialogues 4: 50.*

الشريعة تُتَمَّم بغير تلك الأكاذيب،

والحكمة كاملة في فم المؤمن [٨].

يؤكد ابن سيراخ أن الشريعة كمصدر للحكمة الحقيقية هي صمام أمان للمؤمن، ينهل منها عوض الالتجاء إلى الخزعبلات المُخادِعة.

٢. الخبرات العملية وفائدة الأسفار

الإنسان الذي يسافر كثيرًا يعرف الكثير،

والكثير الخبرة يتكلم بفهمٍ [٩].

إن كانت الشريعة تحفظ المؤمن من خداع الخيالات والأحلام، غير أنها لا تمنع المؤمن من الانتفاع بخبرة الآخرين. فالشريعة تُنَقِّي القلب والفكر، وّتحث المؤمن على الالتجاء إلى الله في وقارٍ وتقوى. بهذا ينتفع المؤمن من الأسفار الكثيرة، إذ يتمتَّع بروح التمييز، فيدرك ما هو حق ويُمَيِّزه مما هو باطل.

الذي لم يُمتحَن يعرف القليل،

أما الذي يسافر فتزداد فطنته [١٠].

إني رأيت في أسفاري أمورًا كثيرة،

وما فهمته أكثر من أن أُعَبِّر عنه بالكلمات [١١].

الله قادر أن يُعلِن عن إرادته ومشورته بوسائل كثيرة منها الأسفار للذين تقدَّسوا له.

كثيرًا ما تعرَّضتُ لخطر الموت،

ونجوت بسبب تلك الخبرات [١٢].

مع تقدير ابن سيراخ للتعلُّم من خبرة الآخرين، مما يستلزم السفر للتلاقي مع ثقافات وخبرات متباينة، غير أنه كان واثقًا في الربّ الذي أنقذه كما من الموت [١٢]. قَدَّم خبرته في انتفاعه بخبرة الآخرين، وخبرته العملية في ثقته بالله الذي يُخَلِّصه ويرعاه، فلا يرتعب من شيءٍ ولا يخاف أحدًا.

❖ **[ولا تدخلنا في تجربةٍ]** وقد وردت في بعض المخطوطات "ولا تقودنا"، وهي تعادل: "لا تدخلنا"، لأن الكلمة اليونانية تحمل المعنيين. ويصلي البعض قائلين: "لا تسمح لنا بالانقياد في تجربة". فالله لا يقود الإنسان في تجربة، بل يسمح لمن حُرِم من معونته أن ينقاد إليها، وذلك بحسب حكمة الله الخفية، وبحسب استحقاقات من سمح له بالانقياد في تجربة.

والانقياد في تجربة يختلف عن امتحان الإنسان. لأنه بدون تجربة لا يُزَكَّى إنسان. وهو يجرب

لتزكية نفسه، كما هو مكتوب: "الذي لم يُمتحَن ماذا يعلم" (راجع سي ٣٤: ١١)، أو يجرب لتزكية الآخرين، كقول الرسول: "تجربتكم[1] التي في جسدي لم تزدروا بها" (غل ٤: ١٤). لأنه من هذه الظروف علم الرسول أنهم ثابتين، لأنهم لم يتركوا المحبة بسبب المضايقات التي انتابت الرسول بحسب الجسد. أما عن الله، فهو يعرفنا قبل أن نجرب، لأنه عالم بكل الأشياء قبل كونها[2].

القديس أغسطينوس

٣. مخافة الرب ميناء الأمان

ما يشغل ابن سيراخ في موضوع الأحلام الباطلة هو الكشف عن **الطريق الآمن لتدبير حياة المؤمن:**

أ. أبرز ضرورة التمتُّع بروح التمييز للتخلُّص من الممارسات الوثنية كالعرافة والفأل وتفسير الأحلام المخادعة [٥].

ب. التمسُّك بالشريعة للتمتُّع بالحكمة الكاملة [٨].

ج. الانتفاع بخبرات الآخرين خلال الأسفار.

د. **الرجاء اليقين يتحقَّق بمخافة الرب** كميناء الأمان من كل خداعٍ أيّا كان مصدره، سواء كان مصدره خيالات النفس أو الانزلاق في الممارسات الوثنية أو خداع عدو الخير بالأحلام المضللة.

الآن يتحدث عن مخافة الربّ وعملها في حياة المؤمن:

١. مخافة الربّ تهب الحياة للروح التي تقتلها الخطية [١٣].

٢. مخافة الربّ تهب روح التحدِّي، فلا تخاف شيئًا ولا تفزع [١٤- ١٥].

٣. مخافة الربّ تكشف لنا أن عيني الرب نحو مُحِبّيه تحفظانهم من كل خطرٍ [١٦].

٤. مخافة الربّ تسمو بالنفس، وتهبها البصيرة الداخلية والشفاء والحياة والبركة [١٧].

سجَّل لنا **القديس مار فيلوكسينوس** ميمرين عن مخافة الرب بعد كتابة ميمرين عن الإيمان، واثنين عن البساطة. قَدَّم لنا مخافة الربّ كشخصٍ مولود من الإيمان وحافظ للإيمان. وأوضح أن آدم وبعد ذلك قايين طردا عنهما مخافة الرب ففقدا إيمانهما.

الذين يخافون الربّ تحيا روحُهم،
لأن رجاءهم في ذاك الذي يُخَلِّصهم [١٣].

---

[1] حسب ترجمة النص الإنجليزي وكذلك النسخة القديمة *M.SS*.

[2] *Our Lord's Sermon on the Mount, 2:9:30.*

❖ من يفهم ما هو الجسد، أي إنه قابل للفساد وقصير الأجل، يفهم أيضًا أن النفس سمائية وخالدة، وأنها نسمة من الله، ومرتبطة بالجسد إلى أن تتقدَّم وتسمو نحو التشُّبه بالله. الإنسان الذي يفهم النفس فهمًا سليمًا، يسلك في حياة مستقيمة ترضي الله، ويحذر من الجسد ولا يتهاون معه. كذلك بتأمل الذهن في الله، يرى البركات الأبدية عقليًا (روحيًا)، هذه التي يهبها الله للنفس[1].

القديس أنطونيوس الكبير

من يخاف الربّ لا يخاف شيئًا،

ولا يفزع أبدًا، لأنه الرب هو رجاؤه [١٤].

❖ لأن قايين لم يخف الله طوعًا، ملكت المخافة عليه كرهًا، وأصبح مرتعبًا هائمًا على وجه الأرض، وتحت عذاب الخوف كان يرجو الله أن يجعل أي إنسان يقتله، لكي يتخلَّص من هذه الحياة المملوءة خوفًا ورعبًا!

القديس مار فيلوكسينوس المنبجي

طوبى لنفس الإنسان الذي يخاف الربّ.

إلى من ينظر؟ ومن هو سنده؟ [١٥]

❖ اختبار مخافة الرب موجود في داخل النفس؛ والإنسان وحده هو الذي يستطيع أن يعرف ما إن كان يخاف الله أم لا. هل تذكَّرت الله فارتعبت؟ هل فكرت فيه فامتلأت خوفًا؟ هل ارتجفت أفكارك مع أعضائك، ونفسك مع جسدك؟ هل أحنى عقلك رأسك وأصابك الخجل أمام الله؟ إن كانت هذه الأشياء تحدث لك فاعلم أن مخافة الرب موجودة فيك، وتذكَّر الله حاضر بالفعل عندك[2].

القديس مار فيلوكسينوس المنبجي

عينا الرب على مُحبيه. إنه حماية فعَّالة وسند قوي:

هو ملجأ من حرارة القيظ، وظلّ من شمس الظهيرة،

ووقاية من العثرات، ونجدة من السقوط [١٦].

يدعو ابن سيراخ خائفي الربّ "محبيه". يجد محب الربّ حمايته في الربّ، إذ يسنده من قيظ التجارب، ويُخَلِّصه من السقوط، ويمجده، وينير بصيرته الداخلية ويُمَتِّعه بالشفاء من الأحزان، ويبهج قلبه بخيراته الإلهية. إن كان الربّ يُدعَى شمس البرّ الذي ينير النفس، فإن عدو الخير يُدعَى شيطان

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٢٤.

[2] ميمر ٦: ١٧٧-١٧٨.

حيث يدفع البشر نحو تجارب حارقة. المخافة تسند المؤمن في **جهاده ضد الشرّ**، خاصة في مقاومته للأفكار الداخليّة:

❖ مخافة الرب هي اللجام الذي يوقف انطلاق الإنسان نحو ارتكاب الشرّ، ويجذبه للخلف حينما يُستعبَد للجري وراء شهواته الكريهة، ليس فقط في حياته الخارجيّة، بل وعلى وجه الخصوص في حياته الداخليّة الخفية" [٦: ١٨١].

❖ الإنسان الذي يعيش في تذكُّر الله كل حين يمتلئ بالمخافة، حتى عند مقاومته فكر شهوة يمر على نفسه، فيصير مرتعبًا بسبب هذا الفكر. لكن يهرب الفكر في الحال أمام مخافة النفس، كالعصفور الذي يهرب من أمام الإنسان الذي يقلق راحته. الخوف واحترام قوانين الناس يحافظان على الجسد ضد الشهوات. والمخافة وخجل الإنسان أمام الله يحافظان على النفس ضد أفكار الشرّ. لأنه إذ يعرف أن الله يراه في كل حين، يراقب نفسه باستمرار لكيلا يخطئ[١].

القديس مار فيلوكسينوس المنبجي

يرفع (الربّ) شأن النفس[٢]،

ويُنِير العينين، ويمنح الشفاء والحياة والبركة [١٧].

❖ كما أن الخوف يُصاحِب طفولة هذا العالم ويدفعها لتعليم القراءة والكتابة، هكذا أيضًا تُناسِب مخافة الرب طفولة النفس، وتدفعها إلى تنفيذ الوصايا وعدم الاستهتار بكلام الله[٣].

القديس مار فيلوكسينوس

٤. تقدمات غير مقبولة

من بين كل أسفار الحكمة، ابن سيراخ وحده يهتم بالحديث عن عبادة الله الحقيقية. منذ بداية السفر أعلن الكاتب الاهتمام بخدمة الربّ (٢: ١). في نظره خدمة الربّ هي الحياة الحقيقية للإنسان.

ترتبط خدمة الربّ بالحياة الداخلية للمؤمن، مثل إشعياء النبي يدرك ابن سيراخ أن العبادة وتقديم الذبائح يمكن ممارستها بحرف لا روح فيه. فلا يُسَرّ بها الربّ؛ التوقُّف عند الحرف دون نقاوة القلب فيه استخفاف بالشركة الحيّة مع الربّ. مثل إشعياء يربط سيراخ بين تقديم الذبائح والسلوك في مخافة الربّ [١٨، ٢٠]. يعطي سيراخ أمثلة للعبادة والتقدمات غيرَ المقبولة لدى الربّ.

---

[١] ميمر ٦: ١٧٥-١٧٦.

[2] *the soul.*

[٣] ميمر ٧: ١٩٤.

من يتقدَّم إلى الربّ منعزلاً بقلبه عن إخوته لن يَقْبَلَه الربّ. أول جريمة قتل في العالم تمَّت خلال تقدمات للربّ من قايين فلم تُقبَل (راجع تك ٤: ٣-٥). ومن المُلاحَظ أن لوقا البشير الذي تحدَّث كثيرًا عن الصلاة، تحدَّث كثيرًا أيضًا عن الصدقة. فبالحُبّ العملي وعمل الرحمة والحنو، يشتمّ الله الصلاة رائحة رضا. لذلك حذَّرنا الربّ من تقديم ذبائح على المذبح قبل مصالحتنا مع إخوتنا.

من يُقَدِّم ذبائح بارتكاب الإثم، فالتقدمة هي سخرية؛
وعطايا الأثمة غير مقبولة [١٨].

لا يُسَرُّ العليّ من تقدمات الأشرار،
ولا بتعدُّد ذبائحهم يغفر الإنسان خطاياه [١٩].

من يُقَدِّم ذبيحة من ممتلكات المساكين،
يذبح ابنًا أمام أبيه [٢٠].

❖ إن الذي تحول إلى مرارة بسبب جذور السم المهلك لا يمكن أن تخرج منه ثمرة حلوة. لأجل ذلك يقول الرب بالنبي رافضًا حتى التقدمات: "لأني أنا الرب محب العدل، مبغض المختلس بالظلم" (إش ٦١:٨). يقول أيضًا: "ذبيحة الشرير مكرهة، فكم بالحري حين يقدمها بغشٍ!" (أم ٢١:٢٧) إنهم يقدمون إلى الله حتى الأشياء التي يأخذونها من المحتاجين، لكن الرب يبين بتأنيب عظيم كيف يُجَرِدَهُم قائلاً بالحكيم: "من قدم ذبيحة من مال المساكين فهو كمن يذبح الابن أمام أبيه" (راجع سي ٣٤: ٢٠). وهل هناك ما هو أفظع من قتل الابن أمام عيني أبيه؟ هكذا ينظر الله إلى هذه الذبائح بغضبٍ شديدٍ كحزن الأب الذي فقد ابنه[١].

البابا غريغوريوس (الكبير)

خبز المعوزين هو حياة المساكين،
فمن يحرمهم إياه هو سافك دماء [٢١].

من ينتزع معيشة القريب يقتله،
ومن يحرم الأجير أُجرته فإنه يسفك دمه [٢٢].

إن كان واحد يبني وآخر يهدم،
فماذا ينتفعان سوى التعب؟ [٢٣]

---

[١] البابا غريغوريوس (الكبير): الرعاية، ج ٣، ف ٢١، عظة ٢٢، ترجمة جورج فهمي حنا، ٢٠٠٤.

العبارات [٢٣-٢٦] تبرز الصراع المستمر بين الخير والشرّ. جيد للإنسان أن يصوم ويصلي لأجل نوال المغفرة، غير أنه لا يتهاون فيسقط فيما قدَّم عنه توبة.

سُئِل **القديس برصنوفيوس:** إن كان إنسان غير مُخْلِص في توبته، هل إذا صلَّى له قديسون تُغفَر خطاياه من أجلهم؟ استخدم القديس هذه العبارة، حاسبًا القديسين أنهم بصلواتهم يبنون، وأما المستهتر في توبته فهو يهدم، فما المنفعة سوى التعب؟

❖ الإنسان الذي لا يمارس ما يقدر أن يفعله، واعتمد على هذا المجهود أي صلوات القديسين، فإن صلواتهم لا تنفعه في شيء. إن مارسوا الحياة النسكية، وصلوا من أجله، بينما عاش في حياة من الضياع والخلاعة، فما نفع صلواتهم بالنسبة له؟ إذ يتحقق القول: "واحد يبني وآخر يهدم، فماذا ينتفعان سوى التعب؟!" (راجع سي ٣٤: ٢٣).

حقًا لو كان ممكنًا أن يحدث هذا، أي يصلي القديسون من أجل إنسانٍ فيخلص، بينما الأخير لم يبالِ بذلك ولو في عناية قليلة، عندئذ ما كان يمنعهم عن ذلك من أجل خطايا العالم[1].

القديس برصنوفيوس

❖ بالحقيقة، إن كان عدد الذين يبنون كثيرين والذي يهدم واحد، فإن التدمير سهل يحطم أيادي البنائين الكثيرة[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

إن كان واحد يُصَلِّي وآخر يلعن،

لصوت من منهما يستمع الربّ؟ [٢٤]

❖ إنسان يأخذ مما للآخرين ويعطيه للغير لا يُظهِر رحمة، إنما يمارس خطأً وظلمًا بدرجة عظيمة.

وكما أن الحجر لا يمكن أن يُخرج زيتًا، هكذا القسوة لا تجلب رحمة. عندما تُمارَس الصدقة بهذه الطريقة لا تُحسَب صدقة. لذلك أحثّكم ليس فقط أن ننظر كيف نعطي المحتاجين، وإنما أيضًا ألاَّ نعطي مما سلبناه من الآخرين.

عندما يصلي واحد، وآخر يلعن، فأيهما يستجيب الربّ دعاءه؟" (راجع سي ٣٤: ٢٤).

إن كنا نقود أنفسنا هكذا بدقةٍ سنكون قادرين بنعمة الله على نوال رأفات كثيرة ومراحم وغفران لكل ما فعلناه طوال الزمن الطويل، وأن نهرب إلى ملكوت السماوات بنعمة ورأفة ربنا يسوع

---

[1] *Letter, 616.*

[2] *On Repentance and Almsgiving, FOTC, vol. 96, p. 72-73.*

المسيح الذي له المجد مع الآب والروح القدس إلى أبد الآبد. آمين[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

إن غسل إنسان نفسه بعد لمس الميت،

ثم عاد فلمسه ثانية، فماذا ينتفع من غسله؟ [٢٥]

❖ إن أُعطي إنسان ثروته لله، لكنه قَدَّم نفسه للشيطان، فهو يُحَقِّق المكتوب: "من اغتسل من لمس ميت، ثم عاد فلمسه، فماذا نفعه غسله؟" (راجع سي ٣٤: ٢٥). بالمثل أوضح الرسول بطرس: "إذا كانوا بعدما هربوا من نجاسات العالم... يرتبكون أيضًا فيها فيُغلَبون، فقد صارت لهم الأواخر أشرّ من الأوائل" (٢ بط ٢: ٢٠).

راعوا أيها الإخوة شهادة الطوباوي بطرس عن الخطاة، إذا كانوا بعد أن بدأوا في الخلاص من خطاياهم يعودون إلى مستنقع الرذيلة، تصير حالتهم الأخيرة أَشرّ من الأولى. ما أضافه نفس الرسول بطرس يشير إلى نفس الناس: "كلب قد عاد إلى قيئه، وخنزيرة مغتسلة إلى مراغة الحمأة" (٢ بط ٢: ٢٢). في الواقع سليمان (ابن سيراخ) يُحَذِّرنا بأكثر وضوح بكلمات أكثر رعبًا: "يا بني، هل أخطأت؟ لا تزد، بل صلِ عما سلف من الخطايا فتُغفَر لك" (راجع سي ٢١: ١)[2].

❖ أيها الأحباء الأعزاء، لا تسمحوا للبركات الإلهية أن تُدَمِّر فيكم بإتباعكم الأعمال الشريرة. لئلا تلحق الرذائل بكم على حين غُرّة، والفضائل لا تفارق قلوبكم. فيتحقَّق المكتوب: "من اغتسل من لمس الميت، ثم عاد فلمسه، فماذا نفعه غسله؟" (راجع سي ٣٤: ٢٥).

إن انسحبت الفضائل ونقبل الرذائل، يلزمنا أن نخشى تحقيق الكلمات: "إذا خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز في أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة ولا يجد، ثم يقول: أرجع إلى بيتي الذي خرجت منه، فيأتي ويجده فارغًا مكنوسًا مزينًا، ثم يذهب ويأخذ معه سبعة أرواح أُخر أَشرّ منه، فتدخل وتسكن هناك، فتصير أواخر ذلك الإنسان أَشرّ من أوائله" (مت ١٢: ٤٣-٤٥)[3].

❖ بقدر عظمة ما نستلمه، يليق بنا أن نحافظ عليه بأكثر عناية واهتمام. إنه لأمر خطير أن يرفض وثني نعمة الله، لكن الخطر ليس بأقل منه إن كان المسيحي بعد أن قبلها، يعود فيفقدها. فليست كرامة لقب "مسيحي" هي التي تجعله مسيحيًا. ليس من نفع لكم نهائيًا في اللقب نفسه ما لم

---

[1] *On John ,Homily 13 : 4*

[2] *Sermons, FOTC, vol. 1, p. 159-161.*

[3] *Sermons, FOTC, vol. 2, p.218-219.*

تظهروه بالأعمال. هكذا الربّ نفسه أيضًا يقول في الإنجيل: "لماذا تدعونني يا ربّ يا ربّ، وأنتم لا تفعلون ما أقوله؟" (لو ٦: ٤٦). لهذا فلنجاهد أن نحيا في طهارة وبرّ وتقوى حتى متى وقفنا أمام كرسي الديان الأبدي، لا نُعاقَب مع الأشرار والخطاة، بل نتأهَّل لنوال المكافآت الأبدية مع الأبرار خائفي الله، وذلك بعون ربنا الذي له الكرامة والقدرة إلى أبد الأبد. آمين[1].

الأب قيصريوس أسقف آرل

❖ الذين لا يحتفظون ببراءة الحياة بعد النواح، يهملون الطهارة بعد الاغتسال. والذين يغتسلون ولكن لم يتطهروا ما هم إلا الذين يرتكبون الخطايا التي كانوا يبكون عليها ولازالوا. لذلك يقول الحكيم: "مَنْ اغتسل مِنْ لَمْسِ الميت ثم لمسه، فماذا نَفَعَهُ غسله" (راجع سي ٣٤: ٢٥).

الذي يُطَهِّر نفسه بالبكاء هو كمثال الذي يغتسل بعد لمس الميت، أما الذي يعود إلى فعل الخطية بعد أن ذرف الدموع عليها، فكمن يعود إلى لمس الميت بعد اغتساله. ينبغي أن يَعْلَم الذين ينوحون على خطاياهم ولكن لا يتركونها بأنهم في عين الديان العادل كالذين عندما يَحْلون أمام أشخاص بعينهم، يحزنون بتضرعٍ ذليلٍ، ولكن عندما يتركونهم، يكنون لهم كل الكراهية والأذى[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ مثل هؤلاء الناس لا يغسلون خطاياهم بتنهداتهم، إذ لا يتوقَّفون عن الخطأ بعد تنهُّدهم. إنهم يتنهَّدون من أجل جرائمهم، وبعد التنهُّد يعودون إليها. عن هؤلاء يقول الكتاب المقدس في سفر ابن سيراخ: "من اغتسل من لمس الميت، ثم عاد فلمسه، فماذا نفعه غسله؟ كذلك الإنسان الذي يصوم من أجل خطاياه، ثم يعود يرتكبها، فمن يسمع صلاته؟" (راجع سي ٣٤: ٢٥-٢٦). لذلك بحق يقول الله للبشر: "بالرجوع والتنهُّد تخلصون" (راجع إش ٣٠: ١٥)[3].

فلجينتيوس (تلميذ القديس أغسطينوس)

كذلك الإنسان الذي يصوم عن خطاياه،
ثم يعود يرتكب نفس الخطايا مرة أخرى، فمن يسمع صلاته؟
وماذا ينتفع من إذلاله؟ [٢٦]

❖ لو مَارَسَت حواء الصوم، وتجنَّبت الأكل من ثمر هذه الشجرة، ما كُنَّا في حاجة إلى هذا الصوم

---

[1] *Sermons, FOTC, vol. 2, p.436-437.*

[2] البابا غريغوريوس (الكبير): الرعاية، ج ٣، ف ٣٠، عظة ٣١، ترجمة جورج فهمي حنا، ٢٠٠٤.

[3] *Selected Works, FOTC, vol. 95, p. 124-125.*

لأنه "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى" (مت ٩: ١٢). فخطيتنا هي التي جلبت علينا المرض. فدعونا إذًا نُشفَى بالتوبة، غير أن التوبة بدون ممارسة الصوم هي باطلة "ملعونة الأرض بسببك. وشوكًا وحسكًا تُنبِت لك، وتأكل عشب الحقل" (تك ٣: ١٧-١٨)[١].

القدِّيس باسيليوس الكبير

من وحي سيراخ ٣٤

مخافتك ملجأي من ضعفاتي

❖ إلهي، كيف أُمَيِّز بين الأحلام المقدسة والأحلام الباطلة؟
سَمِّر خوفك فيَّ، فيتنقّى قلبي بنعمتك، وأَتَمَتَّع بالأمان إذ تهبني روح التمييز.

❖ قَدِّس عقلي وقلبي، ففي جدّية أختبر العِشْرَة معك.
وفي أسفاري أَتَعَلَّم من خبرات إخوتي معك.

❖ لأخافك أيها القدوس، فلا أخشى شيئًا، وتفتح لي باب الرجاء فأختفي فيك!
مخافتك تقودني إلى العبادة المرضيّة أمامك.
تفتح لي باب السماء ويرتفع قلبي إليها.
لساني يُقَدِّم لك ذبيحة شكر، تشتمّها رائحة رضا.
بمخافتك أُمارِس أصوامي وصلواتي ومطانياتي، وكل العبادة بدالة لديك!

---

[١] الصوم المقدس للقديس باسيليوس الكبير، ترجمة دكتور جورج عوض ودكتور سعيد حكيم، عظة ١.

الأصحاح الخامس والثلاثون

العبادة المقبولة وحنوّ الله بلا محاباة

يستمر ابن سيراخ في الحديث عن العبادة مؤكدًا وحدتها مع السلوك اللائق بالمؤمن.

١. الذبائح المقبولة [١-١٠].

٢. ليس عند الله محاباة [١١-٢٤].

حُرِم اليهود في فترة السبي البابلي من تقديم ذبائح حيوانية، إذ كان الهيكل مُدَمَّرًا. فأدرك بعض اليهود ما أنذرهم به إشعياء النبي وغيره من أنبياء القرن الثامن ق.م.، إذ أَصرّوا على أن الله يطلب ما هو أكثر من حفظ الطقس الخارجي. يطلب: "أثقل الناموس الحق والرحمة والإيمان" (مت ٢٣: ٢٣).

لم يكن ابن سيراخ مُعارِضًا للطقوس الخاصة بالهيكل، كما يظهر بوضوح في الأصحاح العشرين، بل وفي هذا الأصحاح يطالب بذبيحة البار [٦] وتقديم البكور [٧] والعشور [٨] وخدمة الربّ [١١]، تُقَدَّم حرفيًا لكن بنقاوة قلب واستقامة الحياة في الربّ. ما يُحَذِّر منه هو تقديم الذبائح والتقدمات كرشوة للربّ، فإن الله ليس عنده محاباة [١٣].

يليق بالإنسان الظالم أن يُدرِك أن الله يسمع لصلاة الفقير والمظلوم [١٣-١٥]. العبارات الواردة في هذا الأصحاح [١٧-٢٤] ربما تُعَبِّر عن مرارة شعب الله وهم تحت الحكم الهيليني/السرياني في نهاية القرن الثالث ق.م. صلوات الفقير هي طلبة إسرائيل لرد ما تُعانِي منه من مضايقيها. صارت هذه الصلاة بدورها طلبة من أجل إرسال المسيَّا.

١. الذبائح المقبولة

اهتم سفر اللاويين الذي يُعتبَر سفر الدعوة للقداسة، إذ تكرَّر القول: "تكونون لي قديسين، لأني أنا قدوس" (لا ١١: ٤٤؛ ١١: ٤٥؛ ١٩: ٢)، بالحديث في شيءٍ من التفصيل عن الذبائح والتقدمات في هيكل الله. وجاء سفر ابن سيراخ يدعو كل مؤمن أن يُقَدِّم ذبائح وتقدمات روحية في حياته. فرأى من يحفظ الوصايا يُقَدِّم **ذبيحة سلامة** [١]، ومن يُمارِس إحسانًا لمحتاجٍ يُقَدِّم **تقدمة قربان خبز فاخر** [٢]، ومن يُقَدِّم صدقة يذبح **ذبيحة شكر** لله [٢]. ومن يعتزل الشر يُقَدِّم **ذبيحة كفارة** يُسَرّ الله بها [٢]. إنه يربط بين خدمة الهيكل وبين تقديم المؤمنين ذبائح وتقدمات في حياتهم اليومية في حضرة الرب.

الإنسان الذي يحفظ الشريعة يُكثِر من تقدماته،
ومن يتمسَّك بالوصايا يُقَدِّم ذبيحة سلامة [١].

يُسرّ الله بتقدمات الطاعة للوصية الإلهية والتمسُّك بها، فيحسبها تقدمات وذبيحة سلامة مرضية أمامه. ذبيحة السلامة في رأي **العلامة أوريجينوس** هي تقدمة الإنسان الناضج روحيًا أو الكامل الذي ينعم بسلام الله الكامل في حياته الداخلية وفي علاقته الداخلية، بكونها فيض سلام وشكر ينبع بالسيد المسيح نفسه واهب السلام.

❖ السلام الحقيقي عُلوي. ما دمنا مرتبطين بالجسد، نحمل نيرًا لأمورٍ كثيرةٍ تتعبنا.

ابحثوا إذن عن السلام، وتحرَّروا من متاعب هذا العالم. اقتنوا ذهنًا هادئًا، ونفسًا هادئة غير مُرتبِكة، لا تُثيرها الأهواء، ولا تجتذبها التعاليم الباطلة، فتتحدَّى إغراءاتها لقبولها حتى يمكنكم أن تنالوا "سلام الله الذي يفوق كل فهمٍ يحفظ قلوبكم" (في ٤: ٧).

من يطلب السلام يطلب المسيح، لأنه هو نفسه سلامنا، الذي يجعل الاثنين إنسانًا جديدًا واحدًا (أف ٢:١٤)، عاملاً سلامًا بدم صليبه، سواء على الأرض أم في السماوات[1].

القديس باسيليوس الكبير

من يردّ باللطف يُقَدِّم تقدمة خبز فاخر،

ومن يُقَدِّم صدقة، يُقَدِّم ذبيحة شكر [٢].

يقول **العلامة أوريجينوس** إن كنت عاجزًا عن أن تُقَدِّم كل حياتك مُكَرَّسة للربّ كمُحرَقة (لا ١)، فقَدِّم عملك اليومي مقدسًا له كقربان دقيقٍ أو فطير، صارخًا لله أن يسكب فيك زيت رحمته بلا انقطاعٍ حتى لا يلهيك العالم عن أبديتك (لا ٢). ومن يُقَدِّم صدقة، يكون كمن يذبح ذبيحة شكر.

❖ عندما تنام على سريرك، تذكَّر بركات الله، وعنايته بك، واشكره على هذا، فإذ تمتلئ بهذه الأفكار تفرح في الروح. وعندئذ يكون في نوم الجسد سموًا لنفسك، وإغلاق عينيك بمثابة معرفة حقيقة لله، وصمتك وأنت مشحون بمشاعر صالحة هو تمجيد لله القدير من كل القلب وكل القوة، مقدما لله تسبيحًا يرتفع إلى الأعالي. لأنه عندما لا يوجد شرّ في الإنسان، فالشكر وحده يرضي الله أكثر من تقدمات ثمينة، هذا الذي له المجد إلى دهر الدهور. آمين[2].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ **سؤال: كيف يستطيع الإنسان أن يُتَمِّم حُبَّه لله؟**

الإجابة: عندما نكون فى حالة شكر وعرفان دائم من أجل نِعَم الله... كما نراها – مع

---

[1] *Homilies. 16:10.*

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٧٠.

الحيوانات الغير عاقلة. فالكلاب مثلاً تُحِب الذين يُقَدِّمون لها الطعام. أيضًا نتعلَّم هذا المبدأ من اتِّهام الرب لشعب بنى إسرائيل على لسان إشعياء النبي، قائلاً:" ربّيت بنين ونشأتهم، أما هم فعصوا عليَّ، الثور يعرف قانيه، والحمار معلف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف. شعبى لا يفهم" (إش ١: ٢-٣). كما أن الحُب ينمو بطريقة عفوية بين الحمار تجاه صاحبه، والثور تجاه قانيه، كذلك نحن أيضًا. لو أننا نشكر الله ممتنين على نِعَمه التى يعطيها لنا، فكيف إذن لا نحب من يمنحنا الكثير من تلك العطايا العظيمة؟! كيف لا تتشكَّل مثل هذه الفضيلة فى وجدان النفس السوية بطريقة طبيعية بدون أن تتعلَّمها (تتدرَّب عليها) إن جاز التعبير؟![1]

القدِّيس باسيليوس الكبير

ترك الشرّ هو مسرَّة الربّ،

وترك الإثم هو كفارة [٣].

تعرَّفت بعض الشعوب خلال التقليد على الذبائح الدموية، إذ تسلَّموها عن نوح وبنيه الثلاثة، وقد شوَّهوا مفاهيمها وغايتها، لكن الشعب اليهودي انفرد بطقس "يوم الكفارة العظيم" (لا ١٦) الذي عبثًا نجد ما يشبهه لدى أي شعب آخر، وهو يشير إلى ذبيحة الصليب التي قَدَّمها السيد المسيح عن العالم. "كفارة" في العبرية "كبوديت" تعني "تغطية" أو "ستر"، إذ في هذا اليوم تغفر الخطايا ويُستَر على الإنسان بالدم الثمين، فيكفر رئيس الكهنة عن نفسه وعن الكهنة وعن كل الجماعة بل وعن الخيمة وكل محتوياتها تكفيرًا عامًا وجماعيًا عما سقطت فيه الجماعة ككل أو كأعضاء طوال العام.

يرى ابن سيراخ أن الإقلاع عن الشرّ هو تقديم الكفارة.

لا تظهر أمام الرب فارغ اليدين،

فإن هذه التقدمات كلها تُقَدَّم من أجل الوصية [٤].

كثيرًا ما تكرَّرت الوصية: "لا يظهروا أمامي فارغين" (خر ٣٤: ٢٠)، إذ كان الهيكل ملتزمًا بمساعدة المحتاجين، كما كان يُقَدِّم للكهنة واللاويين أنصبة مما يُقَدَّم للمذبح لمعيشتهم هم وعائلاتهم. كذلك يليق بالمؤمن ألا يظهر فارغًا، فالقديسة مريم في زيارتها لأليصابات نسيبتها لم تُقَدِّم هدايا عينيّة بمناسبة حمل أليصابات، إنما دخلت حاملة السيد المسيح متجسّدًا في أحشائها، فركض الجنين في بطنها وتهللت أليصابات، قائلة: "من أين لي هذا أن تأتي أُم ربّي إليّ" (لو ١: ٤٣). هكذا يليق بنا أن نقتدي بالقديسة مريم فلا نظهر فارغين، بل نحمل لإخوتنا السيد المسيح ساكنًا في قلوبنا هذا

---

[1] *Regulae brevius tractatae, 212.*

"المُذخَّر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم" (كو ٣: ٣). وحين نقف في حضرة الآب ليس لنا ما نُقَدِّمه سوى المسيح برّنا (١ كو ١: ٣٠).

التقدمة البارّة الصالحة دهن مسحة للمذبح،

ورائحتها الطيبة ترتفع أمام العليّ [٥].

يقول الرسول: "أما تعلمون أنكم هيكل الله "وروح الله يسكن فيكم" (١ كو ٣: ١٦). فإن كنّا هيكل الله، يلزم أن يُمسَح المذبح الداخلي في قلوبنا بمسحة برّ المسيح، ويُقَدَّم عليه بخور الصلوات النقية تبعث رائحة المسيح الذكية (٢ كو ٢: ١٥). هكذا يربط بين الطقس الكنسي والحياة المقدسة.

ذبيحة البارّ مقبولة،

وذكرها لا يُنسَى [٦].

غاية عبادتنا وشركتنا مع القدوس أن نصير قديسين، نحمل أيقونة إلهنا. فهو ليس محتاجًا إلى تقدمات، بل أن نحمل برَّه ونتهيَّأ للمجد الأبدي. مسرّته ليست في كثرة التقدمات، بل في نقاوة قلوبنا التي تُعلَن في يوم الربّ العظيم ونتمتَّع بشركة الأمجاد الأبدية. يُكَرِّر الرسول العبارة: "أما البار فبالإيمان يحيا" (رو ١: ١٧؛ غل ٣: ١١؛ عب ١٠: ٣٨).

مجِّد الرب بسخائك،

ولا تبخل ببكور يديك [٧].

السخاء في التقدمة يكشف عن برّ الله العامل فينا، وعن اعتزازنا بمجد الرب. فليس من اللائق أن يبخل المؤمن بالبكور والعشور، بل يأتي بها فرحًا. "من يزرع بالشح، فبالشح أيضًا يحصد، ومن يزرع بالبركات، فبالبركات أيضًا يحصد. كل واحِدٍ كما ينوي بقلبه، ليس عن حزن أو اضطرار، لأن المعطي المسرور يحبه الله (١ كو ٩: ٧).

في كلّ عطيَّة كن متهلل الوجه،

وقدِّس عشورك بالبهجة [٨].

يقول **القديس ايرنيؤس:** "قدّس يهوذا عشور إيراداتهم لله، أما بالنسبة لمن قبلوا الحرية (في المسيح) فيضعون كل ما لديهم لحساب المسيح".

أعطِ العليّ كما أعطاك،

أعطه بسخاء حسب كسبك الشخصي الغير متوقع[1] [٩].

يُقَدِّم لنا ملاخي النبي نصيحة مُخْلِصة على لسان الرب لنلمس عمليًا كيف أن العطاء بسخاء يفتح أمامنا كوى السماوات، فتتدفَّق علينا العطايا الإلهية من حيث لا نتوقَّع. "هَاتُوا جَمِيعَ الْعُشُورِ إِلَى الْخَزْنَةِ لِيَكُونَ فِي بَيْتِي طَعَامٌ وَجَرِّبُونِي، بِهَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ إِنْ كُنْتُ لاَ أَفْتَحُ لَكُمْ كُوى السَّمَاوَاتِ، وَأُفِيضُ عَلَيْكُمْ بَرَكَةً حَتَّى لاَ تُوسَعَ" (ملا ٣: ١٠).

فإن الرب هو الذي يكافئ،

يكافئك سبعة أضعاف [١٠].

الربّ يكافئ السخي في العطاء ماديًا ويهبه فرحًا داخليًا، وبركات روحية.

٢. ليس عند الله محاباة

لا تُقَدِّم له رشوة، فإنه لا يَقْبَلها،

ولا تُقَدِّم ذبيحة ظلم [١١].

يقول السيد المسيح: "أنا هو الطريق و**الحق**" (يو ١٤: ٦). ويقول القديس يوحنا الحبيب: "الله محبة" (١ يو ٤: ٨، ١٦). فهو لا يَقْبَل رشوة، ممن يتجاهل الحق وممن لا يُمارِس الحُبّ بل الظلم كما لا يُحابِي الوجوه. ما هو ارتباط العبادة المقبولة بالرشوة؟ يظن البعض أن بمساهمتهم في دور العبادة أو بعطائهم صدقة ينالون الغفران عن خطاياهم بدون توبة ورجوع إلى الله، وكأنهم يرشون الله.

فإن الربّ هو الديَّان،

وليس عنده محاباة [١٢].

الرب كأبٍ للأيتام، وكقاضٍ للأرامل، ومُدافِعٍ عن المظلومين، وراعٍ للمحتاجين والمتألمين، لا يحابي الأغنياء الذين لا يترقَّقون بإخوتهم. إنه لا يحابي الوجوه (تث ١٠: ١٧؛ أي ٣٤: ١٩).

لا يُحابي على حساب الفقير،

بل يستجيب طِلْبَة المظلوم [١٣].

ليس عند الله محاباة (رو ٢: ١١)، إنه يهتم بالفقير والمحتاج والمظلوم، غير أنه لا يعطي الشخص غير الراغب في العمل والكسلان، كما لا يسند من يحسب نفسه مظلومًا إن كان بسبب إهماله وتراخيه.

---

[1] بحسب *NRSV*: أعطه بسخاء بقدر ما تستطيع (تحمُّل التكاليف).

لا يُهمِل تضرُّع اليتيم،

ولا تضرُّع الأرملة متى سكبت شكواها [١٤].

أليست دموع الأرملة تسيل على خديها،

وتصرخ ضد من تسبَّب فيها؟ [١٥].

أبرز هنا اهتمام الله برعاية الفئات المظلومة. أذناه تنصتان إلى تضرُّعات الأيتام والأرامل ودموعهم وصرخاتهم.

من تَسُرُّ خدمته الربّ يكون مقبولاً عنده،

وتبلغ صلاته إلى السُحب [١٦].

إذ خدم موسى الرب بأمانة، استجاب الرب لصرخات قلبه قبل أن يصرخ بفمه (خر ١٤: ١٥). قال **العلامة أوريجينوس:** [إن الله يسمع صرخات القديسين الصامتة بالروح القدس.]

صلاة الإنسان المتواضع تخترق السحب،

ولا يستريح حتى تصل إلى الربّ [١٧].

يدرك المتواضع أن صلاته قد بلغت إلى الله ليس خلال علاماتٍ منظورة أو محسوسة فحسب، وإنما ما هو أهم يشعر براحة داخلية صادقة؛ يشعر أنه في حضن الله.

❖ تذكَّروا ضمير (أيوب) الطاهر وصلاته التي بلا عيب: "**يا أرض، لا تغطي دم جسدي**" (أي ١٦: ١٨ *LXX*)، حتى تتوجَّه صلاته كبخور نحو الرب (مز ١٤١: ٢)، ولا تُودَع في الأرض.

صلاة القديس تخترق السحاب (راجع سي ٣٥: ١٧)، أما الأرض فتفتح فاها، وتخفي صلاة الخاطئ في دم الجسد، كما قال الله لقايين القاتل: "ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك، ما دمت أنت أرضًا" (راجع تك ٤: ١١-١٢)[1].

القديس أمبروسيوس

❖ دعنا الآن نأتي إلى الصلاة الصامتة، صلاة حنَّة أم صموئيل. كيف صارت موضع سرور الله، وفَتحت رحمها العاقر، ونزعت عارها، وولدت نذيرًا أو كاهنًا (١ صم ١).

وصموئيل أيضًا عندما صلَّى أمام إلهه، وأظهر شرّ الإسرائيليّين، عندما طلبوا ملكًا. قدَّم صموئيل ذبيحة كاملة على المذبح (١ صم ١٢: ١٧-١٨)، ونزل المطر...

---

[1] *The Prayer of Job and David 1: 8: 27.*

صلَّى **داود** أيضًا أمام إلهه وأُنقِذ من يديّ شاول. وأيضًا صلَّى بعدما أحصى الشعب وحوَّل عنهم الغضب والعقاب الإلهي عندما نال المهلك سلطانًا عليهم (٢ صم ٢٤: ١٧).

آسا أيضًا صلَّى وأظهرت صلاته قوَّة عظيمة، عندما خرج إليه زارح الكوشي بجيش قوامه مليونًا ضده. عندئذ صلَّى آسا، وقال: "ستُعرَف قوَّتك يا إلهنا عندما تبيد شعبًا ضخمًا بشعبٍ قليلٍ" (٢ أي ١٤: ١٢-١٥). وهكذا هُزِم هذا الجيش الكبير بقوَّة صلاة آسا.

ابنه يهوشافاط حطَّم جيش الأعداء بصلاته التي هزمتهم (٢ أي ٢٠: ٣-٣٠).

حزقيا أيضًا صلَّى وبصلاته تغلَّب على ١٨٥,٠٠٠ رجلاً حيث عمل الملاك كقائدٍ لجيشه (١ مل ١٩: ١٥، ٣٥).

صلَّى **يونان** أمام إلهه من أعماق البحر وسمعه الله (يون ٢)، واستجاب صلاته، وأُنقِذ بدون أيَّة أذيَّة. اخترقت صلاته الأعماق، وهزمت الأمواج، وكانت أقوى من العاصفة. لقد اخترقت الغيوم، وطارت في الهواء (راجع سي ٣٥: ١٧)، فتَحت السماوات وقربت من عرش العظمة بواسطة جبرائيل الذي يُقدِّم الصلاة أمام الله. كنتيجة لذلك لفظت الأعماق النبي، وأوصل الحوت يونان بأمان على البر. كذلك في حالة **حنانيا وعزاريا وميصائيل**، هزمت صلواتهم اللهيب، وأخمدت قوَّة النيران، وغيَّرت من طبيعتها الحارقة. لقد أطفأت حنق الملك، وأنقذت الرجال الأبرار (دا ٣)..

عندما صلَّى **دانيال** أيضًا سدَّت صلاته أفواه الأسود (دا ٦)، لقد انسدَّت الأفواه المُفترِسة أمام لحم وعظام إنسانٍ. لقد بسطت الأسود مخالبها، وتلقَّفت دانيال حتى لا يسقط على الأرض، احتضنته بين ذراعيها، وقبَّلت قدميه. وعندما وقف دانيال في الجب لكي يصلِّي رفع يديه إلى السماء وعلى مثال دانيال تبعته الأسود وقلَّدته. ذاك الذي تقبَّل صلاته. نزل وسدَّ أفواه الأسود. وذلك لأن دانيال قال لداريوس: "إلهي أرسل ملاكه، وسدَّ أفواه الأسود، فلم تضرُّني" (دا ٦: ٢٢).

وبالرغم من أن الجب كان مغطًّى ومختوم إلاَّ أن النور أشرق داخله، وسُرَّت الأسود عندما رأت النور الذي ظهر لأجل دانيال. وعندما غلب النوم دانيال وأراد أن ينعس ركعت الأسود حتى يمكنه أن ينام فوقها، وليس على الأرض. لقد كان الجب أكثر استنارة من عُليَّة ذات نوافذ كثيرة. وفي الجب قدَّم صلوات كثيرة أكثر من عليَّته، حيث كان يُصلِّي فقط ثلاث مرَّات في اليوم (دا ٦: ١٠)، وعندما انتصر وفرح دانيال. وأُلقي الذين اتَّهموه في الجب بدلاً منه، فانفتحت أفواه الأسود والتهمتهم وسحقت عظامهم[1].

---

[1] *Demonstrations, 4:8-9.*

القدّيس أفراهاط

❖ فوق هذا كله ليراعي كلمات الرسول: "إن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلَن فينا" (رو ٨: ١٨)، وتوقع الإعلان مع داود من أجل الذين يحفظون الوصايا توجد مكافأة عظيمة (مز ١٩: ١٢)، وجزاء وأكاليل البرّ، والسُكنَى الأبدية، والحياة التي بلا نهاية، والفرح غير المنطوق به، والمواضع غير الزائلة مع الآب والابن والروح القدس، الذي هو الله الحق في السماء، واللقاء وجهًا لوجه، والتهليل مع الملائكة والآباء والبطاركة والأنبياء والرسل والشهداء لنُحصى مع هؤلاء بنعمة ربنا يسوع المسيح الذي له السلطة والمجد إلى أبد الأبد. أمين.

القدّيس باسيليوس الكبير

ولا يسحبها حتى يفتقده العليّ،
ويُنصِف الأبرار، ويُجري القضاء [١٨].

❖ هنا نغلب الخصم، إن كنا نحارب بالدموع والصلوات والقلب المنكسر على الدوام. مكتوب: "صلاة المتواضع تخترق السحب... ولا يكف حتى يفتقده العليّ". لذلك بكاء المتواضع يساهم بقوة عظيمة في تدمير الشهوة الجسدانية. الدموع الصادرة من وخز القلب تهزم العدو وتقتني لحسابنا عطية السعادة الغالبة[1].

الأب فلجنتيوس

❖ قديمًا ستمائة ألف مسلحون من بني إسرائيل تقدَّموا ضد مديان، وانهزم جميعهم بسبب الخطية الرابضة فيهم (عد ١١: ٢١). الآن المديانيون المنتصرون على ستمائة ألف قد ضُرِبوا بواسطة ألفين، حتى تعرفوا أن إسرائيل لم يغلب بسبب كثرة عدد الجنود، وإنما بالبرّ والتقوى التي هم فيها.

وفي مباركتهم قيل إنهم إذا حفظوا ناموس الربّ، واحد منهم يغلب ألفًا، واثنان يهرب منهما عشرة آلاف (لا ٢٦: ٨). انظروا إذن، فإن قديس واحد يُصَلِّي أفضل من خطاة بلا حصرٍ في المعركة. صلاة القديس تخترق السماء (السحب) [١٧]، فكيف لا تهزم الأعداء الأرضيين. لهذا السبب يليق بكم بكل الطرق أن تبذلوا جهدًا أن تسألوا أولاً وأن تحفظوا برّ الله (مت ٦: ٣٣).

إن نلتم (برّ الله) وحفظتموه، فإنه سيُخضِع جميع أعدائكم لكم. إن كان الرسول يقول: "لابسين درع البرّ ومنطقة الحق، وخوذة الخلاص وسيف الروح وفوق الكل ترس الإيمان الذي به تقدرون أن تُطفِئوا جميع سهام الشرير الملتهبة" (راجع أف ٦: ١٤-١٧). إذ تتسلَّحون بهذه الأسلحة فإنكم

---

[1] *Selected Works, FOTC, vol. 95, p.337-338.*

تقدرون أن تُحارِبوا كل معسكرات الشيطان وكل جيشه، وتترنَّمون بيقينٍ: "إن نزل عليّ جيش لا يخاف قلبي. إن قامت عليّ حرب ففي هذا أنا مطمئن" (مز ٢٧: ٢)[1].

العلامة أوريجينوس

فالربّ لا يؤجِّل، ولا يُبطِئ في مساعدتهم [١٩].

حتى يُحَطِّم أحقاء الذين بلا رحمة،
ويجازي بالانتقام على الأمم [٢٠]

حتى يمحو جموع المتكبرين،
ويُحَطِّم صولجان الظالمين [٢١].

بكلماتٍ مُطوّلةٍ قَدَّم الفريسي صلاة متشامخة، بينما بكلماتٍ قليلةٍ قَدَّم العشار صلاة متواضعة. الأولى رُفِضَت، والثانية عبرت حتى عرش الله، لأن الله ينصت إلى كلمات المتواضعين.

❖ يليق أن تُقَدَّم طلباتنا لله في تواضع، فإن قلبنا هو الذي يُسمَع لا صوتنا. الله الذي يرى أفكارنا، لا يُطلَب منه بالصراخ، كما يؤكد الرب عندما يقول: "لماذا تفكرون في قلوبكم...؟" (مت ٩: ٤). وفي موضع آخر: "فستعرف جميع الكنائس إني أنا هو الفاحص الرغبات والقلوب" (راجع رؤ ٢: ٢٣)[2].

الشهيد كبريانوس

حتى يكافئ الإنسان حسب أفعاله،
وأعمال البشر حسب أفكارهم [٢٢].

الحياة الملكوتيّة التي نعيشها هنا هي عربون للحياة الخالدة المُمتدَّة فوق حدود الزمن حين يظهر السيّد المسيح الملك مع ملائكته ليُجازِي كل واحدٍ حسب عمله. إن كان الإيمان هو أساس الملكوت إلا أنه يلزم أن يكون "عمليًا" حتى يقدّم لنا السيّد الأكاليل الأبديّة مجازيًا "كل واحدٍ حسب عمله".

حتى يجري القضاء لشعبه،
ويفرحهم برحمته [٢٣].

يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** أن موسى مع ما بلغه من تقدير في عيني الله، لا يقدر أن يدرك

---

[1] *Homilies on Numbers 25: 2.*

[2] *The Lord's Prayer, 4.*

أعماق حكمة الله ورحمته، وكأن الله يقول له: [يا موسى، ليس لك أن تعرف من هو مستحق لحُبِّي نحو الإنسان، إنما أُترك هذا لي. فإن كان ليس من حق موسى أن يعرف، فكم يكون الأمر بالنسبة لنا؟[1]]

الرحمة جميلة في أوان ضيقه[2]،

كالمطر في أوان الجفاف [٢٤].

إذ كان ربّ المجد يعاني جسديًا من آلام الصليب فقدَّم للبشرية رحمته، وكفَّر عن خطاياهم. هذا ويقول **القديس أغسطينوس** إن الضيقات تجعلنا نتلامس مع رحمة الله ورعايته ومحبته.

❖ "استجب لي يا رب، لأن رحمتك عذبة" (مز ٦٩: ١٦).. بالنسبة للإنسان الذي يوجد في متاعبٍ يحتاج أن يجد عذوبة في مراحم الله. بخصوص هذه العذوبة لمراحم الله انظروا ما جاء في موضع آخر، حيث يقول الكتاب المقدس: "مثل المطر في أوان القحط، رحمة الله جميلة في أوان الضيق" (راجع سي ٣٥: ٢٤)... حتى الخبز لا يكون حلوًا ما لم يسبقه جوع. لهذا فإنه حتى عندما يسمح الله أو يريد لنا أن نكون في أي ضيق، فإنه حتى في هذا هو رحوم. لن يسحب المعونة، بل يثير فينا الشوق (إليه)[3].

❖ بالنهار يوصي رحمته، وبالليل يُعلن عنها (راجع مز ٤٢: ٨). في الضيق لا يتفرَّغ إنسان لكي يسمع. اسمع عندما تكون في وسع. تعلَّم عندما تكون في هدوء تهذيب الحكمة، وخَزِّن كلمة الله كما تفعل بالطعام. فإنه في وقت الشدة يليق بكل أحد أن ينتفع بما سمعه في وقت الأمان. فإنه في وقت الوسع يوصيك الله برحمته (مز ٤٢: ٨)، وإذ تخدمه بأمانة، يُحَرِّرك من الشدة. إنما في الليل فقط يعلن لك عن رحمته التي أوصاك بها بالنهار. عندما تحل الشدة فعلاً لن يتركك محرومًا من معونته، بل يظهر لك ما أوصاك به بالنهار أنه حقيقي. مكتوب: "رحمة الرب تليق (جميلة) في أوان الضيق مثل حب المطر في أوان القحط" (راجع سي ٣٥: ٢٤)[4].

القديس أغسطينوس

من وحي سيراخ ٣٥

---

[1] *In Rom. hom 16.*

[2] ضيق الربّ أي صليبه.

[3] *On Ps 69 (68)*

[4] *On Ps 42 (41)*

اقبل حياتي ذبيحة حب مرضية!

❖ أحببتني وقَدَّمت حياتك ذبيحة لخلاصي، ماذا أرد لك يا كلّي الحب!
هب لي أن أحفظ شريعتك، فيتنقَّى قلبي.
احفظ وصيتك، فيمتلئ قلبي بالقداسة والسلام.

❖ أراك أمامي في إخوتي، فأسلك معهم باللطف والسخاء.
بنعمتك أهرب من الشر، وأَتمتَّع ببرِّك.
ليس لي ما أُقَدِّمه لك، فكل ما أُقَدِّمه هو من عندك.
لتقِم لك مذبحًا في داخلي، وتمسحه بدهن البهجة.
أُقَدِّم عليه صلواتي، تحمل رائحتك يا أيها القدوس.
لأقتنيك وأرى مجدك، وأَنعَم بصوتك الحلو!

❖ لستَ محتاجًا إلى عبادتي وصلاحي. هب لي حنوًّا للفقراء، واشتياقًا أن أرفع الظلم، ورغبة في تحرير المسبيين والمسجونين، وشفاء المرضى.
أنت أب الأيتام، وقاضي الأرامل، يا إله المنسيين!

❖ أنت تُسرّ بصلاة القلب؛ وحدك تسمعها، وتُسرّ به، وتستجيب لصرخاته.
وليس من عدو يقدر أن يعترضها.
ماذا أطلب منك يا واهب الخيرات؟
هب لصلاتي جناحيّ الروح، فتطير وتخترق السحب.
تستقر في أحضانك، تهبني برّك المجَّاني، وتضمّني إلى بيتك السماوي!
إلهي، قلبي يسألك أن تُسرِع في مجيئك!

الأصحاح السادس والثلاثون

صلاة لأجل الخلاص

ختم الأصحاح السابق بالكشف عن خطأ بعض اليهود بممارستهم العبادة في الهيكل بحرفية قاتلة دون رجوع القلب إلى الله (إر ٧: ٤). وأعلمهم الأنبياء عن الحاجة إلى المسيَّا المُخَلِّص (إش ١٩: ٢٠). هنا يُقَدِّم **صلاة لأجل الخلاص**. يرى البعض أن هذه الصلاة تتناسب مع ظروف الشعب الذي اضطهده الكثير من الحُكَّام البطالمة والسلوقيين والذي يُمَثِّل قمة الدنس الذي دام فترة طويلة من الكفاح كما تخبرنا أسفار المكابيين. يضمّ هذا الأصحاح ثلاثة أقسام:

١. صلاة طويلة مهيبة [١-١٧].

٢. الحاجة إلى روح التمييز [١٨-٢٠].

٣. روح التمييز واختيار الزوجة [٢١-٢٧].

١. صلاة طويلة مهيبة

تُعَبِّر هذه الصلاة عن مشاعر الشعب الذي كان تحت الضغطة، لكنها بالتأكيد ليست مقتبسة من الطقس العام الذي كان يمارسه الشعب، إنما هي صلاة خارجة من قلب ابن سيراخ باسم الشعب المتألم والمنتظر مُخَلِّص العالم كله. يرى **القديس أغسطينوس** أن العبارات ١-٤، هي صلاة مُقَدَّمة لحساب الأمم كي يتمتَّعوا بمخافة الربّ، وقد تحقَّق ذلك بمجيء كلمة الله المتجسد.

ارحمنا، أيها الرب إله الجميع وانظر إلينا،

وضَعْ مخافتك على جميع الأمم [١].

جاءت هذه الصلاة كتعبير عن شدّة الألم، وذلك قبل قيام الثورة المكابية سنة ١٦٤ ق.م. وتطهير الهيكل، يقول المرتل: "يباركنا الله، وتخشاه كل أقاصي الأرض" (مز ٦٧: ٧).

ارفع يدك ضدّ الأمم الغريبة، واسمح لهم أن يروا قوّتك [٢].

يقصد بالأمم الغريبة، تلك التي استخفَّت بإسرائيل، وسمح لها بعض الحكام خاصة أنطيوخس أبيفانُس أن تُقَدَّم حيوانات نجسة على المذبح.

كما تقدَّست فينا أمامهم،

هكذا فلتتعظَّم فيهم أمامنا [٣].

حدث ذلك في العصور السابقة كما في أيام موسى النبي، والآن لتظهر هذه القوة مرة أخرى حتى لا تطمع فيهم أمة شريرة ويقولوا إن إلههم نسيهم. قيل: "هكذا قال السيّد الربّ: هأنذا عليك يا صيدون وسأتمجَّد في وسطك، فيعْلمون أنّي أنا الربّ حين أجْري فيها أحْكامًا وأتقدَّس فيها" (حز ٢٨: ٢٢). إن الغرض من تأديب الأمم ليس الانتقام، وإنما الاستنارة لمعرفة الرب. إنها طلبة لأجل خلاص الأمم. ليتهم يعرفون الطريق الحقيقى! ليتهم يتخلُّون عن أوثانهم!

كثيرًا ما قَدَّم لنا **القديس أغسطينوس** أمثلة تؤكد أن الصلاة الربانية الواردة في الإنجيل المقدس تتَّسِم بالشمول، فكل الصلوات الواردة في العهد القديم لها ما يُقابِلها في الصلاة الربانية من بينها ما ورد في هذا الأصحاح (٣٦: ٤، ١٦).

❖ كمثال من يقول: "لتتقدَّس في كل البشر كما أنك مُقَدَّس فينا" (راجع سي ٣٦: ١٦)، ماذا يقول سوى "ليتقدَّس اسمك"؟

وأيضًا من يقول: "يا إله الجنود أرجعنا وأنر بوجهك فنخلص" (مز ٨٠: ٣-٤)، ماذا يعني سوى: "ليأتِ ملكوتك".

ومن يقول: "ثبّت خطواتي في كلمتك، ولا يتسلَّط عليّ إثم" (مز ١١٩: ١٣٣)، ماذا يقول سوى "لتكن إرادتك لا إرادتي"...

ومن يقول: "لا تملكني شهوة النهم ولا الزنى" (راجع سي ٢٣: ٦)، سوى "لا تُدخِلنا في تجربة"...

إن مررت على كلمات الصلوات المقدسة، لا تجد شيئًا - حسب طريقة تفكيري - لا تشملها الصلاة الربانية، لذلك عندما نصلي يُسمَح لنا أن ننطق بنفس الأشياء ولكن بكلماتٍ مختلفةٍ، ولكن لن يُسمَح بالقول بأشياء مختلفة[1].

القديس أغسطينوس

ليعرفوك كما نعرفك نحن،

لأنّه لا إله إلا أنت يا رب [٤].

يقول **القديس أغسطينوس:** [هذه النبوة في قالب اشتياق بروح الصلاة، قد تحقَّقت في المسيح يسوع كما نرى[2].]

---

[1] *Letters, FOTC, vol. 18, p. 392-394.*

[2] *City of God, Books 17-22, FOTC, vol. 24, p. 74-76.*

جدِّد آياتك، وأجرِ عجائب جديدة،

ومجِّد يدك وذراعك اليُمنَى [٥].

يقصد بتجديد الآيات، أن يعلن الربّ غضبه على هذه الأمم، كما فعل قديمًا بفرعون مصر الذي أَذلّ الشعب ورفض أن يتركهم يخرجون إلى البرية ليُقَدِّموا ذبيحة للربّ (خر ٢٠: ٤١).

أَيْقِظ غضبك، وصبّ سخطك،

واطرد الخصم، وأقضِ على العدو [٦].

عندما نسمع عن غضب الله وسخطه يليق بنا أن ندرك أن الله الكليّ الحب لا يحمل روح الانتقام، بل يغضب على الشرّ، ويشتاق إلى تطهير الخاطئ وتقديسه. حينما أرسل يونان النبي ليُعلِن غضبه على نينوى بسبب شرورها، رجع الملك والقادة والشعب إلى الله بالتوبة، فصاروا نموذجًا رائعًا عبر الأجيال عن غاية الله في التوبيخ والتأديب، ألا وهو حبّه للخطاة أن يرجعوا إلى مصدر تقديسهم.

في كل العصور وُجِد أناس الله في الأمم الوثنية، مثل أيوب البار الذي كان موضع تكريم الله له.

❖ تجد أجزاء كثيرة في الكتاب المقدس يتشبَّه فيها الله بصفات الإنسان. فإذا سمعت يومًا كلمات "**غضب الله وثورته**" لا تظن أن الغضب والثورة عواطف وصفات موجودة عند الله، إنما هي طريقة بها يتنازل الله ويتكلم ليؤدِّب أطفاله ويُصلِحهم.

لأننا نحن أيضًا حينما نريد أن نُوَجِّه أولادنا ونُصَحِّح أخطاءهم نظهر أمامهم بصورة مخيفة ووجهٍ صارمٍ وحازمٍ لا يتناسب مع مشاعرنا الحقيقية، إنما يتناسب مع طريقة التأديب.

إذا أظهرنا على وجوهنا التسامح والتساهل الموجود في نفوسنا ومشاعرنا الداخلية تجاه أطفالنا بشكلٍ دائمٍ، دون أن نُغَيِّر ملامح وجوهنا بحسب تصرفات الأطفال، نفسدهم ونردهم إلى الأسوأ. بهذه الطريقة نتكلم عن غضب الله، فحينما يقال إن الله يغضب، فإن المقصود بهذا الغضب هو توبتك وإصلاحك، لأن الله في حقيقته لا يغضب ولا يثور، لكنك أنت الذي ستتحمل آثار الغضب والثورة عندما تقع في العذابات الرهيبة القاسية بسبب خطاياك وشرورك، في حالة تأديب الله لك بما نُسَمِّيه **غضب** الله![1]

العلامة أوريجينوس

عجِّل الزمان، واذكر قَسَمك،

وليُعلِن الشعب أعمالك القديرة [٧].

---

[1] *Homilies on Jer., 18.*

القَسَم المذكور هنا يشير إلى العهد الذي أقامه الربّ مع أبينا إبراهيم (تك ١٧: ٢١). إذ كان أناس الله في العهد القديم يترقَّبون مجيء المسيَّا المُخَلِّص الذي يُحَقِّق العهود التي أُقِيمَت بين الله ورجال الإيمان، طلب ابن سيراخ أن يتعجَّل الزمن ليُحَقِّق الله وعوده، ويُعلِن الله أعماله القديرة خلال الصليب. وفي نفس الوقت جاءت صلاة ابن سيراخ تُعَبِّر عن مرارة نفسه لما يُعانِيه شعب الله في ذلك الوقت، مع تمتُّعه بالرجاء في خلاص الأمم من الفساد الذي حلَّ بهم بسبب عدم إيمانهم.

ليؤكل الناجي بغضبك الناريّ،

وليواجه الهلاك من يؤذي شعبك [٨].

إن كان ابن سيراخ يطلب سرعة حلول الجزاء على الحُكَّام المُقاوِمين للربِّ ولشعبه والذين دنَّسوا هيكل الربّ، فبروح النبوة يطلب سرعة الانتقام من إبليس وملائكته المُقاوِمين لمملكة الله في قلوب البشرية.

❖ لقد سقطنا تحت سلطان أعدائنا، أي "**مَلِكُ هذا الدهر**" وأعوانه من قوى الشر. لهذا صارت حاجتنا إلى الفداء بواسطة ذاك الذي يشترينا لنعود من حالة التغرُّب عنه. بذل مُخَلِّصنا دمه فدية عنا... وإذ "**مغفرة الخطايا**"، وهي تتبع الفداء كانت مستحيلة قبل أن يتحرَّر الإنسان، فلا بد لنا أولا أن نتحرَّر من سلطان ذلك الذي أخذنا أسرى، واحتفظ بنا تحت سيطرته، وأن نتحرَّر بعيدًا عن متناول يده، حتى نتمكَّن من أن نحظى بغفران خطايانا وبالبُرْء من جراحات الخطية، حتى ننجز أعمال التقوى وغيرها من الفضائل.

العلامة أوريجينوس

اسحق رؤوس قادة الأعداء،

الذين يقولون: "لا يوجد أحد غيرنا" [٩].

حياتنا رحلة ممتعة، وإن كانت مملوءة بالتجارب ومقاومة إبليس لنا، لكن كلمة الله تجسد وحلّ بيننا ووهبنا بصليبه أن نسحق الحية القديمة، إبليس، حسب وعده مع آدم (تك ٣: ١٥).

وقف المرتل في دهشة أمام عمل الله العجيب، وسط المعركة التي بين الله وإبليس. رأى نفسه عصفورًا لا حول له ولا قوة. لا يقدر أن يفلت من فخ الصيادين، أي إبليس وملائكته، لكن القدير أعانه، فكسر له الفخ وأطلقه حرًا. ترنَّم المرتل، قائلاً: "انفلتت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيَّادين، الفخ انكسر ونحن انفلتنا، عوننا باسم الرب الصانع السماوات والأرض" (مز ١٢٣: ٧).

❖ ما هو الفخ الذي انكسر؟ يقول الرسول: "(الرب) سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعًا" (رو ١٦:

٢٠)، "فتستفيقوا من فخ إبليس" (٢ تي ٢: ٢٦). ها أنتم ترون الشيطان هو الصيَّاد، يشتاق أن يصطاد نفوسنا للهلاك. الشيطان هو سيِّد فخاخ كثيرة، وخداعات من كل نوع... **متى كنَّا في حالة النعمة تكون نفوسنا في أمان.** لكن ما أن نلهو بالخطيَّة، حتى تضطرب نفوسنا وتصير كسفينة تلطمها الأمواج[1].

القدِّيس جيروم

اجمع كل أسباط يعقوب،

وأوهبهم ميراثهم كما في البدء [١٠].

مع اهتمام الله بكل إنسان شخصيًا، يطلب أن يجمع المؤمنين معًا من آدم إلى آخر الدهور، ليُقِيم منهم الكنيسة الملكة والعروس السماوية. يقول الرسول بولس: "فإني أغار عليكم غيرة الله، لأني خطبتكم لرجلٍ واحدٍ، لأُقَدِّم عذراء عفيفة للمسيح" (٢ كو ١١: ٢).

أيها الربّ ارحم شعبك الذي دُعِي باسمك،

وإسرائيل الذي شبَّهته بابنك البكر [١١].

بالرغم من سماح كورش الفارسي لليهود بالعودة غير أن قلة منهم رجعوا على ثلاث دفعات إلى الأرض المقدسة، وقد بقي البعض في بابل، وذهب كثيرون إلى الهلال الخصيب، والبعض إلى مصر أو أثيوبيا. كثير من اليهود استقروا خارج الأرض المقدسة، خاصة على شواطئ البحر المتوسط. هذا التشتيت للشعب غيَّر الكثير من ملامح الديانة اليهودية.

❖ ماذا يُقَال عن **إسرائيل؟** "الذي يرى الله". كيف رأوا الله الذي سار بينهم في الجسد، وقد حسبوه إنسانًا وقتلوه؟...

"**اسمه عظيم في إسرائيل**". أتريدون أن تكونوا إسرائيل؟ لاحظوا ذاك الإنسان الذي قال عنه الرب: "هوذا إسرائيلي حقًا لا غش فيه" (يو١: ٤٧). إن كان الإسرائيلي حقًا لا غش فيه، فإن من كان فيه غش أو كذب لا يكون إسرائيليًا بالحق[2].

القديس أغسطينوس

أشفق على مدينة قُدسِك،

أورشليم مدينة راحتك [١٢].

---

[1] *On Ps. hom. 20.*
[2] *On Ps. 76.*

اعتبر اليهود أورشليم أيقونة السماء (إش ٥٤: ١٠) والهيكل هو نقطة تلاقي الشعب مع الله، وكانت أورشليم مَحَط أنظار جميع اليهود، أينما كانوا في أنحاء العالم مُشَتَّتين، فهي مدينة الملك العظيم، مدينة السلام، مدينة ملكي صادق (تك ١٤: ١٨)، مدينة داود الملك العظيم، وأصبحت في أيام داود وسليمان العاصمة الدينية والسياسية. تعرَّضت المدينة المحبوبة أورشليم على مدار العصور للهدم والحرق والتدنيس.

صارت رمزًا للسماء، "من يغلب، فسأجعله عمودًا في هيكل إلهي، ولا يعود يخرج إلى خارج، وأكتب عليه اسم إلهي، واسم مدينة إلهي، أورشليم الجديدة النازلة من السماء" (رؤ ٣: ١٢). "وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله، مُهيَّأة كعروس مُزَيَّنة لرجلها" (رؤ ٢١: ٢).

❖ كَرِّم الكنيسة المقدسة وحبها وامدحها، أُمك أورشليم السماوية، مدينة الله. إنها تلك التي في هذا الإيمان الذي تقبله تحمل ثمرًا وتنتشر في كل العالم. إنها كنيسة الله الحي، عمود الحق وقاعدته (١ تي ٣: ١٥)، التي في منحها للأسرار تحتمل الأشرار الذين في وقت ما يُعزَلون ويُستبَعدون[1].

القديس أغسطينوس

املأ صهيون بالاحتفال بفضيلتك الإلهية،

وشعبك بمجدك [١٣].

كان الله يُعِدّ صهيون في العهد القديم لكي يتجسَّد من القديسة مريم، ويُقَدِّم الخلاص للعالم. الآن يهتم الرب بكنيسته، صهيون العهد الجديد كشعب الله الشريك له في الطبيعة الإلهية. يقول المرتل: "الربّ أَحَبّ أبواب صهيون، أكثر من جميع مساكن يعقوب" (مز ٨٧: ٢).

❖ يبدو لي أن أبواب صهيون هي الفضائل.

كما أن الرذيلة والخطية هما بابا الموت، أظن أن أبواب صهيون هي الفضائل[2].

❖ لا يقصد الأبواب التي نراها اليوم في التراب والرماد، وإنما يقصد الأبواب التي لا يقوى عليها الجحيم (مت ١٦: ١٨)، والتي تدخل منها جموع الذين يؤمنون بالمسيح[3].

القديس جيروم

اشهد لما خلقته في البدء،

---

[1] *Sermons, 214:11.*
[2] *On Psalms, homily 18.*
[3] *Letter 108 to Eustochium, 9.*

وأَظهِر النبوات التي قيلت باسمك [١٤].

كافئ الذين ينتظرونك،

وليُوجَد أنبياؤك جديرين بالثقة [١٥].

كان رجال الله في العهد القديم ينتظرون تحقيق النبوات الخاصة بالخلاص ومجيء السيد المسيح. "وأزلْزل كلّ الأمم. ويأتي مشتهى كلّ الأمم، فأملأ هذا البيت مجدًا، قال ربّ الجنود. لي الفضّة ولي الذّهب يقول ربّ الجنود. مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأوّل قال ربّ الجنود. وفي هذا المكان أعطي السّلام يقول ربّ الجنود" (حجى ٢: ٧-٩). يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن النبي نطق بهذه العبارة لأن كثير من اليهود استصعبوا كيف يعود الهيكل القديم مرّة أخرى بذهبه وفضه بعد أن صار ترابًا ورمادًا، وكأن الرب يقول لهم: [لماذا لا تؤمنون، فإن ليّ الفضة وليّ الذهب، لست محتاجًا أن أقترض من أحد ليُزيّن بيتيّ؟![1]]

اسمع أيها الربّ صلاة المُتضرِّعين إليك،

بحسب بركة هارون على شعبك [١٦].

يختتم ابن سيراخ الصلاة بطلب البركة التي وعد بها شعبه على فم هارون (عد ٦: ٢٢-٢٧). أوضح الرب أن البركة التي تحل على الشعب بواسطة الكهنة هي عطية الله نفسه، يُقَدِّمها الثالوث القدوس، وما الكهنة إلاَّ وسيلة يسألون الله ثلاث مرات ليبارك الثالوث القدوس الشعب. هكذا يؤكد أنه هو الذي يبارك لا الكهنة، مهما علت درجتهم، هو يحرس ويرحم وهو الذي يمنح السلام.

وليَعْلَم جميع سكان الأرض،

أنك أنت الربّ، إله الدهور [١٧].

مع اهتمام ابن سيراخ بخدمة الشعب القديم والصلاة من أجلهم لا يتجاهل خلاص الأمم الذي يتحقَّق بمجيء المسيَّا المُخَلِّص. هنا يطلب عن "جميع سكان الأرض".

٢. الحاجة إلى روح التمييز

روح التمييز أشبه بطعامٍ يتذوَّقه الحكيم، فيُسَرّ بمذاقه [١٨]. إنه يعطي عذوبة للإنسان في كل ظرف يعيش فيه، يشعر كأن العذوبة التي تمسّ داخله فريدة، لم يسبق له أن اختبر عذوبة مثلها.

المِعْدَة تتناول جميع ألوان الطعام،

---

[1] *In I cor. hom 34:9.*

لكن بعض الطعام أفضل من غيره [١٨].

يصعب على الإنسان أن يعطي تعريفًا للعذوبة. وهي تمسّ طعامه وشرابه وكلماته. فالطعام المادي تتناوله المِعْدَة، ويُمَيِّزه الحلق بنوعٍ من العذوبة يختلف من طعامٍ إلى طعامٍ، ومن شخصٍ إلى آخر. هذه العذوبة تعطي الإنسان نوعًا من التمييز بين طعامٍ وآخر.

كما يتذوَّق الحلق نكهة الصيد،

هكذا يُمَيِّز القلب الفَطِن الأقوال الكاذبة [١٩].

حلق الإنسان يُمَيِّز الأطعمة، وقلبه وأذنه يُمَيِّزان الكلام الذي ينطقه بلسانه، وكما قيل: "الأذن تُمَيِّز الأقوال كما أن الحنك يستطعم طعامه" (أي ١٢: ١١).

الإنسان الحكيم يتمتَّع بقلبٍ يُمَيِّز الكلام الصالح اللائق من الكلام الرديء غير اللائق. لذا يليق بالإنسان عدم التسرُّع في الإجابة أو في التعليق على أمرٍ ما قبل أن يفحصه عقله وقلبه.

❖ لا يتحدَّث عن أُذُن الجسم (أي ١٢: ١١)، بل أُذُن الروح. فبالآذان الجسدية نسمع أصوات الكلمات، أما بالآذان الداخلية فنُمَيِّز الفكر والكلمات. كذلك "**الحنك (خاصة التذوُّق) يستطعم الطعام**" بمعني أن يقدره بالنسبة للذته. هكذا فإن حنك الروح يُمَيِّز فائدته.

الأب هيسيخيوس الأورشليمي

❖ "**فإن العقل *nous* يُمَيِّز الكلمات**"... إن كان الله يعطينا الحنك لنُمَيِّز تذوُّق الطعام، فإنه يهبنا أيضًا العقل لنأخذ قرارتنا، ويسمح لنا الزمن أن نطلب الفهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يوجد قاضي واحد يشرف على الداخل، أي **قدرة التمييز التي للعقل**، ولكن خلال طرق لائقة تحفظ الحواس الخمس متمايزة. يصنع الله عجائب، فلا تقدر العين أن تسمع، ولا الأذن أن ترى، ولا الفم أن يشم، ولا الأنف أن تتذوَّق، ولا الأيدي أن تَشِمّ. بينما كل هذه تعمل خلال قوى العقل الواحدة، غير أنه لا تستطيع حاسة ما أن تمارس غير ما قد عيَّنه الخالق لها. وهكذا خلال هذه التدابير الجسمية الخارجية، يترك لنا أن نجمعها في الداخل بطريقة روحية...

بينما توجد حكمة واحدة تسكن في إنسانٍ أقل مما في آخر... إلا أنها في ذاتها لا تحمل اختلافات فيما بينها، لكن بواسطتها نمارس عمليات متباينة مختلفة، فواحد ينال عطية حكمة، وآخر عطية معرفة، وآخر ألسنة، وآخر موهبة شفاء...

يدين الطوباوي أيوب عدم خبرة أصحابه، ووقاحة كل من ينتفخ مدعيًا أنه قد تعلَّم في

الحكمة. فإن معرفة شيءٍ ما عن الله أمر، وتذوق ما تعرفه بفهمٍ أمر آخر.

البابا غريغوريوس (الكبير)

القلب المعوج يُسَبِّب الغم،

والإنسان الواسع الخبرة يردّه [٢٠].

"القلب الخبيث"، أي غير النقي، يجلب متاعب كثيرة على الإنسان. إنه يتَّسِم بالضيق فلا يحتمل كلمة نقد، ولا يبتهج بالعطاء، أما القلب النقي فمُتَّسِع، يشتهي أن يحب حتى مضايقيه، ويخدم الجميع، ويُسَرّ بالعطاء لا الأخذ، لذلك يجني بركات لا حصر لها.

٣. روح التمييز واختيار الزوجة

قديمًا لم يكن للمرأة فرصة اختيار الزوج، وإن وُجِدَت كما حدث مع رفقة زوجة إسحق (تك ٢٤: ١-٧٨) فهي لا تُقارَن بحرية الرجل لاختيار زوجته. كان غالبًا ما يقوم الوالدان أو من في مقامهما باختيار الزوج والزوجة؛ وإن كان لا يعني حرمان الزوجين من السعادة. ولم تكن نسبة الطلاق مرتفعة كما اليوم.

بقدر ما حذَّر الشباب لئلا يختاروا زوجة شريرة، يُطَوِّب من يتزوج من كان لسانها لطيفًا ومُتَّسِمة بالوداعة، رجلها يشعر أنه ليس كسائر البشر، لأنه يعيش كما مع ملاكٍ من السماء [٢٣].

يتحدَّث عن أهمية الزوجة الصالحة في حياة رجلها، مُعلِنًا أنها تقوم بدورٍ رئيسيٍ في حياته:

أ. أكثر غنى من كل من لديه ثروات [٢٤]، لأنها كنز ثمين (أم ٣١: ١٠).

ب. لا يشعر بالعزلة، إذ هي مُعِينَة له [٢٤].

ج. يحسبها كعمود يتكئ عليه وهو في أمان [٢٤].

د. تحوط به كسياجٍ حوله، فلا يتيه رجلها [٢٥].

هـ. يشعر باستقرار، خاصة عندما يرجع في المساء إلى بيته، ويشعر بحضورها معه [٢٦-٢٧].

المرأة تَقْبَل أي ابن[١]،

لكن توجد ابنة[٢] أفضل من غيره [٢١].

المرأة الجميلة تُسعِد الرجل،

وتفوق جميع ما يتمناه [٢٢].

---

[١] بحسب *NRSV*: أي رجلٍ كزوجٍ.

[٢] بحسب *NRSV*: بنت.

هنا يمتدح الجمال الجسدي فهو بلا شكٍ يستحق المديح شأن كل شيءٍ جميل بين الناس أو بين الخلائق، غير أن كل خلائق الله جميلة، والجمال مسألة نسبية كما أن هناك فرق بين الجمال الجسدي وجمال الروح.

وإن كان في لسانها لطف ووداعة،

فزوجها ليس كسائر الرجال [٢٣].

نستطيع أن نلمس نظرة ابن سيراخ للمرأة خلال حديثه عن دور المرأة الفاضلة في حياة رجلها.

لسان الزوجة الشريرة كما سبق أن رأينا يُحَطِّم حياة الزوج تمامًا، أما لسان الزوجة الفاضلة فيُقَدِّم للزوج لطفًا ووداعةً، بل ويرفعه فوق سائر البشر، أي يُحَوِّله إلى شبه ملاك.

لم يذكر ابن سيراخ هذا عن الزوج الصالح في تأثير لسانه على زوجته. لم نسمع أن الرجل الصالح بلسانه يُحَوِّل زوجته إلى ما هو أسمى من سائر البشر.

توجد صفات أخرى جديرة بالمرأة أن تتحلَّى بها؛ مثل الحكمة وعفة اللسان وتَحَمُّل المسئوليات، تلك الصفات التي تجعل من الزوج شخصًا سعيدًا، يفتخر بها بين أصدقائه، فالجمال الجسداني قد يتحوَّل إلى قبح بسب المرض، بينما تبقى الخصال الجيدة الثابتة فلا يُحَطِّمها الموت.

من تزوج امرأة كهذه، فقد اقتنى أفضل اقتناء،

مُعِينَة نظيره، وعمود يستند إليه [٢٤].

يرفع ابن سيراخ من شأن الزوجة بشكلٍ عجيبٍ. فإن كانت غالبًا ما تكون ضعيفة جسديًا بالنسبة للرجل، إلاَّ إنها قادرة أن ترفعه فوق كل الرجال، وتجعله غنيًا بكونها كنزه الثمين، بل وتهبه قوة حيث يستند عليها في ضعفه كعمودٍ!

حيث لا يوجد سياج تُنهَب المقتنيات،

وحيث لا زوجة يتيه الرجل نائحًا [٢٥].

الزواج الصالح يحمي الطرفين الزوج والزوجة من فخاخ إبليس. يرى ابن سيراخ أن الزواج بامرأة حكيمة أفضل من العزوبية، إذ تصبح الزوجة بالنسبة لزوجها سندًا ومُعِينًا له (تك ٢: ١٨). المرأة الصّالحة نصيبٌ صالح يُمنَح لمن يتَّقي الربّ، غنيًّا كان أو فقيرًا فقلبه في سرور ووجهه مشرقٌ دائمًا.

قد يساعد الزواج الرجل في الالتزام بحياةٍ اجتماعية والحفاظ على وقته وماله وسمعته وعدم انحرافه في مسالك مؤذية. المرأة الصالحة تكون له مثل سياجٍ وحارسٍ ورقيبٍ، يجد من يهمه أمره، ويخاف عليه، سيكون في انتظاره دفء البيت السعيد الهادئ. من الطبيعي أن من لا زوجة له ولا أولاد، يتنقَّل

بسهولةٍ من مكانٍ إلى مكانٍ ومن بيتٍ إلى بيت. قد يدفعه ذلك إلى الانحراف وعدم الاستقرار.

من يأمن اللص المُسلح، الهائم من مدينة إلى مدينة؟ [٢٦].

من ذا الذي يأمن الرجل الذي لا مأوى له،
فيبيت حيثما أدركه المساء [٢٧].

كثيرون يتطلعون إلى الزواج كمأوى آمن للزوجة، أما ابن سيراخ فيرى في الزوجة الفاضلة يسكن الزوج في بيت آمن، حيث فيه ينام ويستريح!

من وحي سيراخ ٣٦

لتُقَدِّسك كل الشعوب!

❖ تطلَّع إلى كل البشرية، فأنت إله الجميع!
تقدَّستَ في أولادك المؤمنين، فصاروا بك قديسين!
لتتمجد برجوع كل الأمم إليك!
بحُبِّك تغضب على شرورهم، وبحنوك تجتذبهم إليك.
أسرع بمجيئك لنلتقي بكل الأتقياء من المؤمنين،
ونتهلل بحضورك وسط السمائيين والأرضيين.

❖ ألهبت قلوبنا شوقًا للتمتُّع بأورشليم العليا أُمّنا.
نراك فنُحسَب بالحق إسرائيل السماوي.
تكمل النبوات بمجيئك على السحاب.
وننعم بما لم تره عين، ولم تسمع به أذن،
ولم يخطر على فكر إنسان!

❖ هب لي روح التمييز في كل حياتي.
أعرف ما هو جيد ولائق بي كابنٍ لك،
وأجحد ما هو رديء وغير لائق بي.
بروح التمييز يتَّسِع قلبي بالحب لكل بني البشر،
يحب العطاء أكثر من الأخذ، والاستماع أكثر من الكلام،

أجحد الخبيث، فلا يستطيع الغم أن يتسلَّل إلى قلبي،
ولا تُعانِي نفسي من الاضطراب.

❖ إلهي، حقًا الزوجة الصالحة تُسعِد رجلها،
يراها كنزه وسنده وسياجه فيستقر معها،
ويصيرا بروحك القدوس جسدًا واحدًا.
لتكن الحكمة هي العروس التي تحتضني.
لتحتل الحكمة قلبي، فأصير في عُرْسٍ لا ينقطع.
لا تقدر أحداث العالم ولا الأمراض ولا كل قوات الظلمة أن تُفسِد سلامي.
لن أَتنقَّل من مدينة إلى مدينة، حيث السماء مسكني.
ولا يسطو لص على فكري أو قلبي أو أحاسيسي،
لأن ملكوتك الإلهي قائم في داخلي!

الأصحاح السابع والثلاثون

اختيار الأصدقاء والمُشِير

يُحَدِّثنا في هذا الأصحاح عن:

١. تحاشي الأصدقاء غير الصادقين [١-٦].

٢. اختيار المشير [٧-١٥].

٣. الحكمة الحقيقية والحكمة الباطلة [١٦-٢٨].

٤. ضبط النفس وخطية النهم [٢٩-٣١].

١. تحاشي الأصدقاء غير الصادقين

يعود سيراخ إلى الحديث عن الأصدقاء، الذين يلزم أن يكونوا مُخلِصين مختارين بروح التمييز، مُقَدِّمًا أمثلة لمن يلزم تحاشيهم:

أ. من هم **أصدقاء اسمًا** بلا عملٍ *nominalism*؛ أي صداقتهم غير أصيلة [١].

ب. الصديق الذي **يمكن أن يتحوَّل إلى عدو**، وهو أَشرّ من العدو الصريح منذ البداية [٢]. المثل الرديء في الكتاب المقدس يهوذا الخائن. إنه مُخادِع [٣]. مثل هذا الصديق يترك أثرًا رديئًا في حياة الكثيرين، إذ يُثِير الشك في بعض الأصدقاء. ظهور مثل هذا الشخص يدفع البعض إلى البحث بجدية في دوافع من سيرتبط به كصديقٍ.

ج. صديق **غير ثابت في صداقته**، يلتصق بصديقه في سرّائه، ويتجاهله في ضرّائه. وأحيانًا يأخذ منه موقف العداوة بلا سببٍ حقيقيٍ.

د. يوجد أصدقاء تقف **صداقتهم عند حدود المجاملات**، خاصة في إقامة ولائم وحفلات في المناسبات.

يُقَدِّم سيراخ نصيحة للإنسان كي يُمارِس الصداقة الأصيلة، حيث ينشغل بصديقه كمن هو قائم في أعماقه، يهتم به ويسنده حتى ماديًا.

كل صديق يقول: "أنا أيضًا صديقك"،

لكن أحيانًا يكون صديقا بالاسم فقط [١].

يبدأ ابن سيراخ قائمة المرفوضين من الصداقة بالذين يدَّعون الصداقة ولا يمارسونها عمليًا. البعض في عدم تمييز يشغلهم عدد الأصدقاء الذين حولهم لا نوعيتهم. أما قلب المؤمن فيلزم أن ينفتح بالحب إن أمكن للجميع، لكن ليس الكل أصدقاء له يعلن لهم أسراره، ففي وقت ما يسيئون إليه،

وقد يُحَطِّموه.

ألا يبلغ الحزن حتى الموت عندما يتحوَّل رفيق وصديق إلى عدوٍّ؟ [٢]

الفئة الثانية الشخصيات غير المُخْلِصَة التي لسببٍ خفي يتحوَّلون من الصداقة إلى العداوة. ومن أمثلة ذلك، يهوذا الذي قَدَّم له السيد المسيح الكثير من البركات، لكن لمحبته للفضة خان سيده، وأيضًا شاول الملك الذي أنقذه الصبي داود، وعندما أَحَبّ الشعب الصبي، وضع في قلبه أن يتخلَّص منه بكل وسيلة. على عكس هذا شخصية داود الذي قابل عداوة شاول بالحب، ولم يَقْبَل الانتقام منه، بل والتزم بالصداقة مع شاول ونسله حتى بعد موت شاول.

إنه لأمر مُحزِن للغاية حينما يتحوَّل صديق بالاسم يثق فيه صديقه، إلى عدوٍ له.

يا له من فكر شرير! لماذا تورطتَ لتُغطّي الأرض بالخداع؟ [٣]

يقف ابن سيراخ حزينًا على ما بلغت إليه طبيعة الإنسان التي خلقها الله صالحة وصاحبة سلطان، كيف انحدرت بالخطية فزحفت عليها الميول الشريرة. وتحوَّل الإنسان المخلوق على صورة الله من صديق لإخوته إلى عدوٍ؟! هذه الميول الشريرة لا تُسِيء إلى الشخص نفسه فحسب، بل إلى طبيعة الإنسان الساقطة. يقول الرسول: "إذ أخضعت الخليقة للبُطل، ليس طوعًا بل من أجل الذي أخضعها على الرجاء" (رو ٨: ٢٠). يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن الفساد لم يحلّ فقط على طبيعة الإنسان، بل وعلى الخليقة. وعندما تُصلَح طبيعة الإنسان بعمل المُخَلِّص، يُعتَق العالم من عبودية الفساد (رو ٨: ٢١)، إذ يقول:

[الآن، ما هي هذه الخليقة؟ إنها لا تعنيك أنت وحدك، وإنما معك أيضًا الخليقة الأدنى، التي لا تشترك معك في العقل أو الحس، هذه تشاركك بركاتك. يقول: "**ستُعتَق من عبودية الفساد**"، بمعنى أنها لا تعود تصير فاسدة، وإنما تتمشّى جنبًا إلى جنبٍ مع الجمال الذي يُوهب لجسدك. فكما أنه عندما صار جسدك فاسدًا فسدت هي أيضًا، هكذا الآن إذ صار جسدك غير فاسد تتبعه هي أيضًا. وإذ يعلن الرسول هذا يبلغ إلى النتيجة: "**إلى حرية مجد أولاد الله**"، فتتحقَّق حريتها.

إنه يشبه مربية تربي ابن ملك، عندما ينال الابن سلطان أبيه تتمتَّع هي معه بالخيرات، هكذا أيضًا بالنسبة للخليقة معنا. ها أنت ترى في كل الأمور أن الإنسان يحتل مركز القيادة، فمن أجله خُلِقَت كل الأشياء. انظر كيف يلطف (الرسول) المصارع، مظهرًا محبة الله غير المنطوق بها من نحو الإنسان، إذ يود أن يقول: لماذا أنت مرتبك عند تجاربك؟ فإن كنت تتألم من أجل نفسك، فحتى الخليقة تتألم بسببك. وليس فقط يلطف، وإنما يظهر أيضًا أن ما ينطق به أمر ذو أهمية. لأنه إن كانت الخليقة التي أوجدت بكاملها لأجلك هي "**على رجاء**" فكم بالأولى يليق بك أنت أن تكون علي

رجاء، يا من مِنْ خلالك ستتمتع الخليقة بتلك الخيرات؟ كما أن الآباء إذ يرون الأبناء في طريقهم لنوال كرامة يُلبسون الخدم ثيابًا بهية من أجل مجد الابن، هكذا يلبس الله الخليقة عدم الفساد من أجل مجد حرية الأبناء[1].]

أساء الإنسان العواطف التي وهبها الله له وأيضًا عطية التعقُّل والحكمة الصادقة، فسقط الإنسان في الغدر، ظهر بوضوحٍ في قايين الذي قتل أخاه هابيل لأنه أبرّ منه.

يوجد رفيق يبتهج عند ابتهاج الصديق،

لكن في وقت البلاء يكون ضده [٤].

الفئة الثالثة التي يلزم تجنبها الإنسان المستغل لأخيه، يُصادِقه حيث ينال منفعة شخصية، ويعاديه حين لا يجد منفعة شخصية له.

يوجد رفيق يجتهد في مساعدة صديق لأجل بطنه،

وفي وقت المعركة يرفع الدرع [٥].

الفئة الرابعة، الأشخاص الذين تقتصر معاملاتهم على الحفلات واللهو، ولا يهتمون بخلاص أنفسهم ولا خلاص عائلاتهم وأصدقائهم.

لا تنسَ صديقك في داخل نفسك[2]،

ولا تتغاضى عنه عند توزيع ثروتك [٦].

بعد أن حذَّرنا من الفئات الأربع السابقة، دعانا أن نكون نحن أنفسنا أصدقاء مُخْلِصين. أما علامة الصداقة الحقيقية فهي أن يكون لصديقنا موضع خاص في نفوسنا أي في قلوبنا وفكرنا ومشاعرنا، وأن نحسب ما لدينا من مقتنيات هي عطية إلهية نسند بها الآخرين.

٢. اختيار المُشِير

المشير أخطر من الصديق، لأن ما يطلبه الإنسان من الصديق أن يشاركه آلامه وأفراحه وعدم إفشاء أسراره. أما المشير، فبجانب ما يخص الصديق الأمين من هذه السمات، يكون حكيمًا يتَّسِم بروح التمييز، فيمكن للشخص أن يطلب منه المشورة، خاصة في أخذ قرار مصيري في حياته.

من الجانب الإيجابي يلزم أن يختار الصديق أو المشير التقي الحافظ الوصايا، والمهتم بخلاص نفسه وخلاص من يصادقه أو يكون مشيرًا له [١٢].

---

[1] *In Rom. hom 14.*

[2] *Soul.*

يُرَكِّز سيراخ على عنصر هام في كل الأمور خاصة في اختيار الصديق والمشير، وهو الصلاة إلى الله فاحص القلوب والعارف أعماق كل إنسانٍ.

كل مشير يشيد بمشورته،

والبعض يُقَدِّمون مشورة لمنفعتهم الشخصية [٧].

يوجه ابن سيراخ نظرنا إلى من يدَّعِي الحكمة والخبرة في تدبير الأمور وتوجيه من يستشيره إلى الاختيار السليم. بينما هو أناني يتظاهر بالاهتمام والحب، بينما ما يشغله في القرار الذي يشير به على من يستشيره أن يكون نافعًا له هو شخصيًا سواء ماديًا أو نفسيًا أو اجتماعيًا، دون مبالاة بما يجنيه الذي طلب استشارته من خسائر.

احفظ نفسك من المشير، ولتعرف مُقدَّمًا اهتمامه.

لأنه سيُفكِّر في نفسه، لئلا يقترع ضدّك [٨].

قبل أن يختار الشخص صديقه، يلزم أن يلاحظ ويدرس ما هي اهتماماته، هل له القلب المُتَّسِع بالحُبّ لمن يتعامل معهم، لئلا يفاجأ الشخص يومًا ما أنه يشير عليه بما هو لضرره.

إلقاء القُرعَةَ هنا يقصد به إضمار الشر بحيث تقع المضرّة على الصديق.

ويقول لك: "طريقك حسن"، ثم يقف جانبًا لينظر ماذا يحلّ بك [٩].

لا تقيم من كان مرتابًا فيك مشيرًا لك، وفي نفس الوقت يليق أن تكتم أسرارك عمن يحسدك. بهذا يكون قد حذَّرنا بوجهٍ عام ممن يتَّسِمون بالآتي: الذين يهتمون بصالحهم الخاص، ولا يبالون بمصلحة الآخرين، والمُتَّسِمين بالشماتة، والذين يرتاب الشخص فيهم، والذين يحسدونه على ما هو لديه.

الآن يُقَدِّم لنا فئات مُعَيَّنة يجب تجنبها عند اختيار المشير:

لا تستشر إنسانًا يتطلع إليك في ريبةٍ،

واكتم مشورتك عمن يحسدونك [١٠].

لا تستشر المرأة بخصوص ضُرّتها، ولا الجبان بخصوص المعركة،

ولا التاجر عن المقايضة، ولا المشتري عن البيع،

ولا المفتري عن الامتنان، ولا غير الرحيم عن السخاء،

ولا العاطل عن أيّ عمل، ولا الأجير الموسمي عن إنجاز عمله.

ولا العبد الكسلان عن عمل ضخم، فلا تستمع إلى هؤلاء في أية مشورة [١١].

هنا تُحَذِّرنا الحكمة من اختيار المشير من إحدى الفئات السابقة.

أ. لا تستشر الزوجة ضرّتها [١١]، لأن رأيها فيها معروف مسبقًا، فهي لن تتعاطف معها، بل تُكِيل لها التهم والنقائص.

ب. لا يستشر جندي في معركة من عُرِف عنه أنه جبان [١١]، لأنه يُضعِف القلوب ويثّبط العزائم، إذ لا قدرة له على المواجهة.

ج. لا يطلب مشورة تاجر جشع وهو يريد أن يقايض آخر [١١]، ولا يطلب بائع ما مشورة من يشتري منه [١١]. لأن ما يشغلهما أن تؤول الصفقة إليهما فكلاهما مغرض، ولن يكون محايدًا في نصيحته.

د. لا يستشير نمامًا لا يأتمنه على سرّه. لأن المشير نفسه غير أمين على أسرار الغير. هذا ما حدث مع هامان الشرير عندما استشاره الملك أحشويرش في أمر مردخاي، وكيف يكافئه على الخير الذي صنعه به، فحقد هامان على مردخاي، لكن شره ارتدّ على رأسه.

هـ. لا يستشير الإنسان شخصًا في أمرٍ هو عاجز عن تنفيذه، فلا يسأله العطاء إن كان المشير غير رحيم، ولا يسأل الكسلان في أي عمل يود أن يُتَمِّمَه، ولا من يطلب الأجرة في عمل موسمي يسأله عن إنجاز عمله.

عِوَض ذلك، ثابر مع الإنسان التقي، الذي تعرف أنه يحفظ الوصايا، وتتَّفق نفسه مع نفسك، وإذا سقطت يُشارِكك آلامك [١٢].

بعد أن قَدَّم ابن سيراخ نصائح عن تحاشي اختيار الأصدقاء من غير اللائقين بتقديم المشورة الصالحة اللائقة، يُقَدِّم نصائح إيجابية في اختيار الصديق. أولها أن يكون هو نفسه تقيًا حافظًا للوصية الإلهية، ويختار صديقًا يتَّفِق معه في التقوى وحفظ الوصايا. ثانيًا: أن يكون محبًا باذلاً يشاركه آلامه. فلا يكون مشيره ممن يُحِبُّون اللهو في غير جدية، وألاَّ يكون سكيرًا.

❖ يستحيل عليك أن تصير صالحًا أو حكيمًا في لحظة، إنما تحتاج إلى الدراسة والحرص والتمرُّن والتدرُّب والجهاد الطويل (وفوق الكل) الرغبة القوية نحو الخير.

الإنسان الصالح المُحِب لله والذي يعرف الله بحقٍ، لا يهدأ قط عن أن يصنع، بدون استثناء، كل الأمور التي ترضي الله. ولكن مثل هؤلاء يندر أن نلتقي بهم[١].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ لنبتعد، لنبتعد جدًا عن المزاح، فإنه بداية استخدام الشتائم، خلاله تنشب معارك خطيرة وعداوات

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٤٠.

متطورة. في رأينا أن الغطرسة تُلازِم السُكر. يُدَان الإنسان ليس فقط على أفعاله بل وأيضًا على كلماته. يقول الكتاب: "في مجلس الخمر لا توبخ جارك... ولا تخاطبه بكلام توبيخ" [٣١]. بالتأكيد نُصحنا بقوة أن نلازم الإنسان التقي [١٢]، لهذا من يلهو بإنسانٍ قديس فهذا خطية[1].

القديس إكليمنضس السكندري

وتمسَّك بمشورة قلبك،

فإنه ما من أحد مُخْلِص لك أكثر منه [١٣].

يود ابن سيراخ أن يُوَجِّه تلاميذه إلى أعماقهم، فتكون قلوبهم مُقَدَّسة في الربّ، فتُخلص لهم أكثر من الأصدقاء والمشيرين. من الخطورة أن نظن في التواضع وطلب المشورة أن يسلك الإنسان بروح الضعف وعدم الثقة في النفس. فقد خلق الله الإنسان ليكون قائدًا في الربّ.

عندما صار السيد المسيح صبيًا في الثانية عشر من عمره، أكد دوره القيادي بقوله للقديسة مريم: "ينبغي لي أن أكون فيما لأبي" (لو ٢: ٤٩). لقد قضى ثلاثة أيام في الهيكل وكان جالسًا في وسط المُعَلِّمين يسمعهم ويسألهم، وكل الذين سمعوه بُهِتوا من فهمه وأجوبته. يُحسَب هذا التصرُّف ثورة في عالم الصبيان، فلا نستخفّ بهم، بل نحترم رسالتهم وشخصياتهم وإمكانياتهم ودورهم.

لأن نفس الإنسان تُخبِره أحيانًا أكثر من سبعة حُرَّاس يجلسون عاليًا على برج مراقبة [١٤].

يقف سليمان الحكيم في دهشة أمام حكمة الخالق التي تتجلَّى في أن يُقِيم من الإنسان قائدًا يسود على العالم. إذ يقول: "ومكوِّن الإنسان بحكمتك، لكي **يسود الخلائق التي صنَعتَها. ويسوسَ العالم بالقداسة والبرّ، ويجري الحكم باستقامة النفْس**" (حك ٩: ٢-٣). قبل أن نطلب مساندة أي إنسانٍ أيًا كانت قدراته وحكمته ومحبته، يلزم أن نثق فيما وهبه الله لنا من نعمة وقدرة على الالتصاق به، ونطلب قيادته لنا، ولكن ليس في تشامخ وعجرفة، وإنما في تواضع وإيمان حيّ.

وفي كل الحالات صلِّ إلى العليّ،

ليهدي طريقك في الحق [١٥].

إن كان الله يدعونا أن يكون لنا آباء قادة ومُشيرين حكماء، فليكن الله أولاً في كل قراراتنا.

يُقَدِّم الرسول بولس نفسه مثالاً لا للأساقفة والكهنة فحسب، بل ولكل مؤمنٍ حقيقي، إذ يقول: "نحن جهال من أجل المسيح، وأما أنتم فحكماء في المسيح، نحن ضعفاء وأما أنتم فأقوياء، أنتم مُكَرَّمون أما نحن فبلا كرامة" (١ كو ٤: ١٠). يجد الرسول مسرّته في أن يُحسَب جاهلاً من أجل المسيح

---

[1] *Paedagogus, FOTC, vol. 23, p 140.*

مُحِبّ البشر، ويحسب مخدوميه حكماء في المسيح.

٣. الحكمة الحقيقية والحكمة الباطلة

الكلمة هي بدء كل عملٍ،

والمشورة تسبق كلّ فعلٍ [١٦].

يُقصَد بالكلمة هنا ليست المنطوق بها باللسان، إنما التي يتبنَّاها العقل والقلب. فالتفكير يسبق العمل والتعبير عنه يقرر مصير الإنسان، حياة الإنسان أو موته. " بكلامك تتبرر، وبكلامك تُدان" (مت ١٢: ٣٧). فحياة الإنسان وموته في كلامه. "الْمَوْت والْحياة في يد اللّسان" (أم ١٨: ٢١). والمشورة أيضًا يجب أن تسبق العمل.

❖ أيها الأخ، يقول الكتاب المقدس: "افعل كل الأمور بمشورة" (أم ٢٤: ٧٢ حسب النص)، و"بدون مشورة لا تفعل شيئًا". عندما كنتَ تفعل بدون مشورة بل بمشيئتك الخاصة، لم تكن تجاهد مع ذهنك. لأنه لا يوجد مَنْ لا يحتاج إلى مشورة إلاّ الله وحده الذي خلق الحكمة، ولكنك عندما طلبت أن تقطع هواك بحسب الله وتبلغ إلى التواضع، وأن تتخذني أنا أخاك الصغير جدًا كمُوَجِّهٍ؛ فقد أثرتَ حسد الشيطان عدو الخير الذي يحسد جميع الناس على الدوام[١].

❖ إن كنتَ ميتًا عن الجسد، فكيف تكون الأهواء الطبيعية حية فيك؟ ولكنك إن لم تكن قد بلغتَ بعد إلى الكمال الروحي بل الجسدي، وإن كنتَ لا زلتَ طفلاً صغيرًا في الروح؛ فضع ذاتك (أي أذلّ نفسك) بالروح وأخضِع نفسك لمُعَلِّمٍ لكي ما يؤدِّبك بالرحمة. "لا تعمل شيئًا بدون مشورة" (راجع سي ٣٢: ١٩) حتى لو بدت لك الأمور أنها جيدة، لأنّ نور الشياطين يصير أخيرًا ظلمات. فإن كنتَ تسمع أو تُفَكِّر أو ترى أي شيءٍ يُبقي ولو القليل من الاضطراب في قلبك؛ فاعلم أنه من الشياطين[٢].

القديس برصنوفيوس

أربعة أنواع من الأشياء تظهر كدليلٍ على تغيير القلب [١٧].

الخير والشر؛ الحياة والموت.

واللسان هو المتسلِّط على هذه في كل حين [١٨].

يليق بالفكر أن يأخذ قراره المصيري من أربعة اختيارات الخير والشرّ والحياة والموت.

---

[١] فردوس الآباء، ج ٣، سؤال ٦٧، ص ٣٢٨.

[٢] فردوس الآباء، ج ٣، سؤال ١٢٥، ص ٣٦٧-٣٦٨.

يوجد رجل ذكي يكون مُعلِّمًا لكثيرين،

لكنه لا ينفع نفسه *his own soul* [١٩].

يوجد بين الناس من هم أذكياء، قادرون على التعليم بالكلام، لكن حياتهم تُبطل ما يقولونه.

❖ لكي تكون كلمات الإنسان مُقنِعة، فإن حياة المتكلم لها أثرها الكبير أكثر من أي سمو في البلاغة، بغض النظر عن مدى البلاغة[١].

القديس أغسطينوس

❖ القدوة الحسنة تعطي صوتًا أحلى وأعذب من أصوات العزف وجميع آلات الطرب، لأن الناس لا يعتبرون ما نقوله بمقدار ما نفعله.

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

الإنسان الذي يبتدع كلمات ماكرة يكون مكروهًا،

هذا الإنسان يذهب جائعًا [٢٠].

يترجمها **القديس أغسطينوس:** "من يتكلم بطريقة سوفسطائية مكروه" ويعلق عليها قائلاً: [على أي الأحوال، قد لا يكون (الشخص) مخادعًا، لكنه يهتم بتزيين الكلام بطريقة حرفية في نوعٍ من المبالغة وليس في جدية، فيُحسَب حديثه سوفسطائيًا[٢].]

❖ ينبغي على الإنسان أن يتنقَّى قبل أن يُطَهِّر الآخرين، ويصير حكيمًا حتى يجعلهم حكماء، ونورًا ليضيء لهم، ويقترب من الله ليجذبهم إلى الله، ويتقدَّس لأجل تقديسهم، ويكون له من يقوده ليقودهم هو بحكمة.

القدِّيس غريغوريوس النزينزي

إن النعمة لم تُعطَ له من عند الربّ،

لأنه محروم من كل حكمة [٢١].

إن لم نهتم بالتمتُّع بحكمة الله، لن نختبر نعمته في حياتنا.

ويوجد إنسان حكيم في نفسه،

وثمار فهمه موثوق بها عندما يتكلم [٢٢].

جيد أن تكون حياة الشخص درسًا عمليًا، لكن توجد حاجة إلى الكلمة ليُعَبِّر بها عن حياته.

---

[1] *Christian Instruction, FOTC, vol. 2, p. 229-230.*

[2] *Christian Instruction, FOTC, vol. 2, p.102-103.*

الإنسان الحكيم يُعلِّم شعبه،
وثمار فهمه موثوق بها [٢٣].
يليق بالحكيم أن يُعَلِّم، فحياته تثبت ما ينادي به، حيث يثق الناس فيه.

الإنسان الحكيم مملوء بالبركة،
وجميع الذين يرونه يحسبونه مُباركًا [٢٤].
ما يلمسه البشر في حياة الحكيم ليس فقط سلوكه الحكيم وتقواه بل وبركة الرب الملموسة فيه.

حياة الإنسان تُعَد بالأيام،
أما أيام إسرائيل فلا عدد لها [٢٥].

الحكيم يرث الثقة في وسط شعبه،
واسمه يحيا للأبد [٢٦].

يا ابني، امتحن نفسك ما دمتَ حيًا،
وانظر ماذا يضرّها، ولا تستسلم لها [٢٧].

فإنه ليس كل شيءٍ نافع لكل أحدٍ،
ولا كل نفسٍ تتمتَّع بكل شيءٍ [٢٨].
قال **الأب غريغوريوس (الكبير):** [قد سبق **غريغوريوس النزينزي** الموقر فعلَّمنا أن الراعي لا يقدِّم نصيحة واحدة للجميع. إذ لا تصلح مشورة واحدة للكل، طالما ليس للكل نفس الشخصيَّة. فالنصيحة التي تفيد البعض قد تضر الغير. كالمراعي التي تقتات فيها بعض الحيوانات بينما لا تصلح لغيرها. والصفير الهادئ الذي يهدِّئ الحصان قد يُهَيِّج الجرو. والدواء الذي يشفي شخصًا يزيد أمراض آخر. والطعام الذي يقوت الرجل القوي يهلك الطفل الصغير.]

٤. ضبط النفس وخطية النهم

حقًا إن جميع المؤمنين مدعوون إلى تجنُّب الشرّ، فكم بالأكثر يليق بنا اختيار الصديق أو المشير الذي لا ينقصه ضبط النفس، حتى في الطعام.

لا تكن شرهًا إلى كل طعامٍ لذيذٍ،
ولا تُسَلِّم نفسك للأطعمة [٢٩].

❖ ليس الأحرار، هم الأحرار بحسب مركزهم، بل الذين هم بحق أحرار في حياتهم وطباعهم. فمثلاً

لا يجوز لنا أن ندعو المشهورين والأغنياء أحرارًا متى كانوا أشرارًا وشرسين، لأن مثل هؤلاء عبيد الشهوات الجسدية. حرية النفس وطوباويتها، هما ثمرة النقاء الحقيقي والازدراء بالزمنيات[1].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ يلزمنا أن نضبط البطن، ونحفظها تحت توجيه السماء. فإن الله في النهاية سيُحَطِّم كل ما هو للبطن كما يقول الرسول[2].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ كيف ترى هيئة ذوات الأربع؟ إن رأسها مُنحنٍ صوب الأرض، وهي تنظر إلى بطنها مفتشة عن الأشياء التي تلذ لها. أما أنت أيها الإنسان فرأسك مرتفع نحو السماء، وعيناك تنظران إلى العُلى. فإذا كنت تتلطخ بشهوات الجسد، وتتعبد للذَّات الجوف، وللَّذَّات السفلية، فأنت بهذا "تقترب من الحيوانات التي لا تعقل، وتتشبه بها" (راجع مز ٥٨: ١٣).

إني أعرض عليك الاهتمام بأمرٍ آخر يليق بك: "اطلب الأشياء السامية، حيث المسيح" (راجع كو ٣: ١). وارتفع فوق أعراض الدنيا الفانية، وتعلم من تكوينك الجسدي، واجعله قانونًا لحياتك: فمدينتك هي السماء؛ ووطنك الحقيقي هو أورشليم العليا، ومواطنوك هم الأبكار، الذين كُتبت أسماؤهم في السماوات[3].

القدِّيس باسيليوس الكبير

❖ حينما تصير البطن سيِّدة الجسد تأمره وتخضعه لإرادتها، وعوض الطريق المؤدي إلى السماء تريه الطريق الآخر الذي يهبط به إلى الهاوية...

شهوة محبة البطن هي أكثر الشهوات سوءًا. والإنسان الذي يصبح خاضعًا لها، متى حمل نيرها الثقيل على كتفيه لا يقبل أن يأخذ هدنة خلال خدمته لها. فإن هذه الشهوة تعمل فيه نهارًا وليلاً. ترسله حيثما تشاء كخادمٍ بائسٍ، ليس في طرق سهلة وممهدة، بل في طرق مملوءة بالحجارة المعثرة، وفي المواقع التي توجد فيها خسائر فادحة. لأن صديق الشهوات ليس له عيون يرى بها النور...

الجسد ثقيل بطبعه، إلاَّ أن الشراهة تضيف إليه ثقلاً أخر... الحيوان إذا ملأ بطنه يترك بقية الطعام ولا يقوم بتخزينه... أما الإنسان فلا يفعل ذلك، لأن شهوته لا تمتلئ مع امتلاء بطنه.

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ١٨.

[2] *Paedagogus 2:5.*

[3] راجع الأب الياس كويتر المخلصي: القدِّيس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣١١. عظة ٣:٣.

الأكل بدافع الشهوة شيء، والأكل بدافع الاحتياج شيء آخر. فمن يأكل بدافع الامتلاء يأكل من أجل النفس لا من أجل الجسد. يغذي جسده لكي يكون في كل وقت مستعدًا لخدمة النفس....

يليق بتلميذ المسيح أن يهرب من هذه الشهوة الحمقاء، ولا يصير عبدًا لبطنه... لقد قال بولس الرسول عن البطن: "الذين إلههم بطنهم، ومجدهم في خزيهم" (في ٣: ١٩)... الإنسان الذي ينحني تحت تلك الشهوة الأثيمة لا يقدر أن يحمل نير التلمذة للمسيح[1].

القدِّيس مار فيلوكسينوس

فإن كثرة الأكل تجلب المرض،

والنهم يقود إلى المرض[2] [٣٠].

كثيرون ماتوا من النهم،

أما الإنسان المُحترِس فيُطيل حياته [٣١].

النهم ليس خطية فقط تؤذي النفس، وإنما تُمَثِّل خطرًا حتى على صحة جسده.

من وحي سيراخ ٣٧

اختر لي الأصدقاء والمشير يا فاحص القلوب!

❖ هب لي الأصدقاء والمشير الذين أراك متجليًا فيهم.

أنت فاحص القلوب، والعارف من هم يسندونني في خلاص نفسي.

إنني لست أفضل من إخوتي،

إني محتاج إلى من يسندني فيك!

هب لضعفي أن أكون صديقًا تقيًا بنعمتك.

لتعمل نعمتك فيّ وفيهم،

فنشترك معًا في العشرة معك.

❖ ليعمل روحك القدوس فيّ،

فألمس ملكوتك في داخلي.

هب لي الثقة والرجاء في تقديس أفكاري وكلماتي،

---

[1] *Memra 10.*

[2] الكلمة اليونانية: الكوليرا *χολέρα*.

فأسلك بالحق تحت رعايتك.
أحسبني مع أصدقائي ومشيري أداة برّ لحساب ملكوتك.
لتَقُد فكري وقلبي وأيضًا بطني،
فلا تُحَطِّمني شهوات الجسد،
ولا تستعبدني معدتي،
بل أَتَمَتَّع بحرية مجد أولاد الله.

الأصحاح الثامن والثلاثون

المرض والحزن على الموتى

في الأصحاح السابق ختم الحديث بضبط النفس وعدم النهم، الأمر الذي فيه بنيان الروح كما صحة الجسد. هنا يؤكد ابن سيراخ الحاجة إلى رعاية الجسد، وحفظه من الأمراض التي تُحَطِّمه كما قد تؤذي الروح، لذلك تعرَّض في هذا الأصحاح إلى نظرة المؤمن إلى المرض، وأيضًا إلى الموت. كما أراد تأكيد أن المجتمع في حاجة إلى القائد المُدَبِّر والعامل الصانع، فلا يستخفّ أحد بأخيه بسبب نوع عمله أو بسبب انتمائه إلى فئة مُعَيَّنة من فئات المجتمع العاملة لبنائه.

١. **الطب والأطباء** **[١-١٥].**

٢. **الحزن على الموتى إلى حين** **[١٦-٢٣].**

٣. **تقدير القادة وأصحاب الحرف** **[٢٤-٣٤].**

١. الطب والأطباء

يرتبط موضوع الطب بالحكمة، فالطبيب يلتزم بدراسة الطب والأدوية، وتُمنَح له الحكمة من الله لممارسة عمله، لذلك فإن الطبيب مازال يُسَمَّى لدى عامة الناس بالحكيم. وقد ساد بين الربيين والذين عرفوا فيما بعد بالحسيديم، أى الأتقياء، بأن اللجوء إلى الطبيب هو ضعف إيمان بالله، معتمدين على ما ورد فى أخبار الأيام الثاني ١٦: ١٢ أن آسا الملك طلب الأطباء لا الربّ. غالبًا ما كان هؤلاء الأطباء يستخدمون السحر والعرافة، ولا يلجأون إلى الله مع استخدام فن الطب. كان ابن سيراخ مُتعاطِفًا مع التقدُّم في ميدان الطب والدوأَّء، فتحدث عن أهمية الطبيب وتقديره للدواء.

إدراك **القديس باسيليوس الكبير** مع صديقه **القديس غريغوريوس النزينزي** رسالتهما وهما طالبان في جامعة أثينا، مع تكوين جماعة وسط الطلبة لها تقديرها واحترامها حتى عند الفلاسفة أساتذة الجامعة، دفعه هذا إلى إبراز أن يرى الطب موهبة وعطية من قبل الله كسائر المواهب والفنون، فلا يجوز مقاومتها أو تجاهُلها، بل الاهتمام بدراسة هذه الفن أو هذه الصناعة بتقديرٍ واحترامٍ لها.

بالنسبة للطبيب، فالله خلقه ليعمل حسب موهبته ودراسته، غير أن الشافي الحقيقي هو الله. فالطبيب يُقَدِّم بركة الصحة كعطيةٍ من الله، وهذا يدعونا إلى تكريم الطبيب. والدواء هو أحد العطايا الإلهية التي تُقَدَّم للبشر كالشمس والمطر اللذين يقدمان للخطاة كما للأبرار كقول السيد المسيح.

❖ **سؤال: هل الالتجاء إلى فن الطب يتَّفِق مع ممارسة التقوى؟**

الإجابة: كل فنٍ من الفنون هو عطية الله، لمعالجة الخلل في الطبيعة. مثال ذلك **فن الزراعة** لمعالجة إنتاج الأرض متى كان الإنتاج غير كافٍ لإشباع احتياجاتنا. **وفن النسيج** لعمل الملابس الضرورية من أجل الاحتشام والحماية من الرياح. وبنفس الطريقة **فن البناء**. نفس الأمر حقيقي بالنسبة **لفن الطب**؛ فإذ يتعرَّض جسمنا لأنواع مختلفة من الأذى، يتعرَّض البعض لهجوم من الخارج، والبعض من الداخل بسبب الطعام الذي نتناوله، وإذ يعاني الجسم بسبب التخمة في الأكل أو نقصه، فإن فن الطب وُهِبَ من الله ليقود حياتنا كلها، كمثالٍ لشفاء النفس، يقودنا إلى إزالة ما هو زائد، وإضافة ما هو ناقص...

عندما أُمرنا بالعودة إلى التراب الذي أُخذنا منه، وصار لنا الجسم الذي يمتطيه الألم، وصار مصيره الدمار بسبب الخطية، ولنفس السبب أيضًا خضع للمرض، أي لنا فن الطب لنُعِين المرضى على الأقل إلى حدٍ ما[1].

القديس باسيليوس الكبير

أعطِ للطبيب كرامته اللائقة به،

وأيضًا حسب احتياجك له، فإن الربّ خلقه [١].

بتجسُّد الكلمة أكد الخالق تكريمه للجسد، وفي خدمته شفى الكثيرين حتى لا يظن أحد أنه يجحد الجسد، إنما يطلب سلامته، كما يهبه مع النفس المجد الأبدي. وبقوله: "لا يحتاج الأصحّاء إلى طبيب بل المرضى، لم آتِ لأدعو أبرارًا بل خطاة إلى التوبة" (مر ٢: ١٧)، لم يستنكف من أن يدعو نفسه طبيبًا. يرى **القديس يوستين** في حديث السيد المسيح بابًا مفتوحًا للجسد الذي هاجمته بعض الهرطقات بكونه مخطئ لا يستحق القيامة مع النفس، إذ قال: [إن كان الجسد هو المخطئ، فقد جاء المُخَلِّص من أجل الخطاة، إذ يقول: **"لم آت لأدعوَ أبرارًا بل خطاة إلى التوبة"**. بهذا يظهر للجسد قيمته في عينيّ الله، وأنه مُمَجَّد... ويلزم أن يُخَلِّصه[2].]

فإن الشفاء من عند العليّ،

ومن الملك ينال (الطبيب) العطايا [٢].

يُعطِي الله للطبيب الفهم والحكمة، وهو الذي يُقَدِّم لنا الشفاء خلال الطبيب. فإن كان الملك يكرم الطبيب الناجح، ويُقَدِّم له هدايا، فيليق بالملك كما بالطبيب أن يشكرا الله واهب الشفاء.

❖ أيها الأخ، بعض الناس يلجأون إلى الأطباء، وآخرون لا يذهبون إليهم. الذين يلجأون إليهم

---

[1] *Regulae fusius tractatae, 55.*

[2] *On the Resur. 8.*

يفعلون ذلك مع رجائهم في الله، قائلين: "باسم الربّ نأتمن أنفسنا لدى الأطباء، فهو يمنح الشفاء عن طريقهم. والذين لا يلجأون إليهم، لا يفعلون ذلك، ولهم رجاء في اسم الله، وهو يشفيهم. فإن كنت تلجأ إلى الأطباء لا تفعل خطًا، والذين لا يلجأون إليهم ليسوا متشامخين[1].

❖ يلزم للإنسان أن يتذكَّر أنه بدون الله لا يستطيع حتى الطبيب أن يفعل شيئًا. بالحريّ الله هو الذي يهب الشفاء للمرضى عندما يرغب في ذلك[2].

القديس برصنوفيوس

مهارة الطبيب ترفع رأسه،

فيُعجَب به في حضرة العظماء [٣].

في حديث الرسول بولس عن نجاح خدمته وخدمة أَبولّس في كورنثوس، يقول: "أنا غرست وأَبولّس سقى، لكن الله كان ينمي" (١ كو ٣: ٦). وهكذا بالنسبة للأطباء، فإنهم يُقَدِّمون الدواء، والله هو الذي يشفي. يقول **القديس أغسطينوس:** [ما المنفعة إن غرسنا أو سقينا إن لم يُنَمّ الله؟ فإنه ليس الغارس شيئًا، ولا الساقي، بل الله الذي ينمي[3].] وبنفس المنطق نقول: [ما المنفعة إن عالج الطبيب المريض إن لم يشفِ الله.]

خلق الربّ الأدوية من الأرض،

والرجل الفطن لا يستخف بها [٤].

يرى **القديس مقاريوس الكبير** في صناعة الأدوية، رعاية الله العجيبة للإنسان. فإن كانت الأمراض حلَّت على الإنسان بسبب تجاهله للسماوي، وانشغاله بالأرضيات، فقد وهب الله الأرض لتُقَدِّم الأدوية من الأعشاب التي تنبت من الأرض.

❖ أعطى الله الأرض وعقاقيرها من أجل شفاء الجسد، مُصدِرًا أمرًا بأن يُعالَج الجسد الذي من التراب بأشياء مأخوذة من التراب (الأعشاب)... بعدما سقط الإنسان من الفردوس، جاء توًا تحت تأثير أمراض الجسد واضطراباته... لذلك وهب الله العالم الدواء لأجل راحته، للشفاء ورعاية الجسد، وسمح للذين لا يستطيعون أن يستودعوا أنفسهم بالكامل بين يدي الله أن يستخدموه[4].

القديس مقاريوس الكبير

---

[1] *Letter 508.*

[2] *Letter 770.*

[3] *Sermons on New Testament Lessons, 31:3.*

[4] *Sermon 48.*

❖ أحيانا يرى الله أنه من الأفضل أن يشفينا سرًا دون وسائل ظاهرة [كالالتجاء إلى طبيبٍ واستخدام دواءٍ] عندما يرى أن هذه الوسيلة نافعة لنفوسنا. مرة أخرى يريدنا أن نستخدم أدوية لعلاج أمراضنا، إما لكي ما يطبع في نفوسنا تذكار نعمته التي ننالها وذلك خلال شفائنا البطيء، أو كما قلت ليُقَدِّم لنا مثالاً نقتدي به بخصوص الاهتمام بالنفس. فكما بالنسبة للجسد الأمر ضروري أن نتخلَّص من العناصر الغريبة عنه ونضيف إليه ما فيه عجز، هكذا بالنسبة للنفس يليق بنا أن نتخلَّص مما هو غريبٍ عنها، وأن نَقْبَلَ ما يتناغم مع طبعها. فقد خلق الله الإنسان مستقيمًا (جا ٧: ٣٠) وخلقنا لأعمال صالحة لكي نسلك فيها (أف ٢: ١٠).

القديس باسيليوس الكبير

أليس بخشبة[1] صار الماء عذبًا،

حتى عُرِفَت قوته؟ [٥]

يشير هنا إلى ما ورد في (خر ١٥: ٢٤)، حين شعر الشعب بالعطش، فتذمَّروا على موسى، إذ وجدوا ماءً مرًا لا يقدر أن يرويهم. ألقى موسى النبي بالشجرة في المياه المُرة فصارت حلوة. هكذا عُرِفَت قوة الله خلال الشجرة التي أُلقيت في الينبوع المُرّ فصارت مياهه حلوة.

يرى كثير من الآباء في الشجرة رمزًا للصليب الذي يعمل في مياه المعمودية، فتتحوَّل حياتنا من المرارة إلى العذوبة، وعوض ما نحمله من أعمال الإنسان القديم نتمتَّع بالطبيعة الجديدة التي صارت لنا في المسيح يسوع[2]. يقول **القديس أمبروسيوس:** [كانت مارة عين ماء شديدة المرارة، فلما طَرح فيها موسى الشجرة أَصبحت مياهًا عذبة. لأن الماء بدون الكرازة بصليب الرب لا فائدة منه للخلاص العتيد. ولكن بعد أن تكرَّس بسرّ صليب الخلاص يصبح مناسبًا لاستعماله في الجرن الروحي، وكأس الخلاص، إذ أنه كما ألقى موسى النبي الخشبة في تلك العين هكذا أيضًا ينطق الكاهن على جرن المعمودية بشهادة صليب الرب فيصبح الماء عذبًا بسبب عمل النعمة[3].]

وهو (الربّ) الذي أعطى الناس المهارة،

ليتمجَّد في عجائبه [٦].

ما هي الأعجوبة في إعطائه الناس المهارة؟ إنه يكرِّم الإنسان، فيعطيه العقل والفهم وإمكانية العمل، بينما الله نفسه هو واهب الشفاء خلال عمل الطبيب.

---

[1] الكلمة اليونانية ξύλον قد تعني أيضًا شجرة.

[2] *Justin: Dial 86, Cyril of Jer: Cat. Lect 13: 20, Aphraates: Demons 21: 10. Greg. Nyss. Adv. Eos qui diff bapt.*

[3] للمؤلف: الحب الإلهي ص ٨٥٩، عن الأسرار ٣.

بالأدوية يشفي، ويزيل الأوجاع،

ومنها يصنع الصيدلي أمزجة [٧].

يحرص ابن سيراخ على تأكيد الحاجة إلى تناغم العمل البشري وتقديسه بالعمل الإلهي، وارتباط إرادتنا وتقديسها بالإرادة الإلهية. فالطبيب له دوره في نوال الشفاء ومهارته عطية من الله، والدواء مُستخرَج من الأعشاب والنباتات، والصيدلي يقوم بتحضيره ومزجه.

وأعمال الله لا نهاية لها،

وبه تحلّ الصحة على وجه الأرض [٨].

يا بُنيّ، إذا مرضت فلا تكن مهملاً،

بل صَلِّ إلى الرب، وهو يشفيك [٩].

مع تأكيد عمل الله واتكالنا عليه، يليق ألا نهمل في صحتنا الجسدية، بل نطلب من الله الشفاء. هذا وإصابتنا بأي مرض تعطينا الفرصة أولاً لمراجعة حساباتنا الروحية مُعترِفين بخطايانا، وتقديم الشكر لله، والصلاة من أجل التمتُّع بعمل الله فينا.

❖ مرض الجسد يُحجِم الخطية، والترف يُشعِل نار خطية الجسد[1].

❖ عندما نعاني من ضربات المحن من يد الله الذي يُوَجِّه حياتنا بالصلاح والحكمة، يلزمنا أولاً أن نطلب منه فهم سبب بلائنا بهذه الضربات، وثانيًا نطلب منه خلاصنا من آلامنا أو يهبنا الصبر لاحتمالها حتى النهاية، إذ يهبنا الله مع التجربة المَنْفَذ لاحتمالها (١ كو ١٠:١٣).

القديس باسيليوس الكبير

أقلع عن آثامك، واجعل يديك مستقيمتين،

وطَهِّر قلبك من كل خطيئة [١٠].

ينتهز المؤمن كل فرصةٍ، منها المرض، لانطلاقة جديدة في الحياة الروحية والتمتع بنقاوة القلب.

❖ يلزمنا أيضا أن نُقَدِّم دليلاً على إصلاح أنفسنا **بأن نصنع ثمارًا تليق بالتوبة** (لو ٣:٨)، متذكرين كلمات الرب: "ها أنت قد برئتَ، فلا تخطئ أيضًا لئلا يكون لك أَشرّ" (يو ٥:١٤).

القديس باسيليوس الكبير

قرِّب ذبيحة رائحة سرور، وتذكار الدقيق الجيد،

---

[1] *Concerning Repentance, 1:13:63.*

واسكب دهنًا على تقدمتك، كأنك تموت قريبًا [١١].

تقديم ذبيحة الحب والشكر والتسبيح لا تفارق قلوبنا حتى في لحظات الموت، لأنها هي إعداد لنا للانطلاق من هذا العالم.

❖ عندما ننال الشفاء من الله... يلزمنا أن **نتقبَّل هذا بشكر**. لنبصر رعاية الله الساهرة علينا بلا تمييز، سواء تمّ الشفاء خلال مصدر غير مرئي أو خلال أمر مادي (الدواء)، ونَقْبَل الشفاء الأخير كعطية من يد الله.

❖ لعازر بالرغم من معاناته من جروح مؤلمة، لم يتذمَّر قط على الغني، ولا طلب منه شيئًا، لهذا وجد راحة في حضن إبراهيم، كشخصٍ قبل بتواضعٍ محن الحياة (بما فيها مرضه)[1].

القديس باسيليوس الكبير

كُنْ على اتصالٍ بطبيبك، فإن الربّ خلقه،
ولا تدعه يُفارِقك، فإنك محتاج إليه [١٢].

يوجد وقت حيث يكون النجاح في أياديهم [١٣].

فهم أيضًا يصلون إلى الرب أن ينجح عملهم في جلب الراحة والشفاء،
من أجل حِفْظ حياتك [١٤].

إيماننا بالله طبيب نفوسنا وأجسادنا لا يدعونا إلى الإهمال في صحتنا أو عدم الالتجاء إلى الطب والأدوية. هذا ويليق بالطبيب أن يلجأ إلى الله ليعطيه حكمة وبركة في عمله.

من يخطئ أمام صانعه،
قد يقع في يديّ طبيب [١٥].

يسمح الرب بالمرض الجسدي كي نهتم بأمراض الروح التي كثيرًا ما نستهين بها.

❖ عندما نُمنَح بركة الشفاء سواء بواسطة الخمر الممتزج بزيتٍ كما في حالة الرجل الذي سقط بين لصوص (لو ١٠: ٣٤) أو بواسطة التين كما في حالة حزقيا، نَقْبَله بشكر. بجانب ذلك نتطلَّع إلى رعاية الله الساهرة بغير محاباة، سواء تحققت خلال مصدر غير منظور أو وكالة مادية، ففي الأخيرة بالحق يُولَد فينا إدراك أكثر حيوية بالإحسان الذي من يدي الله.

غالبًا ما تحل الأمراض التي تصيبنا لصالحنا، والتزامنا بالعلاج المؤلم هو جزء من تدبير

---

[1] *The long Rules*.

حياتنا. لهذا فإن التعقُّل السليم يملي علينا ألا نحتج على البتر أو الكي أو احتمال مرارة الدواء غير المرغوب فيه، أو الامتناع عن الطعام، أو عمل رجيم للأكل، والالتزام بالامتناع عن الأمور المؤذية. كما يلزمنا أن نحافظ على هدفنا. ألا وهو نفعنا الروحي، كما تعلمنا رعاية النفس على وجه التشابه (مع رعاية الجسد)[1].

القديس باسيليوس الكبير

٢. الحزن على الموتى إلى حين

١. فاق اليهود الكثير من الشعوب في تعاملهم مع الموتى مثل الرومان والـ *Etruscons*. ففي إيطاليا عندما سيطر الرومان على الـ *Etruscons*، حرق الأخيرون جثمان موتاهم وقام الرومان بحرقها حتى صارت رمادًا. في الكتاب المقدس بعهديه لا نسمع إلاَّ عن دفن الموتى، وكان المؤمنون يعتقدون في قيامة الأجساد كما جاء في (٢ مل ٧). وأَكَّد العهد الجديد ذلك (عب ١١: ٣٥؛ أع ٢: ٣٢، ٣٦؛ ١٣: ٣١-٣٢؛ ٢٤: ١٣-١٥). بانتشار الإيمان في الثقافة الهيلينية/الرومانية تبنَّت الثقافة فكرة الدفن عوض حرق الجثث. في روما وُجِدَت المدافن التي في سراديب تحت الأرض قبل بناء الكنائس.

٢. كان الناموس يسمح بحرق أجساد الموتى في حالتين: الذي يموت تحت لعنة كما في حالة عخان بن كرمي وأسرته فقد أحرقوهم بعد رجمهم (يش ٧:٢٥). والمُذنِب الذي يُمسَك في خطية الزنا (لا ٢٠: ١٤؛ ٢١: ٩).

٣. بوجه عام، كان اليهود يحرصون على غسل موتاهم بأسرع وقت ممكن، ثم يقومون بدفنهم في احتفال يتَّسِم بالبساطة بعد أن تتلى صلاة أو تسابيح القاديش، وهي كلمة آرامية تعني مقدس. توجد حاليًا أربعة أنواع أساسية من القاديش. وحينما تُتلَى القاديش كصلاة حداد على أرواح الموتى، يقوم ابن الميت بالتلاوة، وإذا لم يكن هناك ابن، فذكر رشيد من الأسرة، أو أي يهودي متطوع. ويستمر ترتيل القاديش طيلة أحد عشر شهرًا ويوم واحد من تاريخ الوفاة. والسبب في طول هذه المدة هو اعتقاد اليهود عقاب الآثمين في جهنم يدوم عامًا كاملاً، ولهذا يجب أن تتوقَّف تلاوة القاديش قبل تمام السنة حتى لا يبدو أن الفقيد كان من المذنبين، كما تُتلَى القاديش أيضًا في الذكرى السنوية.

٤. بسبب المناخ كان الدفن يتمّ عادة بعد الوفاة مباشرة، ولأنّهم كانوا لا يحنطون الموتى كالمصريين، ولا يحرقونهم كالرومان. استعملوا التحنيط ليعقوب ويوسف، وهما توفّيا في مصر،

---

[1] *Regulae fusius tractatae, 55.*

ووضعا في نعشين.

٥. تُسَمَّى المدافن اليهودية " بيت الأحياء" أو " بيت الأزلية". وكانوا ينظرون إلى المكان الذي يدفن فيه اليهودي مقدسًا. ولعل هذا الاهتمام الزائد بجثمان الميت يفسر اهتمام إسرائيل باسترداد جثث القتلى.

٦. **النداابات المحترفات:** يقوم الأهل والأصدقاء بعملية ندب الميت وبكائه، تقودهم في ذلك "نَدَّابة" محترفة، حتى يرتفع ضجيجهم وعويلهم مدويًا مجلجلاً (جا ١٢: ٥؛ عا ٥: ١٦).

٧. **الحزن المُفرِط:** في بعض الأحيان يؤدي الحزن المُفرِط ببعض المتطرفين إلى إحداث جروح في أجسادهم. وقد نهى الناموس شعب إسرائيل عن مثل هذا العمل (لا ١٩: ٢٨؛ ٢١: ٥؛ ٢ صم ١: ١١-١٢؛ مرا ١: ١٦).

٨. الجثمان الذي لا يوارى في التراب، يعتبر عارًا للأسرة ويجلب لعنة على الأرض، فيجب دفن حتى جثث المجرمين (تث ٢١: ٢٢-٢٣).

٩. يزور اليهود المقابر في الأعياد ليُقِيموا الصلوات أمام قبور الموتى حتى يتشفَّعوا لهم عند الإله.

يا بُنيّ، أذرف الدموع على الميت،
وأشرع في النوح على ما يليق بمن نزلت به مصيبة خطيرة.
كفِّن جثته بالكرامة كما يحق له واهتم بدفنه [١٦].

إذ مات لعازر قيل: "**بكى يسوع**". **(يو ١١: ٣٥)**. لم يتجاهل ابن سيراخ مشاعر الفراق، لكنه شجَّع على سرعة العودة إلى الحياة الطبيعية، لأن الميت لا ينتفع من دموع الحزانى عليه. والحزن الزائد مضر للجسد والروح [١٩-٢٣].

❖ بكى الرب من أجل لعازر الذي سيُقِيمه إلى الحياة، بلا شكٍ لكي يسمح لنا بمثاله أن نبكي على موتانا، وإن كان لم يعطنا وصيته بذلك، هذا مع إيماننا بأنهم يقومون إلى الحياة الحقيقية. ليس اعتباطًا قيل: "اسكب دموعًا على الميت، وابدأ بالحزن كمن أصابه ضرر عظيم"، لكنه يكمل بعد قليل قائلاً: "ولتتعزى في حزنك، لأن بالحزن يحل الموت، وأسى القلب يبتلع القوة"[1].

القديس أغسطينوس

❖ لكي يُظهِر المُخَلِّص نفسه أن لديه مشاعر بشرية حقيقية، حزن من أجل ذاك الذي سيُقِيمه من

[1] *Letters, 263.*

الأموات[1].

القديس جيروم

ابكِ بمرارة، وارثِ بحرارة،
وأقم المناحة بحسب منزلته يومًا أو يومين، تجنبًا للافتراء،
ثم تعزَّ عن حزنك [١٧].

البكاء المُرّ هنا يعني البكاء بمشاعر صادقة، وليس للمظهر الخارجي من أجل المشتركين في خدمة الجناز. هذا الإخلاص أفضل من الرثاء، إذ كثيرون يرثون الميّت ويمدحونه ليس من القلب.

لم يمنع ابن سيراخ النوح على الميّت، إنما في حدود يومين لإبراز المشاعر الصادقة. بعد ذلك يُعلِن الشخص عن تعزيته العملية بعودته إلى عمله والتزاماته، مُتَّعِظًا من الموت كعبور إلى الفردوس.

❖ تحفظ من أن تحوط نفسك بطاغية الحزن. يمكنك أن تسيطر على نفسك، فإن العاصفة ليست أعظم من مهارتك.

❖ لا تكن قط مكتئبًا، فإنه لا يوجد سوى شيء واحد مخيف وهو الخطية.

❖ لا تتطلَّع إلى الجثمان الراقد بعينين مغلقتين وشفتين صامتتين، بل الإنسان القائم المُتمتِّع بالمجد غير المنطوق به والعجيب، وَجِّه أفكارك من الرؤية الحاضرة إلى الرجاء العتيد[2].

❖ هل حُرِمت من اللقاء معه فتبكي وتحزن؟ الآن أليس هذا ليس بالأمر غير المعقول إن سلَّمت ابنتك للزواج وأخذها زوجها إلى بلد بعيدة حيث تتمتع هناك بالثراء. فإنك لا تحسب هذا كارثة، لكن غناهما يعزياك عن الحزن المُتسبّب لغيابها. والآن هنا ليس إنسان بل الربّ نفسه يأخذ قريبك فهل تحزن وتنوح؟[3]

❖ قد تحزن وتبكي لكن لا تدع القنوط يحل بك، ولا تنهمك في الشكاوى. اشكر الله الذي أخذ صديقك لتجد فرصة لتكرم الراحل وفراقه عنك يصير مأتما. إن سقطت في حالة إحباط، فإنك تمنع عن الكرامة من الراحل، وتحزن الله الذي أخذه، وتضر نفسك. أما إذا كنت شاكرا فإنك تكرم الراحل وتمجد الله وتنتفع أنت. لتبكِ كما بكي سيدك على لعازر، ملاحظا الحدود اللائقة بالحزن، والتي يلزم ألا تتعدَّاها. هكذا يقول أيضا بولس: " أود ألا تجهلوا بخصوص الراقدين، ألا تحزنوا كالباقين

---

[1] *Letter 60:7.*

[2] *W. W. Wiersbe: Treasury of the World's Great Sermons, 1993, p. 131.*

[3] *W. W. Wiersbe: Treasury of the World's Great Sermons, 1993, p. 131.*

الذين بلا رجاء (١ تس ٤: ١٣). يقول: "لا تحزنوا مثل اليونانيين الذين بلا رجاء في القيامة، الذين ييأسون من جهة الحياة المُقبِلة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

فإن الحزن يؤدِّي إلى الموت،
وحزن القلب يُنهِك قوَّتك [١٨].

يوجد نوعان من الحزن: الحزن المقدس الذي يمتزج بروح الرجاء كحزن بطرس بعد سقوطه، وحزن مُتطرِّف بلا رجاءٍ مثل حزن يهوذا الذي دفع به إلى الانتحار. المبالغة في الحزن يجلب الإحباط واليأس والسأم، يُفقِد حيوية الإنسان ويكسر قلبه، ويُحسَب ميتًا.

❖ الحزن المُفرِط أمر مُرعِب يُوَلِّد موتًا. لذلك يقول بولس: "لئلا يُبتلَع مثل هذا من الحزن المُفرِط" (٢ كو ٢: ٧)[2].

❖ يمكن للشيطان أن يُحَطِّم حتى تحت مظهر التقوى. فإنه يقدر أن يُحَطِّم ليس فقط بأن يقود الشخص إلى الزنا بل وأحيانًا بالعكس بالحزن المُفرِط الذي يجعل اليأس يتبع التوبة. أن يقتنصنا بالخطية هذا عمله المناسب له، وأما **أن يقتنصنا في توبتنا، فهذا عار مهذب، إذ يقاتلنا بسلاحنا لا بسلاحه**[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

أيضًا يمكث الحزن في المحنة، وحياة المسكين تُرهِق قلبه [١٩].

لا تُسَلِّم قلبك إلى الحزن،
بل اصرفه مُتذكِّرًا نهاية الحياة [٢٠].

❖ من أجلك يا إنسان هيَّأ الملكوت! ولأجلك أَعدَّ خيرات لا تُوصَف، ونصيبًا معدًا في السماء، وحياة لا مثيل لها، وفرحًا لا يُنطَق به!

القديس يوحنا الذهبي الفم

لا تنسَ، أنه لا عودة (من هناك)،

---

[1] *W. W. Wiersbe: Treasury of the World's Great Sermons, 1993, p. 131-132,*

[2] *Homilies on St. John, 78:1.*

[3] *In 2 Cor. Hom. 4:5.*

ولن تنفع الميت بالحزن، وإنما فقط تؤذي نفسك [٢١].

يُقَدِّم لنا **القديس يوحنا الذهبي الفم** نظرة إيمانية تتحدَّى الموت، خلالها عوض الحزن المُفرِط على الميت نُطَوِّبه لأنه انطلق للتمتُّع بما يفوق الطبيعة.

❖ في كرازته ازدادت كرامة (بولس الرسول) بقبوله الإهانات والاضطهادات، ناظرًا إلى الموت كما ننظر نحن إلى الحياة، وقابلاً للفقر كقبولنا للغِنَى، ومُتمتِّعًا بالأتعاب كسعينا نحو الراحة، ومُفَضِّلاً الضيقة عوضًا عن اللذة، ومُصلّيًا لأجل أعدائه أكثر من المصلين ضدهم. فقلب موازين الأمور، أو بالأحرى لنَقُل إننا نحن الذين غيَّرنا تلك النُظم. إذ أنه ببساطة حافظ على شرائع الله، لأن ما سعى إليه يتَّفِق مع الطبيعة البشرية، أما سعينا نحن فهو ضد الطبيعة[١].

القديس يوحنا الذهبي الفم

اذكر نهايتي، لأن نهايتك ستكون مثلها:

"لي أمس ولك اليوم" [٢٢].

❖ انظروا إليَّ يا رفاقي الذين يرافقونني ويدفنوني، ولا يضلّكم المسكن الزمني كما أَضلّني.
اهربوا من العالم، اهربوا من الغِنَى، ومن الإثم، هلموا وانظروا إلى مخرج الطريق كيف عبر.
انظروا إليّ يا أصدقائي كيف أنني ركضتُ، وكيف اغتنيت، وهأنذا أخرج مُجرَّدًا عن أموالي.
رافقتموني فتذكَّروا بسببي أشخاصكم، الطريق عام فمهّدوا مهّدوا سبلكم.
الميت يقول هذه الأمور لجميع أقربائه بسكوته، ومنظره يكون للفائدة بالنسبة للمتميزين.
من لا يستفيد من التعليم بالكلمات، لينظر إلى الطبيعة (ويرى) ما هي آخرته فيندم.
إن أنكر الناموس المكتوب من قبل السامع، تُلقِي الطبيعة الجامدة الرعب على المشاهدين.
آخرة الميت تصير سببًا صالحًا للأحياء، ليتذكَّر كل واحدٍ نفسه ويعود إلى التوبة.
هوذا التعليم بدون مقالات ولا كلمات، مبارك من بموته احتقر العالم لئلا يطمع[٢].

القديس مار يعقوب السروجي

إذ استراح الميت، فاسترح من تذكُّره،

وتعزَّ عنه عند خروج روحه [٢٣].

الحديث عن راحة الميت صادر عن إيمان ابن سيراخ بالحياة بعد الموت.

---

[١] في مديح القديس بولس، عظة ٢.

[٢] الميمر ٦٩ على الموتى (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

٣. تقدير القادة وأصحاب الحرف

مع دور القادة من بينهم الكتبة في تقدُّم المجتمع، يكرم ابن سيراخ أصحاب الحرف والمهارات اليدوية، لأن المجتمع يعتمد عليهم في التقدُّم والرخاء. يتحدَّث إلى الصناع والعاملين في تربية المواشي [٢٥-٢٦] والنجارين والنحاتين [٢٧] والعاملين في المعادن [٢٨] والعاملين في الفخار [٢٩-٣٠]. هؤلاء يقدمون المواد التي يستخدمها القادة والكتبة. لم يستخفّ ابن سيراخ بأي عملٍ في المجتمع.

إن كان اليهود يعفون الربانيين من بعض الأعمال والصناعات، فليس احتقارًا لهذه الأعمال، إنما لكي يتفرَّغوا للرعاية والخدمة والعبادة. لكن غالبًا ما يتعلَّم كل يهوديٍ مهما كان مركزه عملاً يدويًا يقوم به عند الضرورة. هذا واضح في حياة شاول الطرسوسي الفريسي، وأيضًا أكيلا وبريسكلا، فالكل كانوا صانعي خيام (١ كو ٩: ٤-١١). وفي النظام الرهباني، العمل اليدوي إلزامي بالنسبة للجميع، حتى وإن كانوا رؤساء أديرة أو يقومون بعمل عقلي مثل التعليم.

حكمة الكاتب تعتمد على فرصته للخلوة،

وعندما يكون قليل العمل يصبح حكيمًا [٢٤].

❖ "إنني نائم، وقلبي يستمر في السهر". إنني أستريح من الانشغال بالأنشطة، أما عقلي فيوجه كل طاقاته نحو الميل إلى التعلُّق بالله[1].

القديس أغسطينوس

كيف يصير حكيمًا من يُمسك المحراث؟ فإنه يفتخر بعمود المنخس، ويسوق الثور،

ومشغول بالعمال، وحديثه عن صغار الحيوانات [٢٥]

المنخس هو العصا التي بها ننخس بعض الحيوانات، يستخدمها الراعي في قيادة الغنم والحيوانات.

قلبه منصرف إلى خطوط المحراث،

وسهره في تسمين العجول [٢٦].

جيد أن يكون الفلاح أمينًا في عمله، لكن يمكنه أن يتمتَّع بالحكمة التي هي زينة الحياة ولا يمكن الحياة بدونها. عمله يحصره في دائرة مادية ضيقة دون الاستمتاع بالتأمل في عمل الله معه.

---

[1] *Tractates on the Gospel of John, FOTC, vol. 90, p. 15-16.*

هكذا بالنسبة لكل صانع وربّ عمل يعمل الليل كالنهار،

والذين يحفرون نقوش الخواتم وهم مجتهدون في تنويع الأشكال،

هؤلاء يصرفون قلوبهم إلى نقل صورة حية، ويسهرون لاستكمال صنعتهم [٢٧].

المجتمع محتاج إلى أصحاب مواهب في الفنون المتنوعة، وجيد أن يكون العامل مجتهدًا. غير أن هذه الفنون إن قَدَّمها أُناس يسلكون بالروح، تترك انطباعات روحية جميلة في كثيرين من المشاهدين.

كان صانعو الأيقونات يصومون أثناء رسم الأيقونة، ويهتمُّون بصلواتهم وعبادتهم، حتى يكون للأيقونة ثمرها الروحي.

وكذلك الحدَّاد الجالس عند السندان، يفحص عن قُرب الذي يصوغه:

وهج النار يذيب لحمه، بقدر ما يعاني من حرارة الأتّون، يميل أذنه لصوت المطرقة،

وعيناه مُرَكِّزتان على مثال الإناء.

يضع قلبه في إتمام أعماله، ويسهر كي ينجز تفاصيلها [٢٨].

الحَدَّادُ الذي يعاني من لهيب النار والدخان وصوت الطَرقات المتوالية فوق السندان يحتمل ذلك من أجل إتمام عمله. مع أمانته في العمل يلزمه الراحة والتأمل فيهبانه حياة أفضل ومهارة أكبر في عمله.

لا يتحقَّق تكامُل المجتمع بدون أصحاب الحرف وتوافرهم، إلا أن تخصيص وقت للدراسة والمعرفة لاكتساب الحكمة هو أمر ضروري في الحياة، فحتى المهن تحتاج إلى حكمة، تلك التي يهبها الله للصانع، فتخرج صناعته في صورة تُمَجِّد الله.

كذلك الخزَّاف الجالس بجوار عمله ويدير دولابه بقدميه، ويهتم دائمًا بجودة عمله، وأيضًا كميّة إنتاجه [٢٩].

بذراعه يعجن الطين، وبقدميه يُحَرِّك الدولاب ليُقوِّسه. يضع في قلبه أن يكمل صقله أو طلاءه، ويُنظِّف الأتون بدقة وعناية [٣٠].

يليق بالخزَّافُ أو (الفخارى) الذي يقضي وقته مع دولابه منهمكًا في صنع الأواني المطلوبة منه ثم زخرفتها ودهنها ورصّها في الآتون لتصبح أوانٍ ذات أشكال جميلة مختلفة بنقوش بديعة، وبعد ذلك يقضي بقية وقته في تنظيف الفرن وتجهيزه للدفعة الجديدة. يليق بالفخّاري وهو يُعد الطين ليضعه في الدولاب لتشكيله أن يذكر الله الخزَّاف الأعظم. وكما يقول عنه **العلامة أوريجينوس:**

[طالما كان الفخار طينًا خامًا يكون قابلاً لإعادة التشكيل، لكن بمجرد دخوله النار يصبح صلبًا إذا انكسر لا يمكن علاجه. ماذا يعني ذلك؟ نفهم هذا بصورة عامة أولاً، ثم إذا سمح الرب نفهمه

بالتفصيل.

طالما نحن في هذه الحياة، نُعتبَر آنية من الفخار الخام، إما أن نكون مصنوعين من الرذيلة أو الفضيلة. على أي الأحوال يُمكِن أن تُكسَر رذائلنا لتصير فضائل جديدة، كما أن تَقدُّمنا في الفضيلة يكون قابلاً للرجوع والتقهقر إلى الوراء. لكن حينما نعبر الزمن الحاضر ونصل إلى الحياة الأخرى، نجوز في النار، سواء نار سهام الشرير المشتعلة أو في النار الإلهية بما أن **إلهنا نار آكلة**، وسواء كُنّا أشرارًا أو صالحين، فإنه بعد كسْرِنا (موتنا) لن يمكن إعادة تشكيلنا ولن نكون قابلين للإصلاح. هكذا ما دمنا في هذه الحياة كأننا في يد الفخاري: إذا سقط الإناء من يديه يمكنه أن يعالجه ويصلحه. فلنتب عن خطايانا التي فعلناها بالجسد، ولنرجع إلى الله بكل قلوبنا الآن، لكي يمنحنا النجاة والخلاص، طالما عندنا فرصة للتوبة، لأنه بعد خروجنا من العالم لن نتمكَّن من الاعتراف بخطايانا وتقديم توبة عنها[1].]

هؤلاء كلّهم اتّكلوا على أياديهم،

وكلّ منهم خبير في صناعته [٣١].

بدونهم لا تصلح المدينة للعيش، ولا يسافر إليها أي أحد أو يعيش فيها [٣٢].

ومع ذلك لا يُطلَبون في مجلس الشعب، وفي الجماعة ليس لهم امتياز.

على كرسي القاضي لا يجلسون، وأحكام الشرع لا يفقهون [٣٣].

لا يستطيعون تقديم الإرشاد في التأديب والحكم، وبين ضاربي الأمثال لا يوجدون؛

لكنهم يحفظون بناء العالم مُستقرًا، وصلاتهم هي في عمل صناعتهم [٣٤].

يتطلَّع ابن سيراخ إلى الإنسان الأمين في عمله كمن يمارس الصلاة، لأنه يحمل سمة الأمانة التي تليق بالمؤمن التقي.

من وحي سيراخ ٣٨

أُمَجِّدك يا طبيب نفسي وجسدي!

❖ أُبارِكك أيها القدوس، لأنك تهتم بجسدي كما بروحي!
بالخطية زال جمال نفسي، وتسلَّل المرض إلى جسدي!
لم تتخلّ عنّا، أعطيت المهارة والفهم لبني البشر.

---

[1] *In Jer. hom. 18:1.*

قدمت لجسدي الشفاء خلال الطب والأطباء.

❖ أخرجت الأدوية من الأرض التي خلقتها، ووهبت المهارة للإنسان ليستخرج الدواء!
تسمح لي بالمرض لأعيد تقييم حياتي، فأطلب برّك ليؤهلني لقبول شركة أمجادك الأبدية.

❖ بقيامتك أقمت نفسي من موت الخطية،
وأَعددت لي موضعًا في أحضانك،
وهبت لجسدي أن يشارك الروح مجدها!
بحُبِّك لم تضع رجاءنا في الأرض بل في السماء!
فإن مات لي أحد أبكي إلى حين،
كما شاركتَ مريم ومرثا بكاءهما على لعازر حبيبك!
لن أستسلم للحزن لئلا يُحَطِّم نفسي.
إنما مع الرسول أَترنَّم: أين شوكتك يا موت؟!
أرى في الراقد أنه استراح.
وأهنئه على عبوره وأَترقَّب بفرحٍ عبوري.

❖ يا لحُبّك العجيب لكل بني البشر.
بتدبيرك الحكيم قدَّمت للبشر وزنات متنوعة،
فلا يطلب أحد أنه يعيش منعزلاً عن إخوته،
ولا يُصَاب أحد بصغر نفسٍ بسبب مهنته.
يستطيع الكل أن يسمع في مجيئك الأخير:
كنت أمينًا في القليل أقيمك على الكثير.
سنرى عظماء خلصوا كما بنارٍ،
ومن كل المهن والمراكز نجد من صاروا كملائكة الله!
يتهلَّل السمائيون بكل المؤمنين في السماء.
يُرَحِّبون بنا ويُمَجِّدون الخالق لأجل خلاصه لبني البشر!
متى أرى الكل قد صاروا الملكة العروس الجالسة عن يمينك، يا ملك الملوك؟!

الأصحاح التاسع والثلاثون

دارسو شريعة العلي وخطته

في ختام الأصحاح الثامن والثلاثين، أبرز حاجة المجتمع للقادة والصُنَّاع أو العمال الروحيين، وذلك كمقدمة لهذا الأصحاح. ففي هذا الأصحاح يبرز سمو القادة المُعَلِّمين الدارسين للشريعة والمُدرِكين لخطة الله في حياة البشرية. فبدون ختام الأصحاح السابق ربما يتعرَّض الصُنَّاع والعمال إلى نوعٍ من صغر النفس والحسد نحو القادة.

١. القائد المُحِب للشريعة [١-٣].
٢. دور القائد وسماته [٤-٧].
٣. التعليم بشريعة العليّ [٨-١١].
٤. رائحة الشريعة الذكية [١٢-١٤].
٥. شريعة العليّ والتسبيح [١٥-٢٢].
٦. بين موقف خائفي الرب والعنيدين [٢٣-٣٥].

١. القائد المُحِب للشريعة

يليق بالقائد أن يدرك رسالته، فيجد عذوبة في جهاده وتقدُّمه المستمر في الدراسة والمعرفة، خاصة في الكتاب المقدس. هذا ما قَدَّمه لنا **الأسقف أمبروسيوس** حيث قال إن الأسقف يلزم أن يتعلَّم كل أيام حياته. واحد فقط يُعَلِّم ولا يحتاج إلى التعلُّم وهو الله.

وعلى نقيض ذلك، الذي يصرف نفسه إلى دراسة شريعة العليّ،
إذ يلتمس حكمة جميع الأقدمين، وينشغل بنبوَّاتهم [١].

يحسب القائد نفسه امتدادًا لحياة الأقدمين، فلا يتوقَّف عن التعلُّم ممن سبقوه في دراسة الكتاب المقدس، والتعرُّف على نبوات الأنبياء. يكشف ابن سيراخ عن شريعة العليّ وتَمَايُزها عن الفلسفات البشرية، مُبرِزًا أن شريعة العليّ مع تقديمها كحوارٍ شخصيٍ بين الله والإنسان، غير أن الله محب البشر يود من مؤمنيه، قادة كانوا أو شعبًا، أن يكونوا صورة له، يحملون قلبًا متسعًا إن أمكن لكل البشرية. لذلك يهتم المؤمن بدراسة الميراث الذي تسلَّمه من الأقدمين عبر الأجيال. أما الفيلسوف فغالبًا ما تشغله نفسه بفكر خاص أناني، وكأنه هو مركز الكون.

❖ إنَّني أرغب في الجهاد في التعلُّم حتى أكون قادرًا على التعليم. لأنَّه يوجد سيِّد واحد (الله) الذي

وحده لا يتعلَّم ما يُعَلِّمه للجميع. أمَّا البشر فعليهم أن يتعلَّموا قبل أن يُعَلِّموا، ويتقبَّلوا من الله مُعَلِّمهم ما يُعَلِّمون به الآخرين.

القدِّيس أمبروسيوس

إنه يحفظ أحاديث الناس المشهورين،

ويتغلغل في روائع الأمثال [٢].

يقصد بالمشهورين أناس الله الذين حقَّقوا رسالتهم بروح التقوى والشهادة للحياة الإيمانية.

❖ ذكر بأكثر تدقيق أن أسماء أسباط إسرائيل الاثني عشر كانت تُكتَب على صدرة القضاء. فإن حمل أسماء الآباء مكتوبة على الصدرة تجعل الكاهن دائم التفكير في حياة الآباء الأولين. عندئذ يسلك الكاهن بلا لومٍ في أثر خطوات الآباء القديسين الذين سبقوه متأملاً حياتهم، مبتعدًا عن الخيالات الباطلة، لئلا يخطو خطوة غير لائقة[1].

الأب غريغوريوس (الكبير)

يبحث في خفايا معاني الأمثال *proverbs*،

وينشغل بألغاز الأمثال *parables* [٣].

يُشَجِّع ابن سيراخ تلاميذه طالبي الحكمة على الأسفار للانتفاع بحكمة وخبرة الآخرين في الربّ. ومن جانبٍ آخر يطلب من المؤمن أن يُمارِس أسفاره عبر العصور من آدم إلى العصر الذي يعيش فيه، حيث يدرس معاملات الله مع خائفي الربّ العظماء، ويفحص الأمثال *proverbs* وألغاز الأمثال *parables*، كما الشريعة والأنبياء وأسفار الحكمة.

٢. دور القائد وسماته

يخدم بين أيدي العظماء، ويظهر أمام الحكَّام.

يجول في أرض الأمم الغريبة، ويختبر الخير والشرّ بين الناس [٤].

من يتأمل فيما ورد في هذا النص [٤- ١١] يشعر أن الكاتب يُقَدِّم عرضًا لسيرة القديس بولس. تتطلَّب الحكمة القيام برحلات بين المدن [٤]، وبين العصور [٣]، وبين أسفار الكتاب المقدس.

كان الملوك والعظماء ينجذبون إلى الحكماء لتدبير شئون الدولة أو أعمالهم الخاصة أو تربية أبنائهم.

---

[1] *Pastoral Care, 2:2* ترجمة: مجدي فهيم حنا.

تمتُّعهم بهذه الشهرة لا يدفعهم إلى التمسُّك بخبرتهم الشخصية فحسب، وإنما يتعطَّشون إلى التعرُّف على خبرات الغير حتى بين الأمم الغريبة، لذلك فهم مُحِبّون للأسفار.

يضع في قلبه القيام مبكّرًا أمام الرب خالقه، ويتضرَّع أمام العليّ،
ويفتح فمه بالصلاة، ويتضرَّع عن خطاياه [٥].

هذا العمل من الجانب الجغرافي والتاريخي والكتابي يتطلَّب من الراغب في الحكمة أن يقوم مبكرًا، ويقف في خلوة مع الربّ خالقه، ويتضرَّع إليه ويصلي ويطلب مغفرة خطاياه [٥]، فيتأهَّل للفهم والمعرفة والتدبير الصالح.

القائد الروحي، أكثر احتياجًا من أي إنسانٍ إلى حياة السكون والتأمُّل الهادئ، بعيدًا عن جو الخدمة والتعليم لأجل نفعه ونفع مخدوميه، لئلاَّ في وسط تيَّارات الخدمة الجارفة وبين الانهماك المُستمِر بلا هوادة ينحرف قليلاً. فتتحوَّل خدمته إلى روتينٍ أو واجبٍ أو إلى مُجرَّد خدمة شكليَّة أو خدمة بعيدة عن الروح التي ليس لها فاعليَّة روحيَّة.

❖ الذين قد أُنيط بهم أعمال الخير ورعاية النفوس مُلزَمون أن يحملوا للناس شهادة عن الحياة الأخرى (حياة التأمُّل)، لذلك يجب أن يتفرَّغوا للدراسة والتأمُّل في الحق والحياة الأبديَّة.

وكما أنه ليس من الإنصاف أن تكون حياة التأمُّل سببًا في إعاقة إنسان كفء للقيام بالمهام الكنسيَّة، كذلك أيضًا ليس من العدل أن يكون الإنسان كفوًا لأمانة القيام بإدارة شئون الكنيسة، ولكونه توَّاقًا وملتهبًا لحياه التأمُّل واستلهام الحكمة، ينسحب من ميدان العمل ليلقي بنفسه في فراغ التأمُّل اللانهائي.

القدِّيس أغسطينوس

فإن شاء الرب العظيم، يمتلئ من روح الفهم،
فيسكب كلمات حكمته (الربّ)، وفي الصلاة يشكر الربّ [٦].

إذ ينال الحكمة كهبة إلهية يشكر الربّ، إذ ليست عطية بلا زيادة إلاَّ التي بلا شكر.

يُوَجِّه مشورته ومعرفته باستقامة،
ويتأمل في أمور (الربّ) الخفية [٧].

هذه الدراسة وهذه العطية المُقَدَّمة له من فوق تتطلَّب السلوك باستقامة، والتلذُّذ بالتأمل في أمور الله الخفية المملوءة حبًا وعجبًا.

❖ يُعَرِّف الفصحاء الخطيب بأنه "إنسان **صالح** قادر على الكلام"، إذ يلزمه أن يكون بلا عيبٍ في

سلوكه كما في شفتيه (خطابته) حتى يكون مستحقًا للمديح، لأن المدرس الذي كلماته لا تسندها أفعاله يفقد كل تأثير على سامعيه.

القدّيس إيرونيموس

٣. التعليم بشريعة العلي

يُعلِن التعليم عندما يُعَلِّم،

ويفتخر بشريعة ميثاق الربّ [٨].

سُئِل يوحنا المعمدان: "من أنت؟" وكنا نظنه يقول: "أنا الذي جاء جبرائيل الواقف أمام عرش الله مُبَشِّرًا أبي بمولدي"، أو "أنا هو الملاك الذي يُهَيِّئ الطريق قدَّام المسيَّا المنتظر". لكنَّه قال: "أنا **صوت صارخ** في البرية، أَعِدُّوا طريق الرب..." هذه هي رسالتي كراعٍ أن أُعلِن صوت الرب عاليًا، وأكشف شريعة الرب لأولادي، وأن أُعلِّم إخوتي كيف يحيون؟! هذا ما يُمَيِّز الراعي أنه قادر أن يُعَلِّم الآخرين طريق الرب.

كثيرون يثنون على فهمه، فلا يُمحَى إلى الأبد،

ذكره لا يزول، واسمه يحيا عبر كل الأجيال [٩].

يليق بطالب الحكمة أن يُدرِك أن ما يهبه الله ليس له وحده، بل ليتمتَّع معه الكثيرون بحكمة الله.

تُعلِن الأمم حكمته، وتشيد الجماعة بحمده [١٠].

إن طال عمره، يترك اسمًا أكثر من ألف،

وإن دخل إلى راحته، يُحسَب عمله كاملاً [١١].

الخدمة الناجحة تظهر ثمرتها بالأكثر بعد نياحة القائد مثل الآباء البطاركة الأولين والأنبياء والقديسين في العهدين القديم والجديد وعبر التاريخ أيضًا، فإن طال عمره يسمح الله بأن يُكرَم كثيرًا في حياته، وينتفع بفضله كثيرون. وإن دَخَلَ إلى الرَّاحةِ، أي استراح في الفردوس، يُعلَن كمال جهاده ورعايته، كما يدوم ذكره عبر الأجيال.

٤. رائحة الشريعة الذكية

لديّ الكثير لأقوله،

سأصفه بالتفصيل: لأني ممتلئ كالبدر الكامل [١٢].

ابن سيراخ في حالة استنارة كالبدر المُنِير المُكتمِل، لا يقدر إنسان أن يخفيه.

اسمعوني أيّها البنون القديسون،

وانموا كوردٍ مغروسٍ على مجرى ماء [١٣].

يليق بمن يتعلَّم الحكمة ألاَّ يقتصر فكره عند حدود شعبه، بل يطلب أن تعلن الأمم حكمة الله. فطالبو الحكمة يشبهون الورود المغروسة على مجاري المياه لا يحبسون رائحة المسيح الذكية التي فيهم [١٣-١٤]، وكالبخور الذي ينطلق في الهواء، يستنشقه الجميع. تحدث **القديس إكليمنضس السكندري** عن اهتمام الله بالإنسان، فخلق له حتى أنواع الزهور المختلفة لمنفعته.

❖ هذه الزهور والأعشاب خُلِقَت من أجل احتياجاتنا، لا لنُسِيء استخدامها في رفاهية. إننا نترك مجالاً لنوع بسيط من التساهُل، لكن يكفي أن نتمتَّع برائحتها، لا نحتاج أن نتزيَّن بها. الله الآب يتعامل مع الإنسان برعاية عظيمة، فيضع بين أيدينا كل صنع يديه لهذا الغرض الواحد، وكما يقول الكتاب: "الماء والنار والحديد والملح وسميذ الحنطة والعسل ودم العنب والزيت واللباس، جميع هذه الخيرات للقديسين".

القديس إكليمنضس السكندري

❖ بقراءة اللاهوت تقتني النفس غِنَى عظيمًا فيما لو قبلتها بمحبة.

موضوعة كالينبوع من أجل عطش العالم، وكل من هو عطشان يشرب منها الحياة يوميًا.

الكتب الإلهية هي جداول مباركة؛ يا جميع العطاش هلموا واذهبوا واشربوا ماء الحياة.

الأنهار لشرب الأجساد والحيوانات، وهوذا قراءات اللاهوت لشرب النفوس،

أيها المتميز أعط الجسدَ الماءَ ليشرب، وأعط النفسَ الكتابَ لتقرأ وتتلذَّذ به.

إنها عطشانة إلى الينبوع الموجود في الكتب، تضع فمها وتشرب منها الحياة كل يومٍ.

النفس مُعَذَّبة من مؤانسة العالم الشرير، وهي مملوءة بالحواس والشهوات غير الجميلة...

لكن لو فتحت الكتاب وقرأت بمحبة عظيمة، تستنير حالاً وترى الجمال الذي لا يُدرَك.

ويدخل النور من القراءة إلى الفكر كالشعاع من القرص إلى تجويف العين.

وتهبّ ريح الكتاب من بين الأسطر، وترفع دخان الضلالة عن الفكر.

كلما كانت المحبة مرتبطة بالقراءة، تصير النفس نقية ومملوءة نورًا ولا تضطرب.

يحسد الشرير ويطرق (الباب) حالا مثل الحاكم حتى يبطل الكتابُ بأفكار العالم المُقلِقة.

لو كانت محبة النفس مرتبطة بالقراءة، ستحتقر وترذل كل النشاطات لأجله.

ولو ازدادت محبة العالم بطلت القراءة، فتدخل أفعال لا تنتهي وينتهي العالم.

أيتها النفس التي تريدين أن تعيشي حسنًا مع الله، اربطي محبتكِ بقراءة اللاهوت.

واسكِتي منادمات العالم المضطربة، وأبطليها، وأزيليها عن فكركِ.

وأنصتي إلى الكتاب الذي يكوي الجرح، ويشفي المرض، ويعتني ويضمد ويصلح النفس بالشفاء[1].

القديس مار يعقوب السروجي

أفيحوا عطركم كالبخور، وأزهروا كالزنبق.

وانشروا عطركم، وأنشدوا تسبيح حمدٍ،

وباركوا الرب على جميع أعماله [١٤].

رفع البخور أثناء العبادة يشير إلى مسرَّة الله بتقدمة الصلاة، وهو تقليد قديم لا يُعرَف متى بدأ، ويمتد لنراه في السماء يُمارِسه القسوس غير المتجسّدين. كتب داود النبي: "لتستقم صلاتي كالبخور قدامك" (مز ١٤١: ٢). وتنبأ ملاخي أن الأمم يستخدمونه في العبادة: "لأنه من مشرق الشمس إلى مغاربها اسمي عظيم بين الأمم، وفي كل مكان يُقرَّب لاسمي بخور وتقدمة طاهرة" (مل ١: ١١). إحدى الهدايا التي قُدِّمَت للطفل يسوع من المجوس هو البخور.

❖ يليق بنا أن نبحث عن "**البخور**" (راجع سي ٣٩: ١٤)، ولكن ليس أي نوع من البخور، بل ذاك النوع النقي. رئيس الكهنة لا يريد أن يأخذ شيئًا مظلمًا ودنيئًا، إنما يطلب ما هو نقي. إنه يطلب أيضًا **الجلبينة** (صمغ راتينجي)، بطبيعته يطرد الحيات المؤذية بقوة رائحته. وهو يطلب "**المر**"، إذ يريد أن تكون كلماتنا وأفعالنا طاهرة ونقية. كما يطلب الجزع أو العقيق اليماني *onyx* (أظفارًا) (خر ٣٠: ٣٤)، الذي يغطي بعض الحيوانات كنوع من الترس لحمايتها فلا يصيبها أذى[2].

العلامة أوريجينوس

٥. شريعة العلي والتسبيح

تَعَلُّم الحكمة لا ينفصل عن ممارسة التسبيح [١٥-٣٥]. فهي ليست موضوع جدال نظري جاف بل موضوع شركة مع السمائيين في تسابيحهم. إنسان الله يُسَبِّحه على أعماله العجيبة في الخليقة، ولا يضطرب من أجل الكوارث التي تحلّ، إنما تدفعه للالتصاق بمخافة الربّ ورفضه للشرّ.

---

[1] راجع الميمر ١٧١ على ذلك المثل الذي قاله ربنا: يشبه ملكوت السماء رجلا ملكا صنع وليمة لابنه (مت ٢٢: ١-١٤؛ لو ١٤: ١٥-٢٢).

[2] *On Levit 9: 8 : 4.*

عَظِّموا اسمه، واشكروه بالتسبيح،

بترانيم شفاهكم والقيثارات، وقولوا هكذا شاكرين: [١٥]

❖ الاعتراف بالخطايا هو الاعتراف العادي المعروف لديكم. ليس من حاجة أن أَتحدَّث عن أسباب استخدامه. لذلك يليق بنا أن ننظر في الاعتراف في مديح الله والبراهين عليه.

اعتاد الناس على دعوة "الاعتراف" عن الخطايا، وفي كل مرة يسمعون القارئ يقول الكلمات: "اعترفوا"، يقرعون صدورهم، مع صدور همهمة تصحبها ضجة داخل ضمائرهم، إذ يتذكَّرون ما يلزمهم عمله.

هذا غالبًا ما يحدث، ومع ذلك ليس دائمًا يُقصَد به الاعتراف عن الخطايا. أحيانًا يتحدَّث الإنسان عن الاعتراف بالحمد كما في تلك العبارة في الكتاب المقدس حيث يقول: "اعترفوا للربّ، وهكذا قولوا: أعمال الربّ كلها صالحة جدًا"... هذا واضح أنه اعتراف عن حمد للربّ وليس عن ذنوبكم... بالتأكيد لم يرتكب الربّ يسوع الخطية، مع ذلك قيل في الإنجيل: "أعترف لك أيها الآب ربّ السماء والأرض". وأكمل الحديث بالحمد: "لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الآب لأن هكذا صارت المسرّة أمامك" (مت ١١: ٢٥-٢٦). هذا اعتراف من يحمد الله، لا من يتَّهِم نفسه[1].

القديس أغسطينوس

كلّ الأشياء هي أعمال الربّ وهي صالحة جدًا،

وجميع أوامره تتمّ في أوقاتها.

لا يمكن لأحدٍ أن يقول: "ما هذا؟ ولِمَ هذا؟"

فكل سؤال سيُجاوَب عليه في وقته المُعَيَّن [١٦].

كل أعمال الرب صالحة جدًا، لكن الخطية أفسدت بصيرة الإنسان ليرى ما هو صالح أنه رديء.

❖ يليق بنا أن نُبارِك خالق كل الأشياء قبل أن نشترك في الطعام، وهكذا أيضًا في الاحتفالات عندما نتمتَّع بعطاياه التي خلقها. إنه من المناسب أن نترنَّم بمزامير مُوَجَّهة إليه. بالحقيقة الترنُّم بمزمورٍ في توافقٍ هو بركة؛ إنه عمل من أعمال ضبط النفس. يدعو الرسول المزمور تسبيحًا روحيًا (كو ٣: ٦؛ أف ٥: ٩). مرة أخرى إنه لواجب مقدس أن نُقَدِّم الشكر لله من أجل إحساناته وحُبِّه الذي يُقَدِّمه لنا، قبل أن ننام. يقول الكتاب: "احمدوه بالتسبيح بترانيم الشفاه، من أجل أوامره التي تبرز

---

[1] *Sermon 8: 2.*

كل إحسان، وليس من نقص في خلاصه"[1].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ الله صالح، ليس فيه انفعالات، ولا يتغيَّر. يَقْبَل الإنسان هذا القول كحقيقة صادقة بأن الله لا يتغيَّر، لكنه يحار متسائلاً كيف يفرح الله بالصالحين، ويترك الأشرار، ويغضب على الخطاة ويظهر لهم رحمة إن تابوا؟! والإجابة على هذا هي أن الله لا يفرح ولا يغضب، لأن الفرح والغضب انفعالات، ومن السخافة أن نظن أن اللاهوت يمكن أن ينتفع أو يُضَرّ بواسطة تصرُّفات بشرية. فالله صالح، ولا يصنع إلا الصلاح. إنه لا يضر أحدًا ويبقى كما هو عليه على الدوام. أما بالنسبة لنا، فإننا عندما نكون صالحين ندخل في شركة مع الله بتشبُّهنا به. وعندما نصير أشرارًا نحرم أنفسنا من الله بعدم تشبُّهنا به.

عندما نعيش حياة فاضلة نكون مِلْكًا لله، وعندما نصير أشرارًا نهجره. هذا لا يعني إنه يغضب منا بل من خطايانا التي تحجب وجهه عنا وتربطنا بالمضايقين الذين هم الشياطين.

أما (عند التوبة) فبالصلوات وصنع الخير (مع الإيمان به) نحصل على نزع الخطايا. هذا لا يعني أننا نسترضيه ونُغَيِّره، بل بأعمالنا هذه وعودتنا إليه نكون قد شفينا (بنعمته) من الشر الذي في أنفسنا، وصرنا قادرين على أن نكون شركاء لله في صلاحه. هكذا أيضًا بالنسبة للقول "إن الله يترك الأشرار"، فإننا كمن يقول بأن الشمس تخفي ذاتها عمن يفقدون بصرهم[2].

القديس أنطونيوس الكبير

بكلمته وقف الماء مثل كتلة.

وبكلمة فمه كانت حياض مياه [١٧].

هنا يشير إلى انفصال المحيطات عن الأرض في الخليقة (تك ١: ٩-١٠).

بأمره يتمّ كل شيءٍ بحسب مسرَّته،

وليس أحد يقدر أن يُقَلِّل من خلاصه [١٨].

❖ بحنان خالقنا توجد طرق كثيرة للخلاص، هذه التي تهدئ الأرواح وتقودها نحو السماء[3].

القديس أنطونيوس الكبير

---

[1] *Paedagogus, FOTC, vol. 23, p. 132-133.*

[2] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٥٠.

[3] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١٤٠.

❖ بعد أن خُدِع الإنسان الأول بواسطة الحيَّة، ونال مشورة في الخطيَّة، وبالخطيَّة واجه الموت، وبالموت البؤس، لم يَنْسَه الله. لم ينسَنَا صلاح الله بالرغم من جفافنا نحو حنو الله ومقاومتنا صانع الخيرات بعنفٍ. مع هذا لن نقدر أن نطمس حُبَّه لنا، فإنَّنا قد قُمنا من الموت، وصرنا أحياء بربّنا يسوع المسيح نفسه... هذا ولم يكفه بأن يدعونا إلى الحياة من جديدٍ، بل يعدّنا للراحة الأبديَّة، التي في عظمة فرحها تفوق كل فكرٍ بشريٍ[1].

القدّيس باسيليوس الكبير

أعمال جميع البشر أمامه،

وليس شيء يمكن أن يُخفَى عن عينيه [١٩].

يمتدّ نظره إليهم من دهرٍ إلى دهرٍ،

وليس شيء عجيبًا بالنسبة له [٢٠].

جبل الله الإنسان، ويعرف كل أفكاره وأعماله، وعلى الإنسان أن يُدرِك ذلك جيدًا، فعَيْن الله تُلاحِقه إلى أبعد مكان، وفى كل الأوقات "مِن دهرٍ إلى دهْرٍ" ولا يستعصي عليه شيء.

لا يقدر أحد أن يقول: "ما هذا؟ ولِمَ ذاك؟"

لأن كل الأشياء خُلِقَت لتقوم بعملها [٢١].

خلق الله كل شيءٍ لهدف حتى ما نراه ضارًا هو في الواقع مفيد. و**للقديس جيروم** مقال في أهمية الحشرات التي يعترض البعض على وجودها وهي تقوم بدورٍ بين بقية المخلوقات.

فاضت بركته كنهرٍ غطَّت الأرض اليابسة،

وأروتها كطوفان [٢٢].

ربما كان في ذلك إشارة إلى نهر النيل الذي كان فيضانه يُغَذِّي الأرض في حوض النيل بالكثير من الطمي الخصب، فتنتج الأرض محصولاً مضاعفًا.

٦. بين موقف خائفي الرب والعنيدين

كما يُحوِّل المياه العذبة إلى ملح، هكذا يرث الوثنيون غضبه [٢٣].

يصب الله غضبه على المُعانِدين، وبسبب العناد تتدنَّس الأرض، فتتحوَّل المياه الحلوة إلى ملح.

كما أن طرقه مستقيمة للقديسين،

---

[1] *Regulae fusius tractatae 2:3.*

كذلك هي مُعثِرة للأشرار [٢٤].

الوصايا الإلهية التي تكون سبب بركة لقديسيه، هي سبب إدانة للأشرار.

❖ تقودنا نصوص الكتاب المقدس لنفهم أن العثرة هي كل ما يجذبنا بعيدًا عن التقوى الحقيقية بأية صورة من صور الانحراف، أو ارتكاب الأخطاء، أو عدم مراعاة التقوى.

بصفة عامة هي كل ما يعوقنا عن حفظ الوصية، حتى ولو كان نتيجة ذلك الموت[١].

القديس باسيليوس الكبير

كما خُلِقَت الصالحات منذ البدء للصالحين،

كذلك الأشياء الشريرة للخطاة [٢٥].

الأعمال الإلهية التي يراها القديسون صالحة فيُسَبِّحونه، هي بعينها يراها الخطاة شريرة. ليس شيء نجسًا، بل "كل شيء طاهر للطاهرين، وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهرًا، بل قد تنجَّس ذهنهم أيضًا وضميرهم" (تي ١: ١٥). فحيث يكون الإنسان طاهرًا أي نقي القلب، يرى كل شيءٍ في خليقة الله طاهرًا. ويُعَرِّف **القديس جيروم**[٢] القلب الطاهر هو ذاك الذي يتطلَّع إليه الله. إذ بالله القدوس يتقدَّس القلب، فتصير له نظرة الله الطاهرة إلى كل أحدٍ وإلى كل شيءٍ.

أما كيف تطهَّر، فيقول **القديس أغسطينوس:** [الحقيقة هي أن الكل يكون غير طاهر، أولئك الذين لم يتطهروا بواسطة الإيمان بالمسيح، وذلك كقول العبارة: "**إذ طهَّر بالإيمان قلوبهم**" (أع ١٥: ٩)[٣].]

احتياجات حياة الإنسان الأساسية هي: الماء، النار، الحديد، الملح، سميذ الحنطة، اللبن، العسل، دم العنب، زيت الزيتون واللباس [٢٦].

يتحدَّث عن العناصر الرئيسية في حياة الإنسان باعتبار أن الربّ وفّرها للإنسان، هذه العناصر قد تُستخدَم في الشرّ، فالماءُ الذي يروي الظمأ يمكن أن يفنى كما يحدث في الفيضانات. والحديدُ تُصنَع به آلات المعارك. والمِلْح للحفظ إن زاد في الطعام يُفسِده. القمح واللَّبَنُ والعَسَلُ الذي يشير إلى الرخاء يُسِيء الطمَّاع استخدامه. ودمُ العِنَبِ أي الخمر يشير للسرور والفرح، ويسكر به الأشرار.

جميع هذه الأشياء صالحة للأتقياء،

---

[١] القديس باسيليوس الكبير: المعمودية المقدسة، ترجمة وإعداد الراهب القمص مرقريوس الأنبا بيشوي، ص ٩٩.

[2] *St. Jerome: Letter 22*

[3] *St. Augustine: Enchiridion, 75.*

لكنها تتحوَّل إلى شرٍّ للخطاة [٢٧].

تختلف الأطعمة من دولة إلى أخرى، ومن جيلٍ إلى جيلٍ، الاحتياجات الرئيسية مثل الماء والنار والملح الخ. لا تتغيَّر.

❖ من أجل الشفاء قد يستعين الطب ببعض الزهور بغرض استخلاص منها بعض المراهم والعطور وهذا لا يمكن التغاضي عنه. وإذا تساءل البعض قائلاً: أي نفع لهذه الزهور لمن لا يستخدمونها؟ فليعلم هؤلاء أن المراهم تُعَد من أنواع مُعَيَّنة من الزهور وهي نافعة جدًا...

هذه كلها وُجِدَت من أجل أن ننتفع منها ونستخدمها[1].

القديس إكليمنضس السكندري

توجد أرواح خُلِقَت للانتقام،

وفي غضبه (الرب) يُزيدون سياطهم،

وفي وقت الانقضاء يصبُّون قوّتها، ويُسَكِّنون غضب صانعها [٢٨].

ربما يشير إلى العواصف المدمرة، في حين توجد رياح مفيدة، وقد تتحوَّل الرياح الخفيفة إلى عواصف مُدَمِّرة كتأديب للأشرار.

النار، البرَد، الجوع والموت،

هذه كلّها خُلِقَت للانتقام [٢٩].

من ثمار الخطية المعاناة من الجوع والعطش والكوارث، لأنها تعزل الإنسان عن الله مصدر شبعه وارتوائه الحقيقي.

❖ لنَعُدْ ثانيةً إلى نفس النبي (عاموس) الذي سمعناه في بداية المقال: "وأنا أيضًا منعت عنكم المطر، إذ بقي ثلاثة أشهر للحصاد، وأمطرت على مدينة واحدة، وعلى مدينة أخرى لم أُمطر. أُمطر على ضيعة واحدة، والضيعة التي لم يُمطر عليها جفَّت. فجالت مدينتان أو ثلاث إلى مدينة واحدة لتشرب ماءً ولم تشبع. فلم ترجعوا إليَّ يقول الرب" (عا ٤: ٧-٨).

يلزمنا أن نتعلَّم إذن، أنه بسبب بُعْدنا عن الرب، وعدم مبالاتنا بطُرقِه، سَبَّب الله لنا تلك الجراحات.

إنه لا يطلب هلاكنا، بل بالحري يسعى أن يَرُدَّنا إلى الطريق السليم، وذلك كما يهتم الوالدان الصالحان بأطفالهما بحزمٍ، ينتهرانهم عندما يمارسون خطأ ما، لا لأنهما يطلبان أَذيَّتهم، بل

---

[1] *Paedagogus, 2:8.*

بالحري يرغبان في قيادتهم من الإهمال الطفولي وخطايا الصِبَا لبلوغ اليقظة الناضجة[1].

القدّيس باسيليوس الكبير

أنياب الوحوش المفترسة، العقارب، الأفاعي والسيف المُنتقِم لإهلاك الأشرار [٣٠].

كان الإنسان سيدًا للمخلوقات الأرضية، وكانت الحيوانات المفترسة خاضعة لآدم وحواء، أما وقد عصى الإنسان الله في عنادٍ، صارت هذه الحيوانات مُرعِبة له، بل وصار الإنسان يقتل إخوته بالسيف. حين تذمَّر الشعب في البرية ترك الحيات المحرقة تلدغهم (عد ٢١: ٥-٦)، وحين استهزأ بعض الأولاد بأليشع النبي سمح بدبتين قتلتا منهم إثنين وأربعين شخصًا، وحينما أرسل ملك أشور أناسًا وثنيين يسكنون أرض كنعان بعد سبيه للشعب الإسرائيلي أرسل الله وحوشًا تفترسهم (٢ مل ١٧: ٢٤، ٢٦). ما هذه الوحوش التي تنطلق علينا إلاَّ الخطايا التي يحفظنا الله منها مادمنا في حضرته نستجيب لصوته، فإن أعطيناه القفا لا الوجه يترك الوحوش تعدمنا أولادنا أي ثمارنا الداخلية وتقرض بهائمنا أي تفسد جسدنا؟!

يقول **العلامة أوريجينوس:** [كثيرة هي السيوف التي تعبر في أرضنا إن لم نحفظ ناموس الرب ونتبع وصاياه! ليدخل كل واحدٍ إلى نفسه، وليتأمل داخله لئلا تكون أرضنا أي جسدنا مُثَّارة بروح الزنا أو مضطربة بروح الغضب والهياج، أو بحركة البخل، أو بقوس الشهوة واللذات... هذا يعرفه الرسول بولس إذ يقول: "هادمين ظنونًا وكل علوٍ يرتفع ضد معرفة الله" (٢ كو ١٠: ٥)، فلا نخضع لهذا السيف ولتلك الحروب بل يحفظ الرب أرضنا في أمان.]

إنها تفرح بتنفيذ وصيّته، وتستعد لخدمته على الأرض،

وعندما يحين الوقت لا تتعدَّى كلمته [٣١].

بالغريزة الطبيعية تخضع الحيوانات المفترسة لإرادة الله، ولا تتعدَّى كلمته، إذ يستخدمها الله أحيانًا للتأديب.

يرى **القديس باسيليوس الكبير**[2] أنه يليق بالمؤمن ألا يخاف من الحيوانات المفترسة والسامة الخ، فإن الله سمح بها لتأديبنا، كما لفائدتنا. تشهد الحيوانات للإيمان. هل لك ثقة في الله؟ "على الأسد والصل (نوع خبيث من الحيات) تطأ، الشبل والثعبان تدوس" (مز ٩١: ١٣). بالإيمان لك القوة أن تدوس على الثعابين والعقارب. ألا ترى أن الأفعى التي نشبت في يد الرسول بولس وهو يجمع الحطب لم تؤذِه (أع ٢٨: ٣)، لأنها وجدت القدّيس مملوءً إيمانًا؟ **إن كان لك إيمان، فلا تخف من**

---

[1] *In the Time of Famine and Drought, 2.*

[2] *Cf. Hexamaeron, 9.*

الحيوانات أكثر من خوفك من عدم إيمانك، الذي يجعلك عُرْضَة للفناء.

لذلك منذ البدء كنت مصمَّمًا ومُقَرِّرًا
وتركت هذا في الكتابة: [٣٢]

جميع أعمال الربّ صالحة،
وهو سيوفِّر كلّ احتياج في ساعته [٣٣].

❖ كن بشيرًا بصلاح الله، لأن الله يسيطر عليك بالرغم من عدم استحقاقك. بالرغم من أن دينك له عظيم جدًا، هكذا فإنه لا يُرَى مطالبًا إياك بالإيفاء بالكامل؛ ومن خلال أعمالك البسيطة جدًا يهبك مكافآت عظيمة. لا تدعو الله عادلاً، فإن عدله لا يُعلن في الأمور التي تخصك. وإن كان داود يدعوه عادلاً ومستقيمًا (مز ٢٤: ٨؛ ١٤٤: ١٧)، فإن ابنه يعلن لنا أنه صالح ورؤوف[1].

مار اسحق السرياني

❖ لا يمكن أن يُخفي نوره، ولا أن يبقى مجده بلا شاهد، ولا صلاحه لا يُتمتع به، أو أن يبقى كل ما يتعلق بالطبيعة الإلهية غير مُستخدم لصالح الإنسان كي يتمتع به ويشترك فيه. فإن كان الإنسان قد جاء إلى الوجود لهذا الغرض، **أي ليشارك الله في صلاحه**، فحتمًا في خلقته وُهب القدرة على التمتُّع بكل ما هو صالح. فتتمتع العين برؤية النور الحقيقي بمقتضى الشعاع المزروع فيها طبيعيًا، يجذب إليها ما هو مماثل له بقدرته الفطرية. بالمثل كان من الضروري وجود تماثل للطبيعة البشرية بالإلهية حتى يمكن خلال هذا التماثل أن تتلاحم مع ما هو متجانس معها. كان لابد للكائنات غير العاقلة سواء التي تعيش في الماء أو في الهواء أن يكون لها نظام يتكيف مع البيئة المحيطة بكل كائنٍ أن يجد عشيرته وما يتجانس معه، الواحد في الهواء، والآخر في الماء. هكذا لابد للإنسان الذي جاء إلى الوجود لكي يتمتَّع بصلاح الله أن يكون له شيء ما في طبيعته شبيه بما سيشارك فيه. لهذا تأهَّل الإنسان بالحياة والعقل والحكمة وكل صفات تليق بالله لكي خلال هذه كلها تنشأ فيه الرغبة نحو ما هو متجانس معه[2].

القديس غريغوريوس النيسي

فلا يقدر أحد أن يقول: "هذا أشرّ من ذاك"،
فإن كل الأمور تُسرّ جيدًا في وقتها [٣٤].

---

[1] *The Ascetical Homilies of Saint Isaac the Syrian, 1984, homily 51.*

[2] *Oratione Cat. 5* ترجمة الدكتورة نورا العجمي

عناية الله فائقة، كل الأمور تؤول للخير ما دمنا نستخدمها بما يليق وفي الوقت المناسب.

فالآن أنشدوا بكلّ قلبكم وصوتكم، وباركوا اسم الربّ [٣٥].

يتحدَّث ابن سيراخ هنا عن خطة الله للخلاص كعمل الله الفائق الذي حقّقه بتجسد كلمة الله وتقديم نفسه ذبيحة عن البشرية.

من وحي سيراخ ٣٩

شريعتك تُفَرِّح قلبي!

❖ هب لي أن أكون أمينًا في تكريس حياتي لشريعتك.
لأنهل من خبرات الآباء البطاركة والأنبياء والرسل، أَتمتَّع بخبرات القديسين وأَتفهَّم حكمتهم.
أُبَكِّر إليك مع كل صباح، أعترف بخطاياي وأطلب حكمتك.
ألتمس عملك حتى مع الغرباء، يا محب كل الأمم!

❖ أفتخر بميثاقك، وأشتهي خلاص كل البشرية. أحرص على كل لحظة للتمتُّع بحكمتك،
فتستريح نفسي عندما تنطلق من الجسد! حكمتك تُحَوِّل حياتي إلى بدر كامل في نوره!
حكمتك ينبوع مياه حيّة تروي الورود المغروسة في داخلي.

❖ شريعتك تُحَوِّل حياتي إلى قيثارة روحية.
يعزف عليها روحك القدوس نشيد الحكمة ولحن الحب!
تكشف لي عن سرّ رعايتك للبشرية.
كل الأمور تعمل لبنيان أولادك المحبوبين،
ومن يعاند الحق تتحوَّل الأمور لتأديبه.
يعاني منه مقاوميك كتأديبٍ قاسٍ.
بينما يحسبه أبناؤك عطايا فائقة،
عجيب أنت في رعايتك وخطّتك وتدبيرك الإلهي!

الأصحاح الأربعون

صراع أم فرح؟!

دعانا ابن سيراخ في الأصحاح السابق لحياة التسبيح والشكر، حيث يُحَوِّل الله كل الأشياء لبنياننا. وفي هذا الأصحاح يبرز ثلاثة أمور متكاملة:

١. **سقوط الإنسان ونير الآلام الثقيل** **[١-١١].**
٢. **صراع بين الصلاح والشر** **[١٢-١٧].**
٣. **الفرح الحقيقي الداخلي** **[١٨-٣٠].**

١. سقوط الإنسان ونير الآلام الثقيل

يُقَدِّم ابن سيراخ مرثاة على ما حلّ بالإنسان بوجه عام بسبب سقوطه. فما قيل لآدم: "بعرق جبينك تأكل خبزك" (تك ٣: ١٩)، ورثه كل نسله، فيشعر البشر بالتعب حتى الذين لا يُرهَقون جسديًا. صارت الحياة في العالم سمتها الألم، وتنتهي بموت الجسد. يتعرَّض الإنسان إلى المتاعب التالية خلال اليوم:

أ. الارتباك بالمستقبل المجهول وتوقُّع الموت [٢].

ب. يُعانِي الجميع من الغضب والحسد والاضطراب والجزع والخوف من الموت والتمرُّد والصراع [٤].

ج. حتى على السرير من أجل الراحة يفكر الإنسان فيما حلّ به في النهار، ويراه بصورة مُغايِرة عما كان يفكر فيه [٥].

د. تتعبه الأحلام المُزعِجة [٦].

هـ. يتوقَّع عند استيقاظه أمورًا صعبة، لكنه لا يجدها واقعية [٧].

أعمال صعبة خُلِقت لكل إنسانٍ، ونير ثقيل وُضِع على بني آدم،
من يوم خروجهم من رحم أمهاتهم إلى يوم عودتهم إلى أمّ جميع الناس (التراب) [١].

إذ صارت الحياة البشرية قاسية، دعاها ابن سيراخ **نيرًا ثقيلاً وضع على بني آدم**. وقد جاء السفر يشير إلى مجيء المسيّا المُخَلِّص الذي حمل نير خطايانا بالصليب، مقدمًا لمؤمنيه نيره، قائلاً: "نيري هَيِّن" (مت ١١: ٢٨-٣٠)، ويترجمها البعض: "نيري حلو"، إذ يُقَدِّم لنا عذوبة الخلاص بالصليب.

تطلع ابن سيراخ إلى المؤمنين أبناء آدم الجديد، فرآهم منطلقين إلى **أم جميع الناس**، وكما يقول الرسول بولس: "وأما أورشليم العليا، التي هي أمنا جميعًا، فهي حُرَّة" (غل ٤: ٢٦). إذ عتقنا الرب

يسوع من نير العبودية، ووهبنا حرية مجد أولاد الله".

جلب الإنسان على نفسه نير الخطية، ففقد سلامة نفسه، والقدرة على الالتصاق بالقدوس. حرم نفسه من الخبز الروحي، ونُزع عنه ثوب الإيمان، وعانى من جراحات الشهوات الجسدية. تحوَّلت حياة الإنسان إلى رحلة شقاء وتعب. "الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعبًا" (أي ١٤: ١). تغيَّرت هذه النظرة بعد مجيء كلمة الله، إذ تمتعنا بالنعمة الإلهية والبنوة لله في مياه المعمودية، فصارت حياتنا رحلة ممتعة في صحبة الله. بل السقوط لم يكن هناك صراع بين شهوات الروح وشهوات الجسد، بل كان الجسد مع الروح متناغمان في حُبّ وطاعة الله.

❖ "غريب أنا على الأرض" (مز ١١٩: ١٩).. إنني أعرف أن "حياة الإنسان على الأرض تجربة" (أي ٧: ١)، و"نير ثقيل وُضِع على بني آدم" [١].. لكننا نقول إننا مستأجرون أو غرباء على الأرض، إذ نجد مدينتنا العليا. هنا نتقبَّل العربون، وعندما نصل هناك لن نرحل منها[1].

القديس أغسطينوس

❖ عن هذا الغضب (الذي حلّ بعصيان آدم) قيل: "كنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضًا" (أف ٢: ٣). عن هذا الغضب يقول إرميا: "ملعون اليوم الذي وُلِدت فيه" (إر ٢٠: ١٤). وعن هذا الغضب يقول البار أيوب: "الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعبًا. يخرج كالزهر ويُبَاد ولا يستمر على حاله. فعلى مثل هذا حدقة عينيك وإياي أحضرت إلى المحاكمة معك. من يُخرج الطاهر من النجس؟ لا أحد، حتى وإن عاش يومًا واحدًا على الأرض" (أي ١٤: ١-١٥ *LXX*).

وعن هذا الغضب يقول سفر سيراخ: "كل جسد يبلى مثل الثوب، فالسنّة منذ البدء: موتًا تموت" (راجع سي ١٤: ١٧)، وأيضًا: "من امرأة نشأت الخطية، وبسببها نموت أجمعون" (راجع سي ٣٥: ٢٤). وأيضًا: "متاعب كبيرة خُلِقَت لكل إنسانٍ، **ونير ثقيل وُضِع على بني آدم**، من يوم خروجهم من رحم أمهاتهم إلى يوم دفنهم في أم جميع الناس" (راجع سي ٤٠: ١). عن هذا الغضب يقول الجامعة: "باطل الأباطيل الكل باطل، ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس؟" (جا ١: ٢-٣)[2].

❖ الآن غفران الخطايا يخص رئيسيًا الدينونة المُقبِلة. ففي هذه الحياة لا زال يتحقَّق المكتوب: "نير ثقيل وُضِع على بني آدم، من يوم خروجهم من رحم أمهاتهم إلى يوم دفنهم في أم جميع الناس" [١]. هكذا نرى حتى الأطفال الصغار بعد غسلهم في جرن الميلاد الجديد يعانون من شرورٍ

---

[1] *On Ps 119 (118)*

[2] *Against Julian, FOTC. Vol. 35, p. 388-291.*

كثيرةٍ، وهكذا نفهم أن أثر أسرار الخلاص يناسب بالحريّ الرجاء في خيرات الدهر الآتي أكثر من حفظ الخيرات الحاضرة واقتنائها.

بالمثل كثير من الخطايا تبدو الآن كما لو يُغفل عنها وتعبر دون عقوبة، لأن القصاص عنها محفوظ للحياة العتيدة، فليس باطلاً دُعِي ذلك اليوم بيوم الدينونة، حيث يأتي ديان الأحياء والأموات... يقول الرسول: "لأننا لو كنا حكمنا على أنفسنا لما حُكِم علينا. ولكن إذ قد حُكِم علينا نؤدب من الربّ لكي لا نُدَان مع العالم" (١ كو ١١: ٣١-٣٢)[1].

❖ في الحقيقة، ليس ما يمنع تحقيق النبوة: "نير ثقيل..." (راجع سي ٤٠: ١). فإنه حتى بالنسبة للأطفال الذين تحرروا بواسطة جرن التجديد من قيد الخطية الذي قبض عليهم؛ أي الخطية الأصلية، يعانون من متاعب كثيرة، وأحيانًا يعاني البعض حتى من هجوم الأرواح الخبيثة. يا للبهجة، حتى هذا الهجوم – لا سمح الله – لن يقدر أن يؤذيهم، حتى لو بلغ الهجوم إلى الموت[2].

القديس أغسطينوس

إدراك الأمور العتيدة ويوم الموت يُربِك فكرهم ويروّع قلوبهم [٢].

❖ الموت بالنسبة للذين يفهمونه **خلود**، أما بالنسبة للبلهاء الذين لا يفهمونه فهو موت. يلزمنا ألا نخاف هذا الموت، بل نخاف هلاك النفس الذي هو عدم معرفة الله. هذا يرعب النفس بحقٍ!

❖ يستحيل علينا أن نهرب من الموت بأية وسيلة. وإذ يعرف العقلاء بحق هذا، يُمارِسون الفضائل ويُفَكِّرون في حب الله، ويواجهون الموت بلا تنهُّدات أو خوف أو دموع، مُفَكِّرين في أن الموت أمرٌ محتم من جهة، ومن جهة أخرى أنه **يُحَرِّرنا من الأمراض التي نخضع لها في هذه الحياة.**

القديس أنطونيوس الكبير

من الجالس على العرش المجيد إلى الوضيع الذي على التراب والرماد [٣].

من اللابس الأرجوان والتاج إلى الملتحف بالخيش. يوجد غضب وحسد واضطراب وجزع وخوف من الموت وتمردٌ وصراع [٤].

❖ يحصل بعض رواد الفنادق على أسِرَّة، بينما لا يجد البعض أسرة فيتمددون أرضًا وينامون بسلام تمامًا كالذين ينامون على الأسرة. وفي الصباح، إذ يعبر الليل، يقوم الكل ويغادرون الفندق حاملاً كل منهم أمتعته. هكذا أيضًا من يسلكون في هذه الحياة، فسيترك الجميع هذه الحياة كمن يتركون

---

[1] *Christian Instruction, FOTC, vol. 2, .424-425.*
[2] *City of God, FOTC, vol. 24, p. 374.*

فندقًا، سواء كانوا يعيشون في حياة وضيعة، أو كان لهم ثروة وشهرة. فالكل لا يحملون معهم المتع الأرضية والغِنَى، بل يأخذون معهم ما صنعوه في هذه الحياة، خيرًا كان أم شرًا[1].

القديس أنطونيوس الكبير

حتى في وقت راحة الإنسان على فراشه يُغَيِّر نوم الليل معرفته [٥].

❖ لا يستطيع أحد أن يفلت من سلطانه، ليس عبد ولا حر. كل الأمور البشرية تبيد بالموت: الغنى كما الكرامة. عدم التساوي في هذه الحياة الحاضرة ضخم. عظيمة هي الحرية بعد رحلينا.

❖ يبطل الموت كل شيءٍ. ليس فقط لا تعود توجد إمكانية لمساندة الشر، وإنما لا يعود حتى مجرد صوت الشر يصل إلى الأذنين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

ينال القليل أو لا شيء من الراحة، وبعد ذلك ينام،
وإذا به يجهد في رؤى قلبه كما في يوم المراقبة،
ويضطرب من رؤى قلبه كالهارب من وجه المعركة [٦].

وفي وقتٍ مُعَيَّن يحتاج أن يستيقظ ويتعجَّب، إذ لا يجد شيئًا يُخيفه [٧].

هذا حال كل جسد، من الإنسان إلى البهيمة،
وللخطاة ما هو أكثر سبعة أضعاف: [٨]

موت، سفك دم، صراع، سيف، مصائب، مجاعة، دمار وبلايا [٩].

❖ الموت أمر مُرعِب للغاية، لكن ليس لأولئك الذين تعلَّموا الحكمة الحقيقية التي من فوق. فإن من لا يعرف شيئا عن الأمور العتيدة بل يحسب الموت انحلالاً ونهاية للحياة، بحق يرتعب ويخاف كمن يعبر إلى لا وجود.

أما الذي يتعلم بنعمة الله الأمور الخفية السرية لحكمة (الله)، ويحسب الأمر رحيلاً إلى موضع آخر، لا يجد سببًا للرعدة، بل بالأحرى يفرح ويبتهج، إذ بتركنا الحياة الفانية نذهب إلى حياة أفضل وأبهى وبلا نهاية. هذا ما يُعَلِّمنا إياه المسيح بتصرفاته حيث يذهب إلى آلامه، لا متغصبًا ولا عن ضرورة، بل بإرادته، لذلك قيل: "قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه إلى عبر وادي قدرون، حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه"[2].

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٨٠.

[2] *Homilies on St. John, 83:1.*

كل ذلك خُلِق للأثمة، وبسببهم أتى الطوفان [١٠].

يرى **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم** أن الشرِّير عند موته تقود الخطايا نفسه لتكون سرّ تبكيته المستمر.

كل ما هو من الأرض فإلى الأرض يعود،

وما هو من المياه فإلى البحر يعود [١١].

❖ ربما تقول: الإنسان الميت يختبر الفساد، ويصير ترابًا ورمادًا. وماذا إذن أيها السامعون الأحباء. فإنه بهذا أيضا نفرح. فإنه عندما يعيد إنسان بناء بيت قديم مترنح يخليه أولا من سكانه ويهدمه ثم يعيد بناءه في أكثر فخامة. هذا لا يُسَبِّب حزنًا للسكان بل بالأحرى فرحًا. فانهم لا يفكرون في التدمير الذي يرونه، وإنما في البيت العتيد بناءه، والذين لم يروه بعد. هكذا عندما يفعل الله شيئًا مشابهًا، يُخرج النفس الساكنة فيه كما من بيت، لكي يبني بيتًا أكثر سموًا، ثم يعيد النفس مرة أخرى في مجدٍ أعظم. ليتنا لا نفكر في الهدم، بل فيما يتبعه من سمو.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. صراع بين الصلاح والشر

تُقَدِّم لنا الحياة صراع بين العدالة والظلم، وبين الصلاح والشرّ. لكن يستمر الظلم إلى فترة قصيرة وينتهي [١٢]. أما الأمانة فتعاني من الآلام إلى حين لكنها تبقى إلى الأبد.

كل رشوة وظلم يزولان،

أما الأمانة الصادقة فتبقى إلى الأبد [١٢].

ثروة الظالمين تجفّ كالنهر،

وتنتهي كدويّ الرعد في العاصفة [١٣].

بسبب محبة المال والرغبة في زيادة الثروة يلجأ الإنسان أحيانًا إلى الغش والظلم النهب والسلب. إن ظن الإنسان أن الظلم هو الطريق السهل والأسرع لتحقيق مكاسبه المادية، أفلا يفسد قلبه؟ إن ما يجلبه الظلم يضمحل، أما ما تجلبه الأمانة ويُستخدم الطريق المستقيم فيبقى لحسابنا في الأبدية. يليق بنا ألا تمتد يدنا إلى الرشوة والظلم، فإن الأموال والمقتنيات التي تأتي عن طريق الشر تتلاشى كالرعد الذي يظهر ويختفي في لحظة. إنه يجف كما يحدث مع مياه المطر التي سرعان ما تنتشر وسرعان ما تتبخَّر.

❖ رجائي هو في الله. نعم، فإني لا أقترب (إلى الشر) وأعبر "**لا تتكلوا على الظلم**" (مز ٦٢: ١٠). لكي أثب إلى فوق، أتكل على الله، فهل يوجد مع الله ظلم؟..

قد ينتعش الظلم إلى حين، لكنه لا يقدر أن يثبت. "لا تتكلوا على الظلم، ولا تطمعوا في الخطف". أنت لست غنيًا، أتريد أن تسلب؟ ماذا تجد؟ وماذا تفقد؟ يا لها من مكاسب مفقودة! إنك تجد مالاً، وتفقد برًّا! "لا تطمعوا في الخطف"... "طوبى للرجل الذي جعل الرب متكله، ولم يلتفت إلى الغطاريس (الأباطيل) والمنحرفين إلى الكذب" (مز ٤٠: ٤). نعم، إنك تريد أن تخدع؛ تريد أن ترتكب احتيالاً، ماذا تجلب لنفسك مقابل الغش؟.. فإنه ليس الغش ولا الخطف تشتهيه بعد، ولا تضع اتكالك على هذه الأمور بعد.

القديس أغسطينوس

يفرح الإنسان السخي عند بسط يديه،

أما المتعدُّون (على الوصية) فسيهلكون [١٤].

تهب هذه العبارات المؤمن راحة وسط آلام العالم، ففي وسط الشرور يتذوَّق المؤمن برّ المسيح.

نسل الأشرار لا يُنمون فروعًا،

لأنهم جذور نجسة على صخر صلب [١٥].

أبناء الأشرار السالكون في طريق آبائهم يهلكون بسبب ما ورثوه من شرّ ولم يرتدُّوا عنه، يشبهون أغصان لا أصل لها، أو يجف أصلها. أولاد الأشرار هي أعمالهم (عدم التوبة). إذ يزهو الأشرار سريعًا نحزن عليهم ونبكيهم، لأن يوم هلاكهم يقترب والأهوال تنتظرهم.

منجل عدالة الله يُفاجِئهم، لأن حياتهم قد جفَّت، وصار بقاؤهم مُفسِدًا للأرض. يقول معلمنا يعقوب: "لأن الشمس أشرقت بالحر، فيَّبست العشب، فسقط زهره، وفني جمال منظره؛ هكذا يذبل الغني أيضًا في طرقه" (يع ١: ١١).

❖ "لا تغر من فاعلي الشر، فإنهم مثل العشب سرعان ما يذبلون". أخبرني إذن ما هو مصير من يقوم بالسلب والنهب بعد رحيله؟ أين هي آماله البراقة؟! أين هو اسمه المهوب؟ أما يعبر هذا كله، ويتلاشى من الوجود؟! ألم يكن كل ما له حلمًا وخيالاً؟!

هذا ما يجب أن تتوقَّعه في حالة أمثال هذا الإنسان، سواء أثناء حياته أو في حياة من يأتي بعده. لكن ليس هكذا هو حال القديسين، فلا يمكنك أن تنطق بذات الكلمات عن حالهم، ولا تقل

إن ما يخصهم هو حلم وأسطورة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

العشب الضار الذي ينمو على كل ماء أو ضفة نهر يُقلع قبل كل عشبٍ [١٦].

❖ إنه كبستاني يقتلع الزرع غير المثمر، "كل غرسٍ لم يغرسه أبي السماوي يُقلَع" (مت ١٥: ١٣).

لقد غرس كرمة سورق[2] **زرع** حق كلها،

وقد تحوَّلت إلى سروغ[3] مُرّةٍ وغريبةٍ (إر ٢: ٢١).

لقد اقتلعها ليجعل منها كرمة حقيقية و"فلاحة الله" (١ كو ٣: ٩)[4].

العلامة أوريجينوس

النعمة كفردوس بركات،

والصدقة تدوم إلى الأبد [١٧].

من هو الإنسان السخي سوى المؤمن الذي يبسط يديه بالحب والرحمة خلال عمل المصلوب الساكن فيه. يعطي الحب بسخاء، ويتحوَّل قلبه إلى فردوس مُفرِح. "اللطف كجنة بركات، والصدقة تدوم إلى الأبد [١٧]. وهو يعطي، يغتني بالمسيح واهب الخيرات؛ تشبع نفسه، فلا يشعر بالعوز أو الاحتياج، بل يجد فيه الكنز الإلهي [١٨]. ليس من صلاح يزول لأن بركة الربّ عليه. الله يُخرِج من الشرور بركات كما حدث مع يوسف بن يعقوب.

٣. الفرح الحقيقي الداخلي

الفرح الداخلي الحقيقي هو من نصيب خائف الرب الذي يتَّسِم بروح التمييز في تصرُّفاته وأعماله. هذه الأفراح الداخلية ليست هي كل شيءٍ، لكن لها تقديرها الحيّ في حياة الإنسان. إنها بركات يُقَدِّمها الله للسالكين في برّه. يبرز سيراخ تفوُّق هذه البركات عن المباهج العادية:

أ. حياة الإنسان المكتفي والعامل حلوة، لكن الكنز الروحي الداخلي أفضل [١٨].

ب. بركة إنجاب الأولاد ثمينة، لكن الزوجة البارة بلا لوم أفضل [١٩].

ج. الجو المُفرِح رائع، لكن محبة الحكمة أروع [٢٠].

د. الموسيقى الروحية عذبة، لكن اللسان العذب أفضل [٢١].

---

[1] *In 1 Cor., hom. 15.*

[٢] غرس الله كرمه من أجود أنواع (*of highest quality*) الزرع لكونه كرمًا مختارًا (سورق שׂרק)،

[٣] سروغ: منشقة من الآرامية، تعني غير مخلصة أو فاسدة.

[4] *Fragments from the Catena, 70.*

هـ. تشتهي العين الجمال، لكن حقل الإنجيل يفوقه.

و. الصديق والزميل يلتقيان، أما لقاء الزوجة مع الزوج ففي القلب لا يتوقَّف.

ز. الذهب والفضة لهما دورهما في الحياة، أما المشورة فكنز أعظم منهما.

ح. مخافة الربّ كفردوسٍ يحفظ الإنسان، وليس من مجدٍ يُعادِلها [٢٧].

ط. قد يلجأ الإنسان إلى الاستعطاء، لكن الموت خير منه [٢٨].

ي. من يشتهي عيشة غيره يفقد آدميته، وأما المُتأدِّب فلا يشتهي ما لأخيه [٢٩].

حياة المُتَّكل على ذاته والعامل عطرة،

لكنّ الذي يجد كنزًا يفوق كليهما [١٨].

روعة الحياة في العمل الجاد والبذل، أما الكنز الذي يفوقهما فهو النعمة الإلهية.

إنجاب الأولاد وبناء مدينة تُثبِّتان الاسم،

لكن الزوجة التي بلا عيب تُحسَب أفضل من كليهما [١٩].

إذ يشير ابن سيراخ إلى الحياة الفردوسية خلال العريس السماوي، ربّ المجد يسوع، يُعلِن عن الحياة الزوجية السعيدة [١٣-١٩] بكونها ظل للعُرْسِ السماوي. الزوجة التي لا عيب فيها تُحسَب فوق الأطفال، لأنها تجعلهم صالحين، وتسعد البيت كله.

الخمر والموسيقى يسرّان القلب،

لكنّ حبّ الحكمة يفوق كليهما [٢٠].

بتسليم المؤمن عجلة القيادة للحكمة، يدخل إلى حياة مجيدة حتى وسط الضيقات، فلا تقدر الظروف أيا كانت أن تُفسِد مجده الداخلي، أو تنزع عنه كرامته الحقيقية. يحمل سمات الشيوخ الحكماء منذ صغر سنه.

❖ إنه سليمان الذي يقول إنه يشتاق أن يجعل الحكمة عروسه (حك ٨: ٢). وفي موضع آخر يقول عن الحكمة: "حبِّها فتحضنك، احتضنها فتحفظك" (راجع أم ٤: ٦، ٨). ليتنا نحن أيضًا نأخذها لنا زوجة! لنتمسَّك بها في أذرعنا، ولا نتركها تترك أحضاننا، ولن نجعلها تهرب من أذرعنا. إن كانت هذه العروس دومًا في حضننا فسنلد منها أبناء (أي ثمر الروح لا الجسد)[1].

القديس چيروم

المزمار والقيثارة يعطيان إيقاع (موسيقي) عذب،

[1] *Homily 42 on Ps. 128 (127).*

لكن اللسان العذب يفوق كليهما [٢١].

يرى **مار يعقوب السروجي** أن الله خلق الإنسان كائنًا مُسَبِّحًا، ينضم إلى خورُس السمائيين.

❖ خُلِق البشر ليُسَبّحوا كثيرًا، ولعلهم يذكرون التسبيح كل يوم بزيادة!...

فم الإنسان متقن كأنما لتسبيح الرب، ومن يبطل من التسبيح صار ناكرًا (للجميل).

ولهذا لك الفم لتُسَبِّح به، وتشكر به، وتهلل به وتبارك به.

سبّح لأن لك الكلمة المسبِّحة، وهلل لأن لك الصوت المملوء أنغامًا.

اشكر لأن لك الذهن والتمييز، وبارك لأنك صرتَ إناء ناطقًا وغير صامتٍ.

لم تكن شيئًا وجعلتك المراحم شيئًا عظيمًا، وبما أنك صرتَ فأشكر بعجبٍ، لماذا أنت ساكت؟

ادخل إلى ذاتك وانظر إلى شخصك في داخلك، ففيك توجد كل عجائب القدرة الخالقة[١].

مار يعقوب السروجي

تشتهي العين النعمة والجمال،

لكنّ خُضرة الحقول تفوق كليهما [٢٢].

تشتهي العين أن تتمتَّع بالطبيعة الجميلة التي أنعم بها الله علينا، أما خضرة الحقول التي تتسم مع الجمال بالثمار ذات الطعم الحلو، فهي أفضل. هكذا يؤكد ابن سيراخ للمؤمن أن كل ما خلقه الله لنا جميل، لكن يلزمنا أن نعمل في الحقل لنأكل من تعب أيدينا.

الصديق والصاحب يلتقيان في وقتٍ مُحَدَّدٍ،

أما لقاء الزوجة مع زوجها فيفوقهما [٢٣].

يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أنه مهما كانت الصداقة حميمة بين رجلين سواء كأقرباء أو زملاء أو جيران، فإنها لا تقارن بالعلاقة الرجل وزوجته[٢].

الإخوة والمساعدات لأيام الضيق،

لكنّ الصدقة تنقذ أفضل من كليهما [٢٤].

الصدقة هي ممارسة أعمال الحب واللطف، وليست مُجَرَّد عطاء مادي. بالخطية يتقوقع الإنسان في أنانية حول ذاته، وبالحب ينطلق بالنعمة الإلهية من الأنانية ليعمل لحساب أخيه وسعادته.

---

[١] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان – ترجمة الدكتور سوني بهنام).

[2] *On Ephesians, Homily 20.*

فبالحب نتمم كل الناموس ونتمتَّع بالبرّ.

الذهب والفضة يُثَبِّتان القدم،

لكن تُعتبَر المشورة أكثر قيمة من كليهما [٢٥].

يحثنا هنا على محبة المشورة والانتفاع بحكمة الآخرين أكثر من الذهب والفضة، وكما جاء في سفر الأمثال: "إن طلبتها كالفضة، وبحثت عنها كالكنوز" (أم ٢: ٤)، فهل يدعونا إلى الطمع أو محبة المال؟

❖ هل يلزمنا أن نفكر في الأسفار المقدسة أنها تمتدح الطمع؟ إنه معروف أية مجهودات عظيمة وآلام يخضع لها محبو المال بصبرٍ. كيف يحرمون أنفسهم من مسرَّات عظيمة رغبة في مضاعفة ثروتهم أو خشية أن تقل. بأي عنف عظيم يسعون نحو المكسب، وكيف بحذرٍ شديدٍ يتجنَّبون الخسائر... إنه يليق بنا أن نُحث هكذا في محبة الحكمة، فنطلبها بأقصى غيرة بكونها كنزًا، نطلب المزيد فالمزيد، ونحتمل متاعب كثيرة، ونمتنع عن ملذَّات، ونُفَكِّر عمليّا في المستقبل حتى نحتفظ بالطهارة والهبة (الإلهية). عندما نعمل بهذه الكيفية نقتني الفضائل الحقيقية، لأن هدفنا صادق، ويتناغم مع طبيعتنا بخصوص الخلاص والسعادة الحقيقية[1].

❖ أنه ليس بالأمر اللائق بل المهين أن نُقارِن الحكمة بالمال، لكن الحب يُقارَن بالحب. ما أراه هنا أنكم جميعًا تحبون المال فوق كل شيءٍ، حتى عندما تُصدر محبة المال أمرًا تبذلون كل الجهد في إتمامه وتموتون جوعًا، وتعبرون البحر، وتعرضون أنفسكم للرياح والأمواج... يقول الله: "لتحبوا هكذا، فإنني لست أطلب أن تحبونني أكثر من هذا. إني أتحدث إلى العامة؛ إني أحدث الطماعين. أنتم تُحِبُّون المال، فلتحبوني بمثل هذا الحب ليس إلا. بالطبع أنا بالمقارنة (بالمال) أفضل. لتُحِبّوني كما تحبون المال"[2].

القديس أغسطينوس

الثروة والقوة تبنيان القلب، لكنّ مخافة الربّ أفضل من كليهما.

ليس من خسارة في مخافة الربّ، ولا حاجة للبحث عن عونٍ معها [٢٦].

❖ الذين ينظرون إلى فقدان المال أو الأبناء أو العبيد أو أي شيء آخر على أنه كارثة، هؤلاء يلزمهم أولاً أن يعرفوا ضرورة الاقتناع بما يعطيه الله، والاستعداد لردّ هذه الأشياء برباطة جأش

---

[1] *Against Julian 4: 3: 18*

[2] *Sermon 399: 11.*

متى طلبها منَّا، دون أن نُزعِج أنفسنا بالحزن على فقدانها أو بالأحرى على ردّها، فتكون كمن يستخدمون ما هو ليس ملكهم إلى حين ثم يردّونه (إلى صاحبه)[1].

القديس أنطونيوس الكبير

مخافة الربّ كفردوس البركة،

وتستر الإنسان أفضل من أي مجدٍ [٢٧].

تقدم مخافة الرب عربونًا للحياة الفردوسية، نتمتَّع به على الأرض حتى نعبر إلى الفردوس في الحياة الأخرى.

❖ الكنيسة بالنسبة لخدام الله المُخْلِصين، الذين يعيشون في ضبط النفس والعدل والحب لله بحق تُدعَى فردوس (البركة)، تفيض بنعمٍ غزيرة ومباهج طاهرة (نش ٨: ٥). حتى في الضيق مثل هذا الخادم يتمجَّد بالصبر ويمتلئ بفرحٍ عظيمٍ، لأن تعزيات الله تُبهِج نفسه بالرغم من المتاعب الكثيرة التي يختبرها في قلبه[2].

القديس أغسطينوس

يا بُنَيَّ، لا تحيا حياة المتسوِّل،

فإن الموت خير من الاستجداء [٢٨].

الحديث هنا مُوَجَّه إلى المتسوّلين أنفسهم، لكي يصبحوا منتجين لا عالة على المجتمع. التسوّل عار بالنسبة للقادرين على العمل. بهذا يدعونا إلى طلب الشريعة الإلهية بجديةٍ واجتهادٍ، عوض التسوّل من الفلاسفة الوثنيين.

❖ يستجدي المتسوّل من أجل حرمانه ما هو ضروري، ولأنه يجد ذلك مستحيلاً أن يحرز على هذه الأشياء بطريقة مبجّلة. ربما تجد في مثل هذه الحالة أولئك الذين يُقَال عنهم يتسوَّلون ليجدوا علاجًا من اليونانيين أو البرابرة الذين يعدون بتقديم الحق. إنهم يفقدون الوسائل المجيدة اللائقة التي يقدمها اللوغوس، فيحرزون على التأمل الغزير في الحق بلا خطرٍ. لكن اللوغوس يمنع هذا الأسلوب من البحث، قائلاً: "لا تعش عيش الاستعطاء، فإن الموت خير من الاستعطاء" [٢٨].

الوكيل (مدير الأعمال) المذكور في الإنجيل كان يخجل من أن يستعطي، فقال لمن عليه مئة كرّ قمح: خذ صكك واكتب ثمانين... (لو ١٦: ٦-٧)، مُفَضِّلاً أن يُقَلِّل من كمية دين سيده عن

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٣٥.

[2] *Sermon 12: 34.*

أن يستجدي في خزي، وقد مُدِحَ على ذلك. لذلك حَرَّر يسوع المولود أعمى من تسوّله؛ فأعطاه البصر ووهبه إمكانية الحصول على احتياجاته ما هو ضروري لخلاص نفسه (يو ٩: ٣٥-٣٨)[1].

العلامة أوريجينوس

عندما ينظر الإنسان إلى مائدة الغير،
عيشته غير عاقلة أو لا تُعد طريقة حياته حياة.
إنه يفقد احترامه لذاته بطعام الغير، وأمّا الإنسان العاقل المتأدب فيتحفَّظ من ذلك [٢٩].

يليق بالمؤمن أن يأكل من مائدة أبيه أي من كلمة الله، هذه المائدة ليست غريبة عنا، لأننا صرنا أهل بيت الله (أف ٣: ١٩)، وذلك عوض التسوّل من الوثنيين الغرباء عنّا.

في فم عديم الحياء يحلو الاستجداء،
لكن في معدته نار تلتهب [٣٠].

يختم الأصحاح بتحذير من عدم الحكمة (الوقاحة) فإن الوقح يستجدي ليأخذ، لكن لا ينتفع بما يأخذه لأن جوفه يلتهب نارًا [٣٠]. هذا التحذير خاص بالذين يستسهلون الاستجداء عن ممارسة العمل، خاصة بالنسبة للشبان القادرين على العمل.

من وحي سيراخ ٤٠

يا لها من معركة مُفرِحة!

❖ في ضعفي أحنيت كتفي تحت نير الخطية الثقيل.
وبحُبِّك أطير كما بالروح نحو السماوات مُتهلِّلاً!
أنتظر اللقاء معك، يا واهب الفرح والراحة!
حَرَّرتني من العودة إلى التراب أبديًا،
ورفعتني إلى شركة الأمجاد السماوية.

❖ كقائد عجيب ومُدَرِّب إلهي دخلت بي إلى المعركة.
جذبتني إلى صلاحك، ومرَّرت الخطية في فمي.

---

[1] *Commentary on John, Fragment 64.*

أستعذب انطلاقي من الأنانية، لأُمارِس الحب بفرحٍ.
حوَّلت كل كياني إلى قيثارة تُسَبِّحك بلا فتورٍ.
صارت مخافتك فردوسًا، أَتمتَّع بالبركات والأمجاد.
لم أعد استعطي طعام العالم، لأني جالس على مائدتك!
ماذا أَرُد لك يا رب من أجل كثرة مراحمك وحُبِّك؟!

الأصحاح الحادي والأربعون

متناقضات!

يتناول هذا الأصحاح الحديث عن الأمور الآتية:

١. نظرة البشر للموت [١-٤].
٢. مصير الأشرار [٥-١١].
٣. حول الحياة السعيدة [١٢-١٤].
٤. أمور يلزم الخجل منها [١٥-٢٧].

١. نظرة البشر للموت

يُقَدِّم لنا ابن سيراخ صورة واقعية لنظرة البشر للموت، قبل انفتاح فكرنا على الحياة المُقامة التي صارت لنا بقيامة السيد المسيح. فبالنسبة للإنسانِ الذي يتمتَّع بصحةٍ جيدةٍ صاحب سلطان وميسورٍ ويعيش في أمانٍ، يتطلَّع إلى الموت أنه قاسي ومُرّ المذاق، بينما يتطلع إليه الشيخ الذي يعاني من الأمراض والهزال والعوز أنه إنقاذ له.

أيها الموت، ما أشدَّ مرارة ذكرك بالنسبة للإنسان الذي يعيش في سلام بممتلكاته،
لإنسان غير مُشتَّت وناجح في كل شيء، ولا يزال قويًا إلى حدٍّ يكفي للتمتُّع بطعامه! [١]

عندما يُرَكِّز الإنسان على ما يحلّ به، يتطلَّع إلى الحياة بنظرة مُرَّة. أما إذ رفع قلبه إلى الله، فيرى في الحياة عطية إلهية، ويدرك خطة الله خلف ما يحل به من متاعب، فتتهلل نفسه بروح الرجاء.

❖ الموت أمر مرعب للغاية، لكن ليس لأولئك الذين تعلَّموا الحكمة الحقيقية التي من فوق. فإن من لا يعرف شيئًا عن الأمور العتيدة، بل يحسب الموت انحلالاً ونهاية للحياة، بحق يرتعب ويخاف كمن يعبر إلى لا وجود. أما الذي يتعلَّم بنعمة الله الأمور الخفية السرية لحكمة (الله)، ويحسب الأمر رحيلاً إلى موضع آخر، لا يجد سببًا للرعدة، بل بالأحرى يفرح ويبتهج، إذ بتركنا الحياة الفانية نذهب إلى حياة أفضل وأبهى وبلا نهاية. هذا ما يُعَلِّمنا إياه المسيح بتصرفاته حيث يذهب إلى آلامه، لا بتغصبٍ ولا عن ضرورةٍ، بل بإرادته، لذلك قيل: "قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه إلى عبر وادي قدرون، حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه"[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *Homilies on St. John, 83:1.*

أيها الموت، قضاؤك حسن بالنسبة لإنسان معوز، عاجز في القوة،

في شيخوخته المتقدِّمة (الهرم) يتشتت بكل شيء، ويصير عنيدًا وينقصه الصبر [٢].

ينظر البعض إلى الموت باعتباره هروبًا من متاعبهم المالية والصحية والنفسية وأيضًا الروحية. لقد صرخ داود المرتل: "يا رب أي شيء هو الإنسان حتى تعرفه، أو ابن الإنسان حتى تفكر فيه. الإنسان أشبه بنفخة، أيامه مثل ظل عابر" (مز ١٤٤: ٣-٤). مرة أخرى يقول: "فمن هو الإنسان حتى تذكره، وابن آدم حتى تفتقده" (مز ٨: ٤).

❖ الموت راحة، خلاص من الأتعاب المُفزِعة ومن اهتمامات العالم[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

لا تخشَ قضاء الموت،

واذكر الذين كانوا من قبلك والذين بعدك [٣].

إذا ما تطلَّع الإنسان إلى الذين سبقوه، لا يجد إنسانًا على الأرض فلت من الموت، وإن تطلَّع إلى الذين يأتون بعده، يجد الكل يعلمون تمامًا أنهم لا يخلدون على الأرض. الإنسان الحكيم يتطلع إلى الذين سبقوه، فيرى أناس الله في الفردوس يشاركون السمائيين تسابيحهم وحياتهم الخالدة مُطوَّبة.

❖ ليثيرك موت الآخرين فيكون لك الخوف النافع وتنزع كل تراخٍ، ولتفحص أعمالك الماضية، ولتقطع خطاياك، وتبدأ بتغيير سعيد[2].

❖ تأمل إلى من ذهب الراحل وتعزَّى. لقد ذهب إلى حيث يوجد بولس وبطرس وصحبة القديسين. تأمل كيف سيقوم، بأي مجد وأي سمو. تأمل أنه بحزنك ونحيبك لا تقدر أن تُغَيِّر ما قد حدث، وفي النهاية تضرّ نفسك.

القديس يوحنا الذهبي الفم

هذا هو القضاء الذي قضاه الربّ على كل ذي جسد، فكيف تقاوم مسرَّة العليّ الصالحة؟

وفي الجحيم لا حساب على عمرك إن عشت عشر سنين أو مئة أو ألف [٤].

إن كان ذكر الموت غاية في المرارة بالنسبة للكثيرين في العصور ما قبل مجيء المسيح، فقد قال القائم من الأموات: "أنا هو القيامة والحياة؛ من آمن بي ولو مات فسيحيا" (يو ١١: ٢٥).

٢. مصير الأشرار

---

[1] *W. W. Wiersbe: Treasury of the World's Great Sermons, 1993, p. 132.*

[2] *W. W. Wiersbe: Treasury of the World's Great Sermons, 1993, p. 132.*

عند موت إنسانٍ معروف أنه شرير تسود مشاعر بعض الناس أن الأفضل نسيانهم، لأن ذكرهم أحيانًا يكون بغيضًا. لا يريد البعض مُجَرَّد التفكير فيهم، فلا يستحقّون أن يذكرهم أحد حتى في فكره ولو إلى لحظة، هذا بجانب ما يلاقونه الأشرار من عذابٍ أبدي. على العكس أصحاب السيرة الطيبة يستحقّون تَذَكُّرهم إلى أمدٍ طويل [١٢-١٣]. هذا ما يدفع الكنيسة إلى إقامة تذكارات سنوية للقديسين.

من المؤلم أن أبناء الأشرار كثيرًا ما يسلكون في طريق آبائهم، غير أن الابن الذي يسأل الرب عن طريق الحق، يهبه الرب نعمته، كما حدث مع بعض الملوك مثل حزقيا الصالح وكان والداه شريرين.

بنو الخطاة هم أبناء ممقوتون،

غالبًا ما يترددون على بيوت الأشرار [٥].

قد يتساءل البعض هل كل أبناء الأشرار يسلكون في الشرّ كآبائهم؟ وما ذنبهم؟ جاءت الأسفار التاريخية والتاريخ نفسه عبر العصور يُجِيب على هذين السؤالين، فقد أبرزت الأسفار الآتي:

أ. **ملوك أشرار** أنجبوا أبناءً صالحين، كمثال لذلك حزقيا الملك قام بتطهير أرض يهوذا من نشر العبادة الوثنية ورجاساتها على يد أبيه آحاز الشرير. ويوشيا آخر ملك صالح في يهوذا قام بنفس العمل لتطهيرها مما فعله والده أمنون.

ب. **ملوك أشرار** أنجبوا أبناءً أشرارًا، مثل آخاب وزوجته إيزابل الشريرة، أنجبا أخزيا ملك إسرائيل وكان شريرًا. كثيرًا ما قيل عن الملوك الأشرار: "وعمل الشرّ في عينيّ الرب، وسار في طريق أبيه وفي خطيَّته التي جعل بها إسرائيل يخطئ" (١ مل ١٥: ٢٦).

ج. **ملوك أبرار** أنجبوا أبرارًا، مثل آسا ملك يهوذا عمل المستقيم في عيني الربّ أنجب يهوشافاط.

د. **ملوك أبرار** أنجبوا أشرارًا، مثل داود النبي أنجب أبشالوم الذي حاول اغتصاب المُلْك وقتل أبيه.

هذه الحالات وأمثالها تؤكد المسئولية الشخصية لكل إنسانٍ، فلا يؤدِّب الربّ الابن من أجل خطايا أبيه. "النفس التي تخطيء هي تموت" (مز ١٨: ٤، ٢٠). أما قوله هنا: "بنو الخطاة هم ممقوتون" [٥] فهو مثل قول الربّ: "أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، وفي الجيل الثالث والرابع الذين يبغضونني" (تث ٥: ٩). هذا لا يعني افتقاده لهم بسبب الجرم الذي للآباء، إنما يحذر الآباء من العواقب الطبيعية، حيث يتشرب الأبناء من طفولتهم روح الشرّ من آبائهم، وغالبًا ما يتمادون بالأكثر في الشر. وكما يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** إن الإنسان السالك في الشرّ باستهتار لا يبالي بما يحلّ عليه، لكنه غالبًا ما يضطرب عندما يشعر أن ما يفعله سترتد ثمرته على أبنائه وأحفاده. وكأن الله

يدعوهم إلى التوبة والرجوع إليه إن لم يكن من أجل الخوف من الثمر المُرّ للخطية على حياتهم، فيسمعون له حفظًا على أبنائهم وأحفادهم.

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن الله يُهَدِّد الشرير سواء بالنسبة له أو لأولاده لا لينفذ العقوبة، إنما لكي يرجع عن شرّهِ بسبب الخوف، كما حدث مع أهل نينوى، فقال إن المدينة تهلك بسبب شرورهم، وبقوله هذا جعلهم يلجأون إلى مراحم الله بالتوبة عوض تماديهم في الشرّ.

ميراث أبناء الخطاة يهلك،

والعار يُلازِم نسلهم [٦].

البنون يلومون أباهم الشرّير،

لأن بسببه يُشجَبون [٧].

ويل لكم أيها الأشرار،

فقد نبذتم شريعة الله العليّ! [٨]

السرّ الحقيقي في هلاك الأشرار هو نبذهم للشَريعةَ لاقتناء الحكمة والتمتُّع بالبرّ.

❖ من يرفض قبول نور كلمة الله، ينبغي أن يخشى عقاب الظلمة الأبديَّة[1].

الأب قيصريوس أسقف آرل

وعندما وُلِدتم، تولدون للعنة،

ومتى متم، فاللعنة هي نصيبكم [٩].

❖ لا يعني هذا أن الله خلقهم للهلاك، إنما بإرادتهم الحُرَّة جعلوا حياتهم لعنة ومماتهم أيضًا لعنة. تُعلَن حرية الاختيار لنا خلال الكتب المقدسة لا بلغة بشرية بل إلهية. نبدأ بهذه الحقيقة وهي أنه لو لم توجد حرية اختيار ما كان الإنسان يستخدم وصايا الله، وبالتالي ينال المكافأة الموعود بها. يعطينا الوصايا حتى لا يقدر أحد أن يحتج معتذرًا بجهله، لذلك قال الرب في إنجيله عن اليهود "لو لم أكن قد جئت وكلمتهم، لم تكن لهم خطية. وأما الآن فليس لهم عذر في خطيتهم" (يو ١٥: ٢٢).

القديس أغسطينوس

كل ما هو من الأرض يعود إلى الأرض،

[1] *Sermon 76:3*

لذلك يذهب الأشرار من اللعنة إلى الهلاك [١٠].

من اختار الشر، يرتد عليه ما اختاره، اللعنة والهلاك.

ينوح الناس على أجسادهم.

لكن اسم الخطاة يُمحَى لأنه غير صالح [١١].

بينما ينوح الأشرار المُصِرّون على عنادهم على أجسادهم التي تتحلَّل بالموت، وتقوم في يوم الرب لتُجازى على ما أصرت عليه، إذا بأناس الله يفرحون بالرجاء حتى في لحظات الموت.

❖ لا تخف لأنك مُثقَّل بجسدٍ مائتٍ، ليكن لك الروح فستقوم ثانيًا لا محالة... حقًا سيقوم الكل، لكن لا يقوم الكل للحياة، إنما يقوم البعض للعقاب والآخر للحياة (يو ٢٩:٥)...

إنه لا يعاقبك إن رأى روحه يُشرِق فيك، بل يوقف العقاب... ويدخل بك إلى حجال العُرْسِ لتكون هناك مع العذارى (مت ١٢:٢٥). ليتك إذن لا تسمح لجسدك (الحياة الجسدانية) أن يعيش في هذا العالم، لكي يعيش جسدك هناك. ليمت كي لا يموت! فإن احتفظت به هنا حيًا لا يعيش، وإن مات يحيا. هذا هو حال القيامة بوجهٍ عام. إذ يجب أن يموت أولاً ويُدفَن عندئذ يصير خالدًا. ولكن هذا يحدث في جرن المعمودية، حيث يتحقَّق الصلب والدفن وعندئذ القيامة.

هذا أيضًا ما حدث في جسد الرب، إذ صُلِب ودُفِن وقام. ليحدث هذا أيضًا بالنسبة لنا. فتكون لنا الإماتة المستمدة عن أعمال الجسد، لا أقصد موت جوهر الإنسان، فإن هذا بعيد عن قصدي، إنما موت ميوله نحو الأمور الشريرة، فإن هذا هو الحياة أيضًا، بل ما هو هذا إلا الحياة[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

٣. حول الحياة السعيدة

اهتمّ باسمك، فإنه يدوم معك أكثر من ألف خزانة عظيمة من الذهب [١٢].

الحياة الصالحة أيام معدودة،

أما الاسم الصالح فيدوم إلى الأبد [١٣].

يليق بنا أن نبارك الله ونشكره، إذ خلقنا على صورته ومثاله. إننا نعتزّ باسمنا كبشرٍ، فإننا سقطنا لكنه لم يتركنا، بل نزل إلينا ووهبنا الاتحاد معه كأعضاءٍ في جسده.

---

[1] *In Rom. Hom., 13.*

❖ إننا نصير جديرين بأن نُدعَى بشرًا، متى اتصفنا بالعقل، فإذا لم يتوفَّر العقل فإننا لا نختلف عن الحيوانات العُجم إلا بشكل الأطراف وموهبة الكلام. إذًا، ليعرف الإنسان العاقل أنه خالد، كارهًا الشهوات المخجلة التي هي عِلّة موت البشر[١].

القديس أنطونيوس الكبير

يا أبنائي، لاحظوا التعليم، وعيشوا في سلام.

أما الحكمة المكتومة والكنز غير المنظور، فأية منفعة فيهما؟ [١٤]

المؤمن – بالروح القدس – هو صوت المسيح الصارخ تجاه البشر بكل وسيلة ممكنة أن يعدوا طريق الرب ويصنعوا سبله المستقيمة. هذا الصوت هو صوت الحب الباذل.

❖ سأل أخ **الأب بيمين:** "إن رأيت أخًا سمعت عنه أمرًا رديًا، فهل من الواجب ألاَّ أدخله قلايتي؟ وإن رأيت أخًا صالحًا، فهل أفرح به؟" فأجابه الأب بيمين: "إن صنعت مع الأخ الصالح خيرًا، فاصنع ضعفه مع ذاك، لأنه مريض".

القديس بلاديوس

٤. أمور يلزم الخجل منها

الإنسان الذي يكتم حماقته،

خير من الإنسان الذي يكتم حكمته [١٥].

بدأ سيراخ بالتناقض الساخر بين الحكيم والأحمق. عادة نتوقع من الحكيم ما هو نافع ومفيد ومن الأحمق ما هو ساخر، لكن الحالة التي بين أيدينا فريدة، فالأحمق الذي يكتم حماقته أفضل من الحكيم الذي يكتم حكمته. الأول بكتمانه حماقته أدرك خطأه، ولم يعرِّض من حوله لحماقته. والثاني إذ وهبه الربّ حكمة كتمها، فلم ينفع بها نفسه ولا إخوته [١٥]. لقد أظهر الأحمق حكمته بكتم حماقته، ولم يظهر الحكيم محبة بالكشف عن حكمته. ما كان يليق بالحكيم أن يخجل مما وهبه الربّ من حكمة.

يُقَدِّم لنا سيراخ قائمة بالأمور التي يليق بالإنسان أن يخجل منها. غاية هذه القائمة ألاَّ يتهاون المجتمع في مبادئه وتقييمه للأمور، فلا نخجل من أخطاء أو شرور يلزم ألاَّ يقبلها المجتمع أو الأسرة المقدسة أو إنسان الله. تبلغ هذه الأمور المخجلة حوالي ٢٠ بندًا، وهي:

أولاً: سبعة بنود خاصة بالإخلال بالكلام أو العمل:

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة، ١٤.

أ. عدم التمييز في نوع الخجل [١٦].
ب. الحديث عن الزنا أمام الوالدين [١٧].
ج. الكذب في حضرة الرئيس أو القائد [١٧].
د. انتهاك القانون في حضور القاضي [١٨].
هـ. ارتكاب الإثم أمام مجمع الشعب [١٨].
و. ممارسة الظلم أمام صديقك أو شريك حياتك [١٩].
ز. السرقة أمام مواطن في بلدك [١٩].

ثانياً: أربعة بنود خاصة بالتهور وعدم اللياقة:

أ. التهاون في حق الله وميثاقه [٢٠].
ب. كسر آداب المائدة [٢٠].
ج. إظهار اشمئزاز سواء في الأخذ أو العطاء [٢١].
د. الصمت أمام الذين يُسَلِّمون عليك [٢١].

ثالثًا: أربعة بنود خاصة بأمور جنسية معيبة:

أ. النظرة الشريرة لامرأة شريرة [٢٢].
ب. عدم المبالاة لتضرع أحد الأقرباء [٢٢].
ج. سلب نصيب أحد أو هديته [٢٣].
د. التفرس في امرأة متزوجة [٢٣].

رابعًا: أربعة بنود خاصة باختلال الصداقة:

أ. من يداعب جاريته [٢٤].
ب. الخجل من كلام إهانة موجه إليك في حضور الأصدقاء [٢٥].
ج. إهانة شخص بعد تقديم هدية له [٢٦].
د. نقل الكلام وإفشاء الأسرار [٢٦].

اخجلوا إذًا من أساس كلامي، فإنه ليس حسنًا حماية كل نوعٍ من الخجل، ليس كل شيء عند الجميع عالي المقدار بثقة [١٦].

المعاصي التي يلزم دومًا الخجل منها هي الزنا والسرقة وعدم الأمانة والإثم وعدم تكريم الغير والثرثرة وعدم التعامل بالأخذ والعطاء والصمت أمام الذين يُسَلِّمون على الشخص، والتفرُّس في امرأة زانية، وتجاهل تضرع الأقارب، ومراودة جارية (مربية)، وإهانة صديق، وإهانة من يقدم له عطاء، أو

نقل الكلام وإفشاء السرّ [١٦-٢٧].

يشعر الإنسان بالخجل عند مواجهة أمور لا يَقْبَلها المجتمع، وذلك خلال تقليد موروث أو أمور تمسّ الحياة الأخلاقية. يليق بالشاب أن يعرف كيف يقيّم هذا الخجل.

اخجل أمام أبيك وأمك من الزنا،

وأمام رئيسك أو القائد من الكذب [١٧].

غالبًا ما يريد الوالدان أن يكون أولادهما طاهرين، فلا يحتملوا أن يسمعوا عنهم أنهم يمارسون الزنا، بل لا يستريحون للسماع عن الزنا من أولادهما.

وأمام القاضي من انتهاك القانون،

وأمام مجمع الشعب من الإثم [١٨].

يشير هنا إلى مجالس القضاء التي كانت تُنصَب عند أبواب المدينة، يناقشها القاضي وشيوخ المدينة معًا ويستجوبون المتهم، كما يسمعون للشهود حتى يُصدروا الحكم. منذ نشأة المجامع اليهودية أثناء السبي البابلي وحتى منتصف القرن العشرين، إذا أخطأ أحد اليهود علانية، يستدعيه المجتمع اليهودي أمام المجلس ليعلن توبته علانية. وفي الكنيسة الأولى كان الاعتراف يُمارَس علانية عما يمارسه التائب خاصة عن الخطايا العلنية.

وأمام شريكك أو صديقك من الظلم،

وأمام مكان سكناك من السرقة [١٩].

إذا مارس إنسان الظلم قدام شريك الحياة (زوج أو زوجة) أو أمام صديق، يفقد شريك الحياة أو الصديق الثقة فيمن فعل هذا، مما يُسَبِّب متاعب في حياة الأسرة أو مع الأصدقاء.

أيضًا من يسرق في المدينة التي يسكن فيها، يبتعد أهل المدينة عنه خشية أن يسرقهم، فيشعر أنه وحيد ومنبوذ من المجتمع، وليس له مكان في مدينته.

اخجل أمام حقّ الله وميثاقه،

ومن السلوك الشرير على المائدة [٢٠].

يربط ابن سيراخ بين من يرتكب أمرًا مُخجِلاً في بيت الربّ، حيث يكسر ميثاقه مع الله، ومن يكسر قوانين المائدة المُتعارَف عليها. ففي بيت الربّ يلتزم بالميثاق مع الله لكي يتمم الربّ وعوده له، وعلى المائدة اعتادت الشعوب خاصة قديمًا اعتبار الأكل المشترك معًا نوعًا من العهد بينهما ولا يجوز لأحد أن يخون العهد أو يكذب أو يُدَبِّر مؤامرة ضد من أكل معه. لا زال هذا المفهوم سائدًا في

قرى مصر، فيقول الشخص لزميله: نحن أكلنا خبزًا وملحًا معًا، علامة الالتزام بالسلوك بمحبة صادقة وإخلاص.

ومن الاشمئزاز في الأخذ والعطاء،

ومن الصمت أمام الذين يُسَلِّمون عليك [٢١].

في تقديم مساعدة أو هدية لشخصٍ أو قبول المساعدة أو الهدية، يليق في كلا الحالتين في العطاء كما في الأخذ أن يمزج التصرُّف باللطف. لأن العطاء بغير محبة يهين مستلم المساعدة أو الهدية.

عندما يُسَلِّم أحد على شخصٍ ما، يليق بهذا الشخص ألاَّ يسلك كمن هو ممتعض من هذه التحية التي هي علامة السلام والمصالحة (مت ٥: ٤٧).

ومن التطلع إلى امرأة داعرة،

ومن رفض تضرُّع أحد الأقارب [٢٢]

بروح التمييز يسلك الإنسان فحينما يُسلِّم على أحدٍ أو يُسَلِّم أحد عليه، يجب أن تحمل عيناه الاهتمام الشخصي مع السلام أو التحية. وحينما يوجد في حضور امرأة مع زانية، لا يليق به أن يتفرَّس فيها أو يُرَكِّز نظره عليها.

ومن سلب نصيب أحد أو هديته،

ومن التفرُّس في امرأة رجل آخر [٢٣].

ومن التطفُّل على جاريته، وإلى سريرها لا تقترب [٢٤].

كان الأغنياء يحتفظون بالعبيد والجواري في بيوتهم لخدمتهم، وذلك في ظل نظام العبيد. ومع وجود الفارق الشاسع الاجتماعي يلزم الحذر، كما فعل يوسف بن يعقوب التي أحبته سيدته امرأة فوطيفار رئيس الشرطة، فهرب منها.

ولتخجل من كلام الإهانة أمام الأصدقاء،

بعد العطاء لا تهن الشخص [٢٥]

متى طلب أحد الأقارب شيئًا يجب ألاَّ يتجاهله بقدر المستطاع. من يُقَدِّم الصدقة لمحتاجٍ، ولم يُراعِ مشاعر المحتاج، يُفسِد هذا العطاء الذي بلا حب!

ومن نقل الكلام المسموع،

وإفشاء الأسرار [٢٦].

سبق أن تحدَّث ابن سيراخ عن إفشاء السرّ، فإنه يكاد يستحيل على الشخص أن يسترد الثقة فيمن أفشى سرّه.

حينئذ تشعر بالتواضع الحقيقي،

وتنال نعمة عند كلّ إنسانٍ [٢٧].

أحيانًا حين يشعر إنسان أنه مغبون، يستطيب سلب من غبنه، ويحسب هذا نوعًا من رد الفعل.

لا يجوز للإنسان أن يسلب أحدًا خفية حتى وإن كان مظلومًا، وإنما بأدبٍ وحكمة يُطالِب بحقه.

للأسف نسمع أحيانًا أن شخصًا يهمل في عمله بدعوى أنه يعمل قدر المبلغ المدفوع له. عنصر الأمانة حيوي، لا يجوز التهاون فيه تحت أي دعوى.

هذا ولا يجوز للمؤمن أن يتفرَّس في امرأة متزوجة، لأنه يشتهي امرأة أخيه.

يربط هنا بين سلب من غبنه، بالتفرُّس في امرأة أخيه، لأن كلا العملين سرقة خفية. الأول يسرق من غبنه، والثاني يسرق من أخيه امرأته خلال نظراته.

يختم ابن سيراخ نصائحه العشرين الخاصة بالأمور التي يجب الخجل منها بتقديم العلاج، وهو أن يتحلَّى المؤمن بالتواضع الحقيقي، فتعمل نعمة الله فيه وتحفظه من هذه الأمور المُخجِلة!

من وحي سيراخ ٤١

احفظني مما لا يليق، فأطلب سرعة اللقاء معك

❖ حضورك الإلهي يُحَوِّل مرارة الموت إلى عذوبة بعبوري الحياة في رفقتك!
لست أشتهي الموت للخلاص من متاعب الحياة!
وإنما لأعبر إليك وأعيش في أحضانك.
مهما بلغ عمري، فإنه أشبه بلحظة واحدة تعبر وأنا متهلل بك!

❖ انزع عني جذور الشرّ، فلا تلحق بي اللعنة.
شريعتك تهبني الحكمة، فأطلب نعمتك سندًا لي.
لا أستنكف حتى من جسدي، فسيقوم يشارك نفسي مجدها.
ما يشغلني مجد اسمك القدوس فهو كنزي العظيم!
أرتبط باسمك، فأَتمتَّع بسلامي الداخلي.

❖ هب لي روح القوة مع التمييز، فلا أُمارِس شيئًا مما يجب أن أخجل منه.

أكرم والديَّ، وأعطي الكرامة لمن له الكرامة.
لا أنتهك حتى قوانين العالم، ولا أسلب حق إنسانٍ.
ألتزم بميثاقك فأَتمتَّع بالمائدة السماوية.
لتُقَدِّس حواسي وعواطفي وتحرُّكات كل عضوٍ في جسمي.
أحرص على الاهتمام الشخصي بكل أحدٍ ما استطعت،
ولا أَتغرَّس فيما لا يليق بي أن أَتطلَّع إليه.
ليكن قلبي خزانة أمينة لا تفشي بسرّ أحد تحت أي ظرف.
هب لي نعمتك، فأَتمتَّع بالتواضع،
ترفعني فوق كل العثرات لأُحَلِّق في سماواتك!

الأصحاح الثاني والأربعون

أمور يجب عدم الخجل منها

ختم الأصحاح السابق بسرد عشرة أمور يلزم الخجل منها. والآن يكمل هذا العمل بإبراز الأمور التي يجب ألاَّ يخجل منها المؤمن، حتى وإن كان المجتمع يتوقَّع عكس ذلك.

١. أمور يجب عدم الخجل منها [١-٨].

٢. التزامات الأب نحو بيته [٩-١١].

٣. مؤانسة النساء [١٢-١٤].

٤. خلقة العالم تُمَجِّد الله [١٥-٢٥].

١. أمور يجب عدم الخجل منها

لا تخجل من الأمور التالية:

ولا تجعل محاباة الوجوه تقودك إلى خطية [١].

توجد خمسة أمور يجب مناصرتها وعدم الخجل منها، وهي:

١. التمسُّك **بشريعة العلي وميثاقه** [٢]، ومناصرة المظلوم حتى إن كان وثنيًا (سي ٤: ٩).

٢. **المناصفة في نفقات السفر** ونوال ما يخصه في الميراث [٣].

٣. **التجارة بأمانة** في غير جشعٍ [٤].

٤. **السلوك بلياقة** في العمل كما مع أهل البيت والعمال (العبيد) [٥].

٥. **السلوك بتدقيقٍ** [٦- ٨].

من شريعة العليّ وميثاقه،

ومن العدالة خشية أن تُبَرِّئ الشرّير [٢].

لا نعجب أن يفتتح ابن سيراخ الأمور التي يلزم المؤمن ألا يخجل منها والتي تُحَقِق العدالة في غير محاباة الوجوه ألاَّ وهي **شريعة العلي وميثاقه** [٢]. كان بعض اليهود الذين انجذبوا إلى الفلسفة الهيلينية يُحرَجون من الإعلان عن إيمانهم بالله وينكرون الختان (١ مك ١: ١٥). صاروا في خجلٍ غير لائق، إذ خشوا أصحاب الثقافة الهيلينية الوثنية التي سادت بعض المجتمعات في ذلك الوقت يستخفّون بالشريعة اليهودية والميثاق مع الله.

اكتشف بعض الآباء والأمهات ما يُسَمَّى "الهوة بين الأجيال" بدرجة لم يسبق لها مثيل عند

اليهود. فالأبناء الشباب كانوا يخجلون من الناموس والميثاق. هذا الأمر أَدَّى إلى كارثة حقيقية عند اليهود في اليهودية. الأمر الذي دفع المكابيين أن يثوروا على هذا الوضع كما جاء في أسفار المكابيين و"العصور القديمة "*Antiquities*" لفلافيوس يوسيفوس المؤرخ اليهودي.

قَدَّم السيد المسيح تحذيرًا ضد مثل هذا الإحراج، إذ قال: "لأن من استحى بي وبكلامي في هذا الجيل الفاسق الخاطئ، فإن ابن الإنسان يستحي به متى جاء بمجد أبيه مع الملائكة القديسين" (مر ٨: ٣٨). وجاءت العبارتان [١، ٢] تتناغمان مع تعليم بولس الرسول: "لأني لست أستحي بإنجيل المسيح، لأنه قوة الله للخلاص، لكل من يؤمن: لليهودي أولاً ثم لليوناني" (رو ١: ١٦). حدث ما يشبه هذا عندما كرز الرسول بولس بين الأمم، وحدث خلاف بين المؤمنين الذين من أصل يهودي والذين من أصل أممي. فبكل قوة قال الرسول: "**لست أستحي بإنجيل المسيح**" (رو ١: ١٦).

ومن المساهمة في نفقات العمل أو رفقاء في سفر،

ومن اقتسام الميراث بين الأصدقاء [٣].

بعد أن وجَّه ابن سيراخ المؤمنين نحو شريعة العليّ ودخول المؤمنين في ميثاق مع الله، عالج بعض الأمور العملية التي سادت في ذلك. فإن كانت الشريعة تحثّ المؤمنين على العطاء أكثر من الأخذ، فما هو موقف المؤمن إن قام بعملٍ فيه منفعة له ولبعض إخوته، هل يخجل من مطالبتهم بالمساهمة في تكلفة العمل المربح وفي نفقات السفر التي كانت ضرورية للبلوغ إلى مكسب ينتفع به كثيرون؟ أَكَّد ابن سيراخ أنه لا حاجة للخجل من مساهمة المنتفعين بالعمل في نفقاته. أما بالنسبة للميراث الشرعي، فلا يخجل المؤمن من أخذ نصيبه في الميراث، إذ يحصل كل شخصٍ على حقه، أما إذا أراد شخص ما التنازُل عن حقه أو عن نصيبٍ منه لأصدقائه، فهذا يُحسَب درجة أسمى.

ومن الدقة في الميزان والمعيار،

ومن المكسب كثيرًا كان أو قليلاً [٤].

بالنسبة لعمل قامت به جماعة، وأنتج ربحًا أو مكسبًا، كبيرًا كان أو صغيرًا، فلا يخجل أحد من أخذ نصيبه من الربح، بشرط ألاَّ يكون هذا المكسب ناتج عن تلاعُب في الميزان أو المعيار أو المواصفات.

ومن الربح في التعامل مع التجار، ومن المبالغة في تأديب الأولاد،

ومن ضرب ضلوع العبد الشرير حتى تنزف [٥].

ليس من عيبٍ أن يُمارِس الإنسان التجارة ويربح، ولا من تأديب الأولاد ليسلكوا في البيت بتدبير

ونظامٍ لائق. حقًا يبدو أن الحديث هنا عن تأديب العبد الشرير قاسيًا، غير أن من الأمور الهامة في المجتمعات القديمة إذا ما تُرِك العبيد الأشرار بلا تأديبٍ، يرتكبون جرائم بشعة ويهربون.

الإغلاق على الثروة جيد حيث تكون الزوجة غير أهل للثقة،

وحيث تكون الأيدي كثيرة [٦].

ماذا يعني بالإغلاق هنا لمنع الزوجة الشريرة من الخروج؟ ربما يعني أن المرأة الشريرة هنا هي التي تمارس خيانة زوجية خاطئة أو تبدد ممتلكاته بجهالةٍ. يبدو من العبارة التالية [٧] أن الزوجة غير أمينة في ممتلكاته؛ فالإغلاق عليها هنا يُقصَد به مراقبتها حتى لا تُبَدِّد ممتلكاتهما.

وإذا أودعت شيئًا (من المال) فأودعه بالعدد والوزن،

وسَجِّل كتابةً أيّ شيء تأخذه أو تعطيه [٧].

إذا دخل الشك لدى الرجل أن زوجته تُبَدِّد أمواله أو محصولاته أو مقتنياته، فالأفضل تسجيل كل شيءٍ حتى لا يسمح للشك أن يسيطر عليه.

ولا تخجل من تعليم الجاهل والأحمق أو الشيخ المتقدِّم في السنّ الذي يدين الصغير[١].

حينئذ تكون في الحقيقة مُتعلِّمًا، ومقبولاً أمام كل بشرٍ [٨].

يبدو أن العبارة هنا مُوَجَّهة للقادة في المجامع اليهودية المُلتزِمين بالتعليم والتوجيه حتى بالنسبة للشيوخ الذين يُسِيئون التعامل مع الصغار، يجب توجيههم حتى يحدُّوا من الفراغ بين الجيل القديم والجيل الحديث. هذا ومن جانب آخر يليق بنا أن ندرك أنه لا يوجد إنسان معصوم من الخطأ حتى وإن كان شيخًا أو نبيًا. فقد أرسل الله لداود الملك ناثان النبي كي يحثّه على التوبة (٢ صم ١٢).

ليس عند الله محاباة، فإن كان قد أقام داود نبيًا وملكًا وقاضيًا، وله تاريخ مجيد في حياة مقدسة، لكنه متى أخطأ استوجب التأديب. يقول **القديس إيرينيؤس:** [الله غير مُحَابٍ للوجوه، لذا يوقع عقوبة مناسبة على التصرُّفات التي لا تسرّه. وذلك كما في حالة داود الذي عانى الاضطهاد من شاول (١ صم ١٨) من أجل البرّ، وهرب من الملك شاول ولم يرد أن ينتقم من عدوه، وأنشد بمجيء المسيح، وعَلَّم الأمم الحكمة، وفعل كل شيءٍ بإرشاد الروح، وسُرّ به الله. لكنه عندما دفعته شهوته ليأخذ بثشبع زوجة أوريا يقول الكتاب: "وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب". وأرسل إليه ناثان النبي يشير له إلى جريمته حتى يحكم على نفسه ويدين ذاته، فينال رحمة ومغفرة من المسيح[٢].]

---

[١] بحسب *NRSV*.

[2] *Iren. Ad Haer. 4: 27: 1.*

٢. التزامات الأب نحو بيته

ليس من التزامات للأب مثل اهتمامه بتربية بنيه وبناته. كان المجتمع في ذلك الحين يشغله تزويج البنات. وكانت مسئولية البيت إعداد الفتاة للحياة الزوجية الطاهرة الناجحة.

كان أمام ابن سيراخ أول سيدة في العالم، حواء، جلبت العار على بيتها. لذلك قَدَّم لنا بعض اهتمامات الأب الصالح نحو ابنته، بحبٍ وحكمةٍ وحزمٍ أبويٍ.

الابنة قلق سرّي لأبيها[١]، وقلقه عليها يسلبه النوم.

لئلا يفوتها وقت الزواج في شبابها، ولئلا تكون مكروهة في زواجها [٩]

❖ عدو القداسة دائمًا يضغط على العذارى، ويجعلهن في متاعب، ليعدَّهن فريسة متى ترنحت إحداهن وسقطت. يوجد أناس غادرون كثيرون، بجانب هذا لهم طبيعة متمردة.

يجب على (البتول) أن تستعد لمعركة مزدوجة: أولاً تُهاجَم من الخارج والثانية تفسد الداخل[٢].

القديس يوحنا الذهبي الفم

وفي بتوليتها لئلا تتدنس أو تحبل وهي في بيت أبيها،

ومن عدم الأمانة إذا كان لها زوج، ومن العقم إذا كانت متزوجة [١٠].

كانت الفتيات يُمَثِّلن ثقلاً على الأب، إذ يشغله ثلاثة أمور: زواجها في السن المناسب، طهارتها وحفظها لئلا يعتدي أحد عليها أو يقوم بإغرائها، وإنجاب أطفال.

واظب على المتابعة الدقيقة للابنة العنيدة، لئلا تجعلك أضحوكة لأعدائك،

ومصدر إشاعة في المدينة، وسيء السمعة لدى الشعب، وخزي أمام الجمع العظيم [١١].

الحديث هنا [٩-١١] يكشف عن قلق الآباء من جهة مسئولياتهم نحو بناتهم. فإن كانت شابة صغيرة في بيت أبيها، يخشى أن يفوتها سن الزواج فتصير عانسًا. كما يخشى أن يغتصبها أحد فتصير عارًا عليه. وإن تزوجت، يخشى أن تكون غير أمينة لرجلها. وإن كانت أمينة يخشى أن تكون عاقرًا.

بتجسد كلمة الله من البتول القديسة مريم، زالت كل هذه المخاوف، إذ "ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعًا واحد في المسيح يسوع" (غل ٣: ٢٨). وقد فاقت القديسة مريم ليس فقط كل الرجال بل وفاقت الطغمات السمائية.

---

[١] بحسب *NRSV*.

[2] *On Priesthood 3: 37.*

٣. مؤانسة النساء

لا تتفرَّس في جمال أي شخص،

ولا تجلس بين النساء [١٢].

لم يقل: "لا تنظر في جمال أي شخص"، بل قال "**لا تتفرَّس**". فإنسان الله مقدس في نظراته، أما إن تهاون وتفرَّس في النظر، تتخلَّى نعمة الله عنه.

فإنه من الثياب يخرج العث،

ومن المرأة خُبث امرأة [١٣].

تفسد الثياب التي لا تستعمل لمدة طويلة، حيث يفقس بيض العث المختفي فيها، وهكذا تفسد حياة البشر من الشرور الخفية في النفس مثل الخبث والخداع.

خبث الرجل خير من امرأة تعمل ما هو صالح وهي تجلب الخزي والفضيحة [١٤].

في كثير من المجتمعات القديمة يوجد تضاد خفي يصعب إدراكه، فعادة الرجل المنهمك في أعماله لا يُمارِس خبثه خفية وبخداعٍ، إنما كلماته تكشف عمّا في داخله، أما المرأة الخبيثة أحيانًا لا يدرك الإنسان ما في نيّتها الداخلية. هذا التضاد لا ينطبق على كل رجلٍ أو امرأة.

جاءت بعض المخطوطات "**الابنة الوقورة خير من الابن القليل الحياء** [١]".

٤. خلقة العالم تُمَجِّد الله [٢]

في القسمين الثاني والثالث من هذا الأصحاح يرثي ابن سيراخ لحال الأب الذي تجلب عليه ابنته الخزي والعار أمام الجميع بعنادها لرجلها أو عدم طهارتها [٩-١١]. والشاب الذي يحلو له مجالسة النساء بروح الاستهتار والميوعة [١٢- ١٤]، فيصير كالثوب الذي تهرأ بواسطة العث، وألعوبة في يد امرأة خبيثة تُحَرِّكه نحو الخزي والعار وهو لا يبالي! الآن في هذا القسم [١٥- ٢٥] يرى الخليقة غير العاقلة تتحرَّك خلال قوانين الطبيعة، وتشهد بحركاتها وأعمالها لمجد الله وحكمته ورعايته وقدرته.

الخليقة الجامدة التي لم يوهب لها العقل بذكائه وقدراته ولا الإرادة لتحركها، تعمل في تناسق وانسجام فائق. يقول الرسول: "لأن أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مُدرَكة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته حتى أنهم بلا عذر" (رو ١: ٢٠).

الخليقة بما تحويه من بلايين المخلوقات الضخمة والصغيرة، المنظورة وغير المنظورة لم يوجدها

---

[1] *cf. Jeremy Carley: Sirach, Liturgical Press, 2013, p. 118.*

[٢] لدراسة أيام الخليقة الستة *Hexamaeron* راجع للكاتب: القديس باسيليوس الكبير، ج ٣، ب ٦.

مبعثرة، إنما ذات نظام دقيق بديع لا زال العالم حتى هذه اللحظة يبحث في أسرار قوانينها الدقيقة. يقول سيراخ: "العليّ يعرف كل علم، ويتطلع على علامات الأزمنة [١٨].

كانت العبارات الواردة هنا في ذهن بولس الرسول: "يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه! ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء! لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيرًا؟ أو من سبق فأعطاه فيكافأ؟ لأن منه وبه وله كل الأشياء، له المجد إلى الأبد آمين" (رو ١١: ٣٣-٣٦).

يرى ابن سيراخ الخليقة مركبة حكمة الله، تُقَدِّمها لكل طالب للحكمة.

❖ كل أعماله بالأمانة"؛ ماذا يعني هذا؟ إن السماوات وأنظمتها تجدها "مُرشِدًا إلى الإيمان"، فإنها تشهد لصانعها. وإن رأيتم نسق الأرض، فإنها تزيد إيمانكم بالله. مع هذا فإنه ليس من خلالنا نحن بعيوننا الجسدية نؤمن به، وإنما بقوة العقل ندرك غير المنظور خلال دلائل المنظورات[1].

القديس باسيليوس الكبير

والآن أذكر أعمال الربّ وأُخبر بكل أعماله التي أراها،
بكلمة من الربّ خُلقت أعماله وكلها تخضع لمشيئته [١٥].

إذ يتحدَّث ابن سيراخ عن أعمال الله في الطبيعة، يذكر قول الله أو كلمته، إذ جاء في سفر التكوين: "وقال الله ليكن... فكان..." (تك ١: ٣).

يُظهِرُ **القديس باسيليوس الكبير** أن الخلقة عمل الثالوث القدوس، فحين صدر الأمر الإلهي "**ليكن...**" لا يعني صدور موجات صوتية في الهواء، بل **صدور إرادة إلهنا، بعقلٍ إلهيٍ**؛ فالخلقة تَمَّت بكلمة الله "الابن". وإذ قيل إن الروح كان يرف، لا يعني قيامه بحركة في الهواء. إنما قام "بدور فَعَّال في الخلقة". إنه يُشْبِه طائرًا يحتضن بيضة بجسمه، وبحرارة جسمه يُقَدِّم قوة حيوية تجلب الحياة.

❖ خلق الله بكلمته حيوانات من أنواع مختلفة لفائدتنا، نستخدم بعضها كطعام والبعض في خدمتنا.

أما الإنسان، فخلقه الله ليكون شاهدًا لأعمال الله وشاكرًا إيّاه عليها.

هذا ما يجب على البشر أن يُجاهِدوا لأجله، حتى لا يموتوا كالحيوانات العجماوات دون أن يروا أو يدركوا الله وأعماله. كما يجب على الإنسان أن يعرف أن الله قادر على كل شيء، وإنه لا يستطيع أحد أن يقاوم الله القدير.

وكما أن الله أوجد كل شيء بكلمته من العدم إلى الوجود حسب إرادته، هكذا (الآن) يصنع كل

---

[1] *On Ps. 32. No. 3.*

شيء لأجل خلاص البشرية[1].

القديس أنطونيوس الكبير

تعطي الشمس ضوءًا وتنظر كل شيءٍ،
وعملها مملوء من مجد الرب [١٦].

إذ يسير بنا **القدّيس باسيليوس الكبير** في رحلة مُمْتِعة مع الخالق، يُقَدِّم لنا لمسات روحية رائعة. نتلامس مع إبداع الخالق، لا لكي يُشبِع احتياجات محبوبه الإنسان فحسب، إنما لكي يعمل فيه، فيُقِيم له عالمًا جميلاً مُفرِحًا، ومدرسة تُهَذِّب سلوكه. نذكر على سبيل المثال الآتي[2]:

أ. كما تُعطِي الشمس نورًا، هكذا بَدَّدَ القديسون في العصور القديمة ظلمة الجهالة[3].

ب. كما أن القمر ينمو فيصير بدرًا، ويضمحل، هكذا ينجح المصير البشري في الفضيلة ويفشل بالتتابع[4].

ج. تكتشف بعض الحيوانات بالغريزة الفصول المُقبِلة وتستعد لها، هكذا يليق بالمسيحيين أن يترقَّبوا الأبدية ويتعجَّلوها[5].

د. تسير الحيوانات مَحْنِية الظهر، تتطلَّع إلى الأرض وإلى بطنها، أما الإنسان فخُلِقَ رأسه إلى فوق ليهتم بالسماويات لا الأرضيات[6].

لم يُمَكِّن الربّ قديسيه أن يَصِفوا كلّ عجائبه،
التي صنعها الربّ القدير، لكي يُثَبِّت المسكونة في مجده [١٧].

لا يستطيع أحد من الطغمات السمائية أن يُعلِن عن عجائب الله التي تشهد لمجده.

إنه يفحص العمق وقلب الإنسان ويُدرِك أسرارها،
لأن العليّ يملك كل علم، ويتطلَّع على علامات الدهر [١٨].

يربط بين سبر الغمر *a bottomless* والقلب، فكما لا يستطيع أحد أن يبلغ إلى أعماق الغمر الذي لا يُقَاس، هكذا يحتوي قلب الإنسان في داخله عالمًا لا يمكن أن يعرف أحد أسراره غير العليّ.

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٤٧.

[2] *Cf. Philip Rousseau: Basil of Caesarea, University of California, 1994, p. 324.*

[3] *Hexamaeron, homily 1:1.*

[4] *Hexamaeron, homily 6:2.*

[5] *Hexamaeron, homily 6:10 f.*

[6] *Hexamaeron, homily 9:3.*

يبدأ القديس باسيليوس عظاته عن "أيام الخليقة الستة" بعمل الله الخالق من أجل الإنسان محبوبه، وفي ختام عظاته (خاصة عظة ٩: ٦؛ وعظة ١١: ١٤) يؤكد ضرورة الانطلاق في **رحلة إلى أعماق النفس، ليكتشف المؤمن العالم المُصَغَّر الأروع بكثير من العالم الخارجي.** يؤكد القدِّيس أن التعرُّف على السماء غير المنظورة أسهل من تعرُّف الإنسان على أعماقه. الإنسان الداخلي هو عالم خاص وثمين يلزم الدخول فيه بروح الله القدوس، فنعرف أنفسنا وننمو في معرفة الله.

يُخبر بالماضي والمستقبل ويكشف عن آثار الأمور المستترة [١٩].

لا يفوته فكر، ولا تخفي عليه كلمة واحدة [٢٠].

زيَّن أعماله العظيمة بحكمته، وهو الكائن منذ الأزل وإلى الأبد،
لا يمكن أن يضاف إليه شيء، ولا يُحذَف منه شيء،
ولا يحتاج إلى أحد ليكون مشيره [٢١].

الفكرة الرئيسية التي تدور حولها عظات القديس باسيليوس الكبير عن أيام الخليقة، هي أن الجمال الحقيقي للخليقة بكل أنظمتها التي تبدو مُعَقَّدة للغاية، وإبداعها العجيب يُمكِن إدراكه وتحقيقه بالعودة إلى العالم الأبدي غير المنظور الذي ينتظرنا ويُرَحِّب بنا، ونحن نترجَّاه ونترقَّبه خلال حُبِّ الخالق العجيب للإنسان[1]. لهذا عندما خَصَّص *Rousseau* فصلاً عن الهكساميرون، دعاه: "عودة إلى الوطن القديم" مقتبسًا ذلك من (العظة ٦: ١).

ما أثمن جميع أعماله،
كم تتلألأ للنظر [٢٢].

لقد تضاربت قصص الخليقة كما سَجَّلها الفلاسفة وتعارضت فيما بينها، أما ما سجَّله موسى النبي في سفر التكوين، فهو ثمرة لقاء مع الله، وجاء حديثه يُلهِبُ قلوبنا لا إلى معرفة كيف تمَّت الخلقة، إنما **كيف نلتقي بالخالق وننعم برؤياه، وندخل معه في حُبٍ مشترك!**

للعالم بداية وحتمًا له نهاية، "لأن هيئة هذا العالم تزول" (١ كو ٧: ٣١). فمع قبولنا هذه العطية الجميلة من يد الخالق، يليق بنا أن ترتبط قلوبنا بالخالق الأبدي، لا بالخليقة الزائلة.

يؤكد موسى النبي: "في البدء **خلق**"، فالعالم لم يُوجِدْ نفسه بنفسه، إنما هو من صُنْعِ الخالق وإبداعه.

---

[1] *Cf. Philip Rousseau: Basil of Caesarea, University of California, 1994, p. 320.*

كل هذه تحيا وتبقى إلى الأبد لكل احتياج، وجميعها مطيعة [٢٣].

كل الأشياء جُعِلَت اثنين اثنين، كل واحدٍ مقابل الآخر،
ولم يصنع شيئًا ناقصًا [٢٤].

يرى **القديس أوغريس** من بنطس، أن الصلاة أيضًا تتحقَّق بطريقين، بالعمل والتأمل[1].

كل واحدة منها تقوي صلاح الأخرى،
فمن يقدر أن ينال الكفاية من رؤية مجده؟ [٢٥]

من وحي سيراخ ٤٢

لأسلك حسب مرضاتك يا خالقي!

❖ تتهلَّل نفسي بشريعتك والدخول معك في ميثاق!
تسمو بي، فأتنازل بفرحٍ حتى عن حقوقي الزمنية.
لن ينحرف قلبي عن الإيمان مهما كان الإغراء.
أسلك أنا وأهل بيتي بلياقة، لأنك قائدنا في الحياة.

❖ من هي ابنتي الوحيدة التي أحرص على زواجها وعفتها وإنجابها أبناء مقدسين!
إنها نفسي التي قَدَّمتَ مهرها على الصليب. تسكن في الكنيسة بيت الزوجية المقدس.
وأبناؤها هم ثمر الروح القدس!

❖ من أجلي خلقت المسكونة العجيبة، خلالها أتلامس مع حُبِّك الفائق لي.
خلقت الشمس من أجلي، فتصير نفسي منيرة بك.
رعايتك لكل الخليقة فائقة، فكم بالأكثر ما تُعدّه لأبديتي؟
مشتاق أن أراك في مجدك الأبدي!

---

[1] *On Prayer: Prologue.*

الأصحاح الثالث والأربعون

الطبيعة وخورُس المُسَبِّحين

يستعرض ابن سيراخ في هذا الأصحاح بعض المخلوقات التي تُمَجِّد الخالق ثم يختمه بالإجابة على السؤال: كيف نُسَبِّح الخالق؟ أو كيف ننضم إلى خورُس المُسَبِّحين؟

سبق أن استعرض ابن سيراخ الحديث عن الحكمة الإلهية: مصدرها، وعلاقتها بمخافة الربّ، وبالوصية الإلهية، ودورها في حياة المجتمع والأسرة والمؤمن، يمتد عملها في الفكر والطاقات الداخلية للإنسان كما في الكلام والصمت وفي السلوك، سواء في العبادة أو التعامل مع البشر بكل فئاتهم، وفي أخذ القرار اللائق للبنيان. الآن يستعرض الحكمة مُبرِزًا عمل الخالق في خليقته، وأيضًا دورها في بعض أسلاف إسرائيل منذ خلقة الإنسان الأول حتى عصر ابن سيراخ.

١. الشمس تُمَجِّد الخالق [١-٥].

٢. القمر يُمَجِّد الخالق [٦-٨].

٣. النجوم وقوس قزح والثلج تُمَجِّد الخالق [٩-٢٢].

٤. الغمر العظيم يُمَجِّد الخالق [٢٣-٢٥].

٥. كيف نُسَبِّح الله؟ [٢٦-٣٣].

١. الشمس تُمَجِّد الخالق

اهتم الكتّاب اليهود وعلماء الفلك في بعض الأمم مثل الفراعنة واليونانيون أن يشرحوا بطرقٍ متنوعة الظواهر الخاصة بالأجرام السماوية والجو، أما ابن سيراخ فما كان يشغله كيف شهدت هذه الظواهر لحكمة الخالق الفائقة. في اختصار شديد يبرز سيراخ دور الشمس في الخليقة.

أ. ظهورها يشع بالبهجة [١-٢]، سرّ بهجتها حاجة الأرض بالنباتات والحيوانات والإنسان إليها.

ب. تسطع على الأرض فتُجَفِّفها [٣].

ج. تسطع على الجبال فتجعلها كأتون النار، وعلى المياه فتبعث أبخرة [٤]؛ لا تستطيع العين أن تركز عليها فتظلم بينما بدونها لا نستطيع أن نرى ما هو حولنا.

د. تبدو كأنها متحركة من شروقها إلى غروبها.

يبدأ ابن سيراخ بالحديث عنها وهي تظهر في الأفق، وكأنها تسكن هناك، وتجري من المشارق إلى المغارب. يراها في شروقها، وكأن الله يرسلها إلى البشرية ليُعلِن عن بدء يومٍ جديدٍ. تدعو المؤمن

للحركة المستمرة والعمل حتى يوم غروبه عن العالم الزمني. ورد تعليم مُشابه عن الشمس: "جعل للشمس مسكنًا فيها، وهي مثل العريس الخارج من خدره. يبتهج مثل الجبار للسباق في الطريق. من أقصى السماوات خروجها، ومدارها إلى أقاصيها، ولا شيء يختفي من حرّها (مز ١٩: ٤-٧).

بهجة العلوّ السماوي هي جَلَد النقاوة،

وبنية السماء في رؤية مجده [١].

يُسمَّى الجلد "سماء" وذلك من قبيل إطلاق هذه الكلمة على ما هو سامٍ ومرتفع فوق الأرض[١]. هذا الجلد يفصل ما بين المياه التي من فوق أي السحب، والمياه التي من أسفل أي البحار والمحيطات. وقد حمل هذا الفصل بجانب تحققه الحرفي مفهومًا روحيًا يمسّ حياة الإنسان. فإن كان الإنسان الروحي يتقبَّل في البداية انطلاق الإشراقة الإلهية في أعماقه الداخلية، فإنه يليق به أن يحمل الجلد الذي يفصل بين مياه ومياه، فيتقبَّل مياه الروح القدس العلوية واهبة الحياة (يو ٤: ١٤) ويسمو فوق المياه التي هي أسفل أي في الأعماق والتي يسكنها لويثان الحيّة القديمة والوحش البحري القتال للنفس البشرية (رؤ ١٢: ٧؛ ٢٠: ٣) فمن ينعم بالانطلاق في الجلد يُمَيِّز بين نعمة الروح وخداعات الشرير.

الشمس في ظهورها تُعلِن عن إشراقها،

يا لها من آلة عجيبة، من صنع العليّ [٢].

دعا الفراعنة الشمس الإله رع، واليونانيون الإله أبوللو، هنا يؤكد ابن سيراخ أنها من صنع العليّ.

❖ أما ندهش مُعجَبين من بنيان الشمس؟ فإنها تبدو للنظر جسمًا صغيرًا، لكنها تحمل قوة جبارة. تُشرِق من المشارق، وترسل أشعتها حتى المغارب. وكما وصف المرتل شروقها عند الفجر قائلاً: "مثل العريس الخارج من خدره" (مز ١٩: ٥). لقد رسم لنا بهاءها وخفة حرارتها عند بداية شروقها للبشر حتى إذا ما جاء وقت الظهيرة غالبًا ما نهرب من التطلُّع إليها. فشروقها متعة للجميع، إنها شبيهة بالعريس! تأمل أيضًا تدابيرها (بل بالأحرى تدابير الله موجد عملها)، كيف تظهر في الصيف مرتفعة حيث يطول فيه النهار، فتعطي للبشر فرصة للعمل، وفي الشتاء يزداد البرد ويطول الليل لأجل راحة البشر... كما تساهم في أثمار منتجات الأرض![٢]

القديس كيرلس الأورشليمي

❖ ارفع عينيك إلى السماء، مثل ذاك القائل: "إليك رفعت عيني يا ساكنًا في السماوات" (مز ١٢٣:

---

[١] راجع دراسات في سفر التكوين للدكتور راغب عبد النور (مجلة مدارس الأحد سنة ١، ٢).

[٢] مقال ٩: ٦.

١). تطلَّع إلى شمس البرّ، فإنه إذ توجهِك وصايا الرب، التي تُمَثِّل أكثر الكواكب بهاءً، تكون لك عينان يقظتان. لا تسمح لعيني (النفس) أن تنعسا، ولا لجفني العين أن يستريحا (مز ١٣٢: ٤)، حتى تقودك الوصايا على الدوام. يقول: "ناموسك هو سراج لرجلي ونور لسبيلي" (مز ١١٩: ١٠٥).

بالحقيقة إن كنت لا تنام قط وأنت عند الدفة التي تدير الحياة... فإنك تنال معونة الروح الذي يقودك في نسيمٍ هادئٍ وأمان مملوء سلامًا حتى تَعْبُرَ وتبلغ الميناء الهادئ في سكونٍ وبدون أية أذية لك بمشيئة الله[1].

القديس باسيليوس الكبير

عند الظهر تُجَفِّف الأرض،
فمن يقدر أن يحتمل حرّها الحارق؟ [٣]

الإنسان الذي يُشعِل الأتون يعمل في حرارة حارقة،
والشمس تحرق الجبال بقدر ثلاثة أضعاف،
تبعث أبخرة مُحرِقة، وتُرسِل أشعتها فتُعتم العيون [٤].

عظيم هو الربّ الذي صنعها،
وبأمره تُسرِع في مسارها [٥].

يرى **القديس كيرلس الأورشليمي** أن الشمس في غروبها تُمَجِّد الله، حيث يستريح الإنسان من تعب النهار، إذ يقول: [لا تسمح لأحد أن يقول إن خالق النور غير خالق الظلمة، بل تذكَّر ما جاء في إشعياء! أنا الله "مصور النور وخالق الظلمة" (إش ٤٥: ٧). لماذا تتكدَّر من هذا يا إنسان؟ لماذا تستاء من الفرصة المعطاة لك للراحة؟! هل الخادم يسمح له سيده بالراحة لو لم تحتم الظلمة عليه بضرورة الراحة؟! فبعد إرهاق النهار ننتعش ليلاً، فنقوم في الصباح، وقد تجدَّدت قوانا بعد أثقال أتعاب النهار وذلك بفضل راحة الليل. أي شيء أنفع للإنسان من الليل لبلوغ الحكمة؟! ففيه غالبًا ما نتأمل أعمال الله، وفيه نقرأ الأقوال الإلهية ونتفهَّمها، وفيه نضبط أذهاننا بالأكثر لنترنَّم بالأبصلمودية *Psalmody* والصلاة! أما يحدث هذا بالليل؟![2]]

٢. القمر يُمَجِّد الخالق

---

[1] *Homily on the Beginning of Proverbs 17.*

[2] مقال ٩: ٧.

القمر الذي يستمد نوره من الشمس، له دوره الخاص. فالشمس تُعلِن كل صباحٍ عن يومٍ جديدٍ، ومع كل غروبٍ دعوة للراحة من الجهاد في العمل، أما القمر فيبدو مُتغيّرًا يُحَدِّد الأزمنة والشهور، ويُعلِن عن الأعياد، يتلألأ في الأعالي، ويسكب بهجة وسط ظلام الليل.

الشمس تشبه الأتون والقمر يشبه المصباح، ولا غنى عن هذه أو تلك! والقمر هو العلامة على تغيير الأزمنة خاصة في التقويم الديني عند اليهود (خر ١٢: ٢؛ مز ١٠٤: ١٩).

يقول **العلامة أوريجينوس:** [المسيح هو نور العالم الذي يُضِئ الكنيسة بنوره. كما يستمد القمر نوره من الشمس فينير الظلام، هكذا تستمد الكنيسة النور من المسيح لتضيء على الذين هم في ظلمة الجهل[1].] كما يقول: [كلما ارتفعنا إلى فوق نتأمل الشروق من الأعالي، ويكون البهاء والحرارة بصورة أفضل. هكذا كلما صعد فكرنا وارتفع إلى المسيح اقترب من بهاء ضيائه، فنستضئ بنوره في أكثر روعةٍ وجمالٍ. وكما يقول بنفسه: "ارجعوا إليَّ يقول رب الجنود فأرجع إليكم" (زك ١: ٣)... فإن كنا قادرين أن نرتفع معه إلى قمة الجبل مثل بطرس ويعقوب ويوحنا نستضيء بنور المسيح وبصوت الآب نفسه[2].]

وخَلَق القمر أيضًا يُحدِّد تغيُّر الفصول[3]،
لإعلان الأزمنة وعلامة أبدية [٦].

من القمر تظهر علامة العيد،
ذلك النور الذي يتناقص بينما يُكمّل مساره [٧].

باسمه يُسَمَّي الشهر، وفي أطواره يزداد بطريقة عجيبة.
وهو مركب[4] يُقِيم في العلاء[5]:
وهو منارة للجيوش المرتفعة، يتلألأ في جلد السماء [٨].

يسير القمر طبقًا للنظام الذي وضعه له الرب، وأمّا عن أمانته في تحديد الأزمنة، هذا يفهم بين الشعوب التي يقوم تقويمها على دورة القمر مثل العرب واليهود وغيرهم (مز ٨٩: ٣٨؛ ١٠٤: ١٩) مثل بداية الشهور (تك ١: ١٤) فهو بداية الشهر بالنسبة لليهود، ويُسَمَّى رأس الشهر لدى اليهود

---

[1] *In Gen 1: 5.*

[2] *Ibid. 1:7.*

[3] بحسب *NRSV*.

[4] *Vessel.*

[5] بحسب *NRSV*.

(القمر الجديد *New Moon*)، فهو رمز الاستقرار (مز ٧٢: ٥) يُحَدِّد بدقة بداية الأعياد كالفصح والحصاد، وقد ورد في سفر العدد كيفية الاعتماد على القمر في تعيين مثل هذه المناسبات (عد ٢٨: ١١-١٥)[١].

٣. النجوم وقوس قزح والثلج تُمَجِّد الخالق

الكواكب بأعدادها غير المحصية تقف كجنودٍ وسط الظلمة تخدم إرادة الله [٩-١٠]. إنها تحثّ البشرية أن يكفُّوا عن عبادة الأوثان ويرجعوا إلى الخالق المُبدِع. عظمة الشمس والقمر والكواكب تبرز قوة القدير الخالق وحكمته، وتُوَبِّخ من يعبد الخليقة الجميلة عوض خالقها.

قوس قزح [١١-١٢] لم يرد ذكره في أيام الخليقة الستة، إنما ظهر كعلامة ميثاق ورعاية الخالق للبشرية (تك ٩). يتحدَّث هنا عنه أنه يحيط السماء بقوسٍ مجيدٍ، ويدا العليّ تبسطه [٢].

يتحدَّث عن **الثلج والبرق** [١٣]، ينزل الثلج ببطء حتى لا يؤذي البشر، ويسمح للبرق أن يظهر وبسرعة يختفي، حتى لا يؤذي العينين؛ أما السحب فتتحرَّك في الجو كالعصافير [١٤]. عجيب هو الربّ في خطته من أجلنا، يجعل السحب خفيفة كأنها تطير في الجو، والبَرَد ثقيل يتساقط على الأرض.

مجد النجوم هو جمال لسماء،
زينة بهية في عُلَى الربّ [٩].

❖ هوذا الخلائق على اختلاف أشكالها تُرَتِّل تسبيحك، وأنا أفتح فمي لتسبيح جبروتك.
هوذا الأيام والليالي في حدودها تُفتَح وتُغلَق لتنشر خبرك في الأرض كلها.
الأمسيات والصبحيات توقظ الناس بهجعاتها وأوقاتها لتسبيحك بتمييز.
الصيفيات والشتويات تعلّم الأرض بتغييراتها ومسيراتها بأنك تبدّل أوقاتها.
البرد والحر اللذان يذهبان ويجيئان للتدبير، يخبران كيف أنك ماهر في أعمالك.
ساعات النهار وهجعات الليل الأربع كلها تُصعد التسابيح المتميزة لقدرتك الخالقة...
كل اليابس والأرض وجبالها مع آكامها تسبحك، وأنت تحملها لئلا تسقط.
هوذا السماوات تخبر بمجدك بطبائعها، ويبين الفضاء عمل يديك: كم أنت جبار!
هوذا الخيمة الكبرى التي نسجتها قدرتك الخالقة وبسطتها ممدودة وقائمة فوق كل الجهات، وهي مملوءة بتسبيحك.

---

[١] الأنبا مكاريوس

الشمس والقمر وأشعتهما وإشراقاتهما توقظ العالم بالمسيرة الكبرى لمدحك[1].

القديس مار يعقوب السروجي

بكلمات القدوس تقف حسب قضائه[2]،

ولا يقوى عليها التعب في حراساتها [١٠].

يقول **القديس كيرلس الأورشليمي:** [كان يليق بهم بالأحرى أن يندهشوا مُتعجِّبين لا من نظام الشمس والقمر فحسب، بل ونظم النجوم الدقيقة وظهور كل كوكبٍ في حينه. ومن ظهوره يعرف الصيف والشتاء، وبعضها يُعلن وقت الغرس وغيرها تعلن عن بداية الإبحار. فالإنسان وهو جالس في سفينته يبحر بين أمواج بلا حدودٍ، موجهًا سفينته بتطلعه إلى النجوم. وكما يقول الكتاب المقدس عن هذه الأمور "وتكون لآيات وأوقات... وسنين" (تك ١: ١٤)، وليس لأجل التنجيم والخزعبلات[3].]

تطلَّع إلى قوس قزح، وبارك صانعه،

فإن تألقه غاية في الجمال [١١].

قوس قزح يشبه جوهرة تُزَيِّن الخليقة. في سفر الرؤيا يظهر قوس قزح شبه الزمرّد حول العرش (رؤ ٤: ٣). أعطى الربّ قوس قزح كعلامة لميثاقه مع الإنسان، فلا يُغرق الأرض بالطوفان مرة أخرى. مع هذا العمل الإلهي الرعوي، يمجد قوس قزح الله ببهائه غاية في الجمال.

يدور السماء بقوسه المجيد،

ويدا العليّ تُحدِّد مساره [١٢].

بأمره يسقط الثلج،

ويُسَرِّع البرق بقضائه [١٣].

يصف اهتمام الله بخليقة في الآتي:

أ. خلال الأوامر: "بأمره يسقط الثلج" [١٣].

ب. بظهوره: "عند ظهوره تتزعزع الجبال [١٦].

ج. بإرادته: "بإرادته تهب ريح الجنوب" [١٦].

د. بالرش أو النثر: "يذري الثلج كما تتساقط العصافير" [١٨].

---

[1] الميمر ١٢ على ذاك الابن الذي بدد أمواله (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

[2] بحسب *NRSV*: تقف في أماكنها المُحدَّدة.

[3] مقال ٩: ٨.

هـ. بالسكب: "يسكب الصقيع كالملح على الأرض" [١٩].

و. بالإفناء: "يفني الجبال ويحرق الصحراء" [٢١].

ز. بالتدبير: "بحسب قصده أخضع الغمر العظيم" [٢٣].

ح. بكلمته: "بكلمته تعمل كل الأمور" [٢٦].

لذلك تنفتح المخازن،

وتطير السُحب كالعصافير [١٤].

بعشقه للطبيعة الجميلة، يرى ابن سيراخ السحب وهي تتحرك في الأعالي أشبه بعصافير تُغَرِّد متهللة [١٤]. وعند سقوط البرَد كحباتٍ صغيرة يغطي الجبال فتصير كلها كبساطٍ أبيض [١٦]، تُعجَب العين من جمال بياضه، ويُذهَل العقل من سقوطه [١٨].

يرى أيضًا في الأمطار والندى أنها تُحَوِّل الأرض التي تعاني من الحرارة الشديدة المحرقة إلى أرضٍ خصبة مبهجة بالثمار والزهور.

يقول **القديس كيرلس الأورشليمي:** [من اكتنز الهواء في السحب، وربطها ليحمل مياه الأمطار، فتأتي ذهبية اللون (أي ٣٧: ٢٢) من الجنوب، بنظامٍ واحدٍ تارة، وفي شكل دوائر متعددة وأشكال متباينة تارة أخرى؟! من يحصي الغيوم بالحكمة (أي ٣٨ :٣٧)، إذ قيل في أيوب: هل "يعرف انفصال السحاب؟!" (أي ٣٧: ١٦ *LXX*) من هو "المخرج الريح من خزائنه" (مز ١٣٥: ٧)، وكما قلنا من قبل: "من ولد قطرات الندى ومن بطن من خرج الثلج؟!" (راجع مز ١٣٥: ٧؛ أي ٣٨: ٢٨) فإن مادتها ماء، وقوتها كالحجر! في وقت ما يصير الماء ثلجًا كالصوف (راجع مز ١٤٧: ١٦)، وأخرى يذريه صقيعًا كالرماد، وثالثة يصير مادة حجرية. إنه يحكم الماء كما يريد. طبيعة الماء واحدة لكن عمله متعدد في القوة، فيعمل في الكرمة خمرًا يفرح قلب الإنسان، وفي الزيتونة زيتًا يلمع وجهه، وفي الخبز يسند قلب الإنسان (مز ١٠٤: ١٥)، ويوجد في كل أنواع الفاكهة التي خلقها الله[١].]

بعظمته يُكثِّف السحب،

فيتحطَّم البَرَد إلى أجزاء [١٥].

عند ظهوره تتزعزع الجبال،

وبإرادته تهبّ ريح الجنوب [١٦].

صوت رعده يهزّ الأرض،

---

[١] مقال ٩: ١٠.

وهكذا يفعل إعصار الشمال، وأيضًا الزوبعة [١٧].

يذرِّي الثلج كما تتساقط العصافير،
فينزل كما يسقط الجراد.
تعجب العين من جمال بياضه،
ويذهل العقل من سقوطه كالمطر [١٨].

يسكب الصقيع كالملح على الأرض،
وإذا جمد صار كرؤوس الشوك [١٩].

تهبّ ريح الشمال الباردة، فيجمد الجليد على الماء،
ويستقر على كل مجتمع مياه، ويُلبسها الماء كدرعٍ [٢٠].

يدعونا الربّ نفسه أن نهرب من أرض الشمال، كما من بابل لننطلق إلى صهيون، حيث يأتي الربّ ويسكن في وسطنا (زك ٢: ٦-١٠).

هبوب ريح الشمال الباردة: إذ تتَّسِم الرياح الشمالية القادمة على منطقة الشرق الأوسط بالبرودة، تشير إلى هجوم إبليس والخطية على المؤمن، كي تنزع عنه حرارة الروح، قيل: "ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين" (مت ٢٤: ١٢).

في رؤى زكريا النبي دُعِي الذين في بابل أن يهربوا من أرض الشمال ليرجعوا إلى أورشليم مدينة الله (جنوب بابل). "يا يا اهربوا من أرض الشمال يقول الربّ" (زك ٢: ٦). يُعَلق **القديس ديديموس الضرير** على هذه الدعوة، قائلاً: [أوضح إلى أين وفي أية مدينة يمكن الخلاص للهاربين من ريح الشمال القاسية البرودة... إنها صهيون، الأرض المقدسة حيث يمكن للذين كانوا يقطنوها سابقًا أن يهربوا من بابل في أمانٍ... ولما كان اسم "بابل" يعني بلبلة (ارتباك)، فإن كل شخص مُرْتَبِك فكريًا يُحسَب بابليًا، الأمر الذي يجب تجنُّبه، بالرغبة في الهروب إلى صهيون حيث يتغنَّى بتسابيح الله، إذ هي الموضع اللائق بتسبيح الله، "رنموا للربّ الساكن في صهيون" (مز ٩: ١١).]

❖ لقد أوصينا أن نكون حارين في الروح (رو ١٢: ١١)، هذا يُظهِر أن كلمة الله نار مُلتهِبة. سمع إرميا ممن قدم له الوحي الإلهي: "ها قد جعلت كلامي في فمك" (إر ١: ٩). ولما كان الله نارًا (تث ٤: ٢٤؛ عب ١٢: ٢٩)، يليق بالقديسين أن يكونوا ملتهبين بروح الله.

إن (الأشرار) بلا شك باردون في حُبِّهم له، بالحق يقول الرب: "ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين". وكل الذين يرمزون للقوة المضادة في الأسفار المقدسة هم دائمًا باردون. الشيطان في

الحقيقة يُدعَى حية وتنّينًا (رؤ ١٢: ٩؛ ٢٠: ٢) من هم باردون أكثر منهما؟ قيل عن التنّين أنه يحكم في المياه (راجع حز ٣٢: ٢). وفي موضع آخر يقول: "يعاقب الرب بالسيف المقدس التنّين الحيّة الهاربة... ويقتل التنّين هناك" (راجع إش ٢٧: ١) وفي عبارة أخرى: "وإن اختفوا من أمام عينيّ في قعر البحر، فمن هناك آمر الحيّة فتلدغهم" (عا ٩: ٣).

وفي سفر أيوب دُعِيَ هذا المخلوق ملك كل الكائنات التي في الماء (أي ٤١: ٢٥). يعلن النبي أن الشرور تأتي من الشمال، خاصة الذين يقيمون على الأرض (إر ١: ١٤). ويُشَار إلى الريح الشمالية في الكتاب المقدس أنها باردة، كما جاء في الحكمة: الريح الشمالية الثلجية". بدون سؤال يليق بنا أن نشير إلى هذه عن الشيطان[1].

العلامة أوريجينوس

❖ لكي يسهّل الهروب، أوضح أين وفي أية مدينة يكون الخلاص في متناول الهاربين من الريح الباردة القارصة (سي ٤٣: ٢٠؛ أم ٢٧: ١٦). إنها صهيون الموضع المقدس، حيث يُمكِن لسكانها السابقين من بنات بابل أن يهربوا إليها في أمانٍ[2].

القديس ديديموس الضرير

يُفنِي (الربّ) الجبال، ويُحرِق الصحراء،
ويُيَبِّس العشب الطريّ كالنار [٢١].

يُصلِحها الضباب كلها سريعًا، والندي الساقط يُنعش من الحر [٢٢].

٤. الغمر العظيم يُمَجِّد الخالق

اعتاد قدماء الإسرائيليين أن يتطلَّعوا إلى البحار أنها مُرعِبة (مز ١٠٧: ٢٣-٣٢؛ يونان ١: ٤-١٦) مع إبراز قوة الله في الغلبة على قوة البحار المُدَمِّرة. هنا يبرز ابن سيراخ جمال الجزر التي تحيطها مياه البحار، مع وجود أسماك متنوعة وجميلة، وأيضًا وحوش بحرية.

بحسب قصده[3] هدَّأ الغمر العظيم، وأنبت فيه جزرًا [٢٣].

يقول **القديس كيرلس الأورشليمي:** [في هذا البحر العظيم المُتَّسِع تعيش كائنات بلا عددٍ (مز ١٠٤: ٢٥)، من يقدر أن يصف روعة الأسماك التي تعيش فيه؟! من يقدر أن يتصوَّر عظمة

---

[1] *De Principiis 2:8:3.*

[2] *Commentary on Zachariah, FOTC, vol. 111, p. 54-56.*

[3] بحسب الكلمة اليونانية *λογισμός* بفكره.

الحيتان وطبيعة الحيوانات البرمائية: كيف تعيش تارة على أرض صماء وأخرى وسط المياه؟![1]

والذين يركبون البحر يُعدِّدون مخاطره، ونتعجّب من الأخبار التي تسمعها آذاننا: [٢٤]

فهناك توجد أعمال غريبة عجيبة،

وكائنات حية متنوعة مختلفة، ومراتب مخلوقة من وحوش بحريَّة ضخمة [٢٥].

يقول **القديس كيرلس الأورشليمي:** [مَنْ مِن البشر يعرف حتى أسماء كل الحيوانات المفترسة؟! أو من يقدر أن يُمَيِّز فسيولوجية كل منها بتدقيق؟! فإن كنت لا تعرف عن الوحوش المفترسة مجرد أسمائها فكيف تفهم خالقها؟![2]

٥. كيف نُسَبِّح الله؟

بسببه (الربّ) ينجح رسوله في رحلته وبكلمته تعمل كلّ الأمور معًا [٢٦].

يُقَدِّم بولس الرسول عبارات مشابهة، فيقول: "فيه خلق الكل، ما في السماوات وما على الأرض، ما يُرَى وما لا يُرَى... الكل به وله قد خُلِق" (كو ١: ١٦).

يمكننا أن نكثر الكلام دون بلوغ الهدف، وخلاصة كلماتنا هي هذه: "إنه هو الكلّ" [٢٧].

الله هو كلّي الوجود، موجود في كل مكانٍ، وفي كل الأوقات إنه في كل شيءٍ، وهو فوق كل شيءٍ، إنه هو الكل.

❖ عندما نأتي إليك، هذا الكلام الكثير الذي نقوله دون استيعاب سوف يبطل، وأنت الواحد الذي يبقى. أنت هو الكل في الكل (١ كو ١٥: ٢٨)، وبدون توقُّف سنقول شيء واحد، نُسَبِّحك في الواحد، نحن الذين نصير واحدًا فيك[3].

القديس أغسطينوس

كيف يمكننا أن نُسَبِّحَه كما ينبغي؟

فهو أعظم من جميع أعماله [٢٨].

❖ إذ نحني رُكبنا بوقارٍ صالحٍ أمام صانع العوالم، أَقصِد عالم الحسّ والفكر، ما يُرَى وما لا يُرَى، فإنك تمجد الله بلسانٍ مقدسٍ، يلهج بالمعروف، وشفتان لا تسكتان، وبقلبٍ لا يمل، قائلاً: "ما

---

[1] مقال ٩: ١١.

[2] مقال ٩: ١٣.

[3] *The Trinity, FOTC, vol. 45, p. 524-525.*

أعظم أعمالك يا رب. كلها بحكمةٍ صَنَعْتَ" (مز ١٠٤: ٢٤)، يليق بك الإكرام والمجد والجلال من الآن خلال كل الدهور. آمين[1].

القديس كيرلس الأورشليمي

رهيب هو الرب وعظيم جدًا، وعجيبة هي قوته [٢٩].

مَجِّدوا الربّ وعَظِّموه ما استطعتم، فهو فوق هذا كله.
عظموه بكل قوتكم، ولا تَكِلُّوا، فإنكم لن تُمَجِّدوه بالقدر الكافي [٣٠].

❖ يلزم أن يكون موضوع تأملنا في هذه الحياة الحاضرة تسابيح الله، لأن السمو الدائم لحياتنا العتيدة هو تسبيح له، ولا يستطيع أحد أن يتهيَّأ للحياة المقبلة إن لم يمارسها بنفسه الآن.

يتسم تسبيحنا بالفرح، وصلواتنا بالتنهد... بخصوص هذين الأمرين، أحدهما يمارس في التجارب والضيقات التي لهذه الحياة، والآخر خاص بالحياة المقبلة في الراحة الأبدية والسماء[2].

القديس أغسطينوس

من يراه فيصفه؟
ومن يقدر أن يُعَظِّمَه بالحق كما هو؟ [٣١]

❖ بالحقيقة بأي فهم يمكن للشخص أن يدرك الله إن كان لا يقدر أن يفهم عقله نفسه الذي به يعرف الله؟[3]

القديس أغسطينوس

مع هذا توجد خفايا كثيرة أعظم من هذه،
فقد رأيناه، ولكن القليل من أعماله [٣٢].

كلما تَقَدَّم العلم وزادت معرفتنا لخليقة الله، ندرك أننا على شاطئ المعرفة، وتبقى البشرية إلى يوم لقائها مع الخالق وجهًا لوجه تعترف بعجزها عن إدراك كل أسرار الخليقة، ومدى رعاية الخالق لها. هذا العجز يهبنا عطشًا لا إلى المعرفة فحسب، بل وإلى الخالق الكلي الحكمة والحب.

لأن الربّ صنع كلّ الأشياء،
ووهب الأتقياء (خائفي الربّ) حكمة [٣٣].

---

[1] مقال ٩: ١٦.

[2] *On Ps. 148.*

[3] *On the Trinity 5:1:2.*

إن كانت الطبيعة المنظورة وغير المنظورة تُسَبِّح الله بطاعتها للناموس الذي وضعه الله لها، فإن الإنسان الذي فقد صورة الله ولم يعد على مثاله بسبب الخطية، يُسَبِّح الله باسترداده الصورة المفقودة وتَمَتُّعه بحكمة الله، الأمر الذي هو موضع سرور الله!

من وحي سيراخ ٤٣

هب لي أن أنضم إلى خورُس المُسَبِّحين!

❖ لتقم يا أيها القدوس في قلوبنا، وتُجَدِّد نفوسنا،
ننضم بفرحٍ إلى خورُس المُسَبِّحين،
وتُسحَب قلوبنا وعقولنا وعواطفنا نحو التأمل فيك.

❖ كل الخليقة تُسَبِّحك بخضوعها للناموس الذي وضعته لها.
هب لنا أن ننضم حتى مع هذه الخليقة غير العاقلة،
وبروح الطاعة نُسَبِّح اسمك القدوس.
هي تُسَبِّحك بالعمل في صمتٍ!
هب لنا أن نُسَبِّحك عندما تضيء بنورك فينا،
نُسَبِّحك بصمتنا مع نقاوة قلوبنا!
يُسَبِّحك إنساننا الداخلي، بملكوتك الذي تُقِيَمه في داخلنا!
إنه عمل روحك القدوس.

القسم الخامس

أبطال الإيمان عبر التاريخ

[٤٤-٥٠]

أبطال الإيمان عبر التاريخ [1]

تمجيد أبطال الإيمان في هذا السفر هو دعوة عملية إلى التمتُّع بالخلاص الإلهي خلال الإيمان الصادق والعبادة الحية والالتصاق بالشريعة الإلهية في الحياة اليومية، وعمل الرحمة للقريب بروح الحب والفرح. جاء تمجيد هؤلاء الأبطال بكلمة عامة توضح أن الله يفتح باب المجد والجلال لكل البشر خلال هؤلاء الأبطال في الإيمان.

إن كان آدم وحواء خُلِقَا على صورة الله، فإن غاية عمل الله في حياة رجال الإيمان أن يسترد كل بشرٍ هذه الصورة خلال صليب ربّ المجد نفسه.

سجَّل السفر بعض أبطال الإيمان المعروفين، ليُعلِن أنه يوجد أبطال إيمان ينساهم التاريخ البشري، أما سفر الحياة فيُمَجِّدهم إلى الأبد.

اهتم الرسول بولس بالحديث عن أبطال الإيمان قرب نهاية الرسالة إلى العبرانيين لكي يؤكد لليهود أنه يوجد في كل عصرٍ رجال إيمان أبطال في نظر الله، وأن الإيمان المسيحي امتداد لهذا الموكب عبر الأجيال. هنا أيضًا في سفر سيراخ كان من اللائق أن يتحدث عن أبطال الإيمان مثل أخنوخ حتى القرن الثاني قبل الميلاد (أي في عصر ابن سيراخ)، ليبعث روح الرجاء في الراجعين من السبي أن ينضموا إلى الموكب، كما يجيب على تساؤلات البعض في ذلك الوقت.

١. كدنا أن نفقد كل الثقافة الروحية التي قدمها تاريخ اليهود حتى السبي، فهل من عودة لها؟

٢. هل من رجال إيمان ينضمون إلى أناس الله عبر العصور؟

٣. أين هي الوعود الإلهية، وقد صرنا تحت استعمار دول وثنية كبابل وفارس واليونان الخ؟

٤. لقد أُعيد بناء الهيكل بعد الرجوع من السبي، لكنه لا يُقارَن بهيكل سليمان، فهل من عودة لسكنى الله وسط شعبه؟

٥. هل يقوم أحد من نسل داود يجلس على عرش إسرائيل مثل داود وسليمان؟

٦. من يرد كرامة شعب الله وأمجادهم؟

هذه الأسئلة وأمثالها التي كانت تبث روح اليأس في الكثيرين تحتاج إلى تأكيد أن الله عامل عبر التاريخ لخلاص المؤمنين، وأن له شهود أمناء في كل جيلٍ.

إن كانت الحكمة هي من الله، فقد نادى ابن سيراخ بضرورة التعلُّم والاقتداء بالحكماء والعقلاء المعاصرين والقدامى. فإن كان للأبطال في العصور السابقة تفضلوا علينا بما سلَّموه لنا من تعاليم

---

[1] *Cf. J Liesen & L.W. Manhardt: Wisdom, Steubenville, O: Emmaus Road Publishing, Chapter 22, Sirach 44: 51.*

وحياتهم التقية، فنلتزم نحن بدورنا أن نقتدي بهم لنُسَلِّم التقليد الإيماني الحيّ للأجيال المُقبِلة.

من جانبٍ آخر، فإن تقديم أمثلة قوية للحياة الإيمانية، يؤكد أن رجال الإيمان تبقى سيرتهم تُمَجِّد الله وتعمل في حياة الشعب.

سار **أخنوخ** مع الله ولم يوجد، لأن الربّ نقله (تك ٥: ٢٤). آدم وحواء سارا مع الربّ في جنة عدن وتحدَّثا معه عن قربٍ، لكن خلال عصيانهما طُرِدَا من الجنة وصار الإنسان مُتغرِّبًا عن الله.

لم يكن للموت سلطان على أخنوخ، وهكذا ليس له سلطان على طالبي الحكمة.

سار **نوح** مع الربّ (تك ٦: ٩)، كان بارًا بلا لومٍ في عيني الربّ، فتأهَّل أن يدخل في عهدٍ مع الله لحساب البشرية المؤمنة.

لم يوجد أحد مثل **إبراهيم** في المجد، لأنه حفظ ناموس العلي (سي ٤٤: ١٩-٢٠)، قبل أن يستلم موسى الناموس بمدة طويلة من موت إبراهيم.

يصف ابن سيراخ **موسى** كإنسان الرحمة، كان محبوبًا من الله والناس. وهبه الله أن يكون صانع عجائب، كما أعلن له مجده الإلهي وقدَّسه خلال الإخلاص والوداعة (سي ٤٥: ٣-٤).

هرون الإنسان المقدس كأخيه موسى. قام موسى بسيامته ومسحه بالزيت المقدس (سي ٤٥: ٦، ١٥). أبرز ابن سيراخ تقديره للعمل الكهنوتي والعبادة الليتورجية التي امتدت من هرون حتى رئيس الكهنة المعاصر له سمعان ابن أونيا (سي ٥٠: ١-٤٢).

لم يذكر ابن سيراخ خطية داود مع بثشبع ورجلها أوريا الحثي (٢ صم ١)، لأن بتوبته الصادقة لا يعود يذكرها الله.

مجد الله في التاريخ
أسلاف إسرائيل يُمَجِّدون الله
[ص ٤٤-٥٠]

قصيدة خاصة بأبطال الإيمان عبر التاريخ يمجدون الله (٤٤-٥٠)

جذور الحكمة في شعب الله في العهد القديم، انطلقت إلى كل الأمم بواسطة حكمة الله المتجسد الذي قَدَّم الحكمة والخلاص لكل البشر. بالاتحاد مع السيد المسيح وحده ننال الحكمة الحقيقية، لأنه هو حكمة الله المتجسد، يحمي مؤمنيه من الخطية ويهبه الحياة الأبدية.

لم يذكر ابن سيراخ كل الأسلاف المشهورين، إنما أراد أن يؤكد أن لكل مؤمنٍ حقيقيٍ شخصيته الخاصة به والمواهب والقدرات التي وهبه الربّ إياها. بدأ بالبطاركة الواردين في سفر التكوين منذ أخنوخ الذي لم نعرف عن أعماله شيئًا سوى أنه سار مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه (تك ٥: ٣٤)، إلى رئيس الكهنة سمعان البار الذي كان معاصرًا لابن سيراخ[1].

يختتم هذا القسم بنشيد شكر وصلاة. "هلم الآن نمدح الرجال المُكَرَّمين وآباءنا، أقام الربّ مجده العظيم، وعظمته منذ القدم خلالهم" (٤٤: ١- ٢). " دُفِنَت أجسامهم بسلام، وأسماؤهم تحيا مدى الأجيال. تُخبِر الشعوب بحكمتهم، والجماعة تُعلن مديحهم " (٤٤: ١٤- ١٥).

تنقسم هذه القصيدة إلى أربعة أقسام:

١. مقدمة (٤٤: ١-١٥).

٢. يليها أطول قسم يركز بوجهٍ خاص على بعض آباء أسفار موسى الخمسة الذين أقام الله معهم عهدًا: إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وهرون وفينحاس (٤٤: ٤٥-١٦: ٢٦).

٣. القسم التالي أصغر من السابق، يُقَدِّم بعض الشخصيات التاريخية والنبوية لإسرائيل خاصة الملوك والأنبياء (٤٦: ١ - ٤٩: ١٦).

٤. تنتهي القصيدة بمديح لرئيس الكهنة سمعان ابن أونيا ثم تمجيد الله (٥٠: ٢٢-٢٤).

أبطال متنوعون!

يقف الإنسان متسائلاً في دهشة: تُرَى هل ما سجَّله سفر ابن سيراخ في هذا القسم الأخير غايته

---

[1] *Jermy Carley: Sirach, 2013, p. 123*

تمجيد خائفي الرب الذين بلغوا قامات عالية من المجد السماوي، أم هو تمجيد لله العامل في قديسيه؟

ذكر هذا الموكب الرائع عَيِّنَات من الأبطال عبر العصور وبمواهب متباينة، ليفتح باب الرجاء أمام كل مؤمنٍ، وفي نفس الوقت يشير إلى إحدى ثمار العناد والتمرُّد على الله وهو السبي.

١. الآباء الأولون: أخنوخ (٤٤: ١٦) ونوح (٤٤: ١٧)، من عصر ما قبل الآباء.

٢. الآباء البطاركة الأولون: إبراهيم (٤٤: ١٨: ٢١)، إسحق (٤٤: ٢٢)، يعقوب (٤٤: ٢٣).

٣. موسى النبي (٤٥: ١-٥).

٤. هرون (٤٥: ٦-٢٢).

٥. فينحاس (٤٥: ٢٣-٢٦).

٦. يشوع بن نون وكالب بن يفنة (٤٦: ١-١٠).

٧. القضاة (٤٦: ١١-١٢).

٨. صموئيل النبي (٤٦: ١٣- ٢٠).

٩. داود الملك (٤٧: ١-١١).

١٠. سليمان الملك (٤٧: ١٢-٢٢).

١١. رحبعام ويربعام (٤٧: ٢٣-٢٥).

١٢. إيليا النبي (٤٨: ١-١١).

١٣. أليشع النبي (٤٨: ١٢-١٦).

١٤. حزقيا الملك (٤٨: ١٧-٢٥).

١٥. يوشيا الملك (٤٩: ١-٣).

١٦. ملوك يهوذا والسبي البابلي (٤٩: ٤-٧).

١٧. حزقيال النبي (٤٩: ٨-٩).

١٨. الاثنا عشر نبي (٤٩: ١٠).

١٩. زُربابل (٤٩: ١١).

٢٠. يشوع بن يوصاداق (٤٩: ١٢).

٢١. نحميا (٤٩: ١٣).

٢٢. عودة إلى عصر الآباء (٤٩: ١٤-١٦).

٢٣. سمعان بن أونيا المعاصر لابن سيراخ (٥٠: ١-٢٩).

الأصحاح الرابع والأربعون

رجال الله يُمَجِّدون الله

١. تطويب لأتقياء أبطال الإيمان المشهورين [١- ١٥].

٢. أخنوخ يُمَجِّد الله [١٦].

٣. نوح يُمَجِّد الله [١٧- ١٨].

٤. إبراهيم وإسحق ويعقوب يُمَجِّدون الله [١٩- ٢٣].

يضم هذا الأصحاح مقدمة قصيرة [١- ١٥]، حيث صنَّف ابن سيراخ مشاهيرهم حسب مساهمتهم في بنيان الجماعة المقدسة عبر التاريخ: حكام حكماء [٢]، وأنبياء مُعَلِّمون [٢- ٣]، وموسيقيُّون وشعراء [٥]، ورجال أعمال ناجحون ومستقرُّون [٦- ٨]. بعض أبطال الإيمان معروفون عند الناس، وبعضهم من ضاع ذكرهم؛ لكن الكل معروفون لدى الرب [١٠]. هذا المُقدم لأبطال إيمان دون ذكر أسمائهم، فتح الباب للكنيسة كي تُطَوِّب وتُمَجِّد القديسين الذين عبروا منتصرين إلى الفردوس. لم يذكر أسماءهم، لأن الله يتمجَّد في القديسين الأتقياء الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم. إن كانت الشمس والقمر وكل الكواكب تُمَجِّد الله، فبالأكثر يُمَجِّده أولئك الذين خُلِقُوا من ترابٍ ورماد وصاروا أشبه بملائكة الله خلال رعاية الله المستمرة وخلاصه العجيب الذي يُقَدِّمه لهم.

خلال إيمانهم العملي الحيّ، تمتَّعوا ببركاتٍ كثيرة منها الآتي:

١. الله نفسه يكرمهم كأحباء وخواص له، فيكشف لهم عن مجده، لينعموا بأسراره المجيدة [٢].

٢. وهبهم سلطانًا وقدرة للعمل [٣].

٣. تمتَّعوا بالفطنة والتعقُّل، فصاروا مُشيرِين حكماء، كما كان من بينهم من تنبَّأوا عن المستقبل، ومنهم من قاموا بأعمال قيادية ناجحة، ومن اهتموا بتعليم الشعب الشريعة الإلهية [٤].

٤. اتَّسموا بروح الفرح، فوضعوا مزامير بألحانٍ جميلة، ودَوَّنوا روايات شعرية تحمل عذوبة للنفس.

٥. منهم من كانوا أغنياء، لم يفقدهم غناهم سلامهم الداخلي والعائلي [٦].

٦. ماتوا بالجسد، لكن سيرتهم لم تَمُت، بقيت شهادتهم للحياة الفاضلة حية، ودرسًا تتلقَّنه الأجيال بعد رحيلهم من العالم [٨]. أما الذين لم يسلكوا بروح الإيمان، فغالبًا ما يُوَرِّثوا أبناءهم الجحود والعصيان وعدم الإيمان إن سلك الأبناء في طريق آبائهم. بموتهم يُدفَنون ويُحسَبون كأن لم يكن لهم وجود مهما بلغت شهرتهم وسلطانهم وإمكانياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية الخ. [٩]

٧. لا يستطيع الزمن أن يطوي في دائرة النسيان ما يمارسه الأتقياء من أعمال حبٍ ورحمة [١٠].

٨. ما يُوَرِّثه الأتقياء لأبنائهم وأحفادهم إيمانهم وإخلاصهم وشركتهم مع الله.
٩. بموتهم تمتد شهرتهم المقدسة حتى وسط الشعوب.

١. تطويب لأتقياء أبطال الإيمان المشهورين

هلم الآن نمدح الرجال المُكرَّمين وآباءنا [١]،

يكرم ابن سيراخ رجال الإيمان في العهد القديم، وهو يحمل نفس الروح لما ورد في (عب ١١).

أقام الربّ مجده العظيم،

وعظمته منذ القدم خلالهم [٢].

يعتزّ ابن سيراخ بالمجد الذي وهبه الله للمؤمنين، فصاروا مُمَجَّدين، وتمجَّد الله بعمله معهم.

كان يوجد من يملكون في ممالكهم، وأناس اشتهروا بقدرتهم.

يُقَدِّمون مشورة بفهمهم، وأعلنوا نبوات [٣].

بدأ حديثه بإعلان مجد الله دون ذكر الأسماء، لكي يؤكد أن الذي تمجَّد في العظماء السالفين يتمجَّد إلى اليوم في مؤمنيه، وأيضًا يتمجَّد في الأجيال القادمة.

لم يُحَدِّد ابن سيراخ شكلاً مُعَيَّنًا للعظماء، إنما يود أن يؤكد أن جمال الجماعة المقدسة أن يعمل كل شخصٍ في الوزنة المُقَدَّمة له حسب مواهبه وقدراته. لذا تحدَّث عن فئات متنوعة:

أ. ملوك وحُكَّام ذوو سلطان [٢].

ب. نبلاء وأشراف ذوو قدرة [٣].

ج. مشيرون يتَّسمون بالفطنة [٣].

د. أنبياء نالوا روح النبوة [٣].

هـ. قادة للشعب، كل في تخصصه [٤].

و. معلمون موهوبون في القدرة على التعليم [٤].

ز. فنّانون في الألحان والموسيقى [٥].

ح. كُتَّاب موهوبون في وضع الألحان والموسيقى [٥].

ط. أغنياء أسخياء في العطاء [٦].

ي. أناس سلام موهوبون في بث السلام بين القادة والشعب [٦].

ووُجِد قادة للشعب بمشوراتهم،

وفهمهم لتعليم الشعب حكماء في كلماتهم التعليميّة [٤].

وُجِد من ألَّفوا ألحان موسيقية،
ودوَّنوا كتابات شعريّة [٥].

رجال أغنياء أصحاب قدرة،
يعيشون بسلام في مساكنهم [٦].

أولئك كلهم نالوا مجدًا في جيلهم،
وكانوا مصدر فخر في أيامهم [٧].

لم يُمَيِّز ابن سيراخ بين فئة وأخرى، إنما يرى كل الفئات السابقة تتَّسم بنوال المجد، تعتز بهم الجماعة المقدسة.

فمنهم من تركوا وراءهم اسمًا يجعل الناس يُخبرون مدائحهم [٨].

يسمح الله بإبراز أسماء مُعَيَّنة أمينة وناجحة، يمدحهم الشعب، كي يحثّ الأجيال القادمة على الأمانة والعمل.

ومنهم من لم يتذكرهم أحد، هلكوا كأنهم لم يكونوا قط،
وماتوا كأنهم لم يولدوا، وهكذا بنوهم بعدهم [٩].

ومع ذلك كانوا رجال رحمة وبرّهم يحيا مع الرب [١٠].

لا نعجب إن رأينا بعض الأمناء المخلصين الناجحين لم يعد لهم ذكر، كأنهم لم يكونوا، مع أنهم رجال رحمة وقاموا بأعمال برّ في الرب. لا يعني هذا أنهم قد غُبنوا، لأن ما يشغل فكر الله هو أن يتمتَّعوا بالأمجاد الأبدية. بهذا فإنه لا فرق بين من يُمَجِّده الناس لأنه سالك في الرب بقوةٍ، ومن يتجاهله التاريخ كأن لم يوجد قط، لأن الكل يجتمعون في يوم الرب العظيم كعروسٍ سماويةٍ واحدةٍ.

ما فعلوه من صلاح يدوم مع ذريّتهم وأولاد أولادهم [١١].
ذريّتهم تبقى (أمينة) للعهود، وأولادهم كذلك بفضلهم [١٢].

ما يؤكده ابن سيراخ، أن الذين تجاهلهم التاريخ وصار نصيبهم في السماويات، لا يُحرَمون من نسل مقدس وأحفاد يتمجَّدون في الربّ. هؤلاء الأبناء والأحفاد ليسوا حسب الجسد، وإنما بالروح.

تدوم ذريتهم إلى الأبد، ولا يُمحَى مجدهم [١٣].

دُفِنَت أجسامهم بسلام، وأسماؤهم تحيا مدى الأجيال [١٤].

تُخبِر الشعوب بحكمتهم، والجماعة تُعلن بمديحهم [١٥].

ختم ابن سيراخ مقدمة "رجال الله يمجدون الله" بتأكيد أن الذين ينالون كرامة حتى بعد مماتهم أو لا ينالون كرامة، الكل معًا كأناس الله ماتوا، لكن سيرتهم مُسَجَّلة في سفر الحياة، يتمجَّد الله فيهم خلال أبنائهم وتلاميذهم. بهذا الفكر الروحي لن يتسلَّل أي نوع من الغيرة أو الحسد بين أناس الله، لا في هذا العالم، ولا في الدهر الآتي.

٢. أخنوخ يمجد الله

أرضى أخنوخ الربّ، فنُقِل، كمثال للتوبة لكل الأجيال [١٦].

أول مثال للمشاهير أو للأبطال في الرب هو أخنوخ، وقد جاء في قائمة الرسول بولس الثاني من المشاهير (عب ١١: ٥-٦). وصفه يهوذا "السابع من آدم" (يه ١٤).

كل ما ورد عنه في سفر التكوين ٥: ٢٤، أنه سار مع الله، والربّ نقله إليه. يُنظَر إليه أنه موضوع سرور الله، لأنه صار درسًا لكل الأجيال، يحثّ الكثيرين على حياة التوبة بالمعنى الإيجابي وهو الالتقاء مع الله، والسير معه. تأهَّل أن يتعرَّف على السماء، بل وينطلق إليها.

تعبير "**أرضى أخنوخ الرب**" هنا يعني أنه كان موضوع سروره. لقد صار **نموذجًا لتوبة الأجيال**، لهذا بدأ به سيراخ قائمة الأبطال. هذه التوبة هي بدء عملية البحث عن الله. أرضى الرب إلى الدرجة التي فيها نقله من الأرض، فالتصق به تمامًا. لم يكن أخنوخ يهوديًّا، إذ عاش قبل نوح، فلم ينل العهد مع الله خلال إبراهيم. إنما أرضى الرب خلال حفظه التقليد الذي تسلَّمته البشرية من آدم وهابيل.

كل ما عرفه أخنوخ عن الرب هو أنه موجود، واجتهد أن يطلبه (عب ١١: ٦) لقد آمن بالله خلال معرفته القليلة عنه، وجعل هذه المعرفة أساس حياته. إن كان سفر سيراخ هو سفر الصداقة الأمينة، فإن الله سُرّ بأخنوخ كصديقٍ له، نقله إليه ليكون معه!

❖ بصعوبة كان أخنوخ يشعر بالموت في أي وقتٍ في داخله، وإذ انتقل إلى الربّ أطلق (الموت) من نفسه *himself*. طرده خارجًا بالتوبة... بحقٍ قيل إن الله نقله حتى لا يرى الموت، حيث لم يعد قابلاً بعد للموت، بل طرده خارجًا وهرب[1].

العلامة أوريجينوس

❖ ثبت أخنوخ في جمالٍ سامٍ وإلهيٍ، ونقَّى نفسه بالقداسة والطهارة.
وتفاضل بالسيرة البهية النقية، وأرضى الله بأفكارٍ مملوءةٍ بالحبِّ.
تربَّى بأفكارٍ عفيفةٍ وطاهرةٍ، وعاش بطهرٍ بدون همّ ولا غضبٍ.

---

[1] *Commentary on Romans, FOTC, vol. 103, p. 313-315.*

وسكن في البرية بدون حركات عالمية، وأرضي الله ثلاثمائة سنة وهو ينظر إليه.
لم يجد قط فيه عيبًا في نومه ولا في يقظته، ولا فكرًا متراخيًا وميالاً إلى العالم.
ظل ينظر إلى الرب كل يومٍ لمدة ثلاثمائة سنة، ومكث في جماله، ولم يتلطخ بالنواقص[1].
القديس مار يعقوب السروجي

٣. نوح يُمَجِّد الله

المثال الثاني هو نوح، دعاه كاملاً *teleios* وبارًا *dekaios* [١٧]. قال عنه القديس بطرس إنه كارز بالبرّ *dikaiosyne* (٢ بط ٢: ٥). لم يذكر ابن سيراخ سقوطه في السُكْرِ، إنما أبرز أنه وُجِد كاملاً وبارًا وبسببه نال هو وزوجته وبنيه ونساء بنيه الخلاص من الطوفان، وصار الثمانية في الفلك رمزًا للمؤمنين في كنيسة العهد الجديد (١ بط ٣: ٢٠-٢١). أقام الله عهدًا مع آدم حيث وعده بالخلاص الذي يُقَدِّمه كلمة الله المتجسد، آدم الثانى، ثم نال نوح عهدًا مع الله بعد الطوفان لحساب البشرية. وتَجدَّد العهد مع الأربعة بطاركة: نوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب (تك ٩: ٩؛ ١٧: ٩؛ ٢٦: ٣-٥؛ ٢٨: ١٣-١٥).

وُجِد نوح كاملاً وكان بارًا في زمان الغضب، حيث صار وسيلة للمصالحة[2]،
وبسببه أُبقيت بقية على الأرض حين جاء الطوفان [١٧].

صار نوح بحياته البارة موضوع استرضاء على كل الجنس البشري. أعلن الله رحمته على البشرية في شكل ميثاق بين الله والبشر، وأعلن أنه لن يُحَطِّم الجنس البشري بطوفانٍ.

أُقيمت معه عهود أبدية،
لكيلا يُمحى كل ذي جسد مرة أخرى بطوفان [١٨].

أبرز ابن سيراخ أن من سمات رجال الإيمان الأبطال أنهم يدخلون في عهدٍ مع الربّ، أما بالنسبة لنوح فدخل في "**عهود أبدية**" [١٨]. ذكر كلمة "عهد" بالجمع، ربما لتكرار عهد الله في سفر التكوين (١٦: ١٨؛ ٩: ٩-١٣، ١٦-١٧).

❖ قام أيضًا نوح ورأى إثم الجيل الشرير، ونسج البرّ ولبسه جسميًا.
تسلَّح بالاستقامة والوداعة، لئلا تلطخ الخطية جسمه فيما لو التقت به.

---

[1] الميمر ٦٣ على محبة الله للبشر وعلى محبة الأبرار (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

[2] بحسب *NRSV*: حيث أبقى على حياة البشرية *he kept the race alive* بحسب *OSB*: بحيث نُجِي بالتبادل *in which he was rescued in exchange*

رأى كيف تكاثر الزنا في بني جيله، فصفّ إزاءه البتولية ليغلبه بها.
وجد بأن كل واحدٍ أفسد طريقه بالزنا الدنس، فخاف المتميز من الاقتراب من الزواج.
وجد بأن الطبيعة زلّت وسقطت من الواجب، فقام ليثبت في البتولية متساميًا على الطبيعة.
ابتعد عن الزواج خمسمائة سنة، لأنه وجد بأن الزنا كان بين المتزوجين[1].
مكث في درجة البتولية خمسمائة سنة، ثم تزوّج لينجب لأجل هدف.
وحده كان صالحًا، وببرّه عزّى الأرض، وبعد أن خرب العالم كله اعتمر به.
ميَّز الذبائح، وأنشأ مذبحًا بمحرقات كاملة، وصار في جيله "البقية" (المقدسة) للعالم الذي هلك[2].

القديس مار يعقوب السروجي

٤. إبراهيم وإسحق ويعقوب يُمَجِّدون الله

إبراهيم: بخصوص ارتباط إبراهيم بالناموس اهتم سفر التكوين بالعهد أو الميثاق مع الله الخاص بالختان. أما هنا فأبرز سيراخ الآتي:

١. صار إبراهيم أيقونة الآب حيث تمتَّع بالأبوة الروحية، لا لأسرته فحسب ولا لشعبٍ واحدٍ، بل لأممٍ كثيرةٍ [١٩].

٢. ليس من يُشابِهه بين البشر في المجد [١٩] حتى حُسِب الاتِّكاء في حضنه اتكاء في ملكوت الله (لو ١٦: ٢٢). هذه هي مسرَّة الله أن يتَّسِع قلب المؤمن بالحب لشعوبٍ كثيرةٍ.

٣. عاش إبراهيم قبل موسى مُستلِم الشريعة بحوالي ٤٠٠ سنة، مع ذلك قيل عنه إنه حفظ ناموس العليّ [٢٠]. وكأن الناموس أقدم من الناموس المكتوب الذي استلمه موسى.

٤. دخل إبراهيم في عهدٍ مع العليّ [٢٠].

٥. وعد الله بمباركة نسل إبراهيم وأن يكثره كتراب الأرض، ويُعَلِّيه كنجوم السماء، ويهبهم ميراثًا من البحر إلى البحر [٢١].

كان إبراهيم أبًا عظيمًا لأممٍ كثيرةٍ،
ولم يوجد نظيره في المجد [١٩].

بينما كان لنوح أثره على **البقيّة** التي على الأرض [١٧]، إذا بإبراهيم يأخذ وعدًا بأبوته العظيمة

---

[1] يرى مار يعقوب السروجي أن نوحًا امتنع عن الزواج والتزم بالبتولية ليس لأن الزواج غير مقدس، ولكن لأنه رأى المتزوجين في عصره لم يلتزموا بالعفة، بل سقطوا في الزنا، ففضَّل نوح البتولية إلى حين، بهذا شهد لإمكانية إنسان الله أن يعيش عفيفًا وهو بتول.

[2] الميمر ٦٣ على محبة الله للبشر وعلى محبة الأبرار (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

لأممٍ كثيرة [١٩]. تحقَّق الوعدان لنوح وإبراهيم. فالكنيسة في الحقيقة هي بقية باقية مقدسة للرب، وفي نفس الوقت تحتضن كل الأمم والشعوب والألسنة.

ذكر ابن سيراخ الأبطال الثلاثة: أخنوخ ثم نوح فإبراهيم.

الأول يُمَثِّل قيام الله بعهدٍ شخصيٍ مع المؤمن،

والثاني قيام عهدٍ على مستوى أسري (نوح وعائلته)،

والثالث على المستوى المسكوني.

هكذا بدأت الكنيسة على مستوى الفرد مثل أخنوخ، ونمت لتشمل الأسرة، وإذ جاء مُخَلِّص العالم انفتحت أبواب الكنيسة لكل الأمم والشعوب والألسنة.

حَفظَ شريعة العليّ، الذي قطع معه عهدًا.

قطع عهدًا في جسده،

وعند التجربة وُجِد أمينًا [٢٠].

تَمتَّع إبراهيم بكرامة لم يتمتَّع بها أحد مثله (٤٤: ١٩)، لأنه:

١. حفظ شريعة العليّ.

٢. دخل في عهدٍ مع الله، وثبته في جسده (الختان).

٣. نجح في تجربة الإيمان (ذبح إسحق ابنه) تحدث ابن سيراخ عن امتحان إبراهيم [٢٠]، وذلك ليس في العهد الوارد في (تك ١٥: ١٨)؛ وإنما الذي ورد في (تك ١٧).

فلذلك أَثبت له (الربّ) بقسم أن في نسله ستُبارَك الأمم، ويُكثِّره كتراب ،

ويرفع ذريته كالنجوم في العدد،

ويُوَرِّثهم من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض [٢١].

يُقصَد بالنهر هنا نهر الفرات.

❖ قام إبراهيم مُحِب الحق والعبد الصالح، وكوَّن هو أيضًا في زمانه جبهة الإيمان.

ترك بلده وخرج وراء الرب كما دعاه، وترك جنسه ليدنو من الله.

مشى في الأرض مثل مهاجرٍ ولم يملّ، لأن عالمًا آخر كان مصورًا أمامه لينتقل إليه.

التهب بمحبة الرب كما بنارٍ، وبها أحرق كل الإغراءات الموجودة في العالم.

ربط وحيده على المذبح ليصير ذبيحة، وضرب حربة مراحم أحشائه ليذبحه للرب.

جُرِّب بالنار والسكين، وبرهن إن كان يحب بالأكثر الأبناء أم الله؟

برهان محبته ربطه لابنه الوحيد...

امرأته نُهبت، وبلده بعيد، وابنه مربوط، وإذ أَحَبّ الربّ لم يتألم في كل هذه الأمور[1].

القديس مار يعقوب السروجي

إسحق عطية الله لإبراهيم، خلاله تمتَّع الوعود الإلهية لأبيه.

كذلك أقام نفس العهد لإسحق، من أجل إبراهيم أبيه [٢٢].

ما شغل ابن سيراخ في حياة اسحق أنه تمتَّع بالعهد من أجل إبراهيم. هذا هو ما ورثه عن أبيه. استقرت البركة على رأس يعقوب الذي دُعِي "اسرائيل". ومع أنه أصغر من عيسو نال الميراث في نسله حيث صار أبناؤه الاثنا عشر آباء الأسباط الاثنى عشر.

بركة جميع البشر والعهد الذي أقامه يلبث على رأس يعقوب.

أَقرّ ببركاته له، وأعطاه ميراثًا، وقسم أنصبته بين الأسباط الاثني عشر [٢٣].

ما يُؤَكِّده ابن سيراخ أن إبراهيم تمتَّع بالعهد الإلهي، وورَّثه إسحق فابنه يعقوب، وتحقَّق الوعد في كنيسة العهد القديم خلال الاثني عشر سبطًا. ما كان يشغل ابن سيراخ في اختياره للأبطال، أنهم يخدمون شعب الله صاحب المواعيد الإلهية. لهذا لم يذكر في شخصية يعقوب الغنية بالأحداث سوى العهد الذي أقامه الله معه، وما تمتَّع به جميع الناس [٢٣]. يوسف الذي خَصَّص سفر التكوين عددًا من الأصحاحات، لم يتحدَّث ابن سيراخ عنه سوى عبارة واحدة بكونه مُعِينًا لشعبه (٤٩: ١٥).

❖ اسحق أيضًا قام وتربَّى في الجَمَال، وتمرَّن على الأفكار الإلهية.

ملأ نفسه إيمانًا وتواضعًا، وكان مُسَلَّحًا بالبرّ والاستقامة.

أبغض الخصام، وخسر ما له ولم يغضب، وأَحَبّ الأمان وهو هادئ وفاضل في أعماله[2].

القديس مار يعقوب السروجي

❖ يمكن للشخص أن يكتشف خلال التعقُّل بطريقة عميقة أن **الصبر هو أساس الفضائل.**

بالصبر صار **إبراهيم** أبًا للأمم (٤٤؛ تك ١٧: ٥؛ رو ٤: ١٧)، وصديق الله (يع ٢: ٢٣).

بالصبر صار **إسحق** الذي على مثال الابن الوحيد ذبيحة (تك ٢٢: ٢).

وبالصبر أيضًا حمل **يعقوب** عصا كصليبٍ (تك٣٢: ١٠؛ عب١١: ٢١)؛ وذاك الذي هرب (تك٢٧: ٣٤) جعله الصبر يعود مملوء غنىً (تك ٣٢: ٢٢-٢٣).

---

[1] الميمر ٦٣ على محبة الله للبشر وعلى محبة الأبرار (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

[2] الميمر ٦٣ على محبة الله للبشر وعلى محبة الأبرار (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

بمثل هذا الصبر جاهد **أيوب** ورفع لواء النصرة، بالرغم من أن خصومه كانوا كثيرين أصحاب سطوةٍ. ومع أنه كان عاريًا تمامًا، بدا كإنسانٍ مسَلَّح، مهوب أمام مصارعيه. وجد أيوب نفسه مطروحًا أرضًا، والذين أرادوا أن يخلقوا عقبات (الشياطين) كانوا يطوفون حوله في الهواء (أف ٢: ٢). الذين سبوه ارتدوا الأرجوان، أما هو فارتدى القروح. لكن قوات السماوات حسبته بهيًا...

الفقراء يُمَجِّدونه؛ والأغنياء يخدمونه، وكل الأجيال رَكَّزت أنظارها على أيوب كانعكاسٍ للبرّ.

أية حاجة إلى كلامٍ كثيرٍ عنه؟ أتريد أن تتعلَّم قوة الصبر القائم في أيوب؟

كان يوجد ثلاثة أصدقاء يسبونه، كانوا أصحاء جسديًا، مُفعَمين بالحيوية بسبب فيض بركاتهم الزمنية. وإذ كانوا يتعبون من الكلام كان كل منهم يستريح بالتناوب. أما عن أيوب فكان وحده جسمه مُغَطًّى بالقروح، حزين النفس. **باحتماله غلب هؤلاء الأقوياء**، وبصبره هدأ من الثرثرة المُلتهبة المهذارة للذين يهينونه معتمدين باطلاً على ثرثرتهم.

الأب هيسيخيوس الأورشليمي

من وحي سيراخ ٤٤

أَرِني مجد عروسك السماوية

❖ هب لي مع الطغمات السماوية أن أَترقَّب يوم مجيئك.

أرى الجميع عظماء وأقوياء، لأنهم أمناء في الحق.

لا يعود يوجد ملوك ورؤساء، ومشيرين ومُعَلِّمين، وأغنياء ونبلاء، وموسيقيين وملحنين.

صار الكل ملوكًا ينتمون إليك يا ملك الملوك. الكل موسيقيون يُنسَبون إليك يا مصدر البهجة.

بلايين نساهم التاريخ، وها هم منقوشون على كفك.

كثيرون لم يعرف لهم أحد نسلاً، وها هم يدخلون الملكوت ومعهم أبناء بلا حصرٍ!

كثيرون كنا نظن أنهم أولاد إبليس، وإذا بهم في اللحظات الأخيرة جحدوا أباهم الشرير وقبلوك أبًا سماويًا لهم،

فصاروا ورثة الملكوت الأبدي.

الأصحاح الخامس والأربعون

تمجيد موسى وهرون وفينحاس خائفي الرب

اهتم ابن سيراخ بالكشف عن شخصية **أخنوخ** الفريدة في وسط ظلمة العالم قبل نوح الذي بأسرته يُمَثِّلون كنيسة العهد الجديد المحفوظة في فلك وسط الطوفان، ثم تحدَّث عن **إبراهيم** أب المؤمنين **وإسحق ثم يعقوب**. الآن خلال نسل يعقوب نشأ شعب الله، وصارت له شريعة الله دستورًا. استلم موسى الشريعة، وأُقِيم هرون رئيس كهنة وشفيع عن الشعب، ثم فينحاس الذي لم يطق الفساد خاصة بين الكهنة. أعلن عمليًا أنه لا شركة بين النجاسة (الزنا) والقداسة. فالله القدوس يُقِيم كنيسة مقدسة!

١. موسى يُمَجّد الله [١-٥].

٢. هرون يُمَجِّد الله [٦-٢٢].

٣. فينحاس يُمَجِّد الله [٢٣-٢٦].

١. موسى يُمَجِّد الله

كُرِّم موسى بين القديسين، فاتحًا باب الرجاء لكل المؤمنين، فقد تعثَّر في بعض المناسبات (خر ٤: ١٣-١٥؛ ٥: ١١-٢٣؛ عد ٢٠: ١١-١٢)، لكنه تاب وتبع الله. لذلك كَرَّمه الله [٣] وقَدَّسه [٤].

أقام الرب من نسله رجل رحمة، الذي وجد نعمة في أَعيُن كلّ بشرٍ،
المحبوب من الله والإنسان، موسي، الذي ذِكْره مبارك [١].

أقام الرب من نسل يعقوب موسى، دعاه هنا "**رجل رحمة**". وهو أول قائد لشعب الله، اختاره ليُحَرِّرَهم من عبودية فرعون، بدالة وقف أمام غضب الله يُعلِن حُبَّه لهم، إذ قال: "الآن إن غفرت خطيتهم، وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت" (خر ٣٢: ٣٢). شفع فيهم معطيًا الأولوية لهم عن نفسه، كرجل رحمة نال نعمة في عيني الله، وفي أعين البشر، ليس فقط في عصره، وإنما عبر الأجيال. أحبه الله والناس، صار مُجَرَّد ذكره يُحسَب بركة [١].

جعل مجده كمجد القدّيسين، وجعله عظيمًا يرهبه أعداؤه [٢].

وصف موسى بكونه **مساويًا في المجد مع القديسين**. تطلَّع إلى موسى الذي كان وجهه يلمع كانعكاس لمجد الله عليه (خر ٣٤: ٣٣-٣٥؛ ٢ كو ٣: ١٣)، إذ كان يتحدَّث مع الله وجهًا لوجه.

أعطاه الرب **رهبة أمام أعدائه**، جاء في المخطوط اليوناني أنه كُرِّم مثل الله (الذي أرسله). وضع موسى النبي في مواجهته لفرعون (خر ٥: ١) منهجًا للأنبياء فيما بعده حيث واجهوا ملوكًا بشجاعةٍ

بلا خوفٍ مثل: صموئيل مع شاول الملك (١ صم ١٥: ١٦)، ناثان مع داود الملك (٢ صم ١٢: ٧-١٢)، وحناني الرائي مع آسا ملك يهوذا (٢ أي ١٦: ٧)، وإيليا مع أخآب الملك (١ مل ١٧: ١)، وميخا بن يملة مع أخآب الملك (١ مل ٢٢: ٨)، وإشعياء مع آحاز، وإرميا مع صدقيا.

بكلامه أوقف آيات، والربّ مَجَّده أمام الملوك،

وأعطاه وصايا من أجل شعبه، وأراه مجده [٣].

وهبه صنع آيات وعجائب (مز ١٥-١٧)، ومَجَّده أمام الملوك. كان "يكلم الرب موسى وجهًا لوجه، كما يكلم الرجل صاحبه" (راجع خر ٣٣: ١١)، سلَّمه الشريعة التي تُحسَب تجسيم للحكمة الإلهية (خر ٢٠-٢٣)، وأراه شيئًا من مجده (خر ٢٤، ٣٣)، ودخل مع الله في ميثاق.

قَدَّسه من أجل أمانته ووداعته،

واختاره من بين جميع البشر [٤].

اتَّسم بالأمانة والوداعة (عدد ١٢: ٣)، وهو مدين في هذا للقدوس الذي قَدَّسه بهاتين السمتين، واختاره من بين جميع البشر.

أسمعه صوته، وقاده في الغمام المُظلم،

وأعطاه الوصايا وجهًا لوجه،

شريعة حياة ومعرفة ليُعَلِّم يعقوب العهد وإسرائيل أحكامه [٥].

الغمام الذي قاده الله فيه يشير إلى دخوله في السحاب ليسمع كلمات الرب على جبل سيناء (خر ١٩: ١٦-١٩؛ ٢٠: ٢١)، وأعطاه فهمًا وحياة مقدسة (تث ٤: ٦؛ ٣٠: ١٥)، حتى يستطيع أن يُعَلِّم إسرائيل (تث ٤: ١٤؛ مز ٤٧: ١٩).

❖ قام موسى أيضًا وصنع حسنًا مع الله، وأقام جبهة للإيمان حسب استطاعته.

ازداد جمالاً ساميًا بالتواضع، واقترب من الله بالإيمان.

جمُل واستنار إلى أن صار إناءً مختارًا، لتستخدمه النبوة بغزارة.

صار باطنيًا بمحبة نفسه لله، إلى أن جعله مثل وكيلٍ لكل خزينته.

أَحَبّ شعب الرب وقت الضيق والاضطهاد، فأخذ عاره وترك غِنَى كل مصر[١].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[١] الميمر ٦٣ على محبة الله للبشر وعلى محبة الأبرار (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

٢. هرون يُمَجِّد الله

غَطَّى السفر هنا شخصية هرون ودوره أكثر من موسى، ليس لأنه أعظم من موسى، وإنما ليؤكد أن الله عامل في القادة عبر الأجيال، خاصة الكهنة. يبدأ هنا بهرون كأول رئيس كهنة، وينهي الحديث بسمعان بن أونا رئيس الكهنة المعاصر لابن سيراخ (٥٠: ١- ١٢).

جاء الحديث عن هرون كأول رؤساء الكهنة في سبعة عشر عبارة أكثر من أي بطل مذكور في هذا السفر ما عدا رئيس الكهنة سمعان بن أونيا (٥٠: ٢١-١)، ذلك لأن هذا يُعتبَر الوحيد بين الأسفار الحكمية الذي اهتم بالعمل الكهنوتي والعبادة الليتورجية.

جاءت القصيدة بخصوص هرون في جزئين: ثيابه (٤٥: ٦- ١٣)، والذبائح التي يُقَدِّمها (٤٥: ١٤-٢٢). فثياب البهاء وحلته المجيدة مع بقية الثياب تشير إلى السيد المسيح الذي يلتحف بكنيسته المقدسة التي بلا لومٍ كثوبٍ له يعكس بهاءه عليها ويُقَدِّسها. أما الذبائح فتشير إلى ذبيحة المسيح الفريدة.

استلم موسى الشريعة التي تقوم على وجود ميثاق بين الله والشعب، فصارت هناك حاجة إلى القداسة التي هي عطية القدوس، يتمتَّع بها المؤمنون خلال العبادة الروحية والكهنوت الذي هو ظل لكهنوت المسيح. ما أراده سيراخ من سلسلة أبطال إسرائيل هو: التركيز على الإخلاص لله في عبادة حقيقية، وعدم الإخلاص يجلب موتًا.

عظَّم هارون، قديسًا نظير موسى أخيه، من سبط لاوي [٦].

كان هرون مُقَدَّسًا نظير أخيه. كان دور موسى كنبيٍ أخذ الإعلان من الله وتبليغه إلى الشعب، في حين دور هرون ككاهنٍ هو رفع توبة الشعب وطلباتهم وذبائحهم إلى الله، وبهذا يكتمل عملهما.

قطع معه عهدًا أبديًا، وجعله كاهن الشعب. باركه بنظامٍ كهنوتي بهي، وسربله بحلّة مجيدة[١] [٧].

ركَّز ابن سيراخ على أن الله قد أودع عطية الكهنوت وممارسة العبادة لهرون وأبنائه. ما يؤكده ابن سيراخ أن الله هو الذي عَيَّن عبادة إسرائيل له، مقدمًا بركاته الإلهية لشعبه، لذلك إذ اغتصب داثان وأبيرام وقورح لسلطان الكهنة عاقبهم (عد ١٦، ٢٦) لتكفيره عن إثم إسرائيل.

ألبسه كمال الفخر[٢]، وثبّته برموز القوة، وألبسه سروالاً كتانيًا ورداءً طويلاً وأفودًا [٨].

---

[١] بحسب الأصل اليوناني *εὐκοσμία* تعني باركه بمنزلة جيدة.

[٢] بحسب *OSB*: *boasting* والكلمة اليونانية *καύχημα* تعني *honour*.

وجعل حوله رُمَّنات مع جلاجل كثيرة من ذهب حوله، كانت ترن مع كل خطوة من خطاه، ويُسمَع صوتها وهو يسير في الهيكل، ذكرًا لبني شعبه [٩].

وحُلَّة مُقدَّسة من ذهب وزنابق وأرجوان مُطَرَّز، وصدرة القضاء بها الأوريم والتميم، ونسيجها من قرمز صنع نسَّاج حاذق [١٠].

وعليها حجارة كريمة كنقش الختم، مُرصَّعة بالذهب، صنع نقاش جوهر منقوشة بحسب عدد أسباط إسرائيل [١١].

ورد وصف هذه الثياب الفخمة الثمينة في (خر ٢٨)، وأعطى الله الحكمة للصناع حتى يصنعوها بحذقٍ، كما نُقِشَت أسماء أسباط إسرائيل على حجارة كريمة، أي على كتفه اليمنى وعلى اليسرى، إذ يتقدَّم بنو إسرائيل جميعًا إلى الله من خلال هرون. وكانت الرمانات تعمل مثل أجراس لتنبيه بني إسرائيل عند حركته، كما زيَّنه بالأوريم والتُّميم، وهي حِجارَةٌ كَريمةٌ معناها الكمالات والأنوار، وكان بنو إسرائيل يستطلعون رأي الله من خلال اتجاه أشعتها (خر ٢٨: ٦).

وكان على العمامة الكهنوتية إكليل من ذهب، شكل الختم المقدس، علامة امتياز الكرامة، من صنع خبير، بهجة العيون لغِنَى زينته [١٢].

لم يكن لكل هذا مثيل قبله في الجمال، ولم يلبسها غريب فيما قبل، إنما يلبسه بنوه ونسله وحدهم على الدوام [١٣].

كانت ذبائحه مُحرَقة كاملة تمامًا، تُقدَّم كل يومٍ مرتين بلا انقطاع [١٤].

ذبيحة الصباح وذبيحة المساء وهما عبارة عن مُحرَقة للرب تقدم عن الشعب مرتين يوميًا.

موسى هو الذي سامه، ومسحه بالدهن المقدس، فصار ذلك عهدًا أبديًا له ولنسله إلى الأبد، ليخدم الرب، يخدم ككاهنٍ ويبارك شعبه باسم (الربّ) [١٥].

يقارن **القديس إكليمنضس السكندري**[1] بين هرون رئيس الكهنة والمرأة الخاطئة:

١. تَمتَّع هرون بمسحه بالدهن المقدس، فصار ذلك عهدًا أبديًّا له ولذريته (سي ٤٥: ١٥)؛ وأثمن ما كان لدى المرأة الخاطئة الطيب الذي سكبته على السيد المسيح.

٢. ارتدى هرون إكليلاً من ذهب (سي ٤٥: ١٢)، والمرأة الخاطئة مسحت قدميّ السيد بشعر

[1] *Paedagogus, FOTC, Vol. 23, p. 146-147.*

رأسها الذي يُعتبَر تاج المرأة وإكليلها.

٣. إذ لم تكن بعد قد دخلت في شركة مع رب المجد كخاطئة سكبت دموع التوبة.

اختاره من بين جميع الأحياء،

ليُقَرِّب التقدمة للرب، البخور ورائحة الرضى كذكرى، ويُكَفِّر عن شعبك [١٦].

كان الكهنة مسئولون عن تقديم البخور وتعليم الشعب وتفسير الشريعة (تث ٣١: ٩-١٣؛ ٣٣: ١٠) ولهم السلطة والحق في نظر القضايا الصعبة [١٧] (راجع تث ١٧: ٨-١٢؛ ٢١: ٥).

وأعطاه سلطانًا بوصاياه على أحكام الشريعة، ليُعلِّم يعقوب الشهادت،

ويُنِير إسرائيل في شأن شريعته [١٧].

يوضح سيراخ التكامل بين العبادة والطاعة للوصية الإلهية، بكونها مصدر الحكمة السماوية.

تآمر عليه غُرباء، وحسدوه في البريّة،

الرجال الذين اجتمعوا مع داثان وأبيرام وجماعة قورح في سخطٍ وغضبٍ [١٨].

مارس هرون الكهنوتَ لمدة أربعين سنة، وقد ثبَّت الرب كهنوته ضد الثائرين عليه وهم قُورَحَ وداثانَ وأبيرامِ، الذين حاولوا تقديم نار غريبة للرب، فهلكوا مع مائتين وخمسين من جماعتهم (عد ١٦)، وأما تثبيت الرب لكهنوته فجاء عن طريق قضيب اللوز الذي أزهر وأفرخ (عد ١٧: ٨).

رأى الربّ ذلك فلم يرضَ، فأُبيدوا في سخط غضبه،

أجرى ضدهم عجائب وأفناهم في ناره المُلتهِبة [١٩].

أشار ابن سيراخ إلى تمرُّد قورح وداثان وأبيرام الذين تحدُّوا هرون وموسى (عد ١٦: ٣). صارت هذه الجماعة أعجوبة حيث ابتلعتهم الأرض فجأة مع ظهور نار حَطَّمت الذين جروا وراءهم.

وزاد هارون مجدًا، وأعطاه ميراثًا، وقسم له أول بكور الثمار،

وأَعدَّ له الخبز من البكور بفيضٍ [٢٠].

زاد الرب مجد هرون بتخصيص اللاويين لمعاونة الكهنة، ومنح الكهنة نصيبًا في الذبائح (لا ٢٤: ٥-٩؛ عد ١٨: ٥-٩). وإذ صار الرب نفسه نصيبًا لهم وميراثًا، لم يرث اللاويين نصيبًا في أرض الموعد (عد ١٨: ٢٠).

فإنهم يأكلون من ذبائح الربّ،

التي أعطاها له ولنسله [٢١].

إلا أنه لم يرث في أرض الشعب، ولم يكن له نصيب فيما بين الشعب،
لأنه الربّ نفسه هو نصيبه وميراثه [٢٢]

كثير من الخدام عاشوا على الكفاف، لكنهم لم يشعروا بالعوز، ولا تطلعوا إلى مكافأة زمنية، إنما تمتَّعوا بالوعد الإلهي أن الرب نفسه هو نصيبهم، هذا هو ميراثهم الأبدي.

٣. فينحاس يُمَجِّد الله

فينحاس اسم عبري، معناه "فم النحاس"، وهو ابن ألعازر بن هارون.

بعد ذلك فينحاس بن ألعازار هو الثالث في المجد، عندما أظهر غيرته في مخافة الربّ،
ولأنه ثَبَت عند ارتداد الشعب، بصلاح غيرة نفسه[1]، فكفَّر عن إسرائيل [٢٣].

بقوله "الثَّالِثُ في المَجْد" يعني الجيل الثالث من هرون (خر ٦: ٢٥)، وهو بمثابة الوارث في الكهنوت في العهد القديم. مصدر كرامته التزامه بعبادة الله ووضع حدود بين المؤمنين وعابدي الأصنام (عد ٢٥: ١-٩). غار غيرة الرب عندما زنى الشعب مع بنات موآب، فقام بقتل زمري بن سالو رئيس بيت الشمعونيين مع المرأة المديانية كزبى بنت صور، فامتنع الوبأ ونال من الرب ميثاق عهد سلام له ولبنيه، وظلت رئاستهم للكهنوت حتى خراب الهيكل سنة ٧٠ م [٢٤].

لذلك أُقام (الربّ) معه عهد سلام، لكي يكون مسئولاً عن المقدس[2] وقائدًا لشعبه،
فتبقى له ولنسله عظمة الكهنوت مدى الدهور [٢٤].

وقُطِع عهدًا مع داود بن يسى من سبط يهوذا،
لكنّ ميراث المُلك ينتقل من ابن إلى ابن فقط، وأما ميراث هرون فلنسله [٢٥].

إذ تحدَّث سيراخ عن هرون رئيس الكهنة وفينحاس الكاهن، أراد تأكيد التمييز بين العهد الكهنوتي الهاروني والعهد الملوكي الداودي، لتأكيد أن الكهنوت خاص بسبطٍ واحدٍ، وهو سبط لاوي، والملوكية خاصة بسبط يهوذا. العهدان متكاملان لكن ليس من حق الكاهن أن يجلس ملكًا على عرش إسرائيل، ولا من حق الملك أن يغتصب العمل الكهنوتي.

١. إن كان سبط داود قد انفرد بالملوكية غير أن ميراثه يُسَلَّم من ابنٍ واحدٍ إلى ابنٍ واحدٍ، أما ميراث هرون فليس لابنٍ بل لنسله [٢٥].

٢. ظهرت ملوكية إسرائيل وكهنوته في رؤى زكريا النبي ليسا زيتونة واحدة بل زيتونتان (زك ٤: ٣)،

---

[1] *Soul.*
[2] *Sanctuary.*

حتى لا يغتصب سبط ما هو للسبط الآخر. وقد تم تكاملهما كرمزٍ للسيد المسيح الذي وحده هو ملك الملوك (رؤ ١٩: ١٦) وفي نفس الوقت رئيس الكهنة السماوي (عب ٨: ١).

العاملان الكهنوتي والملوكي يشرقان بالنور خلال زيت نعمة الله ليتمتَّع شعب الله بالاستنارة، أما السيد المسيح فهو نور العالم (يو ٩: ٥) الذي يهب المؤمنين من كل الشعوب أن يصيروا نورًا للعالم (مت ٥: ١٤).

٣. خلال الناموس كان شعب الله محتاج إلى الزيتونتين معًا، إحداهما عن يمين الكوز المملوء بزيت النعمة، والأخرى عن يساره (زك ٤: ٣). هذا التكامل للعمل معًا ظهر قبل الناموس في شخص ملكي صادق الذي هو ملك ساليم وفي نفس الوقت كاهن الله العلي (عب ٧: ١).

ليعطيكم الربّ الحكمة في قلوبكم، لكي تحكموا شعبه بالعدل،

فلا تزول خيراتهم، ويبقى مجدهم مدى أجيالهم [٢٦].

إن كان نسل هرون قد تمتَّع بالعهد الإلهي لممارسة العمل الكهنوتي، لكنهم كانوا محتاجين إلى الصلاة عنهم، شعر سيراخ بهذا، فكان يصلي عنهم، قائلاً: "ليعطيكم الربّ الحكمة في قلوبكم لكي تحكموا شعبه بالعدل" [٢٦].

هذا ما يطلبه الشماس من الشعب في القداس الإلهي والليتورچيات، قائلاً: "صلوا واطلبوا عن أبينا البابا البطريرك" كما يسأل نفس الأمر بخصوص الأساقفة والكهنة والشمامسة.

لماذا صلَّى ابن سيراخ من أجل رؤساء الكهنة والكهنة الذين من نسل هرون؟ بلا شكٍ كانت نفس سيراخ مُرَّة، لأن بعض الأشخاص اشتروا الكهنوت من الملوك السلوقيين في القرن الثاني ق.م. ليخدموا في الهيكل بأورشليم. إن كان الكاهن يُصَلِّي طالبًا البركة للشعب، فإن ابن سيراخ يتلامس مع البركة التي تحلّ على كهنة الله من أجل خدمتهم شعب الله.

❖ قام فينحاس وصنع ظفرًا بسبب الزناة وأبان غيرته: ومدى قربه من الله.

عمله يشهد كم كان ضميره يقظًا، لأنه طرد الزنا من المعسكر ببرّه.

انظر إلى فعله، ومنه تتعرَّف على محبته: كم كان يهتم أن يزيل الشر من شعبه.

كانت نفسه مقدسة ونقية وتبغض الزنا، فرمى الزناة بالرمح حتى يُبطل الشر.

قام في الصلاة ومنع الموت عن كثيرين، وبالشخصين اللذين قتلهما أنقذ آلافا لئلا يبادوا[١].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[١] الميمر ٦٣ على محبة الله للبشر وعلى محبة الأبرار (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

من وحي سيراخ ٤٥

اكشف لي عن خطتك من نحوي!

❖ يا للعجب كيف كان فرعون بكل جبروته يخشى الطفل العبراني موسى!
تربَّى في بيت فرعون العنيف، ولم يُدرِك أن الطفل الذي في بيته رجل رحمة!
لم تُفارِق الرحمة قلبه مِن طفولته إلى يوم نياحته!
وهبته روح القوة والقداسة، فصنع آيات أمام الملوك.
أظهرت له مجدك وسلَّمته الشريعة.
أملت أذنك، واستعذبت شفاعته في الشعب عندك.
كان موضوع رضاك من أجل أمانته ووداعته.

❖ قطعت مع هرون عهدًا، فارتدى ثوب الكهنوت البهي.
مع كل خطوة في الهيكل يتهلل السمائيون لصوت الجلاجل التي في هدب ثوبه!
يحمل على صدرته أسماء الأسباط الاثني عشر.
نُقِش على عمامته "قدس للربّ".
قبلت ذبائحه اليومية النهارية والليلية وبخوره العطِر.
رفعته في أعين السمائيين والأرضيين،
إذ لم تعطه نصيبًا في أرض الموعد،
لأنك أنت هو نصيبه.

❖ التهب قلب فينحاس حفيد هرون بالمخافة الإلهية.
لم يَقْبَل الصمت على كاهن يزني مع سيدة وثنية.
قدَّست نفس فينحاس، وبصلاته الطاهرة مُنع الموت عن كثيرين!
ماذا أطلب إلاَّ أن تقود حياتي بالقداسة والأمانة.
فيكون لي نصيب في أحضانك الأبدية!

الأصحاح السادس والأربعون

تمجيد يشوع وكالب والقضاة وصموئيل

أُعفي الكهنة في العهد القديم من التجنيد والاشتراك في المعارك، غير أن فينحاس الكاهن في غيرته ومخافته للرب صوَّب رمحه ضد الكاهن الذي سقط في النجاسة مع امرأة وثنية. كأن فينحاس انضم إلى فئة المُحارِبين لا من أجل النُصرة على الأمم الوثنية والتمتُّع بأرض الموعد، وإنما من أجل مقاومة الشرّ داخل شعب الله وقياداته لكي يُعلِن الربّ سكناه وسط شعبه، ويَقْبَل أن يكون الشعب هو نصيب الربّ، كما أن الربّ هو نصيب المؤمنين: "نصيبي هو الربّ قالت نفسي" (مرا ٣: ٢٤).

١. مديح يشوع بن نون [١-٦].

٢. مديح يشوع وكالب بن يفنّة [٧-١٠].

٣. مديح القضاة [١١-١٢].

٤. مديح صموئيل النبي [١٣-٢٠].

١. مديح يشوع بن نون

تعيَّن يشوع كخليفة لموسى في النّبوة وقيادة الشعب (تث ٣٤: ٩-١٠)، وكان موسى قد أسند إليه قبلاً الكثير من الأعمال، حيث كان يعتبره الخادم الأمين (خر ١٧: ٩؛ ٢٤: ١٣) وقبل نياحته عيَّنه بشكل رسمي أمام ألعازر الكاهن والشعب خليفة له (عد ٢٧: ١٨-٢٣؛ تث ١: ٣٨) وعقب موت موسى أَعَدّ بني إسرائيل لعبور الأردن إعدادًا جيدًا، وتحقَّق له النصر وميراث الأمم (يش ١١: ٢٣).

يشوع بن نون رجل بأس في الحروب، وخليفة موسى في النبوات،
وكان كاسمه عظيمًا في خلاص المختارين، ومعاقبة الأعداء الذين قاموا عليهم،
وإعطاء إسرائيل ميراثه [١].

يتحدَّث ابن سيراخ عن القائد العام للمُحارِبين الذي دعاه "رجل بأس في الحروب" [١]. الحديث هنا عن المُحارِبين خاصة يشوع بن نون وكالب بن يفنة والقضاة، لأن ابن سيراخ عاصر عائلة كهنوتية صارت عائلة مُحارِبة، ألا وهم المكابيون. جذب هؤلاء الكهنة الغيورين من الشعب لمقاومة المستعمر الذي يُصِرّ على تدنيس هيكل الربّ وكسر الوصايا الإلهية وقبول عبادة الأوثان.

قَدَّم ابن سيراخ عمل الله في حياة يشوع الذي حارب لكي يملك إسرائيل أرض الموعد [١-٦]. بهذا يسند المُعاصِرين له لمقاومة خلفاء إسكندر الأكبر والعمل على قدسية بيت الربّ وأرض الموعد.

"كان يشوع كاسمه عظيمًا في خلاص المختارين [١]، فإن معناه "الربّ يُخَلِّص"، قاد الشعب وغلب الكنعانيين، مبتدئًا بمدينة أريحا (يش ٦). كان رمزًا للمسيا المنتظر مُخَلِّصنا الذي دُعِيَ يسوع.

"**معارك الربّ**"، تحقَّقت بطولة يشوع باختفائه في القائد الحقيقي الربّ نفسه، لذا دُعِيَت معارك يشوع "معارك الربّ" [٣]. هكذا بقدر ما نختفي في الربّ مؤمنين في جهادنا الروحي أن طرفي المعركة هما الربّ نفسه وإبليس، تتحقَّق نصرتنا باختفائنا فيه، فنُحسَب "جنود المسيح" (٢ تي ٢: ٣).

حرَّك الربّ الطبيعة لخدمة يشوع وشعبه (يش ١٠: ١٢-١٤)، فأطال مدة يوم المعركة **وجعله طويلاً كطول يومين** [٤]. هكذا حين يقود الربّ معركتنا ضد إبليس يهبنا ما يبدو مستحيلاً، إذ يُوَجِّه كل شيءٍ لأجل نصرتنا. أما سرّ نصرة يشوع أنه لم يُحارِب بالسيف فقط، وإنما بالصلاة أيضًا، إذ "دعا الربّ العليّ القدير" [٥]، "فاستجاب له الربّ العظيم".

يتحدَّث هنا عن نصرة يشوع على عماليق (خر ١٧: ٨-١٣). احتاج موسى إلى هرون وحور كي يحملا يديه المبسوطتين حتى تنتهي المعركة، بينما استمر يشوع محاربًا عماليق حتى النهاية.

❖ إنني أعبر إلى يشوع بن نون، رمز الربّ بالنسبة للاسم (يسوع) كما بالنسبة للعمل، هذا الذي عبر إلى الأردن، وأخضع الممالك المعادية وقسَّم الأرض بين الشعب المنتصر، هذا الذي في كل مدينةٍ وقريةٍ وجبلٍ ونهرٍ وتلالٍ وتخمٍ تعامل معه، اصبغ عليه ممالك أورشليم السماوية، أي الخاصة بالكنيسة[1].

القديس چيروم

ما أعظم مجده عندما رفع يديه، وبسط سيفه إنذارًا للمدن! [٢]

سلاحه "رفع يديه للصلاة" وصاحب سلطان، فلم ترجع الشمس أي لم تغرب حتى تتم النُصرة، إذ صار اليوم طويلاً كطول يومين [٤]. رفع اليد هنا يعنى إعلان الحرب على الأعداء.

مَنْ مِن قبله ثبت صامدًا مثله؟ فهو الذي قاد حروب الربّ [٣].

لم يدخل يشوع في معركة خاصة به، فلم يُدافِع عن نفسه ولا عن كرامته ولا طلبًا في غنيمة، إنما اختفى في الرب ليقود "**معارك الرب**".

ألم ترجع الشمس بإشارة من يده،

وصار يومٌ كيومين؟ [٤]

ورد في تاريخ هيرودوت أن الكهنة أطلعوه على وثائق تشير إلى وجود يوم أطول من المعتاد

---

[1] *Letter 53: 8.*

وكذلك في الصين يؤكدون أن هناك يومًا طويلاً في عهد الإمبراطور "يو" وهو معاصر ليشوع بن نون، وفي المكسيك هناك وثائق تشير إلى أنه قد حدث يومًا طويلاً في التاريخ في نفس السنة التي كان يشوع يواصل انتصاراته فيها[1].

دعا الربّ العليّ القدير، عندما كان الأعداء يُضيّقون عليه من كل جهة.

فاستجاب له الرب العظيم بحجارة بَرَد عظيمة الثقل [٥].

حطَّم تلك الأمم في الحرب، وفي منحدر بيت حورون أهلك المُقاوِمين لكي تعرف الأمم سلاحه الكامل، لأنه كان يحارب حرب الربّ [٦].

صعد يشوع للحرب ضد خمسة ملوك، وكان الرب نفسه يُشَدِّده، قائلاً له: "لا تخفهم، لأنيّ قد أسلمتهم. لا يقف رجل منهم بوجهك" (يش ١٠: ٨). صعد إليهم بغتة طول الليل، والرب نفسه أزعج العدو وضربه ضربة عظيمة في جبعون، وطرده في طريق عقبه بيت حورون، وضربه إلى عزيقة وإلى مقيدة... وبينما كان العدو هاربًا من أمام إسرائيل وهو منحدر بيت حورون، رماه الرب بحجارة بَرَد عظيمة من السماء فكان القتلى بالحجارة أكثر من القتلى بالسيف. كأن الغلبة على هؤلاء الملوك تَحَقَّقت بأمرين: السيف وبحجارة البَرَد النازلة من السماء.

❖ يشوع بن نون البار الذي صار تلميذًا كاملاً للمُعَلِّم العظيم (موسى) كان أيضًا جميلاً.
أراد أيضًا أن تنتصر فيه محبة الحياة، ويقترب من الله بالكمال.
حافظ على الطهارة أثناء خدمته في قبة الزمان (خيمة الاجتماع)،
وصار للشعب موسى الثاني عند الله.
قاتل ليثبت كلمة الرب في الشعوب، والقوات التي صنعها عرَّفت كم كان جماله ساميًا[2].

القديس مار يعقوب السروجي

٢. مديح يشوع وكالب بن يفنّة

وبالحقيقة انقاد للربّ. حتى في أيام موسى أظهر أمانته هو وكالب بن يفُنَّة حيث صمدا أمام الجماعة، ليَمنعا الشعب عن الخطية ويوقفا تذمُّرهم الشرّير [٧].

أضاف سيراخ إلى يشوع رفيقه المشهور كالب بن يفنة متذكرًا أن الاثنين حثّا إسرائيل على النُصرة على الأرض المقدسة في أيام موسى [٧-٨]. في أيام ابن سيراخ وُجِدَ قادة كثيرون يرتدّون عن

---

[1] الأنبا مكاريوس.

[2] الميمر ٦٣ على محبة الله للبشر وعلى محبة الأبرار (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

الحكمة الإلهية والوصية والالتصاق بالفكر الهيليني. لذا قَدَّم سيراخ هذين الرجلين اللذين قاومهما الشعب في أيام موسى، وقد ثابرا على بثّ روح الإيمان والثقة في الوعود الإلهية.

❖ عندما يجد الإنسان نفسه في حالة غير تلك التي تتفق مع إرادته وميوله، يرى نفسه إنه في سجن وعذاب. لذلك يجب عليك أن تكون راضيًا بما لديك حتى لا تتألم (من أحوالك)، وتصير غير شاكرٍ (ومُتذمِّر)، فتظلم نفسك بنفسك دون أن تدري. ولكن يوجد طريق واحد: احتقر العطايا الزمنية[1].

القديس أنطونيوس الكبير

❖ **سؤال: ماذا إن أطاع، لكنه يتذمَّر وهو يعمل؟**

الإجابة: يقول الرسول: "افعلوا كل شيءٍ بلا دمدمة ولا مجادلة" (في ٢: ١٤). المُتذمِّر ينحرف عن وِحدة الإخوة، وربما لا يستخدمون عمله. لأن مثل هذا واضح أنه مُصَاب بقلة الإيمان وعدم ثباته في الرجاء[2].

القديس باسيليوس الكبير

وبالحقيقة هما وحدهما حُفِظَا من الست مئة ألف من الشعب المشاة،

ليدخلا إلى الميراث، إلى أرض تفيض لبنًا وعسلاً [٨].

إذ قَدَّم يشوع وكالب بن يُفنّة تقاريرهما عن أرض الموعد وخيراتها وسكانها، حدث تَذَمُّر وسط الشعب وبكاء مشتاقين الرجوع مرة أخرى إلى العبودية تحت قيادة جديدة غير موسى النبي. لذلك لم يدخل من ذلك الجيل أرض الموعد سوى يشوع وكالب.

ووهب الربّ كالب قوة، بقيت معه إلى شيخوخته،

لأنه صعد إلى مرتفعات الأرض التي حفظها نسله ميراثًا [٩].

نال كالب شهرة عظيمة لثباته على وصية الربّ بينما كانت الغالبية تُعارِضه. تَقدَّم كالب إلى يشوع، وقال له: "الآن فها قد استحياني الرب كما تكلم هذه الخمس والأربعين سنة من حين كلم الرب موسى بهذا الكلام حين سار إسرائيل في القفر، والآن فها أنا اليوم ابن خمس وثمانين سنة. فلم أزل اليوم متشددًا، كما في يوم أرسلني موسى كما كانت قوتي حينئذ هكذا قوتي الآن للحرب وللخروج وللدخول. فالآن أعطني هذا الجبل الذي تكلم عنه الرب في ذلك اليوم، لأنك أنت سمعت في ذلك

---

[1] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٥٨.

[2] *Regulae brevius tractatae, 39.*

اليوم أن العناقيين هناك والمدن عظيمة مُحَصَّنة، لعل الرب معي فأطردهم كما تكلم الرب" (يش ١٤: ١٠-١٢).

لكي يَعْلَم جميع بني إسرائيل صلاح اتِّباع الربّ [١٠].

رفع الله كالب ويشوع فوق الجماعة في جيلهما مما كشف التبعية للربّ (٤٦: ١٠).

٣. مديح القضاة

والقضاة أيضًا كل منهم باسمه، لم تسقط قلوبهم في عبادة الأصنام،

وكل منهم لم يرتد عن الربّ - فليكن ذكرهم مباركًا! [١١]

ربط سيراخ القضاة بيشوع وكالب دون أن يشير إلى أحدهم بالاسم. إن كان ابن سيراخ بدأ بأخنوخ حتى موسى وهرون كأبطال إيمان دخلوا في عهود مع الله، ومارسوا العبادة له بإخلاص، الآن انتقل إلى أبطال خلال معارك حربية غايتها تحطيم عبادة الأصنام، والعبادة لله وحده، وإقامة بيت للربّ تُمارَس فيه العبادة عبر الأجيال. انتقل بعد ذلك إلى صموئيل النبي الذي على يديه مُسِح شاول وداود الملكان، واحد حسب هوى الشعب، والثاني حسب فكر الله [١٣].

ولتحيا عظامهم من قبورهم[١]، وليحيا اسم أولئك المُكرَّمين في أبنائهم! [١٢]

كانت كلمات حزقيال النبي عن قيامة الأموات (حز ٣٧: ١-١٤) في ذهنه وهو يُعلِن عن إيمانه بالقيامة من الأموات. بغيرة مُتَّقِدة يصلي ابن سيراخ من أجل تلاميذه وكل الجيل الجديد أن يسلكوا في طريق آبائهم الأبطال في الإيمان.

في مديحه للسلف قَدَّم شهادة عن الاعتقاد في القيامة. "ليت عظامهم تزدهر" (٤٦: ١٢؛ ٤٩: ١٠). عملية الازدهار للنبات تدل على الحياة. وكأن العظام الجافة تتمتع بالقيامة فتزدهر الحياة.

أيضًا تحدَّث عن إيليا النبي الذي يُتوقَّع عودته لإصلاح إسرائيل (٤٨: ١٠). سليمان الذي بدأ حياته بروح التقوى والحكمة، سقط بسبب شهواته الجسدية. إنه درس للمؤمنين، فلا يعتمد أحد على أنه عضو في الكنيسة، ولا على قداسة آبائه، ولا على ما بلغه في صباه من قداسة (سي ٤٩: ٤-٥).

❖ جدعون كان يقظًا، وباراق مملوءً إيمانًا، وشمشون نذيرًا، وصموئيل مستنيرًا بالنبوة[٢].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[١] بحسب *OSB*: موضعهم وبحسب *NRSV*: من حيث يرقدون.

[٢] الميمر ٦٣ على محبة الله للبشر وعلى محبة الأبرار (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

٤. مديح صموئيل النبي

نبي الربّ صموئيل، المحبوب من الربّ، أسس المملكة ومسح رؤساء لأجل شعبه [١٣].

يُعتبَر صموئيل رمزًا للانتقال من نظام القضاة إلى نظام الملوك. هذا وقد تطلَّع صموئيل آخر القضاة إلى عدم الفصل بين العبادة والحرب ضد الأوثان. اهتم ابن سيراخ بشخصية صموئيل بكونه رجل التحوُّل، عاش كقاضٍ ونبيٍ في ظروف حالكة. كان لرجل التحوُّل أن يَتَّسِم بجوانب متنوعة لقيادة الشعب والقادة، حتى ينجح في تحقيق رسالته. صموئيل من أَحَبّ الشخصيات إلى قلوب اليهود، حيث جمع في شخصيته عدة صفات:

أ. **نبي الربّ**، أول أنبياء الله بعد موسى، أعلن إرادة الله ومشيئته للقادة كما للشعب [١٣].

ب. **المحبوب من الربّ**، علامة على العلاقة الشخصية مع ربّه [١٣]. وهو أمين وموضع ثقة (١ صم ٩: ٦).

ج. **حفظ شريعة الربّ** في قراراته وسلوكه [١٤].

د. **آمن بوعود الربّ** ليعقوب بن إسحق بن إبراهيم "افتقد الربّ يعقوب" [١٤].

هـ. **اتَّسَم بالأمانة والإخلاص وتقديس كلماته**، فعُرِف أنه نبي حقيقي وصادق [١٥].

و. **لم يكن كسائر القضاة المُحارِبين الروحيين**، إنما كان نبيًا، أنشأ مدرسة الأنبياء، يعلمون الشعب حياة الصلاة والتجاوب مع مشيئة الله. كان قائدًا روحيًا استمر في عمله أثناء حكم شاول الملك وبعد مسح داود النبي ملكًا.

ز. كان **رجل صلاة** [١٦] في وقت طلب الشعب أن يكون لهم ملك كسائر الأمم يفتخرون به. مع معارضته لهم، طلب الربّ منه أن يستجيب لطلبتهم بعد أن يُحَذِّرَهم مما سيتكبدونه من الملك وعائلته بل وسبطه.

قضى للجماعة بحسب شريعة الربّ، وافتقد الربّ يعقوب [١٤].

ما كان يشغل صموئيل النبي هو الطاعة للوصية الإلهية. إذ تعدَّى شاول حدوده عاصيًا الوصية الإلهية بتقديم ذبائح هي من عمل الكاهن لا الملك، جاءه صموئيل النبي يُوَبِّخه، قائلاً له: "ماذا فعلت؟" (١ صم ١٣: ١١). عوض أن يُراجِع نفسه ويعترف بخطئه، ألقى باللوم على صموئيل، قائلاً: "لأني رأيت أن الشعب قد تفرَّق عني وأنت لم تأتِ في أيام الميعاد والفلسطينيون مجتمعون في مخماس، فقلت الآن ينزل الفلسطينيون إليّ إلى الجلجال ولم أَتضرَّع إلى وجه الرب فتجلَّدت وأصعدت المحرقة" (١ صم ١٣: ١١-١٢).

بأمانته أكّد أنه نبي حقيقي، وبكلماته عُرِف أنه راءٍ أمين [١٥].

عرف جميع إسرائيل من دان إلى بئر سبع أنه قد اؤتمن صموئيل نبيًا للرب (١ صم ٣: ٢٠).

وهكذا دعا الربّ القدير، عندما أقلقه أعداؤه من كل جهة، وعندما أصعد حملاً صغيرًا [١٦].

فأرعد الرب من السماء، وبصوتٍ عظيم أسمع صوته [١٧].

يشير إلى انتصارات اليهود على الفلسطينيين في المصفاة (١ صم ٧: ٧ -١١) حيث أرعد الرب في ذلك اليوم على الفلسطينيين فأزعجهم فارتعبوا وانكسروا أمامهم.

وأباد قُوَّاد شعب صور، وجميع رؤساء فلسطين [١٨].

وقبل زمان رقاده الدائم، دعا الشعب ليشهدوا أمام الربّ ومسيحه:

"إني لم آخذ من أحد مالاً بل ولا حذاءً"، وبالحق لم يتهمه أحد [١٩].

يرى ابن سيراخ أن الموت هو رقاد للجسد، أما النفس فتنطلق إلى الله. قَدَّم صموئيل النبي حديثًا وداعيًا صريحًا، أشهدهم فيه أمام الله ومسيحه على أمانته من نحوهم وعدم استغلاله لهم، كما ذكَّرهم ببركات الرب وأعماله معهم، ووبَّخهم على طلبهم ملكًا، فاتحًا أمامهم باب الرجاء في الرب المُحِب لشعبه. ما فعله صموئيل النبي هنا ليس دفاعًا عن نفسه، لأنه لم يتهمه أحد بشيءٍ إنما قصد به تثقيف الملك الجديد. وكما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [لم يتهمه أحد، فإنه لم ينطق بهذا لكي يُبَرِّر نفسه، وإنما لأنه قام بمسح ملك، فأراد أن يُعَلِّمَه أن يكون وديعًا ولطيفًا تحت ستار دفاعه عن نفسه... لقد نطق بهذا ليكون (الملك) في حال أفضل[1].]

وحتى بعد رقاده تنبأ وأرى الملك نهايته،

ورفع من الأرض صوته بالنبوة ليمحو إثم الشعب [٢٠].

اِلتجاء داود إلى أخيش جعل شاول الملك في مركزٍ حرج عندما صار الفلسطينيون ضد إسرائيل. أما شاول إذ حلّ به الخطر لم يجبه الرب بسبب شروره المستمرة، فالتجأ إلى صاحبة جان (١ صم ٢٨)، مع أنه حرَّم أصحاب الجان والتوابع. لقد تخفَّى، وطلب منها أن تستدعي روح صموئيل ليطلب مشورته. جاء في سفر ابن سيراخ أن الله سمح أن يحدثه ليُوَبِّخه على تصرُّفاته الشريرة ويرى البعض أنه جاء الشيطان في شكل صموئيل يتحدَّث معه، لأنه ليس ممكنًا له أن يستحضر أرواح المنتقلين.

---

[1] *In 2 Cor. Hom 24.*

يداك تُدَرِّبان جبابرة بأس!

❖ ظن إبليس أن شعبك ينهار بموت موسى.
يداك اللتان دَرَّبتا موسى العظيم في الأنبياء، دَرَّبتا تلميذه يشوع!
صوتك يدوي عبر الأجيال: "كما كنت مع موسى أكون معك!" (يش ١: ٥)
ما كان يمكن لموسى أن يعبر الأردن، هوذا عبره يشوع مع القادة والشعب!
بإشارة من يده وقفت الشمس، وطال النهار إلى يومين (يش ١٠: ١٢).
أمسك بالسيف ليُحارِب، أما أنت فألقيت على أعدائه حجارة من البَرَدْ! (يش ١٠: ١١)

❖ دخل يشوع وكالب أرض الموعد دون كل الذين خرجوا من مصر.
شاخ كالب، أما قوته فلم تتحدر قط.
في سن الخامسة والثمانين كانت قوته كما هي وهو في الأربعين.
تمجَّدت في الشيخ الذي صعد إلى مرتفعات الأرض كشابٍ قويٍ!

❖ أثار الشيطان الشعوب الوثنية لكيلا تتوقَّف عن محاربة شعب الله.
ومن جانب آخر أرسلتَ قضاة أتقياء يشهدون لك.

❖ فسدت عائلة عالي الكاهن الشيخ، وجلب ابناه المرارة على الشعب.
افتقدت شعبك بطفلٍ صغير (صموئيل). ماذا ندعوه؟ لقد ظهرتَ له ووهبته روح النبوة.
دعوته حبيبك، إذ اِلتصق بشريعتك.
أباد قادة الوثنيين، ولم ينشغل قلبه بذهبٍ أو فضة.
لم يطلب من أحد شيئًا، لأنك أنت هو كنزه.
تَمَرَّرَت نفسه من أجل قلب الملك شاول الشرير.
لم تتجاهل دموعه، فمسحت العظيم في الملوك داود النبي!
يدك يا إلهي صنعت عجائب، ولا تزال تصنع، وستصنع إلى يوم مجيئك الأخير.
لك المجد يا راعي النفوس القدير!

الأصحاح السابع والأربعون

تمجيد داود وسليمان

في الأصحاح السادس والأربعين أبرز ابن سيراخ اهتمام الله بإقامة قادة أمناء في كل العصور، حتى في فترة القضاة التي يتطلَّع كثيرون إليها أنها حالكة الظلام. والتي عَبَّر عنها السفر نفسه بقوله: "في تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل، كل واحدٍ عمل ما حسن في عينيه" (قض ٢١: ٢٥). أما في هذا الأصحاح فيؤكد ابن سيراخ حقيقة مُكَمِّلة للحقيقة الأولى، وهي أنه مهما بلغت عظمة القائد وروحانيته وقدراته فهو ليس معصومًا من الخطأ. لذا يليق بالقائد الحيّ ألاَّ يتهاون ما دام في الجسد.

قَدَّم في هذا الأصحاح ثلاثة قادة:

١. الجد **داود**، مع عظمة نقاوة قلبه، تهاون فسقط في خطية لم يسقط فيها يوسف الشاب المُتغرِّب.
٢. الابن **سليمان**، فاق الكثير من القادة بطلبه الحكمة وهو صغير السن كي يرعى شعب الله. ومع هذا إذ نال مجدًا وغنى وكرامة، أسلم حقويه بجوار نساء وثنيات فاستعبده الجسد بشهواته الشريرة.
٣. الحفيد **رحبعام**، لم يتَّعِظ من والده ولا من جده، ففي تهاون ترك المشورة الحكيمة في الربّ، واستسلم لمشورة أصدقاء متهاونين، فانقسمت المملكة إلى مملكتين، وكانت النهاية سقوطهما الأولى تحت السبي الأشوري والثانية تحت السبي البابلي.

١. مديح داود الملك [١-١١].
٢. مديح سليمان الملك [١٢-١٨].
٣. سقوط سليمان [١٩-٢٢].
٤. تمرد يربعام وانقسام المملكة [٢٣-٢٥].

١. مديح داود الملك

أبرز سيراخ النقاط التالية:

١. داود الصبي **مُحارِب** قوي وشجاع في حماية القطيع من الأسود والدببة [٣]، كما حَطَّم جليات الجبار [٤]، وحارب كملكٍ ضد الكنعانيين خاصة الفلسطينيين [٥-٧]. كانت أسلحته الرئيسية في معاركه هي محبة الله وشعبه وصلواته [٥]؛ لم ينسَ تقديم ذبائح الشكر والتسبيح لله واهب النُصرَة [٨-٩].
٢. اهتمام داود **بالعبادة الجماعية** [٩] وبثّ روح الفرح بالاحتفالات الخاصة بالأعياد [١٠].

٣. **إنسان التوبة الصادقة**، فتأهَّل لنوال عهد ملوكي أبدي [١١].

وبعده قام ناثان، ليتنبأ في أيام داود [١].

لم يذكر سقوط داود، لأن توبته مسحت خطيته من سجل حياته. لكن لئلا نتهاون في الخطية، ذكر ناثان الذي تنبأ في عصره، والذي بكَّت الملك على خطيته، وأكد حاجته للتأديب الحازم ليدرك مرارة الخطية فلا يُكَرِّرها. وبَّخ ناثان النبي الملك داود على سقوطه في الزنا مع بثشبع وقتله زوجها في المعركة (٢ مل ١٢: ١-١٥).

كما يُفصَل الشحم من ذبيحة السلامة، هكذا فُصِل داود من بين بني إسرائيل [٢].

لا نعجب من تشبيه داود النبي والملك بالشحم الذي يُفصَل من ذبيحة السلامة. (راجع ملحق هذا الأصحاح).

لاعب الأسود كملاعبته صغار الماعز، والدببة كأنها حملان الضأن [٣].

عندما استخفّ شاول بالغلام داود، وقال له: "لا تستطيع أن تذهب لهذا الفلسطيني لتحاربه، لأنك غلام وهو رجل حرب من صباه" (١ صم ١٧: ٣٣). أجابه داود: "كان عبدك يرعى لأبيه غنمًا فجاء أسد مع دب وأخذ شاة من القطيع، فخرجت وراءه وقتلته، وأنقذتها من فيه، ولما قام عليّ أمسكته من ذقنه وضربته وقتلته".

ألم يقتل الجبار وهو في شبابه، ورفع العار عن شعبه، حين رفع يده بحجر المقلاع، وضرب تشامخ جليات؟ [٤]

نزل داود بعصاه ومقلاعه والحجارة الملساء ليضرب بحجرٍ جبهة جليات (١ صم ١٧) ويقتله بسيفه. عصاه كانت رمزًا للصليب، والحجر هو السيد المسيح (مز ٢٢:١١٧) الذي يقتل العدو.

يرى **القديس أمبروسيوس** أن سرّ نصرة داود أنه لم يُثِر الحرب، إنما جليات الذي بدأها، أما هو فدُفِع إليها لغيرته الروحية... لم يحمل سلاح شاول بل مقلاعه الخاص به وعصاه... دخل الحرب بعد استشارة الرب. يقول: [داود لم يُثِر حربًا ما لم يُدفَع إليها... قوته اعتمدت على ذراعيه لا على أسلحة الغير... لم يدخل قط في حرب دون طلب مشورة الله[1].]

ليتنا في جهادنا الروحي نلتزم بهذه الأمور الثلاثة، لا ندفع أنفسنا في الحرب بأنفسنا إنما في تواضعٍ نهرب من كل عثرة، فإذا دخلنا إلى حرب عندئذ نحمل خبرتنا الشخصية مع ربّنا ونعتمد على نعمته العاملة فينا، لا على صلوات الغير دون جهاد من جانبنا، وأخيرًا لا ننطلق إلى الحرب دون

---

[1] *Duties of the Clergy 1:35: 177.*

طلب مشورة الرب وعونه.

لأنه دعا الربّ العليّ، فأُعطي ليمينه قوة ليغلب الرجل القدير في القتال، ويُعَلِّي قرن شعبه [٥].

أخذ داود أدوات جليات إلى خيمته ليستخدم الطاقات التي كانت تعمل لحساب مملكة إبليس تعمل لحساب مملكة الله.

فأعطوه مجد قاتل رِبوات، ومدحوه ببركات الربّ، مُقَدِّمين له تاج المجد [٦].

استقبلت النساء شاول وداود، بعضهم يغنين لهما والأخريات يضربن بالدف والمثلثات ويرددن القرار: "ضرب شاول ألوف وداود ربوات" (١ مل ١٨: ٢). عوض الفرح بنجاح داود، بدأ شاول يحقد على داود مُترقِّبًا إياه. ملأ الحسد قلب شاول، فأراد الخلاص من داود الذي خلَّصه من أعدائه. أراد قتل داود، فصار مثلاً سيئًا للغضب والحسد.

فإنه حَطَّم الأعداء من كل جهة، وأفنى الفلسطينيين المُقاوِمين له، وحَطَّم قوَّتهم إلى هذا اليوم [٧].

في كل عملٍ له، قَدَّم التشكُّرات للقدوس العليّ بكلمة تسبيحٍ. وبكل قلبه أنشد تسبحة، وأَحَبّ صانعه [٨].

قام داود إنسان الله بتقديم ذبائح الشكر والتسبيح كعادته بكل قلبه، فحُسِب قلبه مثل قلب الله (١ مل ١٣: ١٣).

أقام مُرَتِّلي المزامير أمام المذبح، ليُرسلوا ألحان عذبة بأصواتهم [٩].

أَعدَّ داود الكثير قبل وفاته. لم يُعِد شيئًا ليوم وفاته، وإنما لبناء بيت الرب. لقد كرَّس حياته في سلسلة من المعارك، لا لامتداد المملكة، وإنما لجمع مواد لبناء بيت الرب. كان في المظهر من أعظم أبطال الحرب، وفي الداخل كان قلبه مشغولاً بالبناء. يُقَدِّم لنا **القديس مار يعقوب السروجي** صورة رائعة عن مشاعر داود الملك وهو يستعد للرحيل من العالم، قائلاً:

[لما علم الماهر في المعرفة بأن أَجَلَه قد حلَّ، أراد أن يُظهِرَ حُبه للرب بوضوحٍ.

رأى الموت قادم ليحلّ هيكل جسده، فأراد أن يبني هيكلاً مُقدَّسًا للرب إلهه.

رأى النبي أن نسيج جسده كاد أن يتهرَّأ، فأراد أن يبني قدس الأقداس لضابط أقاصي الأرض.

ولما أظهر فكرة تشييد هيكل، تكلم ربُّه معه بالروح، قائلاً:

"يا ابن يسى، لا تبنِ لي هيكلاً من الحجارة، لأن قلب الأبرار وحده يقدر أن يسعني لأُكرَّم فيه (٢ صم ٧: ٥؛ إش ٦٦: ١؛ أع ٧: ٤٦-٥٠).

لا تسعني السماء والأرض بحدودهما، لأن قلب الأبرار فقط وليس آخر يمكن أن يحويني.
أنا أُكرَّم وأُقدَّس في النفس الطاهرة، ولا يقدر أن يسعني بناء بأيادي الناس.
السماء التي هي عرشي لا تسعني في حضنها، والأرض وحدها هي موطئ قدميّ (مز ٩٩: ٥).
قستُ سماء العلي بشبري مثل عارف الكل، وكلت بحفنتي تراب الأرض مثل الكلي السلطان (إش ٤٠: ١٢).
لا تشيِّد لي هيكلاً لمجدي حيث أُكرَّم، لأن أصابعك سفكتْ دم الناس كثيرًا.
ابنك يبني لي بيتًا لأسكن فيه وأَتقدَّس فيه، ولو حسن لدي أكون معه كما كنتُ أيضًا معك[١].]

جعل للأعياد كرامتها، ونظَّم أزمانها خلال السنة، لتُسَبِّح اسم الله القدوس، ويدوي المقدس (الهيكل) منذ الصباح المُبَكِّر [١٠].

ساهم داود الملك بالإعداد الضخم لبناء الهيكل في أيام ابنه سليمان، وشجع القيادات والشعب على المساهمة في تكلفة البناء. وجاءت مجهوداته العجيبة في تنظيم فرق التسبيح وتنظيم خدمة الأعياد والعبادة تكشف عما في قلب داود. لم يكن يشغله أن الهيكل أُقِيم في عهده أو عهد ابنه، ولا أن يُقَدِّر تكلفة مبنى الهيكل، إنما أراد أن يرى الهيكل أيقونة السماء المتهللة بالربّ، متطلعًا إلى كل عضوٍ في الشعب أن يساهم في بناء الهيكل بتمتعه بعربون السماء.

أينما وُجِد داود حتى عند هروبه من وجه شاول الذي صَمَّم أن يقتله، لم تُفارِقه قيثارته وتسابيحه، فكانت السماء ليست ببعيدة عنه، متمتعًا بالحضرة الإلهية تحت كل الظروف.

غفر الربّ خطاياه، وأعلى شأنه[٢] إلى الأبد،
وأعطاه عهد ملوك، وعرش مجد في إسرائيل [١١].

العهد الذي أقامه الرب مع داود (٢ مل ٧: ١٦) أن يُثبِّت عرشه إلى الأبد. تحقَّق ذلك بتجسُّد كلمة الله من القديسة مريم من نسل داود، وهو ملك الملوك. يُقِيم ملكوته في قلوب مؤمنيه من كل الأمم والشعوب.

٢. مديح سليمان الملك

رقد داود وهو يُعِدُّ كل المملكة لتحقيق شهوة قلبه أن يبني بيتًا للرب، وقد كَرَّس إمكانياته لحساب هذا العمل، وها هو يُسَلِّم العرش لسليمان، لا لهدفٍ سوى أن يُتَمِّم الوعد الإلهي له أن يبني ابنه

---

[١] ميمر ١١ على الزانيتين (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).
Stephen A. Kaufman: Jacob of Serug's Homily on the Judgment of Solomon, Gorgias, 2008.

[٢] بحسب اليوناني: قرنه *κέρας*.

الهيكل. رقد وهو متهلل القلب، فهو رجل التسبيح، يشعر كمن يشارك السمائيين حياتهم المتهللة، وها هو ابنه سليمان يبني الهيكل بيت التسبيح والعبادة.

يبدأ سفر أخبار الأيام الثاني بسليمان الذي عمله الرئيسي بناء الهيكل كمركزٍ للأرض كلها، يُعلِنُ الحضور الإلهي. رَكَّز السفر على بيت داود لكي يطلب المؤمنون ابنَ داود يسكن في وسطهم وفي قلوبهم. رقد داود وهو يُعِدُّ كل المملكة لتحقيق شهوة قلبه أن يبني بيتًا للرب، وقد كَرَّس إمكانياته لحساب هذا العمل، وها هو يُسَلِّم العرش لسليمان، لا لهدفٍ سوى أن يُتَمِّم الوعد الإلهي له أن يبني ابنه الهيكل. رقد وهو متهلل القلب، فهو رجل التسبيح، يشعر كمن يشارك السمائيين حياتهم المتهللة، وها هو ابنه سليمان يبني الهيكل بيت التسبيح والعبادة.

بعده قام ابنه الحكيم، عاش في موضعٍ مُتَّسِعٍ من أجله [١٢].

الفترة من جلوس سليمان على العرش عام ٩٦١ ق.م. حتى سبي أورشليم بواسطة البابليين عام ٥٨٧ ق.م طويلة، لم يذكر كل أبطال الإيمان في تلك الفترة، هذا بجانب أن كثير من الملوك في هذه الفترة استخفّوا بالحكمة الإلهية.

مَلَكَ سليمان في أيام سلام، وأراحه الله من كل جهة، لكي يُشَيِّد بيتًا لاسمه، ويُهَيِّئ هيكلاً أبديًا [١٣].

اهتم ابن سيراخ بإبراز ما فعله سليمان من أجل احتضان الحكمة السماوية، ألا وهو بناء بيت الربّ، حيث تمارس العبادة لتقديس الشعب [١٣]، واهتمامه بالأناشيد والأمثال والحكم والتفاسير [١٧].

بنى سليمان هيكل الرب في أورشليم، وأُعِيد بناءه بواسطة الملك هيرودس، وقد عاصر هذا المبنى مجيء السيد المسيح الذي تنبَّأ عن خرابه تمامًا (مت ٢٣: ٣٨-٣٩)، وأنه سيقيم هيكلاً جديدًا، الذي هو جسده القائم من الأموات.

كم كنتَ حكيمًا في شبابك! وملآن فهمًا كالنهر! [١٤]

ظهر الرب لسليمان وسأله عمَّا يطلبه، فاختار سليمان الحكمة ولم يسأل مجدًا أو غنى (١ مل ٣). أعطاه الله ما سأله وما لم يسأله. صلَّى قائلاً: "وعبدك في وسط شعبك الذي اخترته شعب كثير لا يُحصَى ولا يُعَد من الكثرة. فأعطِ عبدك قلبًا فهيمًا لأحكم على شعبك، وأُمَيِّز بين الخير والشرّ، لأنَّه من يقدر أن يحكم على شعبك العظيم هذا؟" (٣: ٩-٨). جاء في سفر الحكمة: "الحكمة خير من القوَّة، والحكيم أفضل من الجبار" (حك ٦: ١). "فإن الحكمة ذات بهاء ونضرة لا تذبل، ومشاهدتها متيسِّرة للذين يحبُّونها، ووجدانها سهل على الذين يلتمسونها" (حك ٦: ١٣).

غطَّت نفسك الأرض، وامتلأتَ من الأمثال والألغاز [١٥].

"وأعطى الله سليمان حكمة وفهمًا كثيرًا جدًا ورحبة قلب كالرمل الذي على شاطئ البحر" (١ مل ٤: ٢٩). سرّ مجد سليمان هو في الحكمة التي تقبَّلها عطيَّة من الله، أكثر من الغِنَى. اختبرها سليمان كعطيَّة إلهيَّة، إذ يقول: "لأن الرب يُعطِي حكمة؛ من فمه المعرفة والفهم" (أم ٢: ٦). وجاء في سفر أيوب: "من وضع في الطخاءِ (الإعصار) حكمة أو من أظهر في الشُهب فطنة؟" (أي ٣٨: ٣٦).

بلغ اسمك إلى الجزر البعيدة، وصرتَ محبوبًا لأجل سلامك [١٦]

ومن أناشيدك وأمثالك وحِكَمك تعجَّبتِ الأمم منك بسبب تفاسيرك [١٧].

اهتم سليمان ببثّ روح الحكمة بين الأمم؛ يُحسَب سليمان فريدًا في الاهتمام بالكرازة للأمم خلال التسابيح والأمثال والحكم والتفاسير، وبكونه قدوة حتى للملوك الوثنيين في عمله كملكٍ.

ملكة سبأ تُعجَب بحكمة سليمان (١ مل ١٠): اعترفت الملكة أن ما رأته أعظم ممَّا سمعته عنه.

- **عظمة غناه:** قدَّمت له ملكة سبأ الكثير من الذهب والأطياب والحجارة الكريمة، كما قدَّم له ملوك الدول المحيطة بفيضٍ.
- **عظمة سخائه،** كان يأتيه الكثير، ويُقدِّم أيضًا الكثير.
- **عظمة مظهره:** أتراس من ذهب، كؤوس من ذهب، عرش فريد في العظمة.
- **عظمة قوَّته:** مركبات وخيل بكثرة [٢٦].
- **قدرته التجاريَّة:** تبادل تجاري مع مصر [٢٨- ٢٩].
- **غنى شعبه:** [٢٧].

إذا وُضِعَت كل الأمور معًا، يمكن القول إنه فاق كل ملوك الأرض في الغِنَى والحكمة في ذلك الحين، كان ظلاً للمسيح الذي قال: "هوذا أعظم من سليمان ههنا" (مت ١٢: ٤٢؛ لو ١١: ٣١).

باسم الربّ الإله الذي يُدعَى إله إسرائيل، جمعت الذهب كالقصدير،
وضاعفت الفضة كالرصاصة. [١٨].

٣. سقوط سليمان

بعد أن نال سليمان حكمة عظيمة وشهرة وغِنَى بواسطة الله، انحدر وجلب لنفسه خزيًا [٢٠]، بل واستعبد نفسه للأهواء الجنسية. لكن الله برحمته العظيمة لم يهجره [٢٢] من أجل أبيه داود، بل ووُلِد المسيح من نسل داود [٢٢].

لكنك اضطجعتَ بجوار نساء، فاستعبدك جسدك [١٩].

نجاحه يُحسَب شهادة لله بين الأمم؛ ومع ما اتَّسم به من حكمة سقط في العبودية للشهوات الجسدية [١٩]. ارتدَّ عن العبادة الحقَّة النقيَّة بإغواء نسائه له، الأمر الذي أشار إليه الكتاب المقدَّس بعد عدة قرون (نح ١٣: ٢٦)، لهذا سمح الله بتأديبه [١١:٩– ٤٠]. سليمان الذي كرَّس قلبه لمَحبَّة الله، حوَّله إلى النساء الغريبات. سليمان الذي بدأ برعاية شعبه بالحب، انشغل بقصره الخاص والمنشآت الضخمة، فأرهق شعبه بالضرائب وأعمال السخرة.

إن كان ابن سيراخ نفسه قد اقتفى أثر حكمة سليمان، فبوحي الروح القدس سَجَّل هذا السفر على نمط سفر الأمثال، غير أنه يؤكد بأن سليمان الحكيم فسد بسبب استعباده للوثنيات واعتزاله إيمان آبائه.

❖ إن أعدت قراءة ما كُتِب عن سليمان، تجد أنه مع كونه حكيمًا للغاية (جا ١٢: ٩) "اقترب من نساء كثيرات" بينما يقول ناموس الله: "لا يكثر له نساء لئلا يجعلنّك تزني وراء إلهك" (راجع تث ١٧:١٧). مع عظم حكمته وعظم استحقاقه أمام الله خُدِع، لأنه سلَّم نفسه لنساء كثيرات. أظن أن النساء الكثيرات يُشرن إلى العقائد الكثيرة والفلسفات المختلفة التي للناس، يريد أن يعرفها ويفحصها بكونه إنسانًا غنيًا في المعرفة والحكمة. لم يستطع أن يحفظ نفسه في حكم الشريعة الإلهية.

لقد أُغوي بواسطة فلسفة موآب التي حثّته على تقديم ذبائح لصنم موآب. نفس الأمر بالنسبة للعمونيين والشعوب الأخرى.

قيل إنه رحَّب بنساء كثيرات وبنى معابد وقَدَّم ذبائح لأصنامهن. حقًا، إنه لأمر عظيم أن تختلط بعقائد كثيرة كما بنساء ومع ذلك لا تنحرف عن حكم الحق، بل بحزمٍ تقول: "هن ستون ملكة وثمانون سرّية وعذارى بلا عدد؛ واحدة هي حمامتي كاملتي، الوحيدة لأمها، عقيلة (وحيدة) والدتها هي" (نش ٦: ٨–٩)[1].

العلامة أوريجينوس

جلبت وصمة في مجدك، ونجَّست نسلك،
فجلبت الغضب على أبنائك، وطُعِنوا بغباوتك [٢٠]

لذلك انقسمت المملكة إلى قسمين،
ونشأ من أفرايم مملكة مُتمرِّدة [٢١].

[1] *Homilies on Numbers 20:3:3.*

❖ الحكمة يُمكِن أن تكون أعظم مساعد عن صحبة أقوى الرجال في المدينة، وهي أيضًا عادة تعرف متى تستبعد الذين يفشلون في أداء واجبهم. فإنه لم يوجد أحد قط لم يتعثَّر. أما لكلمات الشرير فيلزم ألا نعطيها اعتبارًا نهائيًّا، لئلا إذ تسمع بأذنيك ما هو ضدّك عندئذ تُلدَغ في القلب، فيكون رد الفعل هو هجومك عليه.

بالرغم من معرفتي لكل هذه الأمور وتسلُّمي الحكمة من الله، عندما ألقيتها عنِّي لم أعد كما كنت. فقد هجرتني الحكمة إلى حين إلى مسافة يتعذَّر قياسها، حتى بدت أنها لن تصير لي. أخيرًا توقَّفت تمامًا عن البحث عنها، ولم أعد بعد اهتم أن أُقيِّر غباوتي وشهواتي الفارغة وحياة اللهو[1].

القديس غريغوريوس الصانع العجائب

لكنّ الربّ لم يتخلَّ عن رحمته، ولا أفسد أيًّا من كلماته، ولا محا نسل مختاره (داود)، ولا أهلك نسل من أَحَبَّه، فأبقى ليعقوب بقية، ولداود أصلاً من سلالته [٢٢].

من أجل داود الملك البار أَعلن الربّ رحمته التي تجلَّت في الآتي:

١. توبة سليمان ورجوعه عن الفساد والِتصاقه بالربّ.

٢. وُجِد بين ملوك يهوذا (مملكة الجنوب) بعض الأتقياء الذين سلكوا كأبيهم داود.

٣. أبقى ليعقوب بقية مقدسة، وسمح الربّ بتأديب إسرائيل بالسبي الأشوري وتأديب يهوذا بالسبي البابلي، لكنه أقام كورش ملك فارس يسمح لليهود بالعودة إلى أرض الموعد.

٤. أقام الربّ أبطالاً في الإيمان حتى في أرض السبي مثل أستير وهامان والأنبياء دانيال وحزقيال وغيرهما، وقادة مثل زربابل ونحميا وعزرا الكاتب الخ.

٥. لم ينقض الربّ عهده مع داود، فجاء حكمة الله متجسدًا من القديسة مريم ابنة داود، وأقام ملك الملوك المتجسد ملكوته في قلوب المؤمنين، وجعل منها هيكلاً مقدسًا له يسكنه الروح القدس.

٤. تمرد يربعام وانقسام المملكة

انحطاط سليمان بعبوديته للشهوات أثمر انقسامًا للملكة بعد موته مباشرة. عبر الفساد إلى أبنائه، مبتدئًا برحبعام [٢٣]. بسبب انغماسه في الشهوات وتمرُّده على الوصية الإلهية أخذ سليمان نساء غريبات عابدات للأصنام. فغرس بذور التمرُّد وعدم الطاعة في ابنه رحبعام. هذا ما غرسه أيضًا في عبده السابق يربعام الذي تحوَّل من صديقٍ لسليمان ونسله إلى عدوٍ متمرد. تمرد كل من رحبعام ويربعام أَدَّى إلى انقسام المملكة إلى مملكة شمالية تضم عشرة أسباط تحت رئاسة يربعام، ومملكة

[1] *Life and Works, FOTC, Vol. 98, p. 138.*

جنوبية تضم سبطين هما يهوذا وبنيامين. هذا الانقسام دفع العشرة أسباط إلى التغرُّب عن أورشليم والهيكل والكهنوت اللاوي، وانغماسهم في عبادة الأصنام.

عندما استراح سليمان مع آبائه، ترك من بعده أحد أبنائه، تنقصه الفطنة والفهم.

رحبعام الذي حمل بمشورته الشعب على التمرد[1] [٢٣].

خلف سليمان ملكان واحد في الجنوب هو ابنه رحبعام، والثاني في الشمال هو عدوه يربعام، وكلاهما كانا غبيين [٢٣].

كذلك وُجِد يربعام بن ناباط الذي دفع إسرائيل إلى الخطية، وقاد أفرايم في الطريق إلى الخطية، فكثرت خطاياهم جدًا حتى نزعتهم عن أرضهم [٢٤].

سعوا وراء كل شرٍ، حتى حلّ بهم العقاب [٢٥].

❖ **سؤال: كيف نخاف من دينونة الله (عب ١٠: ٢٧)؟**

الإجابة: توقُّع أي شيء مُرعِب يدفع الإنسان الى الخوف. هكذا نحن نخاف من الحيوانات المفترسة وكذلك من الحُكَّام، متوقِّعين بعض الشر من جانبهم. وبالتالي لو أن شخصًا آمن بأن تحذيرات الله عن الدينونة الأخيرة حقيقية، وتوقَّع أنها مخيفة ومُرعِبة، فمن الطبيعى يخشى أحكام الله[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

---

[1] بحسب *OSB*: الذي بمشورته أبعد الشعب.

[2] *Regulae brevius tractatae, 209.*

سَيِّج حولي بنعمتك حتى لا أنهار

❖ كلما تطلَّعت إلى رحبعام بن سليمان بن داود، تصرخ أعماقي إليك كي لا تهلك نفسي.
رحبعام لم يتعلَّم من أبيه سليمان، فيطلب منك الحكمة.
أخذ مشورة الأشرار، وتشامخ على الشعب.
فضاع كل ما جمعه أبوه الحكيم وجدّه التقي.

❖ بدأ سليمان الشاب الصغير الحكم، فطلب الحكمة لكي يُسَلِّم قيادة المملكة في يدك،
ازداد مجدًا وحكمة وغنى وبُهر العالم بحكمته.
لكنه استهتر، فأسلم حقويه بجوار نساء وثنيات.
جلب وصمة عارٍ في مجده، ونجاسة في نسله، وغضبًا على أبنائه.
نعم تاب، لكن ابنه رحبعام تشرَّب منه الفساد في فترة انحرافه!

❖ وماذا أقول عن داود جد رحبعام؟ في شبابه المُبَكِّر مَزَّق أسدًا ودبًا بيديه.
واجه جليات الجبار، لا بسيفٍ ورمحٍ، وإنما باسمك يا ربّ الجنود، فحطَّم تشامخه عليك.
كانت حياته سلسلة لا تنقطع من التسابيح والتشكُّرات لك.
أقام خوارس مقدسة تُسَبِّح مع السمائيين.
نظَّم الأعياد المُبهِجة، وأَعَدّ الكثيرين للعيد السماوي الدائم.
تراخى يومًا، فانحدر من خطية إلى خطية. فأرسلت له ناثان النبي ليرده إليك بالتوبة.
ليس من شخص ولو كان نبيًا عظيمًا أو ملكًا محبوبًا منك ومن الناس معصومًا من الخطأ!
سَيِّج يا ربّ حولي حتى لا أتراخى مع العظيم داود،
ولا أَستسلم لجلسات مستهترة كسليمان الحكيم،
ولا أجري وراء الصداقات غير اللائقة مع رحبعام!
ليس من يحميني من ضعفاتي سوى روحك القدوس!

داود النبي والشحم في ذبيحة السلامة

يُشَبِّه ابن سيراخ داود النبي في بني إسرائيل بالشحم في ذبيحة السلامة (سي ٤٧: ٢؛ لا ٣).

أولاً: بالنسبة لذبيحة السلامة يراها **العلامة أوريجينوس**[1] تقدمة الإنسان الكامل أو الناضج روحيًا الذي ينعم بسلام الله الكامل في حياته الداخلية، وبكونها فيض سلام وشكر ينبع بالسيد المسيح واهب السلام. لذلك تُسَمَّى "تقدمة الكمال."

ثانيًا: بالنسبة للشحم، في العهد القديم مُنِع أكل الدم والشحم، لأن الدم يشير إلى حياة الإنسان، والشحم هو أفضل جزء في الحيوان، جاءت الوصية في ذبيحة السلامة أن الإنسان الذي يأكل الشحم من هذه الذبيحة تُقطَع نفسه من شعب الله (لا ٣: ١٦). كان الشحم يُقَدَّم للربّ وليس للإنسانٍ نصيب فيها، علامة تقديم أفضل شيءٍ في الذبيحة للربّ. وعندما تهاون عالي الكاهن مع ابنيه الكاهنين ليأكلا شحم الذبائح، انتهره الربّ، لأنه كَرَّم ابنيه عن الربّ (١ صم ٢: ٢٩).

جاء في ذبيحة السلامة: "ويقرّب من ذبيحة السلامة شحمها وقودًا للربّ الألية صحيحة من عند العصعص ينزعها والشحم الذي يغشي الأحشاء وسائر الشحم الذي على الأحشاء، والكليتين والشحم الذي عليهما، ويوقدها الكاهن على المذبح طعام وقود للربّ" (لا ٣: ٩-١١).

ثالثًا: داود واختياره من بين إسرائيل، يُشَبَّه بالشحم في أفضل ذبيحة الخاصة بالكاملين. إنه نصيب الربّ، فقد كَرَّس كل حياته وخاصة قلبه وفكره وعواطفه للربّ وحده. هكذا كان داود نموذجًا حيًا للعاملين ما هو مستقيم في عيني الربّ (١ مل ١١: ٣٣؛ ٢ مل ٢٢: ٢؛ ٢ أي ٢٨: ١).

هذه الشخصية التي تمتَّعت بالوعد الإلهي أن من نسلها من يجلس على كرسي العرش إلى الأبد.

يُقَدِّم ابن سيراخ داود كأنه أفضل الكاملين، ومع هذا السمو لم يكن معصومًا من الخطأ؛ وعندما تهاون في نقاوة قلبه سقط في خطايا لم يسقط فيها في صبوته وشبابه. حقًا لقد قضى بقية حياته يمارس التوبة بروح الرجاء واليقين في محبة الله غافر الخطايا!

[العجيب في خطة الله أن شرب الدم وأكل الشحم مضرّان لصحة الإنسان؛ وفي نفس الوقت منعت الشريعة أكلهما لأنهما نصيبا الربّ.]

---

[1] *Homilies on Leviticus, homily 2.*

الأصحاح الثامن والأربعون

تمجيد النبيان إيليا وأليشع وحزقيا الملك

أشار في الأصحاح السابق إلى يربعام الذي جمع حوله عشرة أسباط، وانشق ليُقِيم مملكة في الشمال عاصمتها السامرة. لم يترك الربّ هذه المملكة المتمردة عليه وعلى عبادته الحقيقية والكهنة بل أرسل لها أنبياء من بينهم نبيين عظيمين هما إيليا وأليشع. هكذا يعلن الله لنا أننا ونحن في وسط الظلمة يُرسِل أناسًا مُشرِقين بالنور الإلهي.

١. مدح إيليا النبي [١-١١].

٢. مدح أليشع النبي [١٢-١٦].

٣. مدح حزقيا الملك وإشعياء النبي [١٧-٢٥].

١. مدح إيليا النبي

عندئذٍ قام إيليا النبيّ كالنار، واتَّقدَت كلمته كسراجٍ [١].

أبرز ابن سيراخ ما اتَّسم به إيليا النبي رجل الإيمان من قلبٍ ناريٍ مُتَّقِدٍ بالغيرة على كلمة الله والعبادة له لا للأوثان، لذلك قيل عنه: قام إيليا النبي كالنار ليحرق الشرّ والعناد والمقاومة لله خاصة من جانب أخآب الملك وإيزابيل زوجته. وفي نفس الوقت اتَّقدت كلمته كسراج ينير النفوس المشتاقة إلى الحق في وسط ظلام الفساد الحالك. كان إيليا نبيًا عظيمًا، وإن كان في ضعفٍ بشريٍ خاف من الملكة إيزابل الشريرة التي سيطرت على شخصية رجلها أخآب الملك وأفسدت إيمانه، وقتلت الكثير من الأنبياء (١ مل ١٨-١٩)، وفي نفس الوقت كان أخاب وإيزابيل في رعبٍ شديد منه.

قيل عن الملائكة انهم خدام الله الملتهبون بنار الغيرة المقدسة (مز ١٠٤: ٤)، تشبَّه بهم إيليا، فأنزل نارًا ثلاث مرات (٢ مل ١: ١٠-١٤)، وارتفع إلى السماء في مركبة خيل نارية (٢ مل ٢: ١١). لم يمت إيليا، ويُنتظَر مجيئه مع أخنوخ، ليقاوما ضد المسيح ويسندان المؤمنين في ذلك الحين.

وهو الذي جلب عليهم مجاعة، وبغيرته جعلهم نفرًا قليلاً [٢].

بكلمة الربّ أغلق السماء، وأنزل نارًا ثلاث مرات [٣].

إن كانت الخطية قد أفسدت حياتنا، فجعلت منا أرضًا تنبت شوكًا وحسكًا (تك ٣: ١٨)، فإننا صرنا في حاجة إلى كلمة الله، النار الآكلة، لكي تحرق هذا الشوك والحسك.

❖ بالحقيقة توجد أشواك ليست مبعثرة، بل في أيدي من يسكر بالرذيلة بل ومنخوسة بقوة فيها، حتى ينسى الشخص رزانته وكما قيل في الأمثال، "أشواك مختفية في يديّ السكران" (راجع أم ٢٦: ٩).

ألا يلزمنا أن نتحدَّث بكلمات تصف أيّة اضطرابات تزرع شرورًا تصيب من يقبلها في كيان نفسه؟ من يقبل شرًا أخلاقيًا عميقًا في نفسه، فتصير أرضًا تنتج أشواكًا (تك ٣: ١٨)، تحتاج إلى كلمة الله الحيّ كي يقطعها من جذورها هذه التي هي أبشع وأَحَدّ من سيف ذي حدّين، وأشد حرارة من النار[1].

❖ من يضيف شرًا في أعماق نفسه حتى يصير أرضًا تنتج شوكًا، يلزم قطع هذا بكلمة الله الحية الفعَّالة، والتي هي أَحَدّ من أي سيف ذي حدين، وأكثر قدرة من أية نارٍ على الحرق (عب ٤: ١٢؛ سي ٤٨: ١). تلك النار التي تكشف الأشواك، والتي وبألوهيتها توقفها! فلا تحتاج البيادر وحقول الحنطة إلى نارٍ (أخرى) تُرسل إلى مثل هذه النفس[2].

العلامة أوريجينوس

بعجائبك كُرِّمت يا إيليا! ومن يستطيع أن يفتخر مثلك[3]؟ [٤]

❖ من يفسح المجال لكلمتي لتروي جماله (جمال إيليا) منذ طفولته، في أية حياة تربَّى؟

من يهبني كتابًا يُساعِدني لأنظر وأرى كم كان مشعًا بالقداسة منذ صباه؟

اختفى عني جماله السامي والروحي؛ كيف شرع في مسيرة طريقه نحو الله؟

أظهر الكتاب خبره للعالم فقط هنا، حين منع المطر والندى بسبب أخآب (١ مل ١٧: ١).

إلى هنا كانت طريق برّه وجمال سيرته وتفوّق بتوليته مخفية.

من هنا شرع الكتاب يسرد خبره، لأنه بسبب إثم أخاب ربط السماء بكلمة واحدة.

فكرْ أنت الآن من قبل هذا العمل العظيم، كم كانت أعماله وأتعابه لأجل الله؟

ولهذا أخفى الكتاب سيرته، لأنها كانت سامية، ولم نستطع أن نتكلم عنها.

منذ طفولته تمسَّك بسيرة عظيمة، بأعمال منتصرة، حتى الطبيعة لا تحتملها.

حالما عرف **الفرق بين الخير والشر**، بدأ بالخير، ولم يغلبه الشر نهائيًا.

حالما عرف **العالمَ**، تركه لئلا يعيش فيه، وأَحَبّ القفر وسُكنَى الجبال بمفرده.

وما أن شعر بأنه يوجد عالم آخر لله، حتى جعل وجهه إلى هناك، راكضًا ليبلغ إليه.

---

[1] *Commentary on John 6:57-58*

[2] *Commentary on John 6: 297- 298.*

[3] بحسب *NRSV*: من يساويك في المجد؟

حالما رأى أن هذا العالم يزول زوالاً، لم يتنازل إلى عِشرته، ولا إلى العمل فيه.
حالما سمع بأن هذا الموضع ليس موضعه، لم يُحِبّه بعد، ولم يشأ أن يدنو من أفعاله.
منذ أن عرف بأنه **توجد حياة أخرى لله**، كان يفتش عنها بأتعاب عظيمة ليرثها.
حالما فهم أن **آدم مات حين تجاوز الوصية**، لم يحد عن الناموس الروحي.
نظر إلى **الطبيعة (البشرية، وفهم) بأنها لو لم تخطئ لما ماتت**، فارتعب من الخطية، لئلا يصير ثمرة للموت.
منذ عرف **ما هو الموت**، وما هي الحياة، حتى صارع لأجل الحياة لكي يقتنيها.
منذ صغره **تربَّى روحيًا نحو العلو العظيم** إلى أن وصل إلى هذه المرتبة الأسمى من الكل.
نظر إلى **الله، وما أن عرف كم هو جميل**، لم يدر عنه نظره بعد ليرى شيئًا (آخر)[1].

القديس مار يعقوب السروجي

أنت أقمت ميتًا من الموت، ومن الهاوية بكلمة العليّ [٥].

أقام إيليا النبي ابن أرملة صرفه الأممية (١ مل ١٧: ١-٢٤). تَمَدَّد إيليا على الصبي الميت ثلاث مرات وهو يصرخ إلى العليّ ليرد للصبي الحياة، يشير هذا إلى التجائه إلى الثالوث القدوس واهب الحياة.

❖ مات ابن الأرملة، لأن ابن الكنيسة، أي الأمم ماتوا بسبب خطاياهم ومعاصيهم الكثيرة.
بصلوات إيليًا استردَّ ابن الأرملة الحياة؛ وبمجيء المسيح ابن الكنيسة، أي الشعب المسيحي، خرجوا من سجن الموت.
انحنى إيليًا في الصلاة، واستردَّ ابن الأرملة الحياة. هكذا غطس المسيح في آلامه، واسترد الشعب المسيحي الحياة. لماذا انحنى إيليًا ثلاث مرات ليُقِيم الغلام؟.. بالحقيقة انحنى ثلاث مرات مُظهِرًا سرّ الثالوث. الثالوث كلُّه ردَّ لابن الأرملة أو للأمم الحياة. علاوة على هذا، فإن هذا يتحقَّق في سرّ العماد، حيث يغطس الإنسان القديم في الماء ثلاث مرات لكي يتأهَّل الإنسان الجديد للقيام[2].

القدِّيس أغسطينوس

وأسقطتَ ملوكًا إلى الهلاك، والذين تمجَّدوا من أَسِرَّتهم [٦].

---

[1] الميمر ١١٥ على القديس مار إيليا النبي، وعلى صعوده إلى السماء (٢ مل ٢:١-١١) راجع ترجمة الدكتور سوني بهنام. وأيضًا يعقوب السروجي: عظات حول النبي إيليا، الجامعة الأنطونية، لبنان ٢٠٠٣، العظة الخامسة، ص ١٧٦-١٧٨.

[2] *Cf. Fr. Caesarius: Sermon 124:4.*

❖ دعا الرب عبده البار وتكلم معه: قم، انزل للقاء أخآب الملك (١ مل ٢١: ١٧-١٨)، وأفضح كذبه.

ها قد نزل ليرث الكرم المخطوف. اذهب وقل له: لن تنعم بميراثٍ ليس ملكك.
اذهب وقل لهذا الذي قتل وظن أنه ورث، لقد سلّم لي نابوت كرمه، وهو يموت.
أنا، أنا وارث ذاك الوديع، والكرم هو مُلكي، وأنا قائم على ميراثه، وأجري قضاءه.
ماذا تريد من المقتنى المسلَّم في يديّ؟ دعاني وهو يُرجم وأوصاني، وأنا لن أهمل.
أطالب العدالة بالثأر لنابوت ولكل مظلوم، فإن قضاءه محفوظ لي، ولن أسكت.
في ذلك الموضع الذي فيه لحست الكلاب دمه تلحس دمك (١ مل ٢١: ١٩)، ها أنت تُجازَى بكيل الدم الذي كِلت به أيضًا (مت ٧: ٢)...
يتقدَّم بشجاعة ليطرد الملك من الميراث، وهو مُسلَّح بالرب، ولا يحسب حسابًا لملوك الأرض.
ويتبعه البرّ والاستقامة، ويركض معه الإيمان والكمال (مز ٨٥: ١٠-١١).
احتقر التاج، لأن رائحة الإثم فاحت منه، واستخفّ بالسلطة كثيرًا دون أن يخاف.
وإذ كان أخآب واقفًا في الكرم الذي نزل ليرثه، رأى إيليا آتيًا فارتجف الأثيم.
اِلتقى النبي بالملك مثل اللص ورب البيت، ولم يُخفَ السلبُ.
اصطاده في كرم قُتِل صاحبه لأجله، وخزي الملك أمام رؤية الدم الذي سفكه.
قال الملك: الآن وجدتني يا عدوي (١ مل ٢١: ٢٠). لقد كان عدو بيت الله والنبي.
أظهر شريك الأصنام وآلهة الأموريين نفسه كيف كان يبغض عبيد الرب.
كانت توجد عداوة عظيمة بينه وبين الرب، لأنه كان صديق جميع آلهة الكنعانيين.
وإذ انتصب النبي إزاءه موبخًا، فإنه كان عدوه، كما دعاه وفضح نفسه.
قال البار: نعم لقد وجدتُك كما قلتَ، لأنه لا يمكن أن تخفي إثمك عن الرب.
يداك مملوءتان بدم بريء، فكيف تزكو؟ الخطف والنهب داخل بابك، فكيف تفلت؟
لا يمكن أن يثبت بيت مدبرته إيزابل، لقد استوليتما على الميراث بالدم، فكيف تخلصان؟
الرب يفتش عن إثمك، ويفضحك، ويُطالِبك بالقتل والسلب وكل الشرور.
وبعدالة يخرب مسكنك المملوء إثمًا، وينتقم منك باستقامة، لأنك أغضبته[١].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[١] الميمر ١١٣ على إيليا النبي ونابوت اليزرعيلي (١ مل ٢١) راجع ترجمة الدكتور سوني. ويعقوب السروجي عظات حول النبي إيليا، الجامعة الأنطونية، لبنان ٢٠٠٣، العظة الثالثة، ص ١٠٧-١١٠.

إيليا الناري وأخزيا الملك (٢ مل ١): سمع أخزيا بن أخآب وإيزابيل عن والديه اللذين لحست الكلاب دمهما، لأنهما حادا عن طريق الحق. الآن إذ لم ينتفع بخبرة والديه، فكما حلّ التأديب على والده بأن لحست الكلاب دمه، جاءه الصوت النبوي: "عن سريرك لن تنزل."

❖ سمع مبعوثو ابن أخآب من إيليا، فعادوا إليه حاملين أخبارًا سيئة (٢ مل ١: ٥).

دخلوا، وقالوا له كل ما سمعوه من إيليا، وكَرَّروا أمامه بأنه لن ينزل عن سريره (٢ مل ١: ٦).

نقلوا إلى هذا الوثني المريض بشرى الموت، وجرحوا قلبه بالكلمة التي سمعوها من إيليا...

تحين الفرص ليغلق طريق الوثنية، لئلا يسير فيها بنو إبراهيم المختونون.

جمعهم من كل جانب لدى الله، بعد أن تَبدَّدوا عند أصنام الكنعانيين.

أعادهم من الطرق الغريبة، ليسيروا في طريق الملك ربّه العظيمة.

حين خرجوا في سُبُل الأموريين، قام الغيور، وأعادهم إلى إلهه.

ترك قطيع إسحق نهر الماء الحي (إر ٢: ١٣)، ليذهب ويشرب من ماء الشرّ الذي يهلكه.

طرده إيليا الراعي الصالح (من هناك)، لئلا يشرب من الينابيع التي تتقيَّأ الموت.

كان سمّ الحية في نهر الكنعانيين، وكان (إيليا) ساهرًا كل يومٍ لئلا يشرب القطيع منه[1].

القديس مار يعقوب السروجي

وسمعت في سيناء توبيخًا،

وفي حوريب أحكام نقمة [٧].

أخبر أخآب زوجته إيزابل بما فعله إيليَّا، وكيف قتل كهنة البعل، فثارت جدًا وقرَّرت قتله. اضطر أن يهرب إيليَّا إلى بيت سبع التي ليهوذا، حيث عاله ملاك هناك. قاده الروح للذهاب إلى جبل حوريب، الجبل الذي عليه تسلَّم موسى الشريعة (١ مل ١٩).

❖ بعد الإعداد بأربعين يومًا من الصوم رأى إيليَّا الرب على جبل حوريب. وسمع منه الكلمات: "**مالك ههنا يا إيليَّا؟**" هنا القول متقارب جدًا من القول: "آدم، أين أنت؟" في سفر التكوين. هدف الأخير هو إثارة مخاوف منْ أكَلَ وفُقدَ، والقول الأول موجَّه إلى عبدٍ صائمٍ بحنو وحب[2].

القدِّيس جيروم

---

[1] الميمر ١١٤ على إيليا النبي وأخزيا الملك (٢ مل ١) راجع ترجمة الدكتور سوني. ويعقوب السروجي عظات حول النبي إيليا، الجامعة الأنطونية، لبنان ٢٠٠٣، العظة الرابعة، ص ١٤٤-١٤٦.

[2] *St. Jerome: Against Jovinianus, book 2:15.*

❖ مشى النبي في البرية أربعين يومًا (١ مل ١٩: ٨)، ووصل إلى حوريب جبل الرب، وحلّ هناك.

مشى وأنجز طريق الكمال بنشاطٍ، ودخل إلى الموضع الذي فيه استنار موسى.

بات في مغارة (١ مل ١٩: ٩)، كان اسمها وفعلها محبوبًا، وهي مُفضَّلة على من يحلّ فيها أكثر من قصر الملوك[١].

القديس مار يعقوب السروجي

مسحت ملوكًا للمجازاة،

وأنبياء يخدمون بعدك [٨].

الملوك الذين مسحهم إيليا هم حزائيل وياهو، أما عن الأنبياء، فمسح إليشع تلميذه. وإذ ورد عن عوبديا أن خبَّأ مئة نبي من المذبحة التي أمرت بها إيزابل الملكة، ربما هؤلاء الأنبياء جميعًا أو بعضهم مسحهم إيليا النبي (١ مل ١٨: ٣-٤).

ارتفعتَ في عاصفة من نار،

في مركبة خيل ناريَّة [٩].

❖ لنتحدث إذا عن إصعاد هذا الجميل، وعن المركبة البهية التي نزلت إليه على الأرض.

وعن الجسداني الذي استحق أن يُقِيم مع الروحيين، وعن الترابي الذي لم يعد إلى الأرض ليصير ترابًا.

وعن السفلي الذي توجَّه في طريقه نحو العلويّين، وعن ابن جنسنا الذي تركنا واختلط مع الملائكة.

وعن العجب الذي استولى على الأرض، لأن العلويين خطفوا واحدًا من حضنها، ليصير معهم بين أجواقهم[٢].

القديس مار يعقوب السروجي

وستأتي لتوبِّخ في الوقت المناسب كما هو مكتوب،

لتسكين غضب الله قبل حدّته،

---

[١] الميمر ١١٢ الثاني على إيليا لما هرب من إيزابل (١ مل ١٩) راجع ترجمة الدكتور سوني. ويعقوب السروجي عظات حول النبي إيليا، الجامعة الأنطونية، لبنان ٢٠٠٣، العظة الثانية، ص ٦٧-٦٨.

[٢] الميمر ١١٥ على القديس مار إيليا النبي، وعلى اصعاده إلى السماء (٢ مل ٢:١-١١) راجع ترجمة الدكتور سوني بهنام. وأيضًا يعقوب السروجي: عظات حول النبي إيليا، الجامعة الأنطونية، لبنان ٢٠٠٣، العظة الخامسة، ص ١٧٣-١٧٤.

وترد قلب الأب إلى الابن، وتُجدِّد أسباط يعقوب [١٠].

تُعلن حكمة إيليا النبي أنه يسلك في كل شيءٍ في الوقت المناسب.

طوبى للذين عاينوك، وللذين رقدوا في المحبة،
فإننا نحن أيضًا بالتأكيد سنحيا (بعد الموت) [١١].

❖ اتحاد الجسد بالنفس يعدّه للظهور إلى النور من ظلام الرحم. أما اتحاد النفس بالجسد (خضوعها له) فيحبسها في ظلام الجسد. لهذا يجب علينا ألا نُشفِق على الجسد، بل نقمعه كعدو للنفس وخصم لها. فالانهماك في المأكولات الشهية يثير الشهوات الشريرة، والمعدة الزاهدة تخمد الشهوات وتنقذ النفس[١].

القديس أنطونيوس الكبير

٢. مدح أليشع النبي

بعد صعود إيليا النبي إلى السماء، تسلَّم العمل النبوي تلميذه أليشع الذي اشتهى أن يحلّ عليه روحين من مُعَلِّمه حتى يستطيع أن يُحَقِّق رسالته، ويُواجِه تيار الشرّ المتزايد. وهبه الله أن يتم على يديه ضعف المعجزات التي صنعها مُعَلِّمه، لتأكيد حاجة المجتمع إلى عملٍ متزايدٍ بسبب تزايد الفساد.

❖ أيها المتميزون، أصغوا إليَّ فأتكلم بعد عن التلميذ الذي حيَّرني بجمال طريقه.
غلبني مُعَلِّمه (إيليا النبي)، فصَمَتُّ عنه ولم أصفه، وهذا أيضًا يُثيرني بعجبه وتصرفاته.
نعم، بالحقيقة هو تلميذ ذاك الجميل، وجماله ينبع من أفعاله حيثما سار.
صنع نصرًا على المياه الرديئة التي شفاها، وأعطى الصحة للأرض المريضة القفرة.
بنبوته وضع حدًّا للموت ومنعه، فمضى خارجًا بعد أن رأى جبروته[٢].

القديس مار يعقوب السروجي

تغطَّى إيليا بالعاصفة، وامتلأ أليشع من روحه، وفي أيَّامه لم يهتزّ أو يرتعد أمام أي حاكمٍ، ولم يقمعه[٣] أحد [١٢].

يُعلِنُ لنا المشهد الأخير في حياة إيليا النبي عُمْقَ العواطف الرقيقة التي كان يكنُّها أليشع لمُعَلِّمه،

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ١١٧.

[٢] الميمر ١١٦ على أليشع وإصلاح الماء (راجع نص الأب بولس بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني؛ وترجمة الخوري بولس الفغالي عظات حول أليشع النبي، ٢٠٠٣، ص ٣١).

[٣] بحسب *NRSV*: يُرعِبه أو يُهَدِّده.

وإذ أدرك أن النهاية قريبة، صمَّم أن يكون معه إلى المنتهى. لا شيء كان يمكن أن يقنعه بترك إيليا، وعندما سأله ماذا يفعل له قبل أن يُؤخَذ منه، **طلب نصيب الابن البكر، نصيبًا مزدوجًا من روح مُعَلِّمه** (٢ مل ٢: ٩). رأى مُعَلِّمه وهو في منظر رهيب، فمزَّق ثيابه، وأخذ رداء مُعَلِّمه، وعاد إلى الأردن، يضرب الماء ليرى إن كانت روح إيليا قد استقرت عليه فعلاً، وعندما انشق الماء عبر على اليابسة. بهذا أدرك أبناء الأنبياء الذين كانوا يُراقِبون المشهد من التلال، أن روح إيليا قد استقرت على أليشع، فسجدوا له في احترامٍ وخضوعٍ (٢ مل ٢: ١٢-١٥). هنا بدأ أليشع خدمته التي دامت حوالي الخمسين عامًا، لأنها امتدت طيلة حكم يهورام وياهو ويهوآحاز ويوآش.

لم تستطع كلمة أن تغلبه،
وحتى بعد رقاد الموت تنبأ جسده [١٣].

صنع في حياته عجائب،
وحتى بعد موته كانت أعماله مُدهِشة [١٤].

إذ انشقَّت الأسباط العشرة (مملكة الشمال) وتمرَّدوا على الله، وأقاموا هياكل ومذابح وعبادة حسب هواهم، أرسل إليهم إيليا الناري وتلميذه أليشع النبي صانع العجائب. لا يحتاج المؤمنون إلى صنع عجائب، وإنما تُقَدَّم إلى غير المؤمنين. يقول الرسول: "إذا الألسنة آية لا للمؤمنين بل لغير المؤمنين، أما النبوة (الوعظ) فليست لغير المؤمنين بل للمؤمنين" (١ كو ١٤: ٢٢).

كان أليشع صانع عجائب حتى بعد موته، حيث أقامت عظامه الجافة ميتًا أُلقي في القبر (٢ مل ١٣: ٢١). سمح الربّ بهذه المعجزة حتى متى سقط الشعب تحت السبي وحسبوا أنفسهم أشبه بموتى فليعلموا أن الله يرسل لهم من يردّهم إلى أرض الموعد. أن إنسان الله يتقدَّس كل ما له حتى عظامه بعد موته. يقول **القديس أغسطينوس** إن النبوات لم تقف عند إعلانها بالكلام، وإنما بالأعمال الرمزية[1] مثل إقامة الميت بعظام اليشع.

❖ تحدث عنه الأنبياء وهم مندهشون (وقالوا): حلَّ عليه روح مُعَلِّمه وفاض (٢ مل ٢: ١٥).

طلبوا منه أن يشفي – كما من طبيبٍ روحيٍ – الأرض المريضة (الفاسدة) والمقفرة التي كانت مجدبة. شاهدوا فيه قوة، فسألوه أن يشفي المياه الرديئة، ويفرج على كل الأرض بفضيلته المختبرة. قالوا له: القرية طيّبة وموقعها جميل، ولكن المياه رديئة والأرض مقفرة وتضايقنا (٢ مل ٢: ١٩).

قال لهم: احضروا لي جرَّة جديدة وفيها الملح، ففعلوا كما قال. أخذها وخرج إلى النبع، وألقى

---

[1] *City of God 17: 5.*

الملح في المياه الرديئة، فشفاها لأنها كانت **مريضة** (٢ مل ٢: ٢٠-٢٢)[١].

القديس مار يعقوب السروجي

مات أليشع النبي، ودُفِنَ في القبر، وتحلَّل جسمه، ولم يبقَ سوى مجموعة عظام جافة. لكن هذه العظام تشهد لروح القوة التي عاشها النبي ولم يستطع الموت أن يُحَطِّمَها. بعد موت أليشع النبي، إذ طرح غزاة موآب رجلاً في قبره، ومسَّ الجثمان عظام أليشع عاش، وقام على رجليه (٢ مل ١٣: ٢١). يقول **القدِّيس أفرآم السرياني:** [ليس أحد من الأنبياء بعد موته أقام إنسانًا. لهذا نرى أن روح إيليا استقر مضاعفًا على أليشع. في الواقع، السلطان الذي وهبه الرب لعظام أليشع هو رمز القيامة وبذرتها. والكرامة التي أُعطيت لها تُظهر المجد الذي سيكون لأجساد القديسين تلتحف به في يوم قيامة كل الأموات[٢].]

❖ تراب الأبرار الذي تبدَّد في الهاوية على الغبار، هو ذهب مختار، ونبع مملوء بالخيرات.

الجسد الطاهر، الذي لم تُدَنِّسه الشهوات، هو تراب الأبرار، وهو كنز الذخيرة الموجود فيه الحنان لمن يقترب منه...

تفوح روحيًا كل يوم رائحة زكية من عظامهم لا يُشبهها الدهن الطيب.

في جثثهم تحلُّ السُكْنَى الإلهية كالملكوت في هيكل الذهب واللآلئ.

يجري من أجسادهم جيحون (تك ٢: ١٣) من أجل كل الأشفية، التي كانت تنمو بجوار شجرة الحياة (تك ٢: ١٩)..

من الخاطئ تفوح رائحة كريهة بموته، أما الصديق فهو مبخرة الله المختارة...

رقد في الله وها هي الحياة تستيقظ فيه كل يومٍ، مات عن العالمِ وصار حيًا لربِّه بهجة الوجه[٣].

القديس مار يعقوب السروجي

ومع هذا كله لم يَتُبْ الشعب،

ولم يُقلعوا عن خطاياهم،

إلى أن اغتُصِبَت أرضهم، وتشتتوا في الأرض كلّها [١٥].

---

[١] الميمر ١١٦ على أليشع وإصلاح الماء (راجع نص الأب بولس بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني؛ وترجمة الخوري بولس الفغالي عظات حول أليشع النبي، ٢٠٠٣، ص ٢٥).

[2] *On the Second Book of Kings, 13:21.*

[٣] الميمر ٣٥ على أليشع لما عاش ميت على عظامه (٢ مل ١٣: ٢١) (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني). راجع الخوري بولس الفغالي: عظات حول أليشع النبي، ص ١٦٤-١٦٥.

يتحدث هنا عن السبي الأشوري لمملكة إسرائيل حيث بقت مملكة يهوذا القليلة العدد، أما الرئيس لبيت داود فهو حزقيا ملك يهوذا (٢ أي ٣٠: ١-١٢).

ولم يبقَ إلا نفر قليل، وحاكم لبيت داود.

بعضهم عملوا ما هو صالح، وبعضهم أكثروا من الخطايا [١٦].

يقصد ببعضهم الذين صنعوا فضائل حزقيا الملك وإشعياء النبي.

❖ المجاهدون نحو الحياة الفاضلة وحياة الحب لله، غيورون نحو (اقتناء) فضائل الروح كممتلكات لا تنتقل ملكيتها إلى آخر، وتجلب الراحة الأبدية. هؤلاء يستخدمون الأمور الزمنية لمُجرَّد أنها ضرورية (وليس عن ترفٍ)، وبحسب إرادة الله وعنايته، ويستخدمونها بفرحٍ وكل امتنانٍ، حتى ولو كان بقدر الكفاف. فالمائدة الفاخرة تُطعم الأجساد بكونها مادية، أما معرفة الله والغلبة على الذات والصلاح وصنع الخير مع الجميع والشفقة والوداعة... فهذه تمجد النفس[١].

القديس أنطونيوس الكبير

٣. مدح حزقيا الملك وإشعياء النبي

عرف حزقيا أن أباه هو المسئول عما حلّ بالشعب بسبب دعوته لأشور أن يتدخَّل في سياسة الأرض المقدسة (٢ أي ٢٨: ١٦-٢١). بدأ بالإصلاح الديني ليُصلِح ما أفسده والده آحاز، فطهَّر الهيكل من الأوثان. كانت مملكة الله لها الأولوية في حياة حزقيا الملك، مع تجديد الحكمة الروحية.

حفر حزقيا قناة تحت الأرض خلال صخرة حتى يمكن لأورشليم الحصول على المياه سرًا من ينبوع جيحون. سُجِّل هذا العمل البطولي مرتين في العهد القديم (٢ مل ٢٠: ٢٠؛ ٢ أي ٣: ٣٠).

حصَّن حزقيا مدينته، وأدخل في وسطها الماء، حفر الصخر القاسي بالحديد، وبنى أوعية للمياه [١٧].

يبدأ سيراخ بثورة حزقيا الملك على أشور، وقد أَعَدّ نفسه لذلك بتحصين أورشليم عاصمة مملكته، وحفر قناة في صخرٍ صلدٍ لكي يجد الشعب ماءً متى قام أشور بحصار المدينة. هذا سند المدينة أثناء حصار سنحاريب لها عام ٧٠١ ق.م. [١٨-٢٠].

في أيامه صعد سنحاريب، وبعث ربشاقي وانسحب، ثم رفع يده ضد صهيون، وتباهى في كبريائه [١٨].

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٣٤.

"ربشاقي" [١٨] لقب أشوري معناه ربما "رئيس أركان حرب (هيئة من الضباط العسكريين)" أو حاكم. عسكر سنحاريب ملك أشور في لاخيش وأرسل المتغطرس ربشاقي كي يحاصر مدينة أورشليم وبطلب من حزقيا الملك أن يُسَلِّم له المدينة. لكن حزقيا اتجه نحو الله بروح التوبة، وأرسل الله له إشعياء النبي كي يطمئنه. قتل ملاك الرب ١٨٥ ألفًا من جيش سنحاريب (٢ مل ١٩: ٣٥).

حينئذ ارتجفت قلوبهم وأياديهم، وتمخَّضوا كنساءٍ يلدن [١٩].

فدعوا الربّ الرحيم، باسطين نحوه أياديهم، فسمع لهم القدوس من السماء سريعًا، وأنقذهم بيد إشعياء [٢٠].

ضرب معسكر الأشوريين، وأبادهم ملاكه [٢١].

❖ عندما تغلق باب مسكنك وتبقى بمفردك، اعلم أن معك ملاكًا، مُعيَّنًا من قِبل الله لكل إنسانٍ، وهو الذي يُلَقِّبه اليونانيون "روح البيت". إنه لا ينام، ويرى كل شيءٍ بمرافقته الدائمة لك، ولا ينخدع، ولا يختفي عنه شيء في الظلام. واعلم أن الله بجوارك حالُ في كل مكانٍ، فإنه لا يوجد مكان أو حيّز ليس الله موجودًا فيه. إنه أعظم من الكل ومُمسِك بيده الجميع[١].

القديس أنطونيوس الكبير

لأن حزقيّا صنع ما يُسرّ الربّ،
وازدهر قوةً في طرق داود أبيه،
التي أمره بها إشعياء العظيم الصادق في رؤياه [٢٢].

في أيامه رجعت الشمس إلى الوراء، وأطال عُمْر الملك [٢٣].

أعطى الرب لحزقيا علامة كطلبه (٢ مل ٢٠: ٨)، لتأكيد تحقيق الوعد الإلهي هكذا: رجوع الشمس عشر درجات (إش ٣٨: ٨). يرى البعض أنها مُجَرَّد تراجع للظل على الدرجات التي تقود إلى "بلكونة" في القصر أو تقود إلى العلية. ويرى البعض أنها كسوف للشمس حدث في ١١ يناير ٦٨٩ ق.م. الشمس هي المقياس الصادق للزمن، وهي في يد الله مُحَرِّك التاريخ والأحداث والزمن نفسه، استخدمها علامة في أيام يشوع (يش ١٠: ١٢)، وأيضًا في أيام حزقيا، وعند صُلِب ربّ المجد، وقبل مجيئه الأخير حيث تظلم الشمس.

وبروحٍ عظيمة رأى الأمور الأخيرة،

---

[١] الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، القديس أنطونيوس الكبير ١٧٠ نصًا عن حياة القداسة ٦٢.

وعزَّى[1] الحزانى في صهيون [٢٤].

رسالة إشعياء الكشف عن آخر الأزمنة، ليبعث في الشعب روح الرجاء، خاصة بتجسد ابن الله وتقديم نفسه ذبيحة خلاص. وقد اقتبس كُتَّاب العهد الجديد، مثل القديس متى الإنجيلي الكثير من نبوات إشعياء عن شخص السيد المسيح وحياته وسماته وخدمته، خاصة عن سرّ الصليب.

وكشف عما سيكون لآخر الأزمنة،

والأمور الخفية قبل حدوثها [٢٥].

امتازت نبوات إشعياء النبي ليس فقط من جهة كثرتها، وإنما عن وضوحها بدقةٍ عجيبةٍ خاصة ميلاد السيد المسيح من عذراء، وتأكيد أنه الإله القدير، وتفاصيل عن سرّ الصليب ورسالته.

موضوع "ملكوت الله" عند إشعياء لا يعطيه الأولوية فحسب عن أي موضوع آخر، وإنما يحسبه العنصر الرئيسي في كل شيءٍ. يود أن ينطلق بكل مؤمنٍ ليرى ويُدرِك خطة الله لا في زمانه فحسب بل وإلي منتهى الدهور.

في نظر إشعياء النبي والرائي الحكيم أن أساس حياة المؤمن ليس تدبير أموره الزمنية، بل أن يكون بعيد النظر. لا ليهتم باحتياجاته عبر عشرات السنين وحياة أولاده وأحفاده، وإنما يتفرَّس فيما يحدث حتى نهاية العالم والعبور إلى الدهر الآتي.

من وحي سيراخ ٤٨

بحكمتك تبعث في كل جيلٍ حكماء يَتَحَدُّون الظلمة!

❖ أُسَبِّحك يا حكمة الله المتجسد،

يا واهب الحكمة والتمييز والقوة والقداسة.

بحكمتك أرسلت إيليا الناري يتحدَّى قاتلة الأنبياء.

وبحكمتك أرسلت أليشع صانع العجائب،

حتى في قبره، أقامت عظامه ميتًا!

وبحكمتك أَقمتَ حزقيا الملك، لا يُداهِن أباه بل يهدم أصنامه!

وبحكمتك بعثت إشعياء النبي ليسند المؤمنين وسط الفساد،

ليتعرَّفوا على مُخَلِّص الخطاة.

---

[1] بحسب *OSB*: وشجَّع.

❖ في كل جيلٍ تُرسِل أناس الله، كل منهم يتناسب مع عصره ليُخَلِّص الجميع!
ومع كل مؤمنٍ تُقَدِّم المواهب والقدرات بخطتك الإلهية لخلاص نفسه وإخوته.
قلبي يصرخ إليك قائلاً: نُسَبِّحك على أعمالك العجيبة في كل جيل.
يا ربّ الحصاد أرسل فعلة، فالحصاد كثير والفعلة قليلون.
أعلن لكل مؤمنٍ رسالته، لبنيان ملكوتك الأبدي!
هب لنا ألا نستخفّ بأحد، يا من اخترت جهال العالم لتخزي بهم الحكماء!
لك المجد يا أيها العجيب في حكمتك وتدبيرك وقوتك!

الأصحاح التاسع والأربعون

تمجيد يوشيا الملك وإرميا النبي والأحداث قبل السبي وبعده

يستمر ابن سيراخ في الكشف عن أبطال الإيمان عبر التاريخ، فيُسَجِّل هنا بعض الشخصيات الإيمانية في القرنين السابع والسادس ق.م. [١-١٣] ليقفز إلى الوراء، فيتحدَّث عن الآباء البطاركة في عهد ما قبل الناموس [١٤-١٦].

١. مدح يوشيا الملك الصالح [١-٣].
٢. ملوك يهوذا الأشرار والسبي البابلي [٤-٧].
٣. حزقيال والاثنا عشر نبيًا [٨-١٠].
٤. زربابل ويهوشع ونحميا [١١-١٣].
٥. أناس الله ما قبل الناموس [١٤-١٦].

١. مدح يوشيا الملك الصالح

ذِكْر يوشيا يشبه تركيب البخور، قد أُعِدّ بصناعة العطار، يحلو في كل فمٍ كالعسل، وكالموسيقى في وليمة خمر [١].

لم يوجد ملك تقي رجل إيمان في القرن السابع ق.م. سوى يوشيا، المُصلِح العظيم الذي حكم في أورشليم ما بين ٦٤٠ ق.م.، وموته في معركة مجدو في عام ٦٠٩ ق.م.

كان يربعام بن نباط مضرب المثل في الشرّ، ويوشيا مضرب المثل في إزالة الأوثان (٢ مل ٢٢-٢٣؛ ٢ أي ٣٥: ١-٦).

استخدام الموسيقى على موائد الطعام، هو تعبير عن روح البهجة، كما استخدمت في مثل الابن الراجع إلى أبيه (لو ١٥). وكأن يوشيا بسلوكه في الربّ كان يبعث الفرح والبهجة في حياة المؤمنين.

قاد في تحوُّل الشعب، واستأصل قبائح الإثم [٢].

اهتم ابن سيراخ مثل كاتبي الملوك وأخبار الأيام بدوره العظيم في تطهير أرض الموعد من الوثنية [٢]. لم يُشِر ابن سيراخ إلى اكتشاف الشريعة في الهيكل عام ٦٢٢ ق.م. (٢ مل ٢٢: ٣-١٣؛ ٢ أي ٣٤: ١٤-٢١). أبرز ابن سيراخ صعوبة العمل في عصر يوشيا، إذ عاش في جوٍ شديد الفساد، دُعِي عصره "أيام الإثم".

ووجَّه قلبه إلى الرب؛ وفي أيام الإثم قوَّى التقوى [٣].

٢. ملوك يهوذا الأشرار والسبي البابلي

أخطأوا بطريقة متتابعة كلهم ماعدا داود وحزقيا ويوشيا،

إذ تركوا شريعة العليّ. فشل ملوك يهوذا [٤].

تأهَّل يوشيا أن يُعَدّ مع داود وحزقيا حيث كان الثلاثة ملوك متميزين بالتقوى والإيمان.

سرّ فساد ملوك يهوذا هو تركهم للشريعة، وبالتالي لم يلتصقوا بالله، فسمح الله بتأديب يهوذا بسقوط أورشليم تحت السبي البابلي عام ٥٨٧ ق.م.

لأنهم أَسلموا قُوَّتهم إلى غيرهم،

ومجدهم إلى أمة غريبة [٥].

أحرق (الأعداء) بالنار المدينة المختارة، مدينة المقدس،

وجعلوا شوارعها مقفرة [٦].

تعرَّضت أورشليم للخراب، وصارت شوارعها كأنها قفر، كما قام الأعداء بتدنيس الهيكل وتدميره.

بحسب كلمة إرميا، فإنهم أساؤوا إليه،

وهو الذي تقدَّس كنبيٍ وهو مازال في أحشاء أُمِّه،

ليُقلِع ويُدمِّر ويهلك وبطريقة مماثلة يبني ويغرس [٧].

يدعونا ابن سيراخ إلى قراءة مراثي إرميا التي سجَّلها عندما رأى الدمار يحلّ بالمدينة والشعب، وسيق الرؤساء والأشراف وأصحاب المواهب إلى السبي عام ٥٨٧ ق.م.

النبي الذي ارتبط بالملك يوشيا هو إرميا الذي امتدَّت خدمته النبوية حتى بعد سقوط يهوذا في السبي البابلي. كان كل منهما في مرارة بسبب الفساد الروحي لمملكة يهوذا. يبدو أنهما فشلا في الإصلاح الروحي للمملكة، لكن يبقى الاثنان عظيمان في عيني الله من أجل غيرتهما وجهادهما.

مات يوشيا الملك في معركة مجدو مع فرعون، إذ حاول أن يسند بابل ضد فرعون وفي أقل من ٢٠ عامًا قامت بابل بتخريب أورشليم، وقُتِل إرميا في مصر، في البلد الذي خرج منها موسى مع الشعب ليَعْبُر بهم إلى البرية ويدخل أرض الموعد.

نبوات إرميا النبي مملوءة حزنًا، إذ اقترب وقت السبي البابلي مع تهاون واستخفاف القادة والشعب بالأمر. هذا مثَّل ثقلاً على نفسه. حاول الصمت فلم يستطع (إر ٢٠: ٩). تَحَقَّق السبي في أيامه وشاهد دمار أورشليم وحرقها تمامًا (إر ٣٨: ١٤-٣٩: ١٠؛ ٥٢: ١٢-١٣؛ ٢ مل ٢٥: ١-٢١).

٣. حزقيال والاثنا عشر نبيًا

أعلن ابن سيراخ أن رعاية الله للشعب وهم تحت التأديب لم تتوقَّف. لقد صار الشعب أشبه بعظام موتى، لكن الأنبياء نالوا نعمة من الله ليقيموا الموتى روحيًا، كما أقامت عظام أليشع الميت الذي أُلقي في القبر.

حزقيال نفسه رأى رؤيا المجد،

أراه الله إياها على مركبة الكاروبيم [٨].

يُعتبَر حزقيال نجمًا لامعًا بين الأنبياء في أرض السبي. يبدأ سفره برؤيا العرش الإلهي ليؤكد الله لشعبه أنه يشتاق أن يشتركوا مع السمائيين في التمتُّع بمجده، ومن جانب آخر فهو غير محتاج إلى الهيكل الذي دَنَّسوه والتقدمات والعبادة ما لم تكن قلوبهم مقدسة له، تتهيَّأ لسكناه. وختم السفر بهيكل العهد الجديد المجيد. هكذا تنبأ حزقيال النبي في أرض السبي، فاتحًا باب الرجاء لشعبه.

نظر رؤيا العظام الجافة التي صارت حية وقامت كجيشٍ عظيمٍ جدًا جدًا (حز ٣٧: ٨-١٠). إذ طرد الشعب من وطنه بسبب رجاساته الوثنية وسفكه الدماء تحوَّلت مدنه إلى خراب لا يسكنها أحد، فصارت وكأنها بقعة ملآنة عظامًا كثيرة ويابسة جدًا. بمعنى آخر صارت كأنها قبر مفتوح يضم عظامًا بلا حياة! هذه ليست صورة المدن بل بالأحرى هي صورة الشعب نفسه الذي تشتَّت في مواضع كثيرة بنفسٍ مُحَطَّمةٍ، فصار أشبه بوادي الموت يحوي عظامًا يابسة تحتاج إلى من يقيمها من موتها، ويجمعها من جديد ويهبها الحياة.

شعر ابن سيراخ أن الشعب صار في حالة موت، بل صاروا عظامًا يابسة برفضهم الحكمة الإلهية وانشغالهم بالحكمة الباطلة، لكن الربّ وحده قادر أن يلمس هذه العظام اليابسة ويحييهم ويقوموا على أقدامهم وينطلقوا نحو أورشليم العليا. هذا ما تحقَّق بتجسد حكمة الله وتقديم نفسه ذبيحة، وإذ وُضِع في القبر لمس العظام اليابسة التي في الجحيم وانطلق بهم إلى الفردوس.

ليت الربّ يدخل كل قلبٍ كما في قبرٍ لينطلق بنفوسنا إلى فردوسه!

لأنه ذكر أعداءه في عاصفة رعدية،

وأحسن إلى من يُوَجِّهون طرقهم باستقامة [٩].

فليُحي حقًا عظام الاثني عشر من مكانهم،

فإنهم عزُّوا[١] شعب يعقوب،

---

[١] بحسب *OSB*: شجَّعوا.

وأنقذوه بالرجاء الثابت [١٠].

يدعونا ابن سيراخ للاهتمام بكتابات الأنبياء مثل إشعياء وإرميا وحزقيال والاثنا عشر أنبياء الصغار، كما أبرز قبلاً دور الأنبياء مثل إيليا وأليشع.

٤. زربابل ويهوشع ونحميا

ذكر ابن سيراخ ثلاثة أبطال إيمان قاموا ببناء بيت الربّ وسور المدينة، واهتموا بكلمة الله والعبادة.

مواكب العودة من السبي ثلاثة:

الموكب الأول سنة ٥٣٨/٥٣٧ ق. م. تحت قيادة زرُبابل (شيشبصر) حفيد الملك يهوياكين، ويهوشع الكاهن زرُبابل يمثل **السلطة المدنية**، ويشوع الكاهن يمثل **السلطة الدينية**. لم يرسل كورش الفارسي زرُبابل ملكًا له كمال الحرية في التصرُّف.

إنه موكب التحرُّر من إبليس والصعود إلى أورشليم العليا تحت قيادة رب المجد يسوع بكونه ملك الملوك ورئيس الكهنة السماوي في نفس الوقت، يحمل الملوكية والكهنوت في نفس الوقت.

الموكب الثاني سنة ٤٥٨ ق.م تحت قيادة عزرا **الكاتب**، اهتم بمشكلة المتزوجين بوثنيات (عز ٧-١٠).

الموكب الثالث سنة ٤٤٤/٤٤٥ ق.م تحت قيادة نحميا **الوالي** اهتم ببناء السور؛ بُنِي في ٥٢ يومًا. تمّ تكريس الأسوار وقراءة الشريعة والتمتُّع بفرح الروح (نح ١-١٣). برز زُربابل من نسل داود الملك، كرمز للمسيح ملك الملوك. وفي الفوج الثاني برز عزرا الكاهن بكونه رمزًا لكلمة الله ورئيس الكهنة الأعظم، وفي الفوج الأخير برز نحميا الأمين في عمله كرمز للسيد المسيح المدعو الآمين.

كيف نُعَظِّم زربابل؟

إنه بلا شك كالخاتم في اليد اليمنى [١١].

قاد أول دفعة إلى إسرائيل (عز ٢:٢)، اشترك مع يهوشع وإخوته الكهنة في بناء المذبح لتقديم المُحرَقات وتنظيم العبادة (عز ٣:١-٩). أُقيم واليًا ووضع أساس الهيكل (زك ٤:٦-١٠). سعى في إعادة بناء الهيكل لذا دُعِي هيكل زرُبابل، وظل البناء قائمًا حتى سنة ٢٠ ق.م، حيث قام هيرودس بإعادة بنائه من جديد.

كذلك يشوع بن يوصاداق،

ففي أيامهما بُنِي البيت،

وشُيِّد هيكل الربّ المقدّس، المُعَدّ لمجد أبديّ [١٢].

وذِكْر نحميا دائم، فهو الذي أقام لنا السور المُنهدِم،

ونصب لنا الأبواب والمزاليج وبنى مواقع منازلنا مرة أخرى [١٣].

وُلِد في السبي؛ لم يكن من نسل ملكي مثل زرُبابل، ولا كهنوتي مثل عزرا، ولا صاحب مركز إداري مثل دانيال رئيس الوزراء، إنما حُبّه الشديد لله ولشعبه جعله قائدًا.

كان يذوق الخمر قبل الملك حتى يطمئن أنه غير مسموم. وكان هذا المركز مرموقًا في العصر الفارسي. كان ساقي الملك غالبًا خصيًا، هذا يُفَسِّر عدم الإشارة إلى عائلة نحميا. سبقه عزرا إلى أورشليم بحوالي ١٣ عامًا. اهتم نحميا ببناء السور بالرغم من مقاومة الأعداء له؛ كما اهتم بالبناء الداخلي للشعب، ثم عاد إلى شوشن العاصمة، ولم يبقَ فيه طويلاً، إذ رجع إلى أورشليم كحاكمٍ عامٍ على يهوذا على الأقل لمدة ١٢ سنة. كان يُمَثِّل القيادة الروحية الحقيقية. ما شغله هو آلام إخوته. تعلَّم القيادة خلال الرُكَب المنحنية والصمت والدموع والصراخ. مارس الصلاة في كل الظروف.

٥. أناس الله ما قبل الناموس

لم يُخلَق على الأرض أحد مثل أخنوخ،

لأنه رُفِع من الأرض [١٤].

الآن لئلا ينشغل القارئ بتاريخ الأبطال أراد ابن سيراخ إبراز أن لكل بطل من أبطال الإيمان سمو في جانب معين يختلف عن بقية الأبطال.

أخنوخ تأهَّل بتقواه لصداقة فريدة مع الله، فنقله عن الأرض إلى السماء.

ويوسف تأهَّل بمحبته لإخوته وعدم مجازاتهم على غدرهم به، فصار رئيسًا لإخوته، الذين افتقدوا عظامه في الخروج تحت قيادة موسى.

وسام ستر على والده نوح حين تعرَّى بسبب السُكْرِ (تك ٩)، **وشيث** سرّ عزاء والديه (تك ٤).

أما **آدم** فإن كان قد أخطأ هو وزوجته حواء، لكننا مدينون له كأبٍ لكل البشرية حسب الجسد.

ولم يُولَد رجل مثل يوسف رئيس إخوته وداعم شعبه؛

واهتموا بعظامه [١٥].

نقل أخنوخ عن الأرض يعتبر غرس بذرة عقيدة قيامة الأموات والتمتع بالحياة الأخرى؛ وأيضًا اهتمام يوسف بحمل عظامه إلى أرض الموعد يحمل تلميحًا للرجاء في القيامة العتيدة.

سام وشيث مُمَجَّدان بين الناس،

وآدم فوق كل حيّ في الخليقة [١٦].

شيث رمز السيد المسيح: تحدَّث كثير من الآباء عن شيث من جوانب متنوعة. وقد سجَّل لنا **القديس مار يعقوب السروجي** ميمرًا خاصًا بشيث بأسلوبه الشعري الذي يهزُّ النفس، في ١٤٠ سطرًا. خلاله يشعر المؤمن أن الله لا يترك مؤمنًا في مرارة، بل مع كثرة الآلام ومرارتها، تزداد تعزياته الإلهية بعذوبتها. إذ يشارك القديس مار يعقوب السروجي أبوانا الأولين آدم وحواء مرارة نفسيهما بسبب قتل هابيل على يدي أخيه قايين، يتلامس مع التعزيات الإلهية العجيبة التي فاضت عليهما بميلاد ابنهما شيث. سرُّ تعزيتهما ليس أن الله وهبهما ابنًا عوض هابيل وقايين، حيث نظرا ميتًا لأول مرة في حياتهما، وأدركا كيف يعود الجسم الترابي إلى التراب. كما نظرا قايين في رعبٍ شديدٍ يخشى الحيوانات، بل ويرتعب حتى من ظلِّه. إنما نظرا في شيث حُبَّ الله الفائق، وتعزيات السماء، وأدركا أسرارًا إلهية رفعت قلبيهما كما إلى السماء.

١. كان شيث رمزًا لكلمة الله المتجسد، مُفَرِّح البشرية بخلاصه.

٢. يقف شيث في مقابل قايين، فالأخير مؤسس المدينة الأرضية التي تنحدر بالإنسان نحو الهاوية، والأول مؤسس المدينة السماوية التي ترفع أعماق المؤمن إلى الفردوس!

❖ يا ابنًا مجيدًا يشبه أباه كما (يشبه) شيث آدمَ، ضع على لساني جمال سرّك، لأتكلم عنه.
أيها الابن، الذي عزَّى حواء بسرِّه، وأزال حزنها، أثر كلمتي بقوتك لأذكر خبرك.
تألمتُ بسبب الحزن الذي حدث لآل آدم! ربِّي، ساعدني لأتكلم عن تعزيتهما بواسطة شيث البهي.
كنت قد تكلمتُ عن ألم هابيل العظيم، وعن اللعنات التي لُعِنَ بها قايين من قِبَل الله.
ذكرتُ أمامكم ذبائح ابنيَّ آدم، وتسلسل الخبر إلى القراءة بحسب نظامه.
كنت قد تكلمتُ أيضا عن مراثي أمنا حواء، وعن شدة حزن الأم على حبيبها.
اليوم يلزمني أن أتكلم عن تعزيتهما، وبأية علة نسيا ضيقاتهما المُرَّة.
اسرد أولاً أية آلام أدركتهما، وبعدئذ أعود إلى التعزية التي أبهجتهما[١].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[١] الميمر ١٥٠ الرابع على قايين وهابيل وعلى تعزية آل آدم التي صارت بواسطة شيث (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني).

يا لعظمة كواكبك المُنِيرَة!

❖ تُبارِكك نفسي من أجل إشراقك العجيب يا شمس البرّ.
في كل جيلٍ يظن الكثيرون كأن العالم قد فسد تمامًا.
لكنك تملأ قلوبنا بفرح الرجاء فيك.
تبعث بنورك وسط الظلام،
فتُقِيم من البشرية كواكب بهية!
في الفترة الأخيرة من مملكة يهوذا تعاقب ملوك فاسدون،
كَرَّسوا حياتهم لفساد شعبك!
أَقمت يوشيا الملك وكأنه مجمرة تبعث بخورًا ذكيًا يحمل رائحتك العطرة.
حين يتحدَّث أحد عنه يصير فمه ينبوع عسل حلو.
وحينما نتطلَّع إلى عمل نعمتك فيه،
نُدرِك أنك تُقِيم موسيقيين يملأون العالم بفرح الروح!

❖ في مرارة السبي لم تستطع قوات الظلمة أن تحبس نفس حزقيال عن التمتُّع بأمجاد عرشك الإلهي.

الأصحاح الخمسون

تمجيد سمعان بن أونيّا

يضم ابن سيراخ إلى موكب أبطال الإيمان شخصية معاصرة له وهو سمعان بن أونيا الثاني رئيس الكهنة التقي، ليؤكد أن الموكب يبقى يضم أناس الله في كل العصور حتى انقضاء الدهر. امتد كهنوته منذ عام ٢١٩ ق.م إلى حوالي ١٩٦ ق.م، ذكره المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس[١].

بينما يمتدح يوسيفوس المؤرخ سمعان هذا، فإنه يحمل بشدة على أبيه أونيا الذي تمرَّد على ملك مصر ورفض دفع الجزية، فقرَّر ملك مصر الاستيلاء على أورشليم لولا تدخل شخص من عائلة طوبيا ومنع الحرب، ومن هنا صارت عداوة بين عشيرة طوبيا وعشيرة رئيس الكهنة[٢].

لم يكن لسمعان شهرته في التاريخ البشري، لكن اتَّسم بتقواه، وقداسة حياته.

غالبًا ما كان الملك السوري يعهد لرئيس الكهنة بمهامٍ سياسية مُحَدَّدة. غير أن ما شغل قلب ابن سيراخ هو اهتمام رئيس الكهنة بالهيكل بيت الربّ ومدينة الربّ حتى لا يُحاصِرها مقاومو الإيمان.

مدح سمعان بن أونيا

قَدَّم لنا ابن سيراخ أروع وصف كتابي للعبادة في إسرائيل. ففي حديثه يمجد الله الذي وضع هذا النظام والفكر من جهة العبادة. تطلَّع ابن سيراخ إلى النار والحجارة الكريمة والذهب وجمال ألوان الثياب الكهنوتية والأواني المقدسة. حتى الهواء الذي يتنسمه كان مُعطرًا ببخورٍ منعشٍ للغاية والزيوت المستخدمة عطرية، وأصوات الأبواق الذهبية والتسابيح تعطي راحة ولذَّة لآذان المُتعبِّدين.

لم يكن عمل سمعان أن يترك بصمات على التاريخ تمجده، إنما أن يتمتع مع الكهنة والشعب بالكفارة مع البركات الإلهية [٢١]. خدمته وعبادته تبرزان الفارق بين العبادة التي حسب خطة الله نفسه وعبادة الأمم المحيطة بهم من سامريين، الذين كانوا من دمٍ مختلط بين اليهود والأمم، وأدوميين ويونانيين. بل ما قَدَّمه سيراخ هو دعوة للأمم أن تعبد الربّ بالروح والحق حسب خطة الله، بفكرٍ شبه سماوي ومجيد. لذلك تلقفت الكنيسة الأولى هذا السفر وحسبته "كتاب الكنيسة *Ecclesiasticus*" يُقَدَّم للموعوظين.

سمعان البار الذي ذكره يوسيفوس المؤرخ اليهودي، هو بالتأكيد سمعان الأول حيث يقول عنه إنه سمي بالبار نظراً لورعه وتقواه، هذا ويرجح أن (سمعان البار) المذكور في المشناة، هو سمعان الأول،

---

[1] *Antiquities 12.4.10.*

[٢] الأنبا مكاريوس.

حيث ورد عنه أنه أحد أعضاء المجمع الكبير، وفي التلمود يظهر باعتباره البطل الذي تدور حوله القصص والأساطير الكثيرة.

وفي الترجمة السريانية المسماه (البشيطة) أي البسيطة، ترد العبارة التالية (ليثبت "السلام" مع سمعان البار ٥٠: ٢٣) كما وردت الآية في بعض المخطوطات الأخرى "سمعان الحكيم".

وبالرغم من أن البعض يرى أن هذه الآية غير أصلية، إلا أن أكثر العلماء قد أيَّدوها، وعليه فهذا هو لقب سمعان في كل من السفر وتاريخ يوسيفوس والمشناة والتقليد.

قَدَّم ابن سيراخ لتلاميذه شخصية رئيس الكهنة المعاصر لهم، وكان نموذجًا رائعًا للحياة المقدسة في الربّ، والإخلاص في الإيمان المستقيم والعبادة الحقيقية. أبرزه كخلاصة وإكليل أبناء هرون، فيه نرى صورة السيد المسيح رئيس الكهنة السماوي يُقَدِّم عنا صليبه الذبيحة الفريدة القادرة على التكفير عن كل الخطاة.

جاء في المشناه *Mishnah* "يوجد العالم خلال ثلاثة أشياء: الشريعة والعبادة وعمل الخير". تَحَقَّق هذا في شخصية كل أبطال الإيمان. وجاء تعليم ابن سيراخ يُرَكِّز على هذه الفضائل الثلاث: حفظ الشريعة الإلهية، وممارسة العبادة بالروح، وعمل الخير بالحب. فالحكمة في نظر السفر توجد في السلوك المقدس الصادر عن التعليم الصادق والعبادة الروحية الصحيحة ومحبة البشرية.

أما الإشارة الوحيدة إلى سمعان الثاني في التاريخ والتقليد اليهودي، فتصوره في شكل غير مرضي، فبحسب ما ورد في مكابيين الثاني ٣: ٦ يرد أنه هو الذي وشى إلى القائد السوري لنهب كنوز الهيكل، ويروي يوسيفوس أيضًا أن سمعان هذا قد وقف مع أبناء طوبيا ضد هركانوس بن يوسف، حيث كان أبناء طوبيا في الجانب الخاطئ، وذلك من وجهة نظر اليهود المهتدين.

يذكر عن سمعان بن أونيا رئيس الكهنة، أنه رَمَّم الهيكل وحصَّن المدينة، ويقول أحد العلماء وهو هيدرشيم[1] انهما كانا بالفعل في حالة تحتاج إلى ترميم في زمن سمعان الأول.

١. أعمال سمعان بن أونيا [١-٤].

٢. شخصية سمعان الباهرة [٥-١٦].

٣. توصية المجد لله [١٧-١٩].

٤. مشاركة الشعب في العبادة [٢٠-٢١].

٥. صلاة من أجل سلام إسرائيل [٢٢-٢٤].

٦. الأمم المقاومة [٢٥-٢٦].

---

[1] ألفريد هيدرشيم يهودي متنصر.

٧. ملاحظة ختامية [٢٧-٢٩].

١. أعمال سمعان بن أونيا

سمعان بن أونيّا، رئيس الكهنة، قائد إخوته، وفخر شعبه[١]، هو الذي رَمَّم البيت في حياته، وحصَّن الهيكل في أيَّامه [١].

وأيضًا وضع أساس السور ذي العلوّ المُضاعَف، والسور الحصين المحيط بالهيكل [٢].

في أيامه حُفِر وعاء المياه، خزَّان مثل البحر في المحيط (أو الحدود) [٣].

حفر الحوض الكبير في وسط الهيكل لتغطية احتياجات الذبائح والتطهير والاغتسال، وفي أيام بيلاطس بنطس كان هذا الخزان الهائل قائمًا، وكانت تجلب له المياه من خارج أورشليم، وكانت سعته كبيرة جدًا، كما كانت تركب عليه ماكينة ضخ لتغذية الخزانات الأخرى في الهيكل[٢].

كان مهتمًا بخلاص شعبه من الهلاك، فحصّن المدينة لتصمد في وجه الحصار [٤].

٢. شخصية سمعان الباهرة

يُقَدِّم لنا سيراخ شخصية سمعان بن أونيا نموذجًا رائعًا لحياة العبادة في قداسةٍ، سماتها الآتي:

١. سرّ مجده أنه **يلتقي مع الله في قدس الأقداس** وراء بيت الحجاب [٥]، وإذ **يخرج يُحَاط بشعبه في مجدٍ عظيمٍ** [٥]. هكذا يربط ابن سيراخ في حياة القائد كنموذجٍ سامٍ لكل مؤمن، إذ تكون له الحياة الخفية واللقاء السري مع الله كما في قدس الأقداس، وألاَّ يعتزل الإخوة. ليس من تعارُض بين المجد الذي يتمتَّع به سرًا من الله، والمجد الذي يسطع منه بحُبِّه وخدمته لإخوته [٥].

٢. سرّ قداسته أن يرتفع عن الأرضيات، فيعيش في **عربون السماويات** ككوكب الصبح الساطع بين السحب، وكالقمر في كمال نوره حيث يصير بدرًا [٦].

٣. أينما وُجِد سمعان بن أونيا لا يُفارِقه المجد والبهاء والنور الفائق والقداسة. هكذا يراه ابن سيراخ في أوضاع كثيرة تكشف عن جوانب متعددة من المجد والبهاء، نذكر منها الآتي:

أ. **وراء الحجاب** في قدس الأقداس [٥] ينعم بخلوةٍ وحوارٍ سرّي مع القدوس، فيتقدَّس.

ب. **في الهيكل** يحاط بشعبه في حبٍ لهم يخدمهم ويُعَلِّمهم ويقودهم بروح الحب؛ ما أمجده؟! [٥].

ج. **بين السحب** يتلألأ ككوكب الصبح [٦].

---

[١] غير موجودة في *OSB*.

[٢] الأنبا مكاريوس.

د. **في السماء** كقمرٍ كامل البهاء في وضعه كبدرٍ، كله نور [٦].

هـ. **في الأعالي كشمسٍ مُشرِقة** بالنور الإلهي على هيكل العليّ [٧].

و. **في الحضرة الإلهية** كقوس قزح علامة العهد الإلهي مع البشر، متلألئًا بسحب بهاء الرعاية المستمرة [٧].

ز. **في الحقول** كزهرة وسط الورود، كزنبقة على ينبوع المياه، أو شجرة الأرز في وقت الصيف [٨].

ح. وهو يُقَدِّم البخور لله **يصير هو نفسه كنارٍ**، لا لتحرق إنسانًا، وإنما تحرق بخورًا عطرًا يشير إلى صعود الصلوات إلى الله.

ط. إذ يستخدم الأواني المقدسة، يصير هو نفسه **إناءً ذهبيًا**، أي سماويًا لخدمة السماوي، وقد رُصِّع بحجارة كريمة ثمينة [٩].

ي. في حديقة بيت الربّ **كشجرة الزيتون** المثمرة أو **كالسرو** المرتفع إلى السحب [١٠].

ك. إذ يلبس ثياب المجد ويصعد إلى المذبح المقدس، **تمتلئ ساحة بيت الربّ بالقداسة** التي يسكبها القدوس عليه [١١].

ل. حين يتناول من أيدي الكهنة أجزاء من الذبيحة يرى اِلتفاف الكهنة حوله بحبٍ وفرحٍ وتهليلٍ **أشبه بإكليل يحوط به.**

م. إذ كان **يسكب دم العنب على المذبح** يشتَّمها الربّ رائحة رضا وسرور عن كل الشعب.

ن. إذ يهتف بنو هرون بتهليلٍ وتسبيحٍ وينفخون بأبواق كلمة الله تصعد هذه العبادة أمام كرسي العليّ.

ما أمجده مُحاطًا بشعبه عند خروجه من وراء بيت الحجاب! [٥].

هذه العبارة غالبًا وصف لما يقوم به رئيس الكهنة في يوم الكفارة العظيم (لا ١٦: ٢٣-٢٥) حيث يخرج رئيس الكهنة من قدس الأقداس، من الحجاب إلى الدار الداخلية *inner court*. وقد أخذت الكنيسة هذا الطقس في بعض الأعياد. يصف هنا خدمة يوم الكفَّارة العظيم، حيث يكشف عن مهارة رئيس الكهنة سمعان بن أونيا والإبداع في الخدمة داخل الهيكل. غالبًا ما يُسَجِّل ابن سيراخ ما رآه بعينيه، كما يُسَجِّل مشاعره من فرحٍ وسلامٍ في أعماقه وفي قلوب من هم حوله. شعر وكأنه عاد إلى أيام المجد التي عاشها إسرائيل عند الانتهاء من بناء هيكل سليمان.

في الآيات ٦-١٠ جاءت مجموعة من التشبيهات خلال جمال الطبيعة مثل تلك الواردة في (سي ٢٤: ١٣-١٧) لتؤكد الجمال الروحي لرئيس الكهنة.

مثل كوكب الصبح بين السُحُب، ومثل القمر وهو بدر [٦].

أو الشمس المشرقة على هيكل العليّ، أو قوس قُزَح المتلألئ بين سُحُب المجد [٧].

أو مثل زهر الورد في أيام البكور، أو مثل السوسن على ينبوع مياه، أو نبات لبنان في يوم صيف[١] [٨].

أو مثل النار والبخور في المجمرة، أو إناء الذهب المُصمَت المُزيَّن بكل حجر كريم [٩].

أو مثل شجرة الزيتون التي تثمر ثمارًا نضرة، ومثل شجرة السَّرو المُرتفِعة إلى السحب [١٠].

❖ فلنكن هكذا، كشجر زيتون، مُحمَّلين بالوصايا من كل جانبٍ. فإنه لا يكفي أن نصير مثل شجر زيتون، وإنما يلزم أن نكون مُثمِرين أيضًا[٢].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كن كزيتونةٍ خضراءٍ في بيت الله. لا تفقد الرجاء أبدًا، بل تحصَّن بالإيمان بزهور الإخلاص، فتشبه ذاك النبات... بل وتفوقه في الإثمار، إن كان كل يومٍ يردك، وأنت تفيض بعطاء الصدقات[٣].

القديس باسيليوس الكبير

في الآيات ١١-١٣ يتحدث عن الذبائح الصباحية والمسائية التي يُقَدِّمها رئيس الكهنة وقد سبق ذكرها في (سي ٤٥: ١٤)، حيث يُقَدِّمها نسل هرون مرتين كل يومٍ دون توقُّفٍ. طقوس هذه التقدمة عُرِفَت بـ *tamid* أي التقدمة الدائمة (خر ٢٩: ٣٨-٤٢). ما ورد في المشناة (*Tamid* 7: 2-3)، حيث يقف الكهنة العاديون حول رئيس الكهنة عند المذبح يقدمون إليه أجزاء مُعَيَّنة من الحيوان ليقدمها رئيس الكهنة كذبيحة. وهو في هذا يشبه ما يفعله طلبة كلية الطب والممرضات وهم حول الطبيب الجرَّاح يقدمون له الأدوات الخاصة ليقوم هو بالجراحة.

حين كان يرتدي حُلَّة مجد، ويلبس كمال الفخر، وفي صعوده إلى المذبح المقدّس، كان يُعظِّم ساحة المقدس [١١].

هذا وأن ثوب المسيح أو لباسه يشير إلى الكنيسة الملتصقة به، فإن هذا اللباس غسله السيد بدمه

---

[١] بحسب *NRSV*: ومثل برعم أخضر على لبنان في يوم صيف. بحسب *OSB*: مثل غُصَيْن بخور في الصيف.

[2] *In Hebr., hom, 32:8.*

[3] *Hexameron 5:6.*

الطاهر... وكما يقول **القديس كبريانوس:** [إذ يُشَار إلى دم الخمر ماذا يعني سوى خمر كأس دم الرب؟![1]]. ويقول **القديس إكليمنضس الإسكندري:** [ينتج الكرم خمرًا، والكلمة يقدم دمًا، كلاهما يجلبان الصحة، الخمر للجسد والدم للروح[2]]. ويقول **القديس أغسطينوس:** [ما هذا الثوب الذي يغسله في الخمر، أي يغسله في دمه من الخطية... إلاَّ الكنيسة[3].

وعندما كان يتناول القطعة من أيدي الكهنة، وهو واقف على موقد المذبح، كان يحيط به إكليل من الإخوة، كشجيرة أرز في لبنان ويحيطون به مثل جذوع شجر النخيل [١٢].

وكان جميع بني هارون في مجدهم، وتقدمة الربّ في أياديهم أمام كل جماعة إسرائيل [١٣].

عند إتمام الخدمة على المذبح وتدبير تقدمة العليّ القدير [١٤]،

كان يمدّ يده إلى الكأس، ويسكب من دم العنب، كان يصبّه على أساس المذبح، رائحة عطرة أمام العليّ ملك الكل [١٥].

تصف العبارتان ١٤-١٥ سكيب الخمر (يُسمى السكائب كما ورد في سفر العدد ٢٨: ٧-٨) كما ورد في المشناة كطقسٍ يومي يصحبه النفخ في الأبواق المطروقة.

❖ الآن دم الرب من جزئين، واحد مادي يُخَلِّصنا من الفساد (١ بط ١: ٨)، والآخر روحي به نُمسَح. شُرب دم المسيح هو مشاركة في عدم الفساد (يو ٦: ٥٥). ولكن الروح هو قوة الكلمة بنفس الطريقة التي بها دم الجسد. بنفس الطريقة الخمر يُمزَج بالماء، والروح بالإنسان. الأول مزيج يُقَدِّم لنا فرحًا فيزداد الإيمان، والآخر الروحي يقودنا إلى عدم الفساد. اتحاد الإثنين، أي الجرعة والكلمة، يدعى الإفخارستيا، عطية تستحق التسبيح، غاية في البهاء، الذين يتناولونه يتقدَّسون في الجسد والنفس، فإن هذه هي إرادة الآب. إن الإنسان مُرَكَّب مخلوق بواسطة الله، يتَّحِد بالروح والكلمة. بالحقيقة الروح يتَّحد بالنفس تمامًا التي تعتمد عليه، والجسد يتَّحد بالكلمة إذ من أجله "الكلمة صار جسدًا" (يو ١: ١٤)[4].

القديس إكليمنضس السكندري

إذ يُشَجِّع الرسول بولس تلميذه على الجهاد بقوة الروح من أجل الكرازة بالحق، متممًا خدمته حتى

---

[1] *Ep. 62: 6.*

[2] *Instr. 1: 5.*

[3] *City of God 16: 41.*

[4] *Paedagogus, FOTC, Vol. 23, p. 110-112.*

النهاية بفرحٍ، قَدَّم نفسه مثالاً، إذ جاهد حتى النفس الأخير. حقًا ما أروع كلماته: "**فإني أُسكَب سكيبًا، ووقت انحلالي قد حضر**" (٢ تي ٤: ٦).

كأن الرسول قد عاد بذاكرته إلى أب الأسباط كلها يعقوب، وقد أقام عمودًا وسكب عليه سكيبًا ودهنه بالزيت (تك ٣٥: ١٤)، غالبًا ما كان هذا السكيب من الخمر، قَدَّمه على العمود كتدشين لأول بيت يُقَام لله في تاريخ الخلاص، إشارة إلى عطية فرح الروح القدس التي تملأ بيت الله أي شعبه. كأن الرسول يرى وسط آلامه داخل السجن منطلقًا نحو ساحة الاستشهاد أن روح الفرح الإلهي يملأ حياة الكنيسة خلال آلام الرسول.

ولعل الرسول وهو يتحدَّث عن نفسه كسكيبٍ يُسكَب، يذكر ما ألزمت به الشريعة من تقديم خروفين كل يومٍ، الواحد في الصباح والآخر في العشية، أثناء تقديمه يُصنَع له سكيب من الخمر (خر ٢٩: ٤٠-٤١). وكأن ذبيحة الصليب قد ارتبطت بفرح الروح القدس الذي ينسكب على الكنيسة خلال الحمل الإلهي الذبيح. هذه هي خبرتنا المستمرة، ففي ليتورچيا الإفخارستيا، إذ تُقَدِّم الكنيسة للآب بالروح القدس تقدمة الابن الوحيد، جسده المبذول، يسكب عليها وفيها فرحه الإلهي بحلول روحه القدوس الفائق! هذا ما رفع الكنيسة إلى التغنِّي بليتورچيا الإفخارستيا كتسبحة فرح فائق، هي من صنع الروح القدس واهب الفرح الحقيقي!

حينئذ كان بنو هارون يهتفون، وينفخون بالأبواق المطروقة، ويصنعون صوتًا عظيمًا كتذكار أمام العليّ [١٦].

كانت أصوات الأبواق التي يطلقها الكهنة إيذانا ببدء الخدمة أو الذبيحة، ماتزال مُستخدَمة في عصر ابن سيراخ (عد ١٠: ٢، ١٠)، وعند ذلك يسجد جميع المؤمنين على وجوههم إلى الأرض، ويتخلَّل هذا الجو الروحى المؤثر تسابيح اللاويين، بينما يبتهل الشعب إلى الربّ.

"العلي ملك الكل" مثل هذه العبارة كانت تهيئة خفية للخلاص الذي يُقَدِّمه ملك الملوك لخلاص كل العالم وليس لليهود وحدهم.

❖ عندما يأتي ربّنا يسوع (وقد رُمِز لمجيئه قديمًا بواسطة يشوع بن نون)، يرسل كهنته، الرسل الحاملين أبواقًا مسحولة (مطروقة) من معدنٍ (عد ١٠: ٢؛ مز ٩٨: ٦)، أي تعليم الكرازة العظيم السماوي.

متى في إنجيله أولاً ضرب ببوق كهنوتي، ومرقس ولوقا ويوحنا أيضًا كل منهم نفخ أبواقه الكهنوتية. بطرس ايضًا جعل بوقه يدوي خلال رسالتيه، كما فعل يعقوب ويهوذا. استمر يوحنا يضرب بوقه في رسائله، وهكذا فعل لوقا حين وصف أعمال الرسل. وأخيرًا وصل ذاك القائل:

"أرى أن الله أبرزنا نحن الرسل آخرين" (١ كو ٤: ٩)، بعث ببروق مع أبواق رسائله الأربعة عشر رسالة، لقد جعل أسوار أريحا المبتدعة عبادة الأصنام وأفكار الفلاسفة أن تنهار من أساساتها[1].

العلامة أوريجينوس

٣. توصية المجد لله

كان عند ذلك كل الشعب يُسرعون معًا، ويسقطون بوجوههم إلى الأرض، ليسجدوا لربِّهم القادر على كل شيء، العليّ [١٧].

كان رئيس الكهنة وحده يُسمَح له أن ينطق باسم الله القدوس "يهوه" عندما يُعلِن عن مغفرة الله للشعب (لا ١٦: ٣٠). وقد ورد في المشناة (*Yoma* 6: 2) "عندما يسمع الكهنة والشعب... تعبير اسم (يهوه) يصدر عن فم رئيس الكهنة يسجدون وينحنون ويسقطون على وجوههم".

والمغنون أيضًا يُسَبِّحون بأصواتهم، وكانت أناشيدهم حلوة بأصوات متنوعة [١٨].

والشعب أيضًا يُصلِّي إلى الربّ العليّ بصلاة أمام الرحوم، حتى ينتهي ترتيب الربّ ويتممون ليتورجيّته [١٩].

٤. مشاركة الشعب في العبادة

ثم ينزل ويرفع يديه على كل جماعة بني اسرائيل، ويفتخر باسمه (اسم الربّ) [٢٠].

تصل الخدمة إلى ذروتها عندما يقف رئيس الكهنة ليبارك الشعب بالبركة الكهنوتية التقليدية الواردة في (لاويين ٩: ٢؛ العدد ٦: ٢٤-٢٦). أما نطق اسم الرب "يهوه" فلم يكن مسموحًا به في ذلك الوقت لأي شخص أن ينطق به، بل كان يُستبدَل عند القراءة بـ أدونای باستثناء يوم الكفارة، ففيه يسمح بأن ينطق رئيس الكهنة هذا الاسم المخوف المبارك لاستمطار البركة على الشعب.

عندئذٍ ينحنون إلى أسفل ليسجدوا مرة ثانية لينالوا البركة من العليّ [٢١].

كان اليهود يُكَرِّرون الميطانيات خاصة في يوم الكفارة العظيم، وهو ما تفعله الكنيسة خاصة في يوم الجمعة العظيمة، إذ تطلب مراحم الله بالصليب بكونه كفارة عن خطايانا.

٥. صلاة من أجل سلام إسرائيل

والآن باركوا إله الكلّ، الذي يصنع أمورًا عظيمة بكلّ نوعٍ، والذي يُمَجِّد أيامنا منذ ميلادنا، ويُعامِلنا حسب رحمته [٢٢].

---

[1] *Homilies on Joshua 7:1.*

ليمنحنا فرح القلب، وليوجد السلام في أيامنا، في إسرائيل كما في أيام القِدَم [٢٣]

ليودعنا رحمته وليفتدينا في أيامنا! [٢٤]

"ليفتدينا" أو "يخلصنا": كان اليهود يترقّبون مجيء المسيّا المخلص! وقد تحقق هذا في حياة وآلام وصلب وقيامة ربنا يسوع المسيح (أف ١: ٧-١٤؛ رو ٨: ٢٢-٢٣).

٦. الأمم المقاومة

أُمّتان تمقتهما نفسي، والثالثة ليست بأمّة: [٢٥]

الساكنون على جبل السامرة[١]، والفلسطينيون، والشعب الغبي الساكن في شكيم [٢٦].

بنى السامريون هيكلاً كهيكل أورشليم على جبل جرزيم بالقرب من شكيم جنوب نابلس *Nablus* الحالية، وكان الهيكل لا زال قائمًا في أيام ابن سيراخ وإن كان قد دَمَّره اليهود عام ١٢٨ ق.م.

السامريون الحاليون لا زالوا يحتفلون بعيد الفصح على جانب هيكلهم بجوار نابلس. أيضًا يدَّعي السامريون بأن السلسلة المنحدرة من هرون رئيس الكهنة قد تلفت، وأنهم وحدهم دون غيرهم يحتفظون بسلسلة منحدرة من هرون لم تتكسر وذلك خلال فينحاس؛ هذا ما كان يدفع ابن سيراخ إلى معاداة السامريين.

٧. ملاحظة ختامية

أضافها الحفيد المُترجِم للسفر.

يشوع بن سيراخ بن اليعازار الأورشليمي، الذي أمطر الحكمة من قلبه[٢] في هذا السفر، كتبتُ تعليمًا في الفهم والمعرفة [٢٧].

يُوَقِّع ابن سيراخ على كلماته، ويُشَجِّع على حفظها واتباعها، فقد وهبها الله له وليست من حكمته الخاصة أو عمل بشري مُجَرَّد أو نقل عن الحكماء الذين حوله في العالم القديم مثل حمورابى وأخيكار وأخناتون وغيرهم، وهو بالتالي فاض بها على بني شعبه ولم يبخل بشيءٍ.

طوبى لمن يُرشِد نفسه بها، فإن الذي يجعلها في قلبه يكون حكيمًا [٢٨].

وإذا عمل بها، ينمو بقوة في كل شيءٍ، لأن نور الربّ طريقه [٢٩].

يتبقَّى الآن أن يعملوا بها، ليس فقط يتناقلونها في مجالسهم وولائمهم وكتاباتهم، وألاّ يستخفّوا بها

---

[١] بحسب *NRSV*: الساكنون في سعير.

[٢] غير موجودة في *OSB*.

كذلك، فإن من يعمل بها يُحَقِّق آماله ويقدر على كل شيءٍ، لأن الرب سيصير له نورًا من خلال أقوال الحكمة الصادرة عن الشريعة أيضًا "سِرَاجٌ لِرِجْلِي كَلاَمُكَ وَنُورٌ لِسَبِيلِي" (مز ١١٩: ١٠٥).

من وحي سيراخ ٥٠

لتُشرِق ببهائك على كنيستك!

❖ هب لنا يا رئيس الكهنة السماوي أن نتمتَّع بروحك القدوس،
فهو وحده يُرَمِّم هيكلك في قلوبنا.
ويحوط حول نفوسنا كسور نارٍ يحمينا من سهام العدو.
ويُفَجِّر في داخلنا ينابيع مياه حيَّة.

❖ تُقِيم من نفوسنا المظلمة كواكب منيرة،
وتبعث فينا رائحتك الزكية،
وتثبت في داخلنا عهدك، فتملأنا بسلامك.
تقبل صلواتنا رائحة بخور زكية.
وتغرس فينا صليبك كشجرة زيتون دائمة الخضرة.

❖ هب لنا برّك لباسًا نستتر فيه.
أقم مذبحك فينا، فيسكب روحك فرحًا سماويًا.
نخضع لك، ونسجد متهللين مع الطغمات السماوية.
باعتزاز تضرب الأبواق في داخلنا بكلمتك واهبة الحياة.
حوِّل حياتنا إلى تسبحة لا تنقطع، نعزفها كل أيام غربتنا.

❖ أنت فادينا العجيب.
لا يُرعِبنا إبليس بكل حيله وأعماله الشريرة.
بحروبه مهما اشتدَّت نتمتَّع بإكليل النُصرة.
أنت هو سندنا وخلاصنا ومجدنا وإكليلنا.

الأصحاح الحادي والخمسون

الحكمة وروح التسبيح

جاء هذا الأصحاح الختامي يؤكد سمات رجل الله ابن سيراخ الحكيم، وحُبّه الدائم للتسبيح. فالسِفْر كله في جوهره دعوة للتمتُّع بالحكمة السماوية بروح البهجة والتسبيح.

يحتوي هذا الأصحاح على قصيدتين من الشعر.

١. تسبحة شكر شخصية [١-١٢]

٢. قصيدة في طلب الحكمة وإقامة مدرسة لتعليم الحكمة [١٣-٣٠]

أ. تسبحة شكر لعمل الله الخلاصي معه شخصيًا [١-١٢]: في هذه القصيدة يشكر الله الذي خَلَّصه من افتراءات المُقاوِمين له لدى الملك، والتي كادت تُعَرِّض حياته لخطر الموت. وكذلك على موهبة الحكمة التي جمَّله بها، وحثّ تلاميذه على السعي في طلبها. إذ يهبه الله الحكمة، يردّ هذا الحب بالحب، فيُقَدِّم له تسبيحًا: "إن الذي آتاني حكمة أوتيه تمجيدًا" (راجع سي ٢٣:٥١). "أعطاني الرب اللسان، فبه أُسَبِّحه" (راجع سي ٣٠:٥١).

ب. قصيدة عن مزاولة الحكمة بترتيب أبجدي [١٣-٣٠]: تُعَبِّر عن محبة الكاتب للحكمة، وتُعتبَر ملخصًا رائعًا للسفر كله.

١. تسبحة شكر شخصية

إن كان السفر يدعو إلى الشركة في التسبيح، فمن جانب آخر، يلزم أن يُقَدِّم المؤمن تسبحة شكر لمعاملات الله المُخَلِّص والملك معه شخصيًا. جاءت هذه التسبحة أو هذا المزمور يحمل صدى لكثيرٍ من التسابيح الواردة في سفر المزامير، خاصة المزمورين ١٢٠ و١٣٦.

جاءت هذه التسبحة نموذجًا عمليًا للشكر من أجل الخلاص من مؤامرات الأعداء الخفيين والظاهرين.

أ. **الرغبة في تسبيح الربّ:** قبل أن يعرض ابن سيراخ ما حلّ به، أوضح في البداية كما في النهاية رغبته الجادة في التسبيح لله [١، ١٢]، وكأن المؤمن سواء دخل في تجارب أو لم يدخل، فإن أعماقه لا تتوقَّف عن الشكر لله. إنما التجارب مهما بلغت حدتها تلهب القلب بالأكثر للشكر لله على أعماله معنا وسط الضيق.

ب. **خلاص ابن سيراخ من موتٍ مُحَقَّق** [٢-٦].

ج. **خلاص الله العجيب**، حين يشعر الإنسان بالعزلة ليس من معين يسنده، يتجلَّى الربّ في حياته كملكٍ ومخلّصٍ.

د. **استجابة الربّ لصرخات قلبه** [١٠].

هـ. **انطلاقه للتسبيح** [١٢].

أشكرك أيّها الربّ الملك، وأُسَبِّحك أنت الله مخلصي، وأشكر اسمك [١].

كشف ابن سيراخ عن شوقه للتسبيح للربّ ملكه ومُخَلِّصه. وفي اختصارٍ شديدٍ عَدَّد المخاطر التي لحقت به وأنقذه الرب منها، فقد تخلَّى البشر عنه، واقترب من الموت؛ لقد هَدَّدوه وأرادوا افتراسه.

سرّ التسبيح إدراك المؤمن لحقيقة الله أنه ملك الملوك ضابط الكل، والمُخَلِّص محب كل البشر. الله في أبوته للبشرية لن يتجاهل احتياجات إنسان، وفي عمله الخلاصي قادر أن يُقَدِّم لنا برّه الإلهي عوض خطايانا وضعفاتنا.

لأنّك أنت لي حصني ومعيني، وأنقذت جسمي من الهلاك، ومن فخّ اللسان النمَّام، ومن الشفاه الكاذبة. وتجاه الذين يقاومونني كنت لي عونًا وفديتني [٢].

يشبّه لسان النمّام بلدغات الحية السامة، تنشب في جسم الإنسان، وتبث سمها القاتل فيه. الله في تكريمه للإنسان أعطاه كمال الحرية. لكن إذ يسيء ما وهبه الله فيستخدم لسانه في النميمة وفمه في الكذب وينصب فخاخًا للأبرار، لا يسمح الله لعصا الخطاة أن تستقر على رأس البار (مز ١٢٥: ٣).

❖ قد يسمح الله أحيانًا لعصا الخطاة أن تصيب الأبرار، لكنه لا يترك هذه العصا تستقر زمانًا طويلاً. ما هي عصا الخطاة إلا قوتهم وسيادتهم وأذيتهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

بحسب رحمتك العظيمة واسمك من افتراسي كمُعَدّ للأكل، ومن أيدي طالبي نفسي، ومن المضايقات الكثيرة التي قاسيتها [٣].

يرى البعض أن أنشودة سيراخ هنا تشير إلى خلاصه من خطر قاتل بسبب اتهامات كاذبة قدمها إنسان مقاوم للحق ضد ابن سيراخ أمام أحد الملوك، وكان ابن سيراخ على وشك أن يُقتَل.

ومن الاختناق باللهيب الذي أحاط بي من كل جانب، ومن وسط النار التي لم أضرمها [٤].

خلال لهيب نار ظلم قاسي للغاية تُغلَق كل أبواب المعونة البشرية، ليفتح لنا الربّ باب مراحمه فنكتشف عمق محبته، وندرك حكمة تدبيره لحياتنا.

ومن عمق رحم الهاوية، ومن اللسان الدنس وكلام الكذب [٥].

نميمة لسان جائر أمام الملك. دنت نفسي من الموت، واقتربتْ حياتي من أسفل الهاوية [٦].

يرى البعض أن شخصًا مجهولاً أو عدة أشخاص قَدَّموا للملك أنطيوخس الثالث تقديرًا عن ابن سيراخ أنه خائن للملك.

أحاطوا بي من كل جهة، وليس من معين. تطلَّعتُ لعون الناس فلم يكن أحد [٧].

تذكَّرت رحمتك، أيها الربّ، وعملك الذي منذ القِدَم، لأنك ترفع الذين ينتظرونك، وتُخَلِّصهم من أيدي أعدائهم [٨].

فأرسلت من الأرض طلبتي، وصليت عن الاضطراب الذي يسببه الموت [٩].

إذ أُغلِقَت كل أبواب البشر في وجهه وجد في الالتقاء مع الله محب البشر السبيل للنجاة من ظلم الأشرار.

دعوت الربّ أبًا ربي: لكيلا يتركني في أيام الضيق، عندما لا يوجد لي عون ضد المتكبّرين. أُسَبِّح اسمك في كل حين، وأُرَنِّم له بتسبحة الشكر [١٠].

جاء حديثه عن الله "الربّ، أبو ربّي" [١٠]. من هو أب ربّي؟ لا يمكن أن نُفهم إلاَّ على ضوء الفكر المسيحي بخصوص أقنومي الآب والابن.

يُقَدِّم لنا ابن سيراخ تدريبًا عمليًا للتمتُّع باستجابة الله لصلاتنا، وهو أن نمزج صرخاتنا وسط الضيق بالشكر والتسبيح لله. وكما يقول **العلامة أوريجينوس** أن الشكر في وسط الضيق يكشف عن تسليمنا وثقتنا في الله صانع الخيرات. الشكر في وقت الفرج لا يُقارَن بعظمة الشكر وقت الضيق.

❖ إذ كان الخطر يُصاحِب قانون الوصية التي هي فخرنا، فلنتذكَّر قول الرسول: "خير لي أن أموت من أن يُعَطِّل أحد فخري" (١ كو ٩: ١٥). ويقول بإسهاب أكثر في موضعٍ آخر: "من سيفصلنا عن محبة المسيح، أَشدَّة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عُري أم خطر أم سيف؟" (رو ٨: ٣٥) هنا نتعلَّم بتعبير أقوى أن نطيع الوصايا، وكيف نُظهِر محبتنا الشديدة لله الذي قال: "إن أحبني أحد يحفظ كلامي" (يو ١٤: ٢٣)، وأيضًا في مواضع أخرى، لكي تنسكب الراحة في نفوسنا...

من هذه الآيات يتضح أن من يتعدَّى ولو على وصية واحدة، سيخضع للحكم العام، إذ أعلن الرب: "من رذلني ولم يَقْبَلْ كلامي، فله من يدينه في اليوم الأخير" (يو ١٢ :٤٨). والكلمات التي

تلتها أكثر رعبًا... (يو ٣: ٣٦)[1].

القديس باسيليوس الكبير

سُمِعَت صلاتي. إذ خلّصتني من الهلاك، وأنقذتني من زمان السوء [١١].

فلذلك أَشكرك وأُسَبِّحك، وأُبارِك اسم الربّ [١٢].

انتهى المزمور بالتسبيح كما في البداية، وهو في هذا يُشبِه المزمور ١٤٥.

٢. قصيدة في طلب الحكمة وإقامة مدرسة لتعليم الحكمة

ختم السفر بقصيدة مُرَتَّبة حسب الحروف الأبجدية العبرية، يمدح فيها الحكمة ويعتزّ بها، ويبحث عنها، كما يُقِيم مدرسة لتعليمها. هذه القصيدة تقابل القصيدة المرتبة أبجديًا في نهاية سفر الأمثال حيث يمتدح سليمان الزوجة الفاضلة. تطلع ابن سيراخ إلى الحكمة كما إلى الزوجة المقدسة، عطية الله لمؤمنيه. هذا وقد بدأ السفر بطلب الحكمة من الله، وختمه بفكرٍ إيجابي مُفرِح.

ترتيب القصيدة أبجديًا يمكن القارئ أن يحفظها بسهولة عن ظهر قلب، ويحسبها قصيدة شخصية له. وكأن ما ناله ابن سيراخ من نجاح في تمتعه بالحكمة الإلهية ليس أمرًا خاصًا به وحده، بل يشتهي كل إنسان أن يعتز بنواله إياها.

إذ كنتُ بعدُ شابًا وقبل بدء سفري، التمستُ الحكمة علانية في صلاتي [١٣].

إن كان قد سبق أن تحدَّث عن بركات الأسفار للتمتُّع بخيرات الآخرين، فإنه يؤكد هنا أن الأسفار وحدها لا تكفي، إنما وهو شاب قبل تجواله في بلاد كثيرة **كان يصلي علانية** مُعلِنًا عن حاجته إلى الحكمة! فهي ثمرة صلوات وتضرعات لكي تعمل نعمة الله، وتعطيه فهمًا لتمييز الخبرات الصادقة من الخبرات الفاسدة.

أمام الهيكل صلَّيتُ لأجلها، وإلى آخر حياتي سأسعى وراءها [١٤].

لما كانت الحكمة الإلهية ترفع الإنسان إلى الحياة المقدسة، لذلك كلما وقف أمام الهيكل المقدس يطلب من القدوس أن يهبه الحكمة. وكلما نال الحكمة التهب قلبه شوقًا إلى المزيد منها، ويبقى قلبه هكذا حتى اللحظة الأخيرة من حياته على الأرض! هكذا أبرز هنا أمرين غاية في الأهمية:

أ. لا يمكن عزل الحكمة الصادقة التي من عند الله عن الحياة المقدسة، لذا يطلبها في مخدعه كما يطلبها في الهيكل المقدس علانية دون خجلٍ!

---

[1] القديس باسيليوس الكبير: المعمودية المقدسة، ترجمة وإعداد الراهب القمص مرقريوس الأنبا بيشوي.

ب. يشعر أن الإنسان مهما بلغت حكمته لن يبلغ إلى كمال الحكمة، فيبقى يطلبها ما دام في الجسد إلى يوم رحيله من العالم.

ابتهج قلبي بزهرها كما بعنبٍ ينضج. ودرجت قدمي في طريقها المستقيم، ومنذ شبابي فتَّشتُ عنها [١٥].

يبرز ابن سيراخ لتلاميذه أنهم إذ يرون ما سكبته الحكمة عليه من فرح الروح ليس بالأمر الجديد، إنما منذ شبابه تعرَّف عليها وانطلق في طريقها وتمتع كما بزهورها التي في طريقها أن تصير عنبًا ناضجًا. بهذا يدفع تلاميذه بروح الرجاء والفرح أن يبدأوا رحلة الحكمة، حتى وإن كانوا لم يتمتَّعوا بالعنب الناضج بعد، أي الفرح العميق، فسينالون ذلك ما داموا مُثابِرين في الطريق.

أَمَلت أذني قليلاً وتَقَبَّلتها، ووجدت لنفسي تعليمًا كثيرًا [١٦].

هنا يدعو تلاميذه أن يميلوا أذنهم إلى صوت الربّ خلال الشريعة ليتقبَّلوا الحكمة، وينموا فيها خلال التعليم الكثير غير المنقطع.

وتقدمت بفضلها، أُمَجِّد الذي وهبني الحكمة [١٧].

إذ تَقَدَّم في معرفة الحكمة لم يتشامخ، إنما ألهبت هذه المعرفة قلبه بالتسبيح وتمجيد الله.

فإني عزمتُ أن أُمارِس الحكمة، وغِرْت على الخير فلم أخزَ [١٨].

تقدمه المستمر في معرفة الحكمة يدفعه للتصميم على ممارستها لا في تراخٍ، بل بغيرةٍ صادقةٍ واعتزازٍ بها دون الخجل منها حتى إن انتقده الآخرون.

سَعَت نفسي لأجلها، وامتحنت نفسي بحزمٍ في إتمام الشريعة. وبسطت يديّ إلى الأعالي، ونُحْت على جهلي لها [١٩].

كثيرًا ما يربط الحكمة بالشريعة، بل وبالسلوك فيها في جديةٍ وحزمٍ، خشية التهاون في السلوك خلال الانشغال بالأفكار الفلسفية الجافة. هذا السلوك لا يتحقَّق بدون معونة الله وممارسة التوبة. لهذا يربط نموه في الحكمة ببسط يديه إلى الأعالي والبكاء على جهله وخطاياه.

وجَّهت نفسي إليها، وفي الطهارة وَجَدتُها، ولأجلها اكتسبت قلبًا منذ البدء، لذلك لم أُترَك [٢٠].

يربط بين التمتُّع المستمر بالحكمة وطهارة اليدين والقلب، أي طهارة السلوك والعمل مع طهارة القلب والفكر.

تحرَّك قلبي في طلبها، لذلك اقتنيت اقتناءً صالحًا [٢١].

يؤكد أنه إذ يتحدَّث عن طهارة القلب، إنما يعني تحرك كيانه كله للتمتُّع بالقداسة وطلب الحكمة، لذلك حسب اقتناءها مكافأة عظيمة.

أعطاني الربّ اللسان كمكافأة، وبه أُسَبِّحه [٢٢].

"اللسان" هنا يعني القدرة حتى عن التعبير عما في قلبه من عذوبة واشتياق للتسبيح للربّ. هذه القدرة هي عطية إلهية وموهبة يلزم اضرامها.

اقتربوا مني أيها الغير مُتعلِّمين، وأَقِيموا في مدرستي [٢٣].

جاءت كلمة مدرستي "بيت همدراش" أو بيت التعليم، حيث كان ابن سيراخ يجتمع مع تلاميذه بكونهم أهل بيته، أو أسرته المحبوبة لديه. ما فعله ابن سيراخ هو ظل لعمل السيد المسيح الذي اختار تلاميذه الذين التصقوا به.

كانت المدارس مُلحَقة بالمجامع *synagogues*؛ وكان بعض القادة يطالبون بوجود مدرسة في كل قرية، ويلتزم كل طفلٍ بالالتحاق بها، وكان العلم لا ينفصل عن العبادة والحياة التقوية.

عاش الكاتب متفاعلاً مع كل الطبقات، يدخل إلى العمق فيما هو لبنيان البشر حسب ظروفهم الخاصة المتنوعة.

❖ وُجِّهت كلمة الله إلينا. أُعلِنَت لكي تنصحنا، وكما يقول الكتاب المقدس. "تسلَّموا التعليم في بيت التعليم. يُعطى التعليم لكي نتعلَّم، ومدرسة التعليم هي كنيسة المسيح.

لنسأل أنفسنا ما هو غرض هذا التعليم وغايته: من الذي يتعلَّم، ومن الذي يُقَدِّم التعليم. واحد يتعلَّم ليعيش حسنًا، وغاية تعلُّمه ليعيش حسنًا هو أن يعيش أبديًّا. يتعلَّم المسيحيون بهذا الهدف، والذي يُعلِّم هو المسيح[1].

القديس أغسطينوس

لماذا تقولون إنَّكم في عوزٍ لهذه الأمور، وإنّ نفوسكم عطشانة جدًا؟ [٢٤]

يتساءل ابن سيراخ كيف طال وقت عطش تلاميذه، فليتقدَّموا إذن بروح الصلاة ويشربوا، فإنه الله مستعد أن يُقَدِّم لهم الحكمة. وكما جاء في سفر الأمثال: "هلموا كلوا من طعامي، واشربوا من الخمر التي مزجتها، اتركوا الجهالات فتحيوا، وسيروا في طريق الفهم" (أم ٩: ٥-٦).

فتحتُ فمي وتكلَّمتُ: اقتنوا الحكمة لكم بدون ثمنٍ[2] [٢٥].

---

[1] *Sermon 399:1:1.*

[2] *Money.*

يؤكد ابن سيراخ لتلاميذه أنهم بلا عذرٍ، فإن الحكمة لا تُبَاع بالفضة، مقدمًا نفسه مثالاً أنه فتح فمه بغيرة صادقة واشتياق وإيمان فنالها.

كان التعليم في التقليد اليهودي مجانيًا، وكان الربيون الذين يعلّمون في المدارس يعتمدون في معيشتهم على وسائل أخرى، وفي وقتٍ متأخر كانوا يعملون في التجارة[1]. جاء في المشناة: "إن كنت تتعلَّم الكثير في الشريعة، فستنال مكافأة عظيمة، والملتزم بهذه المهمة (الله) أمين يُقَدِّم لك مكافأة عملك[2]."

ضعوا رقبتكم تحت نيرها، ولتَقْبَل نفوسكم تعليمها. إنها قريبة فتجدوها [٢٦].

الحكمة لا تُفارِق من تمتَّع بها، بل تصحبه في القبر، وتنقذه من مخالب الجحيم. هي قريبة منّا، لأن المسيح حكمة الله يقيم ملكوته فينا (لو ١٧: ٢١).

انظروا بأَعينكم كيف تعبتُ قليلاً، فوجدتُ لنفسي راحة كثيرة [٢٧].

يحثّ القارئ أن يخضع لنير الحكمة، فقد اختبر هو نفسه راحة عظيمة تحت هذا النير.

❖ الذي يغرق في صراعات بلا عددٍ من أجل الفضيلة، ويبلغ إليها، ويُحقِّق متاعب أكثر، فيحيا إلى النهاية مثل لعازر الذي تعب في أحزانٍ كثيرةٍ (لو ١٦)، ومثل أيوب الذي انهمك في صراعات ضد العدو. إنه يقول: "الذين ينهمكون في تعبٍ يستريحون (راجع أي ٣: ١٧). لذلك دعا الرب المُتعَبين والثقيلي الأحمال إلى الراحة (مت ١١: ٢٨).

الآن كيف يُقَال عن الذين يتعبون في الأعمال الصالحة ثقيلي الأحمال؟ لأن: "الذاهبين ذهابًا بالبكاء، حاملين بِذَور الزرع، مجيئًا يجيئون بالترنُّم حاملين حزمهم" (مز ١٢٦: ٦) مملوءة بالثمار، التي رجعت إليهم من غرسهم البذور. لذلك يُقَال إنهم ثقيلو الأحمال، هؤلاء الذين غرسوا بوفرة وحصدوا بوفرة (٢ كو ٩: ٦)، وبفرحٍ أبديٍ يلقون على أكتافهم حزم الثمار الروحية. إذن، الذي يخلص بواسطة الله، الذي يُقَدِّم له فداء، يتعب في هذه الحياة، وبعد هذا يعيش إلى النهاية. إنه لا يرى فسادًا، عندما يرى الحكماء يموتون.

الذي يختار الطريق الضيق والكرب عوض الواسع والرحب، ففي وقت افتقاد الله، عندما يُلقَى هؤلاء الذين لم يؤمنوا بكلمات الله، بل يسيرون وراء شهوات قلوبهم الباطلة في عقوبة أبدية، أقول إنه لا يرى الدمار الأبدي، البؤس الدائم. لكنه يقول بالحقيقة إن الحكماء قد تدرَّبوا على الخبث.

---

[1] *The Cambridge Bible Commentary, Ecclesiasticus, p. 261.*

[2] *Aboth 2; 16.*

ويقول إرميا بخصوصهم: "هم حكماء في عمل الشر، ولعمل الصالح ما يفهمون" (إر ٤: ٢٢). كما قيل أيضًا: "بينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء" (رو ١: ٢٢). "لأن حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله" (١ كو ٣: ١٩).

ولأن هذه الحكمة تجعل الناس جهلاء. يقول الله إنه سيُحَطِّم حكمة الحكماء، ويبطل فهم الفهماء. لذلك فإن هذه المعتقدات الباطلة والتي تُدعَى معرفة تجلب موتًا للذين يقبلونها. لكن هذا الموت لا يراه الذين خلصوا بواسطته، هذا الذي يُسر أن يُخَلِّص الذين يثقون في جهالة إعلانه[1].

القديس باسيليوس الكبير

اقتنوا التعليم بمقدار كثير من الفضة، فتكتسبوا بفضلها ذهبًا كثيرًا [٢٨].

في العدد ٢٥ يتحدَّث عن الفضة المادية، فإن الحكمة لا تُبَاع بمالٍ. أما هنا فيتحدث عنها بكونها التعليم بالشريعة، التي قيل عنها: "كلام الربّ كلام نقي، كفضة مصفاة في بوطة" (مز ١٢: ٦). أما المكافأة فهي اكتساب ذهب كثير. هذا الذهب يشير إلى عربون الحياة السماوية.

لتبتهج نفوسكم برحمته، ولا تخجلوا من تسبيحه [٢٩].

مارسوا عملكم قبل الوقت المُحَدَّد، فيُكافئكم في وقته المُعيَّن [٣٠].

يختم القصيدة، بل السفر كله بأن من يسعى بجدية لنوال الحكمة الصادقة يتمتَّع بعربون السماء، فتبتهج نفسه بمراحم الله، ولا يخجل من تسبيحه بلا انقطاعٍ. أما ثوابه ففي يوم الربّ العظيم حيث يتمتَّع بشركة المجد الأبدي، ويرى الله وجهًا لوجه.

من وحي سيراخ ٥١

لأُقَدِّم لك ذبيحة الشكر الدائم يا واهب الحكمة!

❖ ماذا أطلب منك يا حكمة الله المتجسد.

قَدِّس قلبي وحياتي، فأتأهَّل لنعمتك المجانية!

أُسَبِّحك على كل حال، ومن أجل كل حال، وفي كل الأحوال،

فأنت سرّ بهجة قلبي، وتُقدِّس كل حياتي.

❖ لترافقني في رحلة حياتي، فلا يتوقَّف قلبي عن تسبيحك.

---

[1] *Homily 19:5, (On Ps 48 LXX). Unto the End, A Psalm for the Sons of Core on the Prosperity of the Wicked.*

عطشت نفسي إليك، وجعت إلى حكمتك.
لترفع قلبي إلى سماواتك، وتسكب بهاءك في أعماقي.
تنطلق بي إلى أمجادك يومًا فيومًا!
إلى أن أراك وجهًا لوجه!

محتويات الكتاب

ملاحظات هامة ٥

بعض الاختصارات المتكررة – ملاحظات هامة

سلوكنا في صُحْبة حكمة الله ٧

مقدمة في يشوع بن سيراخ ٨

سفر يشوع بن سيراخ – قانونية السفر– حول الترجمة السبعينية – سمات السفر – بين سفر ابن سيراخ وسفر الأمثال – هل كان الكاتب كاهنًا؟ – تاريخ كتابة السفر ومكان الكتابة – غاية كتابته – اللغة – الكاتب وحفيده ابن سيراخ المترجم – شخصية واضع السفر – بُنية السفر وأقسامه – يرى آخرون أن السفر ينقسم إلى خمسة أقسام:

الأفكار اللاهوتية والعقيدية والسلوكية في الربّ ٢٤

أفكار ابن سيراخ – ١. معرفة الله وأسراره – ٢. المخافة الربّانية والحكمة والشريعة – ٣. الحكمة والعبادة المقدسة – ٤. الإنسان والكون – ٥. العدالة الاجتماعية والمثل الأخلاقية – ٦. اللسان – ٧. الأسرة المقدسة – ٨. الاهتمام بالوالدين خاصة في شيخوختهما – ٩. الشاب المتسيِّب والنساء – ١٠. الصداقة – ١١. الولائم والحفلات – ١٢. الخطية – ١٣. الكبرياء – ١٤. الاعتدال – ١٥. أخلاقيات المنع – ١٦. الحكمة والسيد المسيح – سيراخ يُعِدّ الطريق لإنجيل المسيح – سيراخ والديداكية – أورشليم أم أثينا.

من وحي سفر ابن سيراخ ٤٤

المراجع المستخدمة في ترجمة النص ومراجعة الترجمة ٤٦

القسم الأول: الحكمة في الشريعة [١– ١٠] ٤٧

مقدمة النص ٤٨

١. عظمة الشريعة والأنبياء – ٢. الاعتزاز بالمعرفة وتقديمها للغير – ٣. اعتزازه بالشريعة دون مهاجمة الثقافة البشرية.

الأصحاح الأول: يا لعظمة الحكمة! ٥٢

١. مصدر الحكمة وسماتها – ٢. الحكمة ومخافة الرب – ٣. الحكمة والوصية الإلهية.

من وحي سيراخ ١ ٧٩

ملحق سيراخ ١ ٨١

بين خائفي الرب والأشرار – مخافة الرب والحياة الاقتصادية – لنبدأ بالخوف البدائي – مخافة

الرب وسلّم الحياة الإيمانيّة.
الأصحاح الثاني: المؤمن التقي في مواجهة الضيقات ٨٤
١. خائف الرب في البوتقة – ٢. خائف الرب مملوء رجاءً – ٣. خائف الرب ينجو من ثلاث ويلات – ٤. خائف الرب والشبع بكلمة الله – تداريب عملية.
من وحي سيراخ ٢ ١١٠
الأصحاح الثالث: بركة الوالدين ١١٢
التزاماتنا من نحو الله ومن نحو والدينا – ١. الأبوة والبنوّة في الرب – ٢. بركة الطاعة وتكريم الوالدين – ٣. احتمال ضعفات الوالدين – ٤. الأسرة مدرسة الوداعة – ٥. الأسرة مدرسة العطاء.
من وحي سيراخ ٣ ١٣٠
الأصحاح الرابع: الحكمة قانون الأسرة الجامعة المقدسة ١٣٣
١. مسئوليتنا نحو المحتاجين كما نحو العظماء – ٢. طريق الحكمة المجيدة – ٣. قدسية الأسرة الجامعة والتحفُّظ من الشرّ.
من وحي سيراخ ٤ ١٥٥
الأصحاح الخامس: حياة الاستقامة ١٥٧
١. استقامة الإيمان – الإيمان والغطرسة – لا تستخف بطول أناة الله – خطورة الجسارة واليأس – ٢. استقامة الفكر والإخلاص.
من وحي سيراخ ٥ ١٦٩
الأصحاح السادس: الصديق الأمين والصداقة الإلهية ١٧١
من وحي سيراخ ٦ ١٩١
ملحق سيراخ ٦: الصديق الأمين دواء الحياة ١٩٣
الأصحاح السابع: بين الحب الإلهي والحب الأخوي ١٩٤
الاستقامة في الحياة العامة – بين الصداقة الإلهية والحب الإلهي – ١. الحب الإلهي وتجنُّب الشرّ – ٢. الحب الإلهي والسلوك اللائق في الشئون العامة – ٣. بين الحب الإلهي والعبادة بروح التقوى – ٤. استقامة الكلام والعمل والسلوك – ٥. استقامة الحياة العائلية – ٦. استقامة الحياة وحب كهنة الربّ – ٧. الحب الإلهي ومسئوليتنا نحو الفئات المنسية – ٨. الحب الإلهي والمجد الأبدي.
من وحي سيراخ ٧ ٢١٥

Queen Mary & Prince Tadros
Coptic Orthodox Church
Pope Shenouda III Center
283 DAVIDSONS MILL ROAD
SOUTH BRUNSWICK, NJ 08831
St. George Coptic Orthodox
Sporting - Alex. - Egypt

سعر الكتاب : ٣٠ جنية - أقل من التكلفة

77E